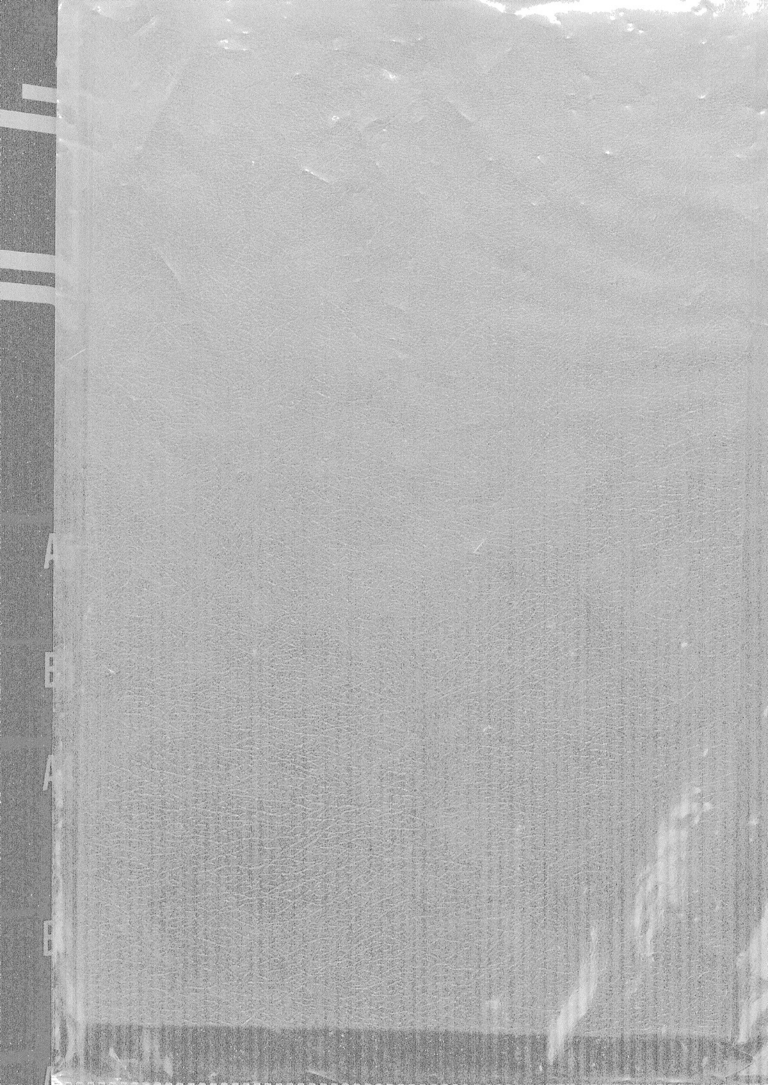


عالم الفكر

الملاحم والسير الشعبية

- الواقع والأسطورة في القص الشعبي
- الآداب الشعبية والتحولات التاريخية
- مفهوم الشر في الأدب الشعبي
- الفولكلور والتراث

المجلد السابع عشر - العدد الأول - إبريل - مايو - يونيو ١٩٨٦

"مجلة عالم الفكر"
قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات - والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية : -

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع فى نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة
وزارة الاعلام - الكويت - ص . ب ١٩٣
الرمزالبريدي 13002



رئيس التحرير: حمد يوسف الرومي
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * أبريل - مايو - يونيو ١٩٨٦
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

الملاحم والسير الشعبية

•••

شخصيات وآراء

•••

مطالعات

•••

من الشرق والغرب

•••

صدر حديثا

الدراسات التى تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر .

تمهيد

الواقع والأسطورة في القص الشعبي

من المشكلات التي تواجه الباحث الأنثربولوجي في دراسته للأدب الشعبي بمعناه الواسع الذي يشمل الأساطير والحكايات الشعبية والخرافات والسير والملاحم وما إليها مشكلة الحدود الفاصلة بين الأحداث الواقعية وإبداعات الخيال ، ونوع التفاعل القائم بينهما وتداخلهما معا في بناء الأسطورة أو السيرة أو الملحمة . وهذا موضوع صعب وشائك وشيق ويؤلف جانبا هاما من مجال أكثر اتساعا وتعقدا هو مشكلة العلاقة بين التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة والقص الخيالي بوجه عام ، ومحددات وعناصر ومكونات كل منهما والملامح التي تفصل بينهما على الرغم من أنهما يعبران ـ ولكن كلٌ بطريقته الخاصة ـ عن الوجود الإنساني ، كما يسهمان معاً في وصف الوضع التاريخي للانسان . فالمشكلة التي تشغل بال الكثيرين من المفكرين وبوجه خاص بعض المفكرين وعلماء الأنثربولوجيا البنائيين في السنوات الأخيرة وفي هذا المجال بالذات هي تحديد ذلك القدر من الواقع التاريخي ومن الخيال القصصي على السواء في كل من السرد التاريخي والسرد القصصي ومعرفة أين ينتهي التاريخ ويبدأ القص الخيالي . ومن الواضح أنه كثيرا ما يمتزج القص التاريخي بالحكي الخيالي في هذه (الأعمال) الأدبية الشعبية ويرتبطان معاً في وحدة عضوية يصعب التمييز فيها بشكل قاطع بين مختلف المكونات الواقعية والخيالية ـ أو حتى الأسطورية . وكما يقول بول ريكير إنه إذا كان التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة والسرد القصصي أو الروائي الخيالي يشتركان معا فيما يسميه بعض المفكرين البنائيين « فعل القص » ، فإنه يتعين علينا تحديد وتعيين ملامح هذا

« الفعـل » في كل من نـوعي « الخطاب » : الـواقعي والخيـالي ، ووظيفة هـذا « الفعل » في كـل منهما .[١]
والمهم هو وجود هذين العنصرين وارتباطهما دائما على كل مستويات « القص » وإنْ يكن ذلك بنسب مختلفة ، كما يقوم كل منهما بوظائف معينة بالذات حاول بعض الكتاب المفكرين تحديدها وتحليلها[٢] . ولكن هذه الجهود رغم أهميتها وطرافتها كثيرا ما توقع القاريء وبخاصة القاريء غير المتخصص في الحيرة . والمسألة على أي حال تحتاج إلى شرح وتوضيح وتقريب إلى القاريء العربي ، على اعتبار أن هذه الجهود تمثل مداخل جديدة لدراسة الأدب الشعبي خليقة بأن يلتفت إليها ويهتم بها الدارسون عندنا وأن يعمل البعض منهم على تطبيقها في مجالات القص الشعبي العربي ، لأن مثل هذه الدراسات من شأنها أن تثرى وتعمق فهمنا لتراثنا العربي وبخاصة التراث الشعبي الذي يلقى الآن كثيرا جدا من الاهتمام .

وحين يتكلم علماء الأنثربولوجيا والمفكرون البنائيون الذين نوليهم هنا عناية خاصة ـ عن الواقع والأسطورة في الأدب الشعبي فانهم لا يقصدون التمييز بين الوقائع التاريخية المحددة والأحداث الخيالية المفردة رغم أهمية ذلك ؛ وإنما هم يقصدون في المحل الأول معرفة الخصائص والمميزات العامة لمختلف المكونات التي تدخل في بناء العمل الأدبي الشعبي . بل الأكثر من ذلك أنهم قلما يهتمون بالتركيز على عمل أدبي واحد معين بالذات كأن يقتصروا على دراسة أسطورة واحدة فقط أو حكاية شعبية واحدة فحسب ويهتمون بها لذاتها ، وإنما هم يتخذون من ذلك العمل ـ في حالة الاقتصار عليه ـ مثالا يتعرفون منه ملامح القص الشعبي بوجه عام ، وذلك على اعتبار أن هناك احتمالا بوجود مباديء أساسية تكمن وراء كل هذه الأشكال من الأدب الشعبي ، مثل إمكان وجود حبكات plots معينة بالذات في لون معين من ألوان ذلك « الأدب الشعبي » كالأساطير مثلا أو السير أو الحكايات الخرافية في مناطق ثقافية واسعة من العالم . مثال ذلك أن عميد البنائيين الفرنسيين الأستاذ كلود ليفي ستروس Claude Levi- Strauss يرى أن الثقافة الانسانية يمكن التمييز فيها بين عدد من الوحدات الكلية أو الثقافات المختلفة ولا يستثني من ذلك ثقافة الشعوب البدائية ، كما أنه في غالبية تحليلاته للأساطير ، وربما باستثناء دراسته لقصة أزديوال Asdiwal كان يهتم بمشكلات المقارنة عبر الثقافات المختلفة . فالمنهج البنائي له في نظره قدرة عجيبة على اضاءة الطريق أمام الباحث لأنه يكشف له عن وجود أبنية ذات نمط موحد في « المنتجات الثقافية » التي تبدعها « الثقافات » المتباينة[٣] .

ولقد بذلت في الخارج كثير من الجهود الجادة في السنوات الأخيرة لتبيين الأساليب والوسائل التي ترتبط بها « الإمكانات المنطقية » التي تسبق عناصر ومكونات القصة أو الرواية لتكوين « الخطاب » الخيالي أو الأسطوري . ومعظم هذه المحاولات الحديثة تتبع أحد مدخلين : المدخل الأول يهتم بإبراز وتوكيد الجوانب الدلالية semantic « للعلامة » الأدبية ، بينما يهتم المدخل الثاني بإبراز وتوكيد « النظام العام » وذلك على حساب العناصر المكونة ، مثل « الوظائف » التي يهتم بها المفكرون الصوريون أو التشكيليون الروس من أمثال فلاديمير بروب Vladimir Propp

---

(١) Paul Ricoeur, Hermeneutics and Human Sciences; C.U.P., London 1981, p. 274.

(٢) Gregory L. Lucente; The Narrative of Realism and Myth, Johns Hopkins University Press, London 1981, p. 41.

(٣) Edmunbd Leach, "Introduction" in Edmund Leach and D. Alan Aycock; Structnralist Interpretations of Biblical Myth; Royal Anthropological Institute, C.U.P., London 1983, p. 1.

أو مشكلة التماثل والتحولات أو التحويرات التي اهتم بإبرازها ليفي ستروس في دراسته القيمة للأساطير التي ظهرت في كتابه الضخم ذي الاربعة أجزاء بعنوان « أسطوريات Mythologiques » حيث كان يهتم بتتبع (تحولات) الأسطورة الواحدة في أنماط معينة داخل مساحة ثقافية واسعة جدا من الأمريكتين . وواضح أن كلا المدخلين متأثر بالمدرسة اللغوية البنائية التي وضع أسسها فردينان دوسوسير والتي أصبحت تمثل أحد المعالم الأساسية في الفكر الاجتماعي والأنثربولوجي والأدبي المعاصر . وهذا المدخل الأخير ، أعني المدخل البنائي ، هو الذي سوف يستأثر بمعظم اهتمامنا هنا ، وإن كنا بالضرورة ونظرا لطبيعة الموضوع سوف نعرض للمدخل الأول حيثما اقتضى الأمر ذلك.، كما أن معالجة الموضوع سوف تتم في المحل الأول من زاوية ووجهة نظر البحث الأنثربولوجي البنائي .

فالعناصر والمكونات الواقعية والأسطورية على السواء تسبق « السرد » بالضرورة وإن كانت لا تكتسب فاعليتها كعناصر مكونة إلا عن طريق إعادة صياغتها أثناء عملية السرد . ولا يتعارض ذلك مع فكرة العلاقة القوية والفريدة بين « الخطاب » الأدبي والحياة الاجتماعية . وارتباط هذين النوعين من العناصر المكونة ـ أعني العناصر والمكونات الواقعية والأسطورية ـ بعضها ببعض بطرق وأشكال ونسب مختلفة يؤدي إلى ظهور مختلف أنواع القص الخيالي التي نطلق عليها اسم الحكاية الشعبية أو الأسطورة أو الخرافة أو السيرة الشعبية أو الملحمة(٤) . وربما كان أهم ما يميز المكونات والعناصر في الأسطورة هو خاصة التكرار ، فهي تظهر وتتكرر في مختلف الروايات وإن كانت تتخفى تحت صور وأشكال وعلاقات متنوعة لا يلبث أن يكشف التحليل عنها . وقد انتبه ليفي ستروس إلى تلك الخاصة واعتمد عليها في تحليله لذلك العدد الضخم من الأساطير التي يضمها كتابه « أسطوريات » والذي بلغ ثمانمائة وثلاث عشرة أسطورة ، كما انتبه إليها أحد كبار المتخصصين في دراسة الفكر الديني وهو ميرسيا إلياده Mircea Eliade في كثير من كتاباته(٥) . وإلى جانب هذه الخاصة الهامة التي يعتبرها البعض الخاصة الأساسية يشير بعض الكتاب إلى ما يسمونه « خاصة التعالي » ، ويقصدون بها الارتفاع أو التخلص والإفلات من قيود الزمان والمكان والتجربة اليومية الواقعية وتحديداتها ؛ وذلك فضلا عن التشابه والتماثل بين شخصيات القصص الأسطوري وهي شخصيات « مثالية » أو « نموذجية » في الأغلب . وهذه كل خواص تختلف كل الاختلاف عن مميزات مكونات « الواقعية » والقص الواقعي ؛ فهي عناصر ومكونات تتمتع بدرجة من الوضوح والتحديد في الزمان والمكان وتضم شخوصا غير مثالية ولها علاقات قوية بالتجربة اليومية العادية ، كما أنه يمكن إخضاع هذه المكونات كلها للتحليل بعكس المكونات والعناصر الأسطورية التي تخضع لمبادىء العقيدة والإيمان ـ بالمعنى الواسع ـ والتسليم المباشر بها .(٦)

وفي ضوء هذه المحكات تصبح المسألة المهمة التي تواجه الباحث البنائي بالذات في دراسته لأنواع القص الشعبي من سير وملاحم وأساطير وغيرها هي تعرف العلاقات المشتركة او « الانتماءات المتبادلة » ـ حسب تعبير ريكير ـ بين

---

(٤) Gregory L. Lucente, op. cit., p. 42.

(٥) انظر على سبيل المثال كتابيه الشهيرين :
Mircea Eliade, Le Mythe de l'eternel retour, Gallimard 1949; Le Sacre et le profane; Gallimard 1965.
وكذلك بعض كتبه الأخرى التي قد تكون أقل شهرة وانتشارا ولكنها لا تقل عمقا وطرافة وبخاصة كتابه الضخم (في ثلاثة أجزاء)
Histoires des crayances et des idees religieuses, Payot, 1976-83.

(٦) Lucente, op. cit., p. 42 and pp. 47-8.

« النزعة القصصية » أو السردية narrativity والنزعة التاريخية historicityبكل ما تتميزان بـه من خصائص وملامح . وليس هذا بالأمر السهل حتى بعد كل ما قلناه عن اختلاف خصائص المكونات الأسطورية والواقعية . بل إن مفهوم « السرد » نفسه يثير كثيرا من الصعوبات سواء فيما يتعلق بالتـاريخ أو العمـل الخيالي . فعـلى الرغم من أن « السرد » يعتبر مظهرا مشتركا في نوعي « الخطاب » فإن بعض المفكرين ينكرون أن التاريخ هو مجرد عملية سرد ورواية تدور حول شخصيات وأحداث متجسدة ومجسمة ومحددة بالذات ؛ بينما نجد من الناحية الأخرى من ينكر أن البعد الزمني في العمل الخيالي بعد أساسي لا يمكن الاستغناء عنه ؛ أو حسب التعبير الشائع في الكتابات البنائية « غير قابل للتقليص » .[٧] ولتوضيح ذلك فان الأمر يقتضي النظر في كل من السرد التاريخي الخيالي لكي نحدد جوانب التقائهما أو اختلافهما .

فمن ناحية نجد أنه لكي تعتبر « الواقعة » تاريخية بالمعنى الدقيق للكلمة كما يفهمها بعض البنائيين فإنه يجب أن تكون أكثر من مجرد حدث عرضي مفرد ، كما يجب تعريفها بالإشارة الى الدور الذي قامت به في تطويـر « الحبكة plot » . وهذا الفهم هو الذي يقوم بحلقه الوصل بين « تاريخ المؤرخين » و « القص الخيالي »[٨] .

ولكن ما المقصود بالحبكة plot ؟

تقول دائرة المعارف البريطانية عن الحبكة إنها :

« في القصص الخيالي هي بناء الأفعال التي يقوم بينها علاقات متبادلة والتي يتولى المؤلف اختيارها وترتيبها عمدا وعن قصد . وتتضمن الحبكة مستوى من الترتيب « السردي » أعلى مما يوجد عادةً في القصة أو الخرافة . وعلى ما يقول E. M. Forester فان القصة هي « حكي لأحداث مرتبة حسب تتابعها الزمني ، بينما الحبكة تنظم الأحداث تبعا لإدراك ما بينها من أسباب وعلل » .

« وفي تأريخ النقد الأدبي خضعت الحبكة لعدد من التفسيرات المختلفة . ففي كتابه « فن الشعر » يعطي أرسطو أهمية قصوى للحبكة mythos ويعتبرها « روح » التراجيديا . ولكن النقاد المتأخرين كانوا يميلون إلى رد الحبكة وتقليصها إلى مجرد وظيفة أكثر آلية ، حتى جاء العصر الرومانتيكي حيث هبط المصطلح نظريا إلى مجرد إطار تخطيطي موجز يمكن تعليق محتوى القصة الخيالية عليه . وكان الاعتقاد السائد هو أن مثل هذه المخططات الموجزة توجد منفصلة عن أي عمل معين بالذات ، وأنها قابلة للاستعمال أكثر من مرة ، كما أنه يمكن التبديل بينها ، وأن المؤلف يمكنه إسباغ الحياة عليها عن طريق تطوير الشخصيات والحوار وغير ذلك من العناصر »[٩] .

ولا يكاد مجدي وهبة يخرج عن ذلك في تعريفه للحبكة في كتابه « معجم مصطلحات الأدب » حيث يقول : ـ « ينص أرسطو في كتابه (فن الشعر) على أن الحبكة هي قلب التراجيديا . فقد ذكر الحبكة في الفصل السادس

---

(٧) Paul Ricoeur, op. cit., p. 275.

(٨) Ibid, p. 277.

(٩) Encyclopaedia Britannica "Plot", in Micropaedia, vol. VIII, P. 47.

من كتابه بقوله : « فالقصة (أي الحبكة) إذن هي نواة التراجيديا والتي تنزل منها منزله الروح ، . . . ثم يبدأ أرسطو فصله السابع قائلا : « فلنبحث كيف ينبغي أن يكون نَظْم الأعمال (أي الحبكة) . إذ كان ذلك أول شيء وأعظم شيء في التراجيديا . وقد سبق لنا القول إن التراجيديا هي محاكاة فعل كامل تام له عِظَم ما . . . ، فوحدة الحبكة في نظره نتيجة لعلاقة الضرورة والسببية بين أحداث المسرحية . ولا تعتبر وحده الشخصية الأساس في الترابط . وقد ورث نقاد الأدب في عصر النهضة بإيطاليا وفي القرن السابع عشر بفرنسا نظرية أرسطو في ضرورة الحبكة . وقد أدت هذه النظرية إلى فكرة الوحدات الثلاث التي شاعت في كتابة المسرحيات منذ القرن السابع عشر ، كما يمكن اعتبار نشأة الرواية النثرية بأوروبا راجعة إلى تطبيق فكرة الحبكة على القصص النثري . وفي الوقت الحاضر نجد الرواية والمسرحية تتراوحان بين التزام الحبكة وعدم التزامها لأغراض جمالية »[١٠] .

فالقص ـ أيا كان ـ يصف تتابع الأحداث وتسلسل أعمال وتجارب عدد من الشخصيات الحقيقية او المتخيلة . وقد تظهر هذه الشخصيات في مواقف مختلفة وتستجيب للتغيرات التي تطرأ على هذه المواقف . كما أن هذه التغيرات تكشف بدورها عن بعض الجوانب الجديدة أو الخفية في تلك الشخصيات وتساعد على ظهور مواقف جديدة تستدعي التفكير أو الفعل أو الاثنين معا .[١١] فكأن تتبع القص أو الحكي يتطلب إذن فهم الأفكار والأفعال والمشاعر المتتابعة التي تتكشف أثناء السرد والتي يفترض أنها تعبر عن اتجاه معين . ومن هنا تعتبر خاتمة القص أو نهايته بمثابة « القطب » الذي تنجذب نحوه العملية كلها وتتجه إليه ، وإن كان يصعب مع ذلك التنبؤ بتلك الخاتمة أو النهاية التي يهدف إليها السرد . وهذه مسألة على جانب كبير من الأهمية ؛ إذ لن يكون هناك قص أو حكي بالمعنى الدقيق للكلمة إلا إذا ظل انتباه السامع أو القارىء مشدودا ومرتبطا بكثير من الاحتمالات والمفاجآت التي تظهر أثناء السرد والتي تساعد على الاستمرار في تتبع الحكاية حتى نهايتها . ولعل خير مثال لذلك هو ما يحدث أثناء سرد الملاحم العربية الشهيرة وبوجه خاص سيرة أبو زيد الهلالي من استثارة الراوي او المنشد لتوقعات الجمهور . وعلى أي حال فإننا لو نظرنا إلى الخاتمة وعدنا بالذاكرة إلى الوراء واسترجعنا أحداث القصة أو الحكاية باطراد وانتظام إلى الخلف حتى البداية فسوف نجد أن تلك الأحداث كانت أحداثا ضرورية ولا غنى عنها للوصول إلى تلك النهاية . فكأن تلك النهاية المعينة بالذات كانت تتطلب تلك الأحداث وتلك الأفعال المعينة بالذات أيضا .[١٢]

وكل هذا يدفعنا إلى القول إن القص أو الحكي ، أيا كان نوعه ، يعكس بعدين متعارضين ولكنهما متكاملان .

البعد الأول بعد تاريخي أو زمني يعبر عن نفسه ليس فقط في سرد الأحداث التي وقعت بالفعل أو التي يتخيل (المؤلف) أو الراوي حدوثها ، وإنما أيضا في توقع ظهور أحداث طارئة او مفاجئة تؤثر في سير الحكاية وتطورها . ويظهر هذا التوقع بوضوح في تلك اللهفة التي يحس بهاالقاريء والتي يبديها المستمع اثناء عملية السرد لمعرفة سير الأحداث التالية ، والتي كثيرا ما تترجم عن نفسها في بعض التساؤ لات لاستعجال معرفة النتيجة التي أدت إليها هذه الاحداث : (وماذا حدث بعد ذلك ؟ وما النتيجة ؟ وبعدين ؟. . الخ) .

---

(١٠) Magdi Wahba; "Plot", in a Dictionary of Literary Terms, Librairie du Liban, Beirut 1974, pp. 411-12.

(١١) Ricoeur, op. ccit., p. 277.

(١٢) Loc. cit.

ولكن « نشاط الحكي » أو « النشاط القصّي » ـ حسب تعبير بول ريكير ـ لا يتوقف عند حد السرد البسيط الذي يقوم على إضافة الأحداث بعضها الى بعض ، وإنما هو يرمي في آخر الأمر الى تكوين « وحدات كلية ذات معنى » من تلك الأحداث المفردة المتفرقة . وهذا هو ما يفعله القارىء أو المستمع في حقيقة الأمر اثناء متابعته الرواية أو عملية السرد ، إذ يجاهد في سبيل إدراك الوحدة الكامنة وراء هذه الأحداث . ففن الحكي ومتابعته أثناء رواية القصة أو الحكاية وسرد أحداثها يتطلبان إذن القدرة على الاستنباط وتكوين صيغة عامة كلية من ذلك التتابع . وتكوين هذه الصيغة العامة الكلية هو الذي يؤلف البعد الثاني لنشاط الحكي او النشاط القصي ، وهو بعد « لازمني » وليست له علاقة بالوقت او التاريخ أو الأحداث المفردة من حيث هي كذلك . ولكن الملاحظ هو أنه على الرغم من أهمية هذا البعد فإنه لا يكاد يلقى ما يستحقه من عناية واهتمام ، لأن الكثيرين لا يؤمنون بقدرة الحكي او القص على ربط الأحداث بعضها ببعض والخروج منها بمثل تلك الصيغة وبخاصة حين يكون الأمر متعلقا بالآداب الشفاهية في الثقافات (البدائية) . وهو الأمر الذي كان يرفضه ليفي ستروس وأفلح في تفنيده في دراسته للأساطير . وعلى أي حال فإن قبول هذين البعدين معاً يعني أن بناء القص بناء معقد بل ولا يخلو من التناقض ؛ لأن كل قص يمكن تصوره في حدود وألفاظ التعارض بين البعد الزمني المتعلق بالأحداث والوقائع المشخصة العيانية والبعد اللازمني المتعلق بالصيغ العامة الكلية . وبذلك فان أبسط أنواع القص يعلو بكثير عن أن يكون مجرد سرد عدد من الأحداث الجزئية التي يتتابع حدوثها في الزمن . ومع ذلك فإن البعد اللازمني الخاص بالصيغ الكلية لا يستطيع من الناحية الأخرى أن يطغى على ذلك البعد الزمني او التاريخي المتعلق بالأحداث والوقائع العيانية أو أن يلغي دور هذه الأحداث ، لأن هذا معناه القضاء على « البناء القصي » ذاته[١٣] .

كذلك من الخطأ أن نتصور أن الحكاية تلزم القاريء أو المستمع بالمنظورات والأبعاد التي تنظر منها شخصيات تلك الحكاية إلى أفعالهم وتصرفاتهم وآرائهم ومواقفهم . بل الأمر على العكس من ذلك تماما ، إذ تتكون لديه أثناء متابعته للسرد وجهة نظر خاصة به عما يجري في القص من أمور وأحداث . وهي وجهة نظر مستقلة إلى حد كبير عن تلك التي يعبر عنها المؤلف أو الراوي أو المنشد والتي ترد أثناء السرد على ألسنة تلك الشخصيات ، بل وقد يختلف حكم القاريء او المستمع وتقويمه لتلك الافعال بحيث يصدر عليها وعلى اصحابها أحكاما تتعارض مع ما تعتقده تلك الشخصيات في أنفسهم وفي تصرفاتهم أو إنجازاتهم . فالجمهور لا يقبل إذن كل ما يسرد عليه دون تفكير أو تأمل كما أنه لا يقف من السرد موقف المتلقي السلبي فحسب . ونحن لا نتقبل مثلا بالضرورة كل أحداث السير الشعبية العربية وكل ما يرد فيها من تمجيد لأعمال الأبطال أو السخرية من خصومهم حتى وان كنا نعجب بهذه الأعمال ونتحمس لها أثناء السرد أو الرواية أو الإنشاد [١٤] ، وإنما نحن نخضع كل هذه الأحداث والروايات للتفكير والتأمل والتقييم ونتخذ

(١٣) Ibid, pp. 278-80

(١٤) يكفي لتبيين ما نريد أن نقول أن ننقل هنا بعض العبارات من كتاب الدكتور محمد رجب النجار : « أبو زيد الهلالي ، الرمز والقضية » ـ دار القبس الكويت ١٩٧٩ ـ يقول الدكتور النجار : « . . . لا غرو أن تحفل الملحمة الهلالية بالقوى الخارقة أو الغيبية (غير المنظورة) ، وأن يقف . . . الخضر عليه السلام إلى جانب أبي زيد . . . ومن ثم نلتقي بالخضر بعد ذلك مرارا لانقاذ أبي زيد وخلاصه من القتل إما بنفسه مباشرة . . . وإما بواسطة أحد أتباعه . . . ومن النيران ويكون تحديا رهيبا إلا أن البطل ينجح في اجتيازه إذا ما تلا اسم الله الأعظم وعندئذ تتحول النار بردا وسلاما وكأنها روضة من رياض الجنة » (صفحتا ٩٤ ـ ٩٥) .

كذلك يذكر في مجال آخر أن أبا زيد يتسم «بقوة جسدية غير عادية تؤهله للبطولة المادية . فكان الأمير أبو زيد من الجبابرة المعدودين في الحرب والقتال والطعن والنزال ، وكان جهوري الصوت ، وصيحته مثل صوت الرعد القاصف وأن صرخته في الميدان تهد الجبال الرواسي وتزلزل جيش الأعداء » ، (صفحة ٩٧) كما أن قوته الجسدية الهائلة كانت « تتيح له أحيانا مواجهة كتيبة أو قبيلة أو جيش ـ قوامه عشرة آلاف فارس ـ بمفرده أو في نفر قليل من أبطاله المخلصين » (صفحة ٩٨) وهكذا .

منها مواقف تختلف باختلاف المقومات الشخصية لكل منا وتتفق مع حسن إدراكنا للأمور . وهذا هو ما يطلق عليه مينك Mink تعبير « الحكم التأملي »(١٥) . وليس من السهل على أي حال دراسة هذه المواقف ووجهات النظر والأحكام التأملية . فمثل هذه الدراسة تحتاج إلى طرق وأساليب ومناهج ليس هنا موضع الحديث عنها وان كانت تستحق الاهتمام .

ومن الطبيعي ان تسقط البنائية من اعتبارها عنصر التسلسل الزمني الذي يتعارض تماما مع المنهج البنائي اللاتاريخي . فالبنائية هي في آخر الأمر « دراسة الأنماط » سواء في الحياة الثقافية او الاجتماعية او حتى الحياة الاقتصادية والسياسية ، كما أنها تهتم بالعلاقات بين الظواهر أكثر من اهتمامها بطبيعة تلك الظواهر . ويُعني المنهج البنائي عناية خاصة بفحص الأبنية « التحتية » اللاشعورية الكامنة وراء تلك الظواهر . ومن هنا كانت البنائية تهبط بالحبكة إلى مستوى الأبنية السطحية الظاهرة ، وهي بذلك تسلب الحبكة دورها في القص او الحكي وتجعل منها مجرد وظيفة ثانوية للصيغة العامة الكلية بحيث لا يمكن مقارنتها بالأبنية المنطقية الكامنة وراء الاحداث وتحولات هذه الأبنية . وربما كان من أهم ما يميز التحليل البنائي استخدام الطريقة الاستدلالية بدلا من المنهج الاستقرائي ، وذلك على أساس النماذج التي يتم تكوينها مسبقا وبطريقة شبه بديهية . فالتنوعات الهائلة في وسائل التعبير السردي من شفوية وكتابية ورسوم وأشكال وإشارات أو إيماءات ، وكذلك التنوع في أشكال الحكي او القص (من أساطير وفولكلور وحكايات وروايات وملاحم وتراجيديا وغيرها) كلها تجعل الالتجاء الى المنهج الاستقرائي مسألة غير عملية . وقد مهدت اللغويات الطريق بغير شك للطريقة الاستدلالية حين أعطت الأولوية للغة Langue من حيث هي نسق على الكلام parole الذي يعتبر بمثابة الحدث ، كما اعطت الأولوية للدال siginifiant على المدلول signifie . وهذه كلها امور معروفة وسبق لنا ان تعرضنا لها كما تعرض لها غيرنا ولذا فليس ثمة ما يدعو الى الدخول في تفاصيلها هنا مرة أخرى(١٦) ويكفي أن نقول أن اتباع نموذج العلامات والدلالات أو النموذج السيميولوجي في مجال الحكي والقص هو مصدر ذلك الميل العام الذي نجده في التحليل البنائي إلى التهوين من شأن التسلسل الزمني أو التاريخي للأحداث وإخضاع المظهر الزمني في عملية السرد الى الخصائص الصورية الكامنة في القص أو الحكي .

وهذه كلها أمور تختلف تماما عما تشير إليه الحبكة ، كما تخرج في الأغلب عن مجال اهتمام الكثيرين من الدارسين العرب في دراساتهم (لأحداث) الملاحم والسير وإغفال الأبنية التحتية العميقة الكامنة وراء تلك الأحداث (أو الظواهر) . وهذا لايمنع بطبيعة الحال من وجود بعض دراسات قليلة ومتفرقة اتبعت منهج التحليل البنائي في دراسة بعض صور الأدب الشعبي . ويحضرني على سبيل المثال تلك الدراسة الجادة التي قامت بها منذ سنوات الدكتورة فريال جبوري غزول لكتاب ألف ليلة وليلة ونشرتها بالانجليزية في القاهرة .(١٧) وقد يكون من الطريف والمفيد معا أن يقارن القاريء بين المنهج الذي اتبعته الأستاذة الدكتورة سهير القلماوي في دراستها الرائدة لليالي ومنهج التحليل البنائي الذي

---

(١٥) Ricoeur, op. cit., p. 279.

(١٦) يمكن للقاريء الرجوع في ذلك إلى مقالنا عن : « النصوص والاشارات : قراءة في فكر رولان بارت » . (مجلة عالم الفكر ، المجلد الحادي عشر العدد الثاني ، يوليو - اغسطس - سبتمبر ١٩٨٠ ، صفحات ٢٣٥ - ٢٥٤) .

(١٧) Ferial Jabouri Ghazoul; The Arabian Nights: A Structural Analysis; National Commission for UNESCO, Cairo 1980.

طبقته الدكتورة فريال غزول . ولازلنا على أي حال في حاجة إلى مزيد من مثل هذه الدراسات التي تطبق المنهج البنائي على الملاحم والسير الشعبية وغيرها من ألوان التراث والمأثورات الشعبية .

والذي نهدف إليه من هذا كله هو أن نبين أن المنهج البنائي في تحليله لألوان (الأدب الشعبي) الذي يدخل تحته السير والملاحم لا يعطي كثيرا من الاهتمام للأحداث المفردة الجزئية ولا لتسلسلها التاريخي وإنما يهتم بدلا من ذلك بمبادىء الفكر الأساسية الكامنة وراء تلك الأحداث (أو الظواهر) وذلك على اعتبار أن تتابع الأحداث مسألة ثانوية بحتة بالنسبة للبناء . ولذا فإن نفس البناء يمكن اكتشافه في أساطير أو في ملاحم أو في عدد من السير التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة . فعناصر الملحمة أو السيرة الشعبية الواحدة تتحور وبالتالي تتحول الملحمة أو السيرة الشعبية ذاتها إلى ملحمة أخرى أو إلى سيرة أخرى وهكذا ، بحيث ينتج في آخر الأمر مجموعة أو منظومة تتميز بثبات بنائها واطراده رغم اختلاف وضع عناصرها المكونة وترتيب هذه العناصر ، أي الأحداث ذاتها . وعلى هذا الأساس تكون الوسيلة الوحيدة لفهم الخصائص الأساسية للملحمة أو للسيرة الشعبية هي تفكيكها إلى أدق أجزائها وأصغر عناصرها المكونة . وقد اتبع ليفي ستروس هذا الأسلوب في دراسته للأساطير وأطلق على هذه الأجزاء أو العناصر الصغرى كلمة « ميثمات mythemes » أي أصغر وحدة أسطورية . والنتيجة الأخيرة المنطقية التي انتهى إليها ليفي ستروس من ذلك هي أن كل ما يمكن للأساطير أن تكشفه لنا عن المجتمع الذي وجدت فيه أقل بكثير جدا مما تكشفه عن أعمال الفعل ، وأن لها معنى عقليا أكثر منه اجتماعيا لأنها تصدر عن المنطلق العقلي الذي هو طبيعي ولا شعوري . ويمكن أن يصدق هذا على الملاحم وعلى السير الشعبية إذا نحن اتبعنا مثل هذا المنهج في دراستها . ولم تبدأ دراسة ليفي ستروس على أي حال من فراغ وإنما سبقتها بعض الجهود الهامة التي مهدت الطريق لها . وقد تكون هذه الجهود ـ على عمقها ـ أقل تعقيد أو أكثر بساطة مما توصل إليه ليفي ستروس . ولذا فقد يحسن بنا أن نشير إلى بعض هذه الجهود ، وبوجه خاص إلى أحد الأعمال الذي قلما يجد ما يستحقه من عناية واهتمام في عالمنا العربي رغم أهميته ، ونعني به دراسة المفكر الروسي فلاديمير بروب للحكاية الشعبية في روسيا .

●●●

كان الشكليون أو الصوريون Formalists الروس اول من أثار مشكلة بناء العمل الأدبي في العشرينات . ويعتبر كتاب فلاديمير بروب عن « مورفولوجيا الحكاية الشعبية »[١٨] كتابا رائدا ونقطة انطلاق في مجال « سيميوطيقا القص » . وقد نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٢٨ بالروسية ثم نقل إلى الانجليزية بعد ذلك بثلاثين عاما (١٩٥٨) ، وبعدها بخمس عشرة سنة أخرى ، أي في عام ١٩٧٣ تمت ترجمته إلى الفرنسية . وهذا في حد ذاته دليل كاف على مدى أهمية الكتاب وكيف أنه ظل مؤثرا طيلة ما يقرب من نصف قرن هي التي تفصل بين ظهوره في الروسية ونقله إلى الفرنسية . والواقع أنه لا يزال يعتبر حتى الآن احد المعالم الرئيسية للاتجاه البنائي في دراسة الحكاية الشعبية بوجه خاص وبقية أشكال الأدب الشعبي بعامة . . لقد كان بروب ـ حسب ما يقول بول ريكير في كتابه الذي أشرنا إليه من قبل (صفحة ٢٨٢) أول من زعم إمكان رد الروايات المختلفة للحكايات الشعبية الروسية إلى تنويعات على أصل قصصي واحد وفريد .

(١٨) Vladimir Propp; The Morophology of the Folktale; (2nd ed.) Texas U.P., Austin and London 1975.

وتقوم دراسة بروب على تحليل مائة حكاية من الحكايات الشعبية أو على الأصح الحكايات الخرافية التي تدور حول الجنيات . ولم يعط بروب كثيرا من الاهتمام لمحتوى هذه الحكايات أو مضمونها وإن لم يغفل ذلك تماما ، ولكنه كان يهتم في المحل الأول بالبحث عن الموضوعات المحورية الأساسية أو « الثيمات » المشتركة التي يتكرر ظهورها في تلك الحكايات بأشكال وصور مختلفة ، أي أنه كان يسترشد في دراسته وتحليله بمبدأي التماثل والتكرار ، وهما المبدآن اللذان استعان بهما ليفي ستروس بعد ذلك بسنين طويلة في دراسته لأساطير الهنود الحمر في الامريكيتين ومعرفة العمليات العقلية اللاشعورية التي توجه الفكر الإنساني . ويكفي أن نشير هنا إلى مثال واحد لهذه « الثيمات » التي لاحظها بروب والتي تتكرر بأشكال مختلفة في عدد كبير من تلك الحكايات : ـ

أ ـ الملك يهدي البطل نسرا ـ النسر يخطف البطل وينقله إلى مملكة أخرى .

ب ـ رجل متقدم في السن يهدي سوسنكو حصانا ـ الحصان يحمل سوسنكو إلى مملكة أخرى .

جـ ـ الساحرة تعطي إيفان قاربا ـ القارب يحمل إيفان إلى بلد آخر .

د ـ الأميرة تهدي إيفان خاتما ـ الخاتم يخرج منه أناس صغار الحجم يحملون إيفان إلى مملكة أخرى . . . وهكذا .[١٩] .

فعلى الرغم من اختلاف الأشخاص وأسمائهم وخصائصهم ومراكزهم الاجتماعية وغير ذلك من المقومات الشخصية فان هناك نوعا من التماثل والتشابه بين أفعالهم وتصرفاتهم مما يعني وجود وظائف معينة تؤلف عناصر ثابتة ولا تتغير في تلك المجموعة المعينة من الحكايات . أما الأحداث التي تتضمنها الحكاية ، أي مضمون الحكاية ومحتواها ، وكذلك الظروف المحيطة بها فهي كلها متغيرات ثانوية إذا هي قورنت بالوظائف الثابتة . وقد اقترح بروب نتيجة لذلك إقامة نظام نموذجي للحكايات الروسية يرتكز على عدد من الوظائف الأولية التي تكفي لتبيين الطريقة التي تعمل بها كل الحكايات الخرافية وبحيث تغطي هذه الوظائف كل الحكايات ، سواء تلك التي درسها أو التي لم يتطرق إليها .

ولقد كان من الطبيعي أن تنتهي معالجة بروب للحكايات الخرافية واستناده في هذه المعالجة على التحليل الشامل لكل ذلك العدد الهائل من الحكايات إلى الكشف عن عدد معين من تلك (الوظائف) ، كما بينت له أن الحكاية الخرافية الواحدة كثيرا ما تنسب أفعالا متشابهة أو حتى متماثلة إلى شخصيات متعددة ومتنوعة ، وأن الشخصية الواحدة كثيرا ما تقوم بأداء فعلين مختلفين أو أكثر باختلاف المواقف أو العلاقات . وقد ساعده ذلك الاختلاف والتنوع بغير شك على تحليل الحكايات في ضوء الوظائف المتعددة المتنوعة التي تقوم بها شخصيات الحكاية ، ولكنه أدى به في آخر الأمر إلى أن يكتشف أنه على الرغم من تلك الوفرة الظاهرية في التفاصيل وفي الأعمال والممارسات فان عدد الوظائف التي تكشف عنها هذه الممارسات والأعمال والعلاقات أقل بكثير جدا من عدد الشخصيات ؛ وأن هناك نوعا من المبالغة والمغالاة في

---

(١٩) Pierre Guiraud, Semiology, R.K.P., London 1975, pp. 77-8.

وقد ظهر الكتاب في الأصل في الفرنسية بعنوان .

La Semiologie Que Sais-Je; P.U.F., Paris 1971.

الحكايات الشعبية الروسية فيما يتعلق بتعدد الشخصيات وعددها رغم أنها تقوم بأدوار متشابهة وتؤدي وظائف محدودة للغاية[٢٠] . ومع ذلك فقد استطاع بروب أن يميز بين إحدى وثلاثين وظيفة مختلفة يمكن أن ترد إليها أعمال ونشاطات وعلاقات الشخصيات الكثيرة التي تضمنتها تلك الحكايات وتكشف عن « طريقة عملها » .

ولعل أهم هذه الوظائف التي يحرص كل الذين كتبوا عن بروب على أن يذكروها ويميزوها عن بقية الوظائف هي الوظائف السبع التالية :ـ

أ ـ الغياب أو الاختفاء (أي غياب واختفاء أحد أفراد العائلة) .
ب ـ الحظر أو التحريم (وهو يفرض على البطل نفسه) .
ج ـ الانتهاك (أي انتهاك الحظر وخرق التحريم المفروض على البطل) .
د ـ البحث عن المعلومات (ويقصد بها محاولة الشخصية الشريرة في الحكاية الحصول على معلومات معينة) .
هـ ـ الحصول على المعلومات .
و ـ الخديعة (محاولة الشخصية الشريرة خداع البطل أو أي ضحية أخرى والتغرير به) .
ز ـ المشاركة في الجريمة بغير قصد (حيث تتورط الضحية وتقع في الشرك وتساعد عدوها) .

وتكفي هذه (العينة) من الوظائف لتبيين الطريقة التي يعمل بها ذهن بروب ونظرته إلى الحكاية الخرافية والأسلوب الذي اتبعه في التحليل ووضع النموذج العام الذي يمكن في ضوئه دراسة الحكاية الخرافية .

ومع ذلك فقد ذهب بروب إلى خطوة أبعد من ذلك حين عمد إلى تبويب هذه الوظائف الإحدى والثلاثين ووزعها بين سبعة « مجالات للفعل » تناظر سبعة أنماط من الشخصيات (أو الممارسين كما يسميهم) ، ونجم عن ذلك (مجالات الفعل) التالية :ـ

(١) الشرير .
(٢) الواهب المعطى .
(٣) المساعد أو المعاون (أو الخادم) .
(٤) الأميرة وأبوها .
(٥) المرسل .
(٦) البطل .
(٧) البطل الزائف .

ولعل هذا يبين ما سبق أن ذكرناه من أن الشخصية الواحدة في الحكاية الواحدة يمكن أن تشترك في أكثر من مجال واحد من مجالات الفعل ، وأن عددا من الشخصيات المختلفة قد تشترك في مجال واحد معين بالذات . ولكن المهم هو أن عدد مجالات الفعل التي توجد في الحكايات الخرافية عدد محدود تماما كما هو الحال بالنسبة للوظائف الذي تؤلف هذه

(٢٠) Vladimir Propp., The Morophology of the Folktale, pp. 20-1; according to Terence Hawkes, Structuralim and Semiotics; Methuen, London 1977, p. 68..

المجالات ، وهذا معناه أننا إنما نعالج أبنية متكررة يمكن تعرفها وتحديدها وإدراك المبادىء الأساسية التي تكمن تحتها[٢١] .

وفي ضوء هذه التفاصيل التي يذكرها بروب عن الوظائف ومجالات الفعل وبالتالي (شخصيات) الحكايات الخرافية وما يتمثل في هذه الحكايات كلها من عاملي التماثل التكرار يمكن لنا تلخيص موقف بروب من « الوظيفة » التي يعطيها أهمية كبرى في التحليل في النقاط الأربع التالية التي تكاد تكون مبادىء أساسية تتعلق بالتجانس القائم بين هذه الحكايات من الناحية البنائية :ـ

(١) المبدأ الأول هو أن عدد وظائف الحكايات الشعبية أو الخرافية محدود (إحدى وثلاثون وظيفة) . وقد قام بروب بتحليل كل وظيفة من هذه الوظائف بدقة ، وليس هنا على أي حال مجال لعرضها بالتفصيل .

(٢) المبدأ الثاني هو أن تتابع الوظائف وتسلسلها متماثل دائما في كل الحكايات على الرغم من اختلاف الأحداث والشخصيات والظروف بل وأحيانا الهيكل العام لهذه الحكايات .

(٣) المبدأ الثالث هو أن هذه الوظائف التي ترتبط بشخصيات الحكاية تؤلف العناصر الثابتة في الحكاية وذلك بصرف النظر عن الطريقة التي تتحقق بها هذه الوظائف ، وكذلك دون أى اعتبار للأشخاص أو الشخصيات التي تتحقق هذه الوظائف من خلالهم ، وذلك على اعتبار أن هؤلاء الأشخاص يختلفون من حكاية لأخرى كما أن الأفعال والتصرفات التي تتحقق بها تلك الوظائف متغيرة هي أيضا .

(٤) أما المبدأ الرابع والأخير فهو أن كل الحكايات الخرافية تؤلف نمطا واحداً من حيث البناء[٢٢] .

وقد يختلف الكتاب في ترتيب هذه المبادىء ولكنها كلها تؤلف على أية حالة وحدة متكاملة كما تلخص نظرة بروب إلى الدور الذي تلعبه الوظيفة في تحليل الحكاية الشعبية . واهتمام بروب بالوظيفة يربطه بغير شك بالبنائية والتحليل البنائى الذى اتخذ هذا الاسم بعد ذلك على أيدي ليفي ستروس وأتباعه . وقد لعبت هذه الوظائف الإحدى والثلاثون دوراً هاما في كل تفكيره ، إذ أنه يتخذ منها أساساً لتصنيف الحبكات بالإشارة الى وجود هذه الوظائف أو عدم وجودها وبحيث كان يرى أنه يمكن تكوين أربع (فئات) من الحبكات هي : الحبكات التي تقوم على الصراع والفوز ؛ والحبكات التي تدور حول الاضطلاع بمهام صعبة أو خطيرة وإنجاز هذه المهام ؛ والحبكات التي ترتكز على هاتين المجموعتين من النشاط والأعمال والوظائف ؛ ثم أخيراً الحبكات التي تقوم دون حاجة إلى الالتجاء لأي من هاتين المجموعتين من الوظائف[٢٣] .

وقد يكون من الصعب تعريف الوظيفة بعيدا عن السياق الذي تدخل فيه وبعيدا عن (الوضع) أو (المكان) الذي تشغله في عملية السرد ، خاصة وأن الأفعال المتماثلة يمكن أن يكون لها وظائف ومعاني مختلفة في موقفين مختلفين أو

(٢١) Hawkes, Loc. cit.

(٢٢) Ibid, p. 69..

(٢٣) Valdimir Propp, op. cit., p. 92, according to Jonathan Culler; Structuralist Poetics; R.K.P., London 1975, p. 208.

حكايتين مختلفتين مما يوجب تصنيف هذه الأفعال والأحداث تحت وظائف مختلفة . فالبطل قد يبني قلعة أو حصنا إما لإنجاز مهمة صعبة كان مقدراً له أن يضطلع بها ويحمل عبئها ، وإما لكي يحمي نفسه من الشخصية الشريرة التي تقف له بالمرصاد وتريد أن توقع به الشر ؛ وإما للاحتفال بزواجه من الأميرة ، وهكذا . وبذلك نرى أنه في كل حالة من الحالات يمكن أن يُستبدل بأي فعل أفعال أخرى مختلفة وبحيث تكون لهذا الفعل الجديد علاقات جديدة بتلك الأفعال السابقة له والأفعال اللاحقة به وبذلك تختلف وظيفة ذلك الفعل في كل حالة بحسب السياق الذي يدخل فيه . فكأن الذي يحدد وظيفة أي عنصر بل وأي جزئية من الجزئيات هو علاقتها ببقية السياق . فالوظائف ليست مجرد أفعال ، وإنما هي الإسهام الذي تسهم به هذه الأفعال في الحكاية ككل . ودور التحليل البنائي في هذا الصدد هو الكشف عن هذه الوظائف حتى يمكن فهم أهمية كل عنصر في النسق العام الذي يتخذ شكل الحكاية أو القصة أو الملحمة أو غير ذلك .

●●●

ونكتفي بهذا القدر عن فلاديمير بروب ومعالجته للحكايات الشعبية وأسلوبه في التحليل (البنائي) الذي يقوم على افتراض إمكان رد (أو تقليص) النص ـ أيا كان ـ إلى عناصر تستمد معناها من نسق العلاقات التي تدخل هذه العناصر ذاتها أطرافا فيها ، وبذلك فإن هذه العناصر لا تستمد معناها من المحتوى أو المضمون التاريخي . ولم يكن هدفنا هنا الحديث بالتفصيل عن آراء بروب كما عرضها في كتابه « مورفولوجيا الحكايات الشعبية » وإلا كان الحديث اتخذ مساراً آخر مختلفا وتعرض لكثير من آرائه التي أغفلناها عمدامثل رأيه في نوعي التنظيم البنائي : الأفقي أو التوزيعي والرأسي أو الاستبدالي والأسس اللغوية التي أثرت في معالجته لهذه الأمور . فهذه كلها مسائل مهمة ولكنها تخرج عن المجال الذي نتحرك فيه هنا،ولكنها تحتاج بغير شك إلى معالجة أدق وأشمل وأعمق وقد نعود إليها في وقت لاحق وفي موضع آخر . ومع ذلك فلابد لنا من أن نشير إلى قوة تأثير آرائه ومنهجه وأسلوبه في التحليل وكيف ظهر ذلك لدى عدد من المفكرين والكتّاب الفرنسيين الذين اهتموا بدراسة « القص » أو الحكي ووظيفة الحبكة كما هو الشأن بالنسبة لجريماس Greimas،أو حتى لدى رجل مثل ليفي ستروس في دراسته للأساطير .

وقد خضعت آراء بروب بطبيعة الحال إلى كثير من النقد والاعتراض حتى من الذين قبلوها في مجملها وتأثروا بها وتابعوا السير في الطريق نفسه . وربما كان رأيه في الوظيفة وتحديده لعدد الوظائف من أكثر الموضوعات تعرضا للنقد حيث اعتبر الكثيرون ذلك العدد نوعا من التعسف ، وأن الفكرة كانت خليقة بأن تكون أكثر إقناعا للباحث الذي يهتم بالتحليل البنائي لو أن بروب اعتبر كل هذه الوظائف مجرد تحولات أو تحويرات لثلاثة أو أربعة عناصر أساسية فحسب وعمل على رد كل هذه الوظائف إلى تلك العناصر الأساسية ، أو على الأصح ـ تقليص هذه الوظائف إلى ذلك العدد القليل المحدود . وليفي ستروس في مقاله عن « التحليل المورفولوجي للحكايات الروسية L'Analyse morpho-logique des contes russes استطاع أن يقلص عدد الوظائف عن طريق تجميع تلك الوظائف التي تقوم بينها علاقات منطقية ، وبذلك اعتبر « الانتهاك » مثلا هو عكس « المنع » أو الحظر والتحريم ، واعتبر الحظر والمنع والتحريم « تحولا » سلبيا للنصح أو الأمر أو التوصية وهكذا[٢٤] . كذلك نحن نعرف أن ليفي ستروس استعان بتحليل بروب في

(٢٤) Culler, Ibid, p. 213

دراسته للأساطير كما ذكرنا أكثر من مرة ، فتحليل بروب يعتمد على إرجاع ورد القص أو الحكي أيا كان إلى عناصر أساسية وهذا هو ما فعله ليفي ستروس بالضبط في محاولته التدليل على أن المعنى لا يكمن في « الحبكة التاريخية » ولا يوجد فيها ولكنه يوجد في بناء العناصر الصورية الثابتة ، أو ما يمكن تسميته « الثوابت الصورية » التي يطلق عليها كلمة « مثيمات mythemes » (أي الوحدات الأسطورية) وهذا واضح بجلاء في تحليله لأسطورة أوديبوس[٢٥] التي يستشهد بها معظم الذين كتبوا عن ليفي ستروس .

●●●

ولكن ربما يكون جريماس قد تفوق على ليفي ستروس في هذا المجال . فقد عمد مثله إلى تقليل عدد الوظائف التي قال بها بروب عن طريق الربط بينها بعضها وبعض ، وخرج من ذلك بعشرين وظيفة فقط ذكرها في كتابه عن « السيمانتيكا البنائية La Sémantique Structurale أو (علم الدلالة البنائي) . ولقد كانت معظم جهود جريماس موجهة نحو تحديد أو إيجاد (أجرومية) للقص يمكن فيها لعدد محدد من العناصر أن تؤدي ـ عن طريق ترتيبها في عدد محدد من الأشكال ـ إلى قيام الأبنية التي نصفها بأنها ألوان من القص أو الحكي . ولكن جريماس يختلف عن بروب في أنه يرى القص بناء سيمانتيكيا أو دلاليا يماثل الجملة ويخضع لنوع ملائم من التحليل[٢٦]. لذلك عمل جريماس على تقليص « مجالات الفعل » السبعة التي قال بها بروب واختصرها في ثلاثة (أزواج) متقابلة مما أطلق عليه اسم « المعاملين actants » . وكان هدفه من ذلك التركيز على العلاقات الثنائية بين هذه « الأزواج » بدلا من الاهتمام بالجزئيات المفردة . وتقدم على هذا الأساس بتبويب جديد يضم ثلاث فئات جديدة قد تبدو غامضة ومعقدة لأول وهلة ولكنها تستحق عناء بذل الجهد في متابعتها ، على الأقل لكي نتبين كيف يهتم العلماء بأفكار بعضهم بعضا ويعملون على تطويرها عن طريق نقدها ثم الإفادة منها بعد ذلك في دراسات جديدة أكثر عمقا وجدية . وهذه الفئات الثلاث هي :

(١) الشخص بإزاء الهدف أو القصد أو الموضوع . وهذا يفترض وجود الفئات التالية في تصنيف بروب الذي سبقت الإشارة إليه : البطل (الشخص أو الفاعل) ثم الشخص المطلوب البحث عنه مثل الأميرة (الهدف أو القصد أو الموضوع) . وينتج عن ذلك الدمج كل أنواع القص الذي يدور حول مشكلات البحث عن شيء ما أو الرغبة في الحصول على شيء ما .

(٢) المرسل بإزاء المرسل إليه أو المتلقي والمستلم . وهذه الثنائية تكشف لنا ـ حسب رأي جريماس ـ عن سذاجة بعض مقولات بروب أو المجموعات التي تظهر في تصنيفه ، لأننا في هذه الفئات نجد أن المعامل actant الأساسي ـ وهو « المرسل » لا يلبث أن يظهر على أنه يلعب دوراً مزدوجا . فهو من ناحية يقوم بدور الأب (كما يبدو في المجموعة رقم ٤ عند بروب . ويختلط هذا الدور بموضوع الرغبة أو بالشخص المرغوب فيه أو الذي يتم البحث عنه) ولكنه من الناحية الثانية يظهر في المجموعة رقم ب (المرسل) . والواقع أن الدورين هما مظهران لمعامل واحد هو المرسل في فئة ينتج عنها في إحدى الفئات قصص يدور في عمومه حول الاتصال أو التواصل على ما يقول جيرو (صفحتا ٩١ ـ ٩٢) .

---

(٢٥) Guiraud, op. cit., p. 79.

(٢٦) Hawkes op. cit., p. 91.

(٣) المساعد أو المعاون بإزاء المعارض أو المناوىء . وهذه الفئة تفترض المجموعتين ٢ ، ٣ في تصنيف بروب بحيث نجد المعطي أو الواهب أو المساعد (أو الخادم) من ناحية ، ثم الفئة رقم ١ (الشرير) من الناحية الأخرى . كذلك فإن من المفروض أن الفئة رقم ٧ عند بروب (وهي فئة البطل الزائف) تقف موقف المعارض أو المناوىء من البطل الحقيقي وتلعب دوره ، ولو أن جريماس لم يشر الى ذلك[٢٧].

وهذا نفسه هو ما فعله في الحقيقة حين حاول تقليص الوظائف الإحدى والثلاثين التي قال بها بروب ليخرج علينا بقائمته التي تضم عشرين وظيفة فقط ، فقد تم ذلك الدمج بأن أخذ في الاعتبار إمكانات التقابل الثنائي بين الوظائف أو ما يطلق عليه كلمة couplage . وعلى ذلك ، فبينما يتكلم بروب عن « الحظر أو التحريم » و « الخرق أو الانتهاك » على أنهما وظيفتان منفصلتان يربط جريماس بين الاثنين ويدمجهما معا في وظيفة واحدة مزدوجة هي « التحريم بإزاء الانتهاك » وذلك على أساس أن هذين الطرفين يفترضان أحدهما الآخر ، كما أن فعل الخرق أو الانتهاك يتطلب أولا وجود تحريم أو حظر حتى يمكن تحديد ذلك الخرق أو الانتهاك (هوكس صفحة ٩٣) .

وعلى ذلك ، فالتقابل بين الحظر والخرق أو بين التحريم والانتهاك يمكن اعتباره جزءا من نمط للتقابلات أوسع نطاقا وأكثر شمولا بحيث لا يقتصر على تلك الوظائف العشرين فقط وإنما يتعداها .

وليس من شك في أن إصرار جريماس على الاهتمام « بالعلاقات » بين الوحدات الكلية entities بدلا من الاهتمام بالعناصر أو الجزئيات يضعه في صف البنائيين ، كما أن منهجه في التحليل السيمانتيكي يذكرنا بما يمكن اعتباره التزاما بنائيا أساسيا بتوضيح كل فكرة أو تصور أو طرف يبدو أنه ستاتيكي عن طريق ربطه إلى ذلك التقابل الثنائي الذي يؤلف أساس قبول وفهم تلك الفكرة أو ذلك التصور . وهذا في حد ذاته أيضا دليل وعلامة على بنائية جريماس على ما يقول هوكس (صفحة ٩٣) .

ولم يحاول جريماس أن يضع قائمة كاملة شاملة ولكنه حرص مع ذلك على أن يفرق ويفصل بين مختلف الأبنية المتمايزة التي يعتقد أنه يمكن التمييز بينها في القصص الشعبي . واستطاع بذلك أن يميز بين ثلاثة أنواع من تلك (الأبنية) أو مجالات التوزيع Syntagmes كما يسميها :

أ - النوع الأول هو الأبنية أو مجالات التوزيع التعاقدية Contractuels . وفيها يجد أن الموقف له صلة عامة بعقد الاتفاقات والتعاقدات أو الخروج منها أو نقضها ، كما يدخل في هذا النوع عمليات الاغتراب والعودة إلى الانتماء والاندماج وما إلى ذلك . فهنا نجد أن صدور التكليف وقبول ذلك التكليف معناه بالضرورة عقد اتفاق ، أو أنه إحدى صور الاتفاق والتعاقد ، بينما الخروج على قواعد التحريم أو خرقه هو فسخ أو نقض لذلك العقد أو الاتفاق أو التعاقد .

ب - النوع الثاني هو الأبنية أو مجالات التوزيع الأدائية أو التنفيذية Performanciels ويندرج تحت هذا النوع كل صور وأشكال المحاكمات والصراعات والاضطلاع بالمهام وما إلى ذلك .

جـ - وأخيرا فإن النوع الثالث من الأبنية هو محاولات التوزيع الانفصالية disjonctionnels ويدخل فيها كل أشكال الحركة والانتقال والسفر والرحيل والوصول وما إليها (هوكس ، صفحتا ٩٣ ، ٩٤) .

---

(٢٧) اعتمدنا هنا بشكل أساسي على العرض الطيب الذي قدمه هوكس **Hawkes** في كتابه السابق الذكر صفحات ٩١ - ٩٣ وكذلك على ما أورده جير و **Guiraud** في كتابه وكلا العرضين يتميزان بدرجة عالية من الوضوح والسلاسة اللتين تفتقر إليهما معظم الكتابات حول هذا الموضوع .

ومن الصعب على أى حال أن نعطي صورة كاملة وتفصيلية لآراء جريماس ومعالجته لهذا الموضوع ، بل إنه ليس ثمة ما يدعو إلى مثل هذه التفاصيل . وما سبق يكفي لتبيين المنهج الذي اتبعه في التحليل ، لأن المهم هو أن ذلك الموقف الذي يتخذه يمثل درجة من التقدم والارتقاء بآراء بروب وأفكاره الأصلية ، كما أن ذلك الموقف يهدف في آخر الأمر إلى نفس الهدف الذي كان بروب يرمي إليه وهو إقامة مجالات استبدال Paradigmes أساسية للحبكة والكشف عن إمكانات الترابط بين هذه المجالات الاستبدالية ، أي إقامة وتكوين ما قد يمكن للبنائيين أن يطلقوا عليه تعبير « متركب combinatoire » قصصي ، أي ميكانيزم لإنتاج وتوليد القصص والحكايات وألوان السرد المختلفة .

ولقد صدر هذا الموقف الذي اتخذه كل من ليفي ستروس وجريماس من الاعتقاد بأن فلاديمير بروب كان يضع الشكل أو الصورة على مستوى قريب من مستوى الملاحظة الأمبيريقية ، كما كانا يريان أنه بدلا من الانتقال مباشرة من « أفعال » الحكايات المفردة إلى تحديد الوظائف الإحدى والثلاثين التي قال بها فإنه كان من الأجدر به أن يعطى بعض العناية والاهتمام إلى الظروف والشروط والملابسات البنائية العامة التي يجب أن تحققها القصة أو الحكاية أو ألوان القص الأخرى كالملاحم والسير وإن لم يذكر هذين اللونين بالذات ، وأن يحدد بعد ذلك وظائفه باعتبارها مجرد مظاهر وتحولات لأبنية أخرى أكثر أهمية ورسوخا وثباتا[٢٨] كما فعل ليفي ستروس في معالجته ودراسته للأساطير .

ومن الطريف أن الأستاذ جوناثان كللر ينتقد جريماس فيما يذهب إليه ويتهمه بأنه كان يضع تحت مقولة واحدة أي مجموعة من الوظائف إذا رأى أن باستطاعته أن يخترع لها مصطلحا أو اسما يطلقه عليها دون أن يهتم كثيرا بأن يشرح لنا على أى أساس أقام هذا التصنيف أو التجميع والتبويب ، وأنه استطاع بهذه الطريقة أن يقرر وجود ثلاثة أنواع من التسلسل أو السياق ، أو ثلاثة أنواع من « مجالات توزيع » القصص أو الحكي دون أن يقدم لنا ما يبرر هذا التمييز أو يعمل على البرهنة والتدليل على صحة ما يذهب إليه أو يبين لنا ماذا يمكن تحقيقه من هذا التمييز . والذي يقصده كللر هنا هو « الأبنية » الثلاثة التي أشرنا إليها والتي يسميها جريماس مجال التوزيع الأدائي الذي يرتبط ويتعلق بالاضطلاع بالمهام والأفعال وأدائها ؛ ومجال التوزيع التعاقدي الذي يوجه الموقف أو الوضع إزاء هدف معين كأن يقبل شخص ما أداء عمل ما أو يرفض القيام به ، ثم مجال التوزيع الانفصالي الذي يتضمن الحركة والانتقال بأنواعها المختلفة . وهذا النمط الأخير يعتبر في رأي كللر نمطا هشا وغير محدد تماما (نفس المرجع والصفحة) .

وواضح من هذا كله تأثر هذا الاتجاه بالمدرسة اللغوية البنائية التي وضع فردينان دوسوسير أسسها والتي أثرت تأثيرا كبيرا في الفكر الفرنسي البنائي الذي يتبعه جريماس وليفي ستروس وغيرهما ممن تعرضوا لدراسة القص والحكي بأشكاله المختلفة وإنْ كان سبقهما إلى ذلك بروب والمدرسة الصورية الروسية على ما ذكرنا . فهذه كلها اتجاهات تتبع ما قد يمكن تسميته (علم الحكي والقص) Narratology وأجرومية القص . والمقصود بذلك المدخل محاولة الكشف عن « لغة langue » القص أو نسق القواعد والإمكانات الكامنة التي عن طريقها يمكن تحقيق « كلام parole » القص أو « كلام » الحكي ؛ أي النص ذاته[٢٩] .

---

(٢٨) Culler, op. cit., p. 213

(٢٩) David Lodge, Working with Structuralism; R.K.P., London 1981, p. 18.

وكما سبق أن ذكرنا أكثر من مرة فإن معظم الجهود في هذا المضمار جاءت على أيدي المفكرين الفرنسيين البنائيين بعد فلاديمير بروب . وأن أهم ما يميز هذا الاتجاه أو المدخل هو فكرة الوظيفة من ناحية ، وفكرة التحول من الناحية الأخرى .

من ذلك ما يذهب إليه جريماس حين يقول إن الحكي أو القص يتألف في المحل الأول من تحول موضوع أو قيمة من معامل معين إلى معامل آخر . فالمعامل يمارس أو يؤدي وظيفة معينة في القصة أو الحكاية ، وهذه الوظيفة يمكن تصنيفها على أنها شخص أو فاعل من ناحية أو على أنها شيء أو هدف أو موضوع من الناحية الأخرى ؛ كما قد يمكن تصنيفها على أنها مرسل أو مرسل إليه ؛ أو على أنها « مساعد » أو « مناوىء » . كذلك فإن هذا المعامل actant الذي يقوم بوظيفة معينة يشارك في أداء أمور وأشياء يمكن تصنيفها هي ذاتها على أنها أعمال أدائية مثل الخضوع للمحن والاختبارات والدخول في صراعات وما إلى ذلك ؛ أو على أنها أعمال تعاقدية مثل الدخول في اتفاقيات أو إنهاءونقض هذه الاتفاقات ، أو على أنها أعمال انفصالية مثل الرحيل أو العودة . وكل هذه أمور سبقت الإشارة إليها . ولكن الملاحظ هو أن هذه الوظائف يصعب تحديدها من مجرد النظر إلى البناء السطحي الخارجي للنص القصصي أيا كان ذلك النص . ويزيد من صعوبة ذلك أن أكثر من شخصية واحدة قد تقوم بأداء وظيفة معامل واحد ، أو قد تجمع الشخصية الواحدة بين وظائف أكثر من معامل واحد على ما ذكرنا . وقد يمكن تحديد كل هذه الأفكار وتعريفها دلاليا عن طريق علاقة ثنائية binary تتخذ إما شكل التقابل والتضاد (الحياة/ الموت) أو قد تتخذ شكل العلاقة السلبية (حياة/ لا حياة) مما ينتج عنه في آخر الأمر ظهور نموذج سيميوطيقي يمكن تمثيله على الشكل التالي :

الحياة : الموت :: لا حياة : لا موت

وبحيث أن كل أشكال القص أو الحكي يمكن أن نعتبرها تحولات معاملية وأعمالا تدخل في علاقة مماثلة ذات أربعة أطراف في معالجة الموضوعات الرئيسية على ما يقول ديفيد لودج (نفس المرجع ونفس الصفحة) .

والرأي الشائع هو أن هذا المدخل ـ رغم كل ما قد يقوم عليه من اعتراضات وانتقادات ـ يصلح للتطبيق على القصص التقليدية الصورية التي تنتقل عن طريق الحكي الشفاهي أكثر مما يصلح للنصوص الأدبية الأكثر تطورا ورقيا . والواقع أن أنصار « علم القص » أنفسهم كثيرا ما يذكروننا بأن هدفهم ليس هو تفسير النص بقدر ما هو الكشف عن النظام ـ أو النسق ـ الذي يؤدي إلى ظهور وتولد النصوص القائمة على الحكي ، كما أنه يتيح الفرصة لإدراك كنه هذه النصوص وفهمها . وليس من شك ان هذه الدارسة العلمية تظهر للناقد الأدبي بعض العوامل المهمة التي تدخل في قراءة مختلف ألوان الأدب الشعبي والتي ـ رغم أهميتها ووضوحها ـ أو ربما بسبب هذا الوضوح ـ كثيرا ما يغفلها القارىء أو على الأقل لا يعطيها ما تستحقه من اهتمام بل وقد لا ينتبه إليها على الإطلاق .

وما قصدنا من هذا الحديث إلا التنبيه على أمل أن تتاح لنا فرصة لتطبيق هذا المنهج على احدى الملاحم العربية في وقت آخر .

د. أحمد أبو زيد

***

الآداب الشعبية والتحولات التاريخية الاجتماعية مثال : سيرة بني هلال

عبدالرحمن أيوب

١ ـ النص العيّنة : سيرة بني هلال

ـ مقدمة منهجيـــة :

١ ـ ١ ـ ان الناظر في الآداب الشعبية العربية ، منذ أول اثبات شفاهي لها الى عيناتها الحاضرة ، يقف عند حقيقة لا مفر من الاعتراف بها وهي أن الآداب الشعبية حدث مستمر يواكب مسيرة البيئة التي ولّدته ويعيش بين احضانها . ولم تقطع حبل وصاله فاصلة تاريخية أو حادثة اجتماعية مهما كانت ظرفية . واستمرارية الآداب الشعبية شبيهة بالثبات المتحول/ المتطور للغة العربية (وصلة الرحم ان صح التعبير ، بينهما بديهية لا تحتاج لبرهان) التي هي كما قال الدكتور منصف المرزوقي : « لغة فريدة من نوعها ، لم يعرف ولن يعرف لها التاريخ مثيلا . قل لي أي لغة في العالم تحافظ على نفسها وتتطور بدون ادنى انقطاع منذ خمسة عشر قرنا كالعربية . نحن نقرأ ونفهم ما كتبه علي بن أبي طالب ، حتى الشنفري ، وهم (اللاتينيون) عاجزون عن فهم ما كتب بلغتهم لأربعة قرون خلت »[1].

١ ـ ٢ ـ ومهما يبدو هذا الحكم متسما بالتعميم المفرط الا أن معاينة الانماط الادبية المختلفة ، كل على حدة ، من شعر ونثر ، تخفف من حدة الافراط وتقيم الدليل على صدق التعميم . فعند قراءة الأدب الشعبي العربي منذ أول اثباتاته ـ يفترض أن يقع التمييز بين شيئين ، في حد ذاتها مكملين لبعضهما ، وأعني التمييز بين :

أ ـ أشكال تعابير ـ ما يطلق عليه بصفة عامة ـ المأثورات (الشفاهية/ المروية) الشعبية .

ب ـ مضامين هذه التعابير .

(١) « لماذا ستطأ الأقدام العربية أرض المريخ ؟ » منشورات دار الرأي د . ت . تونس ، ص ٤٢

جـ ـ الحيثيات « المحركة » للتعابير الشعبية ، من جهة ، والقائمة بدور « المطعم » لمضامينها من جهة ثانية : أي : التحولات التاريخية والاجتماعية . . . الأساسية التي عاشتها المجموعات العربية ولا تزال تواكبها .

١ ـ ٣ ـ وقد يكون من اليسير على الباحث أن يقيم الدليل على أن أجزاء من « أيام العرب » (وقائع البطولة) قد صُهرت في السير الشعبية على انواعها التي لا تزال تتناقلها الأفواه : وبعض الدراسات سعت لذلك فأثبتته ـ وقد لا يعسر على الباحث أيضا أن يثبت أن أقاصيص « ألف ليلة وليلة » قد اندمجت في القصص الشعبي السائر اليوم[٢] بل وأن بعض المحاولات الابداعية الحديثة قد اعتمدت هذه « الليالي » لتبني انتاجا أدبيا (في ميادين : القصة القصيرة والرواية والمسرح والسينما) يبدو في شكله حديثا وقديما في مضمونه وذلك بقصد اثبات استمرارية الصلة القائمة بين قديمنا وحديثنا[٣] .

أما الشاعر الحديث فما انفك يردد اليوم صرخة الشاعر القديم : « هل غادر الشعراء من متردم » . وليست الاشكالية المطروحة علنا أو في طيات « التجديد الأدبي القائم على الاستئثار بالموروث من الأدب العربي » مسألة تكرار المعاصرة للتراث ، شكلا ومضمونا ، بقدر ما هي الأعتراف ، ضمنا أو علنا ، بأن المخيلة الشعبية « مخيلة صاهرة » ـ استطاعت أن تكتنز الماضي الطويل ، وأن تبقى ـ رغم احداثات الزمن الظرفية ـ على الأسس المثبتة لاستمرارية (الأمة) الناقلة لتراثها (أي لذاتها) .

١ ـ ٤ ـ و « حركية » التاريخ لا ترصد سوى « المحنطات » في المتاحف . وأما « الحي » فقدره غير ذلك : فالشعر الملحون (أي المقول باللهجات الدارجة) لم يخرج بصفة قطعية عن موازين الشعر القديم : ولقد كان هذا الشعر شفاهيا[٤] وموازينه اعتمدت على « الحس الايقاعي » عند الشاعر ؛ ولم يطرق الشاعر الحديث بابا ايقاعيا غير هذا ؛ ولكن شتان بين ما تضمنه ذلك الشعر والشعر السائر اليوم . وعلى سبيل المثال : هل عالجت القصيدة العربية الى أواخر القرن الماضي « مأساة العمال في المناجم » (الشعر المنجمي) أو « في مصانع تكرير الصلب » . . . . وهل نجد بين تلك القصائد ما يطلق عليه « بشعر الفلاحين » . . . . الى غير ذلك .

١ ـ ٥ ـ ويستشف من هذه الأمثلة طرحا للموضوع الذي ستتناوله هذه الورقة . وبتعبير آخر : هناك تحولات تاريخية ـ اجتماعية وسياسية أفرزتها المجموعة العربية من ذاتها أو نتيجة الاحتكاك بغيرها من المجموعات البشرية (ضمن جدلية الأخذ والعطاء ، والصراع من أجل التفوق ، والمهيمن والمهيمَن عليه ، الخ . . . .) وهذه التحولات أفرزت بدورها مضامين جديدة أودعتها أشكال التعبير الشعبي في شكليه الشعري والنثري .

---

(٢) راجع : محمود طرشونة ، مائة ليلة وليلة ؟ ، الدار العربية للكتاب ، تونس ـ ليبيا ، ١٩٧٩

(٣) انظر على سبيل المثال ، محمود المسعدي ، حدث أبو هريرة قال . . . (تونس ١٩٧٣ وعز الدين المدني ، خرافات (١٩٦٨) ، وثورة الزنج (١٩٧٠) ، الحلاج (١٩٧٣) . . .

(٤) انظر

Abu-Deeb, K. "towards a Structural Analysis of Pre-Islamic Poetry (I): the Key Poem "International Journal of Middle East Studies, 6 (1975): 148-84; (II) the Eros vision", Edebiyat 1 (1976): 3-69

Michael Zwether, The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry, its Character and implications, Ohio State University Press: Colombus 1978.

واذا كان حدوث التحولات أمرا بديهيا لا يحتاج الى اطالة في الاثبات فان ما تتوجب ملاحظته هو أن اشكال التعبير ، بصفة عامة ، بقيت ثابتة . أي أن البنى المستوعبة للمضامين التعبيرية « المتجددة » استمرت على ماهي عليه منذ القديم ، وأن هذه الثنائية تقوم أساسا على ثنائية تقابلية ثابتة ـ في حيز بدائلها ـ (أي أنها هي نفسها خاضعة لسنة التطور) وأن هذه الثنائية تتمحور حول عنصر ـ ولعله هو بالذات « **أس الثبات** » أو « **الأس الثابت** » ـ ثابت لم يتغير (بل ولا ضرورة لتغيره اذ أنه من طبيعة الانسان أو على حد قول ابن خلدون من طبيعة العمران البشري) الا وهو : « **الصراع** » .

١ ـ ٦ ـ ومفاد القول هو : أن جميع أشكال التعبير الشعبي (ويجوز هنا التعميم على « غير الشعبي ») تلتقي في شكل أساسي واحد ، نطلق عليه « **البنية التحتية للتعبير** » وهذه البنية ثلاثية التركيب :

عامل ـ أ ـ /صراع/ عامل ـ ب ـ

والثابت فيها العنصر الثلاثة من جهة ، ومحور « الصراع » (بين العاملين) بصفة أولية من جهة ثانية . والمستمر فيها ـ على مدى الزمن : أي منذ الاثباتات الأولى للمأثورات الشعبية الى ما نعاينه اليوم هما العاملان « المتغيران » (أ ـ ب) (في حالة الصراع المستمر) . وأما المحرك للبنية التحتية التي تتخذ اشكالا تعبيرية تبدو متمايزة ، على مستوى السطح ، وهي متماثلة على المستوى التحتي ـ فيتمثل في التحولات الاجتماعية ـ السياسية (وباختصار التاريخية) التي تولدها البيئة البشرية (ضمن العلاقة الجدلية المشار اليها أعلاه) .

١ ـ ٧ ـ وقد لا نبالغ اذا قلنا أن الآداب الشعبية تبرز بشكل واضح ـ الى حدّ ما ـ الطرح الذي تتناوله اليوم بحوث عديدة في مجالات مختلفة من المعارف الانسانية المتعلقة بالتراث العربي والمتمثل في اشكالية : الثابت ـ المستمر والمتغير ـ الظرفي/ الدخيل[٥] . وباضافة هذه المساهمة قد لا نكون أتينا بالجديد وليست النية أيضا تقديم القول الفصل فيها لا تزال تتعثر في بحثه الاقلام وفيها نعتبره من الطروحات الأساسية ـ على ساحة الفكر العربي ـ لاثبات الذات وانما غايتنا من هذا الاسهام الاجتهاد في طرح المسألة من زاوية قد تبدو هامشية لأنها مغايرة لما نحت عليه البحوث عامة وقد تضيف شعاع نور لبقية الفوانيس المسلسلة على « التراث العربي بين الأصالة والمعاصرة » .

١ ـ ٨ ـ أما المنهج المعتمد في هذه المحاولة فسيأخذ بعين الاعتبار :

أ ـ بالدرجة الأولى : نتائج البحوث الميدانية التي باشرتها في بعض الأقطار العربية (تونس ، وليبيا والأردن) .

ب ـ بالدرجة الثانية : الطريقة الاستنباطية للمضامين (الاجتماعية وغيرها) التحتية ، وهي طريقة تقوم على ما يطلق عليه من اللسانيات الحديثة بالطريقة التوليدية : وذلك قصد اثبات التلاقح الحاصل بين افرازات البيئة واشكال التعبير في السير الشعبية العربية من جهة والاستمرارية في البنى التعبيرية الحاملة للمضامين المتحولة من جهة اخرى .

(٥) وبدائلها : التراث والمعاصرة ، القومية العربية والذاتيات المحلية والشخصية (المحلية) والشخصية (العربية / القومية) وغيرها من المفاهيم المطروحة في نطاق التساؤل والمعارضات . . .

جـ ـ بالدرجة الثالثة : تجريد المعطيات الناتجة الى وحدات « هيكلية » من شأنها أن تساعد على تبسيط ترابط العناصر المكونة للأثر والتي تكون أحيانا في علاقات معقدة .

د ـ بالدرجة الرابعة : تفسير المضامين بناء على ثلاثة « عوامل تحليلية » ولدتها المعاينة الميدانية وهي :

١) حالة المماثلة ، ٢) القابلية الابدالية للعناصر المتحولة في الأثر المنقول ، ٣) المقدرة الابداعية لناقل الأثر .

وسوف يكون السؤال : « لماذا تواصل الشعوب العربية نقل بعض السير وبالخصوص سيرة بني هلال » بمثابة الأرضية لمدار تفكيرنا في اشكالية (استمرارية الآداب الشعبية العربية ومواكبتها للتحولات التاريخية في البيئة العربية) »[٦].

١ ـ ٩ ـ وكما اسلفنا يقوم اختيارنا في دراسة هذه الاشكالية على السيرة الهلالية لأنها :

أ ـ تبرز بشكل أوضح عملية التفاعل بين الثابت (الشكلي/ البنائي) للتعبير الأدبي الشعبي والمتحول التاريخي في البيئة الناقلة للأثر الأدبي الشعبي .

ب ـ تقوم على مفهوم « البطل الجمعي » وبعبارة أخرى المجتمع ـ ككل ـ وليس على مفهوم « البطل الفرد » (مثل سيرة عنترة بن شدّاد ، وسيف بن ذي يزن ، والامام علي ، وغيرها) فينجر عنه أن يخرج الطرح من محيط « الفرد الواحد » الى محيط : القبيلة ، الطبقة الاجتماعية بأسرها . . . المجتمع . . .

جـ ـ لأن الذاكرة الشعبية مازالت تتناقل هذه السيرة أكثر من غيرها ، فتصبح بذلك « عينة حاضرة » وهي في الآن « عينة ماضية » .

وسيشمل العرض قسما أولا يقدم فيه لسيرة بني هلال من حيث مادتها وحضورها ، وفي الزمان والمكان ، ثم قسما ثانيا يسعى الى ابراز دور الذاكرة الجماعية (المخيلة الصاهرة) من حيث انها الأداة الأساسية لاستمرارية السيرة من جهة ولاستيعاب التحولات التاريخية في اطار السير من جهة ثانية ، ثم قسما ثالثا يتبلور فيه دور الناقل الشعبي في جعل السيرة تتواصل (أو ـ ان صح التعبير ـ « تتحنط ») وذلك بناء على الاختيارات ـ الشعورية أو اللاشعورية ـ التي يقوم بها بين ما يعتبره (هو وجمهوره) من « أحداث تاريخية » وما يعتبره « خارجا عنه » .

ولعل في عملية « القياس » التي سيقوم بها القارىء المختص بين ما سيرد في شأن سيرة بني هلال وغيرها من نماذج الانتاج الأدبي الشعبي ما يجعلنا نقتصد في ضرب الأمثلة الخاصة ببقية السيرة الشعبية العربية .

الجزء الأول

٢ ـ سيرة بني هلال : مادتها وحضورها في الزمان والمكان

٢ ـ ١ ـ سيرة بني هلال أنشودة قبيلة بني هلال العربية التي استوطنت منذ العصر الجاهلي الجزيرة العربية ؛ وتروي هذه المسيرة رحلة القبيلة من نجد الى تخوم الأندلس .

(٦) انظر أحمد ممو ، دراسات هيكلية في قصة الصراع ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٨٤

أو كما قال ابن خلدون : « انتشرت القبيلة بعيد الاسلام مثل سحابة من الجراد » في المنطقة التي يطلق عليها اليوم العالم العربي الاسلامي . فنتج عن هذا الانتشار أن تداخلت قبيلة بني هلال مع غيرها من القبائل العربية وغير العربية التي تركت أثرها في السيرة الهلالية[٧].

٢ ـ ٢ ـ تروي السيرة الهلالية سبب رحلة قبيلة بني هلال وتنقلها : كانت نجد قد اضنكتها سبع سنوات من القحط والجفاف ، ولأن حياة القبيلة عمادها المرعىٰ فاضطرت الى الرحيل حيث يوجد الماء والمرعى .

٢ ـ ٣ ـ وتقص كل مرحلة من مراحل السيرة لقاء بني هلال مع أحد الأمراء أو الملوك أو احدى القبائل الأخرى ؛ وكل هذه الأطراف تعمل على منع بني هلال من تحقيق غايتهم في الرحيل . وتفيد السيرة بأن الصراع لا يقوم بين القبيلة ومعترضيها لأن القبيلة تستهلك انتاج الأرض التي تنزل فيها فحسب ، بل وكذلك لأن احدى النساء الهلالية « تُتيّم » قلب أحد الأمراء أو الملوك[٨]، فيمتزج الصراع بأمور العاطفة ويزداد حدّة لأن المرأة التي « سقط في غرامها الأجنبي عن القبيلة . . . . » كانت قد تيمت أحد الهلاليين أو أحد حلفاء بني هلال[٩]. وهكذا تكون رواية هذه الصراعات وهذه المزايدات العاطفية المادة الأساسية لسيرة بني هلال .

٢ ـ ٤ ـ وتشكل الأجزاء الثلاثة التي تتركب منها السيرة الهلالية المراحل الثلاث التي مرت بها القبيلة :

١ ـ الجزء الذي يطلق عليه : « سيرة بني هلال في بلاد السرو وعبادة » : يشتمل على البنية العرقية للقبيلة وتوزيعها في المكان والزمان[١٠].

---

(٧) والسيرة الهلالية مثل النهر الجارف في الزمان والمكان فطيلة عشرة قرون وحتى يوم الناس هذا ما انفك نقلتها يروونها وينشدونها في الأسواق والمقاهي المدنية والقروية ، في البيوت وحيث يجتمع الناس . ولكن خلال سيره يحمل النهر معه مواد جديدة من البقاع التي يمر منها .

انظر حول أثر الاحتكاك بالروايات النيجيرية (الافريقية) الروايات التي جمعها :

J.R. Patterson, **Stories of Abu Zeid, the Hilali, in shuwa Arabic** (London: Kegan, French, Turbner, 1930).

وكذلك

Bridget Connely, "the structure of four Bani Hilal tales: Prolegomena: To the study of Sira literature," **Journal of Arabic literature 4 (1973), 18-47**

وعن التأثير البربري فيها ، انظر :

Cl. Bretans, M. Galley "Reflexions sur deux versions algeriennes de Dyab le Hlallan," Actes I er 1a Congres d'Etndes des Cultures mediterraneennes et d'influence Arbo-Berbere, 3-6 Avril, 1962 (Alger (1973), 358-364;

أنظر أيضا :

G. Canora, "Gli studi sull'epia populare araba," **Oriente Moderno,** 57: n⁰ 5-6 (1977), 211-226.

ولنفس الكاتب « السيرة والملاحم الشعبية في الأدب العربي » مجلة التراث الشعبي ، ١١ عدد ٦ ١٩٨٠ ونجد بيليوغرافيا وافية عن سيرة بني هلال في :

Cl. Bretean, M. Galley, A. Roth, "Temoignages de la "longue marche Hilalienne," **Actes dn IIe Congres International des Etudes des Cultures Mediterraneennes,** (Alger, S.N. ED, 1978).

(٨) حول تحليل قصة عامر الخاجي ، راجع :

S? Slyomovies, "Characters as Puns: an Oral-Poetic Structuring Device in Sirat Beni Hilal" (J.AL; In press).

A. Abnoudy, **La Geste Hilalienne,** Trans. T. Guiga (Caire: l'Organisation: Egyptienne Generale du Livre, 1987).

عبد الحميد يونس ، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ط ـ ٢ (القاهرة : دار المعرفة ، ١٩٦٨) ،

محمد المرزوقي ، الجازيةالهلالية ، (تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٩)

(٩) وبهذا الصدد يمكن تفسير رد فصل ذياب الهلالي ازاء خليفة الزناتي من هذه الزاوية .

(١٠) حول البناء النسبي راجع :

A. Ayoub, "A propos des manuscrits de la geste des Bani Hial conserves a Berlin," **Actes dn ile Congres International des Etudes des Cultures mediterraneennes,** (Alger, S.N.E.D 1978)

٢ ـ الجزء الذي يطلق عليه « الرحلة » أو « الريادة » : وفيه تصوير لرحلة بني هلال داخل نجد وتأكيد على الأضرار التي تلحق بالقبيلة من وراء الجفاف والمجاعة .

٣ ـ الجزء المعروف « بالتغريبة » : ويروي مسار القبيلة باتجاه « الغرب » والصراعات العديدة التي حدثت بينها وبين « السلطة » القائمة على البقاع ما بين نجد وتونس التي يجتازها ـ أو ينزل بها ـ بنو هلال .

٢ ـ ٥ ـ ومهما كانت المرحلتان الثانية والثالثة أهم ما يعرفه نقلة السيرة الهلالية الا أن المادة التي تجمع اليوم وتمثل « مخزون » الذاكرة الجماعية تتمحور أساسا حول « الرحلة التي اضطرت اليها القبيلة » . فالكارثة الطبيعية : الجفاف وما يلحقه من مجاعة ، من جهة ـ ورفض السلط للاتفاق مع بني هلال على الاستهلاك المشترك لانتاج الأرض (المرعى) ، من جهة أخرى ، دفعا القبيلة ـ حسب الرواية ـ الى شد الرحال واستبدال الموطن(١١).

٢ ـ ٦ ـ وهكذا يتجلى الموضوع الأساسي لسيرة بني هلال : الصراع بين « البدو » الهلاليين و « السلط » الضاربة نفوذها في المدن . وبتعبير آخر ، تمثل السيرة الهلالية : « رواية لتاريخ مجموعة بشرية اختارت الصراع (بجميع أشكاله) لتأمين استمراريتها في الحياة » . هذا « المحور الدلالي » يشكل ما أطلق عليه بالبنية الأساسية للسيرة الهلالية والتي يمكن تجريدها في شكل الثنائية التقابلية التالية :

البدو/ مقابل/ الحضر

أو تعميما   أهل البدو/ أهل الحضارة

وتعكس هذه الثنائية ـ في نظري ـ المحور الشكلي الذي تُستقطب حوله بقية عناصر السيرة الهلالية (بصفة خاصة) وأغلب السير العربية (بصفة عامة) . وهو ما سنعمل على اقامة الدليل عليه في بقية هذا العرض(١٢).

---

(١١) يبدو لي أن هذا المحور هو الذي يتجلى من قراءة (ولو سطحية) للمتن الهلالي (Corpus) أما التاريخ فيقدم تفسيرا مغايرا : وأنه نتيجة الصراع بين الحكمين الفاطميين في كل من القاهرة والمهدية أرسل حاكم القاهرة آنذاك بني هلال للاطاحة بالمهدية ؛ راجع عبد المنعم ماجد ، « الوثيقة المستنصرية » (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٥٤)

(١٢) التعبير عن هذه الثنائية واضح جدا في القصائد الهلالية التي أوردها ابن خلدون في مقدمته انظر : مقدمة ابن خلدون . تحقيق علي عبد الواحد وافي . ط ـ أولى . القاهرة ١٣٨٢ / ١٩٦٢ .

القصل ٦١ ـ ص ١٣١٤ ـ ١٣٢٧ / ؛ عبد الرحمان أيوب ، « منهجية ابن خلدون في تحليل الشعر البدوي الهلالي مجلة الفكر ـ ٢٩ ـ عدد ٧ و ٨ أفريل ـ ماي ١٩٨٤ .

ومن جهة أخرى ، هناك اثباتات متعددة على المستويات اللهجية والتاريخية والجغرافية لاستمرارية « الصورة الهلالية » ، ان صح التغيير ـ في المخيلة الشعبية العربية ، وتنقسم هذه الاثباتات الى أنواع ثلاثة : المخطوطات والكتب المنشورة والرويات الشفاهية راجع عنها :

A. Ayoub, "Sirat Bani Hilal: a propos de quelques manuscrits conseves a Berlin-Ouest: Problematique de l'appartenance religieuse des conteurs populaires "**Revue d'histoire maghrebina,** 11e annee, 33-34, 1984, 19-40.

لنفس الكاتب :

"the Hilali Epic: Material and Memory" **(R.H.M.** in press.)

راجع أيضا :

W. Ahleardt, **Die Handschriften verzeichnisse der Koniglichen Bibliothek zu Berlin,** (Berlin, 1869); M. Hartmann, "Die Beni Hilal-Geschichten," **Feltschrift fur afrikanische und oceanische Sprochen,** (Berlin: IV Jarhrgang, 1898), 289-315.

وكذلك : م . منصور ، فهرست مخطوطات المكتبة الأحدية بتونس (بيروت : دار الفتح ، ١٩٦٩)

M. Galley, "Manuscrits et documents relatifs a la geste hilalienne dans les Biblioiotheques Anglaise," **Bulletin de litterature Orale Arabo- berbere,** 12, Paris: E.R.A. 357 — C.NR.S, 1981; E. Lane, **AN Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians,** (London: 1936), II, PP. 117-129

الجزء الثاني

٣ - سيرة بني هلال والتصور الشعبي للتاريخ

٣ - ١ - تعتبر سيرة بني هلال أنشودة (بالمعنى الملحمي) قبيلة عربية مثبتة تاريخيا . والاثبات التاريخي يحدد - الى حد - قيمة السيرة . وانتماء سيرة بني هلال الى مجموعة اجتماعية معترف بها جعلها تتمتع « بالمصداقية التاريخية » (وباعتراف المؤرخين) . وباعتبارها انشودة منطقة (جغرافية) بل مجموعة من المناطق الجغرافية - فان التصور الفضائي الذي تنطوي عليه تجاوز القطر الواحد الى منيطلق عليه بالاقليم العربي الاسلامي - فالسيرة تنتقل بنا من نجد (الجزيرة) الى شواطىء البحر المتوسطي ، ومن شواطىء بلاد الشام الى آسيا الصغرى ، وغربا الى المحيط الأطلسي وتصعد شمالا الى جنوب اسبانيا - بلاد الأندلس - وكانت قد مرت بجنوب الصحراء الافريقية سواء من جنوب مصر أو من جنوب ليبيا أو من جنوب افريقية أو من جنوب أية دولة من شمال افريقيا .

٣ - ٢ - لقد حصلت السيرة الهلالية ولازالت على مصداقية التاريخ والمؤرخين لأن نصوصها (= متنها corpus) تحوي أحداثا تاريخية عاشتها القبيلة الهلالية[١٣] . ولكنها لم تحظ بنفس المصداقية من قبل الجغرافيين (الرحالة) فهناك مواقع ذكرتها السيرة لا تعترف بها « الجغرافيا التاريخية » وكم من موقع يستحيل العثور على ذكره في « معاجم البلدان » مهما كانت قديمة .. وأغلب هذه المواقع غير المبوبة من بنات التصور الأسطوري لنقلة السيرة ، وقد تم إقحامها من قبلهم لأسباب لا يتسع المقام لذكرها .

٣ - ٣ - ولقد رفض المؤرخون أيضا أجزاء من مادة السيرة الهلالية ، وبالخصوص الأحداث التي لا تنتمي - في نظرهم - الى التاريخ : أي الأحداث المتعلقة : بالسحر و « العين الحاسدة » و « المحدثات الخارقة للعادة » (الخرافية) (كالغول ، والثعبان ذي الرؤوس العشرة) . . . الخ وهي - كما نعلم أحداث لا تنتمي لسجل التاريخ (الرسمي) وانما لسجل التاريخ الميثولوجي الشعبي .

فهرست الكتب العربية الموجودة بدار الكتب (القاهرة : ١٩٢٤) ، علي أبو حسين ، فهرست مخطوطات البحرين (بيروت ، ١٩٧٧) جـ ١ - ٢٥٣ - ٢٥٥ ،

K. Petracek, "Die Poesie al Kriterium des Arabischen Volksromans," **oriens**, 23/24 (1970-71).

K. Kramm, "Der erste Teil des Arabischen Romanyklus von des Banu Hilal, "Diss Universitat au Munster, 1973.

R. Basset, "une episode d'une chanson de Geste arabe, "**Bulletin de correspondance africaine,** (1885), PP. 136-148.

M. Hartmann, "Die Beni Hilal-Geschichten," **Feltschrift fur afrikanische und oceanische Sprachen,** (Berlin: IV Jahrgang).

A. Baker, "the Hilali Saga in the Tunisian south," Diss. Indian University, 1978.

L. Saada, "Documents sonores tunisiens concernant la geste des Banu Hilal," **Proceeedings of the II International congress of Studies on Cultures of the Western Mediterranean,** (Algiers: S.N.E.D. 1978);

L. Saada, "Mission en Tunisie", and "A Propos du colloque inter national sur la Six ieme centenair de L'Ecriture des prolegomenes par ibn Khaldoun, "**Groupe linguistique d'Etudes chamito-semitiques,** 18/23, (1973-79), 417-424 and 425-428.

(١٣) راجع :

J. Schleifer, "the saga of the banu hilel, "encyclopedia of Islam, II. P. 387.

ولا زالت الآراء متضاربة حول الدور التاريخي الذي قام به بنو هلال : راجع :

J. Berque, "Du nouveau sur les Beni Hilal? **Studia Islamica,** 36 (1972), 99-111.

محمد الشابي ، « محاولة في إعادة تحديد تاريخ الغزوة الهلالية الافريقية » ، (العدد الخاص عن تونس من مجلة تاريخ العرب والعالم ، ١٩٨٢ - ص٥٨ - ٦٩)

٣ ـ ٤ ـ ومفاد ما سبق أن المتن الهلالي (والتعميم جائز على متون السير الشعبية) يطرح اشكالية ثانية في شكل ثنائية تقابلية بين التاريخ « الرسمي » والتاريخ الشعبي (أو البدائي حسب اصطلاح بعض الانثروبولوجيين والمؤرخين للفكر)[١٤] كما يطرح اشكالية موازية تتمثل في الثنائية : الجغرافيا الرسمية/ والتصور الجغرافي الشعبي .

ولعلنا لا نحتاج الى التأكيد على أن « المواقع الأسطورية » و « الظواهر الميثولوجية » تمثل في دراسة التصور الشعبي للتاريخ من خلال النصوص الملحمية عناصر ذات دلالة اشارية تفوق تلك التي تحظى بمصداقية المؤرخ والجغرافي . وكأن نصوص السير الشعبية تتيح المجال لقراءتين مختلفتين ـ على الأقل ـ قراءة ترتكز على المعطى الرسمي وأخرى على ما يعتبره نقلتها « الحقيقي في تاريخهم » .

٣ ـ ٥ ـ فالتاريخ الرسمي قد ابرز الدور الهام الذي لعبه بنو هلال في مرحلة متأزمة خلال القرن الرابع الهجري وذلك بالشق الغربي من الامبراطورية الاسلامية عندما تحول « الخطاب » العقائدي ـ الديني (أو السياسي الديني) الى صراع بين مجموعتين تنتميان الى نظام واحد ، وكان من بوادر تفكك الامبراطورية الاسلامية . ولعل في ذكر هذا الحدث والتأكيد عليه من قبل المؤرخين تأكيد على وجود القبيلة الهلالية وجودا « سياسيا » وأهمية دورها في المسار التاريخي للمجموعة العربية الاسلامية . أما نقلة السيرة الهلالية فلم يدونوا هذا الخبر وانما ـ كما سنثبته أسفله ـ عبّروا عنه بطريقتهم الخاصة التي تبرز مشاغلهم الحياتية الأساسية .

٣ ـ ٦ ـ بيد أن التاريخ والمتن الهلالي اتفقا ـ ولو اتفاقا نسبيا ـ حول أن قبيلة بني هلال[١٥] وجدت قبل الاسلام وخلال المرحلة الأولى منه ثم « كظاهرة تاريخية مثبتة » منذ القرن الثالث الهجري (القرن التاسع/ العاشر الميلادي)[١٦]. وكلاهما سرد بطريقته الخاصة ما يعتبر بمثابة تأصيل مجموعة برية في أرضية الزمن ، وأقصد الأحداث الثلاثة التالية : التركيبة النسبية للقبيلة والأحداث التي تألقت بها عند ميلاد الاسلام وموقفها من الديانة الجديدة ، وخاصيات بني هلال الحربية[١٧].

٣ ـ ٧ ـ وخلال مرحلة الصراع السياسي (القرن الثالث/ الرابع للهجرة) نشأت سيرة بني هلال أو على الأقل براعمها الأولى والتي أطلق عليها ابن خلدون « الشعر البدوي الهلالي »[١٨]. وبينما يسوق التاريخ أحداث هذه المرحلة بطريقته الخاصة تسوق السيرة الشعبية ـ هي الأخرى ـ الأحداث بطريقتها الخاصة : فبينما يقدم التاريخ الرسمي حدثا مثل « تخريب المغرب »[١٩] على أنه تم على أيدي بني هلال تذهب السيرة الهلالية الى تعليل ظاهرة

---

(١٤) راجع :

C. Levi-Strauss, **Tristes Tropiques,** (paris; 1955); **La pensee sauvage** (Paris: n° 91-92) (1975) 1962), **Anthropologie Structurale** (Paris; 1958)

(١٥) راجع :

R. Daghfous, "Des Banu Hilal et des Banu sulaym", **Cahiers de Tunisie,** 23, n° 91/92 (1975(

(١٦) شليفر : المرجع السابق

(١٧) الوثيقة المستنصرية : راجع محمد الشابي . م . س

(١٨) المقدمة : فصل من أشعار العرب وأهل الأمصار الى هذا العهد (ص ٧٥٧ وما يليها من طبعة الدار التونسية للنشر : تونس ١٩٨٤)

(١٩) راجع بالاضافة للمصادر المذكورة :

CH. A. Julien, **Histoire de l'Afrique du Nord,** 2 ed.: (Paris: 1952)

« التحزيب » على أنها تصرف شرعي اضطرت اليه القبيلة لمجابهة « المجاعة »التي حلت بها ولأن السلط السياسية الحاكمة رفضت مدها بالقوت الضروري .

٣ ـ ٨ ـ ولذا لجأ ابن خلدون وعلى غراره عدد من المؤرخين ، الى تقديم « عملية التخريب الهلالية » بطريقة « سياسية مشحونة » وكأنه ـ وهو أول مؤرخ يذكر الشعر الهلالي ويورد مقطوعات منه وذلك في مجرى حديثه حول قبيلتي بني هلال وبني سليم ـ يعمد بريشة قلم وتحت تأثير كتابة طبقية ـ الى شطب التاريخ الذي عاشته مجموعة اجتماعية . ورغم ذكر ابن خلدون لمقطوعات شعرية على لسان بني هلال كانت متداولة بين البطون البدوية في افريقية الا أنه لم يشر ولو اشارة عابرة الى الحياة الاجتماعية والسياسية للمجموعة الهلالية[٢٠] ومهما كان الأمر فان المقطوعات الشعرية المذكورة (والتي تصرفت فيها أيدي الناشرين بالحذف أو التعويض على مر السنين) تقدم لنا صورة من القرن العاشر الميلادي عن التركيبة الاجتماعية لقبيلة بني هلال وعن دوافعها ومطامعها ، وعن طريقتها في الحياة وعن علاقاتها بغيرها من المجموعات الاجتماعية سواء كانت متقلدة للسلطة أو مستغلة من طرف السلطة[٢١] .

٣ ـ ٩ ـ والاحالات الى التاريخ (الرسمي) التي يعثر عليها في نصوص السير (المخطوطة والمطبوعة والشفاهية/ المروية) تقودنا الى معاينة التاريخ معاينة نوعية أو بعبارة أخرى الى قراءة التاريخ قراءة مشروطة .

وتتطلب هذه القراءة ـ بادىء ذي بدء ـ أن نولي اهتماما خاصا بالصياغة النصية formulation للأحداث : أي أن نهتم (اولا) بكيفية النظر للأحداث الملحمية على مستوى المخيلة الشعبية ، و (ثانيا) بكيفية ايصال الأحداث من قبل الرواة الشعبيين للسيرة الشعبية .

اذ القراءة النقدية للسير القائمة على المعطيات التاريخية التي سجلها التاريخ الرسمي والمؤرخون « الرسميون » من شأنها أنةتهمل ابراز الرسالة التي ترمي رواية السيرة الى ايصالها ، وفي هذا تتفق القراءة التاريخية مع التحليل الشكلي للسير والقصص الذي تتبناه كل من المدرسة الشكلية المبنية على النظرية الصيغية formulaire التي وضعها ب . لورد[٢٢] والنظرية التركيبية الوظائفية لفلاديمير بروب[٢٣] .

وكلاهما لا يولي اهتماما كافيا بالدوافع الحقيقية التي تدفع الراوي الى اعادة رواية انتاج فني ينتمي الى الماضي . وبعبارة أخرى لا تطرح هذه النظرية وتلك المدرسة السؤال الأساسي الذي يفيد عن سبب تواتر السير الى اليوم : « لماذا يقص الراوي الشعبي الماضي »[٢٤] .

---

(٢٠) راجع عبد الرحمان أيوب ، « منهجية ...... » م . س

(٢١) راجع :

A. Ayoub & M. Galley, **Images de Djazya: A propos d'une peinture sous verre de Tunisie,**: (C. NR.s... Paris, 1977)

(٢٢) A.B. Lord, **the singer of tales,** (Cambridge: Harvard University press, 1981).

(٢٣) V. Propp **Morphology of the Folktale,** 2nd ed. (1877; rpt. Austin: University of Texas press, 1968) P. 87

(٢٤) في الواقع يطرح لورد هذا السؤال في الفصل المتعلق بالموضوع (الكتاب السابق) ولكنه لا يجيب عنه اجابة كافية .

٤ - اشكالية الاستيعاب : الثابت والمتغير (المتحول)

٤ - ١ - ليست غاية الفولكلوري في دراسته لمضامين المأثورات الشعبية المروية أن يبالغ في دلالة مؤشرات التاريخ الشعبي المتضمنة في النصوص . ولكنه في تعامله مع نصوص ملحمية مثل سيرة بني هلال أو سيرة عنترة بن شداد أو سيف بن ذي يزن أو الالياذة والأوديسة أو أنشودة رولان أو جلجامش أو الكلفيلا . . . . ينظر لها على أنها أولا وبالذات سير للشعوب وأن هذه الشعوب الناقلة لها جزء من التاريخ - وبالنتيجة فان النصوص المنقولة تصبح بدورها تاريخيا ولكن ليس بالتاريخ الرسمي المتعارف عليه .

٤ - ٢ - ومن وجهة النظر هذه يبدو لنا أن الاشارة الهامة للتصور الشعبي للتاريخ في سيرة بني هلال تكمن في العلاقة القائمة بين المجموعة الهلالية وغيرها من المجموعات الاجتماعية وبصفة خاصة المجموعة الاجتماعية القائمة على « السلطة » في المواطن التي مرت بها القبيلة في سعيها وراء القوت . والمتن الهلالي corpus يؤكد على هذه العلاقات ولذا فالمستمع للروايات الهلالية أو القارىء لها تواجهه باستمرار الثنائية الثابتة الممثلة من جهة للعلاقات القائمة بين بني هلال والسلطة ولتحول هذه العلاقة نفسها من جهة أخرى[٢٥] . ونصطلح على هذا المحور « تحولية العلاقة مع السلطة » . أما الثنائية الثابتة (والتي تعتبر الى حدّ البنية التحية للسيرة) فهي =

البدو (بنو هلال) // الحضر (أهل المدينة) السلطة

٤ - ٣ - والمتفحص للنص الهلالي انطلاقا من هذه المقابلة - مهما كان السياق الروائي لها - بامكانه أن يتتبع كيفية ادراك نقلة السيرة الهلالية (أي الرواة وجمهورهم) (وقس على ذلك بقية السير) للصراع من أجل النفوذ والسلطة بين مجموعتين اجتماعيتين : احداهما تحتل المنطقة الزراعية (البادية) والأخرى المدينة . أما الأولى فيرتبط مصيرها بالارض وما تنتجه ، واما الثانية فيرتبط مصيرها بسلطتها على الأرض وما تنتجه . وبينما تنصرف الأولى - وهي المجموعة التي ينتمي اليها الراوي الشعبي في غالب الأحيان - حسب ما يمليه ضمير القبيلة ومصلحتها تتصرف الثانية حسب ما يمليه ضمير المجموعة القائمة على السلطة ومصلحتها . . . . الخ .

٤ - ٤ - وعلى مستوى « الحكم » في السيرة الهلالية يبدو جليا استعمال الثنائية (بدو// حضر) ؛ وهو ما يدفعنا الى اعتبار هذه الثنائية بمثابة البنية الروائية الأساسية للنص الهلالي . ولو تمكنا من وضع أنفسنا في زمن المتن الهلالي ومكانه لوجدنا أن هذه الثنائية تحتل محور المتحولات الحقيقية والممكنة للنص الهلالي . والمقصود بالزمن هنا « الزمنية » التي يسير النص فيها - وهي زمنية حقيقية تنطلق من أول اثبات للسيرة (النص الذي أورده ابن خلدون) حتى الاثباتات الشفاهية (أي الروايات الشفاهية) التي يتناقلها الرواة اليوم . وأما المكان فيشار به الى الجغرافيا المحلية أو بعبارة أخرى الى العديد من المواقع في الرقعة العربية الاسلامية حيث لازالت تقص روايات السيرة . وأما التحولات فيقصد بها « التعويضات » الفعلية المحتملة التي تخضع لها الثنائية التقابلية : بدو// حضر .

---

(٢٥) هذه الثنائية نفسها بجميع تعقيداتها - توجد في نصوص قبيلة الروالة ، راجع :

M.E. Meeker, **Literature and Violence in North Arabia,** (Cambridge: Cambridge University press, 1979).

وبعض التعويضات الفعلية والمحتملة ذات الطبيعة التاريخية والاجتماعية قد تكون :

« الطبقة الفلاحية »	// الطبقة البرجوازية
« الطبقة » الشغيلة	// الطبقة المستغلة (رؤ وس الأموال)
المستعمر	// المستعمر
« الطبقة » المستغلة	// الطبقة المسيطرة . . . الخ . .

٤ ـ ٥ ـ وهذه التحولات ، التعويضات حقيقة لارتباطها الحتمي بعنصري الطبيعة : الزمان والمكان . ودون التحولات المحتملة ـ وبعض التحولات أصبحت فعلية ـ يصبح النص الروائي (السير) نصا محنطا أو بعبارة أخرى تكون اثباتات السير الشعبية في شكل مخطوطات يرجع لها الباحث عند الضرورة وهو ما قد وقع فعلا لبعض السير الشعبية العربية وغير العربية التي تمحورت بالخصوص حول البطل الفرد ، أو المضمون الديني (عنترة بن شداد ، سيف بن ذي يزن ، سيرة الامام علي . . ، أنشودة رولان ، بيوولف ، الخ) .

٥ ـ حالة التماثل خلال عملية رواية السير الشعبية :

٥ ـ ١ ـ بيد أنه كما رأينا في الجزء الأول (راجع ٢ : ٢ ـ ٦) من هذا العرض فان عملية « التحنيط » لم تحدث بعد . وبعبارة أخرى ، عندما يعمد الباحث ـ المدرك للتحولات التي خضع لها متن السيرة الهلالية بصفة خاصة ومتون السير الشعبية بصفة عامة ـ الى معاينتها في مدار الزمن ـ أي خلال القرون العشرة التي استمرت فيها ـ وفي الأماكن المنتشرة فيها ـ سيدرك أن هذه التحولات قد حدثت فعلا أو أن حدوثها محتمل وذلك نتيجة التفاعل المعقد للأسباب الثلاثة التالية : ١ ـ « حالة التماثل » .

١ ـ « حالة التماثل »
٢ ـ الذاكـرة
٣ ـ المقدرة الابداعية لناقل السير

وان معاينة النصوص الأدبية الشعبية بالاعتماد على الأسباب الثلاثة المذكـورة ستفضي بالبـاحث الى ادراك تصرف ما أطلقت عليه « بالضمير الشعبي الجماعي » وبالتالي الى الاجابة على السؤ ال المطروح : « لماذا يقص الراوي الشعبي الماضي » .

٥ ـ ٢ ـ حالة التماثل :

التماثل عملية طبيعية في التصرف الانساني . وهو رد الفعل الفردي أو الجماعي الناتج عن حدوث ظاهرة ما . وفي رواية السير يكون التماثل رد فعل نقلة السير ازاء الرسالة التي تتضمنها السير وتسوقها لنقلتها .

وحتى تحدث حالة التماثل ينبغي أن تتوفر العناصر الثلاثة التالية :
أ ـ الموضوع .
ب ـ العامل ـ ١ ـ
ج ـ العامل ـ ٢ ـ

وينبغي أن تكون الموضوع منتسبا « للمحيط » الذهني للعاملين وهما : الطرف المعبر (وهو هنا : ناقل السير ، الراوي) والطرف المتقبل (المتلقي) : السامع (وهو هنا : الجمهور)[٢٦] . وينقل العامل ١ - الموضوع قراءة أو انشادا للعامل - ٢ - التي يكون في وضعية استقبالية . وما أن يتقبل العامل - ٢ - بدوره الموضوع الذي يصبح - عن طريق عملية النقل - موضوعا مشتركا بين العاملين حتى يتحول العامل - ٢ - بدوره الى وضعية فاعلة . وهذا التحول من وضعية الى أخرى - من متقبل الى فاعل - ينتج عن رد فعل العامل - ٢ - ازاء الرسالة المتقبلة . ويكون رد الفعل اما « الاهتمام » (الاكتراث) أو « عدم الاهتمام » (عدم الاكتراث) وبتعبير آخر يتقبل الموضوع أو يرفضه .

٥ - ٣ - مثال توضيحي :

٥ - ٣ - ١ - لو اختار العامل - ١ - موضوع روايته « رحلة المكوك الفضائي » لاستجاب العامل - ٢ - (المستمع له) اما بالاهتمام أو عدم الاكتراث . وبالنتيجة : فاما أن يمعن الانصات أو لا ينصت مطلقا . ويمكن تحليل رد فعل العامل - ٢ - كالآتي : لقد اهتم بموضوع الرواية لأنه يذكره بمشاهد مماثلة قد شاهدها من قبل وتخص قيادة السفينة الفضائية (المكوك) . ورد الفعل هذا من شأنه أن يفضي بالعامل - ٢ - الى مماثلة نفسه - أي أن يحل نفسه محل (ب) الشخص الروائي الذي أفرزه الاستماع للرواية . وأطلق على هذا الصنف من « التماثل » : « التماثل الفعلي » حيث ينطلق العامل - ٢ - من الاستحضار المشهدي « المتقبل » الى انشاء « خطاب » (رواية) تضاف اليه تجربته الشخصية .

وعلى هذا التماثل الفعلي تقوم رواية « المأثور الشفاهي » أي فن اعادة الرواية ، أو قل « فن نقل الخطاب » .

٥ - ٣ - ٢ - واذا اعتبرنا بوضع العامل - ١ - في المثلث : الموضوع - العامل - ٢ - العامل - ١ - ، لوجدنا أنه قد تماثل بالموضوع الذي اختار نقله اذ أنه لن يروى ما ليست نفسه راغبة فيه . وهو بدوره أيضا يكون قد « شحن » الموضوع المنقول بعدد من العناصر التي تمت بصلة بتجربته الشخصية أي برؤيته للعالم . والنتيجة هي كالآتي : العامل - ١ - بتماثله مع مضامين الخطاب الذي هو بصدد نقله ، فانه ينقله للعامل - ٢ - بطريقته الخاصة مثريا اياه بطابعه الشخصي ثم يتماثل العامل - ٢ - بدوره مع الموضوع المستقبل ، وبدوره مرة أخرى يحوله الى خطاب حامل لما هو مهتم به . وبالنتيجة تكون الرواية المنقولة حاملة للطابع الشخصي للراوي الشعبي .

٥ - ٣ - ٣ - ولأن العامل - ٢ - أصبح بدوره العامل - ١ - (أي ناقلا للرواية) فانه يصبح من اليسير تصور المرحلة التالية : أولا ، نتيجة عملية التماثل يكون الخطاب المنقول - من جيل لآخر وعلى لسان (أو يد : ان كانت الحالة متعلقة بالمخطوطات) عدد من نقلة التراث وفي سياقات مختلفة - حاملا لسمات التحول وهذا التحول ناتج عن طرق متنوعة لشحن الخطاب المستقبل بحصيلة التصور الفردي والجماعي (بشكل من الأشكال) من ناحية ، وبحصيلة التجربة الفعلية المستخلصة من حوادث خارجة عن النص من ناحية أخرى .

---

(٢٦) وبطبيعة الحال يمكن أن يكون النص المطبوع هو العامل - ١ - ويكون بالتالي القارىء العامل - ٢ - هناك تشابه بين ما أطلق عليه « حالة التماثل » وما يطلق عليه كنيث بورك : Identification:
راجع :
Kenneth Burke, A Rhetoric of Motives, (Berkeley: University of California press, 1969).
وانظر بصفة خاصة الفصل الخاص بحالة التماثل : ص ٥٥ - ٦٥

٥ ـ ٤ ـ حالة « التعادل » و « إلتحول » في السيرة الهلالية :

٥ ـ ٤ ـ ١ ـ وكما ظهر من المثال التوضيحي السابق يبدو أن مفهومي « التماثل » و « التحول » يتضمنان سبب استمرارية نقل السيرة الهلالية عبر هذا التاريخ الطويل . وتعليل ذلك كالآتي :

باعتبار ان الثنائية التقابلية : بدو / حضر تمثل أرضية البنية الروائية للسيرة الهلالية وأنها تتمحور حول « المحور المضموني » (الصراع المستمر بين البدو والحضر « أصحاب السلطة ») فاننا لا نستغرب أن يكون المتن الهلالي ناقلا للثنائية المذكورة بأشكالها المختلفة .

مثال عدد ١ :

عندما غادرت قبيلة بني هلال نجد ، بعد سبع سنوات من الجفاف ، بادرت بتهديد الشريف بن هاشم (والتهديد شكل من الصراع) الذي كان قائما على المدينة وصاحب الأرض . وكان التهديد بالنسبة للشريف بن هاشم ان تخرب القبيلة أرضه (أي بعبارة أخرى أن تفتك منه الأرض فيفقد بالتالي سلطانه) . أما بالنسبة لبني هلال « فالتخريب » ـ ان حدث تخريب ـ انما هو « استهلاك انتاج الأرض » فحسب . فالراوي لهذا الجزء من السيرة وجمهوره المستمع ـ وكلهم ينتمون للبيئة الفلاحية ـ أو بيئة مماثلة لها اقتصاديا ـ ويشكون الفقر والاستغلال ـ وهم بصدد الاستماع للمحنة التي مرت بها قبيلة بني هلال من أجل الحصول على المرعى لكسب القوت لهم ولماشيتهم ، انما ينصتون في واقع الأمر لرواية وضعيتهم الخاصة . ويكون التماثل قد وقع . وموضوع « الفقدان » لأمر مصيري (القوت اليومي ـ البحث عن أحد أفـراد القبيلة الحنين للأرض ـ الخ . .) الذي من أجله ينتقل المرء (القبيلة) من موطن لآخر موضوع يتواجد في جميع « مراحل » السيرة الهلالية . ويمكن تعميم القول بأنه الموضوع الرئيسي الذي تتمحور حوله بقية المضامين الملحمية في السيرة وهو الذي ينمي حركية السيرة وتطور سردها .

مثال عدد ٢

٥ ـ ٤ ـ ٢ ـ ويتعلق بشخصية الجازية : وهي المرأة الهلالية ذات الحسان والتي يبدو ظهورها في النص الروائي بمثابة الوظيفة (بالمعنى البروبي للكلمة) التي تنمي التطور المرحلي للرواية ، فكلما ظهرت الجازية صار حدث ينتمي الى ثنائية البدو // الحضر . وهذا الحدث قد يبقى على المحور المضموني : أي الحرب ، وقد يعوضه ببديله : السلم . وتصرف الجازية يقدم صورة جديدة عن طبيعة العلاقة القائمة بين أهل البداوة التي تنتمي اليهم وأهل الحضر الذين ترغب فيهم (للمصلحة) وفي الآن تحاربهم (مع قبيلتها) . ففي احدى الروايات الهلالية يقبل الشريف بن هاشم بتقديم المرعى للقبيلة اذا وافقت الجازبة على الزواج منه[٢٧] ، ولا تمانع الجازية وتحصل المعاهدة (السلم بين الطرفين) . الا أن هذا التصرف في نظر الجازية لا يعدو « الزواج الاستراتيجي » ان صح التعبير . اذ أنها ترفض الانتماء لوسط الحضر ولذا فانها تلجأ للحيلة حتى تحـرر نفسها . فيحـدث ما عقـدت العزم عليـه ويبطل الميثـاق (الحرب من جـديد بـين الطرفين) .

وهذا الأخذ والرد الذي تتمتع به الجازية في تصرفها يرد كثيرا في السيرة الهلالية ، ويبدو أنه بمثابة المرآة العاكسة لموضوع آخر هام تعالجه السير الشعبية وله أهمية من حيث تصوير عناصر « الضمير الجماعي الشعبي » وهو « الانتماء لمجموعة اجتماعية » .

(٢٧) راجع محمد المرزوقي ، الجازية الهلالية (تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٩)

٥ ـ ٤ ـ ٣ ـ ففي سياق النص التلحمي لسيرة بني هلال ـ تبدو الرغبة (بل الحاجة) في الانتماء قوية . وفي القصيد المطول الذي ينشد على لسان الجازية (والأمثلة المماثلة عديدة) [٢٨] يوجه الخطاب حول هذه المسألة بصفة مباشرة : « أن لا تعود الجازية الى قبيلتها حتى لا تشتعل الحرب من جديد » . ولكن الجازية ـ تضرب الوعود عرض الحائط وتعود . والظاهر أن أهل الحضر (أصحاب السلطة) يفضلون اقامة ميثاق (من خلال الجازية) مع بني هلال ليتمكنوا من المحافظة على سلطتهم على الأرض والابقاء على بني هلال قيد المجموعة المستهلكة[٢٩] . وفي التاريخ الرسمي ما يؤيد هذا الاستنتاج[٣٠] .

٥ ـ ٤ ـ ٤ ـ ولعل في تعدد ورود هذا المضمون (الانتماء الى المجموعة الاجتماعية) (هنا القبيلة) ما يدل على أن بني هلال قد أدركوا أن السلطة السياسية لم تكن ترغب في عقد معاهدة معهم الا بغرض استغلالهم ـ ولعله ليس من باب الصدفة أيضا أن يخلو النص الهلالي من حادثة تمثل خروج أحد أفراد القبيلة عنها : ولذا نجد أن « ذياب الهلالي » الذي يترك القبيلة كلما تعارض مع أحد أفرادها سرعان ما يعود اليها اذا هددها الخطر . والأمثلة المؤيدة لهذا كثيرة[٣١] .

٦ ـ المدلول السياسي للسيرة

٦ ـ ١ ـ ومن جهة أخرى لا تمثل الثنائية : بدو // حضر ـ في واقع الأمر ـ تقسيما اجتماعيا يقوم على تصنيف جغرافي فحسب وانما هي ثنائية تقوم أيضا على تقسيم سياسي تتحكم فيه بالدرجة الأولى مصلحة المجموعة . ولذا نجد المضامين الاجتماعية والسياسية التي تنطوي عليها السيرة الهلالية متجلية وبالخصوص في الروايات المتناقلة في الوقت الحاضر .

٦ ـ ٢ ـ وعلى هذا الصعيد تبدو الثنائية بدو // حضر ثنائية ثابتة في تزامنية النص . فأول اثبات للسيرة الهلالية والمتمثل في النص الذي أورده ابن خلدون يبرز هذه الثنائية بصفة واضحة خاصة وأن الصراع بين أهل البداوة والحضر كان ظاهرة اجتماعية قد كرسها الوضع الاجتماعي السياسي .

وفي الواقع استمر هذا الصراع بين المجموعتين طيلة قرون ولم ينته الا عندما شرعت القبائل « البدوية » في الاستقرار . بل ان هذا الاستقرار ـ كما هو معروف ـ لم يحدث بمحض ارادة القبائل الرحل وانما عملت السلط المدنية الحاكمة (وكذلك الشأن مع السلط الاستعمارية) على فرض الاستقرار « المكاني » عليها .

٦ ـ ٣ ـ وما أن استقرت هذه القبائل الرحل حتى أصبحت تتعاطى مهنة الفلاحة أو بالاحرى عمل الأرض لفائدة مالكي الأرض : وهو ما نطلق عليه ـ في تونس ـ عمل « الخماسة » .

وهذا التحول الاجتماعي يؤدي بدوره الى ادخال تعديلات معجمية على طرفي الثنائية التي بعد أن كانت بدو // حضر تصبح : فلاحون // اقطاعيون (حضر) . ولا يفيد هذا التعديل المعجمي بالضرورة أن المحور المضموني للثنائية قد تعدل هو الآخر بل إن الصراع بين الطرفين ثابت ومستمر .

---

(٢٨)

A. Bel, "la Djazya, chanson arabe precedee d'observations sur quelques legendes arabes et sur la geste des Banu Hilal," **Journal Alastique**, 1902-3).

(٢٩) ونجد مثالا لهذا التصرف الاستراتيجي في مخطوط تونس عدد ٥٠١٢ راجع : فهرست مخطوطات المكتبة الأحمدية بتونس الفصل ١١ (بيروت : دار الفتح ، ١٩٦٩)

(٣٠) راجع دائرة المعارف الاسلامية مقال Saga:

(٣١) راجع عبد الرحمان أيوب « قصيدة ليبية حول ذياب الهلالي » (بالفرنسية) ، مجلة كلية التربية (طرابلس . ١٩٨٠) .

ولذا فان النقل التزامني للسيرة الهلالية لم يكن في حاجة لابدال لفظي الثنائية بغيرهما ، فحالة التماثل كافية لجعل الناقل (الراوي والمستمع) يعوض بنفسه لفظ : « البدو // العرب » بلفظ « فلاح // عامل // خدام . . » وبالمثل فيما يتعلق باللفظ الثاني للثنائية الذي سيبقى معجميا ثابتا مهما كانت التحولات التي سيخضع لها مضمون النص الهلالي .

ولعله من المفيد أن نعاين « تحول العلاقة مع السلطة » في سياق التزامن النصي لأن النص المذكور هو عبارة عن « مجموع » نصوص تم نقلها خلال قرون طويلة ولم تتخذ شكلا مكتوبا الا في مطلع القرن الثامن عشر مع أنها لا زالت تنقل شفاهيا حتى يوم الناس هذا .

٦ ـ ٤ ـ ويبدو من جهة أخرى أن الأدب يتطور نتيجة عملية ديالكتيكية تتمثل في شكل التداخل بين المعطيات الاجتماعية والانتاج الادبي . ولذا فليس من الانصاف أن يعمد الباحث الى التعامل مع النص الهلالي ـ وقس على ذلك بقية نصوص السير ـ وكأنها ركام ثابت ، أو نهر راكد لا تتبدل ألوان مائه الا بتغير وضعية الشمس وانعكاس أشعتها عليه . وكم من باحث في مجال المأثورات الشعبية (الشفاهية منها بالخصوص) لا تحدوه اليوم سوى فكرة جمع نص موحد ومتكامل للسير ، وكأن الباحث هنا ـ ولعل ذلك تحت التأثير السطحي لعملية طباعة النصوص الملحمية[٣٢] ـ يبحث عن اقامة الدليل على عدم وجود « التنوع » في النص المتواتر مما يثبت أن نقلة السير على مر التاريخ هم حفظة لضمير أمة واحدة غير متنوعة . وكأن التاريخ بطل عن احداثاته ، وكأن المجتمع ثابت غير متغير بطبقاته وتقسيماته الاجتماعية ؛ وكأن النص المروي اليوم ليس سوى ترديد الماضي = الحاضر[٣٣] .

٦ ـ ٥ وفي الواقع لم ينتج الميدان رواية لأية سيرة مهما كانت ممتدة مثل النهر الجارف . والباحثون المتأثرون بالمدرسة الشكلية[٣٤] يهملون الطروحات التاريخية والاجتماعية والسياسية التي تنطوي عليها مضامين الأدب الشعبي .

فالدراسات الأوربية التي تعلق اهتماما كبيرا على « ألف ليلة وليلة » مثلا لا يهمها الا تطبيق المنهجية البروبية (دراسة التراكيب الصيغية) لنصوص القصص[٣٥] . ونفس التصرف ظاهر اليوم فيما يتعلق بدراسة نصوص السير العربية على يد الباحثين العرب وغير العرب . ولذا يبقى السؤال المطروح أعلاه دون جواب : « لماذا رأت النور قصص ألف ليلة وليلة ؟ » « لماذا رأت النور سيرة بني هلال ؟ » وبالأحرى : « لماذا تواصل الشعوب العربية نقل بعض السير وبالخصوص سيرة بني هلال ؟ » .

والأجدى في اعتقادنا أن تكون هذه الأسئلة نقطة الانطلاق لأي بحث في مجال المأثور الشفاهي (الأدب الشعبي) .

---

(٣٢) وهذا ما حاولته فعلا لوسيان سعادة انظر

L. Saada, "Mission en Tunisia", **G.L.E.C.S**, 18-23 (1973-79

وكذلك ما يحاوله عبد الرحمان الأبنودي انظر :

La gest Hililianne

(٣٣) راجع يوري سوكولوف ، الفولكلور ، قضاياه وتاريخه ، ترجمة حلمي شعراوي وعبد الحميد حواس (القاهرة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر : ١٩٧١) ، الفصل الثاني : ص ٥٩ ـ ١٥٥

(٣٤) راجع سيرة بني هلال أعمال الندوة العالمية بالحمامات (980) (تونس الدار التونسية للنشر تحت الطبع)

(٣٥) انظر على سبيل المثال

A. Miquel, **Un conte des Mille et une nuits, Ajib et Gharib**, (Paris: Flammarion, 1977)

H.T. Norris, **The Adventures of Antar**, "Approaches to Arabic" (England: 1980)

والمحاولة الايجابية للباحث البريطاني .

٧ ـ التواصل في التغير : التنوع في الوحدة

٧ ـ ١ ـ وتعتبر بعض العناصر الروائية ـ مثل حالة التماثل ـ مسؤولة عن ظاهرة « التواصل في التغير » التي تتصف بها نصوص السير العربية ومن بينها السيرة الهلالية . واذا اعتمد الباحث الثنائية الأساسية (بدو // حضر أو المجموعة الفلاحية // السلطة المدنية) بمثابة فرضية للبحث فانه سيلاحظ أن نقلة السير الشعبية ـ (الرواة) ويكاد جميعهم ينتمون الى الوسط الفلاحي (البدوي) ويجهلون القراءة والكتابة أو يكادون ـ يتماثلون برسالة النص المروي : كيف تمكنت قبيلة بني هلال ـ أو أحد أبطالها ـ من تحقيق الانتصار على خصمها ؟

ويمثل هذا المضمون ـ كما نعلم ـ الاهتمام الأولي عند المجموعات المستغلة (فلاحين وغيرهم) : ما هو السبيل للخروج من الوضعية الاجتماعية التي يكابدها المستغل ؟ ومن هذا المنظار يبدو أن النص الهلالي يقدم طريقة تمكن « المستغل » (المضطهد) من السيطرة على الأرض التي هو في حاجة لها .

٧ ـ ٢ ـ وبالنتيجة تصبح المعادلة التالية : نص ينقل موضوعا معتادا (ينجر عنه) مجموعة مستغلة تتماثل ومضامين النص المنقول . وعلى مستوى التماثل المضموني يمكن أن نرى تماثلا جزئيا في شكل تماثل مجموعة اجتماعية مع شخصية ملحمية تعود تصرفاتها بالفائدة لصالح المجموعة : ففي مصر مثلا ـ يعتبر أبو زيد الهلالي شخصية شعبية . وهو شجاع ومحنك ويحسن في كل الظروف استعمال الخطاب (السياسي) وحمل السيف ويتحرك للحصول على المرعى الذي تحتاجه قبيلته وعادة ما يحصل عليه لا بسيفه وانما بحنكته[٣٦] .

وفي بلاد المغرب العربي تحتل الجازية الهلالية الصدارة في الروايات المتناقلة وقد يعود تفوق هذه الشخصية المعروفة بشجاعتها وحميتها وتضحياتها من أجل قبيلتها الى الدور الذي تلعبه في الضمير الشعبي الجماعي الأرضية البربرية في المساعدة على اقامة حالة التماثل بين البطلة الملحمية (الأسطورية الجازية) والبطلة البربرية التاريخية الكاهنة[٣٧] . والروايات الهلالية البربرية التي سجلت في الجزائر تعتمد اثباتا لهذا الافتراض[٣٨] .

٧ ـ ٣ ـ وباختصار اذا لم تتماثل المجموعة الفلاحية (البدوية) بشكل أو آخر مع الطرف الأول من الثنائية (بدو // رحل) فلا نرى موجبا عندها لتواصل اليوم نقل « السيرة » . وقد يكون من المفيد أن ينظر الباحث للسيرة الهلالية في السياق الشامل للأدب الشعبي حتى يتمكن من ادراك « التماثل » الذي يحدث بين (موتيفات) السيرة (الملحمة) ونقلتها .

والقصص الشعبي التي تدور حول الفلاحين تصور جيدا كيفية توظيف « حالة التماثل » . ولقد جمع لين[٣٩] مدة اقامته بمصر عددا من القصص التي يواجه الفلاح فيها السلطة التركية . وهذه الأقاصيص التي سجلها لين ومن بعده حسن الشامي[٤٠] تصور رفض المصريين لحاكم جعل من الفلاح عبدا واثقل كاهله بفرض الجباية عليه[٤١] .

---

(٣٦) ولعله من المفيد مواصلة البحث في هذا الاتجاه للتأكد فيما اذا كانت نقلة الهلالية ـ في الوسط الفلاحي المصري ـ لا تقيم موازاة بين أبي زيد الهلالي وجمال عبد الناصر خاصة في فترة ما يطلق عليه بالاصلاح الزراعي .

(٣٧) راجع : مادة الكاهنة دائرة المعارف الاسلامية (ط . الثانية)

(٣٨) انظر : م . س .

Breteau, Galley, "Reflexions".

(٣٩) راجع م . س

E. Lane, "An Account."

(٤٠) Hasan M. El-shamy, **Folktales of Egypt**, (Chicago: University of Chicago press, 1980).

(٤١) راجع المقريزي ، كتاب الخطط المقريزية ؟ (القاهرة : مكتبة احياء العلوم ، ١٩٥٩) ص ٨٧ وما يليها

٧ ـ ٣ ـ ١ ـ وخلال هذين القرنين استقر الاستعمار في العالم العربي وما الاستعمار الفرنسي أو الايطالي أو الانجليزي الا البديل للسلطة التركية التي في بعض الأحيان لم تترك الساحة السياسية الا في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين(٤٢) . وخلال هذه المدة ارتقت السيرة الهلالية خصوصا ذروة مجدها ، والرصيد المخطوط منها يثبت ذلك(٤٣) . وتمثل هذه الوضعية نفس التداخل الذي نلمسه اليوم بين الحدث السياسي والحدث الأدبي ان صح التعبير . ولذا عندما نطرح السؤال على الراوي الشعبي ـ لماذا تروي السيرة الهلالية ؟ « لا نفاجأ بما أصبحت إجابة معتادة » : لأني أرى فيها أمجاد الأولين(٤٤) .

فهل يحتاج المرء أن ينشد أمجاد الأوائل لو كان هو نفسه مجيدا ؟! أو كما قال طرفة ابن العبد :

ان الفتى من قال أنا ليس الفتى من قال كان أبي .

٧ ـ ٣ ـ ٢ ـ وليست السيرة الهلالية وحدها التي انتشرت بكثافة خلال القرنين المذكورين . فقد لقي الكثير من السير والقصص نفس المصير ، وعدا السير الدينية نذكر على سبيل المثال لا الحصر : سيرة عنترة بن شداد(٤٥) سيرة سيف بن ذي يزن(٤٦) . . . . . وألف ليلة وليلة(٤٧) . وقد يحدو بنا الرأي على غرار ما ذهب اليه البعض الى أن انبعاث القصص الشعبي بصفة عامة انما كان نتيجة تخلف ثقافي (انحدار ثقافي) عاشه العرب وأقول أدبهم الكلاسيكي (أي الأدب الفصيح)(٤٨) .

بيد أن انبعاث الأدب الشعبي كان قد واكب بعض الأحداث التاريخية . والسيرة الهلالية قامت هي نفسها على احداث تاريخية ثابتة(٤٩) . وكأن لسان الحال يقول أن هذه السيرة كانت ملائمة لأن تكون أرضية متقبلة لعملية التماثل التي تنساق اليها مجموعة مستغلة . فعبر حالة التماثل هذه تعبر المجموعات المستغلة عن دوافعها لرفض كل سلطة تفرض عليها .

ولعلنا نجد في الأمثلة الثلاثة المدرجة أسفله والمنتخبة من أرضيات عربية متمايزة وهي ـ تونس وليبيا والأردن ، ما يعاضد هذا الطرح .

٧ ـ ٤ ـ النموذج التونسي

٧ ـ ٤ ـ ١ ـ في الجنوب التونسي ، حيث هناك أكثر من اثبات على الحضور الهلالي ، تم في أواخر القرن الماضي تسجيل رواية هلالية تطلق عليها رواية تشين(٥٠) . وتدور أساسا حول إحداث الجازية لاتفاق بين قبيلتها والسلطة السياسية القائمة في شمال القطر التونسي (بر افريقية) . ويتطور السرد في هذه الرواية بصفة عادية ـ يترك

---

(٤٢) ارجع عبد الرحمان أيوب م . س ، وكذلك المخطوطات ٩١٨٨ الى ٩٣٦١ في :

W. von Ahlwardt, **Die Verzichniss de Koniglichen Bibkiothek zu** Berlin,19

(٤٣) المرجع السابق

(٤٤) راجع مقدمة عبد الرحمان قيقة للسيرة الهلالية : **La gest Hililianne**

(٤٥) م . س **Norris**

(٤٦) R. Paret, **Sirat Saif B. dhi yazan, ein arabischer volksroman,** (Hanover, 1924).

(٤٧) E.W. Lane, **Arabian Nights,** New Yord, F.S. Holby, 1913.

(٤٨) وهي وجهة نظر معروفة لدى المستشرقين ومن تتلمذ عنهم من أهل هذا العصر ،

(٤٩) نذكر من بينها تحالف الهلاليين مع القرامطة ، والتحالف الهلالي الاباضي (جبل نفوسة) ضد الحكم الفاطمي بالمهدية (القرن الخامس للهجرة) .

(٥٠) راجع ميشلين غالي وعبد الرحمان أيوب ، رواية تشين في :

Histoire des Beni Hilal et de ce qui leur advint dans leur marche vers l'ouest, (classiques Africains, Armand colin, Paris 1983)

بنو هلال نجد بحثا عن المرعى ، وتشق القبيلة أرض مصر ثم أرض برقة وطرابلس دون أن يحدث ما يوقفها عن سعيها وما أن تصل الى افريقية حتى تدخل في صراع مع حاكم تونس (خليفة الزناتي) . لم تكن القبيلة ترغب الا في الحصول على القوت لها ولماشيتها ولم يكن حاكم تونس ليسمح للقبيلة بذلك الا اذا وافقت الجازية على الزواج منه . وتوافق الجازية ويحدث الزواج . ثم تلجأ الى حيلة (وهي شكل من أشكال الصراع الاستراتيجي) للعودة الى قبيلتها وما أن تعود الجازية الى قبيلتها حتى « يعوضها » الراوي بشخصية غير هلالية . وليست هذه الشخصية الجديدة سوى « عزيزة عثمانة » أي عزيزة بنت عثمان باي التي عاشت في أواخر القرن السادس عشر (١٥٦٠ـ ١٦١٠)[٥١] وعرفت بأعمالها الخيرية لفائدة الطبقة الكادحة .

٧ ـ ٤ ـ ٢ ـ وليس هذا الانتقال المفاجىء كما يذهب الظن بالبعض نتيجة خلط في ذاكرة الراوي وانما هو دليل على عملية التماثل التي أحدثها ـ شعوريا أو لا شعوريا ـ الراوي بين عزيزة عثمانة و « الجازية » اذ أنه في نقله للرسالة الهلالية كان كما يبدو قد أحل نفسه في تاريخ مجموعته الاجتماعية وبالتالي كان ينقل وقائع تاريخه المعاش .

وقد يفسر هذا « التعويض » على أنه ترجمة للاحساس الاجتماعي عند الراوي وجمهوره والمتمثل في الشكوى من غياب « الاصلاحات الاجتماعية » التي من شأنها أن تساعد سكان الجنوب التونسي وهي في اغلبهم من العمال الزراعيين أو الرعاة .

٧ ـ ٤ ـ ٣ ـ وقد يكون من المفيد أن تقرأ هذه الرواية بطريقة تراجعية (من آخرها الى مطلعها) حتى تدرك دلالة الرسالة المنطوية عليها والتي تأخذ كامل مصداقيتها اذا ما قورنت ببعض دلالات الأمثال الشعبية التي كانت سائرة آنذاك[٥٢]. ولقد إلتجأ راوي السيرة بصنيعه الى ادخال عزيزة عثمانة في المأثور الشعبي ، ولكنه احتاط لذلك حتى لا يحدث تنافر وحتى يحلها في استمرارية المأثور ـ بأن كساها لباس الهلاليين القدامى .

٧ ـ ٥ ـ النموذج الليبي :

٧ ـ ٥ ـ ١ ـ المثال أسفله مستخرج من بحث ميداني أجريته في منطقة طرابلس (ليبيا)[٥٣]. ولا تقل المادة المسجلة عن ٨١ ساعة من الروايات المتنوعة للسيرة الهلالية على لسان نقلتها الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٤ سنة و ٨٥ سنة . وهم يمثلون عينة متكاملة من التنوع الاجتماعي الليبي وينتمون الى وسطين متميزين ، الوسط الفلاحي والوسط الجبلي ، ويعود استقرارهم في مدينة طرابلس الى السنوات الأخيرة (بعد ١٩٦٩) .

وتتفق هذه الروايات حول « ذياب الهلالي » بمثابته البطل الرئيسي : فله من الخصال ما يبوؤه الصدارة مثل : الأقدام والشجاعة ، والأخذ بالثأر ونجدة القبيلة كلما هددها الخطر[٥٤].

٧ ـ ٥ ـ ٢ ـ وكنت بعد حصة التسجيل أطرح السؤال التالي : « ماذا يمثل ذياب بالنسبة لك » فكانت أغلب الاجابات الفورية : « ذياب هو نموذج وفي مسايرته منفعة . وهناك درس يستخلص من تصرفه ومن السيرة . . . لمواجهة التقلبات السياسية التي جعلت العالم العربي والاسلامي على ماهو عليه اليوم » .

وفي هذه الاجابة ما يدل على أن اختيار « ذياب الهلالي » بطلا كان اختيارا مدركا وفي الواقع لا يختلف ذياب (رجل الحركة الدائبة الذي لا يريح فرسه و « راعي الابل ») عن أي انسان ليبي من الصنف الذي

---

(٥١) راجع حسن حسني عبد الوهاب ، شهيرات التونسيات (تونس : مطبعة المنار ، ١٩٦٨

(٥٢)بعض هذه الأمثال في : الطاهر الحميري ، منخبات من الأمثال العامية التونسية (تونس . الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٧)

(٥٣) مجموع هذه التسجيلات محتفظ به بما كان يطلق عليه ؟ « مركز الجهاد الليبي » (مركز دراسات التاريخ الليبي) أجري العمل الميداني خلال (١٩٧٨ ـ ١٩٧٩) .

(٥٤) راجع عبد الرحمان أيوب ، « قصيدة ليبية

حددته عينة البحث الميداني . فهذا الانسان نفسه يقوم كذلك بالوظائف الثلاث المذكورة . وبالتالي فهذا الاختيار المدرك قد نتج عن « حالة التماثل » التي سلطها الراوي على بطل روايته .

٧ ـ ٥ ـ ٣ ـ ويقيم جزء من المادة المسجلة مماثلة بين الشخصية الهلالية (ذياب) ووجهين من وجوه الساحة السياسية الليبية المعاصرة . أما الوجه الأول الذي يشير اليه الرواة المتقدمون في السن فهو عمر المختار[٥٥]. وأما الوجه الثاني الذي يشير اليه الرواة الأقل سنا فهو معمر القذافي . واذا كانت حالة التماثل مع الوجه الثاني أقل وضوحا فأغلب الظن أنها ستصبح أكثر تجليا في الروايات الشعبية (البطولية) التي سيقع تسجيلها في السنوات المقبلة .

٧ ـ ٥ ـ ٤ ـ وتتجلى حالة التماثل مع عمر المختار في النصوص المسجلة ، فالبعض منها صور « ذياب الهلالي » ـ في مدينة غدامس ـ مشهرا سلاحه على قبائل نازحة من سواحل ليبيا ، والواقع ان ذياب هذا ليس الا عمر المختار ضاربا بسلاحه جنود المستعمر الايطالي . ولا غرابة في مثل « حالة التماثل » هذه خاصة اذا علمنا وأن راوي هذه « الأحداث » كان في فترة ما من تاريخ ليبيا المعاصرة من بين أولئك الذين يطلق عليهم « المجاهدين » ولا غرابة فيها أيضا اذا وجدنا بعض الرواة لا يقلد ذياب « البارودة » أو « السيف » وانما « الرشاشة (البُنْدُقَة) » و« المدفع ». وقد يتبادر للذهن ان هذا « التبديل المعجمي » ضرب من المفارقة الزمنية anachronism ولكن المفارقة الزمنية قد لا تتجاوز السطح من النص .

٧ ـ ٥ ـ ٥ ـ ويبدو لي أن ناقل السيرة هنا « يماثل » ـ أو قل : يمازج ـ بين الشخصيتين . فالسيرة بالنسبة اليه قد اصبحت بمثابة الشبكة التي تحاك عليها « لفائف » التاريخ المحلي . ولقد ناقش ب. لورد عملية التمازج في السرد القصصي لسياق مماثل قائلا : « ان الحماس الوطني الذي تألق خلال القرن التاسع عشر قد أدى الى استعمال السير الشعبية لأغراض الدعاية الوطنية : فالقصائد تمجد الابطال القدماء وتصف صراع الوطن مع الأعداء الأجانب »[٥٦] ومهما وافق قول لورد بعضا من الأدب الشعبي العربي الذي جند لغرض الدعاية فان السير الشعبية ـ والهلالية بالخصوص ـ منزهة من ذلك وعلى كل فالروايات الهلالية الليبية المذكورة قد غيرت بعض العناصر واستبدلتها بغيرها التي تطبع الشخصية بالطابع المحلي : فاللباس الذي يكتسيه ذياب هو « اللحاف » المحلي والطعام الذي يقتاته مكون من الأكلات الشعبية الليبية . . . . الخ . وباختصار جعلت الروايات الهلالية من ذياب الهلالي ذيابا ليبيا : وما هذا الأخير سوى عمر المختار[٥٧].

٧ ـ ٦ ـ النموذج الأردني :

٧ ـ ٦ ـ ١ ـ تقوم الاستنتاجات التي سأسوقها فيما يلي على المادة المجمعة خلال العمل الميداني الذي أجريته :

أ ـ مع المجموعة الأردنية في المنطقة الفلاحية من الأردن .

ب ـ ومع المجموعة الفلسطينية المقيمة في مخيمات الشمال الغربي من الأردن[٥٨].

وفي الروايات الهلالية التي تنقلها المجموعتان الأردنية والفلسطينية ـ والتي يطلق عليها عادة سيرة ابي زيد الهلالي ـ يقوم أبو زيد الهلالي بدور البطل وهو على غرار ما في الروايات المصرية وروايات شمال افريقيا وافريقيا ما تحت الصحراء قد عتق نفسه بذكائه (ودهائه) وسلامة رأيه .

---

(٥٥) أحد الوجوه السياسية اللامعة في التاريخ الليبي المعاصر وكان قائد الحرب الليبية الايطالية في مطلع هذا القرن .

(٥٦) لورد . ص ٧

(٥٧) وقد نتساءل عن غياب عمر المختار من الأدب الشعبي الليبي بصفة عامة رغم وفره هذا الأدب . ولكن أؤكد هنا على التحولات التي مر بها المأثور الشعبي : والسيرة الهلالية جزء هام من الأدب الشعبي الليبي .

(٥٨) أجريت هذا العمل الميداني خلال اقامتي بمدينة اربد (شمال غربي عمان) ما بين سنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨١ .

٧ ـ ٦ ـ ٢ ـ وفي بعض الروايات المسجلة في المنطقة الفلاحية من الأردن يكتسي أبو زيد لباس الفلاح ، ويشتغل الأرض ويجلس آخر اليوم حول « المِنْقَل » ليحتسي مع الفلاحين « القهوة السادة » وليتحاور معهم في شؤون القبيلة[٥٩].

ويتواصل السرد : أبو زيد الفلاح يعرف السبيل لمقاومة ـ « البدو » ـ النازحين من الجنوب للسطو على الفلاحين ولافتكاك « المحصول الزراعي » .

وتظهر هذه الصورة كما نرى حالة من القلب الجذري : فأبوزيد ـ كما هو شائع في الروايات الهلالية ـ ينتمي للمجموعة البدوية التي تهاجم « الحضر » للحصول على المرعى . وهذا القلب الجذري هو ـ في الحقيقة ـ عملية تحويلية تكتسب مدلولا هاما اذا وضعت في سياقها التاريخي . وهناك عدة مصادر تاريخية تثبت أن بدو جنوبي الأردن كانوا يقومون بغارات شبه منتظمة على المناطق الفلاحية الشمالية[٦٠] لانتزاع المحصول الزراعي من الفلاحين .

فالروايات الهلالية في المنطقة الفلاحية من الأردن بذكرها لأحداث مماثلة لما يورده التاريخ انما تسجل احداثا تاريخية . وما « عملية التحويل » التي اجريت على مستوى شخصية ابي زيد الهلالي سوى اشارة غير مباشرة الى أن المجموعة الفلاحية كانت ـ ولعلها لا تزال ـ تفتقد « لشخصية ـ بطل » بامكانها أن تحتل وظيفة ابي زيد كما يحددها « الضمير الجماعي » في روايات السيرة الهلالية .

٧ ـ ٦ ـ ٣ ـ وفي القصص الشعبي عند فلاحي الأردن أكثر من دليل على هذه الرغبة في « أحداث » البطل الحامي . فأغلبها يروي « الحيل » التي يلجأ اليها الفلاح لاخفاء المحصول الزراعي[٦١]. فهل يحتاج الفلاحون الى اخفاء المحصول الزراعي لو كان بينهم « أبو زيد » يثني عزائم السلاطين ويعيد البدو الى صحرائهم ؟ وكأن الراوي (الفلاح) يلجأ الى عملية « التبطين الدلالي » عندما يستعمل عبارة « اخفاء المحصول الزراعي » . ولغرض ما تشير العبارة الى اخفاء الدلالة الحقيقية للقصة المنقولة . ومما هو ثابت تاريخيا ان السلطة العثمانية (ثم التركية) هي التي كانت « تأخذ » من الفلاح « محصوله الزراعي » . وعبارة « تأخذ المحصول الزراعي » في الروايات الهلالية الأردنية بديل لعبارة « تسلب . . . » . ولقد كانت هذه السلطة تعمد الى السلب وذلك في شكل فرض الضرائب المشطة أو في شكل مصادرة المنتوج الفلاحي اذا لم يتمكن الفلاح من دفع الضريبة .

٧ ـ ٦ ـ ٤ ـ و « الجباية » قائمة الى اليوم في ظل الحكم الراهن وكذلك يتواصل نقل الروايات الهلالية اليوم . وبعبارة أخرى كان الراوي الشعبي ـ الفلاح ـ يعمد في نقله للمأثور الشفاهي الى « الوظيفة السردية » التي نطلق عليها « بالتركيبة المزدوجة للخطاب » double articulation. وتتمثل التركيبة المزدوجة (أولا) في عملية التحويل التي تطرأ على شخصية أبي زيد الهلالي وتجعل منه شخصية « محلية » (فلاحا) (وثانيا) في عملية اخفاء الدلالة الاجتماعية الحقيقية للخطاب المنقول وتعويضها بسرد أحداث اجتماعية تنتمي للماضي (ولو أن هذا الماضي يعكس الحاضر) .

---

(٥٩) تجدر الاشارة بأن الفكر القبلي لم يضمحل بعد عند الشعب الأردني

(٦٠) راجع :

M. Guichon, **LA Jodanie reelle,** (Paris, Maissonneuve, 1970)

(٦١) تتمثل احدى الحيل في « اخفاء « الحبوب في « الآبار » ؟ الخاصة بذلك . راجع :

A. Ayoub, "Habitations en milieu rural du Nord-ouest de la Jordanie", **Bulletin des Etudes Orientales,** (Damas £ 1982)

و « التركيبة المزدوجة » التي هي من العناصر البنوية للصنف الروائي ظاهرة دلالية (وشكلية ، دون شك) تساعد على عملية « التماثل » . وهي في النهاية تبرز المستوى التحتي للخطاب المتمثل في الثنائية التقابلية : الوسط الفلاحي // السلطة (المدنية) ولا تختلف هـذه الثنائية في جوهـرها عن الثنائية الأساسية : بدو // حضر . بل ليست الثنائية السابقة سوى « تحول » لها(٦٢).

٧ ـ ٧ ـ النموذج الفلسطيني :

٧ ـ ٧ ـ ١ ـ وتقدم لنا البيئة الفلسطينية (في الأردن) طرحا مغايرا لما تقدم . ففي أفواه الرواة الفلسطينيين لم تعد السيرة الهلالية ذلك النهر الجارف فحسبها رافدا يكاد يكون جافا . ولا يكاد الراوي يستهل سرده حتى يتوقف عنه قائلا : « سيرة ابي زيد الهلالي مرجعها الماضي ، ولنا اليوم سيرنا » . وفي هذا الحكم على السير القديمة اقرار ضمني للدور الذي يمكن أن تقوم به « حالة التماثل » في استمرارية نقل المأثور الشعبي . وبيان ذلك كما يلي : في الروايات القصيرة » (جدا) التي تم تسجيلها على لسان رواة من المخيمات الفلسطينية يلاحظ أن شخصية أبي زيد لا تنتمي ـ في ظاهرها على الأقل ـ الى الماضي ، وانما الى الحاضر المباشر : فهو المحارب الدائب الحركة والمتنقل داخل رقعة جغرافية جميع مواقعها ـ مدنا وقرى ـ فلسطينية . وهو يحمل سلاحا حديثا وينتصب في أعالي الجبال لمحاربة العدو (هكذا السرد) . وباختصار فأبو زيد (الفلسطيني) ليس الا الاسم الملحمي لشخصية : الفدائي . والباحث الذي يمعن الاستماع للروايات الهلالية التي ينقلها الرواة الفلسطينيون قد يعسر عليه أن يصدق أن ما يستمع اليه هو جزء من السيرة الهلالية . واذا ما فاتح الراوي في أمر شكه ـ وأن أبا زيد الهلالي شخصية تختلف عن الشخصية المذكورة في الرواية ، تكون اجابته كالآتي : « كم من أبي زيد بيننا الآن . . . وْشُوبِدْنَا في الآخر ! »(٦٣).

٧ ـ ٧ ـ ٢ ـ واطلق على هذا النوع من « التماثل » التماثل المدرك : فالراوي الذي لم يعد يرغب في نقل السيرة الهلالية يعمد ـ بطريقة شعورية ـ الى ادخال الحاضر في « سرده » وهو ينحو لهذا التصرف لأنه هو نفسه ينتمي لمجموعة تخوض صراعا ينعته الراوي نفسه بأنه ملحمي .

ويستمر الراوي الفلسطيني في تذكر السيرة الهلالية لأنها جزء من إرثه الثقافي الذي يحفظ له وقائع من البطولة يعتز بها . وأما رفضه للسيرة الهلالية فيفسر على أن هذه السيرة تمثل شكلا من المنافسة ـ ضمن السجل الروائي للناقل ـ للملحمة الناشئة أي بين تلك التي تخلد الماضي وهذه التي تسجل الحاضر .

٧ ـ ٧ ـ ٣ ـ ولعل في كيفية تَكَوُّن الملحمة الفلسطينية (حسب ما يطلق عليها رواتها) ما يفيد عن تكوّن الملاحم عند الشعوب . ولعل ـ من جهة أخرى ـ في موقف الراوي الفلسطيني ازاء السيرة الهلالية(٦٤) ما يدل على أن « حالة التماثل » من حيث انها عنصر يبرز التحولات التي تخضع لها نصوص الأدب الشعبي ـ انما هي ذات أبعاد متعددة ، وانها « تصهر » في النصوص الملحمية (السير) عناصر من التاريخ الشعبي « الحديث » .

---

(٦٢) راجع
A. Ayoub, "Aspects evolutifs dans Les versions hilaliennes de jordanie" (avec Corpus) (tunis: M.T.E, sous presse).

(٦٣) بلهجة الداوي . وهو دليل على ادراكه لتصرفه في رواية سيرة تنتسب للماضي .

(٦٤) تجدر الملاحظة بأن للرواة نفس الموقف ازاء كبرى السير مثل : سيرة عنترة ، وسيف بن ذي يزن ، وذات الهمة وغيرها .

٨ ـ البنية الملحمية : بين الثبات والاستيعاب

٨ ـ ١ ـ تساعد « حالة التماثل » المتعددة الأبعاد على تبين عملية « تكون » السير وامكانات ثبات عناصرها الاساسية واستيعابها لعناصر « متحولة » .

ويبدو ان اول مرحلة في عملية التكوين « الملحمي » تتمثل في تواجد ما اطلقت عليه بالبنية التحتية (البنية الاساسية) والمكونة (١) من الثنائية (مثل بدو // حضر) التي تعكس وضعا اجتماعيا ، (٢) ومن المحور المضموني الذي يقيم طبيعة العلاقة بين طرفي الثنائية : اي الصراع بين سلطتين .(٦٥) . واما المرحلة الثانية في عملية التكوين الملحمي فتتمثل في ترابط مجموعة من المعطيات « الاجتماعية » وتمحورها حول المحور المضموني . ونذكر من بين هذه المعطيات : « الرحيل » و « الحب المتبادل // المرفوض » ، « الحيلة » ، « الاحداث الخارقة » ، « الهدنة » ، « الحرب القبلية » ، الخ . .

٨ ـ ٢ ـ وتقوم هذه المعطيات ـ بمثابتها عناصر مكونة للبنية الملحمية بصفة عامة ـ بدور العناصر المثرية للبنية التحتية . . التي تصبح بدورها ـ وفي حالة الاكتمال الروائي ـ بنية مثرية . . اما اثراء البنيـة التحتية فمـرتبط بعدد من المعطيات الاجتماعية المتنوعة التي تعيشها ـ أو تتذكرها ـ مجموعة اجتماعية .

ويبدو انه كلما تنقل البنية الاساسية فانها تثرى بعدد من المعطيات الاجتماعية التابعة للمجموعة الجديدة التي تتقبلها .

٨ ـ ٣ ـ واذا مثلنا للبنية الاساسية بالاشارة : « س » وللعناصر المثرية بالاشارة « م » و « م* » (للمعطيات الاجتماعية التي تتقبلها البنية الاساسية) فانه بامكاننا ان نجرد عملية تكون الملحمة في الشكل التالي :

س + م +* م . . . م * . . . = س م م * ن

ويكون « س » في هذه الحالة هو العنصر الثابت و م(م*) العنصر المتحول .(٦٦) .

٨ ـ ٤ ـ وتتفق جميع الروايات الهلالية في انها تحتوي ـ او هي محتواة في ـ البنية الاساسية ، بينما تختلف عن بعضها البعض وتتباين في « البنية الاجتماعية » (م + م*) التي تتمحور حول نفس المحور المضموني . وقد نجد من خلال تنوع « البنى الاجتماعية » تفسيرا لعدم توفر ملحمة عربية اليوم ، في شكل « نهر جارف » ، يذكر فيها الراوي جميع مراحلها ، كما لا نجد في الميدان سيرة هلالية واحدة يذكر الراوي فيها مراحلها الثلاث الاساسية : السيرة ، الرحلة والتغريبة . ولعل صيغة السيرة المطولة ـ التي يبحث البعض عنها ـ ليست في نهاية الامر سوى تصورا خاطيا ادخله النكشرون الذين عمدو الى ضم بعض الروايات المثرات الواحدة للأخرى وهي في حقيقتها متأتية عن رواة مختلفين ومن بقاع وازمنة مختلفة ، والممعن النظر فيها قد لا يعسر عليه تحديد « الحلقات المفرغة بين اجزائها » .

---

(٦٥) راجع أحمد ممو ، « دراسات م . س

(٦٦) راجع .

A. Ayoub, "Analyse segmentaire — sequentielle de quelques versions de la geste arabo-africaine: Sirat Beni Hilel"
(Budapest: 1984-Actes de IIe Conference Internationale sur le folklore en Afrique aujourd'hui, sous presse)

٨ ـ ٥ ـ السير بين المحلية والقومية :

ومن جهة اخرى ، هناك اسباب عدة لاقامة الدليل على انه توجد « سير » مختلفة وليست سيرة هلالية واحدة ومن بينها :

٨ ـ ٥ ـ ١ السبب الجغرافي : ان البقاع المذكورة في رواية هلالية تحدد المجموعة الاجتماعية التي نقلت ـ وتنقل = هذه الرواية ، فالروايات الاردنية والفلسطينية تورد : عكة ، القدس ، الزرقاء ، حيفا ، ام الجمال وغيرها . . بينما تذهب الروايات الهلالية الليبية الى ذكر : طرابلس ، وبنغازي ، فساطو ، غدامس ، نالوت ، وغيرها . . وتذكر الروايات التونسية : قابس ، البيبان ، وكلقيروان ، تونس وغيرها من المدن والقرى ، وكذلك تصنع الروايات المصرية والسورية والعراقية . . بيد ان جميع هذه الروايات تتفق جميعا حول ذكرها لعدد من الاماكن « التابعة » للبنية الثابتة للسيرة وهي ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ نجد ، تونس الخضراء ، او (افريقية) البحر (= نهر النيل) الشام ، الخ . .

٨ ـ ٥ ـ ٢ ـ السبب المعجمي واللساني : ان أغلب الألفاظ المستعملة في الروايات الهلالية تدل على بيئاتها ، وليس من العسير التمييز بين رواية مصرية : من الصعيد او من الدلتا ، وبين أخرى من تونس او العراق ، الخ . . ويتم هذا التمييز على المستويين المعجمي والصرفي ـ التركيبي (الصيغي) . ولعل في التنوع اللساني لروايات السيرة ما يدفع بالباحث الى وضع « معاجم » لسانية لهجية لها حتى يعيد كل جزء منها لمورد (وهو ما نحن بصدده مع مخطوطات تونس لسيرة بني هلال) .

٨ ـ ٥ ـ ٣ ـ السبب التاريخي : ان الروايات التي نسجلها اليوم مطبوعة بطابع التاريخي المحلي . فالروايات المغربية تحوي احداث تاريخية وقعت في المغرب العربي والروايات التشادية تحوي احداث وقعت في التشاد ، الخ(٦٧)

٨ ـ ٥ ـ ٤ ـ واما الانطباع الذي يحصل عند المتقبل للسيرة الهلالية بتوحد متنها فمأتاه ان الروايات التي تكونه تشتمل جميعها على بنية اساسية واحدة : ولكنها في الحقيقة متباينة ـ ولو جزئيا ـ وذلك بما تحويه من خاصيات محلية . وهي لهذا السبب قد تعتبر ارضية مطواعة لدراسة العقليات « المحلية » (ان صح التعبير) بصفة عامة ، او لدراسة ما اطلقت عليه « بالتصور الشعبي للتاريخ » بصفة خاصة .

٨ ـ ٦ ـ وبمثابتها وثائق شفاهية تتطلب منهاجا تحليليا مطابقا ، فان النصوص الهلالية ـ على غرار بقية نصوص الادب الشعبي العربي ، تمثل وثائق (ارشيفا) هامة للتاريخ المروي ، وهذه الوثائق التي رصدت في الذاكرة الشعبية نتيجة فعل « التماثل » في مقدرة الراوي على « النقل والتخزين » (= التذكر) بامكانها ان « تخبر » بطريقة اجدى مما يقوم به التاريخ الرسمي . وهي تفيدنا بما يسكت عنه الاعلام الملتزم : كالانطباع الذي يتركه في نفوس الشعوب الصراع القبلي ، او الكوارث الطبيعية مثل المجاعة ، والزلازل وغيرها .

٨ ـ ٧ ـ وحتى تحصل الفائدة ينبغي ان تعاين نصوص السير عامة والنص الهلالي بصفة خاصة على مستوى التعاقب الزمني ، لأن التعاقب الزمني يبرز دور الذاكرة والتذكر . والذاكرة الشعبية ذات طبيعة انتقائية ولذا فهي على مدى التعاقب الزمني المحكم المراحل تظهر (من خلال ظاهرة التذكر / النسيان (= الرفض) عددا من

---

(٦٧) راجع : Patterson

الاحداث التي واجهتها المجموعة الناقلة او لا تزال تواجهها وبقيت على سطح الذاكرة (الانتقائية) . ولأن الأدب الشعبي (الشفاهي) هو بمثابة « الوعاء » الذي « تخزن » فيه الشعوب « ذاكرتها » (ذاكراتها) وتصنفها فيه تصنيفا خاصا ، فانه بالامكان اعتبار هذا الادب اهم رصيد ممثل « للذاكرة الجماعية » . وفي هذا السياق يجدر تحديد « الذاكرة » ودورها من جهة ، وماهية « المقدرة الابداعية لنقلة السير » من جهة اخرى .

وهذا التحديد بالاضافة الى ادراك افضل لعملية « المماثلة » ـ يساعد على التعرف على « مقومات الذاكرة الجماعية » .

الجزء الثالث :

٩ ـ الذاكرة الشعبية / الجماعية :

٩ ـ ١ ـ يحدد روبرت الذاكرة كالاتي : « انها الملكة التي تجمع وتحفظ المدركات الماضية وما يرتبط بها » . ويضيف « وهي في الواقع » الفكر « الذي يخزن ذاكرة الماضي » [٦٨] . ففكر الراوي الشعبي ينطلق من حاضره ويتدرج تراجعيا في مدار التعاقب الزمني . وخلال عملية التدرج يتذكر الراوي المادة الروائية وينسج « الحديث » .

٩ ـ ٢ ـ وعندما ناقش « لورد » التصرف الروائي لنقلة التراث اليوغسلافيين اقترح ان الراوي يقوم بعملية انتقائية ضمن سلسلة من مراحل التذكر [٦٩] وكان شغله الشاغل ان يحدد ضمن تواقتيه محددة المراحل التي يمر بها « المتعلم » لفن الرواية حتى يصبح راويا محترفا . لذا زعم ان الناقل للمأثور خلال مراحل تعلمه ـ يعمد اولا الى محاولة التحكم (= حذق) في البنية الاساسية للرواية ، ثم يلجأ الى اثرائها بالعناصر الملحمية . وفي نظر لورد تكون البنية الاساسية مكونة من « الصيغ » الجاهزة (أو شبه الجاهزة) وان تطعيمها بالعناصر الملحمية ـ خلال عملية التعلم لفن الرواية ـ يعكس المقدرة الابداعية للراوي [٧٠] .

٩ ـ ٣ ـ وقراءة لورد تحمل على الاعتقاد بان وظيفة الراوي الشعبي تنحصر في « الاعادة » بل وان وظيفته تتمثل في :

أ ـ محاولة تجميع وتذكر البنية الاساسية (الصيغ) للرواية (السيرة) الملحمية (الانشودة البطولية) .
ب ـ تذكر مختلف العناصر التي تتكون منها الرواية .
ج ـ السعي الدؤوب لتذكر المنتج الملحمي باكمله وذلك بواسطة « الاعادة » (التكرار) .

وكأن المساهمة الابداعية للراوي الشعبي ـ حسب لورد ـ تتمثل فقط في اسلوبه الشخصي في تقديم (نقل) نفس العناصر الملحمية التي « حفظها » عن ظهر قلب .

---

(٦٨) راجع :
Paul Robert, le Robert, Dictionnaire alphabetique et analogique de la langue francaise, 4 (Paris: 1970), 351
(٦٩) راجع ، لورد م . س ص . ٢٣ ـ ٢٥ والفصل بالصيغ ص ، ٣٠ ـ ٦٧
(٧٠) راجع المصدر السابق : ص١٣ ـ ٢٩ :
"Performance and training"

٩ ـ ٤ ـ وقد تكون النظرية اللوردية مقنعة اذا ما تم تطبيقها في حدود « تواقتية » امـا اذا سعينا الى تـطبيقها ضمن « تزامنية » ممتدة ـ كما هو الشأن بالنسبة للنصوص الهلالية ـ فاننا ندرك ضرورة التحفظ من نتائجها ! اذ التزامن من شأنه ان يجعل الراوي يواجه على الاقل حالتين اساسيتين خارجتين عن النص وهما :

أ ـ مقدرة الراوي على التذكر .

ب ـ الوجود ـ الضروري ـ للتحولات الاجتماعية السياسية في المكان والزمان .

٩ ـ ٥ ـ ويبدو من البديهي ان الراوي بالامس ليس هو الراوي اليوم او غدا لأن المقدرة « التذكرية » للانسان تتأثر (وتصقل) بادراكه لاهمية المادة التي ينبغي ان يتذكرها وبرغبته في تذكر حصيلة من الاحداث او جزء من حدث دون بقيته . وذاكرة « حافظة »الراوي تتأثر ـ من جهة اخرى ـ بتعدد المجد من الاحداث الاجتماعية التي تندرج شعوريا او لاشعوريا ـ بذاكرة الانسان .

٩ ـ ٦ ـ ولنترك جانبا ـ ولو الى حين ـ كلا من عملية قراءة الانتاج الملحمي انطلاقا من الوثيقة المكتوبة (فالكتابة قد تحفظ النص من التدخلات الفردية)[٧١] وعمية « تلاوة » الانتاج الادبي ولو كـان نصا شفـاهيا (مثـل قصيدة الشعر ، او الخطاب ، او النكتة او اغاني المهد ـ اي النصوص التي اتخذت شكلا ثابتا واعتمدت كما هي) (لأن القراءة النصية و « التلاوة » للثابت شكلا يمثلان تعاملا يقف حائلا دون اي جهد ابداعي للقـاريء ودون امكانات تدخل عناصر خارجية ـ عن ـ النص في الانتاج الادبي) فلو تركنا جانبيا هاتين الحالتين لاحظنا ان « الشفاهية » ـ في العملية الروائية ـ ترتبط ارتباطا وثيقا بعملية « الاداء » سواء كان ذلك الاداء فرديا ام جماعيا .

ونقصد بالاداء هنا « المجهود الروائي ـ الانشائي » الذي يقوم به ناقل الاثر ليقدم لجمهوره انتاجا ادبيا (شفاهيا) مقبولا (اي ـ لا ينفر منه الجمهور) . فالفرد المتقبل ـ وكذلـك الجمهور المتقبـل ـ لن يستجيب (يتجاوب مع) لرواية اغراض لا تهمه من قريب او بعيد . وسيكون حكم الجمهور على « الأداء » المنقول له بناء على معاينته لمقدرة الراوي في « تعويض » (ابدال) بعض العناصر المروية بغيرها التي يطرب لها الجمهور او يهتم بها .

٩ ـ ٧ ـ فلو عمد الراوي (وهو ما يمكن تجريبه ميدانيا) الى نقل موضوع « الجفاف » ـ المجاعة لمجموعتين اجتماعيتين تنتمي الاولى ، مثلا ، الى الطبقة البرجوازية والثانية الى الطبقة العمالية ، للوحظ ان المتقبلين من الطبقة الثانية يولونه اهتماما « وشاجيا » (ضرب من الطرب) بتعلقهم بالانتصار الذي حققه الهلاليون في صراعهم ضد « السلطة » للحصول على المرعى وانهاء حالة المجاعة التي يعانونها . وعلى العكس من هذا يكون موقف المتقبل من الطبقة البرجوازية (او الارستقراطية . .) الذي ان لم يرفض الخبر المنقول سيعير قليل اهتمام به (ضرب من طرح الخبر من الذاكرة) .

---

(٧١) بعض التدخلات الخارجة عن النص المطبوع أو المخطوط : الراوي المسيحي يحذف الصيغ الاستهلالية ذات المضمون الديني المسيحي أو المقاطع التي فيها اشارات سلبية حول المسيحيين : راجع : م : س

A. Ayoub, "Sirat Beni Hilal..."

٩ ـ ٨ ـ ونجد مثال هذه الحالة في مخطوط السيرة الهلالية الذي تحتفظ به المكتبة الوطنية التونسية (٧٢). وهذا المخطوط الذي يروي ايضا حادثة ـ « الجفاف ـ المجاعة » التي لحقت بقبيلة بني هلال قد طالب بوضعه باي تونس احمد باشا . الا ان الرواية فيه سرعان ما تصبح على يد ناقله (الراوي) مجموعة من القصائد « الايباحية » المرصفة التي لا ترتبط عضويا ـ ان صح التعبير ـ مع الموضوع المحدد في مطلع الرواية اي « الجفاف ـ المجاعة ».(٧٣)

والظاهر ان الناسخ قد ابدل الموضوع الاصلي بالموضوع الايباحي اذ انه كما يبدو ـ يطيب اكثر للمتقبل له ـ المطالب بوضعه : باي تونس وطبقته .

ولو افترضنا ان الرواة التونسيين المتأخرين قد اعتمدوا هذاالمخطوط لسرد مراحل سيرة بني هلال لوجدنا في الروايات الحديثة لها مقاطع ايباحية . بيد ان الواقع عكس ذلك فالبنية الاساسية للروايات الهلالية المسجلة منذ ما يزيد عن اربعين سنة جميعها ـ مثراة بعناصر تشير للاهتمامات الاجتماعية للجمهور التونسي المتقبل .

٩ ـ ٨ ـ ١ ـ ولعله يصدق القول بأن القصائد الايباحية التي توسطت ـ بكثافة ـ مخطوط تونس لم تثر الروايات الشعبية لسيرة بني هلال : فالأخلاقية الشعبية ـ تحول كما يبدو ـ دون هذا الصنف من الاثراء . .

ومن جهة اخرى ان استمرت البنية الاساسية للسيرة كما كانت عليه منذ اول اثبات لها (زمنيا) في الذاكرة الشعبية الجماعية وخلال التعاقب الزمني فانها تعكس وضعا اجتماعيا (ثباتا) استمر رغم التحولات السياسية والاجتماعية . . التي مرت بها المجموعات العربية في الوطن العربي . ومنه فتفسير ظاهرة التقبل عند الجمهور (طرب الجمهور) لما ينقل له تكمن في انه « يحس بذاته » في « دلالية » الخطاب المروي .

٩ ـ ٨ ـ ٢ ـ ان استمرارية البنية الاساسية ضمن مدار التعاقب الزمني تقوم دليلا على وجود عدد من السير الهلالية في الوقت الذي ينتظر فيه وجود سيرة واحدة :

وان الروايات المتعددة لها تشكل في النهاية ما نطلق عليه بالمتن الهلالي corpus فمثلا : الرواية التي تنقل اليوم في احدى واحات الجنوب التونسي ، نقطة ، قد تكون في الاصل رواية مصرية . ولكن ـ مهما كان دور راويها المصري في اثرائها وطبعها بطابعه . . الا انها في رحلتها من مصر الى تونس عابرة القطر الليبي ـ وفي نقلها من فيه لآخر ـ اصبحت رواية ثانية (او روايات متعددة) للسيرة الهلالية . ولعله من نافلة القول ان نشير الى انه يستحيل وجود ثلاث روايات متماثلة في ثلاث دول عربية بل يستحيل ان نجد في حيز جغرافي واحد روايتين متماثلتين . ومع ذلك تبقى البنية الاساسية ثابتة حيثما وجدت رواية هلالية وراوٍ لها وذلك لأن الذاكرة الجماعية التي حافظت على هذه البنية لاسباب اوضحناها في غير هذا المقام (٧٤) عملت في الوقت نفسه على تخليص الرواية « المستوردة » من خصائصها المحلية التي لا تتلائم وخصائص البنية المتقبلة والسياق التاريخي المورد .

---

(٧٢) راجع الفصل التاسع من مخطوط ٧ تونس عدد ٥٠١٢ (تونس : دار الكتب الوطنية)

(٧٣) راجع الفصل الثامن من المخطوط المذكور أعلاه

(٧٤) راجع م . س .

ولذا نزعم بأن الذاكرة قد تصرفت بطريقة ما جعلت الراوي يطعم (يثري) البنية الاساسية (ضمن حدودها الشكلية) بعناصر تشير الى اهم اهتمامات جمهوره .

٩ ـ ٨ ـ ٣ ـ والذاكرة دؤوبة على طرح العناصر التي افرغت ـ في نظر المتذكر ـ من دلالتها وهي في الان دؤوبة على ملء الفراغ بعناصر بديلة مشحونة دلاليا . واما العناصر « المطروحة » فتدخل شيئا فشيئا طي النسيان لانها لم تعد تمثل جزءا من الاهتمامات المباشرة لراوي الحدث « السيري » ولجمهوره .

١٠ ـ البنية المحلمية : بنية ذهنية .

١٠ ـ ١ ـ وتمثل هذه الاهتمامات (المباشرة وغير المباشرة) عناصر المحيط الذهني للمجموعة البشرية الناقلة للاثر المروي . والنماذج التي تمت مناقشتها اعلاه والمتعلقة بروايات هلالية من تونس وليبيا والاردن وفلسطين تساعد على اثبات هذا الافتراض .

فالنموذج الفلسطيني يدل ـ بصفة خاصة ـ على ان الذاكرة الجماعية قد تصرفت ـ شعوريا ـ شعوريا او لاشعوريا ـ بحيث احتفظت بالبنية الاساسية الملحمية وفي الآن طرحت المضامين « الملحمية » التي تكتنفها السيرة الهلالية والمتعلقة بالماضي لتحل محلها « مضامين ملحمية جديدة » افرزتها البيئة المحلية .

١٠ ـ ٢ ـ ولا يمكن اعتبار تصرف الذاكرة هنا بمثابة « النسيان الحقيقي » اي « الفعلي » (وعلم النفس يثبت ان المرء لا ينسى مطلقا) وانما هو ـ في واقع الأمر ـ رفض (عمية اختزال) مقصود لمضمون ملحمي محدد لم يعد يعكس مباشرة او بطريقة مرضية اهتمامات الجمهور الناقل .

١٠ ـ ٣ ـ وبالتالي ، فالتحولات الاجتماعية والسياسية ـ التي نطلق عليها عادة احداث التاريخ ـ تحتفظ بها الذاكرة ـ (ولو على مستوى اشاري) في اسمي تعابيرها واقصد الانتاج الادبي المروي (الأدبي الشعبي) .

وتقوم هذه التحولات الاجتماعية والسياسية بدورها بمثابتها مساعدة على التحولات التي يخضع لها الانتاج الملحمي ولان هذه التحولات مدركة من قبل الجماهير الناقلة (= الفلاحين ، العمال ، البدو ، العاطلين) والتي تحدث في غالب الأحيان هذه التحولات ـ فانها « تمزج نفسها » في تركيبة البنية الاساسية .

١١ الجزء الرابع : المساهمة الابداعية لنقلة السير

١١ ـ ١ ـ ويصبح ضروريا في ضوء هذا السياق الديالكتيكي ان نعيد طرح ما يطلق عليه الفولكلوري ـ وبصفة خاصة المنتسب للمدرسة الشكلية ـ بالمساهمة الابداعية لناقل السير . ولو اقتصرنا عى ذكر كل من بروب ولورد اللذين سعيا لتحديد المساهمة الابداعية لناقل السير لاحظنا انهما يجعلان من هذه المساهمة مجرد القدرة الفائقة للراوي على تقديم نص روائي محكم التركيب ولم تترك منه الذاكرة شاردة . وهذه المقدرة الادائية التي انقص من شأنها ـ ان توفرت فعلا ـ تبدو في نظري ثانوية اذا ما ربطت بالبيئة الاجتماعية السياسية للراوي باعتبار ان الراوي مضطر الى « تعديل » ادائه بحيث يوفر العناصر التي تهم جمهوره ويطرب لها .

١١ ـ ٢ ـ وبالتالي تبدو « ابداعية » الناقل للسير في مقدرته على التعامل مع العناصر الخارجة عن النص (العناصر السياقية) التي تقدم المادة اللازمة للتحول الذي يخضع له النص او بعبارة اخرى المادة التي تثرى النص (انظر النماذج التونسية والليبية والاردنية والفلسطينية) ومن جهة اخرى تحدد « ابداعية » الناقل للسير اعتمادا على مقدرته في التصرف في العناصر المكونة للاثر المنقول . وبتعبير ادق حتى يكون الناقل راويا ـ وبالتالي ناقلا

مبدعا ـ ينبغي ان يكون قادرا على اضافة عناصر « مثرية » للبنية الاساسية الثابتة للاثر المنقول وان يكون قادرا على ابدال عناصر مثرية بغيرها لم تعد ملائمة للسياق الروائي .

١١ ـ ٣ ـ وبناء على هذا التحديد يصبح المتحول هو مجموع المضامين الملحمية : وهو المحور « المضموني وهو « لغتة » ايضا . واما المضمون و« اللغة » فينتميان للسياقات الحقيقة ، الاجتماعية الميثولوجية ، التي يتفاعل معها نقلة الاثر .

١١ ـ ٤ ـ وباختصار تقدر « ابداعية » ناقل الاثر بمقدرته في التصرف في اللغة وذلك بغرض تطعيم البنية الاساسية « بمتحولات » ، وبناء على مقدرته في تحويل النص الملحمي واعتباره جزء من تراثه . وتتمثل المقدرة الادائية للنكقل ـ الراوي في الموازنة التي يقيمها بين البنية الملحمية الثابتة والمضامين الملحمية المتحولة : الموازنة بين الثابت والمتحول .

الجزء الخامس :

١٢ ـ الخـــاتمـــة

١٢ ـ ١ ـ ولقد يعسر رسم الخط الفاصل ما بين « الذاكرة الجماعية » وعبارة التحولات الاجتماعية « السياسية » ، فكلاهما يعملان معا في « قرينة معقدة » . وتشحن التحولات الاجتماعية السياسية « لمضمون جديد » كلما اعيد « انتاجها » . وهي تنتج من جديد بطريقة بطيئة ومستمرة وعلى نفس وتيرة نمو الانتاج الملحمي منذ نشأة براعمه الاولى الى وضعه الحالي . وخلال هذه المرحلية وبتحكم عمليتي « التـذكر » و « الابـدال » تقوم « الذاكرة الجمـاعية (بلعبـة) الطرح (الاختـزال) التدريجي للمحتـويات الملحميـة . وبدون حـدوث التحولات الاجتماعية ـ السياسية لا يمكن للذاكرة ان تكون وظائفية ، وبدون ذاكرة ـ هذا الوعاء التراكمي ـ الانتقائي ـ لا يمكن للتحولات ان تكون ممثلة في الانتاج الملحمي .

١٢ ـ ٢ ـ وهكذا نرى ان الراوي الشعبي يتمتع بمسئولية اجتماعية لم تؤخذ بعين الاعتبار في الدراسات السابقة للادب الشعبي بصفة عامة . فالراوي هو المؤرخ الشعبي وأدواته لتسجيل التاريخ تتمثل في « ذاكرته » ومقدرته الابداعية » ، و « المادة الاجتماعية » و « حالة التماثل » . ولذا فان المؤرخ الشعبي ـ الذي هـو في الان الراوي الشعبي والجمهور الناقل للتراث ، لا يزعم كتابة التاريخ بقدر ما يعمل على اكتناز الذاكرة الجماعية في شكل الملحمة السائرة .

***

السيرة الهلالية ملحمة فروسية شعبية

عبد الحميد يونس

تعد هذه السيرة من الوثائق البارزة في تصحيح ما استقر في أذهان بعض المفكرين من رأي يخالف الواقع . وهو أن الأدب العربي لم يعرف الملحمة باعتبارها جنسا أدبيا له مرحلته من التاريخ الأدبي للأمم والشعوب . وكل من درس آراء المستشرقين يواجه ما قاله « آرنست رينان » وهو أن العقلية العربية قاصرة بفطرتها عن ابداع الملحمة ، وذلك لنزوعها الى التجريد وانصرافها عن التجسيم والتشخيص ، وأن المرحلة الأولى في التاريخ العربي كانت تقوم على الظعن والرحلة ولا تتحول الى الاستقرار . ومن هنا حكم الدارسون والنقاد على غلبة الشعر الغنائي على التراث الأدبي العربي . ومهما يكن من شيء فان الاعتراف بتعبير الفن المتوسل بالكلمة عن الوجدان الشعبي العربي قد أثبت خطأ ذلك التصور ، وكانت السيرة الهلالية التي لا يزال الراوي الشعبي يرددها في البوادي والحقول والمدن لا تزال رائعة من روائع الأدب الملحمي .

وسيتضح لنا في هذا العرض المركز للسيرة الهلالية أنها تستكمل مقومات الملحمة الشعبية ، ومصطلح « السيرة » يرتبط بحياة شخصية بارزة أو بطل معروف وهو أوسع مجالا من مصطلح « الملحمة » لأن التعريف العالمي للملحمة هو « أنها ـ لغة ـ هي الواقعة العظيمة في الحرب والقتال ثم أصبحت تدل على الشعر المطول في واقعة أو مجموعة من الوقائع تقترن ببطل أو أكثر برز في فنون الحرب وانتصر على عدوه » . والملحمة ، اصطلاحا ، جنس أدبي يقوم على مطولة من الشعر وتحكي عجائب الأحداث التي تتجاوز الواقع الى الخيال الممعن في الغرابة وتتركز حول شخصية البطل أو الأبطال .

ولا يزال الراوي الشعبي يعرف عند الجميع بأنه « الشاعر » أي أن الحاجز بين الابداع والتذوق لا وجود له في الحياة الواقعية المعاصرة ، ثم ان بعض الرحالة الأوربيين الذين أقاموا في مصر فترة من الوقت وسجلوا ملاحظاتهم يذكرون هذه الحقيقة ، مثال ذلك أن ادوارد لين الذي أتيح له أن يعيش في القاهرة قد ذكر في كتابه عن عادات المصريين المحدثين وشمائلهم أنه لاحظ وجود ضربين من القصص . الأول ـ يعرف الراوي الذي يردده بالشاعر وسجل لهما مثالين هما سيرة عنترة وسيرة بني هلال . أما الثاني ـ فقد كان القصاص فيه يعرف بأنه « المحدث » أي الذي يعتمد على الحديث ، واعتمد على التدوين أكثر من اعتماده على الترديد المباشر ، وكان المتخصص في هذا الضرب الثاني يقرأ القصة المدونة على الجماهير . وغلبت سيرة الظاهر بيبرس على هذا النوع . وأتيح لي أن أتتبع الراوي الشعبي في بعض أحياء القاهرة ، وفي احدى القرى ووجدت أن الشعر هو الوسيلة الأساسية في سيرة بني هلال ، وأن النثر له في الرواية الشفوية وظيفة ثانوية .

والأبطال في السيرة الهلالية هم فحول من الفرسان أي أن المقومات الرئيسية لهذه السيرة هي « الفروسية » . وتسجل كتب التاريخ دائما أن هذه الفروسية نمط من أنماط الحياة ونظام قائم برأسه من نظم المجتمع ، وأدى اهتمامي بالمنهج المقارن في الأدب الشعبي الى أن أوزان بين الفروسية في أوربا وبين الفروسية العربية . ذلك لأن الفروسية انما غلبت على أوربا الغربية في الجزء الثاني من القرون الوسطى ـ وكانت بواكيرها في القرن الحادي عشر ، وبلغت ذروتها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ثم أخذ نجمها في الأفول نذيرا بظهور أساس آخر للحياة عرف به عصر النهضة أو عصر الاحياء . ولكن الفروسية العربية أقدم من هذا عهدا وأرسخ قدما ، حتى أننا لا نستطيع أن نتبين بدايتها على التحقيق أو الترجيح . . فان الفرس كان عنصرا هاما في الحياة الجاهلية ، تقاس به الثروة والقدرة على السواء . . كما نجد الفارس يبرز في المجتمع العربي الجاهلي ، ويصبح المحور الذي تدور عليه حياة القبيلة بأسرها . واستمرت الفروسية طوال التاريخ العربي ولا تزال موجودة ومشهورة في كثير من بيئات العالم العربي . وللفرس العربية شهرتها العالمية الى الآن ، ولا نبالغ اذا قلنا أنها صاغت الحياة بربوع الجزيرة العربية دهرا طويلا ، و « تكاد تكون قديمة قدم الأخبار والروايات العربية . وبلغ من أصالة الفروسية عند العرب أن اللغة العربية زخرت بالالفاظ الدالة على أوصاف الفرس وأجزائها ومراحل عمرها ونتاجها . وأجزائها وعرفت بيئات خاصة بوفرة الأفراس واشتهر آحاد بالخبرة العملية المرتبطة بتربية الأفراس ، وحرص المعنيون بالفرس على أصالتها وحمايتها من الهجنة ، وحفظ هؤلاء المربون أنساب أفراسهم بالضبط . واذا كانت الخلافات والمعارك قد اشتجرت حول الربوع والمياة وبعض المال ، فانها قد اشتجرت أيضا من أجل التنافس على الأفراس ، ومن الشواهد الدالة على ذلك حرب داحس والغبراء [١] . وسنجد كل هذه الخصائص في السيرة الهلالية التي جعلت للفرس تشخيصا يقربها من صفات الفارس الذي تكاد تلازمه في السلم والحرب على السواء .

ومن الأسماء المشهورة التي تطلق على الفرس بصفة عامة الاسم « الجواد » وهو ما يؤكد قيمته في التراث العربي ، ويسمى أيضا الفحل ، وكل فارس يطلق على فرسه اسما خاصا يشتهر به وهو ما يرفع مكانته وما يدل على العلاقة الحميمة بين الفرس والفارس . ولا تزال الحياة في العالم العربي ترى أن الفرس أجمل وأنبل المخلوقات بعد الانسان ،

---

(١) جيفري تشوسر ؛ حكايات كانتربري ، ترجمة وتقديم وتعليق : د . مجدي وهبة ، د . عبدالحميد يونس ص ٤٠ .

وتمتاز بتناسق أعضائها وصفاء لونها وسرعة عدوها وطاعتها لراكبها عند الكر والفر ، وهي معروفة بالشجاعة والقوة والذكاء والوفاء ، وهي تعرف صاحبها الذي اعتاد أن يركبها ولا تسمح لسواه بأن يمتطي ظهرها ، وعندما ينام صاحبها تسهر بجواره ، وعندما تحس باقتراب العدو أو الحيوانات المتوحشة منه توقظه بقرع أقدامه . والسيرة الهلالية تصور هذا التشخيص الذي يظن البعض أن فيه قدرا من المبالغة ، ولكنني عندما درست السيرة الهلالية وقمت بمواجهة واقعية لحياة الفرسان في محافظة الشرقية التي احتفظت ببعض امارات الفروسية أدركت صحة هذا الوصف ، وأدركت اهتمام هذه البيئات بأصالة الأفراس تماما كالفخر بأصالة الفرسان ، وكما يعنى المرء بشرفه على أساس التتبع الدقيق لنسبه فكذلك يفعل الفارس في الاهتمام بالنسب الخاص بفرسه . وأفضل أنواع الخيل هو (الأصيل العربي) وهو ما تردده السيرة الهلالية الى الآن ، وهو حصان الركوب ولا يستخدم في عمل آخر ، ثم ان الحصان العربي يشتهر الى جانب هذا كله بصفات جمالية تميزه عن الجياد خارج الوطن العربي الكبير(٢) .

وسيرة بني هلال كغيرها من السير الشعبية تعتمد على المبارزة أو مواجهة الفارس البطل لعدوه ، ولهذا الضرب من المبارزة فن يقوم على الوعي الكامل بالملاحظة والرشاقة الخارقة في الحركة وهي صفات لابد من وجودها في الفارس والفرس على السواء . ولا يزال التراث الشعبي يحتفظ برقص الخيل وهو عريق عراقة التراث الشعبي العربي ، والأعداء الذين يواجهون الأبطال في السيرة الهلالية لابد أن يكونوا هم أيضا من الممتازين في الفروسية . وهذا الأسلوب الملحمي يقوم على الاستعراض كما يقوم على التشويق ، ومن أبرز سمات السيرة الهلالية أنها لاتحكي بطلا واحدا ولكنها تحكي أربعة أبطال لكل منهم مسؤ وليته في تكامل الحياة تنظيما للمجتمع الهلالي ، ولكنهم مع هذا كله فرسان يتفوقون في الكر والفر حتى يحرزون النصر على أعدائهم ويحققون اعادة الأصالة العربية على الأقاليم والديار في ملحمتهم الكبرى التي عرفت بالتغريبة .

وهذه الملحمة الهلالية هي التي صورت وقائع العرب القيسية في المدة بين منتصف القرنين الرابع والخامس الهجريين ، أي ابان الدولة الفاطمية ، ولقد سبق أن ذكرنا أنها لا تحكي بطلا واحدا وان كان أبو زيد الهلالي هو الذي أصبح أكثر شهرة من زملائه ، وهو الذي مهد الملحمة باكتشاف الطريق الى الغاية وهذا التمهيد هو الذي عرف في الملحمة بالريادة التي كان من أهم أحداثها الحافز على الغزوة الكبرى التي نهض بها الهلالية لتخليص الجيل الثاني أي أبناء الأبطال من الأسر على يد خليفة الزناتي حاكم تونس . وتذكر الملحمة أن أبازيد استطاع في الريادة أن يفر من الأسر وأن يعود الى قومه في نجد ، فما كان من الهلالية الا أن قاموا قومة رجل واحد يستهدفون مدينة تونس لتخليص الأسرى وهم : يحيى ومرعي ويونس .

الفارس الأسمر :

وتمهد الملحمة لمسارها بموقف درامي فصلت فيه الظروف والملابسات التي خرج فيها أبو زيد للحياة فقد روت الملحمة أن الأمير رزق كان يتلهف بطبيعته العربية على أن ينجب ولدا تفاخر القبائل الهلالية كلها به . فتزوج الى عشر نساء ، ولم يكن يجمع ـ كما يقضي بذلك الشرع الحنيف ـ الا بين أربع منهن فقط ـ ومما آله وحز في نفسه أنه أنجب من

(٢) مجلة الفنون الشعبية ٤ ٢٤ ، الفروسية ورقص الخيل ، ماهر صالح ص ٧١

زوجاته العشر ابنتين ، كما أتت احدى نسائه بصبي ولدته مشوها ، وقبيل هذا الحادث غير السعيد تزوج رزق زوجته الحادية عشرة ، وهي « خضرة » ابنة شريف مكة ، ومن ثم عرفت بالشريفة ، وأثلج صدره ما رآه من امارات الحمل عليها ، اذ كان يتوقع أن تأتي له بغلام سوي يجمع الشرف الهاشمي الى الدم الهلالي ، فبعث الى الأمير غانم رأس بني زغبة يدعوه ورجاله ليشاركوه الحفل بولادة ابنه من بنات الأشراف فاستجابوا لدعوته وأصبحوا ضيوفا ينتظرون واياه الحادث السعيد .

واتفق للسيدة « خضرة » أن تخرج مع الأميرة « شمة » احدى زوجات سرحان في جمع من العقائل ، فرأت طائرا أسود ينقض على مجموع من الطير مختلف الألوان والأنواع فيغلب عليه ويقتل الجانب الأكبر منه ، فأعجبت به ورفعت وجهها الى السماء تدعو الله أن يرزقها غلاما على شاكلته ولو كان فاحم اللون ، واستجاب الله لها . . وغضب الأمير رزق ولم يكن يصدق أن الغلام ولده ، ولكنه أبقى زوجته لكلفه بها ، وأبى على نفسه أن يرى الغلام بعينه ، واكتفى بما سمع من المرأة التي أبلغته النبأ ، وحال بين الجميع وبين رؤيته الى أن جاء اليوم السابع فمد السماط وأحضر الغلام الى الضيوف ـ كما تقضي بذلك العادة المتبعة ـ تحمله جارية على محمل من الفضة تغطيه غلالة لا تبين منه شيئا وألقى السادة عليه « النقوط » من ذهب وفضة ، ورفع أحدهم الغلالة فهاله أن يرى الغلام أسود فاحما . وكان الأمير رزق أثناء هذا كله عند باب خيمته ، فلما دخل أشار عليه معظم أصحابه أن يخلي بينه وبين زوجة هذه ، وشككوه في خلقها وأعلنوا أن ابقاءه عليها يجر العار عليه وعلى قومه جميعا ، فأذعن كارها وأرسلها وابنها الى أبيها في مكة . .

ورأت خضرة أن تنزل واديا في الطريق وألا تعود الى أبيها متهمة في عرضها حتى لقيها الأمير « فضل بن بيسم » رأس قبيلة الزحلان وعرف خبرها فاحترمها وأكرم وفادتها وطلب الى زوجته أن تتلقاها ، وتبني ولدها ونشأه مع ابنيه « منعم ونعيم » . ولكن بركات وقد أصبح هذا اسمه ، بز أقرانه في القوة والشجاعة ، حتى اذا بلغ الحادية عشرة من عمره كان قد ثقف معارف الدين والدنيا مما كان يدرس في جزيرة العرب ، بما فيها من علوم اللسان العربي وغير العربي والرياضيات والتنجيم والسحر والكيمياء ، وتحول « بركات » الى ضرب آخر من المعارف لعله أشد لزوما لفرسان ذلك العصر ، فقد استجاب لاشارة معلمه وطلب الى فضل بن بيسم الذي يتصور أنه أبوه ، أن يهدي له جوادا ليتدرب به على الفروسية وحمل السلاح .

وتتعاقب أحداث هذه المواقف الدرامية ، فتروي الملحمة أن بركات عندما أراد أن يطلب الى الأمير فضل الجواد ليتدرب على الفروسية رد عليه بما يريب في بنوته له ، وان كان يقصد اعزازه واكرامه ، فانكفأ الفتى الى أمه يسألها جلية خبرة ، فزعمت أن الأمير فضل عمه ، وأن أباه قد قتل على يد هلالي يدعى الأمير رزق نايل ، فأثار ذلك حفيظته ليأخذ بالثأر وليقتلن هذا الأمير . ولم يكن يدور في خلده أنه أبوه في الحقيقة ، ووهبه الأمير فضل خير جياده وعلمه الفروسية والطراد والكر والفر وما الى هذا من فنون الحرب ، وسرعان ما برز في الركوب حتى حسده أبناء القبيلة التي يعيش في كنفها وتفوق على الجميع في لعبة « البرجاس » وأصبح « بركات » على الأيام الفارس الذي يحمي الديار والذمار والأموال لبني الزحلان .

وتعود بنا السيرة الى الأمير رزق فنراه يعتزل قبيلته بعدما غادرته زوجته وعاش في خيمة من الشعر الأسود دلالة على الحزن والأسى واصطحب معه عبدا واحدا يقوم بحوائجه ، واتخذ منزله الى جانب العين التي رأت عندها زوجه « خضرة » تفوق الطائر الأسود على غيره . ولم يمض طويل وقت حتى اجتاح نجوع « بني هلال » جدب ماحل استمر امدا ، فرأى « سرحان » والأشياخ من الهلالية أن يهاجروا الى نجوع بني الزحلان . بيد أن الجعافرة وبعض الهلالية الآخرين ظلوا مع الأمير رزق ـ وكان المطاع بينهم ـ ولما بلغ سرحان وقومه هدفهم تصدى لهم بركات وألحق بهم هزيمة منكرة ، فأرسل سرحان يستنجد بالأمير رزق فأجابه الى سؤاله ، وذكر له اسم بركات في الطريق وكاد يعرف أنه ولده . وتساءل بينه وبين نفسه اذا صح ما توقعه ، فلماذا سمي بهذا الاسم وقد سماه عند ولادته « أبا زيد » ؟ ولما بلغ موضع الهلالية المندحرين حمل عليه بركات وقد أخذته سورة الغضب عندما عرف اسم منازله ، وذكر أنه واتره في أبيه . وسوف رزق المبارزة ما وسعه التسويف ، وكاد الابن أن يقضي على أبيه لولا أن نهته أمه وصارحته بجلية الأمر ، فأقر الأب ابنه واسترد زوجته واعترف « بنو هلال » جميعا بمكان بركات من أبيه ومنهم .

وتشبث الملحمة الهلالية بهذا الفارس الأسمر يقرن بين العروبة والسمرة لواقع تاريخي هو مواجهة الشعب العربي بأعدائه من الصليبيين والتتار وذلك تمييزا للعروبة بين الشعوب ذوي الوجوه البيضاء من ناحية وذوي الوجوه التي تغلب عليها الصفرة من جانب آخر . وهذه العقدة اللونية التي ترمز الى موقف العرب من أعدائهم نجدها في سير شعبية أخرى على رأسها سيرة « عنترة بن شداد العبسي » ولكننا نلاحظ فارقا له أهميته بين السيرتين في هذه الظاهرة هو : أن أبا زيد صريح النسب العربي شريفه أما عنترة فهو ابن أمة حبشية وان كان الشعب قد جعل هذه الأمة من الأميرات . وقد أكد الشعب النزعة الى وحدة الكلمة تأكيدا واضحا فمهد الى عود الابن الى أبيه ، مستغلا هذه الفرقة ليضم الى الهلالية من دريد وزغبة والجعافرة بني الزحلان[٣] .

والفارس الثاني الذي له مكان الصدارة في الملحمة الهلالية هو « دياب بن غانم » ولمَوْلده قصة تبين الحافز النفسي المباشر على قوة احساسه بذاته ومناظرته للآخرين حتى ولو كانوا من فرسان قبيلته ، وهو من قبيلة زغبة . وقد مهدت « سيرة بني هلال لمولده بحادثة ظريفة ، هي أن أباه غانم كان رجلا مزواجا ، وان ظل أبتر زمانا . ثم بنى بأم دياب ، وكانت امرأة دميمة شوهاء ، لها ناب بارزة قبيحة كناب الحيوان ، ينفر منها كل من يراها ، فدعاها ذلك الى التحجب والانزواء وأجبل غانم عليها رجاء الانجاب منها ، دون زوجاته الجميلات العقيمات ، وتحقق أمله ، وولدت له ديابا ، فصبر على عشرتها أربعين عاما ، اعتزازا بابنه الذي يحفظ له اسمه ومكانهويصدر دياب بن غانم في سلوكه عن عقدة نفسية تجعله يبالغ في احساسه بذاته وتشبثه بالحصول على كل مايرغب فيه دون أن يدخل في حسابه مشاعر الآخرين ، ولو كانوا من أبناء عمومته . وقد صورته الملحمة في صورة الجبار الطاغية الذي أراد ابنة الزناتي لنفسه ، ولم يأبه لما كان بينها وبين أسيرها من صلات ، وما زال بها يراودها عن نفسها ، فتأبى عليه حتى قتلها . وجاء في السيرة أن السلطان حسن بن سرحان تزوج من « نافلة » أخت دياب ، بعد أن وعده بأخته « نوربارق » المشهورة بالجازية . وتصور السيرة المنافسة بين الحسن بن سرحان وبين دياب ، وقد أدت هذه المنافسة الى لون من الموازية جعلها يتناقضان ، فاذا كان

(٣) تراث الانسانية ؛ المجلد الأول ، العدد ٤ ـ ٥ ابريل سنة ١٩٦٣ .

الحسن كريما معطاء ، فلا بد وأن يكون دياب شحيحا مغتصبا ، واذا كان الحسن سمح النفس ، يعفو عند المقدرة ، أو يطلق سراح دياب ، كلما شَفَعَ له أبو زيد ، فان ديابا يجب أن يكون صاحب غدر ، فقد اغتال الحسن على فراشه ، ووثب بأبي زيد وهو يلعب معه .

وقد صورة المصريون مباهيا بنفسه مغرورا بشجاعته ، متهورا في إقدامه ، ضيق الصدر عصبي المزاج ، ولذلك يقولون لكل نافذ الصبر « هو أنت زغبي ؟ » ، نسبة الى زغبة قبيلة دياب . وكان دياب محبا لرمحه وفيا لفرسه . وتروي السيرة الهلالية أن السلطان حسن استدرج ديابا وألقى به في غياهب السجن ، ولما احتيل لخروجه انتقم لنفسه بأن قتل الحسن ، وفر مغاضبا إلى الحبشة واستتب الأمر لأبي زيد بحكم بلاد المغارب بأسرها تقريبا ، فعاد دياب ، أو أعيد ، وطالب بحقه في الملك ، فرفض أبو زيد وما زال دياب ينافسه حتى استدرجه وقتله ، كما قتل الجازية ، وتملك على البلاد ، يستبد بها وحده ، ودانت له قبائل دريد وبني جعفر والزحلان[٤] .

وكان من المفروض أن نبدأ بالحديث عن « الحسن بن سرحان » لأنه كان يمثل الرياسة على الأمراء والفرسان . ولكننا آثرنا أن نساير المحور الأساسي للملحمة وهو الفروسية . ولقب الحسن بن سرحان بالسلطان ، ويرجع ذلك أن استخدام هذا اللقب في العالم العربي كان متأخرا ، ومعناه أمير الأمراء أي الرئيس المعنوي للفرسان . ويمثل الحسن بن سرحان بهذه المكانة « الوجاهة » في المظهر وفي السلوك . ومن الواضح أن الوجدان الشعبي لم يكتف بهذه الامارة في القبيلة ، ولكنه أسبغ عليه صفات الملك كما تمثلها الشعب في الفترة التي تكاملت فيها السيرة . وهو يصوره معتزا بمكانته في قومه وتشبثه بها ، وكانت المشورة هي القاعدة الأصيلة في الحكم ، فلم يكن يستطيع أن يبرم أمرا من الأمور المتصلة بالمجتمع الهلالي الا اذا استشار أكابرهم الذين يقومون منه مقام الأمراء يسدون اليه النصح ويقومون في الوقت نفسه بتنفيذ ما يستقر عليه رأي الجماعة ، وهذا يفسر ولو بطريق غير مباشر ايثار الشورى في الحكم . فلا نجد في السيرة عن الحسن بن سرحان أنه تحيَّف في أحكامه أو استبد بالأمر . واذا كان قد اضطر الى حبس دياب بن غانم في الحلقات الأخيرة من السيرة ، فان ذلك لم يكن عن انتقام شخصي ، وانما كان في سبيل المحافظة على الصالح العام ، لأن ديابا أراد أن يستأثر بالغنيمة كلها في تونس . وهكذا يتحول النضال الذي أملته العصبية القبلية القديمة بين الحسن ودياب ، الى نضال من نوع آخر بين ملك وفارس ثائر عليه . وكان من الطبيعي أن يصور الوجدان الشعبي السلطان كريما . ولقد بالغ الشعب في اسباغ هذه الخصلة عليه حتى جعلوه يعطي دائما ولا يأخذ أبدا ، ويعطي المحتاج وغير المحتاج على السواء ، يعطي والقحط يكتنفه كما يكتنف غيره ، يعطي في سرف يخرجه عن التعقل في كثير من الأحيان . ومن الخصال التي تساير المثالية في السلوك عند الحسن بن سرحان العفو عند القدرة عليه ، وهي تؤكد العدل الذي عرف به والرحمة التي غلبت عليه . ونحن نراه في التغريبة يعفو عن أبناء الملوك الذين حاربوا الهلالية ويملكهم في مكان آبائهم ويبسط عليهم حمايته كما أنه كان يعفو دائما عن دياب على الرغم من أنانيته وحقده ، حتى أدى به ذلك الى حتفه . ولقد أبعده الوجدان الشعبي في مصر عن الجو القبلي ، وأحاطوه بهالة من الاجلال وأسبغوا عليه من الوقار والاحتشام والحسن في الهيئة والسمت ما يجدر بالملوك والسلاطين . ولكي يكسبوه الصفة والواقعية زعموا أنه هو الذي شيد في القاهرة المسجد

(٤) امعجم الفولكور ؛ ص١٢٢ -١٢٣ . مكتبة لبنان ، ط . ١٩٨٣ .

المعروف بمسجد السلطان حسن . ولم يدفعهم الى ذلك مجرد التشابه في التسمية فحسب وما يستتبعه من لبس ، وانما دفعهم اليه أيضا أن هذا المسجد من آيات العمارة الدالة على السرف والبذخ . ونحن نعلم أن صاحبه الذي سمي به هو الملك الناصر حسن أقامه عام ٧٥٧ هجرية[٥] وأصبحت هذه الشخصية على الأيام من الأمثال الشعبية المصرية المشهورة يكنون بها كل فرد يجمع الى الكرم المسرف حسن السمت والهندام ، ويقولون عنه « عامل أبو علي » والمنشدون يستغلون هذه الخصلة ويبالغون في وصفها اسقطاقاًللمستمعين واستدرارا لعطفهم[٦] .

وليس في هذه السيرة الهلالية من الأعلام من يضارع هؤلاء الثلاثة في التخصص والبروز ، على الرغم من الاعتماد على الملاحظة الخارجية في رسم صورهم . وهذا بدير بن فايد ، وهو رابع الأربعة ، ليست له علامة تميزه عن غيره سوى وظيفة القضاء التي لم يبلغها بالتفوق في العلم وانما انتقلت اليه انتقال الارث ، ولكن هذا لم يمنع الوجدان الشعبي من أن يجعلوا هذا القاضي الأمين على اقامة الشرائع والشعائر يبدو في سمة العلماء وكرامتهم ووقارهم واحتشامهم ونزاهتهم . وهو يجمع بين الأصالة في المحافظة على الأعراف والتقاليد التي لا تتنافى مع الشريعة . وهو بمثابة الضمير الذي يحتكم اليه في السلوك وفي تنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات . وله مكانته في الشورى مثله في ذلك مثل زملائه وهم : أبو زيد والحسن بن سرحان ودياب بن غانم . وهم من الفرسان الذين أسهموا في الملحمة الهلالية . وهذا القاضي بدير بن فايد يشخص المثل الذي يريده الشعب في الجمع بين الأصالة العربية والشريعة الاسلامية .

أما « الجازية » فهي من أشهر الشخصيات النسائية في السير الشعبية العربية ، ولها مكانتها البارزة في السيرة الهلالية . وتذكر السيرة أن اسمها الأصلي « نوربارق » والجازية لقبها . وهي أخت السلطان حسن بن سرحان . وصورة الجازية مثالية ، اذ توصف بأنها « جميلة المنظر ، لطيفة المحضر ، بديعة الجمال ، عديمة المثال في الحسن والكمال ، والقد والاعتدال ، وفصاحة المقال ، لايوجد مثلها بين الخلق ، لا في الغرب ولا في الشرق » . وقد تزوجت من شكر بي أبي الفتوح الهاشمي ، صاحب مكة ، وأنجبت منه ولدا اسمه محمد . وعندما اعتزم بنوهلال الرحلة عن نجد الى أفريقيا آثرت الجازية أن تصحب قومها ، وأن تخضع للعاطفة القومية ، وتهجر زوجها شكر الذي كانت تحبه ، ولا تعدل به رجلا آخر . ومن أجل تلك العاطفة هجرت زوجها الذي تؤثر ، وولدها الذي تحب ، وفارقت خفض العيش الى جفوة الحياة القاسية التي تقوم على النقلة والحرب . ومن أهم خصائص هذه الشخصية أنها لم تكن مثل الكثيرات في السير والملاحم غادة بارعة الجمال ، تحفز البطل الى مقارعة الفرسان وركوب الأهوال ، ولكنها كانت امرأة متزوجة آثرت قومها على هنائها العائلي ، وواجهت موقفين ، صدرت فيهما عن عاطفتها القومية فحسب ، الأولى أنها عرضت نفسها على أبي زيد الفارس الهلالي المشهور ، لِيَبْني بها بدلا من زوجته « غالية » التي عادت مغضبة الى جزيرة العرب ، وذلك ترضية له وتشبثا به . حتى لايفارق قومه ، وهم أحوج مايكونون اليه . والثاني ـ عندما اضطرت الى الزواج من الماضي بن مقرب في مصر والذي لم يستطع أن يستبقيها معه ، وظلت ليلتها تشغله بالقصص ، كما فعلت شهريار ، حتى اذا غفل عنها تركته ، ولحقت بقومها . وكما كان الأمراء هم الصور الدالة على أقوامهم ، فكذلك كانت

---

(٥) علي مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٣ ص ٦٩ .

(٦) د . عبدالحميد يونس : الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

الجازية هي الصورة الدالة على نساء الهلالية جميعا وكانت محاربة ، امتازت بشجاعة نادرة تكاد تقربها من الرجال ، وبلغ من قوة شخصيتها أنها كانت تشارك في تدبير الأمور ، واقرار الخطط ، حتى قيل أن لها حق المشورة في الديوان(٧) .

ولا تستكمل السيرة أهم مقوماتها الملحمية الا اذا جعلت الخصوم يكافئون الأبطال من بني هلال ، ولذلك برزت صورة « خليفة الزناتي » في تونس الخضراء وقد بالغت السيرة في العناية به . ولم تغفل وجوب التعادل بين الخصمين لأن خليفة الزناتي كان الشخصية الوحيدة البارزة التي تقف أمام أبطال الهلالية الأربعة . ولم يقنع الشعب في تصويره كغيره من الأبطال ، ونحن نذكر أن الأحداث التي أحاطت مولد أبي زيد أو دياب أو غيرهما من أبطال السيرة لم تكن خارقة أو خرافية وانما كانت للابانة عن مكان هؤلاء من آبائهم وأقوامهم ، وعما تخبئه المقادير لهم . أما ولادة خليفة الزناتي فلم تقم بمجرد المبالغة والتهويل ، وانما قامت بمجاوزة الحدود الطبيعية . حتى لتسلك المولود مع الشخصيات الأسطورية . فقد انفرد بأنه من أب إنسي وأم جنية ، وللخيال الشعبي في التزاوج بين الانس والجن عقائد لاتزال موجودة الى الآن . واستتبع ذلك مغايرة حياته للأناس من حيث التعرض للتلف . وما عليه اذا طعن الا أن يسكب على جرحه قطرات من « ماء الحياة » حتى يبرأ لتوه . ولن يلقى حتفه الا اذا حان حينه المقدور . ومن ثم فهو شجاع لايهاب أحدا من الفرسان كائنا من يكون الا دياب بن غانم ، وهو بصير بأساليب الحرب عنيد في النزال صبور على الكر والفر ، له حربة تقد الفارس والفرس ، وتفلق الصخر تحتها ونتج عن هذا أن أصبح السيد المطاع في قومه لا يعصى له أمر ولا ترد عليه كلمة . فلما اقتحم الهلالية بلاده نفر اليهم في جنده وأحلافه واشتدت وطأته عليهم ونازل فرسانهم صبورا عنيدا ، وكان يقهرهم واحدا بعد واحد . لم يقف أمامه الحسن وأبو زيد . وصرع تسعين من شجعانهم ، ولم يقنع بهذا بل كان يجز رؤ وسهم عن أبدانهم ويعلقها على أسوار تونس ارهابا للمهاجمين . وكاد اليأس يستولي على الهلالية ويعيدهم أدراجهم لولا أن استعطفوا ديابا وكانوا يعرفون ، كما يعرف خليفة الزناتي ، أنه وحده الذي يصرعه ، فلما رآه عرفه لساعته ، ولكنه لم يتزلزل وظل يجالده ويداوره الأيام الطوال . وتصل السيرة في هذه المعركة الى غايتها القصوى ، وعلى الرغم من وضوح النتيجة فان التوازن بين الرجلين يبعدهما عن المخيلة ، وهنا تتداخل المكيدة في شخص سعدى ابنة الزناتي فترجح كفة دياب عليه . وليست لخليفة الزناتي في السيرة خصلة غير الشجاعة والحزم ، ولولا ماكانت تدبره ابنته بليل ما أفلت الجواسيس في ريادتهم ، ولا وفقت جحافل الهلالية في تغريبتهم . وليس في المعسكر الزناتي من الرجال سوى هذا البطل(٨) .

الريادة والتغريبة تاريخ شعبي

وبعد أن عرضنا للشخصيات الأساسية نجد أن من الضروري أن نتابع هذه الملحمة الكبيرة . ولهذه السيرة تمهيد يعرف بالريادة ، ومعناها كشف الطريق والتعرف الى الغاية ، وقد انتدب لها ثلاثة من الفتيان الأوائل في الجماعة ، كما يقال في العرف الفني الحديث ، أي أنهم الجيل الثاني ، وهم يحيى ومرعي ويونس يتزعمهم فارس القبيلة أبو زيد . وكان عمل هؤلاء الرواد أدنى الى التجسس ، فتنكروا في زي الشعراء الجوالين . ونحن نستخلص من الحوادث الكثيرة

---

(٧) المصدر السابق .

(٨) المصدر السابق ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

المتشابكة معالم الطريق الذي سلكوه ، وهو الجانب الأكبر من الوطن العربي لكي يعيش المستمعون للملحمة في ربوعه بلا عائق . فقد توجهوا الى مكة ثم ساروا عبر الفرات الى العراق ، وعرجوا على بلاد الشام فمروا بحلب وحماه وطرابلس والقدس وغزة ، ومنها الى العريش فبلبيس فمصر فالصعيد وانتهى بهم المطاف الى تونس . وكانوا في كل مرحلة ينزلون فيها يدرسون المسالح والحصون والطرق والمنافذ ويسبرون غور قدرتها على الدفاع ، الى ما خبروه بأنفسهم من الأحلاف والخصوم بالنسبة لبني هلال . ولكنهم وقعوا جميعا في قبضة صاحب تونس وهو « خليفة الزناتي » ولم يستطع الافلات الا أبو زيد الذي أكمل دراسة بلاد المغرب ثم عاد أدراجه الى القبيلة في خمسين يوما بالسير الحثيث المتواصل ليجلب فدية الأسرى كما توهم صاحب تونس ، وليطلب الى القبيلة التغريب لفك الأسرى واستيطان بلاد المغرب كما كان مقررا من قبل .

وأخذت الجماعة كلها تستعد لهذه التغريبة الكبيرة التي لم تقم بمثلها من قبل وآثر رجالاتها أن يستقدموا « نوربارق » ، « الجازية » ، وكان ذلك لاستنفار الرجال واستنهاض الهمم عند التقاء الجموع ، ثم تحركت العشائر والبطون ، وكان ترتيب الركب كما يلي : أبو زيد الذي راد الطريق في المقدمة ومعه رجاله من آل جعفر والزحلان ، ويليه كبير أمرائهم الحسن بن سرحان الملقب بالسلطان ومعه رجاله من بني دريد ، والى جانبه بدير القاضي ومعه رجاله من الفوايد ، وخلفهما دياب بن غانم على رأس بني زغبة ، وفي خاتمة الركب زيدان بن غانم وأخو دياب على رأس الجهال يحمي الشيوخ والأطفال والنساء والأموال . وكان عدد المقاتلة فيما تزعم السيرة « أربع تسعينات ألوف » لكل أمير واحد من هؤلاء الأربعة .

وساروا في الطريق المرسومة في الريادة وعبروا الفرات ووصلوا الى العراق ، ثم حاربوا العجم أو « الأعجام » كما تنعتهم السيرة وكانوا سبعة ملوك . وأهم ماوقع لهم في هذه الحرب أسر « مارية » ابنة القاضي بدير واسترجاعها . وما كادوا يواصلون رحلتهم حتى حاربوا التركمان ثم تحولوا الى حلب وحققوا انتصارا في المعارك التي واجهوها . وجدوا في السير فمروا بحماة وحمص وبعلبك ، وغلبوا على دمشق وعرجوا على بيت المقدس وزاروا المسجد الأقصى وقبة الصخرة ثم تركوها الى غزة ، واتجهوا بعد ذلك الى العريش . ودخلوا أرض مصر وامتدت منازلهم حتى شملت الصالحية والقرين وما حولهما ، وتريثوا أمدا لأن عزيز مصر يكتب الكتائب لملاقاتهم من دمياط الى هوارة الجيزة ، فاحتالوا حتى فروا منه واتخذوا طريقهم الى صعيد مصر وكان يحكمه « الماضي بن مقرب » . ولم تنس السيرة أن تذكر لنا أنه من أصل عربي وأنه كان في نجد قبل أن يستقر به المقام في مصر . ولكنها لم تذكر على التحقيق أنه من ولد هلال . وكان من الطبيعي أن يلقى الهلالية بالاكرام المتوقع من عربي مثله . ولكنه اشترط عليهم أن يبني بالجازية وأن يأخذ فرس دياب بن غانم . وتابعوا طريقهم . أما الجازية فقد احتالت عليه - كما ذكرنا من قبل - وواصلت الطريق حتى لحقت بقومها ، أما فرس دياب فقد نفرت منه ولم تسمح له بأن يمتطيها وعادت الى صاحبها . واتخذت السيرة أسلوب الوصف التفصيلي للوقائع والأحداث ومزجت بين وصف البلدان وذكر العلاقات بين الهلالية والسكان . ولم تتغير طريقتهم في الانتصار على خصومهم ، فقد كانوا ينزلون بجوار المدينة أو الامارة فيطلب اليهم صاحبها العشور فيستمهلوه أو يصانعوه ثم يأخذوا في التغلب عليه بالقتال أو بالحيلة أو بهما معا .

ويبلغ الهلالية هدفهم الذي يقصدون ، وهو تونس الخضراء ، وكان ملكها ، كما أشرنا ، هو « خليفة الزناتي » ويكنى أبا سعدي . ولم تكن مملكته كالممالك التي مروا بها . فقد كان فارسا مقداما ، وكانت المدينة حصينة منيعة ، وكان يأتمر بأمره أقيال ذوو بأس شديد . والتقى بنو هلال بزناته وكانت مقتلة عظيمة مات فيها عدد كبير من فرسان الطرفين . واستمرت الوقائع سجالا ، والفرسان يسقطون زرافات ووحدانا ، وناشت السيوف فتيانا من ولد أبي زيد ودياب ، وغيرهما حتى اذا ضج الهلالية ورأوا أن الأمر يكاد يفلت من أيديهم ، وهم الذين قطعوا هذا الطريق المخوف على طوله ، ولقوا المكاره على كثرتها لكي يبلغوا هذا الموضع الخصيب ،استغاثوا بدياب فتأبى عليهم أول الأمر ثم استجاب لهم فقتل خليفة الزناتي وفتح تونس وفك الأسرى الثلاثة مرعي ويحيى ويونس وتحدثنا السيرة أنه جلس على عرشها .

ويأتي بعد ذلك الجيلُ الثالثُ الذي يعرف بجيل « الأيتام » اشارة الى ما فعله دياب الطاغية في آبائهم من قتل ، وهو يقوم كله على محاولة الأخذ بالثأر منه . ويبدأ بوصف ما مر على بني هلال من السنين العجاف فلم يكتف دياب بطاعتهم ، ولكنه أمعن في اذلالهم فمنع عنهم خيرات البلاد التي ملكوها بسيوفهم واستاق أنعامهم وأموالهم وأخذ يعمل السيف في رقاب بنيهم خشية أن يشبوا على الانتقام منه . وهذا الختام يعرض خلاصة الفلسفة التي لابد من أن يذكرها كل انسان وهي أن الجنوح الى القتال من أجل الغنيمة وايثار تقويض الدور وتشريد السكان المسالمين لابد أن ينتهي آخر الأمر الى مكابدة ماعملوه في غيرهم . ويردد الشعب مثلا سائرا مشهورا وهو « كأنك يا أبا زيد ما غزوت »[٩] .

الابداع الشعبي انما يعبر عن وجدان الجماعة . .

وأهم مايسجله المتذوق لسيرة بني هلال أن الوجدان القومي لايفرق في أدبه بين الحياة وبين الفن ، فقد صدرت سيرة بني هلال عن فلسفة واضحة في الفكر وفي الشعور وفي التعبير جميعا ، وذلك لأن الشعب لم يشغل باله بالتفريق ـ ولو الى لحظة واحدة ـ بين الشكل وبين المضمون ، فالمقطعات المنظومة في الملحمة تكاد تكون واحدة في قالبها ، وطرائق التنقل بين أغراضها وفي وزنها ومطالعها وخواتيمها فهي ترسل على ألسنة الفرسان المتبارزين ، والبادىء وهو الذي يختار الوزن والقافية ، ويرد عليه الثاني بنفس الوزن وبنفس القافية ، وكأن الأمر لايعدو أن يكون مبارزة بالشعر وامتدادا لتقاليد المنافرة والمفاخرة والنقيضة في الشعر الفصيح . ويستهل الفارس كلامه بذكر اسمه ، لأن السيرة الشعبية لم تكن تمثيلا مشخصا متحركا أمام النظارة ، وانما كانت حديثا مرسلا من منشد محترف يتوسل بآلته الموسيقية المعروفة بالربابة ، وهي الآلة التي كانت ذات وتر واحد وأصبحت بفعل التطور ذات وترين ، ونغماتها متواصلة ومتهدجة تساير الصوت البشري وتمثله . ويسبق اسم الفارس ايراد لفظ الفتى تأكيدا للفتوة العربية المعروفة في الفروسية ، وتأتي بعده نسبته الى قبيلته توضيحا لموقفه النفسي من منازله .

وكانت التقاليد المرعية ، سواء في هذه المقطعات أو في استهلال السمر وختامه ، تبدأ بالصلاة على النبي وتقرنه دائما بصفته العربية تذكيرا بأن خاتم النبيين انما اصطفي من أمة العرب . فالقصيدة والسمر يستهلان بالصلاة على النبي

(٩) المصدر السابق .

« العربي » أو « القرشي » أو « التهامي » أو « سيد ولد عدنان » . ويسجل المنشد المحترف في مطلع سمره أو على لسان فارسه ما يصاحب هذه الصلاة من الخشوع وانهمار الدموع ، مما يبرز الفارق بين حاضر العرب المسلمين وبين ماكانوا عليه وما ينبغي أن يكونوا عليه . أما النثر فانتقل من فارس الى فارس ، ومن موقف الى موقف مع التعليق والشرح ولا عبرة بما يجده الدارس في النسخ المطبوعة أو المخطوطة من أمثال هذه العبارات . « قال المؤلف . . . قال المصنف » لأن المعول على « الراوي » الذي يرتفع على يديه الحاجز بين الانشاء والانشاد ، فالذين ألفوا السيرة نجموا من الشعب العربي واندمجوا فيه ، والذين ينشدونها كذلك .

وتستوعب سيرة « بني هلال » ـ بل تستوعب سيرة كل بطل من أبطالها ـ كأبي زيد ـ القيم الانسانية العليا بأسلوب فطري تلقائي لم تطمسه تقاليد الانشاد . فالحق والخير والجمال وحدة لا تكاد تنفصل ، والمعرفة والخبرة والسلوك وحدة لاتكاد تفترق ، وتحقيق الحياة عمل ايجابي دائب وحركة متصلة لهدف كبير لايتم الا على أساس من كرامة الفرد والمجموع ، والعرض الغالب على السيرة معروف منذ البداية وهو « النصر » فلا صراع بين الفرد وبين القدر . . ليس الهلالية الذين يشخصون العرب أعداء القدر ، وليسوا ألعوبته ، ولذلك فهم على وفاق معه طالما كانوا محتفظين بمزاياهم على الطريق الى غايتهم ، ومن ثم فهم على موعد أبدا مع النصر ، والتشويق يكمن في التفاصيل غير المعروفة ، وفي سياق الأحداث الكثيرة المتعددة المتعاقبة التي يأخذ بعضها برقاب بعض ، أما الصراع الداخلي بين عناصر الجمع الهلالي فانه يؤخر هذا النصر ، ويعوق بلوغ الغاية الى حين ، وهو درس مباشر يدعو أيضا الى الشرط الأساسي لبلوغ الهدف المعروف . وهذا الشرط هو وحدة الكلمة . وليست النزعة القومية التي تجسمها هذه الوحدة عاطفة غامضة ، ولكنها فلسفة حياة تقوم على أن كرامة الفرد من كرامة المجموع ، وتقوم على أن عزة المجموع هي الحصيلة الكاملة لعزة الفرد . ويستطيع الدارس أن يلخص فلسفة الحياة الهلالية أو العربية بأنها فلسفة للفروسية التي تنهض على فصائل مقررة تجملها عبارة « المروءة » التي يعدونها خطأ مشتركا بين جميع الأفراد بلا استثناء ، يستوعب في ذلك الأبطال وغير الأبطال ، والمروءة تستوعب كرم الأصل العربي ، والملاءمة بين شرف الغاية وشرف الوسيلة الى الحفاظ على الحياة في أفرادها وفي تجمعها ، والحرص على تواصلها محتفظة بالأساس نفسه مع النجدة والجود ومعاونة الضعيف والمحتاج ، واذا كانت الحرب قوام الأحداث ، فانها تنشب تحقيقا للوجود ، واحتفاظا بكرامة الحياة ، واعتصاما بالخير وتأكيدا للعروبة في الوطن الكبير ، وذلك بتزويده بمدد قوي من الفتوة والمروءة العربية .

ولعل أقوى دليل على اندماج الفن بالحياة في وجدان الشعب وصدورهما عن مزاج واحد هو ما اصطنعته السيرة من وسيلة صريحة ترفع شبهة كل حاجز بين الانشاء والانشاد . . . بين الابداع وبين التذوق ، فقد صورت الفتيان الأوائل الثلاثة ، يحيى ومرعي ويونس ، وعلى رأسهم فارس القبيلة أبو زيد ، في القسم المعروف بالريادة « شعراء جائلين » يمسك كل منهم ربابته ، وهذه الصورة هي الذريعة التي تمكنهم من التنقل والتجوال وارتياد الربوع على اختلافها من بادية وريف وحضر ، وهي في الوقت نفسه ادماج للمنشد المحترف المتخصص في انشاد سيرة « بني هلال » ترفعه من مجرد قصاص يروي الوقائع والأحداث الى ممثل فرد تتقمصه شخصيات الأبطال ، وترفع الجمهور من ناحية الأذن في التذوق والانفعال . وقد أتاحت هذه الوسيلة الفنية في التصوير اصطناع التمثيل وان كان فرديا ساذجا ، كما أنها مكنت لسيرة « بني هلال » في نفوس المنشدين وحببتها اليهم وجعلتها عندهم أهم من السير الشعبية الأخرى . ولم يكن

التنكر مضعفا بأي حال من الواقعية النفسية التي التزمتها سيرة « بني هلال » بنوع خاص ، وذلك لأن الصفة الجديدة وهي صفة الشعراء الجائلين لاتهون من شأن الفرسان لاقتران الشعر بالفروسية في الوجدان العربي من قديم ، كما أن المنشد المحترف يجب أن يؤكد دائما أنه ليس شخصية غريبة عن المجتمع الذي ينشد فيه ملحمته . . انه من المجتمع ، ومكانته ـ كما يريد أن يخيل لنفسه وللناس ـ قد ترقى الى مرتبة الأبطال .

والسيرة الهلالية ـ وان غلب عليها الطابع الملحمي ـ تجمع في قوسها عنصرا غنائيا يشير الى نشأتها حتى بلغت التكامل ، وهذا العنصر يشبه في بعض حوافزه وصوره ووظائفه المقطعات الشعرية الفصيحة في الفخر والحماسة والهجاء ، وهو يقوى في المواقف التي تتطلب التعبير المباشر عن عواطف الشخوص باعتبارهم أفرادا . يضاف اليه عنصر تمثيلي تنطق به العبارات في نبراتها الخطابية وتدل عليه تقاليد المنشد المحترف التي استقرت في النفس من حيث التقسيم والفواصل والسجع ، فاذا أضفنا الى هذا كله تأثير المنشد المحترف بنبرته ومسايرة صوته للشخوص والمواقف أدركنا وجود الملحمية والغنائية والتمثيل في هذا العمل الأدبي الواحد بلا تناقض . كل في موضعه . . وكل يصدر عن وحدة المزاج الشعبي . ولا يستطيع الباحث أن يغفل تأثير الموسيقى في النص نفسه . واذا كان المنشد المحترف يخضع وزن الشعر للالقاء ويضبط ماقد يكون فيه من خلل ، فان مصاحبة الغناء والموسيقى قد عملا عملهما في استحداث موسيقى داخلية في تضاعيف النظم ، وهي موسيقى تأثرت بقوالب شعرية مستحدثة كالموشح وما اليه . نجد مصداق ذلك فيما كان من محاورة شعرية بين الجازية وبين الرسول الذي انتدبته القبيلة ـ قناعها بالخروج معها في التغريبة وما كان من حوار آخر بينها وبين بواب تونس .

واليك هذا المثل بين بدر الهلالي وبواب شكر صاحب مكة وزوج الجازية عندما ذهب ليدعوها الى اللحاق بالجمع الهلالي في التغريبة . وهذا الشعر لا يتغنى صاحبه بعاطفة خاصة به في الواقع ، ولكنه يتخذ من العناية العاطفية وسيلة لقصده :

أنا أول كلامي مدحت التهامي ... تظله الغمامي له الحج راح
يارب أزوره واتملا بنوره . . ... وأشاهد قبوره وتلك النواح
وأقول يا حبيبي يا مسكي وطيبي ... مدحك من نصيبي مسامع صباح
لك يوم الهجيري غمامة تسيري ... وأنت البشيري بكل الصلاح
من بعد المدايح وقول الملايح ... عاد الدمع سايح من جفني القراح
يا بواب افتح لي الباب المصفح ... من دخله يربح وينال الفلاح
أيا بنت عمي زاد فيها غمي ... وسقمي وهمي أورث لي نواح
أبوها قال حين تجيب المال ... تحظى بالجمال وست الملاح
قالوا لي اللزايم عليك يابن هاشم ... يعطيك الغنايم كتير السماح
وأنا جيت قاصده يجبرني برفده ... ربي يديم سعده ويبقى في انشراح
وأنا فقير أحتاج مال كثير ... وربي قدير يعطيه السماح

ويديم نصره ويعلى لي قدره — ويجبر بخاطره بكل الصلاح
لأنه أمير ويُرضي الفقير.. — وخيره كثير أمير البطاح
وأختم كلامي بمدح التهامي — تظله الغمامي بنى الفلاح

فأجاب البواب بنفس منهجه الشعري ، وبالنبرة الغنائية والمضمون العاطفي :

أنا أول كلامي مدحت التهامي — تظله الغمامي هو سيد الملاح
يقول البواب أنا أفتح الباب — أدخل لا تهاب يا ابن السماح
أدخل التبالي حالك مثل حالي — ياما قد جرى لي في حب الملاح
وأقول لك صواب أدخل لرحاب — ياما القلب داب وكثرت نواح
كم بيضة كريمة عيشتها غنيمة — والسمرة اللئيمة تورث الافتضاح
راعيها مزقم ساكن في جهنم ... — وصل البيض مغنم مسامح صباح
أنا كنت بواب في قصر بعتاب — شاهد الأحباب ملوك النواح
لكن أبعدوني عنهم وحجبوني — فزاد بي جنوني وكثرت نواح
فلا هم يجوني تراهم عيوني — وأنا من شجوني مالي من راح
أهيم بوجدي ومن نار كبدي — وما خد عندي ولالي رواح
وأختم كلامي بمدح التهامي — تظله الغمامي له الحج راح

ويتضح من هذين الشاهدين ، استغلال المحظوظ لقوالب الشعر الجديد الصالحة للغناء ، كما يتضح منهما ميل المنشد الى الترويح عن نفوس المستمعين في موقف من مواقف الصراع النفسي . . أما هذا الشاهد الثالث : فهو يصطنع المنهج نفسه وهو حوار تمثيلي غنائي بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى ، وقد دار بين الجازية معها العقائل من بنات هلال ، وقد تنكرن في زي البائعات الجائلات وكان معهن أبو زيد الذي تنكر هو الآخر في زي بائعة جائلة على الرغم من سمرة بشرته وصرامة وجهه ، وبين حارس مدينة تونس :

الجازية : يا بواب صاره — افتح للعذارى
هنايا مشندر — الى حذ السواره
الحارس : روحي يا ظريفة — لما أشور خليفة
له حربة رهيفة — تقصم الحجارة ..
الجازية : يا بواب منصور — افتح لي باب السور
ندخل بدستور — ونبيع العطارة
الحارس : المفتاح ماهو بيدي — أروح أشور سيدي
ذا الباب الحديدي — في فتحه مشاورة

الجازية :	افتح وكن طايع	جبنا لك بضائع
	وتحت بدايع	تصلح للامارة
الحارس :	لا أفتح ولا شي	ولا عقلي بلاشي
	إن كنت عطاشي	اشربوا من البيارة

وتمتاز سيرة بني هلال عن كثير من السير الشعبية العربية وغير العربية بأنها لا تتحدث كثيرا عن عاطفة الحب بين المرأة والرجل خارج نطاق الزواج ، انها تناقض الملحمة الغربية التي عاشت أعقاب القرون الوسطى التي رأت في الحب مثالية أفلاطونية سلبية وان اتسمت بالمظهر الديني ، أما الحب عند بني هلال ، فهو حب الرجل لزوجته ، ووفاء الزوجة لبعلها الذي تفارقه لسبب من أسباب النقلة والحرب . . أنه حب ناضج عاقل لا ينفر اطلاقا من مقاييس الأخلاق . ولم يكن الشعب في هذه الملحمة بحاجة الى جعل الحب الحافز الأول على بلوغ الغاية كما فعل في سيرة عنترة . ولم يجنح الى ما جنح اليه في سيرة الظاهر بيبرس في تصوير عاطفة تتسامى حتى لتقترب من البنوة والأمومة ، بل كان الشعب معتصما بالواقعية في اكتفائه بهذا الضرب الانساني المقرر في الحياة ، وقد اعترف ابن خلدون بقوة هذه العاطفة من الناحية الأدبية فقال : ان حب الجازية لزوجها « شكر » يزري بحب ليلى للمجنون .

واذا كانت خلايا من هذه السيرة قد استقلت برأسها ، ونمت على الأيام مثل قصة « عزيزة ويونس » فان الأصل قد ظل على حاله محتفظا بتسلسل الحلقات وتناسب الأحداث وسياق الوقائع وملامح الشخوص . نعم لقد تطورت سيرة بني هلال ، واختلفت في الزي الخارجي وفي اللهجة اختلافها في زي المنشد ولهجته واصطناعه مساعدا أو أكثر ، بيد أنها ظلت زاد الشعب الفني ووسيلة الى ترسيب المعرفة والخبرة ، وأغلب الظن أنها ستبقى أمدا بعد أن أحس الشعب العربي وجوده الكامل وارتفعت الحواجز النفسية والجغرافية بين أقطاره ، وستتغير وظائفها بعض الشيء ، فتبرأ من الخرافات والخوارق وتنتخبها القرائح المعبرة بالكلمة الفصيحة المعربة وبتشكيل المادة والحركة والاشارة ، وتجعل من بعض حلقاتها روائع تقف الى جانب المسرحيات شبه التاريخية لشكسبير وشلر وأضرابهما[١٠] .

مستقبل السيرة الشعبية :

وليست هذه الملحمة مجرد القاء أو تمثيل يقوم به شاعر محترف يتوسل بالربابة ، ولكنها الجمهور الذي يحفظها والذي يشتاق الى آدائها التقليدي في موسم ديني أو اجتماعي . ولقد ظلت كذلك مئات السنين في القرى والمدن على اختلاف بيئاتها ولهجاتها ، ولكننا لابد أن نعترف بأننا نعيش الآن في زمن يتطور بخطوات متزايدة السرعة ، ثم اننا نواجه طفرة في وسائل الاتصال بالأفراد والجماهير وكان من نتائج هذا كله ظهور الأجهزة التي تقوم على العرض المركزي عن طريق السمع والبصر . . وتصور الكثيرون أن سيرة بني هلال ستصبح من آثار الماضي ولكن الواقع قد أثبت العكس تماما ، لأن الوجدان الشعبي لا يزال مؤثرا في الأشكال الجديدة المتوسلة بالراديو والتلفزيون وما اليهما .

(١٠) تراث الانسانية ١ مج ١ ، العدد ٤ ـ ٥ ابريل سنة ١٩٦٣ .

وبدأنا نستمع الى حلقات من سيرة بني هلال في الدور والنوادي كما أننا شجعنا بعض المعنيين بالتأليف والاخراج التلفزيوني على الافادة من الروائع الشعبية بصفة عامة وعلى تقديم السيرة الهلالية بصفة خاصة ، بيد أن هذا الجهد اقتضى بالضرورة ضربا من التحديد لأن السيرة أثر فنيّ طويل ونتج عن هذا الضرب من العمل على مناسبة السيرة الهلالية للمشاهد السمعية البصرية انتخاب العناصر الأساسية في المشاهد والأحداث والشخوص ، بيد أن التواصل الذي عرفت به السيرة الشعبية قد تحول الى ما يخضع للعرض التمثيلي في الاختيار وفي التركيز على المشاهد الأساسية من السيرة الهلالية .

وأول ما ينبغي أن نسجله ونحن نواجه التحول من الفن الشعبي الحر الى الأطر الفنية المعاصرة هو الاعتراف بها في المسرح ، فكان من الطبيعي أن ينتخب المؤلف الدرامي من هذه السيرة ما يكافىء حدود العروض المسرحية . . ينتخب الهدف الذي يناسب المجتمع المعاصر بحيث يستغل بعض المواقف للغاية التي يريدها . ومهما كانت الدراما في تركيزها وقصرها بالقياس الى السيرة فانها تفيد من شهرة الأثر الشعبي ومن استغلاله في العرض ويبقى عنصر الابداع ظاهرا في الاقتباس والاخراج والأداء التمثيلي .

وهذا هو الموقف نفسه في اقتباس المشاهد والأحداث في السينما ، ذلك لأن العرض في هذا المجال لابد أن يتسم بالاختيار كما أنه لا يمكن أن يساير الملحمة الهلالية التي تستوعب ثلاثة أجيال من الفرسان ، ومن هنا تجتذب بعض المواقف المؤلف الذي يريد أن يفيد من الملحمة الهلالية ، وتفقد السيرة بهذا الاقتباس جانبا كبيرا من شعبيتها لأننا ـ كما نعلم ـ نؤكد امتزاج الابداع بالعرض في الفن الشعبي ، وجماهير السينما أقل من المستمعين الى الراوي الشعبي العريق في صورته وآدائه وألحان ربابته . أما التلفزيون فهو أوسع مجالا بكثير من المسرح والسينما ، ولذلك نجد أن المتوسلين به يهتمون بالطابع الشعبي ، ويعنى بعضهم بالسير والقصص التي عاش بها الشعب دهرا طويلا . ولكنهم لا يعرضون السيرة الشعبية كما يرددها الراوي في المواسم والأسواق . . هناك ظاهرتان لا يمكن أن نغفلهما ونحن نعرض للسيرة الهلالية : الاولى . صدور التراث الشعبي من الاختيار . الثانية خضوع الأداء الخاص بالسيرة للاطار الذي يتحكم فيه التلفزيون في الاخراج والعرض لمسايرة هذه الوسيلة التي تجمع بين الصورة والصوت على الشاشة الصغيرة . ومعنى هذا أن الجماهير لا تواجه الشاعر في آدائه مواجهة مباشرة كما هو الحال في الأدب الشعبي .

وقد نجد الموقف نفسه في توسل السيرة الهلالية بالاذاعة وان كنا نسجل المرونة التي يفيد منها العاملون على اخراجها لهذا الجهاز الثقافي وهو أوسع أفقا وأكثر حرية من التلفزيون ، لأن تسجيل السيرة يتسم بالمقومات الطبيعية والشعبية في الأداء من ناحية وفي الاستماع من ناحية أخرى . ومن اليسير أن نتخيل صورة الشاعر بربابته ونحن نستمتع اليه . ولكن الأمر بالنسبة الى هذا التراث الشعبي أهم وأعظم من مجرد التذوق غير المباشر لأهم رائعة من روائع أدبنا الشعبي وهي « السيرة الهلالية » .

لقد أصبحنا نعيش في عصر يستطيع الانسان أن يحتفظ بالروائع الشعبية بوساطة التسجيل السمعي والبصري ، وأنا من ناحيتي أتحدث عن تخصص يدفعني الى تصحيح مفهوم « التراث » . . ان التراث الشعبي له قيمته التي لا تقل عن الآثار المادية التي نحرص عليها ونعمل على حفظها وصيانتها . وتراثنا الشعبي الذي يحتفظ بكل مقومات حياتنا

أجدر بالعناية والحرص على روائعه . ومن أجل ذلك ، أكرر القول إن السيرة الشعبية ليست مجرد وسيلة تسلية ، ولكنها رائعة تستحق المحافظة عليها وعرضها ودراستها . ولم نعد في الزمن الذي كنا نعجز فيه عن الاعتراف بهذا التراث الشعبي . قد نسجل السيرة الهلالية بالصوت والصورة ولكن هذا لا يساير مكانتها من حياتنا وتاريخنا . . لابد من انشاء مكتبات سمعية وبصرية تستوعب تراثنا الشعبي . ولا بد أن تكون هذه العناية متسعة اتساع الوطن العربي الكبير . . وهذا يقتضي عمل الفريق الذي يمثل كل البيئات والربوع في هذا الوطن الحي التليد . لقد بدأنا الخطوات الأولى في الدراسة ، وشرعنا نجمع بعض الوثائق الحية من تراثنا الشعبي . وظهر الى الوجود المركز الذي يعمل على الجمع والتصنيف والعرض والدراسة واحتفلنا بالتخطيط والتنفيذ بمتاحف شعبية ، ويبقى أن نستوعب عمل الفريق في هذا المجال جميع المعنيين بالتراث الشعبي العربي ، والافادة من الدارسين المتخصصين في أوروبا وأمريكا . والتعاون الايجابي في هذا الجهد الكبير يتجاوز مجرد المحافظة على التراث الى استلهامه في الآداب والفنون لكي يعبر عن حياتنا وأصالتنا ولكي يثبت ان فنوننا الشعبية تتخطى حدودنا الجغرافية الى آفاق أبعد بكثير .

* * *

مفهوم الشر في الأدب الشعبي
دراسة للشخصيات الشريرة في السير الشعبية

أحمد مرسي
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

يقول المثل الشعبي المصري « إن كان بينك وبين الشر رزق اقطعه » ويقول مثل آخر « ابعد عن الشر وغني له »وفي نسخة اخرى للمثل « ابعد عن الشر واقني لـه » أي اجعل بينك وبينه قناة . ويقول مثل ثالث « اعمل حساب المريسي وان جت طِيَابْ من الله »[1] .

وفي الحكايات الشعبية يعكس تصرف البطل عادة اهتمامات المجتمع بالخير الى حد بعيد ، بينما يعكس الشرير الذي يقف ضد البطل اهتمامات المجتمع بالشر بنفس الدرجة من القوة والفعالية .

إن الطيب الكريم الشجاع لابد أن ينال جزاء طيبته وخلقه الحميد ، أما الشرير فانه لابد من أن يعاقب عقابا صارما ، وأن يختفي من الحياة ، ذلك انه لكي تستطيع المأثورات الشعبية التأثير في الافراد ، فلابد لها من أن ترضي الذوق العام لهؤلاء الأفراد ، ومن ثم يجب ان يصور الشرير في صورة ايجابية توضح شكل الشر الذي يتصف به ، وأثره ، أكثر من مجرد الاشارة الى انه لا يتميز بأية صفات خيّرة أو حميدة .

ويأتي هذا في حقيقة الأمر من أن الشر أمر يلقي انتباها كبيرا وتركيزا شديدا من الجماعة ، يتناسب مع دوره الذي يلعبه في حياة المجتمع ويؤثر به على علاقات الفرد بغيره ، من ناحية ، وبالمجتمع من ناحية أخرى . وتتضمن الحكايات الشعبية نماذج كثيرة للخير والشر الذي يلقى الاهتمام من الناس ، اذ يعكسون من خلال هذه النماذج المفهوم الشعبي للشر وللخير[2] .

ان العقلية الشعبية تؤمن ايمانا عميقا ، بوجود الشر في الحياة ، وأنه يؤثر في حياة الفرد والجماعة ، ربما بأكثر مما

(١) المَريسي : رياح معاكسة للمراكب ذات الشراع ، والطِّياب : رياح مواتية تساعد المراكب على الابحار .

(٢) احمد علي مرسي ـ المأثورات الشفاهية الأدبية ـ دراسة ميدانية في اقليم الفيوم ـ رسالة دكتوراه ـ لم تطبع ـ جامعة القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢١٠ : ٢١١ ، وانظر ايضا الحكايات المجموعة في الملحق الخاص بالحكايات الشعبية في الجزء الخاص بالعمل الميداني .

يؤثر الخير . كما تؤمن بأنه عقبة لابد من تجاوزها ، ومشكلة أساسية لابد من التعامل معها ، وايجاد حل لها ، ويتمثل هذا الحل عادة في الايمان المطلق بأن الخير لابد أن ينتصر في النهاية ، مهما كان من أمر الشر ، وقسوته ، وقوته ، وتأثيره .

وتختلف الأساليب التي تواجه بها العقلية الشعبية الشر ، ايجابا أو سلبا ، فالأمثال الشعبية ، كما رأينا في النماذج الثلاثة التي ذكرناها في مقدمة هذه الدراسة تدعو الى الابتعاد عن الشر وتجنبه ، مهما كان ما يجنيه المرء منه ، حتى لو كان رزقا يحتاجه ، او خيرا يتوقعه ، ذلك ان الشر لا ينتج خيرا ، كما أن « أول الشر جنون وآخره ندم » . وتدعو الأمثال الشعبية أيضا الى توقع الشر قبل الخير ، وتعد ذلك من حسن الفطنة ، وكأنها بذلك تعد الانسان لمواجهة الشر المتوقع دائما ، وتؤكد له في الوقت ذاته أن هذا امر طبيعي ، لا ينبغي الخوف أو الجزع منه ، أو التقاعس في مواجهته ، باعتباره امرا ملازما للحياة ، لأن الحياة لا يمكن ان تقوم على الخير وحده أو على الشر وحده ، وأنه لا غرابة في ان يواجه الشر الخير محاولا الانتصار عليه ، لأن الخير هو الطبيعي وأنه يمكن أن يوجد دون وجود الشر ، ولكن الشر لا وجود له دون وجود الخير ، ومن ثم تتوقع العقلية الشعبية أن يكون الشر هو البادىء دائما . ولعل ذلك هو السبب في اننا نرى أن الشخصيات الشريرة في الحكايات والسير هي التي تبدأ بالفعل ، ويصبح سلوك الشخصيات الخيرة وكأنه رد فعل لهذه الأفعال الشريرة .

ان العقلية الشعبية بتأكيدها على وجود الشر وضرورته ، وبدعوتها للانسان ان يتوقع الشر قبل الخير ، لا تصدر في ذلك ـ في حقيقة الأمر ـ عن نظرة متشائمة للحياة والكون ، ولكنها تعمل بشكل غير مباشر على استحداث التوازن الانساني ، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة ، بهذا التصوير للشر والاشرار .

والحقيقة ان الخير والشر هنا ، مفاهيم نسبية ، اذ يكتسب الخير معناه من وجود الشر ، فالخير خير لأنه يوجد شر ، والشر شر أيضا لأنه يوجد خير . وهكذا يعيش الشر الى جانب الخير ، ويتطور كفكرة موازية لفكرة الخير ، باعتبار أن الشر رمز لجانب أساسي من جوانب الخبرة الانسانية كالخير تماما .

واذا كان الخير في المأثورات الشعبية يمثل التناغم والاتساق في قوانين الطبيعة والحياة اذ يؤكد القواعد العامة ، ويقف في صف الفرد والجماعة ، ومثلها العليا ، فان الشر يلعب هو الآخر دورا هاما في الحياة والكون أيضا عن طريق ما يجسده من نقائص مادية وأخلاقية ، وما يمثله من أذى وخروج على النظام والقواعد العامة ، واستثارته للنوازع الدنيئة التي تعمق من مشاعر الأثرة والأنانية ، وتوسع الهوة بين الفرد والجماعة .

ويظهر الشر في السير الشعبية رمزا لعدم الرضا عن الواقع الموجود الذي لا يحقق آمال الشخصية الشريرة ، لأنه يقف ضدها ، وضد كل ما تمثله من ناحية ، كما يشير هذا الرمز أيضا الى النقائص والمثالب التي تعمل عملها في بنية المجتمع ، وتعمي الفرد عن معرفة ذاته ورؤ ية صحيحة في علاقتها مع الذوات الأخرى ، من ناحية ثانية . وهنا يلعب الشر ، كما تجسده الشخصيات الشريرة دورا هاما لا غنى عنه ، اذ يحفز الى التغيير ، ويدفع اليه ، كما يؤكد على أهمية الخير وضرورته ، مما تمثله الشخصيات الخيرة ، ودوره في القضاء على المثالب التي يعاني منها الفرد ، والجماعة ، والانتصار على النقائص والعيوب التي تدرك العقلية الشعبية أنها سم يسري في جسد المجتمع ، يؤدي به شيئا فشيئا الى

التحلل والانهيار . وعلى ذلك فان الخير في المأثورات الشعبية ، ليس مفهوما مجردا ، وكذلك الشر ، وانما يكتسب كل من الخير والشر ملامح جسدية وسلوكية وخلقية انسانية ، تتفق مع المفهوم الشعبي لكل منهما .

ان الخير قوة . . والشر ضعف . . كما أن الخير مع الحياة . . والشر ضدها . . ويمثل الخير الجمال شكلا ومضمونا ، في مقابل الشر الذي يمثله القبح شكلا ومضمونا أيضا ، فالخير قوي شجاع متناسق الملامح ، والشرير ضعيف جبان مشوه الشكل غالبا . . والخير صادق طيب القلب ، كريم الخلق ، عميق الإيمان ، أما الشرير ، فهو مخادع ، قاسي القلب ، سيء الخلق ضعيف الأيمان .

ولقد اخترنا شخصية سعاد الشاعرة أخت التبع حسان اليماني التي عرفت باسم البسوس في الحياة العربية قبل الاسلام ، واقترن اسمها بحرب ضروس بين بكر وتغلب ابني وائل ، كانت الموضوع الرئيسي لسيرة من أهم السير الشعبية العربية هي سيرة الزير سالم ، المعروف في تاريخ الأدب العربي باسم « المهلهل » ، لتكون أحد نموذجين يوضحان صورة الشر في السير الشعبية عامة . وعلى الرغم من أن وجودها المادي في السيرة لا يستغرق أكثر من بضع صفحات قليلة ، إلا أن أثرها يظل فاعلا في السيرة الى نهايتها ، مما يشير الى خطورة دور العنصر الشرير عامة وأثره في حياة الجماعة ، وهي بذلك تختلف الى حد كبير عن بقية الشخصيات الشريرة في السير الشعبية الأخرى كشخصية « جوان » في سيرة الظاهر بيبرس التي تمثل النموذج الثاني ، والتي تظل تواجه الأبطال الخيرين طوال السيرة حتى يتم النصر للخير في النهاية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لأنها تمثل عنصرا نراه مهما وهو تأثير الشر عندما يأتي الى الجماعة من خارجها ليلتقي مع عناصر شريرة كامنة داخلها ، فيبدو هذا الشر الخارجي مجرد مثير أو حافز لعناصر الشر المتراكمة في وجدان الجماعة ، يساعد على بروزها ، وتفجيرها لتدمر الجماعة كلها .

يبدأ التنبؤ بما تحدثه سعاد أو البسوس في ثنايا نبوءات حسان اليماني أثناء احتضاره عندما يقول لكليب :

وبَـعْـدُه شَـاعْـرَه تِـنْـزِلْ عَـلِيكُـمْ	وتِـفْـتِـنْ بِـين قِـيسْ في الْـبِـلاَدْ
وانْـتَ بِـرُمْـح جَـسَّـاسْ سَـتَـطْـغَـى	وَعَـبْـدِي يِـدْبَـحَـكْ بِـين الْجَـمَـادْ[٣]

وفي نص آخر :

وَبِـعْـدِي شَـاعْـرَهْ تِـنْـزِلْ عَـلِيكُـمْ	وتْـفِـتِـنْ بِـيـنْـكُـم يَـا أَهْـل الـسَّـخَـاهْ
وتْـرمِـي بِـالْـعَـرَبْ فِـتْـنَـهْ كِـبِـيرَهْ	تِـشَـيِّـب الـطِّفْـل عَـنْـدِ الْمُـلْتَـقَـاهْ

وفي موقف آخر من النص نفسه ، يقول الراوي :

عَـجُـوز الـشَّـاعْـرَهْ قَـصَـدِتْ جِمَـانَـا	وهِـيّ جَـاسُـوسْ مِـنْ قَـوم طُـغَـاهْ
تَـارِيهَـا أُخْـت حَـسَّـان الْـيَـمَـانِي	تِـطْلُبْ تَـارْ أَخُـوهَـا مِـنْ وَرَاهْ
ونـزِلِـتْ عَـنْـد جَـسَّـاسْ بـن مُـرَّه	ومَـدَّحِـتُـه عَـلَى جُـودُه وعَـطَاهْ
ومَـا جَـلَبِـتْ مَـعَـاهَـا غِـير نَـاقَـهْ	فـصارت قَـطِيـعْ تِـسْـقِـيـه الـرُّعَـاهْ

(٣) قصة الزير سالم الكبير ـ مكتبة الجمهورية العربية ـ القاهرة . بدون تاريخ ، ص ٣٤ .

تِقُول لِعَبِيدْهَا فِي كُلّ يوم ... خُشُون الحمَا وارْتموا عُفَاهْ
وسِيُبونْ الأبَاعِرْ فِي الجنينَهْ ... وَلَا تخشونْ مِنْ حُكْم القضاه

. . . .

وصَارتْ الْعَجُوزْ تِرْمِي وَسَاوِسْ ... بينْ جسَّاسْ وكليب الفَتَاهْ
فَشيَّعِت الْقبَائِلْ والطَّوَائِفْ ... ونار الشَّر عَاد لَهَا لَظَاهْ

وقدوُصِفَتْ سعاد الشاعرة في السيرة بأنها عجوز[٤] « من عجائب الزمان وغرائب الاوان ، ذات مكر ودهاء ، وكان لها أربعة أسماء » . . وأنها « كانت مع هذه الأوصاف القبيحة ، جميلة المنظر ، فصيحة الكلام شديدة البأس ، ولما كبرت وانتشت وصارت بنت عشرين سنة تركب الخيل في الميدان ، وتبارز الأبطال والفرسان ، وشاع صيتها في كل مكان » ثم تذكر السيرة أنها ، تواردت اليها الخطاب من جميع المدن والبلدان فكانت تقول لا أتزوج إلا من يقهرني في الميدان ، فكانت تقهرهم في القتال ، وتعلم عليهم في ساحة المجال . . فاقتصر عنها الخطاب وتباعد عنها الطلاب . . . وكان الأمير سعد (ابن عمها) صاحب نخوة وحمية ومن أشد فرسان الجاهلية ، فحاربها حتى أتعبها ، ثم اقتلعها من بحر سرجها فأقرت له بالغلبة ، وبعد ذلك تزوجها . . وأقامت مع زوجها في أرغد عيش وهناء مدة عشر سنين الى أن عمي وفقد البصر ، فصارت تحكم مكانه ، وأطاعتها العرب وعظم أمرها واشتهر ذكرها . ومازالت على تلك الحال وهي في أرغد عيش وأنعم بال ، إلا أن كليب قتل أخاها التبع ، فلما بلغها هذا الخبر أخذها القلق والضجر ، وتنغص عيشها وتمرمر ، وقالت لابد لي من السير الى تلك الديار وأقتل كليبا الغدار ، فاذا قتلته انطفى ناري وأكون قد اخذت بتاري . فأقامت مكانها وكيلا يحكم بالنيابة عنها ، وركبت هي وزوجها وبناتها وأخذت معها عبدان . ومازالت تقطع البراري والآكام ، حتى وصلت الى بلاد الشام ، فسألت عن حِلّة بني مُرّة فأرشدوها اليها ، فلما صارت هناك قصدت الامير جساس دون باقي الناس ، ودخلت عليه وهو في الديوان وحوله جماعة من الأمراء والاعيان ، فتقدمت اليه وسلمت عليه ودعت وترحمت وبأفصح لسان تكلمت ، وقالت له أدام الله أيامك ، ورفع على ملوك الأرض قدرك ومكانك ، وبلغك أربك ومناك ونصرك على حسادك وأعدائك . فتعجب جساس من فصاحة مقالها فأثنى عليها وسألها عن حالها ، فقالت له انني شاعرة أطوف القبائل والعشائر وأمدح السادة والسادات والأكابر ، وقد سمعت بجودك وكرمك ولطفك ومحاسن شيمك ، فأتيت الى دارك ، حتى أعيش في جوارك وأكون مشمولة بأنظارك ، وأقامت عنده شهرين وجساس كل يوم يزيد في اكرامها ، وكانت قد رأت اتفاق قوم كُلَيب مع بني مُرّه وهم في محبة ومؤالفة عظيمة واجتماعات كثيرة كأنهما قبيلة واحدة فما هان عليها ذلك الأمر ، فأخذت تلقي الفتنة والفساد بين الامراء والقواد حتى وقع الشر والنزاع وكثر القيل والقال . ولما اشتد الأمر ، اجتمع كل أكابر الناس عند الأمير جساس وأخذوا يشكون من بني تغلب وعن سوء معاملتهم وأنهم يعتدون عليهم في أكثر الاوقات بدون سبب ، وهذا كله من يوم ما قتل كليب السبع اليماني ، وامتد ملكه في الاقطار ، فابتدأ يجور ويظلم ولا يحسب حساب ، وهكذا قومه تفعل كفعله . وكان مرادهم بهذا الكلام يحمسو الامير جساس ويهيجوه على قتال كليب ، ولكنه لم يصغى لهم ولم يطاوعهم على مرامهم ،

(٤) قصة الزير سالم الكبير ، ص ٤٦ وما بعدها الى ص ٥٧ .

وقال لهم انه من الصواب أن أجتمع أولا مع ابن عمي كليب ، وأعلمه عن تعديات قومه وجورهم علينا ، فإن وجدت كلامه قاسيا يكون هو السبب في تقويتهم ، وان أمر بتأديب المفترين نكون قد نلنا مرادنا .

ومازالت الفتنة بين الفريقين تمتد وتشتد حتى اتصل الخبر الى مسامع الامير كليب ، وبلغه أن بني مُرَّه هم أصل ذلك الخصام ، فضاق صدره وتكدر ، وأرسل من اعلم جساس بذلك الخبر طالبا منه ان يبادر الحال بقصاص المذنبين وتوقيف حركات البكريين واخراج العجوز من القبيلة التي كانت سببا لهذه الورطة . فاغتاظ جساس من ذلك ، وتأثر وتأكد عنده كلام قومه ، وعلم ان أصل ذلك كله من كليب ، فلم يجبه بجواب ولا بخطاب . وأخذ جساس من ذلك اليوم يجمع الجموع ويفرق على قومه السلاح ، ويقويهم بآلات الحرب والكفاح ، فبلغ ذلك الأمير كليب ، فازداد كدره ، واحتار في أمره ، وحس بزوال ملكه .

ويرجع الكلام والسياق الى حديث سعاد الشاعرة الساحرة الماكرة فإنها لما أثارت الفتنة بين القوم ، وصار لها عند بني مُرَّه ذلك القبول وجميع كلامها عند جساس مقبول ، أخذت طاسة من الفضة ، وملأتها من المسك والزباد والعطر ، وخفقت الجميع في بعضه البعض ، وعمدت الى ناقتها الجربانة ، وأخذت تطلي أجنابها وتدهنها بذلك الطيب ، وأمرت بعض العبيد أن يأخذها الى المرعى ، ويمر بها قرب صيوان جساس في الصباح والمساء ، وأوصته إذا سأله احد عنها وعن سبب رائحتها يقول لا أعلم وانما مولاتي تعلم . فأخذ الناقة ومر على ذلك المكان ، فعبقت رائحة الطيب فأستنشق جساس الرائحة وكانت ذكيه جدا فتعجب . وكان قد نظر الى العبد وتلك الناقة ، فأمر باحضار العبد وكان يظن تلك الرائحة عابقة منه . ولما حضر واذا رائحة كريهة جدا ، فسأله عن تلك الرائحة ، فقال من الناقة . فازداد تعجبا وسأله عن سبب ذلك ، فقال لست أعلم يامولاي انما مولاتي سعاد الشاعرة تعلم ذلك . فقال جساس هذا غريب . فاستدعى العجوز اليه فحضرت ثم سألها عن قضية الناقة ، فتنهدت من فؤ اد موجوع ، وقالت لا خفاك أطال الله عمرك وأبقاك أن هذه الناقة من سلالة ناقة صالح ، وفيها خواص غريب يا ابن الاجواد ، فأن بعرها من المسك ، وعرقها من الزباد . فتعجب جساس غاية العجب ، وقال في نفسه تبارك الله رب العالمين فلابد لي من أخذ هذه الناقة فأفتخر بها على جميع الملوك ، فقال لها هل تبيعني اياها ياحُرَّة العرب وأنا أعطيك مهما تطلبين من الفضة والذهب . فلما سمعت كلامه بكت ولطمت وجهها ، وقالت والله هذا الحساب الذي كنت أحسبه ، فأني ما هاجرت من بلادي الا لأجل هذه الناقة ، وكلما نظرها امير أو ملك يطلبها ، ومادام الأمر كذلك فاني سأرحل من عندك ثم بكت . فلما فرغت أخذ جساس يعطف بخاطرها ، ويقول لها ان كلامي معك هو على سبيل المزاح ، فناقتك مباركة عليك ، وأنت المعزوزة عندنا . فقالت من حيث ذلك ، أريد أن تجعل ناقتي دون باقي النوق والجمال لأنها قد تربت بالدلال ، وأريد مرعى لأنه أليق بها . فقال أرسلها الى المراعي مع نوقي وجمالي . فقالت انها لا تأكل الا من الرياحين وزهر البساتين . فقال انه ليس لنا كروم ولا بساتين . قالت وهذه الكروم التي بجانب القبيلة ، من هو صاحبها . قال هي لابن عمي كليب زوج أختي الجليلة وهمام متزوج أخته ضُباع . قالت مادام أنكم أهل وأقارب ، وأنت ملك نظيره فلماذا يكون كليب أعظم منك . فقال أنه من بعد قتله الملك تبع عظم أمره وانتشر ذكره وتملك على البلاد وطاعته العباد . فلما سمعت هذا الكلام قالت والله لقد أخطأت ، وبئس ما فعلت فاني تركت البحر وجئت الى الساقية ، وتعلقت بالذنب وتركت الرأس . فاغتاظ جساس وقال ما معنى هذا الكلام يا حرة العرب ، فانك قد خرجت عن دائرة الصواب وباديتنا بقلة الأدب ، أهذا جزاء

المعروف والاحسان ! فقالت لا تغضب ولا تغتاظ ، وما قولي هذا الا من سبيل المحبة ، فكيف يكون ابن عمك وصهرك وزوج أختك ويملك على هذه الاراضي العظيمة وأنت ليس لك قدر ولا قيمة ، أهكذا يكون الأهل وأبناء الاعمام أيها الملك الهمام . فقال جساس وذمة العرب ، وشهر رجب ، لقد تكلمت بالصواب ، وأنا من الآن وصاعدا لست أحسب له أدنى حساب لأنه قد اغترّ وتمرد ، ولا عاد يحسب حساب لاحد ، وأنا لابد لي ان أطالبه ان يقاسمني على أملاك المملكة ، والا القيه في التهلكة ، فروحي وأطلقي ناقتك لكي ترعى في أحسن البساتين والمرعى .

فلما انتهى جساس فرحت العجوز وانشرح صدرها ، فقبلت يده وخرجت من عنده ، وقالت لعبدها خذوا هذه الناقة واتركوها ترعى في البستان المعروف بحي كليب ، واجعلوها تهدم الحيطان وتقطع الأشجار وتأكل الأغصان ، واذا اعترضكم فاشتموه وسبوه واذا اقتضى الامر اقتلوه ولا تخافوا ، فقالوا سمعا وطاعة ثم أخذوا الناقة وساروا بها الى ذلك المكان .

وكان هذا البستان كأنه روضة جنان ، كثير الاشجار والفواكه والاثمار ، وكان كليب قد اعتنى به حتى صار من أحسن متنزهات الدنيا ، وكان لا يسمح لاحد أن يدخل اليه سوى هو وعياله فقط ، فلما أخذت العبيد الناقة ، دخلوا بها بعد أن هدموا الحائط وصاروا يقلعوا الزهور ويكسروا اغصان الشجرة . وكانت الناقة تأكل العرايس وأثمار الكرم ، وكان كليب أقام حارسا يحرسه اسمه ياقوت فلما نظر الحارس تلك الفعال ، هجم على العبيد بالعصا وقال لهم اخرجوا ياكلاب من البستان قبل ان يحل بكم الهوان ، فشتموه وسبوه ثم ضربوه ، فهرب من بين أيديهم ، وجاء الى كليب وأعلمه بواقعة الحال ، فاغتاظ غيظا شديدا وجاء الى ذلك المكان ومعه أربعة غلمان ، فرأى العبدين أحدهما جالس على سريره أي الذي كان يجلس عليه وقت النزهة ، والآخر دائر مع الناقة بين الكروم والزهور وهو يسب الامير كليب ويشتمه . فعند ذلك تراكضت غلمان كليب على العبيد لتقبض عليهما فتركا الناقة وهربا . فأحضرت الغلمان الناقة أمام كليب فأمر بذبحها فذبحوها وطرحوها خارج البستان . وكانت عبيد العجوز تراقب عن بعد ما يجري على الناقة ، فلما شاهدوا ما كان من أمرها رجعوا على الاعقاب وأعلموا مولاتهم بما جرى وكان ، وكيف ان غلمان كليب ذبحوا الناقة بأمر مولاهم وطرحوها خارج البستان . فقالت الآن بلغت مرادي وأخذت ثأري من الاعادي . ثم امرت العبد أن يسلخ الناقة ويأتيها بجلدها . فسار العبد وسلخها وجاء بجلدها اليها وقامت من وقتها ، ووضعت التراب على رأسها ، وشقت ثيابها مع بناتها وعبيدها وجواريها ، وأخذت جلد الناقة وسارت بها عند الأمير جساس فدخلت عليه وهو في الديوان مع الأكابر والأعيان ، وصارت تندب وتبكي ، وألقت الجلد بين يديه . فقال ملامك ايتها العجوز وما الذي أصابك ، فحدثته في القصة وقالت له في آخر الكلام لو كنت اعلم بأن ليس لك عند ابن ربيعة قدر ولا مقام ما كنت تركت ناقتي في حماه حتى يذبحها ، بل اني اعتمدت على كلامك نظرا لعلمي برفعة مقامك بين اهلك واقوامك حتى جرى ما جرى بسببك .

فلما فرغت العجوز من كلامها ، استعظم جساس تلك القضية وعصفت في رأسه نخوة الجاهلية ، وقال للعجوز إذهبي بأمان فأنا أعرف شغلي . فذهبت الى خيامها ، واستبشرت ببلوغ مرامها . ثم التفت الامير جساس الى من حوله من الامراء وأكابر الناس انظروا ما فعله ابن عمنا في حقنا وهو صهرنا فقد أهاننا بهذا العمل ، وأنا لابد لي أن أستعد

لقتاله في هذا اليوم ، فإما أن أقتل أو أبلغ الامل . فقالت له أكابر العشيرة تمهل يا امير فانه ربما لايعلم أنها ناقة نزيلك ، ومن الصواب أن ترسل له كتابا على سبيل العتاب ، وتطلب منه ثمن الناقة وتنظر ما يكون جوابه ، فإن ارسل الثمن واعتذر كان خيرا ، وان أبى وامتنع فحينئذ تفعل ما تريد . فاستصوب جساس هذا الرأي وكتب كتابا الى كليب يعلمه بذلك الحال ، ويطلب منه ثمنةالناقة ، وأرسل الكتاب مع عبده أبويقظان . فأخذ أبويقظان الكتاب وفي طريقه مر على تلك العجوز وأخبرها بالقصة ، فترحبت به ولاطفته بالكلام وقدمت له الطعام ، ثم أخذت تسقيه المدام حتى سكر وغاب عن الصواب ، فعند ذلك فتشته في ثيابه حتى عثرت بذلك الكتاب ، فقرأته فوجدته كتابا بسيطا خاليا من التهديد والوعد والوعيد ، وأضافت اليه كلاما مغيظا وهي هذه الابيات :

أمـير كُـليـبْ يَـا كَـلْب الأعَـارِبْ ... أيَـا ابْـنِ الْـعَـمْ لاَ تِـكْـبَـرَ عَـلَيَّهْ
فَـلاَزِمْ أذْبَـحَـكْ فِي حَـدِّ سِـيـفِـي ... وانْـتَ شَـبِـيـهْ حُـرَمـهْ أَجَـنْـبِـيَّـهْ

ثم طوت الكتاب ، ووضعته في مكانه . وقام العبد فنهض وركب جواده ، وصـار حتى وصل ديـوان الامير كليب ، ودخل عليه وقبل الارض بين يديه وناوله الكتاب ، فأخذه وقرأه ولما وقف على معناه اغتاظ غيظا شديدا ، وأراد أن يقتل العبد ، ولكنه كان رجلا عاقلا موصوفا بالحلم والحزم فأطرق رأسه الى الأرض وتفكر قليلا ثم قال في سره لعل الامير جساس كتب لي هذا الكتاب وهو في حالة السكر غائب عن الصواب ، فمزق الورقه وأمر بضرب العبد فضرب وقال له إذهب يا ابن اللئام الى عند مولاك بسلام والا سقيتك كأس الحمام ، فقام وهو على آخر رمق وركب حصانه وسار الى عند جساس وقال له إنه بحال ما قرأ الكتاب مزقه وأمر بضربي وقد شتمك وسبك وهذا الذي تم وجرى .

فلما سمع جساس هذا الكلام صار الضيا في عينيه كالظلام ، فنهض في الحال ودخل الى خزانة السلاح ، ولبس آلة الحرب والكفاح ، وركب ظهر حصانه وانحدف الى صيوانه ، وصاح على أبطاله واخوته وفرسانه ، فجاءوا اليه وداروا حواليه فأعلمهم بواقعة الحال وما جرى بينه وبين كليب من النزاع والجدال ، وقال لهم استعدوا لقتال بني تغلب الأنذال .

فلما فرغ جساس وعرف قومه فحوى قصده ومرامه فما أحد طاوعه على هذا المرام ، وقالوا له عن فرد لسان بئس هذا الرأي ، وهل يجوز لنا يا أمير لاجل ناقة حقيرة نقاتل ابن عمنا الأمير كليب ونرفع في وجهه السلاح بعد ان صاننا وحمانا بسيفه ، وقتل الملك تبع حسان واستولى على الاقاليم والبلدان ، وجعل لنا ذكرا عظيما في قبائل العربان على طول الزمان ، فان كان لك عليه دم أو ثار فدونك واياه فلا تطلب منا مساعدة ولا نجدة .

فلما سمع كلامهم تركهم وقصد بيت العجوز ، ولما اجتمع بها قال لها لقد جئت إليك لأرضيك بالعطايا خوفا من ازدياد المنايا ووقوع البلايا ، فاطلبي ثمن ناقتك لاعطيك اياه ولو كان مهما كان . قالت أريد واحدا من ثلاثة اشياء . قال وما هي . قالت أريد اما ان تملأ حجري بالنجوم أو تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم أو رأس كليب بالدماء يعوم . فقال لها أما ملو حجرك بالنجوم أو أن الناقة تعيش وتقوم فهذا لا يقدر عليه إلا الحي القيوم . أما رأس كليب فابشري به ، ثم قوّم السنان وأطلق العنان ، وقصد حي بني قيس . فقالت العجوز لعبدها سعد خذ هذا السكين والمنديل

الابيض واتبع جساس من وراه ، فاذا رأيته قتل كليب فأسرع اذن والطخ هذا المنديل من دمه ، فمتى فعلت ذلك فانني أطلقك لوجه الله تعالى فامتثل امرها وتبع آثار جساس .

واذا بعبد العجوز اقبل اليه وجذبه من يده فأوقفه وقال والله انك من أحقر الرجال ، ثم اعلمه بحاله ، وكيف العجوز أرسلته خلفه لأجل تلك القضية ، فتحمس جساس ونهض ، ومسك له العبد الركاب فركب ، ثم تقدم نحو كليب وهز في يده الرمح ، وطعنه في صدره خرج يلمع من ظهره ، فوقع على الارض يختبط بدمه فبكى كليب ملء عينيه ودمعه يسيل على خديه ، فلما رآه جساس على تلك الحالة ندم وتأسف على ما فعل .

والنموذج الثاني للشخصيات الشريرة التي سنتوقف عندها ، هو « جوان » في سيرة الظاهر بيبرس ، كما سبق أن أشرنا .

وتأتي أهمية هذه الشخصية ـ من وجهة نظرنا ـ انها تكاد تمثل كل عناصر الشر التي نراها في السير الشعبية الأخرى شكلا ومضمونا ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، لأنها تكاد تكون نموذجا لما يمكن أن نسميه « الشر للشر » فاذا كانت « سعاد » أو « البسوس » قد جاء شرها من رغبتها العارمة في الأخذ بثأر أخيها « التبع حسان » الذي قتله « كليب » ، وان هذا الشر لم يكن يؤتي ثماره ، أو يؤثر تأثيره المدمر ، لولا أن الجماعة نفسها كانت مهيأة لذلك ، اذ تفاعلت داخلها عوامل هيأت لهذا الشر أن يحقق هدفه ، فان شر « جوان » غير مبرر ، حيث لا يوجد دافع واضح يدفع اليه ، مهما حاولت السيرة أن تؤكد أن هذا الشر متأصل فيه ، ورثه عن أبيه ، وأنه ابن سفاح ، أو كما يقال في التعبير الشعبي « ابن حرام » ، وأنه كان مدفوعا بحقد دفين لا نعرف له سببا ، جعله يناصب الجميع العداء ، أو غير ذلك من أسباب .

ولعله مما يلفت النظر في سيرة الظاهر بيبرس أن التعرف على « جوان » وتقديمه ، يتم قبل تقديم « الظاهر بيبرس » والتعريف به ، اذ تحكي السيرة كيف أن « أيبك » قد مرض مرضا شديدا ، احتار الأطباء في معرفته ، ومداواته منه ، وكاد أن يورده حتفه .

« فبينما هو كذلك ، واذ مر به رجل متشبه بالعلماء الأعلام ، فسلم عليه فرد السلام ، فجلس الى جانبه ، وجعل يحادثه حتى أنه احتوى على قلبه ، ثم قال له : يا ملك الزمان ما بك ؟ فقال : كما ترى بالعيان ، قال : ألم يأتك حكماء يعالجوك ومن هذا المرض ينقذوك . فقال : جاءني كثير ، وما زادني الا تحسير ، فقال له : أنا أداويك ، ومن هذا المرض أشفيك ، قال : جزاك الله كل خير ، فتقدم اليه وجعل يداويه بأدوية يخبرها وأعشاب يعرفها ثلاثة أسابيع حتى شفي وطاب من كل مصاب . فلما شفي من مرضه أقبل على ذلك الشيخ وقبل يده وقال له : ما اسمك يامولاي ؟ قال له : اسمي الشيخ صلاح الدين ، قال له : من أي أرض ؟ قال له : من العراق ، فظن « أيبك » أنه ولي من أولياء الله ، فاعتقد به وقربه ، ولم يدر من هو ! » .

ومن السهولة بمكان أن ندرك أن هذا الشيخ الصالح ! هو جوان ، وأن لقاءه مع « أيبك » على هذا النحو هو السبيل الذي سيتيح له بعد ذلك أن يلعب دوره المقدر له في السيرة.

وتعود السيرة الى الوراء ، لكي تعرف تعريفا كاملا بهذا الشيخ ، فتحكي كيف أنه كان هناك راهب يدعى نشوان ، له ابنان أحدهما يدعى « كرسيمول » والآخر « أصفوط » ، وكيف نشأ « كرسيمول »كأبيه ورعا ، تقيا ، أما « أصفوط » فقد أصبح من أهل الشر والفساد ، وتطلق السيرة عليه لقب « أصفوط الممقوت » . وتحكي السيرة أن ملك البرتغال قدم لزيارة الدير الذي يقوم عليه « كرسيمول » بعد وفاة أبيه ، وأنه جاء لوفاء نذر قطعه على نفسه ، ويترك الملك ابنته في رعاية « كرسيمول » ، فقد وهبها للرهبنة والتعليم . وتكبر الفتاة وتصبح فتنة للناظرين ، وما أن يراها « أصفوط » حتى يقرر الحصول عليها لنفسه ، ولكن أخاه ينهره ، ويبعده عنها ، وفاء للأمانة والعهد الذي قطعه مع أبيها ، ولا يهدأ « أصفوط » حتى يتم له اغتصاب الفتاة في غفلة من أخيه ، الذي لا يجد مفرا من اعادتها الى أبيها ، وحكاية ما جرى لها ، وتذكر السيرة أن ملك البرتغال قد انتقم من « أصفوط » لما اقترفه في حق ابنته .

« وأما ما كان من أمر بنت الملك ، فانها حبلت وظهر عليها الحمل ، فوضعت غلام ذكر ، وهو عبرة لكل البشر . وليلة وضعه انكسف القمر ، وأظلمت الدنيا ونزل المطر ، وزادت الرعود وكانت ليلة منحوسة ، وقد خرج رفيع العنق ، كبير الرأس ، شنيع المنظر ، ومن جملة قباحته أن أمه بعد ان وضعته انقلبت ميتة .

فلما عاين ذلك الملك ، بكى على ابنته ولبس ملابس الحزن ، وذم الولد وقال : هذا مشئوم ، ولولا وصية المسيح بالأطفال لكنت قتلته وارتاح قلبي منه . ثم أمر له بمرضعة فأتوا اليه بها فأبى أن يرضع ، فأتوا بغيرها فكانت كمثلها ، ولم يقبل المراضع ، فأتوا له بالمعز والغزلان فأبى ، فلما عاين ذلك الوزير ، قال للملك : اعلم أن هذا الولد منحوس ، وطالعه معكوس ، فان طاوعتني ترسله الى الدير خارج البلد ، فيه كلبة ترضع أولادها فاجعله معهم ، فإن عاش فبرزقه وإن مات فبأجله ، فقال له : هذا هو الصواب ، ثم انه أمر بحمله الى الدير ، فحملوه ووضعوه في دهليز الدير مع أولاد الكلبة ، فمسك ثديها ورضع وقد حننها الله عليه ، فصارت ترضعه فلما علم الملك تعجب من هذا المولود ، ثم انه جعل يتفقد الكلبة بالمآكل والمشارب الى أن كبر الولد وانتشى ومشى فطلع آفة رقطاء ، ومؤذي لا يطاق ، كثير النفاق ، لا يرى شخصا الا ويضربه ، ولا يجلس مع قوم الا ويفسدهم . وقد زاد ظلمه على العباد ، وعم جوره وشاع أمره بذلك فشكت منه العباد الى الملك فنهاه فلم ينته عن أفعاله ، ولا رجع فشكوا ثانيا الى الملك وثالثا ، فلما أعياه الأمر وتزايد عليه الشكوى والضرر أرسله الى عمه كرسيمول في الدير مع عشرة رجال ، فلما وصلوا به الى الدير ، قبلوا يد كرسيمول ، وقال له : خذ هذا ابن أخيك وهذا كتاب من الملك واذ به الى بين أيادي كرسيمول ، الواصل لك ابن أخيك ، وقد سميته جوان ، وجرى له من الأمر ما هو كذا ، وكيف أن أمه ماتت عند ولادتها ، وأعاد عليه جميع ما جرى لأخيه أصفوط ورفقاءه ، ثم ان كرسيمول أخذ الغلام وجعل يعلمه الأحكام مدة من الأيام ، وتصاحب بالدير مع بعض أولاد الملوك الذين يقرأون عند كرسيمول ، وكان أكثر صحبته مع ولد يقال له سيف الروم . وكان جوان صاحب مكر وخداع وحيل ولم يزالوا على ذلك حتى قرأوا غوامض العلوم ، أما ما كان من أهل الدير ، فانهم طلعوا في عيد لهم الى جهة البحر ، وركبوا المراكب ، وكانت هذه عوائدهم في كل عام يطلعون الى البحار ، ويأخذون ما جاء اليهم من المسافرين . فبينما هم كذلك واذ أقبل عليهم مركب حجاج فدار به أهل الدير ، واستأسروا كل من كان فيها . فكان من جملة ما أخذوه رجل عراقي صاحب فضل وعلم يقال له الشيخ صلاح الدين ، وكان يقرأ علوم كثيرة ، ويروي الأحاديث ، ويفسر المعاني ، ويفهم علم الأدب والعروض والمنطق والصرف والفلك والهندسة والحكمة . وقد نظروا

الى ذلك الشيخ المهاب وهو بهذه الشيبة ، قالوا له : انت رجل كبير وما لك عندنا منفعة خذوه الى السجن ، وكان هذا من لطف الله عليه . فلما جلس في السجن ، حمد الله ورضي بالقضاء والقدر ، ثم جعل يقرأ القرآن . وقد تداولت الأيام واذ مر به جوان على باب السجن ، وسمع الاستاذ يقرأ القرآن ، فألقى أذنه وتأمل كلام الاستاذ فأعجبه فرجع لرفقائه وقال لهم : ان هذا الرجل الذي في السجن مقيم هو من رهبان المسلمين ، والرأي عندي أننا ننزل اليه ونقبل يديه ونحتال عليه ، ونسلم اسلام باطل ، ونخليه يعلمنا كلام المسلمين ، لنكون بجميع العلوم عارفين . فقالوا له : افعل ما تريد ، فأخذهم وسار الى السجن ، وفتح الباب ونزل اليه ، فبينما الشيخ جالس ، واذا بجوان مقبل عليه ، وجعل يقبل يديه ، وكذلك من كانوا حواليه ، فقال لهم الاستاذ : من أنتم ؟، فقالوا له : يامولانا اننا من هذا الدير ، وقد سمعنا منك هذا البيان فأعجبنا البرهان ، وانا نريد أن تعلمنا اياه . فقال : يا أولادي هذا كلام لا يتعلمه الا المسلمون ، فان شئتم فأسلموا ، فقالوا : ماذا نفعل ، فقال لهم : تقولوا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله حقا وصدقا . فأسلموا ولكن اسلاما باطلا ، وقبلوا يدي الاستاذ ظاهرا ، وفكوا عنه الأغلال ، فجعل يعلمهم العلوم ، وأقاموا معه في مخدع بأعلى الدير ، وصاروا يقدمون له المآكل والمشارب ، ويخدمونه ومازالوا كذلك حتى صار جوان مثل الشيخ صلاح الدين . ثم أن جوان قال لسيف الروم : اني تعلمت جميع ما مع الشيخ من العلوم ، وأريد أن أجازيه على فعله ، فقال له سيف الروم : تطلق سبيله وتدفع له مالا يوصله الى ما يريد ، فقال له : كلا بل مرادي أن أقتله . فقال له : ولأي شيء تقتله مع أنه فعل معك كل جميل وتعلمت منه جميع العلوم ، فقال له : أنا الذي لا أعترف بجميل ولا بتفضيل ، وليس لي عزيز . ثم انه وضع له البنج في الطعام وقدمه اليه ، وصبر حتى تبنج فنهض وعراه من ثيابه ، وأخذ ما معه من ملابس وكتب وقتله ، فمات شهيدا رحمة الله عليه . ثم أن اللعين جوان قال ادفنه يا سيف الروم لئلا يعلم ذلك كرسيمول فاذا علم بذلك أسقانا شراب المهالك ، فدفنه سيف الروم في جانب الدير ، وقال : اذا سألنا كرسيمول عنه نقول له هرب . فيوم من الأيام استفقد كرسيمول الشيخ ما وجده ، فسأل جوان وسيف الروم وقال لهم : أين الأسير الذي تعلمتم منه كلام المسلمين ، فقالوا له : هرب ، فقال لهم : علمت بأنكم قتلتموه ، والى جانب الدير دفنتموه ، وأخذتم ما معه من الحوائج فأخرجوا عني وان أقمتم بهذا الدير قتلتكم . فعند ذلك خرج جوان وسيف الروم ، وأخذ جوان مصالح الشيخ صاحب العلوم ، ولبس ملابسه وهيأ سيف الروم في صفة طالب وسماه منصور ، وساروا يطلبون لهم أرضا ينزلون بها . فبينما هم سائرين اذ بلغهم الخبر بأن ملك الموصل راكب على حلب وأنه طالب أرض مصر يريد أن يملكها ، فاعتراه المرض الشديد ، فقال يا منصور سر بنا الى ذلك الملك حتى ننظر كيف نصنع . ومازالوا الى أن وصلوا الى أرض حلب ، ودخل اللعين على « أيبك » كما ذكرنا ، وداواه كما وصفنا . وقد اعتقد فيه « أيبك » وجعله أمامه وعظمه وصار يقبل يديه . فهذا كان سبب مجيئة . ولما أراد أيبك الرحيل من حلب ، طلب من الشيخ المسير معه فقال له : سر أنت الى مصر ، وانا أكون لاحقا بك بعد أن أزور مقامات الأنبياء والأولياء ، وبعد ذلك أتوجه الى مصر . فقال له أيبك : مثل ما تريد ، ونسألك الدعاء في جميع الأماكن الطاهرات ، فقال له : ان شاء الله » .

ويمضي « أيبك » في طريقه الى مصر ، ويلتحق بخدمه « الملك الصالح نجم الدين أيوب » . ثم تحكي السيرة أن « أيبك » قد أصبح وزيرا ، وصاحب حظوة لدى « نجم الدين أيوب » ، وكيف استطاع « جوان » عن طريق « أيبك » أن يصبح قاضي قضاة مصر . . .

« فبينما أيبك جالسا في السرايا ، واذ بالشيخ صلاح الدين العراقي داخل عليه ، فنهض أيبك وتلقاه وسلم عليه وأجلسه الى جانبه وجعل يحدثه ويسأله عن أحواله . فقال له : يا والدي طلعت الى بيت المقدس وزرت نبي الله موسى وابراهيم الخليل وباقي الأنبياء الصالحين ، ودعيت لك وسألت الله أن يعطيك المناصب الجسيمة ، وبعد ذلك اقبلت اليك فقال له أيبك: مرحبا بك يامولاي عسى أن يكون دعاؤك لي مستجابا . ثم أعاد عليه أيبك ما جرى له ، فلما سمع الشيخ كلامه فرح بخدمته في الديوان وجلس يتعبد في داره .

أما ما كان من أمر الملك الصالح قال ، يا آغا شاهين أين قاضي الديوان ، فقال له الوزير : انه مريض من مدة ثلاثة أيام . فبينما الملك جالس ، واذ بالأخبار تقول يعيش رأس مولانا السلطان في قاضي الديوان السيد محمد نور الدين . فلما سمع الملك وفاة قاضي الديوان ، قال انا لله وانا اليه راجعون . ثم أمر الآغا شاهين أن ينزل بأرباب الدولة ويمشي في جنازة القاضي ، ثم بعد أن واروه التراب عادوا راجعين ، قال الملك : يا آغا شاهين أنظر لنا رجلا اهل صلاح وديانة ومعرفة يستلم القضاء ، فقال الوزير شاهين : يا سادتنا يا علماء الاسلام ، هل عندكم من يصلح للقضاء بالديوان . فقالوا له : موجود ، فعند ذلك نهض الوزير أيبك ووقف في محل الطلب بين يدي السلطان ، وقال : يا أمير المؤمنين عندي رجل ذو صلاح ومعرفة ونجاح ، وقد اجتمع بي وأنا في حلب وكنت مريضا ، فببركته شفاني الله على يده وقد جعلته إمامي ، وهو مقيم في منزلي ، واسمه الشيخ صلاح الدين العراقي . فلما سمع الملك الصالح ذلك قال له : يا أيبك اصبر حتى أسأل الآغا شاهين في ذلك . والتفت الى الوزير شاهين ، وقال ما تقول في ذلك ، قال وما أقول يا أمير المؤمنين في أهل العلم والفضل . فقال الملك : انزل يا أيبك وائتي بالرجل يتولى رتبة القضاء ، فسار أيبك الى منزله وقال للشيخ سر معي الى الديوان ، فقد صدر أمر من السلطان أن تكون قاضي القضاة بالديوان . ثم إن العالم لبس جبته وسار الى أن أقبل إلى الديوان ، ودعا للملك بدوام العز والنعم وازالة البؤس والنقم . فلما فرغ الشيخ صلاح الدين من كلامه ، قال له الملك : أهلا وسهلا بالعالم العراقي ، ثم أجلسه على كرسي القضاء ، فصار قاضيا » .

ان أول الملاحظات التي يمكن أن نلاحظها على الشخصيات الشريرة في السير الشعبية أنها في الأغلب الأعم غريبة عن الجماعة ، سواء من ناحية الأصل ، أو المنشأ ، أو من ناحية المقومات الجسدية أو السلوكية أو الخلقية ، وانها اذا لم تكن غريبة من ناحية الأصل أو المنشأ ، فانها بالضرورة لابد أن تنحاز الى أعداء الجماعة ، سواء كان هؤلاء الأعداء يصدرون عن عصبية عرقية أو دينية أو قبلية ، وسواء كان ذلك بشكل مباشر ، أو بشكل غير مباشر عن طريق تحقيق هدف الأعداء دون انحياز لهم أو تعاون معهم .

« فجوان » في سيرة الظاهر بيبرس ، شخصية متميزة ، تصلح نموذجا لدراسة التكوين النفسي والخلقي للشرير ، من ناحية ، والملامح والسمات الطبيعية من ناحية أخرى ، ويصدق عليه ما يصدق على غيره من الشخصيات الشريرة من أن ميلاده غريب أيضا ، فقد انكسفت الشمس وغاب القمر ، وانه مبشر به من أبليس[٥] ليكون التجسيد الحي له وعلى الأرض .

(٥) سيرة الظاهر بيبرس م ١ ص ٥٦ .

ويقول الاستاذ الدكتور عبدالحميد يونس عنه « لولا أن هذه الشخصية هي المدبرة للشر لقلنا أن هذه السيرة كان أحرى بها أن تكون سيرة جوان ، لأن حوادث السيرة كلها أو تكاد بتدبيره »[٦].

و « سعاد الشاعرة » ـ كما أسمتها السيرة ـ أو البسوس ـ كما عرفت في أيام العرب ، شخصية دخيلة على بكر وتغلب ، تحركها عوامل الثأر لأخيها الذي كان يفرض سلطانه على القبائل العربية كلها . وهي في سبيل تحقيق غرضها تستخدم كل ما تستطيعه من حيل ومكر ودهاء ، وتتفق في هذه الخصيصة مع كل الشخصيات الشريرة في السير الشعبية عامة .

و « عمارة الوهاب » ـ أو القوَّاد ـ كما أطلق عليه رواة سيرة عنترة ، تحركه أيضا نوازع شخصية وأحقاد دفينة على عنترة ، تجعله ينحاز الى أعداء عنترة ـ أعداء القبيلة في الوقت ذاته ـ انطلاقا من عصبية ضيقة لا تضع في اعتبارها صالح الجماعة .

و « عقبة السلمي » الذي وصفته سيرة الأميرة ذات الهمة بأنه « شيخ الضلال » رغم نشأته العربية ، واسلامه الظاهري ، يتحالف مع أعداء العرب والمسلمين من الروم ، ومن ثم يرتد عن الاسلام ، ويتنكر لقومه ، مستخدما ذكاءه وقدراته الخارقة لتحطيمهم .

وتؤكد السيرة على ميلاد الغريب وسماته الخلقية والجسدية التي ميزته منذ طفولته الباكرة ، لتحدد دوره في صناعة الشر والحث عليه ، فهو « ولد شراني يلقي الفتنة بين الناس » وأن الذي بشر أمه به « ابليس » ليكون خليفة له في الأرض[٧].

أما قمرية أم الملك سيف في سيرة سيف بن ذي يزن ، فهي ليست عربية وانما هي جارية حبشّية أرسلها ملك الأحباش لقتل ذي يزن ، كما أن اسلامها غير صحيح ، تتخذ منه وسيلة لكي تحقق هدفها وشهوتها الى الحكم والسلطان ، ولتخدع به إبنها[٨]، وسقر ديوان وسقر ديوس من سلالة ابليس أيضا[٩]، والسيرة بذلك تلخص أفعالها وسلوكها ، ومدى الشر الذي يتصفان به ، وأثره .

والوزير بختك وابنه بختيار في سيرة حمزة البهلوان أو حمزة العرب ، من أصل غير عربي ، رضعا كراهية العرب ، والحقد عليهم ، وهما رأس الفساد بين الفرس والعرب ، لا يدينان بالاسلام ، ومن ثم تحركهما عصبية عرقية ، ودينية عميقة الجذور في نفس كل منهما ، بل أن بختيار يفوق أباه في عداوته وبغضه[١٠].

---

(٦) د. عبدالحميد يونس ـ الظاهر بيبرس في الأدب الشعبي ـ المكتبة الثقافية ـ وزارة الثقافة ـ مصر ـ ص ٧٠ .

(٧) سيرة الأميرة ذات الهمة م ١ جـ ٧ ص ٨ .

(٨) سيرة سيف بن ذي يزن ـ م ١ ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٩) سيرة سيف بن ذي يزن ، م ٣ ص ٣٠٠ .

(١٠) سيرة حمزة م ١ ص ٥٢ ، ٦٨ ، م ٣ ص ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨١ .

ومن الملاحظ أيضا أنه عندما ينسب الشر الى شخصيات غير عربية في السير الشعبية العربية ، يصبح الصراع حادا بين عوامل الشر وعوامل الخير ، وممثلي كل منهما ، وقد يطول هذا الصراع لينسحب على السيرة منذ بدايتها حتى نهايتها ، في حلقات متتالية ، تتلو الواحد منها لتنمي الصراع ، ولكن الانتصار في هذه الحالة سهل ، غير عسير ، رغم ضراوته وشدته . أما حين ينسب الشر الى شخصيات عربية ، فإن الصراع يصبح صعبا عسيرا ، ويكون الانتصار في النهاية انتصارا شكليا ، لا قيمة له ، لأنه لا ينتهي الى وحدة الجماعة وانما يؤدي الى تفريقها ، وتشتيت شملها ، وذهاب ريحها .

ففي سيرة الزير سالم يلتقي الشر الخارجي المتمثل في سعاد الشاعرة ، مع شر داخلي ، اخذ ينمو رويدا رويدا بين ابني العمومة بكر ، وتغلب ، أو بين جساس ، وكليب ، رغم ما بينهما من رحم ، وصلة نسب ، تغذية عصبية ضيقة ، انتهت بأن أتاحت الفرصة لعوامل الشر الخارجية أن تفعل فعلها ، وأن تحقق غرضها ، لتنقلب الذات العامة على نفسها ، في حرب ضروس ، جعلت جماجم القتلى جبالا .

وفي السيرة الهلالية لاحظ الاستاذ الدكتور عبدالحميد يونس « أن جموع بني هلال تحركهم عصبية تقوى وتشتد اذا تعرضت الجماعة الكبيرة لعدو مشترك أو نزلت بهم جائحة ماحقة ، وعصبية خاصة تستشري كلما اطمأنوا الى الخير »(١١).

والحقيقة ان السير جميعا ، قد وقفت طويلا أمام العصبية والتعصب ، باعتبارهما شرا معنويا ، وجعلتهما أكثر أنواع الشر تأثيرا في حياة الفرد ، والجماعة ، فهما من ناحية ضد الدين ، الذي لا يفرق بين الناس تبعا لأصولهم أو جاههم أو ثرواتهم ، وهما من ناحية أخرى ضد النزوع القوي الى الوحدة ، ذلك الاتجاه الذي نراه واضحا جليا في كل السير الشعبية تقريبا .

وربما كانت السيرة الهلالية أكثر السير العربية تركيزا على هذا الجانب ، فالصراع في الهلالية يقوم على محورين ، محور يجعل جموع الهلالية في مواجهة الزناتة ، أو (الذات العامة) في مواجهة (الذات الخاصة) . ويسير موازيا لهذا المحور محور لا يقل أهمية عنه ، بل لعله يفوقه تأثيرا وخطورة ، هو ذلك الصراع الخفي حينا ، المعلن حينا آخر بين « أبو زيد » ، و « دياب » ، أو على وجه الدقة بين « الحسن بن سرحان ، وأبو زيد ، والقاضي بدير بن فايد ، والجازية » وبين « دياب » .

وقد انعكس هذا الصراع بالضرورة على جمهور هذه السيرة الذين شغفوا بها زمنا طويلا ، ومازالوا مشغوفين بها الى الآن ، اذ أن حب الجماعة الشعبية لأبي زيد نابع في حقيقته من أنه كان عنصر التوازن في السيرة ، كما كان عنصر التجميع والتوحيد . أما « دياب » ، فعلى الرغم من كونه فارسا لا يشق له غبار ، ولعله كان كما حدد شخصيته رواة السيرة ، أكثر تعبيرا عن معنى الفروسية والقوة العربية من أبي زيد ، الا أنه كان عنصر فرقة وانقسام ، أكثر منه عنصر

(١١) د. عبدالحميد يونس : الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ـ دار المعرفة ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ ، ص ١١٦ .

تجميع ووئام . . تحركه عصبية فردية ضيقة ، تعلي من شأن النوازع الخاصة والأحقاد الصغيرة ، وتكبر من شأن الذات الفردية ، وتقدمها على الذات العامة . ولعل في قتل دياب لأبي زيد اعترافا أليما بانهزام الذات العامة ، وانهيار التوازن بين الذات الخاصة والذات العامة ، اذ يظل النصر ممكنا حينا ، ومتحققا دائما ، ما ظل التوازن قائما ، فاذا اختل هذا التوازن بفعل عوامل الشر الكامنة ، داخل الفرد ، والجماعة كان ذلك وبالا عليهما معا .

ان الشر في سيرة الزير سالم ـ عل الرغم من أنه يستثار بفعل عامل خارجي ـ وفي السيرة الهلالية ، لا يظهر في شكل شخصيات لها نفس الملامح والسمات الخلقية والجسدية التي نراها في الشخصيات الشريرة في السير الأخرى ، ولكنه يتمثل في مواقف وأنماط سلوك . . انه شر جمعي أيضا يقوم على العصبية القبلية بمعناها الضيق ، سواء كانت هذه العصبية ، عصبية عشيرة ازاء عشيرة أخرى ، تنتسبان الى نفس الأرومة ، أوعصبية قبيلة ازاء قبيلة أخرى تنتسبان الى نفس العرق ، ومن هنا تأتي خطورة هذا النوع من الشر ، وقدرته على التدمير المعنوي والمادي .

ان الجزء الذي اقتطعناه من السيرة المدونة للزير سالم ، وهي لا تختلف كثيرا عن السيرة التيْ مازالت تروى الى الآن ، بالاضافة الى الجزء الذي أوردناه من سيرة الظاهر بيبرس ، يوضح لنا كيف تتمكن الشخصية الشريرة ، بما تتصف به من صفات ، أن تحدث الشر ، وأن تدفع اليه .

والشر هنا ذو مفهوم محدد ، يتفق مع الثقافة الشعبية ، اذ يعني كل ما يؤدي الى التناقض مع الحياة ، والعمل ضدها ، ولكنه يدفع في الوقت ذاته الى استكمال أوجه القصور والنقص فيها ، والى تحقيق الكمال ، واستثارة الرغبة في انجاز الأفضل والأنفع للفرد وللجماعة ، وتأكيد المثاليات التي يعمل على هدمها .

ويقودنا هذا الى ملاحظة أخرى تتعلق بصورة الانسان الشرير أو الشخصية الشريرة في السير الشعبية . والحقيقة أن هذه الصورة تكاد تكون عالمية ، لا تخص ثقافة بعينها ، أو مجتمعا بعينه ، الا في بعض التفاصيل الصغيرة التي تؤكد السمات الأساسية ولا تتناقض معها ، وقد تكون ذات قيمة كبيرة في ثقافة ما ، ولكنها لا تكتسب نفس الأهمية في ثقافة أخرى . فعلى سبيل المثال تكاد الشخصيات الشريرة كلها في السير جميعا ان تكون من غير المسلمين ، وهي اذا آمنت بالاسلام ، فانما يكون ذلك لاستغلال هذا العنصر العميق الجذور في المجتمعات التي احتفت بالسيرة وروتها ، لتحقيق المآرب والأغراض الشريرة . .

ان عُقبة الذي وصفته سيرة الأميرة ذات الهمة ، بأنه شيخ الضلال ، وبأنه غير صحيح الاسلام ، مفسد في الدين ، عاص لرب العالمين ، يبدو زاهدا عابدا وهو مفسود الدين ، شيطان رجيم ، لا يختلف كثيرا في هذه الناحية عن غيره من الأشرار في السيرة ذاتها كعاقبة أم الفتن ، وشو مدرس المحتال ، وزوجه شوما وولدهما ، فالجميع يوصفون بأنهم حزب الشيطان[١٢] .

---

(١٢) سيرة ذات الهمة م ١ جـ ٤ ، جـ ٦ ، جـ ٧ ، م ٧ جـ ٦٦ .

وبختك وابنه بختيار في سيرة حمزة ، كافران ، وقمرية في سيرة سيف بن ذي يزن تتخذ الايمان بالاسلام ستارا ووسيلة تخدع بها الجميع ، ولا تتورع عن اظهار مجوسيتها لارضاء ملك الصين طمعا في تحقيق مآربها ، وسقرديون وسقرديوس أيضا من نسل ابليس ، وهما شيطانان رجيمان(١٣).

أما جوان في سيرة الظاهر بيبرس فهو « خليفة ابليس التعيس » ، وهو من نسل عقبة شيخ الضلال ، وهو يعكف على الصلاة والصوم ، واقامة شعائر الدين الاسلامي ، ولكنه في الوقت ذاته عالم من علوم ملة الروم ، سكير عربيد ، لا يتورع عن فعل المنكر والعمل ضد الاسلام والمسلمين ، بل انه يعمل أيضا ضد المسيحيين الذين يتظاهر بأنه عالم من علماء دينهم ، كما تظاهر بأنه فقيه من فقهاء المسلمين(١٤).

وهنا تتضح أهم سمات الشخصية الشريرة ، وأكثر ملامحها خطورة ، ألا وهي النفاق(١٥) الذي يشخص الضعف الانساني ، ويستغله استغلالا مدمرا على المستوى الفردي والجمعي على السواء .

ان سعاد تدخل على جساس داعية له بطول العمر ، وعلو المكانة ، والنصر ، في الوقت الذي تضمر له ولقومه الشر ، وهي تتمدح بكرمه وقوته ، وتعمل على استغلال هذا الكرم والاستفادة منه لتبقى أطول فترة ممكنة في حماه حتى تستطيع أن تنفذ ما أسرته في نفسها ، ثم بعد أن تتمكن منه تبدأ في بذر بذور الفتنة والفساد بين أمراء بكر وتغلب ، حتى يقع بينهم ما ترجوه ، وتعمل من أجله . وتنجح سعاد في تأليبهم على بعضهم البعض ، فيبدأ البكريون في الشكوى من معاملة التغلبيين لهم ، وينسبون المعاملة السيئة التي يلقونها منهم لجور كليب وظلمه منذ أن قتل حسان اليماني(١٦) وبذلك يتهيأ جساس لأداء المهمة التي تدفعه اليها سعاد . حتى اذا أحكمت خطتها ، وانطلت حيلتها على الجميع ، كان هذا ايذانا بنفاذ المقدور ، اذ يقتل جساس كليبا ، وينقلب أبناء العمومة والأصهار على بعضهم البعض ، تحقيقا لثأر بغيض ، واحياء لعصبية مقيتة ، أكلت الأخضر واليابس ، وأتت على الأبطال وذوي القربى ، وفرقت بين الأخوة ، وأورثت الأبناء حقدا دفينا ، وأهدرت كثيرا من الدماء دونما سبب مقبول .

ولا يختلف « جوان » عن « سعاد » كثيرا ، فهو يحتال على « أيبك » ، ويوحي اليه بأنه ولي من أولياء الله الصالحين ، بعد أن دخل اليه من مدخل لا يمكن لإنسان أن ينساه . ولا يطول به الوقت حتى يستطيع أن يخدع كل من حوله ، وأن يتبوأ مكانة رفيعة في مصر ، خلال المرحلة الأولى من السيرة ، وتصبح مهمته الأولى التي استمرت معه طوال السيرة ، هي القضاء على الظاهر بيبرس ، رغم تظاهره بأنه معجب به ، مكبر من شأنه . فعندما تتأزم الأمور ، ويواجه المسلمون بالهزيمة ، لا يرشح « جوان » أحدا غير الظاهر بيبرس ، لكي يفرج الأزمة ، ويحقق النصر ، وهو يضمر في قرارة نفسه التخلص منه ، والقضاء عليه ، ولا يتورع في سبيل ذلك عن فعل أي شيء أو التآمر مع أي عدد . والموقف التالي الذي تصوره السيرة ، يتكرر عشرات المرات . .

---

(١٣) سيرة سيف بن ذي يزن م ١ ص ١٦ ، ١٢٠ ، ٣٦٧ ، م ٣ ص ٣٠٠ .

(١٤) سيرة الظاهر بيبرس م ١ ص ٥٦ ، ٣٤٦ ، ٤١٥ ، م ٢ ص ٢٤١ ، ٢١٨ ، م ٥ ص ٤٣٢ .

(١٥) انظر الفصل الخاص بالنمط الشرير في : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، قضاياه وملامحه الفنية ، رسالة دكتوراه لمحمد رجب النجار - جامعة القاهرة - لم تطبع - ص ٤٢٠ - ٤٧٩ .

(١٦) راجع الأجزاء التي أوردناها من السيرة ص ٥ : ١٠ .

« فقال الملك : ومن يرد عنا هؤلاء اللئام ، فقال القاضي : لا يليق لهذا الأمر يا مولانا الا ولدكم المنصور الأمير بيبرس ، فانه مسعود . فبينما هم على مثل ذلك الحال ، واذ بالأمير بيبرس طالع الى الديوان ، فلما رآه الملك قال للحاج شاهين : انظر الى هذا التوفيق . ثم أن بيبرس بعدما سلم ودعى للملك سلم على الوزير ، فقال له : خذ اقرأ هذا الكتاب فقرأه ، وقال له الملك : يا ولدي ان القاضي قال لنا انه لم يكسر هذه الركبة وينصرنا عليهم باذن الله الا أنت ، واني قد ارسلت اليك فماذا أنت قائل ، قال الأمير : أنا لها ان اذن لي أمير المؤمنين ، فقال الملك : يا وزير شاهين اجعل ولدي بيبرس قائد الجيش والبس الوزير أيبك معاونا له . فتجهزت العساكر والمماليك وأمر بيبرس بجمع الرجال من كل ناحية من مصر وبعد ثلاثة أيام توجه الى الملك ، وطلب منه الدعاء للمسلمين بالنصر فدعا له ، وأمره بالمسير . فخرج من مصر بجيش جرار قاصدا حلب ، أما ما كان من القاضي ، فانه بعد مسيرة الجيش ، سطر كتابا وأعطاه الى غلامه ، وقال له : سر بهذا الكتاب الى العريش وسلمه الى الملك فرنجيل . فأخذه وسار الى أن وصل الى قلعة العريش ، فدخل على فرنجيل وسلمه كتاب سيده فحله وقرأه ، واذ به خطابا من جوان الى بين أيادي ولدي الملك فرنجيل اعلم يا ولدي أن بيبرس قاتل ولدك ، وهو مجتاز أرضك ، بجيش قاصد حلب ، فاذا وصل اليك كتابي هذا ، فاكمن اليه حتى يجوز عن أرضك ، فحاربه وخذ بثأر ولدك ففرح اللعين ، وأعطاه رد الكتاب وظن أنه بلغ المراد . وكمن بخمسة آلاف فارس وجعل الملك ينتظر قدوم بيبرس لأجل أن يأخذ منه بالثأر ويجلي عنه العار » .

وينتهي الأمر بالطبع بانتصار « بيبرس » كل مرة ، ولا تحقق مكائد « جوان » هدفها ، ولكنه مع ذلك لا ييأس ، ولا يصيبه الملل ، ويظل ينصب الفخاخ ، ويحيك المؤامرات . وحتى بعد أن اكتشف أمره ، لم يتوقف عن استثارة العداوة ضد « بيبرس »والمسلمين ، وتأليب ملوك الفرنجة ضدهم ، صادرا في ذلك كما سبق أن أشرنا عن حقد وعداوة لا يفرقان لينا أو هوادة .

ويرتبط بالنفاق باعتباره رأس الشر ، وأس الفساد ، كثير من السمات التي تؤكد هذه الصفة المقيتة وتعمق من تأثيرها . وتضم السير هذه الشخصيات الشريرة بهذه السمات أحيانا بشكل مباشر ، واحيانا بشكل غير مباشر ، « فقمرية » « تتوسل بالخداع والنفاق ، تبكي البكاء الشديد وتتمسك بالخداع الذي يلين الحديد » وهي أمكر أهل زمانها محتالة خائنة لا تدخر وسعا ، ولا تترك وسيلة ، من أجل الوصول الى هدفها ، حتى ولو أدى الأمر بها الى استخدام انوثتها ، والتفريط في عرضها[١٧] ، وهي تتقن فنون السحر والكهانة .

و « بختك » ، « جرثومة شر وفساد ، كيد وعناد » يتصف بالدهاء والمكر والحسد ، لا يحب أحدا ، يتقن فنون الخداع والاحتيال والغش ، وهو يعتمد أساسا في تنفيذ مآربه على الغدر والخيانة ، ولم يكن ابنه بختيار أقل شرا منه ، بل لعله يفوق أباه في حبه للشر وقدرته عليه .

ولا يختلف جوان عن غيره من الشخصيات الشريرة ، ان لم يزد عنها ، « فهو كما يقول المثل الشعبي يأكل مع

(١٧) سيرة سيف بن ذي يزن م ١ ص ١٦٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٦٧ .

الديب ويسرح مع الغنم » ، أناني شديد الأنانية يرغب في دمار الجميع فلا عزيز لديه ، ويمتلك قدرة رهيبة على التنكر واستخدام السحر والكهانة ، وهو صاحب مكر وخداع ، كثير النفاق[١٨].

واذا نظرنا الى الملامح الجسدية التي تميز الشخصيات الشريرة ، فاننا سنلاحظ أن المرأة الشريرة لابد أن تكون جميلة جدا اذا كانت مازالت في شرخ الشباب ، ويعد جمالها أحد الوسائل التي تستخدمها لانفاذ شرها الى جانب السمات الخلقية الأخرى . أما اذا كانت قد جاوزت سن الشباب ، فانها تصور كغيرها من الشخصيات الشريرة من الرجال ، قبيحة ، دميمة ، كريهة المنظر مثيرة للاشمئزاز .

« ان « عقبة » دميم الخلقة ، مشوه الملامح ، و « جوان » « قبيح الشكل ، أبطش المنخر ، رفيع العنق ، كبير الرأس ، شنيع المنظر »[١٩].

وتتفق الشخصيات الشريرة في السير الشعبية جميعا في أنها تجسد كل ما هو قبيح وسيء ولا أخلاقي ، وتبعث على الكره والحقد وتسبب الألم والحزن ، وتوقع الخراب والدمار .

ولا يقف الأمر في السير الشعبية عند حد تجسيد الشر معنويا أو خلقيا فحسب ، بل انه يتجاوز ذلك الى التجسيد المادي ايضا كما رأينا . فالشخصيات الشريرة تقدم بسمات جسمية ومادية متميزة ، بالاضافة الى أسمائها التي تحمل في طياتها دلائل الشر أيضا ، كأن يكون الأسم أجنبيا ، غير عربي ، أو يدل على دين يخالف دين الغالبية العظمى وهو الاسلام ، أو موصوفا بصفة أخرى شريرة ، اذا كان الاسم عربيا ، أو اسلاميا . .

ويختلف تجسيد الشخصيات الشريرة هنا ، عنه في الحكايات الشعبية ، اذ تبدو هذه الشخصيات في الحكايات غير محددة الملامح أو السمات الجسدية في أغلب الأحيان ، ولكننا نستطيع أن نتعرف عليها من خلال أسماء أو صفات تحمل في طياتها الاشارة الى السلوك الشرير الذي تتصف به ، كالغول ، والسعلوه ، والساحر ، وزوجة الأب ، وغير ذلك من الشخصيات التي تحفل بها حكاياتنا الشعبية .

ان العقلية الشعبية في صياغتها لمفاهيم الخير والشر ، وتجسيدها لهذه المفاهيم تصدر ـ في الحقيقة ـ عن تصور محدد لكل من هذه المفاهيم ، وهي تجسدها في الشكل الذي يتلاءم مع نمط العلاقات السائد في المجتمع من ناحية ، وبنيته الثقافية ، وأنساقه القيمية من ناحية أخرى ، وتحملها من المضامين ما يتناغم مع هذا كله ، حتى يتم لها إحداث التأثير المطلوب ، وتحقيق الهدف الذي يريده المجتمع . ففي مجتمع يفتقد الى العدل ، ويستشري فيه النفاق والفساد، وتهدر فيه القيم الانسانية العليا ، أو يحرم فيه الفرد من تحقيق ذاته ، وتحرير نفسه ، أو يشعر بالهزيمة والانكسار ، وبعوامل الضعف تنخر في عظامه ، يصبح البطل هو الذي يحقق العدل المفقود ، ويحارب الفساد الذي استشرى في جسد المجتمع ، ويقضي على النفاق والمنافقين ، ويعيد للمثل العليا احترامها وقيمتها ، وهو الذي يعمل على تحرير الذات الفردية ، وصياغتها من جديد لتتلاءم مع الذات الجمعية ، وهو الذي يستثير عوامل القوة ، ويستنهض الهمم ، ويحقق النصر مع الجماعة وبها ، ويصبح الشرير بالضرورة هو النقيض لهذه المثاليات التي يمثلها أو يجسدها البطل ، ويكون في مواجهة هذه الشخصية الشريرة ، والقضاء عليها ، القضاء على كل عوامل السلب والشر التي تمثلها .

---

(١٨) سيرة الظاهر بيبرس ، م ١ ص ٥٦ ، م ٢ ص ٢٦٠ ، م ٣ ص ١٣٣ .
(١٩) سيرة الظاهر بيبرس م ١ ص ٥٦ .

وتؤمن العقلية الشعبية ايضا بأنه لا يمكن أن يكون هناك خير كامل ، أو أن الانسان يمكنه أن يعيش في خير دائم ، ذلك أن هذا لو كان ممكنا حدوثه ، لما كانت هناك حاجة الى بذل أي جهد ، ولما كانت للفضيلة أي قيمة ، ولفقدت الحياة معناها .

ان الشر قد ينتصر مرحليا ، سواء في السير الشعبية أو في الحكايات ، فقد ينجح الشرير في أن يأخذ مكان شخصية أخرى ، وأن يتزين بزيه ، وأن يتنكر في صورته ، مما يحقق له جزءا من خطته الشريرة في القضاء على الشخصية الأخرى التي تمثل الخير ، ولكن هذا الانتصار لا يدوم طويلا ، فما تلبث الحيلة أن تنكشف ، وعندئذ لابد أن يلقى الشرير جزاءه .

وهنا ينبغي أن نشير الى أن انتصار الخير هنا ، أمر مقرر منذ البداية ، يعرفه الجميع ، ويتوقعونه ، ولكن هذا لا يقلل من تأثير ما يحكي ، أو الصور المتعددة التي يبدو بها عنصرا الخير والشر أو الصراع الدائر بينهما ، ذلك أن هذا الصراع يقوم بوظيفة هامة لا غنى عنها ، وهي وظيفة مؤثرة الى أبعد حدود التأثير في الوجدان الشعبي ، اذ تجعل المستمع يشارك الشخصية الخيرة ـ أو البطل ـ صراعها مع الشر وتدفعه الى التوحد معها ، مشاركا اياها آلامها ومعاناتها ، ولحظات قلقها وتوترها ، مما ينتج لدى المستمع والمستمعين شعورا غامرا بالسعادة ، ويدفعه الى السعي الى تحقيق الأفضل لنفسه وللبطل ، مساعدة هذا البطل ، والقضاء على الألم ، والتخلص من المعاناة ، في حدود الاطار الفني الذي ترسمه هذه الأشكال الأدبية .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ،فإن انتصار الخير في النهاية ، إنما يعني في جوهره هزيمة كل النقائص والعيوب التي يعاني منها الانسان ، ويحاول جاهدا أن ينتصر عليها وأن يتخلص منها ، فنيا على الأقل ، اذا لم يكن في استطاعته أن ينتصر عليها في الحياة الواقعية ، وهو ما يستحدث دائما هذا التوازن النفسي بين ما هو كائن ، وما ينبغي أن يكون ، في الثقافة الشعبية .

ومهما يكن من أمر ، فلن تكون هناك ـ على المستوى الفني ـ عقدة درامية أو حبكة أو نمو للأحداث أو الشخصيات ، دون وجود الشر والأشرار ، لما يؤديه الشر كمفهوم ، والأشرار كسلوك ، من دور في البنية الفنية للسير .

ويبقى أن نشير الى حقيقة هامة تنبىء عنها السير الشعبية العربية ، هي أن الشر انما يزدهر ازدهارا كبيرا ، ويعمق تأثيره ، عندما يضعف الفرد ، ويتدهور حال الجماعة .

❊❊❊

ملحمة في قالب حكاية

الملك عمر النعمان وولده شركان وولده ضوء المكان
وما جرى لهم من العجائب والغرائب
دراسة مقارنة مع ملحمة رولان الفرنسية

هيام أبو الحسين
رئيس قسم اللغة الفرنسية .
كلية الآداب جامعة عين شمس

في ألف ليلة وليلة شعر ونثر ، نظم وسجع ، قول فصيح وآخر ركيك . فيها شباب غض يؤرقه الحب فيحطم الاغلال والقيود ، وآخر يتعذب في صمت فيذوي ويموت . . . فيها الفقراء والبسطاء الذين يرضون بالكفاف ، وفيها من يرفلون في الثراء ويبالغون في المتعة والانفاق . فيها الملائكة الاطهار ، وفيها المردة الاشرار . . . فيها الحياة الواقعة بحلوها ومرها ، وفيها عالم الاحلام وجزر واق الواق . . . فيها عبيد مغلوبون على أمرهم ، وفيها أسياد تهتز الارض من جبروتهم . . . وتضم الليالي حكاية فريدة لا تخلو من هذا وذاك ولكننا نسمع فيها دق الطبول وصياح النفير وصهيل الخيول ، ونرى الفرسان تخرج من بغداد ، مئات وآلافاً ، تخفق على رءوسهم الأعلام وتتلألأ السيوف في ايديهم والرماح . . . انهم جنود الاسلام ، خرجوا قاصدين بلاد الروم ، تحت أمرة شركان بن الملك عمر النعمان . . . مائة ليلة وليلتان (حسب طبعة بولاق)[1] تخصصها شهر زاد لسيرة عمر النعمان الذي « قهر الملوك الأكاسرة والقياصرة » والذي كان « اذا غضب يخرج من منخريه لهيبا النار » حاكم دانت له كافة الامصار في المشرق والمغرب ، فاخضع الجبابرة ونشر بين رعيته العدل والأمان ؛ ملك خلف سلالة من الأبطال ، أولهم شركان الذي قهر الشجعان وفتح الحصون والبلدان . . . ثم ضوء المكان ، وكان مكان . . . وكل منهم فارس مغوار ستكون له في الحرب والسلم على السواء صولات وجولات .

هؤلاء الامراء المرموقون الذين سيلعبون دورا رائعا حاسما في حياة الامة الاسلامية والعلاقات الودية أو العدائية

(١) كتاب ألف ليلة وليلة ، الطبعة الاولى ، مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطة العدوي ، اعادت طبعه مكتبة المثنى ببغداد .
الليلة ٤٤ الى الليلة ١٤٥ ؛ من بينها ثلاثين ليلة (١٠٧ ـ ١٣٧) تروي حكاية تاج الملوك والاميرة دنيا ، في طبعات اخرى تشغل هذه الحكاية الليالي من ٥٩ الى ١٧٣ ، مع اختلافات بسيطة لا تؤثر على المضمون العام .

بينها وبين الدولة البيزنطية هم أبطال تلك الملحمة الارستقراطية أو الطبيعية التي تذكرنا في اكثر من موضع بالالياذة والاوديسّة وبملحمة رولان الفرنسية . . . « ارستقراطية » لان أبطالها من علية القوم ؛ وعليهم يتوقف مصير قومهم شأنهم في ذلك شأن الآخيين في الالياذة ، « وطبيعية » لأنها تصور « على الطبيعة » العادات والتقاليد والمفاهيم والمشاعر . . . في اسلوب حماسي متأجج .

توحي القصة في بدايتها بمدى الود الذي يسود بين عمر النعمان وحردوب عاهل قيسارية الذي يبعث اليه هدية نفيسة من الدرر والأحجار الكريمة ، وعددا كبيرا من السراري الحسان ، من بينهن جارية رومية تدعى صفية ، أحبها عاهل بغداد الذي لم يكن له حتى ذاك الحين من الاولاد سوى شركان ، فانجبت له صبيا وفتاة هما ضوء المكان ونزهة الزمان .

وتمر الأعوام ، ويشب الصغار ، ولكن ريحاً عاصفة تهدد فجأة هذا النعيم المقيم دون ان ينتبه احد لمجيئها أو يتكهن بما يمكن أن تخفيه في طياتها . ففي يوم من الأيام يأتي الى عمر النعمان رسل افريدون صاحب القسطنطينية محملين بالهدايا ، مستنجدين بعظمته ضد حاكم قيسارية . . . ويتشاور ملك بغداد مع وزيره دندان الذي ينصحه بارسال حملة تأديبية الى قيسارية كي لا تقوى شوكة حاكمها ، ولكي يوقن الشرق والغرب أن عمر النعمان أقوى ملك على ظهر الأرض .

وتخرج الحملة من بغداد . . . وبعد مسيرة دامتواحداً وعشرين يوما يحط الجيش الرحال في « واد واسع الجهات كثير الاشجار والنباتات » يقع على مشارف أرض الاعداء . ويترك شركان قواته في حمى دندان ، ويتوغل بمفرده ليلا في غابة ممتدة الاطراف كي يستكشف المكان . . وتأخذ الأمير سنة من النوم وهو على ظهر مطيته ، ثم يستيقظ فجأة وقد توقف الجواد وأخذ يدق الارض بحافره كي ينبه صاحبه الى خطر يتهدده . ويتطلع الفارس حوله فيجد نفسه في « مرج كأنه من مروج الجنة » ، يخترقه نهر ماء رقراق تنعكس على صفحته الفضية أشعة القمر وظلال الأشجار ، ويحمل اليه النسيم من الشاطىء المقابل رنين اصوات ملائكية « تتحدث بالعربية » . . . ويحدق شركان النظر ، فيقف مشدوها امام منظر عجيب : حسناء مشوقة تصارع صاحباتها وتلقي بهن ارضا الواحدة تلو الأخرى . . . وتكتشف الفتيات وجود هذا الدخيل فتأمره البطلة بالانصراف والا كان هلاكه على يديها . ولا يملك شركان الا ان يلين لها الكلام ، ويتوسل اليها ان تعطف على المتيم المسكين ، غريب الديار ، كسير الفؤاد . . .

ولم تكن هذه الفتاة سوى ابريزة ، ابنة حردوب ملك الروم ويبدو انها ادركت بذكائها اللماح ان هذا « الغريب » رجل عليّ الشان ، فقبلت استضافته ، واكرمت وفادته ، وافردت له جناحا خاصا في الدير الملكي الذي تسكنه . وسرعان ما بدأت بينهما قصة حب « عذري » ولكن على الطريقة الغربية : فالاميرة الرومية لا تعيش سجينة الحريم ، تحت رحمة الطواشي والعبيد ، بل هي حرة طليقة تستقبل فارسها حين تشاء . . . وشركان ، رغم هيامه بها ، يظل سبعة ايام في ضيافتها دون أن يقربها . . . وتكتشف ابريزة حقيقة « اسيرها » فتزداد تعلقا به ، ولكن الواشين يبلغون الملك بوجود شركان لدى ابنته فيرسل حردوب الى الدير مائة بِطْريق ، بالسلاح مدججين ، للقبض على عدو الدين ، فتستقبلهم ابريزة شر استقبال وترفض تسليمهم اياه ، لما في ذلك من تعارض صارخ مع تقاليد الفروسية التي تدين لها بالولاء . . . فان شاءوا ان يأخذوه فعليهم اولا أن يبارزوه . . . ولكن شركان يأبى الا ان ينازلهم عشرة عشرة : « أن بروزهم اليّ واحدا بعد واحد اجحاف بهم ، فهلا يبرزون لي عشرة بعد عشرة . . . » (الليلة ٥٠) .

ويصف الراوي في تحمس متأجج المعركة المثيرة بين بطارقة الروم والفارس الاسمر ، وكيف « حمل عليهم بقلب أقوى من الحجر الى ان طحنهم طحن الدروس وسلب منهم العقول والنفوس » (الليلة ٥٠) .

وتصبح ابريزة مهللة وتلقي بنفسها بين ذراعي حبيبها ، وتفصح له عن سر دفين كان يجهله الى ذاك الحين .

ان استنجاد عاهل القسطنطينية بالملك عمر النعمان ليس سوى حيلة وخديعة تمت بالاتفاق مع ملك قيسارية ، الغرض منها استدراج جيش المسلمين الى بيزنطة فيهلك ويهلك معه شركان ولي عهد عمر النعمان . وقد اتفق على ذلك الملكان انتقاما للجارية صفية . فهي في الواقع ابنة صاحب القسطنطينية ، اختطفها بعض القراصنة ثم القت بها المقادير في حريم عمر النعمان . . .

وعندما يكتشف شركان ذلك ، يقرر العودة الى بلاده ، خاصة بعد أن وعدته ابريزة باللحاق به : « قد قتلت بطارقة ابي وشاع اني تحزبت مع المسلمين فالرأى السديد انني اترك الاقامة هنا » (الليلة ٥٠) .

ولكن ابريزة لا تريد ان تدخل بغداد قبل ان تعرف ايهما اقوى في النزال ، هي ام شركان ، فهي تهاجمه في الطريق مع رفيقاتها متخفيات في زي « مائة فارس لبوث عوابس وفي الحديد والزرد غواطس » (الليلة ٥٠) وعندما يقترب شركان ليسدد ضربة قاضية للفارس الذي ينازله يلاحظ ان غريمه « لانبات بعارضيه » ويصيح فيه الافرنجي قائلا « ياشركان ما هكذا تكون الفرسان ، انما هذا فعل المغلوب بالنسوان » . . . (الليلة ٥٠) .

ويدخل شركان بغداد ومعه هذا الوفد من المحاربات اللاتي تذكرنا بالامازونات . ويأتي عمر النعمان لاستقبال الاميرة الجميلة ، ويفرد لها قصر فخما ، ولكنه لا يكاد يراها حتى يقع في هواها . . . وتضطرب الامور في المملكة . . . وكيف لا وقد اصبح حريمها يضم صفية ابنة ملك القسطنطينية ، وابريزة ابنة عاهل قيسارية . . . وتحاول ابريزة ان تصد عمر النعمان برفق ولكنه يتحايل عليها الى ان يغتصبها فتحمل منه . وعندما يجيئها المخاض تفر هاربة من بغداد ولكنها تلقي حتفها في البيداء وهي تضع حملها . . . وتسلم جاريتها مرجانة ابن سيدتها من عمر النعمان الى جده حردوب ملك الروم الذي يسميه رومزان ، ويربيه تربية مسيحية ، ويخفي عليه أصله وحسبه .

لقد تورط إذن عمر النعمان اكثر من مرة مع بنات القياصرة وحق عليهم غسل العار ، اما بحد السيف أو بالدهاء . ونظرا لأن الروم لا طاقة لهم بحرب النعمان ، فانهم يحتالون للوصول اليه ، ويقتلونه في عقر داره بالسم الزعاف .

ويكتشف اهل القصر ان التي اغتالته ليست سوى ام حردوب المدعوّه شواهي ذات الدواهي ، وانها نجحت في الهروب من الديار مصطحبة معها صفية ابنة عاهل القسطنطينية .

هنا يتحول النص الى ملحمة فعلية لا تربطه بالجو الشائع في ألف ليلة وليلة سوى عودات سريعة الى الترنم بتباريح الهوى ، عندما تفرق بين الاحباء مقتضيات الحرب والسياسة واطماع الحكم ، او تلك الحكايات التي يقطع بها القادة لياليهم الطويلة اثناء الحصار . فاذا كان شركان قد بزّ الروم أول مرة في معارك فردية أو شبه فردية ، فنحن الآن في معمعة حرب شاملة بين الاسلام والمسيحية . لقد أعلن الجهاد بنو النعمان ، وظلوا ثلاثة أشهر يعبئون الجند ويسلحون عساكر بغداد والشام والترك والديلم والكرد بينما استعدت بلاد الروم وعبأت جيوش حردوب وافريدون ومن ورائهم « الافرنج من سائر اطرافها كالفرنسيس والنيمسة ودوبرة وجورنة وبندق وجنويز وسائر عساكر بني الاصفر » (الليلة ٨٨) .

ويصف لنا الراوي الحمية والعصبية التي كانت تلهب الطرفين عندما « تقابل الجيشان والتطم البحران » . . . فلما اخترق شركان الصفوف وهاج في الالوف استولى الذعر على عساكر النصارى ، عندئذ تقدمت شواهي من ابنها حردوب ونصحته مرة اخرى باللجوء الى الغدر في مقابلة الاعداء : « اعلم ايها الملك الكبير والكاهن الخطير اني اشير عليك بأمر يعجز عن تدبيره ابليس ولو استعان عليه بحزبه المتاعيس » (الليلة ٨٩) وبالفعل نرى ان دهاء هذه العجوز اقوى من السيوف ، فبعد معارك طاحنة دارت بـرًا وبحرا ، وشهـدها « البحـر المالـح » و « جبل الـدخان » . . . استطاعت شواهي ، متنكرة في زيّ عابد زاهد ، ان تدلف الى صفوف المسلمين وتكسب ثقتهم ، ثم اخذت تنقل اخبارهم الى الروم وتحبط خططهم ، ومع ذلك فقد استمر القتال ، واخذ الموت يحصد الرقاب ، واستشهد من المسلمين المئات ، وسقط من الروم في ساحة الوغى آلاف وآلاف . . .

وأمام هذه الخسائر الفادحة في الأرواح والعتاد اضطر افريدون ان يقترح على شركان ان يحسما النزاع بمبارزة فردية ، حقنا للدماء . ويتحايل افريدون على خصمه فيصاب شركان بجرح خفيف وينقل الى خيمته ، أما ضوء المكان فهو ينتقم في اليوم التالي لاخيه ويقتل افريدون ، ولكن شواهي تذبح شركان اثناء نومه بخنجر مسموم ، وتجهز على حراسه ، وتفر هاربة تحت ستر الظلام .

وتستمر المعارك وحصار القسطنطينية سبع سنوات ، وهي نفس المدة التي قضاها شارلمان في محاربة الملوك العرب في أسبانيا وحصار سراجوسة ، وذلك حسب « **ملحمة رولان** » . ويتسرب التعب والملل الى النفوس ويحن الجميع الى الأهل والأوطان فتعود الحملة الى بغداد ، ويتفانى ضوء المكان في خدمة رعيته مخفيا حزنه الدفين على ابيه واخيه ، فتضعف قواه ويذوى عوده ويختطفه الموت وهو في زهرة العمر ، تاركا ابنه القاصر كان مكان تحت وصاية حاجب ساساني سرعان ما يطيح به وينفرد بالحكم ، وعندما يبلغ كان مكان مبلغ الرجال يعلن الثورة على هذا الخائن وينجح في استرداد ملكه بفضل معاونة جند ابيه الاوفياء والوزير دندان . ثم يقرر استئناف الحرب ضد الروم ليثأر لجده وعمه . ويقع كان مكان في الاسر ، ويأمر امبراطور الروم بإعدامه هو ورفاقه . . . وعندئذ تحدث المعجزة ، اذ نرى مرجانة تقتحم القاعة وتصيح في مولاها محذرة إياه من أن يسفك دمه بيده . . . حينئذ ينكشف السر : إن هذا الامير الرومي ليس سوى رومزان ابن ابريزة وعمر النعمان . . .

ويتعانق الجميع ، ويأمر رومزان وابن أخيه بإحضار المجرمين الذين تسببوا في الفرقة والشقاق ويحكمان عليهم بالاعدام بما في ذلك شواهي ذات الدواهي ، اما من بقي على قيد الحياة من جماعة الروم فيعتنقون الاسلام . ثم يعيش الجميع في سلام ووئام ، كما هو الحال في ألف ليلة وليلة ، الى أن يأتيهم هازم اللذات ومفرّق الجماعات . . .

●●●

هذا هو ملخص الرواية . فنحن إذا استثنينا منها الاستطرادات التي تتحدث عن التقاء وافتراق الاحباء ، والبكاء على الغائبين ، ودهاء قطاع الطريق وما الى ذلك نستطيع أن نستخلص من النص **ملحمة متكاملة الأجزاء** تبدأ بعملية استدراج للقوات خارج الحدود الاقليمية للامبراطورية ، ثم تمر بطور من المبارزات الفردية أو شبه الفردية ، ثم تتحول الى حـرب جماعيـة . وبعـد ان يـطول حصـار القسـطنـطينيـة يعـود الجيش الى بغـداد دون ان تنقـطع المؤامـرات والاستفزازات . . . واخيرا يعقد السلام بفضل الحب والاخاء .

ان هذه الحكاية من الصعب تحديد تاريخها ، غير ان الدكتورة نبيلة ابراهيم في دراسة مقارنة شيقة عن « سيرة الاميرة ذات الهمة » التي تدور هي الاخرى حول الحروب العربية البيزنطية رجّحت ان تكون هناك علاقة بين الحوادث التي يسردها الراوي عن عمر النعمان واسرته ، وبين هجوم مسلمة بن عبدالملك على قيسارية عام ٧٢٥-٧٢٦م[٢].

وانطلاقا من هذا الافتراض سوف نقوم بدراستنا للبناء الفني لهذا النص مستندين الى اشهر الملاحم الغربية[٣] التي نبعت من حوادث مشابهة دارت في بلاد البحر المتوسط في تلك الحقبة ، اي في القرن الثامن الميلادي . وهذه الملحمة هي « **انشودة رولان** » التي تروي الحروب التي شنهّا شارلمان على الملوك العرب في اسبانيا طوال سبع سنوات وحصاره لمدينة سراجوسة ، وانهزام رولان في معركة رونسڤال عام ٧٧٨م ، ثم انتقام امبراطور الفرنجة من الاعداء والخونة .

واهم المحاور التي تحدد الطابع الملحمي لكلا النصين هي : الشخصيات ، ثم اللغة الحماسية وما يرتبط بها من أهداف قومية أو دينية أو تعليمية ، وأخيرا الصدام بين حضارتين أو عقليتين وما اثاره ذلك لدى الطرفين .

أما بالنسبة للأبطال فبعضهم يظهرون في صورة شبه اسطورية بينما يتميز الآخرون بأبعادهم الانسانية ؛ هذا بالاضافة الى بعض الشخصيات النمطية ، وطائفة قليلة تضم الشخصيات الرمزية ، ونقصد بالشخوص شبه الاسطورية تلك التي تبدو وكأنها بمعزل عن الزمن الذي تَتَابع حلقاته عادة من الميلاد الى الوفاة ؛ فنحن لا نعرف شيئا عن نشأتها وإنما نجدها ماثلة أمامنا في صورة لا تتغير ، وقد احتلت المكان الذي خصص لكل منها ، واعدت مسبقا للدور الذي ستؤديه[٤]. وهذه الشخوص هي عمر النعمان ، وابنه شركان ، والوزير دندان . أما عمر النعمان فنحن نجده منذ البداية في أوج عظمته ، ملك مرهوب الجانب ، يخطب الروم ودّه ، ويتقي الجميع شره ، ويخضع له العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه . وهذه الشخصية التي يحيط بها هالة من المهابة تذكرنا بالامبراطور شارلمان الذي يتغنى الشاعر بقوته رغم سنه المتقدمة ولحيته البيضاء الكثة التي تتدلى الى ما بعد ركبتيه واذا جلس يضعها على فخذيه . . . اما شركان فتربطه بالكونت رولان الصورة التي كان يكونها الأدب العالمي حينذاك عن البطل العسكري ، بحسناته وعيوبه : شخص عنيد جريء لا يخلو من التهور والقسوة والتعطش لدماء العدو ، كلما رآها تسيل ازداد استبسالا ، واندفع كالثور الهائج يحصد سيفه الرءوس كالزهر اليانع . غير ان البطل العربي يختلف عن قرينه الفرنسي ، ففي حين نرى رولان وقد اشتد به الحنين الى بلده « فرنسا الوديعة » ويبرح به الشوق الى « أودي » Aude خطيبته الجميلة ، نرى شركان لا يحلم الا بالحرب والضرب ، حتى مغامرة الحب العذري التي يتعلق اثناءها بالاميرة ابريزة سرعان ما تمر دون أن تخلف اثرا في نفسه . ولا شك ان الراوي كان مدركا لذلك ، فهو يقدم لنا شركان منذ بداية الحكاية قائلا بأنه « آفة من آفات الزمان » ، ثم يعود فيسميه « بطل الزمان » ، وعندما يشتد بلاؤه في محاربة الكفار يلقبه « اسد الله » و « سيف الرحمن » . ولا غرو ان الراوي كان يحتفظ في مخيلته بصورة عنترة ، النموذج الأول للبطل الذي لا يستسلم ولا ينهزم والذي لا يفقد صوابه وسيطرته على نفسه الا اذا جرح احد كبرياءه وكرامته . . فها هو شركان يكاد يقتل افريدون ولكن هذا الاخير يباغته بمقولة تهز كيانه : « ان قومك ينسبوك الى العبيد » (الليلة ١٠٢) ويقع هذا الافتراء من نفس شركان

(٢) دكتورة نبيلة ابراهيم : سيرة الاميرة ذات الهمة ، دراسة مقارنة دار النهضة العربية بيروت ، ص ١٣٠ .

(٣) عن المقارنة بين قصة عمر النعمان والسير العربية والبيزنطية ، انظر المرجع السابق .

(٤) بالنسبة للعلاقة بين شخصيات الاساطير والملاحم ، انظر

Histoire des litteratures, litteratures, anciennes, orlentales et Orales Encyclopedie de la Pleiade, 1 Paris 1955 PP. 15 sq.

وقع الصاعقة ، وقبل ان يفيق من هول الصدمة يضيف افريدون بأن قوم شركان لا يثقون فيه ، ويطلب منه ان ينظر بنفسه كيف جاءوه مسرعين ليمدوا له يد العون . . . ويستشيط شركان غضبا . . . ويستدير ليتحقق من مزاعم خصمه فيسدد اليه افريدون ضربة خاطفة تصيب ذراعه ليس الا ، ولكنها كانت بداية النهاية ، ان شركان لم ينهزم بل انه مات ضحية للغدر والخيانة .

اما الوزير دندان ، العضد اليمين للملك عمر النعمان وموضع ثقته ، فهو محارب ماهر بقدر ماهو سياسي محنك ، يشترك في وضع الخطط العسكرية ، ويقود الجند ، ويحبط المؤامرات . . . الخ ، واذا نظرنا الى **ملحمة رولان** نجد نفس الصفات لدى البطريق الاكبر الذي يعهد شارلمان اليه بابن اخيه رولان وفرقته ، فيندفع في قتال الاعداء بحماس وشراسة مذهلة ، مما يحدو بشاعر الفرنجة ان يقول عنه مداعبا متعجبا :

« ان يد البطريق الاكبر أقدر على استخدام السيف منها على توزيع البركات » .
ويستطرد في مكان آخر قائلا :
« ان عصا الاسقفية في مكان امين بين يدي البطريق » .

والشاعر يستخدم هنا كلمة crosse التي تعني بالفرنسية عصا الاسقفية وأخمص البندقية (المقطوعة ١١٤) .
وكما هو الحال بالنسبة لشركان نلاحظ ان شخصية الوزير دندان ـ رغم هذه الملامح العالمية اكثر التصاقا بالبيئة العربية ، فهو يفسر الاحلام ، ويسامر الامراء ويحاول تفريج كربتهم وقت الشدة ؛ كما انه متحدث بارع يعرف كيف يسري عن مليكه ويختار له من الأحاديث والروايات المسلية ما يشتمل في نفس الآن على كثير من العبر والعظات . ومجمل القول ان دندان شخصية جامعة ، أو هو مجموعة من الصفات التي يصعب أن تجتمع في انسان . . . وهذا الحكيم لا سِنَّ له ولا حدود لطاقته : فهو يعاصر ثلاثة أجيال دون أن يسري اليه الوهن ، نراه يرافق شركان في حملته الاولى على قيسارية ، ثم يشترك معه ومع الملك ضوء المكان في الحملة الثانية على الدولة البيزنطية وفي حصار القسطنطينية ، وبعد وفاة عمر النعمان وابنائه يظل دندان محتفظا بكامل قواه وحيويته ، يرعى شئون الحفيد كان مكان ويعبىء الرأي العام ضد الملك ساسان فيخلص البلاد من هذا المغتصب ، ثم يصاحب كان مكان من جديد في زحفه على بلاد الروم . . . وعندما يتعرف على الملك رومزان يفتح له قلبه ويحكي له مآثر اخويه وابيه . فالوزير دندان بمثابة سجل حي لكل الأحداث التي مر بها بنو النعمان ، والتي اختلط فيها تاريخ البلاد بمصير هؤلاء الأمراء شأنهم في ذلك شأن الآخيين بالنسبة لبلاد الاغريق (**الالياذه**) .

أما من جانب الروم فأهم شخصية هي شواهي ذات الدواهي ، تلك الشخصية الخرافية التي تعتبر نموذجا فذا لفن (البورترية) الكاريكاتوري . فقد حرص الراوي على ان يختار لها اسما يتمشى تماما مع بشاعة شكلها وقبح خلقها . . . فإلى جانب صفات الخبث والمكر والغدر التي تتجسد فيها ، تذكرنا هذه العجوز الشمطاء بصورة « **الشيطان** » كما ترد في الاساطير العالمية القديمة ، وفي كتب الاطفال . فالراوي يصفها لنا على النحو التالي : « كانت هذه اللعينة كاهنة من الكهان ومتقنة للسحر والبهتان ، عاهرة مكارة ، فاجرة غدارة ، لها فم ابخر ، وجفن احمر ، وخد اصفر ، بوجه اغبش ، وطرف اعمش ، وجسم اجرب ، وظهر احدب » (الليلة ٩٣) وعندما تتحدث شواهي عن نفسها تعترف بأنها أكثر مهارة من « ابليس وقومه المتاعيس » (الليلة ٨٩) .

ومن الجدير بالذكر ان الراوي يربط دائما في ذهنه بين الشخصيات البغيضة وبين ابليس ، بين دمامة الوجه وسوء الخلق ، فها هو يقول عن واحد من كبار البطارقة المحاربين وهو المدعو لوقا بن شملوط انه كان : « بشع المنظر ، وجهه وجه حمار وصورته صورة قرد وطلعته طلعة الرقيب وقربه اصعب من فراق الحبيب » (الليلة ٩٠) . ثم يصفه حين يتقدم لمبارزة شركان قائلا : « عليه ثوب احمر وزردية من الذهب المرضع بالجوهر ، وحمل رمحا له ثلاث حراب كأنه ابليس اللعين يوم الأحزاب » (الليلة ٩٠) .

فالملاحظ ان هذا (التابلوه) يسيطر عليه اللون الاحمر وهو لون الدم الذي يلتصق دائما في الأساطير بالشخصيات التي تمثل الشر ، او تلك التي كتبت عليها اللعنة أو المحكوم عليها بالموت . . . وبالفعل تنتهي المعركة بقتل لوقا على يد شركان ، فيهنئه اخوه ضوء المكان على ما أبلاه قائلا : « سوف تتحدث الناس جيلا بعد جيل بما صنعت باللعين لوقا محرّف الانجيل » (الليلة ٩١) .

وهذه الانماط التي تتكرر مع بعض التغييرات كلما تحدث الراوي عن « اعداء الله » انما ترتبط بعقلية العصر ، ونحن نجد أمثلة عديدة لذلك في **ملحمة رولان** . فالراوي العربي حريص على اختيار اسماء معبرة توحي للسامع ببشاعة العدو الذي يحقره ، وهكذا يفعل راوي الفرنجة الذي يذهب الى أبعد من ذلك ويطلق على أعدائه « الشرقيين » أسماء مختلفة لا تمتّ للواقع بصلة ، وهي تبدأ بمقطع « مال » mal (اي الشر) ، أو كور أو كوربيس corpus (اي البدن) مثال ذلك كورساليس ، مالبراميس ، تلكيان . . . الخ ثم يصف بعد ذلك هذه الشخصيات الكريهة (شكلا وخلقا) ؛ والعدو « المسلم » في نظره دائما خبيث لئيم غدار ، أو ساحر شرير (مثل الملك كورساليس) (المقطوعة ٧١) فاذا حدث ان وجد أميرا مسلما من المشهود لهم بالشجاعة (مثل الامير بالاجير) لا يستطيع الا أن يتحسر لكونه غير مسيحي (المقطوعة ٧٢) .

فالراوي العربي والافرنجي يلجآن الى نفس الوسيلة ألا وهي التضخيم والتكرار لتثبيت هذه الصورة في الأذهان واثارة الحماس بل التعصب الديني عن طريقها . ولكن هذه الشخصيات المتطابقة تبدو وكأنها نسخ خرجت من نفس القالب ، فالمبالغة هنا تحقق هدف الراوي ، ولكنها تجعل الشخصيات رموزا أكثر منها بشرا .

وإلى جانب الشخصيات شبه الأسطورية والنمطية توجد شخصيات أخرى تتميز بأبعادها الانسانية من أشهرها ضوء المكان . فهذا الملك لا يقلّ عن اخيه شركان شجاعة وبسالة ، ولكنه خرج من إطار البطل الفريد ليعيش الحياة العادية بحلوها ومرها . ورث ضوء المكان عن أبيه الشجاعة والاقدام ، وورث عن أمه « صفية » الحكمة والاتزان ؛ تعلم فن الحرب والصيد والقنص ، وعلوم الدنيا والدين ، نشأ محبا لأهل العلم رفيقا بالفقراء والمساكين ، ثم مرّ بتجربة روحية عميقة عندما أدّى فريضة الحج وهو بعد في الرابعة عشرة من عمره ؛ وعاش تجربة الحاجة والفقر عندما مرض في دمشق واختطف الاعراب شقيقته فوجد نفسه غريبا وحيدا معدما . . . فهذا البطل طهرته الآلام فرفعته الى السمو الروحي الذي يفتقده اخوه شركان . والراوي يضع الأخوين وجها لوجه كي تتضح من المقارنة ملامح كل منهما . ونحن اذا انتقلنا الى **ملحمة رولان** نجد ان الشاعر الفرنسي يضع بدوره الى جوار رولان صديقه وشقيق خطيبته أوليفييه ، وهو أيضا فارس مقدام لكنه يمثل صوت العقل الذي ينبه رولان الى مغبّة تهوره . . . فالراوي ، إذن ، في كلتا الملحمتين

يضع جنبا إلى جنب شخصية تمثل الشجاعة المطلقة التي تصل الى حد التهور ، وأخرى تجمع بين الشجاعة والاتزان ، وهو في كلتا الحالتين يعطي الأفضلية للبطل الانساني الذي يجمع بين الاقدام والروية .

●●●

نأتي الآن الى الشخصيات الرمزية ومعظمها شخصيات أجنبية إما بالميلاد أو بالنشأة ؛ وأهم من تتضمنه هذه الطائفة : صفية وابريزة وروزمان .

يقول الراوي عن صفية انها كانت « احسن الجواري وأجملهن وجها وأصونهم عرضا [. . .] ذات عقل وافر وجمال باهر » (الليلة ٤٥) . وهذه الشابة التي تجمع بين الحكمة والجمال ابنة ملك القسطنطينية . ولنا أن نتساءل عما اذا كان الراوي قد اختار لها عمدا هذا الاسم نظراً لمضمونه الرمزي . فمن معالم المسيحية الشهيرة حينذاك كنيسة القديسة صوفيا التي شيدها جوستنيان الأول في القسطنطينية عام ٥٣٢م . غير أن جوستنيان إنما أقام هذه الكنيسة تمجيدا لمفهوم « الحكمة الأبدية » (la sophia eternelle) وهو مفهوم يوناني يعني « العلم والحكمة » وتعبر عنه القصص الرمزية التي تصور الحكمة الالهية (ثيوسفيا Theosophie) في صورة فتاة جميلة رزينة تتربع على العرش الالهي ، يتطلع اليها كل من ينشد الكمال بفضل التعاليم الفلسفية ـ الدينية .

ونحن بالطبع لا نستطيع أن نجزم بأن راوي هذه القصة كان على علم بذلك ،.ولعل هذه الصورة قد انتقلت إلى القصص الرمزية الشرقية والأناشيد ذات الطابع الصوفي .

فمن المحتمل إذن أن تكون بعض هذه القصص قد وصلت الى مسامع الراوي ، ولكن من الأكيد أنه ربط بين اسم صفية وعاهل القسطنطينية واتخذ منها رمزا للدولة البيزنطية المسيحية ، فالصراع بين عمر النعمان وبيزنطة إنما بدأ بعد أن علم أفريدون أن ابنته صفية أُرسلت هدية إلى عمر النعمان الذي أصبح بالتالي سيدها ومليكها . ولما تدخلت شواهي ذات الدواهي وأرجعت صفية الى القسطنطينية تحول الصراع الى حرب شاملة كما قدمنا ، واستمر النزاع قائما بصور شتى الى أن عادت صفية من جديد الى الديار الاسلامية بعد عقد الصلح بين المعسكرين ، واعتناق رومزان وذويه للاسلام . فالأميرة صفية إلى جانب دورها الرمزي الديني ، أصبحت رمزا قوميا يشبه الى حد ما دور الأميرة هيلينا في حرب طروادة ومكانتها في **الالياذة** .

أما إبريزة الفتاة المحاربة فهي كنز عظيم يوحي به اسمها المشتق من الابريز . . . وهي أيضا ابنة لأحد ملوك الروم ، وهو حاكم قيسارية ، وهي تمثل بدورها معقلا آخر من معاقل المسيحية ، وإذا كانت صفية قد ألقت بها المقادير بين يدي عمر النعمان ، فالوضع في حالة إبريزة بخلاف ذلك : فهذه الأميرة أعجبت بالفارس شركان وأحبته ، ومن أجله تخلّت عن دينها وملك آبائها ، وتبعته الى بغداد بمحض اختيارها . ولكن يبدو أن شركان كان أكثر تحمسا للحرب منه للحب فلم يتعجل في الاقتران بها ، وربما أنه أحجم عن ذلك عندما لاحظ ميل أبيه لها . وأياً كان الأمر فالراوي قد جعل عمر النعمان يستولي على صفية وإبريزة وهذا الاستيلاء له دلالته المعنوية والرمزية ؛ وقد أنجب عمر النعمان من صفية ضوء المكان الذي جمع خير مافي الشرق ومافي الغرب ، ومن إبريزة رومزان[٥] الذي بفضله سيسود السلام .

ويظهر الأمير رومزان على مسرح الأحداث في نهاية المطاف بعد أن أنهكت « الحرب النظاميـة » ثم « الحرب الاستنزافية » العرب والروم على السواء ؛ فهو بمثابة مبعوث العناية الالهية الذي يظهر في المسرح الاغريقي عندما يشتد

---

(٥) لمعرفة تفاصيل أكثر عن الشخصيات المماثلة لكل من إبريزة وروزمان في السير الشعبية العربية والبيزنطية ، انظر : دكتورة نبيلة ابراهيم ، المرجع السابق ذكره .

تعقد الأمور ليجد حلا خارقا يرضى عنه الجميع . فالامبراطور رومزان الذي لم يسبق أن حدثنا الراوي عنه يأتي فجأة ودون سابق إنذار ليقوم بهذه المهمة السامية . وهذا الأمير الذي هو ثمرة الاتحاد العارض الخاطف بين إبريزة وعمر النعمان ، أو بين المسيحية والاسلام ، يعود الى مسقط رأس آبائه وأجداده ويعتنق دينهم ، ويوفق بين بني عمومته وأخواله ، ويؤاخي بين الامبراطورية البيزنطية والأمة الاسلامية لمصلحة الانسانية .

هذه هي الشخصيات الرئيسية التي يصف الراوي أفعالها ويورد أقوالها في لغة حماسية تعبر عن عقلية العصر والأهداف أو الاصلاح الذي ينشده . فهو يوضح لنا العلاقات التي تسود في الحياة الخاصة والعامة للأمراء والقادة ، ومن أهمها الاحترام المطلق للملك وتنفيذ أوامره ، أياً كانت ، في حضوره وغيابه . ويصف لنا طريقة اختيار الجند وتحضيرهم للحرب بشكل يجعلهم « كاملين العدة صابرين على الشدة » (الليلة ٤٦) وإعطاء الأولوية للمخطط الاستراتيجي على القائد العسكري الذي يجب أن يطيعه « في كل ما يشير به عليه » (الليلة ٤٦) . كما أن وصف المعارك يتضمن دروسا مباشرة في فن الحرب : فالقائد عليه أن يبدأ بمعرفة طبيعة الأرض التي ستدور عليها المعارك ، وكيفية الاستفادة من التضاريس ، واستخدامها كتحصينات طبيعية سواء كان الأمر يتعلق بالمرتفعات أو المضايق أو البحار . كما يلح الراوي على ضرورة فهم سيكولوجية العدو ، وحساب التوقعات والاحتمالات ، واستغلال عنصر المباغتة والمفاجأة ؛ كما يحذر من الثقة العمياء في عابري الطريق خاصة من يبالغون منهم في إظهار الورع والتقوى والزهد . . والشاعر لا يترك فرصة دون أن يشيد بالشجاعة والاقدام ، ومواجهة الموت في ثبات ، ويمجد الفروسية والشهامة ، والجهاد في سبيل الله .

وإذا كان النص في بعض الأحيان يستخدم الألفاظ أو التراكيب العامية كما هو الحال في « ألف ليلة وليلة » ، إلا أنه في كثير من المناسبات يقتبس الأقوال المأثورة وأبيات الشعر . والآيات القرآنية تتردد على لسان الراوي بصفة تلقائية . فهو في كل معركة ، فردية كانت أم جماعية ، يحضّ المؤمنين على الاستشهاد في سبيل الله ، وإعلاء كلمة الحق والاسلام ، ويحقر أتباع الصليب ، عَبَدة الصور والتماثيل . ومن الجدير بالذكر أن ملحمة رولان تشتمل على مفاهيم ، (بل وعبارات) مماثلة : الاشادة بالشجاعة والجسارة ، والتحذير من الفرار ، وتمجيد الموت في سبيل « السيدين » وهما إمبراطور الفرنجه والسيد المسيح (عليه السلام) . أما المسلمون فهم في نظر الشاعر الفرنسي « وثنيّون » يعبدون الأصنام والبقرة والتنّين . . . الخ . ويذهب راوي الفرنجة إلى أبعد من ذلك عندما يلجأ الى استخدام ما يسمى بالخوارق المسيحية فيصور الملائكة حين تهبط الى الأرض لتحمل أرواح المسيحيين إلى الجنة ، بينما يأتي إبليس ليحصد أرواح المسلمين . . .

ومجمل القول إن قانون الحرب ومدوّنة سلوك المقاتلين تكاد تكون واحدة لدى الطرفين في ذلك العصر ؛ فكل طرف كان يؤمن تماما بأنه يحارب دفاعا عن الحق ، وأن « الحق » في جانبه ، بينما « عدوه » وثني كافر ، يتبع الباطل ، فلابد إذن من أن يكون مصيره « النار وبئس القرار » . . .

●●●

إلى جانب هذه المفاهيم الدينية والاخلاقية والمعنوية التي يعمل الراوي على تثبيتها في النفوس عن طريق السرد والتكرار المقصود وفي أسلوب حماسي متأجج هو من سمات الملاحم ، نجد في النص دروسا وعظات أخرى لا تتعلق

بالطعن والضرب ، وإنما ترد تباعا على لسان الراوي عندما يتنقل الأبطال في أطوار حياتهم المختلفة من مكان إلى مكان ، ثم عندما يقارن الشاعر « عن غير قصد » بير الحضارات .

فالأبطال يعيشون جزءا من حياتهم في بغداد وآخر في دمشق الشام ، وهما مركزان هامان من مراكز الحضارة الاسلامية في ذلك الوقت . والراوي يقدم لنا في دمشق نماذج من أعضاء الطوائف المختلفة ونشاطاتهم اليومية وتصرفاتهم ، ومنهم الوقّاد ، وحارس الحمام ، والاعرابي ، وتاجر الرقيق . . . الخ . وأهم ما يبرزه الراوي عندئذ هو أن العمل الطيب لا يضيع وأن المكر السيء لا يحيق الا بأهله . كما يلمح الراوي بطريقة غير مباشرة إلى أن تعرّف الأمير أحوال الرعية (تجربة ضوء المكان) عندما يعايشها تجعله أكثر قدرة على تفهمها وعلى إرضاء ربه بالعدل فيها . كذلك ينتهز الراوي فرصة زواج شركان ليقدم لنا الى جانب مراسيم الأفراح نموذجا للفتاة الجميلة المتعلمة التي تليق بالملوك . (وهذا أمر سنعود إليه بعد قليل) وعندما ينتقل الراوي مع القوات إلى قيسارية أو القسطنطينية يطلق العنان لملكة الملاحظة ، وهو يتلقى عندئذ « صدمة حضارية » تجذب انتباهه إلى كل غريب ، وتجعله يعيد التفكير في بعض المفاهيم الراسخة في بيئته ، ويقيِّمها من جديد . ومن الأشياء التي جذبت انتباه الراوى مثلا بعض نواحي الضعف لدى الأمراء الشرقيين واستغلال الفرنجة لها للتغرير بهم والنيل منهم . فالملك عمر النعمان راح ضحية تعلقه المفرط بالنساء ، والملك ضوء المكان كان شديد التعلق بأولياء الله والزاهدين القانتين ، فتنكرت شواهي في ظل زاهد وتغلغلت في صفوف المسلمين إلى أن قتلت أخاه شركان . وكان الوزير دندان قد نصحه من قبل بعدم الوثوق فيه ، وهو يذكره بذلك قائلا : « ومن جلب هذه الاحزان إلا هذا الزاهد الشيطان فَوَالله إن قلبي نَفَرَ منه في الأول والآخر لأنني أعرف أن كل متنطع في الدين خبيث ماكر » (الليلة ١٠٤) .

وفي مكان آخر يروي الشاعر العربي هزيمة القوات المسلحة في إحدى الهجمات لأن المحاربين نسوا الحرب وراحوا يبحثون عن كنز وجارية فاتنة ادعت شواهي (الزاهد) تواجدهما في أحد الاديرة ، فالشاعر العربي يسوق هذه الأمثلة النابعة عن معرفته بالواقع حوله ، أو بالأحرى لمعرفته بميول النفس البشرية ، كي يحذر المسلمين من الاندفاع على السجية ، فهذا شيء لا يليق خاصة بالأمراء . . وكأنه يقول للسامعين انظروا الى الفرنجة أنهم لا يفعلون فعلكم . . .

ويستمر الراوي في هذه المقارنات ، ويلجأ تارة الى الوصف وتارة الى الحوار لتغطية نواح حضارية شتى تستحوذ على اهتمامه بشكل خاص . فنحن مثلا نراه يصف القصر أو الدير الذي تسكنه الأميرة إبريزة ، ثم يدلف بنا إلى داخله ليقدم لنا هذه الأميرة ويُجري على لسانها حوارا شيقا يعبر عن الصورة التي ترتسم في ذهن المرأة الغربية عن عالمنا الشرقي .

أما بالنسبة للقصر فهو ، حسب قول الراوي ، يقع على شاطىء نهر . ونستنتج من قوله أن الأمر يتعلق بقصر محصن من تلك القصور التي خلفتها العصور الوسطى . فما يسميه « النهر »إنما هو « البئر » أو القناة الدائرية التي كانت تحيط بالقصر عادة كجزء من التحصينات كي تعوق تقدم العدو . أما أهل القصر وضيوفهم فيعبرون هذه القناة على جسر متحرك . ويبدو أن الراوي كان يشاهد هذا الجسر لأول مرة لأنه يصفه بكثير من الدهشة متقمصا شخصية شركان : « جسر معمول بأخشاب من الحور وفيه بكر بسلاسل من البولاد وعليها أقفال في قلاليب [. . .] فسار شركان إلى أن عدَّى الجسر وقد اندهش عقله مما رأى وقال في نفسه ياليت الوزير دندان كان معي في هذا المكان » (الليلة

٤٧) . وإعجاب الراوي بالهندسة المعمارية الرومانية التي يمثلها هذا القصر لا يقل عن إعجابه بالاميرة الجميلة المتفتحة صاحبة القصر . فهذه الاميرة الرومية تتحدث العربية بطلاقة ، وقد كانت معرفة اللغة والحضارة العربية والاسلامية لدى الاوربيين في ذلك الوقت سمة من سمات الثقافة الرفيعة .

ويتقمص الراوي شخصية إبريزة كي يناقش شركان في أمور تتعلق بالاسلام وتعدد الزوجات ومعاشرة الاماء . فعندما يطلب شركان من الأميرة ان تصحبه الى بلاده ترفض الفكرة في بداية الأمر لأنها لا تود أن تصبح « مِلْكا » للملك عمر النعمان ، يفعل بها ما يشاء ، وهي تورد صراحة الآية الكريمة التي تقول « وما ملكت أيمانكم » . والراوي إنما يشير هنا إلى قيام البعض بتفسير جزئي مغرض لبعض الآيات الكريمة التي « تجيز » تعدد الزوجات أو معاشرة الاماء .

وفي الواقع أن الراوي هنا يلجأ إلى وسيلة أدبية انتقلت إلى أوربا في القرن الثامن عشر بعد صدور أول ترجمة فرنسية لألف ليلة وليلة (١٧٠٤ ـ ١٧١١) وهي التخفي وراء شخصيات أجنبية ينقد على لسانها النظام السياسي أو الاجتماعي أو يناقش باسمها بعض القضايا الحساسة . وقد استخدم هـذه الوسيلة مـونتسكيو في كتـابه « رسـائل فارسية » ، وڤولتير في قصصه ومسرحياته التي اختار لها ابطالا شرقيين أو جعلها تدور بين ربوع الشرق . وهكذا تمكن هؤلاء المفكرون الفرنسيون من تحاشي ويلات الرقابة التي كانت تحكم على المؤلفات بالحرق وعلى المؤلفين بالسجن أو النفي إذا تعرضوا بالنقد الصريح لشيء يمس المَلَكية المطلقة أو الدين ورجاله .

راوي « ألف ليلة وليلة » كان إذن سباقا في هذا المضمار . . . ولابد وأن ننوه بأن هذه ليست المرة الوحيدة التي يتناول فيها مسألة حساسة ، خاصة في ذلك الحين ، وهي وضع المرأة في المجتمع الاسلامي . فهو يلح على ضرورة إعطاء الفتاة نفس الحقوق بالنسبة للتربية والتعليم ، كما لو كان يذكر السامعين بأن الاسلام في هذا المجال لم يفرق إطلاقا بين الفتى والفتاة . فها نحن نرى عمر النعمان يحضر لابنته وابنه على السواء العلماء والفقهاء ، ثم نشاهد بـأنفسنا الامتحان الذي تجتازه نزهة الزمان والذي تثبت فيه معرفتها لكل علوم الدنيا والدين . . . (الليلة ٦٠ ـ ٦٨) . ونظرا لأن هذه الملحمة من النوع الأرستقراطي أي الموجه الى الأمراء فالراوي يلقي على لسانها درسا للجمهور في كل فروع المعرفة ، كما أنه يوضِّح ـ عن طريق التكرار ـ نوع الفتاة التي تليق بالأكابر . . . إنها نزهة الزمان ، والجواري الحسان التي أهدتهن شواهي ذات الدواهي إلى الملك عمر النعمان بعد أن أحضرت لهن العلماء والفقهاء ، واجتزن في حضور الملك نفس الامتحان الذي أُجري من قبل للأميرة نزهة الزمان . وجدير بالذكر أن الفتاة الجميلة المتعلمة التي تبز الرجال في هذا المضمار كانت احدى الصور التي تلجأ اليها الف ليلة وليلة لتحقيق أحد أهدافها التعليميُة .

هذا وقد أشار البروفسور اندريه ميكيل في دراسة له عن « الجارية تودد » إلى أن هذا النمط من الفتيات المتبحرات في العلوم قد انتقل إلى الأدب الأسباني في صورة فتاة يفصح مجرد سماع اسمها عن الأصل العربي لها ، ألا وهي البطلة « تيودورا la doncolla Teodor »[٦] أما « النموذج الأول » لمثل هذه المرأة التي تفخر بها بنات جنسها فهي بلا شك شهر زاد ، تلك الأميرة المثقفة الواعية التي أنقذت شهريار من شر نفسه ، وانقذت الرعية من شره .

ويشيد الراوي أكـثر من مرة بـالمرأة المتعلمـة المتفتحة التي تحسن النصـح للرجل : إنها صفيـة ، بنت ملك القسطنطينية ، وإبريزة ابنة ملك قيسـارية ، ونـزهة الـزمان ابنـة صفية وعمـر النعمان ، وقضى مكـان ابنة نـزهة الزمان . . . إنها الفتاة التي يرشحها للزواج من الامراء ، لأنه يعلم مدى أهمية المرأة بالنسبة للمجتمع ، ومدى تأثيرها

---

(٦) Andre Micquel, **Sept Contes des Mille et une Nuits**, ED. Sindbqad, Paris 1981, PP. 38 sq.

فيه عن طريق زوجها أو ابنها . ومرة أخرى يعطي الراوي رأيا صريحا في هذا الأمر ، على لسان شخصية أجنبية أو خرافية ، وهي شخصية ملك حكيم يدعى الملك سليمان ، كان يحكم في « سالف الزمان مدينة وراء جبال أصبهان يقال لها المدينة الخضراء » . فهذا الملك يعتبر اختيار الزوجة مهمة يحاسب عليها يوم القيامة لما يترتب على ذلك بالنسبة له ولأولاده من بعده وللرعية بشكل عام عن طريق سلالته :

« اعلم ايها الوزير أن الملك إذا اشترى جارية لا يعلم حسبها ولا يعرف نسبها فهو لا يدري خساسة أصلها حتى يجتنبها ولا شرف عنصرها حتى يتسرى بها ، فاذا حملت منه يجيء الولد منافقا ظالما سافكا للدماء ، ويكون مَثَلها مَثَل الأرض السبخة ، إذا زُرع فيها زَرْعٌ فإنه يخبث نباته ولا يحسن ثباته ويكون هذا الولد متعرضا لسخط مولاه ولا يفعل ما أمره به ولا يجتنب ما عنه نهاه . فأنا لا أتسبب في ذلك بشراء جارية أبدا » (الليلة ١٠٧) .

أليس في هذا القول تنديد صريح بنظام الاماء ؟

ان دور المرأة في هذه الملحمة لا يمكن أن نفصله عن قضية الحرب والسلم . فالحرب قد قامت منذ البداية بسبب اختطاف صفية التي اعتبرها عمر النعمان « جارية » ، وأنجب منها بهذه الصفة دون أن يتحقق من أصلها ، وكان أجدر به أن يعرف أولاً من هي كي يردها إلى أهلها معززة مكرمة . . . ثم حاولت إبريزة أن تثني شركان عن القتال ولكن عمر النعمان تصرف معها مرة أخرى تصرفا أهوج ، فدفع حياته ثمنا لتهوره ، وجرّ البلاء على أولاده من بعده ، وظلت شواهي ذات الدواهي بالمرصاد لسلالة النعمان . . . وكاد حفيده كان مكان أن يلقى حتفه على يد رومزان ، ولكن الراوي جعل المرأة تتدخل في نهاية المطاف تدخلا ترضى عنه السماء ، إذ وقفت بين « الاخوان ـ الاعداء » . . . وهذه المرأة هي مرجانة ، وصيفة إبريزة أو جاريتها . . امرأة احسنت تنشئة رومزان ، وعلمته احترام صلة الدم ، والحكم بالعدل ، فتحقق عن طريقه ، بل عن طريقها ، السلام والوئام . . .

●●●

إن هذه الحكاية تضم بين دفتيها ملحمة متكاملة ، على درجة عالية من الثراء مما يجعل من الصعب حصر كل ما فيها في مجرد مقال واحد . وقد حاولنا أن نوضح إلى أي حد تنطبق على هذا النص مواصفات نوع معين من الملاحم ، ألا وهو الملحمة الأرستقراطية أو الطبيعية . فالأبطال امراء وسادة كرام ، وهم بحكم وضعهم هذا لهم مسئولية مزدوجة ، حيال انفسهم ، وحيال قومهم . . . ولكنهم بشر ، يخطئون ويصيبون . . . فاذا أخطأوا كان الثمن فادحا اذ يجرون البلاء على بلادهم من بعدهم . . . وإذا اصابوا وجب على الراوي شكرهم والاشادة بهم . والشاعر في تقديمه لهم لا يتبع الاسلوب الروائي أي الواقعي . وإنما هم بين يديه أبطال ملحميون ، كل في نمطه يبلغ الذروة ، وعلى اللبيب أن يستقي منهم العبرة. . . والراوي يصاحبهم في كل مكان ، مشجعا ومهللا ومكبرا . . . او واعظاً ومحذرا ، يئن مع الحزين ، ويطرب مع الفرحين ، ويسجل مآثر المحاربين في حماس بدائي جميل . . . وهو يسرد حكايتهم في لغة إنشادية حية ، لا تستبعد العامية ، ولكنها تعتمد على الشعر ، والسجع ، ورنين اللفظ ، وموسيقى المقاطع والحروف ، كي تستهوي السامع بجمالها فلا يمل من تكرارها . . . وبعد أن تتوقف رحى الحرب تنبعث من قيثارة الشاعر الخالد نغمات حلوة يملأها الحنين الى السلم . . . يقول للفرقة والدمار وداعا ، ومرحبا بالاخاء والرخاء . . .

* * *

الفولكلور والتراث

عبد اللطيف البرغوثي
جامعة بيرزيت

أولا ـ مدخل :

ان مـا قيـل عن الصلة الـوثيقـة بـين الانسـان وحضارته ، في قولهم إنه « لا انسان بلا حضارة ، ولا حضـارة بلا انسـان » ، يصدق عـلى الفـولكلور ، اذ لا مجتمع بلا فولكلور ، ولا فولكلور بلا مجتمع ، فمادة الفولكلور قديمة قدم الثقافة ، أي منذ أن تطورت لدى الانسـان القـدرة عـلى التعلم ، بمعنى الاستفـادة من التجربة ، والقدرة على الترميز ، أي منذ ظهور اللغة ، التي مكنت الناس من التفاهم فيما بينهم ، كما مكنتهم من تجميع المعلومات ، وحفظها ، ونقلها من جيل الى جيل ، وذلك انجاز يعود الى زمن يمكن تقديره بما يتراوح بين ثلاثة وخمسة ملايين من السنين[1] .

وقد دونت مادة الفولكلور ، منذ بدأ عصر التدوين ، ضمن المواد الأخرى ، من مثل المواد المكتوبة على الآثار في مصر ، وفي العراق ، وغيرهما وهي مـواد اشتملت على الكثير من القصص ، والخرافات ، والمعتقدات ، والعادات والتقاليد ، ومن مثل ما اشتملت عليه كتب الرحالـين ، والمغامـرين ، والمكتشفين ، والمبشـرين ، والتجـار الاوروبيـين ، من فـولـكلور الامـم غـير الاوروبية[2] . ويصدق هذا القول على مواد الفولكلور العربي ، فهي كذلك قديمة قدم المجتمعات العربية ، وهي كذلك رويت ضمن ما روى مشافهة قبل عصـر التدوين بالعربية ، ثم دونت ضمن ما دون من المعارف العربية ، دون أن تفرد لها مصنفات أو مخطوطات خاصة بها .

أمـا مصطلح « فـولكلور » ، المكون من الكلمتـين « فولك » بمعنى الناس أو عامة الشعب ، و « لور » بمعنى المعرفة أو الحكمة ، فقد أنشأه ، لأول مرة ، الكـاتب الانجليزي وليام جون تومز ، عندما استعمله في رسالة

(١) كناعنة ، شريف ، ملامح المادة الفولكلورية ، مركز الوثائق والابحاث ، جامعة بيرزيت ، ص ٣ .
(٢) كناعنة ، شريف ، ملامح المادة الفولكلورية ص ٤ ، وعلقم ، نبيل ، مدخل لدراسة الفولكلور ، جمعية انعاش الاسرة ، ١٩٧٧ ، ص ١ .

بعث بها الى صحيفة « ذي أثينيوم » في أغسطس / آب ١٨٤٦ ، بتوقيع مستعار هو امبروز ميرتـون ، واقترح استعمال هذا المصطلح ، كاسم لحقـل يشمل دراسة العـادات والتقاليـد ، والممـارسـات ، والخـرافـات ، والملاحم والامثال[٣] . لكن الاهتمام بالفولكلور كجزء مميز عن باقي أجزاء الثقافة ، كان قد بدأ بالظهـور في الاوساط العلمية الاوروبية ، منذ مطلع القرن التاسع عشر مما أدى الى بلورة معالم الفولكلور بشكل واضح ، في النصف الثاني من ذلك القرن ، حينما بدأت تظهـر جمعيات الفولكلور ، والدوريات المتخصصـة فيه ، في معـظم دول أوروبـا أولا ، ثم في الـولايـات المتحـدة الاميركية ثانيا . وكان المهتمون بالفولكلور في أوروبا في القرن التاسع عشر ، هم قادة الفكر ، والمتعلمـون ، وأفراد الطبقـة العليا من المجتمـع ، وكانـوا يقصرون فهمهم لحقـل الفولكلور ، بشكـل عام ، عـلى دراسة الجـزء المتخلف من ثقـافـة الـطبقـات الجـاهلة ، من المجتمعات المتحضرة ، في البلدان الاوروبية ، وبذلك استثنوا ثقافة الطبقات العليا من المجتمعات الاوروبية ، كـما استثنوا ثقـافات الشعـوب غـير الاوروبيـة ، التي اعتبروها شعوبا متوحشة .

وخـلال القرن العشـرين ، تطور مفهـوم مصطلح « فولكلور » في أوروبا وفي الولايات المتحدة الاميركية ، وفي معظم بلدان العالم الاخرى ، بحيث صار يشمـل الفنـون القـوليـة بجميـع اشكـالهـا ، والمـوسيقى ، والـرقص ، والمعتقـدات ، والعـادات ، والتقـاليـد ، والمعرفة ، والافكار ، والعواطف ، والسلوك مما يدخل في صنع المنتجات المادية الشعبية وتزيينها واستعمالها .

وبتـدقيق النـظر في الفكـر الفـولكلوري الاوروبي والامريكي ، يمكن أن نلاحظ أن الاوروبيين يركزون فكرهم على المقطع الاول من مصطلح « فولكلور » ، وبذلك تدور مفاهيمهم حول الشعب والحياة الشعبية ، بينما يركز الامريكيون فكرهم على المقطع الثاني من ذلك المصطلح ، مما يجعـل مفاهيمهم تـدور حول المعـارف الشعبية ، والمنتوجات الشعبية ، والشرط في الاشياء غير المادية حتى تعتبر فولكلورية ، هو أن تكون متوارثـة ، وأن تعبـر عن وجدان الشعب ، وأن تكـون مجهـولـة المؤلف أو المنشأ ، أما الاشيـاء الماديـة ، فان مـا هـو فـولكلوري منها ـ بـالاضافـة الى الافكـار والعـواطف والسلوك مما يدخل في صنعها وتزيينها واستعمالها كما ذكر قبل قليل ـ هو شكلها ، وهو الاهم ، لأنه أكثر دواما وثباتا ، وأقل مقومـات المادة الفـولكلورية تغيـرا ، ثم طـريقـة صنعهـا التقليـديـة ، وطـرق استعمـالهـا المتوارثة[٤] .

وفي هـذا الخصوص ، ينقـل د . شريف كنـاعنـة بتصـرف عن واحـد من أشهـر الانثـروبـولـوجيـين ـ الفولكلوريين الاميركيين هـو د . ألن دنديـز ، قائمـة تصلح عينة لأهم المواد التي صار يشملها حقل الفولكلور في أيامنا هذه . وفيما يلي تلك القائمة :

حقل الفولكلور يشمل : الاساطير ، الخرافـات ، والقصص الشعبية ، والنكات ، والامثال ، والحزازيز والالغـاز ، والترانيم والتعـاويـذ ، والتبـريكـات ، واللعنات والشتائم والمسبات ، والأيمان ، والاجـابات التقليـدية المقننـة ، والمقاهـرة ، والمعايـرة ، وعبـارات

(٣) الموسوعة البريطانية والموسوعة العربية الميسرة ، مادة فولكلور . انظر أيضا : كناعنة ، ملامح المادة الفولكلورية ، ص ٤ ، ومقالة منعم حداد « التراث والفولكلور » في مجلة المواكب ، عدد ٧ ، ٨ تموز / آب ١٩٨٥ ، مطبعة النهضة ، الناصرة ، ص٢٥ ـ ٣٥ .

(٤) Glassie, Henry, Pattern iu the Material Folk Culture of the Eastern United States, University of Pennsylvania, Publications in Folkore and Folklife, 1963, PP. 1-8

التحية ، والوداع ، والمجاملات ، والملابس الشعبية ، والرقص الشعبي ، والمسرح الشعبي ، والفن الشعبي ، والمعتقدات الشعبية ، والطب الشعبي ، والموسيقى الشعبية ، والاشعار والاغاني الشعبية* والمصطلحات ، والتشابية ، والاستعارات ، والكنايات ، والالقاب الشعبية ، وأسماء الاماكن والمواقع ، والملاحم الشعبية ، وما يكتب على القبور والسيارات ، واليافطات ، والجدران ، وأغاني العاب الاطفال ، وأغاني الكبار في تلعيب الاطفال والايماءات ، والرموز ، والدعاء ، والنكات العملية ، ونداءات الباعة ، وطرق الطبخ ، وانماط التطريز ، وانماط البيوت ، والاسوار ، وبيوت الحيوانات ، وما يقال لطرد الحيوانات أو استدعائها ، وما يقال عند العطس ، والسعال والتثاؤب ، والاحتفالات الشعبية في المواسم والاعياد والمناسبات المختلفة[٥] .

وبالطبع فان علم الفولكلور في أوروبا والولايات المتحدة الاميركية ، أخذ في هذا القرن العشرين مكانته الى جانب العلوم الانسانية الاخرى في الجامعات ، فهو يدرس كما يدرس علم الانسان ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلى مستوى الشهادات الجامعية كافة . وليس أدل على مدى تزايد العناية بهذا العلم ، من انشاء العشرات من الجمعيات ، والمؤسسات ، والمجلات ، المتخصصة بمجالات الفولكلور . ولعل من الجدير بالذكر ، أن أشير الى أن الكونغرس الامريكي أنشأ سنة ١٩٧٦ ضمن مكتبة الكونغرس المشهورة ، مركزا باسم « مركز الحياة الشعبية الاميركية » American Folklife Center وهو مركز لا يعتني بحفظ الفنون الشعبية فقط ، وانما يعتني كذلك بالحفاظ على طريقة الحياة الشعبية الامريكية ، ويعمل على ابرازها ، من منطلق ان الشعب ، والثقافة الشعبية ، لا يمكن فهم أي منها بمعزل عن حكاياته ، وأغانيه ، وألحانه ، ورقصاته ، وطقوسه ، ومعتقداته ، ولغاته[٦] . ولشدة شغف كثير من الامريكيين باكتشاف تراثهم ، فانهم لم يبالوا كثيرا بما صدر عن المختصين ، من تمييز بين المعرفة الناجمة عن وسائل الاعلام بما فيها الصحافة وغيرها ، مما يطلقون عليه مصطلح « الموزوث العامي » Popular Lore ، وبين المعرفة التي تندرج تحت مصطلح الفولكلور ، ولذلك فان الجماهير الاميركية المتعلمة ، كانت دائما راغبة في أن تدرج ضمن الفولكلور ، كل تلك المعرفة ، وتلك المواد الشائعة في معظم الولايات المتحدة ، والتي تشير الى نمو الديمقراطية ، ويمكن أن تعزى بطريقة ما الى الجماهير بصفة عامة . أما كون كثير من تلك المعرفة ، وتلك المواد ، خاطئا ، أو أنه وضع أصلا للاستهلاك التجاري السريع ، أو لأحداث ردود فعل سياسية معينة ، فتلك قضية لم تكن بذات أهمية لهم .

والسبب في ذلك ، ان الرواج الذي يشهده الفولكلور ، والفولكلور الكاذب ، في الولايات المتحدة ، يتناسب مباشرة مع تزايد احساس الاميركيين بالقومية الاميركية ، والتأكيد على القومية يتناسب مع تنامي النفوذ الاميركي في الشؤون العالمية ، ولأن الاميركيين تمكنوا من فرض ثقافتهم ، وتراثهم السياسي ، على كثير من الأمم الأخرى فانهم أحسوا

---

(٥) كناعنة ، ملامح المادة الفولكلورية ص ١٤ عن :

Dundes, Alan, A Study of Folkore, Prentice Hall, Englewood cliffs N.J. 1965, P. 3

(٦) Voice, No. 11, Voice of America, October/November, 1985, P. 4, Article by Marcia Sartwell under the title: "America's Folk Life Alive and Well."

بمدى ضرورة أن يقفوا هم أنفسهم على حقيقة فولكلور أمتهم ، الذي وجدوا فيه ـ سواء كان فولكلورا أصيلا أو زائفا ـ تعليلا لأعمال الجماعات ، ونقطة مركز تلتقي فيها ولاءاتها ، وأداة مكنت الخليط السكاني الاميركي من الاندماج ، ونهضت بروح العزة القومية ، وعززت روح الحنين في شعوب هذه الأمة الصناعية التي تتميز الحياة فيها بهجرة دائمة من الريف الى المدينة ، وتحل المراكز التجارية الحديثة التي تنشأ باستمرار محل مئات أماكن السياحة الشعبية القديمة الصغيرة[٧] .

ثانيا ـ الفولكلور العربي عبر العصور :

عند الحديث عن التراث العربي ، لا بد أن يقوم في الذهن تراث اللغة العربية الفصحى بأسره ، وتراث العاميات العربية ، والشعوب العربية ، أي الفولكلور العربي . والفولكلور العربي ، شأنه شأن فولكلور الشعوب الاخرى يشمل الجانبين المشار اليهما في المدخل السابق ، وهما جانبا الفنون القولية وما يتعلق بها ويتبعها ، وجانب الفنون الشعبية المادية ، من أدوات وملابس ومساكن وغير ذلك . واذا ما التفتنا الى الجانب الاول من هذين الجانبين ، فاننا لا مناص لنا من البدء بالحديث عن اللغة ، التي هي قوام الفنون القولية . وفي هذا الصدد ، فاننا نجد أنفسنا أمام ثلاثة مستويات من اللغة العربية ، اصطنعتها أمتنا في عصورها وأقطارها المختلفة ، للتعبير عن ذاتها ، ولصياغة ثقافتها . هذه المستويات هي : اللغة العربية الفصحى المعربة ، واللغة العربية المتوسطة بين الفصحى والعامية ، والتي يمكن وصفها بأنها لغة فصحى مكسرة ، أو لغة عامية محسنة ، واللغة العامية الدارجة في الاستعمالات اليومية . ولأن اللغة الأم الفصحى ، ما عادت لغة يومية للشعوب العربية ، فان تراثها من العصر الجاهلي الى الوقت الحاضر ، هو تراث عربي ، لكنه يقع خارج دائرة الفولكلور ، ليستقر ضمن دائرة تراثنا الرسمي ، بحكم أن لغته هي لغة القراءة والكتابة ، وليست لغة المشافهة . وحتى في أيام فصحانا الذهبية ، فان أدباءنا ومفكرينا ميزوا بين أدب الخاصة ، المنشأ بهذه اللغة الفصحى ، وأدب العامة ، الذي لم يكن يرقى لمستوى أدب الخاصة ، لا في لغته ، ولا في محتوياته ، ولذلك فانهم لم يدونوا منه الا القليل القليل ضمن تدوينهم لأدب الفصحى . أما المستويان الثاني والثالث ، فهما الواسطتان اللتان تتعامل بهما الشعوب العربية في مجالاتها الثقافية المختلفة ، ولذلك فهما الوعاءان اللذان يحويان الفنون القولية الفولكلورية العربية ، ففي الاول منهما نجد أشعارا ملحونة ، كما نجد الازجال والمواليا والقصص الدينية ، وسيرة عنترة بن شداد ، والزير سالم ، وسيف بن ذي يزن ، وألف ليلة وليلة ، والاميرة ذات الهمة ، وحمزة البهلوان ، والظاهر بيبرس ، وفيروز شاه ، وسيرة بني هلال وتغريبتهم ـ وجميعها سير وملاحم شعبية ، كانت الشعوب العربية وما زالت تستمع لها وتطرب لسماعها . وقد أطلق الجامعيون في مصر على هذه المجموعة اسم الادب العامي ، تفرقة بينها وبين المستوى اللغوي الثالث . أما المستوى الثالث ، مستوى اللغة العامية ، فهو الوعاء الاكبر الذي يحوي الاداب الشعبية أي الفنون القولية للشعوب العربية ، ويقع ضمنه الشعر الشعبي ، والاغاني الشعبية بجميع ألوانها وما يرافقها من ألحان وموسيقى ، والحكايات ، والاساطير ، والامثال ، والاقوال ، والنكت ،

---

(٧) Coffin, Tristram P. (editor), Folkore in America, Anchor Books, Doubleday and Company, Inc., Garden City, New York, Anchor Books Edition, 1975, P. XIX.

والطرائف ، وكل أشكال القولى الاخرى . وهذا الادب الشعبي لم يدون منه الا النزر اليسير عبر العصور التاريخية ، وبقي شفويا في معظمه ، تداوله الناس في بيئاتهم الشعبية وما زالوا يتداولونه كذلك ، ويتوارثونه جيلا عن جيل[٨] . ولا عجب انه ظل حيا وحيويا على الرغم من تقلبات الاحوال والعصور ، ذلك لأن دورانه على الالسن والشفاه هو بمثابة دوران الدم في عروق الكائن الحي ، ولذلك فانه يرفض أن يجمد بحكم أنه يتغير ويتنوع ويتطور باستمرار ، لأنه تشكله ذاكرات وأناس في مواقف معينة ، وفقا لمواهبهم المبدعة ، وتلبية لاحتياجاتهم الفورية . وعملية التغير الشفوي هذه هي دم الحياة للفولكلور بعامة ، وللادب الشعبي بخاصة ، فاذا ما أوقفت تلك العملية بالطباعة أو بالتسجيل ، فان الفولكلور يدخل حالة تتوقف فيها حركة حياته ، ولا تنبعث فيه الحياة من جديد الا عندما يعود للدوران الشفوي[٩] .

وفي الحديث عن أدب الفصحى وتراثها بما له من خصائص ومميزات ، لا بد من الاشارة الى أنه يظل فوق مدارك عامة الشعب مما يضعف تفاعلهم معه ويضعف بالتالي تأثيره فيهم ، واسهامه في تنويرهم ، لأن التنوير لا يمكن أن يحدث دون فهم وادراك ، بخلاف ما هو الحال مع الأدب الشعبي الذي واسطته في مجتمعه هي عامية ذلك المجتمع ، فانه بحكم عفويته ، وبساطته ، ومجاراته لأحداث الساعة ، يكون له النفوذ الطبيعي على جميع طبقات شعبه[١٠] . وعلى الرغم من ذلك فان جميع فنون هذا الأدب الشعبي ولا سيما الشعر الشعبي ترتبط بتقاليد الشعر العربي الفصيح ، وأغراضه ، وأساليبه ، ومعانيه ، بل ترتبط به أكثر من ذلك في النظرة الى الحياة ، والموقف من المجتمع والناس . وهذا الارتباط بالأدب الفصيح ، أسهم في اقامة التجانس ، والتشابه ، بين جملة ما أنتج في أدبنا العربي العامي ، على اختلاف البيئات والعصور[١١] . ولذلك ، أدركت كثير من الأمم ، ما لهذا اللون الاخير من أثر في حياة الشعوب ، وفعالية في توجيهها وقيادتها ، فاعتنت به ، وأنشأت له المؤسسات . ولعل خير شاهد على فعاليته ، هو ذلك الدور الذي لعبه هذا الأدب الشعبي ، وتيارات الفولكلور الاخرى . في توجيه القوميات الاوروبية ، للسير على أفضل السبل التي أوصلتها الى النهضة ، والاستقلال ، وتجلية الهوية القومية[١٢] ، ونشير بهذا الصدد ، على سبيل المثال لا الحصر ، الى حكايات الاخوين جرم ، التي ما زالت تحمل حتى اليوم ، الحيوية والجدة اللتين كانت تتمتع بهما وقت ظهورها ، بل انها لم تزدد خلال المائة والخمسين عاما الماضية الا تأثيرا ، فما تزال فنون الشعر ، والموسيقى ، والفن التشكيلي ، تستمد منها موضوعات اثارتها[١٣] . .

(٨) حلقة العناصر المشتركة في المأثورات العربية في الوطن العربي ، القاهرة ١٣ - ٢٠ أكتوبر / تشرين الاول ١٩٧١ ، ادارة الثقافة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ص ٤٦ - ٤٩ .

(٩) Coffin, Folklore in America, P. XIV.

(١٠) خميس ، عبدالله ، الادب الشعبي في جزيرة العرب ، مطابع الرياض ، ١٣٧٨ هـ ، ص ٥ .

(١١) حلقة العناصر المشتركة في المأثورات العربية في الوطن العربي ، كلمة عبدالعزيز الاهواني ، ص ٥٠ .

(١٢) خميس ، عبدالله ، الادب الشعبي في جزيرة العرب ، ص ٥ .

(١٣) فردريش فون ديرلاين ، الحكايات الخرافية ، نشأتها ، مناهج دراستها ، قيمتها ، ترجمة د . نبيلة ابراهيم ، دار القلم ، بيروت ، ص ٢٦ .

ونعرض فيما يلي نبذة موجزة عن « ألف ليلة وليلة »[١٤] . باعتبارها نموذجا لفولكلور الشرق بعامة ، وللفولكلور العربي بخاصة ، ولما لها من مكانة على مستوى الفولكلور العالمي . ان أول من أشار الى « ألف ليلة » من الكتاب العرب . هو علي بن الحسن المسعودي ، المتوفى سنة ٣٤٦ هـ في كتابه مروج الذهب ، فقال ان قصصها ترجمت أصولها عن أصل بهلوي اسمه « الهزار فسانه » ، ومعناها « الألف خرافة » ، ولكن الناس يقولون « الف ليلة وليلة » ، وهو يحوي حكايات هندية وفارسية . وأكد ذلك من بعد المسعودي ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، فأورد تلك المعلومات في الفهرست . ولما كان « الهزار فسانة » غير موجود ، فان البحث عن أصل « الف ليلة وليلة » يزداد غموضا[١٥] . وكان أول من ترجمها بتصرف كبير الى لغة أوروبية ، هو الكاتب الفرنسي أنطوان جالان ، عن مخطوط عربي يرجع الى القرن الرابع عشر الميلادي ، الا أن الحكايات نفسها أقدم من ذلك القرن ، لأن أصلها الفارسي « الهزار فسانه » ترجم الى العربية في بغداد ربما في أيام هارون الرشيد في أواخر القرن الهجري الثاني ، أو خلال القرن الهجري الثالث ، ثم نمت هذه المجموعة من الحكايات في بغداد مرة أخرى ، متخذة من الحكايات الهندية والفارسية مادة لها ، خلال الفترة ما بين القرنين الميلاديين الثامن والحادي عشر ، عندما انتقل هذا الكتاب الى مصر باسم « ألف ليلة وليلة » . وراحت هذه المجموعة بعد ذلك تتزايد في مصر وسوريا ، وتتطور ، وتكتمل ، حتى اكتسبت خلال القرن الرابع عشر صيغة التأليف الغني بالمغزى ، كما أنها أضيفت اليها بعد ذلك نوادر أخرى ، وأساطير ومغامرات عجيبة . ولقد أسهم في تكوين « ألف ليلة وليلة » كل من الهند ، وفارس ، والعراق ، وبلاد الشام ، ومصر وبلاد الاتراك . وعلى ذلك فان هذه المجموعة تمثل أثرا فريدا للادب الشرقي ، تتحدث الهند والشرق الادنى بأسره من خلالها لمن يطالعها . وكثيرا ما أمكن تحديد أثر كل بلد في هذه المجموعة ، فان أصلها هندي الاطار ، كما ان الفن الهندي يتمثل في فنها الذي يمزج حكاية بأخرى ، ثم يمزجهما معا في حكاية ثالثة ، وكذلك في أسلوبها الذي يتوقف بالحكاية مرة ، ثم يصلها مرة أخرى ، وفي مطالع حكاياتها ، واطار حكاياتها الطويلة ، ويظهر أثر الفن الفارسي في أسماء الحكايات ، وفي تصوير عالم الأرواح ، والجان . الذين يسيطرون وحدهم على الحياة ، معتمدين في ذلك على المساومة ، وغير هذه الشخوص ، مثل الشياطين ، والسحرة ، والاشرار عباد النار ، الذين يقدمون الانسان ضحية لاله النار ، ويتضح التأثير الفارسي

---

(١٤) جاء في الموسوعة العربية الميسرة تحت مادة « الف ليلة وليلة » أنها مجموعة متنوعة من القصص الشعبي العربي بلغة بين الفصحي والعامية يتخللها شعر مصنوع أكثره مكسور ركيك في نحو ١٤٢ مقطوعة ، ونسخها المعروفة هي : كلكتا الاولى ثم بولاق الاولى ١٢٥١هـ / ١٨٣٥ م ثم كلكتا الثانية ثم برسلا ، وثم بولاق الثانية ١٢٧٩هـ / ١٩٠١ م ثم طبعة دار الهلال الخاصة المهذبة ، الصادرة في القاهرة حديثا ودون تاريخ . ونحن نقرأ في مقدمة طبعة دار الهلال ما خلاصته ان المستشرق « ملر » انبرى لبحث تاريخ ألف ليلة وليلة فكان بذلك أول من فطن الى أنه يتكون من طبقات . وأخذ المستشرق نولدكه بنظرية الطبقات وفصلها تفصيلا وضع فيه مقاييس للموازنة بين هذه الطبقات تميز كل طبقة عن الاخرى ، وقسم قصص الكتاب الى ثلاث طبقات : الاولى نواة الكتاب وتشكل القصص التي أخذت من كتاب «هزار فسانة» ، والثانية القصص التي وضعت في بغداد ، والثالثة القصص التي أضيفت الى الكتاب في مصر ، وقال ان هناك طبقة رابعة من القصص أضيفت الى الكتاب في عصور متأخرة . ومن قصص الطبقة الاولى : قصة الملك شهريار وأخيه شاه زمان ، والتاجر مع العفريت ، والصياد والجني ، والحصان المسحور ، وسيف الملوك ، وقمر الزمان ، وأردشير ، وحياة النفوس ، ومن قصص الطبقة الثانية تلك التي يرد فيها اسم هارون الرشيد ، وأبي نواس ، وأبي دلامة ، القصص التي تتناول حياة الجواري ومجالس الاندلس والطرب وحكايات الحب والغرام والقصص التي تصف الحضارة العباسية كقصة المعتضد مع أبي الحسن الخراساني وقصة السندباد البحري . ومن قصص الطبقة الثالثة حكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، ومزين بغداد ، وعلي بابا والاربعين حرامي ، وعلاء الدين ، ومعروف الاسكافي ، وأبي قير وأبي صير ، والملك الناصر ، والرجال الصعيدى وزوجته الافرنجية . (في مصر الان ـ صيف ١٩٨٥ ـ حملة يشنها المتزمتون في الدين لمنع تداول هذا الكتاب الفريد) .

(١٥) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة « ألف ليلة وليلة » .

بالذات ، في حكاية الامير أحمد والجنية ، وفي حكاية الاخت الحقود . ويرى ليتمان ، أن أثر بابل يتمثل في الشياطين التي يكون نصفها انسانا ونصفها الآخر حيوانا ، وكذلك في محاولة الحصول على ماء الحياة ، وهي فكرة تعود الى ملحمة جلجامش . أما شهرة سليمان ، وخاتمه السحري ، وبساطه الطائر ، وسيطرته على الناس ، وصنوف الحيوان ، والشياطين ، فقد أكدها العرب ، بعد أن انتقلت اليهم عن طريق أتراك وسط آسيا . ويبدأ الاثر العربي يدخل الى هذه الحكايات بعد ظهور الاسلام ، فنلاحظ فيها بعض آثار الشعراء القدامى ، الذين تغنوا بالمعارك القبلية وبالبطولات والحب ، وتنتمي الى هذا العصر ـ عصر الفرسان البدو ـ حكايات الصحراء الخرافية عن حاتم الطائي ، ولا سيما قصة الملك الذي نزل عند قبر حاتم وطلب من حاتم القرى في شيء من الاستهزاء . ولم يلبث الملك حتى أغفى هناك ، فرأى حاتما في منامه يرحب به ويذبح له الناقة ـ ناقة الملك ـ معتذرا بأنه لم يكن عنده غيرها ، وواعدا بأنه سيعوضه عنها ، ويفيق الملك فيجد ناقته توشك أن تموت ، فينحرها ، ويقري نفسه منها ، ثم يفاجأ بعد ذلك بقدوم ابن حاتم الطائي وقد أحضر معه عددا من النياق ، قدمها للملك ، وأبلغه أنه انما يفعل ذلك تنفيذا لطلب أبيه ، الذي أبلغه الحادثة في منامه ، ثم نجد أثر البلاط العباسي في بغداد ، ولا سيما ما يدور منه حول شخصية الخليفة هارون الرشيد ، ولا بد من التنويه بمدينة القاهرة ، وما تركته من أثر في مجموعة حكايات ألف ليلة وليلة ، والتي نلحظ فيها توافقا مع صور شلل الناس ، الذين كانوا ينشدون التسلية في مقاهي القاهرة وغيرها من البلاد المصرية . ولما كانت هذه الحكايات تتحدث أولا عن اللصوص ، والابطال ، ثم عن الحكام ، والامراء ، ثم عن الصناع ، والطبقة البرجوازية ، ثم عن التجار ، والعبيد ، فانها استطاعت بذلك أن تجد لها صدى لدى جميع طبقات الشعب المصري طبقة بعد أخرى .

أما لغة ألف ليلة وليلة فتميل الى النثر المسجوع ، وهي كثيرا ما تلائم بحق أناشيد الحب العاطفية ، التي كان عصر ازدهارها فيما بين القرن الثاني عشر والقرن الرابع عشر للميلاد ، وهو نفس العصر الذي ازدهر فيه التروبادور في الغرب ، وشعراء الحب والاغنيات الشعبية ، ازدهارا كبيرا . وكلما تعمق الانسان في حكايات ألف ليلة وليلة ، ازداد احساسا بأنفاس الروح العربية ، فالطبيعة العربية كلها تأسر قارىء هذه القصص حتى يستسلم لها وحدها عن رغبة وطواعية .

وتبقى بعد ذلك القيمة العربية الخالدة ، التي مكنت العرب من أن يخلقوا ، عن طريق فنهم في الرواية ، صورا جديدة كل الجدة ، سواء من خلال الحكايات التي نشأت عندهم ، أو تلك التي أخذوها من الشعوب الاخرى ، تلك الصور التي تأسر من يطالعها بروعتها النابعة من حياة البذخ الناعمة ، وبفنها المفعم بالمغزى ، وبفكاهتها المثيرة . وليس من قبيل الصدفة أن الفرنسيين أنفسهم بادروا الى ابراز هذا الفن العربي الشرقي المتمثل في حكايات ألف ليلة وليلة لغيرهم من شعوب أوروبا ، ذلك أنهم أدركوا ما في تلك الحكايات من سحر ورقة ، ودقة مشاعر ، ورهافة مغزى ، وتصاوير غريبة[١٦] .

ومنذ أن ترجم انطوان جالان « ألف ليلة وليلة » ، ذاعت في أوروبا ، وترجمت عنه مرارا الى لغات أوروبية أخرى طوال القرن الثامن عشر . وفي آخر القرن التاسع عشر ، ترجمت عن الاصل ، وما زالت الى اليوم ~~تصدر~~ لها ترجمات مصورة فاخرة ، وأهم من ترجمها بيرتون ، ولين ، وليتمان . وقد قلدت الليالي بصور كثيرة ، واستنفذت في تأليف القصص وبخاصة للاطفال ،

(١٦) فردريش فون ديرلاين ، الحكايات الخرافية ، نشأتها ، مناهج دراستها ، ص ٢١٤ ـ ٢٢٤ .

وكذلك المسرحيات الحديثة ، كما استلهمها الرسامون والموسيقيون . وقد عمل الباحثون على تقسيمها حسب الموطن ، ثم قسمت حسب الموضوعات ، كما فعل ليتمان في مقالته الواردة في آخر الموسوعة الاسلامية[١٧] . وتختلف نسخ ألف ليلة وليلة فيما ورد فيها من القصص اختلافا قليلا ويبلغ عددها في حده الاعلى مائتين وأربعا وستين حكاية ، تحكيها شهرزاد لأختها دنيازاد ، في حضرة الملك شهريار ، خلال ألف ليلة وليلة سمر[١٨] .

أما الشق الثاني من الفولكلور ، أي الشق المادي الذي يتعلق بالاشياء المحسوسة كالثياب الشعبية المطرزة ، وأدوات الموسيقى كالشبابة ، والارغول ، والربابة ، والطبلة ، والأدوات الخاصة بالعمل كأدوات الطبخ والأكل ، وقطف الثمار ، وحصد المحاصيل . . الخ فنحن نقبل في تعريفها ما أوردناه بأعلاه (المدخل)، أي أننا نعتبر شكلها وطريقة عملها وطريقة استعمالها ، والسلوك والعواطف والأفكار المرتبطة بذلك كله ، أشياء فولكلورية ، وهذا ينقلنا الى القول ان مثل هذه الاشياء التي تعلم الانسان كيف يصنعها تسمى « الثقافة المادية » . لكن الثقافة أمر عقلي منطقي مجرد ، وهي بذلك لا يمكن أن تكون مادية ، لكن المادة يمكن أن تكون « ثقافية » بمعنى أنها تتمثل فيها تلك الجوانب من التعلم الانساني التي تزود المرء بالخطط ، وبالطرق ، وبالأسباب اللازمة لانتاج أشياء يمكن أن ترى وتلمس . وفي ضوء هذا فان صنع نوع من العربات ، وتأليف نوع من القصص ، لا يستوجب أن تخترعه جماعة هو جزء من تقاليدها ، لكن العربة التي يصنعها ، والقصة التي يؤلفها شخص ليست تلك العربة ولا تلك القصة جزءا من تقاليده ، لا يمكن أن تعتبر فولكلورية[١٩] .

واذا ما التفتنا الى الموسيقى الشعبية والرقص الشعبي ، فاننا سنجد أن موسيقانا الشعبية ، ما كان منها مصاحبا لأغانينا الشعبية أو لرقصنا الشعبي ، لم تلق بعد الرعاية العلمية الواجبة في جمعها ، وتسجيلها ، وتصنيفها ، ودراستها ، على الرغم من أن أرشيفات مراكز الفنون الشعبية ، وما يشابهها من الهيئات والمؤسسات التي تهتم بالموسيقى الشعبية ، تضم الكثير من التسجيلات الصوتية لهذا التعبير الفني . ومع أن الموسيقيين المحدثين في أقطار الوطن العربي ، اهتموا باقتباس نماذج من الجمل والالحان الموسيقية الشعبية ، واستخدموها ، واستلهموها هي وبعض الآلات الموسيقية الشعبية في أعمال حديثة ، الا أن موسيقانا الشعبية هذه ، ما زالت لم توظف ، ولم تستخدم بشكل علمي كامل . وما قيل عن موسيقانا الشعبية ، ينسحب على فنون رقصنا الشعبي ، فعلى الرغم من انشاء فرق شعبية في معظم أقطار الوطن العربي ، تقوم بتقديم نماذج من الرقصات والالحان والازياء الشعبية ، الا أنه ما زالت الجهود في جمع الرقصات الشعبية العربية ، وتسجيلها ، وتحليلها ، جهودا محلية محدودة ، بالاضافة الى أنها في أحيان كثيرة ، جهود ذاتية ، لا تخضع

---

(١٧) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة « ألف ليلة وليلة » .

(١٨) معلوف ، لويس ، المنجد في اللغة ، ط ٢٢ ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٧٥ ، مادة « ألف ليلة وليلة » أنظر أيضا :

Bettelheim, Bruno: The Uses of Enchantemt —
The Meaning and Importance of Fairy Tales,
Vintage Books, A Division of Random House, New York, 1976, PP. 83-91.

(١٩) Glassie, Henry, Pattern in the Material Folk Culture of the Eastern United States, PP. 2-5.

للمنــاهــج العلميــة الخـاصــة بــدراســة الــرقص الشعبي[٢٠] . .

وبعـد أن رسمنا هـذه الصورة الموجزة للفولكلور العربي بشقيه المادي وغير المادي ، يجدر بنا أن نستكمل الصورة بعرض موجز للجهود العربية التي بذلت وتبذل في مجال العناية بالفولكلور . ان الادباء والفولكلوريين العـرب لاحظوا أن الفـولكلوريين الغـربيين ولا سيـما الاوروبيـين منهم ، لم يقصروا جهـودهم عـلى دراسـة فولكلور أممهم ، بل تعدوها الى دراسة فولكلور الشعوب الاخرى ، واختصوا الـوطن العربي بنصيب وافـر من جهـودهم ، وقـد سبقت الاشـارة الى مـدى عنـايتهم بقصص « ألف ليلة وليلة » وتـرجمتها ، ومنـاقشتهـا ، وتحليلها ، وسرت عدوى هذا الاهتمام بالفولكلور الى الادبـاء والفولكلوريـين العرب ، فبـدءوا يقبلون على دراسـة فولكلور أقـاليمهم ، فألف اليـاس بقطر مثـلا « معجم العامية في مصر والشام والمغرب » ، وهو معجم طبع في باريس عام ١٨٦٤ ، وفي القاهرة عام ١٨٧٢ ، كـما ألف خليل اليـازجي كتابـه « مميزات لغـة العرب وتخريج اللغات العامية عليها » ، وقد طبع في القاهرة سنة ١٨٨٦ . ولكن اقبال العلماء والادباء العرب على دراسة فولكلور شعوبهم وآدابها الشعبية ، ظل محـدودا من حيث الحجم ، وبطيئا من حيث سرعة التقدم ، مما حمل الدكتور طه حسـين على القـول في كتابـه « الحياة الادبية في جزيرة العرب » :

« لسـوء الحظ لا يعنى العلماء في الشـرق العربي بهذا الادب الشعبي عناية ما ، لأن لغته بعيدة عن القرآن ، وأدباء المسلمين لم يستطيعوا ـ بعد ـ أن ينظروا الى الادب على أنـه غايـة تطلب لنفسهـا ، وانمـا الادب عنـدهم وسيلة الى الـدين . . . وهـذا الأدب الشعبي ـ وان فسدت لغته ـ حي قوي له قيمته الممتازة ، من حيث أنه مرآة صافية لحياة منتجيه »[٢١] .

والحق أن المثقفـين العرب ، كـما يقـول الـدكتـور عبدالعزيز الاهواني ، كانوا الى وقت قريب يعرضون عن دراسة الاداب العامية في الوطن العربي ، ولا يشجعون على جمع هذا التراث الشعبي والعناية بـه ، بل لعلهم كانوا أقرب الى أن يسيؤوا الظن بأية جهود تبذل في هذا السبيـل . وكان مصـدر إعـراضهم أنهم يخشـون من مداهمة هذه العاميات للغة العربية الفصحى ، مداهمة ربما تنتهي ـ في تصورهم ـ الى أن تصبح هذه العاميات بتطاول الزمن لغات ثقافية ، إذا عني بها البـاحثون ، واهتموا بأمرها ، فتحل محل العربية الفصحى ، فتضيع الفصحى ، والقرآن ، والدين ، وتراث الأمة ، وتفقد الأمة العربية أهم عنصر بين مقومـات وحدتهـا ، وهو عنصر اللغة . ولعل مصير اللاتينية كان يلوح بين حين وآخر ، في أذهان المثقفين العرب ، ويحمل ما يحمل من انذار بالخطر[٢٢] .

ان ذلك التخوف على اللغة الفصحى ، وبالتالي على القرآن الكريم ، وعلى تراث اللغـة العربيـة الفصحى بأسره ، أمر عفا عليه الدهـر ، ولم يعد ذا بـال ، لأن القرآن ولغة القرآن ، أقوى وأرسخ من أن يزعزعها ، أو يهدمها ، أي اهتمام بلهجة عربية عامية ، هما في واقع الحال المعين الذي تستمد منه حياتها . والذي يجب أن

(٢٠) كمال ، صفوت ، مناهج بحث الفولكلور العربي بين الاصالة والمعاصرة ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد السادس ، العدد الرابع ، يناير ـ فبراير ـ مارس ١٩٧٦ ، ص ١١٠٥ ـ ١١٤٢ .

(٢١) خميس ، عبدالله ، الادب الشعبي في جزيرة العرب ، ص ٦ ـ ٨ .

(٢٢) حلقة العناصر المشتركة في المأثورات الشعبية في الوطن العربي ، ص ٤٥ .

يخشى عليه من التغير ، والانتقاض ، والاندثار ، والزوال ، في ظل الظروف الراهنة المعادية ، هو ليس القرآن ، ولا لغة القرآن ، وانما هي اللهجة العربية الفلسطينية الدارجة ، التي لا وطن لها ، ولا سند ، سوى من يحملونها من أبنائها ، وهم قوم تكالبت عليهم الايام ، فجعلتهم عرضة للضياع والهلاك ، وذلك بدوره يجعل لهجتهم عرضة لأن تضيع بضياعهم ، وتهلك بهلاكهم ، اذا لم نسارع الى رصدها ، ودرسها ، وتدوينها ، قبل أن تفوت الفرصة السانحة ، وتضيع الغاية المرموقة[٢٣] . وبالاضافة الى ذلك ، فان المراجعة الدقيقة لمشكلة الواقع اللغوي في الوطن العربي ، وللتطور الحضاري في عصرنا الحديث ، ولدور اللغة الثقافية في عالم اليوم ـ كل ذلك يثبت أن المشكلة في جوهرها ، ليست مشكلة صراع بين فصحى وعامية تقضي احداهما على الاخرى كما كان يحدث قديما ، وانما هي مشكلة الامية لا العامية[٢٤] .

وغني عن البيان ان الحضارة العلمية في عصرنا الحاضر ، وما تميزت به من تقدم علمي ، وتطورات تكنولوجية معقدة ، لم يقتصر تأثيرها على مس الحياة الانسانية اليومية مسا مباشرا ، وانما حملت الانسان الى آفاق الفضاء الخارجي ، مبشرة بقرب بداية عصر جديد للسفر بين عوالم النجوم والسيارات ، وفي ذلك كله ما فيه من مؤشرات خطيرة ، تنذر بتغيرات جذرية في حياة الناس قد تتهدد انسانيتهم ، وثقافتهم ، وتنقلهم ، الى مرحلة يصبح فيها الانسان أقرب الى الانسان الآلي منه الى الانسان الانسان . وتحت تأثير مثل هذا الاعتبار ، ظهر اهتمام كبير بدراسة مأثورات الشعوب ، والحفاظ على الخصائص المميزة لثقافات الشعوب ، بهدف المحافظة على مقوماتها الفنية والفكرية ، وابراز قدراتها الانسانية ، حتى لا تطغى « الصنعة » على « الابداع » ، وحتى لا تختفي ملكات الانسان الخلاقة خلف الكم الكبير من الانتاج الآلي . ولما كانت أشكال التعبير الفني في كل مجتمع ، هي التي توضح معالم الثقافة الشعبية ، كان لا بد من توجيه العناية الجادة لعلم الفولكلور ، لأن هذه الاشكال الابداعية ، وما تنطوي عليه من تعبيرات فنية تلقائية ، هي في صلب موضوعات هذا العلم[٢٥] .

ومن ذلك المنطلق ذاته ، قامت منظمة اليونسكو في أواخر عام ١٩٥١ ، بدعوة جماعة من العلماء ، والخبراء ، للبحث في واقع ثقافات مختلف الأمم ، وفي العلاقات القائمة بينها آنذاك ، وأصدر أولئك الخبراء في نهاية مؤتمرهم بيانا جاء فيه :

« المدنيات العريقة تأثرت تأثرا عميقا بالتكنولوجيا والحروب والتبدلات السياسية ، فعادات ومعتقدات الشعوب التي كانت تعيش كأسلافها تتغير الآن تغيرا سريعا تحت تأثير ما يقع في ظروف الحياة المادية من تعديلات وتغيرات نتيجة للتأثيرات القادمة اليها من خارج حدودها .... وكلما اقتبست تلك الشعوب مناهج جديدة في ميادين الزراعة والصحة والطب ، وكلما امتدت التربية الاساسية فشملت شعوبا جديدة ، وكلما ملكت هذه الشعوب آلات وأساليب تقنية صناعية حديثة ، زادت حاجتها الى أن تختار بين أمرين لا ثالث لهما : فاما أن

---

(٢٣) البرغوثي ، عبداللطيف ، ديوان العتابا الفلسطينية ، مركز الابحاث ، جامعة بيرزيت ، تحت الطبع .
(٢٤) حلقة العناصر المشتركة في المأثورات الشعبية في الوطن العربي ، ص ٤٥ .
(٢٥) كلمة المحرر ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد السادس ، العدد الرابع ، ص ٩٣٥ .

تناضل لتحافظ على قيمها التقليدية أو تخضع وتقبل القيم الاجنبية الغربية عنها »[٢٦] .

في ضوء كل هذه المؤثرات ، وكثمرة لكل الجهود المنوه عنها على المستويين العالمي والعربي ، تزايد وعي شعوب العالم الثالث بعامة ، والعالم العربي بخاصة ، بأهمية الاعتناء بالفولكلور ، وبوجوب الاقبال على دراسته مما شجع الادباء والفولكلوريين العرب ، على التخلي عن خوفهم ، وعن تحفظهم ، تجاه هذا الحقل ، وعلى البدء بجمع مواده وتصنيفها ودراستها . وصارت هذه الحركة تتوسع تدريجيا فيما بين الحربين العالميتين ، ولكنه كان توسعا بطيئا يتسم بطابع الجهد الفردي أكثر منه بطابع الجهد المؤسسي المنتظم . أما منذ منتصف القرن الحالي فقد حدثت نقلة جادة في مجال الاقبال على دراسة علم الفولكلور وتدريسه وعقد الندوات ، والمؤتمرات ، واقامة المهرجانات الخاصة به على مستوى الوطن العربي بحيث أصبحنا نجد هذا العلم ، يدرس في عدد من الجامعات العربية ، وفي مقدمتها جامعة القاهرة ، وأصبحنا نجد مراكز الفولكلور المتخصصة ، تنشأ في العواصم العربية الواحد تلو الآخر ، كما أننا صرنا نجد المجلات المتخصصة في هذا العلم تصدر في أكثر من بلد عربي ، كمجلة التراث الشعبي العراقية ، ومجلة « التراث والمجتمع » الفلسطينية ، بالاضافة الى الدراسات الكثيرة التي تصدر في الدوريات والمجلات العربية المختلفة ، وتلك التي تصدر كمؤلفات قائمة بذاتها ، وتلك التي تترجم عن اللغات الاجنبية ، والبرامج التي تسمع في الاذاعات أو تسمع وتشاهد بفضل أجهزة التلفزيون ، وفي مقدمة تلك البرامج ما يشاهد على الشاشات الصغيرة في بلدان الخليج من فنون الشعر الشعبي ، التي تقدمها مجالس الشعراء الشعبيين المختلفة . ان هذا جميعه يمثل خطوة محمودة في مسيرة أمتنا وشعوبنا العربية نحو النهوض بالفولكلور العربي ، وهي خطوة تشير الى وعي أمتنا بمخاطر العصر الحالي الذي نعيشه ، وباحتمالات المستقبل القريب ، وبما يستدعيه ذلك كله من عمل واع دؤوب لا بد من القيام به في هذا المجال ، وهذه قضية عبر عنها الدكتور عبدالحميد يونس تعبيرا واضحا بقوله : « ان مواجهة العصر الحديث تقتضينا أن نعتصم بتراثنا ، ولذلك كان من الضروري أن نصحح هذا التراث وأن نضيف اليه التراث الشعبي »[٢٧] . وانسجاما مع هذا التوجه سوف تعرض هذه الورقة في فقرتها الخامسة موضوعا فولكلوريا محددا هو جانب الادب الشعبي من الفولكلور العربي الفلسطيني .

ثالثا ـ الاثر الاخلاقي والجمالي للغناء والموسيقى في المجتمعات العربية :

لقد أولع العرب بلغتهم منذ أن بلغت مرحلة النضج في تطورها ، وأصبحت لغة أدبية نظمت بها القصائد والمعلقات ، ودبجت بها الامثال والخطب ، خلال القرنين اللذين سبقا ظهور الاسلام ، وهما القرنان اللذان نعرفهما باسم العصر الجاهلي الذي نشأ فيه فن « الحداء » للقوافل ، وفن العزف على الآلات الموسيقية والايقاعية البسيطة ، لمرافقة الغناء بالقصائد العربية وما يصاحبها من رقص تؤديه الجواري على أنغام تلك الاغاني والحانها ، كما نعرفه من أخبار امرىء القيس بن حجر الكندي في رحلات شبابه ، متنقلا بين الينابيع والواحات في شبه الجزيرة العربية خلال النصف الأول من القرن السادس الميلادي ، وكما نلحظه بعد ذلك في

(٢٦) صالح ، رشدي ، الفولكلور والتنمية ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد السادس ، العدد الرابع ، ص٩٤٣ ـ ٩٤٤ .
(٢٧) حلقة العناصر المشتركة في المأثورات الشعبية في الوطن العربي ، ص١٧ .

أخبار الغساسنة المتأخرين كالذي نقله حسان بن ثابت ، شاعر الرسول فيما بعد ، في وصف مجلس من مجالس جبلة بن الايهم . يقول حسان :

لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمسا يغنين غناء أهل الحيرة . . وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان اذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود الهندي ان كان شاتيا ، وان كان صائفا بطِّن بالثلج وأتي هو وأصحابه بأكسية صيفية ، وفي الشتاء بالفراء الفنك . ولا والله ما جلست معه يوما قط الا خلع علي ثيابه التي عليه في ذلك اليوم(٢٨) .

ولا مجال في هذه الورقة للحديث عن هذا الموضوع في العصور الاسلامية ، سوى محاولة تقديم نبذة موجزة للغاية ، نرمي من ورائها الى رسم خط دقيق يربط بين ماضينا وحاضرنا فيما يختص بهذا الموضوع . وتحقيقا لهذه الغاية ، نكتفي بالاشارة الى النهضة الغنائية الموسيقية في الحجاز في العصر الأموي ، وما تلقته من رعاية وتشجيع من قبل الأمويين ، وما وازاها وزامنها من غناء في البلاط الاموي بدمشق ، وفي بيوت الامراء والاثرياء في مختلف المدن العربية ، وحتى في منزل عالم ورع من علماء المسلمين هو ابن عم الرسول (ص) ، عبدالله بن عباس . أما بالنسبة للعصر العباسي ، فتكفي الاشارة الى كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، والى مدرسة ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق في بغداد ، وهي المدرسة التي تخرج فيها فنانون مثل زرياب الذي أضاف وترا خامسا للعود ، والى الفارابي صاحب كتاب الموسيقى الكبير ومخترع القانون .

والحق ان المسلمين تركوا في فن العصور الوسطى ارثا هائلا ، مثل الذي تركه لنا العالم القديم ، وكان ارثهم ذاك فنا صادقا جاء مرآة ناصعة عن حضارتهم ، وتعبيرا رائعا عن روح العرب وروح الشعوب غير العربية التي اعتنقت الاسلام في معظم رقعة العالم القديم من الهند وحدود الصين في الشرق حتى اسبانيا وجنوب فرنسا في الغرب . ولم يكتف المسلمون ، عربا وغير عرب ، بوضع الالحان ودراستها ، بل تعدوا ذلك فأخذوا آلات موسيقية عديدة عن الفرس والهنود واليونان وغيرهم وحسنوها وطوروها واخترعوا جديدا عليها(٢٨) .

وكذلك أسهم فلاسفة المسلمين كالكندي والفارابي وابن سينا وصفي الدين عبدالمؤمن ، صاحب كتاب الادوار ، فوضعوا فكرهم وفلسفتهم في خدمة الموسيقى والفن . وأقبلوا على دراسة كتب أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان في الموسيقى ، وأضافوا اليها شروحا جديدة ، حتى ظهر عندهم علم الموسيقى ، وصار ينسب الى المسلمين بحق أنهم هم الذين اخترعوا النوتة الموسيقية أو السلم الموسيقي وأن تلك النوتات (Do. Re, Mi, Fa, Sol, La, Si أخذت عن الأحرف العربية : (دال ، راء ، ميم ، فاء ، صاد ، لام ، سين)(٢٩) ، أخذها الموسيقي الايطالي جيد فون أرينزو عام ١٠٢٦ م عن نشيد يوحنا وعن الأحرف العربية المذكورة التي وجدت مع غيرها في مقطوعات من الموسيقى اللاتينية التي ترجع الى القرن الحادي عشر الميلادي(٣٠) . وكان لهذا الدور الذي قام به الفلاسفة ،

(٢٨) ضيف ، شوقي ، تاريخ الادب العربي ـ العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط ٥ ، ص٤٣ .

(٢٩) ماجد ، عبد المنعم ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطي ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧٢ ، الصفحات : ٢٥٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ أنظر أيضا :

هونكه ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية في أوروبا ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ط ٧ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٤٩٤ .

بوصفهم علماء موسيقى ، أثر كبير في تشجيع الموسيقيين على البحث عن أغاني الشعوب القديمة كالفرس والهنود واليونان ودراستها وتحليلها للافادة منها ، ومن الدراسات التي تجري عليها لترسيخ الغناء العربي والموسيقى العربية على أسس علمية مدروسة .

ولقد بقي ما كتبه ابن سينا والفارابي مرجعا للموسيقيين حتى القرن السابع عشر ، ومنهما تعلم موسيقيو الغرب العلاقة بين النغمة (٥ : ٤) وهي مسافة الثالثة الكبيرة ، و(٦ : ٥) للثالثة الصغيرة ، وتطوروا من ذلك الى النغمة الهرمونية التي تأنس لها الاذان . كما ان الكونت هرمانوس كنتراكوس اهتم بمؤلفات الكندي الموسيقية ، ونقل عنه كتابة النوتة الموسيقية . وبقي العرب أوفياء لموسيقاهم ، وكان حبهم لموسيقى الغناء أكبر من حبهم للموسيقى الآلية ، وبرغم هذا فان أوروبا مدينة لهم بالكثير من الالات الموسيقية التي وردت اليها محكمة الصنع عبر اسبانيا ، حاملة معها أسماءها العربية[٣١] مثل القانون والطبل والنقارة والقيثارة والرباب والعود . ليس ذلك فحسب بل ان الغناء العربي ، والموسيقى العربية ، كان لهما اثرهما الواضح في الغناء العالمي والموسيقى العالمية وهو اثر نلمسه في غناء وموسيقى شعوب اسبانيا ، والمكسيك ، وامريكا الجنوبية ، وحتى شعوب افريقيا وآسيا[٣٢]. والالحان العربية غنية ممتعة ، شأنها في ذلك شأن كل فنون الزينة العربية في البناء وفي غيره . وكان الطابع المميز للموسيقى العربية هو الايقاع المنتظم ، بعكس موسيقى اغاني الرومان والاغريق ، وبعكس موسيقى الكنائس المتتابعة في اوائل العصور الوسطى ، فالايقاع شرقي اصيل ، وهو الذي ادى الى تنظيم حقول النغم . وكان الفيلسوف العربي الكندي هو اول من وصف ذلك في منتصف القرن التاسع الميلادي[٣٣].

رابعا ـ المقامات المشرقية والموشحات والازجال الاندلسية وأثرها على التروبادور الاوروبيين :

أ ـ المقامات :

ان الأنواع الأدبية تتطور من عصر الى عصر ، وقد يتولد بعضها من بعض ، فيظهر نوع أدبي جديد لا سابقة له في الظاهر ، لكن التعمق في دراسته يكشف انه قد نشأ عن نوع آخر مغاير له ، كما في نشأة الاقصوصة عن المثل ، وكما نشأت المقامات في العصر العباسي ، على رأي د. شوقي ضيف عن فن الارجوزة ، وما ابتغى به أصحابه في العصر الاموي عند رؤبة بن الحجاج ونظرائه ، من تعليم الناشئة والموالي ، ألفاظ اللغة العربية الغريبة ، وتراكيبها العويصة ، فاقتران هذه الغاية التعليمية بالارجوزة ، يلفت النظر الى نفس الغاية في المقامة عند بديع الزمان والحريري ، والى ما بين هذين النوعين من صلات وروابط[٣٤].

والمقامات ضرب جديد من الكتابة تحددت معالمه على يد بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨ ـ ٣٩٨هـ) ، وهذه المقامات هي عبارة عن قصص قصيرة تتميز بالحركة التمثيلية ، وتدور فيها المحاورة بين شخصيتين هما عيسى بن هشام وأبو الفتح الاسكندري . وتصور لنا المقامات أبا الفتح الاسكندري كواحد من الادباء السيارين السائلين ، يطوف من مكان الى مكان ، يستجدي الناس بفصاحته وبيانه ، ويتقابل دائما مع

(٣١) هونكه شمس العرب تسطع على الغرب ، ص٤٩٢ ـ ٤٩٤ .
(٣٢) ماجد ، عبدالمنعم ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، ص ٢٧٤ .
(٣٣) هونكه ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ص٤٩١ .
(٣٤) أغاني (ساسي) ١٦/ ١٤ عن : شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط٥ ، ص ٤٣ .

راوية له هـو عيسى بن هشام ، الـذي يروي للنـاس أخباره[٣٥] .

وفي أخبار بديع الزمان الهمذاني ، أنه كان يختم مقامه أي مجلسه في نيسابور بقصة من هذه القصص ، ولعله من أجل ذلك اختار لها اسم المقامات ، ومع أنه ذكر أنه صنع اربعمائة من تلك المقامات ، الا إنه لم يصلنا منها غير نيف وخمسين تـدور جميعها حـول أعمال التسـول والكدية* وإن كانت تتفق مع أحاديث أبي بكر محمد بن الحسين ابن دريد المتوفي سنة ٣٢١هـ في ان غايتها تعليم النـاشئة . والمقـامات بمجمـوعها تصـور حياة الادبـاء السيارين ، الذين كانوا يسمون باسم الساسانيين نسبة الى ساسان ، وهو شخص فارسي قديم يقال ان أبـاه حرمه من الملك ، فهام على وجهه محترفا للكدية . ومن يطالع اليتيمة للثعالبي ، يجد طائفة الساسـانيين هـذه تحتل حيزا في الحياة الأدبية في القرن الهجري الرابع ، كما انها تشبه تمام الشبه طائفة « الأدباتية » التي اشتهرت في مصر في القرن الماضي ، وتذكر المرء بصورة أو بأخرى بحياة المغنين التروبادور في أوروبـا حوالي تلك الفتـرة ذاتها[٣٦] .

وكان الجاحظ قد عرض في كتابه « البخـلاء » لهذه الـطائفة وحيلهـا ، في التكسب بـالادب ، والشعـر ، والفصـاحة ، والبـلاغـة ، كـما أن البيهقي (القـرن الهجـري الرابـع) تحدث عنهـا في كتـابـه « المحـاسن والمساوىء » . وقد اشتهر من شعراء هذه الطائفة في أيام بديع الزمان الهمذاني ، الاحنف العكبري ، وأبو دلف الخـزرجي . ويقول الثعـالبي في اليتيمـة عن الاحنف انـه : « شـاعـر المكـدين وظـريفهم ، ومليـح الجملة والتفصيل منهم » ثم يروي له قصيدة دالية طويلة عرض الشاعر فيها لحرفة الكدية عرضا واسعا . أمـا عن أبي دلف فـان الثعالبي يقـول : « هذا شـاعـر كثير الملح والطرف ، مشحوذ المدية في الكدية ، خنق التسعين في الاطـراب والاغتراب ، وركـوب الاسفـار والصعـاب وضـرب المحـراب بـالجـراب ، في خـدمـة العلوم والاداب . . . وكـان ينتاب حضـرة الصاحب ويكـثر المقام عنده . ولما أتحفه بقصيدته التي عارض بها دالية الاحنف العكبري في المناكاة ، وذكر المكدين ، والتنبيه على فنون حرفهم ، وأنواع رسومهم . . . اهتز ونشط لها ، وتبجح بها ، وتحفظها كلها وأجـزل صلته عليهـا» . وهي قصيدة طويلة رواها الثعالبي ، وفيها ذكر ابو دلف الالفاظ الاصطلاحية لاهل الكدية ، وما كانوا يتخذونه في منـاكاتهم ، أي كـلامهم الذي يتكـدون بـه ، من مصطلحات خاصة ، كما ذكر حيلهم وتفننهم في هـذه الحيل على صور شتى ، تعرض البديع في مقاماته للكثير منهـا ، ولا سيـما في المقـامـة التي سمـاهـا « المقـامـة الساسانية » نسبة الى هذه الطائفة ، ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ، ان البديع نفسه كان راوية لابي دلف ، ولـذلك فـلا غرابـة ان يكون قـد تأثـر بـه الى درجـة كبيرة[٣٧] .

والبـديع يسـوق مقامـاته في شكـل قصص دراميـة صغيرة ، يمكن اعتبارها مجتمعة قصة واحدة طويلة تعبر عن أطـوار مستقلة من حيـاة بـطلهـا أبي الفتـح الاسكندري ، أو عن حوادث مستقلة من أيامه . وقد صاغ البديع تلك القصص في أسلوب قصصي يشيع فيه الحـوار ، وحرص أن يجمـع في كل مقـامة طـائفة من

(٣٥) ضيف ، شوقي ، العصر الجاهلي ، ص١٣ .

* الكُدية جمعها كُدًى : الاستعطاء وحرفة السائل المُلِحّ .

(٣٦) ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف بمصر ، ط ٥ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣٧) المرجع السابق ، ص٢٤٨ .

الأساليب البلاغية المصنعة ، التي تعتمد على السجع والمحسنات البديعية الأخرى ، وانه ليسرف في تجميل كل مقامة بأوسع طائفة ممكنة من الزخرف ، والزينة ، والتنميق ، الى حد يصرفه عن الموضوع الى الأسلوب ، الذي يمضي في تجميله وترصيعه متفنناً في ذلك الى حد كان يروع معاصريه . وقد قال ابن الطقطقي في كتابه « الفخري في الآداب السلطانية » : « إن المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء ، والوقوف على مذاهب النظم والنثر » . ومن يتابع البديع في مقاماته ، يحس بحق أنه الفها لغرض التمرين على الكتابة والانشاء ، فانه يعني دائماً بالوصف ، ولا يصف شيئاً الا راكم فيه العبارات « ورصها رصاً » ، ليختار منها الكاتب ما يريد . وكان في الوقت ذاته ينظر لكل عبارة كأنها جوهرة ، يريد أن يضعها في عقد المقامة ، حتى تتلألأ بقوة أوسع من قوة جاراتها ، وما يزال يحتال على هذه الجواهر يضمها بعضها الى بعض ، حتى ينال استحسان سامعيه في نيسابور ، موطن الخوارزمي ، وموطن فصاحته ، وما اشتهر به من بلاغة ، وكان البديع يريد أن يصرف تلاميذ الخوارزمي عنه ، بما يروعهم به من هذه الأساليب المصنعة التي تتراكم في مقاماته تراكماً . والى جانب العناية باللفظ الغريب ، نجد البديع يعني بكثرة تضمين الشعر ، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، وحشد الأمثال ، وتعقيد الجناس الذي كان أداته في تصنيع مقاماته ، التي بالغ في تصنيعها الى حد أن الواحدة منها صارت تشبه واجهة أحد المساجد المزخرفة لعهده ، لكثرة ما شغل فيها بالتنميق والتصنيع والترصيع(٣٨) .

ومنذ تطوير بديع الزمان المجالس والأمالي الى مقامة قصصية ، أخذ هذا اللون يقلد : قلده ابن شُهَيْد في الأندلس في « التوابع والزوابع » حيث تقوم المجالس على مساجلة بينه وبين شياطين الشعراء القدامى . وبعد ذلك بثماني سنوات ، ألف أبو العلاء المعري (١٠٥٧م) رسالة الغفران ، التي ساجل فيها الشعراء أنفسهم في الجنة بجرأة قوية ، وفكر منطلق . ومما أسهم في اذاعة مقامات البديع ، جهد الحريري (١١٢٢م) في إحياء فن المقامة ، بما ألفه هو أيضاً من مقامات تجلى فيها ذكاؤه ، وعلمه باللغة ، وملكته الشعرية ، وموهبته في اتقان السجع(٣٩) .

ب ـ الموشحات والأزجال :

على الرغم من أن الأندلس ظل تابعاً للمشرق العربي في مجال الشعر العربي ، إلا أنه مع ذلك استطاع أن يحدث شيئاً جديداً في الشعر ، يتجاوب الى حد كبير مع البيئة الأندلسية ، وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم ، وهو هذه الموشحات والأزجال ، التي أحدثت موجة واسعة من الغناء والموسيقى ، وقد نشأت تلك الموجة مع زرياب وغيره من مغني المشرق ومغنياته ، من أمثال فضل ، وعلم ، وقمر ، وغيرهن ، فشاع الغناء ، وشاعت الموسيقى ، وكثر المغنون والمغنيات ، وظهرت الجوقات المختلفة ، واتصل ذلك بالشعب وبأعياده ، بل يظهر أنه اتصل بحياته دائماً في عيد وغير عيد . وتحت تأثير هذه الموجة العنيفة من الغناء ، والموسيقى ، والجوقات ، وبتأثيرات مختلفة من البيئة المحلية ، ازدهرت الموشحات ، وكان المطور لها مُقَدَّم بن مُعافَى القَبْريّ* ، من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

(٣٩) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة الادب العربي .

* هو في ترجمة تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان : المُقَدَّم بن مُعافَى القَبْرِيّ ، ويعلق المعربان في هامش ص ٣١١ بقولهما : « وترد خطأ في كثير من المصادر الحديثة « ابن معافر » وهو تصحيف . أما عند ابن خلدون في المقدمة ص ١١٣٨ فهو مقدم بن معافر القبريري ، وهو في الموسوعة العربية الميسرة (مادة موشح) مقدم بن معافر الفريري ، ونحن نرجح رواية ابن خلدون .

الأموي (٨٨٨ - ٩١٢) ، وأخذه عنه أبو عبد الله احمد ابن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، لكن لم يظهر لهما فيه مع المتأخرين ذكر ، بل كسدت موشحاتهما ، فكان أول من برع في هذا المجال بعدهما ، عَبَّادة القزاز ، شاعر المعتصم بن صُمادح صاحب المَرِيَّة(٤٠) .

وتختلف الآراء حول الأصل الذي نشأت عنه الموشحات ، فابن خلدون يرى أن الموشح كان اختراعاً أندلسياً ، فهو يقول :

« أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذيب مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً ، يكثرون منها ، ومن أعاريضها المختلفة . ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات . . . وتجاروا في ذلك الى الغاية ، واستطرفه الناس جملة ، الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله ، وقرب طريقه . وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مُقَدَّم بن معافِر القَبْريرىّ »(٤١) .

أما الدكتور شوقي ضيف فيرى أن الموشحات الأندلسية ما هي الا تطوير لأصول سبقتها في المشرق العربي ، وهو يقول :

« ذكر ابن بسام ، أن الموشحات القديمة ، كان أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، وأنهم كانوا يبنونها على مركز من اللفظ العامي والعجمي . ولعل في هذا ما يشير صراحة ، الى أن الموشحات فنٌ أندلسي محلي ، وأن كنا لا نؤمن بأنها نشأت من المزاوجة بين الشعر العربي وضروب من الأغاني الشعبية الأندلسية ، كما يذهب الى ذلك بعض الباحثين من المستشرقين ، انما نؤمن بأنها تطور ، تمَّ هنالك ، للمسمطات ، والمخمسات ، التي عرفت منذ العصر العباسي الأول »(٤٢) .

والموسوعة العربية الميسرة تأخذ برأي ابن خلدون ، فتذكر أن التوشيح في الموسيقى ، ظهر أول ما ظهر في الأندلس ، وأن الذي اخترعه هو مُقدّم بن مُعَافِر الفريري سنة ٩١٢ - ٩١٣م(٤٣) . ونقرأ فيها في موقع آخر أن بالامكان القول إن العنصر العربي والعنصر الأسباني اللذين عاشا طويلاً يجهل كل منهما الآخر ، قد امتزجا أخيراً فأوجدوا الفرصة لأدب عربي جديد كل الجدة ، ويتجلى ذلك في شعرهم الجديد « الموشحات » . ولكن الموشح في القرن التاسع الميلادي ، هو الشكل الأندلسي الأول في الشعر ، وكان أول أمره مقطوعات منوعة القافية ، وينتهي بخارجة ، في لغة رومانسية ، تمثل ازدواج اللغة في الشعر العربي لأول مرة ، كما تمثل ازدواج الذوقين الفنيين العربي والأسباني . وظل الموشح عربياً فصيحاً ، لكن تنوعت فيه القافية ، وزيدت الخارجة . وعلى الرغم من ذيوع الموشحات وانتشارها ، واستساغة بعض نقاد المشرق لها ، فقد ظلت نوعاً ثانوياً في الأدب العربي ، بالمقارنة مع بقية الأنواع الأدبية العربية الأخرى ، لكن أهمية هذه الموشحات تزداد لدى المستشرقين اليوم ، بسبب علاقة

(٤٠) ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف بمصر ، ط ٧ ، ص ٤٥١ .
(٤١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٣٧ - ١١٣٨ .
(٤٢) ابن بسام ، الذخيرة ٢/٢ ، عن شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٤٥٢ .
(٤٣) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة موشح .

الشعر الشعبي الأسباني بأوليات الشعر الأوروبي عند الشعراء الجوالين « التروبادور »[٤٤] .

ويرى عدد من المستشرقين ، أن فن الموشحات نشأ في الأندلس ، على أيدي جيل من الشعراء المولدين فيها ، ممن امتزج الدم العربي والأسباني في عروقهم ، وانصهرت الثقافتان العربية والأسبانية في حياتهم ، وأنه عن هؤلاء انتقل هذا الفن الى أوروبا . وبهذا المعنى نقرأ في بروكلمان ، أن نفوذ المولدين الأندلسيين الجدد ، ذوي الأصل الأسباني ، كان عظيماً ، الى درجة ساعدتهم على أن يكون لهم تأثيرهم في حقل الأدب أيضاً ، ففي بلاط الأمير عبد الله بن محمد الأموي (٨٨٨ - ٩١٢) اجترأ الشاعر الأعمى المُقدَّم بن معافَى القَبري ، على تحطيم وحدة الشكل الرتيبة ، التي تمتاز بها القصيدة ، وتجزئتها الى أسماط متعددات . والحق أنه اصطنع في ذلك اللغة العامية تتخللها العناصر الأسبانية ، ومن هنا نستطيع أن نفترض أنه قلد أسلوب الشعر الأسباني من حيث تعدد الأسماط والأجزاء ، أيضاً . ونجح هذا التجديد الشعبي نجاحاً عظيماً ، حتى لقد فرغ لممارسته نفر من جلة العلماء من مثل ابن عبد ربه . . . ومن مثل الرمادي[٤٥] .

ونقرأ كذلك في كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » أنه عن طريق المغنين الدائمي الترحال ، والسبايا من نساء الأندلس ، بدأت النظريات العربية الاسبانية تظهر في الموسيقى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كما ورث الغرب عن العرب زخرفة الألحان[٤٦] .

وتصف لنا الموسوعة العربية الميسرة نظام الموشحات على النحو التالي :

ينقسم الموشح الى :

١ - المطلع ويسمى المذهب والغصن ويضم بيتاً أو اثنين .

٢ - الدور أو السِّمط .

٣ - القفلة أو القفل ويماثل قوافي المطلع ، وتتنوع قوافي بقية الأقسام وعدد أبياتها .

والدور قد يكون من شطرين على هيئة بيت من الشعر ، وقد يكون أربعة أشطر أو خمسة أو أكثر ، وأقصى أدوار الموشح سبعة ، وقد يزاد عليها دور يسمونه دور المديح . فالدور الأول هو مذهب اللحن ، والثاني قد يكون على نظم وقافية الدور الأول فيسمى « سلسلة » ، وقد يختم اللحن مما يلي السلسلة بدور من جنس المذهب يسمى « القفلة » . وتسميته بالموشح ترجع الى أن صياغته اللحنية في أدواره ، متصلة النغم والايقاع في أدوار عظمى ، فيتصل لحن الخاتمة بلحن المذهب في دور واحد ، أو يتصل لحن السلسلة بالمذهب ثم يختم بالقفلة في دور أعظم ، فهو بذلك شبيه بالوشاح الذي يتوشح به فيتصل طرفاه أحدهما بالآخر في دائرة واحدة[٤٧] . ويرى ابن خلدون أنه لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه ، وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً . واستحدثوا فناً سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم فجاؤوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة . وأول من ابدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قُزمان ، وان كانت قيلت قبلَهُ بالأندلس ، لكن لم يظهر حَلاها ، ولا انسكبت

---

(٤٤) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة الادب العربي .

(٤٥) بروكلمان ، كارل ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٤٦) هونكه ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٤٩٢ .

(٤٧) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة موشح .

معانيها ، واشتهرت رشاقتها ، الا في زمانه ، وكان لعهد الملثمين ، وهو أمام الزجالين على الاطلاق . قال ابن سعيد : ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب . قال : وسمعت أبا الحسن بن جُحْدُر الأشبيلي ، أمام الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قُزمان شيخ الصناعة[٤٨] .

وينقل لنا الدكتور شوقي ضيف الفقرة الهامة التالية من مقدمة ديوان ابن قُزمان :

ولما اتسع في طريق الزجل باعي ، وانقادت لغريبه طباعي ، وصارت الأئمة فيه خَوَلِي واتباعي ، وحصلتُ منه على مقدار لم يحصله معي زجال ، وقويت فيه قوة نقلتها الرجال عن الرجال ، عندها أبنتُ أصولَه ، وتبينتُ منه فصولَه ، وصعَّبتُ على الأغلف الطبع وصولَه ، وصفيته عن العقد التي تشينه ، وسهلته حتى لأن ملمسه ورق خشينة ، وعريته من الأعراب . . . والاصطلاحات تجريد السيف عن القراب .

ويتلوم ابن قزمان بعد ذلك ، في مواقع أخرى من مقدمته ، على من سبقوه من الزجالين ، مع اعترافه بأن أشهرهمَ كان الأخطل بن نَمَّارة ، وهو يتلوم عليهم لما كان عندهم من « معان باردة ، وأغراض شاردة ، وألفاظ شياطينها غير ماردة « ثم لما عندهم من اعراب هو أقبح ما يكون في الزجل ، وأثقل من إقبال الأجل »[٤٩] . واذا ما مضينا مع ابن خلدون في حديثه عن فنون الزجل ، فانه سيخبرنا بأن الطريقة الزجلية في عصره (القرن الرابع عشر الميلادي) هي فن العامة بالأندلس من الشعر ، وفيها نظمهم ، حتى انهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر ، لكن بلغتهم العامية ، ويسمونه الشعر الزجلي . وكان من المجيدين بهذه الطريقة في مطلع القرن الهجري الثامن ، الأديب أبو عبد الله الكوشي ، وله فيها قصيدة مطولة يمدح فيها السلطان ابن الأحمر . ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح ، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضاً ، وسموه « عروض البلد » ، وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس ، اسمه ابن عُمَيْر ، نزل بفاس ، وغنى فيها ، فاستحسن أهل فاس غناءه ، وولعوا به ، ونظموا على طريقته ، وتركوا الأعراب الذي ليس من شأنهم ، وكثر سماعه بينهم ، واستفحل فيه كثير منهم ، ونوعوه أصنافاً الى المزدوج ، والكازي ، والمَلْعبة ، والغزل .

وفي المشرق كان لعامة بغداد أيضاً فن من الشعر يسمونه المَوَّاليا ، تنضوي تحته فنون كثيرة يسمون منها : القُوما ، وكان وكان ، ومنه مفرد ، ومنه في بيتين ، ويسمونه « دُوبيتْ » على الاختلافات المعتبرة عندهم في كل واحد منها ، وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان . وتبعهم في ذلك أهل القاهرة ، وأتوا فيها بالغرائب ، وتبحروا فيها في أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية ، فجاؤ وا بالعجائب[٥٠] .

ويتلقى الدكتور شوقي ضيف آراء ابن خلدون بشيء من التحفظ ، فهو يرى أننا ينبغي أن نلقى كلام ابن خلدون في نشأة الزجل ، وتأخر هذه النشأة عن نشأة فن التوشيح ، بشيء من الحذر ، اذ أن من المعقول أن

(٤٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص١١٥٣ - ١١٥٤ .

(٤٩) ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٤٥٤ .

(٥٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ص١١٥٧ - ١١٦٦ .

يكون الزجل قد نشأ مع الموشح مباشرة أو ربما سبقه ، ومن الممكن أيضاً القول انهما فن واحد ذو شعبتين : شعبة تغلب عليها الفصاحة ، وشعبة تغلب عليها العجمة . وبعد ذلك يتوصل الدكتور شوقي ضيف الى النتيجة التالية التي عبر عنها بقوله : « كأن الزجل في نشأته كان أقرب الى الموشحة منه الى الصورة العامية الخالصة التي انتهى اليها ابنُ قُزْمان . وانتقل هذا الزجل - كما انتقلت الموشحات - الى المشرق ، واستخدمته الأقاليم في آدابها الشعبية(٥١) .

أما بروكلمان فهو يرى أن ابن قزمان لم يخترع فن الزجل ، وانما أدخل الى الأدب العربي فناً شعرياً جديداً كان شائعاً في أسبانيا من قبل ، هو الزجل الذي لم يعد يخضع لأوزان الشعر المعروفة وانما للمقاطع . ويمضي بروكلمان بعد ذلك الى القول أن محمد بن داوود بن علي ، صنف في شبابه مجموعة من المختارات الشعرية ، جعل الجزء الأول منها وهو « طوق الحمامة في الألفة والألاف » وقفا على الحب ، وشفعه بدراسة تحليلية لمظاهره كما تتجلى في الشعر . وكذلك ألف ابن حزم ، الفقيه الظاهري الأندلسي ، في شبابه كتاباً تناول فيه بالبحث المفصل مختلف رغبات الحب وظواهرها ، ممثلاً لذلك كله بطائفة من المقطوعات الشعرية كان معظمها من نظمه . وهنا ، يقول بروكلمان : « نقع في حال من النضج الكامل على جميع الأغراض الشعرية التي راجت بعد في الغرب ، في أناشيد التروبادور* والبروفنساليين** وأغاني الجرمان الغرامية . . . وأغلب الظن أن فن هؤلاء جميعاً قد خضع للمؤثرات الأندلسية ، وان يكن متعذراً من غير شك ، تعيين السبل التي انتقلت بواسطتها هذه المؤثرات عبر الجزء الشمالي من شبه الجزيرة الإيبيرية »(٥٢) .

وحول هذا الموضوع ذاته نجد المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه ، تفصل ما المح اليه مواطنها بروكلمان ، بقولها أن شعر الغزل العربي انتشر ، وخرج من الأندلس عبر الحدود الى الغرب ، ليصبح فناً عالمياً . ولم يكن أحد شعراء الغرب ليعبر عن حبه بذلك الأسلوب ، لكنهم بعد تأثرهم بهذا الأسلوب الأندلسي العربي ، وجدوه يغزو كل فرنسا ، وايطاليا ، وصقليا ، والنمسا ، وألمانيا ، فأصبحت المرأة ، التي كانت أقل شأناً من الرجل في ظل تعاليم الكنيسة ، لأول مرة كائناً مقدساً ، يتوسل اليها الرجل كما يتوسل الى الله . وحتى الأشعار الدينية ، التي كانت قبل ذلك تصف مريم أم المسيح بخادمة الرب ، وبالفتاة الذليلة ، قد جعلت منها الآن السيدة الكريمة والحبيبة العزيزة(٥٢) .

---

(٥١) ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

(٥٢) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣١٢ .

* التروبادور (Troubadour) معناها الشاعر المغني في أوروبا ، وهي كلمة قد تكون محرفة عن كلمة « طرب » أو « طروب » العربية ، في رأي ليفي بروفنسال ، في كتابه « الاسلام في المغرب والأندلس » ترجمة سالم وحلمي ، ص ٢٨٠ وما بعدها ، عن عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ص ٢٧٤ .

والتروبادور هم جماعة من شعراء العصور الوسطى في جنوب فرنسا ، كانوا في أغلبهم من طبقة النبلاء ، وكانوا ينظمون في مختلف فنون الشعر : أناشيد ، شعر رعوي ، مقطوعات غنائية ، كما كانوا يتكلمون في السياسة والحرب . لكن الموضوع الذي استهواهم جميعاً هو « الحب » الذي تغنوا به في أكثر قصائدهم . وكان يرافق التروبادور في أسفارهم ، جماعة من الناس عرفوا بالمهرجين ، كانوا يمثلون أشعار سادتهم في البلاط الذي ينزلون به . بلغ عدد هؤلاء الشعراء المغنين الجوالين ، بين أواخر القرن الحادي عشر وأواخر القرن الثالث عشر ، حوالي أربعمائة شاعر ، كان من أشهرهم : رودل ، فيدا ، آنو ، دانييل ، كاربنال ، وقد انتشروا في أسبانيا ، وإيطاليا ، حيث أثروا في الشعر الأوروبي الغنائي وفي تطوره في القرن الثالث عشر ، (عن الموسوعة العربية الميسرة باختصار) .

** البروفنسال : لهجة فرنسية انتشرت في الجنوب الشرقي من فرنسا ، ونماها الشعراء التروبادور الرحالة في القرون الوسطى ، وكادت تصبح اللغة الرسمية لجنوب فرنسا آنذاك . أحياها بعض الشعراء في منتصف القرن التاسع عشر ، الا ان الفرنسية الرسمية غلبت عليها (الموسوعة العربية الميسرة) .

خامساً : من الفولكور الفلسطيني : الأدب الشعبي العربي الفلسطيني :

لقد سبقت الاشارة الى أن علماء الغرب وأدباءه ، كانوا السباقين الى دراسة فولكلور شعوبهم أولاً ، ثم فولكلور الشعوب الأخرى فيما بعد ، وانه كان للوطن العربي نصيب وافر من جهودهم .

وبالنسبة لفلسطين ، فان مركز الأبحاث الفلسطيني ، كان قد بين ، من خلال أبحاث أولية ، وجود مكتبة كبيرة تعنى بأوضاع الشعب العربي الفلسطيني والسوري بعامة ، وبدراسة أوضاع الفلاح وثقافته بخاصة ، وأن أوائل تلك الكتب ، تعود الى العقد السابع من القرن التاسع عشر . فقد أسهب الرحالة تومسون في الحديث عن الشعب العربي في جنوب سوريا ، كما اهتم بعض أعضاء بعثات صندوق استكشاف فلسطين ، بدراسة العادات الفلاحية ، والمجتمع الفلاحي عامة ، وانطلق هؤلاء بأبحاثهم الانثروبولوجية ، من خلال نظريتهم القائلة بقدم تاريخ الفلاح الفلسطيني ، ورجوع أرومته الى الشعوب غير اليهودية ، التي كانت تقطن فلسطين منذ القدم ، والتي ورد ذكرها في التوراة . وكان البحاثة من المستشرقين الانجليز قد مهدوا لهذا النمط من الدراسات ، من خلال مقالات دورية صندوق استكشاف فلسطين ، (Palestine Exploration Fund Quarterly) وذلك في سياق الاهتمام التبشيري ، والعلمي ، والديني ، (الدراسة الميدانية للتوراة والانجيل) كتحليل التوراة من خلال دراسة جغرافية فلسطين ، وآثارها ، ومجتمعها الفلاحي . غير أن البحث العلمي المنظم في هذا المجال ، تحقق بصورة أفضل نسبياً ، على أيدي الاختصاصيين الألمان ، الذين اعتمدوا على قواعد أكثر ثبوتاً من تلك التي اعتمد عليها الانجليز ، اذ توفرت لهم قدرة على جمع المعلومات ، والتنقيب ، نتيجة لوجود المستعمرات الألمانية بفلسطين ، في صورة الجمعيات التابعة لنظام التمبلر (Templer) الديني المسيحي ، والتي بدأت الاستيطان في فلسطين في العقد السابع من القرن التاسع عشر ، أي قبل نشوء المستوطنات اليهودية ، ونتيجة لوجود عدد من الاختصاصيين الألمان من رجال الدين والعلمانيين العاملين في فلسطين ، والجهود الميتم السوري الألماني ، والجمعية الألمانية الفلسطينية ، التي اسهمت منذانشائها حوالي سنة ١٨٧٦ ، في اصدار مجلة عنيت منذ البداية ، بدراسة أحوال السكان الأصليين ، مما شجع على مجيء عناصر أكثر اختصاصاً من رجال الدين والعلمانيين ، لدراسة التوراة من خلال الفلاح الفلسطيني بخاصة ، ولدراسة الثقافة الشعبية العربية في فلسطين بعامة ، ولا سيما الوضع الاجتماعي ، والنمط الانتاجي ، وبخاصة الزراعي منه ، والأمثال ، والأغاني ، والقصص الشعبية ، واللباس ، والأدوات الحرفية ، والمنزلية . وشجعت هذه الأبحاث بعض الفلسطينيين على التنقيب ، وعلى تجميع العادات والتقاليد ، والفنون الشعبية ، ودراستها وتصنيفها ، فبرز الدكتور توفيق كنعان ، الذي كتب باللغتين الألمانية والانجليزية ، وشملت اهتماماته الخرافات ، والطب الشعبي ، والمواسم ، والأعياد ، ومقامات الأولياء ، والأمثال الشعبية ، والبيت الشعبي الفلسطيني ، وأهتم اسطفان اسطفان بالقصة الفلسطينية الشعبية* كما أصدر عارف العارف سنة ١٩٣٤ كتابه « القضاء بين البدو » ، وهو كتاب لقي اهتماماً واسعاً في الأوساط الأجنبية ،

---

* نشرت معظم كتابات د. كنعان واسطفان اسطفان في مجلة الجمعية الفلسطينية الشرقية (Journal of the Palestine Oriental Society) الموجودة نسخها الأصلية في متحف روكفلر بالقدس وصور عنها في مكتبة جامعة بير زيت ومكتبة التراث في جمعية انعاش الأسرة بالبيرة .

وترجم الى عدة لغات ، واهتم المحامي عمر الصالح البرغوثي بالعادات والتقاليد القروية ، وان كان لم ينشر من كتاباته الا القليل(٥٣) .

هذا الاهتمام بالفولكلور الفلسطيني ، ظل يتنامى وينتشر بين أفراد المجتمع العربي الفلسطيني ، ومؤسساته فيما بين الحربين العالميتين ، لكنه كان أهتماماً فردياً ، يتسم بالجهد الفردي ، وينحصر في نطاق الامكانات الفردية المحدودة ، وتتحكم في جمعه ، وفي دراسته ، وفي تدوينه ، اجتهادات الأفراد المهتمين به ، على ما بينهم من تفاوت ، ودون وجود طرق ، وأنظمة راسخة ، يسير عليها الجميع ، في التعامل مع مواد هذا العلم الجديد . وبعد انقضاء الحرب العالمية الثانية ، حدثت نقلة كبيرة في مجال هذا الاهتمام بالفولكلور ، ولا سيما في العقود الثلاثة الأخيرة ، عندما انحسرت ، الى حد كبير ، ظاهرة الاستهزاء بمن يقبلون على دراسة الفولكلور ، أو التخصص فيه على مستوى الدراسات العليا ، مما سهل على الشباب المهتمين بالفولكلور قضية الالتحاق ببرامج الدراسات العليا ، إما في الفولكلور ذاته ، أو في حقل يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ، مثل الانثروبولوجيا ، أو اللغة والأدب أو التاريخ والآثار اذكر من أعرفهم من بين هؤلاء الدارسين الذين حصلوا على درجة الدكتوراه في حقل من الحقول المشار اليها : كاتب هذه الورقة (١٩٦٣) ، والدكتور عيسى المصو ، والدكتور شريف كناعنة ، والدكتور رشدي الأشهب ، والدكتور ناجي عبد الجبار ، والدكتور هاني العمد . وهنالك عدد من الباحثين في مجالات الفولكلور ممن يحملون درجات دون الدكتوراه ، أذكر منهم الأساتذة : نمر سرحان ، ونبيل علقم ، وعمر حمدان ، وعبد العزيز أبو هدبا ، ووليد ربيع وموسى سند . ولا شك أن هنالك أعداداً أخرى من الفلسطينيين المتخصصين في الحقول المذكورة ، والباحثين في مجالات الفولكلور ، ممن لا أعرفهم شخصياً .

ومن ناحية أخرى عبر المجتمع العربي الفلسطيني عن اهتمامه بفولكلوره ، وعنايته به ، باقامة المؤتمرات ، والمهرجانات ، والاحتفالات الفولكلورية ، وانشاء المراكز ، والمعاهد ، لجمع المواد الفولكلورية ، وتبويبها ، ودراستها ، كما انتشئت فرق الرقص والغناء الشعبي ، وأدخلت مادة الفولكلور ضمن مناهج التدريس في بعض الجامعات الفلسطينية ، فهناك على سبيل المثال مادتان مقررتان في كلية آداب جامعة بير زيت ، واحدة ضمن دائرة علم الاجتماع وعلم الانسان باسم « الفولكلور الفلسطيني » ، والثانية ضمن دائرة اللغة العربية باسم « الادب الشعبي الفلسطيني » . وبالاضافة الى ذلك كله ، صارت مجلاتنا وصحفنا تفتح صدرها للمقالات والدراسات والابحاث الفولكلورية ، وبدأت تظهر مجلات متخصصة ، من اهمها مجلة « التراث والمجتمع » التي تصدر عن لجنة ابحاث جمعية انعاش الاسرة في البيرة بالضفة الغربية .

والادب الشعبي العربي الفلسطيني ، شأنه شأن بقية الآداب الشعبية العربية ، عاش ويعيش عيشة المشافهة ، مرويا من جيل الى جيل باللهجة العربية الفلسطينية الدارجة ، التي هي ابنة اللغة العربية الفصحى ، في مفرداتها * ، واساليبها ، في ضمائرها واسمائها ، ومشتقاتها ، وافعالها ، وان كانت تختلف عنها في طرق اللفظ وفي بعض الاصوات وفي اسقاطها للاعراب ، مع بقائها قادرة دون مساعدته على اداء

(٥٣) مذكرة مركز الابحاث الفلسطيني حول جمع التراث الشعبي الفلسطيني ، حلقة العناصر المشتركة في المأثورات الشعبية في الوطن العربي ، ص ٤٣١ - ٤٣٣ .

* أجريت اختباراً صغيراً فأخذت عينة عشوائية من نصوص أغانينا الشعبية وأحصيت مفرداتها فوجدت ٩١,٩٪ منها فصحى أو من جذر فصيح والباقي ٨,١٪ مفردات معربة عن الفارسية والتركية والانجليزية والفرنسية والطليانية .

مهامها بكفاءة ونجاح . واهم المصادر التي تستقي منها مادة حياتها :

١ - الموروث الشفوي من الاسرة والمجتمع .
٢ - القرآن الكريم مقروءا ومسموعا من الاذاعات ومنابر المساجد ومآذنها .
٣ - التعليم المدرسي الذي ينمي حصيلة الدارس من مفردات اللغة العربية الفصحى وتعابيرها فتصبح ذخيرة له في لهجته العامية .
٤ - المطبوعات والصحف والمجلات والكلمة المكتوبة عموما .
٥ - الاذاعات المسموعة والمرئية سواء استخدمت اللغة الفصحى او العامية .
٦ - الاشتقاق .
٧ - الاستعارة من لغات اجنبية وتعريب المفردات المستعارة .

وينقسم أدبنا الشعبي كأدب الفصحى الى منظوم ومنثور ، كما ينقسم المنظوم الى قصائد (تغني بمصاحبة الربابة) ، وأغان تغني دون موسيقى ، او بمصاحبة موسيقى الشبابة ، او الارغول ، اوعلى ايقاع « الطبلة » أو الدُّرْبَكَّة.واغانينا الشعبية كثيرة الالوان ، متعددة الفنون ، فمنها العتابا ، والدَّلْعُونا ، يا زريف الطُّولْ ، عَاليادي اليَادي او الجفْرا ، يا غْزَيِّل ، يا هْوِيدَلي ، مِشعلْ ، ليَّا بْليًّا ، أبو الزُّلف ، السحجة او السَّامر او الملعب ، الزَّفة ، الزَّجل ، الشُّروقي ، الطَّلعات ، اغاني النساء والاطفال ، الشُّوباش او الواو ، أغاني العقد والبناء ، اغاني المواسم والحج وشِحْدة المطر (الاستسقاء) ، اغاني الهْجينة او الجُوفيَّة والدَّحَّيَّةْ والحِداء . وقد وجدت بين اوزانها اثني عشر بحرا من البحور المستعملة في شعر اللغة العربية الفصحى .

اما الجانب المنثور من ادبنا الشعبي ، فهو يشمل الحكايات الشعبية بمختلف انواعها ، والامثال والاقوال ، والنكت والنوادر ، ونداءات الباعة ، والحزازير والالغاز .

وبالرغم من ضيق المقام ، الا انني اراني مشدودا بقوة الى تثبيت نموذجين من منظومنا الشعبي ، احدهما مثال على لون القصائد الشعبية ، وهو عبارة عن رسالة شعرية ، يبعث بها متعبد اسمه شبيب السردي ، الى صديقه نمر العدوان (توفي سنة ١٢٣٨هـ) يستفتيه فيها بشأن فتاة كانت تغريه بنفسها ، ورد نمر العدوان على تلك القصيدة بقصيدة على نفس البحر وبنفس القافية(٥٤) ، والآخر عبارة عن قطعتين من طلعتين مختلفتين احداهما نشأت في اواخر الاربعينيات والاخرى نشأت خلال السنوات القليلة الماضية :

النموذج الاول :

يـا راكـب الحَـمْـرَا لَهـا الـكُـورْ دَنِّي
عِـرْمِـلْ غَـرَنْـدَلْ ذاتْ غُـرًّا وفـنَّـا(١)
خُـذ لي سـلامـي ذو كَـلاَم يـعـنِّي
مـا صـابْ غيـري مِثِـلْ هـذا وكنَّـا(٢)
يَـا نِمْـرِ يَـا مِـشْكـايَّ إنْ سَـلْتُ عَـنِّي
تْهْـتِ الـطَّرِيـقْ أو حَـالْـتِي غِـير أونَّـا
عـاشَـادت يـتـعـب أوْصـافِ المُغَـنِّي
مـا لـه مَـثِـيـل غـيرْ حُـورٍ بـجَـنَّـا
أقْـبَـلْ عَـلَيـا أوْ بِـيَـعْـطُورة طـبـيٍّ
أقْبَـلْ وجِجْلو عـاكْـعَـابُـو يِـرِنَّـا(٣)

(٥٤) البرغوثي ، عبداللطيف ، الاغاني العربية الشعبية في فلسطين والاردن ، مكتب الوثائق والابحاث ، جامعة بيرزيت ، ط١ ، ١٩٧٩ ، ص٢٩٣ - ٢٩٤ .
١) الكور - الرَّحل . دَنِّي : قرِّب . عِرْمل : ضخمة . غرنْدَل : صَلْبة مصقولة .
٢) كَنَّا : كأنه ، شِبْهَه .
٣) طَبِي بيعْطُوره : غمرني بعطره .

قُلتِ : الهَـلاَ ، قـلي : هَـلاَ بـالمِهَـلِّي
قُلْتِ : العَـوافِي ، كَـادْ يَضْحكْ بِسِنّا
قـلِّي : تِصَـلِّي ؟ قُـلْتْ : صُـومِ وسُـنّي
قـلِّي : تـريـد أنـعَـام رَبَّـكْ وجنّـا ؟
وقَـلِّي تـبيـع بـخـمّسْ حـبَّـاتْ مِـنّي
ليخـمّس أوقـاتـكْ وفَـرْضَـك وسُنَّـا ؟
أو قـلت لـهْ تـسّـألْ لِـنَجْـلِ المَشْنّي
يـا نِمرْ يـا عِـزَّة طـريـح الـوطنّـا[٤]
عَـسَـاكْ تِكَـتِبّ لي كُـتـاب يـصِـلّني
عَمّنْك خـطِيـب قَـاري سْـوَارْ هِنّـا
عَـامَـنّ لي قَـلبِ عَـلِيـهَـا يـعِـنّي
بُعت المـعـارف بـاخـتـلاف المظنّا
واسْتَغْفِـر الـرَّحـمـانْ عَـالـصـارُ مِـنّي
والمِـثِـلْ حَـالي يـغْـفـر الـرَّبُّ عـنّـا

وإنْ كـان شُفْت أوْصـافْ فـيهـا كـملْني
مـا يـنهـمـز بـالشُّـور مَنْ صَـدّعـنّـا
وان كـانْ خَشْمُهْ أضبـاب هِنْـدي يُسَنيّ
والخصِـرْ مِنـهْ يُنْقُص الـفـتر عـنّـا[٣]
وعَـقَـدِ الخَصِـرْ نَـوطَـة طَـويله معـنيّ
والقَـرنْ يِنْشل لـنك من البـير شنّـا[٤]
أعْـطِي صْيَامَـكْ فَوقْ فَـرْضَـكُ وسُنّي
واعْـطَي الفَـرسْ وأقْبـلْ ، ونجيكْ عنّـا
وأنْ كـانْ قـلْبَـكْ بـالضـمـايـرْ يـعـنّي
الـبيـعْ مـا بـين المـخـالـيـق سُـنّـا
أو بَـعْـد مـا تُـرشُـفْ عـسـلْ ذوّبـنّي
تـبْ تُـوبـةِ الـنَّـارْ تـنجـيـكْ مـنّـا
واسـتـغـفـر الله عَـلَى مـا صـارْ مِـنّي
مِـثْـلي ومِـثْـلكْ يِـغْـفـر الـرَّبُّ عَـنّـا

ورد عليه نمر بن عدوان بالقصيدة التالية :

حَـيٍّ الـكـتـاب الـلي لـقـا من مِـظنّي
حيي عـدد غِـيّم بـدا الـغيـثْ مِنّـا
حيّيٍّ رَفـيـقَ الـبُـعْـد مِـشـتـاقْ مِـنّي
وانـا كـذلـك صِـرتْ مِشْتـاق مـنّـا
حـيٍّ عـدد تـسْبـيـحْ وَرْقـا تـغـنيّ
في رُوسُ لَـدْنَـاتْ الـغُصُـونِ المِغَنّـا[١]
لا يـا ركـيـبـي أوْصـل الـعِـلْمْ مـنيّ
عَـسَـاك في بحْـر الـسَّـلامـة تـكنّـا[٢]
إنْ كـانْ تجيـدْ الـصَّـبـرْ عـنْ حُـبِّـهـنيّ
أرْض الـكـريـمُ أطـلُـب الـعـفـو منّـا

النموذج الثاني :

١ ـ طلعة راجت في اواخر الاربعينات ولا تزال تغنى :

اللازمة :

نَـادَتْ كُـلُّ الـكَـونـيِّـي
بـأصـوات رَبَّـانـيـيِّ
فَـلتـسـقُطْ أُمَّـةُ صَـهْـيُـونْ
وَلْـتَـحْـيـا الـعَـر بـيِّـي
يَـا صَـهْـيُـوني إمش ودُورْ
بَـكْـراً جَـاي القَـاوُقْـجي(*)
بِـدُو يَمْشي اطْنَعْـشَـر يُـومْ
في دَمِّ الـصَّـهْـيُـونـيِّـي

٤) طريح الوطنا : المغترب عن وطنه .
١) المعنا : المهتزة .
٢) ركيبي : الرسول الراكب . تكنا : تستكن وتهدأ .
٣) خشمه : أنفه . ضباب هندي : شفرة السيف .
٤) نوطه : رقيقة . القرن : الشعر . شنه : قربة .
* فوزي القاوقجي : قائد جيش الانقاذ لتحرير فلسطين سنة ١٩٤٨ .

اللازمة :
أمْـرِ المُـصْـعَـبْ بِـدُّو يهـونْ
يـا عَـرَبْ إوْعُـو تْهـابُـو
نَـصْـرِ مـأكَّـدْ بـدُّو يكـونْ
الله قـايـلْ في كـتـابُـو
إحنـا مِـنْ سَـلّينـا سّيُـوف
الحـقّ لـنـا مِـيِّـي بُـيِّـي
فـلْتَـسْـقُطْ أُمَّـة صَـهْـيُـونْ
ولـتـحـيـا الـعَـرَ بـيِّـي

اللازمة :
يـا عـرب كـونـو احْـرارْ
لا تـرضـو الـعيشـي بـالـذُّلْ
يـا بـنـذبـحْ شَعْـبِ الـكُفَّـار
يـا الخـايف من هُـونـا يفـلّ
الله خـالـقِ جـنيٍّ ونـارْ
يـا مُؤمِـنْ بـافـكـارك حـلّ
في الـدُّنـيـا مـا في قـرار
الا بـظل الحُـرِّيِّ

اللازمة :
إنْ كـانِ ترومـان(**) بِـدّو يجُـودْ
ويـبـيـن اسـتـعـدادو
خـايـف عـا ذَبْـحِ الـيـهـود
حـاسـبـهـم مـثـل اولادو
بـلادو وسيعـة مـالهـا حـدود
يـسـكـنـهـم جـوَّا بـلادُو
قـبـل نـحـمـل الـبـارود
ونـعـمـلْ جَـبْـهَـةْ حَـرْبِـيي

٢ - طلعة نشأت خلال
السنوات القليلة الماضية :

اللازمة :
اسـمـعُـوا لي يـا حُـضَّـارْ
الـوَطَـنْ نـادا حُمَـاتُـو
والـلِّي يـعـادي لـلأحـرارْ
الله يـلعـنْ حـيـاتـو
والـلِّي بـيـخُـون الأوْطَـانْ
مـالُـو ديـن مـن الأديـان
وتـبـقـا مـغـرور وغـلطانْ
ومَـغْـمِـيَّـات غْـويـنَـاتُـو

اللازمة :
لآجْـلِكْ يـا أرْضِ بـلادي
انـا لـبـروحـي فـادي
ودمَّـاتي ودَمِّ اولادي
ويَّـا قـلْبـي ودقَّـاتُـو

اللازمة :
والـلِّي بِـدُّو يصُـون العـرضْ
يحـمي بـلادو ويحـمي الأرض
وبجعْـل حُـبِّ الـوطنْ فـرضْ
مِـثِـلْ فـروضُـو بْـصَـلاَتـو

اللازمة :
والـلِّي يـعـادي امِّـتـنـا
لا يـيـمـن من نـقـمـتـنـا
ولازم تِـوْصَـلْ دوْلـتِـنـا
وانـخـلَّعْ شَـنَـبَـاتُـو
اللازمة :

** هاري ترومان (١٨٨٤ - ١٩٧٢) ترأس الولايات المتحدة ١٩٤٥ - ١٩٥٣ .

سادسا : أهمية تدريس الفولكلور على المستويات الجامعية :

١ ـ خطر الحضارة العلمية التكنولوجية المعاصرة :

ان الحضارة العلمية التكنولوجية المعاصرة ، لا تهدد فقط بفصل عالمنا الى عالمين : عالم متقدم يتعامل مع الفضاء الخارجي وآفاق الكون الرحبة ، وعالم متخلف يحاول عبثا اللحاق بالعالم الاول ، بل هي أيضا تهدد مجتمعات العالم الاول ، بأن تسلخها عن ثقافتها الموروثة ، وتخضع انسانها الى درجة تجعله أشبه بالانسان الالي . لقد بدأت بلدان العالم الاول ، منذ بعض الوقت ، تدرك خطر اتساع الهوة بينها وبين بقية بلدان العالم من ناحية ، وخطر قولبة أبنائها ، وانسلاخهم عن جذورهم ، وثقافاتهم الموروثة . ومنذ ان استشعرت هذا الخطر ، بدأت تنفذ برامج متعددة ، غايتها الكشف عن ثقافاتها الموروثة ، واعادة بناء الروابط الوثيقة بين انسانها وتلك الثقافات . ويأتي في مقدمة تلك البرامج ، ما يدرس على نطاق واسع ، وعلى أعلى المستويات الجامعية ، من الانثروبولوجيا والفولكلور . وقد بادرت منظمة اليونسكو من ناحيتها ، فتبنت مشروعا لاصدار أربعة مؤلفات تحت عنوان « على مفترق طرق الثقافات » ، كان المؤلف الاول منها بعنوان « الثقافات والزمن » ، واصدرته اليونسكو سنة ١٩٧٦ ، وهو يشتمل على أبحاث أعدها مختصون من بلدان مختلفة ، ووضع مقدمته الاستاذ الفرنسي بول ريكير (Poul Ricoeur) أستاذ الفلسفة في جامعة باريز .

اننا اذا طالعنا تلك المقدمة ، سنجد الاستاذ ريكير يطرح أفكارا وأسئلة كهذه : الم تُغَرِّبنا عصر يُتْنا عن جذورنا ما كان منها قريبا وما كان بعيدا ؟ ألا نستطيع أن نجد السبيل للعودة الى جذورنا القريبة والبعيدة ، ما دمنا نقف في وسط المسافة بين قريب جذورنا وبعيدها ، بالاعتماد على حقيقة ان الثورة العلمية قد خلقت هذه المسافة المتساوية بيننا وبين كل الثقافات التقليدية ؟ ان ما يستطيع ان يعيدنا قريبين الى ما فصلنا عنه ، هو بداية تحققنا ، أن من الخطا اعتبار ان العلم والتكنولوجيا هما نفس العلاقة مع الحقيقة ، وهي علاقة يمكن ان تقوم بيننا وبين جميع الاشياء . اننا على أساس النقد من الداخل لتظاهر المعرفة الموضوعية بأنها تعادل الحقيقة ، نستطيع اجراء قراءةبعد نقدية للبينات الثقافية التي جرى فحصها في هذا الكتاب . وفي ضوء هذا تصبح المسافة التي تفصلنا عن ثقافات الماضي مسافة منتجة ، تمكن تلك الثقافات من التحدث الينا عبر الهوة التي تفصل بيننا وبينها . ومهمتنا اليوم هي ان نكشف في ثقافات الماضي ما هو أكثر من مجرد مرحلة ما قبل العلم ، ومن ثم فانه لم تلغه العلمية ، وبامكانه ان يتحدث الينا من الجانب البعيد ، جانب ثورتي جليليو ونيوتن . في ضوء ما تقدم يتضح ان البعد في القرب ، والقرب في البعد ، هو التناقض الذي يحكم كل الجهود الحاضرة ، للتعامل من جديد مع تراث ثقافات الماضي ، لإعادة تنشيط تلك الثقافات ، في ظل شروط الحياة اليومية المعاصرة . وهذا التناقض ذاته قد لا يحكم فقط علاقة الناس بثقافات الماضي عموما ، وانما ايضا علاقة ثقافة بأخرى . ومن ناحية ثانية فاننا لا نستطيع التمسك بتقليد ما ، دون وعي ناقد لنسبيته للتقاليد الاخرى . ان أي جهد لتناول جديد ، وبروح ناقدة ، لاى تراث ماض ، لا بد ان يرافقه اليوم شعور بالاختلاف بينه وبين آراء عالمية أخرى(٥٥) .

ان أفكار الاستاذ ريكير المذكورة ، تعطي صورة لتخوفات الغرب ، ولمعاناته ، في ضوء حضارته العلمية

(٥٥) UNESCO, Cultures and Time, The UNESCO Press, Paris 1976, PP. 32-33

المعاصرة . أما عن موقف البلاد العربية والاسلامية ، فان الاستاذ لويس جاردت ، المتخصص في الدراسات الدينية والثقافية المقارنة ، ولا سيما ما يتعلق بالاسلام ، والذي درس في جامعات الرباط والجزائر والقاهرة ، وبيروت ، وزار معظم بلدان الشرق الاوسط ، والبلدان الاسلامية ، فانا نجده يقول في بحثه المعنون « آراء المسلمين حول الزمن والتاريخ Moslem Views of Time and History » :

اليس من المحتمل ان تداخل الحياة في العالم المعاصر ، سيجلب وعيا جديدا بمعنى الزمن التجريبي ، وعيا هو نفس الوعي السائد في الغرب المتقدم تكنولوجيا ؟ ان ذلك محتمل بالتأكيد ، ولو بصورة مبدئية على الاقل ، وعلى مستوى سطحي . ان الثقافة الاسلامية قابلة دون شك لاستيعاب المؤثرات المعاصرة ، كما كانت قادرة في سالف الايام على استيعاب الفكر اليوناني ، والفارسي ، والهندي ، ولا حاجة الى القول ان الثقافة التي تكره ان تنمو في عزلة هي ، لذلك السبب عينه ، ثقافة حيوية ، ذات قابلية عالية لانجاب ثروات خاصة بها[٥٦] .

فالمشكلة قائمة اذن وعلى مستوى العالم أجمع ، واذا كان خطرها يوشك ان يداهم بلدان العالم الاول ، فاننا في بلدان العالم الثالث مهددون به على المدى البعيد ، وسيزداد تهديده لنا بقدر ما نزداد تقدما في مضامير الحضارة العلمية التكنولوجية المعاصرة ، لكننا يجدر بنا ، ونحن ما زلنا بعيدين نسبيا عن ذلك الخطر ، ان نغتنم هذه الفرصة فنخطط لمستقبلنا ، بحيث نجمع فيه بين الاصالة والحداثة ، دون أن نضحي بواحدة منهما من أجل الاخرى ، ولكي لانجد أنفسنا في وضع كالوضع الحالي الذي تعاني منه بلدان العالم الاول .

وعلى الرغم من ان بلداننا في العالم الثالث هي جديدة على الصعيد السياسي ، الا أنها تقليدية جدا في ثقافتها وفي بنائها الاجتماعي ، ومركز الفرد في مجتمعاتها يتحدد بصورة رئيسية ، بالانتساب الى جماعة ما ، كجماعة الاقارب ، أو أبناء اللغة الواحدة ، او اللهجة الواحدة . وهذه العوامل ، مضافة الى الاساس الاقتصادي الضعيف ، الناجم عن الفقر الزراعي ، تميل الى عزل جماهير الشعب عن علية القوم في المدن . وفي الوقت ذاته ، فان لدى هذه البلدان رغبة شديدة الحماس للتحول الى مجتمعات عصرية صناعية ، وتقوم طلائع الطبقة المثقفة فيها دائما بالتعبير عن هذه الطموحات الا أنهم كثيرا ما يختلفون حول القيمة التي يجب ان تعطى للثقافة القومية التقليدية . ولذلك فان الشخص الذي يتلقى تعليما غربيا ، لا بد أن ينفصل في النتيجة عن مواطنه غير المتعلم ، في نظرته للحياة ، وفي أسلوب حياته ، لان التعليم الغربي قد عرفه على أساليب جديدة في اللبس ، والحديث ، والسلوك ، والرأي ، أي انه علمّه قيمة الثقافة الغربية ، وجعله بصورة ضمنية ، يحس بتفاهة الحياة القبلية ، والعادات البدائية . وهكذا فان جماعته تميل لان تصبح ، ليس جماعة الاقارب ، أو أبناء الاقليم ، وانما جماعة المثقفين الذين صار يعيش وفقا لمعاييرهم ، حسبما تعلمه . ولذلك فهو في الغالب يميل الى الانقطاع عن تقاليده القومية ، والى نقد المصادر التقليدية للسلطة ، ويتجه الى اعتناق الثقافة الغربية ، المتعلقة بالعلمنة ، والصناعة ، والتمدن ، والنظرة العالمية . وبالمقابل ، نجد في البلدان ذاتها ، القوى المضادة لهذا الاتجاه ، والمتمثلة في الاعتزاز بالتراث الثقافي غير الغربي ، وبالقومية الوطنية ، وبالعودة الى الجذور . وهكذا فان التربية الحديثة تؤدي الى توليد صراعات أساسية في

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

سبيل البحث عن هوية عصرية للدولة الحديثة كما انها تستجيب لتلك الصراعات وتتأثر بها .

ب ـ دور الجامعات :

التربية في مؤسسات ما بعد مرحلة الدراسة الثانوية ، تهدف الى اعداد المختصين ، ويعتمد المجتمع على تنسيق عمل الافراد ذوى الكفاة ، في جزء صغير جدا من مجموع الثقافة . ولهذا السبب ، وبسبب التغير السريع في منجزات الحياة المعاصرة ، يجب ان تراجع النظم التعليمية باستمرار ، لكي تظل قادرة على اعداد الدارس لمواجهة الحياة بنجاح ، من خلال اكسابه الاتجاهات السليمة ، ومن خلال شحذ عقليته ، وتنمية قدراته الناقدة ، للتجاوب مع المواقف المختلفة . وفي هذا الصدد ، لا يمكن ان نبالغ ـ مهما بالغنا ـ في أهمية دور الجامعات ، التي هي قمم الانظمة التعليمية ، فيما يختص بتغيير النظام التعليمي واعادة تنظيمه . ان الجامعة تحتل المرتبة الثانية بعد الحكومة ذاتها ، بوصفها أعظم أداة أساسية لازمة لنقل البلاد الى اطار العالم العصري ، الا ان البلدان حديثة الاستقلال أضاعت ، مع الاسف ، الفرصة الفريدة التي أتيحت لها لاقامة مؤسسات تعليمية جديدة ، تناسب الظروف الجديدة للاستقلال ، اذ أنها راحت تقيم مؤسساتها التعليمية ، على غرار المؤسسات التعليمية للبلد المستعمر ، وبذلك فان تلك المؤسسات بدأت بدايات تقليدية محافظة ، في مجتمعات كانت أشد احتياجا لمؤسسات مبدعة مبتكرة منها لاى شيء آخر . وهكذا جاءت الجامعات الجديدة متمسكة باتجاهات فكرية ، وسائرة على أحكام اجراءات أكاديمية ، أدت الى عزلها عن بعض أهم الحقائق في بيئاتها . ومن الانصاف ، القول ان معظم جامعات العالم الثالث ، ما زالت مستمرة في السير على الدروب التقليدية المعروفة ، ولم تقحم أنفسها الى الحد الواجب عليها في مواجهة التحدى ، المتمثل في وجوب تغيير المجتمعات الريفية في بلادها . ان هذا حال لا بد من تغييره ، لا سيما وان الاعتقاد يتنامى بوجوب ان تقوم الجامعات بصورة أكثر مباشرة ، على خدمة قطاع من الواضح انه يمثل معظم الشعب ، ألا وهو القطاع الريفي[٥٧] بالاضافة الى مسؤوليتها الكبرى في العمل على نقل مجتمعاتها الى الحداثة ، مع المحافظة على أصالتها وهويتها الثقافية .

ج ـ تطور القيم الاجتماعية :

ان التنمية العقلية ، والفكرية ، الناتجة عن التربية الحديثة بعامة ، والدراسات العليا بخاصة ، والعوامل السياسية ، والاقتصادية ، السائدة في الوطن العربي ، أدت الى ظهور قيم جديدة شجعت على تطوير التربية كما ونوعا . ويبرز من بين تلك القيم : الديموقراطية ، وما يواكبها من أفكار حول العدالة الاجتماعية ، وتكافؤ الفرص ، وازالة الفوارق الطبقية ، ثم القيم الانسانية الثقافية الجديدة ، القائمة على أساس الحاجة لوصل تراث الامة بحضارة العالم المعاصر ، وعلى أساس الشعور الطبيعي بالعزة القومية ، والرغبة في اللحاق بالعالم المتقدم ، وردم فجوة التخلف التي تفصل البلدان العربية عن البلدان المتقدمة ، وقيم التحرر والحرية . وبعد فترة من الصراع بين الافكار القديمة والجديدة ، بين الثقافة التقليدية والعصرية ، بين الانطواء على الذات والانفتاح على العالم ، بين تقليد الاساليب الاجنبية وكره الاجانب ، بدأت القيم الجديدة تحرز نجاحا باهرا ، في مضمار أهدافها لتحقيق ثقافة قومية

(٥٧) UNESCO, Education on the Move, the UNESCO Press, Paris 1975, PP. 15-20

ناضجة ، مرتبطة بعمق بقيمها الاصيلة ، وخصائصها الـذاتية بقـدر ما هي مهتمـة باقـامة ارتبـاطات وثيقـة بالحضارة عامة وبتجارب الانسان . وقد شجع نجـاح هذه القيم الى حد عظيم تطوير التربية كما ونوعا ، خلال العقود الاخيرة ، وهو تطوير تجلى في بروز حركة تربوية تميزت بظهور عدد من رجال التربية العرب ، وباقامـة الكثير من كليات التربية في الجامعات ، وباقامة مراكز البحث التربوي ، وبنشاط حركة التاليف في مجـالات التربية ، والاحصاء، والابحاث ، وفي تبادل الكثير من التجـارب ، والافكار التـربويـة على المستـوى الـدولي وبـظهور فلسفـة جديـدة للتربيـة العربيـة مستقلة عن فلسفتي التربية في الغرب والشرق ، ومستفيدة منهما في الوقت ذاته . وقد بدأت هذه الفلسفة العربية الجديدة للتـربية في السنـوات الاخيرة ، تتحكم في الاهـداف التربوية ، وفي السياسة التربوية ، وفي خـطط التربيـة واستـراتيجياتهـا . ونستطيـع ان نلمح من مميـزاتهـا : الالتزام بوحدة الثقافة العربية ، على أساس مبدأ التنوع في اطـار الوحـدة ، توحيـد التـراث العـربي والتـراث الانساني بشكل عام ، التأكيد على أهمية الروح العلمية والطريقة العلمية ، تأسيس التربية على العمل وعلى مبدأ وحدة العمل اليدوي والعقلي ، تنميـة روح الاختراع والتجديد ، تعزيز مبدأ العمل الجماعي والتعاوني .

د ـ الانسان لا يحيا دون فن ودون تربية فنية :

من خلال النشاط الخلاق للفنان ، واستقبال العمل الفني لدي المستهدفين به ، تكشف الـطبيعة المحـددة للحرية الانسـانية عن ذاتهـا ، وهي لكنها مختلفـة عن الحرية التي يحصل الانسان عليها بالسيطرة على القوى الجبـارة للطبيعة ، من خـلال العلم والتكنولـوجيـا ، وبالسيطرة على القوى العظيمة للتطور الاجتماعي ، من خلال النشاط الاجتماعي الواعي .

ان عالم الالات هو عالم قوة الانسان ، وهو ضمانة التحرر للانسان من ضغط العالم المادي ، وهو أداتنـا وسـلاحنا . أمـا عالم الفن فهـو حقيقـة أخـرى لعـالم الانسان : وهو غير موضوع في مواجهة مضادة للانسان كاداة مادية وخارجية لقوته ، وانما هو نظير للانسان ، بل انعكاس لحياته الداخليـة ، التي أصبحت المواد الخـام خـاضعـة لهـا : الخشب ، والـرخـام ، والاسمنت المسلح ، والـفـولاذ ، والكـنـقـة ، والـدهـان ، والاصـوات ، والكلمـات ، والقـدر الـذي يخلق المـواقـف ، والاحـداث ، وخـبـرات الـنـاس السيكولوجية .

ان كـل هذه الاعتبـارات ، التي تـوضـح الاهميـة القصـوى للدور الذي يلعبـه الفن في حيـاة الانسـان تستدعي بالضـرورة استخراج نتـائج تـربويـة جديـدة عريضة من تلك الاعتبـارات ، ففي التربيـة من أجل المستقبل لن تقف تربية الفنون الجميلة عند حد التوسع والتعمق فقط ، بل انها انها سوف تتغير جذريا ، لانه لا بد من اعطاء اهتمام خاص جدا للقوى المضاعفة ، التي يكون الفن بها الـرجال ، وليس فقط الاهتمـام بتنمية اتجاهات الدارسين نحو الفن . ومع امتداد التربية من خلال الفن الى ما بعد الحدود التقليدية الضيقة لما يسمى في العادة بالتربية الجمالية ، فان هذه التـربية يجب ان تشمل تربية الانسان من جميع جوانبه ، وتدريبه في نطاق أنواع الاتجاهات والخبرات السيكولوجية التي يدخلهـا الفن الى عالم الحضارة الانسانية .

ومن خـلال تعميم المعـرفـة بمعـظم أشكـال الفن الهامة ، ومن خلال تنمية الذوق الجمالي ، فان التربية الفنية سوف تميل الى تربية الناس بـطريقة تجعـل الفن ضرورة يومية في حياتهم ، واحتكاكهم بها سوف يؤثر في

شخصيتهم بكليتها ، ويبلور تجاربهم العقلية والروحية .

وبذلك فان التربية من خلال الفن لن تكون ثقافة كمالية ، أو عالم خيال وتسلية منفصلا عن الحياة الواقعية وانما حقل تربية متصلا بكل الحقول الاخرى ، مما سيؤدى الى اعداد الانسان المربى عالمية شاملة وهذا الحقل سوف تصهر فيه كل خبرات الانسان ، حتى ولو حدث ذلك ضمن نطاق العالم « غير الحقيقي » للفن .

ان فهم هذه الحقيقة الانسانية العميقة ، التي ربما كانت متناقضة مع ذاتها ـ الا وهي ان الانسان الحقيقي يتم تكوينه من خلال الاحتكاك بالعالم « غير الحقيقي » للفن ـ هو ما يجب ان يكون بالضبط مبدأ التربية من خلال الفن .

في ضوء ما تقدم ، يتضح ان تربية المستقبل يجب ان تكون كيانا منسقا ، تدمج في بنيته كل قطاعات المجتمع ، ويجب ان يكون كيانا عالمي الشمول ، متواصل المسيرة . وهذه التربية ، من وجهة نظر كل شعب من الشعوب ، لا بد أن تكون شاملة ومبدعة ، وبالتالي مفردة وموجهة ذاتيا ، وسوف تكون سورا للثقافة ، وقوة دافعة لها ، كما انها ستؤدي الى انجاح النشاط المسلكي . هذه حركة لاتقاوم ، ولا يمكن اعادتها للوراء ، انها الثورة الثقافية لعصرنا هذا .

واذا سلمنا بأن التربية هي حاجة أساسية لا غنى عنها للفرد ، وسوف تبقى كذلك ، فانه يتحتم علينا ان لا نقف عند حد تطوير المدارس والجامعات واغنائها وتكثيرها ، بل علينا ان نتعدى ذلك بتوسيع وظيفة التربية لتمتد الى جميع أبعاد المجتمع برمته .

ومن الواضح انه ليس في هذه الايام عمل أكثرا همية من بذل جهود دائمة منتظمة ، للنظر في كل الامكانات المتاحة من أجل تطوير المجتمعات تربويا وثقافيا . والحقيقة الخاصة بالطبيعة الجديدة للمهام التربوية والثقافية لعصرنا يجب ان توضع على أساس عالمي سليم ، وتلك المهام لا يجوز ان تبقى محصورة ـ وهو ما عليه الحال الان ـ في نطاق دائرة المؤسسات الاكاديمية ، بل يجب ان يكون لها أثرها فيما يتعلق باعادة تنظيم الحياة برمتها وبطريقة تمكن كل فرد من اشباع حاجاته التربوية ، والثقافية ، في الحياة ذاتها وفي الحياة التي يحياها ، وفي الحياة التي يشارك فيها من حوله(٥٨) .

مما تقدم نلمس مدى أهمية التربية الفنية بصفة عامة ، واذا أردنا أن نضرب مثلا فولكلوريا قلنا إن الفولكلور بما ينطوى عليه من موسيقي وغناء وجوانب جمالية متعددة ، هو مجال من مجالات التربية الفنية ، كما ان الادب الشعبي بما ينطوى عليه من فنون قولية شفوية هو مجال من مجالات الفولكلور ، وبنفس المنطق فان الحكايات الشعبية هي مجال من مجالات الادب الشعبي ، وحكايات الجان هي مجال من مجالات الحكايات الشعبية . ومن المسلمات في التربية ، أنه من أجل تأمين الخبرات ، المناسبة أكثر من غيرها لتمنية قدرات الطفل على أن يجد معنى لحياته ، ولاضفاء مزيد من المعنى على الحياة بشكل عام ، ليس ثمة أهم من تأثير الوالدين ، والآخرين الذين يعتنون بالطفل ، ويأتي بعد هؤلاء في المرتبة الثانية من الاهمية ، التراث الاجتماعي اذا ما نقل للطفل بالطريقة الصحيحة . وليس ثمة من مقومات التراث الاجتماعي ما هو أكثر اثراء وارضاء للصغار والكبار على حد سواء من قصص الجان الشعبية ، فقد قامت هذه القصص عبر القرون ، ان لم نقل عبر الوف

---

(٥٨) المرجع السابق ، الصفحات : ٢١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ .

السنين بنقل المعاني الظاهرة والباطنة لمستويات الشخصية الانسانية جميعها ، وبأسلوب يصل الى عقل الطفل غير المتعلم ، والى عقل الكبير المفلسف . والسر في تساوي الصغار والكبار في هذا الشأن ان اللاوعي هو مقرر قوي للسلوك فاذا ما ضغط ذلك اللاوعي ، ولم يسمح لمحتوياته بالدخول الى دائرة الوعي فان العقل الواعي لشخص ما ستغلب عليه في النتيجة - مشتقات لعناصر من اللاوعي ، أو انه سيضطر لوضع رقابة صارمة قاهرة على تلك المشتقات مما قد يلحق شللا قاسيا بشخصيته .

ومن المعروف أن معظم قصص الجان ، نشأت أصولها في مراحل كان الدين فيها بالغ الاهمية في الحياة ، ولذلك فهي تعالج بصورة مباشرة أو ضمنية ، موضوعات دينية يشهد بذلك أن قصص « ألف ليلة وليلة » مليئة بالاشارات للدين الاسلامي ، وكذلك الحال بالنسبة للكثير من قصص الجان في الغرب[٥٩] .

* * *

(٥٩) Bettelheim, Bruno, The Uses of Enchantment, PP. 4-13 and 83-91

العدو المسلم في ملاحم عصر النهضة الأوروبية أريوستو وتاسو وكاموينس

رشا محمود الصباح
جامعة الكويت

تمخض عصر النهضة الأوروبية عن كتيبات ومؤلفات وأوصاف عديدة تتعلق بالمسلمين ، كالتي صدرت عن أوجير دي بيسبك **Ogier de Busbecq** وفيليب دو فرسني كاناي[1] **Phillipe du Fresne-Canaye**، وبقيت المصدر الرئيسي لقياس المواقف الغربية تجاه المسلمين ، ويمكن أن يضاف الى هذا كله أيضا الأدب الشعبي بأشكاله وصوره التي تمثل تعبيرا كلاسيكيا عن عقلية حضارة ما[2]. ان هذه الدراسة تهدف الى أن تقدم صورة مقارنة للمسلم في أعظم ثلاث ملاحم في القرن السادس عشر وهي : ملحمة **Orlando furioso** لكاتبها الايطالي لودوفيكو اريوستو Ariosto، والملحمة الايطالية **Gerusalemme Liberata**، لتاسو Tasso،

---

(١) انظر Ogier Ghiselin de Busbecq, **Turkish Letters** ترجمة E.S. Forester (Oxford: Clarendon Press, 1968); Philippe du Fresne — Canaye, **le voyage du Levant.** وتنقيح Henri Hauser (Paris, 1897)

تحت مسمى **Turkengefabe** سجل كارل شوتنلوهر ثلاثة عشر عامودا من دعائيات القرن السادس عشر في :

Karl Schottenloher, **Bibliographie Zur Dentochen Geschichte im Zeitalter du Glaubens paltung,** المجلد الرابع 1517 — 1585 (Stuttgart: Hiersemann, 1957) ص.ص 677-683

(٢) لمقدمة عن الاتجاهات المسيحية تجاه الاسلام ، انظر :

Paul Coles, **The Ottoman Impact on Europe,** (London: Thames and Hudson, 1968); R.W. Southern **Western Views of Islam in the Middle Ages,** (Camhridge, Mass: Harvard University Press, 1962); Norman Daniel, **Islam and the Wes: The Making of an image,** (Edinburgh: The University Press, 1958).

عن الاتجاهات تجاه المسلمين في الأدب الانجليزي ، انظر :

Sanuel C. Chew's **The Crescent and the Rose: Islam and England during the Renaissance,** (Oxford: Oxford University Press, 1937).

وانظر اطروحة دكتوراه في جامعة شيكاغو - ١٩٧٥ :

Henry Y.K. Tom, "The Wonderful Voyage: Chivalric and Moral Asia in the Imagination of Sixteenth Centry Italy, Spain and Portugal."

وهي تتناول بالعمق اريوستو Aristo وكاموينس Camoens لكنها تركز على جنوب وشرق آسيا أكثر من تركيزها على المسلمين .

وملحمة **Os Lusiadas**[٣] للكاتب البرتغالي كاموينس Camoens. وقد حظيت هذه الملاحم الثلاث بشعبية كبيرة، حيث تقدم أبطالا مسيحيين يجابهون أعداء مسلمين.

لقد نشر لودوفيكو اريوستو Ludovico Ariosto، أحد رجال قصر فيرارا d'Este Iords of Ferrara، ملحمته **Orlando furioso** لأول مرة عام ١٥١٦، غير أنه استمر يصقلها ويزيد فيها حتى عام ١٥٣٢. وتعد هذه الملحمة المكونة من ٣٨,٨٢٧ سطرا، أطول قصيدة في عصر النهضة الأوروبية ـ بل وربما في الأدب الغربي ـ تحظى بمثل هذه الشعبية الواسعة. انها تصف الدفاع عن باريس بقيادة شارلمان Charlemagne وفرسانه ضد مسلمي الاندلس والمغرب. وهذه مادة تقليدية طورتها الملاحم الشعرية في العصور الوسطى، بالاضافة الى ملحمة **Orlando innamerato** التي كتبها ماتيو ماريا بوياردو **Matteo Maria Boiardo** الذي سبق اريوستو Ariosto بوصفه شاعر القصر في فرارا **Ferrara**. وقد جاءت نغمتها هادئة، وبناؤها مقسما الى حلقات مفككة تفتقر الى الترابط. ويظهر فيها تأثر اريوستو Ariosto بروايات العصور الوسطى، التي كان قوامها الأسطورة أو الحب الشريف أو المغامرات الفروسية، أكثر من تأثره بالملاحم الكلاسيكية. واذا استثنينا الصورة الباهتة لشارلمان، فان الشخصيات والقصة خيالية تماما. إن موقف اريوستو العرضي تجاه التاريخ، قد وضح في ملاحظته من أن الدرع السوري في عصر شارلمان Charlemagne، كان على غرار دروع الصليبيين الفرنسيين في الأرض المقدسة[٤]. ان الدين يلعب دورا صغيرا، حيث ان ملحمة **Orlando furioso** تعج بالسحر والأعاجيب.

أما ملحمة تاسو Tasso **Gerusalemme liberata**، التي جاءت في ١٥,٧٢٨ سطرا، واكتمل بناؤها عام ١٥٧٥، ونشرت في عام ١٥٨١، فمختلفة تماما، لأنها مفعمة بالشك الذاتي الأدبي، وبوساوس دينية، وقد أعاد تاسو صياغتها فيما بعد في ملحمة قاتمة كئيبة **Gerusalemme conquistata**: تصف ملحمة تاسو **Gerusalemme liberata** الاستيلاء على القدس على يد الحملة الصليبية الأولى. واذا كانت بعض الحوادث والشخصيات لها وجود تاريخي فان معظم الأحداث المتسلسلة تعود الى فيرجيل Virgil وهوميروس Homer أو تنبع من الخيال الانشادي الرعوي لتاسو Tasso أو من اقتناعه الديني. ومهما يكن من أمر فان كلتا الملحمتين الايطاليتين لا تتضمن أية دفقة وطنية، غير أن تاسو Tasso، شأنه في ذلك شأن اريوستو Ariosto، يعظم الأسلاف الأسطوريين من أسياده في أسرة دي ايست d'Este.

أما ملحمة **Os Lusiads** للكاتب البرتغالي لويس دي كاموينس Luis de Camoens فانها أقصر

---

(٣) فيما يتصل بالبيلوغرافيا الموسعة عن اريوستو Ariosto، وكاموينس Camoens انظر المداخل تحت اسميهما في البيلوغرافيا الدولية MLA وسوف تختصر الهوامش من الآن فصاعدا كالآتي:

Orlando furioso	الى Of
Gerusalemme liberata	الى GL
Os Lusiadas	الى L

أرقام المراجع (الاسناد) تتعلق بالأناشيد والمقطوعات الشعرية (الثمان)

(٤) Of 17 : 73

الملاحم الثلاث ، وأكثرها تماسكا وطنيا وتاريخيا . انها تصف رحلة فاسكو دي جاما Vasco da Gama إلى كالكت Calicut، إبان بداية القوة السياسية ، والتجارية ، للبرتغال في المحيط الهندي . ان الشاعر يدخل في هذه القصة تاريخ الصراع البرتغالي من أجل التحرر من فاتحي بلاد الأندلس ، ومن أجل تكوين امبراطورية في آسيا . ومن الجدير بالذكر أن الجزء الأكبر من هذه الملحمة **Os Lusiads**، التي نشرت في لشبونه Lisbon عام ١٥٧٢م ، كان قد كتب في آسيا خلال السنوات التي كان فيها المؤلف جنديا مغامرا .

لقد أظهر المؤلفون الثلاثة معرفة بجغرافية وتنوع الشعوب المسلمة أكثر من معرفتهم بحضارة المسلمين وديانتهم . ان التقاليد الملحمية ، التي ترجع الى فهرس هوميروس Homer عن السفن ، ومدونة فيرجيل عن القبائل الايطالية ، دفعتهم الى أن يضيفوا الى ذلك أسماء الملوك المسلمين ، الى جانب البلدان والأماكن(٥) . هذه المعلومات دقيقة الى حد لا بأس به ، ولكنها لم تسلم من الأخطاء ، فعلى سبيل المثال ، يجعل اريوستو Ariosto التتار مسلمين ، وذلك قبل اعتناقهم الاسلام بقرون(٦) . ولم تقارن الملاحم الثلاث مطلقا بين الشرق والغرب في الملبس أو في المأكل أو في المعمار أو حتى في الاستراتيجية والمعدات العسكرية . بل انها لا تكشف حتى عن أي اهتمام بتعدد الزوجات عند المسلمين كما أنها لم تتضمن أية اشارة الى الحجاب أو الى البردة ، بل أنها تنقل بشكل استقرائي العادات الغربية الى الشرق . وعلى هذا ، فان نساء المسلمين يتمتعن بالحرية التامة والمكانة الاجتماعية لمثيلاتهن الغربيات . ان الملاحم الثلاث تصور نساء المسلمين محاربات يقاتلن جنبا الى جنب مع رجالهن ، فمارفيسا Marfisa في **Orlando** وكلوريندا في **Gerusalemme liberata**، تقود أقطاب المسلمين . ويستدعي هذا المفهوم البعيد عن الاسلام تماما أمازونيات الالياذة Iliad وكاميلا الانياده Aeneid، كما يضيف من ناحية أخرى عناصر تشويقية الى القصص . وعلى وجه العموم ، فان كلتا الملحمتين الايطاليتين تقدمان المجتمع المسلم والمسيحي على أنهما متشابهان ، رغم أن كلا منهما قد وضع في قالب رومانسي . لذا ، فان القصيدة لا تكشف عن أي تحامل أو احساس بتفوق الحضارة الغربية على مدنية الشرق . وحقيقة الأمر أن « تكنولوجيا » وسياسات الغرب في القرن السادس عشر لم تكن على المستوى الذي يسمح للأوروبيين بالاحساس بالتفوق الحضاري . ولم تكن عاطفة العداء للاسلام قائمة على العنصرية ، لأنه ليس في هذه الملاحم أثر لأي احساس بتفوق العنصر الأوروبي على الاتراك والعرب ، وعلى ذلك ، فان اريوستو Ariosto لا يجد غضاضة في أن يقدم العربي روجيرو Ruggiero على أنه مؤسس بيت دي ايست d'Este، أولياء نعمته(٧) .

ان عدم وجود شكل للحضارة الاسلامية في الملاحم الايطالية على الأقل يعود الى الجهل الذريع بها ، كما أن

---

(٥) Of 14 : 11-32; Gl 18: 4-32; L3: 6-19, 7: 12-22

(٦) Of 14; 30.

(٧) ان النظرة تجاه الأفارقة السود تظهر آثارا عنصرية . فكلوريندا Clorinda في ملحمة **Gerusalemme liberata**، ليست الا ابنة الملك الأثيوبي وملكته السوداء الجميلة ، وتتحول كلوريندا Clorinda هذه الى امرأة بيضاء اذ أن الزينة حول مخدع الزواج تظهر فتاة بيضاء جميلة ان تركيبة تاسو الغربية تعود الى كوينتيليان (12:13-14) ان مسيحي أثيوبيا السود ينظر اليهم بصورة ودية (12:21-26) في حين أن الأفارقة المسلمين ينظر اليهم على أنهم سود وقبيحوا المنظر (17:32). ان أقطاب السود في ملحمة **Orlando fnrioso** هم النوبيون الذين يساعدون المسيحيين على مهاجمة بيزرطة Bizerta (38:35-64). وبحارة دي جاما Da Gama يدخلون في مناوشة مع أفارقة سود يتهمونهم ، ظلما ، بالخيانة .(L 5:28-36)

الحديث عن الدين الاسلامي يضفي مزيدا من الصور القائمة عن الاسلام . فالمسيحية والاسلام دينان سماويان لهما عقائدهما التوحيدية والأخلاقية المضمنة في كتابين مقدسين هما الانجيل والقرآن ، حمل أمانة تبليغهما رسولان كريمان . ان كلا الدينين يحث على اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والصوم . كما يكشف القرآن عن احترام عميق لعيسى عليه السلام وأمه مريم .

لكن الملاحم صمتت صمتا مطبقا ازاء هذه القضايا ، بل انها تساوي المسلمين بالوثنيين . ولعل المثير للتناقض أنها تتبع في مفهومها للاسلام نهج العصور الوسطى القائم على وجود تشابه ضئيل للغاية بين الديانتين في بعض القضايا . وعلى هذا فان اريوستو Ariosto يبتكر شخصية رجل دين مسلم على نمط الكاهن الغربي[٨]. وقد ابتدعت الأناشيد البطولية ثلاثية اسلامية لمحمد (صلعم) وترفجانت Tervagant[٩] وابوليون Apollin، وتظهر آثار ذلك عندما يصف اريوستو Ariosto المسلمين على أنهم عبدة لمحمد ، وترفجانت Tervagant واننا اذ نحجم عن الخوض في افتراءات العصور الوسطى ضد محمد (ص) ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، مازعموه من أنه وقع سكرانا ، وقد افترسته الخنازير . وعلى وجه العموم ، فقد شبه دور النبي بدور المسيح . وعلى هذا ، فان المسلمين ـ في رأيهم ـ يأخذون على أنفسهم العهود لمحمد ، يتضرعون لمساعدته في المعارك ، بل ويقدسونه . وعندما تجابهم هزيمة ، فانهم يدعونه ويقدمون النذور للمعابد ، والأضرحة ، والمذابح[١٠]. ومع هذا فان بعض معتقدات المسلمين قد سجلت بشكلها الصحيح مثل الختان ، وتحريم الخمر وتحريم الأصنام . ولكن حين تحاول أن تستخرج أحكاما من هذه القصائد ، فانك ستجد فيها أن الهدف الرئيسي للمساجد عند المسلمين هو أن تعرض فيها الدروع والأنصاب التذكارية التي غنمها المسلمون من الفرسان المسيحيين[١١]. ومن الجدير بالذكر أن الاشارة الوحيدة الى محتوى القرآن تؤكد بصورة خاطئة أنه يقر النهج التركي في حمل الشبان النصارى عنوة على أن يكونوا انكشاريين[١٢]. ورغم أن الملاحم تشير الى خلافات سياسية بين المسلمين ، وشجارات بين قادتهم ، الا أنها لا تشير أبدا الى التقسيمات الدينية داخل الاسلام . ولعل الاشارة الوحيدة الى « البروتستانية » قصد بها مقابلة وحدة الاسلام بالتنوع الديني المسيحي (متحدون دوما)[١٣]. ويغلب على الظن أن المراد من ملاحظة ، كاموينس Camoens هذه أحداث تأثير بلاغي أكثر من كونها جهلا بالجهود الأوروبية المترسخة لتأليب فارس الشيعية ضد تركيا السنية . ويصور اريوستو المسلمين في سلوك بعيد الاحتمال . فميدور Medor في ملحمة **Orlando furioso**، الذي قدم بشكل متعاطف ، يصلي للقمر

(٨) Of 38:81-85, 40:13.
انظر : C. Meredith Jones, "The Conventional Saracen of the Songs of Geste," **Speculum**, 16, 1942, 210.

(٩) **Jones**, p. 210; Of 12; 60, 38:18.

(١٠) انظر رشا الصباح **The Figure of the Arab in Medieval Italian Literature,** Kuwait University, 1983 p.7

(١١) Of 18:55, 38; 86, 40:13; GL 20:113, 7; 17—Jones, p. 213.

(١٢) Of 42:5, 29:22; GL 2:50, 20:85; Of 18:55.

(١٣) L 7:13.

مثلما يفعل الثالوث الوثني ديانا Diana[١٤]. وفي Gerusalemme liberata نجد اسمينو Ismeno الساحر ، وعلاء الدين Ala-dine ملك اورشليم ، يسرقان ايقونة لمريم العذراء ، ويضعانها في المسجد على اعتبار أنها تعويذة[١٥].

ان القصائد الثلاث تسم أبطالها المسلمين بخصائص عديدة محببة ، لأن طبيعة الملحمة تتطلب هذه الأشياء ، فشجاعة هيكتور Hector تدعم نصر أخيل Achilles، وأقطاب المسلمين شجعان بالمثل في الملحمتين الايطاليتين ، وأقوياء في ادارة الجيش ، ومعظم هؤلاء الأبطال ينقسمون الى فئتين : فئة ادرجت ضمن المرتدين عن الاسلام الى المسيحية ، من أمثال روجيرو Ruggiero، ومارفيسا Marfisa، وسوبرينو Sobrino، وكلورندا Clorinda، وهم نماذج لكل فضائل الفرسان . والفئة الأخرى قد قدّر لها أن تسقط أمام الجيوش المسيحية . ومع ذلك فهم مستحقون للثناء لشهرتهم وبسالتهم ، التي أظهروها بهزيمتهم الفرسان المسيحيين من الطبقة الثانية ، تماما مثلما يهزم هكتور Hector باتروكليس Patraclus. وعلى الرغم من أن شجاعة Rodomonte رودومونت في ملحمة اريوستو Ariosto، ومانديكاردو Mandricardo وساكريبانتي Sacripante تشبه تماما شجاعة ارجانت Argante وسليمان Solimano، وتيزافيرنو Tisaferno في تاسو Tasso، فانه قد أخذت عليها القسوة والغرور[١٦]. وتستعرض الملاحم مشاهد عديدة لقسوة المسلمين لكن هذا يقابل بأمثلة من قسوة المسيحيين ، كما نجد ذلك في مشهد الاستيلاء على أورشليم[١٧]. وتظهر هذه الملاحم العديد من المسلمين حكاما أكفاء أو مستشارين حكماء . ان اريوستو Ariosto على وجه الخصوص يصف المسلمين بالرأفة والاخلاص لقائدهم والتضحية بالنفس من أجله[١٨].

ان المسلمين في موزمبيق يستقبلون رجال دي جاما da Gama بطريقة وديـة الى أن يدركوا أنهم مسيحيون ، والملك المسلم لمالندي Malindi ورجاله يتجانسون بشكل رائع مع البرتغاليين رغم اختلاف الدين[١٩]. كما تصف هذه الملاحم بعض المسلمين بأنهم مخلصون ، بل وورعون في ايمانهم[٢٠]. وليس هناك أي اتهامات ضد المسلمين بالكسل أو الحسية أو الشبق[٢١].

ان الفرسان وبحارة هذه الملاحم بعيدون عن أوطانهم ، ولكنهم نادرا ما يبالون بالنساء اللائي تركنهم وراءهم . ان الحب بين الرجل والمرأة ، يمر ، عادة ،

---

(١٤) L 7; 9.

(١٥) Of 18:184.

(١٦) GL 2:6-7.

(١٧) Of 18:25; Gl 19:26.

(١٨) Of 16:24-25; GL 1:87, 19:29-30; L3; 64.

(١٩) Of 14:24, 38:65; GL 11; 29; Of 18:170, 19:11; 25, 81.
ايضا : GL 9:86, 17:32.

(٢٠) L 1:54-63, 2:71-113, 6:1-5.

(٢١) Of 41:43; L 7:33-36.

عبر خطوط دينية ، وهذا ـ كما يظهر ـ تقليد يرجع في بعضه الى الأناشيد البطولية . وفي معظم الحالات ، فان الحب يقود الى الارتداد الديني ، والنساء المسلمات ، في الأعم الأغلب ، هن الائي يقعن في حب فرسان مسيحيين ، حيث تجد فيورديليجي Fiordiligi تحب براندیمارتي Brandimarte، وايزابيلا Isabela تحب زيربينو Zerbino، وايرمينا Erminia تحب تانكريد Tancred وارميندا Arminda تحب رينالدو Rinaldo، غير أن هذا يقابل بمواقف مماثلة عند الطرف الآخر ، فبرادامانت Bradamante، الأمازونية المسيحية ، تتزوج مسلما مرتدا هو روجيرو Ruggiero، والولع بارميدا Armida يقود رامبالدوا Rambaldo الى الارتداد عن المسيحية(٢٢).

ان تاسو Tasso وكامونس Camoens يركزان على ابراز نقائص المسلمين أكثر من اريوستو Ariosto، وعلى هذا ، فان الملحمة البرتغالية تصور المسلمين ، مرارا وتكرارا ، على أنهم جبناء في المعارك(٢٣). ولعل ما يفوق ذلك ، أن تاسو Tasso، وكامونس Camoens، على نحو خاص ، يصفانهم بالخديعة والمكر ، وهي نقائص تتنافى تماما مع مبادىء الفروسية(٢٤) ويمثل السحر في كلتا الملحمتين الايطاليتين مساحة مشتركة فاريوستو Ariosto لا يرى أن هناك اختلافا في طبيعة السحر ووظيفته عند كل من المسلم والمسيحي ، وهذا بدوره يضفي على قصيدته مزيدا من الخيال والغرابة أما فيما يتعلق بتاسو Tasso فان الموقف عنده مختلف تماما ، اذ يبدو السحر سلاحا مفضلا لدى المسلمين . وهم يستخدمونه في الشر أكثر مما يتباهون ببراعتهم فيه ، ان كبار السحرة المسلمين من أمثال اسمينو Ismeno وايدرويت Idraote، يستعينان بالشياطين(٢٥) وتشاركهما في هذا الساحرة ارميدا Armida أبنة أخ ايدرويت Idraote. ويقابل هذا ، من الجهة الأخرى ، العراف المسيحي الناسك الذي يعمل على إبطال سحر أرميدا Armida، ويرفض بجلاء المساعدة الشيطانية ، ويعزي سحره الى الدراسة المدققة للنجوم والقوى الخفية لعناصر الطبيعة . اذن ، فليس من المستغرب أن يجعل تاسو Tasso الشيطان في خدمة القضية الاسلامية(٢٦).

ان الارتداد عن المسيحية الى الاسلام ، في الجهة المقابلة ، قد ازداد زيادة ملحوظة خلال القرن السادس عشر . وقد أخذ اريوستو Ariosto يذكر ، من غير أن يشعر بالمرارة ١٥,٠٠٠ حالة مرتد مسيحي يعيشون في القاهرة(٢٧). ويذكر تاسو Tasso ثلاثة مرتدين هم ، اسمينو Ismeno، ورامبالدو Rambaldo وايمرينو

(٢٢) لكن تاسو Tasso يلمح الى لواطة بين سليمان Solimano وليسبيون Lesbino 9; 81-87.

(٢٣) Jones, p. 220; Of 46:73; Gl 5; 75.

(٢٤) L 1:89-91, 2; 25-28, 3:67, 3:50: لكن في موضع آخر ، يمتدح كامونس Camoens شجاعتهم

(٢٥) GL 19:25, 19:89, 19:129; L1; 69-70, 1; 96-101, 2: 61-66.

(٢٦) GL 2:1-4, 13:5-12, 4:20, Jones, p.218.

(٢٧) GL 14:42; 4:1, 7:99-101.

فأما الأول منهم فمكروه على Emireno(٢٨) الاطلاق ، وأما الآخران فهما على الأقل يحاربان في بسالة دفاعا عن معتقدهما الجديد . ومن الأمور الجوهرية في هذه الملاحم الثلاث الاشارة الى المسلمين الذين يتحولون الى المسيحية من أمثال روجيرو Ruggiero ، ومارفيسا Marfisa ، وسانسونيتو Sansonetto ، وبراندیمارت Brandimarte ، وسوبرينو Sobrino في ملحمة اريوستو Ariosto(٢٩) ، وكلوريندا Clorinda ، وارميدا Armida في ملحمة تاسو Tasso(٣٠) . وفي ملحمة Os Lusiads ، نجد المسلم مونكيد Moncaide ، الذي يلتحق فرحا ببعثة دي جاما da Gama في كالكت Calicut ، ويعمل على انقاذها بتحذيرها من مؤامرة يديرها المسلمون ضدها ، يرتد بعد ذلك الى المسيحية(٣١) . كل هؤلاء المرتدين ، باستثناء أرميدا Armida شخصيات عفيفة ومحببة قبل الارتداد وبعده . أما الفرحة التي يعبر عنها الشعراء في توكيد الارتداد فانها توحي أيضا بأساس ديني لموقفهم تجاه المسلمين .

ان هذه الملاحم ، عكس الأناشيد البطولية ، لا تدخل في قذف سمج ، ولا تضفي على المسلمين مسميات سخيفة ، ولا تصورهم أسرى شهواتهم ولا تركز على قسوتهم(٣٢) . ويظهر اريوستو Ariosto أقل هوى ، رغم أن موضوعه وأسلوبه هما الأقرب الى الأناشيد البطولية ، فمعظم تحامله يبدو مجرد أثر لهذا التقليد . انه لا يأخذ نفسه بجدية كبيرة ، وهمه الامتاع أكثر من التوجيه أو التثقيف . ان الحادثة الافتتاحية التالية تمثل طابع ملحمة **Orlando furioso** : يلتقي كل من المسيحي رينالدو Rinaldo والمسلم فيراو Ferrau صدفة بانجيلكا Angelica أميرة كاثاي Cathay الحسناء . وبينما هما يتقاتلان من أجلها ، تهرب . وعندما يدركان ذلك ، يقترح فيراو Ferrau المسلم على خصمه أن يركب معه على حصانه ليبحثا عنها . ويعلق اريوستو Ariosto على هذه الحادثة فيقول :

> **أواه ، يالعظمة الفرسان القدامى !**
> **كانوا متنافسين ، كانوا مختلفي العقائد ،**
> **كانوا لا يزالون مشفقين على أجسامهم من آلام**
> **الضرب المبرح ، ورغم ذلك**
> **فانهم كانوا يذهبون معا عبر الغابات المظلمة**
> **والممرات المتعرجة ، دون أن ينتابهم أدنى**
> **ارتياب(٣٣) .**

كان تاسو Tasso وكاموينس Camoens أكثر احساساً بالمرارة تجاه المسلمين ، فقد لاحظنا كيف أن كاموينس Camoens كان يركز على جبن المسلمين ، كما كان يركز تاسو Tasso على غدرهم . وكان كلا الرجلين يتكىء على الكراهية العنيفة التي يكنها

---

(٢٨) Of 15:64.

(٢٩) GL 2:2, 5:75, 7:33-35, 17:32.

(٣٠) Of 22-36, 41:59, 38:7, 15:95, 41:39, 46:60.

(٣١) Gl 12:65, 20:136.

(٣٢) L 9:15.

(٣٣) Jones, p. 205.

المسلمون تجاه المسيحيين . كما كان كلا الشاعرين يشعر بأنه مطالب بأن يرد الضربة بضربة مثلما كان يفعل ذلك كبارهم ، فمبدأ « أحبب عدوك » لم يكن له مكان داخل هذا الاطار . ان المسلم مقيت ، لأنه مكروه دائما من المسيحيين ، وهو يبادلهم هذه الكراهية . ان الشاعرين يكرهان الاسلام لأنه في رأيهما زائف ولأن المسيحية على حق[٣٤]. والجهل يمنعهما من الدخول في جدال مؤثر ضد معتقدات الاسلام وشعائره . حقا ، ان اتجاههما لتشبيه الاسلام بالمسيحية قد جعل النقد خطيرا ، لأن ذلك قد يقلل من شأن المسيحية . لكن يبدو أن المعاناة الذاتية كانت قد شحذت كراهيتهما ، ففي عام ١٥٥٩ ، أغار القراصنة الأتراك على بلدة تاسو Tasso ـ سورينتو Sorrento ـ فقتلوا وأسروا معظم السكان . وكان تاسو Tasso صغير السن مع أبيه في البندقية خلال هجمتهم ، ولكن أخته كورنيليا Cornelia التي فقدت قد فرت الى التلال ، واعتبرت في عداد المفقودين[٣٥]. وقد فقد كاموينس Camoens احدى عينيه ، حين كان جنديا صغيرا يشارك في معركة ضد المغاربة في مراكش . لقد قضى أجمل سنوات حياته مابين عام ١٥٥٣ الى ١٥٧٠ ، في آسيا حيث كان يقاتل على ساحل البحر الأحمر وساحل مالابار Malabar . لقد بنى البرتغاليون امبراطوريتهم الشرقية رغم المعارضة الاسلامية من أيام دي جاما da Gama الى جيل كاموينس Camoens نفسه .

لقد كان العداء بين المسيحيين والمسلمين يتصاعد حدة ، خلال السنوات التي كان تاسو Tasso وكاموينس Camoens يمارسان الكتابة . أما السنوات ما بين ١٥٥٩ الى ١٥٦٥ ، فقد وسمت بالتفوق التركي في البحر الأبيض المتوسط ، غير أن هذا التفوق قد تصدع نتيجة الاخفاق التركي في الاستيلاء على مالطة عام ١٥٦٥ . وفي العام التالي ، خرق الأتراك هدنتهم الطويلة مع الابسبورغيين في المجر . وفي عام ١٥٦٩ حاول الأتراك الاستيلاء على كازان واستراخان من الروس في الوقت الذي فيه بدأت ثورة مسلمي غرناطة على فيليب الثاني Philip II الذي سحقهم دون رحمة . وفي تلك الفترة ، استولى ملوك الجزائر المحاربين على تونس الدائرة في الفلك الأسباني . وفي العام التالي هاجم الأتراك البندقية من اتجاهين من البلقان ، ويغزو ناجح من قبرص . وقد ردت البندقية وفيليب الثاني Philip II وبيس الخامس Pius V على ذلك بتشكيل الحملة المقدسة . وفي عام ١٥٧١ دمر أسطول الحملة بقيادة دون جوان Don Juan النمساوي ، الأسطول التركي عند ساحل ليبانتو Lepanto في أكبر معركة سفن شراعية في تاريخ البحرية . وقد حاول السلطان أن يقلل من وقع الخسارة فاعتبرها كما لو كانت « لحية قد سفعت » ، وأعاد بناء اسطوله ، واستمرت الحرب حتى عام ١٥٧٧ غير أن البندقية لم تصمد ازاء الانهاك المادي المستمر ، فسقطت . وكان السلطان قلقا يتوجس من الصفويين Sophy فلم يلبث أن صرف اهتمامه المتصاعد الى الجبهة الفارسية في الوقت الذي كان فيه على فيليب الثاني Philip II أن يسهر على الجرح الهولندي النازف[٣٦]. لقد عكست دون شك كل من الـ **Lusiads**، التي

---

(٣٤) (الترجمة العربية للباحثة) .OI 1:22

(٣٥) .GL 9·19, 16:47; L1:69-70, 1.93, 2:9, 7:10, 3:20, 3:82, 3:112; OI 8:69

(٣٦) انظر .C.p.Brand, **Torquato Tasso**, (Cambridge:Cambridge University Press, 1965) ص٨

نـشـرت عـام ١٥٧٢ ، و **Gerusalemme liberata** التي اكتمل بناؤها عام ١٥٧٥ ، قلق وفورة منطقة ليبانتو Lepanto .

ان الملاحم الثلاث كلها تطالب بحملات صليبية جديدة ضد المسلمين . وان نظرة اريوستو Ariosto المتسمة بالصفاء والقدسية ، اضافة الى الانشغال الايطالي بحروب ايطاليا في وقت ممارسته الكتابة ، يجعل دعوته لحملة صليبية أمرا مثيرا للغرابة . ولعل الأمر يكون مناسبا لو اسقطنا دعوته هذه واعتبرناها عاطفة دينية تقليدية ، غير أن اريوستو Ariosto يبدو جادا بشكل مفزع مع أنه لم يتحدث من قبل ـ في موضع آخر ـ الى أبناء جيله ، حديثا مباشرا مفعما بالحماس . ويبدو أن دمار ايطاليا والمذابح المتبادلة فيما بين المسيحيين هي التي دفعته الى المطالبة بتوجيه جيوشهم ناحية الاتراك[٣٧] . اما دعوة تاسو Tasso الى حروب صليبية جديدة فانها تتخذ مسارا دينيا واضحا ، وتعتمد بصورة أدنى على الخطاب المباشر من اعتمادها على معالجة الموضوع برمته[٣٨] . أما فيما يتصل بكاموينس Camoens فان المسلم عنده يظل عدوا لدودا على الدوام للبرتغال . لذا تجده في افتتاحية ملحمته التي أهداها الى الملك سبستيان Sebastian ، يحثه فيها على ان يوقع رعبا جديدا في قلوب المسلمين ، وأن يكسب أرضا جديدة للدين الصحيح ، ثم يضيف قائلا : ان العالم كله سيرتعد ، وسيحملق المغاربة رعبا في مآثر الجيوش البرتغالية في أفريقيا وفيما وراء البحار . انه يمجد ، مرارا وتكرارا ، الملوك البرتغاليين في العصور الوسطى الذين هزموا المسلمين وطردوهم .

لقد استحضر كاموينس Camoens ، عندما كانت بعثة دي جاما da Gama على وشك أن تغادر لشبونة Lisbon ، شخصية بطريركية تتكلم نيابة عن الشاعر في نقد بناء امبراطورية في الهند ، وتحث على حرب ضد المسلمين في أفريقيا ، وتتوجه الأبيات الأخيرة في ملحمة **Lusiads** الى الملك سبستيان Sebastian في أن يسوي التحصينات في المغرب بالأرض . وأنه ان انجز هذا الأمر ، فان ربات شعر كاموينس Camoens سوف تتغنى بمآثره حتى تدرك البشرية بأسرها أنه الأسكندر الثاني ، بل على العكس من ذلك تماما ، فان سبستيان Sebastian لن يكون في حاجة ليغبط اخيل Achilles على اتخاذه هوميروس Homer مخلدا لفعاله[٣٩] .

ان النتيجة معروفة تماما فسبستيان Sebastian يكافىء كاموينس بمعاش بسيط ، لكنه ليس بحاجة الى شاعر يحثه على حرب صليبية[٤٠] ، فذكاؤه المحدود وخياله الدونكيشوتي يقودانه الى القيام بحملة على المغرب ، متجاهلا تحذيرات مستشاريه ، وتحذيرات فيليب الثاني Philip II . وهنا يقوم الملك شريف عبدالملك بالرد على الحملة الصليبية باعلان الجهاد .

(٣٧) انظر : Fernand Braudel, **The Mediterranean and The Mediterranean World in the Age of Philip II,** ترجمة Sian Reylonds, (New York: Harper and Row, 1973), II, pp. 967-1185

(٣٨) Of 17:73-79.

(٣٩) GL 17:93-94.

(٤٠) L 1:7-8, 1:15, 3:23-118, 4:94-104, 10:156.

ويتعرض البرتغاليون ، الذين تقودهم قيادة ساذجة ، وهم يعانون من الجوع والعطش والانهاك تحت شمس الصحراء المحرقة الى هزيمة ساحقة في القصر الكبير في ٤ أغسطس ١٥٧٨ . ويهلك سبستيان Sebastian مع نصف جيشه في ميدان القتال ، في حين يؤخذ الأحياء عبيدا وأسرى مقابل فدية . ويموت كاموينس Camoens بعد سنتين . في حين يطالب فيليب الثاني Philip II بوراثته للبرتغال(٤١) .

لقد أوحت الحملة الصليبية الأخيرة بأن الشعر العظيم ليس له أحابيل السياسة الحكيمة(٤٢) .

* * *

(٤١) H.H. Hart, Luis de Camoens and the Epic of the Lusiadas, (Norman: University of Oklahoma Press, 1962) p. 195.

(٤٢) Braudel, II, 1178-1184; E.W. Bovill, The Battle of Alcazar, (London: Batchworth Press, 1952).

الجبرتي والغرب في الفكر العربي الحديث

مصطفى عبد الغني

تمهيد

إن تركيز الضوء على ظاهرة ما في لحظة متوقفة عبث لا طائل وراءه ، فمن الخطأ ان نتعامل مع هذه الظاهرة أو تلك بشكل (آلي) في لحظة متفردة لنفصل ما قبلها عما بعدها ، أو نقتصر على رؤية الانسان في التاريخ بوصفه (هيكلا تصوريا) للانسان .

وهذا الخطأ الذي يقع فيه كثير من الدراسات المعاصرة لا يمكننا من تفهم دلالات الحاضر في ضوء الماضي ، ووضع قانون مصغر للاشياء نستطيع به تفسير ما سيجري اللحظة المقبلة ، ومن هنا ، فنحن في خلاف دائم مع فلاسفة التاريخ الامريكيين ، خاصة ، ممن جهدوا لتصبح النزعة التجريبية الوضعية لها سيادة مطلقة ، كما اننا في خلاف دائم مع أولئك المؤرخين التقليديين أو (كتبة) التاريخ المحلي ممن يحاولون فهم هذه الظاهرة أو تلك بمعزل عن السياق التاريخي ، وهو ما يخالف كثيرا من المراحل للفهم النقدي للتاريخ وطبيعة رسالته .

وهذا الفهم الرتيب الخاص بالمنهج لا يقتصر على تصور الوعي الشخصي فقط ، وإنما يجاوزه في تصور الوعي في فهم العملية التاريخية ، فالظاهرة في اطارها الزمني ليست منبتة الصلة بغيرها في البنى السابقة عليها . ومن هنا ، لا يمكن أن نرى في محاولات « البنائية » في هذا الصدد فائدة كبيرة لتقصي الدلالة ، فمن الصعب بمكان أن ننظر الى الحادثة التاريخية في إطار محدد يختلف عن العالم ولا يتماشى مع بقية أفعاله الاخرى ، وان كنا نتفق معها ، بالضرورة ، في محاولة فهم الظاهرة للقبض على هذا النظام المصغر ودلالاته بغيره ، لنستطيع ، من ثم ، فهم النظام العام واحكامه .

والأكثر من هذا دلالة اننا وحتى في البحث عن قانون داخلي أو ـ حتى ـ شفرة تكشف عن حركة الابنية

الداخلية للحادثة ، فإننا لا نستطيع تجاهل علاقة هذه الشفرة بغيرها ، على افتراض انها يمكن أن تمثل في لوحة الفسيفساء (زمنيا) جزئية تكرر نفسها في متتالية دائمة مستمرة .

وهنا ، نجاوز حركة (العدسة) المتوقفة إلى حركة (العدسة) الزاخرة بالمعاني والدلالات .

وعلى هذا النحو ، نصل إلى الفارق بين رؤية (البنائية) في اطارها اللازمني وبين الرؤية (التاريخية) في دأبها على التقاط الأحداث واستيعابها في إطار زمني يعي ما قبله ويعمل لما بعده .

وليس معنى ذلك أننا نقتصر على (البنائية) في تصورها الرياضي أو نقترب من (الماركسية) في تطورها الزمني . ففي رأينا ان البنائيين استفادوا كثيرا من المفاهيم الماركسية الأولى وشراحها (من المعروف أن البنائيين الأول رضعوا الماركسية مع ما رضعوه من أمهاتهم ، فمن يقول « ريمون آرون » . فهي جزء لا ينفصل عن فكرهم ، ولذلك فان التوسير وسارتر ولوفيفر وليفي شتراوس كلهم ادعى لنفسه حق ممارسة الديالكتيك الماركسي ـ وهو ما اشارت اليه أديث كيرزويل في كتابها : عصر البنيوية الذي ترجمه أخيرا للعربية د. جابر عصفور .

ومن هنا ، ستظل محاولاتنا مقصورة على الافادة من هذه الاجتهادات مجتمعة بأن تتعامل مع الظاهرة وتقبض على دلالاتها بمنظور خاص ، لا يلتزم بالضرورة بالمناهج ، بقدر ما يدخل معها في علاقة نقدية بالمعنى الفلسفي .

ومما سبق ، سوف نحاول أن نعيد الهرم إلى وضعه الطبيعي مقلوبا من الرأس الى القاعدة ، وبدلا من أن نحدد (نموذجا) معينا ، نهتم عنده بالوصف فحسب ، سنضيف إلى هذا محاولة سابقة تجهد في وضع هذا (النموذج) في إطار التتابع الزمني وتطوره . . غير أن الترتيب الذي يمكن أن يكشف لنا عن الأبنية الداخلية وعلاقاتها في السياق العام سوف يظل هنا ثابتا .

فلنخرج من اطار المنهج إلى اطار الرؤية والتفسير .

إن العلاقة بين الشرق والغرب ، أو بين الجبرتي (كممثل لفكر الشرق) وبين صحف بونابرت في مصر حينئذ (كممثل لفكر الغرب) ، تظل هي العلاقة التي سنصل في اطارها إلى مفاهيم مجردة ، وسوف تسبق هذه المرحلة مرحلة أخرى تمهد لها ، وتكشف في التتابع الزمني عن المؤثرات العامة التي أدت إلى تحديد (خصائص) الظاهرة والكشف عنها اذا أمكن ، والافادة من هذا (القانون) المصغر الذي يمكن من خلاله كشف طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب فيما بعد ، وحتى الآن ، في إطار هذا الفهم .

وبشكل آخر ، سيتحدد اطار هذا البحث في خطين :

الاول : دراسة خصائص عصر الجبرتي ، وملامح الثقافتين : العربية والفرنسية ، لنخرج ، من ثم ، من التعميم إلى التفصيل .

ثانيا : دراسة موقف الجبرتي الخاص من الفئات الدخيلة على مصر ، وهو ما سيصل بنا من جديد الى رصد بعض الدوافع التي كانت وراء تدوين الاثر الفكري سواء في الجانب الشرقي أو الغربي .

وسوف نقبض على عديد من خيوط شبكة التحولات من خلال هذين الأثرين :

* **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** : عبدالرحمن الجبرتي ، الجزء الثالث ، (وقد طبع بالقاهرة بدون تاريخ) .

* **Courier de L'Egypte** : وهي الصحيفة التي انشأها نابليون بونابرت حين جاء الى القاهرة (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ، وقد طبعت بالازبكية بالقاهرة .

وسوف تتحدد الفترة الزمنية هنا بين عامي ١٧٩٨ - ١٨٠١ على اعتبار انها الفترة التي تحدد من خلالها دائرة اللقاء الأول بين الشرق والغرب ، على أن تمثل هذه الفترة مركز الدائرة للدائرة الأرحب للعلاقات بين الشرق والغرب قبل هذا وبعده ، وخاصة الفترة التي تمتد بين عامي ١٧٦٠ - ١٨٤٠ لاعتبارات سيزيدها البحث ايضاحا كما سنرى .

وسوف نرى أن هذه الفترة ستقسم إلى ثلاثة حروف ، تتوسط الفترة الأولى ١٧٩٨ - ١٨٠١ وهي الفترة (ب) التي تتوسط فترتين أخريين أطلق عليهما (أ) و (جـ) .

ولا يمكن أن نتعرف على خصائص عصر الجبرتي دون تفهم العصر الذي سبقه على اساس ان مجموعة الخصائص والتغيرات التي حدثت في هذا العصر - السابق - هي التي أدت إلى بنية زمنية تالية .

وليس من شك أن دراسة هذه البنية الجديدة تصل بنا ، بالتبعية ، مع التغييرات الى تتابع يصل إلى البنية الثالثة ، وهي العصر الذي يعقب فترة وجود بونابرت في مصر .

وعلى هذا النحو ، فإن تمثل البنى الزمنية الثلاث يمكن أن يسهل لنا دلالة التتابع واهميته من منظور محايد .

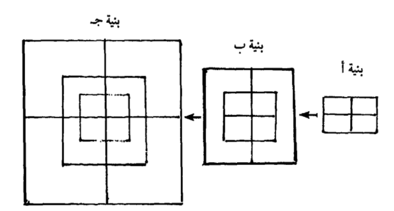
إننا يمكن أن نتمثل بني العصور الثلاثة برموز ثلاثة هي : أ ، ب ، جـ ، فنرى العصر السابق على عصر الجبرتي على أنه (أ) ، ثم عصر معاصرة الجبرتي لبونابرت على أنه (ب) والعصر التالي على أنه (جـ) .

وهذا التصور يكشف لنا طبيعة (البنى) دائما في تغييراتها الزمنية ، السابقة أو اللاحقة ، بما يوفر لنا امكانية التعرف على الخصائص أو العلائق المتغايرة من هذه البنية أو تلك ، بما يقرب بنا من تكشف طبيعة الخيوط المخبأة في نسيج المستقبل .

وسوف نتمثل هذه البنى على النحو الاتي :

إن الرمز الذي سبق مجيء بونابرت إلى مصر يختلط فيه كثير من التصورات التي تحول بعضها ، بغض النظر عن صدقها ، مع الوقت ، إلى أفكار ثابتة يتفق عليها عدد كبير من كُتاب التاريخ المصري من المصريين والأجانب في آن واحد .

فبينما ذهب البعض - وهم الأغلبية - إلى أن هذه الحقبة هي حقبة تجمد وتدهور ، فإن البعض الآخر ذهب إلى أنها ، على العكس ، حقبة اطّراد وتطور ، وكان يمكن أن تستمر لولا ما طرأ على الواقع المصري من تغيير منذ جاء الفرنسيون إلى مصر في نهاية القرن الثامن عشر .



وهذا الفهم الخاطىء اختلط فيه الثقافة الاجتماعية بالتحولات الاقتصادية ، فأسهم فيه كثير من الغربيين أنفسهم كي يتم تحديد هذه العلاقة وطبيعتها قبل فترة التدخل الاوروبي ثم بعده بقصد رصد عمليات استيعاب المستحدث من عناصر الثقافة الأوروبية .

فلنرجىء الدافع السسيولوجي للثقافة الغربية ، ولنتوقف ، أكثر ، حول طبيعة الواقع السياسي والاقتصادي حينئذ .

فلنحاول ، الاجابة عن هذا السؤال :

ماهي طبيعة الفترة التي سبقت مجيء بونابرت إلى مصر ؟

الاجابة لابد وأن تمضي في اتجاهين .

في اتجاه يرى البعض أن الفترة التي سبقت نابليون كان يشوبها التخلف مثل جاكوب لانداو Jacob Landau الذي راح يولع بحشد المعلومات دون تمثلها خاصة في دراساته عن المسرح ، والرحالة ادوارد لين الذي راح يسقط قصص (الف ليلة وليلة) على حياة المصريين بعد رحيل بونابرت بسنوات ، فضلا عن أن عددا كبيرا آخر لم يستطع تفسير بعض الظواهر الفنية في الشرق وتمتع بعضهم بالحس الخيالي دون الحس الوصفي من أمثال باول كالة Paul Kahle وياكوب Jacob وفولني Volnne ومولياك Moliac وتتوالى الاسماء الكثيرة بعد ذلك حتى نصل الى المؤرخ كروتشلي A.E.Crouchley الذي صور مصر على أنها كانت مجرد حطام : « فقد ضرب ريها ، وتدهورت تجارتها ، وضعفت صناعتها ، بل وبدأ عدد سكانها في التناقص ، وقد كان المجتمع بحق في حالة من الجمود وعدم الحركة » ، وقد كان هذا بالطبع يعود الى الفترة المملوكية التي لم تعرف الاستقرار السياسي والاجتماعي واقامة القانون والنظام .

هذا هو الاتجاه الذي يرى أن الحقبة التي شهدت الحملة الفرنسية هي حقبة تدهور وانحسار ، أما الاتجاه الآخر ، فهو يذهب إلى أن هذه الحقبة كانت فترة تطور وازدهار على العكس مما يذهب إليه الآخرون . وعلى رأس الاتجاه الأول كان د. لويس عوض في كتابه : تاريخ الفكر المصري الحديث ، متخذا من أعمال ابن خلدون وابن اياس ثم الجبرتي مرجعا له عن هذه الفترة فضلا عن بعض المراجع الغربية . ثم أهم باحثي هذه الفترة على الاطلاق ، وهو ، بيترجران الذي يقف على رأس هؤلاء ، الذي قال : « إن ثمة تطورا داخليا كان ناميا في مصر فيما بين عامي ١٧٦٠ - ١٨٤٠ نحو الرأسمالية التجارية ، غير انه قد اصابه بعض الاختلال من جراء الآثار المضادة التي ولدتها أنشطة التجار الأرمن واليونانيين المقيمين آنذاك في وادي النيل حتى كادت هجمة الحملة الفرنسية على مصر تقضي على ذلك التطور » .

والواقع ان دراسة الحقبة التي سبقت مجيء الفرنسيين الى مصر في نهاية القرن الثامن عشر لا تضعنا في حيرة كبيرة . . ففي حين كانت الروح المعنوية لا سيما على مستوى العلماء والمراكز الثقافية مرتفعة ، والعناصر الاقتصادية فيما تمثل في التجار في طريقها الى الارتقاء ، فان البلاد كانت تعاني من سوء النظام الاستبدادي الذي شجع على سيادة الفكر المحافظ ، وقد ظهر هذا جليا في جمود لم يلق معارضة شديدة ، فرغم وجود تراكيب آلية للبدع لم يكن ليخطأها مؤرخ هذه الفترة ، « غير أنها وفرت ادوات لتحكم السلطة الاستبدادية والعادات والتقاليد . وأحد هذه المبادىء هو الاجتهاد ، وهو بمثابة طريقة لاكتشاف منهج حكم القرآن أو السنة على موقف معين » (أحمد عبدالرحيم مصطفى ، حركة التجديد الاسلامي ، معهد البحوث والدراسات العربية ص ١٣) . . فإذا بنا أمام التقليديين الذين يتجهون الى الحد من حق استعمال الاجتهاد لانه قد يؤدي الى

شروخ تحريرية قد تفضي الى تغيير التعاليم والعادات ، ومن ثم ، فإنه بينما بدأ اطّراد الازدهار الفكري والاقتصادي من ناحية ، بدأ غلبة العادات والتقاليد عند عامة الشعب من ناحية أخرى ، وهو ما يشير في السياق الآخر إلى ان الحقبة السابقة على الحملة الفرنسية لم تكن كلها جمودا ، اذ كان من الطبيعي أن يكمن نبض الحضارة الشرقية تحت رماد العزلة والعجز .

ولنتوقف هنا قليلا ، لنحاول تركيز عين العدسة أكثر على هذا العصر من خلال فئتين اثنتين :

أ ـ العلماء/ المثقفين

ب ـ التجار/ الأعيان

على أن نضع في الاعتبار أن تطور الفئتين يسهم في تأكيد الروح القومية .

وتفصيل هذا اننا لا يمكن أن نقرأ أو نعود الى يوميات الجبرتي أو عديد من مخطوطات القرن الثامن عشر في دار الوثائق المصرية ، أو حتى ، الوثائق التي تقبع في اضابير الازهر دون ان نصل الى حقيقة ناصعة ، هي ، أن علماء الدين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير وعلم غزير ومكانة رفيعة .

لقد كان الازهر ، بشكل ما ، هو الجامعة التي تضم أكبر عدد من العلماء والمثقفين حينئذ ، والجزءان الأول والثاني من (عجائب الآثار) يزخران بدور علماء الدين الواعين ومواقفهم الايجابية من الحكام المماليك لصالح ابناء الشعب ، فبعد ان كان (القضاء) يعتمد على المماليك قبل كل شيء ، فإن خلافات المماليك وانقسامهم على انفسهم ضخم أكثر من دور العلماء ، اذ وجد كل طرف منهم أنه في حاجة ماسة إلى زعيم يستعين به على الآخر ، وكوسيط بينه وبين الشعب .

لقد بدا أن النوازع الدينية عند العلماء كانت عاصما للناس من ظلم المماليك ، وفي بعض الأحيان رد الظلم كما زادت المظالم ، ومع انه يمكن أن نقف كثيرا عند طبيعة التحالف الذي كان يقوم بين العلماء والمماليك حينئذ ، فإنه يمكن أيضا الجزم بانهم ـ العلماء ـ كثيرا ما قاموا بدور الوسطاء بين المماليك وبين الشعب (انظر احداث سنة ١٢٠٠ من الهجرة : **عجائب الاثار** ، على سبيل المثال) . أو بين المماليك وبين انفسهم أو بين المماليك وبين الوالي العثماني مما يشير الى ضخامة دور هؤلاء العلماء مما ينتج عنه ادوار ايجابية لرد الظلم عن الناس وخاصة حين تتحدد مواقفهم في حدود تطبيق المعاملات الاسلامية وبشكل نظري .

وهذا لم يمنع وقوع بعض رجال الدين أسرى للخرافة والدجل ومغالاة بعض رجال الطرق الصوفية ، غير أن دور رجال الدين عامة ظل دائما موازيا لقدرتهم التي تمتعوا بها ، ونستطيع أن نرصد في مخطوطة بعنوان (أخبار أهل القرن الثالث عشر) موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ورمز (طلعت أ ٢١٤٨ ، ص ٣٤) . . كيف أن محمد بك (ابو الذهب) ـ في فترة مبكرة ـ لقي معارضة شديدة من الشيخ الدمنهوري شيخ الجامع الازهر حين رفض ان يكتب له تصديقا للذهاب الى عكا (للحرب) ، وحين كتب هذا الحاكم إلى العلماء مستأذنا منهم . فإن بعضهم (اجاب وبعضهم امتنع) ، بما يشير إلى المكانة التي كان يتمتع بها العلماء .

وتؤكد المخطوطة نفسها بعد هذا كيف ان دور العلماء انتقل الى الخصومة واصلاح ذات البين بين المماليك أنفسهم .

ويسهب كتاب بيتر جران في تفضيل دور رجال الازهر من العلماء حينئذ . . فبعد ان يستعرض النشاط التجاري يعزو هذا الازدهار الى زيادة دور الازهر وزيادة ارتباط علمائه بهذه القوة الاقتصادية والاجتماعية (القومية) السامقة .

ويلاحظ هنا أن جران لا يكاد يصل إلى دور العلماء

الايجابي حتى يربط بينه وبين فئة التجار المصريين ودورهم ، فقد كانت هذه الفئة آخذة في التنامي والازدهار في القرن الثامن عشر خاصة ، أي قبل مجيء نابوليون .

ولا شك أن اجتهاد جران يصبح حقيقة مؤكدة حين نتوقف عند ثلث القرن السابق لمجيء الحملة الفرنسية حيث شهد نموا متسارعا لطبقة رأسمالية تجارية (مزدهرة) قومية ووطنية ، ذات موقف وطني مُعاد لسيطرة الاجانب الجراكسة والترك والافرنج .

ويؤكد هذا ما يلاحظ من هذه العلاقة الوطيدة بين الاقتصاد ورجال الدين متمثلة في تجديد علم الحديث الذي اقترن حينئذ بالنشاط الواسع للقطاع التجاري في القرن الثامن عشر وصحبه الى حد بعيد .

وبدهي هنا هذا الربط بين التحول الاقتصادي والجذور الاسلامية التي كانت تعتمد على (التحول الاقتصادي/ الزراعي/ الحرفي) في مصر في القرنين السابقين لمجيء الحملة الفرنسية ، وعلى أساس ان (الفكر العلماني الاسلامي) ، على حد قول جران ، والذي انتجه شيوخ الازهر ، لم يشرع في التبلور ، اللهم إلا ، منذ منتصف هذا القرن ـ الثامن عشر ـ وهو الوقت الذي بدأ فيه العمل لاجهاض التحولات الكبرى في المنطقة .

ويصبح من تحصيل حاصل أن نقول إن الفترة التي سبقت مجيء حملة الغرب ، انما شهدت ارهاصات التطور في شتى الميادين مما تمثل في تحالف المماليك/ الحكام مع التجار المصريين/ ابناء العرب ـ كما كان يطلق عليهم ـ وشهدت كذلك تحولات اجتماعية مصرية خالصة حيث ازدهرت أحوال التجار المصريين الذين (نافسوا المماليك انفسهم) وتوازى مع هذا كله ، صعود جماعة (العلماء) في تحالف وطني قومي .

لقد بدا واضحا الآن ، ان هذا التطور المطّرد في الاتجاه الايجابي كان يمكن ـ كما استنتج جران ـ أن يؤدي إلى تطور طبيعي آخر لو سارت الامور على النحو الطبيعي مما كان يحول بيننا وبين الصدام غير المؤهل مع الغرب وما اعقبه من تفكك في آليات التطور الذاتي في شتى الميادين .

ومهما يكن ، فإنه بمجيء الحملة الفرنسية كان على الجبرتي أن يعي طبيعة المرحلة الجديدة ومؤثراتها الطارئة ، ومن ثم ، فإنه راح يدون في اليوم الأول من مجيء هذه الحملة إحساسه الداخلي بالخطر ، واستشرافه لمرحلة جديدة ، تمضي بمصر والمنطقة العربية إلى حيث لا يحمد عقباه .

إن هذا كله بدا واضحا في أحداث السنة (١٢١٣/ ١٧٩٨) ، حيث يقول في أول الجزء الثالث من (عجائب الاثار) :

« وهي أول سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الامور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (ص : ١) .

وهنا ، يكون لزاما علينا ان ندخل إلى مساحة هذه البنية الجديدة .

فما هي ملامح هذه المرحلة الثالثة . . ؟

إن البنية التالية لم تكن منعزلة عن سابقتها قط ، ومن ثم ، فان التشابه هنا يكون موضع تكشف الاختلاف والتراكم وليس الرصد والمتابعة ، فمن الصعب فصل البنى عن بعضها ، بل ويمكن أن نضيف الى آثار البنية الثانية آثار البنية التالية ـ جـ ـ مما يمكن معه أن نطلق على

هذه الفترة الخطيرة من تاريخنا ـ كما أطلق عليها البعض ـ بأنها (مفترق الطرق) .

وإذا كانت البنية (أ) هي البنية الأولى التي احتوت على خصائص البنية الطبيعية ونسيجها الاصلي ، فان البنية (ب) شهدت التغييرات الكثيرة الطارئة والتي تمثلت في آثار الحملة الفرنسية التي احتلت مصر قرابة ثلاث سنوات (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ، وما تبع هذا من جملة التغيرات الكثيرة التي قدر لها أن تحدث قبل أن يحاول النظام العثماني العودة ثانية كي يجهز على بقايا محمد علي في البنية (جـ) التي وصلت بمصر في نهاية هذا (المفرق) الهام الى علامة جديدة في طريق العصر الحديث .

وهنا ، يمكن أن نرى في حملة بونابرت حدثا هاما في تاريخ مصر . . خاصة وان العلماء والاعيان تمتعوا ، سواء بسواء ، بنفس الدور القديم ، على الاقل في الظاهر . . وهنا ، يمكن أن نشهد الملامح الأولى في تبلور الروح القومية وتوثبها .

لقد ظل العلماء يتمتعون بهذه الأهمية ، وهو ما بدا كثيرا في عديد من مصادر هذه الفترة . . فكثيرا ما كان الجبرتي يذكر دور المشايخ اثناء هجوم الفرنسيين الاول على القاهرة ، فيقول حينئذ (فاشتد انزعاج الناس وركب ابراهيم بك الى ساحل بولاق وحضر الباشا والعلماء . .) ص ٦ ، وهو يردد في موضع آخر وفي أكثر من موضع نهوض (أكابر البلد من المشايخ) ويذكر دورهم في تنظيم علاقات التعامل بين (ساري عسكر/ نابليون) حين تمكن الفرنسيون من التغلب على أهل البلد وبين أهل البلد من الشعب . بل ان كتاب (وصف مصر) الذي وضعه الفرنسيون أنفسهم يتحدث كثيرا عن دور العلماء/ الازهر) ، كما لم تتوقف صحف الحملة الفرنسية ومصادرها عن ذكر دور رجال الدين المتعاملين مع الفرنسيين ، في أنهم ـ أي العلماء ـ لم يترددوا في أن يتخذوا موقفا مناوئا للهجوم على الفرنسيين ، فهم يعرفون ميعاد قيام ثورة القاهرة ، ومع ذلك ، فإنهم لم يبلغوا الفرنسيين .

وهذه الرواية لم يذكرها الفرنسيون فقط ، وإنما ذكرها مصدر يكاد يكون محايدا هو (نيقولا الترك) (ص ٢٨ ـ ٢٩) .

والأكثر من هذا ، أن نابليون في منفاه ـ بسانت هيلانة ـ راح يستعيد احداث الحملة بمصر ، فلم يتردد عن الاعتراف بدور رجال الدين والعلماء ، فلم يغفل قط عن كسب رضاهم وتملقهم « كانوا شيوخا جديرين بالاحترام لفضلهم وعلمهم وثرائهم ، بل ومولدهم . وكانوا عند شروق كل شمس يأتون هم وعلماء الازهر إلى قصره قبل الصلاة فيملأ حرسهم ساحة ميدان الأزبكية ، ويمتطون بغالهم المطهمة ومن حولهم أتباعهم وعدد غفير من العدائين المسلحين بالشوم فيحييهم الحرس الفرنسيون التحية العسكرية . . وفي القصر . . يستقبلون بالتجلة ، وتقدم لهم الشربات والقهوة . وبعد لحظة يقبل الجنرال فيجلس وسطهم على الاريكة ، ويحاول كسب ثقتهم بالمناقشة في القرآن ، وبطلبه تفسير الآيات الهامة ، وبابداء اعجابه العظيم بالرسول (ص) حتى إذا غادروا القصر انصرفوا إلى المساجد التي يجتمع فيها الناس ، فحدثوهم بآمالهم ، وهدأوا من روع الأمة الكبيرة وعدائها للفرنسيين . كما يؤكد صاحب كتاب (بونابرت في مصر) ج. كرستوفر هيرولد (ترجم الى العربية ونشر بالقاهرة ١٩١٧ص ٢٥١ نقلا عن مراسلات بونابرت) .

أما الأعيان فلم تكن لتخلو مصادر هذه الفترة من ذكر دورهم وأهميتهم ، فـ « عجائب الاثار » ، على سبيل المثال ، تذكر دورهم هم والعلماء في مقاومة الحملة ، فالجبرتي حين يتحدث عن فترة الكفاح ضد قوى الاحتلال كان يذكر دورهما معا ، كما كان يقرن

كثيرا بين (الشيوخ والأعيان) وهو ما فعله معاصر آخر له وهو نيقولا الترك .

ومن أكثر الملاحظات أهمية في هذا الصدد ، ان مشروع الحملة بانشاء ديوان في مصر ، جاء استمرارا لدور العلماء والأعيان في آن واحد ، فقد كان الديوان ينقسم الى قسمين :

ـ الديوان الخصوصي ، ويتكون من بعض كبار رجال الدين .

ـ الديوان العمومي ، ويتكون من كبار رجال الحرف والتجار .

وحين نعود الى بيتر جران نراه يعود بدوره إلى رصد دور الفرنسيين المباشر ، أو غير المباشر ـ اثناء الحملة ـ في اجهاض التطور الاقتصادي ، فقد كان هذا التطور قد بلغ درجة بعيدة من النضج ، إذ تؤكد وثائق هذه الفترة أن (أولاد العرب) ، التجار ، في القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد كانوا يتحالفون مع الصيارفة من الأقباط المصريين ، لكي يحتفظوا بحقهم في جني ثروة بلادهم ، وتحالف الفرنسيين والتجار السوريين والمارونيين من ناحية أخرى .

ونستنتج من هذا كله ، إن دور الأعيان المصريين وصل إلى درجة نافسوا معها المماليك ثم بدت في القدرة على التأثير في رموز السلطة العثمانية نفسها .

ومن البدهي أن نذكر أن دور أولئك التجار ظهر أول ما ظهر في تعضيد قوة الازهر وعلمائه ، ومن ثم ، زيادة ارتباط اولئك العلماء بهذه القوة الصاعدة في تجسيد الروح القومية التي كانت تتهيأ لتلعب دورا كبيرا في بلادها .

وقد يكون من المفيد الآن أن نجاوز البنية الثانية ـ فترة اللقاء بين الشرق والغرب ـ الى البنية التالية لنسأل سؤالا واحدا :

إلى أي مدى كان يمكن أن تتبلور الطبقة الجديدة من العلماء والأعيان لولا هذا الجزر السلبي\ بمجيء القوى الجديدة الفرنسيين ومحمد علي ؟

إن الاجابة تقتضينا أن نجاوز البنية (أ) والبنية (ب) لنصل منهما إلى البنية (جـ) حتى نرى تأثير البنيتين السابقتين على البنية الأخيرة .

ورغم أن حدود البحث تقتضينا التوقف عند البنية الثانية لنرى من خلال المنهج النموذجي المقارن طبيعة هذه البنية . فإن القفز إلى البنية الثالثة والعود بسرعة الى فترة وجود الحملة ـ البنية الثانية ـ يتيح عرض الفرضية التي يعرضها البحث ويحاول البرهنة عليها .

إن ملاحظة جران في هذا الشأن لا يمكن تجاهلها قط ، فبمجرد أن جاء عصر محمد علي ، ومارس (الوالي) الجديد سلطاته حتى تدهور علم الحديث وما صحبه من علوم التاريخ والمنطق والادب وفقه اللغة وما الى ذلك من العلوم التي تنتمي الى الفهم والعقل أكثر مما تنتمي الى التبرير والتعليل ، ومن ثم ، كان من الطبيعي ان يزيد الاهتمام في البنيتين السابقتين بعلم الكلام الذي يستخدم عادة لتكريس الوضع القائم ، ووضع العقول في اقفاص المحددات المطلقة ، وهذا لا يمنع من الاهتمام بالعلوم التطبيقية ولكن في اتجاه تكريس الدولة (عسكريا) لتحقيق أحلام الوالي العسكرية .

ومن هنا ، فنحن أمام ملاحظات جديدة يمكن على ضوئها ملاحظة أمر آخر ، يظهر في ضياع دور العلماء ورجال الدين ، وتلاشي مكانة التجار والاعيان من المصريين الاصلاء .

وبمجرد انتهاء حكم محمد علي أو تحطيم ملكه ، فإن علم الحديث يعود من جديد الى دائرة الاهتمام لكن في وقت يكون فيه التأثر الغربي قد وصل الى درجة قصوى من درجات التأثير ، فاذا السياسة الاقتصادية والفكرية التي عمل لها الغرب ونفذها تبدأ بعلم الحديث ، فإذا

بالاهتمام يعود من جديد إلى علم الكلام ، وتظل الحلقة مفرغة كما هي .

وبعد أن كان التطور الاقتصادي سواء في البنية الاولى ، وإلى حد ما في البنية الثانية نابعا من الروح القومية ومنجزاتها ، فقد اصبح التطور الاقتصادي الآن نابعا من جديد من حاجة الغرب ومتطلباته .

وبعد أن كان التطور الفكري والديني نابعا من البيئة المصرية والمراكز الاسلامية الأخرى في الشرق ـ كدمشق واسطنبول ـ فقد أصبح الآن تابعا لثقافة الغرب وتوجهاته ومراكز الثقافة البعيدة فيه .

وعلى هذا النحو ، يمكن أن نصل إلى بدهية أخيرة مؤداها أن الحملة الفرنسية قد اجهضت التطور الاقتصادي والفكري أو كانت مرحلة تمهيدية لهذا فدفعت بالبلاد إلى احضان الغرب ، وان كان يجب الاستدراك بالقول أن الحملة الفرنسية كانت مرحلة التخلخل ـ لا الاجهاض ـ وهي مرحلة اتمها الاستعمار الغربي بدأت من عصر محمد علي حتى وصلت إلى أقصاها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين وضع الغرب يده على مصر ، ثم ليضع يده على بقية أقطار العالم العربي .

غير أن التغيير في البنى السياسية والاجتماعية لم يكن لينفصل كثيرا عن التغيير في البنى الثقافية أيضا ، ومن هنا ، فمن الضروري رصد بعض الملامح الثقافية في هذا الوقت سواء في الشرق أو في الغرب ، ليتسنى لنا ، من ثم ، تفهم درجة التباين ودلالته .

ويجب أن نفرق هنا بين اثنين : الثقافة والعادات .

الثقافة ممثلة في الغالب في علماء الدين/ المثقفين والعادات في عامة الناس ممن مثلوا السواد الأعظم لسكان البلاد .

ورغم انه لا يوجد تفريق كثير بين الثقافة وتقاليد الناس وعاداتهم ، فإننا هنا سنحتفظ بخيط رفيع بينهما لعمق الهوة التي يمكن أن تفصل بين الشرق والغرب حين نتحدث عن العادات في وقت ربما تضيق قليلا هذه الهوة حين نتحدث عن ثقافة (الشيوخ) وطقوسهم .

في الشرق لم يكن خافيا المدى الذي صعدت اليه الثقافة المصرية في عديد من جوانبها أو هبطت اليه فيما بعد .

فمن ناحية ، لم نكن في حاجة لكثير من الفطنة ، لندرك أن العهد السابق لحملة بونابرت عرف مجدّدين في مجال التراث الاسلامي ، وأن التيار النقدي العقلي الذي ولده أمثال المعتزلة والاشاعرة والفلاسفة ظهر له مريدون دائما ، كما كان يتدفق على الأزهر ، لمكانته ، العلماء من شتى انحاء العالم العربي (مثل الزبيدي) ، وقد بدا هذا التيار خاصة في تطوير العلوم الدينية وعلوم اللغة والمعاجم وعلوم التاريخ ـ وان تشعبت المحاولات في الطرق الصوفية ، أو مجال الأدب ـ اللذين ضعفا كثيرا في فترة من الفترات . كما زادت المدارس العامة في القاهرة والمدن الرئيسية فضلا عن تعليم الأبناء عند إمام المسجد ، ويتحدث كتاب (وصف مصر) باستفاضة عن دورات العلم في الازهر وانقسام المدرسين والطلاب إلى حجرات كثيرة (أروقة) تنقسم بدورها الى فروع كثيرة في العلوم والمعارف .

ويمكن أن نستفيض هنا في ارتقاء الثقافة إلى درجة لا يمكن أن نخطئها قط ، وان يكن يصحبها هبوطٌ آخر في مجموعة التقاليد والعادات التي تتمثل في الملابس والسلوك واللغة ، فضلا عن بعض السلبيات التي أشار اليها المؤرخون مثل المسلمات الغيبية كالحسد والطالع والسحر والمحافظة بشكل خاص ، وأيضا سلبية خاصية (النفاق) بين الفرد والحاكم لطبيعة العلاقة بين الفرد والحاكم في البعد الزمني ، وربما أيضا الانفعال اكثر من الفعل نتيجة للكبت والاستبداد الطويلين في واد تهيمن

عليه القوة المركزية . . وما إلى ذلك من السمات التي يمكن ترسمها في (يوميات) الجبرتي .

وهذا التناقض في العادات خاصة هو الذي دفع بكثير من علماء الحملة الفرنسية وجنودها إلى الاعتقاد بتخلف المصريين وتدني حضارتهم المعاصرة لهم ، وكتاب الجبرتي (**عجائب الاثار**) خاصة يزخر بمثل هذه الخزعبلات التي تتوالى في القرون السابقة لمجيء الحملة .

وباختصار ، فإن الثقافة العربية بدت كجثة ممدّدة لا حراك فيها ، مظهرها يوحي بالموات وباطنها يوحي بالنبض الذي لم يتوقف تماما على امتداد حقبة طويلة من الزمان .

وفي المقابل ، بدت الثقافة الغربية فتية صاعدة . .

لقد كانت الحضارة الفرنسية تمتلك في هذه الأثناء قدرا كبيرا من وسائل العلم والتكنولوجيا الحديثة ، كما تملك النهج العلمي في البحث والتجريب في وقت كانت الحضارة الاسلامية قد ورثت من قرون بعيدة ثقافة ثابتة تعتز بها وتوارث تقاليد شابها الكثير من الخرافات ، وإن كانت المسافة بين المثقفين والعامة ، حينئذ ، تضيق وتتسع حسب الفترة التي يعيشونها .

لقد حملت الحملة الفرنسية عددا كبيرا من عقول أوروبا وفنانيها وعلمائها : مفكرين ، وكيميائيين وفيزيائيين وفلكيين وجراحين وأثريين ومعماريين . ويستفاد من المصادر الرسمية للحملة أن لجنة العلوم والفنون وحدها فقط كانت مؤلفة من (١٦٧) شخصا فقط .

ولنضرب مثلاً بسيطاً للقدر الفكري الذي كان يحمله رجال الحملة في جانب واحد ، وهو ، ان الجنرال كفاريللي كان يحمل قدراً كبيراً من الأفكار الاشتراكية الحديثة الجريئة التي لم يكن ليتردد معها من أن يصرح بها في حضرة بونابرت نفسه أثناء مناظرة زميل آخر له مدافعاً فيها عن فكره ضد القوانين الرأسمالية السائدة (بونابرت في مصر ، المصدر السابق ص ٧٦/٧٥) .

وباختصار ، ففي الوقت الذي راح الغرب يخرج من ظلمات القرون الوسطى إلى عصر النهضة وما استتبعه من الكشوف الجغرافية والاصلاح الديني ونمو الروح القومية والاهتمام بالادارة وتوحيد القوانين وشق الطرق وتطور المواصلات ونشر التعليم وتطور النظريات السياسية وما الى ذلك . . في هذا الوقت ، كان الشرق ما زال أسيراً لحقبة بعيدة من الموروث الحضاري .

كانت أصول الحضارة في الغرب تطوِّر فتستفيد بكل انجازات الحضارات الأخرى .

وأصول الحضارة العربية تكمن ثابتة متوقدة وراء رماد السنين .

كانت الحضارة الغربية في طور التطلع والازدهار .

والحضارة العربية في طور التحين والانتظار .

وعلى هذا النحو ، يمكن أن نفسر حالة الانبهار التي بدت في سلوك بعض العلماء المصريين وغالبية العامة سواءً ممن أتيحت لهم فرصة الالتحام بعلماء الحملة أم ممن آثروا مراقبة ما يحدث واستيعابه .

وكثيراً ما أفاض الجبرتي في شرح آلات العلماء الفرنسيين وأدواتهم الفلكية وماكينات التصوير ، وقدرات الرسم والتصميم ، كما وقف الكثيرون مبهورين أمام مظاهر صناعة الحكمة والطب الكيماوي وما الى ذلك وان لم يفقدوا روعهم كاملاً .

لقد كانوا يدركون رغم الظواهر المدهشة حولهم ، أنهم ورثة حضارة أخرى لا تقل عن هذه الحضارة ، غير أن الحقيقة الناصعة كانت تشير دائماً إلى أن الحضارتين مختلفتان تماماً .

غير أن هذا الاختلاف والتباين كان يحكمه هنا ناموس آخر ، هو ناموس التكوين الشرقي التقليدي عند مؤرخ مثل الجبرتي ، **وسوف ينصب اهتمامنا الآن على موقف هذا المؤرخ المصري ، شاهد العيان ، من الجماعات الدخيلة على مصر ، لنقترب ـ فيما بعد ـ من**

خلال أوراقه أمام طبيعة (اللحظة المتوقفة) في البنْية الثانية .

●●●

لنعد ، أكثر إلى البنية (ب) ، وهي الفترة التي تقع بين عامي (١٧٩٨ - ١٨٠١) . . الفترة التي يبدو فيها موقف الجبرتي واضحاً أشد الوضوح من القوى الدخيلة على مصر .

كما رأينا ، فان هذه البنية (ب) دخلت اطاراً ثانياً بفعل مؤثرات البنية (أ) التي لحقتها وأضافت اليها ، كما دخلت ، فيما بعد ، إطاراً ثالثاً بفعل مؤثرات البنية السابقة عليها ، قبل أن تصل الى مؤثرات البنية التالية لها .

ولنتوقف أكثر ، عند الجبرتي في البنية (ب) ، فهي التي تهمنا هنا في هذه اللحظة (المتوقفة) زمنياً ، لنرى ، الى أي حد ، تحددت رؤية المؤرخ الشرقي السلفي في الغالب بالنسبة الى القوى الخارجية التي كانت تمثل قوى شرقية إحلالية مثل المماليك والعثمانيين ، أو قوى غربية احتلالية مثل الفرنسيين .

إن موقف الجبرتي يرتبط ، إلى حد كبير ، بنظرية السياسة عند المسلمين ، وقد تركزت كلها حول الحاكم ، وبالتحديد حول شخصية الحاكم .

ولعل من المفيد أن ننظر في هذا إلى كتاب الماوردي (**الأحكام السلطانية**) • فهذا الكتاب ، « رغم أن مؤلفه ينتمي إلى القرن الخامس الهجري . والعنوان ذاته يدل على مركزية السلطان في النظرية السياسية الاسلامية ، التي يقال عنها أيضاً بتعبير مساو تماماً (نظرية الإمامة) ، هذا الكتاب كله ، وهو كتاب في السياسة أي في الحكم » - كما أشار د. عزت قرني في كتابه : **العدالة والحرية** (عالم المعرفة ٣٠ - ص ٣٠٠) - « يدور حول الإمامة وحول العمال الذين يختارهم الإمام أعواناً له يسيرون أمور الأمة باسمه ، فكل ما يدور في الدولة إنما يصدر عنه هو عن طريق نوابه » . فالدولة هنا تستقي مبادئها السياسية من مركزية الإمام بشخصه ، وهي مستقاه بدورها من الشريعة ، فالدولة هي شخص الحاكم .

وترتبط قضيتا الحرية والعدالة هنا بشخصية الحاكم أيضاً ، حتى لو تحددت الحرية على أنها حالة ضد العبودية ، بمفهومها الذي ساد العالم الاسلامي فيما بعد وحتى جاءت الحملة الفرنسية ، كما أن العدالة - التي هي من شروط الوالي وواجباته - لا تعني أكثر من التناصف ومنع التظالم ، أي ، أن الاتجاه الأخلاقي هو الهدف والغاية من العدالة كما كانت معروفة في هذا الوقت .

إن العصر العثماني شهد انعكاساً عملياً لأفكار الماوردي ، فالسلطان هو كل شيء ،لِمَ لا ،وهو ظل الله على الأرض ، وقد كانت القيم السياسية ترتبط به في المقام الأول ، وقد كان من الممكن أن يقال انه مع حضور الحملة الفرنسية على أرض العثمانيين بدأ الجيش العثماني يعرف طريقه إلى الاصلاح السياسي والتغيير في القيم التقليدية ، غير أن هذا تم في مرحلة متأخرة قليلاً ، لم يلحقها الجبرتي ، وبالتالي ، شيوخ عصره ، ومن ثمَّ ، فان الفكر السياسي السائد في هذا الوقت لم يكن ليجاوز الفكر السياسي التقليدي من العود الى الحاكم ، ورؤية العدالة والحرية من خلاله ، وهو فهم لم يكن ليصل إلى معاني الدستورية ومفاهيم الحرية والعدالة الاجتماعية كما عرفها الغرب القادم بواسطة الفرنسيين الذين شهدوا الثورة الفرنسية بمفرداتها السياسية التي لاحظها رفاعة الطهطاوي ، أكثر ، في فترة تالية .

إننا سنرى موقف الجبرتي يدور حول القيم السياسية التقليدية طيلة وجود الحملة الفرنسية على وجه التقريب ، حتى إذا ما كنا في الفترة الأخيرة منها ، لمسنا تغييراً ما في بعض المفاهيم الاسلامية للقيم السياسية ، لكنه تغيير لم يستطع الجبرتي أن يشهد فيه تحولاً ملموساً ويسجله من خلال يومياته .

لقد كان مبعث التناقض بين يوميات الجبرتي وصحيفة بونابرت يعود الى التغاير ، الذي يؤكد بروز (الهوية) واختلافها .

لقد ارتبط الشرق هنا كما ارتبط الغرب هناك بمجموعة من الوشائج التي ميزت كل جانب فيه عن الجانب الآخر .

وسوف نرى من خلال التقليد والعادات ، خاصة ، موقف الجبرتي .

أما عن التقليد ، وبالتبعية الانطواء والحرص . . فإن تفسير هذا يعود إلى هذه (الهوية) الشرقية التي تنتمي الى الدين كما تنتمي إلى اللغة وبالمثل تنتمي الى جملة العادات التي تتباين بين تقاليد اجتماعية وثقافية .

فمن الملاحظ أن موقف الجبرتي المتأرجح بين الإعجاب بالغرب والمرارة منه ونقده في آن واحد كان يخفى فلسفة الفكر الشرقي في الفترة التي قدر له فيها أن يلتقي بالفكر الآخر ، فلا تبقى مندوحة من الصدام بين حضارتين ـ لا إرادتين فحسب ـ ردود الأفعال السريعة ، والتي تطوي أيضاً طبقات بعيدة الغور في الوجدان .

لقد بدا هذا الموقف خاصة في تأييد العلماء في وقت كان يظهر فيه العداء من قوى الاحتلال الغربي ، وهو ما يمكن أن نلحظه بجلاء ضمن جزئية (مظهر التقديس) ، اذ راح يتحدث عن التقليد الذي يرتدي زي الدين ، ويؤثر الإشادة بالدولة الاسلامية ـ العثمانية ـ ليس هذا للحط من قدر المماليك ثم الهجوم العنيف على الفرنسيين واظهار الفرح بزوالهم .

إننا نرى في هذا الكتاب ـ مظهر التقديس ـ وفي أغلبه ، هجوماً حاداً على الفرنسيين الذي سماهم هنا (الكفار) و (كفرة الفرنسيس) و (دولة الكفر) و (عصابة الكفار) . . إلى غير ذلك من تعبيرات تشير إلى إيثار التبعية للعثمانيين ، الذين هم ـ حينئذ ـ الممثلون للدين الاسلامي .

وإذا تغاضينا عن الميل السياسي الظاهر للعثمانين في هذا الكتاب استطعنا أن نستنتج الدافع وراء الموقف الخاص به فيما يتمثل في رؤية الفرنسيين على أنهم قوى غازية يحتلون بلاده ، فضلاً عن تطريز لغة البديع والزخرفة لكتاباته مما تشى بحقبة بعيدة طويلة عاشتها مصر بمعزل عن العالم الخارجي .

وفي جميع الحالات ، لم يكن هذا الموقف ليبرأ ، قط ، من سمة (التقليد) التي كانت وقفاً على عدد كبير من شيوخ هذا الزمان ومن بينهم الجبرتي .

على أنه ما كاد ينتهي من هذا الكتاب الذي تم تأليفه فيما يبدو ، من الصدر الأعظم ، وهو الرمز العثماني للامام / الحاكم . . حتى بدأ في تسجيل الجزء الثالث من كتابه الآخر : **« عجائب الآثار »** في نفس الفترة التي شهدت غزو الفرنسيين وتغلغلهم في شتى مناحي الحياة المصرية ، فأضاف إلى مظاهر اللوم للفرنسيين في الكتاب الأول اللوم والاعجاب بهم معاً في الكتاب الآخر ، إذ يلحظ أنه في الوقت الذي كان يهاجم فيه الفرنسيين في منشور نابليون الى المصريين ، على سبيل المثال ، فإنه في الكتاب التالي راح يحذف هذا ، ولا يلبث مع تتابع اليوميات والسنوات في **« العجائب »** ان بدأ اعجابه الخالص بمنجزات الفرنسيين الحضارية في مصر من مثل تنظيم الديوان وأيضاً نظام المحاكمة الذي اتبع مع قاتل كليبر (سليمان الحلبي) وما إلى ذلك .

والاتجاه العقيدي ، خاصة ، يصبغ موقف الجبرتي في وقت لم تكن الثقافة الغربية قد تسللت بعد في وجدانه ، وهو سر التأرجح الدائم في موقفه من الفرنسيين .

وتفصيل هذا أنه في الوقت الذي يتحدث فيه عن احتفال الفرنسيين بأحد أعيادهم ، فإنه يذكر قيام الجمهورية ، ولا يلبث أن يستنكر قتل الفرنسيين لمكهم وهو ما يفهم من لهجة الجبرتي في أكثر من موضع «ذلك اليوم كان ابتداء قيام الجمهور ببلادهم فجعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخاً » (ج ٣ ص ١٧) ، وفي موضع آخر يشير إلى المظاهر الكثيرة احتفاءً بهذا العيد الذي لا يعرفه الشرقيون مشيراً إلى إقامة العسكر من الفرنسيين بأمور الحراسة تحت أحد الأعمدة التي تدل على هذا العيد (لأنه شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم في زعمهم) (ص ١٨) . غير أن الاستنكار يصل الى اقصاه في كتابه **مظهر التقديس** ، إذ يبدو استنكاره لقتل الفرنسيين سلطانهم ، فيقول « وسبب هذا العيد أنهم لما قتلوا سلطانهم وظهرت بدعتهم التي ابتكروها وخرجوا بها عن

الطرايق والملل جعلوا ذلك اليوم عيداً وتأنخاً » (**مظهر التقديس ص ٦٠**) .

ويلاحظ د. صلاح العقاد في بحثه (الجبرتي والفرنسيس) بندوة الجمعية التاريخية أن الجبرتي حين يتعرض لبعض الاجراءات الإدارية والقضائية والتجارية التي اتخذها الفرنسيون ، فإنه يقف منها موقفاً عدائياً لأنه « بحكم تكوينه الثقافي وانتمائه الاجتماعي الى طبقة الملتزمين ، كان يبغض تدخل الإدارة في حياة الناس اليومية عامة والاقتصادية بصفة خاصة ، وهذا ما يجعله معادياً لأية ادارة عصرية » .

والواقع أن هذا الموقف يعود الى تكوينه الشرقي الذي ينتمي لعادات مغايرة تماماً لعادات الجهة الأخرى التي تحاول اتخاذ اجراءات لا تتفق بالضرورة مع الطابع الخاص للشرق والعقيدة ، بدليل أن هذا الموقف اقترب فيه كثيراً من موقف آخر بعد ذلك بقليل حين عارض موقف محمد علي واجراءاته التي كانت تعود الى السمت الغربي وتطبيقه في بيئة شرقية ، وهو موقف عدد كبير من شيوخ زمانه وممثليه .

على أن الموقف المعادي من قوى الاحتلال الفرنسي لم يمض عند الجبرتي ـ وشيوخ عصره ـ على وتيرة واحدة ، فمن الملاحظ أن التأرجح بين الأعجاب بالحضارة الآتية والتمرد عليها ظهر بوضوح بعد مضي فترة من الوقت عاين فيها الأهالي حقيقة الفرنسيين ، بما يشير إلى أن مشايخ الأزهر أنفسهم أصبحوا أكثر تقبلاً للاجراءات الفرنسية في فترة تالية ، وعلى سبيل المثال ، فإنه حين طلب أعضاء الديوان تخصيص سجل للوفيات اقترحوا إضافة سجل للمواليد والايجار أيضاً ، لأن ذلك يساعد على ضبط المواريث والعدة للمطلقات ، بما يتمشى مع عادة البلاد وتقاليدها التي تأبى ترك النساء الأرامل بدون زواج جديد .

وقد راح في هذا كله يبدي إعجاباً لا حد له في كثير من (**اليوميات**) الأخيرة خاصة بنظم الفرنسيين ومعاملاتهم سواء ما تمثل في ابداء عجبه بنظام الاطلاع أو بالتجارب العلمية التي اجريت أمامه ، كما أبدى ارتياحه لصداقة رفيقة حسن العطار للفرنسيين والذهاب الى معاملهم ، كما لم يستطع أن يخفي دهشته من نزاهة قوات الاحتلال التي كانت تدفع الثمن نقداً للأهالي لما يقدم لها من خدمات أو بضائع ، ويعجب أيضاً لإنفاق الفرنسيين بسخاء على وسائل التسلية .

وقبل أن نقف على صور الإعجاب يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على بعض صور المرارة والاحباط في رؤيته لتصرفات الفرنسيين ومواقفهم . . فمن أهم الصور السلبية التي استتبعت نقده نتوقف عند بعضها :

- «إن امرأة جاءت تشتري سمناً من رجل فقال لها لم يكن عندي سمن فكررت عليه حتى حنق منها فقالت له كنت تدخره حتى تبيعه على العثماني تريد بذلك السخرية فقال لها نعم رغماً عن أنفك وانف الفرنسيس فنقل عنه مقالته غلام كان معها حتى انهوه إلى قائمقام فأحضره وحبسه ويقول أباه أخاف أن يقتلوه فقال الوكيل لا لا يقتل بمجرد هذا القول وكن مطمئناً فإن الفرنساوية لا يظلمون كل هذا الظلم فلما كان في اليوم التالي قتل ذلك الرجل ومعه أربعة لا يدري ذنبهم وذهبوا كيوم مضى » (ج ٣ ص ١٣٨) .

- « تبرج النساء وخروج غالبيتهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير و . . » (١٦١) .

- «وأما الجواري السود فانهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً وفرادى وأزواجاً فنطّن الحيطان وتسلقن إليهم من الطبقات ودلوهم على مخبآت اسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك . . » (١٦٢) .

غير أن أهم الايجابيات التي غلبت على الصوره ، يرتبط ، كما اسلفنا ، بنظرته الخاصة لأفعال الفرنسيين من خلال مفهومه الشرقي الخاص ، ومن أهم هذه الايجابيات :

ـ « . . وردموا في طريقهم قطعة من خليج بركة الرطل وقطعوا أشجار بستان كاتب الهار . . (و) . . وقيدوا بذلك انفاراً منهم يتعهدون تلك الطرق ويسلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس وحوافر الخيول والبغال والحمير وفعلوا هذا الشغل الكبير والشغل العظيم في أقرب زمن ولم يسخروا واحداً في العمل بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم من بعد الظهيرة ويستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المآخذ السهلة التناول المساعدة في العمل . . » (٣٣).

ـ «قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل انهم من المتسلقين على الدور » (٣٩) .

ـ « أرسل ساري عسكر يسأل المشايخ عن الذين يدورون في الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقدهم العامة ولا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون هذا جائز عندكم في دينكم أو هو محرم فأجابوه بان ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وسنتنا فشكرهم على ذلك وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه كذلك فإن كان مجنوناً ربط بالمارستان أو غير مجنون فإما ان يرجع عن حالته أو يخرج من البلد . . » (١٤١) .

ولم يكن هذا مبعث دهشة الجبرتي وحده ، إذ أن العادات « الغربية » كانت من أكثر الأشياء التي راح يسجلها لما تحتويه من تناقض بين الثقافتين ولما توحى به من أمور لم يفهمها كثيراً الشيخ الشرقي وإن كنا نلمح في دلالة ذكرها ميلاً لم يصرح به من مثل « ضبط واحصاء من يموت ومن يولد من المسلمين » ـ ص ١٤٣ ـ و « تحرير دفتر الزواج » و « نظام غير قابل للتغيير في ضبط الأملاك والتمييز الكامل عمّن ولد ومات من السكان » ـ ١٤٤ ـ وما الى ذلك من أمثال التطعيم والدفن بإذن وتبخير البيوت ونشر الملابس فترة الطاعون ، وهو ما كان يحمل استنكاراً من جهة الناس لعدم فهمها لها أو تفسيرها التفسير الصحيح .

وعلى هذا النحو ، ففي المرحلة الأولى بدأ لومه للفرنسيين بشكل واضح ، وفي المرحلة الثانية تذبذب بين الإعجاب واللوم ، أما المرحلة الثالثة ، وبعد أن غادر الفرنسيون مصر فإن موقفه منهم اقتصر على الإعجاب حين توفر له أن يعقد المقارنة مرة بينهم وبين فوضى العثمانيين والمماليك أو بينهم وبين أطماع الانجليز وتربصهم بالبلاد .

إن الذي يتابع البنى الزمنية حتى يصل إلى البنْية الثالثة ـ جـ ـ يتأكد له أن الجبرتي عاد ، بعد لوم الفرنسيين ومعاينته لنظمهم وعاداتهم إلى الاعجاب بهم .

ومما سبق ، يتأكد لدينا أن التأرجح انتهى من وجهة نظر الشيخ الجبرتي الى إيثار حضارة الفرنسيين لا الانجليز ، وهو إيثار في دلالته يعني إيثارا للقيم الاسلامية التي وجد بعضها في مواقف الفرنسيين ليس في جنسهم أو دينهم بالضرورة .

ولهذا ، فإن موقفه بين السلب والإيجاب لم يكن كما زعم البعض يعود إلى انبهاره بهذه الحضارة أو ابتعاده عن تلك ، بقدر ما يعود الى طبيعة التركيب الشرقي التي اذا أضفنا اليها وعيه وتفتحه . . انتهينا الى خصائص هذا الموقف من القوى الغربية .

ونصل الى الجزء الآخر من السؤال حول موقف الجبرتي من بقية القوى الأخرى الدخيلة على البلاد : العثمانيين والمماليك ؟

وهنا ، يلاحظ ، أن الجبرتي ، كثيراً ما انتقد الموقف العثماني والمملوكي الذي قصد به الدفاع عن ثغور الاسلام ، وهذه الرؤية خاضعة لطبيعة الرؤية السياسية الخاصة به .

إن درجات غضب الجبرتي من هذه القوى أو رضاه عنها يرتبط بمفهومه الخاص حسب الموقف الذي عاينه سواء في البنية (ب) أو البنْيتين السابقة والتالية لها . . فبعد نزول قوى الفرنسيين واجتماع العلماء وأمراء المماليك ليتداولوا في الأمر ، فإن الجبرتي يسجل غضب العلماء من إهمال الدفاع عن البلاد وحمايتها من الغزو الفرنسي عقب سماعهم بنزول الحملة بالاسكندرية ،

وذلك عندما علق على الاجتماع الذي عقد بقصر العيني بالقاهرة ، ودارت فيه مناقشة حامية بين العلماء وأمراء المماليك ، فيقول في **مظهر التقديس** « فركب ابراهيم بك إلى قصر العيني وحضر عنده مراد بك والأمراء والقاضي والمشايخ وتكلموا في شأن ذلك ، فقال بعض المشايخ كل هذا من تغافل أمر الثغور وإهمال الأمور حتى تمكن العدو وملك ثغر الاسلام ، فقال مراد بك وايش نعمل وإذا قصدنا تعمير ذلك وتحصينه تقولوا مرادهم العصيان على السلطان فهذا هو المانع لنا من ذلك » ، ولم يلبث الجبرتي أن علق على هذا بقوله : « أو هي من بيت العنكبوت لأن الثغر من أيام علي بيك لم يلتفتوا له جملة كاملة بل أخذوا ما كان به من آلات القتال والمدافع ومنعوا عنه المرتبات التي كانت للمرابطين والعسكر المتقيدين وأكلوا علوفاتهم وقطعوا عوايدهم ولم يبق به شيء من آلات الحرب إلا بعض مدافع مكسرين لا تنفع ولا تدفع حتى أنهم احتاجوا مرة لضرب مدفع العيد بارود فلم يجدوا التعميرة بل اشتروها من عند العطار بعد أن كانت اسكندرية وابراجها في غاية العمارة والتحصين وحولها السور المتقن الذي اعتنت به الأوايل وبه ثلثمائة وستين برجاً على عدد أيام السنة » .

وعند ما صدرت توصية من المجتمعين في قصر العيني بكتابة عرضحال إلى الحملة العثمانية بخبر الحملة وإرساله إليها ، فإن الجبرتي راح يعلق على هذا بأسلوب لاذع ، نجده في **مظهر التقديس** مطولاً بعض الشيء : « ظنوا أن الموجوع أو المريض الملسوع يستمر بحالة حتى يأتيه الترياق من العراق » (**مظهر التقديس**) ، ص ١ - ٢) ، بينما نجده في (**عجائب الآثار**) مركزاً دالاً حين راح يردد معلقاً على رسالة المجلس ساخراً « ليأتيه الترياق من العراق » (**عجائب الآثار ص ٣**) .

وآثار الجبرتي بعد ذلك لا تتوقف عن توجيه الانتقاد للمماليك ، فهو يؤكد مرة أن الشعب تنبأ بهزيمة مراد بك عند خروجه لملاقاة الفرنسيين مستطرداً : « ثم إنهم اتفقوا على خروج عساكر وصارى عسكرهم مراد بك ، فتحدث الناس بأن مراد بيك لم يتوجه إلى جهة ويحصل لها النصر » ، وبعد هزيمة مراد بك يضيف : « . . فلما عاين ذلك مراد بك ولى منهزماً وترك أثقاله وجملة من المدافع وتبعه عساكره وكان في عدة وافرة (**مظهر التقديس** ٢ ، ٩) ، أما في الكتاب الآخر ، فإنه لاحظ أن المماليك : « صاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون اليه بدون ثمن » ، وبعد أن هزم مراد بك « ولى منهزماً وترك الأثقاف والمدافع وتبعه عساكره » ، كما يسهب في خوف المماليك وأمرائهم الذي دفعهم إلى النهب ونقل أمتعتهم (**عجائب الآثار** ٢ ، ٦) .

وهذه الحال التي عرف بها المماليك ليست في فترة مواجهتهم للفرنسيين وحسب ، بل تمتد إلى الوراء ، الفترة التي سبقت مجيء الحملة الفرنسية ، ويمكن بالعود الى الأجزاء الأولى من (**عجائب الآثار**) أن نرى استعراضاً طويلاً لمساويء المماليك وظلمهم التي تتمثل في المنهوبات وقطع الطرق على المسافرين وتخريب المراكب في النهر مما يزيد تعميق موقف الجبرتي منهم .

والمدقق في مصادر الجبرتي يتأكد له أن موقفه إنما كان موقفاً عدائياً بسبب ظلمهم وافتقادهم لقيم العدالة ، وبعدهم عن تفهم دور الحاكم ورسالته .

غير أننا يمكن أن نجد في مصادر الجبرتي ، أيضاً ، موقفاً آخر من المماليك ، ينبثق من طبيعة حكمهم في الفترة التي حاولوا فيها أن يلتمسوا العدالة - في أول حكمهم - ويبتعدوا عن الظلم ويدفعوا الى العمران ، وهذا لم ينكره قط ، فكثيراً ما أشاد بفضلهم ، فهو يذكر في هذا عن المماليك : « لقد كان لهم سنن وطرائق في مكارم الأخلاق والاحسان للخاص والعام ويتردد على منازلهم العلماء والفضلاء ومجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتعيير وانتفاع الطلبة ولا يكتبون عليها وقفية ولا يدخلونها في مواريثهم ويرغبون فيها ويشترونها بأغلى ثمن ويضعونها على الرفوف والخزائن والخوزنقات وفي مجالسهم جميعاً ، فكل من دخل بيتهم من أهل العلم إلى أي مكان بقصد الإعارة والمراجعة وجد بغيته ومطلوبه في أي علم من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفاً ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه فإن رده إلى مكانه رده وإن لم يرده واختص به أو

باعه لا يسأل عنه وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مراراً ويعتذرون عن الجاني بضرورة الاحتياج » كما سجل في الجزء الثاني من مجلده (**عجائب الآثار ص ٢١٦**) .

وهناك فرق كبير بين هؤلاء المماليك ممن ينتمون في الغالب الى القرون السابقة على القرن الثامن عشر ، وأولئك المماليك ممن ينتمون الى القرن الثامن عشر وخاصة في نهايته كما عرفنا في موقفهم من جنود الحملة الفرنسية .

وعلى هذا النحو ، فان موقف الجبرتي من القوى الدخيلة على مصر سواء ما تمثل منها في الفرنسيين أو المماليك ، فإنه كان ينتمي إلى موقفه من القيم السياسية بمفهومها الاسلامي خلال الفترة التي سبقت مجيء الغزو الغربي إلى الشرق في نهاية القرن الثامن عشر .

هذا الموقف الذي كان يرتدي زيَّ الدين ويتذرع أحياناً بالسياسة أو المصلحة هو الطابع الغالب عليه ، وهو الطابع التقليدي ، إذا بدا هذا الطابع غالباً في الفترة الأولى من البنية (ب) ، ومن ثم ، فانه في نهاية هذه الفترة بدا موقفه في التحول رويداً رويداً .

غير أنه في جميع الحالات ، كان ينطلق من عالم خاص به وبغيره من شيوخ عصره .

●●●

وهنا نكون قد وصلنا الى تصور تحليلي نستبطنه من الأثرين (**عجائب الآثار** /كوريه بونابرت) . . دون أن نعزل أياً منها عن السياق التاريخي أو الجغرافي أو نضحي بالدلالات من أجل التصور التجريبي .

وهنا ، نتهيأ لفهم الظاهرة بالقبض على (نظام) مصغر داخلي يمكن بهذا القانون الخاص فهم القانون العام للعملية التاريخية وأحكامها .

وعلى هذا النحو ، فان وصولنا الآن الى (نموذج) معين يكون ضرورة للمرور على بني زمنية سابقة وتالية تعمل على وضعه في سياقه الطبيعي من الحركة الزمنية .

وهذا النموذج يحدد في البنية (ب) من خلال وضع الأثرين ـ يوميات الجبرتي وصحف نابليون ـ جنباً الى جنب ، وبعد أن كانت المقارنة التحليلية تتم بين البني ـ أفقياً ـ ، فإنها هنا ستتم في بنية واحدة ـ رأسياً ـ ليتسنى لنا ، من ثم ، فهم العلاقة بين الاختلاف أكثر من الائتلاف والتغاير أكثر من التمايز ، كما يؤكد الاهتمام الذي سوف ينصب على النصوص أن ذلك سيتم في إطار التداعي الزمني (الثابت) كما هي الحال في المادة (الخام) التي بين أيدينا .

وسوف نرتب مفردات (النموذج) على النحو التالي :

(أ) الاحتفال بوفاء النيل .
(ب) الاحتفال بالمولد النبوي .
(جـ) تقليد أمير الحج .
(د) خطاب شريف مكة .
(هـ) اجتماع أعضاء الديوان العام .
(و) ثورة القاهرة الأولى .

فلنتمهل أكثر عند هذه النماذج ودلالاتها .

الاحتفال بوفاء النيل :

كوريه دي ليجيبت ، الطبعة الأصلية ، ص ١ ، رقم ١ ، في ١٢ فركتيدور ـ السنة السادسة للجمهورية :

القاهرة : وصف الاحتفال بعيد النيل ـ أول فريكتيدور من السننة السادسة للجمهورية (١٢١٣هـ) .

« في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم توجه القائد العام وبصحبته جميع الجنرالات من هيئة أركان حرب الجيش ، والكخيا والباشا وأعضاء مجلس الملا وأغا حرس الباشا إلى مكان مقياس النيل حيث احتشدت جماهير غفيرة على ضفافه وضفة القناة ـ المراد الخليج المصري ـ ، وكانت المراكب حاملة الأعلام والزينات ، وقد اصطف بعض جنود الحامية بأسلحتهم ، مما ائتلف منه مشهد جميل مترامي الأطراف . ولما وصل موكب القائد العام إلى مكان الاحتفال

اطلقت المدافع عدة طلقات للتحية وعزفت الموسيقى الفرنسية والعربية بعض المقطوعات أثناء العمل في قطع حاجز المياه . وما أن تم قطعه حتى تدفق الماء إلى القناة وانساب منها بغزارة إلى الريف حول القاهرة لاخصاب أرضه .

وقد نثر الجنرال القائد العام آلافاً من القطع النقدية على الجماهير ، كما ألقى قطعاً أخرى ذهبية على موكب مر به . ثم خلع على الملّا عباءة سوداء كما خلع على نقيب الأشراف عباءة بيضاء ، ووزع ٢٨ قفطاناً على الضباط . وبعدئذ عاد الموكب إلى ميدان الأزبكية يتبعه جمهور ضخم ينشد أناشيد المديح في النبي وفي الثناء على الجيش الفرنسي ، ويلعن البهوات لمظالمهم وطغيانهم ، ويهتف بأن جنود فرنسا جاءت لتخليصهم برحمة الرحمن من الشقاء . وقد انتصرت . وفاض النيل فيضاناً لم تشهد البلاد أفضل منه منذ قرن من الزمان . وهذه نعمة من نعم الله » .

وفي يوميات الجبرتي (عجائب الآثار . .) ج٣ ص ١٤ ، ١٥ جاء :

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الأثنين سنة ١٢١٣هـ .

« (وفي يوم الجمعة خامسة) الموافق الثالث عشر مسرى القبطي كان وفاء النيل المبارك فأمر صاري عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين ونادوا على الناس بالخروج إلى النزهة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم وأرسل صارى عسكر أوراقاً لكتخدا الباشا والقاضي وأرباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور في صحبها وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى قصر قنطرة السد وكسر الجسر بحضرتهم وعملوا شنك مدافع ونقوطاً حتى جرى الماء في الخليج وركب وهم صحبته حتى رجع إلى داره وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه في المراكب على العادة سوى النصارى والشوام والقبط والأروام والافرنج البلديين ونسائهم وقليل من الناس البطالين حضروا في صبحها » .

وهنا ، نجد عدداً من الملاحظات تؤكد هذا التغاير الحاد بين حضارتين ، وهي ملاحظات لا تفوت القاريء المدقق ، لعل من أهمها : ـ

ـ يقول الجبرتي (وفي يوم الجمعة خامسه) . فقد يتكلم بأسلوب العصر الذي يحيا فيه ولا يهمه ذلك الانضباط الذي تتصف به الروح العربية والتي تتمثل في قول المنشور (في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم) . . وفي هذا دلالة كافية لتبين ، فضلاً عن النظام ، أهمية الوقت وطبيعته لدى كل من الطرفين ، وما يتبعه ، من تعميق المفارقة بين حضارتين لكل منها عالمه .

ـ يقول الجبرتي (الموافق الثالث عشر مسري القبطي) ذلك ، لأنه يتكلم عن وفاء النيل وهذا يتعلق بأوقات الزراعة ، ومما يؤكد خلاف العالمين واختلافهما أن الجبرتي يتعامل زمنيا بشكل مختلف عن غيره .

ان الجبرتي يكتب شهرين (عربي/ قبطي) بينما المنشور الفرنسي يكتب بتاريخ (الجمهورية) الخاص بالفرنسيين وظروفهم الخاصة ، في وقت يكتب فيه العالم بتاريخ (ميلادي/ رومي) ، بينما يكتب العثمانيون بالتاريخ (الهجري/ المالي) .

ـ ويؤكد هذا أنه بينما يقول الجبرتي في تعبير محلي يعبر عن التقاليد الشرقية (كان وفاء النيل المبارك) ، فإن المنشور الفرنسي ينطق بتعبير لغوي غربي خالص حين يقول (وصف الاحتفال بعيد النيل) .

ـ ويأتي في هذا قول الجبرتي (صارى عسكر) بينما المنشور الفرنسي يكتب (القائد العام) إلى رتبة الجنرال

بالمنطوق الغربي في وقت يتبين فيه أن صاري عسكر لفظة فارسية الأصل محرفة الى العربية .

إن لفظة صاري بهذا المفهوم تعني في لغتها الأصلية رأس ، بينما العسكر تعني الجنود وبهذا يستقيم المعنى الذي نورده هنا .

- النظر أيضا إلى دلالة لفظة (العقبة) وهو مركب الاحتفال بوفاء النيل في الشرق ، وهو يختلف عن لفظة (غلايين) وهي السفينة الكبرى كما لم يعرفها الشرق حينئذ .

- بينما يذكر المنشور الفرنسي كلمة (المُلا) ولا نجد ذكر هذا الاسم عند الجبرتي ، فهو ينقل ظاهر حال هذا الوقت ، فالمترجم مسيحي شامي اذ ينقل الفاظا شامية غير مألوفة أو دارجة في مصر .

- يضاف إلى ذلك عديد من الألفاظ والمقاطع مثل (كسروا الجسر) بينما المنشور يقول (في قطع حاجز المياه) وايضا في (عملوا شنك مدافع) ، والشنك هنا محرف عن (الجنك) وهي تعني بالتركية كلمة « حرب » ، كما أن (النقوط) في العربية التي كتب بها الجبرتي يقابلها في (الكورية) عبارة (نثر الجنرال القائد العام) .

وأيضا (حتى جرى الماء في الخليج) وتأتي في المنشور الغربي من خلال لفظة اخرى (القناة) .

- لا يجب إغفال معنى مقطع الجبرتي (الافرنج البلديين) ، وهو مقطع يقصد به المقيمين في مصر من غير المصريين . كما أن (قليل من الناس البطالين) يقصد بها أولئك الذين يتعاونون مع الفرنسيين فهم في نظره سيئون جدا إلى درجة أنهم أكثر خيانة وسوءاً من أولئك الذين اطلق عليهم في مواضع الاستهجان والاستنكار (الحرافيش والحشرات) .

- ولا يجب أن يفوتنا أن نلاحظ أيضا أن لهفة نابليون على تأكيد الحماسة الشعبية لا تقل عن لهفته في أن يستتب له الأمر ، وقد بدا هذا أيضا من لغة الاثرين ، ففي حين ينفي فيه الجبرتي وجود مثل هذا الحماس من الجمهور الضخم في مثل هذا العيد الذي لم يخرج منهم (أحد) ، فإن نابليون يقول من خلال صحيفته انه عاد إلى ميدان الأزبكية بعد الاحتفال ويتبعه (جمهور ضخم ينشد أناشيد المديح وفي الثناء على الجيش الفرنسي) .

مما يشير إلى تباين الدوافع التي تجاوز اللغة ودلالاتها الى المواقف وطبيعتها .

وثمة ملاحظات أخرى كثيرة يمكن التعرف عليها من السطور أو ما بينها ، خاصة ، عند الجبرتي ، والتي لم يشر إلى تبريرها بشكل مباشر ، وهي كثيرة ، لعل من أهمها أنه لم يذكر كلمة (الجمهور) في كل ما كتبه عن ثورات المصريين ، اللهم إلا ، حين وصل إلى ثورة المصريين علي خورشيد (باشا) فقط ، وهذا كان يسبقه تطورات كثيرة تفسره .

وهذا لم يحدث حتى ذكرها نابليون .

الاحتفال بالمولد النبوي

الكوريه - الطبعة الاصلية ص ٢ - رقم ١

« واحتفلت البلاد هذه الايام احتفالا رائعا بمولد النبي ، فأضيئت منازل القائد العام والجنراي ديبوي Dipee والشيخ البكري بالأنوار الساطعة طول خمسة أيام . وفي الساعة العاشرة من كل ليلة من ليالي العيد سارت مواكب المسلمين في المدينة وهي تنشد أناشيد المديح في النبي كما أقامت حلقات الذكر على أضواء المشاعل . وحوالي الساعة الثامنة من ليلة أمس قام بعض جنود الحامية باستعراض عسكري رائع . ثم توجه لفيف من الضباط الفرنسيين بهيئة أركان الحرب يتقدمهم حملة المشاعل ورجال

الموسيقى إلى منزل الشيخ البكري نقيب الأشراف . وقد أطلقت المدافع عدة طلقات إيذانا ببدء مسيرتهم ، كما أطلقت طلقات أخرى لدى وصولهم إلى منزل النقيب .

وبعد أن تناول القائد العام طعام العشاء في مأدبة فاخرة بمنزل الشيخ البكري عاد إلى مقره . وأجرى عدد من المصريين ألعابا نارية وقاموا بها على أحسن وجه . وفي صباح اليوم التالي قام القائد العام بتقديم عباءة من الفراء الفاخر الى الشيخ البكري بوصفه نقيبا للاشراف وهو المنصب الذي كان يشغله عمر أفندي من قبل . قد حضر الاحتفال بتقديم العباءة أعضاء الديوان » .

وفي يوميات الجبرتي ، ج ٣ ص ١٥ ، جاء :

« (وفيه) سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال لابد من ذلك وأعطى له ثلثمائة ريال فرانسا معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم وأرسل الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكري واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره وهي عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا في الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد في الهواء » .

وكما رأينا سالفا ، فإن وصف الجبرتي لطقوس المولد النبوي يرينا أن المصريين تعاملوا مع الغربيين بسلبية كان أهم مظاهرها هنا إعراضهم عن الاحتفال بأكثر الأعياد إيثارا عليهم ، وكان السبب في عدم قيامهم بالاحتفال هي الظروف ، وهو ما لا يظهر ـ بالطبع ـ من منشور الكوريية ، فالعالمان مختلفان والثقافتان متباينتان .

وثمة ألفاظ تؤكد الفاصل الحضاري في معنى لغوي ومعنى حضاري أبعد أثرا من كل هؤلاء ، من مثل (دبادبهم) ، وهي عبارة عن حملة الجنود الضخمة ، كما أن لفظة (الطبلخانة) التي يضيف اليها لفظة (الكبيرة) انما تعني الفرقة المصرية ، أما (البركة) فقد كانت في الازبكية ، و (طبلات النوبة) هي البروجي ، ثم (الفروة) وما إلى ذلك من مظاهر الاحتفال .

كما يلحظ من طبيعة اللغة التي يستخدمها الجبرتي نفسه العامل الداخلي الذي يحدد التغاير بين الحضارتين ، فعلى مستوى الشخصيات ، نجد هذا يتمثل عند الجبرتي في السلبية التي امتدت اليه ، وهذا يظهر من ذكر الجبرتي محاولات العديد من الفرنسيين لاسترضاء الشيوخ ـ وبالتبعية العامة ـ بتشجيع الموالد والتبرع لها ، فان ذلك لم يثر رد فعل حسن في أعماق الجبرتي ، لأنه سلفي النزعة ، وسيبدي إعجابه فيما بعد بالحركة الوهابية ، في حين يستنكر الموالد وما يصحبها من بدع ومجون وهو ما سيلاحظه د. صلاح العقاد بعد ذلك (بحوث ندوة الجمعية التاريخية ، بحث الجبرتي والفرنسيس ، ص ٣٢١) .

تقليد امير الحج

الكورييه ، ص ٦ رقم ٣

« عين القائد العام السيد مصطفى أميراً للحج إلى مكة وقد ألبس اليوم امام جميع موظفي الدواوين واشراف البلد معطفا جميلا لونه أخضر لهذه المناسبة وقد أهداه الجنرال بضع جواهر وحصانا عليه سرج جميل وحصانا محلى بأحسن كسوة .

وعند مغادرته الحفل ودعته ست طلقات أطلقتها مدافع بطارية القلعة » .

وفي (يوميات) لـ الجبرتي ، السابق ، ص ١٦ جاء :

« في ربيع الاول ١٢١٣

(وفي عشرينه) قلدوا مصطفى بيك كتخدا الباشا على إمارة الحج فحضروا عند المحكمة عند القاضي وليس هناك الخلعة بحضرة مشايخ الديوان والتزام بونابرته بتشهيل مهمات الحج وعمل محلا جديدا » .

وكما نرى ، فإن هناك ألفاظا تؤكد الواقع مثل كتابة لفظتي (بونابرته) و (كلهيبر) وتفسيرها قد يتخذ في أكثر من نقطة :

أما التقليل من شأن صاحب الاسم في الحديث . .

وأما أن يكون هو أسلوب النطق في هذا الوقت . .

ومما يجدر بالذكر ان هذا النطق (بونابرته) هو أقرب الى النطق الايطالي ، الذي ينحدر ، بالتبعية ، من لفظة (بونابرت) ، فالنطق الايطالي هو (بونابرته) نسبة إلى خصائص الايطالية نفسها ، وهو حينئذ لا يخرج في الحالين عما كان قائما .

ويأتي في هذا أيضا قول الجبرتي (خلعة) بينما تكتبها الكورييه (معطفا) ، والمفارقة بين لفظتي (قلدوا) و (عين) أن الاولى هي لغة الجبرتي بينما الثانية اسلوب الغرب ، الأولى تعبر عن حضارة لا تزال تعيش في التقليد والأخرى حضارة جاوزته إلى مرحلة جديدة من مراحل التطور .

ويأتي في هذا مقطع مثل (كتخدا الباشا) الذي يضيف إليه الجبرتي مقطع آخر هو (مشايخ الديوان) الذي يستبدل به الكورييه مقطع (موظف الدواوين واشراف البلد) .

وتؤكد كل البيانات الأولى التي أطلقها بونابرت حين هبط إلى ثغر الاسكندرية مثل هذا الرأي الذي نذهب إليه الآن ، وتكرر كل وجهات النظر الخاصة بالفرنسيين على معرفتهم بقيم المصريين واحترامهم لدينهم واستمرار مراسيم هذا الدين كما هي وقهر المماليك اعداء الشعب المصري في أول بياناتهم ، كما تتحدث عن المناسبات الدينية التي سبق أن اشرنا إليها مما يؤكد على ذكاء الغرب القادم عبر المحيط ، فقد جاء في منشور نابليون ، وهو يختتم ، عبارة لا تخلو من معنى ، اذ يقول :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، ولا ولد له ولا شريك له في ملكه) . .

كما أضيفت العبارة التالية في البيان (إنه صادر من الحكومة الفرنسية المبنية على أساس الحرية والمساواة) ، مؤكدا أكثر على ضرورة نصر المصريين على المماليك مضمنا هذا البيان بعبارة لا تخلو من معنى (واصلح حال الأمة المصرية) كما نقل الجبرتي عن المنشور الفرنسي . .

خطاب شريف مكة :

الكورييه ، السابق ، رقم ٦

يوم التكملة الثاني ـ السنة ٦ للجمهورية

ترجمة خطاب موجه الى شريف مكة من مشايخ وأعيان القاهرة :

«بعد تضرعاتنا الحارة إلى الله التي تلهج بها ألسنتنا دائما أبدا ليحفظ مولانا أمير المؤمنين والتاج الملكي للذرية الهاشمية وسليل النبي الشريف غالب سلطان مكة حفظه الله ليرمقه برعايته إلى أعلى مراتب المجد ويجنبه اي سوء تأتي به الأيام في تعاقب الليل والنهار لما أكتسبه من بركات جده المجيد وهو أقدر الشافعين .

نتشرف بابلاغ مولانا الذي لا يكف ابدا بعبقريته عن رعاية مصالح الدين والمؤمنين والسادة آل عبد المناف أحد مشاهير أجداد أوليائنا الشرفاء وعلماء الاسلام في مكة والقضاة والائمة الخطباء وعموم تجار وموظفي الحكومة في المدينة المقدسة أن اليوم السابع

من شهر صفر الذي كان يوافق يوم السبت أقبل الجيش الفرنسي على أراضي الجيزة على ضفاف النيل الغربية وشن في نفس اليوم هجوما على المماليك . . . (و) . . . وفي صباح اليوم التالي توجه وفد من علماء الشريعة وأعيان القاهرة إلى الجيزة طالبين الحماية والرعاية للمصريين ماعدا المماليك واتباعهم واستجاب القائد العام الى طلبهم هذا . ثم طلب الوفد أن تلقى كالمعتاد خطبة الجمعة التي تعود الأئمة الخطباء القاءها في المساجد يوم الجمعة عند صلاة الظهر متضمنة الدعاء لصاحب العظمة السلطانية ، فوافق القائد العام على أن تلقى هذه الخطب كما كانت وأضاف أنه من أخلص أصدقاء السلطان العثماني وأنه يحب جميع الموالين له ويعتبر أعداء السلطان أعداء له شخصيا .

وأمر في الحال أن تفتح أبواب الجوامع للمصلين لأداء الشعائر الدينية والأذان وتلاوة القرآن بكل حرية في مدينة القاهرة كالمعتاد .

وتكرم أيضا بابلاغ الوفد أنه يسلم في قرارة نفسه بأن الحقيقة التي لازاغ فيها هي أن الله هو الله وحده وان معظم الفرنسيين يكنون لنبينا والقرآن أعظم تبجيل وأكثرهم مقتنعون بسيادة الاسلام على جميع الأديان الأخرى ودلل القائد على قوله هذا باطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين الذين وجدهم في جزيرة مالطة بعد الاستيلاء عليها وهدم الكنائس المسيحية والصلبات في جميع البلاد التي استولى عليها وخاصة في مدينة البندقية ، حيث أحبط كل المكايد التي كان يتعرض لها المسلمون وخلع باباالمسيحيين في روما ، الذي كان يحل قتل المؤمنين ، هذا العدو الازلي للاسلام الذي كان يدخل في روع المسيحيين ان الله يكافىء على إهدار دماء المؤمنين الحقيقيين .

إن هذا العدو لم يعد له وجود وقد استراح منه المسلمون برعاية الله العلي القدير .

عندما عاد الحجاج من مكة واقتربوا من القاهرة ذهب القائد العام بنفسه لملاقاتهم في مديرية الشرقية بعد سماع الأخبار بأن بعض الأعراب اللصوص والمجرمين قد سلبوهم متاعهم وخيراتهم . فاستقبلهم الجنود الفرنسيون وزودوا من بقي منهم على قيد الحياة بالخيول والطعام والزاد واسعفوا الجياع والعطاش .

وكان القائد العام قبل ذهابه إلى الشرقية قد كتب إلى قافلة الحجاج يطلب منها العودة رأسا الى القاهرة حيث تجد أحسن استقبال ولكن للأسف هذه الخطابات لم تصل إلى رجال القافلة الذين لاقوا مصيرهم المحتوم .

افتتحت قناة مدينة القاهرة ـ الخليج ـ هذا العام باحتفالات غير عادية ارضاء للمؤمنين دون شك وتبديدا لمخاوفهم وهمومهم .

أجرى القائد توزيع مبالغ كبيرة من المال على سبيل الصدقة على الفقراء والمعوزين وأقام وليمة تكريما لأعيان البلد . كذلك أنفق القائد اموالا كثيرة احتفاء بمولد النبي وسيد المرسلين وأقيمت احتفالات شيقة بهرت أنظار المؤمنين .

إنا لله وانا اليه راجعون ـ يجب ألا يخفى عليكم أن القائد أبدى رغبة صادقة في تعيين أمير الحج واتخاذ جميع الاجراءات التي تسبق رحيل قافلة الحجاج . وكان من رأينا معه أن يسند شرف هذه المأمورية الى السيد المحترم الأمير مصطفى آغا وهو من رجال صاحب السعادة ابوبكر باشا حاكم القاهرة ، ونحن نرجو أن يلقى هذا الاختيار وقعا حسنا من الباب العالي تأكيدا لحق من أعز الحقوق على قلبه . لذلك

فقد اضفى هذا الاجراء البهجة والسرور وأدخل الطمأنينة على قلوب جميع المسلمين .

يبدي قائد الجيش الفرنسي نشاطا كبيرا واخلاصا عظيما لمصالح الحرمين ويتفقد كل مايلزم عمله بشأن رحلة قافلة الحجاج .

هذا هو ماأوصينا به لتكونوا على علم ، باعتبارنا شهود عيان بالعناية الفائقة التي يخص بها هذا الأمر المهم لكي تعملوا ما ترونه مناسبا من جانبكم .

السلام والف سلام على هذا الرسول المجيد الذي اتى يعلن الحقيقة على العالين وقد وهبه الله كل الفضائل والشمائل . سلام الله ايضا على أهله وصحبه في رسالته السماوية .

عمل بالقاهرة في ٢٠ من ربيع الأول سنة ١٢١٣ هجرية وقد ذيل بامضاءات عديدة جدا » .

وفي يوميات الجبرتي ، ج ٣ ص ٢١ جاء في نفس الموقف :

« (وفيه) كتبوا من المشايخ كتابا ليرسلوه إلى السلطان وآخر الى شريف مكة ثم أنهم بصموا منه عدة نسخ ولصقوها بالطرق والمفارق وصورته ملخصا بعد الصدور ذكر ورودهم وقتالهم مع المماليك وهروبهم وان جماعة من العلماء ذهبت اليهم بالبر الغربي فامنوهم وكذلك الرعية دون المماليك وذكروا فيه أنهم من أخصاء السلطان العثماني وأعداء أعدائه وان السكة والخطبة باسمه وشعائر الاسلام مقامة على ماهي عليه وباقية بمعنى الكلام السابق من قولهم أنهم مسلمون وانهم محترمون القرآن والنبي وأنهم أوصلوا الحجاج المشتتين وأكرموهم واركبوا الماشي واطعموا الجيعان وسقوا العطشان واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر وعملوا به شانا ورونقا استجلابا لسرور المؤمنين وأنفقوا أموال برسم الصدقة على الفقراء وكذلك اعتنوا بالمولد النبوي وانفقوا أموالا بشأن انتظامه واتفق رأينا ورأيهم على لبس حضرة الجناب المحترم مصطفى أغا كتخدا بكر باشا والي مصر حالا فاستحسنا ذلك لبقاء علقة الدولة العلية وهم ايضا مجتهدون في اتمام مهمات الحرمين وامرونا ان نعلمكم بذلك والسلام .

ويلاحظ هنا أن التباين واضح أشد الوضوح بين الأثرين ، فقد ارتدى زيّا وطنيا أو دينيا ، غير ان التدقيق فيه يكشف اللثام عن فارق حضاري ابعد اثرا من الدلالة المباشرة . . وهذا يبدو في (بريد) نابليون بالقدر الذي يبدو في (يوميات) الجبرتي .

عند نابليون لا نخطأ قط التوسل باللهجة الدينية ومحاولة الافادة منها لدى المسلمين وهو ما يظهر على لسان الخطاب الموجه إلى جهات دينية من مشايخ مصر وأعيانها الكبار ، حين يظهر الثناء على الفرنسيين ثناء عاليا متمثلا في ذكر مآثرهم من فتح المساجد واقامة الموالد واستقبال الحجاج وما الى ذلك . . اما عند الجبرتي ، فإننا لا نخطأ موقف المؤرخ العربي الفطن ، الذي يتحدث فيقدم الفعل الموحي (كتبوا ، بصموا ، الصقوا . . . الخ) إلى غير ذلك مما يشير إلى أن ما جاء به المشايخ والتجار والكبار إنما هو بناء على طلب الفرنسيين المحتلين وليس عن ارادتهم وحسب .

اجتماع الديوان

ومع معاينة النصوص والتوقف عندها يتأكد لنا زيادة الهوة بين الطرفين ، وهو ما نجده في تضاعيف هذين النصين أيضا :

كوريه رقم ١١

٢٠ فاندمير ـ السنة ٧ للجمهورية

« اجتماع الديوان العام في مصر

يجتمع الآن في القاهرة تحت إسم الديوان العام

نواب من جميع الأقاليم في القطر المصري ، وذلك بناء على أمر القائد العام ـ وقد عقدوا جلستهم الأولى في ١٦ فاندمير وكان المواطنان مونج وبرتوليه يمثلان الفرنسيين في هذه الاجتماعات بصفة مندوبين . وقد زادت من عظمة هذا الاجتماع ، الملابس الاسلامية الجميلة ورزانة وهدوء أصحابها مع من كان يرافقهم من كثرة الاتباع .

لقد اختير الشيخ عبدالله الشرقاوي رئيسا للاجتماع . وسنحيط قراءنا علماً بما ستقوم به هذه الهيئة سواء في المجال السياسي أو في مجال خدمة العلم والحضارة » .

وجاء في يوميات الجبرتي ، ج ٣ ص ٢٢ ، ٢٣

« (وفي يوم الجمعة رابع عشرينه) نبهوا على المشايخ والأعيان والتجار ومن حضر من الأقطار بالحضور إلى الديوان العام ومحكمة النظام بكرة تاريخه وذلك ببيت مرزوق بيك بحارة عابدين فلما أصبح يوم السبت أعادوا التنبيه بحضورهم بالديوان القديم ببيت قائد أغا بالأزبكية فتوجه المشايخ المصرية والذين حضروا من الثغور والبلاد وحضر الوجاقات وأعيان التجار ونصارى القبط والشوام ومدبرو الديوان من الفرنسيس وغيرهم جمعا موفورا فلما شرع بهم المقام شرع ملطي القبطي الذي عملوه قاضي في قراءة فرمان الشروط والمناقشة فابتدر كبير المدبرين في إخراج طومار آخر وناوله للترجمان فنشره وقرأه وملخصه ومضمونه الأخبار بأن قطر مصر هو المركز الوحيد وأنه أخصب البلاد وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد البعيدة وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكه فملكه أهل بابل وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن إلا أن دولة الترك شدت في خرابه لأنهااذا حصلت الثمرة قطعت عروقها فلذلك لم يبقوا بأيدي الناس الا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم ومن سوء ظلمهم ثم ان طائفة الفرنساوية بعدما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه واراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباء فقدموا وحصل لهم النصرة ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة وان عرضهم تنظيم أمور مصر واجراء خلجانها التي دثرت ويصير لها طريقان طريق إلى البحر الأبيض وطريق إلى البحر الأحمر فيزداد خصبها وريعها ومنع القوى من ظلم الضعيف وغير ذلك استجلابا لخواطر أهلها وابقاء للذكر الحسن فالمناسب من أهلها ترك الشغب وإخلاص المودة وأن هذه الطوائف المحضرة من الاقالين يترتب على حضورها أمور جليلة لأنهم أهل خبرة وعقل فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج لصاري عسكر من ذلك ما يليق صنعه إلى آخر ما سطروه من الكلام قلت ولم يعجبني في هذا التركيب الا قوله المفعمة جهلا وغباوة بعد قوله اشتاقت انفسهم ومنها قوله بعد ذلك ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد إلى آخر العبارة ثم قال الترجمان نريد منكم يامشايخ ان تختاروا شخصا منكم يكون كبيرا ورئيسا عليكم ممتثلين أمره فقال بعض الحاضرين الشيخ الشرقاوي فقال نُو نُو وإنما ذلك يكون بالقرعة فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر على الشيخ الشعراوي فقال حينئذ يكون الشيخ عبدالله الشرقاوي هو الرئيس فأتم هذا الأمر حتى زالت الشمس فأذنوا لهم في الذهاب والزموهم بالحضور في كل يوم .

ومع تتابع المقارنة ، كما نرى ، يعمق التباين أكثر ويتأكد . . فبينما نجد لفظة (امر) مشفوعه بالقائد العام نجد الجبرتي يذكر لفظ (نبهوا) و (أعادوا التنبيه) ، وهو ما يعيد على الأذهان دلالة الألفاظ في كشف السلوك الذي هو من صور الذات والخاصية الحضارية . كما يلفت النظر هنا ، ايضا ، ان صحيفة نابليون تذكر هذه المظاهر التي تقترب من السلوك الدستوري ، فان الجبرتي بعد أن يسرد بعضها لا يعجبه فيها إلا مقطعا واحدا هو (المفعم جهلا وغباوة) ، وهو مايشير إلى أن الاحتفاء بالبيان والمجاز في الحضارة العربية هو إحتفاء يفوق النظام والوسائل الدستورية بمعناها السياسي في الحضارة الأوروبية .

ولا يمكن هنا أيضا أن نغفل الوصف البدهي لانتخاب أو اختيار الحاكم هنا ، فبينما تذكر اللغة الفرنسية أن ذلك تم بواسطة الاختيار بالطريقة الدستورية ، فإن الجبرتي لا يعثر في التعبير عن هذا إلا كلمة مثل (قرعة) .

وبين الاختيار وإجراء القرعة معانٍ ظاهرية ودلالات أكثر بعدا وعمقا في الحضارتين الشرقية والغربية بالطبع .

وربما أشرنا إلى وعي صحيفة نابليون بالواقع المصري منذ أبعد حقبات التاريخ مما يلح على الدافع القومي ، في وقت ، بأن الدافع الاسلامي مازال هو الدافع الوحيد ، على وجه التقريب ، الذي يرسم الملامح العامة لاقطار الشرق العربي .

ورغم أننا سنلحظ في نهاية فترة الوجود الفرنسي في مصر وعيا فائقا لدى الجبرتي وعديد من (المشايخ) المصريين في تفهم هذا التباين بين الشرق والغرب ودلالته ، فاننا سوف نلحظ مراحل هذا التباين تمضي رويدا رويدا . .

وقبل أن نصل إلى نهاية هذا البحث ، سوف نجهد أن نختار نصين يعبران أكثر منها عن حالة المفارقة بين الحضارتين ، وهما نصان محملان بالمعاني الفياضة التي تؤكد هذا . .

منشور الثورة :

١٠ بروميير ـ السنة السابعة للجمهورية

القاهرة في ٦ بروميير سنة ٧

« في فجر يوم ٣٠ فاندميير ظهرت بعض التجمعات في مدينة القاهرة وفي الساعة ٧ صباحا تجمع جمع غفير ، أمام باب القاضي ابراهيم حاتم افندي وهو رجل محترم باخلاقه وصفاته . ذهب إليه وفد من عشرين شخصا من أبرز الشخصيات وأرغمه على أن يمتطي جواده ويصحبهم إلى . . ثم مضوا في طريقهم إلى . . وبينما هم في الطريق وجه رجل عاقل رشيد نظر القاضي إلى أن الجمع يضم عددا قليلا وغير منظم من الرجال ، كل ما يريدونه هو تقديم عريضة فبهر القاضي من هذه الملاحظة مقتنعا بها ثم ترجل عن جواده وذهب إلى منزله .

ولكن ذلك لم يرق للجماهير الغاضبة فانقضت عليه وعلى أهل بيته ورجمتهم بالحجارة وضربتهم بالعصر وسلبت ونهبت مافي المنزل .

ولما ذهب الجنرال دوبوي قائد الحامية إلى مكان الحادث في غضون ذلك وجد جميع الشوارع قد سدت أمامه وكان هناك قائد كتيبة تركي فلما رأى الضوضاء واستحال عليه تهدئتها بالحسنى أطلق النار للارهاب فاستشاطت الجموع غضبا وزاد هياجها فهاجمها الجنرال دوبوي بجنده وشنت كل من تصدى له وفتح لنفسه طريقا ولكنه أصيب بضربة رمح تحت إبطه فانقطع شريان أهمله الحياة لمدة ثماني دقائق فقط .

وتسلم القيادة من بعده الجنرال بون وقصفت المدافع وتبودلت النيران في جميع الشوارع وسطت الجماهير على بيوت الأغنياء تسلبها وتنهبها .

وفي المساء كانت المدينة قد هدأت كلها تقريباً إلا حي الجامع الأكبر حيث كان يجتمع مجلس الثوار الذين أقاموا المتاريس في الشوارع المؤدية له .

وفي منتصف الليل تمركز الجنرال دومارتان على رابية بين القلعة والقبة ، التي تقع على بعد حوالي ٣٠٠ متر من الجامع الأكبر ومعه ٤ مدافع .

كان العرب والفلاحون يسيرون متلهفين لنجدة الثوار فأمر الجنرال لان للجنرال فو بالهجوم على نحو ٤ أو ٥ آلاف فما أن رأوهم حتى فروا باسرع مما كان متوقعاً وغرق منهم عدد كبير في مياه الفيضان .

وفي صباح اليوم التالي أرسل الجنرال دوماس طلائع فرقة من الخيالة لاستطلاع الأمور فطرد العرب بعيداً عن القبة .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان كل شيء هادئاً خارج سور المدينة . وعندما تقدم رجال الديوان وكبار المشايخ ورجال الشريعة نحو المتاريس المقامة في حي المسجد الأكبر رفض الثوار السماح لهم بالمرور واستقبلوهم بطلقات البنادق .

وكان الرد في الساعة الرابعة باصلائهم ناراً حامية من مدفعية القلعة ومدفعية الجنرال دومارتان وفي أقل من عشرين دقيقة من قصف المدافع رفعت الاستحكامات والمتاريس وانفض المتظاهرون من الحي واستولت قواتنا على المسجد وعاد الهدوء التام إلى كل المنطقة .

وتقدر خسائر الثوار بحوالي ٢,٥٠٠ قتيل وخسائرنا ١٦ جندياً قتلوا و ١١ مصاباً فيهم واحد خنقه الثوار في الشارع و ٢٠ رجلا من مختلف الوحدات والرتب .

إن الجيش يشعر بخسارته في فقدان الجنرال دوبوي الذي سبق أن أخطأه الموت في مفاجآت الموت مائة مرة .

وعندما ذهب ياورنا سولكوسكي في فجر يوم أول برومير لاستطلاع الحركات التي كانت تبدو خارج المدينة هاجمته بدوره الجماهير في ضاحية من الضواحي ولما انزلقت أرجل حصانة انهالت عليه الجماهير ولم تلتئم الجراح التي أصابته في معركة الصالحية فمات .

لقد كان ضابطاً ذا مستقبل عظيم » .

أما في (يوميات) الجبرتي ، ج ٣ ص ٢٥ - ٢٧ فنقرأ في نفس الحادثة :

« (وفي يوم السبت عاشر جمادي الأول) عملوا الديوان واحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة والأوسط ستة والأدنى ثلاثة وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخاً للأعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا في الضبط والإحصاء وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها ولما أشيع ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك

ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الأمور ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وابرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح في الكلام نصر الله دين الاسلام فذهبوا إلى بيت قاضي العسكر وتجمعوا وتبعوا ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر وفي ذلك الوقت حضر دبوي بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية وذهب إلى بيت القاضي فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وتلك الأخطاط بالخلائق مزحومة فبادروا إليه وضربوه واثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ومن كل حدب ينسلون ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حاذاها ولم يتعدوا جهة سواها وهدموا مصاطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس واما الجهات البرانية والنواحي الفوقانية فلم يفزع منهم فازع ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر ولم تزل طائفة المحاربين في الأزقة متترسين فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية المناخلية وبندقوا على متراس الشوائين وبه جماعة من مغاربة الفحامين فقاتلوهم حتى أجلوهم عن المناخلية أزالوهم وعند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال وخرجت العامة عن الحد وبالغوا في القضية بالعكس والطرد وامتدت ايديهم الى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى والشوام والأورام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام واخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات وأكثروا من المعايب ولم يفكروا في العواقب وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين وأما الأفرنج فإنهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين واحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنبات ووقفوا مستحضرين ولأمر كبير كبيرهم منتظرين وكان كبير الفرنسيين أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ومل من المطاولة هذا والرمي متتابع من الجهتين وتضاعف الحال ضعفين حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبمبات على البيوت والحارات وتغمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجروا عليه المدافع والنبر وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين سوق الغورية والفحامين فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ولم يكونوا في عمرهم عاينوه نادوا يا سلام من هذه الآلام يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق وتتابع الرمي من القلعة

والليمـان حتى تزعـزعت الأركـان وهـدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونـزلت في البيوت والـوكـائـل وأصمت الآذان بصوتها الهائل فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هـذا النازل ويمنـع عسكـرهم من الـرمي المتراسل وكفّهم كـما كفّ المسلمون عن القتـال والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليـه عـاتبهم في التـأثـير واتهمهم في التقصـير فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان في المسالك وتسـامع النـاس بـذلـك فـردت فيهم الحـرارة وتسـابقـوا لبعضهم بـالبشـارة وأطمـأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب وانقضى النهار وأقبل الليل وغلب على الظن أن القضية لها ذيل وأما أهل الحسينيـة والعطوف البـرانية فـانهم لم يزالوا مستمـرين وعلى الـرمي والقتال مـلازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمي المتتابع وبالقنابر وبالمدافع الى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عنـدهم الأدوات فعجزوا عن ذلـك وانصرفـوا وكف عنهم القوم وانحرفوا وبعد هجمة من الليل دخل الافرنج المدينـة كالسيـل ومروا في الأزقـة والشوارع ولا يجدون لهم مانع كأنهم الشياطين أو جنـد ابليس وهجموا مـا وجدوه من المتـاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا الى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا وما هجعوا وعلموا باليقين بأن لا دافع لهم ولا كمين وتراسلوا ارسالاً رُكباناً ورجالاً ثم دخلوا الى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفوقـوا بصحنته ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خـزائن الـطلبة والمجـاورين والكتبة ونهبـوا ما وجـدوه من المتاع والأواني والقصـاع والـودائـع والمخبآت بالدواليب والخزانـات ودشتوا الكتب والمصـاحف على الأرض طـرحـوهـا بـارجلهم ونعالهم داسوهـا وأحدثـوا فيه وتغـوطوا وبـالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقـوا بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه عروه ومن ثيابه أخرجوه وأصبح يوم الثلاثاء فاصطف منهم حزب بباب الجامع فكل من حضر للصلاة يراهم فيفر راجعاً ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي أفـواجاً واتخـذوا السعي والطواف بهـا منهـاجـاً وأحطوا بها إحاطة السّوار ونهبوا بعض الـديار بحجة التفتيش عن النهب وآلة السلاح والضرب وخـرجت سكان تلك الجهـة يهـرعـون للنجـاة بأنفسهم طالبون وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كان اشرف البقاع ويشرف الناس في سكناها ويودعون عنـد أهلها مـا يخافـون عليه الضيـاع والفرنساوية لا يمرون بها إلا في النادر ويحترمونها عن غيرها في الباطن والظاهر فانقلب بهذه الحركة منها موضوع وانخفض على غير القياس المرفوع ثم ترددوا في الأسواق ووقفوا صفوفاً مثيناً وألوفاً فإن مرّ بهم أحد فتشوه وأخذوا ما معه وربما قتلوه ورفعوا القتلى والمطروحين من الإفرنج والمسلمين ووقف جماعة من الفـرنساويـين ونظفـوا مراكـز المتـاريس وأزالوا مـا بها من الأتـربة والأحجـار المتراكمة ووضعوها في ناحية لتصير طرق المرور خالية وتحزبت نصارى الشوام وجماعة أيضاً من الأروام الذين انتهبت دورهم بالحـارة الجوانيـة ليشكوا لكبير الفـرنسيس ما لحقهم من الـرزية واغتنموا الفرصة وأظهروا ما هو بقلوبهم كمـين

وضربوا فيهم المضارب وكأنهم شاركوا الإفرنج في النوائب وما قصدهم المسلمون ونهبوا ما لديهم الا لكونهم منسوبين إليهم مع أن المسلمين الذين جاوروهم نهبوهم الذعّر ايضاً وسلبوهم وكذلك خان الملايات المعلوم الذي عند باب حارة الروم وفيه بضائع المسلمين وودائع الغائبين فسكت المصاب على غصته واستعوض الله في قضيته لأنه إن تكلم لا تسمع دعواه ولا يلتفت إلى شكواه . وانتدب برطلمين للعسس على من حمل السلاح واختلس وبث أعوانه في الجهات يتجسسون في الطرقات فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم وما ينهبه النصارى من إبغاضهم فيحكم فيهم لمراده ويعمل برأيه وقياده ويأخذ منهم الكثير ويركب في موكبه ويسير وهم موثوقون بين يديه بالحبال ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال فيودعونهم السجونات ويطالبونهم بالمنهوبات ويقررونهم بالعقاب والضرب ويسألونهم عن السلاح والآلات والحرب ويدل بعضهم على بعض فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض وكذلك فعل مثل ما فعلوا اللعين الأغا وتجبر في أفعاله وطغى وكثير من الناس ذبحوهم وفي بحر النيل قذفوهم ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمماً كثيرة لا يحصى عددها إلا الله وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم وأصبح يوم الأربع فركب فيه المشايخ اجمع وذهبوا لبيت صارى عسكر وقابلوه وخاطبوه في العفو ولاطفوه والتمسوا منه أماناً كافياً وعفواً ينادون به باللغتين شافياً لتطمئن بذلك قلوب الرعية ويسكن روعهم من هذه الرزية فوعدهم وعداً مشوباً بالتسويف وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين في إثارة العوام وحرضهم على الخلاف والقيام فغالطوه عن تلك المقاصد فقال على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد فترجوا عنده في اخراج العسكر من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال وأمر باخراجهم في الحال وابقوا منهم السبعين أسكنوهم في الخطة كالضابطين ليكونوا للأمور كالراصدين وبالأحكام متقيدين ثم انهم فحصوا على المتهمين في إثارة الفتنة وطلبوا الشيخ سليمان الجوسقي والشيخ احمد الشرقاوي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ يوسف الصيفي والشيخ اسماعيل البراوي وحبسوهم ببيت البكري وأما السيد بدر المقدسي فإنه تغيب وسافر إلى جهة الشام وفحصوا عليه فلم يجدوه وتردد المشايخ لتخليص الجماعة المعوقين فغولطوا واتهم أيضاً ابراهيم افندي كاتب البهار بأنه جمع له جمعاً من الشطار وأعطاهم الأسلحة والمساوق وكان عنده عدة من المماليك المخفيين والرجال المعدودين وقبضوا عليه وحبسوه ببيت الأغا » .

وعلى هذا النحو ، نصل إلى شيء هام يلخصه موقف الجبرتي نفسه كاحدى القيادات الدينية المثقفة ، فهو ، كما رأينا ، لم يكن راضياً عن الثورة ، وعدم رضاه يعود الى أسباب كثيرة لعل من أهمها أنه كان محافظاً شديد المحافظة ، ومن ثم ، تبرمه بالعنف ، فضلاً عن الوعي الذي دفعه ليرى في الثورة عبثاً ما دام أصحابها لم يتخذوا العدة لمواجهة عدو مستعد مدجج بأحدث الأسلحة ، غير أن المحافظة كانت العامل الأول في موقفه .

ويمكن أن نشير بعد ذلك إلى أسباب أخرى منها أسلوب الجماهير غير المنظم متمثلاً في الفوضى الضاربة باطنابها والحركة التلقائية دون ما قيادة أو تنظيم . .

ويبدو عدم رضاه في لوم القيادات ، أو التمرد لأنهم آثروا العاطفة والغوغائية وهم من يسميهم

(المعممين) ، وقد كان الأولى بهم في رأيه أن يتدبروا قبل أن يقدموا على هذه الفعلة الهوجاء التي لم يجنوا من ورائها غير الفشل .

ويترجم عدم رضاه أيضاً وصفه الغريب لرجال الثورة ، وهو في الوقت نفسه يترجم موقفه منهم حين يصفهم فيقول (الغوغاء أو الحشرات أو الذعر) ، فعلى الرغم مما يبدو من القسوة في هذا الرأي ، فإنه لا مفر من قبول رأيه في ضوء عصره ، إنه من العبث التمرد على قوات أقوى مما ينتج عنه خسائر كثيرة منها مما كان يصحب هذا التمرد غير المنظم من حركة سلب ونهب وتخريب ودمار يصل الى درجة بعيدة .

ونخطو خطوة أخرى لتجاوز مفهوم الجبرتي المتباين إلى دلالة الفاظة ، لنرى ، من ثم ، عمق هذا التباين بين العالمين ، فبينما نقرأ في أوراق الجبرتي (المعممين ، الجهاد حشرات الحسنية وذعر الحارات البرانية ، المسلمون ، الكفار ، الشطار ، ضربوا بالمدافع ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر) فان الدلالة تختلف في الفاظ صحيفة نابليون حين نقرأ (التجمعات ، قائد كتيبة تركي ، الجماهير ، العرب والفلاحين ، المتاريس حول المسجد الأقصى ، المتظاهرون ، خسائر الثوار . .) مما يشير الى اختلاف العالمين الشرقي والغربي اختلافاً كبيراً ، فاذا جاوزنا المعنى الظاهر لوصلنا الى غابات البيان والبديع والمجاز تلك التي تظل السمة الغالبة على أسلوب الجبرتي ، اذ لا نخطأ هذا السجع المتتابع واحتواء تاريخه للتراجم والأخبار في آن واحد وتسجيله للأحداث في شكل (يوميات) أي بشكل مباشر واحتوائه على وثائق وعديد من الروايات المدونة بنصوصها كما عرفت في هذا الزمن سواء بعجميتها أو عربيتها أو حتى ركاكتها وهذه الخواطر التي تدون كلها عن لصاحبها فضلاً عن احتواء الكتاب لبعض النوادر والأشعار والزخارف اللفظية وما إلى ذلك مما يشير إلى أن منهج الجبرتي في تسجيل التاريخ إنما يعود الى المنهج الاسلامي ـ لا الغربي ـ الذي يمتد الى ابن أياس واحمد شلبي عبد الغني ثم الاسحاقي وابن ابي السرور البكري الصديقي ثم عبد الله الشرقي في عصره .

ويمكن أن نضرب مثلاً لهذا التباين في لفظة (الجمهور) التي ذكرت بمعنى يختلف عن لفظة (جمهور) في موضع آخر ، فلكل موضع استخدام مختلف ، يقترب أو يبتعد من التأثر بالمدرسة الاسلامية حسب اقترابه أو ابتعاده من أحداث عصره والمؤثرات التي أسهمت في تحديد المعنى ، وفي جميع الحالات فإن التفسير يرتبط بالعصر .

وقد نسهب أكثر في درجات التباين بين الأثرين . . ففي حين يلاحظ أن الشرارة التي أوقدت الثورة عند الجبرتي تمثلت في ضرائب (الأملاك والعقار) ، فإن وثائق الفرنسيين لا تذكر هذا السبب ، وليس معنى هذا أن الضرائب هي السبب المباشر وراء الثورة ، ولكنها ذريعة لهذا الاختلاف بين الجانبين .

وفي هذا يمكن تأكيد أن أسباب الثورة لا تجاوز مفهوم الاختلاف بأية حال ، وهو اختلاف بواعث كثيرة بعضها مادي وبعضها معنوي .

أما المادي فهو يتمثل في جملة من تعليمات الادارة الفرنسية التي اضطرت اليها والتي كانت جديدة بالنسبة الى شعب مغاير من أمثال القروض والبيوع الاجبارية وأوامر الاستيلاء والغرامات وما الى ذلك ، أما المعنوي ، فهو ما تمثل في تعليمات أخرى كانت تظهر الباعث المادي لكنها تطوي الباعث المعنوي مثل أمر أصحاب الحوانيت باضاءة مصابيح الشوارع طوال الليل أمام الحوانيت ، وأمر نابليون بهدم عدة بيوت لأنها عاقت الاستحكامات . والى غير ذلك من البواعث التي اندهش الشعب لغرابتها بالنسبة اليه ، ولم تكن لتستطيع

هذه الأوامر أو التعليمات المغايرة أن تعمل شيئاً في شعب كان فقهاؤه يدعون الى الثورة (خمس مرات في اليوم) على رأي كرستوفر هيرولد (بونابرت في مصر ، ٢٦٢)

وربما ارتبط بهذا تأرجح موقف الجبرتي أيضاً في أكثر من مرة لغرابة أفعال الفرنسيين المختلفين عن شعب أعزل ، وهو موقف ينتمي ، كما أسلفنا ، إلى فكره الذي نفهم العدل على أنه إقامة الشريعة الاسلامية والرفق بالناس خاصة اذا كان الحاكم هذه المرة أجنبياً ، فهو يعلق على موقف القائد الفرنسي ـ نابليون ـ بعد أن أرسل المنشور الأول وقال فيه (انني ما قدمت لكم الا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين) فان الجبرتي يردد مباشرة في (مظهر التقديس) قائلاً (هذه أول كذبة ابتدرها وفرية ابتكرها) (ص ٢ ، ٣) ، كما أن يوميات (العجائب ، ج ٣) زاخرة بضروب ظلم الفرنسيين ، فكما نرى في الوصف السابق لأحداث ثورة القاهرة الأولى ، فإنه يعلق على أفعال الفرنسيين لإخماد الثورة ، إنهم ، أي الفرنسيون ، قد (نالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم) (ج ٣ ، ص ٢٧) ويضيف معدداً ما يفعلون من (استمرار القبض على الناس وكبس البيوت بادنى شبهة) وما إلى ذلك حتى لم يسلم من هذا المصير أحد من فئات الشعب .

وعلى أية حال ، فإن دراسة الجبرتي في علاقته بالغرب واستبطان البنى الزمنية أو الدلالات الفكرية يدلان على شقة الخلاف بين هذين العالمين ، في وقت لم يكن المصريون خلال قرون بعيدة الى الوراء قد اختلفوا في رأيهم بعد عن الصليبيين سواء في قدراتهم الحربية أو الحضارية ، حتى إذا ما جاءوا هذه المرة ، بدأ الصراع مغايراً نتيجة لأن العالم كان مغايراً .

ومن هنا ، فإن (الصدمة) الأولى كانت كافية للسير في العالم الغربي أو في عصره ، لكن بمقومات عالمنا نحن وعصرنا أيضاً .

والسؤال يظل هو : ما هي أهم الدوافع وراء دواعي التدوين والتعبير ؟ فلنحاول الاجابة عنه . .

أن الدافع الأول الذي لا نستطيع التخلص منه قط ، يظل إختلاف الشرق عن الغرب ، وهو اختلاف تغاير . . وكما اسلفنا ، فإن تقليدية الجبرتي ، وإن كان مغالياً فيها ، لا تحمل بالضرورة تخلفاً حضارياً ، كما أن رؤية نابليون ، وان كان طموحاً فيها ، تنطوي بالضرورة على هدف حضاري .

ويمكن أن نتابع مع ذلك عدداً من التفريعات وراء هذا التغاير . .

لقد كان الجبرتي أثناء الوجود الفرنسي يسجل في كراساته الخاصة أعمال ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت اليه ، وراح يسجل أيضاً ما رآه في الغالب رأى العين في أوراق متناثرة يسميها (طيارات) حتى اذا ما خرج الفرنسيون وكان لا بد أن يمضي وقت طويل على هذا عمد أن يبدأ بعد ذلك إلى تسجيل تاريخه بغرض تذكير الناس ما حدث والافادة منه . . أما نابليون ، فقد اختلف في صحيفته عن يوميات الجبرتي ، إذ سعى إلى طبعها لنشرها بين أفراد جيشه للتعرف على أخبار أوروبا وأخبار البلد التي تواجدوا فيها حتى تحمل هذه الجريدة الأخبار إلى الخارج وتحمل أيضاً أخبار الخارج إلى الداخل لكي يتسنى فهم ما يحدث خارج المستعمرة الجديدة أو في أطرافها .

لقد راح الجبرتي يدون (يومياته) بينه وبين نفسه ؛
وراح نابليون يدون الأخبار بينه وبين الآخرين ؛
كان الجبرتي يهدف الى تسجيل ما يرى ؛
أما نابليون فكان يهدف إلى إملاء ، ارادته من خلال تجربة الاستعمار .

ومن هنا ، عاد الجبرتي إلى كراساته التي سجل فيها الأحداث حتى بعد خروج الفرنسيين ، أما نابليون ، فقد راح يرسل وقتها أعداداً كبيرة منها إلى كليبر في الاسكندرية ليطبع منها ما يستطيع من الكميات ليعيد توزيعها على رجاله .

كان الجبرتي مؤرخاً وطنياً ينتمي الى الشرق ، أما نابليون ، فقد كان قائداً حالماً ينتمي إلى الغرب ، غرب القرن الثامن عشر بأحلامه الصاعدة .

وهو ما يفسر احترام نابليون رجال الدين المصريين في الظاهر ، بينما في (بريد) الحملة راح يسجل ما يعن له بقصد تبرير سياسته والتكريس لها .

سبب آخر يحدد دوافع الكتابة عند الإثنين ، فالجبرتي لم يكن ليسعى لغير تسجيل « اليوميات » ، أما نابليون ، فقد كانت أحلامه (الزاهية) التي استولت عليه دافعاً له ليغلو في أخباره غلواً كثيراً ، وهو نابليون الذي قال أثناء فترة نفيه حين راح يسترجع فترة وجوده الأول في مصر (في مصر ، وجدت نفسي وقد تحررت من قيود حضارة مزعجة . كانت الأحلام تملأ رأسي . . ورأيتني أؤسس ديناً ، وأزحف على آسيا وأنا امتطي فيلاً وعلى رأسي عمامة وفي يدي القرآن الجديد الذي كنت سأؤلفه ليلائم حاجياتي . وكنت سأجمع في مشروعاتي بين خبرات العالمين ، وأسخر لمنفعتي مسرح التاريخ كله . . لقد كانت الفترة التي قضيتها في مصر أجمل فترات حياتي لأنها كانت أحفلها بالأحلام) (بونابرت في مصر لكرستوفر هيرولد ص ٩ ـ ١٠) .

أما الجبرتي ، فان الذي راح يسجل (يومياته) ليس أحلامه الخاصة ، وإنما كان صوت مجتمع كامل ، ذلك ، لأنه لا يمكن اعتبار هذه (اليوميات) كتابات فردية أو فضفاضة بغرض إزجاء الوقت أو التكريس لهدف ذاتي بأية حال . فالمعروف أن النتاج الفكري أو التاريخي للمؤرخين أعمال فردية في وقت تظل فيه هناك علاقة أكيدة قائمة بين الفرد والجماعة .

ومن هنا ، يمكن اعتبار (العجائب) أكثر صدقاً وعفوية من (البريد) ، أو على الأقل أكثر صدقاً في التعبير عن روح الجماعة أكثر من غيره .

وهذا يصل بنا الى دافع آخر . . فالمنهجية التي كتب بها الجبرتي (يومياته) إنما كانت ترتدي ، ضمن ما ترتدي ، زي المؤرخين السابقين عليه في العصر العثماني ، يبدأ تاريخه بمقدمة ثم يلم إلمامة سريعة بتاريخ مصر ـ على عادة مؤرخي هذه الحقبة ـ حتى العصر العثماني ، ثم يتدرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة ، وإن يكن تاريخه الفعلي يبدأ عام ١١٠٠هـ/١٦٨٨م إلى غير ذلك حتى يصل الى الحملة الفرنسية فيقسم كتابه الى أجزاء ويخصص الجزء الثالث منه إلى الحملة حتى ينتهي من تدوين هذا الجزء الثالث عام ١٢٢١هـ/١٨٠٦م .

أما نابليون ، فإن اختلاف المنهج والقصد حتم عليه أن يجاوز المنطق التاريخي في إثبات الحوادث وتسجيلها ، بل وراح يجنح إلى المبالغة ، كما هو الحال في مناسبة مثل (وفاء النيل) ، ففي حين يلاحظ لهفة نابليون ـ القائد ـ في تأكيد حماسة الشعب بما يعادل لهفته في تحقيق أحلامه لاستتباب الأمر له بمصر ، فراح يذكر في صحيفته أنه حين عاد إلى الأزبكية بعد هذا الاحتفال فقد تبعه جمهور ضخم منشد أناشيد المديح في وقت يذكر فيه الجبرتي ـ المؤرخ ـ أن أهل البلد (لم يخرج منهم أحد تلك الليلة) (ج ٣ من العجائب ص ١٤ ـ ١٥) .

لقد كانت الدوافع التي كمنت وراء الاختلاف بين نظرة الجبرتي ونظرة سلفه ، أن الأول جهد ليسجل التاريخ من وجهة نظر مؤرخ وشاهد عيان مسلم أثناء إغارة الفرنسيين على بلادة في وقت شغل فيه بونابرت كل الشغل بتحويل المثل الأعلى للحرية والمساواة وما الى ذلك من شعارات الثورة الفرنسية قبل ذلك بسنوات

قلائل الى السبيل الذي تستلزمه شهوته للفوز بالقوة والسلطان .

تعقيب :

يظل الجبرتي ظاهرة متفردة تماماً ، وهذا التفرد يعود أول ما يعود إلى طبيعة المرحلة التي وجد فيها ، فليس من الضروري أن يحدد موقف الجبرتي من القوى الدخيلة على مصر حينئذ بحيث أنه ينطلق من (الموقف) وحسب ، وإنما بالبحث عن مبرره في محوري الزمان والمكان .

ذلك ، لأن موقف الجبرتي المحافظ يمكن أن يمثل موقفاً مقبولاً لدينا في الظاهر ، غير أن تفسير هذه القابلية يظل سؤالاً حائراً فان الأشياء بشكلها الظاهر يمكن أن تنال شرعية قول وجودها كواقع ، أما محاولة فهمها أو تفسيرها ، فقد يصبح أمراً صعب المنال .

وعلى هذا النحو ، حاولنا أن نعيد كشف طبيعة هذه المغايرة التي نجدها هنا بين الجبرتي كمؤرخ سلفي شرقي ونابليون كقائد غربي حالم ، الجبرتي كعالم من علماء الأزهر العزل ، ونابليون كقائد مسلح من أخمص قدميه حتى قمة رأسه بالسلاح الغربي ووسائل التقدم العلمية .

فلنخرج من التفصيل الى الاجمال .

لقد أكد تتابع البنى الثلاث أ ، ب ، جـ تصاعد دور رجال الدين والتجار في البنيتين الأوليين ، وهو ما بدا في كتابات بيتر جران ، بالقدر الذي بدا في (يوميات) الجبرتي ، ففي يومياته الجبرتي ، خاصة ، نلمح أنه لا يكف عن تجسيد دور التجار أو الأعيان من المصريين ، ففي موضع يكتب (قبضوا على الحاج مصطفى البشتيلي الزيات من أعيان أهالي بولاق) (ج ٣ ص ٧٧) ، وفي موضع آخر يقول (عمل ساري عسكر وليمة في بيته ودعا الأعيان والتجار والشيوخ) (ج ٣ ص ٨٠) ، مقدماً الطبقة التجارية عن فئة رجال الدين ، وهو ، يعكس الترتيب في صفحة أخرى فيقول (ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة ساري عسكر) (ج ٣ ص ٧٩) ، **وهذه الاشارات تؤكد على أن دور الأعيان والشيوخ حتى مجيء الحملة كان مؤكداً ، غير أنه بالوصول الى البنية الثالثة في عصر محمد علي (جـ) كان قد تدهور وضع الطبقة التجارية أو الرموز الدينية في وقت كان (ولي النعم / الحاكم) معنياً بتركيز كل شيء في يد السلطة المركزية ، ومن ثم تضاءل دور النشاط الفردي والطبقة التي كانت تتهيأ لتلعب دوراً حيوياً في الأفق المصري .**

ومع أن هذا بدا واضحاً في أعمال الجبرتي دون أن يبرر بالقدر الكافي ، فإن موقف الجبرتي ، العام والخاص ، ترك تداعيات كثيرة . . **ففي المستوى الخاص ، كان التراث الإسلامي هو المنطق السياسي للجبرتي في نظرته للأمور ، فموقفه من الفرنسيين أو بقية الفئات الدخيلة يتسم بهذا التصور وهو ما يبرر تأرجح موقفه بين السلب والايجاب الذي فهم به موقفه من المماليك أو الحملة الفرنسية أو ـ حتى ـ محمد علي .**

وهذا في السياق الأخير يعني أمراً واحداً ، هو ، أن موقفه كان يحدده فهمه لمصطلح العدل أو الحرية أو الحاكم وما الى ذلك من المصطلحات السياسية ، ففي حين أبدى إعجابه بمنجزات المماليك في فترة عاد في فترة أخرى منتقداً لتصرفاتهم ، وهو ما فعله مع الفرنسيين ، وهو موقفه العام ، أيضاً ، من سياسة محمد علي ، ففي حين كان من أكبر المعارضين لأسلوب هذا الحاكم ، فانه لم يستطع أن يخفي إعجابه بإصلاحات (الوالي) وهمته الكبيرة حين تعلق الأمر بمصلحة الدولة .

أي أن موقفه كان تعبيراً ذاتياً .

هذا على المستوى الخاص ، أما على المستوى العام ، فان موقفه السلبي أو الإيجابي ، لم يكن خاصة ذاتية له ، وانما كان نابعاً من الفكر الذي يمثله ، فهذا الفكر يوجد عادة قبل التعبير عنه أو ممارسته بأي موقف ، ومن هنا ، **فان الواقع الشرقي في فترة الحملة الفرنسية لم يكن نابعاً من ردّ الفعل إزاء الحضارة الغربية ومنجزاتها ، بقدر ما كان نابعاً من (الأصولية) التي تتعمق بجذورها في البيئة الشرقية .**

أي أن موقفه كان تعبيراً شرقياً .

وهذا يرتبط بموقفه الحضاري من القوى الدخيلة على مصر ، إذ لم يكن نابعاً من خاصية الذاتية ، ذلك ، لأننا نستطيع أن نرى ـ كما يذهب البعض ـ **أن الفاعلية في المجتمع ليس هو الفرد ، وإنما « مجموع الأعمال الانسانية لطائفة اجتماعية » ، ومن هنا فان الفاعلية تظل لجماعة لا لفرد ، ولرد فعل اجتماعي وليس لنازع ذاتي .**

أي ، أن موقفه كان تعبيراً اجتماعياً .

صفوة القول ، أنه يمكن إعتبار موقف عبد الرحمن الجبرتي (موقفاً) حضارياً في مواجهة موقف حضاري آخر ، مغايراً له في الطبيعة ، مساو له في القدر .

* * *

بعض المصادر والمراجع :

ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، عبد الرحمن الجبرتي ، اربعة أجزاء ، طبعة بولاق ، بدون تاريخ .

ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، طبعة لجنة البيان العربي ، مجلد واحد ، تحقيق حسن جوهر وعمر الدسوقي ، القاهرة ٦٩ .

ـ إخبار أهل القرن الثالث عشر (مخطوطة) دار الكتب المصرية تحت (طلعت ، أ ٢١٤٨) .
ـ بونابرت في مصر ، كرستوفر هيرولد ، ترجمة فؤاد اندراوس ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ٦٧ ص ٢٥٦ .

ـ نظرية البنائية ، د. صلاح فضل ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ١٩٨٠ .
ـ عصر البنائية من ليفي ستراوس الى فوكو . أديب كيرزويل ، ترجمة د . جابر عصفور ، سلسلة (آفاق) عن دار آفاق عربية ، ١٩٨٥ ، بغداد .

ـ تاريخ الفكر المصري الحديث ، د. لويس عوض ، دار الهلال ، القاهرة ط ٣ بدون تاريخ ، جزءان .

ـ بحوث ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٦/٢٣ ابريل ٧٤ بمقر الجمعية بالقاهرة .

ـ العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ، د. عزت قرني ، عالم المعرفة ٣٠ ، يونيو ١٩٨٠ ، الكويت .

ـ التداخل الحضاري ، لسان حال الرابطة الدولية لدراسات التداخل الحضاري ، الصادر عن بروكماير ، بوخوم ١٩٨٠ .

— Courier de L'egypte موجودة بدار الكتب المصرية تحت ارقام : N. 1-3-6-11-14.

— A. E. Crouchley, The Economic development of Modern Egypt (London, 1938).

— Brecht in Agypten, Dr. Magdi Youssef. Studienverlaq, Dr. J. Brockmeyer, Bacheme 1970.

* * *

الأدب المغربي الحديث في اللغة الأسبانية

حسن الوزاكلي*

(١) - تمهيد :

بين المغرب واسبانيا في عصور تاريخها العربي من العلائق والصلات ما جعلهما شريكين في تراث ادبي ومعرفي لم يعد موضع نقاش وما كان له من أثر بعيد على تطور ثقافة الغرب في مختلف واجهاتها ومجالاتها .

ولاشك أن العناية بهذا التراث في العصر الحديث ، نشرا ودرسا ، سواء في المغرب أو في اسبانيا تكشف ، من جهة ، عن شعور المغاربة والأسبان معا بأهمية هذا التراث المشترك بينهما ، وتكشف ، من جهة ثانية ، عن جانب من جوانب التواصل والتفاعل في ميدان الابداع الوجداني والفكري بين المجتمعين مما يبلور بعض معطيات تلكم العلائق والصلات التي ربطت بينهما مدى قرون متوالية ، وهي علائق وصلات ان كان اعتراها شيء من الفتور حينا طويلا من الدهر ، فانها قد بدأت منذ عقود من السنين ، تسترد قوتها وفاعليتها ، والفضل في ذلك او بعضه ، على الاقل ، يعود الى فئة من الدارسين الاسبان تمثلت حقيقة تاريخ امتها ووعت الدور العظيم الذي نهض به الاسباني العربي في صنع ذلك التاريخ وصياغة آثاره الثقافية والمعرفية . فعملت على احياء تلك العلائق . وتجديد تلك الصلات بما نذرت له وقتها وجهدها من التعريف بالواقع العربي المعاصر . وقد شارك هؤلاء الدارسين الاسبان في ذلك طائفة من الباحثين العرب ، مشارقة ومغاربة ، ممن اتيحت لهم فرصة دراسة اللغة الاسبانية واجادتها فكتبوا بها والفوا .

وفي نطاق هذا التعريف (الاسباني) بالواقع العربي المعاصر في مختلف افاقه وواجهاته ظفر الأدب ، بوصفه وعاء وجدان وفكر ، بعناية واهتمام خاصين . فماذا كان حظ الأدب المغربي منهما ؟

(*) أستاذ محاضر ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الانسانية - جامعة سيدي محمد بن عبد الله - تطوان (المغرب)

إن الاجابة عن هذا السؤال هو ما سيحاول هذا العرض انجازه والوفاء به ، غير اننا قبل ذلك . اي قبل ان نرصد مظاهر الاهتمام بالأدب المغربي في الاسبانية ، نحب ان ننظر في دواعي هذا الاهتمام وبواعثه .

(٢) ـ دواعي الاهتمام وبواعثه :

وهي مختلفة ومتنوعة ، غير انه بوسعنا ان نردها الى نوعين اثنين ، احدهما عام والاخر خاص .

اما العام فنقصد به الى تلك التي حملت المستعربين الاسبان اوائل العقد الخامس من هذا القرن على الالتفات الى العالم العربي والاهتمام باثار كتابه ، وادبائه ، وشعرائه ، وهو اهتمام قد يكون وضع في اعتباره ، بدرجة اولى ، نتاج الاعلام والرواد من المبدعين في مصر والشام والعراق والمهجر لكنه لم يغفل بحال اسهامات غير اولئك من ادباء الاقطار العربية الأخرى ، ومن ضمنها المغرب .

ولعل اهم هذه الدواعي والبواعث تمثل في مجالين اثنين ، هما :

أ ـ **المجال السياسي** . ففي تلك الفترة كان صوت العالم العربي بدأ يرتفع مجلجلا مدويا من فوق المنابر الدولية يطالب بحق شعوبه في الحرية ، والاستقلال وتقرير المصير في حين كانت الحركات الوطنية تتأجج في اقطاره والثورات وحروب التحرير تشتعل فوق اراضيه ، كل ذلك لفت اليه انظار الناس في الغرب فتزايد اهتمامهم به واشتدت رغبتهم في معرفته .

ب ـ **المجال الأدبي** . كان الابداع العربي . في مختلف صيغة وقوالبه يعرف يومئذ تحولات جذرية كان يستشرف بها افاق التطور والتجديد وكانت اثار الاعلام من امثال طه حسين والحكيم وجبران ونعيمة قد عرفت طريقها الى بعض اللغات الغربية ونالت اعجاب قرائها وتقديرهم .

وفي هذه الفترة عرف الاستعراب الاسباني طليعة جيل جديد من رجاله بقدر ما استشعروا على نحو من الادراك والوعي لم يتح مثله لاسلافهم اهمية الحيز الذي يشغله العنصر العربي في رقعة التاريخ الاسباني الادبي والفكري ، استشعروا الاهمية التي بدأ العالم العربي يكتسبها بفضل مبادراته السياسية وانجازاته الأدبية . وقد حز في نفوس هؤلاء المستعربين ان يكون الاسبان ـ وهم الذين ليس يميزهم عن بقية الغربيين الا انتماؤهم التاريخي العربي[١] ابعد الناس في الغرب (عما هو عربي) . وقد كان في هذا وذاك ما دعا افرادا من هذا الجيل الجديد من المستعربين الى الاهتمام بالادب العربي الحديث والاجتهاد في تعريف القاريء الاسباني باثار هذا الادب واعلامه .

اما الخاص من تلك الدواعي والبواعث فيمكن اجمالها على النحو التالي :

أ ـ الشعور بضرورة التعرف على المغرب الذي يؤلف بالنسبة للاسبان عالما بوسعهم تأمله بمجرد الوقوف على شواطيء جنوب اسبانيا او تصفح مدوناتها التاريخية[٢] . ومع هذا ، اي مع القرب

---

(١) انظر . Martinez Montavez, Pedro: Literatura arabe y Espana. p.5

(٢) انظر Martinez Montavez, Pedro: Notas sobre el tema arabe en la poesia espanola actual. "Cuadernos de la Biblioteca espanola de Tetuan" No 3 p.13

الجغرافي والتاريخي للمغرب من اسبانيا فانه لم يكن احسن حظا من حيث معرفة الاسبان به من غيره من بقية البلدان العربية ان لم يكن اسوآها حظا من ذلك . وهذا هوما عبر عنه احد المستعربين الاسبان حين قال بان اقرب بلدان العالم العربي الى اسبانيا هو المغرب . فهو على مرمى البصر ، غير انه بالتأكيد . وفي غمار جهلنا بالعالم العربي وخاصة ما يتعلق منه بتظاهراته الثقافية اقل بلدان العالم العربي نصيبا من معرفتنا[٣] ، ومن هنا فقد كان هؤلاء المستعربون واعين بما يكتنف معالجة اي موضوع يتصل بالمغرب من عسر . غير ان هذا لم ينل من ايمان فئة منهم بوجوب تلك المعالجة لغاية هي معرفة هذا العالم المحبب الينا)[٤] و (الذي ظل موصول العلاقة مع عالمنا ولا يزال على الرغم من الظروف المتقلبة التي تتحكم غالبا في اماني الرجال الطيبة)[٥]

ب ـ اغفال الدارسين الشرقيين للاسهام المغربي في الادب الحديث فالدراسات التي انجزها هؤلاء تميزت بكونها تركزت جميعها حول ادباء الشرق واثارهم[٦]. ومن ثم فقد ظل المستعرب الاسباني ـ ومثله المستعرب الغربي بعامة ، ممن اهلته معرفته بالعربية للاطلاع على تلك الدراسات للافادة منها فيما يعني به من تعريف بالادب العربي الحديث في لغته هوـيجهل ادباء المغرب وشعراءه المحدثين وما اسهم به هؤلاء واولئك من نتاج في مجالات الابداع الأدبي المختلفة . وقد اشار الأستاذ محمد بن عزوز حكيم الى ذلك في مقال له بالاسبانية عن الأدب المغربي . فقال : « إن ما يجهله القارىء الاسباني جهلا يكاد يكون تاما هو وجود ادباء مغاربة ينشئون ادبهم بلغة عربية ، مبرهنين اليوم بما يكتبون وينشرون على تقدم مطرد في مجال الاداب والفنون العربية في هذا البلد »[٧] .

ج ـ تميز الأدب المغربي عن غيره من آداب الاقطار العربية الاخرى . وهو تميز يكمن ، فيما يرى بعض الدارسين من المستعربين ، في الرؤية التي يصدر عنها الكتاب المغاربة للتاريخ والثقافة المشتركين . ،ضافة الى اهتمام كثير منهم بالموضوع الأندلسي فيما ينشئون من شعر ويكتبون من قصص . فضلا عما ينعكس على نتاج بعضهم من تأثير ملحوظ لقروئهم في ديوان الشعر الاسباني المعاصر .

هذه الدواعي جميعها تضافرت لتجعل العناية بالادب المغربي والاهتمام بترجمته ودرسه من اوليات ما كان الاستعراب الاسباني يستهدفه من تعريف بالعالم العربي في المجالات الادبية بخاصة والثقافية بعامة

٣ ـ حصيلة الاهتمام ومظاهرها :

ومن المفيد ان نشير هنا ، وقبل ان نستعرض حصيلة الاهتمام في شتى مظاهرها بالادب المغربي

---

(٣) انظر تقديم « المنارة » لاستفتاء دي اكريدا عن الادب المغربي الحديث . ع ٢ ص١٣١

(٤) انظر Fernando de Agreda Burillo, Encuesta sobre la literatura marroqui, marroqui actual. Revista Almenara No 2p. 135

(٥) انظر Martinez Montavez, Notas sobre el tema arabe., Cuadernos de la Biblioteca espanola de Tetuan No3 p. 13

(٦) انظر مقدمه استفتاء دي اكريدا في المنارة ع٢ ص١٣٣

(٧) انظر مجله Africa ع١٣٣ ص ١٤ (يناير ١٩٥٣)

الحديث في اللغة الاسبانية والى ان اول محاولة عكست ذلك الاهتمام وبلورته يمكن تأريخها بالترجمة التي انجزها كارلوس كيروس لرواية (طه)[٨] التي كتبها احمد حسن السكوري سنة ١٩٤١[٩] .

ولم نعرف لهذه المحاولة تاليا الا بعد سنوات حين اصدرت في العرائش الشاعرة طرينيداد شانتث مركادر مجلة (المعتمد)[١٠] التي عنيت فيها الى جانب الشعر والادب الاسباني بترجمة الابداع الشعري المغربي بخاصة والعربي بعامة مما كان له صداه في الاوساط الادبية في اسبانيا على ما سنبين في موضع آخر من هذا البحث .

وقد شاركت (المعتمد) فضل السبق الى التعريف بالادب المغربي الحديث للقارىء الاسباني مجلة اخرى هي مجلة (كتامة)[١١] التي كان يرأس تحريرها الشاعر خاثينتو خورخي لوبث . فعلى صفحاتها هي الاخرى عرف قراء الادب في اللغة الاسبانية الوانا من الابداع المغربي في الشعر والقصة .

ثم توالى الاهتمام بعد ذلك بالأدب المغربي على يد نخبة من الدارسين الجامعيين في اسبانيا ، اسباناً وغير اسبان ، منذ ان اصدر الدكتور بدروما رتينث كتابه (الشعر العربي المعاصر) Poesia arabe Contemporanea اواسط الخمسينات الى اليوم .

فماذا كانت حصيلة هذا الاهتمام على مدى من الزمن ينيف على ربع قرن ؟

ان بوسع الدارس ان يرصد حصيلة الاهتمام الاسباني بالادب المغربي من خلال ما انجز فيه من ترجمة واستفتاء ودراسة وهو ما سنحاول تفصيل الحديث عنه في الفقرات التالية .

اولا : الترجمة

اذا تركنا جانبا الترجمة التي انجزت لرواية (طه) لاحمد حسن السكوري جاز لنا القول بان النتاج الشعري الذي بدأ يظهر لبعض الشعراء المغاربة في بعض المجلات الشعرية الاسبانية أواخر الأربعينات كان من اوائل ما ترجم من الأدب المغربي الحديث الى اللغة الاسبانية . وربما تكون قصيدة عبد القادر المقدم المعنونة ب (قطرات الندى)[١٢] وقصيدة ابراهيم الالغي بعنوان (مناجاة القريض)[١٣] أول ما ترجم من ديوان الشعر المغربي الحديث الى الاسبانية .

ولكي نتعرف على شيء من طبيعة هذه الترجمة لابد لنا من مراجعة لـ :

---

(٨) هي رواية قصيرة حاز بها صاحبها جائزة مؤسسة الجنرال فرانكو في المباراة الادبية التي نظمت في تطوان بتاريخ ٢٣ ابريل سنة ١٩٤١ بمناسبة عيد الكتاب العربي ـ الاسباني ـ وقد نشرت الرواية بنصها العربي وترجمتها الاسبانية في نفس السنة بالعرائش .

(٩) هذا مع استثناء الترجمة التي انجزها لكتاب استاذنا عبدالله كنون « النبوغ المغربي في الادب العربي » الاستاذان محمد تاج الدين بوزيد وخرونيمو كرييو اوردينث سنة ١٩٣٩ . وهذه الترجمة لا تعني هذا البحث

(١٠) انظر : عن هذه المجلة مقالا لصاحبتها ترينا مركادر نشر في العدد الاول من مجلة « اللجنة الاسبانية للتعاون مع الاونيسكو » بعنوان « المعتمد » واعتماد تجربة تعايش ثقافي بالمغرب ومقالا للاستاذ فرناندودي اكريدا نشر في المجلد التاسع عشر من مجلة (المعهد المصري للدراسات الاسلامية) بمدريد بعنوان :
datos sobre las tradncciones al arabe de la Poesia espanola. La Revista "Al-Motamid."

(١١) انظر عن هذه المجلة مقالا للاستاذ فرناندودي اكريدا في **La estafeta literaria** ع ٦١٥ ص ١٦ (يوليو ١٩٧٧) . ومقالا للاستاذ خاثينتولوبث خورخي بعنوان « الشعر العربي والاسباني في رحلة التواصل » بترجمة احمد مطلوب العلم الثقافي ع ٧٠٤ ص ٤ ـ ٥ .

(١٢) ترجمها صاحبها بعنوان **Las gotas de rocio** انظر مجلة « المعتمد » ع ١ ص ٤ (مارس ١٩٤٧) .

(١٣) ترجمها ادريس الديوري بعنوان **Conversacion confidencial con la poesia** انظر ، المعتمد ع ٢ ص ٤ (ابريل ١٩٤٧) .

١ ـ المجلات الأدبية :

نهضت بعض المجلات الاسبانية ، سواء منها التي كانت تصدر في المغرب باللغتين العربية والاسبانية او التي كانت تصدر في اسبانيا باللغة الاسبانية وحدها ، بدور ملحوظ في نشر الشعر المغربي والتعريف به بين قرائها .

وكان لمجلة (المعتمد) ، كما أسلفنا الاشارة . فضل الريادة والسبق في ذلك . فمنذ ان اصدرتها مؤسستها الشاعرة طرينيداد شانتث مركادر بمدينة العرائش سنة ١٩٤٧ وهي تعني بنشر نماذج مترجمة من الابداع الشعري المغربي بخاصة والعربي بعامة الى جانب الاسهامات الشعرية والنثرية الاسبانية . وقد قارب عدد ما نشر في (المعتمد) من نصوص شعرية مغربية مترجمة الى الاسبانية الثلاثين نصا أو استوفاها ، وباستثناء عبدالله كنون وابراهيم الالغي وادريس الجائي فان بقية الشعراء الذين ترجمت ابداعاتهم على صفحات (المعتمد) وهم : الصباغ والمقدم والبقالي والسكيرج والبوعناني والسلمي كانوا جميعا من الجيل الجديد الذي كان يستشرف لتجربته الشعرية أفاقا من التجديد والتطوير سواء في المضامين أو في الأشكال متأثرا في ذلك خطوات رواد التجديد من شعراء المشرق والمهجر . وليس من شك في ان هذا التنوع في النصوص المترجمة من نتاج هؤلاء الشعراء سواء من حيث القالب او من حيث المضمون كان يضع تحت انظار القاريء الاسباني صورة للشعر المغربي يومئذ ان لم تكن تامة الملامح والقسمات فانها لم تكن تعدم ما يدل ، وفي وضوح وجلاء ، عى ما كانت ترهص به هذه الابداعات من استواء وتطور سيعرفهما الشعر المغربي بعد ذلك ببضع سنين .

ومن شاء ان يستبين شيئا مما كان من اصداء لهذا الشعر المترجم في الوسط الأدبي الأسباني فلينظر فيما كتبه الشاعر الشهير فيئنطي أليكسندري بعد زيارته للمغرب سنة ١٩٥٣ معبرا عن اعجابه بالشعراء المغاربة الذين التقى بهم اثناء زيارته وانصت الى بعض نتاجهم مترجما او في لغته الاصلية [١٤] وكلهم ممن كانت (المعتمد) تحرص على نشر قصائدهم في جل أعدادها أمثال الصباغ والمقدم والبقالي والبوعناني او فلينظر الى ما كتبته الشاعرة كرمين كوندي منوهة بفضل مجلة (المعتمد) في تعريفها (بهذه المجموعة من الشعراء المغاربة المسلمين)[١٥] بل يمكن القول بان ما ظهر اواسط الخمسينات من مقالات بالاسبانية حول الشعر المغربي كان يعتمد اساسا المادة الشعرية التي توفرت المعتمد على ترجمتها ونشرها .

على ان (المعتمد) لم تنفرد بفضل التعريف بالادب المغربي وبشعره خاصة لدى القاريء الاسباني ، فمن الانصاف ان نشير هنا الى مجلات اخرى كان لها ، بدورها اسهام في هذا التعريف ولو انه ليس يرقى الى مستوى اسهام (المعتمد) من حيث حجم المادة الشعرية وتنوعها وهذه المجلات هي : مجلة (كتامة) التي كانت تصدر في تطوان باللغتين العربية والاسبانية تحت اشراف الشاعر خاثينثو خورخي لوبث ، ومجلة « كراكولا » Caracola التي كانت تصدر بمالقة ، ومجلة « إسلادي لوس رطونيس » Isla de los ratones التي كانت تصدر بجزيرة ميورقة ، ومجلة «إينديثي» Indice ومجلة «المنارة» Almenara اللتان كانتا تصدران بمدريد .

(١٤) نفسه ، ع ٢٦ ص ٣ .

(١٥) نفسه ، ع ٢٧ ص ٤ .

٢ ـ كتب الاختيارات الشعرية والأدبية :

وقد عرفت المكتبة الاسبانية منها ، إلى الآن ، ثلاثة[١٦] اثنان منها اشتملتا على منتخبات لشعراء منهُ مختلف الاقطار العربية ومن ضمنها المغرب ومن المهاجر الامريكية والثالثة خاصة بالأدب المغربي . وفيما يلي نخص كلا بكلمة :

أ ـ الشعر العربي المعاصر :

تحت هذا العنوان صدرت في مدريد منذ أزيد من ربع قرن هذه الانطولوجية تضم مختارات من نتاج الشعراء العرب المعاصرين . عني بجمعها والتعريف باصحابها الدكتور بدرومار تينث مونتابيث . وقد قدم لهذه الاختيارات شيخ المستعربين الاسبان الدكتور إميليو غرسية غومث مشيدا بتمكن صاحبها من اللغة العربية ومنوها بالاهتمام الذي اصبح الاستعراب الاسباني يوليه للعالم العربي الحديث بعد ان كانت اهتمامات رجاله من قبل لا تكاد تتجاوز العصور الوسيطة[١٧] .

وفي المدخل الذي مهد به المؤلف لاختياراته خص المغرب بفقرة اشار فيها الى انفتاحه على حركة البعث والتجديد الادبيين في المشرق معقبا على ذلك بذكر اسماء من شعراء الاتجاه القديم واخرى من شعراء الاتجاه الجديد في ديوان الشعر المغربي الحديث كعلال الفاسي وعبدالملك البلغيثي من الاتجاه الأول ، ومحمد الصباغ واحمد البقالي من الاتجاه الثاني .

ومع أن مؤلف هذه الانطولوجية كان اكثر المستعربين الاسبان يومئذ اطلاعا على الشعر المغربي وأوفرهم معرفة برجاله فان هذا الشعر لم يظفر في منتخبه بالحيز الذي كنا نتوقعه ، فمن مجموع واحد وثمانين نصا لستةٍ وخمسين شاعرا يمثلون مختلف الاقطار والمهاجر العربية ويمثلون بذات الوقت مختلف الاتجاهات والمدارس الشعرية لا يقع القارىء في المنتخب الا على نصين مغربيين . احدهما لمحمد بن ابراهيم المراكشي . وهو عبارة عن ابيات من احدى قصائده الغزلية . وثانيهما لمحمد الصباغ . وهو قصيدته النثرية (المجنون) . واذا كان الدكتور مونتابث فيما يبدو قَدْ وَهِمَ فيما ساق من معلومات عن ابن ابراهيم في التقديم الذي كتبه للابيات التي ترجمها له [١٨] فانه في مقدمته لقصيدة الصباغ أبان عن معرفة بروافد الفن الشعري عنده وما افاده في صقل هذا الفن من مقروئه في آثار بولس سلامة وميخائيل نعيمة من شعراء المشرق وأليكسندري وميجيل هرنانديس من شعراء اسبانيا[١٩] .

ب ـ منتخب الشعر العربي المعاصر Antologia de poesia arabe contemporanea

مؤلفة هذه الانطلوجية هي الدكتورة ليونور مرتينيث مارتين . عرفت في الخمسينات ، فضلا

---

(١٦) علمنا بعد انجاز هذا العرض بوجود منتخب رابع من الشعر العربي في اللغة الاسبانية لم يتيسر لنا الاطلاع عليه . الفه هكتور ف . ميري ، وصدر عن دار كونتيننتال للنشر في بوينس ايريس سنة ١٩٤٤ . انظر . .

Teresa Garulo, Bibliografia de las obras arabes tradncidas al espanol durante el perlodo 1800-1982.

(نسخة مرقونة في مكتبة المعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد)

(١٧) انظر : Martinez Montavez, Pedro, Poesia arabe contemporanea, p.17

(١٨) نفسه ، ٧١ ـ ٧٢ .

(١٩) نفسه ، ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

عن ترجماتها التي كانت تنشرها في مجلة (كتامة) للالوان من الابداع الشعري العربي بالترجمة التي انجزتها لديوان ميخائيل نعيمة (همس الجفون) El rumor de los parpados [٢٠] .

وقد احتل الشعر المغربي في اختيارات الدكتورة ليونور حيزا متسعا بالقياس الى الحيز الذي فسحه له الدكتور مونتابث في اختياراته . فمن بين سبع وعشرين ومائة نص لثلاثة وثمانين شاعرا يمثلون مختلف الاتجاهات والمدارس الشعرية في مختلف الاقطار العربية يطالعنا اثنا عشر نصا لسبعة شعراء مغاربة . خمسة منهم من اشهر شعراء العمود في الديوان المغربي الحديث . واثنان من رواد قصيدة النثر . فأما الخمسة الأول فهم : علال الفاسي ، وعبدالله كنون ، ومحمد اليمني الناصري ، ومحمد الحلوي ، وابو بكر بناني ، واما الاثنان الاخيران فهما : محمد الصباغ ومحمد عزيز الحبابي .

ولعل اهم ما يلفت النظر في اختيارات الدكتورة ليونور من نتاج هؤلاء الشعراء ان جلها ذو مضامين وطنية تكشف عن التزام اصحابها بقضايا الوطن من خلال الاشادة بمواقف الجهاد والتضحية ممثلة في سيرة الامير محمد بن عبد الكريم الخطابي . وذلك على حد ما نقرأ في قصيدة لمحمد اليمني الناصري يصور فيها انتصار زعيم ثورة الريف على فرنسا واسبانيا . ويقول في بعض أبياتها ، وهي مما ترجمته منها الدكتورة ليونور في منتخبها .

انظر لما تلقي فرنسا منه اذ
قصدت بشامخ مجده استخفافا
جاءت بمعظم جيشها وعتادها
فاستنزفته رجاله استنزافا
واذا (ليوطي) قد تردى ساقطا
متحملا مما جناه إكافا
وحليفه (دي ريفيرا) قد فرلا
يلوي على شيء به يتلافى

او في قصيدة ابي بكر بناني وقد ترجمت الدكتورة ليونور نصها كاملا ومنها هذه الابيات :

يا بني المغرب سيروا للامام
وارفعوا راية غازينا الهمام
فخرنا عبدالكريم ابن الكرام
واسالوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب موتوا شهدا
لا تعيشوا تحت إذلال العدا
مزقوا الكفر وأشراك الردى
واسالوا الله انتصار المسلمين

او في قصيدة محمد الحلوي يشيد فيها ببطولة قائد الثورة الريفية وانتصاره على جيوش الاحتلال الاسبانية في معركة أنوال الخالدة . والقصيدة تقع في سبعة وثلاثين بيتا ترجمت منها الدكتورة ليونور تسعة عشر بيتا ، منها :

يا يوم وقعة (أنوال) وقد تركت
أشلاؤهم عندها لحما على وضم
لم يلبسوا قبلها خزيا كخزيهم
فيها ولم يذبحوا بالسيف كالغنم
إن يذكروا النصر يوما راعتهم
شبح منها فغصوا بذكراها من الالم
نصر نكست به راياتهم كمدا
واختال منه بنو الاسلام في شمم

---

(٢٠) صدرت هذه الترجمة تحت رقم ١٣٢ من سلسلة ادونيس بمدريد (١٩٥٦م) .

ومثل هذه الاشعار في انطولوجية الدكتورة ليونور لم تأت محض صدفة بل قصد اليها قصدا واختيرت اختيارا لارتباطها الوثيق بمنعطف هام من تاريخ اسبانيا المعاصر . وها هي ذي صاحبة الاختيارات تكشف عن ذلك في المقدمة اذ تقول : (على ان ثمة موضوعا الهم) على نحو من الغزارة اشد مما نتصور نحن الاسبان الشعراء العرب مشارقة ومغاربة على مدى الخمسين سنة الاخيرة . ذلك هو موضع بطولة عبد الكريم الذي هزم الاسبان والفرنسيين والذي ما فتيء الشعراء الى اليوم ينشئون في الاشادة بمواقفه البطولية العديد من القصائد . وقد اخترنا في هذه الانطولوجية بعضا منها نظرا للاهمية التي كانت تكتسبها هذه الشخصية بالنسبة لاجدادنا . .)[٢١] .

فاذا تركنا هذه الاختيارات التي دارت كلها حول شخصية ابن عبد الكريم الخطابي بوصفها رمز جهاد ومقاومة وتحد للامبريالية والصليبية وجدنا بقية الاختيارات اوجلها على الاصح تعكس في جملتها هموم شعرائنا الوطنية والقومية والانسانية مثل قصيدة علال الفاسي (كل صعب على الشباب يهون)[٢٢] التي يستنهض فيها همم الشباب ويحثه على العمل من أجل وطنه ، وعلى حد ما نقرأ في قصيدة لمحمد الحلوي يدين فيها تخاذل العرب وخلفهم اللذين الحقا بهم عار الهزيمة في حرب الايام الستة [٢٣] او في قصيدة لعبدالله كنون[٢٤] واخرى لمحمد عزيز الحبابي[٢٥] في تمجيد السلام والامن واستنكار الحرب والظلم .

اما تقديمات الدكتورة ليونور لهذه القصائد فهي في غاية التركيز والتلخيص لكننا لا نعدم في بعضها ما يدل على ادراك واع برسالة الشعر ومهمة الشاعر في العالم العربي . ومن ضمنه المغرب . ومن ذلك ما نقرأه لصاحبة الانطولوجية في تقديمها لعلال الفاسي : (ان له بوصفه شاعرا غنائيا اهمية بالغة ، غير ان اشعاره الوطنية والسياسية أثرت اكثر من غيرها في صورة المغرب الحديث . والحقيقة انه في عالم كالعالم العربي حيث لا تزال الكلمة الشعرية تتمتع بمزايا معجزة قد فقدتها في بقاع اخرى ليس من الغريب استخدامها كسلاح سياسي)[٢٦] ، او ما نقرأه لها في تقديمها لعبدالله كنون حيث تقول عن ديوانه (لوحات شعرية) بانه يصور كيف ارتقت مشاعر المغاربة على مدى النصف الأول من هذا القرن وكيف كانوا يرون التطور السياسي العالمي [٢٧] .

ج ـ الأدب والفكر المعاصران في المغرب Literaturay Pensamiento Marroquies Contemporaneos.

اذا كان المؤلفان السابقان لم يفسحا للاسهام الشعري المغربي في انطولوجيتيهما الا حيزا

---

(٢١) انظر . Martinez, Marítn, Leonor, Antologia de poesia arabe contemporanea, p. 49

(٢٢) نفسه ٢٢٨ ـ ٢٢٩

(٢٣) نفسه ٢٢٢ ـ ٢٢٣

(٢٤) نفسه ٢٢٦ ـ ٢٢٧

(٢٥) نفسه ٢٣٠ ـ ٢٣١

(٢٦) نفسه ٢٢٨

(٢٧) نفسه ٢٢٦

محدودا وسع في أولاهما نصين اثنين وفي ثانيتهما اثنى عشر نصا باعتباره ، أي المغرب ، كأي قطر عربي اخر صوتا من بين اصوات عديدة تؤلف فيما بينها ، على ما بين أصحابها من التفاوت في (سلم الشعر) الطويل ، النغم الذي يبلور واقع الشعر العربي بعامة وهو ما استهدفه الدكتور مونتابث والدكتورة ليونور من اختياراتهما الشعرية - فان، مؤلفي هذه الانطلوجية الثالثة افردوها بالمغرب واجتهدوا في ان تكون معرضا ، ليس فقط للابداع الشعري خاصة ، ولكن لكافة الوان النتاج الادبي والفكري المغربي في العصر الحديث[٢٨] .

ومن هنا فقد جاءت هذه الانطلوجية مؤلفة من أقسام أربعة . نستعرضها فيما يلي :

١ - البحث Ensayo :

وقد ادرج مؤلفو الانطلوجية في هذا القسم أربعة وعشرين بحثا لأربعة وعشرين باحثا . واذا صرفنا النظر عن البحوث التي تدور حول الأدب المغربي والتي سنعود للحديث عنها في فقرة اخرى من هذا العرض وجدنا بقيتها ، وهي تؤلف نحو النصف من عدد البحوث المترجمة في الانطلوجية ، تتوزعها موضوعات مختلفة تاريخية حينا ، من مثل (مراكش اهم المراكز الثقافية بالمغرب في القرن السادس عشر) لمحمد حجي و(ذكرى معركة الوادي) لعبد المجيد بن جلون ، وفكرية ، حينا اخر ، من مثل (الاسرة) لعلال الفاسي و (غائية ابن خلدون غائية متميزة) لمحمد عزيز الحبابي ، ولغوية ، حينا ثالثا ، من مثل (اثر اللغة العربية في اللغة السواحلية) لمحمد الفاسي و (الامالة في الأندلس وفي شمال افريقيا) لمحمد بن شريفة .

ومن المؤكد ان الاختلاف الذي يلاحظ بين البحوث المترجمة سواء من حيث طبيعة الموضوع المطروق ، او من حيث أسلوب التناول والمعالجة من شأنه ان يسعف القارىء الاسباني على استجلاء جوانب من اهتمامات الدارسين المغاربة وشواغلهم العلمية والفكرية .

٢ - القصة Narrativa :

يطالع القارىءُ في هذا القسم من الانطلوجية واحدً وثلاثون نصا لواحد وثلاثين قاصا ، القليل منهم يمثل الجيل الذي خرجت من معاطف رجاله القصة المغربية في الاربعينات . والكثير يمثل الجيل الذي فتح معاطفه لرياح التجديد التي عرفتها القصة منذ سنوات غير قليلة واسلم لها الزمام .

وبقدر ما عكست النصوص المترجمة تنوعا في الاتجاه الفكري عكست بالآن عينه تنوعا في الرؤية والتصور الفكريين . أما من حيث الموضوعات المعالجة في هذه النصوص فيسترعي نظرنا من بينها الموضوع الوطني على حد ما نقرأ في قصة (ارضنا الحبيبة) لمحمد الخضر الريسوني أو (النور الارجواني) لمحمد العربي الخطابي .

والى جانب النصوص الكاملة لبعض القصص القصيرة لم يغفل مؤلفوا الانطلوجية ترجمة نصوص جزئية من اعمال روائية مطولة مثل الفصل الثامن من رواية (دفنا الماضي) لعبد الكريم غلاب او مختارات من (رواد المجهول) لاحمد البقالي او من (شقراء الريف) لعبد العزيز بن عبد الله .

٣ - الشعر Poesio :

ضم هذا القسم في الانطلوجية ثلاثة وثلاثين نصا لستة وعشرين شاعرا ، أغلبهم من جيل ما بعد

(٢٨) فضلا عن الاشعار التي ترجمت لهذين الشاعرين في منتخب الدكتورة ليونور و في بعض المجلات الشعرية فقد ترجم لاولهما وهو عبدالله كنون كتابه « النبوغ المغربي في الادب العربي » وترجم لثانيهما كتاباه « شجرة النار » و « انا والقمر » .

الاستقلال . واذا استثنينا كنون والصباغ والطبال فان الباقي من الشعراء يترجمون لأول مرة الى الاسبانية .

ويمكن القول بان مؤلفي هذه الانطلوجية استطاعوا ان يطلعوا القاريء الاسباني على التنوع الذي يعرفه الشعر المغربي من حيث الشكل والاسلوب والموسيقى حين تعمدوا في اختياراتهم ان تكون ممثلة ، بنسب متفاوتة ، للعمودي والتفعيلي والمرسل ، غير انهم حين قصروا أو كادوا يقصرون اختياراتهم على فئة من الشعراء ذوي تصور ايديولوجي معين حرموا القاريء الاسباني من الاطلاع على اسهامات فئة اخرى من الشعراء تمارس عملية الابداع من خلال رؤية عقدية متميزة وتصور لا شرقي ولا غربي للانسان والمجتمع والحياة والكون من امثال علال الفاسي والامراني والريسوني وابن عمارة والرباوي وغيرهم .

اما من حيث الموضوعات التي تعالجها النصوص المترجمة فانها على اختلافها ليست تعدم ما يربط بينها من حيث الاهتمامات والشواغل التي تلح على الشاعر المغربي غير اننا نستطيع ان نميز من بين موضوعات النصوص المترجمة موضوعا يمكن وصفه بالموضوع المغربي ـ الاسباني وهو موضوع نستبين فيه جوانب من علائق المجتمعين : المغرب واسبانيا ،تطالعنا في نصوص كهذه التي استلهم فيها اصحابها الاندلس ممثلة في رجالاتها [٢٩] ومدنها [٣٠] وكهذه التي استوحى فيها اصحابها سير أعلام إسبان في الادب والفن من مثل بيكير [٣١] ولوركا[٣٢] وبيكاسو [٣٣] او كهذه النصوص التي تمجد النضال والثورة ، من خلال اسمين بهيين من أسمائهما المغربية هما اسم عبد الكريم الخطابي [٣٤] ومعركته الخالدة (أنوال)[٣٥] .

٤ ـ المسرح El teatro :

يقدم هذا القسم من الانطلوجية سبعة مؤلفين مسرحيين تناولت الاختيارات من نتاجهم اربعة نصوص واحد منها كامل[٣٦] والثلاثة عبارة عن مقتطفات من فصول او مشاهد ، [٣٧] كما تناولت الاختيارات نماذج من آراء بعض المؤلفين المسرحيين ووجهات نظرهم مما تضمنته استجوابات أجريت معهم[٣٨] او مقدمات كتبها بعضهم لاعماله المسرحية[٣٩] .

ومع أن هذه الاختيارات تضمنت نماذج لا يرقى الشك الى تمرس أصحابها بالكتابة المسرحية نثرا على حد ما نقرأ عند عبد الكريم برشيد [٤٠] او شعرا كما عند حسن الطريبق[٤١] الا انها اي الانطلوجية في

---

(٢٩) انظر Literatura y pensamiento marroquies contemporaneos. p. 382
(٣٠) نفسه : ٤٢٥
(٣١) نفسه : ٢٢٤
(٣٢) نفسه ٢٦٣
(٣٣) نفسه : ٤٠٩
(٣٤) نفسه : ٣٦٨
(٣٥) نفسه : ٣٥٧
(٣٦) نفسه . ٤٥٩
(٣٧) نفسه : ٤٧٩ ، ٤٨٨
(٣٨) نفسه ٤٣٣٠
(٣٩) نفسه : ٤٢٩
(٤٠) نفسه : ٤٨٦
(٤١) نفسه . ٤٧٩

الـوقت الـذي قـدمت في هـذا القسم أسمـاء ليس لاصحابها حضور متميز في الكتـابة للمسـرح اغفلت أسماء أخرى ، لبعضها فضل الريادة (٤٢) ولبعضها فضـل الاستمرار(٤٣) ولبعضهـا فضل الحـرص على التجديد(٤٤) .

وعلى ما قد يكون في هذه الانطلوجية من مآخذ نبهنا الى بعضهـا وأشار الى بعضهـا صـديقنـا الاستـاذ فرنانـدودي أكريـدا في المقدمـة التي صدر بهـا هذه الانطلوجية(٤٥) فانها أي هذه الاخيرة تعتبر خطوة لها قيمتها في مجال تعريف القارىء الاسباني على ألوان من النتاج الفكري والابداع الادبي في المغرب المعاصر .

٥ ـ الآثار الكاملة :

ان ما نشر في العقود الثـلاثة الأخيـرة وهي التي شهدت العناية الاسبانية بالادب العربي الحديث ومن ضمنـه الأدب المغربي ، من آثـار أدبائنـا في القصة والـرواية والمسـرحية والشعـر والمقـالـة وافـر يعـد بالعشرات(٤٦) ومع ذلك فان ما ترجم من هذه الآثار الى الاسبانية قليل للغاية لا يكاد يتجاوز اصابع اليد .

وربما تكون رواية (طه) التي كتبها صاحبها أحمد حسن السكوري سنة ١٩٤١(٤٧) اول ما ترجم من آثار الأدب المغـربي الحديث الكـاملـة ، وفي مجـال الفن الروائي خاصة ، الى الاسبانية ، غير انها لم يكتب لها من الذيوع والانتشار في هذه اللغة بل وحتى في لغتها الاصلية ، ما كتب لآثار أخرى ترجمت بعدها بسنوات وسنوات واشهرها عملان شعريان لمحمـد الصباغ ، هما :

١ ـ شجرة النار El arbol de fuego

وقد صدر بالاسبانية سنة ١٩٥٤ بترجمة المؤلف والشـاعرة طـرينا مـر كادر قبـل أن يصدر في لغتـه الاصلية . ويضم ست عشرة قصيدة نثرية استلهم في بعضها وجدانه ، وفي بعضها وجدان امته . ولاشك أن معرفة الصباغ بالشعر الاسباني المعـاصر واعجابـه بشعراء جيل ٩٨ وجيل(٤٨) ٩٧ كان في مقدمة ما دفع به الى الخوض في تجربة كتابه قصيدة النثر(٤٩) . واذا كـان النقد المغـربي قد رأى في نشر ديـوان (شجرة النار) بالاسبانية قبل نشره بالعربية ما يدل عى تهيب الشاعر (من صدم الذوق العربي في المغرب الذي لم يكن قـد تعـود عـلى قـراءة واستسـاغـة القصيـدة النثرية)(٥٠) فان النقد الاسباني قد رأى في ذلك ما يدل بوضوح على التأثير الذي كان للشعـر الاسباني المعاصر في جيل الشعراء الشباب بالمغرب يومئذ(٥١) .

(٤٢) مثل عبد الخالق الطريس

(٤٣) مثل عبدالله شقرون

(٤٤) مثل عبدالقادر السميحي

(٤٥) انظر ص ص XLVIII-XLVII

(٤٦) انظر حول ذلك ، فهرسة المجاميع القصصية المغربية ١٩٤٧ ـ ١٩٧٨ من اعداد مصطفى يعلي مجلة « المورد » مج ٨ ع ٢ (١٩٧٩) ص ص ٣٩١ ـ ٣٩٤ ، و « الادباء المغاربة المعاصرون » ـ دراسة بيبليوغرافية احصائية ـ تاليف عبد السلام التازي . منشورات الجامعة ـ ١٩٨٣ ، و« بيبليوغرافيا الفن الروائي المغربي » (١٩٣٠ ـ ١٩٨٤) من اعداد مصطفى يعلي . مجلة « آفاق » ع٣ ـ ٤ (دجنبر ١٩٨٤) ص ص ٧٤ ـ ٨٢ . و « الادب المغربي الحديث » لعبد الرحمن طنكول . منشورات الجامعة (دجنبر ١٩٨٤) .

(٤٧) انظر هامش

(٤٨) انظر عن هذين الجيلين في تاريخ الادب الاسباني المعاصر دراستنا المنشورة بعنوان « اضواء على الادب الاسباني المعاصر » الحلقات ١ ـ ٥ مجلة « دعوة الحق » الاعداد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ س ٨ .

(٤٩) انظر : محمد الصباغ ، اللهاث الجريح : ٦٠ ـ ٦٣ .

(٥٠) انظر : عبد العلي الودغيري ، قراءات في ادب الصباغ : ٤٦ .

(٥١) انظر : تقديم سلسلة « اعتماد » للترجمة الاسبانية لـ« شجرة النار » ص الغلاف الثالثة .

ب ـ انا والقمر La luna y yo

وهو ديوان من الشعر المنثور يضم ثمانية وعشرين قصيدة عنيت بترجمته الدكتورة ليونور مرتينث مرتين استاذة اللغة العربية بآداب برشلونة ، وصدرت الترجمة بتطوان سنة ١٩٥٦ وهي نفس السنة التي ظهرت فيها الطبعة العربية . واذا كان القاريء الاسباني قد تعرف في (شجرة النار) على الشاعر وهو يمتاح من وجدان امته كما يمتاح من وجدانه الذاتي فانه في (أنا والقمر) قد التقى به وهو يحلق بأجواء ذاتية مشبوبة ويطوف بآفاق رومانثية شفافة .

ومن الحق أن نذكر ، هنا ، بأن (شجرة النار) و(انا والقمر) لم يلقيا هوى في نفس القاريء المغربي يومئذ ولم ينالا من إعجابه ما نالت كتب اخرى للصباغ من مثل (العبير الملتهب) او (اللهاث الجريح) ، وجميعها صدر في فترات متقاربة ، في حين نجد هذين الديوانين نفسيهما ، اي (شجرة النار) و (أنا والقمر) كانا هما اللذان أظفرا الصباغ لدى الأوساط الأدبية الراقية في اسبانيا باعجاب وتقدير بالغين ، عبر عنهما احد اعلام الشعر الاسباني المعاصر وهو فيثنطي اليكسندري حين كتب : (في شعر محمد الصباغ أريج قديم يمتزج بفوح جديد . وإن شيئا ما يمسنا عن قرب في صوت هذا الشاعر العربي الغض الاهاب الذي يرفع صوته وسط إمته بأغان مميزة مثلما تبلور عاطفته الملتهبة تبلور بذات الوقت مشاعر التضامن والالتحام مع شعبه)[٥٢] كما عبر عن هذا الاعجاب والتقدير اللذين حظيا بهما أدب الصباغ لدى القاريء الاسباني شاعر آخر ، يعتبر هو كذلك من مرموقي شعراء اسبانيا المحدثين ، وهو خراردو دييكو الذي كتب قصيدة سماها (أنت والقمر) (La luna y Tu) أهداها للصباغ ليصدر بها الترجمة الاسبانية لديوانه (أنا والقمر)[٥٣] .

وعلى الرغم من أن ما عرف طريقه الى الاسبانية من الأدب المغربي الحديث ، سواء ما صدر منه في المجلات الشعرية والأدبية ، او ضمن كتب الاختيارات الادبية ومجاميعها ، عامة او خاصة ، او ما نشر في آثار كاملة ، كان معدودا فانه قد حقق فائدتين اثنتين ، اولاهما اطلاع القاريء الاسباني على الوان من الابداع الادبي والشعري في المغرب ، وثانيتهما وضع جملة صالحة من النصوص الادبية والشعرية في متناول النقاد والدارسين مما كان له أثره في توجيه هؤلاء واولئك الى العناية بهذا الادب على نحو ما سنرى في فقرة اخرى من هذه الدراسة .

ومع ذلك فان من يستعرض الفقرات المتقدمة يلاحظ أن الترجمة الاسبانية ، على محدوديتها ، أولت اهتمامها لكافة الاشكال والاجناس التي عرفها أدبنا الحديث ، فمن القصيدة ، عمودية كانت او حرة او مرسلة ، الى القصة القصيرة ، بمختلف اتجاهاتها ومن المسرحية ، نثرية وشعرية ، الى الرواية ، الى المقالة والبحث الادبيين . كما يلاحظ أن الموضوعات التي انتظمتها هذه الترجمة متنوعة ومتعددة ، فيها الذاتي ، وفيها الاجتماعي ، وفيها الوطني ، وفيها القومي ، وفيها الانساني ، وفيها الادبي ، وفيها التاريخي ، وفيها اللغوي .

وفضلا عن ذلك فإن هذه الترجمة لم تقتصر عنايتها على جيل دون اخر من ادبائنا بل حرصت على أن تنتقي نماذج من النتاج المتنوع الذي عرفه ادبنا خلال هذا القرن انطلاقا من شعراء العشرينات الى الفترة

---

(٥٢) انظر ص الغلاف الثانية من الترجمة الاسبانية لـ « شجرة النار » .

(٥٣) انظر . La luna y yo. pp. 9 - 10

الراهنة . وربما يكون هذا الحرص ، في جملة دوافع اخرى ، هو الذي جعل هذه الترجمة تعني ، احيانا ، بنتاج تنقصه شروط (الادب) وقيمه .

على أنه تنبغي الاشارة الى أن أوفر الادباء حظا من عناية هذه الترجمة كان هو محمد الصباغ . فالى جانب ديوانية (شجرة النار) و (انا والقمر) ترجمت له نصوص متعددة نشر بعضها في أشهر مجلات اسبانيا الشعرية والادبية وأرقاها من مثل مجلة (كراكولا) ، ومجلة (إنديثي) ، ومجلة (المنارة) وغيرها ، ونشر بعضها الاخر في كتب الاختيارات الشعرية والادبية ومجاميعها . ولقد كانت لهذه العناية الخاصة التي شملت بها الترجمة الاسبانية ادب الصباغ اسباب ، في مقدمتها معرفة باللغة الاسبانية اتاحت له الاطلاع على الشعر الاسباني المعاصر في دواوين اعلامه الكبار امثال خمينيث ، واليكسندري ، وهرنانديس ، كما اتاحت له ربط علاقات صداقة ببعض الادباء والشعراء الاسبان في المغرب امثال طرينا مركادر وبيوغومث نيثا وخاثينتو لوبيث خورخى وفى اسبانيا أمثال أليكسندري وخواردو دييكو وليونور مرتين مرثينيث وبدوو مونتابيث ، كما اتاحت له تلك المعرفة باللغة أن يشارك في ترجمة بعض اثاره كـ (شجرة النار) وتقديم قراءات شعرية في بعض النوادي الادبية باسبانيا[٥٤] .

واذا ذكرنا أن ما تم نقله الى الاسبانية من نصوص ادبية ما بين شعر ونثر ، أزيد من مائة نص ، يختلف من حيث الطول والقصر ، ومن حيث الشكل والصياغة ، ومن حيث الموضوع والمضمون ، بل ومن حيث نصيبه من الابداع والابتكار او التقليد والاجترار . ثم اذا ذكرنا ، الى ذلك ، ان الذين تولوا نقل هذه النصوص من العربية الى الاسبانية يتفاوتون من حيث حظ كل منهم من التمكن في اللغتين : المنقول منها والمنقول اليها ، ويتفاوتون من حيث ما كان لدى كل منهم من موهبة فنية ، وطاقة ابداعية ، وقدرة على تقمص شخصية الاديب الذي ينقله والشعور بشعوره . ثم اذا ذكرنا ، الى هذا وذاك ، عسر الترجمة الادبية بعامة والشعرية بخاصة ، مما قد حمل البعض ، كما هو معروف ، على القول باستحالتها[٥٥] . اذا ذكرنا ذلك كله أمكننا ، ونحن نتساءل عن حظ هذه الترجمة من الدقة والامانة ، ونصيبها من التوفيق والسلامة ، ان نتصور ما قد يثيره مثل هذا التساؤل من قضايا واشكاليات تستلزم بحثا خاصا ودرسا مستقلا ليس يسعهما المقام هنا .

على اننا ، مع ذلك ، لن ننهي الحديث عن هذه الترجمة دون ان نشير الى ان ما تميزت به ، او تميز به بعضها ، على الاصح ، من الدقة والسلامة يرجع ، في جانب منه ، الى ان افرادا ممن قاموا بها امثال مونتابيث والخطيب اللذين كانت معرفتهما باللغتين بالدرجة التي كانت تتيح لهما انجاز ترجمة بارعة لم يملك معها مستعرب مثل غرسية غومث وشاعر مثل فيثنطي اليكسندري الا التنويه والاشادة بعملها[٥٦] . كما ان ما توافر لبعض هذه الترجمة من الامانة والتوفيق يرجع ، في جانب اخر ، الى ان افرادا من الذين كانوا يشتغلون بها امثال مركادر والصباغ كانا ، الى معرفتهما باللغتين ، على تفاوت بينهما ، يملكان من الموهبة الادبية

---

(٥٤) نفسه : ٥

(٥٥) يقول الجاحظ (الشعر لا يستطاع ان يترجم ولا يجوز عليه النقل ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه وسقط موضع التعجب) انظر ، الحيوان ١ : ٧٥ .

(٥٦) انظر : Martinez Montavez, Pedro, Poesia arabe contemporanea, p. 17

وانظر ، مجلة المعتمد ، ع ٢٦ ص ٣

ما استطاعا به ان ينجزا ترجمة وصفت بانها (جليلة ، ومحيطة بالاصل)(٥٧) ، كما كان مما حقق لجملة من هذه الترجمة حظا من السلامة والتوفيق ان بعض من انجزوها ، وفي مجال الشعر خاصة ، من مثل الدكتورة ليونور مرتينيث التي حرصت ، الى جانب عنايتها البالغة بنقل المعاني ، والصور ، والاخيلة ، والمحافظة على روح الاثر المنقول ، ان تصوغ بعض ما ترجمته من شعر ، وهو في لغته مرسل ، لا وزن له ولا قافية ، في موسيقى واوزان عروض اللغة المنقول اليها مما اظفرها بالتنويه(٥٨) ، واظفر ، لاشك ، الشعر المترجم بالقبول والحظوة لدى بعض قراء الشعر من الاسبان .

ومع هذا وذاك فان ما يكتنف الترجمة الادبية في مجال الشعر خاصة من صعوبة وعسر يجعل حظها مما تحوزه من رضى القراء يتفاوت من طبقة الى اخرى . ولعل هذا التفاوت في الرضى بهذه الترجمة او تلك هو ما دفع بمترجم مثل خوسي فاثكيث الى ان يصف ترجمة ليونور لقصيدة عبدالله كنون عن (القنبلة الذرية)(٥٩) بأنها غير دقيقة (٦٠) ويعيد ترجمتها من جديد(٦١) . كما ان هذا التفاوت في الرضى بالترجمة المنجزة لهذا العمل او ذاك هو ما دفع بأدبية مثل كارمن كوندي الى ان تكتب بعد قراءتها لبعض ما ترجم الى اسبانية من نتاج بعض الشعراء المغاربة : (.كم اود معرفة لغتهم لاتعرف عليهم جيدا)(٦٢) .

ثانيا ـ الاستفتاء

لاشك ان الاستفتاء الادبي ، خاصا كان او عاما يوفر ، بما يسلط من ضوء على السيرة الذاتية للكاتب او الشاعر وبما يعكسه من حياته الفنية سواء من حيث روافدها او توجهاتها ، مادة صالحة ينتفع بها الباحثون فيما يعدون من دراسات وبحوث حول الادب ، موضوع الاستفتاء ، وظواهره واعلامه .

ومن هنا فقد عني بعض الدارسين والمستعربين الاسبان ، فضلا عما كانوا ينجزونه من ترجمة لالوان من الابداع المغربي في الشعر والقصة باستكشاف جوانب من حياة الكتاب والشعراء المغاربة واستطلاع ارائهم في الادب والفكر من خلال ما كانوا يجرونه معهم من استجوابات واستفتاءات .

وقد ميزنا فيما عرفته اللغة الاسبانية من الوان الاستفتاء عن الادب المغربي الحديث نوعين اثنين . احدهما خاص وثانيهما عام .

اما اولهما فهو هذا الاستفتاء الذي خص به اديب ما بقصد تعريف القارىء الاسباني بحياة هذا الاديب وابداعه ، ونكتفي في التمثيل لهذا الاستفتاء بمثالين ، هما :

١ ـ استفتاء اديب ، وهو محمد الصباغ ، اجرته معه جريدة اسبانيا(٦٣) ، وقد عكس هذا الاستفتاء تصور الصباغ لواقع الشعر اواسط الخمسينات ومستقبل حركة التجديد من خلال قوله (اما الشعر المغربي واعني به الشعر الجديد فله رواد من شعراء الشباب الذين استيقظوا عن صرخة التجديد في صدورهم . وبفضل ثورتهم على القديم سيصلون بفنهم الى ما

(٥٧) انظر Pio Gomez Niza, El arbol de fuego. Revista Al-Motamid No 28 p. 9. (September, 1954).

(٥٨) انظر تقديم الترجمة الاسبانية لـ « انا والقمر » ص٥

(٥٩) انظر Leonor, M.M., Antologia de poesia arabe contemporanea. p. 226

(٦٠) انظر Literatura y pensamiento marroquies contemporaneos. p. 356. 227

(٦١) نفسه ٣٥٦

(٦٢) انظر المعتمد . ع ٢٧ ص٤

(٦٣) انظر مجلة . كتامة . ع٩ ص٤

يهدفون ، وانا متفائل بهذه الجماعة وبمستقبل الشعر في وطني) ،[٦٤] كما عكس هذا الاستفتاء تصور الصباغ لرسالة الشاعر في مجتمعه حين قال : (ومن الطبيعي ، بل من الواجب على الشاعر الحقيقي ان يشارك في احزان امته وافراحها ، وان يعمل على ايقاظ الحماس في اصلابها ان كانت خائرة ، وان يهديها الى منابع الجمال ، والحق ، والنور ، فالشاعر هو مزمار امته في افراحها ، ورعدها وبرقها في اتراحها)[٦٥] .

٢ ـ استفتاء كاتب مسرحي وهو احمد الطيب العلج ، وقد تضمن اشارات مفيدة الى تجربة الكتابة للمسرح في المغرب والتي يؤلف فيها (الاقتباس) مرحلة اولية ، يتحدث عنها العلج في نطاق تجربته الخاصة ، فيقول : (اما الاقتباس فهو بالنسبة لي مدرستي الاولى في الكتابة للمسرح ، ولكنه لم يكن سوى مرحلة تعليمية في الممارسة فقط ، على اني لم اقتصر على اقتباس مسرحيات موليير وحده بل اقتبست لجل رجال المسرح الافذاذ : شكسبير ، ماي فو ، كوتولين ، لابشيت ، كوكول ، بيكيت ، بريجت ، رونيار ، جيل رومان وغير هؤلاء كثير ..)[٦٦] .

كما يتضمن الاستفتاء اشارات الى تصور العلج للتأليف للمسرح من حيث المضمون كقوله : « انني استلهم واقع الشعب وقضايا الناس في مجتمعي العربي المغربي الافريقي .. لقد دأبت على ان اضع في اعتباري انسان العالم الثالث وكل المسحوقين بصفة عامة)[٦٧] او من حيث البناء كقوله : (عندما كتبت مسرحية « الشطاب » اي الكناس سنة ١٩٥٦ كنت اذ ذاك شابا في بداية عهدي بالمسرح اعتمدت بطريقة عفوية اسلوب اللوحات وهو نوع من المسرح يتحرر من قيود وحدة الزمان والمكان .. واعتمدت ايضا اسلوب الاغنية الشعبية في المواقف الحرجة والغناء الجماعي)[٦٨] .

واما الاستفتاء العام فهو الذي استقطب بسؤاله او باسئلته الموحدة طائفة من الادباء ، غالبا ما تكون توجهاتهم واهتماماتهم متباينة مع ما قد يكون من تواطؤهم على الفن الواحد من فنون القول الذي يوثرونه بالكتابة دون غيره .

وقد اتيح للقاريء الاسباني ان يتعرف على واقع الادب المغربي الحديث وافاقه من خلال استفتاءين عامين ، هما :

أ ـ <u>استفتاء (المعتمد)</u> :

لقد كان من بين مظاهر اهتمام مجلة (المعتمد) بالأدب المغربي الحديث وبالشعر خاصة تنظيمها استفتاء توجهت به الى عدد من الدارسين والادباء في صيغة السؤال التالي : « لماذا نجد الشبيبة المغربية (الاسلامية) تتلقى الشعر باهتمام قليل بينما هي تنتمي الى جنس يحمل بذور الشعر في نفسه ؟ ان المغرب بوصفه شعبا فتيا ذا عراقة ادبية يتعين عليه

---

(٦٤) نفسه ع ٩ ص٥

(٦٥) نفسه ع ٩ ص٥

(٦٦) انظر ٤٣٤

وانظر ، النص العربي في مجلة ـ الاقلام ـ العراقية ع ١١ ص ١٢ ص٢٣

(٦٧) نفسه ٢٤

(٦٨) نفسه ٢٤

Literatura y pensamiento marroquies contemporaneos.

احياء شعره وادبه(٦٩) ..» وتحت عنوان « في البحث عن الشعر الفتي في المغرب En busca de la joven poesia en Marruecos شرعت المجلة في نشر الاجوبة ابتداء من عددها الثامن عشر (٧٠) وقد بلغ مجموع الاجوبة سبعة ، ستة منها لدارسين وادباء اسبان اغلبهم كان يقيم بالمغرب ، واجابة واحدة لكاتب مغربي هو عبدالله كنون اما الاسبان فهم طوماس غرسية فيغراس ، وخاثينتولوبيث خورخي ، وبيوغومث نيسا والاديوسوس ، وميجيل فرنانـدس ، وفرنثيشكو سلكيرو .

ولقد كان في بعض ما ادلى به هؤلاء الدارسون والادباء من اجوبة على السؤال المطروح ما يدل على معرفة اصحابها بواقع الشعر المغربي من مثل ما نقرأ في اجابة طوماس غرسية فيغراس (مما لاشك فيه ان الموضوع على جانب كبير من التعقد . انا لا اظن ان تكون الشبيبة المغربية قليلة الاهتمام بالشعر وان ما يمكن ان نذكره من اسماء الشبان المغاربة الذين يتداولون الشعر في الوقت الحاضر لتوكد ذلك)(٧١) . او من مثل ما نقرأ في اجابة فرنثيسكو سالكير (الشعر المغربي ذو تلقائية سليمة واساسية وصلبة مثل ارض المغرب ، وهو الى ذلك متفتح ومتنور كسمائه ، متحرر من التأثير الاندلسي . ذو شخصية قوية تعبر عنها صيحات الثورة الملتهبة ..)(٧٢) .

على اننا نجد من بين هذه الاجوبة ما يدل على جهل اصحابها بواقع الشعر المغربي وحاضره ، ومن ذلك ما ورد في اجابة خاثينتولوبث خورخي : (.... ليست الشبيبة المغربية وحدها التي لا تهتم بالشعر ، بل تشاركها في ذلك الشبيبة الاسبانية ايضا . على ان اسبانيا ، مع ذلك ، تمتلك شعرا وادبا عصريين خاصين بها . اما المغرب فليس يملك ذلك ، والاسباب معروفة لدى اي شخص ومدركة لكل فرد ، فالمغرب بحاجة الى ان يبعث شعره وادبه من جديد ، ولكن : اين الشعراء ؟ اين الأدباء ؟..)(٧٣) ومثل هذا تكشف عنه اجابة ميجيل فرنانديث(٧٤) والاديوسوس(٧٥) .

وقد تصدى الاستاذ محمد بن عزوز حكيم لمثل هذه الاجابات في مقال نشر في (المعتمد) مشيرا في اوله الى ان صيغة سؤال الاستفتاء تتضمن تصورا خاطئا لواقع الشعر في المغرب اي انه يتضمن حكما مسبقا من طرف واضعته ، وهي الشاعرة طرينا مركادر مديرة المجلة ، بأن الشبيبة المغربية لا تولي الشعر اي اهتمام ، ثم مضى ينتقد تلك الاجابات التي ابانت عن جهل اصحابها بماضي الشعر المغربي وحاضره ، وختم مقاله مشيرا الى ان الشباب المغربي يقوم بنشاط ادبي وشعري كنظيره الاسباني مثلا ، غير ان نتاجه الذي يكتبه باللغة العربية لا يطلع عليه الشاعر او القارىء الاسباني ، واذا صح ان الشبيبة المغربية لها هذا

---

(٦٩) انظر المعتمد ع ١٨ ص ٦ (يوليو ١٩٤٩)
(٧٠) نفسه ع ١٨ ص ٦
(٧١) نفسه ع ١٨ ص ٦
(٧٢) نفسه ع ٢٤ ص ٥
(٧٣) نفسه ع ٢٠ ص ٦
(٧٤) نفسه ع ٢٣ ص ٦
(٧٥) نفسه ع ٢٢ ص ٧

الموقف من الشعر فانها في ذلك ليست بدعا ، فان الشبيبة الاسبانية بدورها ، كما يقول خاثينتولويث خورخي لها مثل هذا الموقف . ومع ذلك فاننا نعرف في صفوف الشباب المغربي حاليا عددا من الشعراء اثبتوا اصالتهم وتفوقهم .(٧٦) .

ومهما يكن من المآخذ على استفتاء (المعتمد) فقد كان له فضل السبق الى هذا المجال من مجالات استطلاع الرأي . واستجلاء التصور ، لئن فاته فيه تقديم صورة جلية لواقع الادب والشعر المغربيين المعاصرين فانه لم يفته ان يلفت الانظار اليهما ويثير الاهتمام بهما .

ب ـ استفتاء « دي اكريدا » :

وهو ثاني استفتاء عام عرفته اللغة الاسبانية حول الادب المغربي الحديث ، وقد انجزه الاستاذ فرناندودي اكريدا ، بعد نحو عشرين سنة من الاستفتاء الأول ، ضمن اطروحة جامعية عن (الفن الروائي في الادب المغربي الحديث)(٧٧) .

وقد تحدث صاحب الاستفتاء عن الدواعي التي حدت به الى انجازه فقال : (ان فكرة هذا الاستفتاء نبعت من اشتغالي باعداد رسالتي للاجازة في الآداب ، ذلك انني لما كنت ارغب في الاحاطة بموضوع مثل « الفن الروائي المعاصر في المغرب » وهو موضوع ليس تعدل سعته الا جدته وطرافته بالنسبة للقاريء الاسباني ـ قررت ان استطلع رأي المبدعين انفسهم لهذا النتاج الذي هو هدف الدراسة (٧٨) .

اما مضمون هذا الاستفتاء فهو يتناول ، حول محور رئيسي هو « القصة القصيرة » ، مظاهر رئيسية ثلاثة للعمل الادبي ، هي : أ ـ ترجمة حياة الكاتب . ب ـ نشاطه الادبي . ج ـ قضايا ادبية عامة . وقد اجاب عن هذا الاستفتاء طائفة من الأدباء(٧٩) تجمعهم الكتابة القصصية وتتوزعهم الاهتمامات الادبية الاخرى ما بين شعر ، ونقد ومقالة ، كما تتوزعهم التصورات الفكرية والاتجاهات الادبية ، ومرد هذا التوزع كما تكشف عنه الاجابات . الى التباين في ثقافة المجيبين ومقروئهم .

وتتجلى اهمية هذا الاستفتاء ليس فقط في كونه اجرى بعد الاستفتاء الأول بما يقرب من عشرين سنة ، اي في فترة كان الادب المغربي يعرف فيها من الوان الابداع والتطور ما لم يكن له به عهد حين اجرت مجلة (المعتمد) استفتاءها ، ولكن تتجلى في كونه ، اي استفتاء دي اكريدا ، حقق ، بما تضمنت اجاباته من معلومات وبيانات ، للقاريء الاسباني فرصة ، لم يعرف لها مثيلا من قبل ، للتعرف على طائفة بعينها من كتاب المغرب وادبائه هم القصاصون والروائيون من خلال حديثهم عن حياتهم الخاصة وحياتهم الادبية ولاسيما في مجال الفن القصصي .

(٧٦) نفسه : ع ٢٥ ص ٦

(٧٧) اعدها باشراف الدكتور بدرومارتينث مونتابيث ولم تنشر الى الان .

(٧٨) انظر .

De Agreda Burillo, Fernando, Encuesta sobe la literatura marroqui actual. Revista ''Almenara'' No. 2 P. 133.

(٧٩) هذه اسماؤهم بحسب ترتيبها عند المؤلف في كتابه الذي جمع فيه اجوبتهم ونشره المعهد الاسباني ـ العربي للثقافة بمدريد سنة ١٩٧٥ . عبدالله كنون وعبد القادر السميحي وامينة اللوه وحسن الوراكلي وابراهيم الالغي وخناثة بنونة ومحمد اشماعو ومحمد الامري المصسودي ومحمد برادة ومحمد بيدي ومحمد ابراهيم بوعلو ومحمد عز الدين التازي ومحمد شكري وفدوى ميحات وعبد العزيز بن عبدالله واحمد المجاطي ومحمد عنيبة الحمري ومحمد الخطابي ومحمد الرجراجي .

واذا ذكرنا ان عدد ما تضمنه نص هذا الاستفتاء من اسئلة سبعة عشر سؤالا[٨٠] فيها البسيط والمركب ، وان عدد المجيبين عنها تسعة عشر قاصا يختلفون ثقافة ، ومقروءا ، واتجاها ادبيا ، ادركنا مدى اهمية هذا الاستفتاء في استجلاء كثير من العوامل الادبية والسوسيولوجية التي اثرت ، على نحو لافت ، في ابداعها الادبي بعامة ، والقصصي بخاصة . ومن هنا يمكن القول بان هذا الاستفتاء ، بما كشف من خلفيات الادباء المغاربة الاجتماعية والفكرية ، وافاقهم الفنية والجمالية ، وضع بين يدي القارىء الاسباني اداة بالغة الفائدة في فهم وتذوق ما ترجم الى لغته من ابداع الكتاب المغاربة الادبي والقصصي منه خاصة[٨١] .

ثالثا ـ الدراسة

سواء في مجال الترجمة او في مجال الاستفتاء فان الجهود المبذولة ، على نحو ما رأينا في الفقرات السابقة ، ذات قيمة بالغة ليس من سبيل الى انكارها ، فاليها ، اي الجهود ، يعود الفضل ليس فقط في اطلاع القارىء الاسباني على الوان من الابداع الادبي في الشعر ، والقصة ، والرواية ، والمسرح ، والمقالة مما كتبه الادباء المغاربة المعاصرون ولكن لانها وضعت بذلك بين ايدي النقاد والدارسين مادة ادبية لم تثن بعضهم معدوديتها عن إجالة النظر فيها وتناولها بالدرس نقدا وتحليلا مما لا نشك في انه اعان القارىء الاسباني على تذوق ما قرأه مترجما من ذلك الادب الى لغته .

---

(٨٠) هذا نصها الكامل :

(١) الترجمة الشخصية

ـ الاسم واللقب

ـ المحيط العائلي . هل هناك سوابق ادبية ؟

ـ الدراسة المستوى والمكان

ـ المهنة الحالية . هل الادب كاف كوسيلة للمعيشة ؟

ـ القراءة والاسفار · الكتب المفضلة والبلدان

ـ ما هي اللغات التي تجيدونها ؟

(٢) النشاط الادبي الشخصي

ـ الى اي نوع من الادب تميلون ؟

ـ ماذا تفضلون في الكتابة ؟ اللغة الكلاسيكية او الدارجة ؟ وكيف تستعملونها في القصة ؟

ـ هل لديكم اتصال بالادب العربي الشرقي ؟ والاسباني ؟

ـ اتعتقدون في استمرار وجود كتاب بالفرنسية والعربية في آن واحد في المغرب ؟

(٣) حول الادب عامة

ـ اتظنون ان في المغرب ادبا شبيها بما يسمى في الغرب « قصة »؟

ـ اذا كان كذلك فمتى ظهر بالمغرب ؟

ـ ما رايكم في الجمهور المغربي كقارىء ؟ ما هي ميوله في الادب ؟ هل يفضل الكتاب المغاربة عن سواهم ؟

ـ ما رايكم في الكتاب المغاربة الحاليين ؟ وما هي المشاكل التي تعترض طريقهم ؟

ـ اتعتقدون بوجود حركة نشرية عربية بالمغرب ذات قيمة ؟

ـ اتومنون بوجود حل للفارق بين العربية الفصحى والدارجة ؟

ـ ما هي الحلول التي ترونها لفكرة . لغة عربية لعالم عربي ؟

(٨١) انظر : مقدمة الدكتور مونتابيث ومدخل الاستاذ دي اكريدا للاستفتاء

واذا صرفنا النظر عن جملة عروض تعريفية ببعض النتاج الشعري والقصصي المغربي[٨٢] مما كانت تنشره بعض المجلات كـ « المعتمد » و« المنارة » فاننا نقع على مقالات وبحوث اراد بها اصحابها الى رسم صورة عامة للادب المغربي الحديث من خلال شخصياته وفنونه . ويمكن ان نميز في هذه المقالات والبحوث نوعين اثنين احدهما خاص بفنون معينة ، وثانيهما عام شامل .

اما النوع الأول فقد عرفنا منه مما دار حول الشعر مقالين اثنين ، احدهما كتبه مانويل بينيو بعنوان « نحو شعر مغربي »[٨٣] Hacia una poesia de Marruecos افاد فيه مما كانت مجلتا (المعتمد) و(منطيال) قد نشرتاه من نتاج لبعض الشعراء المغاربة مترجما للاسبانية . وثانيهما هو المقال الذي كتبه خوسي انخيل فالنطي بعنوان « الشعر العربي المعاصر في المغرب »[٨٤] Poesia arabe de hoy en Marruecos وهو كسابقه من حيث اقتصاره على ذكر طائفة من ادباء الشمال وشعرائه ممن كانت المجلات الصادرة في هذه المنطقة يومئذ من مثل المجلتين آنفتي الذكر ومجلة (الانيس) و (الانوار) تنشر لهم نتاجهم الادبي ، لكنه يتميز عن المقال السابق بما سلط من ضوء على نهضة الشعر العربي في المشرق والمهجر وما كان لشعراء هذا وذاك من اثر على الشعر المغربي كما يعكس ذلك نتاج محمد الصباغ ولاسيما كتابه (شجرة النار)

وعرفنا مما دار حول الفن القصصي والروائي ثلاثة اعمال[٨٥] احدها رسالة جامعية للاستاذ فرناندودي اكريدا ، لم تنشر بعد ، وهي « القصة القصيرة في الادب المغربي الحديث »[٨٦] La narrativa breve en la literatura moderna marroqui واما العملان الاخران فقد كتبهما الدكتور عبد الرحمن شريف الشركي بالاسبانية افرد بأحدهما رواية « المعلم علي[٨٧] » لغلاب ، وخص بثانيهما رواية « اكسير الحياة »[٨٨] للحبابي . وقد عني في العمل الاول باستجلاء المظاهر السوسيولوجية والنفسية والابداعية في فن غلاب الروائي من خلال « المعلم علي » ، وعني في العمل الثاني باستكشاف ثلاثة ابعاد ، هي البعد النفسي ، والبعد الاجتماعي ، والبعد الميتافيزيقي في رواية « اكسير الحياة » .

اما النوع الثاني ، وهو العام ، من هذه المقالات والبحوث فقد عرفنا منه ثلاثة اعمال ، اقدمها المقال الذي كتبه الاستاذ محمد بن عزوز حكيم بالاسبانية بعنوان « ادباء المغرب المحدثون[٨٩] Literatos modernos de Marruecos وقد قصر فيه حديثه ، خلافا لعنوانه ، عن ادباء شمال المغرب بخاصة من امثال عبدالله كنون ، والتهامي الوزاني ،

---

(٨٢) انظر . « المعتمد » ع ٢٨ ص٩ . و « المنارة » ع٣ ص ٢٨٥ ، ع ٤ ص٢٦١ ، ٢٦٩ . ع ٥ ـ ٦ ص ٣٠٨ ، ع٩ ص٢٨٩ ع١٠ ص ٢٣٦

(٨٣) انظر : مجلة Africa ع ١٠٥ ص ص ٤٠٤ ـ ٤٠٦ (شتنبر ١٩٥٠) .

(٨٤) انظر : مجلة Indice ع ٨٤ ص ٢٨ (شتنبر ١٩٥٥) .

(٨٥) باستثناء ما درس فيه اصحابه الادب الشعبي مثل « القصة في الادب الشفوي بالمغرب » للدكتور رودلفوخيل كريملو وهي دراسة اعدها لنيل الاجازة في اللغات السامية من اداب مدريد .

(٨٦) اعدها صاحبها باشراف الدكتور بدورمارتينث مونتابيث لنيل الاجازة من اداب مدريد .

(٨٧) انظر : مجلة المنارة ع ٣ ص ص ١٥٢ ـ ١٦٤ .

(٨٨) انظر · مجلة المنارة ع ٩ ص ١٨٧ ـ ١٩٩ .

(٨٩) انظر : مجلة Africa ع ١٣٣ ص ص ١٤ ـ ١٥ (يناير ١٩٥٣) وقد اعيد نشر المقال في كتاب Literatura y pensamiento marroquies contemporaneos ص ص ٦٤ ـ ٦٨ .

وابراهيم الالغي ، وعبد القادر المقدم ، وغيرهم . ومع ان التعليقات التعريفية التي نجد الكاتب يعقب بها على بعض الاسماء لا تنم عن معرفة .النتائج الادبي للفترة كما لا تدل على ذائقة ادبية او منظور نقدي عنده الا انه ، اي المقال ، كان ذا فائدة محققة بالنسبة للقارىء الاسباني الذي لم يكن الى عهد قريب من تاريخ نشر المقال المذكور ، يعرف شيئا عن ادباء المغرب واثارهم .

اما العمل الثاني من هذا النوع العام فهو الذي كتبه الدكتور رودلفو خيل كريماوبعنوان حول الادب المغربي المعاصر [٩٠] En torno a la literatura marroqui actual وهو عبارة عن دراسة بناها صاحبها على مقدمة صور فيها الاوضاع والملابسات التي تكتنف الادب المغربي الحديث كالازدواجية اللغوية ، وازمة النشر وغيرهما ، والم فيها بذكر طائفة من الادباء والكتاب الذين تألقت اسماؤهم في الشعر ، والقصة ، والرواية ، مشيرا الى الاتجاهات والتيارات الادبية التي يعرفها الادب المغربي والى الموضوعات التي يعني بتناولها ومعالجتها . اما في القسم الثاني فقد حاول الدكتور خيل ان يستكشف احدى السمات الرئيسية التي تتلبس ، برأيه النتاج الابداعي المغربي في اكثر من مجال واحد ، وهي سمة « الشاعرية » ، وفي ذلك يقول : (... في الأحساس كما في التعبير نفسه نزوع الى ما هو شاعري يتراءى بجلاء . وانه لمن المنطق ان يكون الامر كذلك حين يكون الموضوع ، او ما تستلزمه معالجته ، شعرا ، غير انه يبدو لأول وهلة مجانبا للمنطق حين يتعلق الامر بظاهرة اجتماعية او موضوع تاريخي اي حين تنصرف العناية بالحاح الى بلورة اوضاع الطبقات التي تعاني من شراسة الكدح او التهميش ، او حين تجيش المشاعر صراخا يندب غياب مسقط الرأس عن العين . ان الشعر يترقرق في اعطاف هذه الكتابات ، ويتدفق في صفاء واحيانا بين جمل وعبارات لم تكن تريد ، في البداية ، ان تكون شاعرية مثلها مثل الارصفة التي لا تريد ، بدورها ان تكون معشوشبة .. لكن العشب يأبى الا ان ينبت بين تشققاتها) [٩١] ثم يمضي الباحث ، بعد ذلك يلتمس لهذه السمة الشعرية امثلة للتطبيق في نتاج الادباء المغاربة كمقالة « تطوان تفاحة وحمامة وحديقة »[٩٢] لمحمد العربي الخطابي ورواية [٩٣] الغربة المنفردة La reclusion solitaria للطاهر بن جلون ، وكتاب « عندلة » [٩٤] لمحمد الصباغ ، وقصة « الصياد » (٩٥) لابراهيم بوكلو ، و « أغاني نساء فاس القديمة » (٩٦) التي جمعها ونشرها محمد الفاسي . وسواء في القسم الأول من هذه الدراسة حيث استعرض الباحث الملابسات الفاعلة في الإبداع الادبي المغربي ، او في القسم الثاني حيث تتبع سمة « الشاعرية » في الاثار المتقدمة الذكر . يكشف لنا الدكتور خيل عن معرفة بالإدب المغربي الحديث تعطي آراءه حظها من السداد كرأيه في ان تأثر الادب الروائي

---

(٩٠) كتبه سنة ١٩٧٨ ويظهر انه اذيع ضمن البرنامج الاسباني بالاذاعة الوطنية ولم ينشر . وقد تفضل كاتبه الصديق الدكتور خيل فاهداني نسخة منه مضروبة على الالة الكاتبة

(٩١) انظر En torno a la literatura marroqui actual p. 8

(٩٢) نفسه . ص ص ٨ ـ ١٠

(٩٣) نفسه ص ص ١٠ ـ ١٢

(٩٤) نفسه ص ص ١٢ ـ ١٣

(٩٥) نفسه ص ١٣

(٩٦) نفسه ص ص ١٤ ـ ١٥

المغربي بنتاج المشارقة والغـربيين ممـا يعوق ظهـور شخصية مغربية اصيلة من شأنها ان تسهم بعطـاء مغربي حق في الادب العربي والعالمي كذلـك ، وليس معنى هذا ، في رأي الدكتـور خيل ، ان عـلى الادباء المغاربة ان يتركوا جانبا الموضوعـات والاشكال التي يبدعون فيها ادبهم ليستلهموا تراثهم الشعبي فقط ، فهذا مما لا يخطر ببال ، ولكن من المؤكد انه يكمن في الـذاتية المغـربية . وفي نظـرتها للحيـاة ، وفي ادبها الشفوي الخصب ، وفي تاريخها المعقد من الدواعي ، والحوافز ، والشخصيات ، ما لو استغل لعكس ، على نحو رائع ، الموضوعات والمضامين التي يحاول الادباء المغاربة اليوم تقديمها لنا(٩٧) .

اما العمل الثالث الذي عرفناه ضمن البحوث العامة حول الادب المغربي الحديث فهو المدخل الـذي كتبه الدكتور عبد الرحمن شريف الشركي لكتاب « الادب والفكر المعاصران في المغرب » ولاشك ان الباحث اراد ان يكون هذا المدخل تقويما عاما لمختلف الوان الابداع المغربي من شعر ، وقصة ، ومسرح ، ورواية ، ومقالة ليكون ، اي التقويم ، عونا للقارىء الاسباني على فهم وتذوق ما تضمنته الانطلوجية من نماذج ذلك الابداع ، لكنه لم يوفق في بنـائه حـين فسح لحـديثه عن الفن الروائي والقصصي حيزا لم يفسح مثله لباقي الفنون الاخرى مجتمعة . واذا كان هذا مما ينال من منهجية الباحث فانه لا ينال ، بحـال ، من المدخـل في جانبـه التحليلي والنقدي حيث تطالع القارىء نظرات نقـدية يقـوم بها البـاحث بعض الاعمال الادبيـة وخـاصـة الروائية منها من مثل رواية « دفنا الماضي »(٩٨) ورواية « اكسير الحياة »(٩٩) للحبابي . وغيرهما .

والحق ان هاتين الدراستين تعتبـران الى الان بما اشتملتا عليه من معرفة بـالمادة الادبيـة وقدرة عـلى تحليلها اهم ما انجـز في الاسبانيـة ونشر من مقالات وبحوث عن الادب المغربي الحديث .

على انه ينبغي الا يفوتنا في ختام هذا العرض ان نشير الى انه بجانب هذه المقالات والبحوث المكتـوبة اصـلا بالاسبـانية تـرجمت اعمال ممـا كتبـه بعض الدارسين المغاربة عن ادبهم من مثل دراسة الدكتور عبـاس الجـراري عن « الشعـر المغـربي في عصر النهضة »(١٠٠) ودراسة الدكتور ابـراهيم السولامي عن « وطنية شاعر الحمراء »(١٠١) ودراسـة الاستاذ عبد العلي الودغيري عن ادب الصباغ(١٠٢) ، ودراسة الاستـاذ محمد التـازي عن « دور الادب المغربي في المعركة ضد الامبريالية والصهيـونية(١٠٣) ودراسـة الاستـاذ احمد الصفـريوي عن « الـرواية المغـربية المكتوبة بالفرنسية »(١٠٤) فهذه البحوث جميعها ، الى سواها مما كتب اصلا في الاسبانية ، سواء كان مما اعده دارسون اسبان اومغاربة ، اسهمت ، الى جانب الابداع المترجم ، والاستفتاء الادبي ، في تقديم الادب المغربي الحديث للقارىء الاسباني .

---

(٩٧) نفسه ص ص ٧ ـ ٨

(٩٨) انظر Literatura y pensamiento marroquies contemporaneos pp. XXI-XXII

(٩٩) نفسه ص XXIV

(١٠٠) نفسه ، ص ص ١٠٣ ـ ١٠٩

(١٠١) نفسه ص ص ١١٢ ـ ١٢٤

(١٠٢) نفسه ص ص ١٣٩ ـ ١٤١

(١٠٣) نفسه ص ص ٦٩ ـ ٨٣

(١٠٤) نفسه ، ص ص ١٦ ـ ٢٨

المراجـــــع

— Cherif-Chergui Abdorrahman : Tres dimensiones de la novela "El exilir de la vida" del Dr. Lahbabi. Revista Almenara No. 7-8 pp. 39-78.

— Cherif-Chergui Abdorrahman : Sociologia, psicologia, literatura en le Ultima.novela de "Abd al-Karim Galib. Revista Almenara, No. pp. 152-164.

— De Agred Burillo, Fernando : Encuesta sobre la literatura marroqui actual. Ed. Instituto Hispano-Arabe de Cnltura. Madrid, 1975.

— Grimau, Gil Rodolfo : En torno a la liceratura marroqui actual. Rabat, 1978.

خورخي ، خالينتو لويث

ـ الشعر العربي والاسباني في رحلة التواصل ـ ترجمة احمد المطلوب ـ العلم الثقافي ع ٧٠٤ ص ٤ ـ ٥ (٦ ذي القعدة ١٤٠٤هـ ٤ غشت ١٩٨٤) .

— Martinez Martin, Leonor : Antologia de la poesia arabe contemporanea. Ed. Espasa-Calpe. Col. "Austral". No. 1,518 pp. Madrid, 1972.

— La poesia actual arabe. Revista de la Universidad Complutense XXIII, 93, Sept-Oct. 1974.

— Martinez Montavez, Pedro : Poesia arabe contemporanea. Ed Exelier. Col. 21, No. 17. Madrid, 1958 pp.

— Introduccion a la litertura arabe moderna. Ed. Almenara, Madrid, 1974.

— Las relaciones literarias hispano-arabe contemporaneas. Revista estudios de Asia y Africa. El Colegio de Mexico, num. 43, vol. XV, Enero-marzo (1980) pags 102-123.

— Pinillos, Manuel : Hacia una poesia de Marruecos. Africa, No. 105 (1950)

— Sabbag, Mohammad : El arbol de fuego, version del autor y de trina Mercader Ed. Al-Motamid, (Coleccion Itimad I) Tetuan, 1956.

— Seminario deliteratura y pensamiento : Literatura y pensamiento maroquies contempraneos. Ed. Instituto Hispano-Arabe de Cnltura y Facultad de Letras de Rabat, 1981. Serie "Antologias

— Valente, Jose Angel : Poesia arabe de hoy en Marruecos Revista "Indice de Artes y Letras" No. 85. Octubre 1955.

ـ الودغيري ، عبد العلي ، قراءات في أدب الصباغ ، دار الثقافة ـ الدار البيضاء (١٩٧٧)

* * *

الفن والحداثة بين الأمس واليوم

مختار العطار

قضية الحداثة قديمة قدم الزمان . منذ وعي الانسان أنه سيد الكائنات وهو في صراع دائم مع البيئة ، يعمل فيها يد التبديل كيما يخضعها لارادته واحتياجاته . يصطنع لها الأفكار والأدوات ، ثم يعدل من سلوكه ويُحَدِّثه ليتكيف معها في ثوبها الجديد ويعاصرها . يدور في حلقة التأثر والتأثير والأخذ والعطاء مما يسفر عن أنماط الحضارات والثقافات التي ينقل التاريخ أنباءها عبر العصور . والثقافة أسلوب الحياة بينما الحضارة بعض مقوماتها المادية والمعنوية . هكذا يكون لدى البشر في كل بقعة من الأرض عصر جديد على الدوام ، عليهم أن يتكيفوا معه ويستحدثوا من أساليب الحياة ما يعينهم على مواجهة المتطلبات الجديدة . فمعنى « العصر هو أفكاره ومبادئه التي تسوده ، وليس مجرد وجود زمني يقاس بأعوامه وشهوره ودقائقه وثوانيه وعلى الخلفية الفكرية التي هي : العصر ، تجيء مطالبة الناس بأن يكونوا مبدعين[1] » ـ أي معاصرين . و « الحداثة » ترتبط بالابداع ـ أي ابتكار أشكال سلوكية تتكيف مع البيئة الجديدة . والفن من أنماط السلوك الانساني ، تتغير أشكاله بتغير العصور .

لعل أقرب الدراسات الى الواقع في تحديد الحقبة الزمنية التي نجتازها ونطلق عليها اصطلاح « العصر الحديث » ، ما جاء به : هـ. و. جانسون ، من أنها تبدأ مع القرنين الأخيرين . وهو يرى أننا لم نطلق عليها اسماً بعد لأننا ما زلنا في لُجّة النهر نندفع مع التيار . ويقارن بين عصرنا و « عصر النهضة » الذي اتخذ هوية منذ البداية هي « بعث القديم » . ثم حاول العثور على « مدرك عام » لعصرنا الحديث فوجد أنه يتخذ طابعاً ثورياً . لأنه يتسم بالتغير السريع العنيف ، بلا تجانس في تقدم مختلف الميادين ونموها مُرْجِعاً هذه الظاهرة الى انه بثورتين جِدّ مختلفتين : الأولى صناعية ممثلة في اختراع آلات البخار ، والثانية سياسية في كل من أمريكا وفرنسا تحت راية الديمقراطية ـ كهدف مطلوب تحقيقه

---

(١) د. زكي نجيب محمود ـ ما يكتسب وما يستحيل كسبه ـ مقال بجريدة الأهرام في ٨/ ٤/ ١٩٨٥ .

على نطاق البسيطة ، عن طريق نشر النسق الغربي للحياة ، في كل من العلوم والأيديولوجية السياسية والانتاج الحضاري من طعام وكساء وفن وأدب(٢) .

يؤكد الطابع الثوري الذي اقترحه « جانسون » للعصر الحديث ، الثورة الروسية التي وقعت سنة ١٩١٧ والثورة الصينية بعدها بثلاثين عاماً ، والتقدم التكنلوجي المذهل في اليابان - وجميعها دول شرقية لها أنساق حياة تختلف اختلافاً بيناً عن النسق الغربي ، تسعى بدورها الى نشره بين شعوب العالم .

أما « كليمنت جرينبرج(٣) » فله رأي آخر . الحداثة في نظره لا تقتصر على الفن والأدب ، بل تنتظم معظم ما هو حيوي في ثقافتنا ، وتشكل معظم البدع التاريخية . يرى أن الحضارة الغربية ليست الأولى التي أعادت النظر في الأسس التي قامت عليها . فجميع الحضارات الماضية قد فعلت نفس الشيء . ويعرف « الحداثة » بأنها « تكثيف وتركيز النقد الذاتي » الذي بدأ مع الفيلسوف « كانت » الذي كان أول من انتقد وسيلة النقد نفسها . لذلك فان « كانت »(٤) هو أول مفكر حديث في نظري ، وأن جوهر « الحداثة » يكمن في استخدام الوسائل المميزة لنسق من السلوك من أجل نقد هذا النسق ذاته بهدف تحصين ساحته وتنقيتها . فقد استخدم « كانت » المنطق ليقيم دعائم المنطق . خلصه من كثير من الشوائب ودعم ما بقي له من أسباب .

ثم يطبق « جرينبرج » المنطق « الكانتي » على الفن ، فينادي بأن يقرر كل نوع من أنواع الفن العمليات الخاصة به ، دون تدخل فنون أخرى . بذلك يضيق مجال المنافسة وتتأكد ساحة كل فن على حدة . وبينما تتشعب كلمات الباحثين في « الحداثة » ويكتنفها الغموض ، يتجه مباشرة في وضوح النهار ليضرب مثلاً بالرسم الملون (التصوير) . يقول : « يستخفي الوسيط - أي الخامات - في كل من الفن الواقعي والايهامي لأنهما يستخدمان الفن لاخفاء الفن . بعكس « الحداثة » التي تستخدم الفن لجذب الانتباه الى الفن . حيث لا يخفى الوسيط الذي يرسم عليه الفنان ، والذي يتكون من السطح السوي والشكل الذي ترتسم عليه اللوحة وخصائص اللون . لم يضع الأساتذة القدامى هذه العوامل في محل الاعتبار الا قليلاً ، وبطريقة ضمنية . لكن الصورة الحديثة تهتم بتلك الأبعاد بايجابية وصراحة . ولوحات « مانيه(٥) » كانت أول صور حديثة بسبب أفصاحها عن الأسطح التي ترتسم عليها . فقد تخلى « التأثريون(٦) » عن البطانات التي وضعها السابقون تحت الألوان والورنيش الذي وضعوه فوقها ، حتى يتركوا للعين حرية التطلع الى الألوان بحقيقتها العارية ، كما خرجت من الأنبوب أو الآنية . هكذا فعل « مانية » بينما ضحى « سيزان(٧) » بالأوضاع الصحيحة لكي يتفق الرسم والتصميم مع شكل اللوحة المستطيل بوضوح أكثر » .

فسر « جرينبرج » بمنطقه الكانتي « الحداثة » في فن الرسم الملون ، على أنها اظهار الخامات من ألوان وقماش أو ورق أو خشب . ووضع بذلك أيدينا على تفسير لما يجري اليوم في فنون « اللاشكل » التي تغمر الصور والتماثيل ، ولا هم لها سوى اللعب بالخامات واستعراض مهارة الصنعة ، بلا أي علاقة بالقيم الفنية أو بعناصر الطبيعة ورموزها وايحاءاتها . الأمر الذي يفقد الابداع الفني المعنى والمضمون الانساني . « ادوارد مانية » هو رائد الحداثة بحق في هذا السياق . اتسمت لوحاته بازدياد أهمية الصنعة على الموضوع . وتميزت

(٢) H. W. Jan Son: A History of ARrt London ⅛! ¾—P.555.

(٣) Clement Greenberg, Modern Painting Art & Literature, No. 4, Spring, 1965, P. 193.

(٤) عمانويل كانت : فيلسوف الماني - ١٧٢٤/ ١٨٠٤ .

(٥) ادوارد مانية : رسام ملون فرنسي - ١٨٢٣/ ١٨٨٣ .

(٦) التأثريون : جماعة فنية تأسست سنة ١٨٧٤ - من بين أعضائها : مونيه ، بيسارو ، رينوار ، سيزان .

(٧) بول سيزان : رسام ملون فرنسي - ١٨٣٩/ ١٩٠٦ .

بالنضارة وحيوية الألوان حتى لكأنها مرسومة في التو واللحظة ، مع أنه لم يكن خلوياً كالتأثريين الذي يعتبر نبيهم . لم يفارق مرسمه ولم يشاركهم تحليل الألوان والاهتمام بالخامات واهمال الموضوع - كما يظن « جرينبرج » - ولم يتوقف عند ابداع اللوحة كعمل ذي شخصية مستقلة . بل ان « المدرسة التأثرية » بأسرها ، استهدفت « المحاكاة » بدقة تفوق التقاليد السابقة ، ساعية الى نقل الطبيعة ممثلة في الوانها وأضوائها ، وليس التجرد منها والانصراف عنها الى الخامات والصنعة ، حتى أن البعض كانوا يرسمون المنظر الواحد على طول ساعات النهار ، لإظهار اختلاف الألوان والأضواء على نفس العناصر المرئية .

رفض « مانية » التقاليد الأكاديمية المرعية ، وكانت لوحة « أوليمبيا » التي عرضها في صالون باريس سنة ١٨٦٥ نموذجاً لذلك الرفض . رأى فيها « إميل زولا »[٨] امتداداً تشكيلياً لنظريته الأدبية ، وشعر بمولود فن جديد واثق الخطوات بعيد عن التردد والتخبط . لم يقتصر « مانيه » في مخالفته التقاليد على الشكل فحسب ، بل أيضاً عناصر الموضوع . لذلك انزعج جمهور المتلقين من ظهور عناصر غير تقليدية في صوره ، كالقطعة السوداء عند أرجل السرير وباقة الزهور بين يدي السيدة الزنجية . ولاحظ النقاد مباشرة الأضواء وخشونة الرسم وافتقاره الى الظلال . الا أن هذه اللوحة التي شجبها النقاد وسبوا صاحبها ، تعتبر الآن نقطة تحول « فن الرسم الملون » الى الحداثة لأوضاعها الأصيلة وخطوطها الخارجية الواثقة وصدق تعبيرها . أما مناظرة الطبيعة فلم تخل من الأشخاص أبداً وتحفل بالأنظمة اللونية المبتكرة من درجات الرمادي والأزرق . ولم يكن يخفى اللون الأسود ويتجنبه كخلفائه ، بل أضفي به مزيداً من النصوع على رسمه . كما أنه لم يسع الى تنظير ابداعه الفني بقدر ما كان يعيد خلق ما يراه ، بأن يرسمه على القماش مفعماً بالحيوية كثيف الألوان . يكمن وجه « الحداثة » لديه في أنه حرر الرسم الملون من القواعد الأكاديمية الجامدة ، وأولى الألوان مزيداً من الاهتمام ورفض التظليل .

لكن « ادوار مانيه » لم يقطع علاقته بالموضوع المرسوم المقروء بالرغم من كل هذه العناية بصنعة الرسم وخاماته ، كما توحي كلمات « كليمنت جرينبرج » . لم يبتعد بالقدر الذي ابتعد به خلفاؤه التأثريون . فقد كان مولعاً طوال حياته بالتكوينات التاريخية الملحمية كرائعته الشهيرة « إعدام مكسيميليان » .

ربما يساعدنا على تفهم العلاقة بين الفنان والواقع في العصر الحديث ، ما جاء به « فيرنر هافتمان[٩] » حين تساءل عن الطبيعة التبادلية بين الواقع ووعي الانسان ومشاعره . كيف يؤثر ذلك على فن الرسم الملون ؟ ما هو دور هذه العملية في السمو بالصورة المتخيلة للواقع ؟ ولكي يجيب « هافتمان » على هذا التساؤل طرح تساؤلاً جديداً عن « المدركات » التي قدمها العلم الحديث عن الطبيعة . واكتشف ثمة دلائل في التوافق الزمني بين التغيرات في كل من ميادين العلم والفن . ولاحظ التغير الجذري الذي شمل الفنون الجميلة بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٠ . وأشار الى أن السنوات الحاسمة هي ١٩٠٥ حين ظهر الاتجاه الوحشي ، و ١٩٠٧ حين رسم « بيكاسو » و « براك » أول صور تكعيبية ، و ١٩١٠ لما رسم « فاسيلي كاندينسكي »[١٠] أول لوحة تجريدية . لاحظ أن هذه السلسلة من التطور تواكب ما حدث في ميدان العلم ففي ١٩٠٠ نادى «بلانك» بالنظرية الكمية ووضع « فرويد » نظريته في تفسير الأحلام . وفي سنة ١٩٠٥ اكتشف « البرت أينشتين » النظرية النسبية . كما أخرج « مينكوفسكي » نظريته الرياضية حول الفراغ والزمن .

---

(٨) انظر المرجع رقم ٣١ .

(٩) Werner Haftmann; Painting In The Twentieth Century-1956, London.

(١٠) فاسيلي كاندينسكي : رسام روسي الأصل الماني الاقامة (١٨٦٦/١٩٤٤) .

أشار « هافتمان » الى أن كثيرين من الفنانين صرحوا بأن الاكتشافات العلمية أوضحت لهم الرؤية ، وأيدت اتجاهاتهم الفنية وفتحت لهم آفاقاً جديدة . ورووي عن « فرانز مارك[11] » قوله : ان فن الغد سيضفي على قناعاتنا (تقاليدنا الفنية) شكلاً (فورم) . كما نقل عن « جيوم أبولينير » ـ المتحدث الرسمي باسم التكعيبية ـ تصريحه بأن هناك علاقة بين النظرية التكعيبية متعددة المنظور ، والمدرك الديناميكي للامنظور في عصر الفضاء ، ثم قدم اصطلاح « البعد الرابع » في علم الجمال الحديث .

هكذا رأى « هافتمان » أن الحداثة في الفن « رؤية للواقع مواكبة للتقدم العلمي » . نتيجة للعملية التبادلية بين الانسان والبيئة وتغير مدركاته . بينما يفسر « جرينبرج » الحداثة في الفن بأنها صورة من صور النقد الذاتي ، تختلف عما كان في القرن الثامن عشر في حركة التنوير الفلسفية ، حيث كان النقد « من الخارج » . بعكس المنطلق « الكانتي » الذي انتقد « من الداخل » . . من خلال المناهج التي يقوم عليها موضوع النقد . لقد أنكر « التنوير » الدور الهام للفن وألحقه بالتسلية . ولكي ينقذه جرينبرج من هذه المنزلة المتواضعة ، رأى أنه ـ أي الفن ـ يقدم للانسان « تجربة » ذات قيمة في حد ذاتها . ليست لحساب نشاط آخر كالتسلية أو العلاج أو التربية أو النفع المادي التطبيقي .

ربما بهذه الكلمات ، يضع « جرينبرج » أيدينا مرة أخرى على بعض ظواهر الحركة الفنية الحديثة . يقدم تفسيراً لما يتردد على ألسنة فناني العالم الثالث . كلما سألت عما يعرضه أحدهم من أشياء « لا شكلية » غير مقروءة ، أجاب بأنه يقدم « تجربة » . وهي كلمة غامضة يختلط فيها الجد بالعبث والفن باللافن . لكن منطق « جرينبرج » يضع النقط على الحروف ويطالب كل فن باثبات وجوده على حدة ، بتفرد ووضوح حتى لا يؤخذ على غير محمله . عليه أن يحدد مجال تأثيراته حتى لا تلتبس بتأثيرات غيره من الفنون . فلا يتداخل النحت مثلاً بالرسم الملون أو المسرح والموسيقا . . الخ . ولا يستغل فن مزايا مستقاة من وسائط (خامات) فن آخر . لذلك ينبغي تحديد الوسائط لكل فن بكل دقة . شاع الخلط بين الخامات منذ مطلع القرن . فبعض التماثيل أصبحت أشخاصاً حقيقيين يتخذون أوضاعاً تشكيلية . . أو آلات لا وظيفة لها تتحرك وتطلق أصواتاً . وبعض الصور برزت منها نباتات حقيقية أو أقنعة ملونة أو أشكال بارزة كالنحت . . قد تصدر أصواتاً موسيقية اذا اقتربت منها . . أو التصقت بها أوراق الصحف كما فعل التكعيبيون . وقد بدأ « بابلوبيكاسو » هذا التيار في كل من النحت والرسم الملون منذ مطلع القرن . لكن هذه « البدع » لا تدخل فيما نسبت اليه من فنون ـ قياساً على رأي « جرينبرج » ـ اذا أطلقت عليها الأسماء التقليدية من : نحت ورسم ملون وحفر وزخرفة . لكن لا بأس في أسماء خاصة جديدة كما فعل النقاد المعترف بهم حين أطلقوا أسماء مثل : فن التجميع ، فن البوب ، الفن البيئي .

إلا أن بعض المعنيين بالفنون الجميلة من الأكاديميين في العالم الثالث خلطوا بين أنواعها تحت اسم عام هو « فنون تشكيلية » ، بدلاً من اضافة الأنواع الجديدة الى الفنون التقليدية ، مما أدى الى أخطاء جسيمة كالتي حدثت في بينالي الاسكندرية الخامس عشر (١٩٨٤/١٩٨٥) ، لدول حوض البحر الأبيض المتوسط ، حين منحت الجائزة الأولى في النحت لعمل لا يمت الى هذا الفن بصلة .

« هربرت ريد » عميد نقاد ومؤرخي الفن في أوروبا ـ يرى أن الوقت لم يحن للتأريخ للفن الحديث ، لأنه لم يبلغ بعد مداه[12] ، خاصة وقد تعاقبت الحركات الفنية بسرعة خلال هذا القرن ، وتعددت بدرجة تجعل

---

(١١) فرانز مارك : رسام ألماني (١٨٨٠/١٩١٦) .

(١٢) Herbert Read-A Concise History of Modern Painting-London 1974, P. 11,12, 13.

حصرها وتتبعها أمراً عسيراً . و يفسر « الحداثة » في سياق تبريره اغفال بعض الأسماء الشهيرة من مصنفه « موجز تاريخ الرسم الملون الحديث » ، بدعوى أنهم عاشوا حقاً في هذا العصر لكن أساليبهم ليست حديثة بالرغم من تميزها عما سبقها من أساليب . وتبني كلمات « بول كلي[١٣] » التي يقول فيها : ان الفن الحديث لا يعكس الشيء المرئي ، انما يجعله مرئياً . اعتبر هذه العبارة « معياراً » يزن به الأعمال الفنية ويحدد مدى حداثتها . وقد استبعد من استبعدهم لأنهم « يعكسون المرئيات ويرتبطون بأساليب سابقة » ، ضارباً المثل بالرسام الفرنسي : موريس أوتريللو (١٨٨٣/١٩٥٥) وهو من الفطريين الذين يتسم ابداعهم بصدق الاحساس . اعتبره تقليدياً بالرغم من حداثته الزمنية . وهو يتفق في هذا المنهج مع « زكي نجيب محمود »[١٤] في « أن جماعة منا تعيش هذا العصر زمناً ، ولكنها لا تعيش فيه رؤية حضارية وثقافية » . كما يستبعد عمالقة المدرسة المكسيكية الثلاثة : دييجو ريفيرا ، جوزيه أوروسكو ، ألفارو سيكيروس ـ لأنهم في نظره خارج « تطور الأسلوب » الذي هو قياسه الوحيد للحداثة[١٥] ، الى حد انه يرى « أن تاريخ الفن هو تاريخ الأساليب التي رأى بها الانسان العالم » .

فكرة « الحداثة » عند هربرت ريد ، مشتقة من انعكاس الثقافة الحديثة (أي اسلوب الحياة الحديثة) على الابداع ، فاذا كان الفنان متوافقاً معها في الرؤية الحضارية وطريقة الادراك والتفكير تغير أسلوبه الابداعي بما تقتضيه الظروف المستحدثة واتسم بالحداثة . يؤكد هذا أنه يشير الى أننا نرى من الأشياء ما « تعلمنا » أن نراه . وأن الإبصار « عادة وتقليد » وليس عملية ميكانيكية ننتقي ما نريد أن نراه من مجمل المطروح أمامنا ، أما الباقي فلا نستوعب منه سوى ملخصاً مشوهاً . ذلك أننا لسنا كالحيوانات ننظر من خلال الأجهزة والغرائز بهدف المحافظة على البقاء ـ ان هدفنا كبشر هو « اكتشاف العالم » أو « بناؤه بشكل معقول » ـ أي أن أسلوب الادراك يختلف بتغير الثقافة ـ وبالتالي أسلوب الابداع ـ اذا كان الفنان يعيش عصره برؤية حضارية .

ثم يقرر « هربرت ريد » بحزم قاطع « أن ما نسميه الحركة الحديثة في الفن ، بدأ على يدي رسام فرنسي عقد العزم على أن يرى العالم « موضوعياً » بعقله فقط بلا أي غموض . انه : بول سيزان (١٨٣٩/١٩٠٦) . أراد أن يرى الموضوع أو الجزء الذي يتأمله فحسب ، سواء كان منظراً طبيعياً أو تفاحة أو انساناً ، دون أي تدخل من العقل المهذب أو الانفعال الأهوج . أسلافه التأثريون رأو العالم من خلال أحاسيسهم ، في مختلف الأضواء ومن مختلف الزوايا . رؤية « ذاتية » سطحية . استبعد « سيزان » هذا السطح الغامض المرتعش ، ونفذ من خلاله الى الحقيقة الثابتة التي لا تتغير » .

نظر كل من « جرينبرج » و « ريد » الى « الحداثة » من زاويتين مختلفتين لكنهما اتفقا في النتيجة . بدأها الأول بتفضيل خامات الرسم والتلوين ، وبدأها الثاني برسم حقيقة الأشياء بعيداً عن مظهرها الخارجي . حدد كل منهما نقطة وتاريخاً لبداية « الحداثة » ، اذا كنا حقاً نستطيع ذلك بلا هامش زمني عريض ، يختلط فيه الحديث بالقديم حتى تثبت أقدامه وترسخ قواعده .

اتفق كل منهما على أن « الأسلوب » هو مؤشر « الحداثة » . سواء كان طريقة التنفيذ كما في حالة وضع الألوان على القماش عند « مانيه » ، أو طريقة الادراك عند « سيزان » التي أوضحها بقوله عن الطبيعة انها تتألف من أشكال « المخروط والاسطوانة والمكعب » . لم

(١٣) بول كلي : رسام ملون سويسري (١٨٧٩/ ١٩٤٠) له نظريات في الفن الحديث ، وكان مدرساً في « الباوهاوس » ١٩١٩ .

(١٤) من مقال بجريدة الأهرام في ١/ ٤/ ١٩٨٥ .

(١٥) ينبغي أن يؤخذ حديث « هربرت ريد » كرأي شخصي ، حيث أن المكسيكيين الثلاثة من المع فناني العصر الحديث الذين استطاعوا أن يجمعوا بين الأصالة والمعاصرة ، كما تقرر عدة مراجع أخرى .

يعن الباحثان بالموضوعات المرسومة أو المعنى والمضمون ، حتى أن « ريد » استبعد « الحداثة » من أعمال الثلاثي المكسيكي الذائع الصيت . . والفنانين الروس على الاطلاق ، لمجرد انهم رسموا موضوعات وعناصر مقرؤة بها قدر من المحاكاة . مع أن : بابلو بيكاسو (١٨٨١/١٩٧٣) اتخذ مكانته العالمية الفريدة لأنه ابدع لوحة « جيرنيكا » ، التي أجمع النقاد والمؤرخون على أنها رائعة القرن العشرين . « لقد سببت الحرب الأهلية الأسبانية سنة ١٩٣٦ ألما عميقاً للفنان ، أسفر عن هذه الرائعة التي تضمنت أشكالاً محورة مطورة من « الأسلوب التكعيبي » . طوعها لتناسب التعبير عن الغضب وقسوة المشاعر التي اجتاحته . وهي واحدة من عدة لوحات تتسم بالصرامة والرمزية ، أبدعها أثناء الحرب وكشف فيها عن أعمق أسرار القلب الانساني . قضي عدة سنوات يحلل الأشكال ويعيد بناءها ، في بحث دائب سبق به الفلاسفة والأدباء . بدأها سنة ١٩٣٧ وعرضها في « كاريه جاليري » (بفرنسا) سنة ١٩٤٥ ، وفي صالون الخريف في نفس العام . استقرت بعد ذلك في متحف الفن الحديث بنيويورك بالولايات المتحدة »(١٦) . ثم عادت الى اسبانيا وطن الفنان ، تلبية لرغبته ، بعد رحيل الديكتاتور .

« جيرنيكا » هي التي توجت « بيكاسو » على عرش الفن الحديث في القرن العشرين . ليست « فتيات أفينيون » التي أكتشف بها « الأسلوب التكعيبي » سنة ١٩٠٧ . ليس اعادة تركيب مقعد الدراجة ومقودها على هيئة رأس ثور ذي قرنين . ليست الوجوه التي نصفها منظور من أمام والنصف الآخر منظور من الجانب . ليست المجسمات التي كونها من تجميع حديد الخردة أو التشكيلات الخزفية الجذابة والمستنسخات الفنية المثيرة .

الأسلوب وحده لا يرقى باللوحة الفنية الى مستوى رفيع الشعر والأدب والمسرح . لكن « جيرنيكا » تقف شامخة في صف الروائع الخالدة في مختلف الفنون . لأنها جمعت بين « الشكل والمضمون » . الأسلوب والموضوع . « رؤية حضارية » . « لا تعكس الشيء المرئي بل تجعله مرئياً » . تقوم بدور فعال في « الثقافة الانسانية » لأنها تتعدى حدود المكان والزمان . تنتقد العصر بأسلوب العصر .

« تطور الأسلوب » كأساس ومقياس لـ « الحداثة » ، يناهض فكرة الالتزام بالواقع وما يجري فيه من أحداث ، خشية أن يسقط الفن في مصيدة الدعاية ـ كما يعتقد « هربرت ريد » . وان كنا نرى ـ ويرى معنا الكثيرون ـ ان « الرؤية الحضارية » تشمل الشكل والمضمون معاً ، من حيث أنهما وجهان لعملة واحدة . وقصر « الحداثة » على « تطور الأسلوب » ينشط المناقشة حول قضية « الفن للفن » التي بدأت في القرن التاسع عشر ولم تنته حتى الآن . فقد روى : جان برتيليمي(١٧) عن كاتب فرنسا : جوستاف فلوبير (١٨٢١ / ١٨٨٠) أنه نعت رواية « البؤساء » ـ تحفة : فيكتور هوجو (١٨٠٢/١٨٨٥) رائد الرومانسية ـ نعتها باعوجاج الأسلوب وانحطاطه المتعمد ، وبأنها موجهة الى حشرات الكاثوليكية الاشتراكية . ثم استطرد قائلاً : ان أخلاقية الفن تنحصر في الجمال ذاته ، وليست له موضوعات جميلة وأخرى قبيحة ما دام « الأسلوب » وحده طريقة مطلقة لرؤية الأشياء (ص ٤٦٠) . يعقب المؤلف على هذه العبارات بقوله « الفن قيمة عليا والفنان يخدم المطلق الذي لا يقبل مساومة لصالح مطلق آخر . وأنت تنكر عالم الفن وحقيقة الفنان اذا فرضت عليه هدفاً آخر مهما كان رفيعاً » . الا أنه يضع النقط على الحروف في عدة صفحات تالية يوضح كيف ارتبط عمالقة الفن والأدب والشعر بموضوعات الحياة دون أن يقلل ذلك من مستواهم الفني الرفيع . « كان القرن الواقع بين عامي ١٨١٥ ، ١٩١٤ هادئاً

(١٦) Jaques Lassaigne, Picasso. France, 1955-P.XX111.

(١٧) جان برتيليمي : بحث في علم الجمال ـ ترجمة أنور عبد العزيز ـ ١٩٧٠ .

نسبياً يسمح بمداعبة آلهة الشعر والفن والعيش بالقليل وممارسة السياسة للتسلية . ثم أتت الحرب الأولى والثانية ودخلنا عهد الارهاب وتهديد المستقبل . وجاءت الحركات الاجتماعية واسعة عميقة تخلق مشكلات جديدة للانسانية . تأثر بها أكثر الفنانين هدوءاً فأعلن حياده (الفن للفن) ، لكنه اضطر دائماً لأتخاذ موقف معين وان يلقي بنفسه وسط المعركة يحتج ويتظاهر وأصبح الفن سلاحه . . وتغلبت فكرة الفن الملتزم » (ص ٤٧١) .

ضرب « برتيليمي » أمثلة بشاعر عصر النهضة « دانتي » وكيف كانت رائعة « الكوميديا الالهية » تعليماً دينيا ساميا . ولوحات الرسام « هولباين » والحفار « دورر » رددت مطالب حرب الفلاحين سنة ١٥٢٥ كما اشترك « بيكاسو » في حرب أسبانيا . ودافعت رسوم « دومييه » الكاريكاتورية في مجلة « شاريفاري » عن آراء خاصة مع احتفاظه بمستواه الفني الرفيع . وكان ايمان الرسام « كوربيه » بالثورة عظيماً ، عبر عنه في لوحات « محطمو الصخور » و « الورشة » و « جنازة أورنان » .

واذا كان « برتيليمي » يعقب على تلك الأمثلة بقوله ان « هذا التوافق بين الهدف والفن شيء نادر » (ص ٤٧٨) فذلك ـ في رأينا ـ لأن الفن نفسه نادر ، وأن اغفال الموضوع وعدم الالتزام بقضايا الحياة والاقتصار على الابتكار الشكلية والأسلوبية ومهارة الصنعة بلا هدف ، هذا الاغفال فتح الباب لغير الفنانين وتعذر التفريق بين الصادق والمدعي . أو كما يقول الناقد « فرنسوا مولينار » : اذا كان كل شخص هو بطرس ، فان بطرس لا وجود له[١٨] . أي أننا اذا اعتبرنا أي نشاط ابداعي بلا موضوع فناً ، فلا وجود للفن اذاً . و « الحداثة » من حيث هي أسلوب لا تستهدف ذاتها انما تستهدف « التعبير » عن مضمون . سواء كان ذاتياً كما لدى التأثيريين ، أو موضوعياً كما في لوحات سيزان .

هذا ما كان ينبغي أن يثير اليه كل من « جرينبرج » و « ريد » .

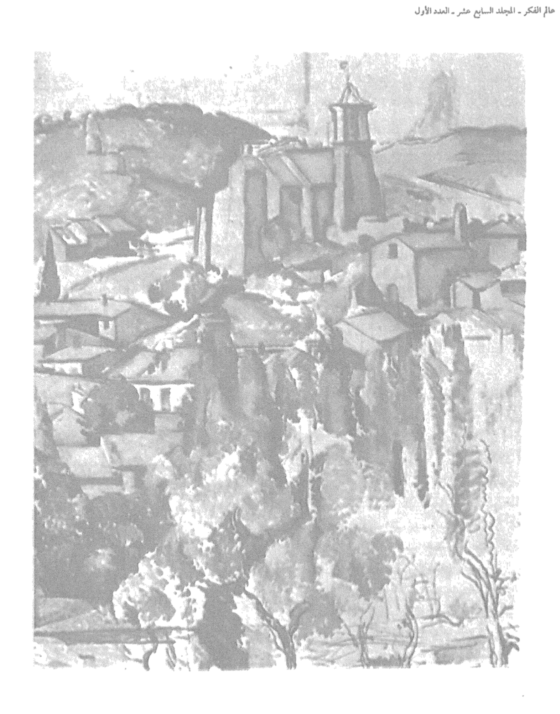
بدأت ارهاصات الحداثة وتطور الأسلوب مبكرة في القرن السادس عشر ، مع أخريات أعمال : ميكلانجلو (١٤٧٥/١٥٦٤) في تصويره « يوم القيامة » في سقف كنيسة سستين ، حيث نلاحظ البذور الأولى لحركة « الماناريزم » التي كانت الانعكاس الفني للأزمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي زلزلت أوروبا في ذلك الزمان[١٩] . فقد اتسمت « الماناريزم » بالمبالغة في الحركات والتغاضي عن دقة المنظور والاستجابة للانفعالات ومناهضة التعاليم الأكاديمية . « تخلت عن محاكاة الطبيعة ، ونادت بأن الفن لا يخلق فقط من الطبيعة بل يخلق مثلها » . فانقلبت بذلك على النزعة الطبيعية لعصر النهضة المعروفة بـ « القطعية أو الدجماطيقية الساذجة » ـ حيث كانت الطبيعة هي مصدر الشكل الفني « يصل اليه الفنان بأسلوب تركيبي يجمع فيه عناصر الجمال المبعثرة » (ص ٤٢٨) . ويبدو أن كلمات « جيوردانو برونو » كانت أول اعلان عن بدء مسيرة الحداثة حين أشار الى « أن العمل الفني يفتقر الى المنهجية والتنظيم ، وأن الشعر هو مصدر القواعد ، وهناك من القواعد بقدر ما هناك من الشعراء الحقيقيين »[٢٠] . هكذا جمع بين فكرة الالهام . . والعبقرية التي لا تخضع الا لذاتها ، وفتح الباب لما نراه من أعمال ابداعية لا علاقة لها بالأشكال الطبيعية (المحاكاة) . وربما كانت هذه الفكرة التي ظهرت أول مرة في كتاب منشور سنة ١٨٨٨ ، هي التي تبلورت في نهاية الربع الأول من هذا القرن في محاضرات الرسام السويسري « بول كلي » ـ أحد رواد الحداثة البارزين ومفلسفيها .

ألقى « بول كلي » محاضرة سنة ١٩٢٤ حلل فيها « الحداثة في الفن » . كان أستاذاً حينذاك في

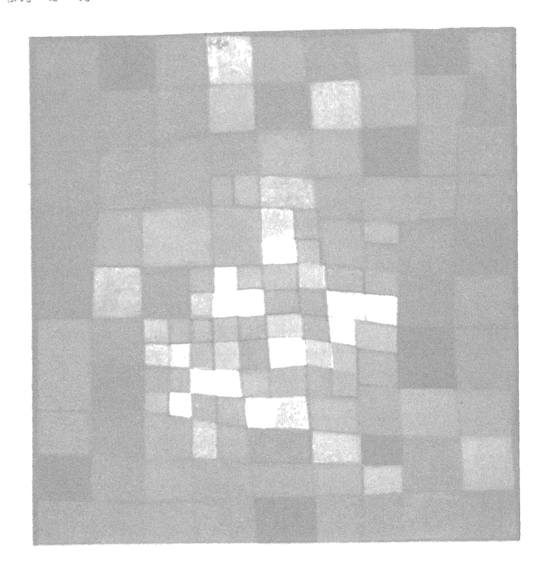
(١٨) مقال بعنوان : المشكلة الأساسية في الفنون التشكيلية ـ مجلة فنون عربية (١٩٨١ العدد ٣) ـ العراق .

(١٩) آرنولد هاوزر : الفن والمجتمع عبر التاريخ جـ ١ ـ ١٩٧٠ ـ ترجمة : فؤاد زكريا .

(٢٠) المرجع السابق .



(١) بول سيزان : منظر طبيعي - ١٨٨٥ - متحف بروكلين . . نيويورك .



(٢) بول كلي : تفتح الزهور ـ ١٩٣٤ ـ مقتنيات د. فريد ريك . . زيورخ .

« الباوهاوس » منذ « اربع سنوات فجاءت معالجته للموضوع نتيجة تأمل طويل . وتعتبر من أعمق ما كتب عن الأسس الاستطيقية (الجمالية) للفن الجديث ، تناول نفس القضية فنانون آخرون ، من بينهم « ماتيس » و « بيكاسو » و « مور » . . لكن أحداً منهم لم يبلغ هذا المنطق المحكم الواضح . إذ كان ذا عقلية ميتافيزيقية ، واسع الاطلاع في الفلسفة والعلم ، فضلاً عن خبرته القوية بالموسيقى . . بعد تخصصه كرسام ملون[٢١] .

وقبل أن نعرض أفكار « كلي » عن « الحداثة » ، نورد تعريف « هربرت ريد » لفن الرسم الملون . يقول انه « لغة » قوامها الشكل واللون يعبر بهما الفنان عن الهامات معقدة . أما « الرموز » الشكلية التي تظهر في هذا الفن فهي من املاء اللغة الكلامية التي نستخدمها للاتصال فيما بيننا ، وهي غير مناسبة لـ « لغة الشكل واللون » .

يفسر هذا التعريف « اللارمز » و « اللامحاكاة » والنزوع الى التجريد اللاشكلي الذي يصل الى حد العبث أحياناً . اختلت الموازين الأكاديمية ولم تتبلور بعد معايير الفن الحديث سوى « ما يتفق عليه جمهرة النقاد المعترف بهم » . كما يرى « ريد » أن شرح الفن يعني اطلاق أسماء على ما ليس له اسم من العمليات والأفعال المرتبطة بحركات غريزية . أما « كلي » فيقول « ان تفسير الفن نوع من التحليل الذاتي » . ويذود عن حق الفنان في خلق تنظيم خاص للحقيقة على أسس من قواعد الابداع الواضحة في النظام الطبيعي . لكن على الفنان أن يغوص الى « منابع قوة الحياة » حتى يستمد الحرية والطاقة اللازمة للخلق ، علماً بأن المجهود الفردي ليس كافياً ، وأن المجتمع هو منبع قوة الفنان .

وفي عام ١٩٢٤ ألقى محاضرة شرح فيها « العملية الابداعية » من وجهة نظر « الحداثة » . ضرب مثال الشجرة الشهير الذي يفسر الأشكال الغريبة التي تتسم بها الأعمال الفنية الحديثة . شبه الفنان بجذع الشجرة الذي لا ناقة له ولا بعير فيما يكسو أعلاها من جمال وفتنة . مجرد قناة تمر منها العصارات في طريقها الى أعلى ، مقبلة من الجذور التي تجلبها من الأعماق . لا خيار له في أن يوجد حيث هو ، ولا ارادة له فيما يؤديه من وظيفة . فهو لا يخدم ولا يتحكم .

كذلك الفنان ، يوجد في هذه الدنيا دون ارادة أو تطفل . يشق طريقه بحاسة التوجيه ويتبين ثمة نظاماً فيما يعرض من سيل الخيالات والخبرات . هذه هي الجذور التي يستقي منها عصارات فنه . تتدفق فيه حتى تبلغ عينيه فيرى الدنيا كما تبدو في لوحاته . ويبرر « بول كلي » عدم مشابهة الفن الحديث للطبيعة بقوله « ان أحداً لا يستطيع أن يطلب من تاج الشجرة أن يكون صورة طبق الأصل لجذورها » . فالعصارة حين تجري الى الخلايا المختلفة تنتج أشكالاً متنوعة . هكذا تتدفق « الخيالات والخبرات » الى الفنان وتتحول في عينيه الى ما نراه من غرائب الأشكال . يعارض « كلي » بهذا التشبيه فكرة « المحاكاة » التي نادى بها أرسطو منذ ٢٣٠٠ سنة ، وأحياها عصر النهضة منذ ٥٠٠ سنة ، وما زالت تدعو اليها بعض فصائل الفن الحديث مثل جماعة « السوبر رياليزم » . أن مفهوم الحداثة الذي بلوره « كلي » يفرق ـ شكلاً ـ بين الأساليب الحديثة والتقليدية في الفن . لكنه يفتح الباب الخلفي للمدعين ، خاصة وأنه يشير ضمنياً الى عدم دراية الجمهور الذي يظن بالفنان عدم الكفاءة أو التشويه المتعمد للأشكال الفنية ـ ثم يستطرد ـ مع أن الفنان لا حيلة له فيما تضعه فرشاته من الوان وملامس وخطوط . انه مجرد « وسيلة نقل » . . شأنه شأن جذع الشجرة .

هذه المفاهيم التي عرضها واحد من أكبر فلاسفة ورسامي الفن الحديث ، لا تلقي مزيداً من الضوء على « الشعرة » التي تفصل بين الصدق والكذب في الابداع الفني الحديث ، حتى ليسقط في الخطأ كثيرون من المعنيين بالفنون الجميلة في أوروبا وأمريكا ، حيث لا يستطيع أن يفرق بين الماس والزجاج الا النقاد الكبار ،

---

(٢١) Paul Klee; On Modern Art, 1979, London. P. 11,12,13.

أمثال « هربرت ريد » و « كينيث كلارك » . . وغيرهم من أصحاب الخبرة المتمرسة والثقافة الموسوعية .

لم يكن « بول كلي » أول من زلزل عالم الفنون الجميلة في القرن العشرين ، ووضع حجر الأساس للحداثة . هناك هامش عريض ـ كما أسلفنا ـ بين الماضي والحاضر ، تلعب فيه « المتغيرات الاجتماعية » لعبة حياة أو موت . أما أن تثبت حداثتها وجدارتها بتلبية الاحتياجات الجمالية والفكرية لانسان الثقافة الجديدة ، أو تمضي وتموت كـ « بدعة » لم يكتب لها التوفيق . ولنا في التاريخ أمثلة كثيرة من تلك « البدع » ، أقربها الـ « آرت بوفيرا » بمعنى الفن الفقير أو التافه الذي ظهر في الستينات . ومن قبله « حركة الدادا » التي ملأت الدنيا بضجيجها سنة ١٩١٦ وقلبت كيان الشعر والنحت والرسم والموسيقا وأعلنت « أن الفن قد مات » .

لكن بعض « المتغيرات الفنية » توجد لتبقى وتولد لتعيش . وقد ضرب « هربرت ريد » مثلاً بالفرنسي « بول سيزان » ، الذي لم يترك « مدرسة » كالتأثرية أو التكعيبية ، لكنه ترك الفن الحديث كله الذي نراه من حولنا اليوم . ولعله العامل المؤثر على الرسام الروسي الأصل الألماني الإقامة ، فاسيلي كاندينسكي (١٨٦٦/١٩٤٤) صاحب أول صورة تجريدية . وصاحب أول مؤلف في فلسفة ونظرية الفن الحديث بعنوان « الروحانية في الفن » ـ ١٩١١ . وكان زميل « بول كلي » في التدريس لطلبة « الباوهاوس » حتى أغلقها « هتلر » سنة ١٩٣٣ .

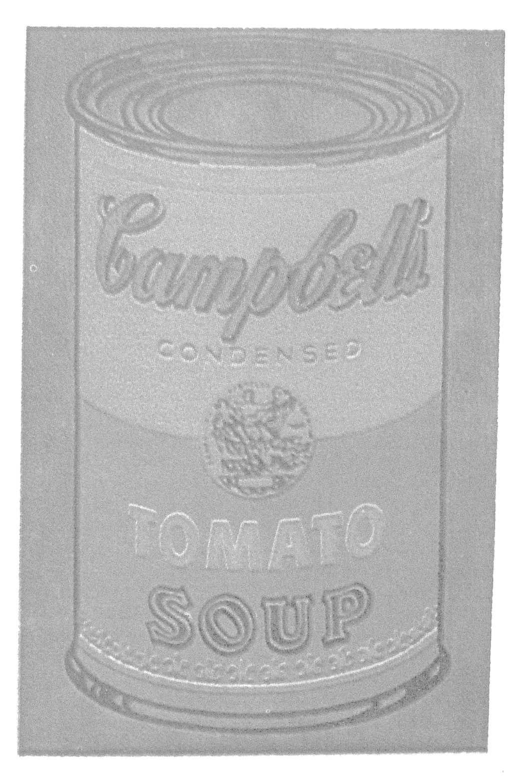
أكد « كاندينسكي » حتمية التحديث فقال « ان العمل الفني وليد عصره . فكل فترة ثقافية تسفر عن فن خاص لا يمكن تكراره . وأي جهود تبذل لاحياء مبادىء فنية قديمة ، لن تتمخض الا عن فن جهيض »[٢٢] . ثم يستطرد شارحاً ومحللاً فيقول : « لكن الفنون ـ قديمها وحديثها ـ بينها تشابه في الحقائق الأساسية . في اتجاه الجو الداخلي العام للروح والأخلاق والمثل » . « تكون الحصيلة المنطقية حينئذ إحياء أشكال خارجية كانت تعبر عن مشاعر داخلية في عصر سابق . وهذا هو سبب شعورنا بالتعاطف والقرابة الروحية نحو البدائيين » . لكنه يسارع بتوضيح نوعين من التشابه بين الفنون القديمة والحديثة . أولهما خارجي سطحي لا مستقبل له . والثاني داخلي يحمل بذور الغد . ويشير الى صعوبة احساس المتلقي بالنوع الثاني لما يتضمنه من روحانية غير مادية . ولأنه يتوقع رسوماً الطبيعة على شكل صور شخصية ـ أو مناظر طبيعية على الطريقة التأثرية ، أو مشاعر داخلية يتخذ لها الفنان رموزاً من الطبيعة . لكن حين تتضمن هذه الصور فنا حقيقياً يغذي الروح ، يشعر المتلقي بنشوة تسرى في بدنه . لأن الروح الأساسية (Stimmung) للصورة تعمق وتطهر روح المتلقى ، وتحفظها من الخشونة والجلافة . كأنها المفاتيح التي تضبط أوتار الآلة الموسيقية .

فكرة « كاندينسكي » عن حداثة أسلوب التعبير الفني ، نبعت من ثقافته العصرية . فقد نشأ في عائلة ثرية متعلمة متدينة . عشق الرسم والتلوين في سن الرابعة عشر وأتقن العزف على البيانو والتشيللو . درس القانون والسياسة والاقتصاد وأصبح محاضراً في الجامعة قبل أن يبلغ الثلاثين . وحين شاهد معرض الرسامين التأثريين في « موسكو » سنة ١٨٨٥ ، تساءل ان كان من المتيسر زيادة أهمية الرسم والتلوين على الموضوع المرسوم . من هنا تتضح الفكرة المبدئية للفن التجريدي الذي ابتكره فيما بعد . نزح في العام التالي الى ألمانيا ، حيث تعلم الرسم والتلوين وبدأ مسيرته في « تحديث »الفنون الجميلة ، واشترك مع « بول كلي » في التدريس لطلبة « الباوهاوس » حتى أغلقها « هتلر » سنة ١٩٣٣ .

حين نذكر « الحداثة »عند « فاسيلي كاندينسكي » ، لا نعني بذلك صحة نظريته التي قلبت المفاهيم الفنية في القرن العشرين ، وما زالت الحركة الثقافية تعاني منها حتى اليوم ـ خاصة في العالم الثالث ، بسبب التيسيرات

---

(٢٢) Wassily Kandinsky; concerrning the Spritual in Art- 1977-New York.



(٣) آندي وارهول : علبة حساء ـ ١٩٦٥ ـ متحف الفن الحديث . . نيويورك .
(نموذج لفن « البوب » أو « الفن الجماهيري ») .



(٤) جاذبية سرى : الزمان والمكان - مصر ١٩٧٦ - مقتنيات الفنانة .

الظاهرية على كل من أمسك فرشاة وألواناً ، وارجاع الحكم على جودة العمل الى صدق الفنان . فقد أسقط من اعتباره « محاكاة » الطبيعة ، وعاد بالأمر كله الى نداء الشعور الداخلي للفنان . وقابل بين الموسيقا ورقص البالية والرسم الملون في خضوعها جميعاً للقيم التجريدية المطلقة ، لأنها وحدها التي تتوافق مع الروح ، بلا تدخل وتشويش من الأشكال الطبيعية (المحاكاة) . وتحدث باسهاب عن « التوافق الداخلي للروح » . وأن قوام الرسم الملون هو : اللون والفورم (أي الشكل المطلق) .

استغرق كتابه « عن الروحانية في الفن » ٥٧ صفحة من القطع الصغيرة . صدر بالألمانية سنة ١٩١١ ، ثم بالانجليزية بعد ذلك بثلاث سنوات وما زال يعاد طبعه حتى الآن بكل اللغات الحية . أفرد فيه سبع صفحات لـ « النظرية » ، تعتبر من أخطر ما نشر في هذا القرن حول الفنون الجميلة . استند فيها الى منطق قوي سليم ، ساعده عليه تعليمه العالي وثقافته الواسعة وايمانه بما يكتب . واختتم فصله عن النظرية بقوله : « ان عبارة الفن فوق الطبيعة ليست اكتشافاً جديداً . فقد قالها من قبل كل من جوته وأوسكار وايلد ودولاكروا . ذلك أن المبادىء الجديدة لا تسقط من السماء ، بل هي منطقية ترتبط ضمنياً بالماضي والمستقبل . والمهم هو الموقف الحالي للمبدأ . فاذا استطاع الفنان أن يضبط أوتار روحه على هذه النغمة يصدح الصوت تلقائياً في عمله وينبغي أن تتقدم الحرية على هدى الاحتياج الداخلي . وفي الوقت الراهن قد يقف في طريقها الشكل الخارجي (المحاكاة) ، لكن بمجرد التخلص من هذه العقبة سيبزغ هدف بناء التكوين . أسفر البحث عن شكل بنائي عند التكعيبية التي أقحمت الشكل الطبيعي (المحاكاة) على البناء الهندسي - وهي عملية عطلت التجريد بتدخل الواقع . . وأفسدت الواقع بالتجريد » . ثم يلخص « كاندينسكي » نظريته في سطور أخيرة تشير الى أن توافق الفن الجديد يتطلب بناء أشد صلابة . أقل استجابة للعين (محاكاة) وأكثر استجابة للروح (تجريد) . ويقول ان هذا « البناء الخفي » قد يتبدى بمحض الصدفة السعيدة في اختيار الفورمات (الأشكال التجريدية) التي يضعها الفنان على القماش .

●●●

منذ مليوني عام . . كشط الانسان البدائي الزيادات من فروع الشجر وقطع الزلط ، ليستخدمها كسلاح يضرب به الأعداء ويصطاد الفرائس ، فاكتشف العلاقة بين « الشكل والوظيفة » . لكن هؤلاء الأجداد البعيدين لم يتركوا آثاراً فنية قبل ثلاثين أو أربعين ألف سنة . وحتى هذه الآثار التي عثرنا عليها في كهوف « لاسكو » بفرنسا و « التاميرا » بأسبانيا ، وظيفية بدورها ، لأنها كانت شعائرية طقوسية وسحرية[٢٣] .

من هنا بدأت علاقة الانسان بالفن التطبيقي لتيسير سبل الحياة المادية ، وبالفن الجميل للسمو بالحياة الروحية والنفسية ، اذ يرى « كولنجوود » أن الصفة السحرية لصيقة بالعمل الفني الأصيل[٢٤] . الا أن هناك نظرة ثالثة بعيدة عن النفع المادي والهدف السحري ، هي « الادراك الاستطيقي » للموضوعات - أي التأمل لمجرد التمتع[٢٥] . ومصطلح « استطيقا » يعني « انسجام » - كما فسره : جيروم ستولنتز (ص ٣٨) . يؤكد هذا التفسير اهتمام « فاسيلي كاندينسكي » بالتوافق والانسجام الروحي وربطه بالابداع الفني . ويقول عالم النفس « كيت » ، أن التذوق وعي . . وتنبه . . وحيوية . كما أنه متعة وتدريب على التخيل والابتكار ، وتنظيم لجهازنا العصبي والعاطفي والانفعالي ، واذكاء للروح الخلاقة

(٢٣) Andreas Lommel : Prehistoric and Primitive Man, 1968, London.

(٢٤) روبين جورج كولنجوود : مبادىء الفن - ترجمة : أحمد حمدي محمود - ١٩٦٦ - ص ٧٥

(٢٥) جيروم ستولنتز . الناقد الفني - ترجمة : فؤاد زكريا - ١٩٨١ .

لدينا ، واعلاء لانسانيتنا . لأن الانسانية ليست مجرد السير على قدمين والنظر بعينين أماميتين . فقد مضت عصور لم يفرق فيها الانسان بينه وبين الحيوان . بل كان يظن أن بعض الحيوان أفضل منه درجة . لكنه أحس بانسانيته وبدأ مسيرة الحضارة منذ وقف في صحرائه وهتف : كم هي جميلة تلك الصحراء . فالادراك الاستطيقي (بمعنى الرؤية والادراك الفني) ، لا تقتصر على الأعمال الفنية وحدها بل تنسحب على الطبيعة أيضاً . فالشجرة الملتوية والأمواج المتلاطمة فيها طرافة ودرامية . ولا يوجد بين الكائنات ما يمتلك القدرة على الادراك الاستطيقي سوى الانسان . ولو أن التجارب التي أجريت على أنواع راقية من القردة ، أثبتت توفر نوع من التذوق الفني لديها . واذا سايرنا اتجاهات القائلين بأن الحداثة تطور في الأسلوب الفني ، فهي اذن تتعلق بازدياد ابتعاد الفنان عن التعبير المادي مستهدفاً الانسجام الروحي - أي اتفاق التعبير مع احتياجات الفنان الداخلية (كاندينسكي) . لكنه يتحول الى عزلة لا أخلاقية اذا أهمل الاحتياجات الروحية والفكرية للمجتمع (جرينبرج) ، وأصبح غير خاضع لقياس أحد الا نفسه . ويحق للمجتمع أن يبادله اهمالاً باهمال . الا أن بعض الحركات الفنية تبنت تلك الأفكار الفردية المتطرفة ، ولاقت استجابة واسعة في ظروف عالمية مهيأة للتمرد . فحين عجزت « الرؤية والادراك الفني » عن تزويد البشر بالقيم الأخلاقية التي تكبح جماح سفك الدماء في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤/١٩١٨) ، انتفض جماعة من الشباب المفكر وثار على كل أساليب « الادراك الاستطيقي المستحدث » ، التي وضعتها طليعة الفنانين في فجر القرن - بما فيهم « سيزان » و « بيكاسو وبراك » و « بوتشيوني » و « كاندينسكي » . ثاروا على « المسلمات » السابقة التي تقولب التفكير وتحرمه من ايجاد علاقات جديدة .

لعل من المناسب الاشارة الى آراء عالم النفس « آريتي سيلفانو » في تحليله للعملية الابداعية وكيف يتم طرح الأفكار والصور الجديدة[٢٦] . يقول « ان الابداع ثمرة توافق أو تآلف بين مستويين من التفكير الانساني : الأول مستوى بدائي أدواته التمثيلات التي تسبق مرحلة التفكير باللغة . رموز أولية مبهمة لصور وخبرات معرفية وجدانية معقدة . ولا يتسق هذا المستوى الفكري مع المنطق العام ، لأنه ذاتي بلا رموز تواصلية . توجد بشكل طبيعي لدى الأطفال والانسان الأول وبعض الحالات النفسية . أما الثاني فمستوى راشد أدواته الرموز اللفظية والرياضية والموسيقية . . الخ . وهي مفاهيم تكفي التواصل . والتفكير هنا موضوعي يستند الى علاقات منطقية ورموز مشتركة » . ويتابع « سيلفانو » نظريته قائلاً إن الابداع هو توافق هذين المستويين في التفكير . الأول يعتمد على الحدس والخبرة المعرفية الوجدانية المركبة . والثاني يصوغ هذه الرؤية في لغة تواصلية ومنطق مشترك . ويسفر هذا التوافق أو « الولاف » عن شيء ثالث مختلف عن كل منها هو : نسق جديد أو علاقات حديثة . وتتحدد قيمة هذا « النسق » بقدر ما يثري ويوسع نطاق المنطق الانساني الواعي . أي بقدر ما يضيفه الى هذا المنطق من « معقوليات » جديدة قابلة للوعي والفهم . فالعملية الابداعية هي : اعادة ترتيب المعطيات اللامحدودة للخبرة الانسانية عن طريق « رؤية ذاتية » تصل في نتائجها الى « حقائق موضوعية » .

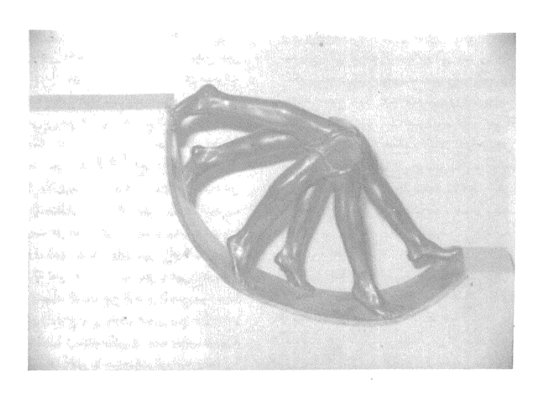
هكذا تتم عملية « الحداثة » على هيئة استجابة للمعطيات الجديدة كلما تغيرت الظروف الاجتماعية .

❂❂❂

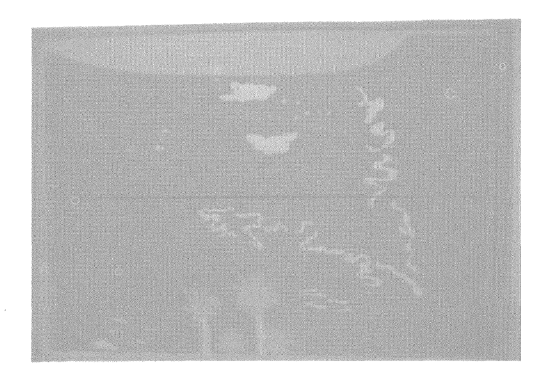
أما الشباب المفكر الذي أشعل أول ثورة من أجل « الحداثة » في القرن العشرين فهم قادة « حركة الدادا » ، التي هبت كالعاصفة ما بين عامي ١٩١٦ و ١٩٢٣ لتؤجج الروح الخلاقة وتطرح العديد من

---

(٢٦) مجلة الانسان والتطور : العدد ١٥ - مقال الابداع الفني أو العلمي بقلم : مجدي عرفة - ١٩٨٣ .



(١) جورج فسترهيد : تمثال برونز ارتفاع ٦٠سم ـ من معرض طليعة فناني المانيا الغربية في القاهرة ـ ١٩٨٤ ـ تعبير عن ايقاع العصر والتقدم السريع .



(٢) الرسم الحديث في العراق - ١٩٨٤ .
(من بينالي القاهرة الأول للفنون العربية) .

الأشكال الفنية الجديدة . بدأت في مدينة زيورخ بسويسرا في منتصف فبراير ، وما لبثت أن تردد صداها في نيويورك . . برلين . . برشلونه . . هانوفر . . باريس . . روما . . كولونيا . . بودابست . . طوكيو . كل الفنانين الشبان في تلك البلدان ، عقدوا العزم على وضع بداية جديدة لـ « الفن » . ومن المدهش أن تلك الحركة تحتفظ بحيويتها حتى يومنا هذا ، وما زالت تتوالد وتنمو وتتفرع ويتسع تأثيرها ويزداد إشعاعها . كل ما نراه من غرائب الأساليب الفنية يمكن ارجاعه الى « حركة الدادا » ، التي جمعت بين « الفن واللافن » و « الجمال والقبح » و « القيم الأخلاقية واللاأخلاقية » . لم تكن « حركة » بالمعنى التقليدي ، بل إعصاراً اجتاح دنيا الفنون كما اجتاحت الحرب دنيا الأمم[٢٧] . لكنها تركت خلفها يوماً جديداً ، تحطمت فيه القيود وانطلقت الطاقات المخزونة كأنها عفريت خرج من القمقم . انزاح الغطاء عن أشكال مبتكرة وأنواع من الخامات غير التقليدية .

« حركة الدادا » ليست لها شخصية موحدة محددة المعالم . لكنها مع ذلك ذات شكل أخلاقي مبادر وخلاق ، أسفر عن أساليب تعبيرية غير متوقعة ، اختلفت باختلاف البلدان والشعوب . ايجابية تارة وسلبية أخرى . فنية حيناً وضد الفن أحياناً . أخلاقية للغاية أو لا أخلاقية بالمرة . حتى كلمة « دادا » التي اطلقوها على حركتهم اختاروها خبط عشواء من القاموس . لم يقلقهم أن يكون معناها « الحصان الخشبي الهزاز » أو « مربية الأطفال » . وأطلقوا على مقرهم اسم « كباريه فولتير » سخرية واستهزاء بالأفكار والقيم التقليدية . وسرعان مااستقطبوا الموسيقيين والرسامين والنحاتين ، فضم معرضهم الأول أعمال كل من بيكاسو وكاندينسكي وبول كلي وماكس ارنست وهانز آرب ، وجميعهم أصبحوا من قادة « الحداثة » فيما بعد . فـ « ارنست » هو طليعة السيرياليين الذين صوروا الأحلام والكوابيس ولهم آراء ونظريات . وأما « آرب » فهو الذي اكتشف « التكوين العفوي » للصور حين رسم لوحة لم تعجبه فمزقها وألقاها . ثم رأى في تركيبها العشوائي وهي ممزقة على الأرض جمالاً جديداً ، فرفعها بعناية ولصق أجزاءها كما هي ، فصارت مثلاً يحتذى لأسلوب مبتكر لدى بعض الفنانين تحت اسم « كولاج » .

أهملت « الدادا » أي اعبارات أخلاقية أو اجتماعية أو تجارية ، وشجعهم النقّاد فانطلقوا يدمرون كل المبادىء الفنية السابقة « حتى أن أحدهم اشترى « مبولة » من محل الأدوات الصحية وقع باسمه عليها وعرضها على أنها تمثال أطلق عليه اسم « النافورة » . وكان شعراؤهم يجلسون الى ورقة يكتبون عليها كلمات عفوية على التتابع ، تحت اسم « الشعر الأوتوماتيكي » . ونذر « مارسيل دي شامب » ـ وهو من أبرز فلاسفتهم ـ نفسه لنسف ما يسمى « الاستطيقا »أو « علم الجمال » .

أسهبنا بعض الشيء في عرضنا لحركة « الدادا » لكننا لم نوفها حقها . لأنها أخطر الأحداث الفنية في العصر الحديث . ما زالت فعالة حتى اليوم خاصة بين فناني العالم الثالث . كما أنها الجذور التي انبثقت منها عدة أساليب وخامات فنية ، بالاضافة الى الكثير من « المدارس » مع أنها كانت ثورة من أجل الثورة وهدماً من أجل الهدم . أعلنت سقوط جميع القيم الفنية السابقة ولم تستبدل بها قيماً جديدة ، مكتفية بالحرية الفوضوية والعشوائية المؤسسة على اللاوعي . الا أن وجه « الحداثة » يكمن في اتخاذها الخطوة الأولى وهي هدم القديم ، ثم تولي بعض فرسانها تشكيل اتجاهات جديدة بديلة كـ « السيريالية » و « الكولاج » . فضلاً عن استلهامها المستمر في اتجاهات مثل « البوب آرت » و « الفن الحركي » و « فن تجميع الأشياء الجاهزة » ، ثم احياءها برمتها في ثوب جديد فيما يسمى الـ « آرت بوفيرا » أو « الفن الفقير » بأقسامه العديدة . ذلك النشاط الابداعي الذي ظهر في الستينيات وسنعرض ـ

(٢٧) Dada, 1916-1966, Documents of the Dada International Govement.

بعد قليل . الا أن « الدادا » كانت حركة عالمية منذ البداية ، تسعى الى « الحداثة » دون أن تطرح بدائل للأساليب الفنية القائمة حينذاك . نشر أحد قادتها ملخصاً لأهدافها سنة ١٩٢٠ جاء فيه : « لا ينبغي للفن أن يكون واقعياً أو مثالياً ، ولكن يتحتم أن يكون صادقاً . بمعنى أن أي محاكاة للطبيعة ـ مهما كانت خفية ـ محض افتراء . هكذا تكون « الدادا » دافعاً جديداً للحقيقة . محصلة القوى لجميع الطاقات المجردة ، ونبع دائم للحركة الفنية العالمية »[٢٨] . والواقع أن مؤسسي « الدادا » الذين التقوا في « كباريه فولتير » لم يتبينوا أهدافهم . مجرد أفكار بسيطة عن « الحداثة » تجمعت في رؤسهم ، هي التي أطلقوا عليها اسم « دادا » .

أهم معالم « الحداثة » في القرن العشرين هي طبيعة العلاقة بين الفنان والواقع المرئي . تغير الموقف على يد « بول سيزان » من السلبية والدهشة والاعجاب بمظاهر الحياة ، الى « موقف جدلي » يتعامل مع البيئة مؤكداً ذات الفنان ومتخللاً الصور وحياة الانسان . عبر الرسام الفرنسي : هنري ماتيس (١٨٦٩ـ١٩٥٤) عن هذه النظرة بقوله : « ان التعبير ليس في الحركات العنيفة أو فيما يضيء الوجه المرسوم من عواطف ، لكنه في التنظيم العام للوحة من حيث وضع الأشخاص والفراغات المحيطة بهم . فكل عنصر له دوره في التعبير» . هكذا لم يعد فن الرسم الملون عملية ميكانيكية (يعكس مظهر المرئيات) ، بل يعكس « حالة » الانسان في ظروف معينة ويرتبط بتاريخ الفنان . أصبحت « حرية التعبير عن الموضوع» هي الهدف العام للفن في هذا القرن[٢٩] . لكن ينبغي أن نتحفظ بعد هذه العبارة ونشير الى أنها لا تلغي « الموضوع » ولا تعني العبثية الفردية . فهناك « ضوابط » أكدها فيلسوف التجريدية : بول كلي ، فيما ألمحنا اليه من تشبيهه الفنان بجذع الشجرة ، ومقابلة الابداع بتاجها بما يحويه من فروع وأوراق وأزهار وثمار ، وارتباط هذا التاج بالجذور العميقة ـ أي الواقع وخبرات الفنان ـ بالرغم من أنه لا يشبه الجذور من حيث الشكل الظاهري . «فليس هناك من يستطيع أن يفصل نفسه عن واقعه وبلده ومجتمعه بما فيه من شكوك وقلق »[٣٠] . لكن الوجه العام للحداثة في الفنون الجميلة يتضمن إقبالها على « مدركات العصر الحديث » عن الفضاء والمادة والطاقة . . أسوة بالفنون الأخرى من أدب وشعر وموسيقا . فقد طرأت أبعاد جديدة للعقل والاحساس وتغيرت المعايير . أن لوحة « جيرنيكا » لبيكاسو ـ بثورتها وقوتها المأساوية ـ أنهت أي مناقشة حول امكان التحدث بلغة الرسم التقليدية . انها معلم على طريق الفن ونقطة اللاعودة الى الأساليب الكلاسيكية . آية حداثتها توافقها مع المدركات العصرية أيديولوجيا وأسلوبياً ، أما ابداع « الدادا » فكان ثورة حرة لا منطقية واحتجاجاً على العقل المفكر والقيم التي تسببت في اشعال الحرب العالمية الأولى . كانت حركة سياسية في المقام الأول . آمنت بقوانين الصدفة وتركتها تعيد الخلق التلقائي من أجل تحرير الفن . ظهرت قبلها اتجاهات تحاول التوافق مع الثقافة الحديثة مثل « الوحشية » التي كانت مجرد تمرد وليست مدرسة . والتكعيبية والمستقبلية والتعبيرية والتشكيلية الجديدة والتجريدية والبنائية . . ثم « الدادا » فالسيريالية . كل الأساليب التي جاءت بعد ذلك كانت استطراداً وتتابع رؤية . كان الفن ينتقل من مرحلة استكشاف الاحساس الى مرحلة استكشاف الوعي . فبعد أن كانت مهمة الفنان هي استكشاف الاحساس كما هو الحال مع « التأثيريين » ، أصبح يستكشف الوعي الانساني ويسهم في تشكيل العالم وقال « بيكاسو » كلمته الشهيرة : الفن سلاح .

. . فتح « سيزان » الباب وكان البدائي في طريق

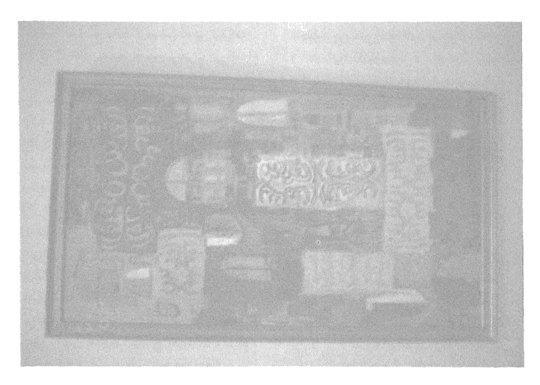
(٢٨) Herbert Read : Concise History of Modern Painting, P. 117.

(٢٩) H. Read : Contemporary Art. Skira, 1964.

(٣٠) المرجع السابق .



(٣) الرسم الحديث في الأردن - ١٩٨٤ .
(من بينالي القاهرة الأول للفنون العربية) .



(٤) الرسم الحديث في الكويت - ١٩٨٤ .
(من بينالي القاهرة الأول للفنون العربية) .

الحداثة ـ كما قال في احدى رسائله . أسقط « المحاكاة » التقريرية و أفسح مكان الاحساس للوعي والواقعية . وارتفعت التكعيبية بهذا المفهوم « فعبرت عن الفراغ والزمن وأدخلت على الفن الجميل مدرك » البعد الرابع « المنسجم مع العصر والثقافة الحديثة . وبدأ مشوار الاهتمام بـ « الشكل والأسلوب واهمال الشيء المرئي المدرك بالحواس » . وأدى اختفاء الشيء (object) من اللوحة المرسومة الى اختفاء الموضوع (subject) ساحباً معه المضمون الاجتماعي والمعنى والمغزى[٣١] . لقد فقد الفنان الثقة بالمظهر الخارجي للمرئيات ، وانفتح الستار عن « كاندينسكي » الذي خلع جذوره من الطبيعة بدعوى مناهضتها للقيم الروحية . أما « كلي » فاتسمت لوحاته بحركة إنفعالية وعلاقات سيكولوجية ، أسفرت عن عناصر (motifs) دقيقة رومانسية ، تتوافق مع قوله بأن العمل الفني هو نقل بعض الصور المختزنة . وأصبح مفهوماً أن « الواقع » موجود داخل الانسان وليس خارجة . وقال : بيت موندريان (١٨٧٢-١٩٤٤) الذي وصل بالتجريد الى منتهاه : « ان الفن ينتج من احساسنا بأننا أحياء » .

●●●

في ابريل سنة ١٩١٩ ، انبثقت في مدينة صغيرة أسمها « فيمار » في ألمانيا ، مؤسسة كتب لها أن تضع بصمة « الحداثة » على القرن العشرين . على العمارة وكل ما يتصل بالتصميم من فنون تطبيقية وصناعية ، كالأثاث وأدوات الاستخدام اليومي من أكواب وملاعق ووحدات إضاءة واعلانات وديكورات . . الخ ، بهدف تحقيق « الجمال والفائدة » على أعلى المستويات في تلك الميادين . استطراداً للفكرة القديمة التي اكتشفها الانسان من ملايين السنين . فكرة انسجام « الشكل » مع « الوظيفة » . ثم عملت تلك المؤسسة على عدم حرمان « السلع » النفعية من لمسة الجمال المطلق الكامن في الفنون الجميلة من لوحات وتماثيل ، بهدف سدّ احتياجات انسان القرن العشرين السكولوجية والفسيولوجية ، التي اختلفت عن نظيرتها في القرن السابق .

. . انها « الباوهاوس » ـ أي مدرسة العمارة والتصميم الفني . أقامها المهندس الشاب : فالترجروبيوس (المولود ١٨٨٣) . قامها بعد الحرب والدمار بعام واحد لتغرس بذور الأمل والتفاؤل و « المثل العليا الحديثة » . استدعى للتدريس فيها نخبة من طليعة الفنانين آنذاك ، بينهم « كاندينسكي » و « كلي » اللذين أشرنا الى دورهما في حركة « الدادا » الثورية ، بالرغم من أنهما رسامين ، بينما « الباوهاوس » مؤسسة للعمارة والتصميم الصناعي والأدوات النفعية . ذلك لأن الهدف كان « تدريب جيل من المعماريين والمصممين ، المتفهمين لمطالب العصر يلبون احتياجاته المادية . . والروحية أيضاً ، معتمدين على معطياته التكنيكية والعلمية والثقافية والاستطيقية . يرمون الى « تحديث » العمارة والسلع الصناعية وما يتعلق بالفنون التطبيقية . تقول « جيليان نايلور » في كتابها عن « الباوهاوس » : انها معلم في تاريخ جهود الانسان مع بيئته الجديدة التي صنعها بيديه[٣١] . وأوضح « جروبيوس » في حفل الافتتاح دور « الباوهاوس » وأبعاد عملية « التحديث » بقوله : « لا يمكن أن ينتشر وينمو مضمون الثقافة أسرع من المجتمع الذي يسعى الى خدمته » . أي ينبغي لـ « الحداثة » أن تلبي احتياجات حقيقية للناس وتحل مشاكلهم المادية والروحية بالامكانات المتاحة في الواقع الراهن . فعمل بذلك على « خلق أشكال نموذجية » تحقق هذه الأهداف وانتقل بالحياة من ثقافة القرن التاسع عشر الى ثقافة القرن العشرين ـ وهذا بالضبط هو مفهوم الحداثة : الانتقال بأسلوب الحياة من عصر سابق الى عصر لاحق . وحين استعان برسامين طليعيين أمثال « كاندينسكي » و « كلي » و « موهولي ناجي » (١٨٩٥/١٩٤٦) استهدف استنفار « العملية الابداعية » . فكانت مهمتهم : تشكيل ما يتعلق

---

(٣١) Gillian Naylor : Bauhaus, 1969-London.

بـالفـورم واللون والفـراغ في أعمـال « البـاوهـاوس » فاتسمت تلك الأعمال بـ « الحداثة » ـ بمعنى منـاسبتها للاحتياجات الاجتماعية : الفكرية والمادية والروحية ، التي أشرنا اليها عند « كليمنت جـرينبرج » في مـطلع حديثنا .

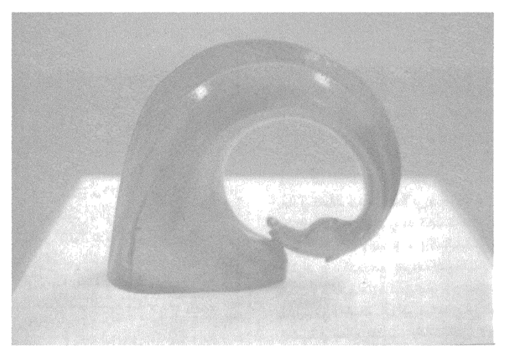
وربما كانت المنـاسبة مـواتية لتـوضح أن اللوحـات التجريدية والتماثيل التي تغمر المعـارض ، لا تدخـل نـطاق الفنـون الجميلة المنزهـة عن الغـرض المـادي النفعي ، لأنها تعتبر تصميمات مبدئية للتنفيذ في أعمال الديكور وطباعة المنسوجات وفنون الاعلان . . الخ . ولعلنا نلمس صدق هذا المنحى اذا تأملنا كلمات حفل افتتاح « الباوهاوس » التي تقول : دعونا نخلق طـائفة من الحرفيين ، دون تفرقة طبقية تقيم حاجزاً متغطرساً بينهم وبين الفنانين دعونا نضم العمارة والنحت والرسم الملون في وحدة واحدة ، قد تسمق في يوم ما بين أيدي مليـون عامـل نحو السـماء ، كأنها رمـز بللوري لعهد جديد .

ربطت « الباوهاوس » بإحكام بين الفن والتكنولوجيا واستحدثت طرقاً لأضفاء مسحة انسانيـة على الانتـاج الصناعي . وأكدت على لسان « موهولي ناجي » : أن الهـدف هو الانسـان وليس السلعة . هـذا هو مكمن « الحداثة » فيها وهديتهـا للقرن العشـرين في كل من « العمارة » و « التصميم » ، اللذين حولتهما الى فنون اجتماعية . وبينـما كان « فـالترجـروبيوس » وصحبـه يؤدون رسـالتهم في ألمـانيـا ، كـان الـروسي : لازار ليسيتـزكي (١٨٩٠-١٩٤١) ، يقـوم بنفس العمـل ويحقق نفس المبادىء في الاتحاد السوفييتي . بدأ في مدينة « فايتبسك » ثم في « مـوسكو » العـاصمة . وارسلتـه بلاده سنة ١٩٢١ للاتصال بالفنانين الألمان . أما أمريكا فقد وصلتها الـرسالـة سنة ١٩٣٨ ، حـين نزح اليهـا « موهولي ـ ناجي » ليؤسس « الباوهاوس الجديدة » في مدينة « شيكاغو » ويديرها[٣٢] ، قبل أن يلحق به لفيف من القادة والحواريـين الألمان من بينهم « جـروبيوس » نفسه ، بعد أن اشتدت مطاردة النـازي لهم . من ثم انتشرت رسالة « الباوهاوس » في انحاء العـالم لتصبح ركناً ركيناً من ثقافة القرن العشرين .

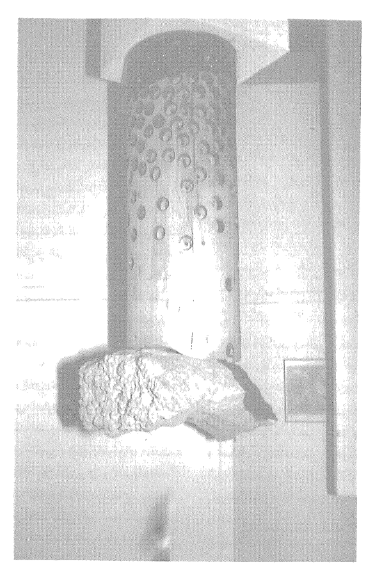
●●●

« الحداثة » ليست صفة دائمة للشيء . فـالحديث اليوم . . قديم غداً . وليس كل « جديد » في الفن يعني « الحداثة » . لأنه لا يلبي بالضرورة احتياجاً فكرياً أو روحياً أو مادياً . كما أنها ليست مفاضلة بين مدرسة فنية وأخرى ، كأن نقـول : التجريـدية حـديثة والـواقعية قديمة ، ما دمنا نستهدف الانسان وليس السلعـة ـ كما جاء في كلمات « موهولي ـ ناجي » . فالهدف دائماً هو الارتقاء الثقافي الى مستوى مدركـات العصر . هكـذا ينبغي لـ « الحداثة » أن تبتكر من الأساليب ، ما يساعد الانسان على التكيف مع الظروف المستحدثة . هكـذا كـانت « التكعيبة » و « المستقبليـة » و « التجريـديـة » ضروب من « الحداثة ـ كما أشرنا ـ اتفقت مع المدركات العلميـة في مـطلع القـرن . وكـانت تلبي الاحتيـاج الفكري والوجداني للانسان ، حين تغير تذوقه للحياة وادراكه لها .

نفس الشيء حـدث حـين صعـد أول انسـان الى القمر . فقد قال أحد الفنانين المعاصرين « أننا نرسم الوجه الآخر للقمر » . أي يرسمون أشيـاء يدركـونها بالفكر والخيال وليس بالحواس الخمس المعتادة . وربما قصدت المؤرخة « دور آشتون » نفس الفكرة في كتابها : « الفن الأمـريكي منـذ ١٩٤٥ » ، حـين قـالت « إن السمـات الأساسيـة للعصر الحـديث هي الاحسـاس بسرعة الزمن ، والتغيرات المفـاجئة المتـلاحقة نتيجـة استخدام التكنولوجيا المتقدمة . تغيرات لا تقتصر على الحياة اليومية العملية للناس في جميع أنحاء العالم ، بل تتعداها الى النظم السياسية التي تتأثر بصناعـة أسلحة مدمرة ذات مظهر بريء للغاية . . كشرائط الكاسيت وما حدث في ايران » . ثم تشير الكاتبة الأمريكية الى الجوانب التي استحدثها الفن لمواجهة تلك الظواهر التي طرأت على الثقافة الانسانية ، فتستطرد : « لقد ثار الفن



(٥) النحت الحديث في البحرين - ١٩٨٤ .
(من بينالي القاهرة الأول للفنون العربية) .



(٦) النحت الحديث في فرنسا ـ ١٩٨٥ .
(من بينالي الاسكندرية لدول البحر الأبيض المتوسط) .

على هذا الاحساس المقلق بسرعة الزمن ، بأن عاوده الحنين القوي للزمن الماضي ، ذلك الزمن الذي كانت خطاه تقارب نبض الانسان »[٣٢] وربما تفسر هذه الكلمات ظهور نزعة « السوبر رياليزم » في الولايات المتحدة . تلك المدرسة التي أسفرت عن لوحات وتماثيل ملونة أكثر واقعية من الواقع ، وتستند في نفس الوقت الى فلسفة وفكر حديث . ولقد وضع « ادوارد لوسي ـ سميث » أول كتاب عن هذا الأسلوب الذي ظهر في السبعينيات ، أشار فيه الى « افتقاره الواضح لكل المقومات والخبرات التي علمنا الفن الحديث أن نكن لها تقديراً عالياً . الا أنه يصبح منطقياً اذا تأملناه على هامش عريض ، يتضمن الصور والتماثيل قبل ١٩٠٠ . لكن نظراً لتعقد قضية « الحداثة » ، قد يكون من الافضل أن نقارنه بالسلف المباشر في الفن الامريكي » . ويستطرد الكاتب : « هذا السلف الذي ظهر في مطلع الستينيات وأواسطها هو الـ « بوب ـ آرت » . كان محاولة نصف جادة ونصف ساخرة لخلق فن رفيع ، مستخلص من القيم والمواقف وخصائص الثقافة الجماهيرية في المجتمع الاستهلاكي »[٣٣] . ومن الجدير بالتنويه أن الـ « بوب ـ آرت » الذي أشار اليه الكاتب كان رداً على الاسفاف التجريدي العبثي الذي أصاب الحركة الفنية في الستينيات ، بعد شيوع أسلوب : جاكسون بولوك (١٩١٢/١٩٥٦) المسمى « الفن الحركي » . كان يلقي بلوحاته العملاقة على الأرض ويدور حولها راقصاً يسكب الألوان كيفما اتفق من الأواني والأقماع . يصعد على السلم المزدوج أحياناً ليلقي بألوانه من أعلى . ثار « البوب ـ آرت » على هذه الأساليب الذاتية البحتة وهبط بالفن من البرج العاجي الى الجماهير . وكلمة « بوب » اختصار كلمتي Popular culture الانجليزية ، بمعنى « الثقافة الشعبية أو الجماهيرية » أو « ثقافة رجل الشارع » . وقد اقتبس فنانو هذه المدرسة عناصرهم المرسومة ، من اعلانات الطريق والمعلبات ومختلف السلع الاستهلاكية وفترينات المحلات التجارية . . الخ .

موطن « الحداثة » هنا يرجع الى توافقه مع ذيوع الأفكار الديمقراطية وازدياد الاهتمام بالشعوب . ويعتبر « السوبر رياليزم » استطراداً وتطويراً وارتقاءً بذلك الأسلوب . انتشر بين الجماهير الأمكريكية لأنه التقط الصفات المميزة لبيئتها المصطنعة . رسموا اعلانات النيون والسيارات المهجورة والواجهات وما الى ذلك من العناصر المألوفة ، مع ادخال صور الأشخاص على كثير من تكويناتهم . أعربوا في ابداعهم عن فقدان الثقة بـ « الفردية » وتجنبوا « التعبير الذاتي » ، وحاولوا رسم لوحات ذات تعبير محايد ، وعلى درجة عالية من المهارة والتقنية تفوق الفوتوغرافيا في أمانتها ودقتها . واتجهوا بمضامينهم الى نقد الحياة الأمريكية من خلال الصورة والتمثال ، عن طريق التقاط زوايا وموضوعات تنم عن وجهة نظرهم الفلسفية .

الا أن « الأسلوب الفني » قد يتسم بالـ « حداثة » في مجتمع معين ، ويكون هو نفسه مجرد « بدعة » بلا جدوى في مجتمع آخر تختلف الثقافة بما تتضمنه من عادات وتقاليد ومعتقدات ولغة وتراث . لأن هذه الأبعاد تفرض ضوابط ومعايير لما يتطلبه المجتمع من « حداثة » ، تساعد على نموه وتطوره حتى يتكيف مع البيئة الحضارية الجديدة . لذلك يرتبط الابداع الفني بالتراث المحلي والا أصبح عقيماً . فما جدوى أن ينشغل واحد من قبائل « الايبو » أو « اليوروبا » في أواسط غرب أفريقيا بالبحوث الرياضية البحتة ، بينما لا يأمن قومه على أنفسهم من الضواري والأفاعي والحشرات ، فضلاً عن افتقارهم الى لغة مكتوبة ؟ يقول « ريجنالد فولدي » : توجد على أرضنا مجتمعات في مستوى العصر الاسفيني ، تعيش تكنولوجيا زراعة العصر الحجري ، بينما مجتمعات أخرى تستخدم الحاسبات الالكترونية

(٣٢) Dore Ashton : American Art Since 1045-1982-New York.

(٣٣) Edwrard Lucie-Smith : Super Realism, 1979-New York.

لهبوط سفن الفضاء على الاجرام السماوية . الأمر الذي يخلق تناقضاً فكرياً يزداد سرعة ومأساوية .

من هنا نرى أن ما يعتبر « حداثة » في فنون مجتمع صناعي متقدم ، لا يعتبر كذلك في فنون المجتمعات النامية نظراً لاختلاف نوعية الثقافة . وما نراه من نزعة بعض فناني العالم الثالث الى تقاليد فنون الغرب بدعوى الحداثة ، قد يلعب دوراً عكسياً لأنه لا يلبي الاحتياجات المحلية الوجدانية والفكرية ، بل يشيع « الاكتئاب الاجتماعي » الذي تحدث عنه « ريجنالد ج . فولدي » .

ولعل كلمات الفنان المجري الأصل الفرنسي الاقامة : فيكتور فازاريلي (المولود ١٩٠٨) توضح المفهوم العملي لـ « الحداثة » . استعرض الحاجة الى تحديد مفاهيم للفن والفنان ووضع مجموعة جديدة من القيم . ثم شرح العلاقة العضوية بين العلم والفن و « أن المخترعين والكيميائيين وخبراء التكنولوجيا . . والمصانع والمعامل والبنائين وأصحاب الحرف ، ينبغي أن يظلوا على علاقة مستمرة » . وأعلن « أننا في فجر أسلوب جديد » ـ أي أننا بصدد أسلوب فني حديث يناسب الظروف الثقافية والحضارية الجديدة . ويذكر « ان الجمال لم يعد مقصوراً على فئات تتميز بحسن الذوق باعتباره ثمرة من ثمرات الثقافة . لأن الجمال احساس فطري يولد في الانسان . وهو ككل الأعاجيب الثابتة في الطبيعة . كالبللورات والأزهار والفراش والانسان نفسه » . ثم يحدد وظيفة الفنان في العصر الحديث بأن « عليه أن يتيح الفرصة لنشاهد ونشبع أبصارنا من خلال البيئة المصنوعة التي ابتكرها الانسان لتحل محل الطبيعة » . ثم يؤكد ضرورة تنوع القيم الجمالية المستحدثة بتنوع الشعوب واختلاف تراثها فيقول : « انني أحلم بالاستمرار الجدلي بين القيم الجمالية وبانتشارها العالمي وتنوعها بين الشعوب »[٣٤] . ـ أي أنه يرفض فكرة أن ينقل فنانو شعب ما ، مستحدثات فناني شعب آخر .

ثمة زاوية أخرى يطرحها « ايردل جنكنز » في كتابه « الفن والحياة » . يرى أن « الفعل الجمالي : ابداعاً وتذوقاً ، ليس سلوكاً منعزلاً عن البيئة ، بل يشكل جانباً من الاستجابة لعناصرها والتكيف معها . فـ « الفعل الجمالي » ليس ترفاً . بل هو من صلب السلوك الانساني اليومي . لأن الانسان يمارس عملية تكيف مستمرة مع البيئة . و « الحداثة » من هذه الزاوية « أسلوب للتكيف مع البيئة المتغيرة » . ويوضح « جنكنز » : أن الانسان أثناء انطلاقه في عملية التكيف ، يعتمد على التجربة الواعية ، بعكس الكائنات الدنيئة التي تسلك طريق الفعل الشرطي . يعتمد على الذكاء في اكمال رد الفعل الغريزي ، وعلى التأمل في اكمال التلقائية المباشرة . و « الذكاء والتأمل » هما العاملان المؤديان الى « الحداثة » من أجل التكيف[٣٥] .

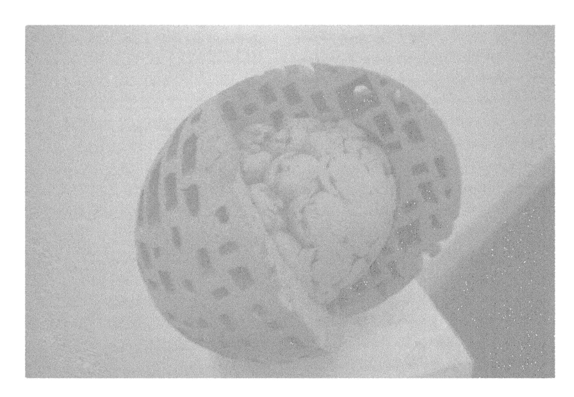
هذا التفسير للعملية الابداعية يلقي ضوءاً كاشفاً على مواصفات « الحداثة » . ثم يمضي في تحليل التجربة الانسانية وعلاقتها بالفن ، فيشير الى ان الجهاز العصبي هو المسئول عن « التجربة » . فالانسان يكتسب عن طريقه ادراكاً أوسع للبيئة وقدرة على تمييزها . الأمر الذي يمكنه من اعداد تنويعات من « الاستجابات الملائمة » . فالتجربة هي الوسيلة لابتكار أدوات حل « مشكلة تكيفية » . فهي ـ أي التجربة ـ تحتوي على الأحاسيس والأدراكات والعواطف الأفكار والرغبات والنوايا ، وتتخذ شكلاً ابداعياً على هيئة أدوات وآلات ونظريات وأشعار وصور وواجبات طبيعية أو ذهنية وروحية ، من أجل تعميق « التجارب » بهدف المزيد من التكيف . ويخلص المؤلف من تحليله الى ان هذه « الأدوات » التي تسفر عنها التجربة الانسانية تتصدرها اللغة والفن، فالانسان يبدع الفن كما يبدع العلم والاخلاق والنظم والمنتجات . . حتى يستطيع أن يكمل تعرفه على العالم .

●●●

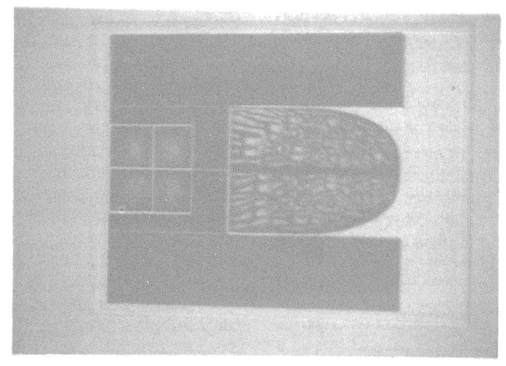
---

(٣٤) مجلة « العلم والمجتمع » ـ العدد ٤٠ ـ ١٩٨٠ ـ تصدر عن « اليونسكو » .

(٣٥) ايردل جنكنز : الفن والحياة ـ ١٩٦٣ .



(٧) النحت الحديث في يوغسلافيا ـ ١٩٨٥ .
(من بينالي الاسكندرية لدول البحر الأبيض المتوسط) .



(٨) الرسم الحديث في تركيا ـ ١٩٨٥ .
(من بينالي الاسكندرية لدول البحر الأبيض المتوسط) .

هكذا رأى « هـ. و. جانسون » أن العصر الحديث بدأ مع فجر القرن التاسع عشر . ولاحظ صعوبة رصده وتأريخه وتحليله ، لأنه حقبة زمنية ما زالت تجرفنا في تيارها وتلاطمنا أمواجها وتشغلنا تفاصيلها عن عمومياتها ومتغيراتها عن ثوابتها . ورأى « هربرت ريد » أن الحداثة تطور في الأسلوب . وعليه فان كل ما يعرف باسم « المدارس الفنية الحديثة » ، ليس سوى ابتكار أساليب فنية تنسجم مع التغيرات الادراكية للكون والحياة والبيئة . تحاول أن توازن الحضارة المادية في عصر الفضاء والكومبيوتر والتكنولوجيا المتقدمة . تحاول الارتقاء بالفن الى مستوى الحداثة العلمية . والا أصبحت الثقافة عرجاء خاوية من القيم الروحية والوجدانية . ان الكشوف العلمية والجغرافية والتكنولوجية التي تمخض عنها عصر النهضة الأوروبية ، بالاضافة الى القلق السياسي والاقتصادي ، أسفرت عن « الماناريزم » ، التي كانت أول انفلات من قفص الأكاديمية الصارمة . وحين بدأ العصر الحديث ـ كما أشار جانسون ـ مع الثورات الصناعية والسياسية ، ازدادت وتسارعت وتوالت محاولات « الحداثة » مع تقدم الأعوام حتى أن المؤرخ « هربرت ريد » تبين استحالة متابعتها . اتخذت أحياناً شكل الاتجاهات المقننة ذات البرامج والأهداف ، وظهرت أحياناً أخرى على هيئة تفجرات عصبية انفعالية كـ « الوحشية » في خريف ١٩٠٥ . . أو « الدادا » في صيف ١٩١٦ . لا يكاد الفنانون يستحدثون أسلوباً حتى تتمخض البيئة من حولهم عن مدركات جديدة تجعل الحديث قديماً وهو لم يستقر بعد . وربما تفسر هذه الظاهرة التقلب المذهل الذي مارسه « بابلوبيكاسو » خلال حياته الفنية المديدة . وتلقى ضوءا على كلمات المؤرخ الذي قال : لقد أصبح كل فنان مدرسة قائمة بذاتها في النصف الثاني من هذا القرن . والواقع أن عدد الاتجاهات الفنية المستحدثة خلال العقود الثلاثة التي انقضت من النصف الثاني من القرن ، تفوق في عددها وتنوعها ما رصده المؤرخون خلال آلاف السنين الماضية . وهي في مفهوم « ايردل جنكنز » ، تنويعات من الحلول لتكيف الانسان مع البيئة المتجددة . انها « أدوات » للتكيف الوجداني والفكري . . نتيجة لـ « تجارب » الفنانين مع المدركات الحضارية الحديثة .

في مطلع الستينيات سئمت جماعة من فناني أوروبا وأمريكا هذه الدوامة الفنية التي لا تثبت على حال ، فالقوا بكل القيم الفنية المتعارف عليها ـ قديمها وحديثها ـ خلف ظهورهم . وقدموا أعمالاً ابداعية أشد غرابة وأكثر شذوذاً بل جنوناً مما فعله أسلافهم « الداديون » قبلهم بأربعين عاماً . حتى أن أحدهم ـ وهو « والتر دو ماريا » . . من نيويورك ـ أقام معرضاً في مدينة « ميونخ » الألمانية في قاعة « هينر فريد ريك » من ٢٨ سبتمبر الى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٦٨ . قدم لزواره خلال مدة العرض كمية من « النفايات » بعنوان (٥٠ متراً مكعباً « ١٦٠٠ قدماً مكعباً » من القاذورات المستوية)[٣٦] . أخذت هذه « البدع » التشكيلية توغل في الإسفاف حتى وجدت طريقها سنة ١٩٧٢ الى أكبر وأعرق المعارض الفنية الدولية في العالم وهو « بينالي فينيسيا » . ذلك المعرض الذي يقام كل سنتين في المدينة الايطالية العائمة ، تتنافس فيه جميع دول العالم شرقاً وغرباً ، بما فيها الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . بلغت تلك « البدع » حداً من الاسفاف والتدني دفع شباب أوروبا الى الثورة وتحطيم واجهة البينالي الأمر الذي دفع المسئولين الى ايقاف « الدورة » والامتناع عن اقامة الدورة التالية سنة ١٩٧٤ . أصبح هذا النوع من النشاط الابداعي نادراً في أوروبا وأمريكا بعد ذلك ، خاصة بعد ظهور أساليب غاية في « الحداثة » . نعني فنون « الفيديو » و « الكومبيوتر » و « الهولوجرافي » ، الذي أقامت فرنسا عرضاً شائقاً له سنة ١٩٨٤ في القاهرة ، وهو يعتمد في تشكيله على أشعة الليزر ، وهي من أحدث المكتسبات العلمية في القرن العشرين . أما البدع التي أشرنا اليها فلم تتخذ اسما الا سنة ١٩٦٩ ،

---

(٣٦) GERMANO CELANT; ART POVERA. 1969-MILAN.

حين أطلق عليها الناقد الايطالي « جرمانو سيلانت »اسم : « آرت بوفيرا » . . أي « الفن الفقير » . الا أن كلمة « بوفيرا » تتضمن مفهوم البساطة والسطحية والتفاهة والتدني . وقد ظهرت « فلول » هذا النشاط الابداعي في القاهرة سنة ١٩٨٢ ، حين عرض فنان أسباني شاب مجموعة من الخرق المبقعة بألوان متنافرة مع حطام أقفاص الجريد غير النظيفة ، التي علق بعضها بخيوط النيلون في سقف قاعة العرض . أما في عام ١٩٨٤ فقد أقامت مجموعة من فناني برلين الغربية عرضاً في قاعة كلية الفنون الجميلة بالقاهرة . ثلاثون فناناً وفنانة قدموا متنوعات من الرسم الملون والحفر والنحت . واحد فقط من بينهم ألقى بعض الرمال على أرض القاعة (متر مربع تقريباً) ، وأحاطها بأحجار جمعها من الطريق . . ووضع في وسطها نباتات جافة ظل يرويها بالرمال طوال فترة الافتتاح . وفي « بينالي الاسكندرية الخامس عشر لدول حوض البحر الأبيض المتوسط » (١٩٨٤/١٩٨٥) ، ظهر الآرت بوفيرا ـ كما أشرنا ـ واستطاع أن يظفر بالجائزة الأولى « نحت » ، على تشكيل يتألف من مساحة ٦×٧ متراً مربعاًمفروضة بمجروش الرخام ، ينبثق منها بارتفاع متر واحد خمسة أسياخ حديدية تتصل أطرافها العليا بخيوط النايلون .

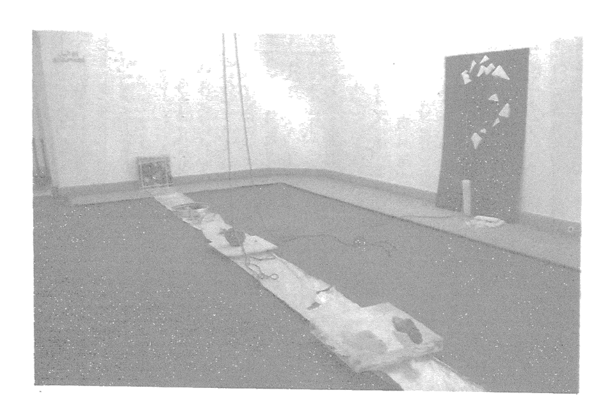
. . لكن يبدو أن الـ « آرت بوفيرا » يتمخض عن مجموعة من الأساليب الفنية التي تناسب التغيرات الأوروبية الثقافية . فهو يجمع في سلته مدارس فرعية مثل : « الفن المستحيل » . . « الفن الادراكي » . . « الفن الفعلي » . . « الفن الأرضي » . . « فن الحدث » . . الخ . لكن هناك العديد من الممارسات الابداعية التي لم تتبلور بعد ولم تصادف ناقداً يسميها . تشترك جميعاً في أنها « لاشكلية » و « لا أخلاقية » ومغرقة في « الفردية » . ولو راجعنا تعليقات هؤلاء الفنانين على ما ينتجونه من أعمال ، لتبينا علاقات وثيقة بين كلماتهم وما يرد على السنة المرضى الواقعين تحت تأثير البنج بعد العمليات الجراحية ، أو المدمنين للأنواع القوية من المخدرات .

●●●

كل العالم : المتقدم والمتخلف ، يمر بمرحلة انتقال كبرى لم يسبق لها مثيل . فحشد المعارف الجديدة يفوق كثيراً درجة التغير الثقافي الذي يواكبه . لم تتحول بعد المدركات الجديدة الى سلوك عام وتصبح من تقاليد الحياة اليومية . ومن الجدير بالتنويه أن هذا « الطابع الانتقالي » هو سمة الجنس البشري منذ دب على هذا الكوكب . فهو في حركة تقدم مستمرة لا تتوقف . تبطيء أحياناً فتتخذ طابع الاستقرار . وقد وصف : شارل بودلير (١٨٢١-١٨٦٧) حالة الانتقال هذه منذ قرن من الزمان بقوله : « حقاً لقد راحت التقاليد العظيمة بينما لم تتشكل بعد التقاليد الجديدة »[٣٧] . واستطرد شاعر فرنسا الذي كان ناقداً أيضاً ، قائلاً : « وقبل أن نتبين الجانب البطولي في الحياة الحديثة (يقصد الحياة سنة ١٨٤٦) ، وقبل ان نستخلص أمثلة على أن عصرنا لا يقل خصوبة في سمو أهدافه عن العصور السابقة ،ينبغي أن نؤكد أنه طالما أن جميع القرون وجميع الشعوب كان لها جمالها الخاص ، فلا ريب في أن لنا أيضاً جمالنا الخاص » . كما لاحظ صاحب ديوان ازهار الشر : « أن جميع أشكال الجمال تتضمن عنصراً دائماً وعنصراً انتقالياً ـ عنصراً مطلقاً وآخر خاصاً » . ثم شرح الشخصية الجمالية المحلية بقوله : « حقاً لا يوجد جمال مطلق وخالد . لكننا نقصد بذلك شيئاً كالزبد . . نستخلصه من سطح عام لمختلف أنواع الجمال . أما العنصر الخاص في كل ظاهرة جمالية فمرده الى المشاعر . وما دامت لنا مشاعرنا الخاصة فلنا جمالنا الخاص » .

. . واذا كانت « الحداثة في الفن » أسلوباً وشكلاً ونوعاً جديداً من الجمال . . فهي ليست مطلقة . انما تختلف باختلاف الأمم . . وباختلاف الزمان والمكان . . والثقافة والتراث . . .

(٣٧) The Salon of 1846; On the Heroism of Modern Life — Art in Paris, Phaidon 1965.



(٩) « آرت بوفيرا » أو الفن الفقير ، كما عرضته قبرص - ١٩٨٥ .
من المفروض أن هذا العمل « تمثال » . وهو مكون من شريط من الورق الفضي على الأرض ، وكرة من الحبل السميك في الوسط ، وحذاء ، وقطع محطمة من مرآة ومثبتة على لوح أسود في الواجهة . وبعض الأسطوانات المعدنية . . وأشياء أخرى .
(من بينالي الاسكندرية لدول البحر الأبيض المتوسط) .

التيار البراجماتي

لطيفة حليم

مقدمـة :

إن مشكلة الحفـاظ والتجـديـد في الفكـر اللغـوي الحـديث لا يسوغ وجـودها الا التسليم بـأن القضيـة اللغوية ينال درسها منذ التطور ما ينال الدراسات المادية والانسانية الأخـرى من تحول وتغـير تفرضـه الظروف الانسانية العامة التي هي ظروف تاريخية هدفها التقدم في كل المجالات ، ولهذا ينبغي ان نميز بـين فصيلتين من فصائل المفكرين اللغويين العرب :

١ ـ الفصيلة التي ورثت الفكر اللغوي العـربي القديم بمناهجه ومفاهيمه وارتباطاته بالجـو العام السـائد طيلة التاريخ الاسلامي . وهذه الفصيلة لا يمكن ان تكون سببا في طرح المشكلة اللغوية ومناقشة جذورها ورفضها رفضا كاملا او جزئيا لانها تعتقد ان هناك تطابقا كاملا بـين التناول القـديم وبين الحقيقـة اللغويـة في سـائـر موضوعاتها[1] .

٢ ـ الفصيلة التي ورثت هي ايضا الفكر اللغوي العربي القديم لانها هي ايضا جزء من الطائفة المفكرة في البلاد العربية ، ولكنها لا تعترف بالتطابق المطلق ، المشار اليه آنفا ، وترى ان ما اصاب هيكل الثقافة الاسلامية من تغيـير في بعض اجزائهـا كـالقـاعـدة والاجتمـاعيـات والماديات خليق ان يصيب الاجزاء الاخرى . ومن هذه الاجزاء القضية اللغوية . وحينذاك يصبح التجديد في نظر الفصيلة الثانية معادلا لقبول النتائج الاخيرة لعلم اللغة . وهذا يعني ادخال اللغة العـربية ولهـاجتها الى ميدان النقاش اللغوي العالمي ، او اذا شئنـا شيئا من التـدقيق ادخال القضيـة اللغـويـة في المحيط اللغـوي المعاصر الذي مازال محيطا اوروبيا ـ امريكيا[2] .

ويظهر ان فهم الاشكالية اللغوية العربية المعاصرة لا يمكن فهمـه فهما كـاملا الا بـالرجـوع الى مراقبـة سير

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) الفقرات الأولى المتعلقة بالتيار البراجماتي ينظر في شأنها مقدمة ادب الكاتب ومقدمة المرزوقي .

المجتمع العربي ابتداء من عصر النهضة ، وهو مجتمع امتاز بكونه ضحية تردُّد عميق طبع المجتمع الاسلامي العربي منذ قرون خلت ، هذا التردد هو الذي نلحظه بارزا منذ العهد الأول ، ويتخذ تارة شكل العقل ـ النص[٣] وتارة اخرى شكل العلوم اليونانية العلوم العربية[٤] وتارة ثالثة شكل العمود العربي ـ التجديد التمامي واتخذ في صدر الاسلام شكل القرآن ـ الشعر وثقافة الامم الاخرى[٥] ، واتخذ في عصور اخرى شكل الفلسفة ـ الشريعة[٦] ، وفي القرن التاسع عشر اتخذ صورة التراث ـ الغرب ، او الجمود ـ التطور ، واذا كان هذا التردد ترددا يتعلق بالمواقف الفكرية العامة في بداية النهضة عندَ محمد عبده وجمال الدين الافغاني وتلاميذهما فانه اصبح بعد ذلك ومع مطلع القرن العشرين ترددا تعلق بكل مجالات المعرفة بحيث تجاوز مطامح الاصلاحيين في القرن التاسع عشر ، ومع ذلك فلا ينبغي ان نظلم مفكري القرن التاسع عشر عامة سواءٌ كانوا اصلاحيين في اطار الخلافة الاسلامية او كانوا دعاة الى تكسير هيكل الخلافة لأن الفضل يرجع اليهم بشأن طرح التردد الحضاري المشار اليه انفا من جديد . وكان هذا الطرح العام للمشكلة الثقافية العامة بداية للشكوك الثقافية التي سيطرت على اذهان تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم من بعدهم وكانت القضية اللغوية من جملة القضايا التي تناولها الشك الثقافي مع مطلع القرن العشرين كما سنصف[٧] .

الاصلاحيون في القرن ١٩ والاشكالية الثقافية :

كان فكر القرن التاسع عشر في اغلبه اجتماعيا سياسيا[٨] يدعو الى الاصلاح الديني والى تنقية الاسلام مما علق به من خرافات والى التحرر من الاستبداد والى مقاومة الاستعمار والسيطرة الاوربية على البلاد الاسلامية وكان ، فيما يخص هذه النقط ، قد هز كثيرا من المسلمات هزا عنيفا[٩] . وكان في اقله يهتم بمعانقة الفكر الغربي معانقة تامة[١٠] ويقدم كتاب البيرحوراني ، الذي درس فيه مؤلفه الفكر العربي في عصر النهضة دراسة شاملة ، مثالا لذلك ، حقا اهتم الساسة في مصر بارسال البعثات ولكنها كانت بعثات تعني ادخال العلم العادي الى مصر[١١] وحتى رفاعة الطهطاوي حين كتب معجبا بالغرب لم يجازف بالدعوة الى ادخال العلوم الانسانية لكنه اكتفى بالحديث عن المرأة ونظام المجتمع الفرنسي وعن فكرة الوطن[١٢] الخ وهي افكار متصلة كل الاتصال بالتنظيم الاجتماعي ، لقد رأى مفكرو القرن التاسع عشر ان للنهضة اسبابا سياسية واجتماعية قضوا حياتهم في تبينها والدعوة الى اصلاح الحالة في شأنها .

هل كانت حملة نابليون واحتلاله لمصر سببا في هذه النهضة ؟

هل كانت ظروف لبنان سببا فيها ؟

تلك نقط يختلف في شأنها الباحثون وقد يختلفون الان باعتبار انتمائهم إلى هذه البقعة او تلك من بقاع العالم .

---

(٦) قضية التوفيق بين الفلسفة والشريعة . انظر فصل المقال لابن رشد .

(٧) راجع الابحاث المتعلقة بالفكر المعاصر في كتاب نهضة العالم العربي من ص ٢٩٣ ـ ٣٣١ .

(٨) راجع قولة هورتن عن محمد عبده واشارته خصوصا الى ان هذا الأخير لم يقدم بديلا معرفيا ـ الاسلام والتجديد ص ١١٠ .

(٩) محمد عبده والافغاني ـ الاسلام والتجديد لتشارلز ادلمز وهو كتاب خاص بفكر محمد عبده الاجتماعي .

(١٠) شلبي شميل وامثاله ـ مصادر الدراسة الادبية ص٤٩٨ .

(١١) مصر الحديثة لانور عبد الملك ص ١٢٠ ـ ١٢١ بالفرنسية .

(١٢) المصدر السابق ص٤٠٧ .

العـربي ، ونـظن ان البحث عن الاسبـاب المتعلقـة بموضوعنا غير مجد وخصوصا اذا كانت هـذه الاسباب خارجية ومعرضة لان يذهب الناس في شأنها مذاهب شتى لا حصر لها ، ولهـذا نكتفي بتوجيـه الانتباه الى العوامل التالية :[١٣]

١ ـ ضعف السلطنة العثمانية وهو ضعف جعل طوائف من المجتمع الاسلامي في القرن التاسع عشر تتجرأ على بعض المسلمات .

٢ ـ العوامل الخارجية وهي الغرب المجاور ، ولا نقصد به حملة نابليـون ولا الحركـة الثقافيـة في لبنان المتصلة بالمغرب من قديم ، ولكننا نقصد به وجوده كعامل دائم وقف منه العرب مواقف معينة طيلة تاريخهم ، فقد كان هذا الغرب موجودا في عهد نهضتهم وفي عهد جمودهم ثم في عهد انبعاثهم وكانت الاتصالات مستمرة في سائر العهود عن طريق السفارات والمتاجرات[١٤] .

٣ ـ هنالك فئات من المجتمع الاسلامي لم تجد نفعا قريبا او بعيدا من حالة الدولة في القرن التاسع عشر فمالت الى التغيير .

غير ان هذه العوامل الثلاثة ، التي ليست نهائية ولا مقصية لغيرها من العوامل الممكنة والخفية علينا ، هي التي تشرح اهتمام مفكري القرن التـاسع عشـر ، كما اسلفنا ، بالجانب الاجتماعي عن السيـاسي في اغلب امرهم ، ولكن هذا لا يعني ان هؤلاء المفكرين[١٥] لم يعنوا بمشكلة المحتوى او باللغة ، فقد تغيرت لغة هؤلاء المفكـرين واقتربت من صـورة لغة العـرب في القرون الأولى ونفضت عنها غبار البديع . وكـان محمد عبـده يشارك بنشر التراث الاصيل القـديم ليضعه في مكـان التـراث المتأخـر المـظلم وكـان تـدريسـه لمقـدمـة ابن خلدون[١٦] ولدلائل الاعجاز ونشره لبعض النصوص القديمة داخلا في هذا النطاق .

الفكر القومي والمشكلة اللغوية :

يكفي في هـذا النـطاق أن نشير الى وعي العـرب بالمشكلة القومية في القرن التاسع عشر في بلاد الشام ، وكانت هذه الفكرة مرتبطة في ذهن مفكري الشام بقضايا اخـرى فهي عند عبـد الـرحمن الكـواكبي[١٧] متصلة برفضه للاستبداد ، وهي عند كثير من المفكرين العرب النصارى متصلة بالبحث عن كيان يستطيعون الاندماج فيه وهذا الكيان هو الكيـان العربي[١٨] ولم تكن بـلاد الشـام كلها تسـير في هذا الاتجـاه فمـذكـرات شكيب ارسلان[١٩] المنشورة تبين ان هذا الاخير كان يعمل ما وسعه من جهد لحد التيار القومي والحفاظ على السلطنة العثمانية قائمة باعتبارها الضامن لوجود المسلمين ككيان مستقل ، وقد كانت الدعوة العربية تختلط في كثير من

(١٣) راجع مقالات البرت حوارني ـ الفكر العربي في عصر النهضة ٣١٨ ـ ٣٢٠ .

(١٤) الفكر العربي : بحث عن منهج ـ جمال الدين العلوي ـ المحرر الثقافي ١٩٧٥ .

(١٥) في سنة ١٨٧٨ ظهر اول كتاب في النقد الادبي في مصر يدعو الناس الى التخلي عن اساليب الانحطاط الفنية وهو « الوسيلة الادبية للعلوم العربية » ص ٣٢٩ من « مصر الحديثة » لأنور عبد الملك .

(١٦) كتب محمد عبده مقالا سنة ١٨٧٦ عن « العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية ـ الاسلام والتجديد .

(١٧) له كتاب طبائع الاستبداد وكتاب ام القرى . كان لهذين الكتابين اثر في نفوس الوطنيين العرب في العالم العربي وفي المغرب الاقصى منه ايضا . اخبرني الدكتور احمد العلوي من كلية الآداب ـ الرباط ان والده مولاي الطيب العلوي احد رواد الحركة الوطنية العربية الاسلامية بالمغرب اخبره ان كتب الكواكبي كانت توزع مجانا بفاس في العشرينيات وقبلها وكان يجلبها التجار من اجل ذلك ـ انظر ايضا كتاب البيرحوراني ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

(١٨) البيرحوراني ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ (٣٢٨ ـ ٣٢٩) ٣٣١ ـ ٣٣٢ .

(١٩) سيرة ذاتية ـ شكيب ارسلان .

الأذهان بالدعوة الى الوحدة السورية[٢٠] ولم تكن بلاد الشام وحدها تحتضن الفكرة العربية فقد اثر عن ابراهيم باشا بن محمد علي قولة تجعله من اشد دعاة العروبة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر[٢١] . ولعله نادي بها ليجعلها سلاحا في وجه سلطنة بني عثمان يمكنه من بناء الامبراطورية العربية تحت سلطنة اسرته ، ولا ينبغي ان نتابع البيرحوراني الذي يرى ان المسيحيين الكاثوليك كانوا اول من دفع الى هذه الفكرة فالظاهر ان العراك بين الاتراك والعرب قد استحكم شأنه منذ امد بعيد ويكفي ان نرجع الى الترجمانة الكبرى للزياني[٢٢] فسنجد هذا الرحالة المغربي ينقل فصولا من النزاع بين فقهاء العرب وفقهاء الترك وهو شيء يشتم منه ان الكيان العربي في القرن التاسع عشر وحتى قبل التاسع عشر كان شيئا يعيه العرب المسلمون قبل غيرهم وكيف لا يعيه المسلمون من العرب قبل غيرهم وجلهم من اهل السنة الذين دافعوا لاهوتيا منذ القديم عن فكرة ء ءية صاحب المنصب الاسمى[٢٣] في الدولة الاسلامية . على كل فقد كانت الفكرة القومية العربية موازية في نشوئها لقيام القوميات الاخرى كالارمنية واليونانية وغيرها ، وكان ظهورها جزءا من الحركة العامة الداخلية التي كانت تهز جسم الكيان العثماني المريض .

يهمنا ونحن نؤرخ لهذه الحركة لنربطها بالمشكلة اللغوية العربية ان نذكر التواريخ التالية :

١ ـ حزب اللامركزية العثمانية سنة ١٩١٢ وكان من مطالبه اعتبار العربية لغة رسمية وان تسند الوظائف للعرب في بلادهم وكان اعضاء هذه الهيئة من السوريين المقيمين في الاسكندرية[٢٤] .

٢ ـ ظهور الفكر القومي التركي وخصوصا عند جوكلب وهو مفكر اساء الى وحدة الدولة العثمانية وكان له صداه حتى عند المتشبثين بالعثمانية من العرب[٢٥] .

٣ ـ انعقاد المؤتمر العربي سنة ١٩١٣ وكان فيه « عراقيون » و« سوريون »[٢٦] .

٤ ـ اتصال الزعماء العرب بشريف مكة سنة ١٩١١ ودعوته الى القيام لينصب خليفة موعودا بالنصر والتأييد[٢٧]

٥ ـ انشاء الجمعيات السرية بعد ١٩٠٨ وغيرها في سنوات ١٩١١ ـ ١٩١٤[٢٨] .

٦ ـ المؤتمر السوري في دمشق سنة ١٩٢٠[٢٩] .

٧ ـ مؤتمر الخلافة سنة ١٩٢٦ في مكة[٣٠] .

٨ ـ مؤتمر القدس سنة ١٩٣١[٣١] .

---

(٢٠) البيرحوراني ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

(٢١) البير حوراني ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .

(٢٢) الترجمانة الكبرى للزياني ص ٣٦١ نشر عبد الكريم الفيلالي ١٩٦٧ الرباط .

(٢٣) ألبير حوراني نفسه يعلن ان فكرة تحويل السلطنة العثمانية الى خلافة كان سببا في ظهور المقاومة العربية ص ٣١٨ .

(٢٤) المصدر السابق ص٢٢ .

(٢٥) المصدر السابق ص٢٢ .

(٢٦) المصدر السابق ٣٣٨ .

(٢٧) المصدر السابق ٣٣٩ .

(٢٨) المصدر السابق ٣٤٠ .

(٢٩) المصدر السابق ٣٤٩

(٣٠) المصدر السابق ٣٤٧

(٣١) المصدر السابق ٣٤٩ .

٩ ـ مؤتمر بلودان سنة ١٩٣٧ وهو اهم المؤتمرات اذ رأسه عراقي وكان ن بين نواب رئيسه عضو من مجلس الشيوخ المصري ومطران حماة ، وكان مؤكدا لفكرة الوحدة العربية وملحا على طابع التضامن العربي يضاف الى هذا فكر رجل هو ساطع الحصري[٣٢] الذي دافع عن القومية العربية ودعا المصريين الى الانضمام الى اخوانهم من البلاد الاخرى وقضى حياته مخلصا لهذه الفكرة ، لقد ولد هذا الرجل في تركيا وكانت العربية لغة اكتسبها اكتسابا ولكنه كان عربيا مخلصا وتقلب في مناصب الدولة العثمانية وبعدها سار في ركاب فيصل وكان يقول على لسان البير حوراني « لقد صرف كثيرا من الوقت محاولا اقناع المصريين بانهم جزء من العالم العربي فراح يكتب في هذا السبيل حتى مطلع الستينات وهذا جدير بالاعتبار اذ ان التيار الرئيسي للقومية المصرية في ذلك الحين كان فرعونيا او متوسطيا عربيا ولكن القوميين العرب من ابناء جيله كانوا يميلون الى التطلع الى بغداد لا الى القاهرة والى الاعتقاد ان الامة العربية انما تنتهي عند صحراء سيناء مع ان الكثير من الجيل الفتي كانوا يحلمون عاطفيا بوحدة اوسع فهو يقول سنة ١٩٣٦ لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها ان تقوم بواجب الزعامة والقيادة لانها تقع في مركز البلاد العربية بين القسمين الافريقي والاسيوي منها كما انها تكون اكبر كتلة من الكتل التي انشق اليها العالم العربي بحكم السياسة والظروف ، وهذه الكتلة قد اخذت حظا اوفر من الحضارة العالمية الحديثة[٣٣] ، لقد دخل ساطع الحصري في محاولات عنيفة مع كتاب مصريين كانوا يدافعون في ذلك الحين عن قومية مصرية صرفة مثل لطفي السيد وطه حسين وغيرهم ، فقد اظهر التاريخ ان رأي ساطع الحصري كان يحكي حقيقة الامر فتوطدت الظروف الى ان امكن تأسيس جامعة الدول العربية .

قصدنا من هذا الكلام ان نبين ان البلاد العربية عن طريق الكفاحات المختلفة في الشام والعراق ومصر والحجاز استطاعت التخلص من السيطرة العثمانية ومن حركة التتريك ، كما استطاعت رغم ما حل بها بعد انحسار ظل الحكم العثماني ، ان تستمر في دفع حركة الوعي العربي الى الامام وبالطبع فان الشعور بالقومية العربية دفع ولاشك هؤلاء المفكرين الاولين الى الاهتمام بالقضية اللغوية والقضية العربية على المستوى اللغوي على الخصوص وفي هذا الاطار تنتصب كتابات جرجي زيدان عن اللغة كمؤتمر يبين ارتباط الوعي القومي بالوعي اللغوي وبجانب هذا المثال نعثر على اعمال البستانيين واعمال الشدياق في الشام .

لقد اشرنا منذ قليل الى الحالة الخاصة لمصر وارتباط مصر بالحركة القومية على العموم ونظن ان المقاومة التي لقيتها الفكرة العربية في مصر في اوائل القرن لم تكن مقاومة ترتكز على الواقع المصري،ونظن ان افلات الزعامة من يدها في موضوع القومية العربية هو كون هذه الزعامة في يد السوريين جعل المصريين يترددون كثيرا قبل التصريح بالانضمام الى فكرة القومية العربية فواقع مصر عربي واسرة محمد علي كانت لها مطامح في انشاء امبراطورية عربية يكون خليفتها امير مكة وسلطانها ملك مصر ومصر احتضنت في الازهر وغيره البقية الباقية من التراث الاسلامي العربي ومصر عرفت محمد عبده والشنقيطي[٣٤] وغيرهما ينشرون الاثار العربية القديمة. وكانت مطبعة بولاق مكانا ممتازا لنشر تلك الوثائق

---

(٣٢) المصدر السابق ٣٤٩ .

(٣٣) المصدر السابق ٣٧٦ ـ ٣٧٧ . اشتهر بكتابه « العروبة اولا » انظر قائمة بكتبه في مؤخرة كتابه في التربية والاجتماع بيروت ٩٦٢ .

(٣٤) كان من كبار المحققين .

العربية ومنشورات بولاق تدل على ان اهتمام المصريين في القرن التاسع عشر اهتمام عربي وواقعهم العربي واقع لغوي عربي .

ثم ان محمد عبده في فكره الاجتماعي السياسي كان لا ينسى القضية اللغوية وضرورة اصلاح المناهج لتعليم النحو العربي[٣٥] . باختصار لقد كان انفصال مصر وغيرها من البلدان العربية عن الدولة العثمانية كافيا وحده ليضع امام الطبقة المثقفة من البلاد العربية مشكلة اللغة وهكذا نفهم كيفية ارتباط الوعي القومي بالقضية اللغوية ونفهم ايضا سبب ركود الوعي اللغوي قبل ظهور الوعي القومي قبل القرن التاسع عشر .

المشكلة اللغوية التاريخ العثماني :

يجمع الباحثون على ان اللغة العربية بعد استيلاء آل عثمان على الحكم لم تعد لها المنزلة التي كانت لها قبل استيلائهم عليه ، وكان السيوطي من اهل القرن العاشر[٣٦] آخر صوت لغوي قوي يناقش المشكلة اللغوية . وكيفما كانت الانتقادات التي يمكن ان توجه اليه فانه يبقى مع ذلك فاصلا واضحا بين عهد مضى وعهد مقبل أصاب فيه اللغة العربية في البلاد العربية حيف كبير ، ولم يظهر في خلال العهد العثماني شاعر واحد او كاتب او اديب له من الامتياز ما للشعراء الاقدمين[٣٧] .

لقد كان الشغل الشاغل للمسلمين في عهد الدولة العثمانية هو الحفاظ على الكيان الاسلامي فقط وكان التنظيم الاجتماعي لا يستجمع الحركات العلمية والثقافية وهذا شيء معروف يرجع اليه في مظانه من كتب التاريخ واذا كان احمد شوقي اول شاعر فحل ظهر بعد قرون من الغياب الشعري فان نهاية القرن التاسع عشر شاهدت ظهور تجمعات غير رسمية في مصر كانت تحاول خدمة العربية وتريد ان تجعلها كفيلة بالاستجابة الى الظروف الحضارية العلمية التي فرضتها او فرضها الحضور الاوروبي في البلاد الاسلامية وهكذا نشهد قبل نهاية القرن التاسع عشر ظهور المجمع البكري[٣٨] الذي كان يضم اعضاء كثيرين من الاصلاحيين كالشنقيطي ومحمد عبده ، ويظهر ان قضية الترجمة عن اللغات الغربية التي ابتدأت منذ عهد رفاعة الطهطاوي تتعلق خصوصا بنقل العلم المادي الغربي ، ويمكن ان نجد لها امثلة كثيرة في مجلة المقتطف[٣٩] . نظن ان مشاكل هذه الترجمة جعلت الاهتمام الوحيد لهؤلاء الاصلاحيين القدماء يتعلق بمشكل الاصطلاحات التي كثرت في البلاد الغربية وظهرت العربية عاجزة عن التعبير عنها الظاهر الغريب .

وعلى هذا فتكون القضية الاولى التي شغلت هؤلاء الاصلاحيين الاوائل قضية معجمية وليست هنالك دلائل تدعو الى اعتقاد ان هؤلاء الاصلاحيين قد وعوا المسألة اللغوية كما كانت مطروحة في ذلك الحين في اوروبا ولاشك ان اهتماماتهم اللغوية المعجمية هي اهتمامات املتها ظروف جزئية ومحلية ومرتبطة بالنظر العام للمجتمع العربي عامة والمصري خاصة . ان ظهور

---

(٣٥) ص٢٣ من الاسلام والتجديد نقلا عن مقالات لمحمد عبده تتعلق بتفسير سورة العصر وغير ذلك طبعت في مصر سنة ١٩١٠ في مطبعة المنار .

(٣٦) السيوطي صاحب الهمع والمزهر وغيرها ويظهران كتبه هي صورة نهائية لمحاضراته ودروسه . يدل على ذلك مقدمة الهمع ، ويدل ذلك مع احتفاظ مصر الشديد بالتراث العربي الاسلامي « المطارد » في البلاد المحاور في ذلك الابان بطرق مختلفة اظهرها تقديم الألسنة الاعجمية على العربية في الادارة وغيرها .

(٣٧) راجع كتب تاريخ الادب المهتمة بالجانب الفني فانها تهمل عصر السلطة العثمانية وتعد احمد شوقي اول شاعر اعاد للعبارة العربية اشراقها .

(٣٨) المجمع اللغوي لابراهيم بيومي مذكور ص١٥ .

(٣٩) كانت تهتم بنقل الماديات والمكتشفات الغربية .

المجمع البكري في مصر قبل ظهور مجمع دمشق في الشام سنة ١٩١٩ (٤٠) لدليل على ما قلناه من قبل عن ارتباط قضية انفصال الكيانات السياسية عن الدولة العثمانية بالمشكلة اللغوية وهو دليل ايضا على ان مصر ـ وان كان بعض مفكريها لاسباب مختلفة قد اظهروا ترددا كبيرا على المستوى السياسي في شأن الاندماج في الامة العربية ـ كانت في حقيقة الامر اي من جهة الظروف الموضوعية مرتبطة بالمشكلة اللغوية العربية وكانت بالتالي مرتبطة رغم التردد المشار اليه بالقضية القومية. ان الاشتغال بالمعجم العربي ظهر في مصر قبل ان يظهر في سوريا وفي المقابل ظهرت الدعوة القومية المعتمدة على اللغة في سوريا قبل مصر ومما يؤكد ما سقناه من قبل ان ندوة خاصة بالمشكلة اللغوية قد عقدت في اوائل القرن العشرين عام ١٩٠٨ في نادي دار العلوم وترأسها حفني ناصف (٤١) احد الدعاة الى تيسير العربية . وقد القيت في هذه الندوة عدة بحوث عن اللغة تدعو الى التطور ومسايرة العصر دون اخلال بجوهر اللغة العربية وكان من المتحدثين اشخاص كثيرون وكثرتهم تدل على انشغال الطبقة المثقفة بالقضية اللغوية . كان من المتحدثين فتحي زغلول ومحمد الخضري الذي قدم بحثا عن تعريب الاسماء الاعجمية اشار فيه الى ما بذل من جهود في النهضة العربية الحديثة كاعمال الطهطاوي ومحمد عبده وما قام به سعد زغلول من تعريب للتعليم(٤٢) وجعل العربية لغة الكلام وكان من المتحدثين ايضا طنطاوي الجوهري الذي قدم بحثا عن العامية والفصحى ودعا الى ترك العامية وختم الندوة حفني ناصف ببحث عن الاسماء العربية لمبتدعات الحضارة والمدنية الحديثة وانتهت هذه الندوة بالقرار التالي : « يبحث في اللغة العربية عن اسماء للمسميات الحديثة بأي طريق من الطرق الجائزة لغة فاذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الاعجمي بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية ويستعمل في اللغة الفصحى بعد ان يعتمده المجمع اللغوي الذي سيؤلف لهذا الغرض » .

لقد كانت الحركات الأولى اي حركة البكري وحركة حفني ناصف هي البذور الاولى للتيار اللغوي المجمعي التيسيري وهو تيار لن ندعوه بالجديد ولا بالقديم ولكننا سنكتفي كما سيتضح من بعد باعتباره ردودا آنية « واصلاحات » جزئية للغة العربية لا يعتمد نظرية سابقة ولكن اغراضه غائية اي تبحث عن اسهل الطرق لتقريب العربية من مقتضيات الحضارة الحديثة ، ويمكن ان تسميهم بالتيار البراكماتي اللغوي . واذا من الآن سنخصص بقية هذا المقال لهذا التيار البراكماتي . وقبل ان ننطلق الى ذلك يجب ان نثير انتباه القارىء الى ارتباط هذا التيار الوثيق بالحركات الاصلاحية في بلاد الشام ومصر على المستوى السياسي والاجتماعي كما اسلفناه لقد كان جل اعضاء ندوة حفني ناصف وما لحقها من ندوات متأثرين بالروح العامة التي سادت في اواخر القرن التاسع عشر على يد محمد عبده والكواكبي والنديم وغيرهم . لم يفعل هؤلاء التلاميذ الا ان ساروا بالفكرة الاصلاحية الى حدود المنطقة اللغوية بعد ان كانت الفكرة الاصلاحية في اذهان الجيل السابق تتعلق بالمجتمع ككل (٤٣) . على كل فقد سار هذا التيار

(٤٠) المجمع اللغوي ص١١ .
(٤١) المصدر نفسه ص ١٥ .
(٤٢) المصدر السابق ص١٥
(٤٣) راجع قوله هورتن المذكورة قبل في تعليق سابق .

البراكماتي مسيرة قادت الى فكرة انشاء مجمع اللغة الى الظهور سنة ١٩١٠ على يد لطفي السيد .

وفي هذه المرة كان يضم هذا المجمع الأول طائفة من الشيوخ الذين اصبحوا يتزعمون الحركة الاصلاحية اللغوية وسنجد في كتابات مصطفى عبد الرازق اشارة الى هذا المجمع وترحيبا لهؤلاء الشيوخ ودعوة ملحة الى ان يهتموا بمعجم العربية ومصطلحاتها العلمية وأن يهتموا ايضا بقضية الكتابة العربية(٤٤) . ولم يطل امد هذا المجمع فقد انفض سنة ١٩١٩ على اثر الثورة المصرية وحاول ان يلتئم مرة اخرى جمعة سنة ١٩٢٥ لكن الظروف لم تساعد على ذلك الالتئام .

في هذه الظروف انشيء مجمع دمشق سنة ١٩١٩ للنظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية ونشر آدابها واحياء مخطوطاتها وتعريب ما يدخل اليها من اللغات الاوروبية وتأليف ما تحتاج اليه من الكتب المختلفة وكان ظهور مجمع دمشق(٤٥) وحركة انشاء المجامع في مصر سنة ١٩٠٨ - ١٩١٧ - ١٩٢٥ موازيا في الزمن للحركة العربية التي قادها الشريف حسين وابناؤه . وهذا يؤكد مرة اخرى ارتباط الوعي اللغوي عند اصحاب التيار البركماتي بالوعي القومي .

سنعرف في الصفحات التي تلي من بعد كيف تبلور هذا التيار البرجماتي في كتابات ابراهيم مصطفى والمخزومي ولذلك نرى من الأنسب ان نلم بالظروف التاريخية لهذا التيار قبل تبلوره في الكتابات المشار اليها من قبل . وتاريخ مجمع اللغة العربية بالقاهرة وتركيبه يساعدان على توضيح الجذور الأولى لهذا التيار المرتبط كما اسلفنا بالحركة السياسية والاجتماعية التي عرفتها المنطقة وسنعتبر مجمع القاهرة ذا مكانة ممتازة لا غيره من المجامع لاسباب :

١ - غلبة الطابع اللغوي على اعماله فقد اهتم مجمع دمشق كما يظهر من مجلاته بالعربية لا لغة فحسب ولكن ادبا وتراثا ، ولم يقدم من الاقتراحات والاصلاحات ما قدمه مجمع القاهرة ولعل السبب في ذلك راجع الى طبيعة تكوين المجمعين القاهري والدمشقي .

٢ - جمع مجمع القاهرة في الافواج التي تعاقبت على الدخول اليه نخبة من المهتمين بالقضية اللغوية وفيهم المصري وغير المصري . نقول (مهتمين) ولا نقول (اختصاصيين) لان الاعضاء المختصين باللغويات كانوا قلة قليلة فيه الا اذا فهم الاختصاص بمعناه القديم وفي هذه الحالة يمكن اعتبار كل اعضائه من المختصين بالعربية وبالتالي باللغة .

٣ - ارتباط فكرة المجمع الذي يهتم بالاصلاح اللغوي بتاريخ يمتد الى عهد النهضة في بعض اقوال الطهطاوي وعبده وغيرهما .

واول ما نلاحظه على مجمع القاهرة ان اعضاءه(٤٦) من بدايته الى الان كما اسلفنا ليسوا لغويين بالضرورة بل فيهم الشاعر والأديب واللغوي والسياسي والفقيه ورجل الدين الخ . ويظهر ان الدخول اليه لم يراع فيه دائما الكفاءة والمقدرة اللغوية والثقافية وانما روعي فيه قوة

---

(٤٤) من آثار مصطفى عبد الرازق .

(٤٥) اعمال مجمع دمشق ليست لغوية في اغلبها فهي تهتم بالأدب والتاريخ كذلك .

(٤٦) راجع اللائحة التي قدمها ابراهيم بيومي مدكور في تاريخه للمجمع اللغوي ص٢٣ - ٢٧ .

العضو في المجتمع المصري اذ ربما روعي فيه ترضية الطوائف الدينية والحزبية . وهذا طبيعي في بلد كمصر يعتبر فيها الدخول الى المجمع شرفا عظيما واسعادا منيفا . ويظهر ذلك واضحا حين تدرس قائمة اعضائه الذين دخلوا اليه تباعا في افواج ، فلم يدخل ابراهيم مصطفى وهو اللغوي الاصيل في اعضاء المجمع جميعا الا سنة ١٩٤٩ اي بعد انشائه بحوالي ١٧ سنة . واذا تركنا ابراهيم مصطفى الذي تبين حالته طبيعة تكوين المجمع وظروف انشائه والاسباب التي تزكي الاعضاء للترشيح اليها فاننا نجد امثلة اخرى مثل طه حسين ومصطفى عبد الرازق والعقاد وهم اشخاص اشتهروا في المجتمع المصري اشتهارا كبيرا وشهد لهم المجمع بالكفاءة في ميدان الثقافة العربية الاسلامية على الاقل ، ان لم يشهد لهم بالكفاءة اللغوية الصرفة ، هذه الأمثلة لم تجد مكانها في المجمع الا بعد سنوات من انشائه . وكان السابقون اشخاصا لا ذكر لهم كأحمد بدوي وحسين والي والحواري وهم اشخاص قد يكون لهم ذكر في مجالات اخرى ، ولكننا لا نعرف لهم ذكرا مشهورا في مجال اللغة على الاكثر وفي مجال الثقافة الاسلامية العربية على الاقل وهناك حالة ابراهيم أنيس اللغوي وحالة حامد عبدالقادر ، وهما ايضا مثالان يبينان ان المجمع في بدايته لم يراع فيه اختيار العناصر اللغوية الصرفة وانما روعي فيه جمع عناصر تضافرت على جمعهم ظروف خارجة عن العامل العلمي اللغوي الصرف . ونحن نعتقد ان هذا التكوين وهذه الظروف التي احاطت بالمجمع كانت سببا اساسيا في افتقار المجمع الى نظرية لغوية متينة ، وفي اكتفائه بالترجمات وفي مسيرته العجلى نحو التيسير وما اشبهه [٤٧] من اعمال التشذيب التي لا تفيد العربية غير قطع اطرافها دون ان تضيف الى قضية الشعور اللغوي والتنظير العام شيئا جديدا . ويظهر من الاهداف التي رسمها المجمع لنفسه رغبته عن الاعراض عن التنظير والاستفادة من الاعمال التنظيرية الغربية مثلا وهذه الاهداف هي :

١ ـ تيسير اللغة متنا وقواعد وكتابة ورسم حروف .

٢ ـ توفير المصطلحات العلمية والالفاظ الحضارية بحيث تصبح اللغة وافية بمطالب العلوم والفنون وملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر .

٣ ـ تهذيب المعجمات اللغوية ووضع معجم تاريخي شامل يعرض لتطور اللغة العربية في عصورها المختلفة .

٤ ـ تجميع الانتاج الادبي .

٥ ـ احياء التراث القديم واللغة والادب .

يضاف الى هذه الاهداف التي تنبيء عن الرغبة في الاهتمام بالجزئيات اللغوية المفتقرة الى نظرية عامة يضاف اليها ان الاجانب الذين استقدموا الى المجمع اعضاء مراسلين او غير مراسلين لم يكونوا من لغويي الغرب ـ وقد كانوا كثيرين في فترة الانشاء والعمل المجمعي ـ وانما كانوا من المستشرقين المهتمين بالساميات المتأثرين بالروح المقارنية التاريخية للقرن التاسع عشر في اوروبا وربما كان السر في استقدامهم يكمن في رغبة الجيل الأول من المجمعيين في الدرس المقارني التاريخي للعربية . ولاشك ان ذلك الجيل الأول كان متأثرا بافكار المستشرقين الذين استقدموا للتدريس في جامعة الشعب المصرية الأولى وفي الجامعة الاهلية من مثل :

---

(٤٧) انظر اللوم الموجه الى المجمع من محمود السعران في كتاب علم اللغة ص ٢٦ . ولكننا ننفي مع هذا حضور لغويين في فترات من حياة المجمع اجتهدوا اجتهادات لغوية متينة ويكفي الرجوع الى مجلة المجمع لاستيقان هذا الامر اما لوم محمود السعران فهو لون من اللوم الذي يوجهه حامل البضاعة الجديدة الى غيره . والبضاعة الجديدة هي نظريات الغربيين ولا يخفى ان هذا الامر يحتاج الى تدبر حتى توزن القيم المعرفية للغويات العربية في تاريخها الطويل ولغيرها من اللغويات المستوردة واعتذر عن ابتعاد هذا التعليق عن بعض محتويات المقال ولكني مضطر لذكره هنا لانه يمثل وجهة نظري التي اقتنعت بها بعد كتابة المقال المذكور بزمن .

ليتمان وبرجستراسر وغيرهم ويمكن ان نجد شيئا من ابحاثهم في كتاب : الجوانية لعثمان امين[٤٨] وبعضا من اسمائهم في كتاب : رمضان عبد التواب عن فقه اللغة[٤٩] .

قضية التيسير :

شهد مطلع القرن العشرين حفني ناصف واصحابه يستنكرون العلل النحوية والفلسفة النحوية التي تطورت الى ان اصبحت عند رجل كجمال الدين بن هشام ضربا من « الترف واللغة العقلية الممتعة والمتعبة في آن واحد » .

والواضح ان قضية التيسير مرتبطة بانتشار التعليم العربي في المرحلة الابتدائية والثانوية وحتى العالية في مصر . وواضح ان كتابات الاقدمين بتعديلاتها لم تكن لتفي بحاجة التلاميذ في الموضوع النحوى لانها اعلى من مداركهم في غالب الامر ولانها مرتبطة بجو ثقافي معين قد لا يكوّن التلميذ عالما به في المراحل الاولى من دراسته ، ومن جهة اخرى فقد ارتبطت قضية التيسير برغبة « الميسرين » الأوائل في ان يفهم الطلاب في النحو لا ان يحفظوه فقط وهذا يظهر الفرق بين اصحاب النهضة في مصر وبين اهل الجمود من قبلهم ، فقد كان هؤلاء يكتبون المنظومات والمتون التي لا تيسر شيئا ولكنها تكثف النصوص الطويلة في نص قصير سهل الحفظ ومع انه لم يكنةسهل الحفظ فان بامكان الذاكرة ، بقليل من الجهد ، الاحاطة به حفظا . ومثال ذلك : ألفية ابن مالك ، وجمع الجوامع والمفصل ، والأول عمل نظمي والثانيان عملان نثريان .

ولكن مع ذلك فان ضخامة التراث هي التي املت الموقفين على جيل النهضة وعلى جيل ابن مالك والسيوطي والزمخشري . وكانت الحلول تيسيرية عند اصحابنا تليخصية عند الاقدمين .[٥٠]

ومع هذا فالظاهر ايضا ان الفرق يسير مرة اخرى بين المحاولتين القديمة والجديدة . فالميسرون يبقون على هيكل النحو العربي وعلى ابوابه ، ولا تكتمل لديهم نظرية في التحليل . ويظهر ان اقصى غاياتهم كانت اخراج كتاب في النحو يشبه كتب الانجليز او الفرنسيين التي كانت تدرس في مدارس هؤلاء . الفرق يسير لان انكار العلل والعوامل ليس كافيا لتغيير هيكل النحو العربي ولان هذا الانكار ليس كافيا للتخلص من « العيوب الاخرى » التي صاحبت نشأة النحو العربي من الناحية المنهجية .

ـ اين مثلا التفريق بين المستويات اللغوية عند الميسرين ؟

ـ اين آثار المدارس الغربية في اثارهم ؟

وكان ينبغي لهم ان يطلعوا على ما يجري في العالم من بحوث لغوية والظاهر انهم اغفلوا ذلك وبقيت تصوراتهم عن اللغة هي تصورات الاقدمين الا انهم يرفضون بعض مبادىء الاقدمين وعلى هذا فيمكن اعتبار المجمعيين مدرسة من المدارس النحوية التي تضاف الى المدرسة الكوفية والبغدادية والبصرية باضافة شيء واحد هو انعدام الوعي اللغوي عند المجمعيين . فربما كان النحو العربي خلفا طبيعيا لارث نحوي وليد لمنطقة جنوب العراق اعمل فيه النحاة العرب رأيهم بشكل يناسب العربية وهؤلاء المجمعيونةلا يفعلون شيئا الا انهم يعملون رأيهم النفعي البراجماتي في النحو العربي ليمكن قراءته بسهولة بالغة . فالغاية هي

(٤٨) الجوانية ، كتيب صغير لعثمان امين .

(٤٩) فصول في فقه اللغة لرمضان عبد التواب .

(٥٠) ص٦٢ من (في اللغة والادب) لابراهيم بيومي مذكور ـ القاهرة ١٩٧٠ .

التسهيل[٥١] . ومتى كان التسهيل غاية من غايات التحاليل العلمية ؟ ان التحليل العلمي يفترض جدلية بين النظرية والتطبيق وهذا ما نعرفه عند المحدثين في الانسانيات على العموم ولكنه لايهتم ابدا بأن تكون تحاليله سهلة لان ايثار السهولة قد يجعل الباحث يغض الطرف عن كثير من الحقائق التي تكون جزءا من منظومة الحقائق الداخلة في الموضوع المبحوث ولأن الغاية من التحليل العلمي هي اعطاء صورة مطابقة كل المطابقة للموضوع المعين عن طريق اعتماد منهج معين . وما سيخرجه صاحب المنهج من حقائق فانه يصنفها حسب اعتبارات معينة ولا يهمه عددها واحصاؤها وارتباطاتها . وهكذا لا يهم اصحاب القوانين طول قوانينهم وتعقدها لان هذه القوانين تلبي حاجة المجتمع الى التنظيم والسير المعقول . وهناك احوال اجدى من هذه اجدر ان تذكر وهي : احوال الفقيه الذي يستنبط الاحكام ولم يدع احد يوما الى تيسير الفقه الاسلامي وتبسيطه كما لم يدع احد الى تيسير التاريخ وتسهيله سواء كان تاريخا اسلاميا ام يونانيا ام غير ذلك من التواريخ واصول الفقه سواء كان فقها رومانيا او غيره هي هي يبحث فيها الى ان يعثر عليها ثم تعرض عرضا كاملا لا رغبة فيه للتيسير . اما في مجال الدراسات التي قام بها المحدثون في الغرب فانها قد تبلغ احيانا من التعقد درجة تفوق ما بلغ اليه منه النحو العربي القديم ومع ذلك فان ذلك يعتبر اغناء للبحث واثراء للعلم الحديث . واقرب مثال الينا مثال اللغويات الحديثة ، فغاية الدراسات الحديثة سواء كانت مادية ام انسانية غاية تحليلية والتحليل قد يصل الى ادق الجزئيات ويشمل اعظم الكليات ولا عيب في ذلك على البحث العلمي الذي لا يقصد منه في غايته ان يفهم وانما يقصد بها اظهار حقائق الامور سواء خفيت عن البعض واتضحت للبعض الآخر .

اذن ففكرة التيسير فكرة غير علمية لانها تنسى التحليل ومناهجه وتنسى وحدة الموضوع المدروس وتنسى ثالثا تكاملية البناء النحوي العربي القديم ولا يهمها اظهار حقائق الامور ، وعلى ذلك ففي ميدان النحو غايتها ليست تحليلية تنظيرية استقصائية وانما غايتها براجماتية نفعية واذا شئنا تعبيرا آخر قلنا ان غايتها تربوية بيد اجوجية . وواضح ان الغاية البيداجوجية كان يلزمها ان تؤاخيها غاية لغوية علمية تحليلية استقصائية تنظيرية وكان هذا اللزوم منعدما الا ان يستعين المجمع بخبراء اللغة الحقيقيين والحقيقين بالموضوع اللغوي وهذا الذي لم يكن مع بالغ الاسف .

في هذه النقطة من عرضنا وصلنا الى وصفين يتصلان اتصالا وثيقا بهذا التيار المتولد عن الحركة العامة للمجتمع العربي الشرقي هما : البراجماتية والبيداجوجية . وبهذين الوصفين ننفي عن هذا التيار والمشروعات التي تفرعت عنه صفة اللغوية المحضة . هو بلغة اخرى تيار غير لغوي موضوعه اللغة العربية التي هي كنظام صورة من القدرة اللغوية العامة . هو اتجاه غير لغوي لباسه لغوي .

وما دمنا قد وصفنا التيار المشار اليه بالبيداجوجية فلا بأس ان نرجع الى بعض الوقائع التاريخية التي تبرهن على ما قلناه ففكرة التيسير ورثها المجمع عن فكر سبق المجمع . هذا الفكر هو فكر حفني ناصف وندوته وهو فكر اعطى في مجال التطبيق كتاب قواعد اللغة العربية لحفني ، واعمال الجارم[٥٢] وصاحبه، وهو فكر جعل

(٥١) انظر مجموعة القرارات العلمية من تأليف محمد خلف الله احمد ومحمد شوقي امين ١٩٦٣ . ص ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ على سبيل المثال .

(٥٢) انظر المجمع اللغوي . في اللغة والأدب لابراهيم مدكور ص١٦ ، ٦٢ على الترتيب .

وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٣٠ تشكل لجنة من كبار اساتذة النحو والأدب للبحث في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة واقتراح قواعد جديدة[٥٣] ، على ان لا يمس عمل اللجنة اصلا من اصول اللغة ولاشكلا من اشكال الاعراب والتصريف فلم تمس اللجنة أصلا من الأصول وتخيرت من مذاهب القدماء اقربها الى العقل الحديث وأيسرها على الناشئين وحاولت ان تخلص النحو من فلسفته التي قامت على التعليل والافتراض ، ومن قواعده ومصطلحاته الصرفة وان تربطه بالادب والاستعمال الحي ، ولم ترض مدة لتعلم الصرف على انه علم مستقل ولا تدرس البلاغة بمعزل عن الادب واقترحت اللجنة في مجال النحو مايلي :

١ ـ تتكون الجملة من جزأين اساسيين هما الموضوع والمحمول وتكملة تضاف اليها احيانا . والموضوع هو المحدث عنه وهو مضموم دائما الا اذا وقع بعد ان او احدى اخواتها فيفتح ويدخل فيه ابواب الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ واسم كان واسم ان .

والمحمول هو الحديث ويضم ان كان اسما الا اذا وقع بعد كان او احدى اخواتها فيفتح ويفتح ايضا ان كان ظرفا . ويجيء فعلاً او مع حرف من حروف الاضافة او جملة . ويكتفي في اعرابه ببيان انه محمول وتدخل فيه ابواب خبر المبتدأ وخبر كان وخبر ان ويطابق المحمول الموضوع في التذكير والتأنيث وفي العدد ان كان متأخرا عنه والجملة العربية مرنة في تركيب ركنيها ، فقد يسبق احدهما الاخر ويغلب ان يتأخر الموضوع ان كان نكرة او كان المحمول فعلا والتكملة كل ما يذكر في الجملة غير الموضوع والمحمول وهي مفتوحة دائما الا ان كانت مضافا اليه او مسبوقة بحرف اضافة فتكسر وتجيء لبيان الزمان او المكان او العلة او المفعول او الحالة او النوع او تأكيد الفعل وبيان نوعه ويدخل فيها ابواب المفاعيل الخمسة والحال والتمييز .

٢ ـ لا داعي للتفرقة بين القاب الاعراب والبناء ويكتفي بألقاب البناء وهي الضم والفتح والكسر والسكون ، ولا داعي ايضا للتفرقة بين علامات الاعراب الاصلية والفرعية ويستغنى عن الاعراب التقديري والمحلي في المفردات والجمل .

٣ ـ لا داعي لتقدير متعلق للظروف ولا لحروف الاضافة فنحو زيد عندك او في الدار . يكفي المحمول هو « عندك » و « في الدار » .

٤ ـ يلغي الضمير المستتر جوازا او وجوبا ففي اعراب زيد قام يكتفي بان « قام » محمول ولا يشار الى ضمير . وفي اعراب « نقوم » « اقوم » يقال ايضا : ان الفعل محمول والهمزة فيه او النون اشارة الى الموضوع يعتبر الضمير البارز تقوية ان كان منفصلا مثل « قمت انا » واشارة لا ضميرا على مذهب المازني في مثل : « قمت » و « قمتم » و « قمت » أو علامة العدد في مثل « قاموا » و « قمن » .

٥ ـ تدرس ابواب التعجب والتحذير والاغراء والتخصيص والتفضيل ونعم وبئس والنداء والاستثناء والاستفهام والتوكيد والقسم على انها اساليب تشرح معانيها .

٦ ـ يكتفي في الصرف بأبواب الفعل ومشتقاته والتثنية والجمع على ان تدمج في النحو وتشرح بالامثلة دون تعرض لاحوال الكلمات ولا للصور المختلفة التي يمكن ان تتحول اليها ولا محل مطلقا للتعرض للاعلال والابدال والقلب .

ورأت اللجنة تحديدا لمقدماتها ان تقدم فهرسا وتكون هيكلا لكتاب من النحو الميسر وقسمته الى بابين :

(٥٣) القرارات المجمعية ص ١٨٥ . المجمع اللغوي لابراهيم مدكور ص٧٦ ـ ٧٧ .

أ ـ قسم الكلمة .
ب ـ قسم الجملة .

وتحت الباب الأول فصلان ينصب احدهما على احكام الاسم من مذكر ومؤنث وصحيح ومعتل ومفرد ومثنى وجمع ومذكر ومعرف ومصغر في الثلاثي والرباعي فقط ومنسوب اليه ومُعرب ومبني ويقتصر في المبنى على اسماء الاشارة والموصول والاستفهام والشرط ؛ وينصب الاخر على احكام الفعل من ماضٍ ومضارع وامر وصحيح ومعتل ومبني للمجهول وناقص وتام ولازم ومتعد ومبني ومعرب ، ويدخل في احكام الفعل اسم الفاعل واسم المفعول واسم الزمان والمكان والآلة من المشتقات ومصدر الثلاثي وغير الثلاثي .

وتحت الباب الثاني فصلان اولهما اجزاء الجملة من موضوع ومحمول وتكملة تدخل فيها التوابع واحكام العدد وثانيهما في الاساليب وتدخل فيه الجملة الفرعية والجملتان الشرطية والقسمية .(٥٤)

هذه هي اقترحات لجنة وزارة المعارف سنة ١٩٣٠ وقد بقيت هذه الاقترحات في مجلات وزارة المعارف المصرية مستترة طيلة سنوات الى ان عرضت على المجمع في سنة ١٩٤٠ في الدورة ـ ١١(٥٥) فابدى فيها من الاراء ما يجعله تابعا للجنة فاكتفى بتبديل بعض اصطلاحات اللجنة فآثر مصطلح المسند والمسند اليه على مصطلح اللجنة القديم الموضوع والمحمول ، وهي مصطلحات آتية جميعها اما مِّن المنطق او من البلاغة ، ورأى ان يقسم الدرس النحوي الى ثلاثة أقسام : ١ ـ احكام الجملة ، ٢ ـ احكام الاسم ، ٣ ـ احكام الحرف ـ مخالفا اللجنة التي اهملت استقلال الحرف او لم تشر اليه بتاتا ورأى المجمع ايضا استعمال القاب البناء من ضم وخفض وفتح وخالف اللجنة في مصطلح التكملة فآثر المصطلح النحوي القديم وهو المفعول على مقترح اللجنة وهو التكملة وهو مقترح يشكل ترجمة لمقابله الافرنجي Complement في نحو اللغات الاوروبية . اما غير هذا من اراء اللجنة فاقرها المجمع واخذ بها فأقر الاستغناء عن الاعراب التقديري والمحلي وعن التفرقة بين علامات الاعراب الاصلية والفرعية وعدها كلا مجرد علامات اعراب وصرف النظر عن الضمائر المستترة وجوبا وجوازا وعن الضمائر البارزة المتصلة حروفا والتي تعود على نوع المسند اليه او عدده ولم يَرَ ضرورة للنص على عائد الموصول واعتبر التعجب والتحذير الخ من الابواب المذكورة من قبل ـ حين التعرض لرأي اللجنة ـ اساليب ، ودعا الى ان لا يوقف عند تفاصيل اعرابها واكتفى من الصرف بتصريف الفعل وصوغ مشتقاته والتثنية والجمع .

وهكذا يظهر ان اصل فكرة التيسير ـ التي نفينا عنها من قبل صفة العلمية التحليلية ـ يرجع الى وزارة المعارف ، وهي وزارة تربية ، وان ما فعله المجمع في بداية امر التيسير ليس شيئا آخر في جوهره الا استمرارا طبيعيا للجنة الاولى لسنة ١٩٣٠ وربما كان اعضاء اللجنة الاولى من المفتشين والاساتذة الذين مارسوا تعليم النحو في المدارس ولم يكونوا من المتفرغين للدرس اللغوي المحض باعتباره موضوعا لعلم خاص وربما كان قد سبق لبعض اعضاء المجمع الاوائل ان كانوا اعضاء في اللجنة الاولى ويظهر الموقف البيداجوجي لعمل اللجنة ثم للمجمع من خلال الملاحظات التالية :

١ ـ لم يفعلوا الا ان بدلوا المصطلحات القديمة بمصطلحات جديدة وجمعوا عن طريق اتساع دائرة

(٥٤) انظر القرارات العلمية ص ١٧٥ ومابعدها .

(٥٥) المجمع اللغوي ص٧٩ .

المصطلح الجديد ابوابا عديدة في باب دون ان يمس ذلك الجمع شيئا من تحاليل النحاة القدماء[٥٦] فاعتبار ابواب الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ واسم كان واسم ان من باب الموضوع الاكبر ـ على حد تعبير اللجنة ـ او من باب المسند اليه ـ على حد تعبير المجمع ـ لا يعفي الدارس من تحاليل النحاة ومن متابعتها في اطار هذا الباب الاكبر[٥٧] . وكذلك الامر في ادخال ابواب خبر المبتدأ وخبر كان وخبر ان في باب المحمول فان ذلك الادخال لا يتعارض ابدا مع التحاليل القديمة التي ستجد مكانها في اطار هذا التبويب الجديد للنحو العربي فالقضية هنا قضية تبويب جديد فعوض ان ندرس كل مفهوم في باب وهي مفاهيم كثيرة في النحو العربي القديم جعلنا الابواب ثلاثة وادخلنا فيها ابواب النحو العربي المتكاثرة كلا فيما يناسبه من الابواب الثلاثة المقترحة وفي هذه الحالة لن يكفيه ما فعلته اللجنة والمجمع جديدا على المسيرة النحوية العربيةالقديمة . فكتاب يؤلف على طريقة اللجنة او المجمع سيكون طريقة في تبويب النحو العربي جديدة لاتمس الجوهر ابدا وسيكون عمل اللجنة او المجمع شبيها باعمال النحاة القدماء في طريقة التبويب فإبن هشام بوب باعتبار الحرف والجملة والمفصل مثلا باعتبار المنصوبات والمرفوعات الخ وسيبويه بوب باعتبار العاملية وان مالك بوب باعتبار الاسماء والافعال والحروف وسارت على ذلك شروحه واذن فالقضية قضية تبويب لا اقل ولا اكثر قد يكفي هذا التبويب اسلم من الجهة التعليمية البيداغوجية ولكنه يبقى كما قدمنا عاجزا عن ان يمس جوهر التجربة النحوية القديمة .

٢ ـ عملية التشذيب التي تعرض لها النحو العربي القديم تتجاهل ان هذا النحو نتاج عقلية معينة وثقافة خاصة وهو في تفريقاته خاضع بمباديء اولى وربما كانت تلك التفريقات قبل القاب الاعراب والبناء والاعراب التقديري والمحلي وتقدير متعلق الظرف وحروف الاضافة ووجوب استتار الضمير وجوازه الخ اقرب الى الروح العلمية من اعمال اللجنة التي ارتأت الغاءها فكثير مما دعت اللجنة الى تبديله في هذا المجال متصل بنظرية اولى هي نظرية العامل وقد دفع النحاة اليها دفعا نظرا لظروف لا داعي للافاضة في الحديث عنها هنا ويرجع اليها في مظانها وكانت اللجنة والمجمع سيفعلان خيرا مما فعلا لو حاولا ان يقدما نظرية عامة تخلف النظريةالقديمة . ولهذافان عملية التشذيب هذه تنبيء عن عجز اللجنة وما سبق اللجنة من فكر لغوي وما لحقهما من فكر مجمعي عن اقامة النظرية البديلة ولذلك كان عملها التشذيبي المشار اليه عملا مشوها لجوهر التجربة اللغوية النحوية العربية القديمة لانه اهتم بتشذيب النموذج التطبيقي غافلا او جاهلا للخلفيات النظرية وبذلك قدم تجربة نحوية قديمة لها ركائزها النظرية قد يتجه اليها الانتقاد ولكنها تبقى متكاملة قدمها فداء لغاية بيداجوجية نشك كل الشك في امكان نجاحه فيها لان التلميذ الذي يسير على طريق اللجنة والمجمع وما سبقهما سيجد نفسه في نهاية المطاف مرغما على تجاوز هذه الاقتراحات ليعانق التجربة القديمة لسبب واحد هو النقطة التالية :

٣ ـ هذا الفكر المجمعي وما سبقه فكر يعترف بالنحو العربي القديم كمطابق اللغة العربية فهو لم يفكر أبدا في النظر الى اللغة العربية من جديد معتمدا على ثقافة العصر وعقليته مستفيدا من جميع ما يمكن ان يستفيد منه لاضافة بناء نحوي مستقل ولكنه نظر الى قضية اللغة

(٥٦) راجع المدخل الى علم اللغة للاينز وكليزن وربنز وخصوصا الفصول المتعلقة بالنحو فستجد الفروق الاساسية بين النظرية القديمة والنظرية الجديدة ومن المناسب ان نذكر هنا ان النظرية اللغوية الغربية المعاصرة امتداد للنظريات الغربية القديمة .

(٥٧) يشبه هذا تقسيم النحاة القدماء للابواب الى مرفوعات ومجرورات ومنصوبات .

العربية من خلال النحو العربي . فالابواب الثلاثة ستضم صورة مشذبة عن النحو العربي والنحو العربي القديم بأبوابه هو الذي اوحى الى اصحاب هذا الفكر بالطريقة التي نهجوا فالمقولات هي المقولات والتحاليل هي التحاليل لان الخلفية النظرية واحدة وهم يوحون بانهم لن يمشوا اصلا من اصول اللغة ، وما هي اصول اللغة ؟ انها ليست الا الاصول التي وضعها النحاة القدماء ونظروا من خلالها الى اللغة العربية وهذا الاعتراف الضمني بالنحو العربي في خلال اقتراحات اللجنة او اذا شئنا هذا الحفاظ على الاصول هو الذي يجعلنا نظن ان عمل الفكر المجمعي وسلفه ليس الا بحثا عن طريقة من الطرق لتعليم النحو العربي اي ليس الا عملية بيداجوجية قد ترتبط بما يسمى عند علماء التربية بالتربية او البيداجوجية الخاصة المتعلقة بطرف تدريس المواد .

اننا حين نستنند الفكر المجمعي وسلفه اي فكر اللجنة وندوة حفني ناصف والبكري واراء الاصلاحيين في القرن التاسع عشر لا نريد ان تدافع عن النحو القديم فقد نحتاج الى ان نرفض النحو القديم كلا وقد نحتاج الى الاستفادة من المناهج الحديثة للعلوم الانسانية ومن بينها علم اللغة لكننا بانتقادنا للمجمع وسلفه او اسلافه نريد ان نكشف عن الصبغة البداجوجية لمشاريعه ونريد ان ننفي عنه كل طابع لغوي علمي ونريد بذلك ان نبرهن على فشل وسائله في النيل من النحو القديم ونريد ان ننبه الاذهان الى اتباع وسائل اجدى تقيم نحوا جديدا ودرسا لغويا جديدا لا يلتجيء بالضرورة الى الاعتداء الظالم على التراث النحوي القديم . وبلغة اخرى سنقول ان الفكر البراجماني البداجوجي المشار اليه لا يرضى انصار النحو القديم لانه يشوه نحوهم ويعتدي عليه اعتداء لامسوغ له ولا يرضى في الوقت ذاته انصار التجديد الحقيقي لانه ذو غايات تربوية غير لغوية تحليلية علمية .

ابراهيم مصطفى المصلح النظري :

انه كان في امكان المؤرخ ان يغفل اعمال المجمع مرة واحدة لولا ان اعمالا اخرى ادعت لنفسها التغيير والاصلاح والتجديد استقامت في شكل كتب اشتهرت ككتاب احياء النحو لابراهيم مصطفى وخلفه المخلص المهدي المخزومي .

لم يدخل ابراهيم مصطفى الى المجمع الا سنة ١٩٤٩ ومعنى هذا انه لم يشارك في اقامة الاعمال المشار اليها في الفقرات السابقة ولكن اضافاته الى النحو العربي تسير في الخط ذاته وتستفيد من الفكر المجمعي واسلافه . فاذا كان هؤلاء قد تحدثوا عن المسند والمسند اليه والمفاعيل دون ان يجرؤوا على النيل من الخلفية النظرية داعين الى الاشارة الى الرفع او النصب او الكسر دون تعليل فان ابراهيم مصطفى قدم لهم الأدلة النظرية فانكر العامل بانواعه الكثيرة (اللفظية والمعنوية) وباعداده المتكاثرة وحاول ان يفسر الحركات الاعرابية راجعا الى نوع من العوامل المعنوية (مع التجوز) وهي ان الضمة علاقة الاسناد والاضافة علامة الخفض وان الفتحة في احوالها في الاسم العربي راجعة الى يسرها وسهولتها في النطق على العربي ، وحاول ان يبرهن على نظريته الاعرابية[٥٨] هذه على الاحوال المدروسة في النحو العربي[٥٩] وتظهر مدى استفادته من اعمال المجمع هو وخلفه المهدي المخزومي في كتابه عن نقد النحو العربي في اهتمامه الخاص بالاعراب الاسمي لانه من الواضح ان نظريته

(٥٨) يظهر مع هذا ان ابراهيم مصطفى استفاد على الخصوص من كتاب جمع الهوامع للسيوطي وهو الكتاب القائم على نظرية العمدة ونظرية الفضلات انظر ص ٩٣/١ من الهمم وانظر كذلك ص ٢١/١ ففيه يذكر انواع الاعراب بالنسبة الى العمد والفضلات وما بينها .

(٥٩) راجع ص ١١١ ـ ١١٢ ـ ٦٨ ـ ٦٩ وغيرها من احياء النحو لابراهيم مصطفى .

هذه لا يمكن تطبيقها على الاعراب بالفعل. وواضح مما قدمنا ان المجمع واسلافه لم يولوا من العناية القدر الكافي للفعل ونحن لاننكر ان رأي ابراهيم مصطفى جدير بالاهتمام ولكننا ننكر ان يكون هذا النحو المقترح او هذه النظرية الاعرابية الاسمية مستقلة كل الاستقلال عن النحو القديم فيبقى عمل ابراهيم مصطفى محاولة اصلاحية على المستوى النظري لا تُجاوز اعمال المجمعين ولكنها تبقى محاولة جزئية لا يمكن ان تشمل الموضوع النحوي كله هي تجاوز لاعمال المجمع التشذيبية واستفادة منها ولكنها تقصر عن ان تصبح تحليلا جديدا للغة العربية من منظار آخر مستقل عن المنظار القديم . وهذا يعني ان ابراهيم مصطفى يمكن اعتباره مصلحا للخلفية النظرية التي اغفلتها اعمال المجامع واسلافها وكأن حالة المجمع وابراهيم مصطفى تكرار لحالة تاريخية سابقة فقد كتب النحو اولا ثم ظهرت المحاولات التنظيرية على يد ابن فارس وابن جني والزجاجي وابن الانباري(٦٠) ثم السيوطي. وفي القرن العشرين وضعت الاقتراحات المجمعية وما قبل المجمع وبعدها ظهرت المحاولات التنظيرية على يد ابراهيم مصطفى . .

ان ابراهيم مصطفى حاول تفسير الظواهر الاعرابية الابجدية بمنهج لا نتردد في وصفه بالعلمية ولكننا نعتقد ان ما فعله بداية لو تمت عن طريق قراءة جديدة للغة العربية لا للنحو العربي واستفادت من الثقافة المعاصرة لكتب لها الاكتمال النظري والتطبيقي(٦١) .

المهدي المخزومي - الخلف المضيف :

لا نعتقد ان في فكر المهدي المخزومي شيئا ليست اصوله عن! ابراهيم مصطفى او عند المجمع او اللجنة فمهاجمة فكرة العامل سارت عنده على نهج ابراهيم مصطفى واعتبار ابواب التعجب والاستثناء والاستفهام والتوكيد اساليب مستقلة راجع الى اقتراحات اللجنة والمجمع ولكنا مع ذلك نجد من الواجب الوقوف عنده لانه يعلن في مقدمة كتابه عن انفصاله المنهجي عن عملية التيسير فهو يقول « وظهرت محاولا لتيسير النحو في كتب مدرسية الا انها لم تقدم جديدا ولم تفعل شيئا يعيد لهذا الدرس قوته وحيويته لانها لم تصحح وصفا ولم تجدد منهجا ولم تأت بجديد الا اصلاحا في المظهر واناقة في الاخراج اما القواعد فهي هي واما الموضوعات فكما ورثناها حتى الامثلة لم يصبها من التجديد الا نصيب ضئيل فالتيسير اذن ليس اختصارا ولا حذفا للشروح والتعليقات ولكنه عرض جديد لموضوعات النحو ييسر للناشئين اخذها واستيعابها ويمثلها ولن يكون التيسير وافيا بهذا ما لم يسبقه نظر شامل لمنهج هذا الدرس وموضوعاته (٦٢) هو يعلن هنا عن انفصاله المنهجي عن عملية التيسير كما تمت من قبل ولكنه يقترح متابعا ابراهيم مصطفى كما استنتجنا من قبل الشروع في تغيير الخلفية النظرية حتى يكون التيسير تيسيرا حقيقيا. وهذا بالضبط ما استنتجناه من قبل وهو بالضبط ما يجعلنا نسلك ابراهيم مصطفى والمخزومي في سلك واحد مع الفكر المجمعي واسلافه وعلى هذا الاساس يكون عمل

---

(٦٠) لمع الأدلة لابي البركات الانباري مازال له مثلا تأثير على لغويين محدثين كسعيد الافغاني صاحب اصول النحو .

(٦١) انظر في هذا المجال رأي على النجدي ناصف في الموضوع ص ٩٩ وملخصه ان ابراهيم مصطفى استفاد من كتاب «رد على النحاة » لابن مضاء ولكن يبدو مع ذلك ان ابراهيم مصطفى استفاد من ابن مضاء ولم يذكره ، ولكنها استفادة سيئة لان انكار العوامل لاي مثل تقدما نظريا واستفاد كذلك من السيوطي - انظر « من قضايا اللغة والنحو » لعلي النجدي ناصف القاهرة ١٩٥٧ وانظر عن العوامل رأيا عكسيا في كتاب الظواهر اللغوية في التراث النحوي لعلي ابو المكارم ففيه تأييد للعاملية والحق ان سبب هذا الخصام حول العوامل مرده ان المتخاصمين ليسوا من النحاة بالحرفة والغرض ولكنهم كالهواة او مؤرخو آداب صادفوا اللغة في طريقهم

(٦٢) في النحو العربي نقد وتوجيه ص ١٦ - ١٥

المخزومي داخلا في اطار حركة التيسير ومستعملا ادوات منهجية لم يستعملها المجمعيون واسلافهم. وعلى هذا الاساس ايضا اجزنا لانفسنا في الفقرة المتعلقة بابراهيم مصطفى ان ننزع عنه صفة البراجماتية والتربوية لانه ان كان غرضهما معا اعني المخزومي وابراهيم مصطفى هو التيسير فانهما حاولا ان يصلا اليه عن طريق علمي منهجي تحليلي فيكون التيسر نتيجة لتحليل لغوي جديد يعتمد على مفاهيم جديدة وفي هذه الحالة سيضمن للتحليل النحوي استقلاله وهو استقلال يراد به استقصاء حالات الموضوع المدروس فاذا سلم هذا التحليل من النعوت غير اللغوية التي اتصلت به عند العرب الاولين واصبح تحليلا لغويا صرفا يعتمد على منهج لغوي متكامل لا يفرض على اللغة من الخارج امكن لاصحاب التيسير ان يستفيدوا وان ييسروا وان يقفوا من التحليل الجديد موقفهم التربوي وفي هذه الحالة سيكون موقفهم التربوي هو ايضا مستقلا عن المشروع النحوي المستقل ذي الموضوع المستقل اما ان يقصد الميسرون الى التجربة القديمة بما علق بها من « شوائب غير لغوية » ليستخلصوا صورة سهلة فذلك ما يأباه الدرس اللغوي لان ذلك القصد سيصبح قصدا تشويهيا ولهذا فان المخزومي يرى ان الخطوة الأولى هي اصلاح المنهج وذلك يتم في مرحلتين :

١ ـ تخليص النحو مما علق به من « شوائب » جرها عليه منهج دخيل هو « منهج الفلسفة » الذي حمل معه الى هذا الدرس « فكرة العامل » .

٢ ـ تحديد موضوع الدرس اللغوي ليكون الدارسون على هدى من امر ما يبحثون فيه(٦٣) .

اما النقطة الثانية فيرى فيها ان الدرس النحوي كما ينبغي ان يكون انما يعالج موضوعين مهمين لا ينبغي ان يفرط الدارس في اي واحد منها لانها شيء واحد ان اهمل بعضه ذهب كله . وهذان الموضوعان هما :

١ ـ الجملة من حيث تألف اجزائها ، من حيث نظامها ومن حيث ما يطرأ عليها من تقديم وتأخير ومن اظهار واضمار .

٢ ـ ما يعرض للجملة من معان عامة تؤديها ادوات التعبير التي تستخدم لهذا الغرض كالتوكيد وادواته والنفي وادواته والاستفهام وادواته والى غير ذلك من المعاني العامة التي يعبر عنها بالادوات والتي تمليها على المتكلمين مقتضيات الخطاب ومناسبات القول .

واذا تركنا المخزومي الى غيره كالاستاذ كمال بشر في كتابه عن علم اللغة وهو كتاب يعني في تعاريفه بالاستفادة من اعمال الغربيين لوجدناه يعتبر النحو هو النظم اي السانطاكس ويقول في تعريفه ان النحو ووظيفته هي البحث في التراكيب وما يرتبط بها من خواص.ولا يهتم النحو في العرف الحديث بالبحث في الاعراب ومشكلاته كما اراد له بعض المتأخرين من النحاة العرب وانما عليه كذلك ان يأخذ في الحساب اشياء اخرى مهمة كالموقعية والارتباط الداخلي بين الوحدات المكونة للجملة او العبارة وما الى ذلك من مسائل لها علاقة بنظم الكلام وتأليفه.ولشدة ارتباط الصوت بالنحو جمع اكثر العلماء بينهما واطلقوا عليهما اسما واحدا هو « الكرامير » اي قواعد اللغة،وحقيقة القول ان الصرف ان هو الا خطوة ممهدة للنحو او هو مرحلة اولى منه(٦٤)،واذا تركنا العرب جميعا الى الفرنسيين المعاصرين اصحاب المعجم اللغوي(٦٥)

---

(٦٣) ص١٧ ـ ١٨ من المرجع السابق . ينتقد في الكتاب كل شيء مما استقر عليه القدماء كالقياس والعامل . النقد سهل والبناء صعب وان كان بالخيال .

(٦٤) ص١٣ دراسات في علم اللغة لكمال محمد بشر ١٩٧٣ القاهرة .

(٦٥) المعجم اللغوي ـ لاروس بالفرنسية باريس ١٩٧٣

لوجدنا هؤلاء يضعون اربعة تصورات للنحو فهو تارة يعني الوصف التام للغة من جميع جهاتها ومستوياتها ويحتوى اذ ذاك على الفنولوجيا والنظم والكسوكولجيا وعلم الدلالة الخ.وفي هذه الحالة يكون النحو معادلا لدرس يتعلق بلغة ما تعلقا كاملا ويكون هذا الدرس مصورا لسائر النظم الكبرى والصغرى المتوازية والمتداخلة التي تجعل من المتكلم اللغوي حين تكتب له الاحاطة بها متمكنا من الكفاءة اللغوية . وهو تارة أخرى في رأي مدرسة لغوية اخرى يشمل الموضوعات السالفة باستثناء الفنولوجيا .

وفي هذه الحالة يصبح النحو معادلا لموضوعين : الصرف والنظم او المورفوسنطاكس ، وهو اخيرا في رأي المدرسة التوليدية الجديدة يكون معادلا لنموذج الكفاءة المثالية .

هذا النموذج هو علاقة بين الصفة والمعنى وهكذا فان اي نحو يولد طائفة من الازواج ويكون لكل زوج جانب صوتي وتفسير دلالي الخ[٦٦] وهكذا يفهم ان كمال بشر لم يميز في كلامه بين هذه المدارس وانما انتقى منها.وهو اقرب الى تيار سندرسه فيما بعد منه الى المخزومي وانما اتينا على ذكره وعلى ذكر التعاريف المختلفة للموضوع النحوي لنبين ان تحديد الموضوع النحوي عند كمال بشر وبالأولى عند صاحب المعجم اللغوي يستند الى تاريخ لغوي يبدأ في سوسور،فتجديد الموضوع النحوي عند الاخرين مرتبط بتحديد الموضوع اللغوي ككل وهو ما قام به دو سوسور[٦٧].وكان تحديده بداية انطلاق الدرس اللغوي الوصفي في اوروبا وبداية ثورة جديدة في حقل الدراسات اللغوية-اما عند المخزومي فاننا.وان كنا نراه يجعل موضوع النحو هو الجملة ويلح على ذلك في النقطتين اللتين قسم إليهما موضوع النحو في نظره ، نظن ان تعاريفه راجعة الى محاولته الاستفادة من اعمال البلاغيين على الخصوص ، فتعاريفه ليست مرتبطة بتحديد الموضوع اللغوي ككل كما قدمنا وانما هي مرتبطة بمحاولة الاستفادة من التراث البلاغي القديم [٦٨]. بالموضوع الأول يرحي كما عرفه بانه يعني النظر بالمعنى الحديث . ولكن قراءة كتابه ترجعنا الى كتابات البلاغيين وقد اشار الى بعض ذلك في التعريف ذاته واما الموضوع الثاني كما عرفه فلا نكاد نفهم منه شيئا بالتحديد ، هل يعني به فكرة الاساليب التي ورثها عن المجمع واللجنة او يعني به المورفولوجيا بالمعنى الحديث ؟ ونحن نميل الى انه يعني به الاساليب لانه خصّها بفصوله في نهاية كتابه ولاننا لا نجد في خلال عرضه النحوي ما يوحي بانه يحاول ان يدخل تجربته النحوية في اطار التجربة اللغوية العامة المعاصرة واذا شئنا ان نقول هنا شيئا قبل اوانه لاننا سنرجع اليه من بعد صرحنا بان تجربة المخزومي هي استفادة من اعمال المجمع واللجنة وابراهيم مصطفى واعمال علماء الساميات الذين درسوا بمصر في اوائل القرن واعمال البلاغيين وكانت هذه الاستفادات تكوّن النقد والتوجيه الذين كانا جوهر محاولته وغرضه من كتابه .

اما النقطة الأولى إلتي تتعلق بضرورة ابعاد شوائب الفلسفة التي علقت بالدرس النحوي عند العرب فهي قضية قديمة ناقشها الناس من اول القرن ،[٦٩] كما قدمنا. وليس المخزومي باول قائل بها.واللغويون جميعا مجمعون على ضرورة هذا الابعاد ولكنهم مختلفون في سبله

---

(٦٦) انظر المدخل الى النحو التوليدي لروليي بالفرنسية وانظر كتابات شومسكي ولاسيما مظاهر النظرية التركيبية .

(٦٧) لغوي سويسري صاحب « دروس في علم اللغة العام »ورأس المذاهب النبيوية اللغوية الاوروبية .

(٦٨) دلائل الاعجاز والمثل السائر للجرجاني وابن الاثير على الترتيب ويشير المخزومي الى اصول مذهبه البلاغية .

(٦٩) انظر على سبيل المثال « اللغة العربية عبر القرون » والمجمع اللغوي » وفي اللغة والادب » ذكرت من قبل .

وطرائقه : ايكون الابعاد يكمن فقط في رفض نـظرية العامل ؟ لقد رفضت هذه النظرية من قبل عند ابي مضاد ومع ذلك فقد بقيت في محاولة ابي مضاد شوائب اخرى ، ايكون هذا الابعاد كامنا في رفض التعليل والجدل ؟ ايكـون هذا الابعـاد متحققا اذا تـابعنـا المخـزومي في استفاداته كما اشرنا اليها آنفا ؟ على كل اذا تحقق ابعاد شوائب الفلسفة عن طريق رفض هاتـه المقولات فـان ذلك يبقى على التجربة النحوية قائمة ومشوهة ولان هذا الرفض سيكون بمثابة ردود فعل فقط لا يقف وراءها فهم. ومن ناحية اخرى ألأ يتجه النقد الى التجربة النحويـة القديمة الا في هذه المواطن المشهورة ؟ وما رأى المخزومي واسـلافه في ضـرورة تحديـد الموضـوع اللغوي ككـل بمعجمه ودلالته ونظمه وتركيبه الخ ؟ وما رأى المخزومي واسلافه في تصور النحو ؟ وما قدمناه من تعاريف له يدل على ان النحو تدخل منهجي في اللغة يقوم به النحو في اطار انظومة لغوية عامة يكون النحو احد اجـزائها·ان المخزومي وان حاول وضع علامـات يمشي بمقتضاهـا متأثرا باسلافه كما قدمنا فإنه مازال بعيداً عن ان يتصور النحو بمختلف تعاريفه كتدخل منهجي قد تتعدد امثلته واصنافه باختلاف المنطلقات المنهجيـة·وباختصـار فإن المخزومي واسلافه كانوا مازالوا يتصورون النحو العربي مطابقا للغة العربيـة وعليهم اصلاحـه في حدود اتمـام المطابقة وعدم تجاوز هذه الدرجة الى الاهتمام بمحاولة الدخول في النـطاق العلمي اللغوي العـالمي ولو انهم فعلوا لكانوا خير من يقدم لنا صورا مختلفة للنحو العربي كما يفعل الاورويبون نقول (لكانوا خير . . الخ) لما توفر لديهم من علم بالقديم وهو علم كان سيضاف اليه جديد يخصبه ولكن الجديد الذي اضيف الى قديمهم هو اما قديم بذاته كالبلاغة وابحاثها واما القـديم باعتبـار التـطور العلمي الحاصـل في الامم المتحضـرة ومثـالـه الاعمال المقارنيـة الساميـة التي استفاد منهـا المخزومي كـاعمـال ولفنسـون[٧٠] وغيره ولم يغنم من ذلـك الاخلطابين البحث الثابت والبحث التطوري التاريخي او المقارن . وهو خلط من جهـة اخرى جعـل قاريء عمل المخزومي يتبين ان المخزومي لا يبحث عن النظام النحوي او الصرفي اوعن البنية التي تهيكلت العربية على اساسها وانما يبحث عن الشرح لاجل الشرح مستعينا في ذلك بكل ما يقع على يده من جديد او قديم .

وكان بامكـانه حين اراد الاستفادة من السـاميات المقارنة ان يجعل كتابا مستقلا كما يفعل غيره من الغربيين من زمن بعيد ايضا[٧١] . ومن ناحية اخرى كان هناك قديم آخر استفاد منه كل الاستفادة وهو النحو الكوفي ولا غرابة في ذلك فالمخزومي كاتب كتاب عن الكوفة ونحوها[٧٢] ، وكل هذا القديم والجديد الذي التجأ اليه المخزومي لم يكن ملتجئا الية في اطار تخيل لغوي متكامل وانما ذهب اليه ذهابا يريد منه الترميم والإصلاح .

ان التيار البراجماتي تيار اصلاحي ترميمي كما قدمنا وقد زالت عنه الصفة البراجماتية الصرفة عنـد ابراهيم مصطفى والمخزومي زوالا غـير تام لانهما عنيـا بوضـع الخلفية النظرية،وما قدمناه عن انتقاد في شأنهما يجعلنا نصف التيار كله بالبراجماتية الاصلاحية[٧٣] .

التيـار الغـربي :

اذا كان التيار البراجماتي في رأينا راجعا الى الظروف الاجتماعية التي عاشتها البلاد العربيـة ـ ولذلـك كان

---

(٧٠) في كتابه تاريخ اللغات السامية .

(٧١) النحو التاريخي لبرونو ـ بالفرنسية .

(٧٢) استفاد منهج صيغة « فاعل » ودورها ـ النحو العربي ص ١١٩ النحو الكوفي (مدرسة الكوفة) ص٢٤١ . انظر كتاب الكنغراوي عن النحو الكوفي .

(٧٣) انيس فريحة ، وكتابه « نحو عربية ميسرة » يدخل في هذا النمط الا ان فيه وفي غيره من كتبه نكهة انعزالية مقيتة .

اهتمامه منصبا على قضية النحو وما اقترب منها من شئون مستعجلة كقضية الكتابة والمصطلحات ـ فان دوافع التيار الغربي لن تكون بالضرورة هي دوافع التيار البراجماتي اذ دوافع التيار الذي سندرسه الان مرتبطة برغبة عارمة اصابت عرب القرن العشرين جوهرها الاخذ عن الغرب المتقدم،وكان هذا الاخذ في اول الامر متعلقا بالماديات وكان الباب طيلة حقب مغلقا امام الانسانيات،فالمجتمع العربي يقبل كل ما يتعلق بتطوير امكاناته المادية ولكنه يرفض ان يصيب الضمير العربي قلق عميق تجره اليه انسانيات الغرب سواء كانت اجتماعية او بسيكولوجية او لغوية او انثروبولوجية الخ .

ودون ان نبتعد عن الموضوع اللغوي لننزلق في التفسيرات الاجتماعية لهذه الظاهرة نرى انه في خصوص القضية اللغوية يلزم الاشارة الى ان المهتمين بهدوء الضمير العربي ورفض الانسانيات قوم لا تدفعهم الى ذلك دائما دوافع علمية محضة،وان الذين اشرأبت اعناقهم الى الغرب يأخذون عنه انسانيته هم ايضا قوم لا تدفعهم فقط دوافع علمية محضة ، ذلك ان انسانيات الغرب ـ وان ظنت اقرب الى العلمية وكانت نتائجها نهاية مؤقتة لمسار تاريخي ـ ليست خالية من الخلفيات المجتمعية[٧٤] وكذلك الامر في الانسانيات العربية[٧٥] لانها هي ايضا نتاج فترة معينة من التاريخ ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من احكام قدمناها في خصوص الانسانيات الغربية . ولقد كان جرجي زيدان سباقا بكتابه (الفلسفة اللغوية) الى تنبيه العرب الى هذا الدرس اللغوي ولكن عمله بقي منسيا لدى الاوساط اللغوية العربية ولم ينل من الاهتمام ما كان حقيقا به او اذا كان قد قريء على نطاق واسع فانه لم يستفد منه في خصوص درس القضية اللغوية في النصف الأول من القرن العشرين بل ربما اعتبر عمله عند شديدي الحفاظ تطاولا على التراث اللغوي العربي بايراد مبتدعات لا عهد لهم بها ومع ذلك فيعتبر جرجي زيدان ابا للدرس اللغوي الغربي الحديث عند العرب وان كان صاحبه يقع في موقع تاريخي (قبل دوسوسوري) pre-Saussurien. ان حالة جرجي زيدان والمصير الذي لقيه مشروعه حين يقارن بالرغبة الشديدة في النقل عن الغرب في خصوص اللغويات بعد الاربعينيات ـ وهي رغبة اشتدت مع الزمن الى ان اصبحت اليوم نوعا من الحمى الفكرية في البلاد العربية ـ تجعلنا نربط ظهور التيار الغربي ظهورا بارزا في القرن العشرين بالتطورات المجتمعية ـ الفكرية التي كانت من حظ المجتمع العربي في هذه الفترة . ومن اهم التطورات المجتمعية ظهور كليات الاداب ذات التعليم العصري وارسال البعثات الى البلاد الاوروبية لاغراض اخرى غير جلب العلوم المادية . ولقد كانت بعثة منصور فهمي واحمد ضيف والخولي وزكي مبارك وطه حسين الخ وغير هؤلاء من البلاد العربية الاخرى الى البلاد الاوروبية تجعل منهم خير من يلقح الفكر العربي الحديث بالمناهج الغربية في مجال الانسانيات.وهكذا كتب لهذه البعثات الأولى ان تحدث الضجة الفكرية في المجتمع المصري لانها ادخلت اليه مناهج انسانية جديدة هزت كيان الضمير العربي .

وما فكر علي عبد الرازق وطه حسين الذي هز المجتمع العربي هزا إلاّ نتاج لتأثير الانسانيات الغربية المباشر على الفكر العربي.وعلى ما يظهر فان العدوى الفكرية بين الدراسات المختلفة تعمل عملها فبعد ان هزت بعض الاسس الكبرى التي يبني عليها المجتمع العربي الاسلامي مع مطلع القرن اصبح هزُّ الاسس الاخرى ـ ومن بينها التراث اللغوي النحوي العربي ـ ممكنا ولكن

(٧٤) فرويد وماركس وكراهية الماركسيين للمحضية اللغوية

(٧٥) انظر كتابات احمد عباس صالح عن اليمين واليسار في الاسلام وما شابهه .

مع ذلك يبقى تفسير هذه الظواهر الفكرية محتاجا الى درس عميق للمجتمع العربي في سيره العام.ولعل الثورة على الماضي الثقافي العربي الاسلامي كانت مرتبطة في الاساس بالرغبة في التغيير وهي رغبة عامة غامضة قد تكون استولت على ذهن فئات معينة من المجتمع العربي الاسلامي في القرن العشرين.ولا نستبعد ذلك فمازال حاضر الفكر العربي المعاصر يقدم لنا الدلائل على ارتباط الحفاظ في المستوى الاجتماعي السياسي بالحفاظ على المستوى الفكري وارتباط الثورة الفكرية والرغبة في نقد التراث بالرغبة في التغيير الاجتماعي السياسي.ولكن هذه التفسيرات الاستطرادية لن تشغل بالنا هنا عن الموضوع اللغوي الذي هو مناط كلامنا فيكفي اذن ان نعرف ان الساحة العربية عرفت مفكرين يرفضون في عروضهم اللغوية التراث اللغوي القديم كله وينادون بوجوب الدخول في العلم اللغوي المعاصر وهم في ندائهم هذا لا يفعلون الا ان يوجهوا الاذهان الى ضرورة الاندماج في حضارة البحر الابيض المتوسط,في حضارة امريكا في حضارة الدول « المتقدمة » وباختصار الى ضرورة الاندماج في الحضارة العالمية المعاصرة بشكل يذهب عن الفكر العربي الاسلامي الانعزالية التاريخية .

ان رغبة هؤلاء المجددين الراديكاليين تكون حلقة واحدة من حلقات الرغبة العامة في التغيرات التي سيطرت على عقل مفكري القرن العشرين العرب الذين اشتغلوا بانماط دراسية وثقافية مختلفة ومثلوا جزءا هاما من ناحية العدد والتصنيف من المهتمين بالثقافة .

ان القرن العشرين يمتاز بخاصية قلما اهتم بها وبتتبع اطوارها الدارسون ولكنهم دأبوا على درس مغايراتها بشكل انفصالي في اطار التقسيمات العلمية المتعارفة les disciplines.هذه الخاصية تتمثل في الصور التي اتخذتها الرغبة التغييرية المشار اليها آنفا ، لقد كانت صورتها الاولى سياسية وهي ثورة العرب بآمالهم على الخلافة العثمانية رغبة في الاستقلال العربي واختها صورة فكرية هي ثورة علي عبد الرازق على مفهوم الخلافة وشرعيتها،ثم كان موقف طه حسين من الشعر الجاهلي بعد الثورة العربية مباشرة،ثم كانت الثورة على الطرق في المغرب وقبلها الحركة السلفية في المشرق ثم كانت حركة قاسم امين لتحرير المرأة وهي حركة تبلورت في شكل اكاديمي عند منصور فهمي وبعد هذا كله كانت الثورة على الاساليب العروضية القديمة في اواخر الاربعينيات ثم كان استبداد علوم الغرب واستعمالها من لدن فئات من المجتمع العربي الخ،حقا لم تكن جميع هذه الثورات فكرية محضة ولم يكن اي تغيير فكري معلقا في الهواء فلها جميعها ارتباط بالارضية المجتمعية والمواقف الاجتماعية والاقتصادية للمنادين بها،بل ان بعض هذه الحركات كانت فيها يظهر ردا على احداث معاصرة لها. ويكفي ان نذكر مثال طه حسين وثورته الانكارية على الشعر الجاهلي لنربطها بالثورة العربية التي قادها الشريف حسين وابناؤه من اجل تأسيس دولة عربية غير عثمانية وذلك الربط يكمن في ان تحطيم الشعر الجاهلي بانكار صحته في تلك الظروف يعني في بعض ما يعني انكار امكان قيادة الدولة العربية لان هذه الدولة التي كانت في طور الثورة والنشوء لا تمتلك اساسا ماديا ولاتمتلك ايضا اساسا ادبيا ولغويا حقيقيا،على كل ففي اطار هذه الحركات ندمج حركة استيراد الجديد اللغوي من اوروبا.وتكون،على هذا الاساس الحركة التجديدية ذات الاتجاه الغربي حلقة من حلقات الثورة على البالي وحلقة من حلقات التغيير .

هذه الحلقات من التغيير الذي شهد القرن العشرين ليس في حقيقة الامر الا ردا على قرون من الجمود . وهذا الجمود يتمثل في طابقة من السلط الثقافية التي اماتت في الناس روح البحث والتنقيب مع كل مجال من مجالات المعرفة : كتاب او كتابات هما المرجع الأول والاخير .

اذا كان التيار البراجماتي كما قدمنا قد اهتم بالمسائل المستعجلة فان التيار التجديدي اهتم بعرض النظرية ولم يهتم في يوم من الايام باعطاء النموذج التطبيقي للنظرية التي يعرضها(٧٦).فاذا كنا نعرف في مجال الفلسفة شخصا مثل زكي نجيب محمود ممثلا للوضعية داعية اليها وشخصا اخر مثل عبد الرحمن بدوي وجوديا وداعية الى الوجودية كما يفهمها فاننا نعرف في مجال اللغويات عروضا للتراث اللغوي الغربي الحديث وكان العارضين ما كانوا من اتباع نظرية معينة اذ لو بلغ بهم الالتزام النظري الى هذه الدرجة لتحولت كتابتهم من كتابات عروضه الى كتابات تعني بالجانب التطبيقي وتفتح امام اللغوي في البلاد العربية افاقا جديدة لا غناء البحث اللغوي.ولهذا فلن تتيسر لنا المقارنة بين هذا التيار التجديدي والآخر البراجماتي لان الأول يعمل في المستوى النظري دون نموذج تطبيقي والثاني يعمل في المستوى النفعي التطبيقي دون نظرية لغوية مترابطة متكاملة.حقا نجد في كلام التجديديين انتقادا لمواضيع يعني بها التيار البراجماتي ولكنه انتقاد لا يصاحب بالنموذج التطبيقي ولذلك يفقد كل قوته .

ان الآثار التي سنعني بها في هذا العرض يجب ان تكون من الجانبين على طبيعة واحدة اي ان تكون نظرية كلها او تطبيقية كلها،وبما ان اعمال التجديديين نظرية كلها فاننا سنختار من الآثار اللغوية المعاصرة الصور المحافظة على المستوى النظري.ولما كان المجدودون قد اعتادوا ان يعنونوا اعمالهم باسم « علم اللغة » واعتاد آخر من عنوانا آخر هو « فقه اللغة » فلعل عرضنا هنا ان يكون نقاشا للصورة التجديدية ونختار لها محمود السعران في كتابه عن « علم اللغة » وللصورة المحافظة وسنختار لها صبحي الصالح ومحمد المبارك .

بين فقه اللغة وعلم اللغة :

ان من اوائل الذين استعملوا كلمة فقه اللغة في العصر الحديث علي عبد الواحد وافي(٧٧).وقد استعملها لتعين ضربا من الدرس اللغوي المرتبط على الخصوص بالعربية والساميات وتابعه في ذلك صبحي الصالح في كتابه عن فقه اللغة ومحمد المبارك في كتابه ايضا.وحينما نتساءل عن اصل هذه التسمية أهي ترجمة ام استئناس بتسمية قديمة تقف امامنا ثلاثة افتراضات :

١ ـ ان تكون هذه التسمية مرتبطة بنوع من الدراسات اللغوية السامية المدروسة في مصر قبل الاربعينيات .(٧٨)

٢ ـ ان تكون ترجمة لمقابلها الانجليزي Philology .

٣ ـ ان تكون استئناسا بالتسمية القديمة (فقه اللغة) التي لم تكن وحدها تعين الموضوع اللغوي .

ويجدر هنا ان نشير الى ان اللغويين العرب المحدثين لم يعنونوا كتبهم على الدوام بهذا العنوان (فقه اللغة) بل الظاهر ان اغلبهم سار على رأي من يرى ان الموضوع هو لغة فحسب فلم يهتم للعنوان اهتماما كبيرا . وهكذا رأينا كتبا مثل « احياء النحو » « الاشتقاق » والتعريب (التطور اللغوي التاريخي) ، دراسات بالعربية وتاريخها الخ . وهذا هو السبب في خفاء معنى هذه التسمية عند المبدئين في الدرس اللغوي يضاف الى هذا كما قدمنا من قبل ان الموضوع اللغوي مازالت تتجاذبه

(٧٦) هناك كتابان احدهما لعبد الرحمن ايوب تحت عنوان « دراسات نقدية في النحو العربي » تأثر فيه على استيحاء بالبنيوية وثانيها لتمام حسان تحت عنوان « العربية معناها ومبناها » فيه جهد ممتاز ولكن عيبه هو في خوف صاحبه من النظريات الغربية فاستسلم لها تارة والى النظرية العربية القديمة تارة اخرى وهذا شأن الأول كذلك .

(٧٧) اول من قدم عرضا وافيا عن النظريات اللغوية الغربية . سبقه جرجي زيدان وجبر ضومط واخرون ولكنه يمتاز عنهم بالجمع والتنظيم وحسن العرض .

(٧٨) يظهر ان هذا هو السبب . انظر ص١٠ من فصول في فقه اللغة العربية لرمضان عبد التواب وص ١٢ من « مقدمة لدراسة فقه اللغة » لمحمد احمد ابو الفرج وانظر ما نقله زكي مبارك في كتابه النثر الفني ٣٧/ ٢ .

نظريات بعضها قديم وبعضها مغرق في الحداثة . وهذا الاخير هو الذي يأبى الا ان يظهر نفسه تحت عنوانه البارز المعـروف (علم اللغـة) . ان هـذا الاضـطراب في التسميات حضاري في اساسه فالغربيون يدرسون تاريخ دراساتهم اللغوية تحت عنوان واحد رغم ما يضمه ذلك العنوان من مراحل قطعها الدرس اللغـوي عندهم ، فكل ما يتعلق باللغة من درس فهو علم اللغة سواء كان قديما او حديثا . والحداثة ليست مؤثرة في الموضوع وانما تأثيرها في المناهج وطرق التناول واتساع وضيق الافاق المدروسة ولهذا فان ما اعتدنا ان نعتبره مقـابلا لكلمـة الفيلولوجيا عندهم ليس كذلك فالفيلولوجيا هي التاريخ والادب واللغة والماضي الثقافي عموما والفيلولوجي هو رجل يهتم بالاداب القديمة.واذا كان سبويه مثلا لغويا في عرفنا وعرف الاوروبيين فـرجل كـالاصمعي والضبي يعتبر على اصـطلاحهم من اعاظم الفيلولـوجيين.حقـا تختلط الفيلولوجيا باللغة في بعض الدراسات كـدراسة الاب قليش المعنونة : « دراسة في الفيلولوجيا العربية » وهي متعلقة بمواضع لغوية صرفة ولكنه شذوذ لاحساب لـه . قلنا ان مـا نعـرفـه من اختـلاف في التسميـات اضـطراب حضاري . فـالوافـد الجديـد لما ينـدمج في الموروث القديم والذين قدموا هذا الوافد الجديد للعرب المحدثين لم يقدموه في صورته الحقيقية من ناحية هدفه، قدموه كعلم جديد وهو ليس علما جديدا انما هو مناهج . جديدة.وفي حالات اخرى قـدموا النتـائج ولم يقـدموا المقدمات وكانت صورة التقديم هذه سببـا في اعراض الموروث القديم عن هضم الـوافد الجـديد ، وكـانت صـورة التقـديم تـزداد سـوءا كلما تعـددت العنـاوين واختلفت من فقه اللغة الى علم اللغة الى اللسانيات الى الفلسفية اللغوية الى فلسفة اللغة .

ما انتجه العرب المحدثون مما يتعلق بهذا الباب قليل اذا قيس بما نشهده عند الغربيين وليت العرب اذ اختلفوا في هذا البـاب لم يشيعوا في الاذهان هذه التسميات التي لا تدل على علوم معينة او مواضع محددة ولكنها تشير فقط الى نظريات متبـاينة متعلقـة بموضـوع واحد فـالقضية اللغـوية اذن قضيـة واحـدة ولكن المشـارب مختلفـة . وينبغي لهذه المشكلة ان تضع في الاذهـان ان الفكـر اللغوي العربي بلغ حدا من النضج من زمن ما ثم مضى عليه حين من الدهر كان فيه الفكر اللغوي الغربي يتطور الى الامام فلما استفاق العرب المحدثون اصطدمـوا بما قـدمه اليهم الغـرب من منتجـات فكـريـة في مختلف المجالات المادية والنظرية اصطدموا بفيزيـائه وكيميـائه واستعماره وماله وادبه وفلسفتـه وعلم اجتماعـه وعلم نفسه واصطدمـوا في نهاية الامـر بعلم لغته . وكـانت مواقفهم من هذه المنتجات غير منسجمة ؛ انهزموا امام علمه المادي فنسوا طبيعيات ابن سينا وغيره ؛ وانهزموا امام علم اجتماعه فاصبح ابن خلدون وغيره في ذمـة الدين التاريخي ؛ وانهزموا امام علم نفسـه فنسوا علم النفس لابن باجة ولكن جزءا كبيرا منهم لم ينهزم امام علم اللغة الغربي واذا كانت مهمة شرح هذه الظواهر من مجال الفيلسوف او دارس التـاريخ الحضـاري فان ذلك لن يعفينا من ابداء بعض ما يمكن ان يكون سببا في ظهور المقاومة على المستوى اللغوي ويظهر ان الاسباب التالية تساعد على تنوير الافهام في هذا الموضوع :

١ ـ ضخامة التراث اللغوي العربي وارتباطه في الذهن باللغة العربية فالتخلي عنه تخل عن اللغة العربية هذه وجهة نظر الرافضين ولن تصح الا بعد البـرهان على صحة هذا الارتباط .

٢ ـ سوء تقويم الوافد الغربي وهذه نقطة تكاد تجزيء عن غيرها .

٣ ـ الحساسيات القومية التي يظهر مفعولها في الموضوع اللغوي ويختفي مع الموضوعات الاخرى .

٤ ـ مساندة السلطات التعليمية للتيار القديم .

ولعل النقطة الثالثة والرابعة لا تخرجان عن النقطتين الاساسيتين الاوليين وقد نبهنا على بعضهما من قبل وبقي ان ننبه على البعض الآخر الان وهو ارتباط التراث اللغوي بالعربية . ونعتقد في هذا المجال ان هذا الارتباط بالعربية اشبه بارتباط النظام السياسي الخليفي بالامة الاسلامية فقد كان يظن ان سقوط الخلافة العثمانية مثلا كان كافيا للقضاء على الامة الاسلامية وكيانها ولكن التاريخ دل على ان لا علاقة بين الامرين فسقطت الخلافة وبقي المسلمون وكذلك الامر فيما يتعلق بالتراث اللغوي والعربية فيمكن ان تبقى العربية وان أضيف الى تراثها القديم التاريخي تراث جديد لاسيما ان هذا التراث الذي يحاول اقامته بعض الناس ليس في جوهره الا تشكيلا جديدا للتراث القديم وللغة العربية يعكس عكسا اضرب في العلمية حقيقتها فقه اللغة ، علم اللغة ، اللسانيات ، الفلسفة اللغوية ، فلسفة التسميات ، الخ . التسميات ليست دراسات يستقل بعضها عن بعض ولكنها تسميات تتعلق باتجاهات مختلفة في الموضوع اللغوي الواحد .

اذن الواقع اللغوي عند العرب واقع تياري وليس هادئا متوحدا ، ولهذا ارتأينا ان نتابع حديثنا عن التيارات اللغوية عند العرب المحدثين واضعين في الاعتبار اننا نصف الواقع النزاعي لدرس كان الاليق به ان يبتعد عن الحساسيات الذاتية ليستمر متدفقا كما تدفق عند العرب الاقدمين وعند غيرنا من المعاصرين .

لقد شاعت عند العرب الاقدمين تسميات مختلفة للموضوع اللغوي ليس اساسها نزاعا بين تراثين ولكن اساسها الاعتراف بتوحد الموضوع اللغوي كما ان المحدثين من اللغويين المحدثين الغربيين قد اهتموا بالتمييز بين التسمتين الشائعتين اي بين علم اللغة والفيلولوجيا فجاء في معجم علم اللغة ان الفيلولوجيا ليست مرادفا لعلم اللغة . والعلوم المساعدة لكل واحد منهما ليست هي في حالها معا ولكن هذا التمييز ليس الا حديثا لان تطور علم اللغة الحقيقي يؤرخ باواخر القرن التاسع عشر بهذا المعنى نقول ان علم اللغة انفصل عن الفيلولوجيا (كما انفصل الطب والعلوم الطبيعية وعلم النفس عن الفلسفة في ظروف معينة) . ان الفيلولوجيا علما تاريخيا يهتم بمعرفة الحضارات القديمة او الماضية بالرجوع الى الوثائق المنتهية اليها وهذه الوثائق تساعدها على فهم ومعرفة المجتمعات القديمة . واذا كان علم الاثار يتعرف على حضارات الماضي عن طريق الآثار المادية فالفيلولوجيا بمعناها الفرنسي تدرك خصوصا البقايا الكتابية فهي اذن وفي جوهرها علم مساعد للتاريخ شأنها في ذلك شأن علم النقود وعلم الكتابات وغيرها . ان كل علم تاريخي يهتم بتوثيق النصوص التي يعتمدها وتصحيح صدق واصالة النص عن طريق نقد داخلي وخارجي . والفيلولوجيا نقد للنصوص تهتم باقامة النص اعتمادا على معايير داخلية وخارجية يرجع فيها الى تقنيات فيلولوجية صرفة (مقارنة النصوص والمغايرات وتاريخ المخطوطات) ويرجع فيها ايضا الى معطيات خارجية تنتمي الى تقنيات اخرى كالاحصاء اللغوي المقصود به تاريخ الوثائق غير المؤرخة او التاريخ الادبي والاقتصادي والاجتماعي الى آخره . وهكذا فان احتياج المقيم للنص اي الفيلولوجي الى كل هذه المعطيات الجزئية تجعل منه شخصا موصوفا بالاطلاع الواسع فالعمل الاول للفيلولوجيين هو تحقيق التصور العلمي والنقدي . ومما يلحق بما تقدم ان تقدم التقنية الى حد ابتكار العقول الآلية سيساعد الفيلولوجيا في المستقبل على اختصار الوقت الطويل الذي تتطلبه المقارنات بين النصوص ويساعد النص على ان يتحرر من ذاتية الفيلولوجي التي تصبغ هذا النوع من الاعمال النقدية اللغوية في آن واحد لان امكانيات اقامة النص متعددة في الاطار العلمي وهذه العقول الآلية في هذا المجال تندفع عن طريق اشير اليه من قبل الى عقلنة هذا النشاط .

صدر حديثاً

كنوز الفن الاسلامي

محمد المهدي

من الصعب إحداث معادل شبه موضوعي بين الابداع التشكيلي والكلمة التي تحاول ان تقدمه ، والاصعب محاولة تقديم نماذج من الابداع التشكيلي لفنون لم تعرف الفاصل التعسفي بين العمل الفني ومتذوقه او ما يمكن ان نسميه ، بمصطلح حسي ، الفاصل بين المنتج والمستهلك .

وقد كانت الفنون الاسلامية نموذجا متكاملا لهذا اللون من الابداع . والأشد صعوبة بالتالي الحديث عن معرض يقدم نماذج من هذه الابداعات تم انتقاؤها باحكام لا شك انه جاء محكما بدوره بمدى توفر مادة الابداع ومدى تنوع هذه المادة بحيث ينساب الخيط الخفي في يسر وسهولة وتلقائية داخل قطعة نسيج صغيرة تحاول ان توجز وتكثف النسيج الحضاري العام طولا وعرضا . . وما نشأت المعارض بمفهومها الغربي الا كمحاولة طبيعية لتقديم فن او ابداع الفرد وتبدو الصعوبة في محاولتها تقديم فن او ابداع الجماعة .

وقد حاول العنوان العربي للكتاب الذي نحن بصدد عرضه (كنوز الفن الاسلامي) ان يخرج به من التعميم الذي جاء في العنوان الأصلي (كنوز الاسلام) TRE-ASURES OF ISLAM فلاشك ان كنوز الاسلام او بالمعنى الدقيق الحضارة الاسلامية أبعد بكثير او هي مجموعة هائلة متآلفة فكرت وعمرت وشكلت وكتبت وصاغت وتفلسفت . . ولكن حتى هذا العنوان (كنوز الفن الاسلامي) لا يخلو بدوره من تعميم عند التعامل المقارن المباشر مع قضية لها اتساع جغرافي مكاني يمتد من الصين الى الاندلس او اتساع تاريخي زماني يمتد من القرن السابع الميلادي الى القرن التاسع عشر الميلادي . وكان الاجدر ان يحدث ما يشابه المطابقة بين مادة البعد الحضاري وبالتالي مادة الكتاب الاكثر محدودية وعنوانه ان يأتي هذا العنوان « من كنوز الفن الاسلامي » .

وعنوان الكتاب او في الحقيقة هذا الكتالوج الضخم قد تبع عنوان المعرض الذي اقيم في جنيف العام الماضي (معرض كنوز الاسلام) ـ وليس ذلك بعذر ـ فهذا العنوان يثير قضية اكثر بكثير من مجرد عرض لمجموعة كبيرة اصلية رائعة من فنون الحضارة الاسلامية . . قضية بنية التشكيل الاسلامي ـ اذا صح استخدام هذا المصطلح المنحوت في تلقائية طبيعية من تاريخ الحضارة الغربية ، ويتردد كثيرا من يستخدمه عندما يحاول ان يعادل بين طبيعة الابداع في الحضارة الاسلامية وبين الكلمات المحدودة بمصطلحات هذا الزمان واسلوبه في الابداع .

ونستعرض موضوعات الكتاب ثم نحاول مناقشة بعض ابحاثه التي طمحت لقراءة الباطن . كتاب كنوز الفن الاسلامي اذن ترجمة لكتالوج معرض كنوز الاسلام الذي اقيم لعرض المجموعات الخاصة . حقوق الطبع للنسخة الانجليزية تعود لمتحف الفن والتاريخ في جنيف ، والنسخة العربية لدار الاثار الاسلامية (متحف الكويت الوطني) . والناشر فيليب ويلسون راسل تشيمبرز (كوفنت جاردن .) لندن Wc 2E 8AA-وقعت النسخة العربية وهي التي نقدمها على هذه الصفحات في ٣٩٧ صفحة من القطع الكبير والورق المصقول والطباعة الفاخرة . يقدم الكتاب بالصور ٤٠٠ تحفة فنية و٢٠٠ قطعة نقدية.ويتناول الدراسة وشرح القطع تفصيلا مجموعة من العلماء والمتخصصين في الحضارة او الفن الاسلامي . وجاءت في صفحات الكتاب بالتتابع التالي تأليفا وترجمة . .

ـ المقدمة بقلم : بروفسور اوليج جرابار (هارفارد / كمبردج) ترجمة غادة حجاوي قدومي ، امينة دار الآثار الاسلامية .

ـ نظرية الجمال في الفن الاسلامي بقلم د . ا . س . ميليكيان شرفاني (المركز القومي للبحث العلمي . باريس) ترجمة حصة صباح السالم ، مديرة دار الآثار الاسلامية .

ـ المجموعات الخاصة وفنون الكتاب الاسلامية بقلم : ستيوارت كاري ولش (متحف فوج ـ ومتروبليتان وجامعة هارفارد) ترجمة حصة صباح السالم .

ـ فنون الكتاب . بلاد العرب . ايران . افغانستان . وسط اسيا . جامع التواريخ لرشيد الدين بقلم : بروفسور انطوني ولش (جامعة فيكتوريا . كولومبيا البريطانية) ترجمة حصة صباح السالم .

ـ شاهنامة الشاه طهماسب وفالنامة الشاه طهماسب . تركيا . الهند بقلم ستيورات كاري ولش ترجمة غادة حجاوي قدومي .

ـ اللاكية واللوحات الزيتية الفنية وفنون الكتاب المتأخرة بقلم: ب . روبنسون (متحف فيكتوريا والبرت لندن) ترجمة طريف ناجي الحص .

ـ الخزف بقلم : د . اوليفر واطسون (متحف فيكتوريا والبرت لندن) ترجمة غادة حجاوي قدومي .

ـ التحف المعدنية بقلم د . جيمس آلان (متحف اشموليان . اكسفورد) ترجمة غادة حجاوي قدومي .

ـ الاسلحة والعتاد بقلم : دافيد الكسندر (متحف مترو بليتان) وهوارد ريكتس ترجمة حصة صباح السالم .

ـ الطنافس والمنسوجات بقلم. دونالد كينج (متحف فيكتوريا والبرت) ترجمة : حصة صباح السالم.

ـ العناصر المعمارية والفنون الزخرفية بقلم : د . مارلين جينكنز (متحف مترو بليتان) ترجمة : غادة حجاوي قدومي .

ـ فن العملة الاسلامية بقلم : مايكل بيتس (جمعية النميات الامريكية) وروبرت دارلي ـ دوران ترجمة ومراجعة د . رمزي جبران بخغازي .

ـ المعروضات الاضافية ترجمة هناء فريد .

ـ قام بمراجعة الكتاب الدكتور احمد عبد الرازق احمد (جامعة القاهرة . جامعة الكويت . دار الاثار) وكتب مقدمة الطبعة العربية : حصة صباح السالم .

موضوعات الكتاب ـ المقدمة

المقدمة كتبها اوليج جرابار دون عنوان وان كان لها مضمون واضح كشف عنه من السطور الأولى ، فهو يقول انه برغم كثرة ما كتب وطبع خلال العقدين او الثلاثة الماضية عن الفنون في العالم الاسلامي ، فان بعض المعلقين قد ذهب الى القول بان نظرية الفن الاسلامي قد عفى عليها الزمن الا ما تناول المناطق الجغرافية للعالم الاسلامي او ما يقرب من خمسين بلدا في افريقيا واسيا وبعض اوروبا من الناحية العقائدية الباقية . ثم يضيف ان هذا العالم الاسلامي مازالت تجمعه فكرة الامة الواحدة من الناحية الدينية كما انه من ناحية اخرى يشكل في رؤ ية البعيدين عنه عالما تتقارب وحداته مع بعضها البعض اكثر من تقاربها مع غيره . من هذه العناصر الاهتمام بالزخرفة او البعد عن الايقونية (التصوير او النحت) ويصل الى ايجاز فيقول « فمن الواضح اننا اذن لم نهتد الى المصطلحات والمفاهيم المناسبة التي نستطيع معها ومن خلالها القيام بتفسير فنون الحضارة الاسلامية وتقويمها » (ص١٢) .

ويستطرد بما معناه ان هذا الفن نفسه ايضا لم يقدم لنا رؤ ية متكاملة ، ولذلك يلجأ الكاتب الى ربط فنون العالم الاسلامي بالعالم الخارج عنه او الدخول بـه الى منظور الفن العالمي الاكثر شمولا واتساعا ـ على حد قوله ـ عن طريق جذب الانتباه الى سلسلة من العلاقات التي تربط بين الاعمال الفنية الاسلامية والحضارات الاخرى .

ثم يحدد الكاتب ان هذا المعرض ـ اي معرض جنيف ـ يقوم بهذه المهمة اي مهمة الكشف عن دروب متعددة لهذه العلاقات من خلال تقديم نماذج فنية اختيرت كيفما اتفق . ويعطي منطلقا من هذه الفكرة عدة امثلة لتأثر الغرب بالفنون الاسلامية في صورة وحدات زخرفية او خطية منذ القرن العاشر الميلادي في فنون بيزنطية ومنذ القرن الثاني عشر الى الخامس عشر في الفن المسيحي ، منها باب الكاتدرائية المشيدة في القرن ١٢م في مدينة لوبوي الواقعة في جبال وسط فرنسا . هذا الباب زين بزخارف بأشرطة من الكتابات العربية . وبالمقابل يعطي امثلة لتأثر الشرق الاسلامي بالغرب ، فهناك مثلا علاقة بين الضريح الضخم المقام اوائل القرن ١٤م في مدينة سلطانية شمالي ايران وبين كنيسة القبة في مدينة فلورنسا. ويمكن تبين تبادل المؤثرات بصورة اقوى خلال المائة والخمسين عاما الاخيرة فأحد الغربيين يبني لنفسه بيتا اندلسي الطابع بالقرب من فلورنسا ونصل الى القرن العشرين فنرى تأثر ماتيس وبيكاسو والفنان الامريكي المعاصر فرانك ستيلا بفنون الاسلام .

ولا يبدي الكاتب دهشة لتبادل المؤثرات اللغوية او الفنية على حافة الحضارات ، ولكن ما يدعوه للدهشة ان تتباعد المناطق الجغرافية ومع ذلك نعثر على امثلة من تبادل المؤثرات ويحدد ثلاث نقاط يراها قد اسهمت في احداث الصلات الحضارية ، اولا المنحى التاريخي ، وثانيا التجارة الدولية ، وثالثا الاهواء والاذواق .

● **المنحى التاريخي** : ويقصد به الكاتب وجود لغة فنية تقنية كانت ابان القرن ١٧م على درجة عالية من التطور والمرونة جمعت جغرافيا من الاندلس الى الصين وان لهذه اللغة ثوابت فنية عملية مشتركة توفرت برغم التنوع العرقي ، منها بناء العقود والقباب او السرد القصصي او الزخارف المتنوعة . وقد بدأت تظهر التوليفة الجديدة في العراق عند نهاية القرن ٨م ثم انتشرت في خراسان

ومصر والاندلس وكان المهم فيها هو ابتداع اسلوب المعالجة وليس مجرد ابتداع طراز الاشكال .

وبرغم حديث الكاتب عن دور الحضارات السابقة على الاسلام في المناطق التي انتشر فيها الاسلام في تكوين هذا الاسلوب فانه يعود ويفصل او يخلط بين المصطلح الديني والمصطلح التاريخي والمصطلح الجغرافي فيقول (وعلى الصعيد الآخر يظهر الاحساس والوعي بفن الشعوب الاخرى (كذا) على المستوى الاسطوري ، حيث يشتمل كل من الملاحم الفارسية والف ليلة وليلة على رؤ ى الاشياء الجميلة التي صنعت عبر القرون والاثار المعمارية الرائعة التي شيدها ملوك المدنيات الغابرة والتي اندثرت ولم يبق منها سوى الاطلال لانها اعتبرت بطريقة ما اثارا وثنية تخالف روح الاسلام ، وكثيرا ما ارتبطت الاساطير الخاصة بانشاء الاوابد العجيبة بالنبي سليمان الذي استخدم الجن في بناء جميع الاوابد الغابرة)ص١٥ .

والشعوب الاخرى التي يتحدث عنها الكاتب هي التي شكلت او صاغت الرواية الدينية الوثنية وهي نفسها التي اعتنقت العقيدة الاسلامية الجديدة وهي نفسها التي تواصلت تاريخيا من القديم الى الجديد ، وهي نفسها ايضا التي تواصلت جغرافيا على نفس البقعة الواحدة . اذن لا يحق الحديث عنها كشعوب (اخرى) الا في حالة الفصل التعسفي بين ما كان سابقا على الاسلام وما جاء لاحقا له ، وبما يعادل تعادلا غير منطقي وغير منصف بين مؤثر الشعوب الخارجة عن نطاقه بحضارات ذات جذور مختلفة ولها بقعتها الجغرافية المعروفة والشعوب التي تواصلت على ارض واحدة وبتاريخ متواصل واحد .

ويؤكد هذا التعادل غير المنطقي لدى الكاتب حينما يقول : (باختصار فان الظروف التي مرت بها نشأة الفن الاسلامي قد اضطرته بشكل او بآخر الى استخدام لغة فنية مشتركة مع العديد من الحضارات الاخرى ولذلك كان ولازال التاريخ الاسلامي محافظا على صلته بمختلف التطورات التي حصلت في اوروبا او الشرق الاقصى عن طريق مشاهدة فنونها وتذوق جمالها بالاضافة الى استمراره في التأمل الدائم في مخلفات المدنيات التي سادت بلادا تحولت فيها بعد الى الاسلام)ص١٥ .

فَصِلة الشعوب التي اعتنقت الاسلام بفنونها السابقة على الاسلام لا تعدو عنده التأمل وصلتها بالفنون المجاورة تصل الى حد التذوق . . ونتبين وجهه نظر الكاتب او نراها متكاملة حينما يتحدث عن وصول المسلمين الى التعبير عن انطباعاتهم بشيء من الثبات والاستمرارية فقط خلال القرنين ١٦ - ١٧م اي المرحلة التي تطورت فيها طريقة التعبير التشكيلي في الفن الاسلامي بالمفهوم التشخيصي الغربي وبدأت تبتعد عن التعبير المجرد تأكيدا او توثيقا لفكرته عن التبادل الحضاري .

والغريب ان الكاتب الذي يرى هذه التكاملية النابعة من مصدر خارجي دليلا على الثبات والرسوخ الفني نراه يتشكك في المصدر الفني السابق والنابع من بين ظهراني الحضارات السابقة على الحضارة الاسلامية كالمصرية القديمة او الرافدية او الشامية فيقول (ولكن من المرجح ان يكون الفن الاسلامي قد تأثر قبل هذه الفترة بالاثار المصرية القديمة وبكل الاثار الايرانية الساسانية والاخمينية وكذلك الاثار الرومانية الكلاسيكية غير ان طبيعة هذا التأثير بحاجة الى مزيد من الاستقصاء المفصل) ص ١٥ .

● <u>التجارة الدولية</u> : او العامل الثاني الذي يسوقه الكاتب من عوامل الصلات الحضارية بين العالم الاسلامي والخارج ولقد كان لهذا العامل اثره في الازدهار الاقتصادي في عصر المماليك وبالتالي الانفاق بسخاء على الفنون والعمارة في القرنين الثاني والثالث

عشر او من قبل في بغداد خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . اما فيما يتعلق بالاثر الفني فلم يعدُ الامر في رأي الكاتب المؤثر التكنولوجي او العملي في تطور الفنون . والاهم ان التجارة قد هيأت للعالم الاسلامي الاطلاع على فنون الاخرين .

● **الذوق :** او العامل الثالث الذي يتحدث عنه الكاتب وبحذر شديد حيث يصعب تحديد الذوق العام للفن الاسلامي في رأيه في مسافة زمنية كبيرة ومساحة جغرافية واسعة . ولكن هناك ميزتين لهذا الذوق يقدمهما اولا طبيعة الفن الاسلامي العملية في عمارة او ادوات استخدام يومي وثانيا الاهتمام بتجميل السطوح بوحدات زخرفية وهو امر في رأيه يرتبط بطبيعة الفن العملي او التطبيقي كاستخدام الملابس حيث يكون في الامكان الاستبدال دون حاجة الى تعقيد الاشكال وحاجتها الى التفسير .

وكما نرى ايضا في هذا التفسير تأكيدا لفكرة الكاتب السابقة عن انفصالية الفن الاسلامي عن طبيعة فنون الحضارات السابقة عليه ، والتي ظهرت على نفس الارض واستبعادا لطبيعة فنون هذه الحضارات التي تبنت الرؤ ية التجردية حتى عند التشخيص وان التجريد في الفن الاسلامي جاء لذلك تصاعدا ونموا واستكمالا للرؤ ية السابقة . لقد اراد الكاتب ان يثبت في اختصار ان فنون الاسلام تكاملت ـ ان تكاملت ـ من خارجها وليس من توازن ذاتها وهذا طبيعي في حدود منطقة الانتقائي الفاصل بين السابق واللاحق فما بالك بالمعاصر . وفي هذا قصور حضاري لابد من تعديه ، ان لم نقل انه قصور تاريخي مقصود عدم تعديه وكيف يقيم، لا نقول باحث علمي ـ متذوق للفنون هذه السواتر التعسفية .

نظرية الجمال في الفن الاسلامي :

والبحث الثاني في الكتاب يأتي تحت عنوان : نظرية الجمال في الفن الاسلامي بقلم : سورين مليكيان شرفاني . وبعد ان يستعرض الكاتب نماذج من القطع الفنية النادرة المعروضة في متحف جنيف نراه يدخل في مناقشة حول المفهوم الخاطيء لتحريم التصوير في الاسلام ويعزي هذا التصور الى تعرف الغرب على المنمنمات اي المصورات الاسلامية بغزارة عن طريق ايران وبالتالي « فان الفنون التشكيلية في الاسلام تساوت بطريق الخطأ مع فن التصوير الايراني »ص١٩ .

وتأكد هذا التصور الخاطيء نتيجة لتبين الفرنسيين في شمال افريقيا ، بعد احتلاله في القرن ١٩ ، نفور اهل المنطقة الإسلامية من فن التصوير ، وبالتالي تكامل القول بان الاقلية الشيعية هي التي تبنت او اباحت التصوير دون السنة . ويرد الكاتب على هذا القول بان الواقع التاريخي يعارض ذلك لان الغالبية العظمى في ايران كانت تتبع المذهب السني حتى تولى الصفويون الحكم في بداية القرن ١٦م إذ كان معظم الحكام المشجعين لفن الكتاب في ايران من بين السنيين.كما قام العثمانيون بمحاربة الشيعة الايرانية وعدائها ومع ذلك تحمسوا لفن الكتاب وشجعوا المصورين والخطاطين الايرانيين في العاصمة التركية .

وتتكامل الفكرة على سطور الكاتب بشكل محكم تاريخيا فيحدثنا عن اصول التصوير الاسلامي منذ انتشار الاسلام ولمدة سبعة قرون ولكن ما وجد من تصاوير في الشام او مصر كان قليلا او ضاع اكثره بينما بقيت المصورات الايرانية .

وتتكامل ايضا ، تشكيليا او منطقيا ، حينما يربط بين التصوير اي الرسم وفن الخط او الزخرفة والذي قيل انه انتشر كتعويض عن التصوير المحرم فيقول : ان فن الخط كان المنبع ومنه خرجت الفنون الاخرى وانه يمكن تبين ذلك في احترام الفنان المسلم عند التصوير او

الزخرفة او الخط لقيمة التصميم . بل ان كلمة (نيجار) الفارسية التي فهمت خطأ عند الغرب بانها نقش هي في الحقيقة تعني تصميم .

وتتكامل ادبيا حينما يربط ايضا بين التصميم او الشكل الذي اصبح موضع عناية الفنان الشرقي وبين النص الادبي المراد تصويره في فن الكتاب او المنمنمات فيقول : ان رسم الاشكال ليس لمزاج شخصي ولكن لتصوير الصورة الذهنية التي تحتويها المعاني الاستعارية في النص الشعري او النثري كما ان اختيار الالوان تكامل ايضا مع التعابير المجازية لتعميق الفكرة وتأكيدها .

ثم يقيم الكاتب نوعا من الترابط بين السماء والارض فيربط بين استخدام الفنان لنفس العناصر حينما يعالج ادوات الاستخدام اليومي من خزفيات ومعادن وبين العناصر المعمارية الهائلة خاصة في القباب فالقباب الزرقاء ليست الا قبة السماء يحكم من تحتها (الملك) الكون الارضي وهي نفسها القباب في الاواني عند قلبها شكلا ولونا ومضمونا .

ويدخل الفنان الى مرحلة تجريدية جديدة حينما يبدأ في تجريد الاشياء والاكتفاء منها برموز ، واقتضى ذلك ادخال الاشعار الى ادوات الاستخدام اليومية الى جوار التجريدات ففي اناء من القرن ١٥م نجد عليه هذه الكلمات للشاعر حافظ « ان الذي يمسك الكأس في يده فله ملكية ـ جامشيد الى الابد ـ ان الماء وجد من خلاله خزر الحياة الابدية . ابحث عنه في حانة حيث يوجد الكأس » ص٢٢ . هكذا تحول الكأس الى رمز للسماء يصل الشارب بخالق الكون . وفي اناء اخر يعود لعام ١٥١٠م نجد هذه الكلمات (وحيث ان المحبوب الأول (الله) يرى وجهه المتورد منعكسا في اناء الخمر فان انعكاس وجهه يحول الاناء الى ينبوع الشمس . .) ص٢٢ .

وينتهي الكاتب في بحثه الى القول بان الفن الاسلامي تميز بالوجوه المتعددة للفنون المندمجة تماما وان هذا الحكم لا يصدره على الفن الايراني فقط فهو ينطبق ايضا على الفنون العربية الاسلامية حيث ظهر الميل لدى الخلفاء الاوائل نحو تقليد فكرة (الملوكية) التي سادت ايران ودفعت الى تشكيل هذا اللون من الفن .

ولا اريد مناقشة فكرة الملوكية دينيا التي طرحها الكاتب فهذا مبحث عقائدي يحتاج من اهله الى بحثه . ولكن ما يحتاج الى تبينه هو اغفال الكاتب للمصدر المباشر لهذا المؤثر لدى الشعوب العربية قبل الاسلام وذلك بافتراض ان عقائدها ايضا تبنت نفس الفكر « الملوكي » اي فكرة (ظل الله على الارض) وربما يكون من الافضل العودة تاريخيا الى العصر العباسي الثاني حتى نتبين المؤثرات الايرانية على اسلوب حياة الخلفاء وذلك اذا كانت هناك ضرورة الزامية قدرية تجعل توجيهات الملوك مصدرا لالهام فنون الشعوب .

واذا استطعنا ان نزيل من اذهاننا هذه المقولة لاستطعنا بالتالي ان نكسر هذا الحاجز التقليدي التعسفي الذي فصل بين فنون ما قبل الاسلام وفنون ما بعده ، وبالتالي يدعونا هذا الى توسيع نظرة الكاتب عند مناقشة موضوع جذور التصوير في الاسلام فقد ذكر ان جذور التصوير تبدأ مع بدء انتشار الاسلام في الشام ومصر واعتذر عن الخوض في الموضوع تفصيلا والاكتفاء في بحثه على التصوير الايراني لضيق المساحة . ولكنه اقفل الدائرة عند الحد الاسلامي ولم يلمح بمجرد تلميح او يتحفظ ـ وان كان الامر يحتاج الى تصريح ـ لجذور التصوير الاسلامي في الفن الفرعوني والرافدي والشامي القديم .

واكتفاء الكاتب في بحثه على المرحلة الاسلامية ادى الى قصور النظر في حدود المساحة الزمنية موضوع البحث دون تعمقها في اصولها وتبلورها بدرجة من

درجات التصوير شبه التجريدي في الحضارات السابقة على الاسلام ثم استكمال تجريديتها او اهتمامها بالتسطيح او التصميم في المرحلة الاسلامية .

لقد تعامل الكاتب مع النتائج دون الاسباب وادى ذلك بدوره الى قراءة الظاهرة في حدودها الجغرافية التاريخية او المكانية الزمانية دون الحضارية وادى هذا بدوره الى قوله بأسبقية الخط على الرسم ثم اندماجها في النص الادبي ثم المعماري . وكان الاجدر ان يكون الحديث عن اسبقية الرسم على الخط خاصة وانه يثبت بشكل قوي ان التصوير لم يكن محرما لا في ايران ولا في المنطقة العربية منذ ظهور الاسلام وانتشاره . ولعل التتابع المنطقي هو الحديث عن اسبقية الخط للرسم ثم التجريد اذا تتبعنا الظاهرة في الحضارات السابقة على الاسلام ويمكن تبين ذلك بسهولة في جداريات مصر والرافدين ، وتبعتها بعد ذلك مرحلة التصوير بروحها شبه التجريدية . ولكن هذه الدائرة لم تدخل في بحث الكاتب ومن هنا ايضا جاءت محاولة التنظير (العنوان نظرية الجمال في الفن الاسلامي) غير محكمة .

●●●

المجموعات الخاصة وفنون الكتاب الاسلامية

والبحث الثالث في الكتاب يأتي تحت عنوان (المجموعات الخاصة وفنون الكتاب الاسلامية) بقلم : ستيوارت كاري ولش . يبدأ الكاتب بالحديث عن بدء تعرف اوروبا على الفنون الاسلامية في القرن السابع عشر . عن تعرف رمبرانت على فن المنمنمات ووصول بعضها الى بلاد النمسا وسان بطرسبرج ثم اثر الاحداث السياسية في نهب او نقل المكتبات او التحف الاسلامية كالاستعمار الانجليزي في الهند او الثورة الروسية او تحويل المكتبة العثمانية الى متحف (طوب قبو سراي) وبالتالي صار من الصعب على الدارس تتبعها بعد انتشارها في انحاء العالم .

وخلال القرن التاسع عشر اتسعت دائرة الاهتمام بالاثار الاسلامية او الشرقية بشكل عام ولئن ضاعت مجموعة الجامع « وارين هيستنج » فقد بقيت لنا مجموعة « ريتشارد جونسون » الى الآن في المتحف البريطاني . وارتفع الهوس بالاثار الشرقية في المرحلة الرومانسية التي اجج الحماس لها الأدباء والفنانون وانتفع منها التجار من الارمن واليهود والصينيين ولذلك جاء عمل البروفسور السويدي ف . مارتن في اواخر القرن التاسع عشر رائدا عندما تناول بالبحث والاقتناء وجدية الدراسة مجموعة كبيرة من التحف والف كتابه (رسم المنمنمات والمصورون في بلاد فارس والهند وتركيا) ، ونشره عام ١٩١٢ .

وظلت فوضى تجارة الاثار او ما سمي بالعصر الذهبي للجامعين الى ما بعد الحرب العالمية الأولى . كثرت المنشورات والمطبوعات وصارت باريس مركزا للبيع والشراء واختلطت الاسماء بين هواة امثال « جاك دوسيه » والكونتيسة « دي بيهاج » وباحثين جادين امثال فردريك زاره وادولف ستوكلت وفنانين متأثرين بالوحدات الزخرفية الاسلامية امثال « موكا » ومصممي مجوهرات امثال كارتيه .

وبدأت الاسر الثرية دخول ميدان الاقتناء « مديكي » و « روتشلد » والبارون « ادمون » والبارون « موريس » وتخصص تجار الانجليز في المجموعات الهندية بينما تخصص تجار فرنسا في منمنمات ايران وتركيا ثم دخل الميدان ايضا الاسر الهندية الثرية وكرد فعل للحالة الاقتصادية العامة في العالم عام ١٩٢٩ حدث كساد في سوق البيع وبرغم اقامة معرض عام ١٩٣١ الا ان الكساد او ضعف السوق ظل سائدا الى الخمسينيات .

ويتحدث الكاتب عن تجربته مع الفن الاسلامي في فترة عمله بمتحف « فوج » ودوره عام ١٩٧٥ في بيع

شاهنامة روتشيلد الاسطورية المزودة بالرسوم والتصاوير في عهد الشاه طهماسب ثم دراسته الشاقة لها ونشرها بالتعاون مع مارتن بي ديكسون ثم دور متحف فوج الرائد في مجال العناية والاقتناء وعقد الندوات حول الفن الاسلامي وكيف كان وراء بحث « انطوني ولش » لمجموعة صدر الدين خان . وكيف بدأ هذا الامير المسلم المهتم بالفن الاسلامي مرحلة جديدة يسميها الكاتب ثورية من اهتمام اهل المنطقة العربية والاسلامية بجمع التحف الاسلامية او تراثهم القديم من انحاء العالم وكيف كان مزاد « كولناجي » عام ١٩٧٦ علامة فاصلة في ذلك . ومن هنا ايضا تأتي اهمية معرض جنيف ١٩٨٥ فمعظم العارضين فيه من اصحاب المجموعات الخاصة من العرب او المسلمين .

فنون الكتاب

ويأتي الموضوع الرابع في الكتاب تحت عنوان (فنون الكتاب) بقلم انطوني ولش ، ويشمل بلاد العرب وايران وافغانستان ووسط اسيا وجامع التواريخ لرشيد الدين . ومن خلال عرض الكتاب وشرحه لـ ١٢ مخطوطة عربية متراوحة من القرن ٩ الى القرن ١٤م ، يتحدث عن فن الكتاب او فن الخط في المنطقة الناطقة بالعربية او التي تحولت الى اللغة العربية مع تفاوت الازمنة وتقاربها ارتبط فيها هذا الفن بالقرآن الكريم ، وبذلك ظهر الخطاط والمزخرف والوراق والمجلد ، وكلها فنون وجدت رعاية من المؤسسات الرسمية ومن اصحاب الثراء وظهرت الخطوط الكوفية والنسخ والثلث ثم المغربي وبينها زينت المصاحف بالوحدات الزخرفية المجردة صاحبت الكتب العلمانية الرسوم التوضيحية وظهرت المخطوطات المصورة في بداية القرن ١١م ، وكان رعاة الفنون العرب في الاندلس او بغداد . ولكن بعد سقوط الاخيرة في ايدي المغول عام ١٢٥٨ تحول المركز الى مصر المملوكية حيث اعتنى حكامها بالعمارة بالدرجة الأولى ، ومنذ القرن ١٣م بدأت المناطق الشرقية من العالم الاسلامي تنتعش ودخلت تحت التأثير الحضاري الايراني .

وعن فن الكتاب في ايران وافغانستان ووسط اسيا ومن خلال عرض ٣٤ مخطوطة ومنمنمة ، يقول الكاتب ان المؤثر العربي بفنه الكتابي كان واضحا على ايران بعد دخول الاسلام فبرغم محاولة اللغة الفارسية للعودة الا ان فن الخط العربي تطور في ايران نفسها الى درجة كبيرة . وبعد سقوط بغداد ١٢٥٨م بدأت المرحلة الالخانية في ايران ، وحكامها من اصل مغولي مالبثوا ان اعتنقوا الاسلام وتحمسوا لفنونه منذ القرن ١٤م ، وبعد تفتت الدولة الالخانية وظهور دولة تيمورلنك انتقل مركز الفن الايراني الى « هراه » حيث ظهر فيها الفنان العظيم بهزاد والخطاط المعروف مير علي وبتكوين الشاه اسماعيل الاول ١٥٠١م الدولة الصفوية الشيعية جعل تبريز مركزا سياسيا وفنيا .

وتأتي المرحلة الهامة من رعاية الفنون الصفوية في عهد طهماسب ١٥٢٤/١٥٧٦م الذي قضي فترة طويلة من حياته راعيا للفن والفنانين . وفي عهده كتبت ورسمت الشاهنامة والتي اقتضى تنفيذها عشرين عاما الى ان تحول الشاه عن رعاية الفنون وبدل حياته في عام ١٥٤٥م وفي عهد حفيده الشاه عباس الأول ١٥٨٧/١٦٢٩م عاد الاهتمام بالفنون بشكل واسع ولكن بموته بدأت مرحلة تدهور انتهت بغزو افغاني ١٧٢٢م وفي عهد « القاجار » في القرن ١٩ استعا د الفن الايراني بعض نهضته ولكن باسلوب جمع بين الاصول الايرانية والمؤثرات الغربية الواضحة .

وفي حديث الكاتب عن مخطوط جامع التواريخ لرشيد الدين يقول : ان هذه النسخة كتبت باللغة العربية بامر من الحاكم الالخاني (اولجاتيو) عام ١٣١٤ في تبريز . وكان رشيد الدين وزيرا له اهتم بتشجيع

الفكر ونسخ الكتب في الرشيدية دار الرشيد الدين شرف تبريز . وقام بتكليف منه بكتابة تاريخ الشرق الاقصى واوروبا وجنوب اسيا منذ بداية الخليقة حتى الفترة المعاصرة له وقد سجل المؤلف هذه المراحل بعد ان رجع واستمع الى العديد من المصادر المقروءة او المروية ، ووقع الكتاب في اصله في اربعة اجزاء تناولت هذه المراحل ولم يتبق منها سوى هذه المخطوطة التي تقع في ثلاث وستين صفحة ، خمس وثلاثون صفحة منها مصورة بها مائة منمنمة من رسم فنانين مجهولين وقد تنقلت هذه المخطوطة بالبيع او الاقتناء ونعرف ان للكتاب نظيرا او نسخة اخرى موجودة الان في جامعة ادنبرة بانجلترا .

ويتميز كتاب جامع التواريخ بتأثير الطابع الصيني في رسم الوجوه ، كما صرح فيه برسم الرسول وسلالته باعتباره من كتب التاريخ والتراجم وليس من الكتب الدينية او النصوص القرآنية ويعتبرها الكاتب ليس مجرد عمل فني ولكن بداية للتقاليد العظيمة للكتاب الايراني .

●●●

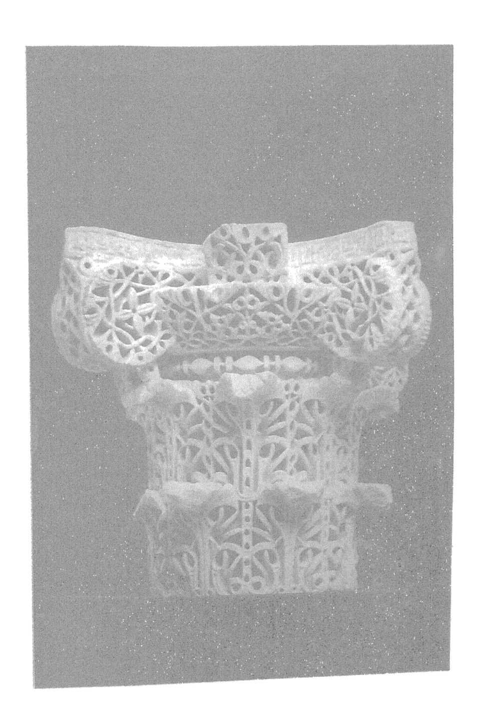
الشاهنامة والفالنامة

ويأتي الموضوع الخامس من الكتاب تحت عنوان شاهنامة الشاه طهماسب ثم فالنامة الشاه طهماسب ثم فن الكتاب في تركيا ثم الهند بقلم ستيوارت كاري ولش .

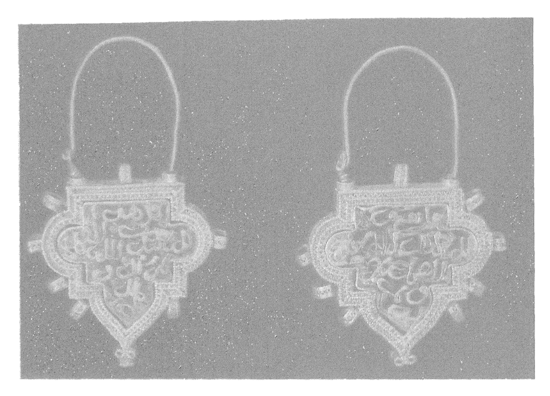
وتعرف شاهنامة طهماسب (كتاب الملوك) باسم شاهنامة هوتن آخر من اقتناها ورغم انها تنسب الى الشاه طهماسب الذي بدأ حكمه عام ١٥٢٤ فان بدء كتابتها كان ايام والده الشاه اسماعيل الصفوي ١٥٠١/١٥٢٤ . وكانت كما يذكر الكاتب الى عهد قريب تحتوي على ٧٥٩ صفحة تبلغ ابعادها ٣١,٨×٤٧,٠سم وابعاد مساحة النص ٢٦,٩×١٧,٠ سم داخل الهوامش المسطرة . والشاهنامة تعتبر بالتالي من اعظم وافخم النسخ الملكية المصورة التي تناولت الملحمة الايرانية الوطنية .

ويتحدث الكاتب ، مستعينا بـ ٢٢ صورة من منمنمات الشاهنامة عن بدء العمل فيها بعد استقرار الدولة الصفوية في تبريز عام ١٥١٤م وارتباط الشاه اسماعيل بالفنان سلطان محمد الذي رسم اعظم منمنمات الشاهنامة مع عدد اخر كبير من الفنانين وتميز اسلوبه بالاهتمام برسم الشياطين والتنينات والزهور والالوان القوية . وحدث في عام ١٥١٤ ان ارسل الشاه اسماعيل ابنه طهماسب بعد مرور عامين فقط على مولده الى « هراه » ليكون واليا اسميا عليها وكان لهذا الحادث اثره فقد تكون للابن مزاج فني مختلف وفي ظل رؤية الفنان العظيم بهزاد الذي كان مقره في هراه ، وعند عودة الابن عام ١٥٢٢ وتوليه امر الكتاب بعد ذلك بدأ ما يشبه الصراع بين المزاجين ولكن الفنان سلطان محمد كان من البراعة وقوة الابداع الى حد احداث تركيبة فنية غير مصطنعة تجمع بين مدرسة هراه ومدرسة تبريز بين التيموري الانيق لاستاذه بهزاد وبين التركماني التعبيري الذي تبناه الشاه اسماعيل .

ويتحدث الكاتب عن الجهود التي بذلت في تنفيذ الشاهنامة وكيف قاد رسومها اعظم ثلاثة فنانين انذاك سلطان محمد وميرمصور واقاميرك وقد جندوا للعمل معهم العديد من الاسماء منها دوست محمد وميرسيد على وميرزا علي ومظفر علي وعبد الصمد وغيرهم الكثير . وقد خرج العمل لذلك عظيما ليصبح مرجعا فنيا رائعا للمرحلة الصفوية التي جمعت بين التكوينات والالوان التركمانية والتيمورية بصرف النظر عن المؤثر او الدفعة الأولى التي جمعت بين مزاج الاب الشاه اسماعيل وفنانه المفضل سلطان محمد والابن طهماسب وفنانه المفضل بهزاد .



١ - تاج عمود رخام محفور اسبانيا ٣٦٢هـ / ٩٧٢م ارتفاعه ٣٨سم من مقتنيات دار الآثار الاسلامية (متحف الكويت الوطني)



٢ ـ زوج اقراط ذهب / الأندلس القرن ٦هـ / ١٢م (دار الآثار الاسلامية) .

اما عن الفالنامة وتنسب ايضا للشاه طهماسب وتعرف بـ (كتاب النبوءة) فقد امر الشاه طهماسب بتنفيذها عام ١٥٥٠م بعد ان تبدد حماسه للفنون وبدأ انشغاله بأمور الدولة منذ عام ١٥٣٧ وتحول الى تطرف ديني وصل به الى حد اصدار مرسوم (التوبة الصادقة) الذي حرم فيه التصوير في دولته عام ١٥٥٦م . وجاءت لذلك الفالنامة بهدف اعطاء المشورة وعرض التكهنات والتنبؤات وتنسب بصفة تقليدية للامام الشيعي جعفر الصادق . وتنسب رسوم الخمس عشرة منمنمة الكاملة والثلاث قطع الصغيرة المعروفة لدينا منها الى الفنان اقاميرك ومعاونه عبد العزيز .

وعن فن الكتاب في تركيا يقارن الكاتب بين المنمنمة الايرانية والنمنمة العثمانية وكيف اهتمت الاولى بالنص الادبي بينما اهتمت الثانية بتصوير الحياة اليومية او معارك السلاطين . اما في الهند فمنذ ارساء قواعد دولة اسلامية في نهاية القرن الثاني عشر بفعل الاتراك كانت اللغة التركية هي اللغة القومية والفارسية هي لغة المثقفين بينما كانت اللغة العربية لغة الدين . وتأثر الفن المغولي في الهند كما حدث ايضا في تركيا بالفن الايراني وكان عصر الحاكم المغولي « اكبر » ١٥٥٦/١٦٠٥م يمثل مرحلة ازدهار للفنون وان بدأت تظهر الملامح الاوروبية وازداد الحماس للفن في عصر ابنه « جهانجير » وفي عهد ابنه الشاه « جهان » اتجه الفن وجهه رسمية بهدف استعراض ثراء الدولة وعشق الشاه للمجوهرات الصارخة او الفاترة الحس . وعادت محاولة احياء التصوير في عهد ابنه « اورانجزيب » ولكن الدولة كانت قد انهكت ووقعت تحت السيطرة الانجليزية في القرن الثامن عشر .

ولعل ما يستحق التعليق ولو بشكل سريع في بحث انطوني ولش عن فن الكتاب والمنمنمات هو استخدامه للمقاييس الغربية في شرح منمنمات القرن ١٥ فيقول عن منمنمة اربعة اشخاص يقفون تحت شجرة وهي من مقتنيات دار الاثار الاسلامية بالكويت : « استطاع الفنان عن طريق مهارته ان يضفي على عمله المبدع شيئا من التوتر والانشراح اثناء هذا اللقاء من خلال التعبير المتقن عن مسحة الخجل المرتسمة على وجه كل فرد في هذا المنظر الخلاب . . » (ص٦١) . ويتكرر هذا التشريح ، او في الحقيقة ، الوصف التشخيصي او التفسير المباشر في العديد من المنمنمات .

ولا ننسى ان القرن الخامس عشر في ايطاليا هو الذي اخرج بوتشيلي ومعه الثلاثة الكبار رافائيل ودافنشي وانجلو بما لهم جميعا من قدرة على تصوير الوجوه من انفعالات دقيقة لايمكن ان ترقى اليها المنمنمات من هذا الجانب.والحقيقة انه من الظلم مقارنة المنمنمات باعمال النهضة من الجانب التشخيصي حيث كانت لهذه المنمنمات رؤ ية مختلفة نابعة من تراث تجريدي حتى عند التشخيص . . لقد عمدت الى تكرار الوجوه في فروق لاتكاد تذكر ، ومن المبالغة او من المقاييس الخاطئة البحث عن الانفعال المؤقت او الدقيق فيها.انها كانت تسعى كرؤ ية فنية خاصة الى تقديم العام وليس الخاص ، تقديم التصميم وليس التفصيل ، تقديم الهيكل او البنية الداخلية وليس الشحم او الشكل الخارجي . انها كغالبية فنون الشرق تسعى الى تقديم الثابت الأزلي وليس المتحرك الفاني .

وانطلاقا من هذه الرؤ ية الخاصة نجد مستوى المنمنمات يسير الى انخفاض حينما يسعى الى البحث عن رؤ ية غربية أو رؤ ية شبه واقعية . وتابع في ذلك سلسلة كبيرة من اعمال رضا عباسي ومعين مصور في محاولة المواءمة بين الروح الشرقية والروح الغربية انتقالا الى منمنمة (شاب يبدو عليه اثار حروق) من القرن ١٧ ص١١٥ التي تحاول تثبيت الانفعال المؤقت . وتصل هذه المحاولة الى حد تقليد يطابق مرحلة الاستشراق

الفني التسجيلي في منمنمة لوحة (هندي ورع يسير بالقرب من مخيم) وتعود لعام ١٦٥٨ ص ١٢٦ . او في المنمنمة « اللوحة » القوطية (امير شاب يتلقى التعليمات) وتعود لعام ١٦٧٥ ص١٢٧ أو في المنمنمة « اللوحة » التي استحضرت عصر النهضة الايطالية شكلا ومضمونا فعنوانها (جوديث وهولوفيرنس) من عمل محمد زمان وتعود لعام ١٦٨٠ ص١٢٩ .

والقضية تتعلق بفنون حافة الحضارات والتي تنشأ نتيجةً للتداخل الحضاري فيحدث التأثير المتبادل ولكن لا يخرج منه بتوليفة مبدعة الا القوى . واذا قارنت مثلا بين منمنمة (حمزة يصارع العفاريت) من مخطوط « حمزة نامة » القرن ١٦ ص ١٤٦ وما رسمه الفنان « بيتر بروغل » أيضا من القرن ١٦ من المدرسة الفلمنكية ستجد ان الاصالة تتوفر لكل منها برغم وحدة الموضوع ، وهو تصوير عالم الغيب والخرافة . لقد عاش كل منها تراثه في مرحلة قوة وبذلك صدر الابداع اصيلا . ولا يمكن ايضا ان نقارن مثلا ابداع « ماتيس » او « هنري روسو » أو « كلمت » او غيرهم ممن استخدموا الوحدة الزخرفية او تنقية الطبيعة على طريقة الشرق ،بالمنمنمات، المغولية او التركية في مرحلة تقليد المقاييس الغربية . لقد تفوق هنا المستلهم من المستلهم منه لانه تعمق بعض من ذاته في مرحلة القوة او الاصالة .

ونستطيع ان نتبين ذلك بوضوح في بحث الكتاب السادس (اللاكيه والرسوم الزيتية وفنون الكتاب المتأخرة) بقلم ب دبليو روبنسون.فبرغم حماسه منذ بدء حديثه دفاعا عن الفن « الزندي » و « القاجاري » خلال القرنين ١٨/ ١٩ م ـ وكيف انه ظلم او اختلط فيه الغث بالسمين وان لوحات هذه الفترة ارتفعت اسعارها الان فانه يعترف ان هذا الفن جاء خليطا من الايراني والصيني والبيزنطي والبغدادي والغربي ولكنه يعود فيقول إنهفنان هذه المرحلة شكل منها جميعا اسلوبا متميزا .

وبعد ان يعدد اسماء بعض الفنانين في هذه المرحلة يكشف عن ميلهم الممسوخ تجاه الفن الغربي تقليدا ساذجا خاصة بعد بعثه الفنان « ابو الحسن الغفاري » للدراسة في اوربا عام ١٨٤٨ وبعد رحلة الشاه ناصر الدين الى اروبا عام ١٨٧٣ .

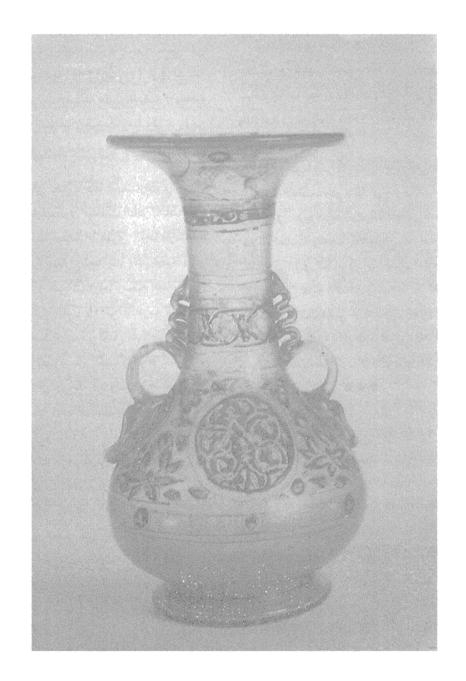
ولعل اهم ما يمكن الانتباه الى خطورته في هذه الفترة ولايتبينه الكاتب ـ وهو تبنيها الى جوار الاسلوب لفن الاقتناء في حدود اللوحة او ادوات القصور وهو ما ابعد مزاج الخاصة والعامة بالتدريج عن مفهوم الفن الاسلامي الذي انداح في حياة الفرد استخداما من العمارة الى ادواته الخاصة وثبت التذوق العام عند مرحلة الفن التشخيصي او التسجيلي الحسي المباشر . وهو ما حدث مشابه له في العالم العربي ـ وما زلنا مثبتين عنده ـ وبالتالي جعل فنون الاسلام غريبة على اهلها .

●●●

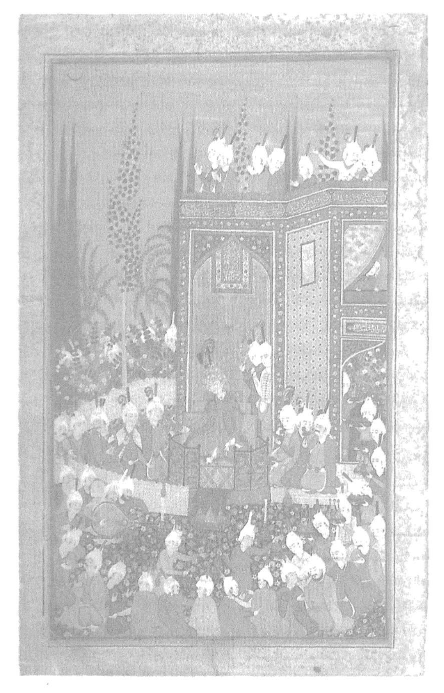
الخـزف

ولعل فن الخزف من اروع ما ترك لنا الفنان في العالم الاسلامي القديم بأصالة خاصة وابداع متميز فهو فن خرج من رؤية فنية لها استقلالها.ويتناول بحث اوليفر واطسن السادس في الكتاب هذا الموضوع فيتحدث عن بدء استقلالية الفنان في العالم الاسلامي عن فنون الخزف الصينية . وبرغم خروج الخزف الاسلامية اقل صلابة من البورسيلين الصيني فانه تميز في التزجيج القصديري بدفء ونعومة في الملمس . وتميز في الوان الفخار المزجج بطلاء رصاص بلمعان براق . وتميز في آنية (الفرت) FRIT بلمعان باهت . . . والاهم من كل ذلك تمكن الفنان من وحدته الزخرفية وصياغتها باحكام على كل خامة استخدمها في ابداع متجدد .

ويقسم الكاتب من خلال عرضه لـ ٥٤ نموذجا



٣ ـ قارورة زجاج / سوريا او مصر ٨هـ/ ١٤م (دار الاثار الاسلامية) .



٥ ـ «الاحتفال بالعيد» . منمنمة سلطان محمد (تبريز او هراة ١٥٢٦ / ١٥٢٧م) لاحظ اهمية التصحيح الذي جعل الوجوه دوائر متقاربة متشابهة تدور في دائرة تصاعدية . له مقاييس خاصة يستقل بذاته عن الواقع ولا يقارن بأسلوب النهضة الابطالية التشخيصي .

الانتاج الخزفي من القرن ٩ الى ١٧م الى ثلاث فترات : الاولى الانتاج الخزفي من القرن التاسع الى الثاني عشر ، وكيف استطاع الفنان ان يخرج في الدولة العباسية من اسار الخزف الصيني كصناعة بصياغة بالخزف بالبريق المعدني وأعطاه ذلك حرية في التراكيب التي شكلها على الخامة . وانتقل هذا الاسلوب الى مصر الفاطمية ومنها الى سوريا ثم وصل الى الاندلس شرقا وايران غربا . والفترة الثانية من القرن ١٤ الى ١٧م ، وفيها يمكن تبين استقلالية الخزف الايراني في المقاطعات الشرقية او في تركيا بعيدا عن المؤثر الصيني . ولعل الفترة الثالثة التي ظهرت ايضا في القرن الثاني عشر والثالث عشر تمثلت في احياء الفنان الايراني لتقنية خزفية مصرية قديمة تتركب فيها العجينة الصناعية من مسحوق الكوارتز المضاف اليه خليط مكون من طينة بيضاء تعرف بعجينة الفريت FRIT . هذه التقنية اعطت للفنان قدرة تشكيلية اوسع ثم جاء اسلوب الرسم تحت طلاء التزجيج ليعطي بدوره حرية حركة اخرى للفنان الخزفي وذلك مع استمرارية الابداع بالاسلوب القديم من استخدام الرسم فوق التزجيج او البريق المعدني .

●●●

التحف المعدنية

البحث السابع من الكتاب يأتي تحت عنوان (التحف المعدنية) بقلم : جيمس دبليو آلان ويعود بنا باستعراض ٥١ قطعة معدنية رائعة الى فن من الفنون الاسلامية النادرة . فن من فنون الحياة اليومية فبعد ان يستعرض لنا الكاتب كيف دخلت الادوات المعدنية بقيمها الجمالية المجردة في كافة مناحي الحياة الخاصة والعامة وحتى القتالية يبحث عن كيفية معالجة الفنان لمشكلة ارتفاع سعر المعدن الغالي كالذهب والفضة وكيف استعان بالمعادن الاخرى الرخيصة وكيف عالجها تشكيليا بحلول بسيطة حتى تتمتع بقدرة المطاوعة لتشكيلاته المجردة .

ويقوم الكاتب ايضا بسياحة تشكيلية تتنقل فيها العين الفاحصة اللماحة بقراءة خيوط النسيج الداخلي لبنية التشكيل في المادة المعدنية الصغيرة والمواد المعمارية الكبيرة وربما الصرحية فكلها تنبع من مصدر الهامي واحد . فالمبخرة المعدنية تتواصل تشكيلية مع المخطوطات بل ان اشرطة المحبرة العرضية تشابه الرسوم الجدارية . والمقصود بالرسوم على الخوذة القتالية ليس قراءتها في ساعة توتر القتال ولكن المقصود بها التذكير بروح الحضارة . بل ان هذا الهاون الذي صنع لسحق المواد الغذائية له بنائية تشكيلية كضريح برجي . ويعطي الكاتب امثلة من معروضات المعرض تكشف ايضا عن المؤثر المتبادل بين وحدة النسيج الزخرفية ووحدة القطع المعدنية فهذه الزخارف الهندسية تتصل بحرير الصين والموصل . وهذه الدوائر التي تحتضن الوحدات النباتية او الكائنات الحية او الكتابة مستوحاة من الحرير البوهي او السلجوقي .

ويطرح الكاتب قضية هامة من خلال حديثه عن تسجيل اسماء صناع القطع المعدنية تتمثل في مدى الاهتمام بتسجيل اسم الفنان الصانع ! ومدى اهمية ذلك : لقد حرص سلاطين المماليك على تسجيل اسمائهم على القطع المعدنية بينما جاءت القطع من الجزيرة او ايران عليها اسماء الفنانين الصانعين . ولكن لا يجب التوقف كثيرا ـ هكذا يقول الكاتب بوعي بدور الفن الجمعي ـ عند قضية تسجيل الاسم فأمثلة اغفال اسم الصانع تفوق كثيرا ذكره في تاريخ الفن الاسلامي . لقد صارت صناعة الفن جمعية اسرية تنسب لمجموعات كاسرة الاسطرلابي او النقاش او الصفار او النحاس وهكذا .

●●●

الأسلحة والعتاد

وبرغم ان الموضوع الثامن من الكتاب ـ وهو الاسلحة والعتاد ـ يتناوله بالدراسة في المعرض الدارسان دافيد الكسندر وهوارد ريكتس فان هذا الموضوع يخلو من محاولة القراءة الجمالية للقطع او على الاقل ـ اذا كانت المادة جافة لمثل هذا التأمل ـ محاولة الربط مع طبيعة الفن الذي ناسق بين وحدات الحياة جميعا الهادئة والعنيفة .

يستعرض الموضوع اسماء الحكام المقاتلين الذين حرصوا في الوقت نفسه على رعاية الفن كالمنصور العباسي وعبد الرحمن الاول الاموي (الأندلسي) وتيمور المغولي وشاه عباس الصفوي ومحمد الثاني وسليمان « العظيم » من الدولة العثمانية . ثم يتحدث عن استخدام الاسلحة في غير القتال كالاستعراضات العسكرية او تقدير الرتب او كهدايا للامراء او التابعين او للحكام او الملوك الاجانب . ثم يتحدث عن صناعة السلاح وتخزينه وسلاح الدولة الطاهرية او المغولية الهندية او المملوكية وكيف انتقلت الاخيرة الى اسطنبول لتصير نواة لاكبر مجموعة سلاح موجودة الان في متحف قبو سراي . ثم توزع الكثير من هذا السلاح في انحاء العالم ووصوله الى العديد من دول اوروبا ومتاحفها .

●●●

الطنافس والمنسوجات

الموضوع التاسع من الكتاب يقدم معروضات الطنافس والمنسوجات بقلم : دونالد كينج مع شرح لتسع عشر صورة تمثل الطنافس (السجاجيد) والمنسوجات والمطرزات التي تتراوح تواريخها من القرن ١٦ الى ١٩م ، وهي تشمل نماذج من مصر المملوكية ومنطقة (عشاق) التركية و (قاشان) الايرانية وبعضها من القوقاز او الهند المغولية.وبعد ان يتحدث الكاتب عن اساليب صناعة السجاد وتاريخ هذه الصناعة التي تعود لالاف السنين قبل الاسلام يتحدث عن كيف ترابطت الوحدات الزخرفية على مساحة الطنفسة فاخذت شكلا معماريا او شكل المنمنمات .

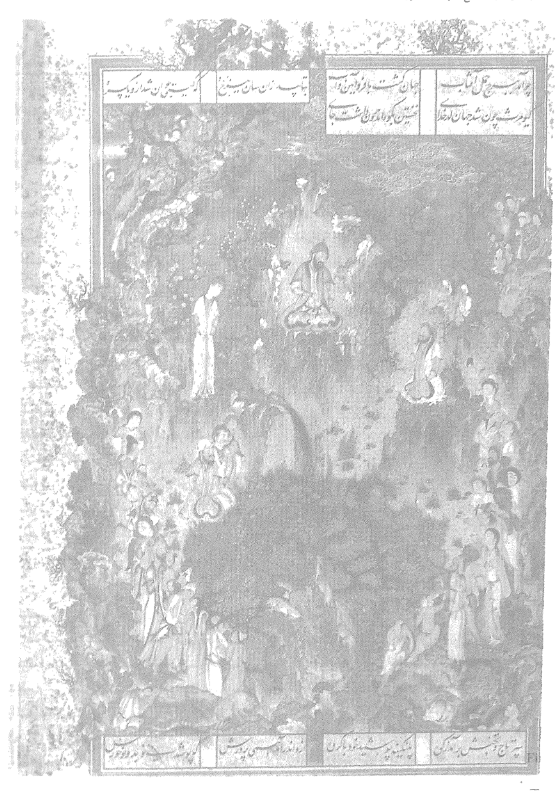
اما عن اساليب ابداع الطنافس فقد تميز المملوكي بالوحدات الهندسية بينها جاء التركي معنيا برسوم الزهور الحرة والمساحات اللونية الواسعة بالاحمر والازرق ، وتميز الايراني ايضا بالعناية بالوحدة الزخرفية النباتية او الحيوانية ولكن بصورة مشحونة . وعن المنسوجات الحريرية يقول انها جاءت متأثرة بالنسيج الايطالي في هذه المرحلة ، وعن المطرزات يقول ان المعرض يقدم نماذج من الهند وتركيا والقوقاز وسمرقند .

ويطرح الكاتب هذا السؤال العملي : لماذا تستحق المنسوجات والطنافس الاسلامية ان تجمع ؟ ويجيب عليه ايضا اجابة عملية من حيث الاستخدام الديكوري المعاصر ، اي تعليقها وعرضها وتغليفها . ومن الطبيعي ان يطرح سؤاله التالي : ماذا يجب ان يبحث عنه المرء عند شرائه المنسوجات والطنافس ؟ وتأتي الاجابة ايضا عملية غير جمالية .

●●●

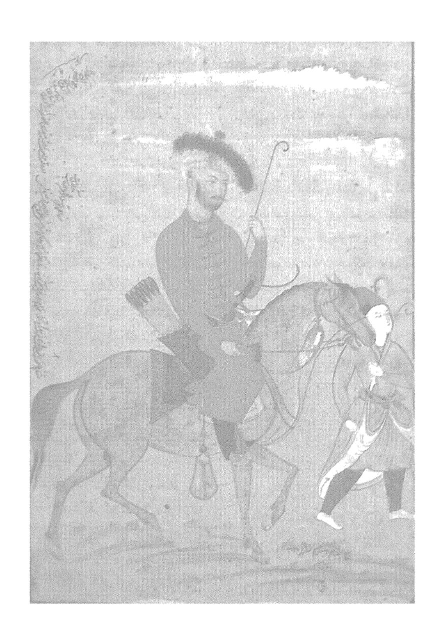
العناصر المعمارية والفنون الزخرفية :

الموضوع العاشر من الكتاب يأتي تحت عنوان (العناصر المعمارية والفنون الزخرفية) بقلم مارلين جينكنز . وتتناول فيه عن علم ووعي بطبيعة الفن الاسلامي اربع عشرة قطعة اختيرت من مجموعة الصباح الخاصة الضخمة والتي تتميز بانها أصبحت تشكل الان دار الاثار الاسلامية (متحف الكويت الوطني) لتعرض في معرض جنيف . وتقول الكاتبة ان الاختيار تم عشوائيا او انه استهدى فقط بمدى ندرة القطعة الفنية وجمالها . وكانت الكاتبة قد قدمت قطع الدار في الكتاب الذي صدر عام ١٩٨٣ بمناسبة الافتتاح معتمدة على تقسيم رباعي للعناصر الفنية . ثم قدمت مجموعة ثانية



٦ ـ « بلاط جيومرث » صفحة من شاهنامة طهماسب من عمـل سلطان محمد (تبريز ١٥٢٢/١٥٢٥م) . والبلاط يجمع العناصر الحية من انسان وحيوان ونبات في تأليف .

، كتاب « كنوز الفن الاسلامي »



٧ ـ صورة لميرزا محمد تقي من عمل معين مصور . (اصفهان ١٩٨٥م) مرحلة محاولة المواءمة في المنمنمة « اللوحة » بين الاسلوب الشرقي والاسلوب الغربي

في عام ١٩٨٤ معتمدة على فكرتها المتسلسلة من التبني فالتكيف فالخلق .

وجاءت طريقة تقديمها لعشر قطع من معروضات الدار بجينيف في هذا المقال مبتكرة ولكنها نابعة من وعي بتنامي وحدات الحضارة والفن الاسلامي وترابطها لقد قامت بعمل مقارنة بين نموذج القطعة الصغيرة من الحلي او ما تسميه بالفن الخاص مع نموذج من القطعة الكبيرة من الزخرفة المعمارية او ما تسميه بالفن العام لتؤكد الطبيعة الجدلية المنطقية بينهما .

فالكوة الحجرية الشامية من القرن الثامن الميلادي تحتضن نفس التصميم والوحدات الزخرفية في زوج من الأساور تشكلا ايضا في الشام ولكن في القرن ١١م وتربط روح نسيج الدنتيلا بين تاج العمود الرخامي الاندلسي من القرن العاشر والخاتم الذهبي ابن الشام في القرن الحادي عشر . ووحدة التكوين لكائنات حية تولدت في تلقائية على لوحة خشبية فاطمية من القرن الحادي عشر، وعلى سوار ذهبي تركي من القرن الثالث عشر تتحدى ما كان يمكن ان يكون من خلافات مذهبية او سياسية . وقد جمع هذا التناوم اللوني والخطي بين زوج من الاقراط الاندلسية من القرن الثاني عشر ولوحة الفسيفساء التركية من القرن الثالث عشر الميلادي ، وهذا الحوار الهامس بين النباتية والهندسية نستمع اليه في هدوء على مصراعي الباب التيموري من القرن الخامس عشر وعلى القلادة المملوكية من القرن الخامس عشر ايضا .

هكذا يأتي عرض مارلين جينكنز متفردا ولا ابالغ اذا قلت انه المعالجة الوحيدة في الكتاب رغم قصرها ، لقد تعمقت فأوجزت

●●●

فـن العملة الاسلامية

ويأتي الموضوع الحادي عشر او الاخير في الكتاب تحت عنوان (فن العملة الاسلامية) بقلم مايكل . ل . بيتس . وروبـرت دارلي ـ دوران . فيتابـع العملة الاسلامية وكيف تطورت من الاستعانة في المراحل الاولى بالعملة الساسانية او البيزنطية مع اضافة بعض الشعارات الاسلامية او تقليد الرسوم البيزنطية مع وضع خطوط عربية .

ثم كانت الخطوة الهامة على يد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي سعى الى التعريب بشكل عام فشمل ايضا العملات . جاء الدينار الذهبي (وله نموذج بالمعرض) الذي ضرب عام ٧٧هـ ليعتمد شكلا جديدا للعملة يقوم على الخط بنصوص دينية ويبتعد عن الصورة . وظل هذا الحل الذي نبع من عفوية موفقة جماليا واسلاميا الى القرن الثالث عشر الميلادي .

واذا كان الخط الكوفي قد شكل المراحل الاولى من العملة فان التطور الأول قد حدث ايام المعتصم العباسي في القرن التاسع الميلادي ، كما ظهرت عملات حكام الولايات واحتفظت الاندلس بصورة العملة الاموية بينما ظل الغرب محافظا على صورة العملة العباسية الأولى . ومع قيام الدولة الفاطمية شكلت عملة جديدة بنقوش دائرية بارزة استمرت في شكلها الى العصر الايوبي وامتدت الى الصليبيين وسلاجقة الروم . ثم ظهر دينار الموحدين في شمال افريقيا وتميز برسم المربع في الوسط محاطا بدائرة وانتشر هذا الشكل في انحاء عديدة من العالم الاسلامي واحتفظت النقود المصرية بشكلها الى القرن الرابع عشر عندما ظهر الدينار الاشرفي الذي انتقل تأثيره الى الدولة العثمانية الى ان اصدر السلطان محمد الفاتح دينارا عثمانيا اعتمد الخط الثلث والمؤثر الجمالي اكثر من وضوح الكلمات . وفي القرن السابع عشر ظهرت الطغراء اي اسم السلطان مزخرفا على العملات العثمانية .

وفي ايران ظهرت عملة جديدة صفوية اعتمدت خط

النستعليق في القرن السادس عشر بينما ظلت الهند المغولية محافظة على استعارة العملة المربعة المحاطة بدائرة الى ان ظهرت عملة السلطان « جيهانجير » التي ابتكر عليها صورة الابراج السماوية كتأريخ وتشكيل . اما العملة العثمانية فقد مالت دائما الى الفخامة والتأنق وظلت محافظة عليها .

●●●

كلمة اخيرة

ولا يسعني في نهاية هذا العرض لهذا الكتاب القيم - الذي حاول بحكم طبيعة موضوعه وهو تقديم معروضات معرض جنيف (كنوز الاسلام) - ان يجمع مساحة مكانية هائلة من الاندلس الى الصين وان يكثف مساحة زمانية مشحونة تقرب من ثلاثة عشر قرنا . لا يسعني الا التقدير الصادق لجهد الدراسة المتأنية بخبرة مجموعة من العلماء وعلمهم ، وان جاءت نتيجة لهذه الظروف متفرقة لا تصدر عن رؤ ية متكاملة ، وكان من الممكن لو نسق المنهج - تحاشي ، على الاقل ، اختلافات التناول من سردي في واحد وعلمي في اخر وتاريخي في ثالث وجغرافي في رابع وادبي في خامس وتشكيلي في سادس وتنظيري في سابع . واعود فاذكر بما جاء في المقدمة عن صعوبة احداث معادل شبه موضوعي بين الكلمة المكتوبة والتشكيل بشكل عام فما بالنا بالتشكيل الجمعي ، ويكفي اننا ما نزال مضطرين الى استخدام المصطلحات التي نحتت من طبيعة حضارة مختلفة سعت الى « التمدرس » بحكم رؤ يتها الخاصة لنحاول مطابقتها او تلبيسها على حضارة اخرى لا نقول اغفلت التمدرس ولكن لم يكن هناك ما يدفع الى التفكير فيها بحكم معايشة ومشاركة الجميع في صناعة الفن . وحينما نضطر الان الى استخدام مصطلح الفن التشكيلي ART PLASTIQUE فيجب علينا ان نضع له حاشية تفسيرية تبدأ بالتساؤ ل تشكيل المادة بأي هدف ؟ . . اهو الاستخدام ام الاقتناء ؟ الاحتضان ام الانفصال ؟ التلبس بمادة الفن ام تأملها ؟ . . هذا هو فارق الرؤ ية .

ولا يسعني ايضا الا تقدير جهد الترجمة الواعية الملتزمة والمراجعة العلمية الدقيقة والاخراج المنضبط الميسر الانيق واستعارة هذه الكلمة التي جاءت في مقدمة الطبعة العربية لمديرة دار الاثار الاسلامية حصة صباح السالم لمعرفة اهمية هذا المرجع الهام ودوره : « اذ لا جدال في ان اللغة العربية لازالت رغم ما نشر من مؤلفات تعاني من نقص في كتب الفنون الاسلامية وفي مصطلحاتها الفنية لأن اكثر الذين كتبوا في هذا المجال لم يوفوا بالكامل هذه المصطلحات الفنية الدقيقة حقها » .

ومن هنا لابد وان اذكر انني لم اتطرق الى المناقشة التشكيلية الواجبة لما كتب او عرض في الكتاب خاصة تعليقات الصور ، او شرحها فهي تحتاج الى حديث اكثر اتساعا . كما ان موضوع طرح ومناقشة الجانب الابداعي او بنية التركيبة الجمالية ومدى انضباطها او كيفية قراءة نسيج الفن الاسلامي في المتناهي الصغر وفي المتناهي الكبر بمصطلح منحوت من ذاته . مازال هذا الموضوع في خطواته الأولى ويحتاج لاكثر من معايشة وتواصل واستعادة حضارية ودراسة وجهد وترجمة وعرض .

❊❊❊



٨ ـ صندوق برونز مصبوب مكفت بالفضة من البنجاب او هندستان ١٢م . الطول ١٧ سم والعرض ١٢سم . والارتفاع ١٧سم .

العدد التالي من المجلة
العدد الثاني - المجلد السابع عشر
يوليو - اغسطس - سبتمبر
قسم خاص عن
"الهجرة والهجرة المعاكسة"

طبع في
مطبعة حكومة الكويت

ترحب المجلة باسهام المتخصصين فى الموضوعات التالية :

(أ) علوم الصحارى
(ب) الهجرة والهجرة المعاكسة
(جـ) الدراسات المستقبلية
(د) المسرح
(هـ) الحاسب الآلى
(و) الأمن الغذائى
(ز) الثقافات فى العالم الثالث
(حـ) الجنون فى الادب
(ط) التجديد فى الشعر

الخليج العربي	٥ ريالات	سوريا	٣ ليرات
السعودية	٥ ريالات	القاهرة	٢٥٠ مليمًا
البحرين	٤٠٠ فلس	السودان	٢٥٠ مليمًا
اليمن الشمالية	٤,٥ ريال	ليبيا	٣٥ قرشًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠ فلس	مسقط	٤٠٠ بايسة
العراق	٣٠٠ فلس	الجزائر	٥ دنانير
لبنان	٢,٥ ليرة	تونس	٥٠٠ مليم
الأردن	٢٥٠ فلسًا	المغرب	٥ دراهم

الاشتراكات :

البلاد العربية ٢,٥٠٠ دينار
البلاد الاجنبية ٣,٠٠٠ "

تحول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام ـ المكتب الفني ـ ص.ب ١٩٣ الكويت

الرمز البريدي 13002

طبع في
مطبعة حكومة الكويت

الثمن
٢٥٠ فلسًا

عالم الفكر

- الهجرة وأسطورة العودة
- الهجرة وانتقال الأيدي العاملة
- الهجرة بين الماضي والمستقبل
- البيانات الاحصائية لظاهرة الهجرة

"مجلة عالم الفكر"
قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات ـ والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية : ـ

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع فى نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة
وزارة الاعلام ـ الكويت ـ ص. ب ١٩٣
الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير: حمد يوسف الرومي
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٦
المراسلات : باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

الهجرة وأسطورة العودة"

« الهجرة احتجاج ضد اللامساواة »

(يول هاريسون)

« لا يـزاحم الأطبـاء والحـلاقـون أحـدا ، لأن المهاجرين أنفسهم يحتـاجون إلى حـلاقين والى مختلف الخدمات الطبية »

(الفرد سوفي)



كانت الهجرات البشرية ـ ولا تزال ـ تؤلف واحدة من أهم الظواهر التي ارتبطت بالإنسان منذ ظهوره ، ولـذا فـانها استـرعت ـ ولا تـزال تستـرعي انتبـاه المتخصصـين في مختلف مجالات الـدراسات الانسـانية وبوجه أخص الأنثربولوجيا وعلم الاجتماع ، نظرا لما ينشأ عنها من أوضاع ومشكلات تؤثر في المجتمع الذي خرجت منه والمجتمع الذي انتهت اليه على السـواء . وعلى الرغم من قدم هذه الظاهرة فإن هذه التحركات البشرية تتم الآن على نطاق أوسع بكثير جـدا مما كـان يحدث في الماضي ، ربما باستثناء بعض حالات قليلة ، وأصبحت تتعدى كل الحدود الوطنية والإقليمية وتشمل فئـات متفاوتـة ومتباينـة من النـاس من كـل الأعمـار والجنسيات والأعراق والسلالات والمستويـات الثقافيـة والاقتصادية والتخصصات المهنية . وساعد على ازدياد هذه التحركات ظهور مناطق جديدة للمجذب السكاني تتيـح فـرصـا طيبـة للعمـل والنجـاح وتحقيق الـذات والتخلص ـ ولو الى حين ـ من قسوة الظروف المادية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية في الموطن الأصلي كما تتيح الحياة المستقرة ـ ولو بقَدَر ـ في الموطن الجديد رغم كـل ما قـد يحيط بهذه الحيـاة من صـراع وكفـاح وإحباط ونجاح أو فشل وقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة أو عجز عن التأقلم والتكيف ، بل ومن رغبة المجتمـع الجديـد نفسه في استيعـاب الوافـدين الجدد وامتصاصهم أو تقييد حركتهم ووضع العوائق والعراقيل والقواعد والقوانين التي تحول دون اندماجهم فيه ودون إتمام عملية التمثيل مما قد يدفعهم ، أو يدفع ببعضهم ، إلى العودة الى مجتمع الأصل والبداية . وكل هذا يجعل

من هذه الهجرات البشرية المتواصلة موضوعا متجددا يحتاج الى دراسات جديدة تتناول « الموضوع / الظاهرة » في كل أبعاده الايكولوجية والاقتصادية والسياسية والقانونية والثقافية في مختلف المجتمعات والثقافات . فكأن تعقد هذه المشكلات وتنوعها واستمرارها وتجددها هي السبب وراء كل ذلك القدر الضخم من البحوث والدراسات التي ظهرت في السنوات الأخيرة بوجه خاص حول الهجرة وآثارها وأسبابها ، وهي بغير شك أحد الأسباب الرئيسية التي تدفعنا الى تخصيص هذا العدد لمشكلة الهجرة والهجرة المعاكسة . وقد يكون في ذلك رد مقنع لمن قد يتساءل : لماذا هذا العدد من المجلة ؟ ولماذا هذا الموضوع أو المحور الذي كثر الكلام فيه ؟

ولقد كانت هذه التحركات السكانية التي نطلق عليها هنا اسم « الهجرة » والتي لازمت الإنسان منذ وجوده هي العامل الفعال المؤثر في انتشار الجنس البشري من موطنه الأصلي الأول ـ إن كان هناك موطن أصلي واحد فقط ـ أو من مواطن ظهوره الأولى ، وبالتالي ارتياده لمناطق جديدة وعمران الأرض وظهور المجتمعات والثقافات الإنسانية المختلفة . والأغلب أن هذه الهجرات « البدائية » القديمة كانت تنشأ بفعل عوامل « الدفع » أو « الطرد » التي تتمثل في قسوة قوى الطبيعة المناوئة وضراوة الجماعات المعادية ، وعجز الانسان عن الصمود في وجه هذه القوى المادية والبشرية وعدم قدرته على التحكم فيها واخضاعها وتذليلها وتطويعها لصالحه ، أو على الأقل التعايش معها ، وبذلك لم يكن أمامه سوى الهروب منها والنزوح عن موطنه . ولكن الملاحظ في الوقت نفسه أن هذه الهجرات « البدائية » لم تكن هجرات أفراد كما هو الحال في معظم الهجرات الحديثة وإنما هي هجرات « جماعية » تقوم بها جماعات كبيرة أوشعوب وقبائل بأكملها بصرف النظر عن مستواها الحضاري أو الفترة الزمنية التي عاشت فيها . وبذلك يمكننا أن نُسلك ضمن هذه الهجرات « البدائية » تحركات جماعات الصيد والقنص في العصور المبكرة من تاريخ الجنس البشري ، ونزوح الجماعات التي تعيش على الزراعة المتنقلة والتي تضطر إلى تغيير مكان إقامتها كل بضع سنين بعد أن يتم استنزاف خصوبة الأرض فتنتقل إلى مناطق جديدة وهكذا . بل إنه يمكن أن نُدخل في هذا النمط من الهجرة انتقال بعض الجماعات البدائية في أفريقيا الآن حين يموت أحد أفراد القبيلة وتخشى من أذى شبح الميت فتنتقل الجماعة كلها إلى موطن جديد بعيد عن متناول الشبح وهكذا . بل وقد يمكن أيضا أن ندخل ضمن هذه الهجرات « البدائية » هجرة القبائل الجرمانية بين القرنين الرابع والسادس من منطقة بحر البلطيق جنوبا بحثا عن الأراضي الزراعية ، وهجرات بعض القبائل العربية الشهيرة وبخاصة تلك التي اتجهت نحو شمال إفريقيا والتي سجلتها بعض الملاحم والسير الشعبية ، والتحركات القبلية التي قامت بها بعض القبائل الافريقية الكبيرة مثل قبائل البانتو بين القرنين السابع والثاني عشر من منطقة بحيرة فيكتوريا الى الغرب نحو الكونجو ثم بعد ذلك ، وفيما بين القرنين الثاني عشر والثامن عشر نحو الجنوب حتى منطقة ناتال وجنوب غربي أفريقيا . فهذه كلها هجرات تاريخية شملت جماعات قبلية كبيرة العدد ـ على الأقل بمعايير تلك الأزمنة والعصور ـ وكان لها كلها آثار ونتائج هامة وملموسة في التاريخ . ولذا فقد يكون أفضل مصطلح يصدق على هذه الهجرات « البدائية » هو المصطلح الألماني Volkerwanderung التي تعني الهجرة القبلية أو هجرة الشعوب . بل إن هناك من يدخل في هذا النمط من الهجرة هجرة الايرلنديين والزراع الألمان الشهيرة بعد أزمة محصول البطاطس عامي ١٨٤٥ و ١٨٤٦ ، وهي الهجرات التي حملت عدة ملايين من البشر الى أمريكا ، وكذلك التحركات السكانية (الاضطرارية) التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية في شبه القارة الهندية بعد قيام دولتي الهند والباكستان وتبادل ملايين السكان بين الدولتين[1] .

(١) أنظر مادة "Human Migration" in Encyclopaedia Britannica, Vol. 12 p. 186.

والأمثلة كثيرة ، ولكننا نكتفي بهذا القدر لتوضيح ما يراد بالهجرة « البدائية » التي تضم أعدادا كبيرة جدا من البشر الذين يضطرون لتغيير موطنهم الأصلي نتيجة لعجزهم عن التصدي بنجاح لبعض العوامل والقوى القاهرة ، سواء أكانت هذه القوى طبيعية أو بشرية . ولكن لا تدخل ضمن هذه الهجرات « البدائية » الحركات السكانية التي تُفرض بالقوة على الناس كما هو الحال مثلا في نفي الأعداد الكبيرة من الروس والذين يقدر عددهم بحوالي مليون نسمة الى سيبيريا في القرن التاسع عشر ، أو نقل ملايين العبيد من أفريقيا الى أمريكا والتي تذهب بعض التقديرات الى تقديرها بعشرين مليون نسمة ، وان لم تكن كل هذه الأعداد وصلت بالفعل الى الشواطىء الامريكية نتيجة لموت أعداد كبيرة جدا منهم أثناء الرحلات البحرية القاسية . كذلك يميل بعض العلماء الى التمييز بين هذه الهجرات « البدائية » الجماعية وبين نزوح مئات الآلاف من (اللاجئين) الذين تضطرهم الظروف و الأوضاع السياسية ، أو الغزو العسكري ، الى ترك أوطانهم والفرار بحياتهم الى مواطن أخرى . والمثل الواضح أمامنا لذلك هو خروج مئات الآلاف من الفلسطينيين من وطنهم في ظل الظروف التي أدت الى قيام اسرائيل .

ولكن يبقى بعد هذا كله الشرطان الأساسيان اللذان يميزان الهجرات « البدائية » وهما « جماعية » الحركة والانتقال ، والعجز عن التصدي لعوامل الطرد أو الدفع أو التكيف معها . ومن هذه الناحية تختلف الهجرات « البدائية » اختلافا جذريا عن النمط الغالب الآن على الهجرة . فرغم أن ملايين الناس يتحركون ويتركون أوطانهم وينزحون إلى مناطق وأوطان أخرى فان هذه التحركات تتم في العادة على أساس فردي كما سبق أن ذكرنا . وحتى إذا اتخذت شكلا جماعيا فإنها لا تشمل شعبا بأكمله . وعلى الرغم من أن كثيرا من الهجرات الحديثة يتم تحت ظروف قاسية وعوامل طاردة يصعب تذليلها أو التكيف معها فإن المهاجرين الأفراد يحددون في الأغلب أهدافهم ويتخيرون المكان والزمان المناسبين لتنفيذ ما استقر عليه رأيهم . والأغلب أيضا أنهم يعرفون مقدما الشيء الكثير عن المكان الذي سوف يذهبون اليه وأوضاعه وظروفه ومقومات الحياة فيه ويُعدّون لهذه الهجرة إعدادا كافيا ويذهبون على أمل الاقامة هناك لفترات طويلة أو حتى للعمر كله . وإن كان البعض يخطط أيضا منذ البداية للعودة إلى الوطن الأصلي بعد أن تزول الظروف والعوامل المناوئة أو بعد تحقيق الأهداف التي رسموها لأنفسهم منذ البداية .

●●●

وقد يكون من الصعب وضع تعريف دقيق وواضح ومقبول لمفهوم « الهجرة » . ولذا يكتفي الكثيرون بتعريفها بأنها النقلة « الدائمة » أو الانتقال « الدائم » الى مكان يبعد عن الموطن الأصلي « بعدا كافيا » . ولكن هذا التعريف - إن صح اعتباره تعريفا على الإطلاق - يفتقر إلى الدقة والوضوح فيما يتعلق بالبعد الزماني المتمثل في كلمة « دائم » والبعد المكاني المتمثل في عبارة « بعدا كافيا » . وصحيح أن هيئة الأمم حددت المقصود بالانتقال الدائم بأنه الانتقال الذي يستمر لمدة سنة واحدة على الأقل ، ولكن تبقى مع ذلك مشكلة تحديد المسافة التي تفصل بين الموطن الأصلي أو موطن النشأة والإرسال الذي بدأت منه الهجرة وموطن الإقامة الجديد أو موطن الاستقبال الذي انتهت الهجرة اليه . وكما يقول ويليام بيترسن William Petersen إن الشخص الذي يترك وطنه إلى وطن آخر ويقيم فيه بقية حياته يعتبر (مهاجرا) بينما الشخص الذي يذهب الى مدينة مجاورة أو قريبة ويمضي فيها بضع ساعات يعتبر مجرد (زائر) . وبين هذين الطرفين

النقيضين يوجد صف طويل جدا من الحالات والأوضاع الوسيطة يصعب التمييز بينها تمييزا قاطعا . فهي إذن تمييزات تتم على وجه التقريب وباستخدام محكات تعسفية . فالإقامة في بلد الاستقبال لمدة لا تقل عن شهر ولا تزيد عن عام تعتبر هجرة مؤقتة بينما الاقامة في ذلك البلد لأي فترة تزيد عن العام ولو ببضعة شهور تعتبر هجرة دائمة وتستوي في ذلك مع الاقامة لطول العمر.[٢] لكن هذه المحكات لا تأخذ في الاعتبار نية الشخص المهاجر والظروف التي قد تظهر فجأة وتمنع من تحقيق هذه النية أو القصد . فقد يخرج الشخص من موطنه الأصلي وفي نيته أن تكون هجرته لفترة موقوتة قد تكون بضع سنين يعود بعدها إلى وطنه . فهو ينظر من البداية الى هجرته على أنها هجرة مؤقتة ولكنها تعتبر بحسب تلك المعايير والمحكات هجرة دائمة . ثم إن الكثيرين ممن يهاجرون هجرة دائمة تمتد لعدة سنين لا يقطعون علاقتهم تماما بالأهل والوطن بل يظلون مرتبطين بهم وبه عاطفيا ويتمنون لو أتيحت لهم الفرصة للعودة . وكثيرا ما تظل هذه العودة مجرد أسطورة لا تتحقق في عالم الواقع ، ولكنهم يتمسكون بها مع ذلك أشد التمسك ويظلون بذلك موزعين بين ولائهم للموطن الأصلي أو الوطن الأم وولائهم للموطن الجديد أو المجتمع (المضيف) أو مجتمع الاستقبال . كذلك تغفل هذه المحكات والمقاييس نظرة المجتمع المضيف الى هؤلاء الوافدين ومدى تقبله لهم ومدى السماح لهم بالتكيف مع المجتمع بحيث يتم تمثلهم فيه . وإغفال هذه الأمور يمنع من الوصول إلى تعريف أكثر دقة وإحكاما من تلك التعريفات السريعة السطحية التي تقنع بالنظر إلى عملية الانتقال والاقامة من حيث المدة التي يمضيها الشخص في الموطن الجديد والمسافة التي تفصل بين الموطنين[٣] .

ومع ذلك فإن هذه المحكات لها فائدتها في التمييز بين « الهجرة » باعتبارها تغييرا لموطن « الاقامة » وبين بعض

---

(٢) William Peterson; "Migration: Social Aspects"; I.E.S.S., Vol. 10, p. 286.

(٣) الواقع أن مفهوم المصطلحات الأجنبية غير واضح في أذهان الكثيرين ممن يكتبون عن الموضوع باللغة العربية . وليس أدل على ذلك من أن « قاموس علم الاجتماع » الذي قام بتأليفه لفيف من أساتذة علم الاجتماع بجامعة الاسكندرية يستخدم كلمة « هجرة خارجية » في مقابل الكلمات الانجليزية الثلاث : Immigration و Emigration و Migration ثم يقدم التعريفات التالية لهذه الكلمات :

أ ـ Emigration « هجرة خارجية : انتقال الأفراد أو الجماعات من موطنهم الأصلي لكي يستوطنوا موطنا آخر » (صفحة ١٥٦) .

ب ـ Immigration « هجرة خارجية : زحف أفراد أو جماعات تاركة موطنها الأصلي نحو موطن آخر تجعل منه مكانا جديدا للاقامة الدائمة ، وتعتبر الهجرة الخارجية هجرة دولية لأنها تقوم على هجرة من دولة إلى دولة أخرى » (صفحة ٢٣٧) .

جـ ـ Migration « هجرة خارجية : حركة دائمة نسبيا يقوم بها شخص أو جماعة تتخطى الحدود السياسية نحو منطقة أو مجتمع جديد » (صفحة ٢٨٩) .

(راجع : قاموس علم الاجتماع ، حرره وراجعه : الدكتور محمد عاطف غيث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩) .

كذلك تظهر عدم الدقة في ترجمة هذه المصطلحات الثلاثة في « قاموس الأنثربولوجيا » الذي قام بتأليفه الدكتور شاكر مصطفى سليم ونشر بالكويت عام ١٩٨١ حيث نجد التعريفات التالية :

أ ـ هجرة خارجية Emigration : « هجرة الجماعة إلى موطن آخر خارج موطنها وحدودها الاقليمية التقليدية بهدف الاقامة الدائمة في الموطن الجديد . وتحدث الهجرة الخارجية عادة بسبب كوارث طبيعية أو حروب أو تهجير من قوة غازية ، أو طلبا لمستوى معيشي أفضل .

ب ـ هجرة داخلية Immigration : « تحركات سكانية داخل حدود الدولة أو الاقليم تحدث عادة بين موطنين يكون (أحدهما) مزدحما بالسكان وفيه عوامل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية منفرة ، ويكون الثاني أقل ازدحاما بالسكان وفيه عوامل جاذبة » (صفحة ٤٨١) .

جـ ـ هجرة Migration : « حركة واسعة لمجموعة سكانية داخل موطنها أو الى موطن آخر . وقد تكون الهجرة موسمية طلبا للماء والكلأ . كما قد تكون دائمية بسبب الكوارث الطبيعية أو التبدلات الاجتماعية أو الحروب أو لتحقيق مستوى معيشي أفضل » (صفحة ٦٣١) .

ومثل هذا الخلط في فهم مدلول المصطلحات يوجد في كثير من الكتابات الأخرى التي تقنع بالمعنى المعجمي للكلمة ولا تنظر إلى اتجاه سير الهجرة migration عموما باعتبارها حركة سكانية (تخرج) من مجتمع معين emigration وتتجه الى مجتمع آخر حيث (تدخل) فيه immigration .

أشكال التنقل أو التحركات البشرية الأخرى مثل تحركات البدو الرحل أو تحركات الرعاة من أشباه الرحل بحثا عن الماء والكلأ . فهذه تحركات موسمية تختلف كل الاختلاف في طبيعتها عن الهجرة بالمعنى الذي تحدده هيئة الأمم ، لأنها تفتقر إلى عنصر الاقامة والاستقرار لفترة معينة من الزمن . والشيء نفسه يصدق على تحركات وتنقلات « عمال التراحيل » الذين ينتقلون بين مراكز العمل المختلفة وتتوقف إقامتهم في أي مركز منها على توفر العمل دون أن يرتبطوا بأي مركز منها ارتباطا (دائما) حتى يمكن اعتباره موطن إقامة لهم . ففي كل هذه الأنماط من التحركات البشرية التي قد تستغرق فترات طويلة لا تقوم علاقة قوية بين الناس والمكان تكفي لنمو الشعور بالانتماء إلى ذلك المكان أو لتمثل المجتمع لهؤلاء الوافدين (الطارئين) .

وهذا كله معناه أنه إلى جانب عنصري الزمان والمكان أو البعد الزماني والبعد المكاني اللذين يصعب الاكتفاء بهما في تعريف الهجرة توجد عناصر أخرى قد يكون من الصعب قياسها ولكن يحسن أن تؤخذ في الاعتبار ، وهي عناصر ذاتية واجتماعية وثقافية ترتبط بإحساس الفرد نفسه ونظرته إلى عملية انتقاله والهدف منها وتكييفه لهذه العملية وشعوره بالانتهاء الى المجتمع الجديد وتكيفه معه وتقبله لقيم ذلك المجتمع وعاداته وتقاليده ومثله العليا والانفعال بها ، أو على الأقل رغبته في أن يستوعب هذا كله حتى يتم اندماجه وتمثله في المجتمع . فالهجرة ليست مجرد نقلة (جسدية) من موطن لآخر ، وإنما هي أيضا موقف عقلي واتجاه ذهني وتوجه نفسي من الشخص ذاته . ودراسة هذا الجانب الهام تتطلب من الباحث الاتصال المباشر والوثيق بالمهاجرين أنفسهم وإقامة تلك العلاقة الحميمة التي يطلق عليها علماء الانثربولوجيا كلمة rapport والتي تعتبر مبدأ أساسيا لأي دراسة مركزة متعمقة .[٤] .

وبالمثل ليس هناك ما يبرر الاقتصار في دراسة الهجرة على إبراز الدور الذي تلعبه الأوضاع الاقتصادية السائدة في الموطن الأصلي في نزوح العناصر المهاجرة وإغفال النظم والأنساق الاجتماعية الأخرى التي قد تتعاون فيما بينها بحيث تجعل من ذلك الموطن الأصلي منطقة دافعة أو طاردة لسكانها . وهذا لا يعني التهوين من شأن الأسباب الاقتصادية ، ولكن الدور الذي تلعبه هذه العوامل يبدو أكثر وضوحا حين تدرس ضمن البناء الاجتماعي الكلي وفي علاقتها ببقية النظم والعلاقات المتشابكة التي تؤلف ذلك البناء . فالأوضاع الاقتصادية ليست وحدها المسئولة دائما وفي كل الأحوال عن الهجرة ، ويستوى في ذلك الهجرات الخارجية التي ينتقل فيها المهاجرون إلى مجتمعات أخرى غريبة تنتمي الى دول أخرى بعيدة ، أو الهجرات الداخلية التي ينتقل فيها المهاجرون من مجتمع محلي معين الى مجتمع محلي آخر ضمن حدود الدولة . ففي الولايات المتحدة الامريكية مثلا قليلا ما تكون تحركات السكان أو هجراتهم من منطقة لأخرى أو من

---

(٤) ورغم ذلك فإنه يمكن القول بشكل عام إن عدد المهاجرين إلى بلد ما يرتبط عكسيا مع طول المسافة التي تفصل بين هذا البلد والموطن الأصلي الذي خرجت منه هذه الهجرات ، بينما يرتبط طرديا مع فرص العمل المتاحة ، وإن كان ذلك يتوقف أيضا على مدى توفر هذه الفرص في المراحل الوسيطة بين موطن (الارسال) وموطن (الاستقبال) . وقد قامت عدة محاولات لصياغة هذه الحقائق في شكل قضايا أو حتى في شكل معادلات يمكن إخضاعها للاختبار بإجراء دراسات وبحوث في مجتمعات وثقافات مختلفة ، على أمل أنه يؤدي ذلك في اخر الأمر إلى ما يمكن اعتباره (نماذج) أو (أنماطاً) للهجرة . ومع ذلك فقد يكون من الصعب أو حتى من الخطأ ، التعميم من دراسة حالات قليلة للهجرة لأن في ذلك تبسيطا شديدا للأمور وللظاهرة نفسها . وهذا لا يقلل بحال من شأن أو من أهمية الدراسات المركزة المتعمقة لحالة معينة للهجرة من بلد معين بالذات إلى بلد آخر ، لأن مثل هذه الدراسات المتعمقة للظاهرة ككل ومعالجتها من كل جوانبها وفي كل أبعادها سواء من حيث التوقيت أو الأهداف أو العوامل الدافعة إليها أو حجمها واتجاهاتها بالاضافة إلى كثير من المسائل المتعلقة ببناء المجتمع الأصلي أو المجتمع المضيف هي التي تؤلف الأساس الأول اللذي تقوم عليه الدراسات المقارنة التي يمكن الوصول منها إلى بعض التعميمات أو إقامة النماذج والأنماط التي نسترشد بها في إجراء مزيد من الدراسات .

ولاية لأخرى متأثرة بعوامل اقتصادية بحت . بل قد يكون العكس هو الصحيح ، بمعنى أن العوامل الاقتصادية تلعب في هذه التحركات دورا أقل بكثير مما يظن في العادة . وثمة بعض الدراسات المسحية التي يشير إليها بيترسن والتي أجراها مكتب الاحصاء للولايات المتحدة عام ١٩٤٧ وعام ١٩٦٦ ، وقد تبين منها أن حوالي ٢٢,٦٪ من أفراد العينة هاجروا لأسباب اقتصادية بحثا عن العمل ، بينما تتوزع بقية الإجابات بين عدد كبير من الأسباب الاجتماعية المختلفة بل وببعض الأسباب الصحية أو حتى بطبيعة الطقس السائد في « موطن » الارسال ، وان كان بعض الأسباب (الاجتماعية) التيذكرت لها جانب اقتصادي واضح مثل سوء وسائل المواصلات . وليس من الضروري أبدا أن يكون وراء كل هجرات الزنوج من جنوب الولايات المتحدة إلى شمالها وغربها أسباب اقتصادية أو مجرد الرغبة في تغيير حياة الزراعة إلى حياة أفضل تستند إلى ممارسة أعمال أخرى في المدن يكون لها مردود اقتصادي أعلى من فلاحة الأرض . إنما هناك الى جانب ذلك كله الرغبة في الهروب من كل الأوضاع الاجتماعية السائدة في الجنوب بكل ما تمثله من ضغوط ومعاناة اجتماعية ونفسية يقاسي منها الأمريكيون السود من جراء التفرقة العنصرية .[٥] فأسباب الهجرة هنا أوسع وأكثر تعقيدا من الوضع الاقتصادي ، بل إن هذا الوضع الاقتصادي نفسه الذي يجد الأمريكيون السود فيه أنفسهم هو مجرد مظهر واحد من مظاهر التمييز العنصري في الولايات الجنوبية من أمريكا . وقد يكون ذلك مثالا متطرفا ولكن له دلالته بغير شك .

هذه النظرة الشاملة التي تدرس الهجرة في كل أبعادها تؤلف المدخل البنائي الوظيفي الذي يتبعه غالبية علماء الأنثربولوجيا وعدد كبير من علماء الاجتماع وبخاصة العلماء الذين يحرصون على دراسة الظاهرة في مجتمع معين بالذات ، سواء أكان هذا المجتمع هو الموطن الأصلي ـ أو مجتمع الإرسال الذي ينزح أعضاؤه متجهين إلى مواطن جديدة مختلفة ومتفرقة ـ أو كان هو الموطن الجديد أو المجتمع المضيف الذي يستقبل أعدادا كبيرة من المهاجرين الذين يفدون اليه من مجتمعات وثقافات مختلفة ومتباينة . ولكن أيًا ما يكون المجتمع الذي يركز عليه الباحث فلا بد من أن يتطرق البحث إلى المجتمع الآخر بشكل من الأشكال . فالهجرة « عملية » ذات طرفين ، يؤلف مجتمع الإرسال أحد هذين الطرفين ويؤلف مجتمع الاستقبال الطرف الثاني ، بينما يقوم المهاجرون بدور « حلقة الوصل » بين الطرفين . فالمسألة تتعدى إذن مجرد الاهتمام بتبيين عوامل الطرد أو عوامل الجذب والآثار الناجمة عنها وتحديد أنماط الهجرة المختلفة الناشئة عن هذه العوامل واذا ما كانت هي هجرة دائمة أو مؤقتة ، أو هجرة قسرية اجبارية أو ارادية اختيارية ، أو هجرة كاملة أو غير كاملة ، أو هجرة أولية أو ثانوية ، أو هجرة قصيرة الأمد أو طويلة الأمد وغير ذلك من التصنيفات التي يحب بعض علماء الاجتماع ابرازها وتوكيدها . بل ان المدخل البنائي الوظيفي الذي ينظر الى الهجرة نظرة شاملة كلية لا يكاد يعطي كثيرا من الاهتمام لبعض الجوانب التي يعنى بها أصحاب المناهج الأخرى في دراسة الهجرة مثل حجم الهجرة وفئات المهاجرين بحسب الجنس أو السن أو المهنة أو الجنسية الأصلية ، وأسباب الهجرة وآثارها على كل من المجتمعين ، والعائد الاقتصادي من الهجرة سواء بالنسبة للمهاجرين أنفسهم أو المجتمعات التي خرجوا منها ، والخسارة التي تحيق بقوة العمل في بلد المنشأ وأثر ذلك في بعض مجالات الانتاج ، وظهور أنماط استهلاكية جديدة والاقبال الشديد ـ مثلا ـ على اقتناء الأجهزة الكهربائية الحديثة ، ومجالات استثمار التحويلات التي يرسلها المهاجرون الى مواطنهم الأصلية وما

(٥) Peterson, op. cit. pp. 288-9

الى ذلك . وعدم الاهتمام بهذه الأمور لا يعني بحال من الأحوال عدم أهميتها أو التهوين من شأنها ، ولكنها تعتبر في نظر الباحثين البنائيين الوظيفيين معلومات أولية تؤلف الخلفية الأساسية التي يرتكز اليها التحليل البنائي الذي يهتم أكثر ما يهتم بالعلاقات الاجتماعية . فالاكتفاء بهذه المعلومات الرقمية أو الكمية يعني في آخر الأمر دراسة الظاهرة من (الخارج) فحسب . ومن هنا يهتم المدخل البنائي الوظيفي بدراسة التفاعل الاجتماعي المعقد الذي يقوم داخل مجتمع الاستقبال أو الموطن الجديد الذي يستقبل هؤلاء المهاجرين ، بحيث يتناول بالتحليل مثلا علاقات التعاون والصداقة أو الصراع والعداء بين المهاجرين من مختلف الجنسيات ونظرة بعضهم الى بعض في ضوء انتماءاتهم العرقية والسلالية والدينية ، بل ونظرتهم إلى أهل المجتمع وسكانه الأصليين ونظرة المجتمع اليهم ومدى تقبله أو رفضه لهم ، والجهود التي يبذلونها للاندماج في المجتمع أو رغبتهم على العكس من ذلك في التمسك بثقافتهم الأصلية والاحتفاظ بمقوماتهم التقليدية التي تنتمي إلى المجتمع الذي جاءوا منه ، بل ونظرة كل جماعة من هذه الجماعات العرقية الى نفسها وتقييمها للمكانة التي تحتلها في الموطن الجديد ومقارنة ذلك بالمكانة التي كانت تتمتع بها في موطنها الأصلي مع تعرف آرائهم في ذلك المجتمع القديم بكل نظمه وأنساقه وأنماطه السلوكية وقيمه الاجتماعية التي تركوها وراءهم .

●●●

وقد يحسن أن نشير هنا إلى إحدى الدراسات التي أجريت في الخارج وتناولت بالتحليل الدقيق المشاكل الناجمة عن نزوح أعداد كبيرة من المهاجرين الذين ينتمون إلى ثقافة تختلف كل الاختلاف عن الثقافة السائدة في بلد المهجر أو بلد « الاستقبال » . والدراسة التي أعنيها قامت بها الدكتورة باتريشيا جيفري Patricia Jeffery الزميلة الباحثة بقسم الأنثربولوجيا الاجتماعية بجامعة أدنبرة على العائلات المهاجرة من باكستان الى بريطانيا والتي أقامت بعد ذلك في بريستول . وقد ظهرت الدراسة تحت عنوان « مهاجرون ولاجئون : دراسة للعائلات الباكستانية المسلمة والمسيحية في بريستول » . والذي يهمنا في هذه الدراسة الى جانب المشكلات التي تعرضت لها هو أنها بدلا من أن تدرس هجرة الباكستانيين إلى بريطانيا بشكل عام ركزت على العائلات المقيمة في مجتمع محلي محدد هو مدينة بريستول وبذلك جاءت الدراسة على درجة كبيرة من العمق والقدرة على التحليل ، كما أنها بدلا من أن تتبع الاسلوب السوسيولوجي المعتاد في الدراسات المماثلة والذي يعتمد في المحل الأول على جمع المعلومات من عينة مختارة من المهاجرين اتبعت الأسلوب الأنثربولوجي الذي يعتمد على الاقامة الطويلة في مجتمع البحث وعلى جمع المعلومات عن طريق الملاحظة المباشرة والمعايشة والمشاركة في مختلف أوجه النشاط اليومي ، كما عززت ملاحظاتها بعدد من « دراسات الحالة » المتعمقة فضلا عن ذهابها إلى باكستان لدراسة اللغة الأردية حتى تستطيع أن تستخدمها في الحديث مع النساء الباكستانيات اللاتي لا يعرفن الانجليزية ، وحتى تتعرف أيضا ملامح الثقافة التقليدية في باكستان ومكونات البناء الاجتماعي التقليدي . وهذه كلها أساليب وطرق للبحث تكفل التغلغل في أعماق الظاهرة أو النظام الاجتماعي موضوع الدراسة . وهذه مسألة سوف نعود إليها فيما بعد ، ولكن يكفي أن نشير هنا إلى أن الكتاب لم يشتمل على جدول واحد وأن الأرقام فيه قليلة . وذلك على عكس الدراسات السوسيولوجية حول الموضوع والتي يبدو أن لها ولعا كبيرا بالأرقام والجداول . وهذا لا يعني الاستهانة بلغة الأرقام ، وكل ما يعنيه هو أن هناك أساليب وطرائق مختلفة لدراسة الموضوع الواحد ، وأن اختيار

المشكلة هو الذي يحدد المنهج والأسلوب وطريقة التحليل الملائمة . ومعظم الدراسات التي أجريت على المهاجرين من الكومنولث الى بريطانيا كانت تفترض أن هؤلاء الوافدين المقيمين قطعوا علاقاتهم مع وطنهم الأصلي ومع ثقافتهم التقليدية وأنه يمكن بالتالي دراسة وفهم هذه الجماعات فهما دقيقا من خلال ملاحظة وتحليل سلوكهم العادي في حياتهم اليومية في مجتمع الاقامة ، ودراسة الأعمال التي يقومون بها وظروف الحياة التي تحيط بهم مثل المسكن والدخل وغيرها . ولكن هذه الدراسة تعتبر ذلك نظرة ضيقة الى الموضوع وأن الهجرة عملية معقدة فيها كثير من الأطراف المتشابكة التي يجب تتبعها بدقة وتفصيل ، وأن الفهم الحقيقي لهذه المشكلة لن يتحقق الا اذا رجع الباحث الى الثقافة الاصلية التي ينتمي اليها هؤلاء المهاجرون الذين يتجاذبهم بذلك نوعان من الانتماء : الانتماء إلى الوطن الأصلي بكل قيمه وتراثه وتقاليده ، والانتماء الى المجتمع الجديد أو الوطن المضيف ، مع الرغبة الشديدة طيلة الوقت في العودة الى أرض المنشأ . وهي رغبة قلما تتحقق ، بل وقلما يعمل المهاجرون بإخلاص لاخراجها إلى حيز التنفيذ .

وهجرة الباكستانيين إلى بريطانيا جزء من هجرات أكبر وأوسع وأشمل وتضم أعدادا كبيرة جدا من الملونين والزنوج الذين وفدوا على بريطانيا من شبه القارة الهندية ومن أفريقيا وعدد من المستعمرات البريطانية التي نالت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية . وقد ظهر حول هذه الهجرات عدد كبير من الدراسات التي أجراها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا على هؤلاء الوافدين في مواطن إقامتهم الجديدة . وقد نجم عن هذه الهجرات كثير من المشكلات وأثير حولها كثير من التساؤلات كما ظهرت بعض الاتجاهات العدائية السافرة ضد هؤلاء الوافدين ، وهي اتجاهات تعبر عن الرفض الشديد والإحساس بخطورة هذه الهجرات على نمط الحياة والقيم والثقافة البريطانية التقليدية وعلى أسلوب الحياة « البريطاني » . ومعظم الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع والتي أدلى علماء الأنثربولوجيا فيها بنصيب وافر تكشف عن مشكلة هامة بدأ المجتمع البريطاني يعاني منها نتيجة لهذه الهجرات ، وهي مشكلة الحاجز اللوني والتمايز السلالي والعنصري وما صاحب ذلك من الالتجاء إلى كثير من أساليب العنف التي لم تكن معروفة في بريطانيا من قبل[٦] .

والواقع أن هجرة الملونين والسود الى بريطانيا ليست الا مظهرا آخر للتاريخ الامبريالي البريطاني وامتدادا لهذا التاريخ حتى وإن كان هذا الامتداد قد اتخذ بعد انتهاء عصر الاستعمار اتجاها مخالفا لما كان عليه من قبل . فأسلوب الحكم البريطاني في المستعمرات ، والاستغلال الاقتصادي لمصادر الثروة الطبيعية وتسخير الأفارقة في المزارع الكبيرة الواسعة وفي المناجم ، وحركات التبشير أدت كلها إلى ظهور تصنيفات سلالية وعرقية تضع الرجل الأبيض على رأس

(٦) من الدراسات الهامة التي ظهرت حول هجرة الملونين إلى بريطانيا والعلاقات الاجتماعية والعرقية المعقدة والصراع العنصري التي نجمت كلها عن هذه الهجرات الدراسات والبحوث التالية التي سوف تعتمد عليها هنا بشكل مباشر أو غير مباشر :

William W. Daniel; Racial Discrimination in England, Penguin Books, 1968; Nicolas Deakin, Colour, Citizenship and British Society, Panther Books, London 1970; Roland Littlewood and Maurice Lipsedge; Aliens and Alienists, Penguin Books 1982; Ivor Moorish, The Background of Immigrant Children, Allen and Unwin 1971; Sheila Patterson, Dark Strangers, A Study of West Indians in London, Penguin Books 1965; Peter Ratcliffe. Racism and Reaction, R.K.P. 1981;

ولكن الكتاب الذي سوف يحظى بمعظم اهتمامنا هنا هو البحث الأنثربولوجي الممتاز الذي ظهر عام ١٩٧٦ بعنوان :

Patricia Jeffery, Migrants and Refugees: Muslim and Christian Families in Bristol, Cambridge University Press 1976.

الجنس البشري . وقد ظهر ذلك واضحا في كل كتابات القرن التاسع عشر وعلى الأخص الكتابات الأنثربولوجية التي اهتمت بتصنيف البشر وكل الكائنات الحيوانية وتصنيف الثقافات والمجتمعات والنظم والأنساق تبعا لفلسفة تطورية تقوم على ترتيب الأشياء حسب درجة رقيها وتقدمها أو تخلفها وانحطاطها . والظاهر أن هذه النظرة لا تزال سائدة في بريطانيا إلى حد كبير ويعتنقها كثير من الناس وإن كانت لا تطفو على السطح إلا حين تتهيأ الظروف لذلك . وعلى أي حال فإن الذي يهمنا هنا هو أن معظم الذين درسوا الحركات الهجرية إلى بريطانيا كانوا يضعون نصب أعينهم ذلك التاريخ الاستعماري البريطاني الذي كان جزءا من التوسع الأوربي الذي امتد الى أطراف بعيدة من العالم من أجل السيطرة والتحكم في الأسواق ونقل ثروات تلك المستعمرات إلى أوربا ، ثم لم يلبث بعد ذلك أن احتكر بعض مناطق العالم لتصريف الصناعات والمنتجات الأوربية فيها . وهذه السياسة الاستعمارية هي التي أدت الى تقسيم العالم إلى دول ومجتمعات صناعية وأخرى زراعية فقيرة هي التي تؤلف « العالم الثالث » بكل ما يعانيه من فقر وسوء تغذية وجهل ومرض وبطالة . ومعظم المهاجرين الملونين السود الذين يعيشون الآن في بريطانيا جاءوا من دول ومجتمعات تعاني من بعض المشكلات التي لحقتها على أيدي بريطانيا ذاتها . وهذه حقيقة يعترف بها معظم الباحثين في كثير من التجرد والموضوعية[٧] .

ولقد كانت شبه القارة الهندية قبل تقسيمها إلى دولتي الهند والباكستان واحدة من أهم المناطق التي خضعت للحكم البريطاني وكانت تعتبر أجمل وأغلى جوهرة في التاج البريطاني . وقد أفادت بريطانيا من هذه (العلاقة) إلى أبعد الحدود سواء من الناحية الاقتصادية أو حتى من الناحية العسكرية حيث كان (الهنود) يحاربون لها حروبها ، بينما لم تكد شبه القارة الهندية تفيد شيئا يذكر من (المدنية) الغربية التي جلبها البريطانيون لهم في مقابل استنزاف خيرات بلادهم وثرواتها . وكما تقول باتريشيا جيفري (صفحة ٢) فانه لا يمكن الفصل من الناحية التاريخية بين تطور بريطانيا وتقدمها كدولة صناعية وتخلف الهند وفقرها واعتمادها اقتصاديا على الزراعة ، وأن تحكم بريطانيا في أسواق الهند كان من أهم العوامل التي ساعدت على قيام الثورة الصناعية في بريطانيا .

وربما كانت هذه الحقيقة ماثلة في أذهان الكثير من الهنود والباكستانيين الذي اضطرتهم ظروف بلادهم إلى الهجرة الى بريطانيا بحثا عن العمل ، فقد كانوا يرون أن هذه الهجرة أمر طبيعي وأن من حقهم أن يجدوا في بريطانيا العمل الذي يحتاجون اليه . ولم تكن بريطانيا على أي حال تجد في أوائل الخمسينات ما يمنع من قبول تلك الأعداد الكبيرة الوافدة اليها ، اذ كانت تجد فيهم الأيدي العاملة الرخيصة اللازمة لتشغيل مصانعها بعد أن انصرف كثير من العمال البريطانيين عن العمل فيها نظرا لانخفاض الأجور . وهكذا نجد أنه بعد أن أفلحت بريطانيا في استنزاف الموارد الطبيعية من شبه القارة الهندية أيام الاستعمار أخذت تستنزف قواها البشرية بعد أن نالت استقلالها وانقسمت الى دولتين كبيرتين هما الهند والباكستان . ولقد كان النازحون من هاتين الدولتين يدخلون بريطانيا بغير عوائق أو صعوبات حتى عام ١٩٦٢ حين تغير الوضع وأصبحت بريطانيا تقبل أصحاب المهارات والكفاءات فقط ، أي أنها لم تكن تقبل سوى الفئات التي تحتاج إليهم بلادهم الأصلية ولا تستطيع الاستغناء عنهم بسهولة . وربما كان ذلك وراء ما قالته إحدى

---

(٧) انظر على سبيل المثال :
Patricia Jeffery, op. cit. pp. 7-43; R. Littlewood and M. Lipsedge, op. cit. Ch. 4; Ratcliffe, op. cit. pp. 1-18.

السيدات المهاجرات حين سئلت في شيء من العداء عما يدفعها هي وأمثالها إلى المجيء الى بريطانيا فأجابت بأنها هي وأمثالها انما يأتين الى بريطانيا من شبه القارة الهندية لاسترداد ماسة كوهي نور Koh-i-noor الشهيرة . ولكن لا يمكن القول إن كل المهاجرين من شبه القارة الهندية الى بريطانيا يعرفون ذلك التاريخ ويعرفون تلك الماسة الشهيرة أو يدركون الأبعاد التاريخية والبنائية لهجرتهم ، وإنما هم يرون أنفسهم مجرد أفراد كانوا يعيشون في بلد فقير لايستطيع أن يوفر لهم ولعائلاتهم العيش الكريم وأنه لم يكن أمامهم إزاء ذلك إلا أن يحاولوا الافادة بقدر الامكان من الفرص التي تتيحها لهم الحياة ، وأن الهجرة الى بريطانيا كانت إحدى هذه الفرص .(٨)

ولقد كانت تلك الاعتبارات وراء اختيار باتريشيا جيفري للمنهج الذي اتبعته في دراسة المهاجرين الباكستانيين في بريستول ، وهو منهج يقوم ليس فقط على معايشة الناس ومشاركتهم كثيرا من أوجه النشاط اليومي والاعتماد على الملاحظة المباشرة التي تتطلب الاقامة الطويلة في المجتمع وعدم الالتجاء إلى صحائف الاستبيان وقوائم الأسئلة القصيرة المباشرة الا في أضيق الحدود ، ولكنه أيضا منهج يقوم على التعاطف مع الناس ومحاولة فهم وجهة نظرهم والتعبير عنها بأمانة لدرجة قد تصل بالباحث الى أن ينكر ذاته تماما ويختفي من الصورة بقدر الامكان لكي يترك للناس أنفسهم الفرصة للتعبير عن آرائهم وعرض دقائق حياتهم وشرح تجربتهم الخاصة وتقييم هذه التجربة في ضوء الظروف والأوضاع التي عاشوها ، وبدون تدخل أو توجيه من الباحث الا في أضيق الحدود . وهذا هو بالضبط ما فعلته باتريشيا جيفري في هذه الدراسة التي نحن بصددها . وربما كان هذا المدخل الذي يقوم على التعاطف والذي يحب بعض علماء الانثربولوجيا تسميته بالمدخل المعرفي هو أهم ما يميز هذه الدراسة . والواقع أن الستينات والسبعينات شهدت اتجاها واضحا في البحوث الأنثربولوجية في الخارج نحو اتباع هذا المدخل الذي لم يطبق عندنا على أي حال الا في حالات قليلة معدودة وبالذات في بعض الرسائل الجامعية التي لم تنشر بعد

ومع التسليم بتعدد الأسباب وراء الهجرة فان الهجرة من أجل العمل ـ أي لأسباب اقتصادية في المحل الأول ـ تشكل نسبة كبيرة من الهجرات البشرية في العالم . وتبدأ هذه الهجرات في العادة على أنها مسألة مؤقتة لا يلبث المهاجر أن يعود بعدها إلى وطنه الأصلي . أو هذا على الأقل هو ما يعتقده الكثيرون في بداية الأمر ، خاصة وأن كثيرا من مجتمعات الاستقبال لا تحبذ إقامة الوافدين من أجل العمل بصفة دائمة فيها ، ولكن ذلك لم يمنع من تزايد حركات الهجرة في كثير من مناطق العالم . فتقارير مكتب العمل الدولي مثلا تشير الى أنه في عام ١٩١٩ كان المهاجرون من أجل العمل كله حوالي عشرة ملايين نسمة ولكن في عام ١٩٧٣ كان ٩٪ من القوة العاملة في المانيا الغربية ينتمون الى جنسيات

---

(٨) كان لأبناء دول الكومنولث الحق في الاقامة والعمل في بريطانيا . بل إن ذلك كان ميسورا لهم أكثر مما كان بالنسبة للوافدين من جنوب أوربا مثلا الذين كانوا يعتبرون أجانب من الناحية القانونية ، وبذلك لم يكن في استطاعتهم العمل هناك بغير الحصول على ترخيص وحتى بعد الحرب العالمية الثانية خرجت أعداد متزايدة من شبه القارة الهندية ومن بعض دول الكومنولث الجديد واتجهت للاقامة في بريطانيا مما أدى إلى ظهور جيل من « البريطانيين » الملونين الذين كانوا على أي حال يحتلون مكانة أدنى من الناحية الاقتصادية من البريطانيين البيض الذين يؤلفون السكان الأصليين . والواقع أنه حتى عام ١٩٦٦ لم تكن التفرقة العنصرية في بريطانيا غير مشروعة ، بل إنه حتى عام ١٩٦٨ حين صدرت القوانين المنظمة للعلاقات السلالية كان من المألوف أن يضع أصحاب منازل علامات تدل على أنهم لا يقبلون سكانا من الملونين وحتى بعد صدور القوانين لم يتغير الموقف تغيرا جذريا إلا ببطء وبالتدريج وقد عانى الباكستانيون بالذات من ذلك أكثر من غيرهم اذ كان يفصل بينهم وبين السكان البيض عامل الدين إلى جانب عامل اللون . وقد لاحظ هذه الظاهرة عدد من العلماء الذين درسوا الهجرة في بريطانيا ومنهم باتريشيا جيفري . انظر على سبيل المثال كتاب .

Littlewood and I ipsedge, op. cit. p. 128 and p. 136.

أجنبية ، كما أن فرنسا تعتمد على العمال المهاجرين من الجزائر والمغرب بحيث أنه في عام ١٩٧٤ كان حوالي ٥٪ من كل القوى العاملة الجزائرية تعمل في فرنسا . وقد سبق أن أشرنا الى أن بريطانيا كانت في سنوات الازدهار في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات تستقبل أعدادا كبيرة من العمال المهاجرين الذين كانوا يفدون اليها من الدول التي أدت السياسة البريطانية الاستعمارية ذاتها الى تحطيم اقتصادها . ويشير تعداد عام ١٩٧١ الى أن ١,١٦ مليون نسمة في بريطانيا كانوا من مواليد دول الكومنولث الجديد وبوجه أخص من الهند وباكستان وبنجلاديش . ولكن حين دخل الغرب في مرحلة الكساد في السبعينات بدأت النعرات العنصرية والتفرقة بين السلالات وما يرتبط بها من توتر وصراع عنصري تظهر بعنف وقوة على ما ذكرنا وبشكل لم يكن مألوفا من قبل[٩] . وقد دفع ذلك باتريشيا جيفري الى القول بأن (دعوى) التسامح الذي يفخر به البريطانيون هي في الحقيقة (ادعاء) فيه كثير من الزيف والسطحية والخداع (صفحة ٣) . وهذا الحكم الذي تصدره باتريشيا جيفري يكشف عن نوع التعاطف الذي تبديه مع الباكستانيين الذين ركزت عليهم دراستها في بريستول ، وهو مستمد علىأية حال من أقوالهم هم أنفسهم ويعبر بذلك عن وجهة نظرهم ورأيهم في المجتمع البريطاني بعامة ومجتمع بريستول الذي يعيشون فيه بخاصة ، وإن كانت ملاحظاتها هي الخاصة أثناء البحث تعزز من هذا الرأي .

بل ان اختيار باتريشيا جيفري للموضوع يكشف هو أيضا عن الدور الذي يلعبه التعاطف في الدراسة . ففي البداية كان الموضوع الذي يشغل بالها وتريد التركيز عليه والذي جذب انتباهها بحكم اقامتها في بريستول كطالبة في الجامعة هناك كان هو حياة الفتيات الباكستانيات في ضوء خضوعهن لبعض التقاليد وقواعد العرف الباكستانية ، مثل رغبة الوالدين في أن تحتفظ الفتيات بالحجاب أو (البردة) رغم إقامتهن في مجتمع غربي حديث (بريطانيا) ، وكذلك نظام الزواج الذي يتولى الوالدان ترتيبه لأولادهم وبخاصة الفتيات منهم . وعكفت على دراسة التعارض الذي يبلغ أحيانا حد الصراع بين وجهتي نظر الوالدين والفتاة الصغيرة ، واسترعى نظرها في ذلك قدرة الباكستانيين على الاحتفاظ بالهوية أو الذاتية الباكستانية عن طريق التمسك بتلك العادات وقواعد السلوك والقيم والنظم التقليدية ، وبذلك تحول اهتمامها الى دراسة الأساليب والوسائل التي تتم بها المحافظة على تلك العناصر الثقافية الهامة وأسلوب تربية وتنشئة الأطفال في البيت في جو باكستاني تقليدي . وهكذا اتجهت الدراسة نحو العمليات التي يتم عن طريقها (عدم التمثل) ـ وليس التمثل ـ والمحافظة على المقومات والأسس والملامح العرفية وليس اختفاء هذه الملامح واندثارها عن طريق الاحتكاك والتفاعل مع الثقافات الأخرى على ما تفعل كثير من الدراسات الأخرى حول الهجرة . فبينما يهتم معظم الباحثين بتعرف الوسائل والأساليب التي يتم بها تكيف المهاجرين مع المجتمع الجديد وتمثلهم الثقافة ، اتجهت باتريشيا جيفري على العكس من ذلك إلى البحث عن عوامل (عدم) التكيف و (عدم) التمثل والاحتفاظ بالشخصية الاجتماعية والهوية الثقافية الخاصة للمهاجرين الباكستانيين في مجتمع الدراسة .

●●●

الهجرة على نطاق واسع من باكستان إلى بريطانيا ظاهرة حديثة نسبيا . فلم يكن يوجد في بريطانيا عام ١٩٥٠

(٩) Paul Harrison; Inside the Third World: The Anatomy of Poverty, Harvester Press, London 1979, pp. 139-42.

سوى عدد قليل من الباكستانيين ، وحتى عام ١٩٦٠ لم يكن العدد قد وصل إلى عشرين ألف مهاجر ، وحتى الآن لا يزال معظم الباكستانيين المهاجرين في بريطانيا من الرجال وان كانت هناك نسبة معينة من النساء يلحقن كل عام بأزواجهن ، وهي على أي حال نسبة ضئيلة نظرا للقيود المفروضة على الهجرة والاقامة . والطريف هنا هو أن بعض المهاجرين الباكستانيين الى بريستول هم من المسيحيين ـ أي أن الهجرة الباكستانية ليست هجرة اسلامية خالصة . وعلى الرغم من أن المسيحيين في باكستان لم يكونوا حسب إحصاء عام ١٩٦١ يزيدون عن ١,٣٦٪ من مجموع السكان وان عددهم في بريستول قليل جدا فان باتريشيا جيفري وجدت أن من المستحسن أن تجري على بعضهم البحوث المركزة المتعمقة فيما يعرف باسم دراسة الحالة ، على أساس أن ثمة فوارق ثقافية هامة تميزهم عن الباكستانيين المسلمين وأن لهم نظرتهم وآراءهم ومواقفهم الخاصة المتميزة من الهجرة .

وكما هو الحال في أغلب حالات الهجرة فان الهجرة من الباكستان إلى بريطانيا تكمن وراءها في أغلب الحالات دوافع اقتصادية ، ولذا فان معظم الوافدين يتوجهون أولا الى المناطق التي تعاني نقصا في الأيدي العاملة حتى يضمنوا لهم عملا يستطيعون الاعتماد عليه ولو مؤقتا الى أن تتاح لهم الفرصة الكافية للتعرف على الموقف بشكل أفضل ويستطيع كل منهم أن يتخير أفضل مكان للعمل والاقامة فيستقر فيه . وعلى ذلك فان أغلب الباكستانيين المقيمين في بريستول لم يصلوا اليها الا بعد أن مروا بعدد من مراكز العمل الأخرى في بريطانيا ومارسوا عددا من الأعمال المختلفة . ومع ذلك فإن هناك الى جانب الدوافع الاقتصادية أسبابا أخرى اجتماعية وراء عدد كبير من حالات الهجرة وبالأخص هجرة المسيحيين . وقد ظهرت هذه الأسباب الاجتماعية نتيجة للدراسة المركزة التفصيلية لحياة بعض الأفراد لمعرفة العوامل الذاتية والشخصية التي تختفي وراء الدوافع الاقتصادية العامة مثل الشكوك التي يحملها المسيحيون ازاء وضعهم ومكانتهم الاجتماعية في الوطن الاصلي ، وهي شكوك تقول باتريشيا جيفري انه لم يتوفر لديها معلومات كافية تجعلها تطمئن الى صدق ما يقوله هؤلاء المهاجرون المسيحيون . ولكن ليس المهم هنا ان كان ما يزعمونه صحيحا أو غير صحيح ، وانما المهم هو أن الشعور بالتمييز والتفرقة بين المسيحيين والمسلمين في باكستان والاحساس بالظلم الواقع عليهم هو شعور واحساس موجودان عند المسيحيين بالفعل ولهما دخل كبير في تقييم المسيحيين لوضعهم في المجتمع وفي اتخاذهم القرار بالهجرة من باكستان . واذا كان المسلمون قد اختاروا الذهاب الى بريطانيا في المحل الأول نظرا لتوفر امكانات العمل فيها فان اختيار المسيحيين لبريطانيا كان ناجما عن شعورهم بأنها أشبه شيء (بالأرض المقدسة) ـ حسب التعبير الذي استخدمه أحد المسيحيين الذين درست باتريشيا جيفري حالتهم دراسة تفصيلية (صفحة ٥٧) . ولكن الظاهر ان الدين لم يكن شفيعا كافيا للباكستانيين المسيحيين يساعد على قبول المجتمع البريطاني في بريستول لهم أو يشجعهم على البقاء طويلا في بريطانيا ، وان كان فتح أمامهم أبواب بعض العائلات البريطانية . فعدد من العائلات الباكستانية المسيحية تفكر الآن في الهجرة الى كندا ، وذلك في الوقت الذي تفكر فيه عدد من العائلات المسلمة في ترك بريطانيا أيضا ولكن عائدة الى باكستان . وهذا الاختلاف في الاختيار له دلالته . ولكن يمكن القول بوجه عام انه اذا كان الباكستانيون المسيحيون يشعرون بالتمييز ضدهم على أساس ديني في باكستان فان هذا الوضع تغير الى حد كبير في بريطانيا حيث يتقبل المجتمع المهاجرين المسيحيين بسهولة أكثر مما يتقبل المهاجرين المسلمين ، وهذا دليل آخر تسوقه باتريشيا جيفري على التمييز العنصري الديني في بريطانيا ازاء المهاجرين (صفحات ٦٦ ـ ٦٨) .

وليس معنى هذا أن الفصل العنصري هو سياسة مرسومة من الدولة بقدر ما هو شعور عام بين الناس ينعكس في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في المجتمع المحلي الذي يضم جماعات عرقية مختلفة . كذلك ليس من الضروري أن يتخذ ذلك الشعور بالتنافر بين الجماعات العرقية شكل العنف كما حدث في بعض المدن في بريطانيا أو في بعض أحياء لندن ، وإنما قد يتخذ شكل التباعد ووضع الحدود على العلاقات الاجتماعية بحيث لا يتم التفاعل الاجتماعي الا في أضيق الحدود . وكذلك ليس من الضروري أن يقتصر ذلك التباعد الذي يعبر عن التمييز العنصري على البريطانيين البيض من ناحية والزنوج والملونين ككل من الناحية الأخرى ، وإنما يقوم ذلك التمييز بين مختلف الجماعات العرقية على السواء وبغير تفرقة كما تشير الى ذلك الأوضاع العامة السائدة في بريستول . فالاختلاط بين البريطانيين والباكستانيين الذين يشتركون في عمل واحد لا يتم الا في أضيق الحدود وأثناء أوقات العمل فقط . ويزيد من ذلك أن الكثيرين من العمال الباكستانيين يأخذون معهم طعامهم ويتناولونه بالتالي على حدة وانفراد وبذلك لا تتاح لهم فرصة الاتصال بزملائهم من الجماعات السلالية والعرقية الأخرى ـ وليس فقط زملاءهم من البريطانيين ـ أثناء فترة تناول الغذاء . ولقد حرمهم ذلك من فرصة الحديث باللغة الانجليزية وبالتالي اتقان اللغة التي هي أداة اتصال وتواصل في المجتمع البريطاني والتي بدونها يزيد شعورهم بالوحدة والعزلة والاغتراب . وليس من شك في أن طبيعة الطعام (البريطاني) لها دخل كبير في ذلك . فالباكستانيون المسلمون يحرصون على تناول اللحم (الحلال) وهو مالا يتوفر في الطعام البريطاني العادي ، وذلك فضلا عن الفكرة العامة الشائعة بينهم ولدى الكثيرين من الأغراب من مختلف الجنسيات والسلالات من أن الطعام البريطاني بوجه عام لا طعم له وغير مستساغ لغير البريطانيين (باتريشيا جيفري ، صفحات ٩٠ ـ ٩٣) بل إن الباكستانيين يحرصون وقت تناول الطعام في بيوتهم أن يسدلوا الستائر حتى لا يراهم المارة في الشارع وهم يأكلون بينما لا يعطي البريطانيون لهذه المسألة أدنى اعتبار . وهذا التباعد نفسه يقوم حتى بين الجماعات العرقية التي يفترض أن بينها كثيرا من أوجه الشبه والتي تشترك معا في كثير من العناصر الثقافية كما هو الحال مثلا بين الباكستانيين والهنود ، وبخاصة الذين ينتمون في الأصل الى البنجاب حيث تتشابه الفئتان في اللغة والملابس وألوان الطعام (ربما باستثناء اللحم الحلال) . فالاختلافات الدينية والسياسية القائمة في باكستان تنعكس على العلاقات بين الفئتين في بريطانيا وتقف عقبة دون اختلاطهما بشكل أكبر فعالية في الحياة اليومية ، لدرجة أن باتريشيا جيفري التي عنيت بتتبع هذه العلاقات تقول انه في بريستول لم تنشأ أي علاقة قوية سوى بين عائلتين اثنتين فقط احداهما باكستانية والأخرى هندية من مدينة أمرتسار ، وحين تتبعت الموضوع لمعرفة سر هذه العلاقة اكتشفت أن الرجل الباكستاني جاء في الأصل من أمرتسار نفسها (صفحة ٩٣) ، أي أن وحدة الموطن الأصلي كانت هي العامل الأساسي في التقريب بين هاتين العائلتين اللتين تمثلان بذلك حالة استثنائية وفريدة .

ويمتد هذا الانفصال بين الجماعات العرقية المختلفة إلى الاطفال الصغار في المدارس . فالأطفال الباكستانيون يلتحقون بطبيعة الحال بالمدارس البريطانية خاصة وأنه لا توجد مدارس باكستانية تعمل طوال الوقت ويمكنها أن تتولى وحدها مهمة تعليمهم وتربيتهم وتنشئتهم . وصحيح أن هناك بعض المؤسسات والمدارس الدينية الملحقة بالمساجد ولكنها لا تقدم للأطفال سوى التعليم الديني ولبعض الوقت فقط . وهذا لا يغني عن الالتحاق بالمدارس البريطانية من أجل التعليم الرسمي المنهجي المنتظم . ومع أنه لا يوجد فصل أو تمييز عنصري داخل المدارس فلا يكاد يوجد اختلاط

بين التلاميذ الباكستانيين والبريطانيين خارج المدارس . وتذكر لنا باتريشيا جيفري (صفحة ٩٣) أنها خلال كل الوقت الذي استغرقته الدراسة الميدانية لم تلتق بأطفال بريطانيين في زيارة بيوت (أصدقائهم) من الأطفال الباكستانيين سوى مرتين اثنتين فقط .

ويزيد من حدة هذه الانفصال الذي يكاد يصل إلى حد الانغلاق أو التقوقع على الذات وجود برامج اذاعية وتليفزيونية باللغة الأردية إلى جانب صدور عدد من الصحف بتلك اللغة أيضا ، وهي صحف تهتم بأخبار « الوطن وأحداثه في المحل الأول ولا تكاد تولي الشئون البريطانية أو أحداث الغرب بوجه عام أدنى عناية أو اهتمام . ولكن من الإنصاف مع ذلك أن نقول ان ما تعرضه وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري المختلفة وبخاصة التلفزيون من ملامح الحياة في بريطانيا يساعد كثيرا على تكوين فكرة صحيحة عن المجتمع البريطاني ، أو أنه يسهم على الأقل في تصحيح كثير من الأفكار المسبقة التي جاء بها الباكستانيون (وغيرهم من الجنسيات الأخرى) حول العادات والأخلاقيات والسلوك والعلاقات بين أفراد المجتمع البريطاني وبخاصة فيما يتعلق بسلوك المرأة والتحرر الأخلاقي والجنسي وتعتبر هذه الأفكار المسبقة من أهم عوامل تباعد الباكستانيين بالذات وانصرافهم عن إقامة علاقات مع البريطانيين . ولم تفلح وسائل الاعلام على أي حال رغم ذلك في إزالة كل الشكوك والريب . ولا تزال علاقات الباكستانيين مع البريطانيين علاقات سطحية إلى حد كبير وفي حدود ضيقة للغاية .

والطريف في الأمر هنا هو أن كل جماعة عرقية تُنصِّب من نفسها حكما على سلوك وقيم الجماعات الأخرى وتخضعها لمحكاتها ومعاييرها ومقاييسها هي الخاصة ، وتنظر إلى هذه الأنماط السلوكية والثقافية من زاوية معينة تحمل في طياتها كثيرا من الشك والريبة وعدم التقدير بل وأحيانا عدم الاحترام . وقد تكون هناك أسس لهذه الريب والشكوك في بعض الأحيان ، كما هو الحال مثلا في تقييم الباكستانيين المسلمين لبعض جوانب الحياة العائلية في بريطانيا ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية غير الشرعية والأطفال غير الشرعيين والعلاقات بين الآباء والأبناء وواجبات كل منهما نحو الآخر وما إلى ذلك . وتنعكس هذه الشكوك أحيانا في المقارنات التي يعقدها الباكستانيون بالذات (في بريستول) بين ما يحدث في بريطانيا وبين الأوضاع والعلاقات والروابط العائلية القوية التي عهدوها في بلادهم ، وكثيرا ما يبالغون في أحكامهم حول هذا الموضوع . فمن ذلك ما تذكره باتريشيا جيفري مثلا من أن أحد الاخباريين **informant** الذين كانت تعتمد عليهم اعتمادا كبيرا لفهم طبيعة علاقتهم بمجتمعهم الأصلي وبالمجتمع الجديد كان يؤمن بشكل قاطع وحاسم بأن نسبة الطلاق في بريطانيا هي ٧٥٪ من حالات الزواج ، وأن الحياة الزوجية في المجتمع البريطاني هي حياة تعيسة وبعيدة كل البعد عن السعادة الحقيقية التي تعيش فيها العائلة الباكستانية حيث لا تزيد حالات الزواج غير الموفق عن حالة واحدة في كل مليون زيجة (صفحة ٩٥) . وبصرف النظر عن مدى مطابقة ذلك للحقيقة والواقع فالمهم هو أن مثل هذه الأحكام إنما تصدر عن موقف معين يحمل نظرة تقويمية معينة ويعبر عن اتجاه معين أيضا إزاء الجماعات العرقية الأخرى . وهي في آخر الأمر أحكام ناجمة عن عدم فهم الثقافات الأخرى نتيجة لقلة ـ أو حتى انعدام ـ الاتصال والاحتكاك بتلك الثقافات والاغراق أو الانحصار كلية في الثقافة الخاصة التي تسود في المواطن الأصلي ، كما تكشف عن مدى الارتباط القوي بتلك الثقافة الأصلية على الرغم من العيش في مجتمع آخر له ثقافته الخاصة ، وعدم القدرة على التحرر من تأثير هذه الثقافة الأصلية . فالعلاقة بين المهاجرين والوطن الأم بكل ثقافته ونظمه وقيمه علاقة قوية ليس من

السهل فصمها أو التنكر لها . والأجيال التي نشأت في الهند أو الباكستان (أو غيرهما من المجتمعات التي تخرج منها هجرات كبيرة الى بريطانيا) إنما تأتي إلى المجتمع المضيف أو الوطن الجديد محملة بكل ذلك التراث الثقافي والاجتماعي السائد في الوطن الأصلي . وهذا التراث يؤثر بغير شك في سلوك هؤلاء المهاجرين في المجتمع الجديد ويحدد علاقاتهم بغيرهم من الجماعات العرقية .

من هنا فإن أي دراسة للجماعات المهاجرة التي تعيش في بلد « الاستقبال » أو الموطن الجديد يجب أن تأخذ في الاعتبار تلك العلاقات والروابط التي تظل قائمة بين هؤلاء المهاجرين وبلد « المنشأ » أو بلد « الارسال » الذي خرجوا منه . وهذا في الواقع هو ما فعله كثير من الباحثين الذين اهتموا بدراسة وضع المهاجرين في أوطانهم الجديدة ، وهذا أيضا هو ما فعلته باتريشيا جيفري في دراستها للعائلات الباكستانية في بريستول ، وذلك على اعتبار أن الموطن الأصلي يعتبر ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أحد طرفي عملية الهجرة . والواقع أن علماء الأنثربولوجيا بوجه عام كانوا يرون دائما أن دراسة أي نظام اجتماعي أو أي ظاهرة اجتماعية يجب أن تتخطى حدود المجتمع المحلي الذي يدرسون فيه ذلك النظام أو تلك الظاهرة حتى يمكن تعرف المؤثرات الخارجية التي يخضع لها ذلك النظام أو تلك الظاهرة . وهذا يصدق بطبيعة الحال على دراسة الجماعات الانسانية التي كثيرا ما تمتد علاقاتهم إلى ما وراء حدود المجتمع المحلي الذي يعيشون فيه . وهذا هو ما فعله ـ على سبيل المثال ايفانز بريتشارد في دراسته لقبائل النوير في جنوب السودان ، حيث لم يكتف بدراسة أي قبيلة من تلك القبائل على حدة وانما درسها في علاقاتها بعضها ببعض ثم تخطى ذلك إلى دراسة علاقاتها بالقبائل الأخرى التي تحيط بها ، والتي ترتبط بها بروابط الصداقة أو العداء وكيف أن هذه الروابط تحدد نوع البناء الاجتماعي السائد عند قبائل النوير(١٠). وهذا مثال تقليدي قديم يسترشد به الباحثون في تتبعهم العلاقات بين المجتمع الذي يركزون على دراسته والمجتمعات الأخرى التي ترتبط به بعلاقات اجتماعية أو سياسية اقتصادية تتدخل في تشكيل بنائه وثقافته .

في ضوء هذه الاعتبارات لم تكتف باتريشيا جيفري بجمع المعلومات من الاخباريين في بريستول أو من الأشخاص الذين اعتبرتهم « حالات » تدرس حياتهم دراسة تفصيلية متعمقة ، وإنما حملتها الدراسة إلى باكستان نفسها حتى تستكمل دراسة الموضوع في كل أبعاده . وتقول في ذلك :

« لقد كانت هناك بعض مزايا واضحة ترجع إلى كوني امرأة . فقد كانت النساء والفتيات يشعرن بالسعادة للقائي حتى وان لم يكن في استطاعتهن الكلام بالانجليزية بينما كان الرجال يعاملونني على أنني (رجل شرف) . ولم يكن لمثل هذه الأمور أن تحدث بالنسبة للباحث الذكر . ولقد كانت اللغة هي المشكلة الكبرى اذ لم يكن يتكلمها إلا الرجال والنساء المسيحيات ، وكان من الواضح أن اتصالاتي بالمسلمات وبالفتيات اللاتي وصلن حديثا لن يكتب لها النجاح إلا إذا تعلمت أنا اللغة الأردية . . . وكانت أفضل وسيلة لحل مشكلة اللغة هي أن أقيم أنا نفسي في باكستان . وعلى ذلك فإنني عشت في لاهور في الفترة من نوفمبر عام ١٩٧٠ إلى إبريل عام ١٩٧١ ، وهناك تلقيت دروسا منتظمة في اللغة الأردية وأقمت علاقات

---

(١٠) الاشارة هنا الى كتاب :

E.E. Evans Pritchard; The Nuer, Oxford University Press, 1940.

واتصالات مع أكبر عدد ممكن من أقارب المهاجرين . وبطبيعة الحال فإن معرفتي باللغة الأردية معرفة قاصرة . . . وحين عدت إلى بريستول عمدت إلى توطيد علاقاتي من جديد مع الاخباريين . وقد أسعدهم ـ وبخاصة النساء ـ أن وجدوا أن بإمكاني الآن أن أتكلم الأردية معهم ـ وأنني أصبحت أهتم اهتماما كافيا ببلدهم لدرجة حملتني على الذهاب إليها . وقد ساعد ذلك عل أن يشعر النساء بالارتياح والاطمئنان ، فقد كن يرينة أنني أصبحت باكستانية وامرأة تعرف عاداتهم وتحمل لهم أخباراً من وطنهم . » (صفحة ٧٢) .

وهذا أسلوب متبع على أية حال في الدراسات الأنثربولوجية . والأساتذة الرواد كانوا يشترطون إجادة لغة المجتمع موضوع الدراسة حتى يمكن إجراء البحث دون الاستعانة بالمترجين نظرا لما قد يضيع من معان أثناء الترجمة . ولكن المسألة تتعدى مجرد معرفة اللغة في هذه الحالة ، لأن كثيرا من أنماط السلوك التي يتبعها الباكستانيون في بريطانيا لم يكن يتيسر فهمها تماما إلا بالرجوع إلى الثقافة التقليدية التي نشأوا فيها ومعرفة العلاقات والروابط التي لا تزال تربطهم بتلك الثقافة وبالمجتمع القديم . يظهر هذا إذا نحن قارنا على سبيل المثال أوجه الصرف والانفاق بالنسبة للعامل البريطاني والعامل الباكستاني اللذين يمارسان نفس العمل . فبينما يعتبر دخل العامل البريطاني ملكا له ولأفراد أسرته ويمكن للباحث أن يتتبع بدقة كل تفاصيل أوجه الانفاق والأبواب التي يتم إنفاق الدخل فيها بالنسبة للأسرة ككل وبالنسبة لكل فرد من أفرادها فإن ذلك لا يصدق على العمال المهاجرين لأن جزءا من ذلك الدخل لا يمكن اعتباره بحال ملكا للعامل نفسه أو أسرته لأنه يرسل بالفعل خارج البلد إلى الأقارب في باكستان . ولن يمكن للباحث فهم ذلك إلا عن طريق ـ تتبع شبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة وما يرتبط بها من التزامات ومسئوليات لا نجد لها مثيلا في المجتمع البريطاني أو الثقافة الغربية بوجه عام . وتضرب لنا باترشيا جيفري مثالا بأحد المهاجرين الذي كان ينفق على أسرته الموجودة معه في بريستول والتي تتألف من زوجة وثمانية أطفال ، ولكنه كان يعول في الوقت ذاته أبنا آخر له وأختا أرملة يعيشان في باكستان ، وذلك فضلا عما كان يرسله من نقود لشراء بيت يمكن أن يأوى إليه حين يعود إلى موطنه الأصلي . فمعظم المهاجرين الباكستانيين يضعون ذلك اليوم في اعتبارهم ويؤملون في العودة على الرغم من أن الكثيرين من الكتاب الذين اهتموا بهذا الموضوع يرون أن هذه أسطورة كما سبق أن ذكرنا[١١] . بل أن أولويات الانفاق تختلف عند الباكستانيين عنها عند البريطانيين . فالباكستانيون يسارعون في الأغلب الى تسديد أقساط البيوت التي يشترونها في بريطانيا بأكثر مما يفعل البريطانيون بحيث يتم تسديد كل الثمن في فترة أقصر بكثير ، لأن ذلك يعني أنهم يصبحون بسرعة ملاكا فعليين للبيوت . وليس من شك في أن ذلك يعني أنهم يتحملون كثيرا من المشقة ويعانون كثيرا من الحرمان حتى يمكنهم سداد أقساط أكبر حجما ، ولكن هنا أيضا تتدخل الاعتبارات الثقافية في تحديد الأولويات لأن ملكية العقار بالذات عنصر مهم في تحديد المكانة الاجتماعية في باكستان (باتريشيا جيفري ، صفحتا ٨٠ ـ ٨١) .

●●●

(١١) انظر على سبيل المثال :

M. Anwar; The Myth of Return: Pakistanis in Britain, Heinmann

وهذا الارتباط القوي بالموطن الأصلي ليس قاصرا في الحقيقة على الباكستانيين وإنما هو أمر لاحظه الكثيرون من العلماء من أمثال أنوار Anwar الذي صاغ عبارة « أسطورة العودة » في كتابه الذي أشرنا إليه ، وبيتر راتكليف في دراسته للمهاجرين السود والملونين من عدد من المستعمرات السابقة الى بريطانيا كما درسهم في حي Handsworth في مدينة برمنجهام(١٢) . وهذا الارتباط القوي دليل واضح ومؤشر هام على أن المهاجرين لم يتم تمثلهم تماما في المجتمع الجديد ، كما أنهم لم يستوعبوا الثقافة الجديدة كل الاستيعاب ولم يتكيفوا بعد مع الأوضاع الجديدة . ولذا كانت عملية التمثل والاستيعاب والتكيف من أهم الموضوعات التي تتطرق إليها البحوث الأنثربولوجية حول الهجرة والاقامة في مجتمعات محلية معينة ومحددة ، وبخاصة حين تكون هذه الهجرة هجرة تعددية تشمل أشخاصا وعائلات ينتمون إلى جماعات عرقية وثقافية متفاوتة ومتباينة كما هو الحال في بريستول أو في برمنجهام . وهذا في الحقيقة يمكن أن يصدق على الهجرة في منطقة الخليج بالذات حيث تشمل أشخاصا ينتمون إلى عدد كبير من الجنسيات والسلالات والثقافات ويعيشون معا ، أو على الأصح يتعايشون جنبا إلى جنب ، في مجتمعات صغيرة الحجم وكانت إلى عهد قريب تتميز ببساطة البناء الاجتماعي وتعكس درجة عالية من التجانس الثقافي . واذا كان علماء الانثربولوجيا والاجتماع يميزون بين التمثل التام والتمثل غير التام أو غير المكتمل ، ويرون أن التمثل التام يتحقق حين يفلح المهاجرون بعد طول إقامة في الوطن الجديد في التحرر تماما من ثقافتهم القديمة الأصلية ويتقبلون ثقافة المجتمع الجديد وينـدمجون تماما في المجتمع وتتشابك علاقاتهم وتتنوع وتتعقد مع أفراد ذلك المجتمع الأصليين ، فان كثيرا من الشكوك تنتاب هؤلاء العلماء في مدى إمكان تحقق ذلك النوع من التمثل بالنسبة للمهاجرين وبخاصة من الجيل الأول(١٣) .

من ناحية أخرى يذهب بعض العلماء من أمثال جوردون M.M. Gordon في كتابه عن « التمثل في الحياة الامريكية » Assimilation in American Life (وهو كتاب قديم نسبيا حيث نشر منذ أكثر من عشرين سنة ـ عام ١٩٦٤ ـ ولكنه لا يزال يحتفظ بأهميته في هذا المجال) ـ إلى التمييز بين بعدين أساسيين للتمثل هما البعد البنائي والبعد الثقافي . فالبعد الثقافي يترتب عليه تقبل واستيعاب القيم وأنماط السلوك السائدة في المجتمع الجديد ، بينما يتضمن التمثل البنائي إنشاء ثم توطيد العلاقات الاجتماعية ، وبالذات العلاقات الاجتماعية الأولية ، مثل روابط القرابة وعلاقات الصداقة مع أعضاء ذلك المجتمع . ويضرب لنا جوردون مثلا على ذلك من الولايات المتحدة حيث يبدو التمثل الثقافي واضحا على نطاق واسع بعكس الحال بالنسبة للتمثل البنائي . وهذا هو السبب في أن المجتمع الأمريكي يتميز بالتعددية البنائية وليس بالتعددية الثقافية . فهناك فئات وجماعات كبيرة متمايزة مثل البروتستانت والكاثوليك واليهود والزنوج ، ويميل أفراد كل فئة أو جماعة من هذه الفئات أو الجماعات الى التزاوج فيما بينهم وبذلك يقيمون علاقات وروابط قرابية واجتماعية قوية ولكنها خاصة بهم ومتميزة عن غيرها من العلاقات المماثلة التي تقيمها الفئات والجماعات الأخرى . فهذه إذن فئات تتمايز بنائيا على الرغم من أنها كلها تشارك في ثقافة واحدة أو يسودها نوع موحد من الثقافة . وهناك من يوجه بعض الانتقادات الى جوردون ويرون ـ مثلما فعل جريلي A.M.Greely في

(١٢) London 1979, Peter Ratcliffe; Racism and Reaction: A Profile of Handsworth, op. cit.

(١٣) يمكن للقارىء أن يرجع في ذلك إلى الفصل الرابع عن « البناء الاجتماعي والثقافة » في كتابنا « البناء الاجتماعي ، مدخل لدراسة المجتمع » الجزء الأول عن المفهومات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة والاسكندرية .

كتاب نشره عام ١٩٦٩ تحت عنوان طريف هو « لماذا لا يمكن أن يكونوا مثلنا ؟ » Why Can't They Be Like Us? إلى أنه ـ أي جوردون ـ بالغ في إبراز عنصر التشابه الثقافي بين تلك الجماعات المتمايزة بنائيا ، وأن ثمة في حقيقة الأمر اختلافات ثقافية كبيرة بينها وبخاصة فيما يتعلق بقواعد ومحكات القرابة ، وأن هذه الاختلافات والفوارق الثقافية توجد لدى الجماعات التي عاشت في أمريكا منذ عدة أجيال ولا يقتصر وجودها على الجماعات التي وفدت حديثا أو منذ عهد قريب .

فكأن التمثل الثقافي عملية صعبة للغاية ولا تتحقق إلا بعد عدة أجيال ، ولكنها مع ذلك أسرع في الحدوث من التمثل البنائي ، وأن العملية كلها على أي حال بالغة التعقيد . وهذا يصدق بغير شك على المهاجرين الباكستانيين إلى بريطانيا . وإذا كان بعض الكتاب يذهبون إلى أن المجتمع البريطاني مجتمع متجانس بنائيا وثقافيا على السواء فإن هناك من يرفض هذه الدعوى ويرى أن ثمة تعقيدات وتنوعات ثقافية هائلة ، كما أن هناك تقسيمات واضحة تتمثل في الاختلافات الاقليمية والتفاوت الطبقي والتمايز بحسب التعليم والاختلافات في الدين وما إلى ذلك ، وهي اختلافات تنعكس في كثير جدا من مظاهر الحياة الاجتماعية مثل الحياة العائلية وأوجه النشاط المختلفة بما في ذلك النشاط الترفيهي وفي التطلعات المهنية والتوجهات السياسية وما إليها . وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن نتوقع أن يتم تمثل المهاجرين الباكستانيين سريعا في النمط الثقافي والاجتماعي البريطاني أو يتم تمثل هؤلاء المهاجرين في الوقت ذاته لهذا النمط مادام لا يوجد نمط واحد معين ومحدد وواضح المعالم ومادام المجتمع البريطاني التقليدي هو ذاته مجتمعا غير متجانس على عكس الشائع ، وأن فيه اختلافات وفوارق ثقافية وبنائية هائلة ؟ (باتريشيا جيفري ، صفحتا ٨٣ ، ٨٤) .

فاذا كانت عملية التمثيل الثقافي تعني اختفاء الملامح والعناصر الثقافية الأصلية تماما فإنه يكون إذن من الخطأ الكلام عن استيعاب مجتمع الاستقبال أو الموطنة الجديد للمهاجرين استيعابا كاملا ، أو اندماج المهاجرين في المجتمع اندماجا كليا ، خاصة وأن التمثل بهذا المعنى يلقى مقاومة من الجانبين : جانب الأهالي الأصليين الذين يضعون حواجز اجتماعية عالية يعجز المهاجرون عن تخطيها أو القفز فوقها ، وجانب المهاجرين أنفسهم الذين يحتفظون بكثير من ملامح ثقافتهم الأصلية التقليدية التي تميزهم عن غيرهم من الجماعات وتعطيهم هويتهم الثقافية والاجتماعية التي يعتزون بها والتي يأملون أن تكون هي مفتاح عودتهم إلى وطنهم الأصلي في يوم من الأيام . واذا كانت هناك صعوبات وعوائق تمنع ـ أو على الأقل تعرقل ـ تحقيق التمثل الثقافي التام بالنسبة للمهاجرين فإن القيود التي تفرضها الجماعة العرقية على قيام كثير من العلاقات الاجتماعية وبخاصة فيما يتعلق بالزواج وعلاقات القرابة ، والتي تخضع في حالة الباكستانيين المسلمين بالذات لأحكام الدين الاسلامي ، تمنع من تحقيق التمثل البنائي . والمحصلة النهائية من كل ذلك هو أن يصبح المجتمع الذي يستقبل الهجرات البشرية مجتمعا تعدديا تتجاور فيه الثقافات والأبنية الاجتماعية المتمثلة في تكوين وتنظيم الجماعات العرقية المختلفة التي يكاد كل منها يؤلف مجتمعا مغلقا ومنعزلا ، أو ما يطلق عليه علماء الانثربولوجيا تعبير social isolate . وقيام علاقات اجتماعية بين الأفراد الذين ينتمون إلى جماعات عرقية مختلفة لن يؤدي بالضرورة إلى اختفاء هذه الجماعات مهما بلغ من تشابك هذه العلاقات وتنوعها وتعقدها ، لأن هناك دائما قواعد تحكم العلاقات بين الجماعات العرقية والسلالات المختلفة ونضع فواصل في الوقت ذاته بين أشكال معينة من التصرفات بحيث يعتبر تجاوز

هذه الحدود تصرفا معينا يخضع للمساءلة والمؤاخذة[١٤]. فالتمسك بهذه الحدود هو طريقة لفرض قيود على العلاقات والاتصالات مع الجماعات الأخرى ، ونوع من الدفاع عن الذاتية الثقافية والاجتماعية . فالبريطانيون في بريستول يتمسكون بهذه الحدود وبذلك يمنعون الباكستانيين من أن يخترقوا حياتهم الخاصة أو يتغلغلوا فيها . فهناك على سبيل المثال اللامبالاة التي يبدونها إزاء جيرانهم من الباكستانيين ، وهناك التمييز من جانب سماسرة العقارات الذين قد يخفون على الباكستانيين البيوت المعروضة للبيع أو الايجار في مناطق معينة ، وغير ذلك من أساليب الابعاد التي تكاد تصل إلى حد النبذ ، وإن كان الباكستانيون الذين درستهم باتريشيا جيفري لا يتكلمون في العادة عن هذه الأمور ولا يكادون يشيرون إليها . ولقد سبق أن رأينا على أي حال كيف أن الباكستانيين من جانبهم يتمسكون هم أيضا بتلك الحدود ويأبون على الجماعات الأخرىسواء في ذلك البريطانيين أو الهنود أو الباكستانيين المسيحيين أو غيرهم أن يخترقوا تلك الحواجز ويتغلغلوا في حياتهم الخاصة . (باتريشيا جيفري صفحة ٨٩) . وليس المجتمع البريطاني كما يتمثل في بريستول فريدا في ذلك ، وإنما هي ظاهرة عامة وعنصر أساسي يميز سلوك أهل المجتمع الأصليين إزاء الغريب ـ خاصة إذا كان هذا الغريب وافدا من أجل العمل . ولكن المجتمعات تختلف في طريقة التعبير عن هذا الموقف وفي نوع القيود والحدود التي تفرضها على هؤلاء الوافدين والتي قد تصل في بعض الأحيان إلى حرمانهم من الاقامة الدائمة مهما طال مكوثهم في البلد المضيف . وهذه ظاهرة نجدها في كثير من البلاد العربية التي تستقبل أعداداً كبيرة من الأيدي العاملة ، وفي بعض الدول الأوربية على السواء . بل إن بعض الدول تحرم على الأيدي العاملة الوافدة اصطحاب عائلاتهم معهم على أساس أن ذلك سوف يدفع بهم إن عاجلا أو آجلا الى العودة الى أوطانهم[١٥]. ولكن هذا الموقف يختلف تماما عن وضع المهاجرين الدائمين الذين يقصدون الموطن الجديد بقصد الاقامة الدائمة ويحاولون الحصول على حق المواطنة ، وإن كانت تداعبهم طيلة الوقت أحلام العودة إلى الوطن .



والذي نريد أن نقوله هنا هو أن نظرة المهاجرين أنفسهم أثناء إقامتهم الفعلية في موطنهم الجديد ، وتقويمهم لتلك التجربة التي يمرون بها وبخاصة فيما يتصل بعلاقتهم بالمجتمع الأصلي الذي نزحوا منه ، ومدى ارتباطهم به ، ونوع هذه العلاقات والروابط لا تزال كلها بحاجة الى مزيد من الدراسة المتعمقة عن طريق الاتصال المباشر وتطبيق مناهج وأساليب البحث الانثربولوجي . ومثل هذه الدراسات خليقة بأن تكشف لنا عن جوانب إنسانية قلما يعطيها الباحثون ما تستحقه من عناية واهتمام . والدراسات العديدة التي أجريت في الخارج والتي أشرنا إلى بعض منها هنا كلها تكشف عن قوة الرابطة التي تربط بين هؤلاء المهاجرين وأوطانهم الأصلية وعن صدق الرغبة في العودة إلى الوطن ، وإن كانت هذه الرغبة لا تتحقق بالفعل في كل الحالات ، بل وقلما يبذل المهاجرون جهوداً حقيقية لاخراجها إلى حيز التنفيذ . وكما يلاحظ اندريه جاك Andre Jacgues في كتاب حديث يعرض فيه للمهاجرين واللاجئين في عدة مناطق من العالم

(١٤) Fredrick Barth, (ed); Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference, Allen and Unwin, London 1969

(١٥) Annie Phizacklea and Robert Miles; Labonr and Rcism, R.K.P. 1980 pp. 10-13.

اعتبارا من امريكا الوسطى إلى أفغانستان إلى اليهود والفلسطينيين إلى نزيف الهجرة في جنوب شرق آسيا إلى منطقة الخليج إلى هجرة الأيدي العاملة في إفريقيا ، فإن كل هذه الجماعات التي « تقطعّت جذورها » - حسب التعبير الذي يستخدمه في الكتاب - لا تزال مع ذلك تحمل هاجس العودة إلى الوطن الأصلي مهما طال بها الزمن في الموطن الجديد ، وأن أعدادا كبيرة منهم يفلحون في تحقيق ذلك بعد ان يكونوا قد حققوا اهدافهم من الهجرة او نتيجة لتغير الظروف في المجتمع الأصلي وزوال الاسباب والعوامل التي دفعتهم في الاصل الى الهجرة ، او لعدم رغبة المجتمع المضيف في الاحتفاظ بهم نتيجة لبعض الازمات الاقتصادية التي يعاني منها ، او بعد ان يكون قد استنفذ هو نفسه اغراضه منهم(١٦) . وعلى اي حال فان مثل هذه الدراسة تحتاج الى مناهج واساليب تختلف تماما عن الاساليب السوسيولوجية والاحصائية المتبعة حاليا في معظم الدراسات التي بأيديناوتتطلب الاتصال المباشر وتوطيد الثقة المتبادلة بين الباحث والاشخاص او الجماعات الذين يُجرى عليهم دراسته ، كما انها خليقة بأن تتطرق الى موضوعات تبدو شائكة في ظاهرها ولكنها تدور دائما في اذهان المهاجرين واللاجئين بل وايضا في اذهان واضعي السياسات واصحاب القرار في المجتمعات المضيفة ، مثل حق المهاجرين الذين اسهموا بقسط وافر في تنمية هذه المجتمعات في الاقامة الدائمة اذا رغبوا في ذلك ، ومثل ازالة الحواجز التي يقيمها المجتمع المضيف بينه وبين هؤلاء الوافدين بحيث يشعرهم طيلة الوقت بالغربة وبالتالي عدم الاطمئنان وعدم الاستقرار والامساك عن العطاء كما يجب ان يكون العطاء .

دكتور احمد ابو زيد

***

(١٦) Andre Jacques, Les Deracines: Refugies et migrants dans le monde, Editions La Decouverte, Paris 1985.

الهجرة وانتقال الأيدي العاملة في المنطقة العربية

عجز في المنظومات النظرية أم إشكالية مجتمعة

باقر سلمان النجار

أستاذ علم الاجتماع المساعد

كلية البحرين الجامعية

المقدمــــة :-

البحث في قضايا الهجرة وانتقال الأيدي العاملة في المنطقة العربية يعتبر واحدا من القضايا ذات الارتباط المباشر بالكثير من المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شهدتها المنطقة العربية خلال الخمس عشرة سنة الماضية . ومن المهم القول أن هذه المعطيات أو « الآثــار » أو « العـواقب » ـ كـما يـذهب البعض في تسميتها ـ لم تكن مقتصرة على تلك الدول ذات العلاقة المباشـرة بعمليـة انتقـال العمـالـة ـ الـدول المصـدرة والمستوردة للعمل ـ وانما امتدت لتشمل النظام الاقليمي العربي كما في بعض دول العالم الثالث « ذات العـلاقة المباشرة مع دول المنظولة العربية .

وهي ـ أي عملية الهجرة لم تكن ظاهرة منعزلة عن مجمل التغيرات المجتمعية الأخرى التي ضـربت نسيج المجتمع العربي ـ وعلاقاته بل هي في الواقع إحدى أهم إفرازات التشكيل الجـديد للنـظام الاجتماعي العـربي وسبب له .

وتقاسمت المدرستان السائدتان في الفكر الاجتماعي الغربي معالجـة هذه الـظاهرة : المـدرسة الكـلاسيكية الجديدة وهي الأسبق من حيث المعالجة والأكثر رواجا في معالجات قضايا الهجرة ومثلتها بشكل واضح الدراسات التي قـادها فـريق جـامعـة درهم ، بيـركس وسنكلير وكتابات البنـك الدولي وبعض الكتـابات العـربية [١]

(١) انظر في ذلك مثلاً :
J.S. Birks and C.A . Sinclair, Arab Manpower : The Crisis of Development, London, croomhelm, 1980; J.S Birks and C.A. Sinclair, Interna- tional Migration and Development in the Reglon, World employment Programme, Geneva, I.L.O. 1980, The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4. Autuma, 1984;

المعهد العربي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية ـ ندوة السكان والعمالة والهجرة في دول الخليج العربي الكويت ١٦ ـ ١٨ ديسمبر ١٩٧٨ ، الكويت ، ١٩٧٩ ؛ أمل العذبي الصباح ، الهجرة الى الكويت من عام ١٩٥٧ ـ ١٩٧٥ ، دراسة في جغرافية السكان ـ الكويت ـ جامعة الكويت ، ١٩٧٨ .

ومدرسة الاقتصاد السياسي والتي مثلتها بشكل جلي دراسة فرد هوليداي وبعض الدراسات الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية وبعض الدراسات الحديثة .[٢]

وتهدف هذه الدراسة لمعالجة طبيعة وخصائص الهجرة في المنطقة العربية والعوامل المؤثرة فيها واختيار مدى مصداقية الأدوات التنظيرية التي وظفت لمعالجة الظاهرة .

أولا ـ الهجرة العمالية : مشكل التنظير :ـ

في البدء لابد من تأكيد حقيقة يشاركنا فيها الكثير من دارسي الهجرة في المنطقة العربية ، وهي ان معظم الدراسات الكلاسيكية ذات المنحى الديموجرافي والسوسيولوجي والاقتصادي ـ المعالجة لقضايا الهجرة وانتقال العمالة في الغرب وباعتمادها على متغيرات فردية لم تساعد على تطوير فهمنا لمشكل الهجرة في المنطقة العربية . فليس أسهل من صياغة قوائم لمتغيرات ـ لانشك في صحتها طبعا ـ لأفراد غادروا لأسباب متعددة مثل تحسين الأوضاع المعيشية ، تعليم الأطفال ، الالتحاق بالعائلة ، . . . الخ كمتغيرات فاعلة في عملية الهجرة . وبدون شك فان الاعتماد على محدودية وسكونية بعض هذه المداخل المنهجية في معالجة قضايا الهجرة قد أدى الى صياغة مفهمية Conceptualization خاطئة لمشكل الهجرة .

فالتصورات النظرية الأولى مثلا ، تبنت ما يسمى بمعادلة التوازن السكاني بين الوحدات الجغرافية المختلفة كما صاغها جون ميلز John S. Mills والذي يفترض أن الهجرة ما هي إلا شكل من أشكال إعادة التوازن السكاني بين الوحدات الكونية . أي بمعنى آخر أن الهجرة تساعد على تخفيف الضغط السكاني في مناطق العسر ، مقابل تلبية حاجة الوحدات الجغرافية الآخذة في النمو Growing Units من الأيدي العاملة وبهذا فإن الهجرة تعتبر إحدى العمليات المساعدة على إعادة التوازن بين الحاجة للمصادر البشرية وتوفر رأس المال[٣] .

ويقدم الأقتصاديون التقليديون Conventional Economists تصورا لعملية الهجرة قائما على فكرة عملية التنظيم الذاتي Self-Regulating Process حيث تتكيف الحاجة للطلب على العمالة مع المعروض في الوحدات الجغرافية المختلفة ضمن إطار الاقليم الواحد . فارتفاع الرواتب في المدن وكذا ارتفاع مستوى المعيشة وتوفر الخدمات يساعد على ارتفاع معدلات الهجرة من الريف للمدن[٤] . من ناحية أُخرى تذهب نظرية التجارة الدولية International Trade Theory فتقدم تصورا مشابها للهجرة إذ أن الدولتين غير المتساويتين في الإمكانيات والسعة

---

(٢) لمزيد من الاطلاع حول هذه الكتابات انظر :

Fred Halliday, Migration and the Labour Force In the oil Producing states of the Middle East, Denelopment and change Vol. 8, No. 3, July 1977;

نادر فرجاني وآخرون ، العمالة الأجنبية في أقطار الخليج العربي ؛ بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد العربي للتخطيط ، يناير ١٩٨٣ ، بيروت . مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٣ ؛ سعد الدين ابراهيم النظام الاجتماعي العربي الجديد ، دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية ، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٢ ، نادر فرجاني ، الهجرة الى النفط ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٣ .

(٣) John S. Mills, Principles of Political Economy, London, Langmans, 1909.

(٤) Alejandro Portes and John Walton, Labor, Class and the Internatioual System, London, Academic Press, 1981. p. 26.

الإنتاجية بإمكانها التمتع بنوع من التبادل الثنائي لأمكانياتها المتاحة : السلع الرأسمالية والعمالة . وقد يكون باستطاعة إحدى هاتين الدولتين توظيف رأسمال وقوة عمل الدولة الأخرى بانتاجية اكبر ، أو ان يكون لاحداهما ميزة انتاج بعض السلع على الأخرى . بمعنى آخر فان التجارة والهجرة سيساهمان في رفع دخول الدولتين أو الدول الداخلة فيهما .(٥)

أما نظرية التحديث Modernization في علم الاجتماع فإنها تقدم شكلا آخر من نظرية التوازن eqailib-rium حيث تفترض هذه النظرية أن الهجرة وانتقال العمال بشتى أشكالها ما هي إلا نتاج لثنائية ما أسمته بالنسق القيمي Value System السائد في دول المنشأ Countries of origin(٦) . فالتوازن لدى هذه النظرية يتحقق عن طريق هجرة افراد المجتمعات المتخلفة الأكثر تعلقا بالحضارة المتقدمة لدول المركز تاركين وراءهم السكان التقليديين . وتعتقد نظرية التحديث هذه أن التعرض لنمط القيم الغربية ، التغريب (الوسترنة) ونمط السلوك الاستهلاكي يساهم في خلق الانقسام ضمن سكان الدول المتخلفة . فالأكثر تعلقا بنمط وحياة الماضي يسمون بالتقليديين Traditionals مقابل المحدثين Moderners ، أي الراغبين في التكيف او المتكيفين مع نمط الحياة الجديدة في شكلها الغربي . وباستخدام كلمات دانييل ليرنر Daniel Lerner فان اكتساب ما أسماه « بالحساسية الدينامية » أو التعاطف مع الآخرين empathy يعين أفراد المجتمع على التكيف والعمل بكفاءة في عالم متغير . ويعلق ليرنر على ذلك قائلا ان سكان المجتمعات المتطورة وبخلاف سكان « الدول النامية » يتميزون بخاصية القدرة العالية على تقبل الجديد والتعاطف مع الآخرين .(٧)

وبشكل عام فإن معظم النظريات السابقة والتي انطلقت أساسا من خبرة الهجرة العمالية فيالمجتمعات الغربية تدعي أن الهجرة ذات مضمون إيجابي لكلا طرفي الهجرة : الدول المصدرة والمستوردة للعمالة . ويلخص لنا رأي رست هذا الرأي بالقول :

> « إنه لوضع لا يوجد فيه أي خاسر ، فالمهاجر في انتقاله لدولة أخرى يتلقى بالاضافة للأجر العالي التدريب الفني والمهني الذي فيما بعد يساهم في عملية التنمية في دول المنشأ . أما دول الاستقبال فإنها باستقبالها لقوة العمل الوافدة فإنها في هذه الحالة تحصل على عمالة لم تتحمل في نشأتها أية تكاليف تذكر » .(٨)

---

(٥) Philip L. Martin and Alam Richard, International Migration, Monthly Labour Review, octoher, 1980, p. 6.

(٦) انظر : Andrew Webster, Introduction to the Sociology of Development, London, Macmillan, 1984.

(٧) Daniel Lerner, The Passing of Traditional Society : Modernizing the Middle East, N.Y., Free Press, 1965, PP. 49/50.

(٨) Ray C. Rist, The European Economic Community (E.E.C.) and Manpower Migration Policies and Prospects, Journal of International Affairs, Vol. 33, No. 2, fall/Winter, 1979, P. 207.

فالمؤيدون لعملية الهجرة أو القائلون بعائدها الايجابي يرون فيها أحد العوامل الرئيسية المساهمة في تخفيف التضخم السكاني في المناطق المزدحمة بالسكان وقيم ذلك عن طريق اتحاد العائلات بأفرادها المهاجرين في دول الاستقبال يساهم في انخفاض عدد سكان الدول الطاردة للعمالة ، ارتفاع معدلات هجرة العزاب أو المتزوجين غير المصحوبين بعائلاتهم ساعد على ارتفاع سن الزواج وبالتالي تقليل الانجاب كما هو في الحالة الأولى أو تقليل الانجاب كما هو في الحالة الثانية ويؤكد هذا أحد تقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الأوروبية .

وذلك من دراسة لبعض الاحصاءات الخاصة بالانجاب في أوساط أسر المهاجرين في الجزائر حيث وجد أن معدل الانجاب في الأسر ذات العائل المهاجر انخفض إلى نحو ٢٥٪ كما ان معدل انجاب الأطفال انخفض هو الآخر من ٤,٧ الى ٣,٥(٩) . الا أننا نضيف على ذلك فنقول ان الاستقرار النسبي والمؤقت لبعض الأسر المهاجرة في الدول الأوروبية ، من مناطق الاكتظاظ السكاني في العالم الثالث لا يمكن اعتباره بأي شكل من الأشكال عاملا مهما في انخفاض حجم التضخيم السكاني في دول مثل الهند وباكستان وتركيا والجزائر ومصر .

بالاضافة لذلك فقد قيمت الهجرة على أنها ذات تأثير إيجابي على أسواق العمل في دول الارسال . لذا فقد اعتبرت البطالة وعلى الدوام من القوى الطاردة للعمالة . من هنا جاء تشجيع الكثير من أصحاب القرار لهجرة الفائض من الأيدي العاملة كعامل مساهم في تخفيف حدة البطالة في دول المنشأ ، كما أنها من ناحية أخرى وكما قال كنز لي بيركر : « ستساعد على تنشيط عملية النمو بازاحتها للمعوقات في السوق . . »(١٠)

وتذهب لوتس Lutz مذهبا آخر وذلك بافتراضها أن الهجرة العمالية لغرب أوروبا شرط أساسي لأي توسع صناعي لدول جنوب أوروبا المرسلة للعمالة . فازاحة الفائض السكاني هنا سيساهم في رفع معدلات الدخل والتي بدورها ستساهم في زيادة الطلب على السلع المصنعة .(١١) .

وعلى العكس من ذلك فإن الشواهد المتاحة امامنا لم تدعم الادعاء السابق ، حيث ان بعض الدول الاوروبية وجدت نفسها مضطرة أمام تزايد هجرة قوة عملها لوقف هجرة السكان من بعض المناطق وذلك لضمان استمرارية تقديم بعض الخدمات المجتمعية التي اصيبت بالقصور نتيجة لهجرة قوة العمل المحلية .(١٢) بالاضافة لذلك فإن هجرة

(٩)
Organization for Economic Co-operation and Development, Migration and Transfer of Technology Case Study : Algeria, Morocco, Tunicsa and France, development Centre, Paris, 1975, P. 72.

(١٠)
C.P. Kindleberger, Enropes Post-War Growth : The Role of Labour Supply, Cambridge, Havard University Press, 1967- P. 106.

(١١)
V. Lutz, Some Structural aspects of the Southern problem the Comglemtarity of emigration and industerialization, Banca Nazional, del Lavaro Quarterly Review No. 59, 1961, PP. 367-402, In B. S. AL-NAJJAR, Aspects of Labour Market Behaviour In An Oil Economy, Astudy of underdevelopment and Immigrant Labour in Kuwait, Ph. D Thesis, University of Durham, 1983, P. 39.

(١٢)
Stephen Castles and Godula Kosack, Immigrant Workers and Class Structure in Western Europe, London, Oxford University Press, 1973, P. 413.

الفائض السكاني من المناطق الفقيرة لدول الشمال الأوروبي يعتبر انتقالا لبعض عناصر فائض القيمة لهذه الدول وذلك بافتراض حجم المدخلات المادية التي تم انفاقها على هؤلاء من سن الطفولة حتى دخولهم سوق العمل ، وكذا يمكن القول أن ما يسمى بالفائض السكاني في دول العالم الثالث لم يكن أبدا هكذا بل إنه نتاج لطبيعة الأنماط التنموية المتبناة وانعدام التكافؤ في توزيع ناتج فائض القيمة داخليا من ناحية ومحصلة لولوج هذه الدول منظومة عمل النظام الرأسمالي العالمي من ناحية أخرى وهو ما سنشرحه فيما بعد .

وأخيرا تأتي التحويلات النقدية المرسلة من المهاجرين لذويهم في دول المنشأ على أنها إحدى أهم ميزات الهجرة لدول الغرب وقد علق أحد تقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الأوروبية على هذه الظاهرة في حالة الجزائر بالقول :

« تعتبر مساهمة العمال المغتربين في ميزان المدفوعات الجزائري من أهم مصادر الدخل فالتحويلات النقدية لهؤلاء العمال تعتبر احدى مصادر تغطية العجز في الميزان التجاري وبالتحديد في الفترة السابقة لارتفاع اسعار النفط (قبل خريف عام ١٩٧٣) : أما في المغرب فإن التحويلات النقدية للمغتربين من المغاربة إحدى أهم مصادر ميزان المدفوعات وكذا في تمويل التنمية » .(١٣)

أما في حالة التحويلات النقدية للمهاجرين والعمال الأتراك فان نيرمن أبدان Nerman Abdan تنحو في معالجتها له منحى حذرا إذ تقول :

« قد يكون من الحق القول بأن التحويلات النقدية للمهاجرين من الأتراك ساهمت في رفع المستويات المعيشية لبعض الفئات الفقيرة من المجتمع التركي ، وتخطت العجز في الميزان التجاري ، وأنعشت من قوة التوجهات الاستهلاكية لهذه الجماعات ، إلا أنها نادرا ما ساهمت في الاستثمارات الانتاجية » .(١٤)

وبشكل عام ، فلو قبلنا جزئيا فكرة أن التحويلات النقدية قد تساهم في تحسين الأوضاع المعيشية لبعض أسر المهاجرين في دول المنشأ وبتغطية العجز في ميزان المدفوعات ، إلا أن كل هذه التغيرات التي اعتبرت على أنها إيجابية ليست ذات علاقة بإنتاجية الاقتصاديات المعنية وإنما بالبقاء المؤقت للعمالة المهاجرة وبطبيعة تطور اقتصاديات دول الاستقبال . بالاضافة لذلك ، فإننا لم نجد من الشواهد العملية ما يؤيد ما ذهبت إليه بعض الدراسات من أن

(١٣) Organization For Economic Co-Operation and Development, Op. Cit, P. 66.

(١٤) N. Abadan-Unat etal., Migration and Development, Ankara-Ajamstwrk Press, 1975, P. 380.

التحويلات النقدية للمهاجرين تم استثمارها إنتاجيا خصوصا إذ ما عرفنا أن الكثير من الأموال النقدية تم تحويلها عن طريق قنوات رسمية وغير رسمية لا تمتلك الجهات الرسمية أية سلطات بخصوص طبيعة ومجالات توظيفها .

باختصار فإن وجهات نظر الجهات المؤيدة لعملية الهجرة قد اعتمدت على محكات اقتصادية غير مدعمة بشواهد أمبريقية . أي بتعبير آخر إن هذه الاتجاهات رغم أهميتها في تفسير الظاهرة ، إلا أنها قد اعتمدت على متغيرات فردية منسلخة عن سياقها الاجتماعي والاقتصادي الذي اشتقت منه ، وهذا ما حاول تفاديه الاتجاه الآخر المسمى بالاتجاه النقدي أو اتجاه الاقتصاد السياسي .

أ ـ اتجاه الاقتصاد السياسي في تفسير الهجرة :

دفعت العواقب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي خبرتها دول الارسال في العالم الثالث بعض مفكريها من المهتمين بالتنمية لمناقشة قضية الهجرة من منظور اجتماعي ـ اقتصادي أوسع يأخذ في اعتباره ظروف التشكل الاقتصادي والسياسي لدول الارسال وموقعها ضمن منظومة عمل السوق الاقتصادي العالمي .

وترجع بدايات بروز هذا الاتجاه إلى كونر ميردال Gunner Myrdal والذي بخلاف السابق يرى في هجرة عمال العالم الثالث لأوروبا نوعا من الافقار Impoverishment وإزاحة للمصادر البشرية من سكان العالم الثالث . فالهجرة العمالية لأوربا في العقدين الخامس والسادس لم تساهم في تنمية دول الارسال كما تذهب الاتجاهات السابقة بل على العكس من ذلك كرست من واقعها المتخلف وتبعيتها للغرب .[١٥]

أما رواد مدرسة التبعية وبالتحديد بول بوران Baul Baran فيؤكد أن العلاقات التجارية بين الدول الفقيرة والدول الغنية وكذا حركة الاستثمارات الأخيرة لم تساهم في تضييق الهوة بين الدول المتقدمة والدول النامية في تكريس خضوع الدول الأضعف . وتقوم فكرة باران هذه على ان تقدم العالم المتطور جاء بعد مصادرة فائض القيمة في الدول النامية التي خضعت في البداية لشروط التجارة الغربية ومن ثمة للاستعمار الغربي . وقد طور أندرو فرانك Andre Frank هذه الافتراضات إلى نظرية في التخلف . ويمكن صياغة الافتراض الرئيسي لاتجاه مدرسة التبعية في التالي : « ان التخلف لم يكن حالة وجدت عليها اقتصاديات العالم الثالث قبل إخضاعه للنفوذ الأوروبي ، بل نشأ وتطور في لحظة تاريخية واحدة مع نشأة وتطور التقدم في المراكز الرأسمالية المتقدمة ، أي أن التخلف والتقدم هما وجهان لعملة تاريخية واحدة بدأت مع ولادة النظام العالمي للرأسمالية منذ القرن السادس عشر »[١٦] .

أي أن مدرسة التبعية لا تعتبر التخلف نتيجة لصيقة بطبيعة الهيكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي لبلدان العالم الثالث بقدر ما هو نتاج لتلك العلاقات التاريخية التي ربطته بمنظومة الدول الرأسمالية المتقدمة . لذلك فالنظام الرأسمالي العالمي ـ بالنسبة لأصحاب هذه النظرية ـ يتكون من منظومتين من الدول ، الأولى وتتكون من عدد صغير من الدول المسيطرة والمتطورة المستغلة ـ بكسر الغين ـ التي تشكل المركز Centre أو المتروبول Metropolis ، والثانية ويتكون من عدد كبير من دول العالم الثالث المستغلة ـ بفتح الغين ـ تشكل المحيط Prephiry أو التوابع

(١٥) انظر مثلاً : Gunner Myrdal, Rich Lands andpoor, N. Y. Harper Row, 1957.

(١٦) محمد السيد سعيد . نظرية التبعية وتفسير تخلف الاقتصاديات العربية ، المستقبل العربي ، العدد ٦٢ ، ابريل ١٩٨٤ ، ص ٣١ .

Satellite . واستنادا لهذه النظرية ، فالهجرة من دول المحيط إلى دول المركز تمثل استمرارية لواقع الاستغلال ونزوحا لفائض القيمة لصالح الدول المتقدمة(١٧) وبهذا المعنى جاء اعتبار الهجرة شكلا من اشكال الاستعمار الجديد Neo-Colonialism على أساس أنها جزء من فائض القيمة المنقول لدول المركز والمساهم في تنمية العالم المتطور . وقد علقت دراسة حديثة ، حول هجرة الجزائريين لفرنسا على ذلك بالتالي : ـ

> « تمثل هجرة العمال الجزائريين لفرنسا ودول الرأسمالية المتقدمة (في أوربا) أحد العوامل الرئيسية في استمرارية تبعية الجزائر لهذه الدول . فحرية انتقال اليد العاملة تمثل أحد المتغيرات الهامة للعلاقة (غير المتكافئة) بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة » .(١٨)

بشكل عام فإن مدرسة التبعية في تناولها لمشكل الهجرة لا توضح لنا بالقطع مدى إمكانية تغيير الشروط الحالية للعلاقة القائمة بين الشمال والجنوب كما أنها في الوقت ذاته الذي تفسر هجرة عمالة العالم الثالث لأوربا على انها نزوح لفائض القيمة واستمرارية لواقع الاستغلال والتخلف لا تقدم تفسيرا واضحا لطبيعة الهجرة من وإلى العالم الثالث .

وحاولت الدراسات الحديثة وخصوصا تلك التي عالجت في بعضها قضايا الهجرة من وإلى العالم الثالث ، تجاوز هذا المعضل بتبني ما يسمى بمدخل المنظومة العالمية World-System Approach وذلك باعتبار أن الهجرة لا تحدث بين وحدات جغرافية منفصلة وإنما هي جزء من الديناميات الداخلية لنظام متجدد . فالنظام الرأسمالي العالمي نظام دائم التجدد لكن دون تغير أساسي في ديناميات تراكم رأس ماله . وهذا ما سنحاول توضيحه في الصفحات القادمة ولكن من أين نبدأ ؟

ب ـ تدويـل رأس المـال :

يعتبر نمط الانتاج الرأسمالي أول نمط إنتاجي يخضع الكرة الأرضية Globe لشروطه كنظام يقوم النمط الرأسمالي في الإنتاج على خاصية تراكم رأس المال وهي بطبيعتها ذاتية التوسع Self-expansion . إلا أن هذه العملية ـ أي الطبيعية الأخطبوطية أو الامتدادية للنظام الرأسمالي ليست بالعملية السهلة فهي قد مرت بمراحل مختلفة اتسمت كل منها بخصائص وديناميات معينة . فالقوى المحركة الخاصة بكل مرحلة من المراحل في تناقضها ثم في اضمحلالها تدفع باتجاه التحول في النظام وبالتالي بروز لقوى محركة جديدة وإيذان ببدء مرحلة أو حقبة جديدة منه . وكمحصلة لذلك فقد تم إخضاع معظم دول العالم ـ وكما أشرنا سابقا ـ لشروط عمل النظام الرأسمالي ، لذا فتاريخ الدول النامية هو في الواقع تاريخ اختراق النمط الانتاجي الرأسمالي وتناقضه مع الأنماط الإنتاجية « التقليدية » القائمة والذي قاد ويقود بالتالي إلى تدويل رأس المال .(١٩)

---

(١٧) عدنان العامري ـ ملاحظات نقدية حول نظرية التبعية ، مجلة الفكر ، العدد الأول ، ١٩٨٤ ، ص ١٣١

(١٨) Kader Ammut, et, al., Les Contradictions d'un Development National, Paris, Maspro, 1974, P. 102, in B.S. AL-NAJJAR

(١٩) Peter Nore and Tersia Turner, Oil and class Struggle, London, Zed Press, 1980, P. 44.
Op. Cit. P. 44.

من هنا جاء اعتبار البعض ، النظام الرأسمالي من خلال هيمنته على الكون العامل الأساسي المؤثر في شكل ومسيرة التنمية في العالم الثالث ، فأصحاب الاتجاه البرجوازي الليبرالي يعتقدون أن تحقيق التنمية في الدول النامية يتم عن طريق تضييق الهوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة والذي بناء عليه سيتاح لدول العالم الثالث التمتع بنفس ثمار التطور الرأسمالي مثل انخفاض معدل النمو السكاني ، زيادة في دخل الفرد ، تراكم في رأس المال المحلي ، وتطور في مستوى التطبيب والصحة والمشاركة . . الخ . أي بتعبير آخر ، فإن في اعتقاد أصحاب نظرية التحديث Modernization Theory ان تخلف دول العالم الثالث هو نتاج لقلة مصادر الثروة ، وضعف المشاركة في التجارة الدولية كمنتج او مصدر للغلات والسلع او كليهما ،.. . وان الدول النامية حتى تتخطى ما يسمى بهوة التخلف فان عليها تبني الأسلوب الغربي في التنمية . . بالاضافة لذلك فان اصحاب مدرسة التحديث يؤكدون دائما أن معوقات التنمية في العالم الثالث غير ذات صلة بطبيعة ومنطق النظام الرأسمالي العالي وانما هي ذات طبيعة علائقية بالانساق القيمية السائدة في هذه الدول وسيادة الشخصية التسلطية وهيمنة العائلة البطراركية .

وبالمقابل فإن الاتجاه الراديكالي يرى في النظام الرأسمالي نظاما مؤسسا لعدم التكافؤ على الصعيد العالمي . فمأزق العالم الثالث ، وحسب تفسير هذا الاتجاه ، نتاج لسيادة النظام الرأسمالي الذي أسرع من تطور دول المركز على حساب منظومة العالم الثالث ، كما أن ما يسمى « بمشاريع التحديث » المقامة في الأخيرة ، وبإغفال الكم الهائل من المديح الرسمي لها ، ساهمت في زيادة هيمنة الدول الرأسمالية مما عزز بالتالي من اتجاه عدم التكافؤ على الصعيد العالمي الذي من نتاجه تطور كبير في دول الشمال الرأسمالية ركود Stagnation أو اضمحلال في منظومة الدول النامية .

وفي تفسيره لظاهرة التخلف يفترض هذا الاتجاه أن بروز ظاهرة الاحتكار في إطارها الرأسمالي في بعض من مجتمعات العالم الثالث أخضع من أنماطها الانتاجية التقليدية لمنطق إعادة انتاجه ـ أي الرأسمالية العالمية ـ ويسجل تاريخ هذه الدول منذ ان برز فيها النمط الرأسمالي في الانتاج ، استمرارية لعمليات الاستعباد السياسي والاقتصادي لرأس المال العالمي ، أي بشكل مقتضب تدويل لرأس المال الغربي :

> « فظاهرة التخلف ليست هي مؤشرا للجمود والتقليدية فحسب وإنما تمثل هي ايضا انتاجا لتطور معين مرتبطا أساسا بنشأة النظام الاقتصادي العالمي ومحصلة مباشرة له . لذا فان التحليل القادر على تفسير مشكلة النمو والتخلف في الدول النامية هو ذلك الذي يأخذ في اعتباره تطور الاقتصادي العالمي » .(٢٠)

أما مدرسة التبعية فتعتقد أن تشكل النظام الرأسمالي العالمي وخضوع المنظومات الأخرى له قد عاق من محاولات التصنيع أو نموها في العالم النامي فتبعية الأخيرة للشركات المتعددة الجنسية ، وحاجة هذه الدول للمعونات المالية والفنية الغربية بالاضافة للفوارق الطبيعية الصارخة كلها متغيرات لعبت دورا رئيسيا في إعاقة قيام تنمية صناعية حديثة في

(٢٠) Ronald Graham, The Aluminium Industry and The Third World, London, Zed Press, 1982, P. 3.

الدول النامية* . لذا فان الحل بالنسبة لهذا الاتجاه يتمثل في الانفصال التام عن النظام الرأسمالي أو بما سماه البعض بالتنمية المنغلقة او المنكفئة على ذاتها Blocked Development .(٢١)

إلا أننا مع ذلك نضيف ونقول أن حركة التصنيع التي حدثت في بعض بلدان العالم الثالث وبالتحديد جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية خلال العقدين الماضيين السادس والسابع ، وكذا في انتقال فائض القيمة ضمن المنظومة المحيطية ، قد أضعفت من مصداقية تحليلات مدرسة التبعية . فليس بإمكان اتجاه الانفصال عن السوق العالمي ولا تصور التنمية المنغلقة على الذات تقديم تحليلات مستمدة من فهم تغير ديناميات النظام الرأسمالي العالمي . فالاتجاه الأول يعتقد ان تنمية العالم الثالث مرتبطة أساسا برغبة البرجوازية المحيطية فهي أي حركة التصنيع والتنمية وفي ضوء تحليلات هذا الاتجاه تعتمد أساسا على رغبة البرجوازية المحلية وليست خاضعة لقوانين موضوعية تختص بطبيعة نمط الانتاج الرأسمالي العالمي وبخلال ذلك فان الاتجاه الآخر القائل بالتنمية المنغلقة على ذات يعتقد ان تحقيق التصنيع والتنمية في العالم الثالث يعتمد اساسا على اتجاه الرأسمالية الغربية . .(٢٢)

ج ـ المنظومة العالمية : المدخل البديل ؟

كما ذكرنا سابقا فان تشكل النظام الرأسمالي في اوربا الغربية ـ اقام نظاما جديدا للتجارة يرتكز على أسس جديدة ، فالعالم مقسم وفق أسس هذا النظام* إلى منظومتي دول : الأولى دول نامية والثانية دول صناعية متقدمة أما منظومة الدول النامية فتختص بإنتاج وتصدير المواد الخام وتعتبر سوقا أساسيا لبيع مصنعات العالم المتطور من البضائع والسلع الرأسمالية . كما قسم العالم النامي كذلك إلى مجموعتين من الدول ، الأولى وتقوم فيها بعض الصناعات ذات التمويل والارتباط الغربي مثل صناعة السيارات في البرازيل وصناعة المنسوجات في الشمال الإفريقي وجنوب شرق آسيا . . الخ ، اما المجموعة الثانية فتقوم بدور المصدر فقط للمواد الخام كمعظم الدول الإفريقية والكثير من دول آسيا وامريكا اللاتينية(٢٣) ، واما منظومة الدول الصناعية المتقدمة فقد أخضعت الأولى في البدء للسيطرة العسكرية والاقتصادية المباشرة ثم احتوتها مؤخرا ضمن آليات عمل النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي وهي دول مستوردة للمواد الخام ومصنعة ومصدرة له .

فهيمنة النظام الرأسمالي ساهمت في حرية انتقال رأس المال الغربي إلى الدول النامية لاقامة صناعات معتمدة اساسا على وفرة المواد الخام وعلى رخص الأيدي العاملة وكثافتها ثم إعادة مصنعاتها إلى أوروبا أو إلى الأسواق القريبة لبعض دول العالم الثالث ، كالخليج والشرق الأوسط . أما هجرة الأموال الغربية للعالم النامي في السبعينات فقد جاءت

---

* تمثل النقطة الأخيرة الاتجاه المحدث جدا من مدرسة التبعية والذي أعطى دورا متوازنا للعوامل الداخلية ـ كطبيعة دور تشكيل البرجوازية المحلية ما حجم الفوارق الطبقية ، قوة الانساق القيمة . . الخ ـ في تخلف العالم الثالث .

* هذا التقسيم يعرف في أدبيات الاقتصاد السياسي باسم التقسيم التقليدي او القديم للعمل على الصعيد العالمي .

(٢١) Peter Nore and Oersia Tarner Ibid, P. 145.

(٢٢) B. S. AL-NAJJAR, Op. cit. P. 48.

(٢٣) E.A. Brett, The World Economy Since The War : The Politics of Uneven Development, London, Macmillan, 1984, PP. 182-192.

متسقة مع عدة متغيرات عاكسة أزمة النظام الاقتصادي الرأسمالي ، (١) عملية الاستثمارات الاقتصادية لرأس المال الغربي في الدول النامية وفي ظل معطيات الاقتصاد الغربي ذات عائد ربحي كبير اذا ما قورن في بعض الحالات بعائد الاستثمارات في اوربا ذاتها ، (٢) إن توظيف هذه الأموال وفي دول معينة فمن العالم الثالث يلعب دورا مهما في المجال السياسي من حيث دوره المساعد على خلخلة التركيبات الطبقية التقليدية القائمة واضعاف المعارضة السياسية المحلية في هذه الدول ، كما انه من ناحية اخرى ساعد على تقوية مواقع البرجوازية المحلية وفي تدعيم عملية دمج الدول المحيطة بالنظام الاقتصادي العالمي ، مدخل كهذا لا يساعد فقط على فهم التشكيل الجديد ، الاقتصادي ـ الاجتماعي للدول النامية وانما يساعد كذلك على فهم طبيعة عمل النظام الاقتصادي العالمي ومأزقه المعاصر .

فالكثير من الكتاب وخصوصا في الغرب يؤكدون دائما ان المأزق الحالي للنظام الاقتصادي العالمي ما هو في الواقع الا نتاج مباشر لما اسموه حينذاك بأزمة النفط Oil Crisis عام ١٩٧٣ . إلا أننا مع ذلك نؤيد أندرو فرانك Andre Frank من ان مشكل اقتصاديات الدول الأوربية يعود الى حقبة تاريخية ابعد من ذلك كما أن جذوره اعمق مما يبدو عليه وان ما اسميناها بالمشكلة البترولية ما هي الا احدى النتاجات وليست سببا للمأزق العام »[٢٤].٢٣ هذه الأزمة التي يمكن تحديد ملامحها ، في ازدياد معدلات البطالة في المجتمعات الأوروبية والتي قدرت حتى مطلع الثمانينات بحوالي ٣١ مليون متعطل عن العمل في دول منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي ، كما ان اغلاق الكثير من الوحدات الاقتصادية والصناعية الذي هو مؤشر آخر لم يعد عاملا آخر مساهما في زيادة معدلات البطالة وانما في فقدان هؤلاء ـ أي العمال المسرحين ـ الكثير من مهاراتهم الفنية والحرفية . وكمحصلة لذلك انخفض معدل الاستثمار في هذه الدول مما زاد بالتالي من أعبائها المالية .[٢٥] فارتفاع معدلات البطالة في بريطانيا على سبيل المثال والتي قدرتها بعض الأوساط المطلعة بما يقارب الخمسة او الستة ملايين نتج عنه زيادة في الإنفاق وقلة في حجم الضرائب المحصلة ، وضع كهذا افرز مجموعة من المشكلات الاجتماعية والسياسية التي يعاني منها المجتمع البريطاني او ساهم في خلق مشكلات جديدة مرتبطة أساسا بالمأزق الاقتصادي العام الذي تعيشه المجتمعات الأوروبية . وابسط مثال على ذلك الاشكال الاجتماعي ـ الاقتصادي الذي تعيشه بريطانيا بسبب طبيعة السياسة التاتشرية وكذا في تبعيتها المطلقة لأمريكا وفي وجهها المعادي ـ والذي برز مؤخرا ـ للنظام الديمقراطي الليبرالي .[٢٦] .

إلا أننا مع ذلك يجب أن نؤكد على أن هذه المشكلات السابقة حصلت في الوقت الذي شهد فيه رأس المال العالمي اعلى معدلات دوران وفي الوقت الذي حققت فيه بعض الشركات وبالتحديد الشركات المتعددة الجنسية وذلك عن طريق إعادة مواقع الانتاج معدلات ربحية عالية على الصعيد العالمي .[٢٧]

لقد كان يقال دائما أن الكثير من أزمات المجتمعات الرأسمالية وخصوصا ابان المرحلة الاستعمارية Colonial Period قد تم حلها من خلال اخضاع مجتمعات جديدة Freshذات انماط انتاجية سابقة على النمط الرأسمالي لذا

---

(٢٤) Ande Frank, Crisis In The World Economy, London, Heinemann Educational Books Ltd., 1980, P. 68.
(٢٥) Folker Frobel, et al. The New International Division of Labour, London, Cambridge University Press, 1980, PP. 3-4.
(٢٦) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : Philip Armstrong. et al, Capitalism Since World War II, London, Fontana, 1984.
(٢٧) Folker Frobel, et al, Ibid, P. 4.

فان ما يميز المأزق الحالي للنظام الرأسمالي انتفاء بقع جغرافية جديدة غير رأسمالية قابلة للاستعمار . لذا كان على النظام الرأسمالي تجاوز معضلاته باعادة تشكيل النظام الاقتصادي العالمي . بعض من هذه التغيرات يمكن ملاحظتها في (١) بتبني سياسة الانفتاح الاقتصادي open door Policy في اكثر من قطر في العالم الثالث ، (٢) ارتفاع عدد المراكز التجارية والصناعية الحرة Free Industerialand Trade zone (٣) نزوح بعض من الصناعات الاوروبية ـ لمواقع انتاجية اكثر ربحية كما هو في حالة صناعة النسيج في الشمال الافريقي وجنوب شرق اسيا ، وصناعة الالكترونيات في جنوب شرق اسيا وبعض الصناعات الثقيلة (الحديد والصلب . . الخ) ذات التمويل المحلي والادارة الغربية في مجتمعات الخليج والجزيرة العربية المنتجة للنفط واخيرا ، (٤) ترشيد آليات الانتاج! في المراكز الصناعية التقليدية .[٢٨]

وبتعبير اكثر دقة فان ازمة الاقتصاد الغربي قد دفعت باتجاه تشكل شروط جديدة لتراكم رأس المال العالمي ، من الغرب يهاجر رأس المال العالمي للبحث عن مصادر جديدة للاستثمار في بعض من مواقع العالم الثالث ، او من العالم الثالث على وجه التحديد ـ المجتمعات النفطية في الشرق الاوسط تهاجر اموال العالم الثالث لاعادة دورة الحياة للنظام الاقتصادي العالمي . بمعنى اخر ان تغيرا في الشروط التاريخية لتراكم رأس المال في المجتمعات الغربية منذ مطلع السبعينات قد استدعى اساليب وطرقا جديدة ادخلت من خلالها منظومة الدول المتخلفة من جديد في عملية اعادة انتاج رأس المال الغربي . وكمحصلة لذلك فان تزايدا في الهوة قد طرأ ليس بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة وانما بين دول الأطراف بعضها ببعض : ـ

> « تقسيم العمل على الصعيد الدولي لم يكن تغيرا في استراتيجيات تنموية لبعض الدول الغربية ، او خيارات جديدة لما يسمى بالشركات متعددة الجنسية ، انما هو في الحقيقة نظام « مؤسسي » مبتدع للنظام الرأسمالي املته طبيعة الظروف المتغيرة ، فهو بهذا محصلة وليس سببا لهذه الشروط التي حتمت على هذه الشركات والدول ان تفيد صياغة تراكم رأس المال الغربي وفقا لهذه الشروط الجديدة » .[٢٩]

• • •

ثانيا ـ الهجرة العمالية ومأزق الاقتصاديات الغربية منذ السبعينات :

يمكن القول أن تبني الدول الغربية لسياسات متشددة على صعيد الهجرة والاستقدام منذ مطلع السبعينات حتى الآن ما هو الا نتاج للمأزق البنائي للاقتصاديات الغربية وكذا التطور الكبير ـ سياسيا ـ الذي لحق بالحركة العمالية الوافدة في المجتمعات الغربية . هذا على التحديد يمكن ملاحظته في التالي :ـ

(٢٨) B. S. AL-NAJJAR, Op. Cit, P. 50.
(٢٩) Folker Frobie, et al, Ibid, P. 46.

١ ـ عملية التسييس التي خضعت لها قوة العمل الوافدة كنتاج لتردي ظروفها المعيشية وشروط الاستخدام وكذا تردي الأوضاع الاقتصادية والكبت السياسي في بلدان المنشأ فالاضطرابات العمالية التي اجتاحت اوربا وقادها عمال وافدون هي انعكاس واضح لتنامي الوعي السياسي في صفوفها . فمثلا اضراب عمال المغرب العربي في فرنسا في الأول من مايو عام ١٩٧٣ وكذا إضراب العمال المهاجرين في منطقة الدور Ruhr-area في ألمانيا الغربية ، بالإضافة الى الاضطرابات التي اجتاحت بريطانيا في الفترة الممتدة من ١٩٨١ حتى عام ١٩٨٥ والتي كانت الجاليات الوافدة طرفا رئيسيا فيها وبالتحديد الجاليات الآسيوية وجماعات الوست انديز West Indies كلها أحداث مثلت نقلة نوعية في تاريخ الحركة العمالية الوافدة في اوروبا[٣٠] . من ناحية اخرى ، فانه لابد من التأكيد على ان هذه الاضرابات السابقة الذكر كانت احداثا خاصة بالعمالة الوافدة لأسباب غير تلك المتعلقة بظروف العمل والأجور ، انه تطور في الوعي السياسي الخاص بالفئات العمالية الوافدة وهو نتاج طبيعي لأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية المعيشة . وضع كهذا زاد من مخاوف حكومات المنشأ ودول الاستقبال الغربية والذي عبر عنه في اكثر من مناسبة وعلى مستويات مختلفة . احد المضطلعين بصناعة القرار في اوروبا عبـر عن هذه المخـاوف بالتـالي : « أصبحت الانعكاسـات السلبية السيـاسية والاجتماعية للعمالة الوافدة تفوق في ذلك عائدها الاقتصادي »[٣١] .

٢ ـ زيادة معدلات الانفاق الرسمي على قطاع الخدمات بزيادة اعداد الوافدين القادمين مما شكل بالتالي ـ وحسب تفسير الحكومات الغربية ـ عبئا على الدولة وضغطا على الخدمات المقدمة مما انعكس سلبا على الخدمات المقدمة كما ونوعا .

٣ ـ التغيرات الحاصلة في ظروف تراكم رأس المال الغربي وولوج المنظومة المحيطية ضمن اطار النظام الاقتصادي العالمي .

مرة اخرى ، ورغم كل ما قيل وما قد يقال ، فلا بد من تأكيد حقيقة ان حاجة المجتمعات الاوروبية للعمالة المهاجرة ليست هي حاجة مؤقتة أو بأنها ظرف فرضه التوسع الذي طرأ على الاقتصاديات الأوروبية عقب الحرب العالمية الثانية . فالعمالة الوافدة هي قوة عمل ضرورية لاستمرارية اداء النظام الاقتصادي الرأسمالي رغم تزايد معدلات البطالة في اوساط الجماعات المحلية . فهم ، أي العمال الوافدون يشكلون بحق ما سمي في بعض الأدبيات الفكرية « بالجيش الاحتياطي » Reserve Army المدعم لاستمرارية وظيفة النظام الرأسمالي . بالاضافة لذلك فان العمالة الوافدة تقوم بتأدية وظيفة اجتماعية ـ سياسية مهمة للنظام الرأسمالي ، فهي بكثرتها العددية وتنوعها الاثني والثقافي تزيد من واقع الفرقة بين افراد الطبقة الواحدة ، بين الجماعات الـوافدة والسكـان المحليين لاعتبـارات عرقيـة وظروف الاستخدام الافضل الذي تخضع له العمالة المواطنة[٣٢] . من هنا جاء اعتبار الهجرة العالمية كاحدى السمات البنائية

(٣٠)
Mario Nikolinkos, The New Dimension in the Employment of Foreign Workers, Berlin, International Institute For Comparative Social Stndies, April, 1975, P. 4.

(٣١)
Ibid. P. 4.

(٣٢)
S. Castle and Kosack Godula, The Function of Lobour Immigration in Western European Capitalism, in Theor Nikos (ed) Capital and Labour, Glasgow, Fontana, 1980, P. 119.

لنمط الانتاج الرأسمالي باعتبار ان اعادة انتاج النمط الرأسمالي لعلاقات الانتاج يعتمد اساسا على استيراد قوة عمل من خارج اطار الحدود الاقليمية .

● ● ●

ثالثا ـ الهجرة العمالية في المنطقة العربية : سمات وخصائص الظاهرة :

تقدم الدراسات الرائدة لفريق جامعة درهم (١٩٨٠) وكذا دراسة البنك الدولي لعام ١٩٨٣ تقديرات الهجرة والاستخدام في المنطقة العربية حتى منتصف السبعينات حيث قدرتها باكثر من المليون ونصف المليون شكلت الجماعات العربية حوالي الثلثين ، وتشير الدراسات اللاحقة الى تزايد حركة تنقل العمل العربي والآسيوي الى الدول العربية المنتجة للنفط في الفترة الممتدة من منتصف السبعينات حتى مطلع الثمانينات ، ويقدر البنك الدولي ومنظمة العمل الدولية اجمالي العمالة الوافدة بـ ٢,٨ مليون عامل عام ١٩٨٠ ، اما ابراهيم سعد الدين ومحمود عبد الفضيل فيقدرانها بحوالي ٣,٤١ مليون عامل لنفس العام . اما محمد لبيب شقير فيقدم تقديرا اكثر معقولية (حوالي ٥,٧ مليون عامل) نظرا لتصحيحه ما ورد في التقديرات السابقة من تقليل لحجم العمالة المصرية واليمنية المهاجرة . واخيرا تشير أحدث التقديرات المتوفرة الى أن اجمالي حجم العمل المستورد الى الأقطار العربية المنتجة للنفط عام ١٩٨٣ قد بلغ ٥,٣ مليون عامل .[٣٣]

واذا ما صدقت هذه التقديرات فان هذا يعني انخفاضا في حجم العمل الوافد بما يقارب ٥٠٠ ألف عامل في الفترة ٨٠ ـ ١٩٨٣ . كما ان احتمالات انخفاض حجم الهجرة اقرب الى القبول بسبب الركود الاقتصادي الذي تعرضت له الدول النفطية وخصوصا مع مطلع عام ١٩٨٦ بسبب الانخفاض الشديد في اسعار النفط الذي وصل الى ما دون الخمسة عشر دولارا . وتعد أسعار النفط احدى المتغيرات الهامة في صياغة سياسة استخدام العمالة بالمنطقة العربية وذلك لارتباطها الوثيق بالعائدات النفطية في دول الاستقبال نظرا لطبيعة العلاقة بين عائدات النفط وحجم الاستثمارات المحتملة في تلك البلدان من جهة أخرى .[٣٤] وكمحصلة لذلك فان المؤشرات تشير الى الاستمرار في انخفاض حجم العمل المستورد او في تركيبه المهني والوظيفي خصوصا في القطاعات التي شهدت توسعا كبيرا في الفترة السابقة وذات الصفة الاقتصادية المؤقتة .

من ناحية اخرى ، فان التوقيت الذي تعاظمت فيه عمليات الهجرة في المنطقة العربية (٧٣ ـ ١٩٨٣) بالاضافة للظروف التي جرت الهجرة في اطارها وكذلك مصاحباتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الصعيد المحلي (دول الاستقبال ودول الارسال) وعلى الصعيد الاقليمي القومي جعل منها ظاهرة فريدة في نوعها اذا ما قورنت بمثيلاتها من عمليات الهجرة الكلاسيكية في مناطق اخرى من العالم . وخصوصا في المنطقة الأوروبية وأمريكا . بعض هذه الاختلافات يمكن تحديدها في التالي :

أ ـ بخلاف عمليات الهجرة الأخرى في العصر الحديث والتي تمت بين تشكيلات اجتماعية ـ اقتصادية مختلفة جذريا حيث انتقال العمالة من دول العالم الثالث والدول الأقل تقدما في جنوب اوروبا ، اليونان ، يوغسلافيا . . . الخ

---

(٣٣) ليل أحمد الخواجة : سياسات استخدام وانتقال الأيدي العاملة العربية من بلدان الارسال : مراجعة نقدية ، ورقة مقدمة لاجتماع خبراء سياسات استخدام وانتقال العمالة العربية ، نوفمبر ١٩٨٥ ، المعهد العربي للتخطيط ، ص١٥ ـ ١٦ .

(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص١٧ .

الى الدول الصناعية الكبرى في اوروبا وامريكا ، تتم الهجرة في المنطقة العربية بين بلدان وان تفاوتت الانماط الانتاجية في كل منها الا انها تتسم جميعا بكونها تشكيلات اقتصادية واجتماعية تابعة ومتخلفة وتحتل مواقع متشابهة في التقسيم العالمي للعمل .(٣٥)

ب ـ بعكس حركة انتقال الأيدي العاملة الكلاسيكية والتي شملت قوة عمل احتلت الأعمال الدنيا وبسيطة العائد المالي في قطاعات التشغيل ، فان حركة انتقال العمالة في الدول العربية المنتجة للنفط تشمل جميع فئات القوى العاملة المؤهلة وغير المؤهلة ، ذات الخبرات والمهارات أو التي يفتقر إليها وتتوزع على كل قطاعات التشغيل في اقتصاديات المنطقة(٣٦) . بمعنى آخر ، إن قوة العمل الوافدة في بلدان الاستقبال المنتجة للنفط في الشرق الأوسط تشكل العمود الفقري الذي تعتمد عليه استمرارية النشاط الاقتصادي في هذه الدول . أحد كبار المسئولين في المنطقة علق على الاعتماد المطلق لبعض دول المنطقة على العمل المستورد وبالتحديد في النصف الثاني من السبعينات بالقول :

> « إذا ما قدر للمصريين أن يذهبوا ،
> لأغلقت الكثير من المرافق المدرسية
> أبوابها ، واذا ما أجبر الفلسطينيون على
> مغادرة البلاد ، لكفت وسائل الاعلام عن
> القيام بوظيفتها ، وإذا ما جرى تسريح
> (رجال الأمن والدفاع من بعض
> الجنسيات) انهارت شبكة الدفاع والأمن
> الداخلي ، واذا ما أرسل الايرانيون
> والبلوش والباتان ، الذين يشكلون عماد
> القوة العاملة ، الى أوطانهم ، لتوقف سير
> المشاريع الحيوية التي يتواصل العمل
> فيها ، كبناء الطرق والموانىء وشبكات
> الري ومشاريع الإسكان والمدارس
> والعيادات الطبية(٣٧) » .

ورغم محاولات بعض دول المنطقة وبالتحديد بعد الانحدار الشديد في أسعار النفط ، إعادة التوازن لتركيبتها السكانية وتقليص حجم الاعتماد على العمل المستورد الا أن طبيعة النشاطات الاقتصادية المقامة وكبر حجم الاعتماد على العمالة الوافدة خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة بالاضافة إلى الطريقة التي تتم بها عملية الإحلال ، حيث يتم استقبال عمالة أجنبية بالمستوى الفني والمهني نفسه ، ومن القطر نفسه ـ وربما من القرية أو الوحدة القرابية ذاتها يجعلها

---

(٣٥) مكرم صادر وجيلبيروجية ، الجدادت الاقتصادية والاجتماعية لتنقل قوة العمل العربية بين البلدان العربية ، ورقة مقدمة لندوة السكان والتنمية في الوطن العربي ، الكويت ، المعهد العربي للتخطيط ، ص ٧٠٠ .

(٣٦) نفس المصدر السابق ، ص ٧٠٠ .

(٣٧) ابراهيم ابراهيم ، أثر المغتربين العرب على التنمية الاجتماعية والسياسية في دول الخليج العربي ، في انطوان زحلان وآخرون ، هجرة الكفاءات العربية ، بيروت ، مركز ودراسات الوحدة العربية ، ط ٢ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٤ .

رغم ما يقال عن وجودها المؤقت عمالة دائمة وأساسية لاستمرارية النشاط الاقتصادي والخدمي لدول المنطقة ، لا يمكن الاستغناء عنها في المستقبل المنظور[٣٨] .

ولا بد هنا من التأكيد على حقيقة أن طبيعة الأنساق القيمية ذات العلاقة بالنشاط الاقتصادي والمشكلة خلال الحقبة الأخيرة تعيق أي استراتيجية حقيقية لتصحيح المسار / المسارات الاقتصادية ولإدماج أكبر لقوة العمل المحلية في عمليات التنمية » .

ويلاحظ أن الهجرة الحديثة لمنطقة الخليج لم تكن وليدة الطفرة النفطية في السبعينات وإنما تذهب حتى مطلع هذا القرن . ومرت الهجرة المعاصرة للمنطقة حتى الآن بأربع مراحل ، المرحلة الأولى وتمتد منذ اكتشاف النفط في الثلاثينات وربما قبل ذلك بقليل في العشرينات مع بدء عملية التحديث الإداري والتشريعي حتى مطلع الخمسينات . وتتميز هذه المرحلة بمحدودية العمل المستورد من حيث الكم والدور ، وشكل القادمون من الساحل الإيراني وشبه القارة الهندية غالبية العمل المستورد والذي تركز على وجه التحديد في قطاع النفط . أما المرحلة الثانية فتبدأ من العقد الخامس حتى مطلع السبعينات وهي المرحلة التي شهدت بداية بناء الهياكل الأساسية لمجتمعات الخليج العربي ـ وتميزت هذه المرحلة بالتدفق الكبير نسبياً لقوة العمل العربية وبالتحديد الفلسطينية والمصرية وجزء من قوة العمل الشامية التي تم على عاتقها بناء واستمرارية عمل الكثير من الأجهزة الرسمية الحديثة كما شهدت هذه المرحلة انخفاضاً في نسب مشاركة قوة العمل الآسيوية ، الايرانية والهندية رغم الارتفاع في أعدادها المطلقة . وتوصف المرحلة الثالثة بالحقبة الآسيوية للهجرة وهي الفترة التي تؤرخ منذ ارتفاع أسعار النفط في خريف عام ١٩٧٣ وتنتهي بمطلع عام ١٩٨٣ . وتميزت هذه المرحلة بضخامة حجم الانفاق الرسمي والذي كمحصلة له ارتفعت معدلات تدفق العمل المستورد وبالتحديد الآسيوية . أما المرحلة الرابعة والأخيرة فقد بدأت مع انخفاض أسعار النفط في مطلع عام ١٩٨٣ حتى الآن . وهي المرحلة التي شهدت عودة قطاع كبير من العمل المستورد تقدره بعض الأوساط بقرابة المليون والنصف والمليونين نتيجة للتقلص الكبير والمفاجيء في حجم الانفاق الرسمي بفعل انخفاض الايرادات النفطية والتي تقلصت خلال الخمس سنوات الأخيرة بما يقارب ٦٠٪ إذ انخفضت إيرادات دول مجلس التعاون من ١٧٠ مليار عام ١٩٨١ إلى أقل من ٦٥ مليار حتى العام الحالي ١٩٨٦[٣٩] .

جـ ـ عوامل الجذب والطرد المؤثرة في عمليات الهجرة في المنطقة العربية :

تكاد أن تتفق معظم الدراسات الرائدة التي عالجت قضايا الهجرة وانتقال العمالة بين البلدان العربية على أن الهجرة وخصوصاً في ذروتها في العقد الثاني من السبعينات ـ ما هي الانتاج للعوامل والمتغيرات الاجتماعية والسياسية الفاعلة في خلق الظاهرة . بعض من هذه العوامل تم تحديده في فروقات الأجور بين الدول المستقبلة والمصدرة للعمالة ، معدلات البطالة والتضخم الوظيفي في دول الفائض السكاني وأخيراً ندرة القوى العاملة المؤهلة والمدربة في الدول المستوردة للعمالة .

(١) العامل الاقتصادي : يتلخص الاعتقاد السائد لدى الكثير من دارسي الهجرة في المنطقة العربية وهو بأن الهجرة عبارة عن قرار فردي يقوم بتنفيذه الشخص المهاجر نتيجة لتردي الأوضاع الاقتصادية وانخفاض الأجور في

---

(٣٨) باقر النجار ، أثار لعمالة وافدة أم عواقب لمأزق تنموي ، المستقبل العربي ، العدد ٨٢ ، ديسمبر ١٩٨٥ ، ص ١١٧ .
(٣٩) جريدة أخبار الخليج البحرينية ١٧/٤/١٩٨٦ .

الدول المصدرة للعمالة عنها في الدول المستوردة لها . بمعنى آخر أن الهجرة وانتقال الأيدي العاملة بين الدول العربية .

قد حددت في ضوء الاختلافات الاقتصادية بين دول العسر ودول اليسر من المنظومة العربية وفي ضوء طموحات الأفراد لتحسين أحوالهم المعيشية وقد أكد بيركس وسنكلير في دراسة لهما ذلك بالقول :

« فحجم ونمط الهجرة الدولية في المنطقة العربية حددت أساساً بالتوزيع اللامتساوي لمصادر الدخل النفطي . كما أن الأوجه التي وظفت فيها العائدات النفطية في هذه الدول أدت الى المزيد من « التنمية » اللامتكافئة وإلى فروقات في الدخل بين الدول العربية . ففروقات الدخل هي العامل الأساسي في حركة التنقلات الدولية للعمل[40] » .

من ناحية أخرى ، وجد من دراسة حديثة أجريت على عينة من أساتذة المدارس والجامعات المصرية العاملين في الدول النفطية أن فروقات الأجور والطموح الشخصي كانا وراء سفر هؤلاء للخارج . فمثلاً وجد أن الحد الأقصى لمرتب أستاذ جامعي هو ١٥٠ جنيهاً مصرياً في الشهر بمصر وأن ما يكسبه (من راتبه) على مدى ثلاثين عاماً من العمل المتواصل سيكون ٤٨٦٠٠ جنيهاً . أما الأستاذ المعار للعمل في إحدى الجامعات الخليجية فيقدر راتبه بـ ٩٠٠ ديناراً في الشهر أي وبمعنى آخر أن الأستاذ الجامعي المصري المعار للتدريس في إحدى الجامعات الخليجية سيكسب خلال سنوات إعارته الأربع ، وهي المسموح له بها من قبل السلطات المصرية ، ما يقارب من ١٢٩,٦٠٠ جنيه مصري ، أي أكثر من ضعف ما سيتقاضاه الأستاذ المصري ثلاثين عاماً من العمل المتواصل في إحدى الجامعات المصرية مع ثبات المتغيرات الأخرى[41] . لذا فاننا نجد أن بعض المعارين للعمل في هذه الدول يبقون فترات أطول من مدة الإعارة وبعضهم الآخر ينهي خدماته في دول المنشأ رغبة منهم بالبقاء مدد أطول في دول الاستقبال .

وبالمثل يتكرر المثال المصري ولكن بصور أخرى في دول الإرسال العربية منها وغير العربية ، دراسة حديثة قام بها البنك الدولي عزت هجرة البنغاليين لدول الشرق الأوسط النفطية إلى الاختناقات الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع البنغالي ، كالبطالة ومحدودية السعة الاستيعابية للاقتصاد البنغالي على خلق فرص عمل جديدة بالإضافة لفشل الخطة الخمسية في تحقيق أهدافها وبالتحديد في خلق فرص عمل جديدة لمخرجات التعليم وتاركيه والمهاجرين من الريف للمدن . أي بمعنى آخر أن أوضاع الاستخدام المحلي لقوة العمل بالدول المصدرة للعمالة الفقيرة نسبياً قد ساهمت في الاستجابة السريعة بها لهذا الطلب الخارجي المتزايد .

---

(٤٠)
J. S. Birks and C. A. Sinclair, Economic and Social Implication of Current Development in the Arab Gulf, The Oreintal Connection, in Tim Niblock (ed), Social and Economic Development in the Arab Gulf, London, croom Helm, 1980.

(٤١) سعد الدين ابراهيم ، مصدر سابق ، ص ١١٥ ، هذا وقد طرات بعض تغييرات هامة على دخل الاستاذ الجامعي في مصر منذ صدور هذه الدراسة .

وفي الدول المستوردة للعمالة فان الأسباب الاقتصادية قد تغري الى اتساع فرص العمل التي خلقها الاقتصاد النفطي وخصوصاً في طفرته السبعينية ، وصغر حجم قوة العمل المحلية كما وكيفاً بالاضافة إلى برامج بناء الهياكل الأساسية البالغة الطموح ، وتعزيز وتوسعة الخدمات الاجتماعية كالصحة والتعليم والإسكان .. الخ . وأخيراً رغبة هذه الدول في تنويع مصادر الدخل فيها وبناء قاعدة صناعية معتمدة في إدارتها فنياً وتكنولوجياً على الخارج(٤٢) .

(٢) ـ العامل الاجتماعي والسياسي : قد تعزي كذلك عملية انتقال العمل من دول العسر والفائض السكاني لدول اليسر المالي والعسر البشري للقرب الجغرافي والتشابه الثقافي كاللغة والدين المشترك وأحياناً تدخل علاقات القرابة والدم وكذا في طبيعة التوجه الاجتماعي والسياسي لدول الاستقبال حيال الكثير من القضايا القومية المعاصرة في المنطقة العربية ، فكثرة وجود العربي في كل من الكويت وليبيا والعراق وكذا تزايد حجم المهاجرين من العمال المسلمين من أفريقيا والباكستان والهند في المملكة العربية السعودية لا يخرج عن هذا الإطار* .

أما على صعيد الدول المصدرة للعمالة ، فالهجرة قد تكون أحد أهم العوامل المساعدة على استمرارية شكل معين من الاستقرار السياسي الداخلي وذلك (بتهجير) أو هجرة المعارضين لهم سياسياً لدول الاستقبال العربية . وبالنظر لمقدار الثروة التي قد يكون فيها بعض هؤلاء ، فان الكثير منهم قد جذبته حياة رجال الأعمال والمال وقد عالج سعد الدين ابراهيم . هذا الجزء من المشكلة في مناقشته لأثر الهجرة على استقرار النظام السياسي في مصر قائلاً :

« إن وجود عناصر المعارضة المصرية في بلدان النفط المجاورة ، يمثل نعمة ونقمة بالنسبة للنظام السياسي .... فمن ناحية ، يمثل غيابهم عن الساحة المصرية إضعافاً لصفوف المعارضة الداخلية والنظام يرحب بذلك ، اعتقاداً أو أملاً منه أن هؤلاء المعارضين يركزون على « جمع الثروة » بدلاً من « إشعال الثورة » . وقد حدث بالفعل أن بعضهم تحول من مجال السياسة إلى ميدان التجارة والنشاطات المهنية خارج مصر ، الا أن هناك قلة لا تزال ترفع صوتها بانتقاد (النظام) ، وقد وجدت منفذاً سهلاً لتمرير أفكارها من خلال وسائل الاعلام في البلدان المضيفة(٤٣) » .

* يقدر حجم العمالة العربية في الكويت بحوالي ٦٠٪ من إجمالي قوة العمل وفي ليبيا ٢٥٪ ، أما في المملكة العربية السعودية فيقدر حجم العمالة الاسلامية العربية وغير العربية بحوالي ٩٠ الى ٩٥٪ من قوة العمل الوافدة .

(٤٢) B. S. AL-NAJJAR Op. Cit. P. 24.

(٤٣) سعد الدين ابراهيم ، مصدر سابق ، ص١٤٧ .

هذا يعني أن الهجرة لبلاد النفط والمال سواء تلك القادمة من الدول العربية كمصر ، العراق والشام واليمن الشمالي والسودان ، أو من الدول الآسيوية الفقيرة كالهند وباكستان وبنغلادش والفلبين وتايلاند . . الخ قد أزاحت جزءاً من عناصر عدم الاستقرار بتصدير المشكل بعيداً عن الحدود الجغرافية لدول المنشأ .

على صعيد الفرد فان الهجرة لدول النفط تبدو وكأنها المخرج الوحيد لحل الكثير من الصعاب والمشاكل الشخصية كالزواج مثلاً أو شراء مسكن وتأثيثه . . الخ وقد وجد من دراسة أخرى حديثة أجريت على أساتذة الجامعات السودانية أن أحد أسباب الهجرة بالاضافة لتردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وضيق دائرة التعبير السياسي هو محاولة البعض البحث عن المال في الدول العربية المنتجة للنفط لبناء أو لشراء منزل أو شقة وتأثيثها . ويكاد أن ينطبق هذا على معظم المهاجرين من الدول العربية الأخرى وبالتحديد مصر والأردن وسوريا . . . الخ[٤٤] .

●●●

رابعاً ـ الهجرة في المنطقة العربية : في البحث عن التفسير :

كما هو واضح من سياق النقاش السابق أن فكرة « سوق العمل » شكلت محور أدبيات الهجرة في المنطقة العربية . فرغم قناعتنا بأهمية هذا المنحى في تفسير المشكل الا أنه لم يقو على تفسير ظواهر ذات علاقة جدلية بظاهرة الهجرة مثل لماذا وفي هذا الوقت بالذات يتم استثمار جزء من رأس المال الغربي في بعض من أجزاء العالم الثالث رغم الفائض من العمالة ومعدلات البطالة العالية في الغرب . . الخ ؟ كما أنه لم يفسر لنا مثلاً لماذا في الغرب لا يهاجر المال النفطي للاستثمار في دول الفائض البشري في آسيا وأفريقيا . . . ؟ أو لماذا تقوم الشركات الغربية العاملة في مصر واليمن وغيرها من دول الفائض البشري العربية بتوظيف عمالة آسيوية رغم توفر عمالة مثلها من الناحية الفنية في هذه الدول . . . ؟ فهذه التساؤلات وغيرها الكثير يفسر لنا عجز المداخل غير المستندة للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الفاعلة داخلياً وخارجياً في صناعة المشكل . .

بالإضافة لذلك فإن مفهوم سوق العمل قد يكون أقرب لتفسير الظاهرات المثيلة في المجتمعات المتقدمة ـ حيث تم اشتقاقه ـ نظراً لتوفر المقومات الضرورية لعمل آلياته إلا أن توظيفه لتفسير أوضاع التشغيل ومستواه في الدول العربية وربما في الكثير من دول العالم الثالث ، وفي الكثير من حالاتها غير موفق . فمفهوم الاستخدام يختلف جوهرياً في حالة مجموعتي الدول المتقدمة في مقابل المتخلفة . فهو في الأولى ينصرف إلى العمل لدى الغير بأجر نقدي وفي ظل أنظمة مقننة ومعايير يفترض أنها تستند إلى أسس البيروقراطية الحديثة . أما في مجموعة الدول النامية فتبرز أنماط من العمل والمشاركة قد لا تقوم على أسس العمل المأجور أو أن يكون لها صفة الاستمرارية والانتظام وإنما يعتمد أداء العمل فيها على اندماج الفرد ضمن منظومة عمل الأطر القرابية المالكة لوسائل الانتاج كالعمل في كنف الأسرة مالكة وسائل الانتاج في قطاع الزراعة أو الغوص أو الرعي أو الحرف الأسرية الأخرى كالنجارة والحدادة . . . الخ إذ يتم إنجاز العمل وتلبية احتياجاته من القوى العاملة ضمن أطر الوحدات القرابية دون أن يتم عرضها في سوق العمل[٤٥] .

(٤٤) B. S. AL-NAJJAR, Ibid, P. 24.
(٤٥) ليلى أحمد الخواجة ، مصدر سابق ، ص٢-٣ .

وبالمثل يمكن القول بالنسبة لمفهومي العرض والطلب اللذين يقدمهما المدخل الكلاسيكي الجديد . فمفهوما العرض والطلب لا يتلاءمان مع واقع التشغيل وظروفه في الدول العربية ودول العالم الثالث ذلك أن مفهوم عرض العمل مبني على افتراض الحرية التامة لأفراد قوة العمل في المفاضلة بين العمل والتمتع بأوقات الفراغ في ظل معدل الأجر السائد . أما مفهوم الطلب فهو الآخر يقوم على افتراض حرية الوحدات الاقتصادية القائمة في اختيار الفن الانتاجي المستخدم بها وفقاً للأسعار النسبية لكل من عنصري العمل ورأس المال وبافتراض إمكانية إحلال لا نهاية بينها . وفي الواقع فإننا نجد أن عملية المفاضلة غير قائمة في ظل مجتمعات العسر واليسر على السواء في المنطقة العربية حيث أن الحصول على مطلب أساسي لاستمرارية البقاء . أما من حيث الاختيارات التكنولوجية فالدول العربية كما الدول النامية الأخرى هي مستوردة للفن الانتاجي وغير مبتدعة له . ففنون الانتاج السائدة تكونت وتشكلت في الدول الصناعية المتقدمة وفقاً لظروفها ومواردها المختلفة عن تلك التي في منظومة دول العالم الثالث[٤٦] .

وبعيداً عن مقولات المدرسة الكلاسيكية الجديدة والتي لم تخرج في تفسيرها لعملية الهجرة في المنطقة العربية عن متغيرات الجذب والطرد المتبناه في تفسير ظاهرة الهجرة الكلاسيكية لأوربا وأمريكا . فمتغيرات مثل الحاجة لبناء مسكن أو تأثيثه ، والرغبة في زيادة الدخل ، أو الالتحاق بالعائلة في دول المهجر ، وارتفاع معدلات البطالة والتضخم السكاني في الدول المرسلة للعمالة وضعف المورد البشري في الدول المستقبلة . . . رغم أهميتها النسبية إلا أن مصداقيتها لا تستقيم إلا في إطار السياق التاريخي ، الاجتماعي والاقتصادي للدول ذات العلاقة بالمشكل وموقعها في السوق الاقتصادي العالمي .

فحركة الهجرة الكبيرة التي اجتاحت المنطقة العربية خلال العقد السابق ٧٣ ـ ١٩٨٣ لا يستقيم فهمها إلا في ضوء المعطيات الجديدة التي أفرزها الارتفاع الكبير في أسعار النفط خلال الحقبة السابقة ، أي أن مؤشرات الزيادة المطردة في تنقلات العمل بين وإلى المنطقة العربية لم تعد محكومة بمتغيرات عرضية أو وقتية بل هي أساساً مرتبطة بالتغيرات الجوهرية في أجهزة الإنتاج والأهمية النسبية للبلدان المستوردة والمصدرة للعمالة وطبيعة ارتباطها بالسوق الاقتصادي العالمي[٤٧] .

فالأحداث السياسية والاقتصادية التي عاشت المنطقة العربية غمارها وبالتحديد انقسام دول المنظومة العربية وبفعل عامل النفط إلى دول اليسر مقابل دول العسر وكذا ضمور القوى القومية وقوى الستينات في مقابل بروز القوى التقليدية والمحافظة قد تزامن ولربما ارتبط بالنظام الجديد لتقسيم العمل على الصعيد العالمي ، بعض من شواهد هذا الارتباط المتسق Articulation يمكن تحديدها في طبيعة العلاقة غير العادية التي تطورت بين دول المجموعة الأوربية وأمريكا والمنطقة العربية . فصادرات أوربا القريبة للمنطقة العربية ازدادت بشكل كبير خلال العقد المنصرم مقارنة بالعقود السابقة ، حيث ارتفعت صادرات أوربا الغربية أو المجموعة الاقتصادية الأوربية للمنطقة العربية ، خصوصاً الدول العربية المنتجة للنفط من ٢١٩٥ مليون Ecus (وحدة التعامل النقدي لدول السوق) عام ١٩٥٨ إلى ٣٢,١٣٧ مليون (Ecus) عام ١٩٨٠[٤٨] . بالإضافة إلى ذلك فقد زاد اعتماد المنطقة العربية على الغرب في تلبية

---

(٤٦) نفس المصدر السابق .
(٤٧) باقر النجار ، ظروف عمل ومعيشة العمال الأجانب ـ في نادر فرجاني وآخرون ـ مصدر سابق . ص ٨٤ .
(٤٨) B. S. AL-NAJJAR Ibid, P. 3.

الكثير من حاجاتها ، وتبرز خطورة هذا الاعتماد في الانكشاف الغذائي للمنطقة العربية للخارج ، إذ ارتفع العجز في الميزان الغذائي من ٨٤٤ مليون دولار عام ١٩٧٣ إلى أكثر من ١٨ مليار دولار عام ١٩٨١ . وتشير الأرقام المتوفرة حول هذا الجانب ، إلى أن نسبة الاكتفاء الذاتي من الحبوب في الوطن العربي في تدهور متواصل حيث انخفضت من ٦٩٪ خلال الفترة ٧٤ ـ ١٩٧٩ إلى ٥٠٪ خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٢ . ويكاد يزداد ذلك في بعض السلع الهامة كالقمح ، حيث انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتي من القمح من ٤٩٪ خلال الفترة الأولى إلى ٣٥٪ خلال الفترة الثانية . وكذا يمكن القول بالنسبة للاكتفاء الذاتي من اللحوم الذي انخفض من ٩٣٪ خلال الفترة الأولى الى ٦٧٪ خلال الفترة الثانية ، ولو جمعنا حجم واردات الوطن العربي من السلاح ومن الغذاء وهما أخطر الميادين المؤثرة على الأمن الشامل لوجدنا أن نسبتها من إجمالي واردات المنطقة في عام ١٩٨٠ . تبلغ حوالي ٥٣,٤٪[٤٩] .

أما السمة الأخرى لهذا الارتباط ، فهي طبيعة وأسلوب تخصيص allocation العائلات النفطية في الدول العربية المنتجة للنفط في تشييد الهياكل الأساسية وفي خطط التنمية الطموحة . هذه المشاريع والتي بضخامتها استثارات كماً هائلاً من العمل الوافد للعمل في قطاعات التشغيل « المستجدة » لاقتصاديات هذه الدول* .

هذه المتغيرات وأخرى اقتصادية واجتماعية تمت الإشارة إلى بعضها خلال العرض السابق هي في الواقع مؤشرات فاعلة للأنماط الجديدة لتراكم رأس المال . بشكل محدد ، إنها تتيح له الاستفادة من الفائض العمالي الرخيص في دول الفائض العمالي وكذا توظيف الفائض المالي للدول النفطية ضمن حدودها الجغرافية وبطرق « أكثر انتاجية » . أي أنه في الوقت الذي تواجه رؤوس الأموال الغربية بعض الخطورة في سبل استثماراتها في بعض الدول الآسيوية (شبه القارة الهندية مثلاً) فان في توظيف الفائض العمالي الآسيوي في مشاريع « التنمية » في الدول العربية النفطية فائدة عظيمة وربحاً مميزاً . فالهجرة للمنطقة العربية تعتبر المعطى الذي تم في ضوءه ربط أو ارتباط المال النفطي بالتقسيم الجديد للعمل وكذلك بالأنماط الجديدة لتراكم رأس المال . وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا أن الهجرة العمالية هي الدعامة التي تم عليها تشكل النظام الجديد لتقسيم العمل وكذا الأنماط الجديدة في عملية تدويل رأس المال خلال النصف الثاني من السبعينات ومطلع الثمانينات[٥٠] .

وخلاصة القول ، فان الهجرة الى المنطقة العربية وبالتحديد في حقبتها الآسيوية ، وطبيعة البرامج التنموية المقامة بالاضافة للإخفاق الشديد الذي واجهته برامج التنمية في مصر والشام والشمال الأفريقي فضلاً عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي ضربت نسيج المجتمع العربي والمتمثل في ضعف المركز التفاوضي العربي قبالة الغرب وضعف قوى التغيير العربية كلها أمور ساعدت على ولوج دول المنظومة العربية بل والكثير من دول العالم الثالث ذات الارتباط المباشر بفعل عامل الهجرة أو غير مباشرة بها بالتقسيم الجديد للعمل على الصعيد العالمي[٥١] .

---

* تمت مناقشة هذا الموضوع في أوراق سابقة عديدة أهمها معالجة الدكتور / نادر فرجاني لهذا الموضوع في كتابه ـ الهجرة الى النفط

(٤٩) خالد محمد خالد ، التقسيم الدولي الجديد للعمل واحتمالات التنمية العربية ، ورقة مقدمة للحلقة النقاشية الثانية ، العرب والأزمة الاقتصادية العالمية ، المعهد العربي للتخطيط ، فبراير ١٩٨٥ ، ص ٢٧

(٥٠) B. S. AL-NAJJAR, Ibid P. 3.

(٥١) باقر النجار ـ المستقبل العربي ، مصدر سابق ، ص ١١٥ .

الهجرة والهجرة المعاكسة
نموذج دول الخليج العربية ودول المغرب العربي

عبدالرسول علي الموسى

قسم الجغرافيا جامعة الكويت

مقدمة :

تعتبر الهجرة من القضايا المهمة في الدراسات السكانية والحضرية بالاضافة الى استحواذها على حيز كبير من الادبيات المختلفة وتهتم الجغرافيا بشكل خاص في قضية الهجرة كأحد المحاور الرئيسية في الحيز السكاني ، فالهجرة تعني بمضمونها البسيط حركة سكانية سواء على المستوى الفردي أم الجماعي من مكان الى آخر وبهذا تحدث تغيرا في التوازن الاقليمي في طرفيها ، وفي الاساس فقد تسببت الهجرة في اكتشاف كثير من اجزاء كوكبنا وبالتالي الى اعماره وتطويره ، ومثلما كانت الهجرة سببا في اعمار كثير من اجزاء الارض وتخفيف العبء عن الارض المهاجر منها[١] فانها في وقتنا الحاضر ونتيجة للتزايد الهائل في السكان اضافة الى الفوارق الاقتصادية والفنية والاجتماعية بين بلدان العالم المختلفة ادت الى بروز مشاكل وتعقيدات نتج عنها صدور قوانين وانظمة تتعامل مع الهجرة كاحدى القضايا المهمة بجوانبها المختلفة .[٢] لقد اصبحت الحركة السكانية عملية سهلة من ناحية ، نظرا للتقدم في وسائل المواصلات والطرق واصبحت معظم اجزاء العالم بين طرفي خطها في متناول الانسان ولم تعد الحواجز الطبيعية تشكل عائقا امام تحرك الانسان من جزء الى آخر . وقد استطاع التطور التقني ان يحل كثيرا من المشكلات الصعبة ويتغلب عليها كما ساعد من جهة اخرى على سهولة التحرك السكاني . فترتب على ذلك بروز مشكلات من نوع آخر وهي مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية اعطت للهجرة ابعادا جديدة تختلفا عنها في المراحل السابقة ، ان هذه المشاكل وصلت الى درجة التشابك في

---

(١) Wrong, D. H., "Population and Society", Random Honse. New York, 1969, PP. 87-90.

(٢) انظر دراسة آفاق هجرة المغرب العربي الى بلدان الخليج العربي ، إصدار منظمة العمل العربية التي قدمها حافظ شقير وجون باركارسون ١٩٨٠ ، كذلك دراسة return Migration to the Maghreb : People and Policies. التي قدمها ريشارد لوس ، والن فيدلاي والسيدة آن فيدلاي ، إصدار مركز الدراسات العربية لندن ، ١٩٨٢

العلاقات الدولية واهتمامها بها واصبحت احدى عناصر العلاقات بين الدول . فقد فرضت طبيعة التعامل بين الدول النظر الى قضية الهجرة على انها موضوع رئيسي من منظور سياسي[٣] ايضا .

ان من الامور المتعلقة في عملية الهجرة فقدان الدول لعدد من سكانها يمثلون مستويات عالية في العلم والخبرة وهو مايطلق عليه بهجرة العقول وتعتبر الدول النامية ـ والتي هي في أمس الحاجة الى مثل هؤلاء ـ أكثر الدول التي تتعرض للخسارة في هذه الكفاءات البشرية . فالهجرة لم تعد مقصورة على الافراد الذين يريدون تحسين اوضاعهم المادية أو الحصول على عمل بل اصبحت تتعلق بقضايا الحرية والديمقراطية والحياة الاجتماعية التي تشغل بال الانسان المتعلم وتهمه ولذلك نجد ان نسبة ملحوظة من الذين يواصلون تعليمهم في الدول المتقدمة يفضلون البقاء ومواصلة حياتهم هناك ، كما ان نسبة من المتعلمين اصبحت تسبب قلقا للدولتين المهاجر منها والمهاجر اليها . ان الامور بالنسبة للهجرة اصبحت أكثر تعقيدا لانها ـ كما قلنا ـ اصبحت قضية متعددة الاوجه ولذلك فاننا نجد في الربع الاخير من القرن العشرين ان التكتلات الاقليمية سواء السياسة منها او الاقتصادية أخذت تؤثر في الهجرة كما حدث للمهاجرين من المغرب العربي في فرنسا بعدما انضمت اسبانيا والبرتغال الى منظمة السوق الاوروبية المشتركة وحاولت فرنسا استبدال المهاجرين المغاربة بالمهاجرين من الدول الاعضاء في هذه المنظمة . وكذلك الدول العربية ممثلة في الجامعة العربية ، بدأت تهتم بمنافسة المهاجرين العاملين من آسيا للعمالةالعرب . وقد اصدرت قرارات بهذا الشأن .[٤] واذا كان في عصرنا الحديث قد صدرت تنظيمات تتعلق بالهجرة على اساس عنصري مثل اللون « الهجرة البيضاء في استراليا » وعرقي مثل ما حدث في امريكا وذلك بتوزيع حصص الهجرة على الدول الاوروبية وفي جنوب افريقيا حفاظا على النسيج الاجتماعي فانه نظرا لتطور دور المنظمات العالمية وبخاصة منظمةحقوق الانسان ، وكذلك نظرا لتشابك العلاقات السياسية والاقتصادية من ناحية وتطور التخطيط من ناحية أخرى ، وهذا التخطيط يهتم بالبنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان . والعلاقة بينهما وبين الانتاجية والتطور الاقتصادي فان هذا كله ادى الى الاهتمام بعملية التنمية وبالتالي اصبح الاهتمام بخصائص المهاجرين لا حسب اللون والفرق وانما من حيث كفاءتهم وخبرتهم وقدرتهم على لعب دور ايجابي في عملية التنمية .

اذا فالبنية السكانية مهمة جدا في سلوكيات المجموعات السكانية تجاه كثير من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية[٥] ومنها بدأ اتجاه جديد من قبل الدول المستقبلة للهجرة للتعامل مع المهاجرين مراعية بذلك خصائصهم الاجتماعية والاقتصادية ولذلك نجد فعلا في الكويت عندما بدأت الهجرة الآسيوية الصفراء تدخل ضمن قائمة المهاجرين ، بدأت معها التحذيرات من قبل كثير من المنظمات والباحثين نظرا للاختلاف البين بين هؤلاء المهاجرين والمجتمع الكويتي كمجتمع عربي مسلم وبدأت سلبيات هذه الهجرة تبرز مع قصرها الزمني فعملية التنمية في الكويت تحتاج الى تمكين الكويتيين من الاستفادة من خبرات المهاجرين في العمل وكذلك الى التقليل قدر الامكان من التصادم

---

(٣) زيارة رئيسة وزراء الهند انديرا غاندي الى دولة الامارات للبحث في موضوع الاجراءات المتعلقة بالة الهنود وكذلك مؤثر العلاقات بين الجزائر وفرنسا بعد صدور القوانين في فرنسا المتعلقة بالمهاجرين وعودة بعض المهاجرين الجزائريين من فرنسا .

(٤) قرارات وزراء العمل العرب عام ١٩٦٥ ، وعام ١٩٦٨ .

(٥) Clark, D. "Urban Geography", Croom Helm, London, 1982 PP. 84-86.

الاجتماعي والفكري بين الكويتيين والمهاجرين نظرا للتعدد الهائل لجنسيات وثقافات المهاجرين . وعندما جاء الكوريون والفلبينيون فان عامل اللغة اصبح حاجزا يحول دون استفاد العمالة الكويتية من خبراتهم ، كذلك فان الاختلاف العميق في سلوكيات هؤلاء المهاجرين ادى الى عزلة عميقة ليس بين هؤلاء المهاجرين وبين الكويتيين فحسب وانما بينهم وبين بقية المهاجرين وتعاني بريطانيا كذلك من هجرة الآسيويين للسبب نفسه فمثلا وجد أن الحاجز اللغوي ادى الى التقليل من عطاء الاطباء الآسيويين وانخفاض مستوى الاداء عندهم . ولايقتصر هذا السلوك على الدول المستقبلة للهجرة او مجتمعاتها بل انه ينسحب على المهاجرين انفسهم الذين يضعون نصب اعينهم كثيرا من القضايا التي تحدد جهة الهجرة ومحطاتها[٦] فالمهاجر ايضا يحدد جهة هجرته في ضوء معلومات عن هذه الجهة واختيار المهاجر لبلد معين يعتمد على المعلومات التي يحصل عليها عن هذا البلد من خلال ما اذا كان هذا البلد يحقق طموحاته ورغباته ام لا .

ولكن تبرز مشكلة اجتماعية واحدة تقضي على هذا القرار كأن يكون المهاجر ابا لعدد من الاناث قد لاتتفق تربيتهن وعاداتهن وتقاليدهن مع ذلك البلد المنوى الهجرة اليه وبذلك يقف ذلك حجر عثرة امام تنفيذ قراره .

اذا فالهجرة قضية متشعبة تحيط بها كثير من العناصر التي تؤثر في طرفي خط الهجرة ومحطاتها، وهي ليست قضية تهتم بالكم وانما الاهمية تأتي في الكيف واذا كان الكم يسبب في الكيف فان القضية نسبية فهي تتعلق بالمحطات وخطوطها والهجرة وصلت ابعادها الى خط الخطر عندما بدأت الاصوات ترتفع لتطالب باعادة توزيع سكان العالم وحق الانسان في التحرك والى المشاركة في ثروات المجتمعات واذا كانت بعض هذه الاصوات هي باطل اريد به حق فان مانراه من اتفاقات بين كثير من الدول فيما يتعلق بالهجرة تقرر حرية السكان فيما بينها وقوانين ونظم حقوق هؤلاء المهاجرين كل ذلك يقرر مدى اهمية الهجرة .

وقد تصل خطورة الهجرة ذروتها وتعقيداتها عندما تتصف بالهجرة الظالمة التي هدفها احلال مجموعة من المهاجرين مكان شعب عريق كما حصل في فلسطين او تغير البنية السكانية سواء أكانت بنية عرقية أم ثقافية كما حصل في بعض المناطق اما الخط الثاني للهجرة وهو ما يسمى الهجرة المعاكسة فهذا موضوع يحيط به كثير من الغموض والصعوبات ولم يحظ بدراسات وبحوث كما حظيت دراسات الهجرة .

وحتى المسمى اختلف عليه كثير من الباحثين ، فاحيانا يطلق عليها الهجرة المعاكسة واحيانا هجرة العودة وهاتان التسميتان تلتقي عندها ما كتب باللغة العربية والانجليزية وهما Return Migration ويختلف هذان المسميان في المفهوم ايضا فقد تكون الهجرة المعاكسة حركة معاكسة لمحطة الوصول ، متجهة لها او خارجة منها الى اي جهة سواء الى الموطن ام الى جهة اخرى ، وقد تكون مسمى هجرة العودة هي فقط العودة الى الوطن الام .

ومثلما تختلف اهداف ومسببات الهجرة تختلف ايضا اهداف ومسببات الهجرة المعاكسة او العودة ، فقد تكون هذه الهجرة نتيجة لقرار ترحيل المهاجرين كما حدث في السنوات الاخيرة في اوغنده ونيجيريا والعراق نتيجة لقرارات اقتصادية او تنظيمية وكما حدث في فرنسا وفي الكويت او نتيجة لانخفاض فرص العمل وتفشي البطالة . والهجرة المعاكسة قد تثير قضايا اكثر من الهجرة في خطها الاول لانها قد تثير قضايا اقتصادية مثل عودة المهاجرين الى بلدانهم وما

---

(٦) منظمة العمل العربية ، مكتب العمل العربي ، آفاق هجرة عمالة المغرب العربي الى بلدان الخليج العربي ، ١٩٨٠ ، ص ١٥ - ٢٠ .

يترتب على ذلك من بطالة وانخفاض في مستوى المعيشة وانهاك للاقتصاد الوطني كما حدث في تونس نتيجة لعودة مواطنيها من فرنسا وليبيا وقد تسببت الهجرة المعاكسة اي العودة الى الوطن الام في مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية نتيجة للفروقات الاقتصادية التي تحدث بين المجتمع الاصلي والعائدين من مجتمعات تختلف في مستوى المعيشة وسلوكياتها وما اكتسبوا من انماط الاستهلاك والقيم الاجتماعية[٧] فضلا على انها قد تؤثر على الاقتصاد الوطني في البلد المستقبل لها . فالمهاجرون قد يقبلون بأجور منخفضة ويقبلون على اعمال لا يقبل عليها المواطنون وكذلك يؤثرون في القوة الشرائية وقضايا اخرى مثل الاسكان والمرافق الاخرى . وتواجه قضية الهجرة المعاكسة من الناحية العلمية ومشكلة صعوبة قياسها وتتبعها في محطاتها المختلفة لظروفها المتعددة . فقد تفرض ظروف معينة على الانسان المهاجر من وطنه الى بلد آخر فتمتد الاقامة به مدة طويلة تصل الى عشرين او ثلاثين سنة وهذه المدة كفيلة بان ترسخ جذورا اجتماعية في هذه الارض الجديدة ، عندما يولد ويترعرع ابناؤه ويكتسبون عادات وتقاليد البلد الجديد ، وتختلف المقاييس النفسية والاجتماعية والسياسية عن بلدهم الاصلي[٨] . فيصعب التفكير في العودة الى البلد الام ولا يؤدي هذا بالضرورة الى نزع جلده الاصلي واكتساب جلد جديد وبخاصة اذا كان سكان هذا البلد يختلفون عنه عرقيا وتظل ملامحه تشكل حاجزا نفسيا بل وتؤدي الى تفرقة في التعامل ومع ذلك فان خط الهجرة المعاكسة يظل مفتوحا ، اذا كان ذلك بالاختيار ، للجيل الاول وكذلك للاجيال التالية عندما يبلغ المهاجر سنا لا تعد فيها العناصر التي ذكرناها قبل قليل فاعلة .

هدف ومنهج الدراسة :

تهدف هذه الدراسة الى القاء الضوء على الهجرة بخطيها كحركة سكانية مستمرة والتعرف على العوامل التي تلعب دورا فيها حتى يمكننا التعرف على الافرازات المختلفة للهجرة .

ولتحقيق هذه الاهداف ، فان الدراسة ناقشت هذا الموضوع في اطار شمولي للتعرف على الحركات السكانية الرئيسية والتي تركت بصمات واضحة في مناطق جغرافية مختلفة في تاريخنا المعاصر ولقد اختارت الدراسة منطقتين جغرافيتين تمثلان نوعي الهجرة المختارة للدراسة وهي دول الخليج العربية التي تمثل حالتها الهجرة ودول المغرب العربي والتي تمثل حالة الهجرة المعاكسة ثم اختارت الهجرة نموذجا محدودا لهجرة نوعية معينة من السكان وهي ما تسمى بهجرة العقول .

ولقد اختارت الدراسة الفترة الزمنية الحديثة في دراسة الحالات ، هذه الهجرة التي مازالت تتفاعل وتعتبر نموذجا لتأثير الحركة السكانية في تشكيل كثير من الملامح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ففي حالة دول الخليج العربية سوف تكون مجال الدراسة هي الفترة التي حدثت معها هجرة اثرت كثيرا في ملامح مجتمعات هذه الدول وهي الهجرة التي اعقبت استقلال عوائد النفط في تحديث هذه الدول ، اما حالة المغرب العربي

---

(٧) سعد الدين ابراهيم ، النظام الاجتماعي العربي الجديد . مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ١٣٥ - ١٤٦ .

(٨) Al-Moosa, A., "Stability of the foreign labour force in Kuwait." The Arab Gulf journal, London Vol. 6, No. 1, April 1986, P. 55.

فالهجرة المعاكسة بتأثيرها الواضح لم تحدث الا في السنوات الاخيرة وبالذات في اعقاب استقلال دول المغرب العربي عن دول اوروبا المستوردة . للمهاجرين منها . والذي تزامن مع المشكلات الاقتصادية التي واجهتها اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية .

الهجرة منظور عالمي :

شهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحركات سكانية غير مقيدة وكانت معظم هذه التحركات باتجاه ارض جديدة مكتشفة بما كان يسمى بالعالم الجديد . وبالطبع نتيجة للعامل الجغرافي ، عامل المساحة الذي كان يلعب دورا حاسما في عملية التحرك نظرا لبساطة وسائل المواصلات وبدائية الطرق ومن ناحية اخرى يرجع الى الحالة السياسية والاقتصادية للمناطق المختلفة في العالم . ففي ذلك الوقت كانت اوروبا تشهد حروبا متواصلة وصراعات بين المجموعات البشرية سواء على اراضيها داخل القارة الاوروبية ام على اراض غيرها عبر المحيطات ولما كان عامل المساحة مهما وكذلك مستوى وسائل النقل ، فقد اتجه الاوروبيون الى القارة الامريكية وحدثت تحركات سكانية وهجرات جماعية ، ولقد وصلت الهجرة الى ذروتها في بداية القرن التاسع عشر فقد توجه ما يقارب من « ٥٧ » مليون مهاجر الى هذه القارة منهم حوالي ٣٠ مليون توجهوا الى ما يسمى الآن بالولايات المتحدة الامريكية . ولقد دخل الولايات المتحدة في فترة زمنية قياسية ما بين ١٩٠١ و ١٩١٠ حوالي تسعة ملايين مهاجر ولقد سبق ودخلتها ثاني أكبر هجرة في فترة قصيرة وهي ما بين ١٨٨١ و ١٨٩٠ وكانت حوالي خمسة ملايين مهاجر وكان حوالي ٨٥٪ من هؤلاء قد قدموا من اوروبا[٩] وتأتي هذه الهجرة الجماعية نتيجة للفرص الاقتصادية الهائلة في الاراضي الجديدة وتطلع الاوروبيين الى نقل الاقتصاد الصناعي الى تلك الاراضي فمن هنا يمكن القول ان هذه الهجرة كانت بفعل عامل الجذب اكثر منها بفعل عامل الطرد[١٠] مع عدم التقليل من اهميتها ، ونجد ان هذه الهجرة قد اثمرت حيث ان امريكا الشمالية بدولتها الرئيسية الولايات المتحدة الامريكية وبعد الهجرة الاوروبية الكبرى اليها اصبحت تعتبران من الدول المتقدمة ومن قوى الدول اقتصاديا لما تتمتعان به من امكانات اقتصادية اثرت بشكل خاص في الولايات المتحدة كأحدى أكبر قوتين في العالم .

أما البيئة فلها تأثير كبير على تحرك السكان فقد دفع التغيير البيئي السكان الى تغيير مكان استقرارهم بل وتغيير نشاطهم الاقتصادي مثلما حدث في ايرلندا في الاربعينات من القرن التاسع عشر وذلك بعد النكسة في محصول البطاطا والذي تسبب في ايجاد بطالة هائلة في ايرلندا مما دفع جزءا من سكانها الى الهجرة وكما حدث - أيضا - في الولايات المتحدة في الثلاثينات من القرن التاسع عشر عندما تعرضت التربة في المناطق العربية الوسطى فيها للجرف نتيجة لسوء استغلالها من قبل المزارعين وأدى ذلك الى تعريتها للنقل بوساطة الرياح وكما تسمى بوعاء الرمل SAND BAG تلك التي أثرت على مناطق مختلفة نتيجة لهبوب الرياح المحملة بالتربة ونتيجة لذلك فقد حدثت هجرة لكثير من تلك المناطق الى مناطق اخرى في الولايات المتحدة[١١]. ولعب التغير البيئي دورا في هجرة عدد كبير من قرى أهل النوبة التي

---

(٩) Wrong, D. H., 1969, P. 37.
(١٠) Ibid, P. 89.
(١١) Johnes, E., and Eyles, J. "An Introduction to Social Geography", Oxford University Press, Oxford, 1977, P. 187.

كانت تقع بالقرب من بحيرة ناصر نتيجة لتحويل مجرى نهر النيل واقامة السد العالي في مصر ومع ان هذه الهجرة قد تقع تحت نمط الهجرة القسرية في أوقات السلم[١٢] وذلك نتيجة لاتفاق حدث بين السودان ومصر بتهجير هؤلاء السكان انما كان في الاساس نتيجة لتغير بيئي وحتى لو لم يحدث اتفاق التهجير فان السكان سوف يهاجرون من تلك المناطق لان تحويل مجرى النهر وانشاء بحيرة ناصر أديا الى غمر مناطق هؤلاء السكان بالمياه .

خلال الحربين العالميتين الاولى والثانية حدث تحرك سكاني ضخم ، فقد انتقل تحت التهديد والقهر والارهاب حوالي ستة ملايين شخص في الحرب العالمية الاولى وكذلك نفس الرقم تقريبا في الحرب العالمية الثانية الى مناطق غير مناطقهم الاصلية وبذلك حدثت هجرة قسرية تغير على اثرها التركيب السكاني اجتماعيا وديمقراطيا في اقاليم مختلفة في اوروبا .[١٣]

وقد تحدث هجرة « سياسية » وقد تسمى بحركة الحدود ، وهي تعني تبادل السكان بين الدول في المناطق التي تحدث فيها تغيرات جغرافية سياسية ونتيجة لذلك بقيت اقليات سكانية لتواجه صعوبات سياسية واجتماعية كما حدث هذا في الهند وباكستان عندما تم نقل حوالي ستة ملايين هندوسي الى الهند ومثل عددهم من المسلمين الى باكستان . وكما حدث بين اليونان وتركيا عندما تبادلا السكان بعد حرب ١٩٢١ بين الدولتين فقد انتقل ثلاثمائة الف تركي الى تركيا ومليون ومائتي الف يوناني الى اليونان . ولايمكن ان نقول انه كان هناك خيار لهؤلاء السكان في البقاء او الانتقال نظرا لانهم قاموا بهذا التحرك نتيجة لاتفاق بين الدول المعنية[١٤] ولسنوات قليلة مضت حدث تحرك سكاني قسري عندما امرت السلطات في اوغنده جميع الاسيويين الذين يحملون جوازات بريطانية بمغادرة اوغنده وكذلك من الذين لا يحملون الجنسية الاوغندية وكانت هجرة بالالاف وقد احدث ذلك ردود فعل عالمية .

اما الهجرة البشرية الحديثة التي تعتبر من أبشع انواع القسر هو ما حدث للفلسطينيين في بلدهم عندما قام الكيان الصهيوني على انقاض دولة فلسطين وحلت مجموعات بشرية من مختلف الجنسيات لا يجمعها الا الدين ، محل شعب تجمعه اصالة الموطن وحدث ذلك عام ١٩٤٨ فشرد حوالي مليون فلسطيني من بلدهم وانتشروا في مناطق مختلفة من العالم مع تركز جزء كبير منهم في بعض الدول العربية .[١٥]

وقد تحدث هجرة خارجية ولكنها تكون نتيجة لعوامل خارجية ، وذلك عندما تتعرض مناطق او مدن حدودية او استراتيجية للاحتلال الاجنبي او اضمحلال الاوضاع الاقتصادية نتيجة للحرب وتأثيرها على المناطق الاقتصادية كما حدث في جمهورية مصر العربية بعد قيام حرب سنة ١٩٦٧ فاحتلت سيناء واغلقت قناة السويس وتعرضت مدنها وموانئها كبورسعيد والسويس لخطر تلك الحرب وادى ذلك الى حدوث هجرة ضخمة من هذه المناطق الى القاهرة والى مدن اخرى مصرية .

---

(١٢) اسحق القطب وعد الاله أبو عياش . « الاتجاهات المعاصرة في الدراسات الحضرية » وكالة المطبوعات ١٩٨٠ ، الكويت ، ص ١٩٨ .

(١٣) Johnes, E., and Eyles, J. 1977, P. 187.

(١٤) Ibid, P. 187.

(١٥) اسحق القطب وعد الاله ، أبو عياش ، ١٩٨٠ ، ص١٩٨

ونتيجة للعنف تحدث هجرة من المناطق التي تتعرض للقصف وقد تتأثر دول بالكامل بالهجرة عندما تتعرض هذه الدول للعنف مثلما حدث للبنان عندما تعرض لحرب أهلية يصعب حتى الان اضفاء اية صفة على هذه الحرب لان عوامل كثيرة تشابكت في النهاية لتغطي صفحة واحدة عامة وهي عنف بلا هوية وقد ادى هذا العنف الى هجرة اللبنانيين من وطنهم ومن الصعب تحديد اتجاهات الهجرة لان اللبنانيين انتشروا في جهات متعددة .

وهناك هجرات تحدث نتيجة لازدهار اقتصادي وتوفر فرص عمل في مناطق مختلفة فتحدث انقلابا اقتصاديا واجتماعيا في هذه المناطق .

ولقد تعرضت منطقة الخليج لهجرة كبيرة في فترة متباينة من الزمن مقارنة بين حجم الهجرة وعدد السكان الوطنيين وكان دافع هذه الهجرة توفر فرص عمل كبيرة نتيجة لاكتشاف النفط واستغلال عوائده في تحديث دول الخليج العربية ونتيجة للقصور الكمي والنوعي الذي يعانيه السكان في مواجهة المستجدات في الحالات الاقتصادية والعمرانية . ولقد ادت هذه الهجرة الى قلب الميزان السكاني وتحول السكان الوطنيين في فترة زمنية وجيزة الى اقلية في بلدانهم ولم تقتصر مصادر هذه الهجرة على مصدر واحد او عدد قليل وانما جاءت من مصادر كبيرة العدد وصلت الى مائة جنسية . وبما ان العمل هو الدافع الرئيسي لهذه الهجرة ، فقد تفوقت العمالة الوافدة على الوطنية الى ان وصلت العمالة الوطنية في بعض دول الخليج العربية الى اقل من ١٠٪ ، ولقد وصلت في الكويت عام ١٩٨٥ الى حوالي ٢٢٪ ، وتغلغلت العمالة الوافدة في كل قطاع من قطاعات العمل وكثيرا ما ترتبط الهجرة بالمستوى الاقتصادي للدول المهاجر منها اي الهجرة من الدول الفقيرة الى الدول الغنية . وقد يكون هذا صحيحا بشكل عام ، ولكن عندما تعالج القضية بتفاصيل أدق تجد ان اهداف الهجرة قد تدخل في تحديد المناطق المهاجر منها بل والمهاجر اليها .

ولذلك فان الهجرة من الدول الاوروبية كانت تشكل تقليلا من العبء السكاني على الموارد المحلية في نفس الوقت الذي كانت هذه الهجرات تلعب دورا في السيطرة على اراض جديدة وانشاء مجتمعات اوروبية في تلك الاراضي في الوقت الذي كانت الهجرة من الدول والقارات الاخرى ، نتيجة لضآلة نسبتها الى السكان في تلك الدول لا تشكل تخفيفا على الموارد المحلية في نفس الوقت الذي كانت تقوم بادوار ضئيلة في الدول المهاجر لها فالمهاجرون الاوروبيون كما قلنا قاموا بادوار كبيرة حيث أنهم بالاضافة الى السيطرة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على المناطق المهاجر اليها وبخاصة امريكا واستراليا وافريقيا ، اقاموا انظمة اقتصادية امتدادا للاقتصاد الاوروبي . ولايمكن كما اشرنا قبل قليل انكار الدور الذي لعبته الهجرة من اوروبا في حل المشكلة السكانية التي برزت عن طريق الزيادة السكانية السريعة وعجز الموارد الاقتصادية المحلية بالمقابل .

في الدول الاخرى كان العامل الايجابي على المدى القصير هو في التحويلات النقدية التي يرسلها المهاجرون الى بلدانهم والتي بلا شك لعبت دورا في اقتصادياتها[١٦] وقد قدرت تحويلات الدول النامية لعام ١٩٨٢ بحوالي ٢٨ مليون دولار وهذا ما جعلها قادرة على زيادة الاستيراد مما وضعها ضمن اطار مشكلة الميزان التجاري لهذه الدول ، هذا على

(١٦) Burki, S., J., "International Migration Implications for Labour Exporting Countries" The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4 1984, P. 671.

مستوى الدول اما على مستوى الافراد فان هذا يبدو واضحا في التمايز الجغرافي بين مدن هذه الدول حيث تتميز المدن او المناطق التي تصدر المهاجرين عن المدن او تلك المناطق التي ليس لها مهاجرون من الخارج[١٧] .

هذه الهجرات بانواعها المختلفة وبمسبباتها واجهت اجراءات وسياسات لتنظيمها او لتحجيمها او لوقفها ، فالهجرة سواء أكانت داخلية ام خارجية فان لها آثارا لا يمكن اغفالها وتركها بلا ضوابط وان ما يعانيه العالم اليوم من عملية التحضر وبروز « الكيانات الحضرية » وما تسببه من تعقيد للحياة خلق للانسان مشكلات كلفته ثمنا غاليا وهو حياته النفسية اضافة الى حياته الجسمية فتكون المدن وتوسيعها وسيطرة الحياة الحضرية جاءت لاسباب في مقدمتها الهجرة من الريف الى المدن والتحول نحو الصناعة التي وجد فيها الانسان متسعا للخروج من مشاكله ثم انقلبت عليه وبالا كما ان التحرك المستمر للسكان من منطقة الى اخرى خلق مشكلات اجتماعية واقتصادية رهيبة عند تأثيرها على المجموعتين المحلية والمهاجرة وتكون النتيجة تغيرات في احدى المجموعتين او ازدواجية او حتى تعددية في المجتمع . فالهجرة ليست قضية ترتبط بالارقام كعدد السكان المهاجرين وعدد المجموعات المهاجرة من المناطق المختلفة ، وكذلك مثل عدد الذكور وعدد الاناث والمجموعة الفاعلة اقتصاديا والصغيرة او الكبيرة وليست ايضا عدد العائدين ولكن الهجرة تتكون من أكبر من هذه العناصر الرقمية انها تدخل في القضايا الاجتماعية والاقتصادية ومايطلق عليه في الجغرافيا بالمشاكل الحضرية والتي تنتج عن تفاعلات اجتماعية واقتصادية في بقعة جغرافية معينة ، وهي المدينة ونلاحظ هنا في هذا الصدد ان الهجرة غالبا ما تحدث في المدن . سواء أكانت الهجرة داخلية يتحرك السكان من الريف الى المدن ام من المناطق الفقيرة الى تلك الغنية او الهجرة الخارجية والتي تصب دائما في المدن حيث المزيد من الحاجة الى الايدي العاملة والى المغريات التي تتميز بها المدينة وحيث القبول الاجتماعي للمهاجر والذي لايجده بسهولة في المناطق الريفية . وبذلك أصبحت المشاكل الاجتماعية والاقتصادية تأخذ اتجاهات خطيرة في حياة الانسان . ان تطور الحياة الحضرية جعل السكان يتجهون للمدن ويتمركزون بها ، ولنتصور تجمع مجموعات مختلفة الاتجاهات اجتماعيا اقتصاديا وسياسيا في بقعة محدودة من الارض تتنافس هذه المجموعات على الارض والعمل والخدمات . ان توجه الانسان للحياة الحضرية يسير بسرعة هائلة وهذه السرعة المرتبطة بالحجم الكبير للمجموعات المتحركة لا يمكن ان تعطي فرصة للمنظمات الرسمية والاهلية لمواجهتها فتزداد المشكلات .

يعزى تزايد سكان المناطق الحضرية بالمعدلات العالية الى الهجرة من الريف الى المدن اضافة الى تقدم وتطور العلوم الطبية وتزايد الاهتمام الصحي بالانسان في هذه المناطق وينطبق هذا بشكل واضح على الدول النامية حيث الفروقات بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية والتي تستهل بعوامل الطرد من المناطق الريفية وعوامل الجذب في المناطق الحضرية وتساهم الهجرة من الريف الى المدن بنسبة تتراوح ما بين ٥٠٪ - ٧٦٪ من النمو السكاني في المناطق الحضرية الكبيرة في معظم الدول النامية[١٨] ويوضح الجدول رقم (١) ان الهجرة من الريف الى المدن ما زالت تلعب دورا مهما في النمو الحضري .

(١٧) Ibid, PP. 671-675.
(١٨) Mobogunje, A., "The Development Process" : Hutchison Unibersity Library for Africa, London, 1980, P. 177.

نسبة الهجرة من الريف الى الحضر في النمو الحضري ١٩٥٠ ـ ١٩٩٠

	١٩٥٠ ـ ١٩٦٠	١٩٧٠ ـ ١٩٧٥	١٩٨٠ ـ ١٩٩٠
العالم	٤٨,٧	٣٢,٥	٣٣٠,ـ
الدول المتقدمة	٤٨,٨	٤٦,٢	٤٩,٧
الدول النامية	٥٩,٣	٤٢,ـ	٤٢,٢

المصدر : MABOGUNJE, A., "THE DEVELOPMENT PROCESS": HUTCHISON UNIVERSITY LIBRARY FOR AFRICA? LONDON, 1980 TABLE NO. 17

ان التزايد السكاني في المناطق الحضرية يعني اضافة الى النمو السكاني الطبيعي والهجرة تلعب دورا في تطور المراكز الحضرية ، والنمو الحضري يعني مزيدا من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية . فالمؤسسة الأساسية في التركيبة الاجتماعية هي الأسرة تتعرض للتغير واعادة تركيب بيئتها ، كما ان البيئة الاجتماعية للسكان تتعرض للتغيير . كما ان الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للسكان يعاد صياغتها في داخل الاطار الحضري .(١٩)

وتلعب التقنية والتطور في الأدوات المستخدمة في الانتاجية دورا في هذا المجال ، ففي الولايات المتحدة تطورت الهجرة من الريف الى المدن الى درجة كبيرة نتيجة للتطور في الأساليب التكنولوجية في الزراعة والتي أدت الى أن ١٠٪ من سكان الولايات المتحدة ينتجون غذاء لبقية السكان (٩٠٪) بل ويصدرون الفائض الى الخارج . ولهذا نجد أن المناطق الحضرية اتسعت وتطورت وكان ٥٪ من الامريكيين يعيشون في المدن عام ١٧٩٠ فقفزت هذه النسبة الى مستوى عال في عام ١٩٦٠ وقد أشارت الاحصاءات الى أن ٧٠٪ من الأمريكيين يعيشون في المناطق الحضرية (٢٠) .

ولذلك فالهجرة ليست قضية ديمغرافية أو حركة سكانية ترتبط بالمسافة أو المساحة المكانية ولكنها أيضا قضية لها مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية فوجود مجموعات سكانية تحمل معها مختلف العادات والتقاليد سواء تجاه العمل أم تجاه السكن أو تجاه العلاقات الانسانية أو في سلوكياتها الاقتصادية والمعيشية سوف يؤدي الى تصادم اجتماعي واقتصادي وسياسي ، وليس بالضرورة أن تكون النتيجة هي عملية الاستيعاب من قبل المجتمع المستقر للمجموعات المهاجرة أو العكس(٢١) فهذا يعتمد على طبيعة المؤسسات التي تحكم المجتمع المستقبل للهجرة فاذا كانت هذه المؤسسات تعني للمهاجر الاسلوب الذي يبحث عنه ، وتأتي في المقدمة مقارنة لما يتميز به مجتمعه الاصلي ، فتأتي كحلم كان يراوده .

وقد تكون هناك قضايا فردية ولكنها في تراكماتها الزمنية تصبح اتجاها عاما في سلوكيات المهاجر وترتيبه للأفضلية أمور حياته ، فقد يهاجر الانسان الى مجتمع يختلف عن مجتمعه اجتماعيا وثقافيا ودينيا ، فاذا كان مثلا في فترة سابقة لم يكون أسرة فقد تصطدم طريقة التربية وتحديد المستقبل مع عادات واتجاهات ذلك المجتمع ، ففي فترة لاحقة عندما

(١٩) Clark, D., H., 1982, PP. 73-67.
(٢٠) Wrong, D., H., 1969, PP. 95-97.
(٢١) Johnes, E., and Eyles, J., 1977, P. 196.

تكون أسرة فان هذا الانسان يجد أن استمراره يصطدم بتلك القيم والعادات والاتجاهات فيبحث عن محطة أخرى تتناسب مع المكونات الاجتماعية والثقافية وغيرها .

ولذلك فان خطوط الهجرة قد تتقاطع بمحطات ترتبط بعوامل متغيرة ومتجددة هذه العوامل لا ترتبط بطرف معين بل انها تأتي من أكثر من طرف في قضية الهجرة . فكما قلنا قد تكون هذه العوامل نتيجة لتغيرات في تركيب الأسرة من حيث العدد أو من حيث التركيب النوعي ، فمثلا وجود الاناث في الاسرة يلعب دورا يختلف عن وجود الذكور وهذا قد يرتبط بالقيم والعادات من مجتمع الى مجتمع . وقد تكون المتغيرات في بلد المهجر اذا استحدثت عوامل مثل سن تشريعات وأنظمة تتعلق بالمهاجرين تؤثر في بقاء أو تحرك هؤلاء المهاجرين . ولقد شهد التاريخ تغييرات في التعامل مع الهجرة . هذه التغيرات تنطلق من المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ففي بعض الدول التي تعرضت لهجرات واسعة تعاملت في مرحلة معينة مع المهاجرين على أساس فخصصت لكل جنسية نسبة معينة من المهاجرين تستقبلهم سنويا وقد استخدمت الولايات المتحدة هذا النظام عام ١٩٢٢ . ولكن في مرحلة أخرى تالية دعت أسباب الى تغيير هذه السياسة الى نظام آخر وهو انتقاء الشخص أي حاجة البلاد الى كفاءات ومهارات وخبرات معينة بغض النظر عن جنسية هذا المهاجر وان لم يكن هذا بشكل مطلق ، وكانت الأسباب وراء ذلك دراسات وبحوث قادت الى الانتباه الى القضايا الاجتماعية المهمة مثل القضايا العنصرية والتغيرات في البيئة الانية للمجتمع حتى لا تطغى مجموعة معينة على بقية المجموعـات . وكان الصـراع العقائـدي بين بعض الـدول وظهور الايدولوجية الشيوعية وبروز النظام الالماني في عهد هتلر وما أدى اليه من التعصب لعرقية معينة ، كل ذلك انعكس على سياسة الهجرة الى الولايات المتحدة وغيرها من الدول المستقبلة للهجرة بأحجام كبيرة ، أما في المرحلة الحالية فان الهجرة بشكل عام تتحكم فيها فرص العمل وارتفاع الأجور من ناحية ومن ناحية أخرى فان الدول المستقبلة للهجرة تفتح المجال للمهاجرين بقصد سد النقص في عمالتها الوطنية وتطوير اقتصادها واعمار أراضيها ورفع مستوى تقنيتها .

ولذلك فان سياسة الهجرة مبنية على نظام يربط بين هجرة وبين حاجة هذه الدول لقوى عاملة معينة .

ومن هنا فقد أصبح موضوع الهجرة يدخل في خطط التنمية للبلدان التي تتعامل معها سواء أكانت باعثة أم مستقبلة . وهذه الخطط لا تقتصر على حجم العمالة وتوزيعها على الأنشطة الاقتصادية المختلفة ، بل انها تدخل في الأبواب الاقتصادية للخطة من حيث الأخذ بعين الاعتبار العوائد النقدية التي يوردها المهاجـرون الى دولهم . ففي جمهورية مصر العربية قدرت عوائد المهاجرين سنة ١٩٧٨ بما يعادل دخل قناة السويس اضافة الى عوائد القطن .

وفي لبنان قبل الحرب الاهلية ، كانت هجرة المغتربين تعتبر من المصادر الرئيسية للاقتصاد اللبناني وفي الفلبين تعتبر عوائد العمالة الفلبينية في الخارج مصدرا رئيسيا للدخل القومي للدولة ولهذا فان نظاما جديدا طرأ على الهجرة من حيث التنظيم وذلك عن طريق الاتفاقيات الرسمية بين الدول « لتصدير » العمالة وما تتضمنه هذه الاتفاقيات من نظم لأجور القوى العاملة وتنظيم تحويل جزء من دخولهم الى بلدانهم فالهجرة اذا أصبحت تأخذ أبعادا قانونية واجتماعية وسياسية واقتصادية ولم تعد قضية تحرك سكاني ومشاكل ديمغرافية وخصائص تتعلق ببيئتهم الاجتماعية فقط .

الهجرة الى دول الخليج العربية :

الهجرة الى دول الخليج العربية تعتبر نموذجا للهجرات في عالمنا المعاصر وتعتبر مجالا خصبا للدراسة والبحث . فدول الخليج العربية مع انها جزء من أقدم مناطق الاستقرار في العالم الا أنها تعتبر من حيث التكوين السياسي والاجتماعي والاقتصادي حديثة فالكويت والتي تعتبر من أوائل دول الخليج في تعرضها للهجرة الحديثة ، بدأ كيانها السياسي يدخل التاريخ السياسي العالمي في ١٧٦٥ .(٢٢)

ولقد أصبحت دول الخليج العربية محط الأنظار من قبل المهاجرين بعد اكتشاف النفط واستغلال عوائده في بناء الدولة الحديثة ، ليس من الناحية الاقتصادية والسياسية فحسب وانما في بناء دولة حديثة وتأسيس الهيكل التنموي وارساء دعائم الخدمات الأساسية الاجتماعية وكانت المشكلة التي واجهتها هذه الدول هي أن عملية الهجرة كانت فوق طاقتها السكانية سواء من حيث الكم أو الكيف بشكل ظاهر وكانت الرغبة في القيام بهذه العملية بفترة قصيرة من الوقت سببا في فتح حدود هذه الدول للهجرة بدون أية قيود ولم تستخدم الطريق والأنظمة والتشريعات التي استخدمتها مختلف الدول على طول مراحل زمنية متعددة .

وكان الافتقار الى المؤسسات الادارية والتشريعية والفنية في بداية الأمر سببا في تعرض البلاد لتدفق المهاجرين بأعداد كبيرة في فترات زمنية قصيرة .(٢٣)

ولقد تزامنت الهجرة مع تغيرات اجتماعية واقتصادية للسكان الوطنيين مما أضاف فرصا للحاجة الى المهاجرين كالتحول الاجتماعي الخطير الذي تعرض له السكان المحليون من تغيير في البنية الاجتماعية وبخاصة في الأسرة والتركيبة السكانية بشكل عام .

كذلك تعرض السكان لما نستطيع أن نطلق عليه عملية التحضر السريعة والمعقدة لمجتمع بسيط قليل العدد كل ذلك أضاف بعدا مهما للهجرة .(٢٤)

وتمثل الكويت ودول الخليج العربية الأخرى كلها للمهاجرين في بداية الهجرة مثل ما كانت تمثله المناطق المكتشفة في غرب الولايات المتحدة عند اكتشاف الثروات المعدنية . والفارق طبعا أن دول الخليج العربية ذات كيانات اجتماعية وسياسية . فقد توفرت فرص للعمل بشكل غير محدود للمهاجرين في كل درجات السلم المهني . بل أكثر من ذلك سيطر المهاجرون على النشاطات الاقتصادية التي كان يمارسها المواطنون بأسلوب بسيط تقليدي وطوروها لتتناسب مع كل المعطيات الاجتماعية والاقتصادية لمجموع السكان من محليين ومهاجرين في الوقت الذي وقف فيه المواطنون عاجزين عن أخذ زمام المبادرة نظرا لعدم وجود الخبرة في التعامل مع المتغيرات الجديدة وفي مقدمتها التعامل مع جنسيات متعددة وثقافات هائلة .

ولقد لعبت الجغرافيا دورا جذريا في هذه القضية فدول الخليج العربية بشكل عام تتميز ببيئة طبيعية بسيطة جدا ، اذ أنها تفتقر للتمايز الجغرافي فارض دول الخليج والتي تؤدي الى ايجاد بنيات اجتماعية واقتصادية متباينة داخل الكيان

---

(٢٢) أحمد ابو حاكمة تاريخ الكويت الحديث . ذات البلاسل ، ١٩٨٤ ، ص ١٧ .
(٢٣) عبد الرسول علي الموسى ، قضايا في التنمية ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ١٥ - ١٦ .
(٢٤) عبد الرسول الموسى ، « أثر التغيرات الجغرافية على التركيب الاجتماعي للسكان في الكويت ، بحث غير منشور .

السياسي وصغر مساحة الدول والتركز السكاني والاقتصادي والسياسي في بقعة واحدة صغيرة أدى الى قيام ما يسمى بدول المدينة فكل دول الخليج العربية تتكون من مدينة واحدة . وهذه العوامل كلها أدت الى أن الهجرة عمت كل مناطق الدول ، وكان التأثير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على مجموع السكان في هذه الدول . فكل المواطنين يتعاملون مع الهجرة بكل سلبياتها وايجابياتها ولا يمكن لأي مجموعة سكانية محلية تفادي التعامل مع الهجرة .

هذا التكوين الفريد للعلاقات بين المواطنين والمهاجرين ، أدى الى سن تشريعات وأنظمة تبدو للمراقب البعيد عن حقائق الوضع تمييزا كبيرا بين المواطنين والمهاجرين . ومثال على ذلك العزلة في مناطق السكن وانشاء مناطق سكنية للمواطنين وأخرى للمهاجرين وسن قوانين تمنع سكن المهاجرين في المناطق السكنية النموذجية وذلك بمنع التملك وقيد الايجار كما وحددت كثافة البناء وصممت الوحدات السكنية حسما لمشاكل تماثل الكثافة السكانية وأصبحت هناك تفرقة في الأجور .

ان منطلق التعامل مع الهجرة في دول الخليج العربية هو أن المهاجرين يشكلون الأغلبية في هذه الدول وفي بعضها مثل قطر والامارات المتحدة وصلت هذه الأغلبية الى نسبة عالية جدا (٨٠٪) وهذا المنطلق يدعو الى معالجة دقيقة وحذرة للهجرة . لقد تشابكت قضية الهجرة في هذه الدول مع القضية الأساسية لهذه الدول وهي الارتباط المعقد بين النفط وبين البنية الاقتصادية . (جدول رقم ٢) .

لقد واجهت الهجرة موقفا يتصف بالخصوصية . فقد كان المفترض أن الهجرة تبدأ في التضاؤ ل ثم تحدث الهجرة المعاكسة مع انتهاء المشاريع الأساسية الكبرى وبخاصة الهياكل الأساسية الرئيسية وبذلك تقل فرص العمل ومن ثم تتحرك الهجرة في خط معاكس أو خط العودة . ولكن ما حدث هو في غير صالح الهجرة وفي غير صالح هذه البلدان في نفس الوقت .

وتتأثر الدول المرسلة للمهاجرين بالهجرة المعاكسة اذا كانت في خط العودة . وهذا التأثر يصيب كثيرا من المجالات الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية ، ولذلك فهذه الدول ، تحاول جاهدة أن تأخذ في الحسبان عودة مواطنيها ، سواء في مجال الاسكان ، أو في توفير فرص العمل ، ولكن الذي حدث في حالة دول الخليج العربية هو أن الذي حدث على المستوى الاقتصادي كان بعيدا عن التوقعات فدول الخليج العربية تعتمد في دخولها على عوائد النفط بنسبة كبيرة جدا . وكان القلق على المستوى الرسمي والشعبي هو نضوب النفط أو اكتشاف مصدر بديل للطاقة . ولكن ما تعرضت له هذه الدول في مجالين الأول هو التوقيت ، فقد كان في فترة مبكرة جدا بعيدا عن التوقعات . والثاني في الانخفاض الحاد في سعر النفط والذي انخفض من ٣٦ دولار الى ما يقارب ١٠ دولارات . وما حدث أثر على طرفي خط الهجرة للدول الخليجية المستقبلة للمهاجرين والدول المصدرة لها . فالدول المصدرة للعمالة تعتمد في جزء من دخولها على التحويلات النقدية لمواطنيها في دول المهجر .

وقد تأثرت دخول هذه الدول بشكل بارز فأدى الى تخفيض ميزانياتها وهذا التخفيض أثر على باب الأجور في الميزانية وبالتالي بدأت هذه الدول في تخفيض العاملين في الأجهزة الحكومية وغير الحكومية اضافة الى الركود الاقتصادي الذي أثر على العمالة بشكل عام . وحدوث مثل هذا الوضع وسط أزمة اقتصادية عالمية أدى الى أن يعيش المهاجرون في قلق حاد وخط العودة أو التحرك المعاكس يواجه مشاكل لأن عامل الطرد يواجهونه في بلدان الخليج العربي نتيجة

للظروف التي شرحناها لا يقابله عوامل جذب لا في البلد الأم ولا في بلدان هجرة أخرى . وهذه قضية الهجرة في دول الخليج العربية والتي تحتاج الى دراسات وبحوث تعطى للهجرة الى هذه الدول خصوصية في الابعاد والمضمون .

ان الهجرة المعاكسة التي بدأت ملامحها تتشكل جاءت نتيجة عامل اقتصادي مفاجىء وهو الانخفاض الحاد في أسعار البترول في السوق العالمية وقلة الطلب عليه وتخفيض انتاج البترول كل هذه العوامل جاءت بدون تخطيط مسبق لمواجهتها وهذه النتيجة لم تكن مفاجئة في حد ذاتها وانما توقيتها جاء مفاجأة وبدون أن تكون هناك أية ترتيبات تخطيطية ففي الكويت وهي من الدول الخليجية القليلة التي تنتهج أسلوب التخطيط تعد أول من تبنى مبدأ الخطط الخمسية والخطط الهيكلية القومية مع كل ما توجه اليها من انتقادات لهذه الخطط . فالكويت بهذا الوضع المتقدم نسبيا بين دول الخليج العربية صممت قبل شهور قليلة من الانهيار المفاجىء لأسعار النفط والتقيد الحاد في سوق الخطة الخمسية الثالثة . كانت الخطة تحمل أحد أهدافها الرئيسية وهو هدف الوصول الى التوازن السكاني بين المواطنين والوافدين . وقد واجهت الخطة انتقادات كثيرة أهمها ما ينصب على صعوبة تنفيذ الهدف مع وجود المعضلة الكبرى التي تتمثل بوجود أقلية حادة في العمالة الكويتية وهي نسبة تصل الى ٢٠٪ من جملة العمالة في البلاد عام ١٩٨٥ .

فكانت المفاجأة بعد شهور قليلة أن اضطرت الدولة دون الالتفات الى محددات هذه الخطة الى تخفيض الميزانية بحدود ١٥٪ وكان معظم التخفيض يتركز على اخراج نسبة من العمالة من القطاع الحكومي وقد سبقتها مؤسسات القطاع الخاص بعمليات واسعة في الاستغناء عن عمالتها غير الكويتية .

لقد أشرنا قبل قليل الى أن قضية المردود المادي أصبحت مسألة عامة في المنطقة (الدول العربية اضافة الى ايران والهند وباكستان وبنغلاديش) ففي حالة القطاع الخاص عندما أعطى العاملون خيارا بين البقاء مع تخفيض أجورهم أو ترك العمل وهذا يعني وحسب قانون الاقامة مغادرة البلاد فقد اختارت الغالبية منهم الخيار الأول* .

وقد صاحب هذه الأزمة الاقتصادية انخفاضا في تدفق العمالة المهاجرة ففي الكويت كان انخفاض في اصدار رخص العمل في الفترة ما بين ١٩٨٠ و ١٩٨٤ بحوالي ٢٩,٨٪ وكان الانخفاض هذا قد بدأ في النصف الثاني من عام ١٩٨٣ ، وبلغ هذا التغير السلبي في اصدار رخص العمل أوجه في عام ١٩٨٤ ، فكان تغييرا حادا وصل الى ٥٤,٢٪ في اصدار الرخص الجديدة . ولم يقتصر الأمر على انخفاض عدد القادمين الجدد وانما في ترك العمالة المهاجرة للعمل في الكويت ، فقد ازداد عدد الرخص الملغية من ٣,٣٤٨ رخصة عام ١٩٧٧ الى ٥٤,٥٦٧ رخصة ملغية عام ١٩٨٤ .[٢٥]

ان الوضع المفاجىء يدل على أن حدوث هجرة معاكسة يحدث خللا في التوازن الاقتصادي والاجتماعي . ويأخذ هذا بعدا أعمق عندما يحدث هذا في بلدان تعتمد فيه المشاريع على السكان المهاجرين وتشكل القوة الشرائية وزنا ملحوظا في القوة الشرائية العامة .

---

* استطلاع قام به الباحث عن طريق زيارة بعض الشركات والمؤسسات .

(٢٥) Secombe, J. I., "Economic Recession and International Labour Migration", The Arab Gulf Journal, Vol. 6, No. 1 April 1986. P. 47.

في منطقة الخليج العربية تشكل الهجرة هما من هموم الدول فالمهاجرون يشكلون الأغلبية وأصبحوا محركا رئيسيا في تدوير العجلة الاقتصادية ان الجدول التالي يوضح لنا ذلك ، فالعمالة المهاجرة تشكل أغلبية الدول الخليجية . وهذا يجعل لهم دورا في ادارة العجلة الاقتصادية ومحركاتها . وتصل هذه النسبة أعلاها في دولة الامارات العربية المتحدة فتصل نسبة المهاجرين الى أكثر من ٧٥٪ وأدناها في سلطنة عمان وكانت النسبة ٣٠٪ عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (٢)

السكان في دول الخليج العربية وطنيون ومهاجرون

الدولة	السنة	اجمالي السكان	العدد	المهاجرون (نسبة المهاجرين الى اجمالي السكان
الكويت *	١٩٨٥	١,٦٩٥,١٢٨	١٠١٥,٠٢٧	٦٠
البحرين	١٩٨١	٣٥٨,٨٥٧	١١٦,٢٦١	٣٢,٤
قطر	١٩٨٠	٢٦٠,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠	٦٧,٣
الامارات العربية المتحدة	١٩٨٠	١,٠٤٣,٢٢٥	٧٨٠.٠٠٠	٧٥,٠
سلطنة عمان	١٩٨٠	٩٠٠,٠٠٠	٢٧٠,٠٠٠	٣٠,٠
الاجمالي		٤,٢٥٧,٢١٠	٢,٣٥٦,٧٨٨	٥٤,٥

المصدر : حسن حياط ، الرصيد السكاني لدول الخليج العربية ، مركز الوثائق والدراسات الانسانية ، جامعة قطر ١٩٨٢ ، جدول رقم ٢٣ .

ان المهاجرين يمثلون تركيبة سكانية تعكس تماما اهداف الهجرة الى هذه المنطقة ولذلك فان نسبة المجموعة النشطة اقتصاديا عالية جدا بينهم كما ان هذه المجموعة تشكل الأغلبية بين القوى العاملة في الدول الخليجية والجدول رقم (٣) يوضح ذلك ويعطي صورة صادقة للبنية السكانية التي تعتبر شكلا لمضمون الهجرة .

ان دور العمالة المهاجرة لا يقتصر على الكم الاجمالي كما انها لا تقتصر ايضا على الكم الخاص في القطاعات الاقتصادية المختلفة وانما على مدى مساهمة هذه العمالة في النشاط الاقتصادي وايضا على دورها في القطاعات المهنية المختلفة التي تشكل دعامات وطيدة لواقع يقوم بعدم سهولة قيام المواطنين بدور رئيسي في هذه المحاولات في مستقبل قريب . كما يؤكد على الاوضاع الصعبة التي ستعيشها هذه الدول في حالة حدوث هجرة معاكسة على نطاق واسع . فالعمالة المهاجرة تساهم بدور رئيسي في كل قسم من اقسام النشاط الاقتصادي ويشكل اغلبية في قطاعات رئيسية ويشكل اغلبية - ايضا - في المهن العالية المستوى . ويوضح لنا الجدول رقم (٤) هذا الدور كما ان الجدول رقم (٥) يوضح لنا اهمية دور العمالة المهاجرة في تقديم اداء عال المستوى في المهن العالية والتي تحتاج لها هذه الدول لمدة طويلة على اساس الواقع الحالي .

* المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الكويت

ان دول الخليج العربية كانت تنتظر بتفاؤ ل غريب ، رغم القلق الذي يسود عامة الناس فيها من جراء الاوضاع الاقتصادية ودور الهجرة ، هذه الدول كانت تنظر بتفاؤ ل على اساس التطور المستقبلي لدور النفط وبخاصة الاحتياطي منه دون التعمق في التعامل مع اللعبة السياسية والاقتصادية العالمية ، فكانت زيادة اسعار البترول القياسية في بداية السبعينات البساط السحري الذي خلق في هذه الدول فوق واقع الحقيقة المرة التي واجهتها في بداية الثمانينات . ان هذا قد ارتبط بالهجرة وباستمراريتها وتزايدها ولذلك نجد مثلا ان عدد المهاجرين مثلا [٢٦] في الكويت ازداد ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٥ بحوالي ١٣١٤٨٣ نسمة اي بمعدل نمو سنوي يعادل ٩,٥٪ وبين ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ، ازداد عدد السكان المهاجرين في الكويت بحوالي ١٣ , ١٩١ نسمة اي بمعدل نمو سنوي يعادل ٨,٧٪ فبعد الزيادة الكبيرة في اسعار النفط في السبعينات ضخت اموال هائلة في السوق لتمويل المشاريع الكبرى مثل الطرق السريعة والجسور والمجمعات الكبيرة مما ادى الى الحاجة الهائلة للقوى العاملة الجديدة لقد دخلت عمالة مهاجرة في السوق الكويتية ما بين ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ تقدر بحوالي ١٦٣٨٧٦ عاملا وكذلك دخل في السوق الكويتية حوالي ، ١٠٥٣٢٠ عاملا ما بين ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ وهذا يؤ كد زيادة في اسعار البترول وازدياد عوائد البترول الكويتية .

في الكويت يعتمد المستثمر الكويتي على ما يضخه المهاجرون في السوق الكويتية والتي تقدر بحوالي ٤٨٥,٧٦٠,٠٠٠* .

ان هذا التعامل بين المهاجرين والاقتصاد الكويتي يجعل للمهاجرين دورا كبيرا كما يوضح لنا هذا دور الهجرة في البناء السكاني والاجتماعي .

جدول رقم (٣)

دور السكان النشيطين اقتصاديا في البناء السكاني في دول الخليج العربية (السنة) ١٩٨٠

الدولة	المواطنون (بالألف)			الوافدون (بالألف)			اجمالي السكان والعمالة (بالألف)		
	السكان	العمالة	٪	السكان	العمالة	٪	السكان	العمالة	٪
الكويت	٥٦٢	١٠٩,٢	١٩,٤	٧٩٣,٨	٣٧٨,٧	٤٧,٧	١,٣٥٥,٨	٤٨٧,٩	٣٦,٠
البحرين	٢٤٢,٦	٤٦,٨	١٩,٤	١١٦,٠	٧٠,٢	٦٠,٥	٣٥٨,٦	١١٧,٠	٣٢,٧
قطر	٨٥,٠	٢٠,٢	٢٢,٤	١٧٥,٠	٩٨,٨	٥٥,٣	٢٦٠,٠	١١٩,٠	٤٥,٠
الامارات العربية المتحدة	٢٢٩,٠	٧٧,١	٢٦,٤	٨١١,٠	٤٦٧,٢	٥٨,٢	١,٠٤٠,٠	٥٤٤,٣	٥٢,٩
سلطنة عمان	٦٣٠,٠	١٢٦,٠	٢٠,١	٢٧٠,٠	١٤٧,١	٥٤,٤	٩٠٠,٠	٢٧٣,١	٣٢,٨
الإجمالي	١,٧٤٨,٦	٣٧٩,٣	٢٠,٩	٢,١٦٥,٨	١,١٦٢,٠	٥٤,٣	٣,٩١٤.٤	١,٥٤١,٣	٤٠,١

المصدر : حسن خياط ، ١٩٨٢ ، جدول ٣٥ .

(٢٦) المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ـ الكويت .

* يعتمد هذا الاستنتاج! على نتائج تحت ميزانية الاسرة الذي قامت به وزارة التخطيط ١٩٧٩ والذي اعتمد على عينة بحجم ١٤١٣ اسرة غير كويتية ، حيث توصل البحث الى ان متوسط انفاق الاسرة غير الكويتية الشهري يصل الى حوالي ٣٦٨ دينار كويتي وقد كان عدد الاسر غير الكويتية حوالي ١١٠,٠٠٠ اسرة .

جدول رقم (٤)

مساهمة العمالة الوافدة في القطاعات الاقتصادية المختلفة في بعض دول الخليج العربية

القطاع	*الكويت ١٩٨٠	البحرين ١٩٧٦	الامارات ١٩٧٥	قطر ١٩٧٩
الزراعة والصيد	٥٧	٣٠,٢	٥٢,٩	٥٢,٩
التعدين	٦٤	—	٨٦,٤	٨٨,٧
الصناعة	٩٢,٣	٢٩,١	٩٠,٠	—
كهرباء ماء غاز	٧٤,٧	١٢,٥	٩٧,٥	—
البناء والتشييد	٩٨,٧	٤٨,٧	٩٠	٩٧,٥
التجارة	٩٢,٢	٣٨,١	٨٢,٢	٩٠,٠
نقل بحري ومواصلات	٧٤,-	٣٦	٨٦,٥	٨٣,٠
خدمات	٦٦,٤	٣٦,٨	٧٢,٥	٧٥,١
الاجمالي	٧٨,٦	٣٧,٦	٨٦,٩	٨٣,٠

المصدر : حسن خياط ، ١٩٨٢ ، جدول ٤٤ .

* المجموعة الاحصائية السنوية ، ١٩٨٣ ، جدول ١٠٤

جدول رقم (٥)

العمالة المحلية والمهاجرة في الكويت والبحرين

موزعة حسب المستوى المهني

المستوى المهني	الكويت*		البحرين**		المجموع
	كويتي	مهاجر	بحريني	مهاجر	
وظائف متخصصة تتطلب شهادة جامعية في ميادين العلوم	١,٢	٤,٣	١٨,١	٨١,٩	٪١٠٠
وظائف متخصصة تتطلب شهادة جامعية في التجارة والاداب	٥,٩	٢,١	٤٦,٢	٥٣,٨	٪١٠٠
وظائف فنية تتطلب الدراسة الثانوية او التدريب الفني	١١,٨	١٢,١	٦٤,٥	٣٥,٥	٪١٠٠
عاملون مهرة وانصاف مهرة في الوظائف الادارية	٢٤,٥	١٨,١	٨٠,٢	١٩,٨	٪١٠٠
عاملون غير مهرة وانصاف مهرة في الوظائف اليدوية	١٢,-	٢٩,٤	٦٠,٠	٤٠,٠	٪١٠٠
وظائف غير فنية	٤٤,٦	٣٤,-	٥٧,-	٤٣,٠	٪١٠٠
المجموع	١٠٠,٠	١٠٠,٠			

* نسبة كل مستوى الى الاجمالي .

** نسبة مساهمة العمالة المهاجرة والوطنية الى كل مستوى .

المصدر : اسحق القطب ، خصائص النمو الحضري في دول الخليج العربي ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ١٩٨٥ جدول رقم ١٣

فالهجرة في الكويت كما هي الحال في دول الخليج العربية الأخرى هي حصيلة الحاجة الملحة للقوى العاملة لتقوم بدور اوجدته لهم مشاريع طموحة تعادل طموح شعوب هذه الدول في أن يستفيدوا من عوائد النفط في استثمار خدمي تشابكت فيه مصالحهم مع مصالح المهاجرين ، فأصبحت الهجرة قضية عضوية في بنية هذه الدول اجتماعيا واقتصاديا ، سيكون فض هذا التشابك ليس بالامر الهين . وبخاصة وان قضية النفط في هذه الدول امتدت لتتعانق مع قضايا اقتصادية واجتماعية في الدول الام لهؤلاء المهاجرين حيث يستخلص الدكتور سعد الدين ابراهيم ان للبترول دورا سلبيا اكثر مما هو ايجابي على مستوى النسيج الاجتماعي والاقتصادي لمصر حيث يوجد لها اكثر من اربعة ملايين مهاجر اذا اخذنا بعين الاعتبار المهاجرين المصريين في العراق .[٢٧] ومع كل هذا التشابك فالهجرة الى دول الخليج

(٢٧) سعد الدين ابراهيم ، ١٩٨٢ ، ص ١٣٥ - ١٤٥ .

العربية تتصف بانها هجرة محطات وليست مناطق استقرار او كما تسمى احيانا بلدان المهجر ولكنها تطول لبعض المجموعات وتقصر لاخرى . وبذلك فالمهاجرون في الكويت يطلق عليهم بالوافدين على اساس انهم وفدوا الى هذه الدول لفترة معينة يعودون بعدها الى اوطانهم او الى جهات اخرى ولذلك فإن معظم هؤلاء المهاجرين لم يقطعوا علاقاتهم باوطانهم وتتمثل هذه العلاقة بالتحويلات النقدية والعينية التي يقوم بها المهاجرون ، كما ان مدخراتهم في بلدانهم واستثماراتهم تعد مؤشرا على ذلك ومع ذلك فهناك مؤشرات على سلوكيات المهاجر لا الوافد مثل المطالبة المستمرة بازالة القوانين والانظمة التي تميز المواطنين عنهم . مثل الفوارق في الاجور ونظام التملك للعقار وحق الانخراط في المدارس والمعاهد والجامعات بشكل مفتوح والشكوى الدائمة من قانون الاقامة وقانون العمل .

فنظام التملك يضع قيودا صارمة على تملك المهاجر للعقار في هذه الدول كما ان قانون الاقامة يحتم وجود كفيل او ضامن من المواطنين للمهاجر وتحدد الاقامة بمدة اقصاها خمس سنوات تجدد بموافقة الكفيل وهذا يجعل العلاقة معقدة بين المهاجر وبين المواطن الى درجة ان الاقامة اصبحت مدفوعة بمبلغ يجدد هذا الدفع مع كل تجديد للاقامة مع عدم شرعية هذا التعامل .

كما ان قانون العمل لا يتيح للمهاجر العمل الا في ظل شراكة مع المواطن او في ظل ترخيص تجاري باسم المواطن اما اذا كان المهاجر يعمل بادارة حكومية فان عمله هو الضمان لحصوله على اقامة . يواجه المهاجر مشاكل عديدة في حالة رغبته التخلي عن عمله او في حالة استغناء الادارة عنه .

اما التعليم فان نسبة قليلة جدا من ابناء المهاجرين يستطيعون الانخراط في المدارس الحكومية كما ان هناك قانونا حدد تاريخا معينا لقدوم المهاجرين الى البلاد لا يحق له الحاق ابنائه في المدارس الحكومية .[٢٨] اذا قدم الى البلاد بعد هذا التاريخ .

اما الفوارق في الاجور فانها محل تذمر من قبل المهاجرين حيث انهم يختلفون عن المواطنين في عناصر معينة مثل علاوة طبيعة العمل وعلاوة الابناء .

ومع ان هذه المؤشرات تعد من العوامل التي تؤثر في استقرار المهاجرين بشكل عام والعمالة بشكل خاص [٢٩] الا ان هذه الظروف المحيطة بالمهاجرين الى دول الخليج العربية لم تؤثر في استمرارية الهجرة إلى دول الخليج العربية وفي نموها المضطرد ، وهذا يفسر لنا انه مع كل هذه الظروف ان دول الخليج العربية ما زالت تمثل منطقة جذب مقارنة بعوامل الطرد التي تتمثل في بلدانهم الام .

ان الجدول رقم (٦) يبين ان نمو المهاجرين تتطور باستمرار كذلك فان الزيادة الطبيعية للمهاجرين في دول الخليج العربية مؤشر عسلسطول فترة الاقامة .

---

(٢٨) Al-Moosa, A., and Melachlan, K. S., "Immigrant Labour in Kuwait, Croom Helm London, 1985.

(٢٩) Al-Moosa, A., 1986, Vol. 6.

جدول رقم (٦)

الدولـــة	١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ معدل النمو السنوي	١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ معدل النمو السنوي
الكويت	٥,٨	٨,٥
البحرين	٩,٠	١٢,٧
قطـر	٩,٩	٨,١
الامارات العربية المتحدة	٢٢,٨	١٠,٢
سلطنة عمان	٢٠,٩	٥,٩
المعدل الاجمالي	١٣,٠	٨,٠

المصدر : حسن خياط ، ١٩٨٢ جدول ٢٤

وعلى كل فان مدة الاقامة نظرا للتركيبة المتباينة للمهاجرين وعلى اساس الجنسية او المهنة او طبيعة العمل (كالخبراء مثلا) فان مدة الاقامة تختلف تبعا لهذه المجموعات ، فقد تبين من الدراسات والاحصاءات[٣٠] ان اقامة العمال المصريين غير المهرة والعمال من البلاد العربية الاخرى ليست طويلة وتتراوح بين سنة وثلاث سنوات فمتوسط مدة اقامة المهاجر العربي اذا هي خمس سنوات كما ان متوسط اقامة المهاجر الاسيوي في قطاع البناء والتشييد قصيرة وترتبط بالمشروع حسب نظام عقود المقاولات الجديدة . وهذه الخصائص تحد كثيرا من قياس ومفهوم الهجرة المعاكسة الى دول الخليج العربية . فهذا الاختلاف في مدة الاقامة مع تطور نمو المهاجرين يعني ان هناك عملية احلال للمهاجرين وبخاصة في قطاع العمال غير المهرة وقطاع عمال البناء والتشييد وكذلك بالنسبة لقطاع المدرسين واساتذة الجامعة والمعاهد والذين يرتبط عملهم بعقود محددة بمدة معينة . ولذلك فالهجرة الى دول الخليج العربية تسير في طريق ذات عدة اتجاهات ويجب ان توضح شيئا مهما في قضية الهجرة الى الدول الخليجية وهي التعامل مع مجموعة من المهاجرين بشكل منفرد وهي المجموعة الفلسطينية ، فالفلسطينيون في هذه الدول كما في دول اخرى لهم اوضاع خاصة بهم نظرا لقضيتهم السياسية وحالتهم الاستثنائية التي تميزهم عن غيرهم من المهاجرين بجميع الخصائص الاجتماعية والاقتصادية .

فالفلسطينيون يختلفون عن المهاجرين بمدة الاقامة ، وكذلك في خصائصهم الاجتماعية مثل متوسط حجم الاسرة والخصوبة والاعالة والزيادة الطبيعية . وتلعب الخصائص الاقتصادية مثل الانفاق والادخار والتحويلات النقدية دورا في الاختلاف بين المهاجرين ، ولذلك فان المهاجرين الى دول الخليج العربية يتميزون باتجاهات مختلفة بحسب المجموعات الجنسية وهذا من خصائص الهجرة بشكل عام . فكما هو معروف ان اسباب وعوامل الهجرة متعددة وكذلك سمات الهجرة تتعدد وملامحها تتمايز من المستوى الفردي الى المستوى الجماعي ولكن الشيء الذي يميز الهجرة الى دول

(٣٠) عبد الرسول علي الموسى ، قضايا في التنمية ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ٦٠ - ٦١ .

الخليج العربية هو التعدد الهائل لجنسيات المهاجرين والذين يصلون مثلا في الكويت الى اكثر من مائة جنسية تتعدد مصادرها الجغرافية من المناطق الحدودية مثل العراق وايران والسعودية الى اقصى مناطق الارض مثل الفلبين واليابان والولايات المتحدة الامريكية ويتبع هذه التعددية في الجنسية تعددية في اللغات والثقافات والعادات والقيم ومستوى الانتاجية واتجاهات تطويرها .

اضافة الى التفوق العددي الاجمالي للمهاجرين على عدد السكان المحليين . وهذا بحد ذاته يشكل عاملا مهما في عملية التعامل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي مما يفرض على السكان المحليين ان يتعاملوا مع هذه التعددية الهائلة في كل العناصر التي ذكرناها . فالانسان عندما يسير في الشارع في هذه الدول ، يلاحظ بشكل واضح الاقلية في الزي الوطني واللهجة التي يسمعها . ويلفت نظره المحلات التي تعرض احدث المبتكرات وانواع البضاعة الجديدة قبل ان تصل الى بلدان اقرب لها جغرافيا كما يلاحظ المرء تغييرا سريعا في دول الخليج العربية ، من المطاعم التي تقدم الوجبات السريعة الى الازياء التي تعرض في ارقى عواصم العالم .

اما من ناحية المواد الغذائية فان المحلات في دول الخليج العربية تقدم كل المواد الغذائية التي تخطر على بـال الانسان .

كل هذا يجده المرء مرتبطا بالهجرة والنفط . فدول الخليج العربية لم تفتح ابوابها واسعة على العالم الخارجي الا منذ ما يقارب ثلاثين سنة بمقارنة بما قبله من حياة بسيطة تسيطر عليها تقاليد المجتمع المنغلق على نفسه والذي يعيش على بقعة صغيرة من الارض تعانق مياه خليج صغير لا يشترك به مع دول اجنبية غير واحدة وهي ايران .

كذلك ادت هذه التعددية الهائلة في كل العناصر المذكورة الى بروز قضايا اجتماعية واقتصادية ، فهناك العزلة الاجتماعية بين السكان المحليين والمهاجرين (٣١) وعزلة اجتماعية بين المجموعات المختلفة للمهاجرين وقد ادت هذه التعددية في العناصر ايضا الى ممارسات سلبية في العمل يتميز بالتعامل المتأثر بالجنسية (٣٢) ففي مؤتمر صحفي لوزير الصحة الكويتي اشار الى ان الاطباء يعاملون المهاجرين من جنسيتهم معاملة خاصة وبذلك فقد برزت ظاهرة سلبية من ظواهر الهجرة وهي التميز الجنسي في التعامل واذا كانت هذه القضية قد طرحت عن طريق مسئول كبير في احدى دول الخليج العربية فلا يمكن ان نعتبرها قضية فردية او انها تقتصر على التعامل التميزي بين الاطباء فقط ، ان القضية التي يطرحها المهاجرون بشكل عام في دول الخليج العربية هي التعامل المميز للمواطنين والذي زاد من هوة العزلة الاجتماعية وحتى في ابسط قضايا التعامل مثل اخلاء مبنى استملكته الدولة ، فالجهات الرسمية تعطي المواطن مهلة ثلاثة شهور لاخلاء المبنى بينما المهاجر يحصل على مهلة شهر واحد فقط . وكذلك بالنسبة للحصول على اجازة قيادة سيارة فان هناك قيودا كثيرة على حصول المهاجر على هذه الاجازة بينما ليست كذلك بالنسبة للمواطن .

لذا فعملية الاستيعاب الاجتماعي والاقتصادي للمهاجرين في هذه الدول غير ممكنة نظرا للاسباب التي ذكرناها قبل قليل كما ان هناك عوامل اخرى تجعل من عملية الاستيعاب غير ممكنة ايضا نظرا لنفس الاسباب فمع ان الغالبية الكبرى من المهاجرين هم من العرب الا ان التأثير المباشر للمهاجرين الاجانب هو اكثر وضوحا فعندما نعرف ان

(٣١) فيصل السالم واحمد الظاهر ، العمالة في دول الخليج العربية ، دات السلاسل الكويت ، بدون تاريخ ، ص ١٣٨ .
(٣٢) في مقابلة صحفية لوزير الصحة الكويتي ، نشرت في الصحف المحلية .

متوسط عدد الخدم في الاسرة الكويتية هي ٢,٥ خادم[٣٣] واذا ما عرفنا ان الاغلبية المطلقة بين هؤلاء الخدم هم من غير العرب فلنا ان نعرف مدى التأثير الاجتماعي الذي يحدث للمجتمع المحلي وبخاصة على الاطفال ، فقد لاحظت دراسة عن المربيات في الكويت على الاطفال ان دور المربية دور سلبي في تأثيره على طريقة التعامل واللغة والعادات ، ويكفي ان نعرف ان المربية التي لا تتقن اللغة العربية وتحمل عادات وقيما وتقاليد تختلف تماما عن تلك التي تنتمي للمجتمع المحلي . يكفي ان نعرف انها تطعم الطفل وتنام معه وتحتضنه طوال الوقت لتعرف عمق المشكلة . اذا فخصائص الهجرة الى هذه الدول لا تسمح الا لتذويب الملامح المختلفة للمجتمع المحلي وايجاد خليط من الملامح من الصعب اعطاء مجموعة من المهاجرين دورا رئيسا فيها واذا جاز لنا ان نقول هذا فانه في ضوء جغرافية الكويت الطبيعية فانها لا تسمح بتشكيل منفرد لشخصية مجتمع (اقليمي) ولنا ان نترك للمستقبل ان يقرر على ضوء المعطيات التي سوف يترسخ في رسم الشخصية المستقبلة لهذا المجتمع . وهذا يعتمد على مدى استمرارية الهجرة وقوة الدفع فيها وخصائصها التي ذكرناها . واذا كانت للقوانين المختلفة ، مثل قانون الجنسية وقانون التملك وقانون الانتخابات النيابية وقانون الانتخابات للمؤسسات الاخرى ، ان القدرة على حفظ الهوية القومية للمجتمع المحلي ، فان احتكاك مجموعات متعددة من المهاجرين مع المجموعة المحلية في مجالات متعددة اضافة الى التعامل اليومي المستمر لا يمكن الا ان يحدث تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية في كل المجموعات المختلطة . وفي النهاية لنا ان نذكر عاملا آخر في موضوع الهجرة الى دول الخليج العربية وهو ان ما يشار في الادبيات التي تتعلق بالتنمية وهو موضوع الساعة في الربع الاخير من القرن العشرين . وهو التركيز على قضية التنمية الذاتية ، اي التنمية التي تعتمد على القدرات الذاتية للمجتمع والدولة . ولقد اثار المعهد العربي للتخطيط في الكويت هذا الموضوع في موسمه الثاني ١٩٨٦/٨٥ عندما خصصه لندوة عن التنمية العربية المعتمدة على الذات والتي اكد فيها الباحثون في هذه الندوة على هدف واحد وهو ان التنمية المعتمدة على الذات هي الطريق المأمون للوصول الى تنمية قادرة على الاستمرار بعيدة عن الهزات والتي تأتي في مقدمتها استقرار العمالة وتفاعلها في عملية التنمية .

ودول الخليج العربية تواجه هذا المأزق الذي يتمثل في ان المتوسط (٦٠٪) من قواها العاملة والتي تتحمل عبء عملية التنمية هي من غير المواطنين . وان الاهمية في عملية التنمية تكمن في استمرارية عناصر التنمية وتطويرها المستمر ورفع اداء العاملين فيها والتطوير المستمر للانتاجية ، وهذا مما لا يتوفر في هذه الدول ففي خضم عملية التقشف التي تمر بها دول الخليج العربية نتيجة للانخفاض الحاد في اسعار النفط والذي تبعه انخفاض حاد في عوائده وبالتالي ايضا في مداخيل هذه الدول وقد انهيت اعمال مجموعة من العاملين في اجهزة الدول من المهاجرين الذين امضوا مدة طويلة ، وبالتالي فان قضية الاستمرارية والاستفادة من تطوير الاداء لهذه العمالة غير ممكن في ضوء الهزات التي يتعرض لها سوق العمل في دول الخليج العربية .

والخلاصة في هذا القول ان الهجرة الى دول الخليج العربية تتميز عن غيرها من الهجرات بانها وفي ظل الظروف التي ذكرناها تشكل عمودا رئيسيا في عملية البناء الاقتصادي ، وفي استمرارية هذا البناء في مستوى يحفظ لهذه الدول مستوى مستقرا واضعاف قوى الارتباط بينه وبين النفط وعوائده المتزامن للمهاجرين .

---

(٣٣) من دراسة قامت بها وزارة التخطيط سنة ١٩٨٣ .

، كما ان الهجرة الى هذه الدول بزخمها وحجمهـا اشتركت مـع المجتمع المحلي في عملية النسيـج الاجتماعي والاقتصادي لهذه الدول ولذلك فان قضية الهجرة الى هذه الدول اضافة الى اهميته وجاذبيته للباحث فانه معقد وخطير لهذا المجتمع الصغير .

دول المغرب العربي :

دول المغرب العربي تمثل حالة نقيضة لحالة الدول العربية الخليجية فقد اوضحت الدراسة ان دول الخليج العربية تمثل دولا مستقبلة للهجرة دولا فتحت ابوابها لهجرة معقدة دولا تمثل محطة استقبال للمهاجرين ، سنرى في هذه الدراسة ان دول المغرب العربي تمثل محطة ارسال للمهاجرين فهاتان المنطقتان العربيتان تلعبان في الهجـرة دورا كدورهـا في الجغرافيا فدول الخليج العربية تقع في اقصى جنوب غرب الوطن العربي تطل على خليج ضيق يتصف بقسوة البيئة الطبيعية ، قست عليها البيئة الطبيعية في المناخ والسطح والجيولوجيا ، فكانت فقيرة في السكان ، فقيـرة في الموارد الطبيعية في باطن الارض عدا النفط الذي اعلن عن مولده متأخرا ـ اي في نهاية الثلاثينات ـ فقيرة ايضا في عطائها النباتي واخيرا فقيرة في مواردها المائية الساقطة والجارية والمخزنة .

اما دول المغرب العربي فهي تقع في اقليم مناخي معتدل وهو مناخ البحر المتوسط تطل على بحر يجمع حضارات وثقافات واقتصاديات غنية مختلفة تتمتع نسبة الى دول الخليج العربية بغطاء نباتي غني وتستقبل امطارا غزيرة تحفظ اخضرار الارض وتحتضن عددا من السكان قاموا بدور اقتصادي نشط على اراضيها او عبر حدودها وتحتفظ هذه الارض في باطنها بمصادر اقتصادية تعضد اقتصاديات هذه الدول كالفوسفات في المملكة المغربية والفحم والحديد والنفط في الجزائر .

الا ان كل ما قلناه عن المغرب العربي يدخل في العموميات فليس المجال متاحا للدخول بشكل مفصل في جغرافية هذه المنطقة . ويمكن القول ان فترة الاستعمار الطويلة التي تعرضت لها هذه الدول تسببت بشكل رئيسي في تنمية هذه الدول وتطوير مواردها وتأهيل قواها الاقتصادية والبشرية . فتوجيه اقتصاديات هذه الدول لخدمة الدول المستعمرة ادى الى سيطرة قطاع الزراعة على بقية القطاعات وتطورت العلاقة الاستعمارية لتصبح على محطتي الخط في كلتا الحالتين لمصلحة الدول المستعمرة فالدول المستعمرة وفي مقدمتها فرنسا التي احتلت الجزائر مائة وثلاثين سنة ، استغلت الموارد البشرية لدول المغرب العربي على ارضها ومن هنا اصبحت هناك قضية بين دول المغرب العـربي والدول الاوروبيـة الاستعمارية مثل ايطاليا وفرنسا واسبانيا حتى بعد الاستقلال وهي قضية الهجرة ، فقضية الهجرة في دول المغرب العربي ارتبطت بعامل جغرافي هو عامل تاريخي ، وهنا تبرز لنا المقولة التي تثير دائما الجدل بين الجغرافيين وطلاب التاريخ حيث للجغرافيين دائما مقولة مفادها ان الجغرافيا توجه التاريخ ، فعلاقة المغرب العربي بدول جنوب اوروبا علاقة جغرافية وهي التي ادت الى احتلال واستعمار بعض الدول الاوروبية لدول المغرب العربي الى درجة ان فرنسا كانت تعتبر الجزائر جزءا منها ولم تتخلص من ذلك الا بثورة مسلحة شعبية استمرت سبع سنوات .

وهجرة سكان المغرب العربي الى اوروبا هي هجرة وراء فرص العمل بعد ان دفعتهم سيطرة الاوروبيين على الاراضي الخصبة الى الهجرة والى المناطق الفقيرة او الصحراوية وبالتالي بدأوا يبحثون عن الرزق خارج حدود ارضهم ونظرا لطبيعة العلاقة السياسية والاقتصادية مع اوروبا كدول مستعمرة تمكن هؤلاء المهاجرون من الاختلاط بهم واتقان

اللغات الاوروبية . وقد دخلت عوامل متعددة في عمل المغاربة في اوروبا قبل قيام الحرب العالمية الاولى والثانية واهم هذه العوامل حاجة هذه الدول للعمل في سد احتياجات الحرب(٣٤) في عام ١٩٨٠ كان عدد العمال من المغرب العربي (تونس ـ الجزائر ـ المملكة المغربية) يقدر بحوالي مليون عامل بينهم ٩١٠,٠٠٠ في فرنسا . ويقدر عدد المهاجرين من المغرب العربي في فرنسا مليون وخمسمائة الف نسمة (جدول رقم ٧) .

جدول رقم (٧)

المهاجرون من المغرب العربي في اوروبا عام ١٩٨٠

	مجموع العمال في اوروبا	مجموع العمال في فرنسا	جملة المهاجرين في فرنسا
الجزائريون	٦٩٠,٠٠٠	٦٨٠,٠٠٠	١,٠١٥,٠٠٠
التونسيون	٢٣٠,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
المملكة المغربية	٩٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠	٢٠٥,٠٠٠
جملة	١,٠١٠,٠٠٠	٩١٠,٠٠٠	١,٥٢٠,٠٠٠

المصدر : lawless, r. , 1982, table no. 1

ويشكل مهاجرو المغرب العربي ٩٨٪ من جملة المهاجرين العرب في فرنسا وخارج فرنسا كما يوجد حوالي ٨٠,٠٠٠ مغربي في بلجيكا و ٥٠,٠٠٠ مغربي ايضا في اسبانيا .

ان الذي يهمنا في دراستنا هذه عن المغرب هو الهجرة المعاكسة اي عودة ابناء المغرب الى الدول الثلاث التي ذكرناها الى وطنهم وتشكل هذه الهجرة المعاكسة هما من هموم دول المغرب العربي على اساس ان هؤلاء المهاجرين كانوا يساهمون في نمو بلادهم في الدخل القومي ، واهم من هذا هو الحد من البطالة التي تعانيها هذه الدول والتي تحاول جاهدة خلق فرص عمل وسط صعوبات اقتصادية وان اكثر الدول معاناة من هذه القضية هي تونس حتى ان قضية الهجرة فيها تدخل ضمن اهتمامات الخطط الانمائية فمثلا في الخطة الخمسية الانمائية الرابعة ، تضمنت الخطة تشجيع الهجرة الى الخارج ، ويقدر عدد المهاجرين في هذا المشروع بحوالي ٦٠٠,٠٠٠ مهاجر ، وقد انشئت وكالة تونسية لتنظيم هجرة هؤلاء العمال وايجاد فرص عمل لهم قبل مغادرتهم(٣٥) . وقد قدر عدد الذين عادوا والمقدر عودتهم حوالي ٢٠,٠٠٠ نسمة . لقد تزامنت عدة عوامل للعمل معا على خلق مشكلة الهجة المعاكسة ، فهناك الازمة الاقتصادية التي تواجه العالم ومنها اوروبا والتي اضطرتها الى تقليص عدد العمال وبخاصة في القطاعات المتقدمة في السلم المهني والتي يتركز فيها العمال المغاربة كما ان دخول اسبانيا والبرتغال السوق الاوروبية المشتركة احدث توجها عند الاوروبيين بتشغيل عمالتها الاوروبية قبل كل شيء . كما ان قبول العمال المغاربة بأجور متدنية عن تلك التي تقبل بها الاوروبيون ادى الى قلاقل ومشاكل بين العمال المغاربة والاوروبيين .

---

(٣٤) Lawless, R. and others "Return Migration to the Maghrib : People and Policies", Arab Research Centre, London, Paper No. 10, 1982, P. O.

(٣٥) Ibid, 1982, P. 13.

وقد يعزى وقف الهجرة المغربية الى اوروبا « وخاصة فرنسا » بل والمطالبة بعودة المهاجرين الى زيادة اسعار البترول في منتصف السبعينات ، هذه الزيادة اثرت على الاقتصاد الاوروبي وعلى فرص العمل وادت الى خروج عدد من المؤسسات الاقتصادية من السوق وزادت البطالة في اوروبا(٣٦) . وقد اتخذت فرنسا قرارا بوقف الهجرة عام ١٩٧٤م . ولذلك تأثرت الهجرة المغربية وبدأت تظهر مجموعة من المشاكل .

ولقد تعرضت العمالة المهاجرة المغربية للبطالة ، فقد تعرض ١٤٪ من العمالة المهاجرة للبطالة في حين كانت النسبة التي تعرضت للبطالة بين الفرنسيين ٨,٤٪ وكانت العمالة الجزائرية من بين العمالة الاجنبية التي تعرضت بشدة للبطالة حيث تعرض ٢١,٩٪ من عمالتها للبطالة(٣٧) .

كل هذا ادى الى اثارة مشكلة المهاجرين المغاربة وبرزت مشكلة الهجرة المعاكسة والتي كانت اول خطوة قامت بها الجزائر هي وقف الهجرة من الجزائر الى اوروبا . وقررت الجزائر منذ ذلك الحين البدء في خطة لاستيعاب المهاجرين الجزائريين في المجتمع الام . واشراكهم في ادارة العجلة الاقتصادية في الجزائر ، ومع كل المحاولات في معالجة هذا الامر عن طريق عقد اتفاقيات بين الجزائر وفرنسا لتنظيم عملية الهجرة الا ان عملية الهجرة المعاكسة اصبحت مستمرة بعد ان صدرت قوانين وانظمة في فرنسا تحد كثيرا من مميزات كان يستفيد منها المهاجر الجزائري . لقد كانت الحملة الموجهة ضد المهاجرين الجزائريين او المغاربة بشكل عام ذات شقين ، الشق الاول هو تضييق الخناق على المهاجرين المغاربة والشق الثاني ترغيب العمال الفرنسيين في الانخراط في المهن التي يشغلها المغاربة والتي كان يرفضها الاوروبيون . ان كل المؤشرات تؤكد على تصميم الدول الاوروبية على وقف الهجرة اليها ونعرض هنا بعض قوانين الاقامة في فرنسا(٣٨) ففي هذه القوانين شروط تقضي بالطرد الفوري للاجنبي في الحالات التالية :ـ

١ ـ عندما يهدد وجوده الامن العام والمالية العمومية .

٢ ـ عندما يحمل بطاقة اقامة مزورة او مزيفة او مشوهة او موضوعة باسم آخر غير اسمه ، او يمكث داخل البلاد بعد رفض السلطات المسئولة تحديد اقامته ، ويشمل مشاريع القوانين هذه تجديد بطاقات العمل للمقيمين بصفة عادية وذلك بعد اجراء اختبار شخصي على ضوء حالته الفردية والتوزيع الجغرافي للمهاجرين والذي يتحدد سنويا تبعا لوضع الاستخدام واخيرا هناك حالتان تستوجبان سحب رخصة العمل من العامل المهاجر ، وهما :

١ ـ عندما يكون الاجنبي عاطلا عن العمل لفترة تزيد عن ستة اشهر .

٢ ـ عندما يلغي عقد عمله بسبب رجوعه متأخرا من اجازته

(٣٦) Ibid, 1982, P. 17.
(٣٧) Serggeldin, I., and others, "some issues related to Labour Migration in thr Middle East and North Africa", The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4, P. 615
(٣٨) Mered, weekley Magazine, London, February 1986, P. 10.

بل اكثر من ذلك فقد قامت فرنسا بتقديم مشاريع لمساعدة المهاجرين على العودة لاوطانهم وعرضتهم للبطالة حتى يتاح لها فرص تطبيق القوانين الجديدة .

ان هذه الاجراءات وهذا الدافع لهجرة معاكسة عرض دول المغرب العربي لمشكلات اقتصادية في الوقت الذي تعاني من ازدياد البطالة وانخفاض فرص العمل . ان معظم المهاجرين من دول المغرب العربي الى اوروبا والذين غادروا اوروبا او يخططون لذلك يتجهون الى بلدهم الام وليس الى جهة اخرى . وهذا ما يزيد المشكلة تعقيدا بالنسبة لدول المغرب العربية .

تتصف العمالة المغربية في فرنسا بانها تتكون غالبا من العمالة المتدنية (اي العمالة العادية) فهي تشكل طبقتي العمالة المهاجرة وغير المهاجرة . بالنسبة للجزائريين فهي تشكل ٧٣٪ وبين المغاربة حوالي ٧٠٪ وبين التونسيين تشكل ٦٨٪ والعمالة المغربية تعمل في الغالب في قطاع البناء والتشييد والصناعات الثقيلة . اما في قطاع الزراعة فهم يشكلون نسبة قليلة جدا بين العمالة المغربية ككل ، وقد كانت نسبة التونسيين العاملين بالزراعة ٣٠٪ والمغاربة ١٣٪ وهي أعلاها اما نسبة الجزائريين فتشكل اقل نسبة وهي ١٪[٣٩] .

ويشكل مهاجروا المملكة المغربية العمالة الاقل مهارة يعقبها مهاجروا دول المغرب العربي وهؤلاء يمارسون مهنا تعتبر من ادنى السلم المهني . ويعتبرون اقل عددا من مهاجري تونس والجزائر وبذلك فهم لا يشكلون مشكلة بارزة كما في حالة الدولتين المغربيتين الاخريين . اذا فالهجرة لدول المغرب العربي المعاكسة من اوروبا حدثت وكانها هجرة قسرية او على الاقل تحكمت فيها عوامل الطرد . وليس لعوامل الجذب اي دور فالصراع بين العمالة الاوروبية والمغربية وصل الى حد استخدام العنف ضد المغاربة واصبح المهاجرون المغاربة غير مرغوب فيهم وتزامن هذا العامل مع تشريع قوانين تحد من الهجرة المغربية بل انها تعمل على التخلص منها .

ان عدد التونسيين في فرنسا ـ هو كما قلنا في البداية ـ اقل من المهاجرين الجزائريين ، فقد قدر عدد التونسيين المهاجرين الى فرنسا بحوالي ٥٢,٠٠٠ الف عام ١٩٦٥ وقد ارتفع عددهم الى ٩٧,٠٠٠ الف عام ١٩٧٠ واستمروا في التزايد الى ان وصل عددهم الى ١٧٤,٠٠٠ ألف مهاجر عام ١٩٧٥ ثم بلغ عددهم حوالي ٢٠٠,٠٠٠ ألف عام ١٩٧٩ . هذا التزايد لا يعزى الى تزايد حركة الهجرة من تونس الى فرنسا فقط وانما يعزى ايضا الى زيادة طبيعية وانضمام الاسر الى عائلها من جهة اخرى ويختلف المهاجرون التونسيون عن باقي مهاجري دول المغرب العربي بان بقاءهم في بلد المهجر لا تستمر مدته طويلا وقد قدر متوسط البقاء ما بين ٣ ـ ٤ سنوات . وفي دراسة عن المهاجرين التونسيين ابدى ٧٧٪ منهم عدم عزمهم على البقاء بشكل دائم في فرنسا[٤٠]

---

(٣٩) منظمة العمل العربية ، مكتب العمل العربي ، ١٩٨٠ ، ص٨ .
(٤٠) Meed, 1986, P. 10.

وقد تبين ان السبب في ذلك يعود الى بساطة الاهداف التي يريد ان يحققها المهاجر التونسي مثل بناء بيت او تأسيس عمل خاص في بلده . ومع ذلك فان الحكومة التونسية تتخذ اجراءات من شأنها تخير مواطنيها في البقاء مدة اطول في بلد المهجر ويتمثل هذا في القانون الذي صدر عام ١٩٨٠ والذي يسمح للمهاجر التونسي باستيراد بضائع معينة مثل السيارات والثلاجات وغيرها بشرط ان يمضي اكثر من سنتين في بلد المهجر كما ان الدولة تساعده في الحصول على مسكن في نفس الشروط . ولقد قدر حجم الهجرة المعاكسة بحوالي ١٪ سنويا من مجموع المهاجرين في فترة معينة وتتمثل هذه النسبة بحوالي ٣,٠٠٠ الى ٤,٠٠٠ آلاف عائد سنوى . الا ان الهجرة التونسية على تواضع حجمها واجهت مشكلات لم تواجهها بقية الهجرات في دول المغرب العربي ، فبالاضافة الى مواجهته بشكل مشترك مع المهاجرين الجزائريين لمضايقات واجراءات رسمية من قبل السلطات الفرنسية دفعنهم للعودة الى بلدهم . نقول ان الهجرة التونسية واجهت مشكلة العودة الفوية من ليبيا في عامي ١٩٧٤ و ١٩٨٦ . وقد عانت تونس من العودة الجماعية او ربما يسمى بالهجرة المعاكسة ، اجتماعيا واقتصاديا فقد واجهت مشكلة ايجاد فرص عمل هؤلاء العائدين وكذلك مشكلة الاسكان والخدمات الاخرى .

اما في الجزائر فقد بدأت الهجرة المعاكسة عشية استقلال الجزائر ، وقد عالجت معاهدة الاستقلال والتي سميت باتفاقية ايفيان مشكلة الهجرة الجزائرية في فرنسا ولذلك فقد كانت من ضمن اولويات السياسة الداخلية للجزائر المستقلة مواجهة عودة الجزائريين . ان الجزائر وهي التي كانت تجمع شتات نفسها بعد معركة الاستقلال وبعد ان ترك الفرنسيون الاراضي الزراعية والمصانع بدون خطوات تمهيدية مع الوطنية الجزائرية اي انهم تركوا الاقتصادالجزائري في موقف حرج ففي هذا الوقت واجهت الجزائر مشكلات معقدة نتيجة للهجرة المعاكسة ومن هذه المشكلات ان الصناعة الوطنية كانت في مراحلها الاولية ولذلك فان عودة عمالة جزائرية مدربة تدريبا عاليا في مجالات صناعية رفيعة المستوى بالنسبة للصناعة الوليدة بل اصبحت مشكلة بحد ذاتها اضافة الى مشكلة الاسكان والخدمات الاخرى والبطالة . ولكن القضية بالنسبة للجزائريين كانت ذات بعدين ، البعد الاول وطني على اساس اهمية استعادة الجزائر كفاءة ابنائها في الخارج وكذلك حفاظا على كرامة مواطنيها الذين يتعرضون لمعاملة سيئة والبعد الثاني يتمثل في اتجاه فرنسا وبقية اوروبا للتخلص من المهاجرين الجزائريين . فبالاضافة الى الاجراءات القسرية كانت هناك اتفاقات مع فرنسا تحتم عودة الجزائريين وذلك عن طريق تقديم من فرنسا المساعدات المادية للعائدين وهذا وقد حددت مدة تلك الاتفاقات بثلاث سنوات انتهت عام ١٩٨٣[٤١] وكان هدف الاتفاقية هو عودة ٣٥,٠٠٠ ألف مهاجر جزائري سنويا ولكن ما تحقق بالعمل هو اقل من ذلك فقد انخفض العدد الى حوالي ٢٠,٠٠٠ ألف بمن فيهم من عاد خارج اطار الاتفاقية .

ان معاناة المهاجرين الجزائريين ربما تكون اقصى من تلك المتعلقة بالمهاجرين من بقية دول المغرب العربي ، فالمهاجرون الجزائريون امضوا فترة طويلة في فرنسا وتكونت اسر بالكامل عن طريق الزيادة الطبيعية وترعرع الجزائريون هناك منذ ولادتهم وقد ادى هذا الى مشاكل اجتماعية تتمثل بصعوبة التكيف مع الحياة الاجتماعية في الجزائر وطول مدة

(٤١) Lawless, R., and others, 1982, P. 22.

عملية التفاعل والاندماج الاجتماعي اضافة الى المشاكل الاقتصادية الاخرى مثل العمل والانفاق والادخار . ومع ذلك فان اجراءات معينة اتخذت في الجزائر حيال المهاجرين تتراوح بين التحفيز مثل تسهيل الاستيراد لبعض البضائع وتوفير المسكن وفرص العمل للمهاجر العائد الذي امضى ثلاث سنوات في فرنسا وبين فرض ضريبة على الدخل في اوروبا ولتوفيرها في المصارف الجزائرية .

اما في حالة المملكة المغربية فان الهجرة لها مميزات تختلف بعض الشيء عن هجرة التونسيين والجزائريين واول ما تتميز به الهجرة المغربية هي انها في الغالب هجرة في اتجاه واحد لفترة طويلة فمعظم المهاجرين من المغرب يعودون بعد ان يصلوا سن التقاعد[٤٢] وما يميزها ايضا انه لا توجد خطط او برامج حكومية تتعلق بعودة مهاجريها من اوروبا ولذلك فليست هناك اجراءات لتحفيز المهاجرين للعودة واقامة مشاريع لاستيعابهم في مجتمع الام والامر الثالث الذي يميز الهجرة المغربية انها تمارس هجرة موسمية في اوروبا للعمل في النشاط الزراعي ويقضي هؤلاء المهاجرون كل سنة فترة تقل قليلا عن ثلاثة اشهر وهي الفترة التي يسمح بها للسائح في اوروبا ويتراوح عدد المهاجرين الموسميين بين ٥,٠٠٠ آلاف و ١٢,٠٠٠ ألف مهاجر بين ١٩٧٥ و ١٩٧٩ وعلى العموم فيقدر عدد المهاجرين من المغرب الى اوروبا بحوالي ٢٣٠,٠٠٠ ألف في فرنسا وحدها وقد ارتفع عدد المهاجرين من المغرب من ١٤٢,٠٠٠ ألف الى ١٥٢,٠٠٠ ألف عام ١٩٧٧ وعن الهجرة المعاكسة من المهاجرين من المغرب قلنا منذ البداية انها ضعيفة ويعود ذلك الى تدني دخول المغاربة في الهجرة بسبب ممارستهم لمهن متدنية وهذا لا يساعدهم على تحقيق اهدافهم التي هاجروا من اجلها ومع ان المهاجرين من المغرب لا يفكرون في البقاء بشكل دائم بالمهجر الا ان اقامتهم تطول هناك [٤٣] لعدة سنوات وليس هنا احصاءات عن عدد العائدين من المهجر الى وطنهم Lawles[٤٤] ان هناك تعتيم على هذه المعلومات الا انه يقول في مكان آخر انه ربما يكون عدد العائدين سنويا حوالي ١٠,٠٠٠ آلاف مهاجر . ويعتمد المغرب على عوائد المهاجرين ومدخراتهم في اقتصاده الوطني وقد قدرت قيمة التحويلات بحوالى ٤٢٨ مليون جنيه استرليني عام ١٩٧٩ الا ان هذه التحويلات لا تستخدم في تمويل الاستمارات في الانشطة الانتاجية مع عدم اغفال اهمية التحويلات على المستوى القومي والفردي كذلك وعلى العموم فان المغرب لا يستفيد من خبرة مهاجريه وما اكتسبوه من تدريب لان معظم العائدين كما قلنا يعودون وهم في سن التقاعد .

ان المهاجرين المغاربة في اوروبا يمثلون بلا شك مجموعة سكانية تختلف عرقيا وثقافيا عن المجموعة الاوروبية وهذه الخصائص تلعب دورا في مدى تقبل المجتمع المستقبل لهجرة المهاجرين ففي اوروبا مثلا نجد ان الالماني والبلجيكي يواجه مواقف في فرنسا تختلف كثيرا عما يواجهه المهاجر العربي او الافريقي سواء في التعامل اليومي او على مستوى التعامل الرسمي فالمهاجر المغربي يشعر بان لونه هو جنسيته في فرنسا وكما قال احد المغاربة في فرنسا « بوجهي ، ماذا يعني الفرق اذا ما كنت احمل الجنسية الفرنسية ام لا ، فانا اعامل هنا دائما كعربي »[٤٥]

---

(٤٢) Ibid, 1982, P. 31.

(٤٣) Ibid, 1982, P. 31.

(٤٤) Ibid, 1982, P. 31.

(٤٥) Meed, 1986, P. 10.

ولهذا فان قضية هجرة العودة أو الهجرة المعاكسة هي الشيء الحتمي بالنسبة للهجرة المغربية ففي دراسة عن الشباب من شمال أفريقيا (المغرب) أوضحت ٧٠٪ من العينة المنتقاة انهم يرغبون في البقاء في فرنسا ولكن هناك ٢٥٪ فقط يرغبون بحمل الجنسية الفرنسية(٤٦) . والحقيقة أن أسباب الهجرة تبقى هي العامل الذي يحدد مدة بقاء المهاجر أو عودته فالظروف الاقتصادية الصعبة وانتشار البطالة في المغرب العربي من الأسباب التي تدفع بالمغاربة للهجرة الى فرنسا أما على الجانب الآخر فان الظروف التي يعيشها المهاجر المغربي تؤثر أيضاً في بقائه أو عودته فهناك دراسة(٤٧) عن أحوال المهاجرين المغاربة بينت أن هناك تفرقة بالأجور والحقوق الأخرى مثل السكن وتقلد المناصب كذلك هناك مواجهة اجتماعية بين الفرنسيين والمهاجرين المغاربة وصلت الى درجة العنف ، وقد أوضحت الدراسة ذاتها أن الأسباب الاقتصادية في المغرب العربي كانت وراء استمرارية بقاء حوالي ٨٠٪ في فرنسا لمدة أكثر من عشر سنوات .

بعد أن بينت الدراسة مفهوم الهجرة والهجرة المعاكسة استخدمت منطقة الخليج العربي كنموذج للمنطقة المستقبلية للهجرة واستخدمت دول المغرب العربي كنموذج للمنطقة المصدرة للهجرة في نفس الوقت التي تتمثل منطقة مستقبلة للهجرة المعاكسة وقد أوضحت الدراسة كذلك عوامل الجذب والطرد لنوعي الهجرة والمشكلات المحيطة بها .

تنتقل الآن الدراسة لنموذج آخر وهو الهجرة النوعية والتي تتميز بخصائص معينة ونطلق عليها عام هجرة العقول أو الكفاءات العربية الى الدول المتقدمة ونأخذ بريطانيا كنموذج لهذه الهجرة .

الهجرة العربية الى المملكة المتحدة* :

ترجع الهجرة العربية الى المملكة المتحدة الى أكثر من قرن ولكنها اتخذت أبعاداً مختلفة وتبلورت في السنوات الأخيرة . فقد بدأت الهجرة الى المملكة المتحدة على مستوى الأفراد أو مجموعات صغيرة جداً ارتبطت بأنشطة محدودة مثل النشاط البحري في القرن التاسع عشر ويمثل اليمنيون والصوماليون الرواد الأوائل للمهاجرين العرب وقد كان نشاط هؤلاء المهاجرين يقوم على العمل على السفن البريطانية التي كانت تقوم بنشاط بحري بين بريطانيا والمنطقة العربية والمحيط الهندي . أما المجموعة الثانية والتي تلت المجموعة الأولى فقد كانت تضم رجال أعمال قاموا بأنشطة تجارية ابان إزدهار صناعة الغزل والنسيج في مدينة مانشستر البريطانية وكان الرواد الأوائل من هؤلاء هم من السوريين واللبنانيين وتلتهم مجموعة ثالثة من اليمن وقد عمل المهاجرون من اليمن في الزراعة وفي المؤسسات الصغيرة في السهل الأوسط البريطاني ـ كانت هذه الهجرات صغيرة لا يتعدى عدد أفرادها ٦٠ ألف مهاجر ينخفض هذا العدد ويرتفع

(٤٦) Ibid, P. 10.

(٤٧) The Middle East Magazin, London October, 1984, PP. 15-19.

* يعتمد هذا الجزء من الدراسة على دراسة عن الأيدي العاملة العربية في المملكة المتحدة زودت للباحث بواسطة جامعة لندن ، بدون تاريخ ، ومؤلف ، للاطلاع راجع الباحث

بحسب الحالة الاقتصادية في بريطانيا ولقد استقر العدد في نهاية ١٩٤٥ عند ١٢,٠٠٠ ألف مهاجر عربي معظمهم من اليمن والصومال وسوريا .

لقد بدأت ملامح هذه الهجرة تتبلور ملامحها وخصائصها في بداية السبعينات وأصبحت الهجرة العربية في بريطانيا تشتمل على نوعين رئيسيين من المهاجرين ، يتكون النوع الأول من رجال مال واقتصاد حولوا نشاطهم الاقتصادي الى بريطانيا نتيجة للأوضاع غير المستقرة في المنطقة العربية والمشكلات التي ترتبت على حرب ١٩٦٧ والدمار الذي لحق بلبنان نتيجة للحرب الأهلية . أما النوع الثاني فيتكون من الكفاءات العربية من مهندسين وأطباء وأساتذة الجامعات وفي الحقيقة تعتبر هذه النوعية من المهاجرين خسارة كبيرة للقوى العربية في المنطقة البشرية إضافة الى استنزاف الطاقة المادية فقد قدرت ما أنفقته الدول النامية ومنها معظم الدول العربية على ما يزيد على ٤٠ بليون دولار خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة مقابل تدريب هذه العناصر فقط وهذه العناصر ما زالت تفضل البقاء خارج الوطن كما قدرت الخسارة في الكفاءات العربية وحدها وحتى عام ١٩٧٧ بما يقارب ٢٤,٠٠٠ ألف طبيب بما يماثل ثلث جملة الأطباء العرب و ١٧,٠٠٠ ألف مهندس فيما يعادل حوالي ٩٪ من جملة المهندسين العرب و ٧,٥٠٠ من العاملين في المجالات العلمية ويعادل هذا الرقم ١٢٪ من جملتهم في العالم العربي أما من الناحية المادية فقد قدرت خسارة العالم العربي السنوية نتيجة لهجرة هذه الكفاءات بما يعادل ٤٠٠ مليون دولار .

يقدر عدد المهاجرين العرب في بريطانيا في الوقت الحاضر بحوالي ربع مليون مهاجر جاءوا من إحدى عشرة دولة عربية هي مصر ، لبنان ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، الجمهورية العربية اليمنية ، جمهورية اليمن الديمقراطية ، الأردن وفلسطين . اذا أردنا أن نعرف مدى الخسارة في الكفاءات العربية نأخذ السودان كمثل عندما نعرف أن السودان خسر ما بين ١٩٤٤ ـ ١٩٧٩ حوالي ٦٠٪ من الأطباء و ٥٠٪ من المهندسين و ٢٥٪ من أساتذة الجامعات إن هذه الخسارة في الكفاءات العربية تبين لنا مدى الآثار السلبية للهجرة . تشكل بريطانيا منطقة جلب المهاجرين العرب لعدة عوامل : وجود الجامعات العديدة التي اكتسبت شهرة لاهتمامها بالدراسات المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط والخليج العربي ونتيجة أيضاً للعلاقات التاريخية بين بريطانيا والعالم العربي وتعزو الكفاءات العربية سبب هجرتها الى بريطانيا الى الحرية السياسية والاقتصادية وحرية البحث العلمي والى ما تتمتع به لندن كأحد المراكز الرئيسية التجارية في العالم وبخاصة في مجال البنوك ومؤسسات الاستثمار وعلى كل لا يتطلع معظم المهاجرين العرب في بريطانيا الى الاستقرار النهائي وانهاء علاقتهم بوطنهم الأم ، ولكن هناك نسبة منهم تقيم إقامة دائمة في بريطانيا وهي مقارنة بالعدد الكلي للمهاجرين تشكل نسبة ضئيلة . يوضح لنا جدول رقم (٨) أنه بين عام ١٩٧٦ و ١٩٧٨ حصل ٣,٣٤٤٠ ألف على إقامة دائمة في بريطانيا ويشكل المصريون نسبة كبيرة من هؤلاء (١٥٣٢) ومن المغرب ٧٤٢ ومن العراق ٧٤٩ إما في عام ١٩٧٩ يشير جدول رقم (٩) الى أن ١٧٧٥ مهاجراً حصلوا على إقامة في بريطانيا منهم ١٦٦٣ حصلوا على إقامة دائمة واذا أخذنا مثلاً هجرة الكفاءات العربية في بريطانيا نجد أن ٦٣٥٦ طبيباً عربياً يعمل في بريطانيا ويشكل المصريون أغلبية بين هؤلاء يليهم العراقيون . وخلاصة القول في هذا الجزء من الدراسة أن الهجرة العربية الى خارج الوطن العربي تشكل استنزافاً للطاقة البشرية العربية وللمال العربي وإضعافاً لعملية التنمية التي تواجه مشكلة نقص العنصر البشري سواء في تخطيطها وإدارتها أم تنفيذها .

جدول رقم (٨)

عدد رعايا بعض الدول العربية الذين منحوا إقامة دائمة في المملكة المتحدة ١٩٧٨/٧٦

الدولة	السنة ١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	المجموع
الجزائر	٧٧	٣٧	٨١	١٩٥
مصر	٥٠٢	٤٨٢	٥٤٩	١٥٣٣
العراق	٢٧٦	٢٣٢	٢٤١	٧٤٩
المغرب	٢٤١	١٨١	٣٣٠	٧٥٢
تونس	٥٣	٤٢	١٢٠	٢١٥
المجموع	١١٤٩	٩٧٤	١٣٢١	٣٤٤٤

Source : Control of Immigration statistices, United Kingdom, 1979, cmnd 7875, April 1980.

جدول رقم (٩)

عدد المواطنين العرب الذين منحوا إقامة دائمة في المملكة المتحدة عام ١٩٧٩

الدولة	مواطنون عرب منحوا الاقامة الدائمة لدى قدومهم مباشرة				مواطنين عرب منحوا الاقامة الدائمة بعد انتهاء الاقامة المحدودة (٤ سنوات)				المجمـوع الكلي			
	رجال	نساء	أطفال	المجموع	رجال	نساء	أطفال	المجموع	رجال	نساء	أطفال	المجموع
الجزائر	٤	٥	٤	١٣	٧٩	١٤	١	٩٤	٨٣	١٩	٥	١٠٧
مصر	٦	١٦	٢	٢٤	٣٥٤	١٢٤	٤٦	٥٢٤	٣٦٠	١٤٠	٤٨	٥٤٨
العراق	٤	٥	-	٩	١٤١	٦٦	٢٨	٢٣٥	١٤٥	٧١	٢٨	٢٤٤
الأردن	٤	٧	٣	١٤	٧٦	٢٤	١	١٠١	٨٠	٣١	٤	١١٥
لبنان	٧	٧	١	١٥	٨٤	٣٥	١٧	١٣٦	٩١	٤٢	١٨	١٥١
ليبيا	-	-	١	١	٥٠	١٣	٤	٦٧	٥٠	١٣	٥	٦٨
المغرب	٥	٩	-	١٤	١٣٥	٧٦	٣٢	٢٤٣	١٤٠	٨٥	٣٢	٢٥٧
السعودية	-	-	-	١٢	٥	١	١٨	١٢	٥	١	١٨	
الصومال	-	٢	٥	٧	٧	٥	١	١٣	٧	٧	٦	٢٠
السودان	٢	-	-	٢	٥٣	١٩	٧	٧٩	٥٥	١٩	٧	٨١
سوريا	-	٤	-	٤	٥٠	١٥	٧	٧٢	٥٠	١٩	٧	٧٦
تونس	٣	٦	-	٩	٦٣	١٣	٥	٨١	٦٦	١٩	٥	٩٠
الاجمالي	٣٥	٦١	١٦	١١٢	١١٠٤	٤٠٩	١٥٠	١٦٦٣	١١٣٩	٤٧٠	١٦٦	١٧٧٥

SOURCE : Control of Immigration statistics, United Kingdom, 1979, cmnd 7875 April 1980.

الخلاصـــــة :

الهجرة ، كحركة سكانية ، ستبقى عنصراً من عناصر الحياة على وجه هذه الأرض . فطبيعة الأشياء في هذه الحياة لا تبقى منطقة جغرافية واحدة تعيش نمطا بمستوى واحد لا يتغير ، والانسان هو المحرك لعناصر الحياة على وجه هذه الأرض ولذلك فان تطور أي منطقة جغرافية بمواردها المختلفة يعتمد على الانسان وقد تكون منطقة معينة مكتفية ذاتياً من ناحية البشرية في فترة زمنية معينة ولكنها قد تعاني سلباً أو إيجاباً في فترة أخرى . فاذا أخذنا الكويت كأقرب مثل لنا ، نجد أنها بمواردها المتواضعة قبل اكتشاف النفط كانت تضم عدداً من السكان لا يزيد عن ١٥٠,٠٠ الف نسمة ومع ذلك فان سكانها كانوا يبحثون عن الرزق في أعماق البحر وفي مناطق أخرى ، وبعد اكتشاف النفط بقي سكانها على أرضها واحتاجوا أيضاً الى أكثر من ضعفهم حتى يقوموا بمهمة البناء الاقتصادي والاداري والعمراني . فالهجـرة في الكويت ارتبطت كما بينت الدراسة بالقضية الاقتصادية ويدل على ذلك ما تواجهه الهجرة (في منتصف الثمانينات) من قيود لمحاولة تقليل عدد المهاجرين فالحركة السكانية على وجه هذه الأرض تمثل معادلة هائلة كما هو الحال في علم الفيزياء فيتجه السكان الى حيث إعادة التوازن في بقعات من الأرض .

وقد تحدث الهجرة لاعادة التوازن ليس للأرض فقط وانما للانسان نفسه فالانسان بطبيعته يحيا بعناصر متعددة اقتصادية وسياسية واجتماعية والاهتمام بالحرية في حقول مختلفة فاذا ما حدث اختلال في التوازن في هذه العناصر تحرك الانسان جغرافياً حيث يعيد التوازن لحياته . فالهجرة هي حركة الانسان والأرض هي مسرح هذه الحركة يتجه الانسان حيث يجد ما فقده أو يكاد يفقده . إن الهجرة قضية قديمة قدم الانسان على هذه الأرض ,ولنا في دراسة الأجناس البشرية برهان على ذلك يصل الى وقتنا الحاضر وما أعطى الهجرة في وقتنا الحاضر إهتماماً كبيراً هو ما حدث من انتشار للعلاقات الاقتصادية والسياسية بين المجتمعات متمثلة بالمناطق الجغرافية الطبيعية والتي حددت شكل وحضارة الانسان وبذلك صار الارتباط بين الأرض و بين عرق وحضارة معينة . ومن ناحية أخرى هو رسم الخطوط على الخرائط وارتبطت المناطق التي تقع بين هذه الخطوط بجنسية معينة أعطى قضية الهجرة مضموناً معيناً هو التزايد السكاني الرهيب داخل هذه المناطق وأدى التزايد الى عجز الموارد المحلية عن الوفاء باحتياجات السكان ونتيجة لذلك اتجهت بعض المجموعات السكانية الى مناطق أخرى تواجه نقصا في الموارد البشرية أدى الى عجز السكان عن استغلال مواردها . إن حركة السكان هذه ليست مجردة من عناصر أخرى فهي ليست أرقاما فقط مع أن كثيراً من المشكلات ترتبط بهذه الأرقام إن هذه المشاكل التي يواجهها المهاجر والمجتمع المستقبل له هي مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية فهناك مشاكل الاسكان ومشاكل العمل ومشاكل التعليم والصحة والاستثمار وغيرها . ان تطور الادارة بشكل عام والتي كان من ضمن هذه التطور بروز التخطيط كمنهج ووسيلة ويصبح علماً من العلوم يدرس في المعاهد والجامعات كل هذا أعطى للهجرة اهتماماً كبيراً . إن القضية أصبحت مرتبطة بقضايا متعددة وأصبحت الحلول لا ترتبط بالظروف الآنية ولكنها توجه للمستقبل المنظور أن الهجرة أصبحت تشكل هماً من هموم سياسة الدول ومن هنا لم يعد الانسان حرا في تحركه الجغرافي بسبب التشريعات والقوانين والنظم التي تحدد مساري وحجم الهجرة لقد أصبحت قضية الهجرة من الأهمية الى درجة أصبحت في بعض الدول أحد المواضيع في البرامج الانتخابية وخطط التنمية ففي السويد مثلاً يحق للمهاجر الذي

أمضى مدة ثلاث سنوات فأكثر وحتى اذا لم يحصل على الجنسية السويدية يحق له أن يرشح نفسه وينتخب في المجالس البلدية وما لهذا من أهمية حيث يستطيع هذا المهاجر أن يشارك في تطوير الكثير من أوجه حياة الانسان في هذه الدول في الولايات المتحدة تتخذ قضايا الهجرة أهمية كبيرة ولذلك فطريق التجنيس للمهاجر يمر بمراحل متعددة حيث يستطيع في النهاية وبعد أن يحصل على الجنسية أن يتقلد أعلى المناصب في هذه الدولة . وفي بريطانيا يحق لكل من يوجد على أرضها أن يحصل على الجنسية البريطانية عندما يبلغ السن القانوني . إن قضية الهجرة ترتبط بالنهاية بعملية التنمية والقضايا الاقتصادية بشكل خاص ولذلك تهتم الدول بقضية الهجرة لأنها تعني إضافة سكانية على أرضها وما يتبع ذلك من توفير لكثير من متطلبات الحياة فبالكويت نجد أن نصف الخطة القومية والهيكلية موجهة للسكان غير الكويتيين مثل الاسكان والطرق والخدمات الأخرى فمن حيث الاسكان نجد أن الوحدات السكنية للمهاجرين تفوق عدد الوحدات السكنية للكويتيين .

أما الجانب الاجتماعي في موضوع الهجرة فهو أعمق بكثير لأنه يهتم بالانسان بشكل مباشر ولذلك تحاول الدول الا يطغى عدد المهاجرين على عدد السكان الأصليين لأن ذلك يؤثر في كثير من العناصر مثل الثقافة واللغة والحضارة والعادات والتقاليد فقضية العزلة الاجتماعية التي تواجهها المجموعات المهاجرة في بلدان المهجر تثير القلق وان محاولات الاستيعاب الاجتماعي تواجه كثيراً من العراقيل لقد عولجت هذه القضايا في هذه الدراسة واتضح لنا ما تتعرض له المجتمعات من مشكلات كثيرة عندما تتعرض للهجرة ومن جانب آخر أوضحت ما يتعرض له المهاجرون في دول المهجر . فالدراسة أوضحت أن الهجرة ليست طريقاً باتجاه واحد وانما طريقان باتجاهين متضادين هما طريق الهجرة الى بلد المهجر وطريق العودة وطريق آخر ليس أسهل من الطريق الأول وليس مجرداً من المشاكل فعودة المهاجرين الى وطنهم أصبحت تشكل قضية من القضايا التي تحظى باهتمام متزايد فعودة المهاجرين تعني توفير فرص عمل لهؤلاء وحل لمشكلة البطالة وتوفير المساكن والخدمات الأخرى وان هذه العناصر تؤثر بعناصر أخرى مثل سعر الأرض ومواد البناء وتوفير المبالغ المطلوبة إما الجانب الآخر فهو بالطبع إجتماعي فعودة المهاجرين من مجتمعات لها خصائص إجتماعية وسياسية مختلفة لها بالتأكيد تأثيرات على المجتمع الأم ولا تقتصر هذه القضية على سلوكيات إجتماعية يكتسبها المهاجر بل تتعداها الى سلوكيات اقتصادية مثل اكتساب عادات الاستهلاك والادخار والانفاق فالمهاجر الذي يعود من بلد تتوفر فيه معظم مستلزمات الحياة الضرورية والكمالية ويتعود على التعامل معها فانه سينقلها معه الى بلده الأم وقد لا يكون هذا سهلاً عندما لا تتوفر مثل هذه المستلزمات .

الهجرة عملية مستمرة استمرار حياة الانسان والنمو السكاني والاختلافات بين المناطق الجغرافية المختلفة واذا كانت الهجرة في وقتنا الراهن تواجه بالنظم والقوانين فان عدم التوازن الاقتصادي والاجتماعي بين المناطق الجغرافية المختلفة سوف يحد من فعالية هذه الأنظمة والقوانين لتستمر حركة الهجرة .

***

الهجرة والهجرة المعاكسة في الكويت
دروس الماضي وآفاق المستقبل

محمد صادق

مقدمة :

بينما وفرت عائدات النفط موارد مالية يمكن استخدامها لتمويل عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، عجز العرض المحلي من العمالة ، بسبب صغر حجم السكان من جهة وندرة المهارات من جهة أخرى ، عن تلبية الطلب على العمالة منذ بداية مسيرة التنمية في الكويت في أوائل الخمسينات[١] .

ومنذ البداية تم سد العجز بين العرض المحلي من العمالة والطلب عليها بعمالة وافدة . وأدى نمو عائدات النفط وتزايد وتنوع عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي تزايد وتنوع الطلب على العمالة ، خاصة في الفترة التي تلت ارتفاع أسعار النفط في اكتوبر ١٩٧٣ وحتى أوائل الثمانينات ، إلى ازدياد عجز العرض المحلي من العمالة وازدياد الاعتماد على العمالة الوافدة لمواجهة احتياجات مختلف القطاعات من مختلف أنواع ومستويات المهارات .

وأدى الانكماش الاقتصادي العالمي الذي بدأ في مطلع الثمانينات إلى اتجاه العائدات النفطية إلى الانخفاض وأدى بالتالي إلى تباطؤ النمو الاقتصادي وتباطؤ نمو الطلب على العمالة[٢] .

وبسبب تراجع أسعار النفط في عام ١٩٨٣ ازداد اتجاه العائدات النفطية إلى الانخفاض وأدى تدهور الأسعار منذ أواخر ١٩٨٥ إلى تدهور الايرادات النفطية . وبما أن الايرادات النفطية كانت ، ولا زالت ، العمود الفقري لايرادات الحكومة ، اضطرت الحكومة إلى تخفيض ميزانية ١٩٨٥/١٩٨٦ بعد اعتمادها لمواجهة الانخفاض في ايراداتها .

(١) تم تصدير أول شحنة من النفط الخام عام ١٩٤٦ وبدأت الحكومة في بناء الهياكل الأساسية وتوسيع الخدمات الاجتماعية خاصة في التعليم والصحة في الفترة التي تلت البدء في إنتاج وتصدير النفط الخام وحصولها على العائدات النفطية . لذا يمكن اعتبار بداية الخمسينات بداية مسيرة التنمية بشكل واضح .

(٢) تزامن تراجع العائدات النفطية مع الحرب بين العراق وإيران منذ أواخر ١٩٨٠ وأزمة سوق المناخ في أواخر ١٩٨٢ . وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى تباطؤ النمو الاقتصادي .

وأدت هذه التطورات الاقتصادية إلى تنامي اهتمام الحكومة باعتماد سياسات واتخاذ إجراءات نحو توازن سكاني ، وحظى تعديل التركيبة السكانية باهتمام خاص في الخطة الخمسية ١٩٨٥/١٩٨٦ ـ ١٩٨٩/١٩٩٠ وشكل المحور الرئيسي لتوجهاتها .

واجه القطاع الخاص ، ولا زال يواجه ، تراجع الطلب على العمالة بإجراءات تراوحت بين الاستغناء عن العمالة الوافدة الزائدة وتخفيض الاجور والمرتبات وإلغاء بعض المزايا[٣] . وقررت الحكومة الاستغناء عن عدد من الوافدين من العاملين في مختلف الوزارات والمؤسسات والهيئات العامة في مطلع صيف هذا العام .

وما لم تتم عملية الاستغناء عن العمالة الوافدة على أساس خطة مدروسة فإنه يصعب تجنب الآثار السلبية التي قد تنجم عنها . لذا تحاول هذه الدراسة المساهمة في إنارة الطريق نحو الخيارات الممكنة لاجتياز المرحلة الراهنة والتقدم بثبات نحو المرحلة المقبلة .

تبدأ الدراسة باستعراض مدى الاعتماد على العمالة الوافدة حسب القطاعات الاقتصادية والمهن . يلي ذلك عرض لنمو السكان والتطورات التي طرأت على مختلف جوانب الهيكل السكاني .

وأخيراً تحاول الدراسة استشراف آفاق المستقبل المنظور بالنسبة لمدى استمرار الحاجة إلى العمالة الوافدة من جهة وإلقاء الضوء على بعض الأمور التي يستحسن أخذها بعين الاعتبار عند النظر في الخيارات الممكنة لمواجهة المرحلة الانتقالية الحالية والتقدم بثبات نحو المستقبل .

تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة

يبين الجدول (١) حجم ومعدلات النمو السنوية لقوة العمل حسب النوع والجنسية بين سنوات التعدادات . ومن أبرز السمات التي يواجهها هذا الجدول ما يلي :

١ ـ ارتفاع وتباين معدلات النمو :

بلغ معدل النمو السنوي لجملة قوة العمل الكويتية ٦,٦٪ بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وتراوح بين ٣,٢٪ خلال ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ و ٨,٧٪ خلال ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ . ويبلغ معدل النمو السنوي لجملة قوة العمل غير الكويتية ٨,٨٪ بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وتراوح بين ٣,٨٪ خلال ١٩٧٠ و ١٩٧٥ و ١٢,٥٪ خلال ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ . ويبلغ معدل النمو السنوي لمجموع قوة العمل ٨,٢٪ بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ وتراوح بين ٤,٧٪ خلال ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ و ١٠,٩٪ خلال الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦٥ . وتعتبر معدلات النمو السنوية لقوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية ومجموع قوة العمل ، على السواء ، مرتفعة ، قياساً على معدلات النمو السنوية السائدة في العالم . فكيف يمكن تفسير ارتفاع معدلات النمو ؟

---

(٣) لا تتوفر بيانات عن مدى تخفيض العمالة وتخفيض المرتبات والأجور وإلغاء المزايا . ولكن من الثابت أن العمالة انخفضت في قطاع التشييد والبناء وأن العديد من الشركات والمؤسسات في القطاع الخاص قامت بتخفيض الرواتب بنسب مختلفة وصلت في بعض الحالات إلى ٢٥٪ .

إن حجم السكان ، من جهة ، والهيكل العمري والهيكل النوعي ، من جهة أخرى ، تحدد في المقام الأول ، حجم العرض من قوة العمل .

ويمكن تفسير معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل الكويتية ، في المقام الأول ، بارتفاع معدلات نمو السكان الكويتيين . ولكن ما الذي أدى إلى ارتفاع معدل نمو السكان الكويتيين ؟ سنحاول إلقاء الضوء على بعض العوامل التي يمكن أن تكشف عن أسبابه عند استعراض نمو السكان . أما معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل غير الكويتية فلا يمكن تفسيرها بارتفاع معدلات نمو السكان غير الكويتيين ، إذ أن نمو السكان غير الكويتيين كان نتيجة وليس سبباً لنمو قوة العمل غير الكويتية .

وكما سنبين فيما بعد حدد حجم العمالة الوافدة من جهة ومعدل المرافقة[4] لها من جهة أخرى حجم السكان غير الكويتيين ، بمعنى آخر بينما كانت معدلات النمو المرتفعة للسكان الكويتيين السبب الرئيسي في معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل الكويتية ، كانت معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل غير الكويتية السبب الرئيسي في المعدلات المرتفعة لنمو السكان غير الكويتيين .

٢ ـ زيادة معدل نمو الاناث عن معدل نمو الذكور :

كما يستدل من الجدول (١) ، فقد فاق معدل نمو الاناث معدل نمو الذكور بالنسبة لقوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وجملة قوة العمل على السواء بين عام ١٩٥٧ و ١٩٨٠ .

فقد بلغ معدل النمو السنوي للاناث ١٧,٠٪ و١٥,٨٪ و ١٦,٠٪ بينما بلغ معدل النمو السنوي للذكور ٦,١٪ و ٨,٣٪ و ٧,٧٪ في قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وجملة قوة العمل ، على التوالي ، بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وقد فاق معدل نمو الاناث معدل نمو الذكور في قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وفي جملة قوة العمل في جميع الفترات ، وباستثناء ١٩٨٥ ـ ١٩٨٠ ، حيث فاق معدل الذكور معدل نمو الاناث ، ١٢,٦٪ مقابل ١٢,١٪ في قوة العمل غير الكويتية .

أدت زيادة معدل نمو الاناث عن معدل نمو الذكور إلى ارتفاع نسبة الاناث في قوة العمل ، وبالتالي إلى زيادة تأنيث قوة العمل الكويتية وغير الكويتية وجملة قوة العمل على السواء . فكما يتضح من الجدول (٢) فقد اتجهت نسبة الاناث إلى الارتفاع بينما اتجهت نسبة الذكور الى الانخفاض باستمرار . فقد تزايدت نسبة الأناث في جملة قوة العمل الكويتية باستمرار وارتفعت من ١,٦ عام ١٩٥٧ إلى ١٣,٢٪[5] ، كما تزايدت نسبة الاناث في جملة قوة العمل الكويتية بين عام ١٩٥٧ و ١٩٧٥ حيث ارتفعت من ١٣,٠٪ بين نفس العامين ، ولكنها انخفضت قليلا ، الى ١٢,٨٪ عام ١٩٨٠ . أما نسبة الأناث في جملة قوة العمل فقد تزايدت باستمرار وارتفعت من ٢,٦٪ عام ١٩٥٧ الى ١٢,٩٪ عام ١٩٨٠ .

(٤) بقدر من التبسيط معدل المرافقة يساوي ١٠٠ ـ معدل المشاركة . بما أن معدل المشاركة يساوي قوة العمل كنسبة مئوية من جملة السكان يكون معدل المرافقة السكان خارج قوة العمل كنسبة مئوية من جملة السكان .

(٥) تشمل قوة العمل (١٥ سنة فأكثر) :

ـ المشتغلون

ـ المتعطلون الجدد

ـ المتعطلون الذين سبق لهم العمل .

ويشمل ذوي النشاط المشتغلين والمتعطلين الذين سبق لهم العمل .

جدول رقم (١)

تطور قوة العمل حسب الجنسية والنوع

بين التعدادات

	العدد					معدلات النمو السنوي				
	١٩٥٧	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٥٩٧ – ١٩٦٥	١٩٦٥ – ١٩٧٠	١٩٧٠ – ١٩٧٥	١٩٧٥ – ١٩٨٠	١٩٥٧ – ١٩٨٠
كويتي – ذكور	٢٤٢١٨	٤١٩٢٦	٦٣٢١٤	٨٤٣٦٧	٩٣٥٨٨	٧ر١	٨ر٦	٥ر٩	٢ر١	٦ر١
اناث	٣٨٤	١٠٩٢	٢٠٥٥	٧٤٧٧	١٤١٧٢	١٤ر٠	١٣ر٥	٢٩ر٥	·١٣ر٦	١٧ر٠
جملة	٢٤٦٠٢	٤٣٠١٨	٦٥٣٦٩	٩١٨٤٤	١٠٧٧٦٠	٧ر٢	٨ر٧	٧ر٠	٣ر٢	٦ر٦
غير كويتي – ذكور	٥٣٩٩٣	١٣٣٦٠٣	١٦٢٢٨٦	١٨٥٠٠٩	٣٣٤٦٤٤	١٢ر٠	٤ر٠	٢ر٧	١٢ر٦	٨ر٣
اناث	١٦٩٣	٧٦٧٦	١٤٥٤١	٣٧٧٢٩	٤٩١٠٥	٢٠ر٨	١٣ر٦	١٣ر٨	١٢ر١	١٥ر٨
جملة	٥٥٦٨٦	١٤١٢٧٩	١٧٦٨٢٧	٢١٢٧٣٨	٣٨٣٧٤٩	١٢ر٣	٤ر٦	٣ر٨	١٢ر٥	٨ر٨
الجملة – ذكور	٧٨٢١١	١٧٥٥٢٩	٢٢٥٦٠٠	٢٦٩٣٧٦	٤٢٨٢٣٣	١٠ر٦	٥ر١	٣ر٦	٩ر٧	٧ر٧
اناث	٢٠٧٧	٨٧٦٨	١٦٥٩٦	٢٥٢٠٦	٦٣٣٧٧	١٩ر٧	١٣ر٦	١٦ر٢	١٢ر٤	١٦ر٠
جملة	٨٠٢٨٨	١٨٤٢٩٧	٢٤٢١٩٦	٣٠٤٥٨٢	٤٩١٥٠٩	١٠ر٩	٥ر٦	٤ر٧	١٠ر٠	٨ر٣

المصدر : العدد لعام ١٩٥٧ من :

The Economist Intelligence Unit Ltd.,
Assessment of Joint Sector Operations in Kuwait, Vol.XVIII, Study Area 2,
Report Submitted to the Government, May 1974, table 23, P.41.

العدد للاعوام ١٩٦٥ و ١٩٧٠ و ١٩٧٥ و ١٩٨٠ من المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ جدول ٩٨ ص ١٠٩ .
والنسب المئوية تم احتسابها .

جدول رقم (٢)

قوة العمل حسب النوع والجنسية

(نسب مئوية)

	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث
١٩٥٧	٩٨ر٤	١ر٦	٩٧ر٠	٣ر٠	٩٧ر٤	٢ر٦
١٩٦٥	٩٧ر٥	٢ر٥	٩٤ر٦	٥ر٤	٩٥ر٢	٤ر٨
١٩٧٠	٩٦ر٩	٣ر١	٩١ر٨	٨ر٢	٩٣ر١	٦ر٩
١٩٧٥	٩١ر٩	٨ر١	٨٧ر٠	١٣ر٠	٨٨ر٤	١١ر٦
١٩٨٠	٨٦ر٨	١٣ر٢	٨٧ر٢	١٢ر٨	٨٧ر١	١٢ر٩

المصـــدر : تم احتساب النسب على أساس الجدول (١) .

إن تزايد نسبة الاناث في قوة العمل له مدلولات هامة . فهو مؤشر على زيادة عدد الاناث القادرات على والراغبات في العمل من جهة ، وعلى حصول تغير بالنسبة لنظرة المجتمع إلى عمل الاناث ، من جهة أخرى . وكلما ازدادت نسبة مشاركة الاناث في قوة العمل ، كلما ارتفع معدل المشاركة وانخفض بالتالي معدل الاعالة .

٣ ـ تناقص نسبة الكويتين في جملة قوة العمل :

ادى التباين بين معدلات نمو قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية بين التعدادات إلى تباين بين نسبة كل منهما في جملة قوة العمل كما يتضح من الجدول (٣) .

فبما أن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية زاد عن معدل نمو قوة العمل الكويتية ١٢,٣٪ مقابل ٧,٢٪ ، بين ١٩٥٧ و ١٩٦٥ ، فإن نسبة قوة العمل الكويتية انخفضت من ٣٠,٦٪ إلى ٢٣,٣٪ بين العامين . وأدى ارتفاع معدل نمو قوة العمل الكويتية عن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية خلال ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ ، ٨,٧٪ مقابل ٤,٦٪ وخلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ ، ٧,٠٪ مقابل ٣,٨٪ ، الى ارتفاع نسبة قوة العمل الكويتية إلى ٢٧,٠٪ و ٣٠,٢٪ ، على التوالي . ولكن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية فاق كثيرا معدل نمو قوة العمل الكويتية ١٢,٥٪ مقابل ٣,٢٪ ، خلال ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ، وانخفضت بذلك نسبة قوة العمل الكويتية وبدرجة كبيرة ، من ٣٠,٢٪ الى ٢١,٩٪ .

جدول رقم (٣)

قوة العمل حسب الجنسية

(نسب مئوية)

سنة التعداد	كويتي	غير كويتي	المجموع
١٩٥٧	٣٠ر٦	٦٩ر٤	١٠٠
١٩٦٥	٢٣ر٣	٧٦ر٧	١٠٠
١٩٧٠	٢٧ر٠	٧٣ر٠	١٠٠
١٩٧٥	٣٠ر٢	٦٩ر٨	١٠٠
١٩٨٠	٢١ر٩	٧٨ر١	١٠٠

المصدر : تم احتساب الجدول على أساس الجدول رقم (١) .

٤ ـ تزايد اعتماد مختلف القطاعات على غير الكويتيين :

يتضح من الجدول (٤) إن نسب ذوي النشاط الكويتيين وغير الكويتيين في مختلف قطاعات النشاط الاقتصادي قد تباينت ، وبدرجات متفاوتة ، بين سنوات التعدادات .

باستثناء عام ١٩٥٧ حيث كانت نسبة الكويتيين أعلى من نسبة غير الكويتيين في الزراعة والصيد ، ٥٧,٥٪ مقابل ٤٢,٥٪ وفي التجارة والمطاعم والفنادق ، ٥٠,٥٪ مقابل ٤٩,٥٪ وعام ١٩٧٥ حيث كانت نسبة الكويتيين أعلى من نسبة غير الكويتيين في الزراعة والصيد ، ٥٣,٠٪ مقابل ٤٧,٠٪ ، كانت نسبة غير الكويتيين أعلى من نسبة الكويتيين في جميع قطاعات النشاط الاقتصادي وفي جميع سنوات التعدادات . وهذا يعني أن جميع القطاعات اعتمدت وباستمرار ، في المقام الأول ، على العمالة الوافدة .

ويذكر أن نسبة الكويتيين في جملة قوة العمل انخفضت بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . باستثناء قطاع المناجم والمحاجر حيث ارتفعت فيه نسبة الكويتيين من ٢٢,٤٪ الى ٣٦,٠٪ بينما انخفضت نسبة الكويتيين في جميع القطاعات ، وبدرجات متفاوتة بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . وهذا يعني تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة في جميع القطاعات .

٥ ـ تركز الكويتيين وغير الكويتيين قطاعياً :

يتضح من الجدول (٥) أن قطاع الخدمات استأثر بأعلى نسبة من جملة ذوي النشاط الكويتيين وغير الكويتيين ، على السواء ، في جميع سنوات التعدادات . بينما ارتفعت نسبة الكويتيين في هذا القطاع من ٥١,٧٪ عام ١٩٥٧ الى ٧٥,٦٪ عام ١٩٨٠ كما انخفضت نسبة غير الكويتيين فيه من ٤٨,٠٪ الى ٤٠,٧٪ بين نفس العامين . واحتلت نسبة ذوي النشاط الكويتيين في قطاع التجارة المرتبة الثانية في سنوات التعدادات : ١٤,٦٪ عام ١٩٥٧ و ١٢,٨٪ عام ١٩٦٥ و ١٤,٧٪ عام ١٩٧٠ و ٧,٣٪ عام ١٩٧٥ وانحدرت إلى ٤,٤٪ واحتلت نسبة ذوي النشاط في قطاع النقل والمواصلات ، ٧,٦٪ مكانها عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (٤)

ذوي النشاط حسب القطاع والجنسيه

(نسب مئويه)

النشاط الاقتصادي / السنة	١٩٥٧ ك	١٩٥٧ غ ك	١٩٦٥ ك	١٩٦٥ غ ك	١٩٧٠ ك	١٩٧٠ غ ك	١٩٧٥ ك	١٩٧٥ غ ك	١٩٨٠ ك	١٩٨٠ غ ك
الزراعة والصيد	٥٧ر٥	٤٢ر٥	٢٨ر٩	٧١ر١	١٩ر٨	٨٠ر٢	٥٣ر٠	٤٧ر٠	٤٣ر٠	٥٧ر٠
المناجم والمحاجر	٢٢ر٤	٧٧ر٦	١٢ر٩	٧٦ر١	٢٣ر٤	٧٦ر٦	٢٦ر٦	٦٣ر٤	٣٦ر٠	٦٤ر٠
الصناعات التحويلية	١٥ر٦	٨٤ر٤	١٠ر٢	٨٩ر٨	١٩ر٠	٨١ر٠	٩ر٢	٩٠ر٨	٧ر٧	٩٢ر٣
التشييد والبناء	٢ر٧	٩٦ر٣	٤ر٤	٩٥ر٦	٦ر٥	٩٣ر٥	٤ر٥	٩٤ر٦	١ر٢	٩٨ر٨
المياه والغاز والكهرباء	(١)	(١)	٢٣ر٥	٧٦ر٥	٢٩ر٤	٧٠ر٦	٢٨ر٠	٧٢ر٠	٢٥ر٣	٧٤ر٧
تجارة الجملة والتجزئة والمطاعم والفنادق	٥٠ر٥	٤٩ر٥	٢٢ر٣	٧٧ر٧	٢٢ر٠	٧٨ر٠	١٦ر٠	٨٤ر٠	٧ر٨	٩٢ر٢
النقل والتخزين والمواصلات	٤٢ر٤	٥٧ر٦	٢٦ر١	٧٣ر٩	١٩ر٥	٨٠ر٥	٢٩ر١	٧٠ر٩	٢٥ر٩	٧٤ر١
التمويل والتأمين والعقارات وخدمات الاعمال							٢١ر١	٧٨ر٩	٢٢ر٢	٧٧ر٨
خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعيه والشخصية	(٢) ٣٤ر٩	(٢) ٦٥ر١	(٢) ٣٠ر٩	(٢) ٦٩ر١	(٢) ٢٥ر٤	(٢) ٦٤ر٦	٢٨ر٩	٦١ر١	٣٤ر٢	٦٥ر٨
نشاط غير واضح	٥٧ر٢	٤٢ر٨	٢٦ر٩	٧٣ر١	٢٩ر٤	٧٠ر٦	–	–	–	–
جملة ذوي النشاط	٢٣ر٢	٦٦ر٨	٢٢ر٤	٧٧ر٦	٢٥ر٤	٧٤ر٦	٢٩ر١	٧٠ر٩	٢١ر٤	٧٨ر٦

(١) ضمن الصناعات التحويلية .
(٢) تشمل جميع الخدمات

المصدر : تم احتساب النسب على اساس المجموعه الاحصائيه السنويه ١٩٨٥ ، جدول ١١١ ص ١٢٠ ، وجدول ١١٢ ، ص ١٢٢ .

وقد احتلت نسبة ذوي النشاط غير الكويتيين في قطاع التشييد والبناء المرتبة الثانية في سنوات التعدادات : ١٧,٢٪ عام ١٩٥٧ و ١٩,٨٪ عام ١٩٦٥ و ١٨,٠٪ عام ١٩٧٠ ، وانحدرت ١٤,٤٪ ، واحتلت نسبة ذوي النشاط في قطاع التجارة ، ١٥,٧٪ مكانها عام ١٩٧٥ ، ولكنها ارتفعت الى ٢٥,٢٪ وعادت واحتلت المرتبة الثانية عام ١٩٨٠ .

وبينما كانت نسبة ذوي النشاط الكويتيين في قطاع النقل والتخزين والمواصلات في المرتبة الثالثة ، ٥,٣٪ و ٦,٥٪ في ١٩٥٧ و ١٩٦٥ ، على التوالي ، انحدرت هذه النسبة إلى ٤,٠٪ واحتلت نسبة ذوي النشاط في الصناعات التحويلية ، ١٠,٢٪ ، مكانها ، المرتبة الثالثة ، عام ١٩٧٠ ، ولكن عادت نسبة ذوي النشاط في قطاع النقل والتخزين والمواصلات إلى المرتبة الثالثة ، ٥,٣٪ و ٧,٦٪ في ١٩٧٥ و ١٩٨٠ على التوالي .

واحتلت نسبة ذوي النشاط غير الكويتيين في الصناعات التحويلية المرتبة الثالثة في السنوات ١٩٥٧ ، ٩,٨٪ و ١٩٧٠ ، ١٤,٩٪ والمرتبة الرابعة في السنوات ١٩٦٥ ، ١١,٦٪ و ١٩٧٥ ، ١٠,٥٪ و ١٩٨٠ ، ١٠,٠٪ ، بينما احتلت نسبتهم في التجارة المرتبة الرابعة في السنوات ١٩٥٧ . ٧,١٪ و ١٩٧٠ ، ١٤,٧٪ والمرتبة الثالثة في السنوات ١٩٦٥ ، ١٢,٩٪ و ١٩٧٥ ، ١٥,٧٪ و ١٩٨٠ ، ١٤,١٪ .

ويتضح مما سبق أن ذوي النشاط الكويتيين تركزوا في قطاعات الخدمات في المقام الأول وفي التجارة والنقل والمواصلات في المقام الثاني . وقد ازدادت درجة تركيزهم في هذه القطاعات حيث ارتفع مجموع نسبتهم فيها من ٧١,٦٪ عام ١٩٥٧ إلى ٨٧,٦٪ عام ١٩٨٠ . وأما ذوي النشاط غير الكويتيين فقد تركزوا في قطاع الخدمات في المقام الأول وفي قطاعات التشييد والتجارة والصناعة التحويلية في المقام الثاني . وقد ازدادت درجة تركيزهم في هذه القطاعات حيث ارتفع مجموع نسبتهم فيها من ٨٢,١٪ عام ١٩٥٧ إلى ٩٠,٠٪ عام ١٩٨٠ .

٦ ـ تركز الكويتيين وغير الكويتيين مهنياً :

وكما كان الكويتيون أقل من غير الكويتيين في مختلف القطاعات كانواكذلك في مختلف المهن .

فكما يتضح من الجدول (٦) ، باستثناء عام ١٩٧٥ ، حيث كانت نسبة الكويتيين اكبر من نسبة غير الكويتيين ، ٥٠,٦٪ مقابل ٤٩,٤٪ في المهن المتعلقة بالزراعة وتربية الحيوان والصيد ، كانت نسبة غير الكويتيين أكبر من نسبة الكويتيين في جميع أنواع المهن في جميع سنوات التعدادات . وكما تزايد الاعتماد على غير الكويتيين قطاعياً ، تزايد الاعتماد عليهم أيضا مهنيا ، بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . فباستثناء المهن العلمية والفنية والتي تزايدت نسبة الكويتيين فيها من ٩,٨٪ إلى ٢٠,٦٪ والأعمال الكتابية التي تزايدت نسبتهم فيها من ٣٧,٤٪ الى ٤٠,٩٪ وأعمال الخدمات التي تزايدت نسبتهم فيها من ٣١,٠٪ إلى ٣٢,٩٪ ، انخفضت نسبة الكويتيين في بقية المهن بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ .

وكما تركز الكويتيون قطاعيا في الخدمات في المقام الأول ، وفي التجارة والنقل والمواصلات في المقام الثاني ، فقد تركز غير الكويتيين في الخدمات في المقام الأول ، وفي التشييد والبناء والتجارة والصناعة التحويلية في المقام الثاني ، وكما يتضح من الجدول (٧) تركز الكويتيون في أعمال الخدمات في المقام الأول ، ٣٢,٨٪ وفي مجال الانتاج والعمال العاديين في المقام الثاني ، ٢٦,٣٪ وفي المهن الكتابية في المقام الثالث ، ١٥,٤٪ عام ١٩٦٥ .

جدول رقم (٥)
ذوي النشاط
حسب اقسام النشاط والجنسية في سنوات التعدادات
(نسب مئوية)

السنة	١٩٥٧			١٩٦٥			١٩٧٠			١٩٧٥			١٩٨٠		
النشاط الاقتصادي	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج
الزراعة والصيد	٣ر١	٨ر٠	٢ر١	٠ر٤	١ر٠	١ر١	٣ر١	٩ر١	٧ر١	٦ر٤	١ر٧	٢ر٥	٣ر٠	١ر٤	١ر٩
المناجم والمحاجر	١ر٣	٧ر٣	٦ر٣	٣ر٤	٤ر١	٣ر٩	٣ر٨	٣ر٤	٣ر٠	٣ر٠	١ر٥	١ر٦	٣ر٣	١ر١	١ر٤
الصناعات التحويلية	٣ر٦	٩ر٨	٧ر٧	٤ر٥	١١ر٦	١٠ر٠	١٠ر٣	٤ر٩	١٣ر٦	٣ر٦	١٠ر٥	٨ر٣	٣ر١	١٠ر٠	٨ر٥
التشييد والبناء	١ر٣	١٧ر٢	١٠ر٩	٣ر١	١٤ر١	١٦ر١	٣ر٧	١٨ر٠	١٤ر٣	٢ر٠	١٤ر٤	١٠ر٨	١ر٢	٢٥ر٢	٢٠ر١
المياه والغاز والكهرباء	(١)	(١)	(١)	٤ر١	٣ر٨	٣ر٩	٣ر٦	٢ر٩	٣ر١	٢ر٣	٢ر٥	٢ر٤	٣ر٠	١ر٦	١ر٧
تجارة الجملة والتجزئة والمطاعم والفنادق	(٢) ١٤ر٦	(٢) ٧ر١	(٢) ٩ر٦	١٣ر٨	١٣ر٠	١٣ر٩	١٣ر٢	١٤ر٧	١٤ر٥	٧ر٣	١٥ر٧	١٣ر٣	٤ر٤	١٤ر١	١٣ر١
النقل والتخزين والمواصلات	٣ر٥	٣ر٦	٤ر٣	٦ر٥	٣ر٥	٦ر٥	٤ر٠	٦ر٥	٣ر٥	٣ر٥	٣ر٥	٣ر٥	٧ر٦	٩ر٥	٦ر٣
خدمات التمويل والتأمين والعقارات وخدمات الأعمال	٥١ر٧	٤٠ر٠	٤٩ر٣	٦٣ر٥	٤١ر٠	٤٦ر٠	٦١ر٨	٣٨ر٥	٤٤ر٢	٧٣ر٩	٤٨ر٥	٥٥ر٩	٧٥ر٦	٤٠ر٧	٤٩ر٣
نشاط غير واضح	١٦ر٩	٦ر٣	٩ر٨	٠ر٦	٠ر٥	٠ر٥	٠ر٤	٠ر٣	٠ر٣	—	—	—	—	—	—
جملة ذوي النشاط	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

(١) ضمن الصناعات التحويلية
(٢) التجارة فقط

المصدر : نفس مصدر الجدول ـ ٤ .

بينما ارتفعت نسبتهم في أعمال الخدمات إلى ٣٦,٣٪ واستمرت بذلك في المقام الأول ، وانخفضت نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين إلى ١٣,٥٪ وانحدرت إلى المقام الثالث ، ثم ارتفعت نسبتهم في المهن الكتابية إلى ٢٣,٨٪ واحتلت المقام الثاني عام ١٩٨٠ .

وأما بالنسبة لغير الكويتيين ، فكانت نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين في المقام الأول ، ٤٩,٥٪ ، وفي اعمال الخدمات في المقام الثاني ٢١,٩٪ وفي المهن العلمية والفنية في المقام الثالث ٨,٣٪ عام ١٩٦٥ .

وبينما انخفضت نسبتهم في عمال الإنتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات إلى ٤٤,٨٪ و ٢٠,١٪ على التوالي ، نرى أنها ارتفعت في المهن العلمية والفنية إلى ١٦,٣٪ ، عام ١٩٨٠ .

ولكن بالرغم من الانخفاض الذي طرأ على نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات وارتفاع نسبتهم في المهن العلمية والفنية ، إلا ان نسبتهم في عمال الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات وفي المهن العلمية والفنية ، بقيت في المقام الأول والثاني والثالث على التوالي عام ١٩٨٠ .

إن نمط التوزيع القطاعي والمهني للكويتيين وغير الكويتيين ودرجة التركيـز القطاعي والمهني لكـل منهما ، لهـا مدلولات مهمة بالنسبة المستوى درجة المرونة في إحلال الكويتيين محل غير الكويتيين ، من جهة وبالنسبة لتأهيل وتوجيه الكويتيين نحو مختلف القطاعات والمهن من جهة أخرى .

فكما يتضح من الجدول (٨) ، توجهت معظم الزيادة في قوة العمل الكويتية ، ٨٣,٠٪ إلى قطاع الخدمات بينما توجه فقط ١٧٪ من الزيادة إلى بقية القطاعات بين ١٩٦٥ و ١٩٨٠ .

ويعود سبب الزيادة في قطاع الخدمات ، في المقام الأول ، إلى توجه الكويتيين إلى العمل بالجهاز الحكومي بسبب سياسات التوظف التي تكفل لهم الوظائف بالجهاز الحكومي من جهة وبسبب زيادة إقبالهم على العمل بالجهاز الحكومي عن إقبالهم على العمل في القطاع الخاص من جهة أخرى .

أما بالنسبة لغير الكويتيين فقد توجه ٤٠,٤٪ من الزيادة إلى قطاع الخدمات و ٢٨,٢٪ إلى قطاع التشييد والبناء و ١٤,٨٪ إلى قطاع التجارة و ٩,١٪ إلى قطاع الصناعات التحويلية . وهذا يعني أن الزيادة في غير الكويتيين انتشرت بشكل أكثر توزانا من انتشار الزيادة في الكويتيين .

وبما أن ذوي المهن المتعلقة بأعمال الخدمات والأعمال الكتابية والمهن العلمية والفنية يشكلون عادة نسبة كبيرة من جملة ذوي المهن في قطاع الخدمات (في حدود ٨٠٪) من جهة ، فإن معظم الزيادة في الكويتيين توجهت إلى قطاع الخدمات . من جهة اخرى ، تركزت معظم الزيادة في الكويتيين بنسبة (٨٨,٩٪) في المهن المتعلقة بالخدمات بنسبة (٣٧,١٪) وفي الأعمال الكتابية (٢٨,٤٪) وفي المهن العلمية والفنية كانت نسبتهم ٢٣,٤٪ .

ونظراً لان انتشار الزيادة في غير الكويتيين كان أوسع من انتشار الكويتيين قطاعياً ، كان انتشارهم أيضا أوسع مهنيا . فقد اتجه ٤١,٣٪ و ٢١,٠٪ و ١٨,٩٪ و ١٠,٢٪ من جملة زيادتهم إلى المهن المتعلقة بعمال الانتاج والعمال العاديين والمهن العلمية والفنية وأعمال الخدمات والمهن الكتابية على التوالي .

جدول رقم (٦)

ذوي النشاط حسب المهنة والجنسية

(نسب مئوية)

السنة / المهنة	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠	
	ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك
١ ـ المهن العلمية والفنية	٩ر٨	٩٠ر٢	١٤ر٦	٨٥ر٤	٢٣ر٣	٧٦ر٧	٢٠ر٦	٧٩ر٤
٢ ـ المديرون والاداريون ومديرو الاعمال	٣٧ر١	٦٢ر٩	٣٤ر٣	٦٥ر٧	٣٦ر٦	٦٣ر٤	٦٤ر٠	٦٦ر٠
٣ ـ الاعمال الكتابية	٣٧ر٤	٦٢ر٦	٤٠ر٧	٥٩ر٣	٤٧ر٠	٥٣ر٠	٤٠ر٩	٥٩ر١
٤ ـ اعمال البيع	٣٠ر٤	٦٩ر٦	٣١ر٠	٦٩ر٠	٢٥ر٧	٧٤ر٣	١٦ر٧	٨٣ر٣
٥ ـ اعمال الخدمات	٣١ر٠	٦٩ر٠	٤٠ر٢	٥٩ر٨	٤٢ر٠	٥٨ر٠	٣٢ر٩	٦٧ر١
٦ ـ الزراعة وتربية الحيوان والصيد	٢٠ر٧	٧٩ر٣	٢٢ر٦	٧٧ر٤	٥٠ر٦	٤٩ر٤	٣٩ر٤	٦٠ر٦
٧ ـ عمال الانتاج والعمال العاديون	١٣ر٩	٨٦ر١	١٣ر٩	٨٦ر١	١٤ر٥	٨٥ر٥	٧ر٦	٩٢ر٤
٨ ـ غير مبين المهنة	٦٣ر٢	٣٦ر٨	٧٥ر٦	٢٤ر٤	١٠٠	ـ	ـ	ـ
الجملة	٢٣ر٣	٧٦ر٧	٢٥ر٩	٧٤ر١	٢٩ر١	٧٠ر٩	٢١ر٤	٧٨ر٦

المصدر : تم احتساب الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ـ ١٩٨٥
الجداول ١٠٩ ص ١١٧ و ١١٠ ص ١١٨ .

جدول رقم (٧)

ذوي النشاط الاقتصادي حسب المهنة والجنسية

(نسب مئوية)

السنة	١٩٦٥			١٩٧٠			١٩٧٥			١٩٨٠		
المهنة / الجنسية	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج	ك	غ ك	ج
١ ـ المهن العلمية والفنية	٢ر٩	٨ر٣	٧ر٠	٦ر١	١٢ر٤	١٠ر٨	١١ر٢	١٥ر٢	١٤ر٠	١٥ر٦	١٦ر٣	١٦ر٢
٢ ـ المديرون الاداريون ومديرو الاعمال	٣ر٤	١ر٨	٢ر٢	١ر٠	٠ر٧	٠ر٧	١ر٢	٠ر٩	١ر٠	٢ر٠	١ر١	١ر٣
٣ ـ المهن الكتابية	١٥ر٤	٧ر٨	٩ر٦	١٨ر٦	٩ر٥	١١ر٩	٢٠ر٥	٩ر٥	١٢ر٧	٢٢ر٨	٩ر٣	١٢ر٤
٤ ـ اعمال البيع	١٠ر٨	٧ر٥	٨ر٣	١٠ر٦	٨ر٣	٨ر٩	٧ر١	٨ر٥	٨ر١	٥ر٠	٦ر٨	٦ر٤
٥ ـ اعمال الخدمات	٣٢ر٨	٢١ر٩	٢٤ر٤	٣٧ر٦	١٩ر٦	٢٤ر٣	٣٧ر٨	٢١ر٥	٢٦ر٢	٣٦ر٣	٢٠ر١	٢٣ر٦
٦ ـ الزراعة وتربية الحيوان والصيد	١ر٨	٢ر٠	٢ر٠	١ر٤	١ر٧	١ر٧	٤ر٥	١ر٨	٢ر٦	٣ر٧	١ر٦	٢ر٠
٧ ـ عمال الانتاج والعمال العاديون	٢٦ر٣	٤٩ر٥	٤٤ر١	٢١ر٧	٤٧ر٥	٤٠ر٨	١٧ر٦	٤٢ر٧	٣٥ر٤	١٣ر٥	٤٤ر٨	٣٨ر١
٨ ـ غير مبين المهنة	٦ر٦	١ر٢	٢ر٥	٣ر٠	٠ر٣	٠ر٩	..	..	...	..	..	..
جملة ذوي المهن	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

المصدر : نفس مصدر الجدول (٦)

جدول رقم (٨)
الزيادة في جملة ذوي النشاط ، حسب اقسام
النشاط الاقتصادي والجنسية بين
١٩٦٥ و ١٩٨٠

النشاط الاقتصادي	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
١ ـ الزراعة والصيد	٣٣٦٥	٥ر٣	٢٨٠٢	١ر٦	٧١٦٢	٢ر٣
٢ ـ المناجم والمحاجر	١٠٤٨	١ر٦	ـ١٣٨١	ـ٠ر٦	ـ٢٢٣	ـ٠ر١
٣ ـ الصناعات التحويلية	١٣٥٤	٢ر١	٢١٩٦٤	٩ر١	٢٣٣١٨	٧ر٦
٤ ـ التشييد والبناء	ـ٥٨	ـ٠ر١	٦٨٣٠٩	٢٨ر٢	٦٨٢٥١	٢٢ر٣
٥ ـ المياه والغازوالكهرباء	٤٢٣	٠ر٧	٧٥٣	٠ر٣	١١٧٦	٠ر٤
٦ ـ تجارة الجملة والتجزئة والمطاعم والفنادق	ـ٥٥٢	ـ٠ر٩	٢٥٩٢٤	١٤ر٨	٣٥٣٧٢	١١ر٦
٧ ـ النقل والتخزين والمواصلات	٥٢١٩	٨ر٢	١٤٩٠٩	٦ر٢	٢٠١٢٨	٦ر٦
٨ ـ التمويل والتامين والعقارات وخدمات الاعمال والخدمات الاجتماعية الشخصية	٥٢٧٥٨	٨٣ر٠	٩٧٨٤٧	٤٠ر٤	١٥٠٦٠٥	٤٩ر٣
جملة ذوي النشاط	٦٣٥٥٣	١٠٠	٢٤٢١٢٧	١٠٠	٣٠٥٦٨٠	١٠٠

المصدر : تم اعداد الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ١١١ ص ١٢٠ والجدول ١١٢ ص ١٢٢

جدول رقم (٩)

الزيادة في جملة ذوي النشاط حسب الجنسية
والمهنة بين ١٩٦٥ ـ ١٩٨٠

النشاط الاقتصادي	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
١ ـ المهن العلمية والفنية	١٤٨٣٥	٢٣ر٤	٥٠٤٩١	٢١ر٠	٦٥٣٢٦	٢١ر٥
٢ ـ الاداريون ومديرو الاعمال	٦٤٣	١ر٠	١٦٠٨	٠ر٧	٢٢٥١	٠ر٧
٣ ـ الموظفون التنفيذيون والكتابيون	١٨٠٠٦	٢٨ر٤	٢٤٤٦٢	١٠ر٢	٤٢٤٦٨	١٤ر٠
٤ ـ اعمال البيع	٥٧٠	٠ر٩	١٥٢٤٦	٦ر٣	١٥٨١٦	٥ر٢
٥ ـ اعمال الخدمات	٢٣٤٧٤	٣٧ر١	٤٥٦٢١	١٨ر٩	٦٩٠٩٥	٢٢ر٧
٦ ـ الزراعة وتربية الحيوان والصيد	٣١١٦	٤ر٩	٣٠٦٩	١ر٣	٦١٨٥	٢ر٠
٧ ـ عمال الانتاج والعمال العاديون	٢٦٦٤	٤ر٢	١٠٠٤٤٣	٤١ر٧	١٠٣١٠٧	٣٣ر٩
جملة زيادة ذوي المهن	٦٢٣٠٨	١٠٠	٢٤٠٩٤٠	١٠٠	٣٠٤٢٤٨	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ الجدول ١٠٩ ص ١١٧ والجدول ١١٠ ص ١١٨ .

تزايد السكان غير الكويتيين والاختلالات الهيكلية السكانية

ان تزايد عدد السكان بمعدلات خارقة للعادة ، من جهة ، وما رافق ذلك من تغيرات بارزة في مختلف جوانب الهيكل السكاني ، من جهة أخرى ، يعدُّ من أبرز التطورات غير المقصودة ، التي شهدتها مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الكويت منذ الخمسينات .

١ ـ سرعة واتجاهات النمو :

ارتفع عدد سكان الكويت من ٢٠٦٤٧٣ عام ١٩٥٧ الى ١٦٩٥١٢٨ عام ١٩٨٥ ، أي بمعدل نمو ٧,٨٪ سنوياً .

وكما يتضح من الجدول (٩) تباين معدلات النمو بين سنوات التعدادات بالنسبة لجملة السكان والسكان غير الكويتيين والسكان الكويتين .

أ ـ جملة السكان :

شهدت الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ أعلى معدل للنمو ، ١١,٧٪ سنوياً ، ثم انخفض معدل النمو الى ٩,٨٪ و ٩,٦٪ و ٦,١٪ خلال الفترات ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ ، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ و ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ ، على التوالي ، ثم ارتفع إلى ٦,٤٪ خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ وانخفض إلى أدنى مستوى له ، ٤,٥٪ خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ .

وباستثناء الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ فقد كان معدل نمو الذكور أعلى من معدل نمو الاناث بينما كان معدل نمو الاناث أعلى من معدل نمو الذكور خلال جميع الفترات .

ب ـ السكان غير الكويتيين :

بالرغم من التباين بين معدلات نمو غير الكويتيين وجملة السكان بين سنوات التعدادات ، إلا أن الاتجاه العام لنمو السكان غير الكويتيين اتسق مع الاتجاه العام لنمو جملة السكان .

فكما في حالة جملة السكان ، شهدت الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ أعلى معدل للنمو ١٤,٥٪ سنويا ، ثم انخفض معدل النمو إلى ١١,٥٪ و ٩,٦٪ و ٦,٠٪ خلال الفترات ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ ، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ ، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ ، على التوالي ثم ارتفع إلى ٨,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ وانخفض إلى أدنى مستوى له ، ٥,١٪ خلال الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ .

وكما في حالة جملة السكان ، باستثناء الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ، حيث كان معدل نمو الذكور أعلى من معدل نمو الإناث ، كان معدل نمو الاناث أعلى من معدل نمو الذكور خلال جميع الفترات .

جـ ـ السكان الكويتيون :

بلغ معدل نمو السكان الكويتيين ٩,٣٪ سنويا خلال الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ ، وكان بذلك أقل من معدلات نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان . وخلافاً لمعدلات نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان ، لم يكن معدل النمو خلال هذه الفترة أعلى من معدلات النمو خلال الفترات التالية .

وكاتجاه نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان ، انخفض معدل نمو السكان الكويتيين الى ٨,٠٪ خلال الفترة ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ ولكنه ارتفع الى ٩,٦٪ خلال الفترة ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ ثم انخفض الى ٦,٣٪ خلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ واستقر على ٣,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ و ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ . وباستثناء الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ حيث كان معدل نمو الذكور أعلى قليلاً من معدل نمو الاناث ، كان معدل نمو الاناث إما أعلى أو مساوياً لمعدل نمو الذكور خلال بقية الفترات .

د ـ سرعة نمو السكان الكويتيين والسكان غير الكويتيين :

باستثناء الفترة ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ حيث كان معدل نمو جملة السكان الكويتيين ٩,٦٪ سنويا ، مساوياً لمعدل نمو جملة السكان غير الكويتيين ، والفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ ، حيث زاد معدل نمو السكان الكويتيين قليلا عن معدل نمو السكان غير الكويتيين ، ٦,٣٪ مقابل ٦,٠٪ ، كان معدل جملة السكان غير الكويتيين أعلى من معدل نمو السكان الكويتيين في بقية الفترات .

وكانت معدلات نمو الذكور والاناث وجملة السكان غير الكويتيين أعلى من معدلات نمو الذكور والاناث وجملة السكان الكويتيين ، ٨,٠٪ مقابل ٦,٤٪ و ١١,٢٪ مقابل ٦,٨٪ و ٨,٩٪ مقابل ٦,٦٪ ، على التوالي ، خلال كامل الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٨٥ .

٢ ـ أسباب النمو :

يتأثر نمو السكان بمعدل المواليد ومعدل الوفيات وصافي الهجرة ، وعادة يتغير معدل المواليد ومعدل الوفيات ببطء ، أما صافي الهجرة فأكثر عرضة للتغير بسرعة .

أ ـ السكان الكويتيون :

تراوح معدل نمو السكان الكويتيين بين ٩,٦٪ سنويا و ٦,٣٪ سنوياً خلال الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٧٥ ، واستقر على ٣,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥ . بينما يمكن اعتبار معدل نموهم خلال الفترة ، ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥ ، طبيعياً لا يمكن اعتبار معدلات نموهم خلال الفترة ١٩٥٧ ـ ١٩٧٥ طبيعية . إذ بافتراض معدلات وفيات منخفضة جداً ، فمن غير المعقول أن تكون معدلات المواليد كانت مرتفعة لدرجة أتاحت تحقيق معدلات نمو خارقة للعادة خلال هذه الفترة .

فكيف يمكن تفسير معدلات النمو غير الاعتيادية ؟ لا تتوفر لنا بيانات ومعلومات تتيح لنا اجابة قاطعة عن ذلك . ولكن من الممكن اقتراح بعض الأسباب بصفة أولية . فمن الممكن تفسير معدلات النمو المرتفعة جزئياً بتحسن ودقة التعدادات السكانية وجزئيا بالتجنيس .

ب ـ السكان غير الكويتيين :

وأما بالنسبة لمعدلات نمو السكان غير الكويتيين فكانت في المقام الأول بسبب الهجرة الصافية . فكما ذكرنا سابقا أدت عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى زيادات مستمرة في الطلب على العمالة أكبر بكثير من العرض منها محلياً وكان لا بد من مواجهة العجز المتزايد بعمالة وافدة ، عربية وغير عربية . وأدى تدفق العمالة الوافدة وما رافقها من أفراد أسرها إلى تزايد عدد السكان غير الكويتيين من جهة وإلى زيادة الطلب على العمالة الوافدة لمواجهة ازدياد الطلب على الخدمات من جهة أخرى .

٣ ـ التغيرات الهيكلية :

أدت الزيادات غير الطبيعية للسكان غير الكويتيين بسبب الهجرة الصافية ، في المقام الأول ، إلى احداث تغيرات هامة في مختلف جوانب الهيكل السكاني .

أ ـ تناقص نسبة السكان الكويتيين :

أدت زيادة سرعة نمو عدد السكان غير الكويتيين عن سرعة نمو السكان الكويتيين إلى اتجاه نسبة السكان الكويتيين إلى الانخفاض واتجاه نسبة غير الكويتيين الى الارتفاع .

فكما يتضح من الجدول (١٠) أن نسبة السكان الكويتيين قد انخفضت من ٥٥٪ عام ١٩٥٧ إلى ٤٠,١٪ عام ١٩٨٥ نجد أن نسبة السكان غير الكويتيين قد ارتفعت من ٤٥,٠٪ إلى ٥٩,٩٪ بين نفس العامين. وبينما كانت نسبة السكان الكويتيين أكبر من نسبة السكان غير الكويتيين ، « ٥٥,٠٪ مقابل ٤٥,٠٪ عام ١٩٥٧ » ، أصبحت نسبة السكان غير الكويتيين أكبر من نسبة السكان الكويتيين ، « ٥٩,٩٪ مقابل ٤٠,١٪ عام ١٩٨٥ » .

جدول رقم (١٠)

السكان حسب الجنسية في سنوات

التعداد ـ (نسب مئوية)

سنوات التعداد	كويتي	غير كويتي	المجموع
١٩٥٧	٥٥ر٠	٤٥ر٠	١٠٠
١٩٦١	٥٠ر٣	٤٩ر٧	١٠٠
١٩٦٥	٤٧ر١	٥٢ر٩	١٠٠
١٩٧٠	٤٧ر٠	٥٣ر٠	١٠٠
١٩٧٥	٤٧ر٥	٥٢ر٥	١٠٠
١٩٨٠	٤١ر٧	٥٨ر٣	١٠٠
١٩٨٥	٤٠ر١	٥٩ر٩	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على أساس نفس مصدر الجدول (٩) .

ب ـ الهيكل النوعي :

يتضح من الجدول (١١) أن نسبة الذكور اتجهت إلى انخفاض بينما اتجهت نسبة الاناث إلى الارتفاع بالنسبة للسكان الكويتيين وغير الكويتيين على السواء .

كانت نسبة الذكور ٥٢,١٪ ، وكانت نسبة الاناث ٤٧,٩٪ من السكان الكويتيين بينما كانت نسبة الذكور ٨٧,٥٪ ونسبة الاناث ٢١,٥٪ من السكان غير الكويتيين عام ١٩٥٧ وأصبحت نسبة الذكور ٤٩,٦٪ ونسبة الاناث ٥٠,٤٪ في السكان الكويتيين ونسبة الذكور ٦١,٨٪ ونسبة الاناث ٣٨,٣٪ من السكان غير الكويتيين عام ١٩٨٥

وإن كان الاتجاه واحدا بالنسبة للسكان الكويتيين وغير الكويتيين ، إلا أن نسب الذكور والاناث بالنسبة للسكان الكويتيين ، وإن تباينت بين سنوات التعداد ، إلا أنها تعتبر طبيعة وتتسق مع الهيكل النوعي الطبيعي للسكان .

أما بالنسبة للسكان غير الكويتيين فقد كان الهيكل مختلاً كثيراً عام ١٩٥٧ . وبالرغم من التحسن الذي طرأ على نسبة الاناث حيث ارتفعت من ٢١,٥٪ عام ١٩٥٧ الى ٣٨,٢٪ عام ١٩٨٥ ، إلا أن الهيكل النوعي بقي مختلا كثيرا . وهذا يعني أن نسبة النوع طبيعية بالنسبة للسكان الكويتيين بينما هي غير طبيعية بالنسبة للسكان غير الكويتيين . . فمجتمع غير الكويتيين مجتمع ذكور . ونظراً لأن سرعة تزايد السكان غير الكويتيين كان أعلى من سرعة تزايد السكان الكويتيين ، أصبح هيكل جملة السكان مختلاً بالنسبة للنوع والجنسية .

ويعود الاختلال في الهيكل النوعي للسكان غير الكويتيين إلى أثر الهجرة الصافية . ففي أول الأمر لم تتخذ هجرة العمالة ، وهي من الذكور ، الطابع الأسري على اعتبار أن الهجرة ستكون مؤقتة . وعندما امتدت فترات إقامة العمالة وابتدأ اتجاه الطابع الأسري لهجرة العمالة وضعت الحكومة ضوابط لاصطحاب أو إحضار أفراد أسر العمالة الوافدة . وبذلك بقيت نسبة الذكور في السكان غير الكويتيين مرتفعة .

جـ ـ تنوع جنسيات السكان غير الكويتيين :

كما يتضح من الجدول (١٢) تشمل قوة العمل غير الكويتية رعايا من مختلف مجموعات دول العالم . وتأتي نسبة قوة العمل العربية في المقام الأول ونسبة قوة العمل الآسيوية في المقام الثاني في عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٠ . وبالرغم من استمرار نسبة قوة العمل العربية في المقام الأول إلا أنها انخفضت بشكل بارز بينما ارتفعت نسبة قوة العمل الآسيوية بشكل ملحوظ بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

وبما أن قوة العمل غير الكويتية تنتمي إلى مختلف مجموعات دول العالم ، فإن السكان غير الكويتيين ـ وكما يتضح من الجدول (١٣) ـ ينتمون إلى مختلف مجموعات دول العالم . وكما أن نسبة قوة العمل العربية تأتي في المقام الأول ويليها نسبة قوة العمل الآسيوية ، تأتي نسبة السكان العرب في المقام الأول ويليها السكان الآسيويون . وكما انخفضت نسبة قوة العمل العربية وارتفعت نسبة قوة العمل الأسيوية ، فقد انخفضت ـ أيضا ـ نسبة السكان العرب بينما ارتفعت نسبة السكان الآسيويين بين « ١٩٧٥ و ١٩٨٠ » .

جدول رقم (١٢)

قوة العمل غير الكويتية حسب مجموعات الدول

التوزيع النسبي

مجموعات الدول	١٩٧٥	١٩٨٠
عربية	٦٨ر٩٧	٥٩ر٥٥
آسيوية	٢٩ر٤٢	٣٧ر٩٧
افريقية	٠ر٠٥	٠ر٢١
امريكية واوروبية	٠ر٩٥	١ر٤٤
معطلون جدد	٠ر٦١	٠ر٨٣
الجملة	١٠٠	١٠٠

المصدر : المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ١٠٠ ص ١١٠ .

جدول رقم (١٣)

السكان غير الكويتيين حسب مجموعات الدول

(نسب مئوية)

مجموعات الدول	١٩٧٥	١٩٨٠
عربية	٨٠ر١٩	٧٢ر٥١
آسيوية	١٨ر٧١	٢٥ر٧٦
افريقية	٠ر٠٨	٠ر٢٠
اوروبية	٠ر٨٢	١ر٢٦
امريكية	٠ر١٦	٠ر٢٥
اخرى	٠ر٠٤	٠ر٠٢
الجملة	١٠٠	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على اساس ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ - جدول ٣٩ ، ص ٥٥ .

د . الهيكل العمري للسكان ومعدل المشاركة :

يستدل من الجدول (١٤) أن نسبة صغار السن (أقل من ١٥ سنة) في السكان الكويتيين قد تذبذبت قليلا حيث انخفضت قليلا عام ١٩٧٠ ثم ارتفعت قليلا عام ١٩٧٥ ثم انخفضت قليلا عام ١٩٨٠ ، بينما اتجهت نسبة صغار السن في السكان غير الكويتيين إلى الارتفاع تدريجياً بين ١٩٦٥ ـ ١٩٧٥ ، ثم انخفضت عام ١٩٨٠ . ويعود انخفاض هذه النسبة بين عام ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ إلى القيود التي فرضت على اصطحاب أفراد أسر العمالة الوافدة . وبسبب اتجاه نسبة صغار السن إلى الارتفاع بين ١٩٦٥ ـ ١٩٧٥ اتجهت نسبة من هم في سن ١٥ ـ ٥٩ سنة إلى الانخفاض خلال نفس الفترة ، إذ انخفضت النسبة من ٦٨,٨٪ عام ١٩٦٥ إلى ٦٠,٥٪ و ٥٨,٨٪ عام ١٩٧٠ و ١٩٧٥ على التوالي ، وعلى عكس ما حصل بالنسبة لصغار السن ، ارتفعت هذه النسبة من ٥٨,٨٪ عام ١٩٧٥ إلى ٦٥,١٪ عام ١٩٨٥ ، حيث أصبح اصطحاب أفراد الأسر أو إحضارهم أقل سهولة من الفترات السابقة .

وأما بالنسبة للسكان الكويتيين فقد كانت تقلبات نسبة صغار السن أقل منها في السكان غير الكويتيين ، فبينما كانت ٤٨,٩٪ عام ١٩٦٥ نجد أنها ارتفعت قليلا ووصلت إلى ٤٩,٢٪ عام ١٩٨٠ .

وبما أن حجم السكان غير الكويتيين أكبر من حجم السكان الكويتيين فقد تأثر الهيكل العمري لجملة السكان بالهيكل العمري للسكان غير الكويتيين أكثر من تأثره بالهيكل العمري للسكان الكويتيين . لذلك اتجهت نسبة صغار السن في جملة السكان إلى الارتفاع بين ١٩٦٥ ـ ١٩٧٥ ، حيث ارتفعت من ٣٨,٠٪ عام ١٩٦٥ إلى ٤٣,١٪ و ٤٣,٤٪ عام ١٩٧٠ و ١٩٧٥ على التوالي ـ ثم انخفضت إلى ٤٠,٣٪ عام ١٩٨٠ .

ويؤثر الهيكل العمري والهيكل النوعي على معدل المشاركة (قوة العمل كنسبة مئوية من السكان) ، بافتراض الهيكل النوعي . فكلما ازدادت نسبة صغار السن كلما انخفض معدل المشاركة . وكما يتضح من الجدول (١٥) ، فقد اتجه معدل المشاركة بالنسبة لغير الكويتيين إلى الانخفاض وذلك بين (١٩٦٥ ـ ١٩٧٥) نظراً لأن نسبة صغار السن فيهم اتجهت إلى الارتفاع خلال نفس الفترة . وبما أن نسبة صغار السن انخفضت عام ١٩٨٠ ، فقد ارتفع معدل المشاركة .

أما بالنسبة للسكان الكويتيين ، فلا يبدو أثر التغير في نسبة صغار السن على معدل المشاركة واضحا . إذ أن اتجاهها كان واحدا بين ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ ، وبالرغم من أن نسبة صغار السن ارتفعت عام ١٩٧٥ عما كانت عليه عام ١٩٧٠ ، إلا أن معدل المشاركة ارتفع بدلا من أن ينخفض ، كما أن اتجاه نسبة صغار السن ومعدل المشاركة كان واحدا بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

دروس الخبرة وآفاق المستقبل

يمكن استخلاص المعالم الأساسية لنموذج تفاعل العوامل التي أدت إلى ظاهرة الهجرة الواسعة للعمالة من مختلف دول العالم إلى الكويت والتي أعطت ثمارا يانعة ، من جهة ، وبعض الثمار غير المرغوبة ، من جهة أخرى .

جدول رقم (١٥)

قوة العمل كنسبة مئوية من السكـــان

	١٩٥٧	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠
كويتـــي	٢١ر٧	١٩ر٥	١٨ر٨	١٩ر٥	١٩ر١
غير كويتـــي	٦٠ر٠	٥٧ر١	٤٥ر٢	٤٠ر٧	٤٨ر٤
المجمـــــوع	٣٨ر٩	٣٩ر٤	٣٢ر٨	٣٠ر٦	٣٦ر٢

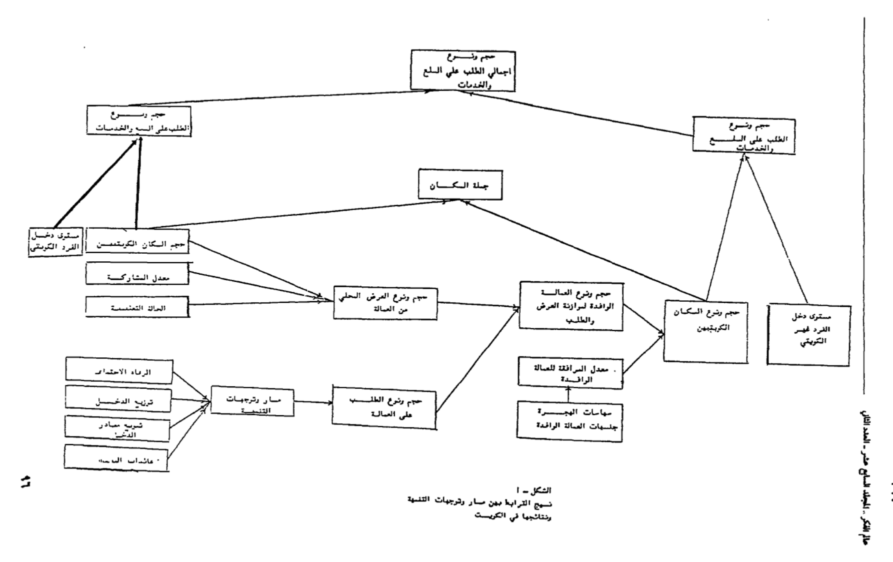
المصدر : تم اعداد الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ٩ ص ٢٥ ـ والجدول ١ من هذه الدراسة .

١ ـ النموذج :

يبين الشكل ـ ١ تصوراً مبسطاً لنسيج الترابط بين العوامل التي أدت إلى ظاهرة الهجرة الواسعة للعمالة الوافدة إلى الكويت والآثار التي ترتبت عليها .

بدأت مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بعد أن بدأت عائدات النفط بالتدفق في أوائل الخمسينات . وتأثر مسار وتوجهات التنمية وسرعتها منذ البداية بسرعة نمو عائدات النفط من جهة ، وبمفهوم وأهداف التنمية من جهة أخرى . وفي إطار مفهوم التنمية التي تطلعت الحكومة إلى تحقيقها ، حظي الرفاه الاجتماعي وظله وتوزيع الدخل وتنويع مصادر الدخل باهتمام خاص .

يعتمد تحقيق أهداف التنمية على الموارد المتاحة من جهة ، وعلى كفاءة تخصيصها واستخدامها من جهة أخرى . وتوفرت ، بفضل العائدات النفطية ، الموارد المالية اللازمة لتمويل مشروعات متزايدة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ونظراً لصغر حجم السكان من جهة ، وندرة المهارات من جهة أخرى ، عجز العرض المحلي من العمالة عن تلبية متطلبات عمليات التنمية منذ مستهل المسيرة . وتم سد العجز باستيراد العمالة اللازمة من دول عربية وغير عربية . ولم تقتصر الهجرة على العمالة ، بل وشملت أيضا أفراد أسر العمال المهاجرين . أي أن حجم السكان غير الكويتيين تأثر بعاملين : حجم العمالة الوافدة ومعدل المرافقة لها . وتأثر معدل المرافقة بسياسات وإجراءات الهجرة التي تبنتها ونفذتها الحكومة ، من جهة ، وبجنسيات العمالة الوافدة من جهة أخرى .



الشكل ـ ١
نموذج الترابط بين مسار وتوجهات التنمية
ونتائجها في الكويت

وبما أن حجم ونوع السكان ومستوى دخلهم يحدد حجم ونوع طلبهم على السلع والخدمات ، تأثر إجمالي ونوع الطلب على السلع والخدمات بحجم السكان غير الكويتيين وجنسياتهم ومستوى دخلهم . وأصبح السكان غير الكويتيين عاملا مهما في الطلب على السلع والخدمات وتلبية الطلب على السواء . بمعنى آخر ، أصبحوا عاملا مهما في إنتاج واستهلاك السلع والخدمات على السواء .

وبسبب الزيادة المستمرة في العائدات النفطية ، وخاصة في الفترة التي تلت ارتفاع أسعار النفط في ١٦ اكتوبر ١٩٧٣ وحتى أوائل الثمانينات عندما بدأ الكساد العالمي ، أخذ الطلب على العمالة الوافدة بالارتفاع باستمرار . وأدى تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة إلى تناقص نسبة العمالة الكويتية في جملة العمالة من جهة ، وتزايد نسبة السكان الوافدين في جملة السكان من جهة أخرى . وأصبح الكويتيون يشكلون ١ , ٤٠٪ من جملة السكان حسب تعداد ١٩٨٥ وفقط ٢ , ٢٣٪ من جملة المشتغلين حسب تقدير ١٩٨٣ .

٢ ـ الانكماش الاقتصادي وانخفاض الطلب على العمالة :

تأثر إنتاج وتصدير النفط بالكساد العالمي الذي بدأ في مطلع الثمانينات . وبما أن الاقتصاد الكويتي اعتمد ، ولا زال يعتمد ، في المقام الأول ، على قطاع النفط ، بدأ أيضا في الانكماش في مطلع الثمانينات .

فقد انخفض إجمالي الناتج المحلي من قيمته ١٧٤٦,٧، مليون دينار كويتي (بالأسعار الثابتة سنة ١٩٧٢) عام ١٩٧٩ إلى ١٥٧٧,٤ مليون دينار كويتي و ١٤٩٤,٠ مليون دينار كويتي و ١٤٧٣,٧ مليون دينار كويتي عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ ، على التوالي [٦] .

ولكن بالرغم من تراجع إجمالي الناتج المحلي بسبب تراجع الناتج المحلي النفطي ، استمر الناتج المحلي غير النفطي بالارتفاع ـ فقد ارتفع من ١٠٥٠,٨ مليون دينار كويتي (بالأسعار الثابتة سنة ١٩٧٢) عام ١٩٧٩ الى ١١١٤,٢ مليون دينار كويتي و ١١٧٨,٧ مليون دينار كويتي و ١٢٤٢,٣ مليون دينار كويتي عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ ، على التوالي [٧] .

ويعود استمرار ارتفاع الناتج المحلي غير النفطي بالرغم من استمرار تراجع الناتج المحلي النفطي وبالتالي استمرار تراجع إجمالي الناتج المحلي ، في المقام الأول ، بين ١٩٧٩ و ١٩٨٢ ، إلى استمرار نمو الانفاق العام [٨] . فمستوى النشاط الاقتصادي خارج قطاع النفط اعتمد ، ولا زال يعتمد ، على مستوى الانفاق العام . ولكن بسبب اتجاه أسعار النفط إلى الانخفاض منذ مارس ١٩٨٣ وتدهورها منذ أواخر ١٩٨٥ ، وبالتالي تدهور الايرادات النفطية ، أصبح لزاماً على الحكومة أن تلجأ الى تخفيض الانفاق العام ، مما اضطرها إلى تقليص ميزانية عام ١٩٨٥/١٩٨٦ ، بعد اعتمادها .

---

(٦) المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ٢١٣ ص ٢٤٢ .

(٧) نفس المصدر السابق .

(٨) ارتفعت جملة المصروفات الحكومية من حوالي ٢٧٠٣ مليون دينار عام ١٩٨٠/ ١٩٨١ إلى ٣٢٤٨ مليون دينار عام ١٩٨٢/ ١٩٨٣ ، ولكنها انخفضت الى ٣٠٢٤ مليون دينار عام ١٩٨٣/ ١٩٨٤ . انظر المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ الجدول ٢١٧ ص ٢٤٦ .

وكما يتوقع أدى تباطؤ النمو الاقتصادي الذي بدأ في مطلع الثمانينات إلى تراجع الطلب على العمالة وتزامن اتجاه انخفاض الطلب على العمالة مع أمرين مهمين فيما له علاقة بالعمالة الوافدة . الأمر الأول ، أنه قد تم إقامة معظم ، إن لم يكن جميع الهياكل الأساسية الاقتصادية والاجتماعية اللازمة لعمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وبما أن مشروعات الهياكل الأساسية أسهمت إسهاماً كبيراً في ازدهار قطاع التشييد والبناء خلال الفترة الماضية من جهة ، ونظراً لأن هذا القطاع اعتمد اعتماداً كلياً تقريباً ، على العمالة الوافدة واستخدام نسبة كبيرة منها ، من جهة أخرى ، أخذ الطلب على العمالة اللازمة لهذا القطاع بالانخفاض . وأما الأمر الآخر فيتعلق بقوة العمل من الكويتيين .

يتوقف حجم قوة العمل على حجم السكان ومعدل المشاركة وتتوقف نوعية قوة العمل على نوعية ومستوى مهاراتها ، أي نوع ومستوى تعليمها . وكما تبين لنا سابقاً فقد تزايد السكان الكويتيون بسرعة عالية خلال الفترة الماضية ، وتزايد عدد الاناث في قوة العمل من جهة وتراجعت نسبة الأمية وطرأ تحسن ملموس على الحالة التعليمية لقوة العمل وزادت خبرتها من جهة أخرى [٩] . أي أن العرض المحلي من قوة العمل قد تحسن كثيرا ، كما ونوعاً .

فإذا كان النمو الاقتصادي ، الذي ارتبط بنمو عائدات النفط من جهة ، وتزايد عجز العرض المحلي من قوة العمل عن تلبية تزايد الطلب على العمالةمن جهة أخرىقد أديا إلى ظاهرة الهجرة الواسعة وما ترتب عليها من آثار مقصودة وآثار غير مقصودة في الماضي ، هل يؤدي تباطؤ النمو الاقتصادي بسبب تراجع عائدات النفط وانخفاض الطلب على العمالة من جهة ، وتحسن العرض المحلي من قوة العمل ، كما ونوعاً ، من جهة أخرى ، إلى هجرة معاكسة ؟ .

لقد أدت الهجرة التي تمت على نطاق واسع لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى خلق ترابط وثيق بين تواجد الوافدين وتوقعات استمرار وتزايد تواجدهم والعديد من مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تمت فما لم تتم الهجرة المعاكسة ، إن كان لا بد من أن تتم ، في إطار رؤ يا واضحة وخطة مدروسة تنطلق من إدراك واع وتام لأرض الواقع وحكم سليم على احتمالات المستقبل ،فقد يترتب عليها آثار سلبية غير محسوبة يصعب احتواؤ ها .

٣ ـ هل ستستمر الحاجة إلى العمالة الوافدة في المدى المنظور :

يبين الجدولان ١٦ و١٧ المشتغلين عام ١٩٨٠ و١٩٨٣ . ويتضح من الجدولين أن مجموع عدد المشتغلين ازداد بمعدل ٠,٦٣٪ سنوياً بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . بينما ازداد عدد المشتغلين الكويتيين بمعدل ٣,٦٦٪ سنويا وارتفعت نسبتهم من مجموع المشتغلين من ٢١,٢٪ الى ٢٣,٢٪ وقد تناقص عدد المشتغلين غير الكويتين بمعدل ٠,٢١٪ وانخفضت نسبتهم من ٧٨,٨٪ الى ٧٦,٨٪ خلال هذه الفترة . فما هي احتمالات المستقبل ؟

يتضح من الجدولين أن ثلاث قطاعات ، خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية والتشييد والبناء والصناعات التحويلية ، استخدمت ٧٤,٣٪ من مجموع المشتغلين عام ١٩٨٠ وقد ارتفعت هذه النسبة الى ٧٥,٨٪ عام ١٩٨٣ .

---

(٩) كان ٥١,٦٪ و ٣٩,٠٪ من جملة العمل الكويتية أمي ويقرأ ويكتب على التوالي ، بينما فقط ١,٤٪ من الثانوية و ١,٢٪ من الدرجة الجامعية وما فوقها عام ١٩٦٥ ، وأصبح ٢٥,٣٪ أمي و ١٧,٢٪ يقرأ ويكتب و ١٧,٣٪ من الثانوية و ٧,٦٪ من الدرجة الجامعية وما فوقها عام ١٩٨٠ . انظر المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ . الجدول ١٠٧ والجدول ١٠٨ ص ١١٦ .

وبناء على ذلك فإن مدى استمرار الحاجة إلى العمالة الوافدة ، مرهون ، في المقام الأول ، بما يمكن أن يطرأ على الطلب والعرض بالنسبة للقطاعات الثلاثة .

أ ـ قطاع خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية :

إن نمو المشتغلين في القطاع بين ١٩٨٠ و١٩٨٣ لا يعني أنه سيستمر بنفس الاتجاه أو نفس السرعة في المستقبل المنظور .

وعلى الرغم من أن نمو جملة المشتغلين في مختلف القطاعات كان بطيئاً جداً ، « ٠,٦٣٪ سنوياً » ، بلغ معدل النمو السنوي لجملة المشتغلين في قطاع خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية ٤,٥٪ خلال ١٩٨٠ ـ ١٩٨٣ . ويعود سبب نمو المشتغلين في قطاع خدمات المجتمع ، في المقام الأول ، إلى نمو السكان . حيث بلغ معدل النمو السنوي لجملة السكان ٤,٥٪ خلال نفس الفترة .

وبما أن الحكومة اعتمدت سياسات وستتخذ إجراءات لتعديل التركيبة السكانية فمن المتوقع أن تنخفض سرعة نمو جملة السكان إلى ٢,٢٢٪ ما بين عام بين ١٩٨٥ وعام ٢٠٠٠ [١٠] . وبافتراض استمرار نفس مستوى الخدمات من جهة ونفس مستوى إنتاجية العمالة فيه ، من جهة أخرى ، سيكون نمو جملة العمالة في القطاع في حدود ٢٪ سنوياً .

ومن الممكن مواجهة نمو طلب القطاع من النمو المتوقع في عرض العمالة الكويتية . .ولكن ليس ذلك بالأمر السهل . فحسب بعض التقديرات يمثل المشتغلون في الخدمات الشخصية والمنزلية حوالي ٢٠٪ من جملة المشتغلين في القطاع ، وما لا يقل عن ٩٥٪ منهم من غير الكويتيين [١١] . وقد ازداد الطلب على هذه العمالة بسبب نمو الرخاء من جهة وظهور قيم اجتماعية من جهة أخرى . فعدد المشتغلين في الخدمات المنزلية للعائلة يعتبر مؤشراً لمكانتها في المجتمع . ومن غير المتوقع أن يتجه الطلب على هذه الفئة إلى الانخفاض .

ويتضح مما سبق أن حاجة القطاع إلى العمالة الوافدة ستستمر ، ولكن بدرجة أقل ، في المدى المنظور .

ب ـ قطاع التشييد والبناء :

كما يتضح من الجدولين « ١٦ و ١٧ » تراجع عدد المشتغلين في القطاع من « ٩٧٠٩٩ إلى ٨١٣٦٢ » وتراجعت نسبة المشتغلين في القطاع من جملة المشتغلين من « ٢٠,١٪ » إلى « ١٦,٥٪ » بين ١٩٨٠ و١٩٨٣ .

لقد تأثر ازدهار القطاع في الفترة الماضية ، في المقام الأول ، بازدهار مشروعات الهياكل الأساسية الأقتصادية والاجتماعية ومشروعات الاسكان التي نفذتها الحكومة ، كما تأثر ايضا ببناء المساكن من قبل القطاع الخاص .

وفيما يتعلق بالهياكل الأساسية لقد تم إقامة معظمها ، إن لم يكن جميعها ، ولذلك فإن أي توسع فيها سيكون في حدود بسيطة نسبيا . وكذلك الأمر بالنسبة لبناء المساكن من قبل القطاع الخاص .

---

(١٠) بافتراض معدل نمو سنوي مقداره ٣,٧٤٪ سيكون عدد السكان الكويتيين ١١٧٨٨٢١ عام ٢٠٠٠ . وبافتراض تحقيق التوازن السكاني سيكون جملة السكان ٢٣٥٧٦٤٢ عام ٢٠٠٠ . وبما أن جملة عدد السكان ١٦٩٥١٢٨ عام ١٩٨٥ يكون معدل النمو السنوي لجملة السكان ٢,٢٢٪

(١١) نعيم الشربيني « العمال الأجانب في البلدان العربي المنتجة للنفط » ، التمويل والتنمية ، المجلد ٢١/ رقم ٤ ديسمبر ١٩٨٤ ص ٣٤ ـ ٣٧ .

جدول رقم - ١٦

المشتغلون حسب القطاع والجنسية ١٩٨٠

	كويتـي			غير كويتي			المجمـوع		
	العدد	النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من	
		المشتغلون في القطاع	جملة المشتغلين		المشتغلون في القطاع	جملة المشتغلين		المشتغلون في القطاع	جملة المشتغلين
١ ـ خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية	٧٥٤٦١	٣٤ر٢	٧٣ر٦	١٤٤٩٩٢	٦٥ر٨	٣٨ر١	٢٢٠٤٥٣	١٠٠	٤٥ر٧
٢ ـ التشييد والبنـاء	١٢٠٦	١ر٢	١ر٢	٩٥٨٩٣	٩٨ر٨	٣٥ر٣	٩٧٠٩٩	١٠٠	٢٠ر١
٣ ـ الصناعات التمويلية	٣١٧٩	٧ر٧	٣ر١	٣٨٠٨١	٩٢ر٣	١٠ر٠	٤١٢٦٠	١٠٠	٨ر٥
٤ ـ بقية القطاعـات	٢٢٦٢٤	١٨ر٣	٢٢ر١	١٠١٢٠٥	٨١ر٧	٢٦ر٦	١٢٣٨٢٩	١٠٠	٢٥ر٧
الجملـة	١٠٢٤٧٠	٢١ر٢	١٠٠	٣٨٠١٧١	٧٨ر٨	١٠٠	٤٨٢٦٤١		١٠٠

المصدر : تم إعداد الجدول على أساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ٩٨ ص ١٠٩ .

جدول رقم - ١٧

المشتغلون حسب القطاع والجنسية ١٩٨٣

	كويتي			غير كويتي			المجموع		
	العدد	النسبة المئوية من: المشتغلون في القطاع	النسبة المئوية من: جملة المشتغلين	العدد	النسبة المئوية من: المشتغلون في القطاع	النسبة المئوية من: جملة المشتغلين	العدد	النسبة المئوية من: المشتغلون في القطاع	النسبة المئوية من: جملة المشتغلين
١ - خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية	٨٧٦١٦	٣٤ر٨	٧٦ر٨	١٦٤٢٨٠	٦٥ر٢	٤٣ر٥	٢٥١٨٩٦	١٠٠	٥١ر٢
٢ - التشييد والبناء	١٠٧٣	١ر٣	٠ر٩	٨٠٢٩٠	٩٨ر٧	٢١ر٣	٨١٣٦٣	١٠٠	١٦ر٥
٣ - الصناعات التحويلية	٣١٨٢	٨ر٠	٢ر٨	٣٦٤٨٢	٩٢ر٠	٩ر٧	٣٩٦٦٤	١٠٠	٨ر١
٤ - بقية القطاعات	٢٢٢٧٤	١٨ر٧	١٩ر٥	٩٦٦٨١	٨١ر٣	٢٥ر٥	١١٨٩٥٥	١٠٠	٢٤ر٢
الجملة	١١٤١٤٥	٢٣ر٢	١٠٠	٣٧٧٧٣٣	٧٦ر٨	١٠٠	٤٩١٨٧٨	١٠٠	١٠٠

المصدر : تم إعداد الجدول على أساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ١٣١ ص ١٣٥ .

ومن المتوقع أن ينشأ طلب على العمالة للقطاع لتشغيل وصيانة مشروعات الاستثمار التي بلغت ذروتها في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات . وسيكون مزيج الطلب على المهارات مختلفا عن مزيج الطلب في الفترة السابقة .

ولكن بالرغم من تراجع طلب القطاع على العمالة ووجود أسباب قوية لتراجعه أكثر إلا أن حاجة القطاع للعمالة الوافدة ستستمر في المدى المنظور . فنسبة الكويتيين من جملة المشتغلين في القطاع كانت فقط ٢,١٪ و ٣,١٪ عام ١٩٨٠ و١٩٨٣ على التوالي . إن ارتفاع النسبة من ٢,١٪ الى ٣,١٪ لا تعني زيادة في عدد الكويتيين في القطاع . إذ أن عددهم قد انخفض من ١٢٠٦ الى ١٠٧٣ . ويعود السبب في ارتفاع نسبتهم من ٢,١٪ الى ٣,١٪ إلى انخفاض عدد غير الكويتيين . ونظرا لان نسبة كبيرة من المشتغلين في القطاع من عمال الانتاج والعمال العاديين (في حدود ٨٠ ـ ٨٥٪) فإن درجة مرونة الاحلال في القطاع ضعيفة جدا .

ج . قطاع الصناعات التحويلية :

تراجع عدد من المشتغلين في هذا القطاع من ٤١٢٦٠ الى ٣٩٦٦٤ بين ١٩٨٠ و١٩٨٣ ، إلا أن عدد المشتغلين الكويتيين ارتفع من ٣١٧٩ إلى ٣١٨٢ .

وبما أن الصناعات التحويلية تشمل المنتجات البترولية والمنتجات غير البترولية يعود تراجع عدد المشتغلين في القطاع إلى تراجع النشاط في قطاع النفط. ومن المعلوم أن تنويع مصادر الدخل من خلال إقامة وتطوير صناعات تحويلية حظي ، ولازال يحظى ، باهتمام متزايد . وقد اعتمد هذا القطاع ، ولازال يعتمد ، على العمالة الوافدة بشكل كبير . ففي عام ١٩٨٣ ، كانت نسبة الكويتيين من جملة المشتغلين في القطاع فقط ٨٪ .

وبما ان نسبة كبيرة من المشتغلين في هذا القطاع هم من عمال الانتاج والعمال العاديين (في حدود ٧٠ ـ ٧٥٪) فان درجة مرونة الاحلال فيه ضعيفة . ولذلك فمن المتوقع أن تستمر حاجة القطاع إلى معظم العمالة الوافدة التي تعمل في القطاع حاليا ، كما من المتوقع أن تنشأ العمالة الوافدة لمواجهة أي نمو في الطلب على العمالة خاصة بالنسبة لعمال الانتاج والعمال العاديين وبعض المهارات النادرة في المستقبل المنظور .

٤ ـ مواجهة المرحلة الانتقالية :

بينما كان العجز بين إجمالي الطلب على العمالة وعرض العمالة الكويتية يزداد باستمرار ويتزايد الاعتماد على العمالة الوافدة باستمرار تسارع النمو الاقتصادي خلال الفترة الماضية وخاصة بعد ١٩٧٣ وإلى أوائل الثمانينات ، أصبحت الزيادة في عرض العمالة الكويتية أكبر من الزيادة في اجمالي الطلب على العمالة بسبب تباطؤ النمو الاقتصادي الذي بدأ منذ ١٩٨٠ .

فبينما ازداد عدد المشتغلين « ٩٢٣٧ » « شخص » ازداد عدد المشتغلين الكويتيين « ١١٦٧٥ شخص » وانخفض عدد المشتغلين الوافدين « ٢٤٣٨ شخص » بين ١٩٨٠ و١٩٨٣ . وهذا يعني أن زيادة عدد المشتغلين الكويتيين تمت بزيادة عدد جملة المشتغلين (٧,١٪) وبتخفيض عدد المشتغلين الوافدين (٢٠,٩) وإحلال كويتيين محلهم .

ومنذ عام ١٩٨٤ قام العديد من مؤسسات وشركات القطاع الخاص في مختلف القطاعات الاقتصادية بصفة عامة وفي قطاع التشييد والبناء بصفة خاصة ، باتخاذ إجراءات لمواجهة انخفاض مستوى نشاطها وتراجع الطلب على العمالة وقد تراوحت بين الاستغناء عن بعض العاملين لديها أو تخفيض مرتباتهم وأجورهم وإلغاء بعض المزايا التي كانت تقدمها لهم في السابق .

وقد قررت الحكومة الاستغناء عن عدد من الوافدين العاملين في الوزارات والمؤسسات العامة والهيئات العامة اعتبارا من مطلع صيف هذا العام . وهذا مؤشر على اعتماد الحكومة سياسة تخفيض حجم العمالة الحكومية .

وربما كان هذا الاتجاه نابعا من شعور الحكومة بأن حجم العمالة الحكومية قد ازداد أكثر بكثير من الاحتياجات الفعلية خلال الفترة السابقة حيث أدت سهولة تمويل الانفاق العام ، بسبب تزايد العائدات النفطية ، إلى سهولة خلق وظائف جديدة باستمرار . وفي ظل تدهور العائدات النفطية واهتمام الحكومة بترشيد الانفاق العام ، فمن الطبيعي أن يكون تخفيض العمالة الحكومية بين الخيارات المتاحة لها .

وبما أن التوقعات تشير إلى استمرار تباطؤ نمو اجمالي الطلب على العمالة من جهة ، ونظرا لاتجاه زيادة العرض من العمالة الكويتية من جهة أخرى ، خلال الثمانينات على أقل تقدير ، يثور السؤال حول أفضل الخيارات الممكنة لمواجهة هذه المسألة بشكل يكفل الحد من الآثار السلبية التي قد تترتب على ذلك بالنسبة لجميع الأطراف المعنية . ويتفرع عن هذا السؤال المركزي سؤالان آخران :

الأول : ما هي المعايير التي يتم بموجبها الاستغناء عن العمالة الوافدة ؟ والآخر ما هي السياسات التي ستعتمد بالنسبة لمن سيتم الاستغناء عنهم ؟ .

أ ـ معايير الاستغناء عن العمالة الوافدة :

يتطلب النظر في معايير الاستغناء التمييز بين الاستغناء عن العمالة الوافدة في القطاع الخاص وفي الحكومة . إذ أن الاستغناء عن العمالة في القطاع الخاص أقل اثارة للنقاش وأقل تعرضا لتعدد وجهات النظر . أما الاستغناء عن العمالة الوافدة في الحكومة فأكثر مجالا لاثارة النقاش ولتعدد وجهات النظر حوله .

١ ـ في القطاع الخاص :

ذكرنا أن القطاع الخاص واجه انخفاض حاجته إلى العمالة باعتماد اجراءات تراوحت بين الاستغناء عن بعض العاملين أو تخفيض المرتبات والأجور وإلغاء بعض المزايا . وهذا يعني أن المعيار ينطلق من التكلفة والمنافع . وبصفة عامة يمكن القول أن القطاع الخاص يطبق هذا المعيار على العمالة الكويتية والعمالة الوافدة على السواء في إطار تحقيق مصلحته الخاصة . ومن الطبيعي أنه في حالة تساوي التكلفة والمنافع بين الاستغناء عن عامل وافد آخر كويتي ، ان يحتفظ بالعامل الكويتي ويستغنى عن العامل الوافد . فالتوظيف أصلا في القطاع الخاص يقوم ، في المقام الاول ، على أساس الربح والخسارة وبصفة عامة لا يوظف القطاع الخاص اي شخص ، كويتي او غير كويتي ، إلا في حدود حاجته . كما أن تحديد المرتب والمزايا ، يتم في المقام الاول ، على أساس الربح والخسارة ، اي على اساس مدى الحاجة من جهة والانتاجية من جهة أخرى .

٢ ـ في الحكومة :

يذكر ان مسار وتوجهات التنمية الاقتصادية والاجتماعية تأثرت بمفهوم وأهداف التنمية من جهة وبالعائدات النفطية من جهة أخرى . وتأثرت سياسات التوظيف في الحكومة بسياسات الرفاه الاجتماعي وظله وتوزيع الدخل .

فكفالة الحكومة وظائف عامة للمواطنين أدت ، في كثير من الاحيان ، إلى خلق وظائف للمواطنين دون حاجة فعلية لها . وكادت أن تصبح الوظيفة بالجهاز الحكومي ، في كثير من الاحيان ، وسيلة من وسائل تعميم الفائدة من

عائدات النفط . فراتب الموظف في هذه الحالة بمثابة نصيبه من عائدات النفط ، وربما يتولد شعور لدى البعض أن نصيبه ليس كافيا مقارنا بغيره .

ونظرا لسهولة التوسع في الانفاق العام بسبب الارتفاع الكبير في عائدات النفط في السبعينات تم خلق وظائف كثيرة دون حاجة فعلية لها وتم إشغالها بمواطنين (ووافدين ايضا) وأدت هذه الظاهرة إلى سلسلة من الآثار المترابطة لعل من أهمها :

(١) إضعاف العلاقة بين الكسب والعمل المثمر وبالتالي إضعاف قيم الانتاج والانتاجية والحافز الى العمل .

(٢) تضخم بيروقراطي وبالتالي انخفاض مستوى كفاءة الجهاز الحكومي وانخفاض مستوى إنتاجية المجتمع ككل تبعا لذلك .

(٣) زيادة تدهور التوازن بين العرض من العمالة الكويتية وإجمالي الطلب على العمالة لمختلف القطاعات الاقتصادية وبالتالي تزايد الطلب على العمالة الوافدة .

ويتضح مما سبق أن مسألة اختيار أفضل المعايير الممكنة للتكييف مع الواقع الجديد أقل سهولة منها في القطاع الخاص . فإذا كان لابد من تخفيض حجم العمالة الحكومية ينبغي أن تتم هذه العملية في إطار خطة واضحة توضع على أساس دراسات دقيقة وكافية تعالج المسألة من مختلف جوانبها بقدر كاف من التوازن .

وقبل محاولة إلقاء بعض الضوء على بعض جوانب هذه المسألة للتوصل إلى أفضل الخيارات الممكنة لابد من التوكيد على أن احلال الكويتيين محل الوافدين وتوظيف كويتيين مؤهلين لشغل وظائف جديدة يتم اعتمادها بناء على حاجة فعلية لها هو توجه سليم لتمكين العمالة الكويتية من لعب دور أكبر في مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وفي هذا الاطار ينبغي التمييز بين الاستغناء عن العمالة الوافدة التي تشغل وظائف تزيد عن الحاجات الفعلية وبين الاستغناء عن العمالة الوافدة التي تشغل وظائف لازالت الحاجة اليها قائمة . إن الغاء وظائف لا تدعو الحاجة الفعلية إلى وجودها والاستغناء عن شاغليها مفهوم ومقبول وإجراء مألوف في جميع دول العالم لمواجهة الانكماش الاقتصادي . أما الاستغناء عن العمالة الوافدة بالرغم من أن الحاجة الى وظائفهم قائمة فامر آخر .

فإذا وجد داخل الجهاز كويتي يشغل وظيفة لا لزوم لها وبنفس الوقت مؤهل للاضطلاع بمسئوليات ومهام وظيفة لازمة ويشغلها وافد ، يمكن الغاء وظيفته وإحلاله محل الوافد .

وينبع التوكيد على هذا الامر لأن وجود عمالة زائدة عن الحاجة لا تقتصر على الوافدين ، بل وتوجد بين الكويتيين بدرجة أكبر . وبنفس الوقت من الممكن أن يوجد وافدون يشغلون وظائف في بعض الوزارات والمؤسسات لا حاجة فعلية لها وهم مؤهلون لاشغال وظائف الحاجة اليها قائمة في نفس الوزارات والمؤسسات أو في وزارات ومؤسسات أخرى ولا يوجد كويتيون مؤهلون لاشغالها .

ويتضح من كل ذلك أن الجانب الفني في المسألة متعدد الجوانب ، وما لم تتم العملية في اطار معايير واضحة يتم اختيارها وتحديدها في ضوء مصلحة العمل قد تكون النتيجة الاستغناء عن من تقتضي المصلحة العامة بقاءهم والاحتفاظ بمن تتطلب المصلحة العامة الاستغناء عنهم .

ولكي تأتي هذه العملية بالثمار المرجوة لابد من أن تتكامل مع إعادة النظر في سياسات توظيف الكويتيين التي تم اعتمادها وتنفيذها في إطار التركيز المفرط على الرفاه الاجتماعي وظله توزيع الدخل من جهة ومراجعة سياسات ومناهج

وبرامج التعليم والتدريب من جهة أخرى ، نحو بناء قوة عمل كويتية بالجهاز الحكومي قادرة على قيادة مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المرحلة القادمة .

وأما الجانب الانساني في مسألة تخفيض العمالة الحكومية لمواجهة تدهور الايرادات النفطية واضطرار الحكومة إلى تخفيض مستوى الانفاق العام ، فأمر آخر وينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في اختيار أفضل بديل ممكن . فالوافدون العاملون بالجهاز الحكومي وفي المؤسسات والهيئات العامة ساهموا في مسيرة التنمية ، ومضى على عمل البعض منهم فترات طويلة . وبالرغم من صحة المقولة بأن الوافدين قدموا أصلا وهم يعرفون أنهم مؤقتون وأن عملهم سينتهي بانتهاء الحاجة اليهم ، الا أن الصحيح ايضا أنهم شغلوا وظائف دائمة وأصبح وضعهم « مؤقت دائم » .

ومن جهة أخرى ، ينبغي اعتبار الجانب الانساني لاعتبار آخر ، إذ من غير الممكن أن يتم تخفيض حجم العمالة الوافدة بدرجة كبيرة من خلال الزيادات المتوقعة في عرض العمالة الكويتية في المدى المنظور . وهذا يعني ان اعتماد الجهاز الحكومي ، وبدرجة كبيرة على العمالة الوافدة سيستمر في المدى المنظور . ومن الطبيعي أن النهج الذي سيتم بموجبه تخفيض حجم العمالة سيؤثر على المناخ الذي سيتولد لدى الوافدين الذين سيستمرون في الجهاز الحكومي . وبقدر ما يكون النهج على أساس معايير متزنة فنيا وانسانيا ، بقدر ما يفهم الوافدون الذين لم يأت دورهم للاستغناء عنهم مبررات الاستغناء عن الاخرين وقبولها ، وإلا فإذا كانت المعايير عرضة للطعن يتولد لديهم شعور بضعف الرضى والارتياح ، وقد يؤدي ذلك الى انخفاض معنوياتهم وبالتالي مستوى انتاجيتهم .

ب ـ الخيارات المتاحة لمن يتم الاستغناء عن خدماتهم :

ترتبط إقامة العامل الوافد بالعمل كما ترتبط إقامة مرافقيه من أفراد أسرته باقامته . وهذا يعني أن فقدان العمل يؤدي إلى فقدان الاقامة . وما لم يتمكن من يفقد عمله في جهة معينة من ايجاد عمل في جهة اخرى ، في حدود القوانين والضوابط والشروط المعمول بها من جهة وفي خلال الفترة المسموح له البقاء خلالها بعد انتهاء عمله وإلغاء إقامته من جهة أخرى ، وبالتالي نقل إقامته ، لا خيار له العودة إلى بلده .

نظرا للنمو الاقتصادي وبالتالي تزايد الطلب على العمالة الوافدة خلال الفترة الماضية كان من السهل على من تنتهي خدماته في أي جهة أن يجد عملا آخر في جهة أخرى بسهولة . أما في ظل الانكماش الاقتصادي وتراجع الطلب على العمالة فالامر مختلف تماما . لذا قد يكون من مصلحة جميع المعنيين بالأمر النظر في إمكانية اعتماد سياسة بخصوص العمال المهاجرين تأخذ بعين الاعتبار ما يلي :

١ ـ لا يواجه من يتم الاستغناء عن خدماتهم سواء في القطاع الخاص أو الحكومة نفس الظروف .

فالبعض منهم مضى على إقامتهم في الكويت فترات طويلة نسبيا وتعودوا على نمط الحياة فيها ، وربما أصبحت جذورهم فيها أقوى منها في بلدانهم الأصلية . أليس من الممكن إتاحة قدر من الاختيار بين العودة إلى بلده أو البقاء في الكويت لمن قضى فترات طويلة قد تزيد عن ربع قرن ؟

٢ ـ تختلف الظروف الاقتصادية السائدة في بلدانهم . فالعامل الاقتصادي كان ، في المقام الاول ، سبب هجرة العمالة الوافدة إلى الكويت . لذلك ستتأثر رغبتهم في العودة إلى بلدانهم أو البقاء في الكويت بالظروف الاقتصادية لبلدانهم .

٣ ـ كما أدت الهجرة إلى ازدهار الطلب على السلع الاستهلاكية والاسكان بصفة خاصة ستؤدي الهجرة المعاكسة ، إذا ما تمت بسرعة ، إلى تراجع الطلب وبالتالي إلى زيادة حدة الانكماش الاقتصادي .

ولكن قد يقال أن الهجرة المعاكسة تتسق مع الرغبة في تخفيف عبء النفقات العامة على الخدمات . هذا صحيح ولكن علينا أن نتذكر أن تخفيض عدد المستفيدين من الخدمات لا يؤدي بالضرورة إلى تخفيض كلفة تقديم الخدمات للفرد بنفس نسبة انخفاض عدد المستفيدين . إذ أن هناك تكاليف بغض النظر عن حجم المستفيدين . وفي ظل الادارة الماهرة للخدمات تنخفض كلفة تقديمها للفرد الواحد بزيادة عدد المستفيدين .

٤ ـ تراوحت السياسات التي اعتمدتها بعض الدول الأوروبية بخصوص العمال المهاجرين بين العمل على استيعاب من يرغب منهم البقاء على نحو دائم وتقديم حوافز مالية لمن يختار منهم العودة إلى وطنه(١٢) .

التوجه نحو المستقبل :

ذكرنا سابقا أن تحقيق التوازن السكاني هو المحور الأساسي لمسار وتوجهات خطة التنمية الخمسية ١٩٨٥/١٩٨٦ ـ ١٩٨٩/١٩٩٠ . بافتراض استمرار نمو السكان الكويتيين بين ١٩٨٥ و ٢٠٠٠ بنفس معدل نموهم بين ١٩٨٠ . ١٩٨٥ ، ٣,٧٤٪ سنويا ، سيبلغ عدد السكان الكويتيين ١١٧٨٨٢١ عام ٢٠٠٠ . ويتطلب تحقيق التوازن السكاني ان لا يزيد عدد السكان غير الكويتيين عن عدد السكان الكويتيين عام ٢٠٠٠ . فاذا افترضنا ان عدد السكان غير الكويتيين سيكون مساويا لعدد السكان الكويتيين عام ٢٠٠٠ من المفروض ان لا يتجاوز معدل نمو السكان غير الكويتيين ١٪ خلال الفترة ١٩٨٥ ـ ٢٠٠٠ .

ان التحكم في نمو السكان غير الكويتيين في حدود معدل ١٪ سنويا يعني هجرة معاكسة يتوقف حجمها على معدل نموهم الطبيعي . بافتراض ٢ ـ ٣٪ معدل نمو طبيعي لهم سيتراوح مجموع حجم الهجرة المعاكسة بين ٣٥١٢٣٨ و ٥٦٦٦٣٠ .

ويمكن التحكم في نموهم في حدود ١٪ لتحقيق التوازن السكاني من خلال تلبية الطلب على العمالة من الداخل ووقف استيرادها من الخارج وقصرها على الحالات التي يتعذر تلبيتها من الداخل من جهة واعتماد سياسات وقوانين وضوابط من شأنها ان ترفع معدل المشاركة وبالتالي تخفض معدل المرافقة من جهة أخرى .

إن التوجه نحو تلبية نمو الطلب على العمالة من العرض المحلي منها من العمالة الكويتية أولا ومن العمالة الوافدة الموجودة في الكويت ثانيا وقصر استيراد عمالة وافدة جديدة على الحالات الخاصة التي يعجز العرض المحلي عن تلبيتها توجه في الطريق السليم .

أما التحكم في معدل المرافقة للعمالة الوافدة فمسألة أخرى . يختلف معدل المرافقة باختلاف جنسيات العمالة الوافدة . وبصفة عامة ، معدل المرافقة للعمالة العربية أعلى بكثير من معدل المرافقة للعمالة الآسيوية .

كان معدل المرافقة للعمالة العربية ٦٣,٨٪ وللعمالة الآسيوية ٣٥,٣٪ عام ١٩٧٥ . ونتيجة لتعديل الضوابط والشروط لاصطحاب أو إحضار أفراد الأسر انخفض معدل المرافقة للعمالة العربية إلى ٥٩,٧٪ وللعمالة الآسيوية إلى

---

(١٢) مكتب العمل الدولي ، أنباء مكتب العمل الدولي ، العدد الثاني والتسعون ، مارس ١٩٨٦ ص ٩ .

٢٨,٣٪ عام ١٩٨٠ . ولكن بالرغم من الانخفاض بقي معدل المرافقة للعمالة العربية أكبر بكثير من معدل المرافقة للعمالة الآسيوية[١٣].

وجدير بالذكر أن نسبة العمالة العربية انخفضت من ٦٩,٠٪ إلى ٥٩,٦٪ بينما ارتفعت نسبة العمالة الآسيوية من ٢٩,٤٪ إلى ٣٨,٠٪ بين عام ١٩٧٠ و ١٩٨٠ . وأدى ذلك إلى انخفاض نسبة السكان العرب من جملة السكان غير الكويتيين من ٨٠,٢٪ إلى ٧٢,٥٪ وارتفاع نسبة السكان الآسيويين من ١٨,٧٪ إلى ٢٥,٨٪ بين نفس العامين .

يتضح مما سبق أن استخدام العمالة الآسيوية يتسق أكثر مع هدف تعديل التركيبة السكانية . ولكن يستحسن أن يؤخذ بعين الاعتبار الآثار التي يمكن أن تترتب على تفضيل العمالة ذات معدلات المرافقة المنخفضة ، العمالة الآسيوية في هذه الحالة .

يؤدي انخفاض معدل المرافقة للعمالة إلى ارتفاع معدل المشاركة لها ، ويتبع ذلك ارتفاع نسبة الذكور وبالتالي انخفاض مستوى النضج السكاني الذي تترتب عليه آثار اجتماعية .

ومن جهة أخرى فإن نمط حياة العامل الذي يعيش في الكويت بمفرده يختلف عن نمط حياة من يعيش وأفراد أسرته . فحجم ونوع طلب من يعيش بمفرده على السلع الاستهلاكية وعلى السكن بوجه خاص يختلف عن حجم ونوع طلب من يعيش وأفراد أسرته . ويتبع ذلك أن نسبة انفاق من يعيش بمفرده من دخله ستكون منخفضة جدا بينما ترتفع نسبة تحويله من دخله للخارج . وهذا يعني أن مساهمة من يعيش بمفرده في تنشيط الدورة الاقتصادية أقل بكثير من مساهمة من يعيش وأفراد أسرته .

ولعل الاهتمام بمسألة معدل المرافقة الوافدة تنبع من الاهتمام المشروع بتخفيض عبء كلفة الخدمات . إن تقديم بعض الخدمات مجانا أو لقاء رسوم مدروسة ظاهرة عالمية ولا تقتصر على الكويت .

إن عبء توفير الخدمات لا ينخفض عادة بنفس نسبة انخفاض عدد المستفيدين بل من المفروض أن تنخفض كلفة توفير الخدمات للفرد بازدياد عدد المستفيدين منها في ظل ادارة ماهرة لها .

وطالما أن الحاجة إلى العمالة الوافدة مستمرة في المدى المنظور يكمن التحدي الكبير في خلق مناخ يسهم في تحسين أوضاعهم وزيادة الاستفادة منهم على السواء .

لقد أدى ما قيل وما نشر عن الاستغناء عن خدمات بعضهم مؤخرا الى خلق مناخ ساده القلق وضعف الشعور بالاستقرار . إن الميل نحو الاستقرار وزيادة الشعور بالارتياح من شأنه أن يرفع من مستوى استقرارهم النفسي ويرفع بالتالي الرغبة في العمل ورفع الانتاجية ، ولعل النظر في إمكانية منح الاقامة شبه الدائمة أو الدائمة خاصة لمن أمضوا فترات طويلة وممن يتضح استمرار الحاجة لهم في المدى المنظور ، من جهة ، ومساواتهم بالمواطنين في المعاملة والمرتبات والأجور من جهة أخرى ، من أهم العوامل التي تسهم في خلق وضع أفضل لهم وللكويت على السواء .

***

(١٣) المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ٣٩ (السكان غير الكويتيين حسب مجموعات الدول والنوع وسبب الاقامة) ص ٥٥ .

المراجع

١ ـ أنباء مكتب العمل الدولي ، العدد الثاني والتسعون ، مارس ١٩٨٦ .

٢ ـ دولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ .

٣ ـ دولة الكويت ، مجلس التخطيط ، إدارة الاحصاء المركزية ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٦٤ .

٤ ـ د. سليمان شعبان القدسي و د. موريس عوض الله جرجس ، « بعض السمات والآثار الاقتصادية للعمالة الوافدة إلى الخليج العربي : حالة الكويت » ، المال والصناعة ، العدد السادس ١٩٨٥ ، ص ٧ ـ ٣٩ .

٥ ـ نعيم الشربيني : « العمال الأجانب في البلدان العربية المنتجة للنفط : هل ستستمر اندفاعة التدفق ؟ » ، التمويل والتنمية ، المجلد ٢١/ رقم ٤ ، ديسمبر ١٩٨٤ ص ٣٤ ـ ٣٧ .

٦ ـ مركز دراسات الوحدة العربية والمعهد العربي للتخطيط ، العمالة الأجنبية في أقطار الخليج العربي ، بحوث ومناقشات ندوة « العمالة الأجنبية في أقطار الخليج العربي » ، الكويت ١٥ ـ ١٨ يناير ١٩٨٣ .

٧ ـ المعهد العربي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية ، ندوة السكان والعمالة والهجرة في دول الخليج العربي ، الكويت ١٦ ـ ١٨ ديسمبر ١٩٧٨ .

٨ ـ **The Economic Intelligence Unit Ltd., Assessment of Joini Sector Operations in Kuwait, Volume XVIII, Study Area 2, Report submitted to the Government, May 1974.**



البيانات الاحصائية لظاهرة الهجرة الدولية

أمل يوسف الصباح
أستاذه مساعدة بقسم الجغرافيا
كلية الآداب
جامعة الكويت

مقدمة

تعد الهجرة الدولية للسكان قديمة قدم الجنس البشري ، إلى جانب أن السجل التاريخي لظاهرة الهجرة كشف عن أن الهجرات الدولية قد نمت وتزايدت ليس في حجمها فقط ، بل في المسافات التي تغطيها من مكان إلى آخر ، وفي مستهل دراستنا لهذه الظاهرة ينبغي أن نعلم أن الهجرات ـ قديما وحديثا ـ كانت عاملا مهما في تاريخ تطور وتقدم الجنس البشري .

ولقد كانت هناك حركات سكانية كبرى تمت في وقت مبكر ـ أي منذ العصر الجليدي ـ وقد اتجهت تلك الحركات من أحد الأقاليم السكانية الكبرى في العالم والمأهولة بأعداد كبيرة بالسكان ، الى مناطق أخرى سواء بالقرب من شمال غرب الهند أم الهند الصينية ، بالاضافة إلى ذلك فقد كانت هناك حركات سكانية كبرى حدثت بعد ذلك الوقت ، إلا أنها قديمة أيضا وشملت قلب العالم القديم وفي كلتا الحالتين كان السبب الرئيسي لحدوث تلك الحركات السكانية يتمثل في التغيرات المناخية التي كان من نتيجتها تكرار فترات الجفاف النسبية . (انظر شكل رقم ١) .

أما الهجرات الحديثة فتنقسم تاريخيا إلى مرحلتين ، وفي المرحلة الأولى منها والتي امتدت منذ الكشوف الجغرافية والاستعمار حتى القرن الثامن عشر ، وفي هذا المدى الزمني الذي يمتد لأكثر من ثلاثة قرون لم تزد جملة المهاجرين طوال هذه الفترة عن بضعة مئات من الألوف ، وهذا يرتبط بكثير من التغيرات مثل وسيلة الانتقال عبر المحيطات والقارات أو المرحلة التكنولوجية بصفة عامة ، ويعد تعمير الأوربيين لقارات العالم الأخرى غير قاراتهم من أعظم الهجرات البشرية في التاريخ والتي تمت في تلك الفترة الزمنية حيث بدأت منذ القرن السادس عشر (أنظر شكل رقم ٢) .

وبذلك نجد أن الفترة الزمنية السابقة للقرن الثامن عشر لم تشهد إلا القليل من الهجرات السكانية الدولية التي كان يسيطر عليها ويكبلها طغيان عامل المسافة ، الا أن هذا الأمر لم يستمر طويلا ، حيث أنه منذ القرن الثامن عشر ومابعده وهذه الفترة تمثل المرحلة الثانية وفيها بدا يظهر بوضوح الخط الفاصل بين مجتمع ساكن مستقر وبين مجتمع كثير الحركة أي منذ الثورة الصناعية التي عمت أوربا في تلك الفترة ، والتغيرات التكنولوجية التي أفرزتها هذه الثورة والتي ساعدت وبشكل فعال على اتساع حيز المسافة التي تم بها أو فيها بينها الهجرات البشرية ، بحيث أن تلك الظاهرة لم تشمل الدول الأوروبية التي تحقق بها التقدم الصناعي فقط بل وتعدتها إلى الدول البعيدة عن أوروبا ، وقد حدثت هذه التغيرات ولكن في وقت مبكر في كل من بريطانيا ودول غرب أوربا ، ثم فيها بعد ذلك عمت تلك الظاهرة وبشكل أكثر وضوحا لتشمل بالفعل العالم كله خاصه وبخاصة في القرن العشرين ، (انظر شكل ٣ ، ٤) .

وقد أشار الباحث هاجيت (Haggett)[1] وباسلوب مختصر لكيفية وقابلية السكان على الحركة في القرن العشرين من مكان إلى آخر فذكر « أن التزايد السريع للحركات السكانية يعد احدى الصفات البارزة التي بدت في هذا القرن ، أي القرن العشرين ، بحيث أن المعلومات المتعلقة في كل من المجالات الرئيسية لحركة السكان والبضائع أيضا - قد نمت وتزايدت بثبات أكبر ، نظرا لأثر التقنيات الحديثة التي ساعدت على التقليل من القيمة النسبية للمسافة » ، وهذا يعني أن الحركات السكانية أصبحت في الوقت الحاضر بمثابة حركات عامة وشائعة بالنسبة لغالبية الناس ، بعد أن كانت في السابق مجرد حركات قليلة ، ولا تتم إلا بعد مرور حقبة طويلة من الزمن بين كل منها والأخرى التي تليها [٢]

وتكمن أهمية ظاهرة الهجرة الدولية للسكان سواء أكان منها على المستوى العالمي أم على المستوى المحلي ، في أنها تعد العنصر الأساسي الثالث المؤثر في حجم السكان في أي دولة بالعالم ، حيث نجد أن تأثيرها على الحجم السكاني بدولة الكويت أي على المستوى المحلي يعد واضحا ، وبخاصة أنها تمثل نسبة مقدارها (٦٠٪) من إجمالي سكان الدولة في عام ١٩٨٥ ، أما العنصران الاول والثاني فيمثلهما كل من المواليد والوفيات ، ولذلك فإن أهمية الهجرة الدولية تكمن في الأثر المباشر على نمو أو تناقص السكان في أي دولة ومن ثم فإن تأثيرها ينسحب أيضا على تلك التغيرات التي تطرأ على الخصائص الديموجرافية المختلفة للسكان في تلك الدولة ، إن كان في البلدان أو المناطق الأصلية للمهاجرين (Ares of origin) أو في البلدان أو المناطق المقصودة أو المستقبلة لهم (Destination of Areas) .

بالاضافة إلى ماسبق ذكره فإن أهمية الهجرة تكمن - أيضا - في تأثيرها على كل من النمو السكاني والقوى العاملة في أي منطقة من المناطق المستقبلة لهذه الهجرة ، أو المرسلة لها .

ويركز العلماء والمتخصصون عند دراسة موضوع الهجرة الدولية على أحد الجوانب المتعلقة بتلك الظاهرة كل منهم بحسب اختصاصه ، فنجد أن علماء الاجتماع يركزون عند دراسة هذه الظاهرة على التأثيرات الاجتماعية والنفسية لتلك الظاهرة على كل من المهاجرين من جهة ، وعلى سكان المناطق المرسلة أو المستقبلية لهذه الهجرة من جهة أخرى ،

---

(١) Haggett, P. Locational Analysis in Human Geography, Edward arnold, London, 1965, P. 42.

(٢) Zelinsky, W. The Hypothesis of The Mobility Transition" Geographical Review, 61, 1971, P. 219 - 49.

وكذلك يتناولون بالدراسة والتحليل مدى امتصاص التبادل الثقافي للسكان المهاجرين ، أما الاقتصاديون فيركزون عند تناولهم موضوع الهجرة بالدراسة والتحليل على العلاقة المتبادلة بين الهجرة ودورة العمل ، بالاضافة إلى مدى تـأثير الهجرة على سد احتياجات الدولة المستقبلة للعمال المهاجرين المهرة وغير المهرة ، وأيضا مدى تأثير الهجرة على النمو الصناعي ، وأخيرا يركزون على دراسة الوضع المهني والوظيفي للمهاجر .

أما المشرعون والسياسيون فعندما يتناولون ظاهرة الهجرة بالدراسة والتحليل فنجـدهم يركـزون على صيـاغة القوانين ووضع السياسات ذات العلاقة المباشرة بالهجرة ، ويركزون أيضا ولكن بدرجة أقل شأنا على القوانين التي تسن وتتبع تجاه الهجرة القادمة وبخاصة فيما يتعلق منها بمنح المهاجرين حق الاقتراع (٣) .

ويقدم هذا البحث دراسة تحليلية لمراحل تطور الأساليب المختلفة التي تتبع عادة عند جمع البيانات الاحصائية الخاصة بظاهرة الهجرة الدولية للسكان على المستويين الدولي والمحلي ، وبخاصة أن تلك الظاهرة أصبحت شائعة عالميا في وقتنا الحاضر ، بل وتعم جميـع أفراد الجنس البشـري ، مهما أختلفت مستـوياتهم الاقتصـادية أو الاجتمـاعية ، وأصبحت هذه الظاهرة ـ أيضا ـ تحدث في كلّ لحظة وفي كل مكان وبين أعداد كبيرة من السكان في المجتمع الواحد ، وبناء على ذلك وما لهذه الظاهرة من أهمية وبخاصة في مجالات البحث المعاصر نظرا لما لها من عـلاقة وطيـدة بحياة المجتمعات الحديثة ، فان الهدف الأساسي إذا من هذا البحث يتلخص في متابعة التطورات التي حدثت على أساليب جمع المادة العلمية وبخاصة فيما يتعلق منها بالبيانات الاحصائية لظاهرة الهجرة على المستويين الدولي والمحلي ، أي داخل دولة الكويت ، من أجل الوصول الى معرفة الوضع الراهن لهذه البيانات ومدى توفرها ، وكيفية الحصول عليها ، وبخاصة أن لهذه الظاهرة أثرا كبيرا على كل من السكان في الدولة المرسلة للمهاجرين من جهة والدولة المستقبلة لهم من جهة أخرى ، وتتمثل هذه الأهمية في الآثار الناجمة عن تلك الظاهرة سواء أكان منها الآثار الأقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية ، التي تعم كافة المجتمع داخل الدولة على المستويين الدولي ، أو المحلي أي بدولة الكويت التي يعد أبرز أثر لهذه الظاهرة على اجمالي السكان أنها تمثل نسبة مقدارها (٦٠٪) من إجمالي سكان الدولة في عام ١٩٨٥م ، كما ذكرنا قبل قليل .

أما بالنسبة لهيكل البحث فهو ينقسم الى خمسة أقسام يتناول الأول منها تعريفا للهجرة الدولية ، ثم يليه القسم الثاني الذي يقدم من خلاله شرحا مفصلا لأسباب حدوث ظاهرة الهجرة والعوامل المؤثرة فيها ، يتبعها القسم الثالث الذي يعرض وبشكل مفصل للأساليب التي تتبع عند جمع البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية ، يليه القسم الرابع الذي يخصص لعرض وتقييم سجلات الهجرة الدولية ، ثم القسم الخـامس والأخير الـذي يتناول ـ أيضـا ـ بالدراسة والتحليل لسجلات الهجرة وتطورها على المستوى المحلي .

وقد رأينا استكمالا لهذه الدراسة إضافة ملحق يحتوي على الجداول الاحصائية الخاصة ببيانـات الهجرة عـلى المستوى المحلي ، بالاضافة الى ملحق آخر يحتوي على الأشكال البيانية والخرائط الخاصة بالهجرة على المستويين العالمي

(٣) Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Studies in Population, The Methods and Materials of Demography, Condensed Edition By Edward G. Stockwell, Bowling Green University, Bowling Green, Ohio, New York, 1976, P. 349.

والمحلي ، لتساعد كافة تلك البيانات في إيضاح الرؤية حول كيفية تطور تيارات الهجرة السكانية في الفترات الزمنية المتتالية على المستويين العالمي والمحلي ، وبخاصة من حيث حجمها واتجاهاتها والاسلوب المتبع في جمع بياناتها .

وفي خاتمة هذه المقدمة لابد من ذكر أنه لايخفى على الباحثين والمتخصصين أمر صعوبة الحصول على المراجع والمصادر التي عالجت ظاهرة الهجرة ، وربما يكون هذا البحث بمثابة الدراسة الأولى من نوعها التي عالجت بالدراسة والتحليل وبشكل مفصل أسلوب جمع البيانات الاحصائية الخاصة بظاهرة الهجرة ، ان لم يكن بالطبع على المستوى العالمي ، فهو بالتأكيد على المستوى المحلي ، والله الموفق .

١ ـ تعريف الهجرة :

الهجرة حسب تعريف قسم السكان بهيئة الأمم المتحدة هي ظاهرة جغرافية يعني بها انتقال السكان من منطقة جغرافية إلى أخرى ، وبالتالي [illegible]ج عن ذلك تغير مكان الاستقرار الاعتيادي للفرد ، أي تغير هذا المكان عبر الوحدات الجغرافية ذات الحدود [illegible]لية [illegible]أضحة ، وهذا النوع من الهجرة أي الهجرة الدولية هي مركز اهتمامنا في هذه الدراسة ، وقد أوردنا [illegible]يد حتى لا يكون هناك نوع من اللبس بينها وبين أنواع أخرى من الهجرات الشبيهة بالظاهرة التي هي مركز[illegible] بهذا البحث ، ومثالا على ذلك أن هناك بعض التغيرات التي تطرأ على مكان اقامة الفرد ولكنها في غالب الأحوال لا تدخل ضمن نطاق التعريف السابق للهجرة ، وبخاصة إذا كان التغير مؤقتا وليس له أي تأثير على مكان الاقامة المعتاد (Usual Residence) ، بالرغم من أن أفراد تلك الظاهرة عبروا حدودا دولية ، إلا انهم في الوقت ذاته من الممكن أن يضموا إلى أولئك الافراد الذين يقومون برحلات قصيرة الأمد يكون الغرض منها الزيارة أو قضاء الاجازة أو انجاز بعض الأعمال ، بالاضافة إلى ذلك فان هناك نوعا آخر من التغييرات التي تطرأ على مكان الأقامة وتتميز هذه التغيرات بأنها دائمة ، وبالرغم من ذلك فإنها تعد مجرد حركات تمت عبر مسافات قصيرة ، بحيث أن مجال تأثيرها يكون عادة على الهجرات الداخلية فقط ، وبالتالي ليس لها أي أثر على الهجرة الدولية ، وبشكل عام فإن استعمال مصطلح مدة الاقامة يقتصر على التغيرات المستمرة في مكان الاقامة وبخاصة تلك التي تتم بين المناطق ذات التصنيف السياسي المحدد بوضوح أو تلك التي تتم بين المناطق الاحصائية .

ومما هو جدير بالذكر أن الدراسات الديموجرافية عادة تتناول بالدراسة والتحليل وبشكل خاص ومركز لنوعين رئيسيين من الهجرة ، هما الهجرة الدولية والهجرة الداخلية ، حيث يعزى السبب المهم و الرئيسي في حدوث هذين النوعين من الهجرة إلى حركة السكان عبر الحدود الدولية ، في النوع الأول ، بينما نجد أن النوع الثاني من الهجرة لا تخضع لذلك لان حركة السكان تتم عبر الحدود الادارية الداخلية ، اللهم إلا في دول المعسكر الشيوعي الذي تخضع الهجرة الداخلية فيه للسلطات الحكومية . ويتم بعد ذلك تصنيف الهجرة الدولية كهجرة من وجهة نظر كل من الدولة المرسلة أو المصدرة للمهاجرين ، وكمهجرين من وجهة نظر الدولة المستقبلة أي التي يصل اليها هؤلاء المهاجرون ، إلا انه عند احتساب مدة الاقامة في حالة الهجرة الداخلية فإنه ينطبق عليها نفس الشروط التي تستعمل في حالة الهجرة التي تتم عبر الحدود الدولية ، ووجه التشابه والاختلاف بين كل من الهجرة الدولية والهجرة الداخلية غير واضح المعايير في بعض الأحوال نتيجة لعدم توفر الحكم الذاتي لبعض الاقاليم ، الاأن بعضها الآخر يعد مستقلا ، والأمثلة على ذلك

كثيرة واعتمادا على ما تعرضه البيانات الإحصائية الصادرة عن قسم السكان بهيئة الامم المتحدة والخاصة بالحركات السكانية بين المناطق المحتلة في الفترة الزمنية التالية للحرب الألمانية والتي تمت بين بورتـوريكو والـولايات المتحـدة الامريكية ، أو بين فرنسا والجزائر فإن هذه الحركات من الممكن أن تصنف على أساس أنها : إما هجرات دولية أو هجرات داخلية ، حيث أن التطور التاريخي لأي دولة في العالم ربما يشتمل على منطقة غير مستقلة لبعض الوقت ، إلا أن هذه المنطقة تتحول إلى منطقة مستقلة مع مرور الزمن ، وخلال فترة التحول هذه ربما لا يكون هناك أي احتمال لاعادة جدولة الأرقام وتحويلها من هجرة داخلية إلى هجرة دولية ، والمثال الأخير على ذلك أن البيانات الإحصائية الخاصة بالهجرة في المملكة المتحدة كانت تضم إليها الأرقام الخاصة بجمهورية ايرلندا في الفترة الزمنية السابقة لليوم الأول من شهر إبريل عام ١٩٢٣ .

بالإضافة الى ما سبق فإنه حتى في حالة تعريف الهجرة الدولية نجدها تشترك في الكثير من التحديدات والأحكام الخاصة بها مع تلك الأحكام الخاصة بالهجرة الداخلية بل وتنطبق معها كلية ، وبخاصة في حالة الحوافز الاقتصادية (٤) .

وعلى الرغم من كل ما سبق ذكره فمازال هناك اختلاف واضح بين كل من الهجرة الدولية والهجرة الداخلية ، وبخاصة فيما يتعلق منها بمصادر البيانات الاحصائية ونوعيتها وقيمتها ودرجة كفاءتها والأسلوب المتبع عند الدراسة التحليلية لهذه البيانات في كل منها (٥) .

٢ ـ أسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها :

ذكرنا قبل قليل أن موضوع الهجرة الدولية يعد من المواضيع المهمة جدا ، ولـذلك اهتمت بـه كافـة العلوم الاجتماعية ، نظرا لأثر الهجرة الكبير على حجم السكان في أي بقعة بالعالم الناتج عن التدفقات السكانية بنوعيها أي تلك الهجرة المتجهة نحو الداخل (In Flew) أو تلك الهجرة الى الخارج (Out Flew) في كل من الدول أو الاقاليم وبخاصة الآثار الاقتصادية منها ، كذلك يمتد أثر الهجرة على الخصائص السكانية والأنماط الاجتماعية للبنية السكانية ، وبناء على ما سبق فان الجغرافيين مدركون تماما لأهمية المشكلات الناجمة عن الهجرات السكانية ، ولذلك يتناولونها بالدراسة والتحليل بوسائل متنوعة ومتغيرة (٦) .

وقبل أن نتناول بالدراسة والتحليل أسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها لابد من أن نوضح ونميز بين نوعين من الهجرة لكل منها أسبابه وعوامله المؤثرة في حجم واتجاه هذه الهجرة ، النوع الأول من الهجرة الدولية يتمثل في الهجرة الاختيارية (Valuntary) التي تتم بالمبادرة الفردية من الأشخاص بأن يتحركوا من مكان لآخر بغرض الهجرة سعيا وراء ظـروف أفضل ، وهـذا النوع هـو الذي يعنينـا بهذه الـدراسة ، أمـا النوع الثـاني فتمثله الهجرة الاجبـاريـة (Compulsory) التي تتم بوساطة قوة خارجية على غير إرادة الافراد مثل عمليات التهجير التي تحدث في بعض

(٤) John T. Clarke, Population Geography, 2 end Edition, England, 1972, P. 140.
(٥) Henry S. Sryock, Jacob S. Siegel and Association, Op. Cit. P. 349.
(٦) G.J. Lewis, Human Migration, London, 1982, P. 99.

الدول تنفيذا لسياسات معينة ، وهو ما حدث في الاتحاد السوفيتي مثلا ، أو حين قام النازيون بتهجير جماعات مختلفة من بعض الدول الأوربية إلى دول أخرى ، وقد يفد الناس من دولة ليعيشوا في أخرى هروبا بحياتهم أو عقيدتهم ، ومن أقدم الأمثلة الهجرة الاسلامية الأولى إلى الحبشة ، وفي العصر الحديث نجد صورا كثيرة من هذا النوع مثل اللاجئين الذين فروا من البطش النازي في أوربا أو من فلسطين بتأثير الارهاب الصهيوني ، وكثيرا ما تحدث ظاهرة اللاجئين في أثناء الحروب ، مثل ما حدث في المانيا بعد التقسيم ، أو حين انشئت الهند وباكستان عام ١٩٤٧ ، أو حين انفصلت بنجلادش عن الباكستان في عام ١٩٧٢ (٧) .

وعنصر الهجرة الدولية الاختيارية لا يعد بمثابة عنصر فسيولوجي كما هو الحال في عنصري الولادة والوفاة « كما ذكرنا في السابق » ، بل هو عبارة عن استجابة البشر لتسلسل التطور الاقتصادي ، كذلك تتم الهجرة نتيجة للحوافز الاجتماعية والسياسية والثقافية المتوفرة داخل البيئة أو المحيط الاجتماعي ، وهذه الحوافز جميعها سواء أكان منها الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية أم الثقافية تعطي بدورها أهمية للموقع الجديد والذي تحول بناء على توفر تلك الحوافز أو بعض منها إلى مركز جذب للسكان المهاجرين ، ونتيجة لتلك التغيرات الداخلية للبيئة التي طرأت على هذا الموقع فقد أثر ذلك بدوره على مدى التغير الذي بدا على مبدأ التقييم الشخصي لهذا المكان ، حيث تتولد الرغبة الشخصية في الهجرة ، وبخاصة اذا كان هذا الشخص يشعر بعدم الرضا عن المكان الذي يستقر فيه ، ولابد من أن نذكر أن مدى أثر الرغبة الشخصية على الهجرة سواء أتمت أم لم تتم تكون عادة متفاوتة من شخص آلى آخر وفقا للاحتياجات الشخصية ، وبالمقابل أيضا فإن عملية كبح جماح الرغبة الشخصية تجاه الهجرة يعتمد على مدى قوة استياء هذا الشخص أو عدم رضاه من المكان الذي يستقر فيه (٨) . وكمثال على ذلك ، ووفقا لما ذكره الباحث لورد ايفرسلي (Lord Eversley) (٩) من أن أسباب الهجرة الجماعية الضخمة للعمال . والتي تمت بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية أي تلك الهجرة التي خرجت من الريف واتجهت الى المدن في انجلترا وويلز خلال القرن التاسع عشر ، لا تعزى فقط الى الازدهار الاقتصادي الكبير الذي ميز تلك الفترة ، أو نتيجة للارتفاع الشامل في الرواتب بالمناطق الصناعية أو مناطق التعدين ، وانما ترجع أيضا الى تنامي الاستياء الذي عم بين العاملين بالمناطق الريفية تجاه العمل بالزراعة ، نتيجة لقلة فرص العمل بالريف بالاضافة الى ما سبق فإن هؤلاء العمال كان لديهم الرغبة في الحصول على قدر أكبر من الحركة والاستقلالية التي تكون متوفرة عادة في حياة المدن .

ويدخل ضمن العوامل المسببة للهجرة عاملان غير معروفين أو ظاهرين ، الا أن هذين العاملين أثبتا وجودهما ، وقد تمثل العامل الأول في أن حافز الهجرة يبرز عادة لدى الفرد نتيجة للتغيرات الداخلية التي تحدث في بيئة أو محيط هذا الفرد ، أما العامل الثاني فقد تمثل في أن حافز الهجرة يظهر نتيجة للتغيرات التي تطرأ على الباعث الفردي للهجرة .

---

(٧) احمد علي اسماعيل ، أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص٥٨

(٨) Pryor, R.J. The Motiration of Migration, Studies in Migration and Urbanization, No. 1, Department of Demography, Australian National University, Canberra, 1975, P. 10.

(٩) Eversley Lord, "The decline in The number of agricultural Laboures in Great Britain, Journal of The Royal Statistical Society, 10, England, 1907, P. 280 - 3.

مما سبق ذكره نجد أن هناك تأكيدا على أن عملية تحليل أسباب الهجرة تمثل عنصرا جديرا بالعناية والاهتمام ، حيث أن قرار الهجرة هو قرار شخصي ، يعتمد في الأساس على أن الشخص ذاته هو الذي يقرر ـ اين سينتقل ، ويغلف قراره هذا بمعايير ، بحيث أن غالبية الأبحاث التي تناولت بالدراسة والتحليل موضوع أسباب الهجرة تؤكد على أن العامل الثاني والذي تمثل في الحافز الفردي يعد السبب الرئيسي لهذه الهجرة (١٠) ، ومع ذلك نجد أنه في الفترة الأخيرة تحول المحيط أو البيئة التي يعيش فيها الفرد ويتخذ بها قراره على الهجرة ، الى بؤرة الاهتمام كسبب رئيسي للهجرة ، بالاضافة إلى ما سبق نجد أنه على الرغم من أن هناك الكثير من الدراسات العديدة والمتنوعة التي تناولت العوامل المسببة للهجرة بالمناقشة والتحليل ، الا أن الباحث لي (Lee) (١١) تناول بالتحليل والتقييم تلك الدراسات وظهر بنتيجة مفادها أنه يجب على المهتمين والمتخصصين بظاهرة الهجرة توخي الحذر عند مناقشة هذه الدراسات وتفسيرا لكل من أسباب الهجرة ونتائجها ، وحتى وقتنا الحاضر لم نستطع أن نتوصل الى وضع تصنيف ذي صياغة أكثر تحديدا وتركيزا لأسباب الهجرة ، حيث أنه من الممكن اعتبار تلك الأسباب كعوامل مفوضة الا أنه وبشكل عام نستطيع التركيز أكثر على عدد قليل من العوامل المسببة للهجرة ، وبخاصة تلك التي تأخذ مكانة متميزة لأهميتها (١٢) ولكي تكون دراستنا لأسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها أكثر شمولية ودقة ، إلى جانب الأسباب والعوامل السابقة ، سنتعرض بالدراسة التحليلية لعوامل الجذب والدفع المسببة للهجرة ونوردها فيما يلي :

ـ عوامل الجذب والدفع (١٣) :

منذ فترة طويلة وبالتحديد منذ عام ١٩٣٨ فسر الباحث هيربرل (Herberle) العوامل المسببة للهجرة وذكر بأنها تكمن أساسا في أن هناك قوى جادة تتفاعل لدى الفرد وتشجعها على مغادرة المكان (الدفع Push) وتغريه على الانتقال إلى مكان آخر (الجذب Pull) ، أو بمعنى آخر ، إذا كانت الاحتياجات الفردية غير متوفرة أو غير مشبعة في المكان الذي يستقر به الفرد ـ أي في مكان استقراره الأصلي ـ فحينئذ يساور هذا الفرد التفكير المستمر في الانتقال الى مكان آخر ، حتى لو كان هذا الفرد على قناعة تامة من موقعه الحالي أي مكان استقراره الأصلي ، الا أن المعلومات التي تتوفر لدى الفرد ذاته حول امكانية الحصول على فرص أفضل في مكان آخر مما يساعده على الاقتناع الشخصي بأخذ قرار الانتقال ، وعلى أية حال فمن المتعارف عليه أن لكل هجرة عوامل جذب ودفع متعددة قد تتفاعل تأثيراتها ، وبناء على ذلك فقرار الانتقال من مكان الى آخر لايتخذ نتيجة لعامل أو سبب معين من أسباب الهجرة ، بحيث يمكن تمييزه أو فصله عن غيره من العوامل الأخرى ، وبالرغم من ذلك فمن الدراسة والبحث في العوامل المسببة للتدفقات الضخمة للهجرة ، تبين أن الحوافز المشتركة لعامل الانتقال عند الافراد أصبح ثابتا ، وقد استطاع جارنير بيجو (J. Bogue) (١٤) ببراعة تلخيص عوامل الدفع والجذب التي نوردها فيما يلي :

(١٠) Cebula, R.J. The Determinations of Human Migration, Lexington Books, Lexington, Mass. 1980.

(١١) Lee, E, S. A Theory of Migration, Demography, 3. 1966, P. 47 - 57.

(١٢) G.J. Lewis, Op. Cit. P. 101.

(١٣) Herberle, R. The Causes of the rural — Urban Migration, A Survey of German Theories, American Journal of Sociology, 43, 1938, P. 932 - 50.

(١٤) Bogue, D.J. Techniques and hypotheses for The STudy of differential Migration: Sone notes From on experiment with United States data, Proceedings of the Internation Conference, 2, Session 4, No. 114. 1961.

أ ـ عوامل الدفع (Push Factors)

ـ تراجع أو هبوط الثروة القومية أو الاسعار المدفوعة لها ، ونقص الطلب على الانتاج الفردي أو الخدمات في الصناعات الفردية ، كاستهلاك المناجم والغابات والزراعة .

ـ فقدان الوظيفة الناتج عن العجز والاعفاءات ، الذي يتولد عن تراجع الطلب على الأنشطة الفردية أو لاستخدام المكننة أو الآلات الأوتوماتيكية لانجاز الأعمال التي كان يؤديها الأفراد .

ـ المعاملة التي تتصف بالقمع والظلم الناتجة عن أسباب سياسية أو دينية أو لأصول عرقية أو عضوية .

ـ عزل الفرد أو إبعاده عن المجموعة نتيجة الى أن هذا الفرد يكون مؤيدا لعقيدة سائدة ، وبخاصة ان كان هذا التأييد مؤثرا على أسلوب تصرفاته داخل عائلته أو مجتمعه .

ـ الانسحاب من المجموعة لعدم التعاون فيها بينها ، أو نتيجة لعدم توفر الفرص التي تساعد على تنمية الوظائف الفردية أو الجماعية .

ـ الانسحاب من المجموعة نتيجة لحدوث الكوارث كالفيضانات أو الجفاف أو الحرائق أو الزلازل وأخيرا الأوبئة .

ب ـ عوامل الجذب : (Pull Facrors)

ـ توفر الفرص الأفضل بالنسبة لبعض المهن أو الوظائف أو العمل في مجال يرغب فيه الفرد .
ـ توفر فرص الكسب كالحصول على دخل أحسن .
ـ توفر الفرص التي تساعد على تحقيق رغبة الفرد الشخصية في مجال علمي معين أو توفر التدريب فقط في الكليات العلمية .

ـ الرغبة في المعيشة بأوضاع بيئية أفضل من حيث المناخ والسكن والتعليم والخدمات الاجتماعية الأخرى .

ـ الانتقال من أجل اللحاق بعائل (أي المرافقة) ومثال على ذلك هجرة الشخص الذي يرتبط بعلاقة عائلية مع شخص آخر ، أو هجرة الاناث من أجل اللحاق بالزوج .

ـ توفر الأنشطة المتنوعة في المدن الكبيرة ومثال على ذلك تلك الأنشطة التي تجذب قاطني المدن الصغيرة أو القرى ، سواء أكان منها الثقافي أم الفكري أم الترفيهي(١٥) .

وبالرغم من أن نظريات عوامل الجذب والدفع تناقش آراء وأفكار جيدة ، وبخاصة تلك النظريات أثناء مناقشتها لهذه الآراء والفكر تتجرد من العوامل المحددة لنشوء الهجرة ، الا أن هناك عددا من الأبحاث التي انتقدت هذه النظريات نتيجة إلى أنها أظهرت عملية الهجرة وبشكل مبالغ فيه كعملية معقدة جدا ، ومن هذه الأبحاث ما قدمه بيرنلي توماس (Perinley Thomas) (١٦) في بحثه أثناء مناقشته وتحليله لموضوع الهجرة بطريقة مقنعة جدا ، حين ذكر في هذا

(١٥) Bogue, D.J. Principle of Deography, Wiley, New York, 1969. P. 753 - 4.

(١٦) Thomas, B. Migration and Economic Growth, Cambridge University Press, Cambridge, 1959, P. 26.

البحث أن كافة أنواع العوامل المسببة والحاثة على الهجرة ربما تكمن وراء القرار الفردي أو العائلي الذي يحدد على ضوئه مغادرة بلد ما والعيش في بلد آخر ، وليس الهدف من دراسة هذه العوامل وضع قائمة للعوامل المسببة للهجرة فقط ، ولكن الأمل معقود على محاولة فهم ظاهرة أو واقعة الهجرة (Phenomenon of Migration) ، وبشكل أكثر تركيزا من أجل إمكانية التوصل الى وصف البواعث أو الحوافز العديدة التي تمثل عامل دفع للناس لشراء ما يحتاجونه من سلع يرغبون بها ، حيث أنه ليس هناك أسهل من عملية وضع صياغة لقائمة هذه العوامل أي عوامل الجذب والدفع من أجل أن تظهر بشكل مميز وواضح ، ثم بعد ذلك تذكر هذه العوامل بشكل وصفي أكثر اسهابا من أجل أن تبدو هذه العوامل بشكل أكثر تركيزا وبصورة محددة .

وردا على الانتقادات والملحوظات السابقة الذكر والموجهة لنظريات عوامل الجذب والدفع ، أبدى الباحث لي (Lee) (١٧) اقتراحا أوضح فيه أن مسببات الهجرة تحتاج لرؤ ية أو دراسة للعوامل التي تربط بين المنطقة الأصلية أو المصدر من جهة ، والمنطقة المقصودة من جهة أخرى ، بالاضافة إلى أنه أكد على أن هناك حاجة لدراسة وتحليل العوائق التي تعترض عملية اتمام هذه الهجرة ، حتى وان كان مصدرها المهاجرين أنفسهم ، ولذلك فقد اقترح الباحث المذكور ـ أيضا ، دعوة جميع الباحثين والمتخصصين والمهتمين بظاهرة الهجرة الى العمل على اكتشاف واظهار كل من العوامل السلبية والايجابية الكامنة في كل من المكان الأصلي والمكان المقصود ، وبالتالي ايجاد الاختلافات فيما بينهما ، وما إذا كان القرار الشخصي على الانتقال سوف يعتمد عند تنفيذه على النتائج التي تظهر على تلك الدراسة ، أو بناء على تقييم لكل العوامل الكامنة داخل محيط المجموعة السكانية المتنوعة ، أو داخل نماذج اجتماعية دون تحيز ، ومما هو جدير بالذكر أن هناك الكثير من العوائق التي تظهر وتكون ذات فاعلية في اعتراض وتقييد هذه القرارات المتخذة تجاه الهجرة كالقيود القانونية ، أو الحواجز العائلية ، أو القلق النفسي ، وأخيرا عائق تكاليف الانتقال ، الا أنه من المستطاع تخطي أو اغفال الكثير من هذه العقبات التي ذكرت قبل قليل ، وبالرغم من ذلك فان بعضها الآخر لا يمكن تخطيه أو اغفاله .

بالاضافة الى ما سبق فان هناك عددا من العوامل المسببة للهجرة منها الحوافز الاقتصادية والعوامل الديموجرافية والعوامل السياسية كما ذكرنا في السابق ، وبالنسبة للحوافز الاقتصادية فقد توصلت الدراسات التي تم اجراؤ ها على التقلبات السنوية لحجم الهجرة الدولية التي حدثت في القرن التاسع عشر ـ وبخاصة تلك التي تمت بين قارتي أوروبا وأمريكا الشمالية ـ الى أن هناك علاقة متبادلة وواضحة بين ما جنته الدول المرسلة للمهاجرين من فائدة عمت دورة العمل من جهة ، وتطور التنمية الاقتصادية في الدول المستقبلة للمهاجرين من جهة أخرى ، علاوة على ذلك فان البيانات الخاصة بالحوافز الاقتصادية كشفت عن أنه في كثير من الأحوال ما تكون تلك الحوافز هي الأمر القاطع والمسبب للهجرة ، حيث أن التباين في المستويات المعيشية للسكان في الدول المرسلة من جانب والدول المستقبلة للهجرة من جانب آخر ، تكون هي العامل المشجع على تدفقات الهجرة ـ كما ذكرنا عند دراستنا لعاملي الجذب والدفع قبل قليل ، وكذلك فان عامل التباين في مساحة الأرض التي تشغلها كل من الدول المرسلة والدول المستقبلة للهجرة يعد ذا أثر مشجع على الهجرة ، الا أنه في الوقت الحاضر أصبح هذا العامل غير أساسي كمسبب للهجرة(١٨) .

---

(١٧) Lee, Op. Cit.

(١٨) John I. Clarke. Op. Cit P. 140.

أما العوامل الثانية فهي العوامل الديموجرافية لتي تعد ذات أثر في تعميم التحديدات والحوافز الخاصة بالهجرة ، وفي مقدمتها عامل الضغط السكاني في مناطق معينة في العالم والذي شكل العامل الأساسي المسبب للتوزيعات الرئيسية للهجرات الكبرى في العالم ، وكمثال على ذلك فقد كان للحوافز الديموجرافية المذكورة أثر على الهجرة التي تمت من ايرلندا في القرن التاسع عشر (خلال حادث المجاعة) وكذلك الهجرة التي تمت من ايطاليا وجنوب شرق أوربا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، بالاضافة إلى ذلك فقد كان للعامل الديموجرافي المذكور أثر كبير حيث أنه شكل حافزا رئيسا للهجرة التي خرجت من الجزر والدول الصغيرة مثل مالطا وكورسيكا ورواندا وبورندي وبورتوريكو وترنداد ، وهناك دول صغيرة في العالم تخصصت وبشكل ملاحظ بالهجرة المغادرة ومثالا على ذلك لبنان التي أصبحت حالة مشهورة بين الدول المرسلة للمهاجرين ، وتشغل لبنان مساحة من الأرض قدرها (٤١٠٥) ميل مربع فقط ، يقطنها عدد من السكان مقداره (٢,٦) مليون نسمة ، وقد هاجر منها الى الخارج ما يقدر بـ (١,٥) مليون لبناني موزعين الآن في جميع أنحاء العالم (منهم ٤٠٠ ألف نسمة الى الولايات المتحدة الامريكية ، و ٣٥٠ ألف نسمة الى البرازيل ، و ٢٠٠ ألف نسمة الى الأرجنتين ، وأخيرا هناك عدد كبير من اللبنانيين الذين غادروا الى غرب أفريقيا) ، وقد تخلى غالبية هؤلاء المهاجرين عن جنسيتهم اللبنانية ، الا أنهم ما زالوا يحتفظون بحلقات وصل بينهم وبين وطنهم الأصلي ، نذكر منها على سبيل المثال أنهم ما زالوا مستمرين في إرسال جزء من مكاسبهم الوفيرة - التي حصلوا عليها من أعمالهم بالتجارة والبنوك في بلد المهجر - الى أقربائهم الذين ما زالوا مستقرين في وطنهم الأصلي .

ومن الواضح أن تأثير العوامل الديموجرافية لا ينحصر في أنها تعدو كعوامل مسببة للهجرة فقط بل يتعداه الى تأثيرها - أيضا - على السياسات المتبعة تجاه هذه الهجرة ، ويعتبر مدى تأثير هذه العوامل على السياسات المتبعة تجاه الهجرة الخارجية أكبر من تأثيرها على الهجرة الداخلية ، وهناك سياسات متنوعة تتبعها الدول تجاه الهجرة ، فمثلا نجد أن هناك عددا قليلا من الدول الرئيسية المستقبلة للهجرة تتبع فعلا سياسة يكون الغرض منها هو تشجيع الهجرة ، وهذا الأمر مناقض لما هو متبع من سياسة تجاه الهجرة المتجهة الى بريطانيا وايطاليا واليابان ، حيث أن هذه الدول الثلاث تعمل على الحد من وفود المهاجرين إليها فتسن الكثير من القوانين التي يكون الغرض منها فرض القيود على هؤلاء المهاجرين ، ومثالا على ذلك تلك الهجرة التي تمت ما بين المانيا وايطاليا ، وكذلك ما بين روسيا ودول شرق أوربا ، في الفترة الزمنية السابقة للحرب ، وتعد السياسات المتبعة تجاه الهجرة القادمة أكثر أهمية من تلك السياسات المتبعة تجاه الهجرة المغادرة ، ومما هو جدير بالذكر أن هناك تساهلا أكبر تجاه دخول المهاجرين الى أي دولة خلال القرن التاسع عشر عما هي عليه اليوم ، ففي الوقت الحالي أصبحت هذه السياسات أكثر تشددا ، ومثالا على ذلك أن هناك دولا مستقبلة للمهاجرين مثل استراليا التي تضع العقبات أمام الهجرة القادمة ، ومن هذه العقبات أنها منعت المساعدة المالية التي كانت تمنح لهؤلاء المهاجرين القادمين اليها مع أنهم يعدون من ضمن الهجرة المنتقاه ، الى جانب ذلك نجد أنه في هذا القرن أي القرن العشرين تعد غالبية الهجرة القادمة مقيدة أثناء عبورها الحدود الدولية ، وهذا الأمر حدث ويحدث في أكبر الدول المستقبلة لهذه الهجرة ، وكذلك فإن هذه الهجرة مقيدة أيضا من حيث الحجم المحدد لها والذي يخضع عادة للخطط التي تحدد السياسة التي تتبناها كل دولة على حدة وتنتهجها عند معاملتها لتلك الهجرة ، وبناء على تلك الخطط يصبح من الممكن لأي دولة مستقبلة للهجرة المقدرة على تحديد حجم المهاجرين المصرح لهم بدخول أراضيها ، وتتبع في استراليا السياسة ذاتها التي تنتهجها الولايات المتحدة الامريكية تجاه دخول المهاجرين الى أراضيها ، حيث نصت تلك السياسة

على اتباع نظام الحصة النسبية (Quora) ، ويتميز هذا النظام بأنه فعال ومؤثر في إمكانية التحيز تجاه المهاجرين الوافدين اليها من شمال غرب أوربا ، حيث تظهر تلك السياسة مدى أفضليتهم لدى السلطات في استراليا على المهاجرين القادمين إليها من جنوب أو شرق أوربا ، والمثال الآخر على تلك النوعية من السياسة المتحيزة المتبعة تجاه الهجرة التي توضح أن دول جنوب شرق آسيا تخص حصة قليلة للمهاجرين القادمين إليها من الصين ، والمثال الثالث يتمثل في أن هناك قيودا مفروضة على وفود المهاجرين الملونين إلى بريطانيا ، بالاضافة الى كل الأمثلة السابقة هناك أيضا العديد من الأمثلة الأخرى التي تظهر بجلاء أن هناك تخطيطا مسبقا تضعه الدولة المستقبلة للهجرة وتتعامل به مع الهجرة الوافدة إلى أراضيها ، ويعتمد هذا التخطيط وبشكل رئيسي على تطبيق سياسة الاختيار ، ففي نيوزيلندا على سبيل المثال تعبر وجهة نظر الاتحادات المهنية عن تخوفها من أن الهجرة الوافدة ، وتدعي بأنها تهدد مستوى الأجور التي يتقاضونها ، ولهذه الاتحادات سلطة ونفوذ على السياسة المتبعة تجاه الهجرة الوافدة ، بالاضافة الى ذلك ففي دول أمريكا اللاتينية نجد أن الوضع على خلاف ما سبق من الأمثلة ، حيث يتضح أن القيود المفروضة على وفود المهاجرين لأراضيها تعد أقل تشددا مما هي عليه في الدول التي تناولتها الأمثلة السابقة .

أما العوامل الثلاثة والأخيرة فتمثلها العوامل السياسية حيث أنه من الملاحظ أن الهجرة الدولية آخذة بالتأثر أكثر فأكثر ـ مع مرور الزمن ـ بتلك العوامل ، مما أثر بالتالي على تراجع أهمية عامل الاختيار الفردي ، كمسبب للهجرة ، ويتمثل العامل السياسي في أن هناك عمليات تبادل سكاني واسعة النطاق تمت بين دول عديدة ، ومن أمثلة ذلك العمليات التي تمت بين اليونان وتركيا خلال الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٣٣ ، كذلك تلك العمليات التي تمت بين رومانيا وبلغاريا في الفترة الزمنية التالية لعام ١٩٤٠ ، بالاضافة الى ما سبق فالعوامل السياسية تتمثل في أن ظاهر الهجرة السكانية بدأت تأخذ مكانها لمواجهة عمليات الغزو المسلح ، كتلك الهجرة التي تمت بين روسيا والصين ، حيث تم هجرة ملايين الأشخاص وقد تم نقلهم على شكل هجرة عمالية قسرية ، كان الغرض منها هو إحلال هؤلاء العمال محل الأشخاص المسجونين ، ونتيجة لما سبق فقد تم انشاء الكثير من الهيئات والمنظمات الدولية التي عملت وما زالت تعمل من أجل المساعدة عند حدوث مثل هذه الحركات السكانية ، وبخاصة تلك الحركات التي تتم بين السكان اللاجئين في كثير من أجزاء العالم ، ومن هذه الهيئات والمنظمات على سبيل المثال كل من منظمة العمل الدولية ((INTERNATIONAL Laboure Organization)) ومنظمة العفو الدولية ((U.N. Relief and Rehabilitatio Administration)) ومما هو جدير بالذكر أن عدد اللاجئين السياسيين في أوربا بلغ عشرات الملايين في الوقت الحاضر ، وكذلك الحال بالنسبة لشبه القارة الهندية ، حيث أن هناك ملايين السكان الذين ينوون الانتقال الى الجماعات السكانية الأخرى ، تلك التي يشتركون معها بخاصية الدين ، الا أن ذلك لن يتم الا برفع الحواجز السياسية ، حيث أن عامل الدين ما زال يعد ذا أثر فعال على بعض الهجرات[١٩] .

٣ ـ أساليب جمع بيانات الهجرة عالميا[٢٠] :

عند جمع البيانات الخاصة بالهجرة عالميا فإنه من الممكن أن تشتق تلك البيانات الاحصائية من مجموعة متنوعة من

(١٩) John I. Clarke, Op. Cit. P. 141 - 142

(٢٠) Hezary S. Shryock, Jacob S. Slegel and Associates, Op. Cit. P. 350.

المصادر ، الا أن هناك مصادر رئيسية لجمع مثل تلك البيانات بحيث أنه من الممكن أيضا تبويبها الى ستة أنواع ، وعادة ما تكون تلك المصادر متشابهة ونوجزها فيما يلي :

ـ جمع البيانات الاحصائية الناتجة عن حركة السكان عبر الحدود الدولية ، وتعد هذه البيانات في معظم الأحوال حصيلة ثانوية للعمل التنفيذي الحكومي الذي يؤديه رجال مراقبة الحدود .

ـ البيانات الاحصائية الخاصة بالمسافرين والتي يمكن الحصول عليها من قوائم المسافرين بحرا أو جوا .

ـ البيانات الاحصائية التي يكون مصدرها ادارة الجوازات والتي تقوم بجمعها من خلال الطلبات المقدمة اليها للحصول على الجوازات وشهادات عدم الممانعة ، وأذونات السفر .

ـ البيانات الاحصائية التي يمكن جمعها من السجلات السكانية .

ـ البيانات الاحصائية التي توفرها عادة التعدادات العامة للسكان أو من المسوحات الدورية ، وهذه البيانات تشتمل على الاجابة عن السؤال الذي يتعلق بالمقر السابق للشخص ، ومكان الولادة أو المواطنة .

ـ البيانات الاحصائية التي تجمع بشكل خاص أو استثنائي ، وهذه البيانات تشتق من التحقيق والاستقصاء الدوري عن بيانات الهجرة ، كتلك البيانات الخاصة بمحل الاقامة السابق ومحل الاقامة الحالي ، أو المواطنة ، أو تسجيل الأجانب ، أو عدد المواطنين في الخارج .

بالاضافة الى الانواع الستة التي تعد كمصادر رئيسية تشتق منها البيانات الاحصائية عن الهجرة الدولية السابقة الذكر ، فان الأمر يتطلب ـ أيضا ـ اجراء التقديرات لمعرفة الحجم الكلي للهجرة الخام أو الهجرة الصافية الاجمالية ، أو تقدير حجم مجموعات جنسية فقط وبشكل استثنائي .

أما بالنسبة لمصادر الهجرة المبكرة فبياناتها عادة تجمع من المعلومات المتحصلة من الاكتشافات والتنقيبات الأثرية لحركات السكان ومواطنهم عبر التاريخ ، وكذلك بيانات استثمار الأراضي واشغالها وهجرها كمؤشرات على تلك الحركات .

ومن الجدير بالذكر أن وجهة نظر قسم السكان بالأمم المتحدة تفصح عن أن المصادر الاحصائية الأربعة الأولى الخاصة بالهجرة والتي ذكرنا أنها تجمع عادة من نقاط مراقبة الحدود تعد من أكثر البيانات أهمية بمقارنتها مع غيرها من المصادر ، ويرجع ذلك الى أن تلك المصادر الأربعة لو توفرت يصبح من المستطاع اجراء قياس مباشر لحجم الهجرة ، ولذلك تأخذ الأمم المتحدة بعين الاعتبار كل ما ينشر من بيانات صادرة عن مراقبة الحدود ، وبخاصة في حالة توفر هذه البيانات تصبح بيانات التسجيل السكاني أكثر فاعلية عند الاستعانة بها للقياس على ضوئها حجم الهجرة الدولية ، وبناء على ذلك فقد أوصت الأمم المتحدة الحكومات القومية بأن تقوم بجمع وجدولة كافة الأفراد القادمين (Immigrants) والافراد المغادرين (Emigrate) ، ثم يتم بعد ذلك تقسيم هذه البيانات لتشمل مجموعات سكانية أقل لتبدو أكثر وضوحا مثل تقسيمها الى فئة القادمين وفئة المغادرين ، والغرض الأساسي من توفير البيانات الخاصة بهاتين الفئتين يتمثل في المساعدة على ترجمة وتفسير احصاءات الهجرة التي تصدر سنويا عن أي دولة ، وعلى ضوء ذلك يتم اجراء

المقارنات الصحيحة بين بلد وآخر ، أي أنه يصبح بالامكان استعمال تلك البيانات دوليا بحيث تضاف الى البيانات الديموجرافية الدولية الأخرى(٢١) .

٤ ـ سجلات الهجرة عالميا : (٢٢)

ان طبيعة ونوعية البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة تكون عادة أكثر ضآلة من تلك البيانات الخاصة بالتركيب أو النمو السكاني ، ويرجع ذلك لأسباب عديدة ، نذكر منها أن البيانات المشتقة من الهجرة تتميز بأنها ذات صيغة مركبة أي أنها تتكون من أجزاء وعناصر عديدة ، ولذلك فانه ليس من السهل تحديدها وبالتالي يصعب اظهارها بشكل واضح ، الى جانب أنه من الصعب تصنيفها أو تبويبها ، والتصنيفات الخاصة بظاهرة الهجرة تعتمد أساسا على أمور عديدة منها مدى دوام هذه الهجرة ، وعلى طول المسافة التي غطتها أو قطعتها هذه الهجرة ، وعلى نوعية الهجرة هل هي هجرة منظمة أي هل هي هجرة اختيارية أو أنها هجرة قسرية ، وبالاضافة الى كل ما سبق فان الهجرة تواجه صعوبات أخرى عند تقصي أية حقائق خاصة بها منها على سبيل المثال أنه في حالة عد المهاجرين ، فان هذه العملية بحد ذاتها تواجه صعوبات جمة ، وبخاصة عندما لا تتم هجرتهم عبر حدود دولية واضحة .

أما بالنسبة للهجرة فقد كانت المعلومات الخاصة بها تشتق في الفترة السابقة عن مصدرين هما التعرف على الاختلاف فيها بين الزيادة الناتجة عن الزيادة الطبيعية وهذه تعد الخطوة الأولى ، ثم اجراء الدراسات المقارنة ما بين تلك المعلومات من جهة وبين بيانات التعدادات السكانية المتعاقبة (Successive Census) من جهة أخرى وهذه تعد الخطوة الثانية .

وقد لوحظ في السنوات الأخيرة أن هناك بعض التعدادات السكانية التي تتضمن بيانات احصائية هامة ومرغوب فيها عند دراسة موضوع الهجرة ، وبخاصة تلك التي تتعلق بالتغيرات التي تطرأ على مكان الاقامة ، أو مكان الولادة ، وبالرغم من أن البيان الثاني لا يعطي الا دلالة عن الحركة السكانية ، الا أنه في حالة توفر هذه البيانات تتحول الدراسة التحليلية التي يتم اجراؤ ها عن الهجرة السكانية من الأمور السهلة .

وقد توفرت البيانات الخاصة بمكان الاقامة المعتاد ومكان العمل بحيث أصبح بالامكان اجراء دراسة تحليلية مقارنة لتلك البيانات في كل من انجلترا وويلز منذ تعداد عام ١٩٢١ ، وكذلك في تعدادي عامي ١٩٥١ ، ١٩٦١ ، الا أن بيانات تعداد عام ١٩٦١ تناولت فقط عينة سكانية تشكل (١٠٪) من اجمالي السكان ـ ويستفاد من تلك البيانات الاحصائية عند دراسة موضوع رحلة العمل اليومية ، ومما هو جدير بالذكر أن تعداد عام ١٩٦١ لكل من انجلترا وويلز قد أضيف لبياناته سؤ ال جديد كان الغرض منه يكمن في الحصول على المزيد من المعلومات عن مدى تكرار وحجم واتجاه وخصائص الهجرة الداخلية ، الا أنه يمكن القول وبشكل عام أن البيانات الخاصة بالهجرة الداخلية عادة ما تكون أقل البيانات الاحصائية دقة بين البيانات الاحصائية الديموجرافية .

(٢١) op. cit, p. 351.

(٢٢) John I. Clarke, Op. Cit, P. 10 - 11.

وقد لوحظ وبصفة عامة أن البيانات الاحصائية المتوفرة عن الهجرة الداخلية والتي ذكرناها قبل قليل عادة ما تقتصر فقط على عدد قليل من الدول ، علاوة على ذلك ، فان هذه البيانات عادة ما تتصف برداءتها وبالتالي تصبح غير جديرة بالثقة ، حيث أنه وحتى في حالة قابليتها للمقارنة تصبح ضئيلة ، وبخاصة أن كل دولة من هذه الدول التي تقوم بنشر بيانات عن الهجرة وهي دول قليلة العدد ـ كما ذكرنا قبل قليل ـ يكون هدفها الأساسي هو توفير وتجميع البيانات التي تكون بحاجة اليها من أجل أغراض ادارية أو تنفيذية فقط .

أما الهجرة الدولية فتصنف الى نوعين رئيسيين من الهجرة يمثل أحدهما الهجرة طويلة الأمد أو الدائمة (Permanent) ، ويمثل النوع الآخر الهجرة قصيرة الأمد أو المؤقتة (Temporary) .

والبيانات الاحصائية الأكثر تفصيلا عن الهجرة (Detailed Statistics) تعد قليلة الى جانب أنها مبعثرة أو موزعة أثناء نشرها في مجموعة منشورات قومية عديدة ، أو في مجموعة منشورات تصدرها الوكالات المختلفة ، ولذلك تعمل هيئة الأمم على تسهيل عملية استخدام هذه البيانات بأن تقوم بجمعها ونشرها على هيئة ببيلوجرافيا عن كل من المسافرين الدوليين (Internatiokals Travelers) والمهاجرين وتضم هذه البيانات احصاءات تفصيلية عن أربع وعشرين دولة مختارة (٢٣) ، ومن المستحسن أن تعمل كل دولة على اصدار بيانات احصائية عن الهجرة بشكل مستقل كما أوصت بذلك الأمم المتحدة ، لتكون البيانات ذات قيمة أكبر ، بالاضافة الى أن كيفية الحصول عليها تكون أكثر سهولة .

وتعتبر التصنيفات الدولية الخاصة ببيانات الهجرة متاحة وبخاصة فيما يتعلق منها بالتعريفات من أجل أن تكون هناك قاعدة موحدة عالميا عند استعمال هذه التعريفات ، وقد تم ذلك منذ الفترة الزمنية التالية للحرب العالمية الثانية ، حيث بدىء بنشرها ضمن اصدارات عديدة في الأمم المتحدة ، ومثال على هذه الاصدارات الكتاب الديموجرافي السنوي (Demographic Yearbook) الذي ما زال صدوره مستمرا كل سنتين وبشكل دوري ، باستثناء بعض السنوات التي تقع في الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٤٨ ، وبالرغم من ذلك فان البيانات الاحصائية للفترة الزمنية المذكورة قد تم نشرها في اصدارات أخرى للأمم المتحدة (٢٤) ، بالاضافة الى ذلك نشرت الأمم المتحدة بيانات احصائية خاصة بالخصائص الاقتصادية للوافدين ممن تعد هجرتهم طويلة الأمد ، ولدول مختارة ضمن اصدار نشر في عام ١٩٥٨(٢٥) .

تعد الولايات المتحدة الأمريكية خير مثال لتلك الدول التي وفرت البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية ، بالاضافة الى أنها من أقدم هذه الدول من حيث المبادرة في عملية جمع وجدولة ونشر تلك البيانات ، حيث أصبحت

---

(٢٣) United Nations,: Analytical Bibliography of Statistics on International Migration statistics, 1925 - 1950, Population Studies, Series A. No. 24, 1955.

(٢٤) United Nations, Sex and Age of International Migrants for Selected Countries. 1918 - 1947, Population Studies, Series A. No. 11, 1953.

(٢٥) United Nations, Ecopnopmic Characteristics of International Migrants, Statistics for Selected Countries, 1918 - 1954, Population Studies, Series A. No. 12, 1968.

البيانات الاحصائية الخاصة بالمهاجرين القادمين الى الولايات المتحدة الامريكية متاحة وتم نشرها في مصادر عديدة ، وتعتبر ادارة العدل (U. S. Department of Justice) هي الجهة المسؤولة عن جمع وتبويب هذا النوع من البيانات ، بالاضافة الى ادارة خدمات الهجرة ومنح الجنسية ، وكل من هاتين الادارتين تعمل على ترتيب وجدولة هذه البيانات ، ومما هو جدير بالذكر أن البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية والتي تقوم بجمعها ادارة العدل تشتق عادة من حصيلة العمليات التنفيذية التي يؤديها رجال مراقبة الحدود ، وتتصف البيانات الاحصائية الخاصة بالأجانب في الولايات المتحدة الامريكية بأنها تجمع على أساس منظم وموثوق به ، بحيث أنه يمكن الاطمئنان اليها ، وكذلك تتميز تلك البيانات بالشمولية وبخاصة أن بياناتها مستقاه من جميع الوثائق الخاصة بالحركات السكانية ، مثل شهادات عدم الممانعة أو الوثائق الرسمية الأخرى ، أما ادارة الهجرة ومنح الجنسية فتعمل أيضا على توفير البيانات الخاصة بالمسافرين جوا وبحرا والتي تجمع بوساطة رجال الحدود التي يعبرها هؤلاء المسافرون ، أو بمساعدة كل من ملاحي السفن أو الطائرات .

بالاضافة الى الادارتين السابقتين ، فان مكتب التعدادات يعمل على نشر بيانات وتقارير خاصة بظاهرة التدفقات السكانية الى الولايات المتحدة الامريكية ضمن اصداراته ، مثل التعدادات السكانية التي يتم اجراؤها كل عشر سنوات ، أو في التقارير والمسوحات السكانية ، الى جانب ذلك يعمل مكتب التعدادات على جمع كل المعلومات المحددة والمباشرة التي تتناول موضوع الهجرة في مجلد واحد ، ليكون بمثابة المصدر الأساسي في حالة القيام بعمل تقديرات للهجرة الصافية ، في الفترات الزمنية التي تتخلل السنوات التي تم بها اجراء التعدادات ، بالاضافة الى الادارات السابقة الذكر والمهتمة بجمع البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة في الولايات المتحدة الامريكية ، هناك أيضا جهات أخرى في الولايات المتحدة مهتمة بجمع تلك البيانات منها على سبيل المثال الوكالات الفيدرالية العديدة التي تعالج هذه البيانات عند قياس حجم الحركات السكانية الدولية ، وأخيرا فان هناك البيانات الاحصائية المقارنة أو التكميلية للمهاجرين في الولايات المتحدة الامريكية ، الا أنها محدودة ، وتنشر عادة في التقارير الخاصة بالهجرة أو في تعدادات دول أجنبية عديدة .

وقد بدأت الولايات المتحدة الامريكية بتدوين السجلات الرسمية للهجرة الوافدة اليها منذ عام ١٨٢٠ بوساطة الوكالة الفدرالية ، أما سجلات الهجرة المغادرة فقد بدأت بتدوينها منذ عام ١٩٠٨ فقط ، بوساطة قسم العمل بالولايات ، ثم تحولت تلك العمليات وأصبحت من اختصاص ادارة العدل منذ عام ١٩٤٤[٢٦] .

مما سبق عرضه تبين لنا أن هناك عددا محدودا من الدول في العالم عملت على جمع وتبويب ونشر البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة سواء أكان منها الهجرة القادمة أم الهجرة المغادرة ، ولذلك قام قسم السكان بهيئة الأمم المتحدة بحصر كافة الهجرات الدولية وبالتالي تم نشرها ضمن اصداراته ، الا أن ذلك الحصر لم يشمل كافة الهجرات الدولية بمعناها المفهوم والدقيق ، نتيجة الى أن هناك بعض الهجرات الدولية التي تمت بين دول يفصل بينها حدود دولية طويلة من جهة ، وغير محكمة المراقبة من جهة أخرى[٢٧] .

---

(٢٦) Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Op. Cit. P. 351.
(٢٧) John I. Clarke, Op. Cit. P. 10 - 11.

٥ ـ سجلات الهجرة محليا :

منذ منتصف هذا القرن وبالتحديد منذ عام ١٩٤٦ عندما بدأت الكويت بتصدير أول شحنة من النفط ، بدأت الكويت في نهضتها الحديثة ، وحرصت الدولة على استغلال مواردها من النفط في بناء هيكل اقتصادي واجتماعي في البلاد ، وقد أدى ذلك الوضع الى نتائج عديدة من أهمها اتساع سوق العمل في الكويت وتزايد معدلات الطلب على القوى العاملة ، وبذلك لعبت الهجرة الدولية دورا حاسما في التطور الاقتصادي وبالتالي في نمو الحجم السكاني لدولة الكويت ، وفي الجداول رقم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) والأشكال رقم (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) والتي تشتمل على بيانات خاصة بالتطور العددي والنسبي للسكان الكويتيين من جهة والسكان غير الكويتيين من جهة أخرى ، نستنتج أن نسبة السكان الكويتيين آخذة بالتناقص من تعداد لآخر من اجمالي السكان بدولة الكويت ، حيث تراجعت تلك النسبة من (٥٥,٠٪) في عام ١٩٥٧ ، الى (٤٧,١٪) في عام ١٩٦٥ ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ولأول مرة نسبة تقل عن نصف السكان داخل الدولة ، واستمرت تلك النسبة في تراجعها حتى وصلت الى أدنى نسبة لها في تعداد عام ١٩٨٥ جيث بلغت (٤٠,١٪) من اجمالي السكان بالدولة ، وهذا يعني أن أثر الهجرة الى دولة الكويت واضح في تراجع نسبة السكان الكويتيين من تعداد الى آخر حتى أصبحت نسبتهم تشكل خمس اجمالي السكان بالدولة وذلك بحلول عام ١٩٨٥ ، وبالمقابل فقد تزايدت نسبة السكان المهاجرين من (٤٥٪) في عام ١٩٥٧ من اجمالي السكان بالدولة ، الى أن أصبحت نسبتهم تمثل (٥٩,٩٪) في عام ١٩٨٥ ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ما يقرب من ثلاثة أخماس اجمالي سكان الدولة .

وقد وفد السكان المهاجرون الى دولة الكويت من مصادر عديدة ، حيث بلغ عدد الجنسيات المتواجدة بالدولة حوالي ستين جنسية أو أكثر ، تشكل الجنسيات العربية غير الكويتية غالبية النسبة الخاصة بالسكان المهاجرين ، حيث بلغت تلك النسبة حتى عام ١٩٧٥ ما يقدر بـ (٨٠٪) من اجمالي السكان الوافدين ، الا أنه بحلول عام ١٩٨٠ طرأ تغيير ملحوظ على مصادر المهاجرين ، ونتيجة لذلك فقد تناقصت نسبة الجنسيات العربية من النسبة الاجمالية للسكان الوافدين الى (٧٢,٥٪) في عام ١٩٨٠ ثم الى (٦٣,٣٪) في عام ١٩٨٥ ، وبالتالي فقد زادت نسبة الجنسيات الآسيوية غير العربية من (٢٢,٠٪) من اجمالي السكان الوافدين في عام ١٩٦٥ ، الى (٣٥,٠٪) من اجمالي السكان الوافدين ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ثلث النسبة الاجمالية للسكان الوافدين بدولة الكويت .

وقد ساعد على نمو السكان الوافدين في دولة الكويت بالشكل الذي بيناه قبل قليل كل من عنصري صافي الهجرة والزيادة الطبيعية التي كانت تتم بين السكان الوافدين داخل الدولة وفي الجداول رقم (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) حيث تشير بيانات الجداول المذكورة الى أن مكونا النمو السكاني للوافدين بدولة الكويت أسهما بدور متفاوت في عملية نمو السكان الوافدين من فترة تعدادية لأخرى ، حيث نلحظ أنه خلال الفترات التعدادية التي تخللت التعدادات السكانية السبع من ١٩٥٧ الى ١٩٨٥ ، كان دور صافي الهجرة أكبر في نمو السكان الوافدين في الفترات التعدادية الثلاث الأولى ، بحيث أن دور صافي الهجرة أسهم بضعف الدور الذي أسهم به عامل الزيادة الطبيعية في نمو السكان الوافدين في المرحلة التعدادية الأولى ، أي خلال المرحلة المتقدمة من بداية وفود السكان الى دولة الكويت ، ويعد هذا الأمر طبيعيا ، وبخاصة أن

الهجرة الى دولة الكويت كانت في بدايتها ، وكانت عملية التنمية في جميع المجالات تعاني من القصور في الايدي العاملة المحلية ، ولذلك فقد كان دور عامل الزيادة الطبيعية في نمو السكان الوافدين المتواجدين داخل دولة الكويت يأتي في المرتبة الثانية ، واستمر هذا الوضع خلال الفترتين التعداديتين الثانية والثالثة ، الا أن دور الهجرة الصافية كعامل رئيسي في عملية النمو السكاني للوافدين بدولة الكويت خلال هاتين الفترتين بدأ يتقلص ويتجه نحو الانخفاض ، ومع ذلك فان نسبة إسهامه تعد أكبر مما هي عليه دور عامل الزيادة الطبيعية .

وفي الفترة التعدادية الرابعة والتي تخللت تعدادي ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، تفوق فيها ولأول مرة نسبة إسهام عامل الزيادة الطبيعية في النمو السكاني للوافدين ، بل ان نسبة اسهامه بلغت ضعف ما يقابله من نسبة اسهام عامل الهجرة الصافية في النمو السكاني للوافدين ، حيث بلغت نسبة إسهام عامل الزيادة الطبيعية (٦٣,٩٪) .

وبحلول الفترة التعدادية الخامسة والتي تخللت تعدادي ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، نجد أن الوضع تغير كلية بمقارنته بنظيره في الفترة التعدادية السابقة ، وكذلك بالفترات التعدادية الثلاث الأولى ، اذ أصبح دور صافي الهجرة أكبر مما كان عليه في تلك الفترات التعدادية في عملية النمو السكاني للوافدين - باستثناء الفترة التعدادية الأولى - حيث بلغت نسبة اسهامه ما يقدر بـ (٦٣,٩٪) من اجمالي نمو السكان الوافدين .

وأخيراً نجد في الفترة التعدادية السادسة والأخيرة والتي تخللت تعدادي ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ ، أن الوضع في تلك الفترة التعدادية مشابه لما كان عليه الوضع في الفترة التعدادية الثالثة ، فقد تساوى تقريباً كل من دور صافي الهجرة ودور الزيادة الطبيعية في عملية النمو السكاني للوافدين ، نتيجة لتراجع دور الهجرة الضافية تراجعاً واضحاً في هذه الفترة بمقارنتها بما كانت عليه في الفترة التعدادية السابقة ، مسجلة نسبة مقدارها (٤٨,٧٪) في حين أن النسبة المقابلة للزيادة الطبيعية بلغت (٥١,٣٪) .

مما سبق ذكره تبين لنا أن كلاً من عاملي صافي الهجرة والزيادة الطبيعية بين السكان الوافدين والمتواجدين في دولة الكويت قد أسهما بدور كبير ولكن بتفاوت في عملية نمو السكان المهاجرين خلال الفترات التعدادية المذكورة مما أدى الى نمو الحجم الاجمالي للسكان بالدولة من (٢٠٦٤٧٣) نسمة في عام ١٩٥٧ ، الى (١٦٩٧٣٠١) نسمة في عام ١٩٨٥ ، وقد بلغت نسبة السكان المهاجرين (٦٠٪) من إجمالي السكان بالدولة في العام المذكور ، كما ذكر قبل قليل .

وهناك الى جانب ما سبق أثر آخر ومهم للهجرة الى دولة الكويت على الخصائص الديموجرافية لاجمالي السكان بالدولة وقد تمثل ذلك الأثر بتطور حجم القوى العاملة بالدولة ، ومن بيانات الجدولين رقمي (٩ و ١٠) واللذين يوضحان التطور العددي والنسبي لقوى العمل الاجمالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في سنوات التعداد ، ومنها نستنتج ما يلي :

- سجل الحجم الكلي للقوى العاملة بدولة الكويت زيادة ملحوظة خلال الفترة الزمنية الممتدة من ١٩٦٥ الى ١٩٨٥ ، حيث بلغ العدد المطلق حوالي (١٨٤٣٠٤) في عام ١٩٦٥ ، وارتفع هذا العدد الى (٦٦٢٥٨٨) في عام ١٩٨٥ ، أي بزيادة مقدارها (٤٧٨٢٨٤) وبنسبة مقدارها (٢٥٩,٩٥٪) خلال الفترة الزمنية المذكورة .

ـ بلغت نسبة اسهام القوى العاملة الكويتية ما يقدر بـ (٢٣,٣٪) فقط من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٦٥ ، وبالرغم من ذلك فقد تناقصت تلك النسبة من سنة لأخرى حتى بلغت (١٨,٧٪) فقط من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، وبذلك نجد أن نسبة اسهام القوى العاملة الكويتية من إجمالي القوى العاملة بالدولة بلغت ما يقل قليلاً عن خمس إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، وهذا الوضع يعطي صورة واضحة عن مدى ضآلة نسبة اسهام القوى العاملة الكويتية في الفترة الزمنية المذكورة من إجمالي القوى العاملة بالدولة من جهة ، وعن مدى أثر الهجرة بما تمثله من حجم له وزنه على الحجم الاجمالي للقوى العاملة بالدولة من جهة أخرى .

ـ مثلت نسبة إسهام القوى العاملة غير الكويتية (٧٦,٧٪) من إجمالي القوى العاملة بالدولة ، أي أنها تعادل ما يزيد قليلاً عن ثلاثة أرباع الحجم الاجمالي للقوى العاملة بالدولة في عام ١٩٦٥ ، ثم تزايدت قليلاً تلك النسبة من سنة لأخرى حتى وصلت الى نسبة مقدارها (٨١,٣٪) من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، مشكلة بذلك حوالي أربعة أخماس القوى العاملة الاجمالية بالدولة في العام المذكور .

ـ وتعد نسبة اسهام السكان المهاجرين بالقوى العاملة متفاوتة من مجموعة جنسية لأخرى ، الى جانب أن هذا التفاوت كان متغيراً من تعداد لآخر ، حيث أن نسبة إسهام مجموعة الجنسيات العربية من إجمالي القوى العاملة الوافدة قد سجل أكبر نسبة بين المجموعات الجنسيات الأخرى العاملة بدولة الكويت ، الا ان تلك النسبة سجلت تناقصاً من تعداد لآخر حيث بلغت (٦٨,٢٪) من عام ١٩٦٥ ، ثم اتجهت نحو الارتفاع البطيء حتى عام ١٩٧٥ حين بلغت (٦٩,٠٪) ، ولكن منذ عام ١٩٨٠ اتجهت هذه النسبة نحو التناقص الواضح حيث بلغت (٥٩,٦٪) ، ثم تراجعت الى (٤٦,٢٪) في عام ١٩٨٥ ، وفي التعداد المذكور سجلت مجموعة الجنسيات العربية وللمرة الأولى نسبة تقل عما يقابلها لدى مجموعات الجنسيات الآسيوية غير العربية ، حيث بلغت النسبة الخاصة بتلك الجنسيات (٥٢,٣٪) من إجمالي القوى العاملة الوافدة في العام المذكور ، مشكلة بذلك ما يزيد قليلا عن نصف إجمالي القوى العاملة الوافدة بالدولة ، يلي المجموعتين الجنسيتين المذكورتين بالمرتبة بقية المجموعات الجنسية غير العربية المتواجدة بدولة الكويت ولكن بنسب قليلة جداً لا تتعدى (١٪) أو ما يقل عن ذلك من إجمالي القوى العاملة الوافدة بالدولة ، وتلك الحقيقة تنطبق على كافة التعدادات السكانية المذكورة .

مما سبق ذكره تبين لنا أن للهجرة دوراً بارزاً في نمو وتطوّر حجم القوى العاملة الاجمالية بالدولة ، حيث أن عددها المطلق قد زاد من (١٤١٢٧٩) نسمة في عام ١٩٦٥ الى (٥٣٩٠٢٨) نسمة في عام ١٩٨٥ ، أي ما يزيد قليلاً عن نصف مليون نسمة .

خلاصة ماسبق ذكره نجد أن ظاهرة الهجرة التي تعرض لها المجتمع الكويتي أسفرت عن تغيرات هائلة سواء أكان بالنسبة للحجم الكلي للسكان وتطور نموه داخل الدولة ، أم بالنسبة لحجم القوى العاملة الاجمالية التي تزايدت بشكل سريع ، والتي كان لعامل الهجرة الى دولة الكويت الأثر الكبير في هذا التزايد ، وبخاصة أنهم يمثلون غالبية النسبة الخاصة بالقوى العاملة ، الى جانب ذلك فقد ترتب على ظاهرة الهجرة الى دولة الكويت آثار جمة ، سواءً أكان منها الاقتصادية أم الاجتماعية أم الديموجرافية وحتى السياسية على السكان الكويتيين ، وهذا الأمر المهم يدعونا الى دراسة سجلات الهجرة محلياً للتعرف على الأساليب المختلفة المتبعة في جمع البيانات الاحصائية الخاصة بتلك الظاهرة .

وبخلاف التعدادات العامة للسكان فانه لا يوجد حتى الوقت الحالي نظام دقيق لجمع بيانات متكاملة عن احصاءات الهجرة الدولية الوافدة لدولة الكويت بخصائصها الديموجرافية الأساسية وبأسلوبها المعتاد والتي تتم عن طريق إجراء المسوح بالعينة للأسر القاطنة ، أو بأسلوب الإحصاء الجاري للأفراد القادمين والمغادرين بوساطة الاستبيانات التي تصمم لهذا الغرض ، والبيانات المتوفرة حالياً عن الهجرة ما هي الا جداول محدودة مسجل بها حركة القادمين والمغادرين موزعين حسب الجنسية والنوع وطريق السفر ، وتشرف على اتمام تلك العملية وزارة الداخلية بالتعاون مع إدارة الطيران المدني ، وتزود الادارة المركزية للإحصاء بوزارة التخطيط بهذه الجداول بصورة شبه دورية ، وتنشر هذه الجداول بعد ذلك في المجموعة الاحصائية السنوية ، والبيانات الواردة بتلك الجداول لا تفي بالغرض الأساسي المطلوب من إحصاءات الهجرة والتي تكون كمؤشرات ديموجرافية أساسية ، مثل المهنة والحالة التعليمية والعمر وأسباب القدوم أو المغادرة لكل من القادمين والمغادرين ، وعادة ما تستخدم تلك الجداول كمؤشرات إجمالية لاحصاءات النقل « المواصلات » ، بالاضافة الى أنه يستعان بها عند دراسة وتحليل بيانات تلك الاحصاءات للوقوف على مدى علاقتها بالمتغيرات السكانية الأخرى ذات العلاقة بالهجرة الدولية الوافدة الى الكويت أو المغادرة منها ، وبخاصة تلك البيانات التي تتيحها المسوح والاحصاءات السكانية[٣٢] .

ولم يؤخذ بنظام تسجيل الجداول الخاصة بحركة السفر للسكان الوافدين مصنفة بحسب الجنسية الا منذ عام ١٩٦٤ ، ومع ذلك فما زالت الحاجة تدعو الى ضرورة قيام تنسيق وتعاون إيجابي أكثر بين وزارة الداخلية وادارة الطيران المدني من جهة ، والادارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط من جهة أخرى ، من أجل أن تتوفر الأرقام الدقيقة عن حجم وخصائص السكان الوافدين الى دولة الكويت بصورة دورية مفصلة . ليتمكن كل من الخبراء والمتخصصين من إجراء تقديرات أقرب الى الواقع لتطور النمو السكاني للوافدين ، للتعرف على التغيرات التي من المحتمل أن تطرأ على خصائصهم في المستقبل القريب والبعيد ، اذ أنه في حالة عدم توفر تلك البيانات يكاد يكون من المستحيل وضع الخطط التنموية والاقتصادية والاجتماعية المستقبلية التي يمكن تنفيذها بنجاح ، وبخاصة أن السكان الوافدين أصبحوا يشكلون حوالي (٦٠٪) من إجمالي السكان بحسب نتائج عام ١٩٨٥ ، كما ذكرنا في السابق .

وبالرغم من أنه لا يوجد بدولة الكويت نظام للتسجيل المستمر للسكان ، ذلك النظام الذي يوفر إحصاءات مرضية عن المهاجرين لداخل البلاد والمهاجرين منها ، الا أن هناك عدداً غير قليل من الباحثين والمتخصصين قاموا بإعداد بحوث ودراسات تتعلق بالسكان المهاجرين لدولة الكويت ، وقد تمكنوا من تقدير عدد المهاجرين الوافدين الى دولة الكويت في فترة زمنية تقع ما بين تعدادين متتاليين باستخدام اعداد السكان الاجمالية للوافدين في كل من هذين التعدادين ، بالإضافة الى بيانات أخرى توفرها عادة التعدادات أو غيرها من المصادر[٣٣] .

(٣٢) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، دليل نظام الاحصاءات الحيوية بدولة الكويت ، الكويت ، يونيو ١٩٨٤ ، ص٤

(٣٣) من الدراسات والبحوث الحديثة التي اتبع بها الطريقة المذكورة عند تقدير اعداد السكان المهاجرين الى دولة الكويت في الفترات التعدادية المختلفة مايلي :
- مساعد حسن العميم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، الكويت في يناير ١٩٨٤ ، ص ٧٧ ـ ٧٩ .
- وزارة التخطيط ، خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠ ، المرجع السابق ، ص ١
- مساعد حسين العميم ، العوامل المحددة لمستويات الاستخدام ومعدلات مختلف نوعيات الهجرة ، (دراسة حالة الكويت) ، الكويت في اغسطس ١٩٨٥

وقد تم حساب صافي الهجرة الى دولة الكويت بتلك البحوث والدراسات وبخاصة في السنوات الأخيرة بالطرق التالية :

أ ـ حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود : ومن المعروف أن مصدر هذه البيانات وزارة الداخلية ، وقد تم حساب صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود لكل سنة بطرح عدد المغادرين خلال السنة من عدد القادمين خلال نفس السنة ، حيث أنه اذا كانت مثل هذه البيانات على درجة معقولة من الدقة فيمكن استخدامها كأحد مؤشرات صافي الهجرة الى دولة الكويت .

ب ـ تقديرات صافي الهجرة ما بين التعدادات . وقد أعدت هذه التقديرات بطريقة الاحصاءات الحيوية ، حيث حُسِب مقدار التغير السكاني ما بين التعداد والتعداد التالي له ، ثم حُسِب مقدار الزيادة الطبيعية للسكان خلال الفترة ما بين التعدادين وبطرح مقدار الزيادة الطبيعية من الزيادة الاجمالية التي تمت في اعداد السكان نحصل على تقدير صافي الهجرة .

وبالرغم من عدم جواز الاعتماد على صافي الحركة للسكان غير الكويتيين عبر الحدود كمقياس لقيمة صافي الهجرة ، إلا أنه يمكن استخدام قيمة صافي الحركة وكونها سالبة أو موجبة للدلالة على اتجاهات التغير في صافي الهجرة نحو الزيادة أو النقصان ، وبخاصة عند دراسة صافي الهجرة لمجموعة معينة من الجنسيات ، مثل الجنسيات العربية أو الأسيوية أو عند دراسة صافي الهجرة لجنسية معينة ، وتتبع هذه الطريقة في الحالات التي لا يتاح لها بيانات تمكن من تقدير صافي الهجرة بطريقة الاحصاءات الحيوية[٣٤] .

وبذلك نجد أنه في حالة استخدام الطرق غير المباشرة لتقدير صافي الهجرة الى دولة الكويت فمن الأفضل استخدام الطريقة الثانية التي تعتمد فيها على البيانات التي توفرها التعدادات العامة للسكان وكذلك الاحصاءات الحيوية عن السكان المهاجرين ، أما الطريقة الأولى والتي نعتمد فيها على بيانات حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود ، وكما يوضحها كل من (الجدولين رقما ١١ ، ١٢) ، فلا يمكن الاعتماد على نتائجها وبخاصة أنه عند استعمالها أسفرت بياناتها عن أن حجم صافي الهجرة كان مقداره سالباً في الفترة الزمنية التالية لعام ١٩٦٩ ، وبالتحديد في الفترة الزمنية الممتدة ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٤ ، بالاضافة الى عام ١٩٧٩ ، وأخيراً في الفترة الزمنية الممتدة ما بين عام ١٩٨٢ وعام ١٩٨٤[٣٥] ، وربما تصدق تلك الحقيقة في السنوات الثلاث الأخيرة المذكورة ، الا أنه لا يمكن حدوثها بالنسبة لفترة السبعينات وبخاصة أن تلك الفترة الزمنية شهدت حدوث هجرة ذات حجم كبير ، ومن مصادر عديدة ، لم يرد ذكرها في السابق ، منها على سبيل المثال دول جنوب وشرق آسيا ، وبالتحديد تلك الهجرة القادمة الى الكويت لأول مرة من كل من كوريا الجنوبية والفلبين وقد تميزت تلك الهجرة بالاضافة الى ما سبق أن غالبية أفرادها يتركزون في الأعمال الانشائية ، أي في قطاع التشييد والبناء ، الى جانب ما سبق فان تلك الهجرة تميزت عما شهدته

(٣٤) مساعد العميم ، المرجع السابق ، ص ٤ ـ ٥ .

(٣٥) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية للاعوام ١٩٧٥ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥

الكويت من هجرات في أن مدة الاقامة للوافدين تعد مؤقتة ، حيث أنها تنتهي بمجرد الانتهاء من تنفيذ المشروع الإسكاني الذي قدموا للكويت من أجله .

بالاضافة الى ما ذكرنا في السابق فان هناك عدة عوامل تجعل من البيانات الاحصائية الخاصة بحركة القدوم والمغادرة مضللة ولا يمكن الوثوق بها وبالتالي لا يعتمد عليها عند احتساب صافي الهجرة ، وفي مقدمة هذه العوامل ، ذلك العامل الذي يتمثل في أن هذه البيانات الاحصائية تغفل تسجيل البدو والمتسللين الذين يخترقون الحدود دون علم سلطات الدولة ، وبخاصة أن الداخلين الى دولة الكويت بطريقة غير مشروعة عادة ما يتهربون من اختراق الحدود بطريقة رسمية ، ولهذا يغفل تسجيلهم مع القادمين في حين يتم تسجيلهم كمغادرين فقط أثناء خروجهم من البلاد مما يعطي في النهاية أرقاماً مضللة لصافي الهجرة ، خاصة بالنسبة للجنسيات الايرانية والعراقية والسورية التي عادة ما يكثر بين سكانها دخول البلاد بتلك الطريقة .

بالإضافة الى ما سبق فان الطريقة الثانية أيضاً لتقدير حجم صافي الهجرة ما بين التعدادات والتي يعتمد عند استعمالها على كل من بيانات التعدادات العامة للسكان وبيانات الاحصاءات الحيوية يشوبها ـ أيضاً ـ نوع من الشك ، نتيجة الى أن حجم صافي الهجرة يتأثر بالأخطاء التي تحدث في كل من عملية عد السكان وعملية التسجيل الحيوي ، الا أنه يبدو أن عمليات عد السكان في تعدادات ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ ، وكذلك التسجيل الحيوي خلال الفترة ذاتها مكتملة تقريباً ، وهكذا فان أرقام صافي الهجرة للداخل والمعدة باستخدام طريقة الاحصاءات الحيوية لن تكون عرضة لاخطاء خطيرة ، وبخاصة أنه أثناء عملية عد السكان في التعدادات الثلاث المذكورة كان هناك زيادة في التركيز على طلب الاثبات المستندي للجنسية الكويتية ، مما قلل من حالات الادعاء بالجنسية الكويتية[٣٦]

خلاصة ما سبق ذكره يتضح أن البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الى الكويت تشتق من مصدرين أساسيين هما الادارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط وإدارة الجوازات والجنسية والإقامة بوزارة الداخلية ، بما توفره الادارة الأولى من بيانات تتضمنها كل من التعدادات العامة للسكان ، والمجموعة الاحصائية السنوية ، والمجموعة السنوية للإحصاءات الحيوية ، وأخيراً التقارير والمسوحات السكانية ، وبما توفره الإدارة الثانية من بيانات خاصة بالقادمين والمغادرين موزعين بحسب مجموعات الدولة التي ينتمون اليها ، وكذلك حركة الركاب في الموانيء البرية والبحرية والجوية ، بالاضافة الى كل من البيانات التي تتعلق بحالات منح الجنسية الكويتية وحالات منح تصاريح الإقامة للوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون إليها ، ومما هو جدير بالذكر أن كافة تلك البيانات تقوم بجمعها وتبويبها الادارات المختصة بوزارة الداخلية وبخاصة نقاط الحدود البرية والبحرية والادارة العامة للطيران المدني وأخيراً الادارة العامة للجوازات والجنسية والإقامة ، وقد كان هذا النوع من البيانات يصدر عن وزارة الداخلية حتى عام ١٩٦٥ ، إلا أنه بعد ذلك التاريخ أصبح مجلس التخطيط ـ وزارة التخطيط الحالية ـ هو الذي يتولى نشر واصدار مثل تلك البيانات معتمداً في ذلك على سجلات وزارة الداخلية

(٣٦) وزارة التخطيط ، خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ، المرجع السابق ، ص ٥

بالإضافة إلى هذين المصدرين هناك مصدر ثالث للبيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية الى الكويت وتمثل هذا المصدر في مراقبة الاستخدام بإدارة تنظيم القوى العاملة بوزارة الشئون الاجتماعية والعمل وفي مطلع عام ١٩٨٠ أصبح يطلق على تلك الإدارة إدارة عمل محافظة العاصمة ، بعد صدور القرار رقم (١٩٩) لسنة ١٩٧٩ ، وقد تولت الإدارة إصدار تصاريح العمل على مستوى الدولة (٣٧) ، ويصدر عن الادارة المذكورة تقديراً سنوياً يختص بنشر بيانات تحليلية وإحصائية عن تصاريح العمل في القطاع الأهلي وقطاع الأعمال النفطية ، ويتمثل الهدف الأساسي من نشر تلك البيانات في توضيح كل ما يتعلق بنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة ، وتعد تلك البيانات كمؤشر لمعرفة مدى الطلب على هذه القوى ، وما يحدث بها من متغيرات ،وبخاصةعندما تنشط قطاعات معينة كما حدث في قطاع التشييد والبناء في منتصف السبعينات ، حيث كان الطلب مركزاً على العمالة الوافدة من أجل العمل في القطاع المذكور ، وكذلك تعد تلك البيانات كمؤشر للتعرف على المهن والتخصصات التي تزود بها سوق العمل في الكويت من الدول المختلفة المصدرة للعمالة ، وما اذا كان هناك ثمة علاقة بين مصدر معين ومهن بذاتها ، أي التوقف على مدى العلاقة ما بين الجنسية والمهنة ، كما حدث في عامي ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ حيث شهدت هاتان السنتان تغيراً جذرياً في خريطة الدول المصدرة للقوى العاملة والوافدة الى دولة الكويت ، حين أصبحت القوى العاملة غير العربية في موقف المتحدي أمام القوى العاملة العربية الوافدة ، وقد بلغت تلك الظاهرة مداها في الثمانينات . (كما أوضحنا فيما سبق) .

خلاصة لكل ما سبق ذكره فان الهدف الأساسي من عمل الادارة المذكورة يتلخص في تنظيم عملية استخدام القوى العاملة الى الكويت من أجل الاستفادة بأفضل الطاقات البشرية المتاحة في أسواق العمل الخارجية ، وكذلك إجراء التقديرات المستقبلية الصحيحة للاحتياجات الفعلية من قوة العمل الوافدة على أسس اقتصادية ، معتمدة في ذلك على حصيلة وفيرة من الحقائق المحيطة بسوق العمل المحلي ، وقد اعتبرت تلك الحقائق بمثابة المؤشرات الأساسية لاتجاهات سوق العمل بالكويت وتطوراته ومتغيراته لوضع خطة نحو المعنى في اصدار تصاريح جديدة للعمل في اتجاهات اقتصادية معينة .

وتتضمن التقارير السنوية المذكورة بيانات إحصائية ودراسات وتحليلية خاصة بنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة ـ كما ذكرنا في السابق ـ ، بالاضافة الى عمل تقديرات للاحتياجات المستقبلية لتلك العمالة ، والبيانات المنشورة في تلك التقارير عن تصاريح العمل توضح أن هناك عدة أنواع من هذه التصاريح هي كما يلي : التصاريح بالدخول للعمل ، التصاريح بالعمل لأول مرة ، تجديد تصاريح العمل ، الغاء تصاريح العمل أو تحويلها ، وأخيراً الالغاء النهائي لتصاريح العمل ، وجميع تلك الأنواع من تصاريح العمل مجدولة ومصنفة بحسب النشاط الاقتصادي والجنسية والمجموعات المهنية والنوع والعمر والحالة الاجتماعية وأخيراً الأجور .

---

(٣٧) وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، ادارة تنظيم القوى العاملة ، مراقبة الاستخدام ، التقدير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٧٨ ، الكويت في يناير ١٩٧٩ ، المقدمة .

وقد اهتمت وزارة الشئون الاجتماعية والعمل بتطوير البيانات التي تتناولها هذه التقارير بالدراسة والتحليل نتيجة الى أن القوى العاملة المستجدة سنوياً والوافدة الى الكويت تتزايد من سنة لأخرى ، بحيث أن نتائج تعداد السكان لعام ١٩٨٠ تظهر أن السبب الرئيسي لاقامة السكان الوافدين بدولة الكويت هو المرافقة (مرافقة الأقارب العاملين بالدولة) وبنسبة قدرها (٥١,٤٪) ، بينما تبلغ نسبة المقيمين للعمل (٤٧,٩٪)[٣٨] . ولذلك فقد ركزت الوزارة المذكورة على تطوير قانون العمل في القطاع الأهلي وتنظيمه ، بحيث صدر قانون في عام ١٩٨٤ أضيف بمقتضاه عمل إجراءات جديدة عند إصدار تصاريح العمل للقوى العاملة الوافدة للعمل في القطاع الأهلي ، منها أن المادة الأولى منه تنص على قصر إصدار تصاريح العمل على قطاعات إقتصادية معينة[٣٩] .

وفي حالة دراسة الهجرة الى دولة الكويت هناك بيانات صادرة عن وزارة الداخلية خاصة بحالات منح الاقامة للسكان الوافدين الى دولة الكويت ، وقد لا تفيد البيانات المذكورة الباحثين والمتخصصين بالدراسات السكانية عند قياس حجم صافي الهجرة ، الا أن هذه البيانات تكون بمثابة مؤشر مهم عند دراسة مظاهر استقرار القوى العاملة الوافدة ، وبخاصة أن دراستنا التحليلية للقوى العاملة بدولة الكويت والتي تناولناها قبل قليل اسفرت عن أن القوى العاملة غير الكويتية تشكل ما يزيد قليلاً عن أربعة أخماس القوى العاملة بالدولة ، أي أنها تمثل غالبية القوى العاملة بالدولة حتى عام ١٩٨٥ ، لذلك أخذت الدولة على عاتقها مسئولية إصدار التشريعات الخاصة بالاقامة وما يتعلق بها منذ عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٧٥ ، وتعد جميع القرارات الصادرة بهذا الشأن خاصة ببيان شروط جواز دخول الأجانب لأراضي دولة الكويت والاقامة فيها ومدتها وأسبابها .

وفي بيان الجدول رقم (١٣) نستنتج أن نصيب مجموعة الجنسيات العربية غير الكويتية من النسبة الاجمالية لتصاريح الاقامة الصادرة والممنوحة للسكان الوافدين في الفترة الزمنية الممتدة في عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٨٢ ، قد اتجه نحو التناقص وبشكل واضح فبعدْ أن كانت تلك النسبة تشكل (٦١,٢٪) من إجمالي تصاريح الاقامة الممنوحة للوافدين في عام ١٩٧٣ ، أصبحت هذه النسبة تشكل (٣٥,٦٪) أي الثلث فقط في عام ١٩٨٢ ، ممثلة بذلك المرتبة الثانية ، وقد احتلت تلك المجموعة لهذه المرتبة منذ عام ١٩٧٩ ، بعد أن كانت ممثلة للمرتبة الأولى في السنوات السابقة للعام المذكور . في حين أن مجموعة الجنسيات الاسيوية غير العربية كانت ممثلة للمرتبة الثانية في عام ١٩٧٣ وبنسبة تقدر بـ (٣٦,١٪) ، الا أن هذه النسبة اتجهت نحو الزيادة من سنة لأخرى حيث أنها فاقت ما يقابلها لدى مجموعة الجنسيات العربية منذ عام ١٩٧٩ ، ممثلة ـ بذلك ـ للمرتبة الأولى واستمرت تلك المجموعة ممثلة لهذه المرتبة حتى عام ١٩٨٢ وبنسبة تقدر بـ (٥٣,٥٪) أي أن نصيب مجموعة الجنسيات الأسيوية غير العربية من النسبة الاجمالية لتصاريح الاقامة الممنوحة زاد عن النصف بقليل في العام المذكور .

أما نصيب بقية المجموعات الجنسية غير العربية كالأفريقية والأمريكية والأوربية وغيرها فقد كان محدوداً جداً ويقلّ في معظم الأحوال عن نسبته (١٪) في جميع السنوات المذكورة .

---

(٣٨) مساعد حسن العميم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، المرجع السابق ، ص ٨٤

(٣٩) وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، ادارة عمل محافظة العاصمة ، مراقبة الاستخدام ، التقدير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٨٤ ، الكويت في فبراير ١٩٨٥ ، ص ٣ ـ ٤

خلاصة لما سبق ذكره يتضح أن دولة الكويت تعد حديثة العهد بالنسبة لوفود المهاجرين اليها ، حيث بدأت ظاهرة الهجرة الدولية الى دولة الكويت منذ بداية الخمسينات من هذا القرن ، الا أنها ساهمت بشكل فعال في نمو حجم السكان وبالتالي أثرت وبشكل واضح على كافة الخصائص الديموجرافية السكانية ، ولم تبدأ الكويت بتدوين أو تسجيل بيانات تلك الظاهرة الا منذ عام ١٩٥٧ ، حين أجرى التعداد الأول للسكان بالدولة ، ثم تبعه بعد ذلك استمرار هذه العملية كل خمس سنوات وكان آخرها تعداد عام ١٩٨٥ ، وبخاصة أنه كما علمنا في السابق من أن بيانات التعداد العام للسكان تعد المصدر الرئيسي لاحصاءات الهجرة الى دولة الكويت أو منها ، أما المصدر الثاني فقد مثلته البيانات الصادرة عن وزارة الداخلية ، وبخاصة تلك البيانات الوثيقة الصلة بحركة السكان والتي تجمع بوساطة الرجال القائمين على مراقبة نقاط الحدود والمطارات ، بالاضافة الى تلك البيانات الخاصة بحالات منح الاقامة للوافدين والتي في حالة تحليلها تعد بمثابة مؤشر هام لمدى استقرار القوى العاملة ، وأخيراً فان المصدر الثالث يتمثل في احصاءات الهجرة التي توفرها وزارة الشئون الاجتماعية والعمل والخاصة بتصاريح العمل الممنوحة للقوى العاملة الوافدة في القطاع الأهلي .

خلاصة لما سبق ذكره يتبين لنا أن هناك جهات رسمية عديدة تعمل على جمع وجدولة ونشر البيانات الخاصة بالهجرة الدولية القادمة الى دولة الكويت أو المغادرة منها ، وقد تمثلت هذه الجهات بثلاث وزارات هي وزارة التخطيط ، ووزارة الداخلية ووزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، وبناء على ذلك نوصي بأن يكون هناك جهة رسمية واحدة فقط تتولى تلك العملية ، ومن الأفضل أن تكون تلك الجهة ممثلة بوزارة التخطيط ، وبخاصة بالنسبة لجمع هذه البيانات والتأكد من صحتها وبالتالي تبويبها ونشرها ، لتكون أكثر فائدة بالنسبة لكافة المهتمين بظاهرة الهجرة الدولية سواء أكان منها القادمة أم المغادرة من دولة الكويت وفي مقدمتهم المسؤولون عن التخطيط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، بمن فيهم العاملون في القطاع الحكومي أو القطاع الخاص ، أو الباحثون والدارسون لتلك الظاهرة ، بالاضافة الى ما سبق نوصي ـ أيضاً ـ أن يكون هناك قسم خاص يعنى بشئون الهجرة ويكون تابعاً للادارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط يعمل على جمع كافة البيانات الاحصائية المتعلقة بالهجرة ، وينشرها ضمن إصدار خاص يكون على هيئة مجلد يحتوي على جميع البيانات الاحصائية للهجرة ، حتى يكون أكثر فائدة وقيمة عند دراسة تلك الظاهرة من قبل جميع المهتمين بهذه الظاهرة ، وحتى يتمكنوا من خلال دراستهم ومناقشتهم لتلك الظاهرة من حيث تحليل مسبباتها والتغيرات التي تطرأ على حجمها من فترة زمنية الى أخرى ، والعوامل المؤثرة على حجم الهجرة الدولية الى الكويت سواء أكان منها ، الداخلية أم الخارجية ، حتى يستطيع المهتمون بتلك الظاهرة بجميع فئاتهم الوصول الى فهم أكثر للعوامل المحددة لمختلف نوعيات الهجرة الوافدة الى دولة الكويت بشكل أكثر سهولة عند استخدام هذه البيانات .

أما التوصية الثالثة التي تختتم بها هذا البحث فتتلخص في أنه على الجهات الرسمية الثلاث المعنية بظاهرة الهجرة في الوقت الحالي والمتمثلة في وزارات التخطيط والداخلية والشئون الاجتماعية والعمل أن تعطي مزيداً من الاهتمام نحو تسجيل البيانات الاحصائية المتعلقة بتلك الظاهرة ، لتكتسب مزيداً من الدقة ، وبخاصة فيما يتعلق منها بشمولية هذه البيانات ، بحيث أنه في حالة تسجيل تلك البيانات لا تغفل أي مجموعة سكانية وافدة الى البلاد أو مغادرة منها ، نتيجة لما يمثله حجم السكان المهاجرين من إجمالي السكان داخل الدولة ، وكما ذكرنا فيما سبق من أن هؤلاء السكان أصبحوا

يمثلون نسبة تقدر بـ (٦٠٪) من إجمالي السكان بالدولة كما أظهرتها نتائج التعداد الأخير ـ تعداد عام ١٩٨٥ ، وهذه النسبة ليست كبيرة من حيث حجمها فقط ، بل تتعدى ذلك بكثير لمالها من آثار بالغة وواضحة على الخصائص السكانية داخل الدولة ، سواءً أكان منها الاجتماعية أم الاقتصادية بل وحتى السياسية ، وما يتطلبه كل ذلك من زيادة سريعة في الخدمات المختلفة التي تقدمها وتوفرها الجهات المعنية وفي مقدمتها وزارات الدولة المختلفة وبجميع أجهزتها والمؤسسات التابعة لها .

* * *

ملحـــق الجـــداول

فهرست الجـــداول

رقـــم الجـــدول	عنـــوان الجـــدول	رقـــم الصفحـــة

جدول رقم (١)

التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين)

في سنوات التعداد من (١٩٦٥ ـ ١٩٨٥)(٣٩)

سنة التعداد والعدد والنسبة / السكان	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠ *		١٩٨٥	
	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠
كويتيون	٢٢٠٠٥٩	٤٧ر١	٣٤٧٣٩٦	٤٧ر٠	٤٧٢٠٨٨	٤٧ر٥	٥٦٥٦١٣	٤١ر٧	٦٨١٢٨٨	٤٠ر١
غير الكويتيين	٢٤٧٢٨٠	٥٢ر٩	٣٩١٢٦٦	٥٣ر٠	٥٢٢٧٤٩	٥٢ر٥	٧٩٢٣٣٩	٥٨ر٣	١٠١٦٠١٣	٥٩ر٩
الجملة العمومية	٤٦٧٣٣٩	١٠٠ر٠	٧٣٨٦٦٢	١٠٠ر٠	٩٩٤٨٣٤	١٠٠ر٠	١٣٥٧٩٥٢	١٠٠ر٠	١٦٩٧٣٠١	١٠٠ر٠

(٤٠) التعدادات العامة للسكان في السنوات المذكورة .

* النسب حسبت .

جدول رقم (٢)

التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في تعدادات ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ (٤٠)

سنة التعداد / العدد والنسبة / مجموعات الدول	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠		١٩٨٥	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
كويتية	٢٢٠٠٥٩	٤٧ر١	٣٤٧٣٩٦	٤٧ر٠	٤٧٢٠٨٨	٤٧ر٥	٥٦٥٦١٣	٤١ر٧	٦٨١٢٨٨	٤٠ر١
عربية	١٨٧٩٢٣	٤٠ر٢	٣١٢٨٤٩	٤٢ر٤	٤١٩١٨٧	٤٢ر١	٥٧٤٤٩٥	٤٢ر٣	٦٤٣٨١٤	٣٧ر٩
اسيوية	٥٤٥٠٤	١١ر٧	٧١٩١٧	٩ر٧	٩٧٨١٣	٩ر٨	٢٠٤١٠٤	١٥ر٠	٣٥٥٩٤٧	٢١ر٠
اوربية	٣٨٣٩	٠ر٨	٤٨١٦	٠ر٧	٤٢٨٠	٠ر٤	٩٩٨٤	٠ر٧	١١٩٠٨	٠ر٧
أخرى	١٠١٧	٠ر٢	١٦٠٨	٠ر٢	١٣٠١	٠ر١	٣٧٥٦	٠ر٣	٥٣٤٤	٠ر٣
غير مبين	—	—	٧٦	—	١٦٨	—	—	—	—	—
الجملة العمومية	٤٦٧٣٣٩	١٠٠ر٠	٧٣٨٦٦٢	١٠٠ر٠!	٩٩٤٨٢٧	١٠٠ر٠	١٣٥٧٩٥٢	١٠٠ر٠	١٦٩٧٣٠١	١٠٠ر٠

(٤١) المصدر السابق .

* أخرى وتشمل الجنسيات الافريقية غير العربية والأمريكية والاسترالية والنيوزيلندية .

جدول رقم (٣)

التطور العددي والنسبي للسكان الوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في تعدادات ١٩٦٥، ١٩٧٠، ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٥ (٤١)

سنة التعداد / العدد / النسبة — مجموعات الدول	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠		١٩٨٥	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
عربية	١٨٧٩٢٣	٧٦ر٠	٣١٢٨٤٩	٨٠ر٠	٤١٩١٨٧	٨٠ر٠	٥٧٤٤٩٥	٧٢ر٥	٦٤٢٨١٤	٦٣ر٣
اسيوية	٥٤٥٠٤	٢٢ر٠	٧١٩١٧	١٨ر٤	٩٧٨١٣	١٨ر٧	٢٠٤١٠٤	٢٥ر٨	٣٥٥٩٤٧	٣٥ر٠
اوربية	٣٨٣٩	١ر٥	٤٨١٦	١ر٢	٤٢٨٠	٠ر٨	٩٩٨٤	٠ر٨	١١٩٠٨	١ر٢
أخرى	١٠١٧	٠ر٥	١٦٠٨	٠ر٤	١٣٠١	٠ر٥	٣٧٥٦	٠ر٩	٥٣٤٤	٠ر٥
غير مبين	—	—	٧٦	—	١٦٨	—	—	—	—	—
الجملة العمومية	٢٤٧٢٨٠	١٠٠ر٠	٣٩١٢٦٦	١٠٠ر٠	٥٢٢٧٤٩	١٠٠ر٠	٧٩٢٣٣٩	١٠٠ر٠	١٠١٦٠١٣	١٠٠ر٠

(٤٢) المصدر السابق .

* أخرى تشمل السكان والوافدين من مجموعات الدول الافريقية غير العربية والامريكية واستراليا ونيوزيلندا .

* النسب حسبت .

جدول رقم (٤)
صافي الهجرة ومصادرها الرئيسية بين التعدادات في الفترة من (١٩٤٨ - ١٩٨٥)

صافي الهجرة والمجموعات الجنسية / الفترة التعدادية	الدول العربية		الدول الاسيوية		الدول الاوربية		الدول الامريكية ودول أخرى		غير مبين		الجملة	
	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠
٤٨ - ١٩٥٧	٤١٨٨٨	٦٤ر٩	٢٠٣٠١	٣١ر٥	٢٢٢٣	٣ر٥	٩٧	٠ر١	—	—	٦٤٥٠٩	١٠٠ر٠
٥٧ - ١٩٦٥	١٥٨٩١٤	٧٦ر٤	٤٥٤٨٨	٢١ر٦	٣٠٧٧	١ر٥	٤٩٣	٠ر٢	١٤	—	٢٠٧٩٨٦	١٠٠ر٠
٦٥ - ٢٩٧٠	١٨١٣٥١	٧٨ر٣	٤٤٨٠٢	١٩ر٤	٤٤٤٢	١ر٩	٩٢٦	٠ر٤	—	—	٢٣١٤٢١	١٠٠ر٠
٧٠ - ١٩٧٥ (٤٢)	١٦٥٥٦٧	٧٥ر٠	٥٠٦١٢	٢٢ر٩	٣٤٢٨	١ر٦	١٠٥٣	٠ر٥	٢٥	—	٢٢٠٦٨٥	١٠٠ر٠
٧٥ - ١٩٨٠	١٥٥٣٠٨	٥٧ر٦	١٠٦٢٩١	٣٩ر٤	٥٧٠٤	٢ر١	٢٢٨٧	٠ر٩	—	—	٢٦٩٥٩٠	١٠٠ر٠
٨٠ - ١٩٨٥ (٤٣)	٦٨٣١٩	٣٠ر٥	١٥١٨٤٣	٦٧ر٩	١٩٢٤	٠ر٩	١٥٨٨	٠ر٧	—	—	٢٢٣٦٧٤	١٠٠ر٠

(٤٣) أحمد حسن ابراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٢) الكويت ١٩٨٥ ، جدول رقم (٧) ص٤٥ .

(٤٤) وزارة التخطيط ، المجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٨٥ والتعداد العام للسكان ١٩٨٥

جدول رقم (٥)

الواقعات الحيوية للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين)

للسنوات ١٩٦٥ ـ ١٩٨٤

الواقعات الحيوية والجنسية والعدد والمعدل / السنة	المواليد أحياء				الوفيات				الزيادة الطبيعية			
	كويتيون		غير كويتيين		كويتيون		غير كويتيين		كويتيون		غير كويتيين	
	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل
١٩٦٥	١١٧٩٣	٥٢ر٧	١٠١٥٧	٤٠ر٤	١٦٠٦	٧ر١	٨٥١	٣ر٣	١٠١٩٠	٤٥ر٦	٩٣٠٦	٣٧ر٠
١٩٦٦	١٢٤٨٣	٥٠ر٩	١١٢٤٩	٤٠ر٩	١٧٦٦	٧ر٢	١٠٤٧	٣ر٨	١٠٧١٧	٤٢ر٧	١٠٢٠٢	٣٧ر١
١٩٦١	١٤٦٢٤	٥٤ر٥	١٣٧١٠	٤٥ر٥	١٨٢٢	٦ر٧	١٢٨٩	٤ر٢	١٢٨٠٢	٤٧ر٧	١٢٤٢١	٤١ر٣
١٩٦٨	١٥٧٦٢	٥٣ر٦	١٧٢٦٤	٥٢ر٣	١٩٢٩	٦ر٥	١٤١٧	٤ر٢	١٣٨٣٣	٤٧ر٠	١٥٨٤٧	٤٨ر٠
١٩٦٩	١٧٩٦٥	٥٥ر٨	١٧١٧٠	٤٧ر٤	١٨٧٨	٥ر٨	١٥٠٠	٤ر١	١٦٠٨٧	٤٩ر٩	١٥٦٧٠	٤٣ر٣
١٩٧٠	١٦٢٢٠	٤٦ر٣	١٧٦٢٢	٤٤ر٥	٢٠١٥	٥ر٧	١٧٢٠	٤ر٣	١٤٢٠٥	٤٠ر٥	١٥٩٠٢	٤٠ر٢
١٩٧١	١٧٦٦٧	٥٩ر٥	١٧٨٩١	٤٢ر٣	٢٢٢٥	٦ر٠	١٦٠٧	٣ر٨	١٥٤٤٢	٤٢ر٢	١٦٢٨٤	٣٨ر٥
١٩٧٢	١٩٢٢٢	٥٠ر٢	١٨٤٥٦	٤٠ر٩	٢٥٥٧	٦ر٦	١٥٩٢	٣ر٥	١٦٦٧٥	٤٣ر٦	١٧٨٦٤	٣٧ر٤
١٩٧٣	٢١٣٤٠	٥٠ر٥	١٨٨٢٥	٤٠ر٠	٢٨٤٠	٦ر٧	١٧٦١	٣ر٧	١٨٥٠٠	٤٣ر٨	١٧٠٦٤	٣٦ر٣
١٩٧٤	٢٢٧١٣	٥٠ر٥	١٨٣٤٧	٣٦ر٨	٢٩٧٨	٦ر٦	١٧١٥	٣ر٤	١٩٧٣٥	٤٣ر٩	١٦٦٣٢	٣٤ر٤
١٩٧٥	٢٤٣٤١	٥١ر٢	١٩١٢٠	٣٦ر٠	٢٩١٧	٦ر١	١٨٦١	٣ر٥	٢١٤١٤	٤٥ر١	١٧٢٥٩	٣١ر٥
١٩٧٦	٢٤٩٣٥	٥٠ر٦	٢١١٠٤	٣٦ر٦	٢٧٥٧	٥ر٦	١٩٠٤	٣ر٣	٢٢١٧٨	٤٥ر٠	١٩٢٠٠	٣٣ر٣
١٩٧٧	٢٤٧٩٠	٤٨ر٥	٢٢٠٧٤	٣٥ر٢	٣١٥٠	٦ر٢	٢٢١٥	٣ر٥	٢١٦٤٠	٤٢ر٣	١٩٨٥٩	٣١ر٧
١٩٧٨	٢٥١٢٨	٤٧ر٤	٢٢٨٨٢	٣٣ر٦	٢٨٦٨	٥ر٤	٢٠٦٨	٣ر٠	٢٢٢٦٠	٤٢ر٠	٢٠٨١٤	٣٠ر٦
١٩٧٩	٢٥٤٩٩	٤٦ر٤	٢٢٧٧٤	٣٠ر٧	٢٩٤٣	٥ر٤	٢٠٨٥	٢ر٨	٢٢٥٥٦	٤١ر٠	٢٠٦٨٩	٢٧ر٩
١٩٨٠	٢٦٩٦٨	٤٧ر٣	٢٤١٢٢	٣٠ر٠	٢٩٠٣	٥ر١	٢٠١٩	٢ر٥	٢٤٠٥٥	٤٢ر٢	٢٢١٠٣	٢٧ر٥
١٩٨١	٢٧٩٩٨	٤٧ر٤	٢٤٠٤٣	٢٧ر٥	٢٦٨٩	٤ر٦	١٩٨٩	٢ر٣	٢٥٣٠٩	٤٢ر٨	٢٢٠٥٤	٢٥ر٢
١٩٨٢	٢٩٠٠٤	٤٧ر٤	٢٥٢٥٣	٢٦ر٥	٢٨٢٨	٤ر٦	٢١٦٤	٢ر٣	٢٦١٧٦	٤٢ر٨	٢٣٠٨٩	٢٤ر٢
١٩٨٣ (٤٤)	٣٠٠٣٢	٤٧ر٣	٢٥٥٨٥	٢٤ر٧	٢٦٦٣	٤ر٢	١٩٩١	١ر٩	٢٧٣٦٩	٤٣ر١	٢٣٥٩٤	٢٢ر٨
١٩٨٤ (٤٥)	٣٠٤٤٨	٤٦ر٢	٢٥٨٠٦	٢٦ر٥	٢٥٢٤	٣ر٨	١٩٣٣	٢ر٠	٢٧٩٢٤	٤٢ر٤	٢٣٨١٣	٢٤ر٥

(٤٥) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، النشرة السنوية للاحصاءات الحيوية ، المواليد والوفيات ١٩٨٣ ، الكويت ١٩٨٤ ، الجدول رقم (٢) و (٢٧) ، ص ٢ ـ ٦٤ .

(٤٦) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، النشرة الاحصائية الشهرية للاحصاءات الحيوية ، مارس ١٩٨٦ ، المجلد السابع ، العدد ٣ ، الكويت ١٩٨٦ ، جدول رقم (٧) و (٨) ، ص ٨ ـ ٩ .

* حسبت المعدلات

جدول رقم (٦)

مكونات النمو السكاني للمهاجرين بدولة الكويت (١٩٥٧ - ١٩٨٥) (٤٦)

السكان ومقدار الزيادة في الفترات التعدادية / سنة التعداد	السكان الوافدين: العدد	السكان الوافدين: النسبة	مقدار الزيادة بين التعدادين: العدد	مقدار الزيادة بين التعدادين: المعدل السنوي	مقدار الزيادة الطبيعية بين التعدادين: العدد	مقدار الزيادة الطبيعية بين التعدادين: النسبة	الهجرة الصافية بين التعدادين: العدد	الهجرة الصافية بين التعدادين: النسبة
١٩٥٧	٩٢٨٥١	٤٥ر٠						
			٦٦٨٦١	١٣ر٦	٢١٤٥٢	٣٢ر١	٤٥٤٠٩	٦٧ر٩
١٩٦١	١٥٩٧١٢	٤٩ر٧						
			٨٧٥٦٨	١١ر٨	٣٨٧٣٠	٤٤ر٢	٤٨٨٣٨	٥٥ر٨
١٩٦٥	٢٤٧٢٨٠	٥٢ر٩						
			١٤٣٩٨٦	٩ر٦	٧٠٠٤٣	٤٨ر٢	٧٣٩٤٤	٥١ر٤
١٩٧٠	٣٩١٢٦٦	٥٣ر٠						
			١٣١٤٨٣	٥ر٩	٨٣٤٧٦	٦٣ر٤	٤٨٠٠٧	٣٦ر٦
١٩٧٥	٥٢٢٧٤٩	٥٢ر٥						
			٢٦٩٥٩٠	٨ر٧	٩٧٨٢١	٣٦ر١	١٧٢٢٢٢	٦٣ر٩
١٩٨٠	٧٩١٣٣٩	٥٨ر٣						
			٢٢٣٦٧٤	٥ر١	١١٤٦٥٣	٥١ر٣	١٠٩٠٢١	٤٨ر٧
١٩٨٥	١٠١٦٠١٣	٥٩ر٩						

(٤٧) الارقام المطلقة مستقاة من التعدادات العامة للسكان .

* المعدلات والنسب محسوبة .

جدول رقم (٧)

تطور معدل النمو السنوي للسكان غير الكويتيين (٥٧ ـ ١٩٨٥) (٤٧)

السكان / سنة التعداد	عدد السكان الوافدين	الوافدون إلى جملة السكان	مقدار الزيادة بين التعدادين	معدل النمو السنوي بين التعدادين	معدل الزيادة الطبيعية بين التعدادين	معدل الزيادة غير الطبيعية بين التعدادين
١٩٥٧	٩٢٨٥١	٠ ر٤٥				
			٦٦٨٦١	٦ ر١٣	٧ ر ٢	٩ ر ١٠
١٩٦١	١٥٩٧١٢	٦ ر٤٩				
			٨٧٥٥٨	٨ ر١١	٢ ر ٣	٦ ر ٨
١٩٦٥	٢٤٧٢٨٠	٩ ر٥٢				
			١٤٣٩٨٦	٦ ر٩	١ ر ٤	٥ ر ٥
١٩٧٠	٣٩١٢٦٦	٠ ر٥٣				
			١٣١٤٨٣	٩ ر٥	٦ ر ٣	٣ ر ٢
١٩٧٥	٥٢٢٧٤٩	٥ ر٥٢				
			٢٦٩٥٩٠	٧ ر٨	١ ر ٣	١ ر ٥
١٩٨٠	٧٩٢٣٣٩	٣ ر٥٨				
			٢٢٣٦٧٤	١ ر٥	٤ ر ٢	٧ ر ٢
١٩٨٥	١٠١٦٠١٣	٩ ر٥٩				

(٤٨) المرجع السابق

* المعدلات حسبت

جدول رقم (٨)

تطور معدلات النمو السنوية للسكان موزعة بحسب المجموعات الجنسية بدولة الكويت في الفترات التعدادية الخمس

معدلات النمو السنوية والمجموعات الجنسية / الفترات التعدادية	معدلات النمو السنوية								
	الكويتيون	عربية	آسيوية	افريقية	أوربية	أمريكا الشمالية	أمريكا الجنوبية	استراليا ونيوزيلندة	مجموع الجنسيات غير الكويتية
٥٧ — ٦٥	٧ ر ١٨	٧ ر ١٤	٢ ر ٩	٢ ر ٢٢	٢ ر ٣	٧ ر ١٣	٧ ر ١٢		٠ ر ١٣
٦٥ — ٧٠	٦ ر ١١	٧ ر ١٠	٧ ر ٥	٤ ر ١٠	٧ ر ٤	٥ ر ١٢	٥٠ ر ٦		٦ ر ٩
٧٠ — ٧٥	٢ ر ٧	٠ ر ٦	٣ ر ٦	–٠ر ٩	–٣ ر ٢	–٧ ر ٣	٣ ر ١٠	١ ر ٦	٩ ر ٥
٧٥ — ٨٠ (٤٨)	٠ ر ٤	٥ ر ٦	٨ ر ١٥	٥ر ٢٩	٥ ر ١٨	٩ ر ١٩	٧ ر ١٦	٤ ر ٣٧	٧ ر ٨
٨٠ — ٨٥ (٤٩)	١ ر ٤	٤ ر ٢	٩ ر ١٤	٥ ر ٥	٩ ر ٣	٨ ر ١١	٨ ر ٦	٠ ر ٦	٦ ر ٥

(٤٩) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، العدد الثاني والعشرون ، الكويت في الكتوبر ١٩٨٥ ، جدول رقم (٩) ص ٢٥

(٥٠) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٥ ، الجزء الأول ، الكويت في ابريل ١٩٨٦ ، جدول رقم ٢٤

جدول رقم (٩)

التطور العددي والنسبي لقوة العمل الاجمالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في سنوات التعداد

سنوات التعداد والعدد والنسبة / مجموعات الدول	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠ (٥١)		١٩٨٥ (٥٢)	
	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠	العدد	٠/٠
الكويتية	٤٣٠٢٥	٢٣ر٣	٦١٦٨٢	٢٥ر٩	٨٦٩٧١	٢٩ر٠	١٠٣٤٧٤	٢١ر٢	١٢٣٥٦٠	١٨ر٧
العربية غير الكويتية	٩٦٣٧٢	٥٢ر٣	١٢٠٧٨٤	٥٠ر٨	١٤٦٧١٨	٤٩ر٠	٢٢٨٥٢٥	٤٦ر٩	٢٤٩٠٣١	٣٧ر٦
الاسيوية غير العربية	٤٠٣٩٢	٢١ر٩	٥٠٨٧٣	٢١ر٤	٦٢٥٨٦	٢٠ر٩	١٤٥٧١٦	٢٩ر٩	٢٨١٨٠٦	٤٢ر٥
الافريقية غير العربية	٢٧٠	٠ر٢	٣٠٥	٠ر١	١٠٧	—	٨١٠	٠ر٢	١٠٢٨	٠ر٢
الامريكية والاوربية	١٩٠٧	١ر٠	٢٤٨٣	١ر٠	٢٠٣٣	٠ر٧	٥٥١٩	١ر١	٧١٦٣	١ر١
غير مبين	١٢	—	٤٧	—	—	—	—	—	—	—
متعطلون	٢٣٢٦	١ر٣	٢٣٣٢	١ر٠	١٢٩٤	٠ر٤	٣١٧٩	٠ر٧	—	—
جملة غير الكويتيين	١٤١٢٧٠	٧٦ر٧	١٧٦٨٢٧	٧٤ر١	٢١٢٧٣٨	٧١ر٠	٣٨٣٧٤٩	٧٨ر٨	٥٣٩٠٢٨	٨١ر٣
الجملة العمومية	١٨٤٣٠٤	١٠٠ر٠	٢٣٨٥٠٩	١٠٠ر٠	٢٩٩٧٠٩	١٠٠ر٠	٤٨٧٢٢٣	١٠٠ر٠	٦٦٢٥٨٨	١٠٠ر٠

(٥١) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، المرجع السابق ، جدولا ١٠٩ ، ١١٠ ، ص١١٧ ـ ١١٨ .

(٥٢) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٣ ، العدد العشرون . الكويت في نوفمبر ١٩٨٣ ، جدول ٩٢ ، ٩٣ ، ص١٠٦ .

(٥٣) وزارة التخطيط ، التعداد العام للسكان ١٩٨٥ ، المرجع السابق ، جدول رقم (٢) .

ـ قوة العمل (١٢ سنة فاكثر) في عامي ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ .

ـ قوة العمل (١٥ سنة فاكثر) في اعوام ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

* حسبت النسب .

جدول رقم (١٠)

التطور العددي والنسبي لقوة العمل غير الكويتية موزعة بحسب مجموعات الدول في سنوات ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥

سنوات التعداد والعدد والنسبة / مجموعات الدول	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠ (٥٣)		١٩٨٥ (٥٤)	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الدول العربية	٩٦٣٧٢	٦٨ر٢	١٢٠٧٨٧	٦٨ر٣	١٤٦٧١٨	٦٩ر٠	٢٢٨٥٢٥	٥٩ر٦	٢٤٩٠٣١	٤٦ر٣
الدول الاسيوية	٤٠٣٩٢	٢٨ر٦	٥٠٨٧٣	٢٨ر٨	٦٢٥٨٦	٢٩ر٤	١٤٥٧١٦	٣٨ر٠	٢٨١٨٠٦	٥٣ر٣
الدول الافريقية	٢٧٠	٠ر٢	٣٠٥	٠ر٢	١٠٧	٠ر١	٨١٠	٠ر٢	١٠٢٨	٠ر٢
الدول الامريكية والاوربية	١٩٠٧	١ر٤	٢٤٨٣	١ر٤	٢٠٣٣	١ر٠	٥٥١٩	١ر٤	٧١٦٣	١ر٣
غير مبين	١٢	٠٠	٤٧	—	—	—	—	—	—	—
متعطلون	٢٣٢٦	١ر٧	٢٣٣٣	١ر٣	١٢٩٤	٠ر٦	٣١٧٩	٠ر٨	—	—
الجملة العمومية	١٤١٢٧٩	١٠٠ر٠	١٧٦٨٢٧	١٠٠ر٠	٢١٢٧٣٨	١٠٠ر٠	٣٨٣٧٤٩	١٠٠ر٠	٥٣٩٠٢٨	١٠٠ر٠

(٥٤) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٣ ، المرجع السابق ، جدولا رقم ٩٢ ، ٩٣ ، ص ١٠٦ .

(٥٥) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٥ ، المرجع السابق .

* قوة العمل (١٢ سنة فاكثر) في عامي ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ .

* قوة العمل (١٥ سنة فاكثر) في اعوام ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

* حسبت النسب .

جدول رقم (١١)
حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود (قادمون ومغادرون) وصافي الحركة وصافي الهجرة بين التعدادات (١٩٦١ - ١٩٨٤)

حركة السكان غير الكويتيين وصافي الهجرة / السنة	حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود			صافي الهجرة في الفترة مابين التعدادات
	قادمون	مغادرون	صافي الحركة	
١٩٦١	٢١٩٠٧١	٢٢٦٦٤٢	٨٦٧١ -	
١٩٦٢	١٨١٩٥٠	١٦٠٧٥٢	٢٠٢٠٢ +	٨٢٩٩ -
١٩٦٤	٣٦٠٧٨٨	٣٨٨٦١٢	٢٧٨٢٤ -	
١٩٦٥ (٥٥)	٥٧٥٩٧٢	٥٧٥٣٤١	٦٣١ +	
١٩٦٦	٦٤٦٤٣١	٦١٥٦٤١	٣٠٧٩٠ +	
١٩٦٧	٦٠٢٢١٨	٤٦٥٥٣٤	١٣٦٦٨٤ +	٢٩٤٦٥٢ +
١٩٦٨	٧٦٢٧٣٣	٦٤٣٠٣٨	١١٩٦٩٥ +	
١٩٦٩	٦٢٠١٦٩	٦١٣٣١٧	٦٨٥٢ +	
١٩٧٠	٦١٧٨٦٢	٦٥٨٨٧٩	٤١٠١٧ -	
١٩٧١	٦٥٧٣٩٥	٦٧٤٤٩٥	١٧١٠٠ -	
١٩٧٢	٦٨٨٤٣٣	٧٩٠٣٢٩	١٠١٨٩٦ -	٢١١٩٨٢ -
١٩٧٣	٦٦٩٧٢٢	٧٠٨٠١٠	٣٨٢٨٨ -	
١٩٧٤	٧٥٧٥٤٥	٧٧١٢٢٦	١٣٦٨١ -	
١٩٧٥	٩١٨١٦٠	٨٦٣٩٣٠	٥٤٢٣٠ +	
١٩٧٦	١٠٤٧٣٤٤	٩٧١٧٧٧	٧٥٥٦٧ +	
١٩٧٧	١٣٠٧١٩٢	١١٦٢٢٥٢	١٤٤٩٣٩ +	٣٢٠٩٢٧ +
١٩٧٨	١٣٤٩٢٧٩	١٢٧٧٣٠٦	٧١٩٧٣ +	
١٩٧٩	١٣٦١٢٢١	١٣٨٧٠٠٣	٢٥٧٨٢ -	
١٩٨٠	١٢٦٥٧٣١	١٢٦٥٣٧٠	٣٦١ +	
١٩٨١	١١٨٧١٦٩	١٠٩٥٣٢٦	٩١٨٤٣ +	
١٩٨٢	٩٠١٥٩٨	٩٦٠٤٦	٥٩٠٤٨ -	٦٩٥٨٢ -
١٩٨٣	٧٩١٠٥٦	٨٢٣٣٦٣	٧٢٣٠٧ -	
١٩٨٤ (٥٦)	٨٩٩٧٩٨	٩٣٠٢٣٠	٣٠٤٣٢ -	
			الاجمالي	٣٢٥٧١٥ +

(٥٦) من عام ١٩٦١ وحتى عام ١٩٦٥ الارقام المطلقة للقادمين والمغادرين مستقاة من المجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٦٦ ، جدول ١٨ ، ص ٣٩ .

(٥٧) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء . المجموعة الاحصائية للاعوام ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٥ .

* الارقام المطلقة لصافي الحركة وصافي الهجرة حسبت .

جدول رقم (١٢)

صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود موزعة بحسب مجموعات الدول للسنوات (١٩٧٢ - ١٩٨٤)

السنوات / مجموعات الدول	١٩٧٢ (٥٧)	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢ (٥٨)	١٩٨٣ (٥٩)	١٩٨٤
الدول العربية	– ٨٩٢٦٢	+ ٦٥٠٥١	+ ٤٣٧	+ ٧٧٠٠٣	+ ٤٢٠٣٧	+ ١٢٣٦٢٥	+ ٧١٤٩٥	– ٧٢٨٤	+ ٨٥٤٥	+ ٨٧١٢٣	– ٢٥٨٠٢	– ١٤٠٧٧	+ ٦٢٦٧
الدول الأسيوية	– ١١٥٩٠	– ٥٣٥٥	– ١٢٣٦٤	– ١٢٥٣١٠	+ ٣٢٣٠٧	+ ٨١٨٠	– ١٢٧١	– ١٧٩٣١	– ١٥٩٤٨	– ١٢٦٠٨	– ٣٤٧٧٢	– ١٠٤٨٥	– ٣٠٣٢٩
الدول الأفريقية	+ ١٠	– ٦٩	+ ١١٥	+ ١٨٦	– ١٣٩	+ ٣١	+ ٧٣	+ ٤٧	+ ٢٩	+ ١١٩	– ١٨٢	– ٥١٦	– ١٠
الدول الاوربية	– ١٣٦١	+ ١٥٠٤	– ١٦٢٦	– ٩٠٧٣	+ ١٠٧٣	+ ٢٩٩٤	+ ١٧٥٨	+ ٥٢٩	+ ٧٢٥٤	+ ١٣٧٢٤	+ ٢٤٩٦	– ٥٩٨٢	– ٥٦٢٦
الدول الامريكية	+ ٣٨٤	+ ٢٢٦	– ٢٠٨	– ١٥٨٩	+ ١٩٥	+ ٢٤٢	– ٣٧	– ١١٤٦	+ ٢٠٥	+ ٢٦٠٢	– ٦٢٠	– ١٠٦٩	– ٧٣٩
دول أخرى	– ٧٦	+ ٣٨٢	– ٣٥	+ ٢٣٤	+ ٩٤	– ٣٣٣	– ٤٥	+ ٣	+ ٢٧٦	+ ٨٨٣	– ١٥٨	– ١٢٨	+ ٥
جملة غير الكويتيين	– ١٠١٨٩٦	+ ٦١٧١٢	– ١٣٦٨١	+ ٥٤٢٣٠	+ ٧٥٥٦٧	+ ١٤٤٩٣٩	+ ٧١٩٧٣	– ٢٥٧٨٣	+ ٣٦١	+ ٩١٨٤٣	– ٥٩٠٤٨	– ٣٢٣٠٧	– ٣٠٤٣٣

(٥٨) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ، ١٩٨٢ ، العدد التاسع عشر ، الكويت في ديسمبر ١٩٨٢ ، جدول رقم ١٨٧ ، ١٨٨ ، ص ٢٢٢ .

(٥٩) وزارة التخطيط ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٣ ، المرجع السابق ، جدول رقم ١٨٥ ، ١٨٦ ، ص ٢١٨ .

(٦٠) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، المرجع السابق ، جدول رقم ١٩٨ ، ١٩٩ ، ص ٢٢٦ .

جدول رقم (١٣)

نسب حالات منح تصاريح الاقامة للوافدين حسب مجموعات الدول في السنوات ١٩٧٣ ـ ١٩٨٢

السنة	التوزيع النسبي لتصاريح الاقامة ٪ (٦٠)							مجموع تصاريح الاقامة (عدد)
	عربية	اسيوية	افريقية	اوربية	امريكية	اخرى	المجموع	
١٩٧٣	٦١ر٢	٣٦ر١	٠ر٢	٢ر٢	٠ر٣	—	١٠٠ر٠	٣٤٧٨٢
١٩٧٤	٦٧ر٥	٢٨ر٨	٠ر٥	٢ر٠	٠ر٦	٠ر٦	١٠٠ر٠	٤٦٤٣٥
١٩٧٥	٦٠ر٩	٣٤ر٨	٠ر٤	٢ر٢	٠ر٦	٠ر٦	١٠٠	٧٢٤٣٥
١٩٧٦	٥٥ر٧	٣٩ر٣	٠ر٢	٢ر٨	٠ر٧	٠ر١	١٠٠	٨٠٢٤٠
١٩٧٧	٥٦ر٨	٢٨ر٤	٠ر٢	٢ر٣	٠ر٩	٠ر٥	١٠٠	١٢٨٧١٩
١٩٧٨	٥١ر١	٤٤ر٨	٠ر٣	٢ر٠	٠ر٦	٠ر٢	١٠٠	١٤٠٦٩١
١٩٧٩	٤٣ر٤	٤٩ر٦	—	٢ر٠	٠ر٧	٥ر٢	١٠٠	١٠٢١٠٩
١٩٨٠	٤٥ر٣	٤٦ر٩	—	١ر٨	٠ر٦	٥ر٤	١٠٠	٩٩١٦٢
١٩٨١	٤١ر٨	٤٩ر١	—	١ر٣	٠ر٦	٧ر١	١٠٠	٩٤٧٦٧
١٩٨٢	٣٥ر٦	٥٣ر٥	—	١ر	٠ر٥	٨ر٨	١٠٠	١٤٥٨٤١

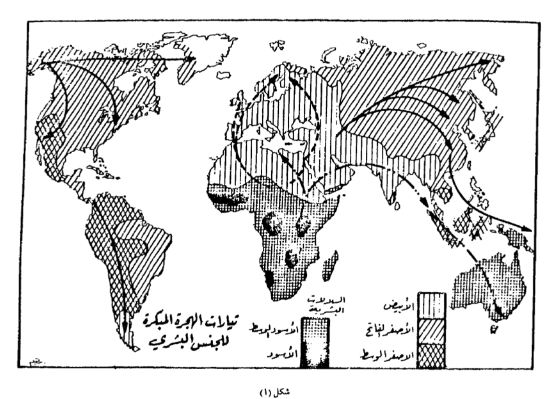
(٦١) حسب النسب الواردة في الجدول بالرجوع الى المصدر التالي :ـ

وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٣ ، المرجع السابق ، جدول رقم (٣٣) ، ص (٤٧) .

ملحـــق الخرائـــط والاشـــكال البيانيـــة

فهـرست الخرائـط والاشـكال البيانيـة

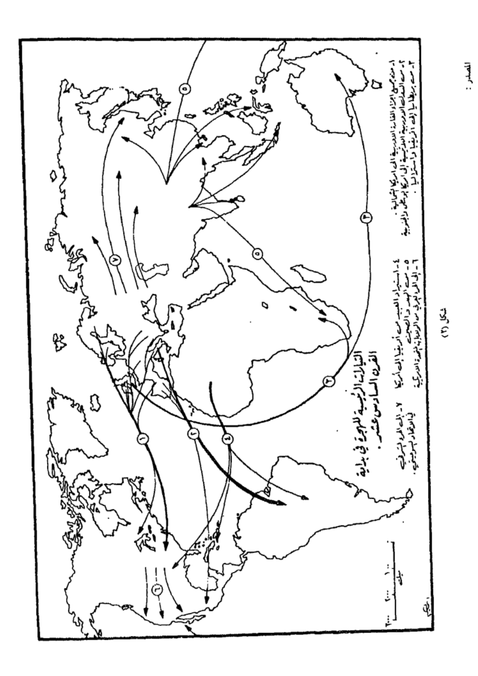
الرقـم	العنـوان	رقـم الصفحـة



شكل (١)

المصدر -

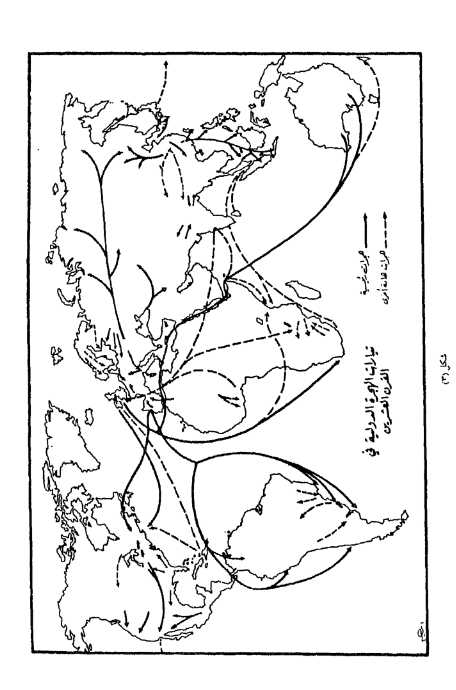
— Samuel N. Dicken, Forrest R. Pitts, Introduction To Cultural Geography, u.s. of America, 1970, Figure 3.2.p. 37.



شكل (٢)

المصدر :

— Op. Cit. Figure 4.1.p.45.



شكل (٣)

المصدر :

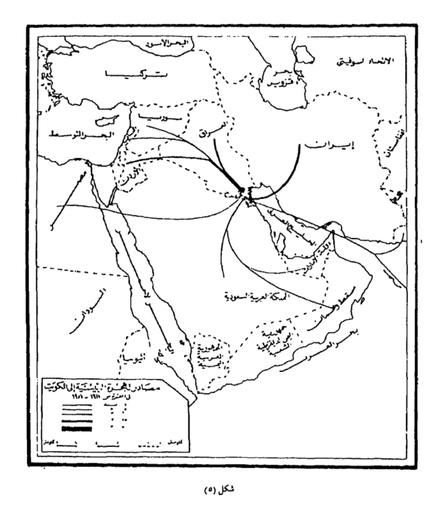
— Charles Whynne Hammond, Elements Of Human Geography, Second Edition, London, 1985, Figure 6.3, p.61.



شكل (٤)

المصدر :

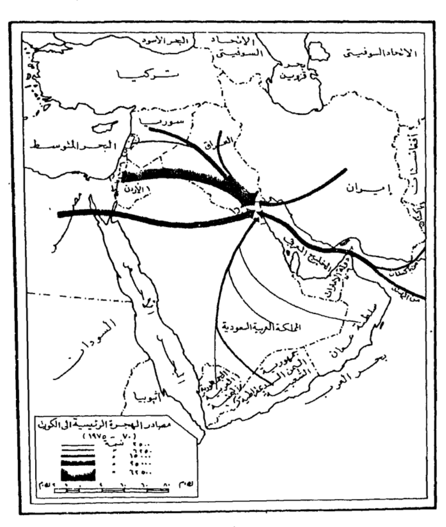
— James L. Newman, Gordon E. matzke, Pupulation, Patterns, Dynamics, and Prospects, U.S. Of America, 1984, Figure 7.13, p.185.



شكل (٥)

مصدر هذه الخريطة :

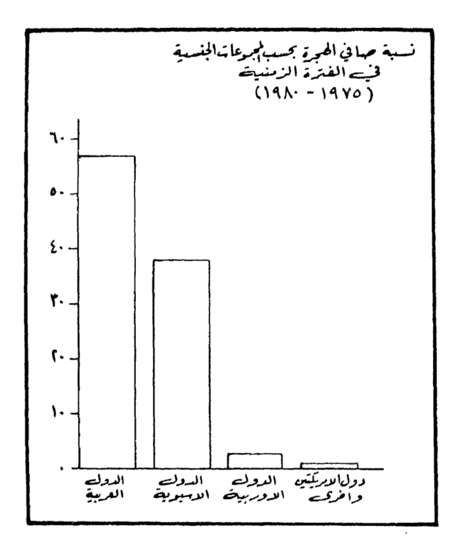
- أحمد حسن ابراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٢) ، الكويت ١٩٨٥ ، شكل رقم (٦) ، ص٤٧ .



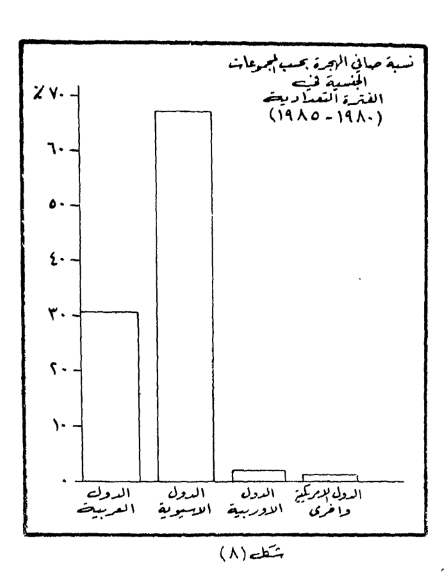
شكل (٦)

مصدر هذه الخريطة :

- احمد حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، شكل رقم ٧ ، ص ٤٩ .


نسبة صافي الهجرة بحسب المجموعات الجنسية
في الفترة الزمنية
(١٩٧٥ - ١٩٨٠)
٦٠
٥٠
٤٠
٣٠
٢٠
١٠
٠
الدول العربية
الدول الاسيوية
الدول الاوربية
دول الامريكتين واخرى

شكل (٧)


نسبة صافي الهجرة بحسب المجموعات
الجنسية في
الفترة التعدادية
(١٩٨٠-١٩٨٥)
٪٧٠
٦٠
٥٠
٤٠
٣٠
٢٠
١٠
٠
الدول العربية
الدول الاسيوية
الدول الاوربية
الدول الامريكية واخرى

شكل (٨)

المصادر

أولا : المصادر العربية :

١ ـ احمد حسن ابراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٢) ، الكويت ١٩٨٥ .

٢ ـ احمد علي اسماعيل ، اسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

٣ ـ حسن الهداوي ، الجنسية ومركز الاجانب واحكامها في القانون الكويتي ، الكويت ١٩٧٣ .

٤ ـ محمد غانم الرميحي ، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٧٥ .

٥ ـ مساعد حسن العميم ، العوامل المحددة لمستويات الاستخدام ومعدلات مختلف نوعيات الهجرة . (دراسة حالة الكويت) ، الكويت في اغسطس ١٩٨٥ .

٦ ـ مساعد حسن العميم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، الكويت في يناير ١٩٨٤ .

٧ ـ وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٠ ، تحليل البايانات ، الدراسة الرابعة ، خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ ـ ١٩٠٨ ، الكويت في يولية ١٩٨٣ .

٨ ـ وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، تعدادات السكان بدولة الكويت للاعوام ١٩٥٧ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

٩ ـ وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعات الاحصائية السنوية للاعوام ١٩٦٦ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .

١٠ ـ وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، دليل نظام الاحصاءات الحيوية بدولة الكويت ، الكويت في يونيو ١٩٨٤

١١ ـ وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، النشرة السنوية للاحصاءات الحيوية ، المواليد والوفيات ١٩٨٣ ، الكويت ١٩٨٤ .

١٢ ـ وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، النشرة الاحصائية الشهرية للاحصاءات الحيوية ، المجلد السابع ، العدد ٣ ، الكويت ١٩٨٦ .

١٣ ـ وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، ادارة تنظيم القوى العاملة ، مراقبة الاستخدام ، التقرير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٧٨ ، الكويت في يناير ١٩٧٩ .

١٤ ـ وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، ادارة عمل محافظة العاصمة ، مراقبة الاستخدام التقرير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة للاعوام ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ .

ثانيا : المصادر الاجنبية :

1 - Bogue, D.J. Principle of Demography, Wieley, New York, 1969.

2 - Bogue, D.J. Techniques and Hypotheses for the study of Differential Migration: Some Notes from an Experiment with United States data, proceedings of the international conference, 2, session 4, No. 114. 1961.

3 - Cebula, R.J. The Determinations of Human Migration, Lexington Books, Lexington, Mass, 1980.

4 - Charles Zhynne Hammond, Elements of Human Geography, second Edition, London, 1985.

5 - Eversley Lord, "The Decline in the Number Agricultural Laboures In Great Britan" Journal of the Reyal Statistical Society, 10, England, 1907.

6 - G.J. Lewis, Human Migration, London, 1982.

7 - Haggett, P. Locational Analysis in Human Geography, Edward Arnold, London, 1965.

8 - Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Studies in Population, the Methods and Materials of Demography, condensed Edition by Edward G. Stockwell, Academic Press, Ohio, New York, 1976.

9 - Herberle, R. The Causes of the rural — Urbon Migration: A Survey of German Theories, American Journal of Sociology, 43, 1938.

10 - James L. Newman, Gordon E. Matzke, Population Pattern, Dynamics, and Prospects, U.S. of America, 1984.

11 - John I. Clarke, Population Geography, 2nd Edition, Eugland, 1972.

12 - Lee, E.S. A Theory of Migration, Demography, 3. 1966.

13 - Pryor, R.J. The Motivation of Migration, Studies in Migration and Urbanization, No. 1, Department of Demography, Australioun National University, Canberra, 1975.

14 - Samuel N. Dicken, Forest R. Pitts, Introduction to Cultural Geography, U.S. of America, 1970.

15 - Thomas, B. Migration and Economic Growth, Cambridge University press, Cambridge, 1959.

16 - United Nations: Analytical Bibilioography of Statistics on International Migration Statistics, 1925 - 1950, population studies, series A. No. 24, 1955.

17 - United Nations, Economic Characteristics of International Migrants, statistics for selected cantries, 1918 - 1954, popnlation studies, series A. No. 12, 1958.

18 - United Nations, Sex and Age of International Migrants for Selected Countries, 1918 - 1947, population studies, series A. No. 11, 1953.

19 - Zelinsky, W. "The hypothesis of the mobility transition," Geographical Reviez, 61, 1971.

* * *

اللغة المحكية في أدب الجاحظ

عمر الدقاق

قد يكون سائدا في بعض الأذهان أن العرب القدامى . ولا سيما في العصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام ، كانوا على الاطلاق أرباب فصاحة وبلاغة ، ينظمون الشعر ويرتجلون الخطب ، ويتحدثون في حياتهم دون خطأ ولا لحن . هذا الاعتقاد ، إن صح في جملته ، فإنه غير صحيح على إطلاقه ، وهو ينطوي من بعض وجوهه على نظر .

وفي اعتقادنا أن الرواة الأوائل في مستهل حركة التدوين الناشطة عند العرب ، كانوا على قدر من الحيرة تجاه عدد وافر من النصوص التي كانت تنطوي على عبارات تفتقر إلى الاطراد والاتساق من الوجهة اللغوية النحوية . ثم ما لبثت هذه التركة الحافلة أن آلت إلى اللغويين والنحاة وجعلتهم في غمار ركام هائل من كلام العرب ، منظومه ومنثوره . وما كان أشق عليهم أن يلموا جنبات هذا الخليط من كلام القبائل وبقايا لهجاتها ، ويشرعوا في تلك المهمة التاريخية العسيرة ، مهمة الجمع ثم التقعيد .

ومعلوم في تاريخ التراث العربي أن أبا عمرو الشيباني وحده ، جمع شعر ثمانين قبيلة ، وأن أبا سعيد السكري أيضا جمع شعر خمس وعشرين قبيلة ، عدا ما جمعه الآخرون مثل الأصمعي وابن الأعرابي .

ومع ذلك ، ومن خلال تلك الجهود العلمية الدائبة ، بدا جليا أن أولئك النحاة واللغويين ، برغم إنجازاتهم الباهرة على ذلك الصعيد ، قد لقوا عنتا في تلك المسيرة العلمية الوعرة . لقد استوعبوا أساليب التعبير عند العرب وأفلحوا في استقرائها ، حتى تم لهم نظمها في قواعد مطردة جمة ، بفضل جنوحهم إلى منهج علمي سديد تجلى باعتمادهم مبدأ القياس . على حين استعصت عليهم في الوقت نفسه أساليب قليلة أخرى ، فظلت خارج إطار التقعيد ، وكأنها الأطيار التي انشقت

عن سربها ، وانحرفت عن مسارها لتحلق في أجواء مغايرة . وقد ارتضت جمهرة نحاة الكوفة هذا الواقع اللغوي الموروث ، ولم تجد فيه شذوذا ولا انحرافا ، بل جعلته في منزلة تقارب منزلة المطرد . وما من ريب في أن منطلق كثير من قدامى اللغويين في هذا الصدد ، إنما كان حسن الظن المطلق بالعرب السالفين إلى مدى يقارب العصمة ، وأن كلامهم يتسم إطلاقا بالصحة والسلامة والكمال ، لأنهم أهل فطرة وذوو سليقة . على حين كان ثمة علماء آخرون ، ولا سيما من أصحاب المذهب البصري أقرب إلى الحقيقة ، إذ عدوا بعض ما كان من هذا القبيل شاذا لا يعتد كثيرا به . وأغلب الظن أن جمهرة النحاة ، تحت تأثير مشاعر الاجلال تجاه الأجداد الأقحاح ، لم يشاؤ وا الذهاب إلى أبعد من هذا المدى ، حين كبر عليهم أن ينسبوا إلى بعض العرب الخطأ ويصموهم باللحن ، مع أن مثل ذلك قد يعرض لأي ناطق ، ولا شيء يمنع وقوعه في العقل ولا في الواقع . والمرء - مهما تبلغ منزلته من الدراية - غير معصوم من الزلل ، وما كل القدامى على مستوى عال من سلامة القول ، كما أنهم ليسوا جميعا على قدر رفيع من بلاغة التعبير .

ومن جهة أخرى فإن فقهاء اللغة العرب أنفسهم لم يسووا ، في مجال الاحتجاج ، بين قبائل العرب ويجعلوهم على صعيد واحد . لقد عمدوا إلى تصنيف هذه القبائل في سلم الفصاحة ، فأحلوا بعضها في منزلة عالية ، كما أباحوا الاستشهاد بأشعارها على نحو مطلق ، على حين وقفوا تجاه قبائل أخرى موقف الريب ، وتحرجوا من الأخذ بكلامها والاستشهاد بأشعارها . وكان منطلقهم في ذلك كله ركينا ، قوامه دراسة موطن القبيلة على الصعيد الجغرافي ، وملاحظة مدى صفاء لغتها تبعا لبعدها أو قربها من تخوم الأعاجم ، واحتمال احتكاكها بهم ، وتأثر لغتها بلغاتهم . ولهذا كانت قبيلة هذيل التي سكنت في ربوع مكة والطائف - وهي تمت إلى قريش بأقوى نسب - في رأس القبائل التي يوثق بشعرائها ويحتج بأقوالهم في مجال اللغة والنحو والتصريف، شأنها في ذلك كشأن قريش وقيس وأسد وتميم ، وبعض كنانة وطيىء . . . على حين امتنع هؤلاء العلماء عن الأخذ بأشعار إياد وتغلب ، كما أحجموا عن الاستشهاد بشعراء لخم وغسان لمجاورة المناذرة والغساسنة بلاد الأعاجم من فرس وروم .

كل ذلك يعني أن نظرة النحويين واللغويين إلى أسلافهم العرب لم تكن - برغم إجلالهم الشديد لهم - نظرة واحدة مطلقة ، وإنما كانت نظرة مفاضلة وتقويم ، أساسها التعليل والتحليل .

ومن الطبيعي في كل مجتمع أن ينطوي أفراده على تباين في المدارك العقلية ، وفي الطباع النفسية ، والأحوال المعيشية ، وأن يستتبع ذلك أيضا تباين على صعيد التعبير اللغوي والأداء الفني . وقد روى لنا رواد التأليف الأدبي والنحوي عند العرب أن اللحن كان موجودا منذ فجر الاسلام وإلى عهد الفتوح الذي شهد احتكاكا كبيرا بين العرب وسائر الأمم . . حتى أن من الأعراب من كان يتلو بعض آيات التنزيل الحكيم على نحو خاطىء ينم عن جهل بمضمونها . وقد بلغ مرة مسامع عمر بن الخطاب أن أحد المسلمين كان يؤم المصلين ويلحن في بعض آيات القرآن ، فغضب الخليفة لذلك وأزاحه عن الامامة .

وفي كتب السالفين أخبار جمة في موضوع اللحن واللاحنين ولا سيما ما كان يصدر عن بعض الكبراء في تلك العصور المتقدمة . من ذلك أن زياد بن أبيه - والي العراق - أوفد ابنه عبيدالله إلى الخليفة معاوية ، فكتب إليه معاوية : « إن ابنك كما وصفت ، ولكن قوم من

لسانه »(١)، وكانت فيه لكنة إذ نشأ مع أمه بين أعاجم البصرة . وقد قال عبيدالله مرة لأعوانه : « افتحوا سيوفكم » ويريد : « سلوا . . . »(٢).

كذلك سأل معاوية جماعة من أهل العراق عن حال ولده عبيدالله وكان واليهم ، فقالوا : « ظريف ، على أنه يلحن »(٣).

وروي أن بشر بن مروان والي الكوفة وشقيق عبدالملك ، قال مرة لغلامه ، وكان عمر بن عبدالعزيز حاضرا : « ادع لي صالحا » فصاح الغلام : « ياصالحا » ، فقال له بشر مصححا : « ألق منها ألف » عندئذ تدخل عمر بن عبدالعزيز لدى سماعه الخطأ ، فقال مصححا : « وأنت فزد في ألفك ألفا » . وبشر أموي قرشي .

وقيل يوما لأبي حنيفة : « ما تقول في رجل أخذ صخرة ، فضرب بها رأس رجل فقتله ، أتقيده ؟ » قال : « لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس » أي بجل في مكة اسمه أبو قبيس . . . . .(٤). وقد عقد الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » فصلا أورد خلاله الكثير من أخبار اللاحنين في تلك العهود القديمة .

وقد لاحظ الجاحظ أنه(٥): « لأهل المدينة ألسن ذلقة وألفاظ حسنة ، وعبارة جيدة . واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب » . فالجاحظ يميز بين الفصاحة ـ وهي تكاد تقتصر على أهل البادية لنقاء لغتهم ـ وبين البلاغة ، وهي سمة أو موهبة قد يتحلى بها أهل المدن ، فيبدعون عبارات جميلة وصورا طريفة برغم فشو العامية بينهم ، وقلة تمرسهم بأصول اللغة وقواعد النحو .

ويبدو أن سمة الفصاحة غدت في عهد مبكر من العصور العربية مطلبا بعيد المنال حتى لقد عز وجود من كانوا بارئين من اللحن بين الفصحاء ، ولا سيما من أهل المدن ، وقد روي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال(٦): « لم أر قرويين أفصح من الحسن البصري والحجاج ، وكان أبو عمرو ـ على ما زعموا ـ لا يبرئهما من اللحن . وزعم أبو العاصي أنه لم ير قرويا قط لا يلحن في حديثه » .

وما اللغة العربية في هذا المجال ـ شأنها في ذلك كشأن سائر اللغات ـ سوى ظاهرة اجتماعية ، ولهذا نمت وازدهرت ونضجت ، كما اعتراها في الوقت نفسه بعض الفساد وشابها شيء من الخلل . كذلك بوسعنا أن نرجح ـ تبعا لذلك ـ أنه كانت هناك في بواكير الوجود العربي لغتان أو لهجتان ، أو بكلمة أدق ، كان هنالك على هذا الصعيد اللغوي مستويان ، إذ لم يكن يخلو كلام بعض السالفين من الغرابة اللفظية . وهذا كله لا يسمح بالاعتقاد أن لغة العرب القدامى كانت على درجة واحدة من الاطراد والاستواء ولا من السلامة والنقاء .

كان شعر الفرزدق في عصر بني أمية يمثل الطابع الرصين بجزالة ألفاظه ، فنعته النقاد بأنه كمن ينحت من صخر ، على حين كان شعر جرير في الطرف الأسلوبي الآخر . لسهولة لفظه ورقة عبارته ، فنعته النقاد بأنه يغرف من بحر . وكان طبيعيا في هذا الصدد أن تروق أشعار الفرزدق صفوة الرواة وخاصة العلماء ،

---

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ٢ : ٢١١ ت : عبدالسلام هارون . القاهرة ١٩٤٨ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢١١ .
(٣) كتاب الأمالي ، ابو علي القالي ١ : ٥ دار الكتب المصرية ١٩٥٣ .
(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢١٢ .
(٥) البيان والتبيين ١ : ١٧٢ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ١٨٩ .

لما تنطوي عليه من قوة سبك وما تحتويه من جزالة لفظ ، على حين كانت جمهرة الجيل عهدئذ تأنس بشعر جرير لما ينطوي عليه من سلاسة وعذوبة ، ورقة وسهولة ، وهكذا سارت أبياته بين الناس ، وأخذ كل فرد يترنم بها لأنها ألصق بالمشاعر ، وأقرب إلى الطبع ، وأجرى على اللسان . وهذا يعني أن لغة الشعر ازدادت قربا من أذهان العامة ومداركهم ، واشتد اختلاطها بنفوسهم وأذواقهم . . .

ثم بلغت هذه الظاهرة أشدها في العصر العباسي ، حين جنح الشعر المحدث إلى مزيد من الرقة واليسر ، كما مالت أوزانه وقوافيه إلى الاقتضاب والخفة .

وإن ما لقيه شعر جرير من سعة الذيوع والانتشار في العصر الأموي لقيه بعد ذلك أيضا شعر البحتري في العصر العباسي ، وذلك بفضل سهولة شعره وملاءمته لغالبية الأذواق . أما شعر معاصره - أبي تمام - الذي قد يشبه من بعض الوجوه شعر الفرزدق ، فكان ينطوي على قدر من غرابة الألفاظ وجزالتها فضلا عن عمق المعاني وبعد الصور ، وهذا ما حد من سيرورة شعره بين جمهرة الناس وكاد يقصره على الصفوة من المثقفين والخاصة من العلماء . وربما كان من مؤشرات ذلك بالنسبة إلى شعر أبي تمام موقف أبي العميثل تجاهه ، حين تصدى له خلال إلقاء بعض شعره وقال على ملأ من المجلس : « يا أبا تمام لم لا تقول ما يفهم . . . ؟ » . وهذه في حقيقة الأمر كلمة حق برغم أنه ربما أريد بها باطل . كما ينبغي هنا ألا يجرفنا عن هذه الحقيقة ما تنطوي عليه عبارة الشاعر أبي تمام من استهواء ، من خلال جوابه الذكي ورده المسكت حين قال على البداهة : « ولكن ، لم لا تفهم ما يقال . . . ؟ » . فأبو العميثل برغم ما قد ينطوي عليه من تحامل إنما كان يعكس في كلامه آراء كثيرين ممن لم يجدوا أنفسهم في شعر أبي تمام .

وثمة أمثلة متناثرة في كتب المتقدمين تشير إلى هذه الثنائية في الأدب ، ثنائية العسر واليسر ، من مثل قول أحد الأعراب حين استمع إلى أبيات عويصة المعاني لأحد المحدثين فعسر عليه فهمها وتذوقها ، فقال بامتعاض : « إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل » .

وكانت فئة الرجاز في العصر العباسي تمثل أشد الأوساط الأدبية محافظة وأكثرهم تشبثا بجزالة اللغة وغرابة الفاظها ، وكأنهم البداة الذين استعصوا على التحضر ، وهكذا كانوا يعيشون في الظل ، ويحيون على هامش الحياة الأدبية الموارة ، لقلة احتفال جمهرة الجيل بمنظومهم وإشاحة وجهه عنهم . فكانت أراجيزهم أبعد عن أن تكون فنا شعبيا يستهوي جماهير الناس .

أما تيار الشعر المحدث فقد غدا بسماحة عبارته دافقا ، إذ تجلى لدى غالبية شعراء ذلك العصر ، مثل بشار وأبي العتاهية ثم البحتري وابن الرومي ، وسائر الشعراء المحدثين الذين سارت أشعارهم على ألسنة جيل المتأدبين . وقد ذهب بعض هؤلاء الشعراء إلى مدى أبعد حين جنحوا إلى نظم المقطعات ، وزهدوا في نظم المطولات ، وحين آثروا البحور القصيرة المجزوءة دون أن يقتصروا على البحور الطويلة التامة ، وأكثر أولئك المحدثين ولا سيما الذين عاشوا في قلب المدينة وفي صميم الحضارة راقهم نظم مقطعات من خفائف الشعر ، مواكبة منهم لتيار الحداثة ، وكان قوامها إيثار السهولة في اللفظ والتبسط في التعبير . ومن هذا القبيل قول بشار بن برد في امرأة اسمها « حبى »[٧] .

(٧) ديوان بشار ، ٢ : ٣٧ تحقيق الطاهر بن عاشور . القاهرة ١٩٥٤ .

قـل لحبي قـربـيـني ... أنـت نفسي وحيـاتي

وهمـومي حين أغـدو ... وحـديثي في صـلاتي

وقول أبي العتاهية في أرجوزته « ذوات الأمثال »(٨) :

إن الشباب والفراغ والجدة

مفسـدة للمـرء أي مفسـدة

أو قوله في موضوع الزهد :

أحسـن الله بنـا أن ... الخـطـايـا لا تفـوح

كيف إصـلاح قـلوب ... إنمـا هن قـروح ؟ . .

فهذه أشعار منظومة ولكنها شديدة القرب من لغة الحديث . ولعل أبا العتاهية كان يمثل قمة هذه الظاهرة ، أو ذروة هذا التيار ، حين حاول أن يتخذ في شعره من السهولة والرقة والوضوح مذهبا ، وحرص على أن يسوق معظم مقطعاته وقصائده في هذا المنحى . والذي يزيد في أهمية ذلك أن هذا الشاعر كان يعي طبيعة النزعة الفنية المحدثة في أدب هذا العصر ولا يفتأ يقول(٩) : « لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت » .

مشاكلة لغة الحديث في الأدب

وفي مضمار النثر العربي حدث ما يقارب ذلك في العصر العباسي أيضا ، حين تبدلت حاله ، فتوارى التجهم والتقعر ، وساد اليسر والترسل ، كما انزوت الخطابة بقوة نبراتها ، وتألقت الكتابة برقة جنباتها . ويعد الجاحظ أبرز من يمثلون هذه الظاهرة في النثر العربي ، حتى باتت بفضل كتاباته ولا سيما في نوادره عن البخلاء أشبه باتجاه سائد وتيار غالب . وقد خطا الجاحظ في مضمار السهولة واليسر ومجال العفوية والطبع شوطا واسعا ، ولا سيما حين كان يقتضيه الحال رواية الكلام منسوبا إلى أهله من أوساط الناس أو من عامتهم أو من سوقتهم . ولعل أكثر ما يرد على قلمه من هذا القبيل ما كان يدور على ألسنة الناس في لغتهم المحكية عبر حياتهم اليومية . ومما جاء في بخلاء الجاحظ على لسان مويس بن عمران(١٠) فيما نعهده من لغة الحديث : « طعام الاثنين يكفي الثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة » ، ثم يقول : « لولا أنك تريد أكثر » ، ويقول : « معك رغيف ومعي رغيف » . ويقول : « ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه » .

وأهمية العبارة لدى الجاحظ أنها تشف عن طبيعة نفوس أصحابها وتنم على وضعهم الاجتماعي ، فالثوري مثلا يقول لعياله(١١) : « كلوا الباقلا بقشوره ، فإن الباقلي يقول : من أكلني بقشوري فقد أكلني ، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله » وكأن في هذا الكلام نمطا من الحكمة البسيطة المستمدة من تجربة العيش يسوقها الثوري في إطار تسويغه لظاهرة الحرص أو البخل لديه محاولا من خلال ذلك إقناع عياله بأن المرء يكون آكلاً حقا ومنتفعا تمام الانتفاع بطعامه اذا أكل الباقلا مع قشورها ، ولكنه حين يكتفي بأكل اللب ويرمي القشر فقد مني بخسران ، وكأنه أصبح مأكولاً لأنه بذلك خسر من حر ماله .

ويدأب الجاحظ على إسماعنا كلام أصناف من الناس الذين يسعون إلى رزقهم ويمشون في حاراتهم ويتحادثون في بيوتهم ، كأن يقول واحد منهم : « هات شيئا من قلية »(١٢) ، أو يقول سواه : « تعشيت البارحة

---

(٨) قيل ان هذه الارجوزة بلغت ثلاثة آلاف بيت ، غير ان مابين أيدينا منها بضع عشرات من الأبيات موجودة في آخر الديوان ، تحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٩١٤ .

(٩) البيان والتبيين ١ : ١١٥ .

(١٠) كتاب البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ١٨ ـ ١٩ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(١١) البخلاء ١٠٣ .

(١٢) البخلاء ٩٧ .

في البيت »(١٣)، أو يطلب غيره حاجة من الآخر : « أعرني مقلاكم »(١٤). وقد يحاور رجل جاريته بأبسط الكلام وتجيبه بمثل ذلك ، كشأن يوسف بن كل خير بعد أن تغدى فأتاه ضيف فرحب به وقال : « ياجارية هاتي لأبي الحسن غداء » ، قالت : « لم يبق عندنا شيء »(١٥).

وعلى هذا الغرار من لغة الحوار الوجيز الذي يدور عادة بين اثنين يقبل خراساني عابر على ابراهيم بن السندي وهو يتغذى في ركن منعزل داخل بستان ، فيسأله ابن السندي بدهشة(١٦): ـ « تريد ماذا ؟ » فيقول :ـ « أريد أن أتغدى » . إنها عبارات مقتضبة تتوالى سريعا بين المتحاورين على هذا النحو من السرعة والبداهة . ومن هذا القبيل من اللغة المحكية ببساطتها وعفويتها قول كاتب لكاتب دولة : « اكتب لي خطين وريحني منه » .

وكثيرا ما نتبين في كلام المتحاورين الذين ينطقهم الجاحظ ملامح لغة خاصة لفئة من المجتمع لها صفاتها وأساليب عيشها وأنماط سلوكها . فقد ينشب شجار بين رجلين لتباين في المنازع وتعارض في المواقف ، من مثل ما حدث لاثنين كانا وحدهما في زورق فشرع البخيل واسمه رمضان يأكل ويلتهم زاده ، ورفيقه ينظر بشره لا يستطيع له دفعا ، ثم قال رمضان وقد أحس بنظراته : « أنا رجل حسن الأكل لا آكل إلا طيب الطعام . وأنا أخاف أن تكون عينك مالحة وأنك ستصيبني بعين ، فاصرف عني وجهك . . . »(١٧). فعبارة « عينك مالحة » أو « ستصيبني بعين » وما إليها ، ليست من صور التعبير عند الشعراء ولا الكتاب ، ولكنها من صور اللغة المحكية لدى جمهور الناس . ومن هذا القبيل قول الثوري لمن معه(١٨): « الشحم يفرح القلب ، ويبيض الوجه ، والنار تسود الوجه » أو قول آخر جلس إلى خوان فأعجبه ما رأى فوقه من خبز شهي : « كل رغيف في بياض الفضة » . . . وما إلى ذلك من صور التعبير المعهود في لغة الحياة اليومية .

والجاحظ مراعاة منه لواقع حال شخوصه ، وأكثرهم من عامة الناس ، يدير على ألسنتهم ألفاظا قد تبدو للوهلة الأولى عامية وما هي بذلك ، إنه يؤثرها لما تنطوي عليه ، فضلاً عن دلالتها ، من إيحاء ينم على طبيعة المتحدث ، كما آثر كلمة « نشال » على كلمة لص في إيراده لقول أحدهم(١٩): « الفتى لا يكون نشالا . . . » أو استخدامه كلمة « قدام » في قول الآخر(٢٠): « . . . رغيف كل منا قدام صاحبه . . . » وأيضا استعماله عبارة « تحلحل لي سن »(٢١). فلكل من هذه الألفاظ ظلال لا تتوفر في سواها من المترادفات الأخرى .

ويمضي الجاحظ في اصطناع اللغة المحكية مشاكلة لحال شخصياته الموارة في نوادرهم ومواقفهم ، فيبلغ في ذلك مدى بعيدا حين ينطق بعضهم بألفاظ دارجة على

(١٣) البخلاء ٤١ .
(١٤) البخلاء ٤٣ .
(١٥) البيان والتبيين ١ : ١٦٢ تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٩٦٨ .
(١٦) البخلاء ٢٥ .
(١٧) البخلاء ٩٣ .
(١٨) البخلاء ١٠٣ .
(١٩) البخلاء ٦٧ .
(٢٠) البخلاء ١٠٣ .
(٢١) في القاموس المحيط : « حلحلهم أزالهم عن مواضعهم وحركهم فتحلحلوا » والعبارة في البخلاء ١١٦ .

لسان العامة كقول أحدهم(٢٢): « يامجنون . . . إن كثرة المضغ تقوي الأسنان » .

وقد يستلهم الجاحظ بعض الصور التعبيرية الحلوة المستمدة من حياة الناس في المكان الملائم من سياق الكلام . ففي محاولة بعضهم لاقناع صاحب لهم بخيل وهم يمازحونه بأن يدعوهم مرة إلى طعامه ، أرادوا أن يهونوا عليه الأمر بأنها ستكون دعوة وحيدة في العمر ، ولن يتكلف سواها بعد ذلك ، فقالوا له(٢٣): « اجعلها دعوة ليس لها أخت » . وهذا تعبير طريف في اللغة اليومية الدارجة .

وحكى الجاحظ خبر رجل لم يأمن العودة ليلاً إلى منزله ، وخاف أن يتبعه أحد فيضره(٢٤) ، ففكر في أن يدق الباب على صاحبه ـ أبي مازن ـ يبيت في أدنى بيته أو في دهليزه ، وحين بصر به أبو مازن ، وقف واجما لا يحير بكلمة ، كأنما أتاه ملك الموت . فأخذ الرجل يبين ماهو فيه ، وأنه إذا انصدع عمود الصبح خرج من عنده مع أوائل المدلجين . غير أن أبا مازن أراد أن يتظاهر بالخبل وأن وجومه إنما هو بسبب السكر ، وأنه لا يعي ما حوله ، وحين عاد الطارق إلى الكلام لم يجد من صاحبه سوى عبارة واحدة يرددها على مسمعه : « سكران والله ، أنا والله سكران » . ثم أغلق الباب ودخل . والعبارة الأخيرة أوردها الجاحظ على نحو ما ينطق بها المخمورون .

وقد يجري الجاحظ على ألسنة شخوصه شيئا من عبارات السوقة التي تنطوي أحيانا على قدر من الألفاظ الصريحة . فقد تحدث يوما يحيى بن عبدالله بن أسيد مع صحبه ، وأبدى سخطه على الذين شهروا به وعابوا أرغفته بأنها أرغفة صغار أي تنم على بخله ، على حين أنها في زعمه كبار وأن رغيفا واحدا كفيل بأن يملأ الجوف فلا يحتاج معه إلى المزيد ، فقال بانفعال(٢٥): « يزعمون أن خبزي صغار ؟ أي ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين ؟ » .

والجاحظ ، وقد أوتي ملكة التعبير العذب والبيان المشرق ، غدت اللغة طيعة بين يديه ، فراحت الألفاظ تنثال عليه بغزارة ، والعبارات تندفق عليه بيسر . وكثيرا ما يكون لديه اللفظ بمفرده موحيا وينطوي على هالة أو ظل مما يرفعه وحده إلى مقام الصورة . ولعل هذا أبين مايكون في صدد إيراده خلال عباراته لجملة من الأفعال أو المصادر فيها أيضا معنى الحدث . وقد أورد الجاحظ خبر وليمة دعي إليها مع شيخة أبي إسحق النظام وقطرب النحوي وأبي الفتح مؤدب منصور بن زياد ، ولما كان الداعي بخيلا لم يجدوا أمامهم فوق الخوان سوى الخبز . وحين طال عليهم الانتظار عمدوا إلى ما أمامهم من الأرغفة « فأكل كل إنسان رغيفه إلا كسرة ، ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم ، ولم يمدوا بشيء ، فيتمموا أكلهم ، والأيدي معلقة ، وإنما هم في تنقير وتنتيف »(٢٦). ولنا أن نتصور القوم وهم بين الجوع والشبع يعمدون إلى تلك الكسر من الخبز يفتتونها بأناملهم أو ينتفون جزئياتها كما يفعل العصفور بمنقاره أو القط بأظفاره .

وعلى هذا الصعيد يقص لنا الجاحظ خبرا مشابها يتصل أيضا بتجربة أخرى له مع أحد البخلاء حين خرج مع شيخه أبي اسحق النظام إلى ناحية من المدينة ، وتجاوزوا الخندق ، حتى إذا مروا بمنزل الوليد القرشي ،

---

(٢٢) البخلاء ١١٦ ـ ١١٧ .
(٢٣) البخلاء ٤٢ .
(٢٤) ينظر في كتاب البخلاء ٣٩ .
(٢٥) البخلاء ٥٤ .
(٢٦) البخلاء ٥٤ .

مضى معهم . ثم تشعبت بين المتحادثين أطراف الكلام حول مسائل جمة ، ولم يشعروا إلا وقد انتصف النهار واشتد القيظ ، فلاذوا قليلا بظل جدار ، ثم وجدوا أنهم في « ساعة تذيب كل شيء » ، فاقترح الجاحظ أن يقيلوا عند صاحبهم القرشي ، يأكلون ما حضر ، ومن ثم يعودون بعد أن يستريحوا ويبتردوا . غير أن الاقتراح لم يرق القرشي . فصاح لتوه : « هذا لا يكون أبدا » . ثم وصف الجاحظ حال القرشي البخيل ومعه صحبه ، حين مضوا يحدثونه في الأمر ، فقال يصوره[٢٧]: « فغضب ونتر يده من أيدينا وفارقنا » .

ولسنا الآن بصدد ما قد يذهب إليه الظن للوهلة الأولى تجاه كلمة « نتر » من أنها عامية أو غير فصيحة لكثرة دورانها على ألسنة الناس وندرة ورودها على أقلام الناثرين ، أو في كلام الشعراء ، ولكن ما يعنينا هو أن الجاحظ نفسه قد عمد إلى تصوير مسلك هذا القرشي البخيل ، من خلال لحظة غضب وانفعال ، بما يوازي تلك الحركة السريعة التي قام بها صاحبها ، وذلك أيضا بكلمة واحدة هي : « ونتر يده » آذ النتر في معاجم اللغة هو انتزاع الشيء بقوة أو جذبه بشدة . وفحوى ما نود تبيينه أن كلمة نتر التي تكاد تتركز في معناها مرحلة النهاية في هذه الأقصوصة ، أو يتجلى فيها حل عقدة الحدث ، تبدو لقارئها بمنزلة الصورة الوامضة لما تنطوي عليه من دلالة ومن إيحاء .

ولعل دلالتها وإيحاءها يكتسبان لدينا مزيدا من الثراء والمضاء حين نطلق لمخيلتنا العنان ، فنتصور كيف كان حال القرشي مع صحبه في وضع من الهدوء والانسجام والانبساط وما كانوا فيه من تلاصق الكتف بالكتف وتشابك اليد باليد ، ثم انقلاب ذلك الوضع رأسا على عقب فيما بدر من سورة الغضب المفاجىء ، ونتر اليد المباغت . . وما كان من نكوص القرشي ومفارقته الصحب .

استملاح العجمة اللفظية

وعلى صعيد آخر ، وفيما يتصل أيضا بوجه من وجوه اللغة العربية ، بوسعنا أن نتبين ظاهرة أخرى لم يكن بوسعها - تبعا لطبيعتها - أن تبلغ قوة التيار ، ولكنها ذات دلالة خاصة في مجال طرافة التعبير وجماليته .

فحين تكاثر الأعاجم وتمازجت ثقافاتهم مع ثقافة العرب ، نجم عن ذلك التعايش تأثيرات لغوية وتعبيرية متبادلة ، ولا سيما بين العرب والفرس شطري المجتمع الاسلامي الجديد . وأصبح من المستحب لدى ذلك الجيل ترصيع الكلام بين الحين والحين بكلمة أو عبارة من لسان الفُرس ، باعتبار ذلك مظهرا من مظاهر الحضارة الوافدة التي تجلت أيضا في اصطناع شباب ذلك الجيل لبعض ملابس العجم ومآكلهم ومشاربهم ، ومجاراتهم لهم في كثير من تقاليدهم وعاداتهم وسلوكهم . . .

وقد لا يبدو مستغربا بعد ذلك مثلا أن نجد الجاحظ - وهو من هو في نزعته العربية - قد أدخل قدرا غير يسير من الألفاظ والعبارات الفارسية في كتبه ورسائله . وهذا الترخص في التعبير ، الصادر عن رجل هو في قمة الفصاحة وذروة البيان له دلالته الاجتماعية ، وله أيضا دلالته الفنية التي تنطوي عليها طبيعة الأداء وخصوصيته . وقد حفلت كتابات الجاحظ عن البخلاء بعدد وافر من الكلمات الاعجمية مثل : البرنكان والسكرجة والجرذقة والفالوذج والجوسق والبربند والقلنسوة والشطرنج والقيراط والنرد والقنديل[٢٨] . . .

(٢٧) البخلاء ٣٨

(٢٨) يمكن رؤية هذه الألفاظ وغيرها في كتاب البخلاء تباعا في الصفحات ٣٦ ، ١٢٠ ، ١٧٨ ، ١٠٨ ، ٣١ ، ١٠٦ ، ٢١ . تحقيق طه الحاجري ، القاهرة ١٩٥٨

واذا جنحنا للوقوف عند بعض نصوص البخلاء على سبيل التخصيص وجدنا الجاحظ يورد بصدد حكاية العراقي والتاجر المروزي قوله حين تجاهل معرفته بصاحبه العراقي الذي كان يستضيفه ويكرم مثواه : « لو خرجت من جلدك لم أعرفك » . وقد آثر الجاحظ أن يشفع هذه العبارة لأهميتها ، ولأن حل عقدة أقصوصته يتركز فيها بالعبارة الفارسية الأصيلة التي فاه بها المروزي بلسانه على هذا النحو : « أكراز بوست بارون بيائي نشناستم » .

على أن للألفاظ الدخيلة في أدب الجاحظ ، ولا سيما في كتاب البخلاء حيزا واسعا ، ونحن واجدون في حكاية ابراهيم بن السندي(٢٩)، عددا من الألفاظ الأعجمية ومعظمها في مجال الأطعمة والأشربة التي لم يكن للعرب عهد بكثير منها ، ثم دخلت حياتهم في إبان النضج الاجتماعي والتقدم الحضاري . فابن السندي هذا ـ كما حدثنا الجاحظ ـ « كان في غداة كل جمعة ، يحمل معه منديلا فيه جرذقتان وقطع لحم سكباج مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها أشنان . . . » فالجرذقتان رغيفان من الخبز الغليظ ، والسكباج مرق يعمل من اللحم والخل ، والأشنان نوع من الأحماض تنظف به الأيدي . . وكلها ألفاظ أعجمية شاعت على ألسنة ذلك الجيل . على أن ما يهمنا في هذا الصدد هو ما ذكره الجاحظ أيضا خلال هذه القصة . فقد بسط ابن السندي زاده الذي أعده بعناية في زاوية من البستان بعيدا عن الأنظار . وكان أن عبر بقربه مار ألقى السلام عليه وهو ماض في طريقه ، فوجد ابن السندي أنه من اللباقة واللطف أن يقول له : « هلم عافاك الله » . فما كان من الرجل العابر إلا أن انعطف نحو ابن السندي مبادرا إلى تلبية دعوته ، ولما وجد ابن السندي أن الرجل جاد في مشاركته زاده انبرى له بقوله : « مكانك ، فان العجلة من الشيطان » . وانتصب ابن السندي واقفا ، واندفع نحو الرجل محاولا أن يثنيه عن عزمه ، ثم راح يعطيه درسا في آداب السلوك وقال له : « الآيين فيما نحن فيه إذا كنت أنا الجالس وأنت المار أن تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حينئذ مجيبا لك : وعليكم السلام ؟ فإن كنت لا آكلا شيئا سكت أنا وسكت أنت ، ومضيت أنت وقعدت على حالي . وإن كنت آكل فهاهنا آيين آخر ، وهو أن أبدأ أنا فأقول هلم . وتجيب أنت فتقول : هنيئا . فيكون كلام بكلام ، فأما كلام بفعال ، وقول بأكل فهذا ليس من الانصاف . . . »(٣٠).

ولعل الجاحظ آثر هذه الكلمة الفارسية الحضارية « الآيين » فيما يبدو لنا ، لأنه وجدها معبرة عن واقع حال صاحبها ، ولم يشأ أن يورد على لسان صاحبه البخيل كلمة عربية في نحو معناها مثل : اللباقة ، أو حسن التصرف ، أو أصول التعامل ، أو آداب السلوك . . .(٣١) لأن لتلك الكلمة الدخيلة هالة وظلالا 'لاتتوفرفيها' عداها من الكلمات . إنها كلمة عصرية تنم على التقدم الاجتماعي والتطور الحضاري . وسواء أكان صاحبها عربيا يصطنع مظاهر عصره المتمدن أو فارسيا في أصله يحتفظ بخصائص لغته ، كما يشير إلى ذلك اسمه ، فإن الدلالة الموحية باقية في هذا النمط المستحدث من التعبير .

وهذا التسامح لدى الجاحظ في تقبل بعض الكلمات من لغة الفرس واعتماده إياها في كتاباته قد يعد بدعا في لسان الضاد ، أو تفريطا بمقام العربية من وجهة نظر

(٢٩) البخلاء ، تحقيق الحاجري ، ص ٢٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .
(٣٠) البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ٢٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .
(٣١) لعل كلمة (الاتيكيت) في بعض لغات الغرب الحديثة تقارب في دلالتها كلمة (الآيين) .

متزمتة . غير أن ألفاظا جمة ، فارسية واغريقية وهندية وحبشية قد توغلت في حياة العرب ، ودارت على ألسنتهم ، وذلك وفق عوامل التأثر والتأثير التي تنتظمها سنن اللغات الجارية وقوانينها السائدة . ونحن نقع على هذه الألفاظ في عهود مبكرة من حياة العرب ، ومن خلال الشعر الجاهلي نفسه . بل إن القرآن الكريم قد انطوى أيضا في بعض آياته على ألفاظ أعجمية مختلفة الأصول ، مثل : « استبرق وقرطاس وسلسبيل وسرابيل وجهنم وفردوس . . . » ونحوها كانت قد دخلت العربية في أوقات سالفة ، وقد عني بدراستها وحصرها العديد من فقهاء العربية[٣٢] .

الترخص تجاه اللحن في اللغة

ثم شهد المجتمع الاسلامي في العصر العباسي تسربا ذا شأن لكثير من الألفاظ الأعجمية نتيجة لما تم من تلاحم اجتماعي وتمازج ثقافي بين العرب والفرس ، فبالاضافة إلى ذيوع كثير من المسميات الحضارية التي دخلت حياة العرب مع أسمائها على صعيد المآكل والمشارب والملابس وغيرها . . . كانت ألفاظ أخرى تدور أيضا على ألسنة الناس ، وربما انعكست في كتاباتهم ، وذلك أيضا على سبيل التظرف .

والتظرف في الكلام قد يبدو باللفظ الخاطىء أو الملحون . كما يبدو أحيانا في اللفظ الأعجمي أو الدخيل . والعرب أنفسهم ، على تشددهم المعهود في اللغة وفي الأداء ، كانوا يستطيبون من المرأة الحسناء والفتى المليح ما كان من هذا القبيل ، كاللثغة في النطق . فعلى حين كان العرب يعدونها من الأمور التي تنتقص من الفصاحة وحسن الأداء . وتعاب على الخطباء والمتكلمين . . .[٣٣] فإنهم كانوا في الوقت نفسه يهشون لها لدى القيان والغلمان ، ويرون فيها زينة تطرف الكلام . وفي شعر أبي نواس أبيات من هذا القبيل يقول في بعضها واصفا أحد سقاة الخمرة من الغلمان في جانة ، وكان ألثغ[٣٤] .

بأبي ألثغ لا جججته
فقال في غنج وإخناث
لما رأى مني خلافي له
كم لقي الناث من الناث

فقد أثبت الشاعر عبارة « كم لقي الناس من الناس » كما نطق بها الساقي تظرفا واستملاحا كذلك تنطوي كتب الأدب على طرائف جمة وأخبار كثيرة تتصل بهذا الموضوع ، من مثل ما جاء في كتاب « الأمالي » من شعر عذب في وصف مالك بن أسماء بن خارجة كلام إحدى الغواني[٣٥] :

وحديث ألذه ، هو مما
تشتهيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا
نا ، وخير الحديث ما كان لحنا

ومما علق به « القالي » في معنى اللحن قوله عن ابن الأعرابي : « قد لحن الرجل يلحن لحنا فهو لا حن إذا أخطأ . . » . وكان العرب يتقبلون اللحن من الحسناوات الأعجميات ويغتفرون منهن الخطأ ، بل

(٣٢) يمكن الرجوع في ذلك الى كتاب « المعرّب » لأبي منصور الجواليقي تحقيق احمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦١هـ .

(٣٣) يمكن الرجوع في هذا الموضوع الى ما كتبه الجاحظ باسهاب في كتابه : « البيان والتبيين » ٧٠ ـ ٧٤ تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٩٦٨ .

(٣٤) ديوان أبي نواس ، ٢٥ تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي ، القاهرة ١٩٥٣ .

(٣٥) كتاب الامالي ، لابي علي القالي ١ : ٥ طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ وأيضا : البيان والتبيين للجاحظ ١ : ١٤٧ .

يستملحونه . ومن هذا القبيل أيضا قول شاعر كان يستملح كلام جاريته ، وكانت فيها يبدو أعجمية[٣٦] :

أول ما أسمع منها في السحر
تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

ويوضح الجاحظ هذه الظاهرة الاجتماعية المحدثة فيقول :[٣٧] « واللحن من الجواري الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر » ، ثم يقول : « وكانوا يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن ، مقدودة مجدولة ، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح »

ويبدو لنا من جهة أخرى أن نطاق الترخص في اللغة قد اتسع خلال الحقبة العباسية المذكورة ، ولا سيما في مجال النثر بعد أن تفشت العجمة وضعفت السليقة ، فلم يعد الخطأ أو اللحن في الكلام من الأمور الخطيرة التي تشين المرء كما كان عليه الحال في العصر السالف ، حين كان مثلا الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان لا يفتأ يتهيب الارتجال والخطابة على ملأ من الناس ، وهو من هو في الفصاحة واللسن ، ويقول : « شيبني صعود المنابر » .

على أن أبا عثمان الجاحظ ، بما اتسم به من سعة أفق ورحابة فكر ، ينتقل بمفهوم الترخص من نطاق الخبر العارض ودلالته المحدودة إلى مجال أشمل ، ومدى أوسع ، وذلك من جهتين : الأولى أنه ارتقى بمدلول التطرف ليغدو من بعد باعثا فنيا ، يبتغيه القارىء أو السامع في التعبير نفسه بهدف جماليته المتفردة . وقد تم ذلك لأبي عثمان بفضل ما فطر عليه من ميل إلى الدعابة والمرح . ثم حرص الجاحظ ـ من جهة أخرى ـ على أن يجد لتلك الظاهرة اللغوية الأسلوبية مسوغاً نظريا يضفي به عليها صبغة مذهبية . فالجاحظ ، بجنوحه المعهود إلى التقصي ، ودأبه على بلوغ الاستنتاج العقلي والنظرة المجردة يمضي في هذا المجال ، معتمداً على أخبار مروية بعينها ، ثم يخلص منها إلى اعتماد الفكرة المنشودة .

قص الجاحظ ـ في كتابه « الحيوان » ـ مرافقته مرة لأستاذه أبي إسحق النظام ، أحد أعلام الفكر الاسلامي . وكانا يسيران معا في طريق بظاهر البصرة ، فتسلط عليهما كلب ، ولزمهما مسافة . . . ثم تخلصا منه بعد لأي ، ومضى النظام في حديثه وقد انعطف به نحو الكلب وكأنه يداعبه[٣٨] :

« . . . إن كنت سبع ، فاذهب مع السباع ، وعليك بالبراري والغياض ، وإن كنت بهيمة ، فاسكت عنا سكوت البهائم . . »

والذي يعنينا في هذا الصدد ان الجاحظ لم يعمد الى رواية هذا الخبر لمجرد الاطراف فحسب ، بل اتخذ منه منطلقا لمعالجة قضية فنية ، ومحاولة لاستخلاص نظرية نقدية . فقد بسط رأيه من خلال تعليقه التالي :

« . . ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون من قولي : « إن كنت سبع » ، ولم أقل : (إن كنت سبعا) . وأنا أقول إن الاعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب . لأن سامع الكلام إنما أعجبته تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة . فاذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بسخفه ، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » .

---

(٣٦) البيان والتبيين للجاحظ ١ : ١٦٥ تحقيق هارون ، مصر ، ١٩٦٨

(٣٧) البيان والتبيين ١ : ١٤٦

(٣٨) كتاب الحيوان ١ : ١٣٦

وأهمية هذا الرأي تثوى في أن الجاحظ ، وهو عمدة الفصاحة ، وقمة البلاغة في لغة العرب ، يكاد يكون متفردا في مجال النقد الأدبي من خلال هذا المنحى الخاص ، تفرده على صعيد الفكر والأدب واللغة والبيان . إنه لم يشايع اللغويين والنحاة في قصر نظرتهم على اللفظ من الوجهة اللغوية ومن حيث صحته وخطئه ، فلم يأنف من الخطأ الأساسي في اللغة ، ولم ينكر الخروج على أصول النحو ، لأن للخطأ أحياناً في اعتقاده وجها يحسن تقبله ، بل إنه على العكس من ذلك ، استملح هذا اللحن ، كما استملحه النظام شيخه الكبير قبله ، فلم يشأ أن يتقعر أو يتفاصح في كلام يتوجه به إلى حيوان أعجم ، وفي معرض التفكه والتطرف ، حين جنح للمباسطة والممازحة مع ذلك الكلب الشارد . . .

ومنطلق الجاحظ في رأيه جمالي فني وليس بنحوى لغوي ، إذ البلاغة لديه هي أن تناسب العبارة مقتضى الحال . وأنه لكل مقام مقال .

كان على الجاحظ أن يختار واحدا من أمرين : فإما صحة اللفظ وفصاحته ، فيستهجن تبعا لذلك مقالة شيخه النظام لأنها وردت على ذلك الشكل الخاطىء ، وإما بلاغة التعبير وجماله ، فيستحسن كلام النظام ، على ما فيه من خلل. . ولكن الجاحظ ضحى بسلامة اللفظ في سبيل حسن الأداء ، واثر جمال الأسلوب على صحة اللغة . وفحوى ما ذهب إليه في هذا الصدد ، أن الفصاحة في ذاتها ليست غاية في فن القول وإنما الغاية في البلاغة ، أي في طرافة العبارة ومدى تأثيرها في النفس ومبلغ قدرتها على الايحاء . وهذا قوام العمل الأدبي .

ولكن هل كان هذا مجرد رأي عارض للجاحظ ساقه بصدد خبر مروى طارىء . . ؟

لقد تناول أبو عثمان هذه القضية أيضا في كتاب آخر له ، وهو البخلاء ، وعمد منذ أن استهل كتابه إلى تنبيه جمهرة قُرائه بقوله(٣٩) :

« وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا ، أو كلاماً غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك ، لأن الأعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده . . » .

فالجاحظ يرمي من ذلك إلى ضرورة المحافظة على النص المحكي والكلام المروي برغم خطئه أو انحرافه عن القاعدة ، لأنه بذلك يكون أدل على صاحبه ، وعلى طبيعته وشخصيته وفكره وثقافته وبيئته . . . ولا سيما أن أكثر ما يرد او يروى في هذا المجال صادر عن فئة عامة الناس عرفت بالبخل ، وكان لها في صدد ذلك طرائف ومواقف وأيضا طرائق تعبير .

أما حين يكون البخيل من فئة مغايرة ، مثل فئة العلماء أو الكتاب أو الشعراء أو نحوهم . . . فالأمر يختلف في نظر الجاحظ ، لأن هؤلاء يمثلون وسطا ثقافيا خاصا ، ولغتهم تكون تبعا لذلك مختلفة أيضا ، وقد انتبه الجاحظ إلى هذا الفارق ، فلم يجعل رأيه مطلقا ، بل قال مستدركا :

« . . إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء ، وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون وأشباهه . . . » .

ولعل هذا الكلام يكتسب أهمية خاصة حين نلاحظ أن الجاحظ تناول هذا الموضوع ، موضوع الصحة والخطأ في معرض التعبير الأدبي ، في كتاب : البخلاء ، وعلى هذا النحو من التجريد والشمول ، وعمد إلى تنبيه قرائه إلى ذلك في خطبة كتابة . فقد رأى الجاحظ أن نظرته هذه أجدر ما تكون بالتطبيق في هذا الموضوع

---

(٣٩) البخلاء ٤٠

الذي يتصل بظاهرة البخل ، وبكلام البخلاء وطرائقهم ونـوادرهم وملحهم . وبتعبـير آخـر ، أدرك الجـاحظ بثاقب فكره ومرهف حسه ، أنه في كتابه البخلاء يتناول موضوعاً خاصاً ينطوي على كثير من الطرافة ، وأن مادة كتابه مستمدة في غالب الأحيان من جماعة شعبية تتحدث غالبا بلغتها غير المعربة ، وألفاظها الملحونة ، فضلا عن خصوصية تعبيرها وأدائها .

وعلى صعيد آخر من كتاباته الجاحظ نجد هـذه القضيـة ، قضية اللغـة المحكية المبسـطة والملحونـة ، مطروحة أيضا في كتاب البيان والتبيين ، ألصق كتب أبي عثمان بشؤون الفصاحة والبلاغة ، والخطأ واللحن ، وكل ما يتصل بقضايا المبنى والمعنى والأساليب وطـرق الأداء . . . إنه يقول في هذا الصدد(٤٠) :

« ومتى سمعت ـ حفـظك الله ـ بنـادرة من نـوادر الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابهـا ، ومخارج ألفاظها . فإنك ، إن غيرتها ، بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين . . . خرجت من تلك الحكـاية وعليـك فضل كبـير . وكـذلـك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك أن تستعمـل فيها الاعـراب ، أو أن تتخير فيها لفظاً حسنا ، أو تجعل لها من فيـك مخرجـا سريا . فـإن ذلك يفسـد الامتاع بهـا ، ويخرجهـا من صورتها ، ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطابتهم أياها واستملاحهم لها . » .

هذا النص ينطوي على شطرين ، أولها يتعلق بنوادر الاعراب ، وهذه النوادر لا بد لها في رأى الجاحظ أن تبقى معربة فصيحة كما كانت عليه في الأصل ، لأن كل تغيير يلحق بها من لحن أو تسكين أو ما شاكل ذلك من كلام المولدين يفسدها ويزيل رونقها .

أما الشطر الآخر من قول الجاحظ في هذه المسألة فهو منصب عـلى كـلام من سمـاهم : (البلديين والعوام والحشوة والطغام) ، ولا بد لنوادرهم وملحهم في رأيه أيضا أن تروى على صورتها ، وكما حكاها أصحابها ، ولو كانت خاطئة أو ملحونة ، إذ أن أي تعديل في مبناها أو تقويم لاعوجـاجها ، من قبيـل إعراب كلمـاتها أو اصلاح ماكان من لحن في لغتها كفيل أيضا بأن يفسد إمتاعها ويذهب بروائها ..

وفحوى رأي الجاحظ في الحالين أن جمال التعبير غير مقتصر على فصاحته ، ولا مرتبط بصحة ألفاظه ، إنه قد يوجد في الكلام الصحيح وجوده في الكلام الملحون . وهـو يؤكد مـا ذهب إليـه في مـوضـع آخـر إذ يقـول أيضا(٤١) :

« ولكـل ضرب من الحـديث ضـرب من اللفظ . ولكـل نوع من المعـاني نوع من الأسماء . فالسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجـزل للجزل ، والافصـاح في مـوضع الافصـاح ، والكناية في مـوضـع الكنـايـة ، والاسترسال في موضع الاسترسال »

ثم يمضي الجـاحظ في تعميق فكرتـه وتوسيـع رأيه بقوله : « وإن كان موضوع الحديث على أنه مضحـك وملهي ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الاعراب ، انقلب عن جهته . وإن كان في لفـظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة ، صـار الحديث الذي وضع عـلى أن يسر النفـوس ، ويكربهـا ويأخـذ بأكظامها . . »

(٤٠) كتاب البيان والتبيين ١ : ١٤٥ ـ ١٤٦ ، وانظر هذا الرأي أيضا في كتاب الحيوان ١ : ٢٨٢

(٤١) كتاب الحيوان ٣ : ١٢

كذلك عاد الجاحظ إلى إثارة هذه المسألة النقدية حين قال[٤٢] :

« وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في مخاطبة العوام والجار ، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته ، أو في حديثه إذا حدث ، أو خبره إذا أخبر . وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الاعراب . . . ولكل صناعة شكل . »

مقومات اللغة المحكية

ولعله بوسعنا الآن ، وبعد استقراء كلام الجاحظ وإيراد نصوصه الجلية بصدد هذه القضية المحادثة أو اللغة المحكية ، أن نخلص إلى جملة من الحقائق الأساسية التي تتمحور حول شخصية المتحدث ، وطبيعة المتلقى ، وطابع اللغة المحكية ، وظاهرة التندر ، ثم الواقعية اللغوية .

أ ـ شخصية المتحادثين أو المتحاورين :

من المعهود أن شخصية الأديب التي ينطوى عليها العمل الأدبي ، قصصيا كان أو تمثيليا أو نحو ذلك من فنون القول ، لا تتكشف سماتها وتتجلى أبعادها إلا من خلال كلماتها وعباراتها . والجاحظ ، من خلال آرائه في هذا الصدد ، يعتقد أيضا أن حوار المتحادثين هو الذي ينم على طبيعتهم ، وينبيء عن شخصيتهم ، ويشي بحال نفوسهم ، أي أن لغة المرء صورة لذاته ، من خلالها تنعكس طباعة ، وتتجلى أفكاره ، كما أنها تكشف عن ملامح بيئته ، وتشف عن شريحته الاجتماعية .

وفي هذا الصدد أيضا يعتقد الجاحظ ، تبعا لذلك ، أن لكل طبقة من الناس ، أو لكل فئة أو جماعة متميزة منهم ، لغتها وعباراتها وأساليبها وطرق أدائها ، وأن اللغة ـ ولا سيما المحكية ـ لا بد لها أن تحمل سمات متكلمها وخصائصه الذاتية .

وواقع الأمر ، وعلى حسب معطيات علم الاجتماع وقوانين علم اللغة ، أن هنالك في كل جيل مستويات من اللغة تبعا لوجود مستويات في مقابل ذلك لقطاعات الناس التي تتكلمها . أو لا بد هنالك ، على الأقل وبصورة مجملة ، من وجود مستويين من اللغة مختلفين ، أو وجود صعيدين متباينين في مجال التعبير داخل مجتمع ، وهذا ما ساد في الأفهام من وجود لغة للخاصة ولغة للعامة . . .

ويفضي بنا ذلك إلى أن من مقتضيات الفن التعبيري ، كما ينشده الجاحظ ، أن يحرص الكاتب على إنطاق المتكلم بلغته هو ، بحيث يتكلم المتحدث بلهجته الخاصة ، وطريقة أدائه المتفردة ، وعباراته المتميزة . وإلا كان هنالك نوع من القسر الذي ينطوي أيضا على التزييف والافتعال ، وعلى التكلف والتصنع . وحين يطالب الجاحظ بأن تتم رواية الملح والطرائف والنوادر وما إليها كما صدرت عن أصحابها ، أو كما حكاها أهلها ؛ فإنما يرمي إلى احترام تلك الخصوصية التعبيرية في اللغة المحكية ، حتى ولو كانت ملحونة أو عامية ، بحيث يمكن الحفاظ على سماتها الأسلوبية المتفردة ، وملامحها المتميزة في الأداء .

وإذا كان مذهب الجاحظ صحيحاً ، وهو صحيح يؤيده واقع تطور المجتمعات ، وتدعمه معطيات علم اللغة وعلم السكان ، فمعنى ذلك أنه يسرى أيضا على لغة المسرح والتمثيل في عصرنا ، إذ لا بد لهذه اللغة أيضا ـ على حسب مفهوم الجاحظ ـ أن يخرج الكلام فيها « مخرج كلام المولدين والبلديين . . » . فهنالك فئات كثيرة من الناس يشكلون شطرا كبيراً من المجتمع

(٤٢) كتاب الحيوان ٣ : ١١٤

كالذين دعاهم ابو عثمان « بالبلديين والعوام والحشوة والطغام . . » . وهؤلاء ينبغي خلال رواية شؤونهم والحكاية عنهم ، والمحافظة التامة على خصوصية لغتهم . إذ أن المحادثة أو المحاورة في مجال القص هي العنصر الأساسي في تحريك الحدث وتطويره ، بالاضافة الى أنه وثيق الصلة بالشخصية نفسها ، شديد الالتحام بها ، انطلاقا من أن هذه الشخصية لا تتجلى ملامحها وسماتها إلا حين تنطق ، أي من خلال اللغة المحكية نفسها .

ب ـ الجمهور المتلقي وطبيعة المخاطبين :

وهذه الحقيقة الثانية التي نستمدها من مذهب الجاحظ في اللغة المحكية تتصل في الوقت نفسه ، ومن جهة أخرى ، بطبيعة المرء المتلقي ، قارئاً أو سامعا أو مشاهداً . والجاحظ حين ينطلق من كون اللغة أداة تفاهم ووسيلة تواصل بين المتحدثين والسامعين ، يعتقد أنه من مقومات الأداء الفني قدرة هذا الأداء على أن يبلغ الأسماع والقلوب ، محتفظا بنكهته ومذاقه وحرارته . وحينئذ يكون للفن تأثيره المنشود في النفوس ، بفضل ذاتيته وتفرده . وهذا هو الهدف البارز الذي حرص الجاحظ على توفره في العبارة المؤداة ، وهو ما سماه « الامتاع » كما سلف من كلامه . فإمتاع الجمهور هو الغاية لدى الجاحظ ، كما أنه هو الغاية أصلا من إنشاء العمل الأدبي ، بل الابداع الفني جملة وفق أسس النقد وأصوله . ولذلك حذر الجاحظ من مغبة تغيير صورة التعبير ، سواء في الملحة والنادرة أو في معرض الجد من الكلام ، لأن هذا التغيير هو الذي « يفسد الامتاع بها » ، أي أن جمهور المتلقين هم الذين سيصيبهم الغبن في النهاية ، فتفوتهم المتعة المنشودة . أو أن ذلك وفق تعبير الجاحظ « يذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم لها » وذلك حين يحال بينهم وبين تلقي ذلك الأداء بصورته المحكية .

جـ ـ لغة التحادث والعبارة المحكية :

والحقيقة الأخرى التي يمكن استخلاصها أيضا من كلام الجاحظ تتصل بالنص نفسه ، أي بطبيعة اللغة المحكية ، وهي تنطوي على مفهوم بالغ الأهمية على صعيد النقد . فالجاحظ ، بفكره الثاقب ، خرج على المفاهيم السائدة في عصره ، ولا سيما في عرف اللغويين والبلاغيين والنحاة . . . الذين افترضوا التلازم المطلق بين مفهومي الفصاحة والبلاغة ، أي بين صحة اللفظ وجمال التعبير . فكانوا يطردون من محراب الأدب كل تعبير ينطوي على اللحن أو الخطأ ، دون النظر إلى ما عدا ذلك من عناصر جمالية أخرى ذات شأن في العمل الأدبي . وقد غلبت هذه النظرة أول الأمر على كثير من النقاد العرب بسبب كون غالبيتهم من النحويين ومن فقهاء اللغة وعلمائها ، فضيقوا الأمر على الأدب ونقده . وربما كان امتداداً لآرائهم تلك ، ازراؤهم بالأدب الشعبي ، بل تنكرهن له طوال عصور مديدة ، بدعوى هبوط لغته عن الفصحى .

ويبدو أن ابن النديم صاحب « الفهرست » وهو من علماء القرن الرابع الهجري ، أي بعد عصر الجاحظ بأكثر من قرن ، كان ، على جلال قدره ، ضحية هذا الفهم السائد ، حين وصم كتاب « ألف ليلة وليلة » بأنه : « كتاب غث بارد الحديث » . [٤٣]

لقد رفع الجاحظ مفهوم خصوصية التعبير إلى ذروة عناصر العمل الأدبي ، وجعلها عمدة في فن القول ، لأن هذه الخصوصية ناجمة من خصوصية طبيعة المرء نفسه . فكما أن لكل امرىء ملامح وجهه ، وبصمات يده ، ونبرات صوته ، فإن له أيضا منحى تفكيره

---

(٤٣) كتاب الفهرست ، الفن الاول من المقالة الثامنة ، ص ٣٠٤ طبعة للوغل ، بيروت ١٩٦٤

وأسلوب تعبيره ، وطريقة أدائه . ولعل هذا معنى وجود لغة مكتوبة شاملة هي اللغة الرصينة التي تحكمها الأصول ، وتنظمها القواعد ، إنها اللغة المعتمدة على صعيد الأدب والفكر والتراث . وإلى جانبها ثمة لغة أخرى محكية توازيها ، وتنطوي على شيء من حرية الحركة والتغير والامتداد ، وهي ما يسمى باللهجة ، وهذه تبقى متصلة بأصل اللغة ، كما تلتحم الأغصان بجذع الدوحة الوارفة . وواقع الأمر ، وعلى حسب ما يجنح إليه علم اللسانيات ، أن وجود مستويين من اللغة مختلفين ، أو وُجود صعيدين متباينين في مجال التعبير ، هو ظاهرة طبيعية في اللغات كافة . وقد عرف العرب لهجات كثيرة متباعدة ومتقاربة في عهود ما قبل الاسلام ، ثم عرفوا بعده لهجات أخرى متميزة بين العامة في الأمصار ، فكانت هناك عامية الشام ، وعامية العراق ، وعامية مصر ، وعامية المغرب والأندلس . وليس الالتفات إلى وضع علم النحو ، والعرب في عنفوان فصاحتهم وتألق بلاغتهم ، سوى مؤشر ينذر ببروز أخرى مغايرة ، كانت تدب في حياة الناس ، وتوزاي في الوقت نفسه اللغة الأصيلة .

ومن ذلك خلص الجاحظ إلى أن اللغة ، سواء أكانت فصيحة أم ملحونة ، صادرة عن خاصة الناس أم عامتهم ، ما هي إلا ظاهرة اجتماعية ، تنبثق من الحياة نفسها وتواكبها في مسيرتها ، ولذلك تغدو جديرة بالاعتبار ، ولا سيما من الوجهة الجمالية وعلى الصعيد الفني .

تحديث التعبير

لعلنا نستطيع الآن أن نخلص في هذا المجال إلى أن افكار الجاحظ النقدية كانت تدور في مجملها حول محور واحد ، هو جانب التندر أو التطرف أكثر من سواه في الأدب . وظاهرة التطرف نشأت من جذور اجتماعية واسعة المدى في عصر الجاحظ ، وغدت من أبرز الظواهر التي خالطت حياة الناس داخل المجتمع الاسلامي خلال الحقبة العباسية ، تبعا لشيوع اللهو وتفشي المجون . وأنه في طليعة أسباب سيادة هذه الظاهرة ، ما نعمت به البلاد من استقرار سياسي في ذلك العهد ، وما استتبع ذلك من ثراء العلاقات الاجتماعية في إطار اتساع المدن وتوطد المجتمع الحضاري . ويغلب على الظن أن الناس ، في ظل هذه الحياة الجديدة المتفتحة ، قد تجاوزوا ، خلال مجالسهم وأسمارهم ، نوادر الأعراب والبداة ، مما كان معهودا قبل ذلك الحين ، أو ما كان يتداولة الرواة ، ويعني به المؤلفون قبل هذا العصر .

لقد دخلت هذه الملح والنوادر في طور جديد ضمن الاطار الحضاري السائد ، فاغتنى مفهوم « التندر » الذي كان مقتصرا على فئة الأعراب أو البداة ، وبات يفيد عبر الحياة الاجتماعية الرحيبة معنى « التظرف » ، كما غدا من مقومات هذا التظرف اتسامه بقدر من التمدن ورقة الحاشية .

وهذا ما رمى إليه الجاحظ حين قصر كلامة أو كاد على نوادر المولدين وملحهم وأشعارهم ، في مقابل الاهتمام المعهود بالأعراب ، إذ المولدون هم الشطر الآخر الرحيب من المجتمع العربي - الاسلامي الذي أوجدته تلك الحياة الحضارية الجديدة خلال العهود العباسية ، نتيجة لعوامل التمازج الثقافي ، والاندماج البشري بين عناصر السكان الذين اختلفت أصولهم ، وتباينت مصادرهم . إنهم الجيل المستحدث الذي أخذ يتنامى باطراد في مقابل الشطر الآخر المتضائل من ذلك المجتمع الضيق وهو مجتمع البادية .

هؤلاء المولدون ، لم يعودوا ، بطبيعة الحال ، عربا فحسب ، بعد أن فقدوا الكثير مما كانوا يتسمون به ، من صفاء العنصر السالف . إنهم الخليطة الاجتماعية الجديدة التي وجد الجاحظ نفسه مدعوا إلى أن يهتم بها ويخصها بالقول . وما هذا الاهتمام في واقع الأمر ، الا وجه آخر من الاهتمام الشامل بالظواهر الجديدة المحدثة منذ مطلع العصر العباسي . وهو يذكر بما كان سائدا قبل حين لدى علماء العربية ورواة أخبارها وأشعارها ، من أجلال لكل قديم وإزراء بكل جديد ، ولا سيما في طور الرِّواية والتدوين والتقعيد وإرساء الأسس الموروثة . غير أن هذه الحال من التعامي والتجاهل ما كان بوسعها أن تدوم أكثر مما دامت ، بعد أن حفلت رحاب الفكر بكل جديد مبتكر وبديع مستطرف . وهكذا بات العلماء يجدون أنفسهم في موقف غير صحيح ، ويتبينون أن سلبيتهم لم تعد تجدى . فبدؤ وا يتزحزحون عن مواقفهم المتزمتة إزاء طغيان الابداع المحدث وتألقه . وكان من نتيجة ذلك أن أبا عمرو بن العلاء ، وهو شيخ رواة العربية ورائدهم[٤٤] ، أخذ يتخلى عن موقفه المعهود ، وراح يقول بلهجة من اقتنع أخيرا : « لقد كثر هذا الشعر المحدث وحسن ، حتى لقد هممت بروايته »[٤٥] . ولكن هذه الرغبة لم تترجم إلى حقيقة علمية مطلقة ألا بعد حين ، وفي عصر تال ، وفي جيل الجاحظ وابن قتيبة وجه التحديد . فقد نظر هذا الناقد الرائد ابن قتيبة « بعين العدل على الفريقين » ورأى أن « الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم[٤٦] » .

ومرد خطورة هذا الرأى إلى أن ابن قتيبة بمنطقة السليم نزع عن الشعر القديم هالة القداسة وجعله مع الشعر المحدث في كفتي الميزان ، إذ لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالجودة ، وحصيلة هذا المنحى إنمة كانت في حقيقة الأمر لصالح الشعر المحدث ورفع شأنه .

ومضى الجاحظ مع ابن قتيبة في تيار الحداثة إلى شوط أبعد ، ولا سيما على صعيد التطبيق ، من حيث ابتعد ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » نفسه عن كثير مما سبق ان نادى به في مقدمته النقدية الهامة لهذا الكتاب .

فالجاحظ في صدر كتابه البيان والتبيين الذي كاد يقصره على موضوع الفصاحة والبلاغة عند العرب ، جنح لرواية نماذج من الشعر ما كان لغيره أن يتقبلها من أمثال أبي عمرو بن العلاء ومن كانوا من طينته . إنه شعر محدث حفل بألفاظ فارسية ، وما كان ذلك هينا على المشتغلين بلغة العرب وأشعارها ، وهم يرون تلك الألفاظ الدخيلة تقتحم محراب أعرق فنون القول عند العرب في منحى هازل عابث . فانطلاقا من مقولة الجاحظ بأنه لكل مقام مقل ، وأنه للجد موضوع وللهزل موضوع قال[٤٧] : « وقد يتملح الأعرابي بأن يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العماني يمدح الرشيد : »

من يلقه من بطل (مسرند)
في زعفة محكمة بالسرد

(٤٤) ابو عمرو ، هو زبان بن العلاء . أحد القراء السبعة ومن الأئمة الرواد في البصرة ، راوية كبير لاخبار العرب وأيامهم وأشعارهم . كان استاذا للخليل والاصمعي وأبي عبيدة وقد تنسك آخر أيامه فاحرق كتبه ، عاش بين ٦٥ ـ ١٥٤ هـ ، ٦٨٤ ـ ٧٧٠ م

(٤٥) كتاب الشعر والشعراء ١ . ٦٣ لابن قتيبة ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، ١٩٦٦

(٤٦) كتاب الشعر والشعراء ، المقدمة ، ابن قتية ١ : ٦٣

(٤٧) البيان والتبيين ١ : ١٤١ ـ ١٤٢

تجول بين رأسه و (الكرد)
لما هوى بين غياض الأسد
وصار في كف الهزبر الورد
آلي يذوق الدهر (آب سرد)[٤٨]

كذلك أورد الجاحظ أبياتا غيرها من هذا القبيل لشاعر آخر قال فيها[٤٩] :

لــزم الــغــرام ثــوبي
بــكــرة في يــوم سبت[٥٠]
فــتــمــايــلــت عــلــيــهــم
مــيــل زنــكــي (بمــســتي)[٥١] ـ [٥٢]
قــد حــســا (الــداذي) صــرفــا
أو عــقــارا (بــايخــســت) [٥٣]
إن جــلــدي دبــغــتــه
أهــل صــنــعــاء (بــجــفــت)[٥٤]

ويبدو أن أمثال هذه الظاهرة الفنية معهودة في أطوار التمازج الثقافي والازدهار الحضاري حين تبلغ عوامل التأثر والتأثير بين الشعوب مدى بعيدا . ومن هذا القبيل ما نجده في عصرنا الحاضر من جنوح بعض اليافعين إلى إدخال كلمات أو عبارات أجنبية خلال أحاديثهم المشتركة ، وذلك على سبيل التعالم أو التفرنج . أو مانقع عليه أيضا في أحيان أخرى من خفائف الأشعار التي تنطوي على جمل أو قواف أجنبية ، تركية أو أرمنية أو انجليزية أو فرنسية ، مقحمة في سياق النظم لتلقي في الأسمار أو يتغنى بها في المحافل . وتعرف بالنمط الفرنجي ـ العربي (فرانكو ـ آراب) ، وذلك على سبيل الأطراف أو الأضحاك أو بقصد التفكه والتظرف .

لقد اعتنق الجاحظ مفهوم الحداثة في فنون القول وأغنى تيار التحديث في كتبه ورسائله متجاوبا مع منازع عصره .

وفي هذا المجال من منحى الحداثة أو التحديث لدى الجاحظ مضى في كتبه ورسائله موليا اهتمامه أدب المولدين وأخبارهم ، كما خص أيضا بالقول لغتهم المحكية التي طرأ عليها تبدل مواز لتبدل تلك الخليطة الاجتماعية نفسها ، والتي كان من أبرز لغتها اهمالها لاعراب الكلمات ولتحريك أواخر الألفاظ ، بالاضافة إلى دوران اللحن والخطأ ، وأيضا العامي والدخيل على ألسنتها . كما أضحى لأحاديثها ومحاوراتها أو لطرائفها ونوادرها منحى خاص أو مذاق طريف غدا جديراً بالرواية . وذلك كله هو الذي دعا الجاحظ إلى إطلاق مقولته النقدية : « إن الاعراب يفسد نوادر المولدين » .

أما الجانب الآخر في هذا الموضوع الذي يتصل بطبقة العوام فهو أن الجاحظ حين خص بالقول أولئك المولدين وكلامهم ، إنما تناول في الوقت نفسه الوجه الهازل من حياتهم ، هذا الوجه الذي كان يتجلى في طيبهم

(٤٨) المسرند في الفارسية : البطل الذي يغلب ويعلو . والزعفة : الدرع الواسعة المحكمة . السرد . سمر الزرد في الدروع . وأما الكرد فأصلها في الفارسية الكردن أي العنق ، وما تزال الكلمة شائعة عند العرب المعاصرين في بلاد الشام في قولهم (الكردان وهي تعني نوعا من الحلي الثمين على شكل قلادة مدلاة على الصدر تحمل قطعة من الفضة المرصعة باللؤلؤ والماس . وأما الكلمة الفارسية الأخيرة (آب سرد) في الأبيات فتعني الماء البارد .
(٤٩) البيان والتبيين ١ : ١٤١ ، والأبيات لشاعر اسمه أسود بن أبي كريمة .
(٥٠) الغرام جمع غريم وهو المطالب بالدين ، وهذا جمع لم يذكره الاوائل .
(٥١) الزنكي : الزنجي بالفارسية .
(٥٢) الداذي : نبات عبق الرائحة مسكر . وبايخست : الشرب على الريق ، والكلمة ايضا فارسية .
(٥٣) مستي : بالفارسية تعني كثرة السكر وادمان الشراب .
(٥٤) جفت : فارسية ايضا وتعني ثمر البلوط . .

ومـزاحهم وفي مجـالسهم وأسمـارهـم وفي ملحـهم ونوادرهم . وقد استتبع هذا الأمر من الجاحظ أن يبين أهمية ارتباط الكلام غير المعرب بموضوع النوادر ، وأن يحكم أيضا التلازم بين الشكل أو اللفظ الملحون وبين المضمون أو المعنى الهازل .

وحين آثر الجاحظ هذا المنحى في صدد اصطناع اللغة المحكية باعتبارها أداة تعبير ملائمة في مجال الموضوعات الهازلة ، فإنه في الواقع قد فتح الباب أمام لون جديد من الطرائف والقصص ، أو نمط مستحدث من أنماط الأدب العابث طالما دأب المؤلفون والنقـاد من قبل عـلى عدم الاعتراف به ، وعلى طرده من محراب الأدب ، لما قـد تنطوي عليه لغته أحيانا من الخلل ، وما قد يعتريها من شوائب . وهذه النظرة القاصرة او الفكرة المتزمتة قـد هيمنت عـلى الأدب العربي في واقـع الأمر عـلى أوسع نطاق ، فلم يكن ثمة في رحابه أي حيز ذي شأن لأنماط تعبيرية أخرى مثل القصص الشعبي والزجل . والموشح الأندلسي نفسه ، برغم طرافته ، ظل عددا من الأجيال يشق طريقة العاثر بصعوبة ، دون أن يعترف به أنصار القريض فنا من فنون القول . حتى أن الوشاحين قابلوا ذلك التجاهل بتجاهل أشد ، حين أخرجـوا الموشـح الفصيـح من دائـرة فنهم ، واعتبـروه بمثـابـة امتـداد للقـريض ، وأنه لا شخصيـة له . بـل إنهم أمعنوا في التحدى بعد أن تمكنوا من فنهم الجديـد ، وثبتوا فيـه أقدامهم ، إذ اشترطـوا أن تكون (الخـرجة) مسـوقة باللغة المحكية ، أي باللهجة العامية . والخرجة في فن التوشيح ، وهي خاتمة الأسطر فيه ، أو قفله الأخير بمثابة عمدة الموشح وبيت القصيد فيه . وقد أوضح ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » هذا الطابع المتميز للخرجة من حيث صفته وأهميته بقوله[٥٥] :

« والشـرط فيها أن تكـون حجاجيـة[٥٦] من قبـل السخف ، قزمانية من قبل اللحن[٥٧] ، حارة محرقة ، حادة منضجة . . وهي ابراز الموشح ، وملحه وسكره ، ومسكه وعنبره . . »

فالخرجة هي الجزء الوحيد في الموشح الذي يباح فيه اللحن ويستملح ، بل يشترط فيـه أن يكون عـامياً أو أعجمي اللغة ،[٥٨] وبذلك يستحق العمل الأدبي أن يدخل في فن التوشيح ، « فـإن كانت الخـرجة معـربة الألفاظ على منوال ما تقدمها ، خرج الموشح ـ في رأي ابن سنـاء الملك ـ من أن يكون مـوشحا[٥٩] . وهـذا الرأي مماثل لما قاله الجاحظ وهو« أن الاعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده » وإنه « إن كان موضـوع الحديث على أنه مضحك ومله ، وداخل في باب المزاح والـطيب ، فـاستعملت فيـه الاعـراب القلب عن جهته . . » . وما يراه الجاحظ من منطلق فني أنه[٦٠] قد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل والفخم من الألفاظ »

فابن سناء الملك حين تقبل ورود الخـرجة فصيحـة معربة فهو إنما فعل ذلك لأنها مسوقة في مقام الجد ولا

---

(٥٥) دار الطراز في عمل الموشحات ، ابن سناء الملك ، ص ٣٠ ـ ٣٣ ، تحقيق الدكتور جودت الركابي ، دمشق ١٩٤٩ .
(٥٦) حجاجية ، أي نسبة الى الشاعر ابن حجاج الذي عرف بمجونه ، وقد عاش في بغداد خلال القرن الرابع الهجري .
(٥٧) قزمانية ، أي منسوبة الى ابن قزمان أشهر زجالي الاندلس .
(٥٨) المراد بالكلام الاعجمي عند ابن سناء الملك هو الاجنبي او غير العربي .
(٥٩) دار الطراز في عمل الموشحات ٣٢
(٦٠) البيان والتبيين ١ : ١٤٥

سيما في معرض المديح ، هذا الغرض الرئيسي في الشعر العربي . فهو على غرار الجاحظ أيضا يراعي في الكلام أن يكون مناسبا لمقتضى الحال ، وأن : « الخفيف للخفيف والجزل للجزل ، والافصاح في موضع الافصاح[٦١] . . » ، « ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل . . » . ولما كانت الخمرة والطبيعة والمرح والطرب والغناء والموسيقى . . . هي الجواء المواتية لمضمون الموشحات ، غدا من الطبيعي أن تغلب على الخرجة هذه السمة المرحة وأن تستمد من لغة الحديث ومواقف التبذل ما يضفي عليها الدعابة والطرافة ، وبذلك تكون مسك الختام ؟ فتترك أثرها في النفوس وتثير الضحك . وقد تستدعي ارتشاف الكؤوس على نغمات العازفين وإيقاع الراقصين . « إنما ـ كما قال ابن سناء الملك ـ العاقبة ، وينبغي أن تكون حميدة » . ولهذا حسن فيها أيضا أن تكون « غزلة جدا ! هزازة ، سحارة ، خلابة ، بينها وبين الصبابة قرابة . .[٦٢] »

وعلى هذا الصعيد المشترك من تلازم اللحن الموسيقي والخرجة الأعجمية في لغة الموشح قد نجد ـ كما أسلفنا ـ شبيها لهذه الظاهرة الموسيقية اللغوية أيضا في بعض أغنيات المرح أو العبث في عصرنا الحاضر .

وما الموشح في حقيقة أمره إلا ظاهرة لغوية أدبية وموسيقية متكاملة أفرزتها حياة المجتمع الأندلسي الحديثة ، ولغتة الجديدة ، ثم انبثق عن هذا المجتمع فن الزجل الشعبي ، المرآة الأخرى لحقيقة الحياة الاجتماعية واللغوية والفنية في الأندلس .

والملاحظ أن كلام ابن سناء الملك الذي أورده بعد أكثر من ثلاثمئة عام من كلام الجاحظ حرص فيه أيضا على طابع التلازم مضمون الخرجة المنطوي على الهزل والخفة والمرح أو المجون والسخف ، وبين الشكل اللغوي الذي يتجلى في عبارة الخرجة ، من حيث كونها عامية هزازة للنفس باعثة على الضحك ـ حتى أن نعت اللفظ في هذا المجال بالسخف قد ورد بنصه أيضا لدى كلا المؤلفين ، الجاحظ وابن سناء الملك . وفحوى ذلك أن الخرجة في الموشح ، من جهة ، والنادرة التي عناها الجاحظ من جهة أخرى هما معا مغترفتان من صميم الحياة اليومية ومنحوتتان من واقع لهجتها العامية المبتذلة .

كذلك يمكن القول أن النادرة والخرجة ـ من حيث كونها صورتي تعبير ـ هما أيضا من طبيعة واحدة قوامها التظرف . وبعبارة أخرى ، إن الصبغة الكوميدية هي القاسم المشترك لهما . وما التظرف في حالي النادرة والخرجة سوى التعبير الخفيف الهازل الذي هو أقرب إلى جنس الكوميديا ، هذا الجنس الذي يرتكز إلى حد كبير على الحوار السمح الدافق الذي يشاكل لغة الحديث في حياة الناس .

حين استملح الجاحظ ، بفكره المتفتح وذوقه الرفيع عبارة « إن كنت سبع » برغم خطئها اللغوي البارز ، آخذا بالجانب الجمالي ومضحيا بعنصر السلامة اللغوي ، فمعنى ذلك أنه جعل الفن في المقام الأول ، وأنه للضرورة الجمالية أيضا أحكام . لقد قر في نفس الجاحظ أن التعبير المحكي والبسيط في حياة الناس

(٦١) كتاب الحيوان ٣ : ١٢

(٦٢) دار الطراز في عمل الموشحات ٣٣ ، ابن سناء الملك

اليومية على خطئه أو ابتذاله . . . إنما هو المعول عليه في هذا الصدد . أما التفاصح أو التشدد في تطبيق قواعد لغة الكتابة والخطابة والشعر ، وجعلها تسري بقسريتها أيضا على الأحدوثة المرورية أو النادرة المحكية ، فهذا في رأي الجاحظ بمثابة وضع الأمور في غير مواضعها ، إذ يجعل الكلام معدولا عن جهته ، واللفظ خارجا من حده .

ويكاد يكون محور كلام الجاحظ بصدد موضوع التطرف والنوادر المحكية هو أن للموضوعات الجادة والمضامين الرصينة لغتها الفصحى ، وألفاظها الجزلة ، وأنه أيضا للحالات الهازلة والمواقف العابثة كلماتها الملحونة وعباراتها اللينة . ومعنى ذلك أنه في مجال الكوميديا ومواطن السخر والاضحاك ينبغي محاكاة واقع حياة الناس الهازلة ، واعتماد لغتهم المحكية على علاتها ، لأنها على أية حال لغة الواقع وصورة الحياة .

هذا الفهم المحدد والدقيق لدى الجاحظ لطبيعة اللغة المحكية في إطار المضامين الهازلة يقارب إلى حد كبير المفهوم السائد في النقد الحديث حول واقعية اللغة ، باعتبارها وجها بارزا من واقعية الأدب . إذ أن اعتماد لغة الحديث أو الحوار الجارية في معرض مسرح الكوميديا ، وأيضا اصطناع اللغة الدارجة على الألسن خلال الحياة اليومية ، برغم ما قد تنطوى عليه من خطأ أو ابتذال أو سخف . . . كل ذلك منضو داخل مفهوم مشاكلة اللغة للواقع ، ولا سيما في الأدب التمثيلي الهازل أو الكوميدي ، وذلك على خلاف ما ينبغي أن تكون عليه هذه اللغة في الوجه الآخر المقابل ، من فصاحه ورصانة وجزالة ، على صعيد الأدب التمثيلي الجاد أو التراجيدي .

في سبيل لغة ثالثة : ملامح نظرية نقدية

وبعد : فإنه إلى أى مدى ، في ضوء ما تقدم ، وعبر المنحى النقدى للجاحظ يستطيع الباحث أن يتلمس ملامح نظرية أو مذهب أدبي على صعيد الفكر الجاحظي ؟

لعلنا نستطيع استجلاء ملامح هذا المذهب النقدي الجاحظي ومقوماته من خلال الوقوف عند النقاط التالية :

أ ـ إن الجاحظ ، في فكره النقدي ، قد تفهم بعمق جدلية الشكل والمضمون ، من حيث تلازمهما وتفاعلهما على صعيد التأثير المتبادل والمشترك ، ومن حيث عدم قيام أحدهما إلا بوجود الآخر ، فهما بمنزلة شفرتي المقص لا يتم القطع بأحداهما بل بكلتيهما . وكل محاولة لرواية النادرة على غير صورتها ، كإعراب لغتها المولدة أو تعديل عبارتها المحكية ، إن هي إلا تشوية لواقع الحال ، وإفساد لخصوصية المقال .

ب ـ استطاع الجاحظ بحدسه الصادق ونظره الثاقب أن يرى في اللغة كائناً حيا ، إنها في نظره ـ وبنتيجة الملاحظة والمعاينة والاستقراء ـ أداة تعبير غير ثابتة ولا جامدة ، بل متغيرة متبدلة ، وهي قابلة للتكيف تبعا لتغير أحوال العصر ومعطيات العيش وطبيعة المجتمع . .

ومن هذا المنطلق الركين الذي صدر عنه الجاحظ ، وهو أن اللغة ظاهرة اجتماعية إنبثقت لديه هذه الرؤية النقدية الهامة التي ترى أيضا أنه إذا كان فن القول مرتبطا

بالمجتمع وموازيا له ، وأن المجتمع متعدد الطبقات ، فإنه من الطبيعي تبعا لذلك أن تتجلى طبيعة التعبير في أشكال متعددة ، ما دام المجتمع نفسه طبقات متعددة . وهذا ما جنح إليه الجاحظ في قوله بأصرح عبارة وأوضحها[٦٣] :

« وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام : الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسمح ، والخفيف والثقيل ، وكله عربي »

أما عبارة أبي عثمان الأخيرة التي تفيد أن جميع هذا الكلام برغم تباين مستوياته عربي ، فإن لها بعدا نقديا آخر قوامه أن صحة الكلام وحدها ، أو حتى فصاحته نفسها ليست العنصر الوحيد في تقويم العمل الأدبي ولو كان هذا الكلام في المقياس العام كلاماً عربيا . وهذا مفهوم دأب الجاحظ على تأكيده من خلال آراء عديدة له سلفت على نحو جانبي أو أساسي . وهذا ما يفضي بنا إلى بسط الأمر في النقطة التالية .

جـ - ومجمل ما خلص إليه الجاحظ أيضا أن فنية العبارة قضية منفصلة عن صحة اللغة ، وليس بينهما تلازم ولا ترابط . وهذا رأي خطير في مجال النقد الأدبي ، مؤداه أن اللغة الملحونة والعبارات العامية ، شأنها كشأن اللغة الصحيحة والعبارات الفصيحة من الوجهة الجمالية وعلى الصعيد الفني . وهذه السماحة في نظرة الجاحظ إلى اللغة ، مؤداها أنه لم يكن متزمتا في التعامل مع الألفاظ ، يعتبرها مجرد أوعية لحمل المعاني ونقل الأفكار ، بل رأى فيها رموزا ترمي إلى دلالات ، وتنطوي على هالات . وهذا الفهم الرحيب لأبعاد الكلمة وظلال العبارة هو الذي جعله - برغم حرصه البالغ على صحة الكلام وسلامة التعبير - يتقبل الخطأ واللحن ، بل يحبذه ويستملحه ، إذا دعا إليه داع من دواعي الفن .

كل ذلك يعني في مفهوم النقد الحديث ، حرص الجاحظ على سمة الواقعية اللغوية التي ينبغي لها في رأيه أن تبسط ظلها على المتكلم والمتلقى معا . وما هذه الواقعية اللغوية في حقيقة الأمر سوى وجه آخر متألق من ذلك المنحى الواقعي الذي حمل الجاحظ لواءه في الأدب .

د - أطلق الجاحظ مقولة نقدية هامة ، حين ذهب إلى أنه « لكل صناعة شكل[٦٤] » . وفحواها أنه ينبغي أن يكون لكل جنس أدبي شكله الفني الذي يلائمه . إذ الصناعة في مصطلح الأقدمين تعني في مفهوم النقد الحديث الفن بعينه ، أو الجنس الأدبي ، على أساس أن الصناعتين الأثيرتين عند العرب تتجليان في الشعر والنثر ، وهذان أيضا أبرز فنون القول ، وبمقتضى ذلك ، فإن ما عناه الجاحظ هو أنه لكل جنس أدبي مخصوص خصوصيته الأسلوبية . وهذا المفهوم إنما ينبثق من المنطلق النقدي الشامل الذي أعتمده الجاحظ أصلا وهو أنه لكل مقام مقال .

هـ - لقد تناول هذا الناقد العربي قضية اللغة المحكية في مجال التندر والتطرف ، على أنها قضية نقدية تتصل بلون أدبي متميز يغاير سائر الأنماط التعبيرية . ثم عمد إلى تحليل طبيعة هذه اللغة وإظهار سمتها الخاصة بها

(٦٣) البيان والتبيين ١ : ١٤٤
(٦٤) كتاب الحيوان ٢ : ١١٤

التي تميزها من حيث النطلق والأداء عن الأساليب المعتمدة في اللغة الكلاسيكية .

وقد اعتمد الجاحظ في أطلاق آرائه على نماذج تعبيرية محددة ، ونصوص أدبية معينة ، يتصل أكثرها بالمضمون الساخر أو الموقف الضاحك ، من مثل قصص البخلاء ونوادر المولدين ، ثم جنح لشفعها بما تقتضيه من حكم أو تعليق على هذا الصعيد النقدي . . .

على أن هذه المسألة الأدبية أو القضية النقدية التي تعالج طبيعة الصورة التعبيرية في معرض الملحة أو النادرة ، لم تكن ـ فيما يبدو لنا ـ طارئة في كتابات الجاحظ ، ولا عارضة على فكرة ، بدليل أنه تناول هذا الموضوع عددا من المرات خلال أبرز ثلاثة من كتبة ، وهي : كتاب والحيوان ، وكتاب البخلاء ، وكتاب البيان والتبيين . وهذا الأمر يعني بجلاء أن الجاحظ كان يولي هذه المسألة اهتمامه ، وأن مسألة اللغة المحكية في معرض السخرية والهزل كان لها ـ من منحاها الأسلوبي وأداؤ ها الفني ـ حيز واضح في فكر الجاحظ النقدي .

ولعله بوسعنا الآن القول أن هذه الالتماعات التي ومضت في ذهن الجاحظ تشكل أساسا صالحا لمذهب نقدي ، قوامه الترخص اللغوي لغاية فنية . وهذا في واقع الأمر منحى خطير انتهجه الجاحظ بصدد ظاهرة لغوية اجتماعية انبثقت في عصره ، ودارت على لسان جيله . وخطورة هذا المنحى تثوى في أن الجاحظ قد جنح ، من غير تحفظ ، إلى التسامح بصدد اللغة الدارجة على الأفواه ، كما استحسن ، دون حدود ، ما كانت تنطوي عليه تلك الصيغ التعبيرية المولدة من ألفاظ دخيلة أو عامية أو خاطئة . وما ذلك أصلا إلا لأنه أديب قبل أن يكون لغويا ، وفنان قبل أن يكون عالما . وآية ذلك موقفه السلبي الجرىء تجاه النحاة والرواة ومن إليهم . إذ قال[٦٥] : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل » . وهذا الموقف الجلي ينم على أن الجاحظ على كونه من أعلام اللغة والرواية لا يعد نفسه في زمرة اللغويين والرواة ، بل إنه يقف في الصف المغاير لهم ، وينتقدهم ويأخذ عليهم قصور ذوقهم من الوجهة الفنية تجاه مقومات الجمال التي قد تنطوي عليها حلاوة الأشعار ، وطرافة الأخبار ، حتى لكأن غايتهم لا تتعدى اقتناص الشاهد ، والتماس البرهان . وفي هذا وحده إدانة شديدة لهم .

ومجمل القول أنه ما كان لهذه المواقف النقدية التي انطوى عليها فكر الجاحظ أن تصدر عن رجل يعيش في وسط علمي محافظ ، لم يكن أصحابه المتشددون يتقبلون فيه أي تفريط بالعربية ، لغة الجدود الأوائل ، ولسان الكتاب المبين ، ولولا أن أبا عثمان نفسه كان ينطوي على جملة من الصفات . منها :

١ ـ المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها الجاحظ على صعيد الفكر العربي ـ الاسلامي ، وأيضا في مجال اللغة والأدب .

٢ ـ انفتاح عقل الجاحظ وتحرره الفكري ، وانتماؤ ه إلى تيار الاعتزال الذي كان أبو عثمان نفسه أحد كبار أعلامه . وقد عرف المعتزلة في الاسلام برحابة آفاقهم ، واتسام عقولهم بقدر واف من حرية الفكر .

٣ ـ كون الجاحظ عربي المنزع ، وهذا ما عصمه من أية شبهة ، ومكنه من أن يقول ما لم يجرؤ على مثله سائر

---

(٦٥) البخلاء ٢٠ ـ ٢١

معاصريه أو سالفيه . لقد كان في منجى من أن تصمه تهمة الشعوبيـة المستفحلة ، وهو في طليعـة خصومهـا ومناوئي دعاتها .

وهكذا أحل الجاحظ الفن في منزلة أعلى من منـزلة اللغة ، واكتفى بجعل اللفظ ، أي لفظ ـ على الصعيد الأدبي ـ مجرد وسيلة تعبيرية لغايـة أسمى وأجمل . وفي الوقت نفسه وضـع الجاحظ اللغـة في إطارهـا الحيوي الصحيح ، حين رأى فيها ظاهرة اجتماعية متطورة ، تتمخض عن اللغة المحكية أو المنطوية التي تنبض فيها حياة الناس ، وتتجلى على ألسنتهم من خلال ما تدور به احاديثهم ومحاوراتهم واسمارهم . وهذه اللغة المحكية ـ كما يراها الجاحظ كذلك ـ إنما تتسم أيضـا بما تتسم به اللغة المكتوبة الفصيحة من ألق وطرافة وإبداع .

* * *

حضرة المحترم
أنسنة السردي الايديولوجي

وقال يخاطب ربه :

ـ اغفر لي أفكاري يارب ، انما قاسية

مثل الحياة ، وهي جزء منها ليس الا . . »

نجيب محفوظ

محمد اسويرتي

مشروع منهج نقدي :

يعرض الخطاب الروائي « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ سيكولوجيا ، وفلسفة ، ورؤ ية شخصيات الى العالم ، مزيحا الستار عن وعيها ولا وعيها المتجسد في سلوكها العملي الدال . والرواية بادخالنا ، كقراء ، الى وعن هذه الشخصيات ولاوعيها في علائقها ، وعلاقاتها بالفضاء والزمان ، فهي تكشف في ذات الآن عن سيكوكوجيا السارد ، وفلسفته ، ورؤ يته للعالم متجلية في أحكامه التقويمية ، ووجهات نظره حول جميع الشخصيات سواء الدائمة الحضور أو الكيثرة الغياب ، وحل وجهات نظرها المتغيرة حسب الأحوال والظروف اذ من خلال مقول الظروف اذ من خلال مقول السارد يبدو اللامقول .

والاشكالية المطروحة هي كيف يتعامل الناقد مع ثنائية الشخصية والسارد لتحقيق الحداثة في النقد العربي الطامح الى تحديث أدوواته الاجرائية ؟ غالبا ما كان النقد القديم يتتبع الشخصية ويهمل السارد ويسير النقد البنيوي الجنيني في نفس الاتجاه مضيفا الاهتمام بعلائقة الشخصيات ولايعير أي اهتمام للسارد الى أن برز الاتجاه البنيوي بعد الشكلاني فاهتم بالبنية السردية ، وزاوية الرؤ ية ، والمنظور السردي ، ووجهة النظر ، والمكونات الروائية من فضاء وزمان وشخصيات أو ما أسماه الحكاية والمحكي الا أنه يؤجل الحديث عن السارد والمسرود له . واننا لنقترح لتحديث نقدنا العربي رصد علاقة أخرى بنيوية وجدلية هي علاقة السارد بالشخصية . بما أن السارد يصاحب الشخصيات في حركيتها عبر طول الرواية ، وبما أنه يشكل الظل بالنسبة الى الشخصية فينبغي أن يكون الاهتمام شاملا لكل من السارد والشخصية في علائقهما . كيف ؟ أيصرح بأفكار الشخصية ويسكت عن أفكار الراوي • أيكشف الناقد عن وجهة نظرها ويلتزم الصمت عن وجهة نظر السارد ؟ اذا فعل فهو أحادي البعد ان اختيار احدهما دون الأخرى امر مستحيل لأنه مهما حاول فانه سيعجز لامحالة لأنهما مترابطان ، ومتلازمان ، وكثيرا ماتنصهر هذه فى تلك لانهما وجهان لعملة واحدة : الخطاب

الروائي . ان العلاقة بينهما جدلية تتنافى وكل أحادية وثنائية .

وهذا المشروع النقدي غير ثنائي مادام ينسف صرح كل ثنائية في طموحه أن يكون جدليا يتعامل مع كل ثنائية كوحدة كبنية جدلية ديناميكية اننا سندرس ، كدوريت كون ، علاقة السارد بأي شخصية على مستوى الحكاية المحكي . انه منهج جدلي يعرض وجهات نظر السارد من خلال وجهة نظر الشخصية ابتداء من المحكي الابتدائي حتى نهاية الرواية . انه منهج علمي بنيوي جدلي ممكن . اننا نقترحه في نقد الاعمال الروائية لأنه لايتواقت والأحادية (تناول الشخصية وحدها) ولايتزامن والثنائية (تناول الشخصية وحدها ثم تناول السارد وحده) بل هو يزامن بين الشخصية والسارد ابتداء من الشروع في الممارسة النقدية . ان الناقد في واقع الأمر ، لن يخوض في الحديث عن احدى وجهتي النظر حتى يجد نفسه يتحدث عن الأخرى . والفصل بين الشخصية والسارد لايتأتى الا في التنظير النقدي ، أما في الممارسة النقدية ، فكل فصل بين مكونين هو تشويه لهما معا .

ان سارد « حضرة المحترم » يجعل وجهات نظر الشخصية هي الأطروحة ، ووجهة نظر شخصية أخرى أو وجهة نظره هي النقيض في معظم الرواية . ولن يفوتنا ونحن نستجليها أن تبرز المقاطع السردية القليلة التي تتطابق فيها وجهات نظر الشخصيات بوجهة نظر السارد . ولايسعنا والحالة هذه الا تشكيل التركيب الأطروحة الجديدة ـ بينها بجلاء لأن النقيض يتواجد في الخفاء . ان السرد يحمل ضمنيا اللامسرود . ومهمة الناقد هي انتاج خطاب نقدي يبرز اللامسرود من خلال المسرود الى أن يقيض له نقد النقد الذي هو النقيض الضرورى للتركيب/ الأطروحة الجديدة / وتتمظهر الشخصية في الرواية باللغة التى تشكل بصيغها المختلفة سيميائية ايديولوجيتها الرسمية وايديولوجيا السارد المستقلة كفعل السرد ، والحكي ، والقص ، والرواية ، والمحكي والحكاية ، ووجهات النظر ، وأحكام القيمة والحذف ، والغياب ، والصمت ، وزاوية الرؤية أو المنظور السردي ، والرواية بضمير الغائب التي تشير الى وجود راو ، وشخصية وقارىء ممكنين ومحتملين والعلم والمعاصر الذي يساعد على استجلاء تمظهرات الايديولوجيا هو السيميائية ، والجهاز المفاهيمي ، ومصطلحاته الاجرائية الذي اختزله فليب هامون في مصطلحه النقدي الذي أسماه **شعرية المعياري** .[1]

تمظهرات الايديولوجيا :

تتمظهر الايديولوجيا فى الخطاب الروائي في عدة صيغ ، وتتجلى أثارها في اشارات متعددة : في العقيدة الدينية وميتافزيقاها ، في الاخلاق ، في السلوكات الخاضعة لعا بعد تشكيلها للنفس ، والذهن ، والوعي واللاوعي ، وفي تحريف رغبات الذات الطبيعية وللأفكار الناتجة عن الرغبات ، وفي العقلانية ، والمثالية ، والرومانسية ، والفردانية ، والسلفية ، والماضوية ، وارادة الفرد للقوة والسلطة ، وفي الخرافه ، والأسطورة ، وفي تقديس الذات الفرد والحكومة ، وخطابها فتوحدهما مع الاله المقدسات فتمتزج هذه بتلك ، وتغيم الحدود ، وتتلاشى التخوم ، ويحل خيال المؤدلج هذه في تلك فينعدم التمييز ، وفي تقسيم الناس الى مستويات ، وأصناف ومراتب وفق معيار التراتبية ، فيقدس تبعا لذلك المال ، والرأسمال ، والعمل والملكية والأشياء ، والبشر ويتشيأ الانسان ، ويزهد في الراحة والحياة ، والحب والجنس ، والعلم والتحرير والحرية ، والمعرفة والسياسة والفلسفة ، والادب ، والفنون والحقوق في اطار الخضوع لمعايير العقل العقل ومقاييس العقلانية القامعة ، والتخلي عن الطوباوية الممكنة المؤسسة سعيا وراء طوباوية مستحيلة لا أساس لها ، ونسيان الجسد ، وشروط بقائه ، والقلب وعواطفه ،

١ ـ فليب هامون « نص وايديولوجيا » ط ٥ : P.U.F باريز 1984 وقد كان هذا المرجع القيم أساسيا بالنسبة الينا في انجاز هذا المقال ، ولهذا لن نشير اليه فيما سيأتي تجنبا للتكرار .

والجنون وثورته ، والشغب ارادته في التغيير وتحطيم الانساق ، ورغبته في التحول ، والتموقف بالقول بالقول والفعل المسئول . وتتجلى الايديولوجيا أيضا في التقويم انطلاقا من قواعد ومحكات ، وفي شكل لغة ، وأقوال ، وآراء ، ووجهات نظر ، وأفكار ، ونظرات الشخصية أو السارد ونظريات ، ومعرفة تقنية ، وجمالية ، وصناعة وفنية وثقافية ، ومهنية وكتابية ، وانشائية تخضع للقوانين المسطرة ، وللأعراف ، والأوضاع والمواضعات الاجتماعية ، والأذواق ، والرؤ ى الى العالم والفلسفات . .

شخصية الشخصية الرئيسية :

في الصفحات الأولى من رواية « حضرة المحترم » يقدم السارد الخطاب الايديولوجي السائد كأنه اشارة Signe مكتوبة على لافتة تلعب هذه الاشارة في الخطاب الروائي وظيفة اشارية مكثفة كما تلعب اللافتة في الحياة الواقعية الوظيفة ذاتها ، فهي تقرأ وتحفظ ، ولاتحلل ويسير القارىء العابر وفقها دون مناقشتها . انما تبدو كمثل كحكمة كقانون ، كوثيقة إدارية ، كمذكرة رسمية ، وتتخذ شكل جميع الصيغ التعبيرية القصيرة النثرية والشعرية ، وإن هذه الاشارة لتشكل في الرواية أفق إنتظار بالنسبة ألى القارىء . ونظرا للعلاقة الجدلية بين فن التخييل والواقع ، فإن الا يديولوجيا الرسمية تلقي بهذه الاشارة كما يلقي الفلاح بالبذرة آملا في أن تنضج وتؤ تي أكلها في أرض وعي الناس حتى تنمو وتترعرع وتتفتح وتثمر في لا وعيهم لتجني هي بعد ذلك ، وبسهولة ، ثمارها ولا يهمها حينئذ مصير السائرين والعاملين وفقه / والسارد الواعي بهذه الاشارة وبخطورتها هو الذي يتكفل تحت ظل الايديولوجيا المستقلة التي يساهم الانتماء اليها الى جانب الثقافة الواسعة والتراكم المعرفي في تجذيرها وتفجيرها في وعيه الذي يصارع لاوعي المؤدلجين المتشبثين بالايدويولوجيا الصنم - - بمهمة كشف وفضح أثر - ايديولوجيا سائدة الخطر على حياة ومصير الانسان المؤدلج الذي يؤ نسنه السارد باعطائه صورة شخصية روائية يشكل الخطاب الايديولوجي القاتل بنيتها المحكية والحكائية ، فتتحرك وفقة وكأنها طفل يلعب بمسدس معبأ وكشخص مفتون لايرى سوى موضوع فتنته . هل بامكاننا الحديث هنا عن السحر ؟ .

قال الرسول متعجبا يوما : « ان من البيان لسحرا ! » نعم ، لاساحر في التاريخ لايستخدم اللغة في سحره أو أثناء عملية السحر واليوم نتساءل : أين يكمن سر السحر ؟ أ في الخطاب أم في المواد الكيميائية ؟ لقد أدرك الرسول أنه كامن في البيان . ان للغة قوة تشبه قوة السحر أو هي ذاتها السحر . وأي لغة هي تلك الساحرة ؟ انها اللغة التي تبعث المتعة ، وتحقق اللذة ، والنشوة في السامع / القارىء ، فيغدو وقد أسكرته اللغة بجمالها ، وبيانها وحقيقتها ، وموسيقاها التي تستحوذ على النفس ، فتؤ ثر في الاحساس وتثيره فيمسي السامع / القارىء كالمدمن الذي يهتز ، ويترنح ، ويغني ويردد ماقرأه أو بعض مقاطعه ، ويتمايل راقصا منتشيا ، ، وتحمله اللغة في تغريبها الى عالم من الخيالات ، والاحلام ، والرؤ ي . انه فعل تخدير اللغة الذي يفوق تخدير الخمرة - والأفيون ، والحشيش ، والهيروين ، والكوكايين ، والمورفين . . يمكن أن يكون تخدير هذه المواد آنيا ثم ينقضي ، ولكن تخدير اللغة يدوم ويستمر مدى الحياة . وكلاهما قاتل فالادمان يقتل في أقصر لحظات العمر . وتناول كمية محدودة تناولا طبيا قد يساعد على الحياة كذلك النص البياني . فهو كالمخدر يصعب علينا تحديد زمن قتلة رغم معرفتنا أن نتيجته الحتمية هي الموت . فالمدة التي سيموت فيها الشخص تحت تأثير سحره وتخديره تتغير من شخص الى أخر ليس كل نص بياني قاتلا . فالقاتل هو الخطاب الأيديولوجي الساحر . انه سر سحره كامن في أنه يعمق الخطاب الماضوي الموجود في الأذهان . انه ينفذ الى ذهنية الشخصية فيستقر فيها فيغدو مكتوبا ، محفورا منقوشا على رخام الذاكرة فتتأدلج الشخصية ، وتتخدر ، فيسرى فيها التخدير سريان السحر في ذات المسحور فتعمل بحسبه فتتشخص الأيديولوجيا السائدة وتصبح حية تسعى وتلتهم شخصيات أخرى لاتحكي بدون شخصية .

ان السارد يستقصي عبر النص الروائي جميع التمظهرات الممكنة للأيديولوجيا السائدة ويتخذ لها شخصية كمرآة ذات أوجه متعددة مكسورة تعكس صورا متعددة لها . انه يسردن الخطاب الأيديولوجي أو يؤنس السردي الأيدويولوجي من خلال شخصية الشخصية ليفضح الأيديولوجيا المخدرة وأثرها القاتل والمبيد للأفراد والجماعات وتفرقتهم بعد تكتلهم متوسلا بالشخصية / النموذج دون أن يغفل ، كبنيوي علاقاتها بالشخصيات الأخرى ،وبالزمان ، والمحيط والظروف والأحوال لتكتمل صورتها وتلتحم بنيتها . ونجيب محفوظ ، ككاتب روائي يخلق شخصية أخرى تتكفل بالسرد وهو السارد وعلى الناقد في ممارسته النقدية للعمل الروائي أن يرصد علاقة الشخصية بالسارد كشخصية فلكل منهما ايديولوجيته أو قد يلتقيان ، بوعي أو غير وعي ، في ايديولوجيا واحدة كما افترقا . وان نجيب محفوظ لسيميائي كبير اذ تتبع تجليات الايديولوجيا السائدة والمستقلة ويسجل راصدا سيميائياتها التي تشكل عالما كبيرا يغمر المؤدلجين ، ويجرفهم تياره ، فيتخبطون في أمواجه المتلاطمة كغرقى يصارعونها كل حسب طريقته حبا في النجاة بحياته ، صراعا ينم عن مغامرة فردانية مؤدلجة . والدليل على نهجه المنهج السيميائي ذا الرؤية الثاقبة قول السارد في « حضرة المحترم » : « وتراءت دنيا من المعاني والمؤثرات » (ص : ٥) . وليست غاية هذا الفضح هو السخرية فحسب ، بل الغاية هي ادراكه أو وعي حدة مقصلة الخطاب الايديولوجي ومضائه ، وشدة وقعه الذي يشبه وقع الرصاص في الرؤوس والصدور ، سواء جاء على شكل كلمة ، أو جملة أو عبارة ، أو نص ، وفي جميع مرافق الحياة : في الشارع في العمل ، في المقهى ، في وسائل النشر السمعية والبصرية ، ووسائل الاعلام . وخطورته تكمن في اختزاله حياة المؤدلجين الذين يغدون حماة الايديولوجيا السائدة ، والمبشرين بها ، والمدافعين الأوائل عنها رغم سلبها حقوقهم ، وتجهيلهم ، وحرمانهم من ملذات الحياة . انها تحمل في طيها موتهم العاجل . فخطابها ساحر ولكنه كشهريار يمنح اللذة والموت في أن واحد أو ينغص اللذة بالموت الذي ينتظر الفتاة الجاهلة انه كالفراش المنمنم ذي المنظر الخلاب ولكنه يخفي تحته هوة سحيقة في قعرها أفاع سامة تلذغ الساقط فيها ، أو حراب استنتها الى فوق تودي بحياة كل من حاول الجلوس عليه . انه كالقصر الملغوم المهدى .

ان الاشارة التي ذكرناها آنفا تومي من الآن فصاعدا الى ما ستتمخض عنه الرواية في خطها الانحداري من وجهة نظر السارد ، والتصاعدي من وجهة نظر الشخصية ذلك الخط الذي يرسم المراحل التي ستقطعها الشخصية المؤدلجة والدائمة الحضور في الخطاب الروائي الذي له أيضا سحره الخاص الا أن هذا السحر يبعث النشاط والحياة في القارىء الممكن كالغذاء والدواء والارتواء الجنسي والفكري ، وهذا القارىء سيهتز سكران منتشيا بكاس الحياة انه النص المضاد لا بما قاله ولكن بمالم يقله والذي نستشفه من خلال ماقيل . انه النص / الحياة رغم عرضه للايديولوجيا السائدة / الموت ان الشخصية في رحلتها التراجيدية التي تلمح الى السقوط والانهيار ثم الموت لاتعي تأدلجها . ان الرحلة الى الحياة تحمل معها الموت العاجل . وكما قال لوكاش ابتدأت الطريق وانتهت الرحلة . انها رواية او سيرة الشخصية الاشكالية الذاتية . ان موت بيومي في آخر الرواية ناتج عن الحرمان من مباهج الحياة ان هذه الشخصية قدمتها الايديولوجيا الرسمية قربانا لمعبد الدولة ولمقصلتها اللامرئية هروبا من المقصلة المرئية الخاصة بالسياسيين وذوي الرأي التحررى ، المناضلين والفلاسفة والعلماء المناهضين لها .

والاشارة الساحرة المخدرة والقاتلة قول السارد راويا عن عثمان بيومي الذي يرددها بهذه الصيغة هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهي متألقة عند صاحب السعادة المدير العام هذا هو المثل الاعلى المتاح لابناء الشعب ولامطمح لهم وراء ذلك تلك هي سدرة المنتهى حيث تتجلى الرحمة الالهية والكبرياء البشري . ثامنة .. سابعة سادسة .. خامسة .. رابعة .. ثالثة .. ثانية .. أولى .. مديرعام . معجزتها

تتحقق في اثنين وثلاثين عاما وربما تحققت في أكثر من ذلك » . (ص : ١٠) . ان هذا الخطاب مؤدلج يميز بين رؤ يتين الى العمل / الوظيفة :

١ ـ رؤ ية منظور اليها من زاوية الايديولوجيا السائدة التي قسمت العمل تقسيما تفتيتيا الى درجات تخفي وراءها الاستغلال ، والاستلاب وسراب الحياة .

٢ ـ رؤ ية منظور اليها من زاوية الايديولوجيا العقائدية .

وتبرز الرؤ يتان من خلال التقييم الظاهر في النص / الشعار المؤدلج الذي يرسخ ايديولوجيا الطبقة المالكة لوسائل الانتاج عن طريق الاعتماد على العقيدة وتشويهها كما يبدو ذلك من سجل الفرقان ولغته التي تتخذها كقناة يعبر منها الخطاب المؤدلج الى الأذهان دون مقاومة لأنه حتى العقيدة تأدلجت وانصهرت الايدولوجيتان فشكلتا ايديولوجيا واحدة سائدة . ويتجلى التقويم وأحكامه من خلال النعوت ، والصفات والأحوال ، والكنايات والألقاب وفق قواعد الثنائيات والمراحل الموجودة بين طرفي الثنائية كالسعادة والشقاء والتألق والانطفاء ، والمثل الأسفل والأعلى والجنة والنار ، والكبرياء(الكبر + الرياء) والدناءة ، والعادي والخارق ، والتحقق وعدمه ، والقناعة والطموح : طريق سعيدة ـ تنتهي متألقة ـ المثل الأعلى ـ سدرة المنتهى ـ الكبرياء البشري ـ معجزتها تتحقق [٢] والخطاب المؤدلج يؤكد بسحره الغامض والخيالي والميتافزيقي والأسطوري ، التحقق وينفي الطموح المختلف بصورة اطلاقية : « ولامطمح لهم وراء ذلك المؤدلجون ، هم الذين يبتكرون هذا الخطاب كبنية فوقية لما يسطرونه من قوانين صارمة على الشعب والحامية لمصالحهم الاقتصادية ومن تشريعات استغلالية اجرامية وقاتلة بتذرير العمل وجعل القيم المضادة مجرد أوهام : « ثامنة .. سابعة .. سادسة .. خامسة ..رابعة .. ثالثة .. ثانية .. أولى .. مدير عام » . والأرقام المتباعدة كالمتقاربة والمتجاورة تشكل ثنائيات وتراتبية . ومن أجل الفتات ، والبقايا ، والفضلات ، والنفايات تستغرق هذه الدرجات حياة الانسان القصيرة بكاملها ، ويحكم عليها باعدام عاجل قبل الاعدام المؤجل الذي حكمت به عليه الطبيعة معجزتها تتحقق في اثنين وثلاثين عاما . وربما تحققت في اكثر من ذلك ولايفوت السارد أن يدلي بوجهة نظره المضادة اللاتواصلية ، والكاشفة للحقيقة العارية ، على هذه الدرجات بصيغة تواصلية : « أما الساقطون في وسط الطريق فلا حصر لهم » (ص : ١٠) . الموت المعجل الذي يعدم الناس قبل الموت المؤجل ـ حسب رؤ ية السارد الواعية وعيا ممكنا ـ يتخذ أشكالا متعددة وألقابا متنوعة ، مموهة (بالكسر) ، خادعة ، اغرائية تراتبية : صاحب السعادة ـ المدير العام . ويكني عن الاعدام السابق وانه بلغة الفرقان بكنايات سحرية مخدرة لها مفاهيم في تصور ذهنية المؤدلج ميتافزيقية : : الرحمة الالهية ـ سدرة المنتهى ـ حيث تنتهي حياة الموظف في الواقع وهو جالس على شوكه الوظيفة وخياله فيما لم يعرفه ولن يعرفه وانما يتصوره ويرسم له في خياله صورة غائمة وعائمة وهلامية ـ والمثل الاعلى ـ والمعجزة التي ترتبط في ذاكرة الشعوب بالأنبياء الذين يجعلهم الخطاب المؤدلج فوق البشر . ومفهوم المعجزة في المحكي مفهوم السني لاسيما اذا نظرنا الى العلاقة التنضيضية التي وضعت كلمة « المعجزة » بعد لفظ « مدير عام » . ومعناها أن هذه المكانة مكانة الهية ، وخاصة باله أونبي أما الانسان فهو عاجز عن بلوغها في زمن الايديولوجيات السائدة التي تحث على الاهتمام بها وتشغيل الفكر بحلم الوصول اليها في زمن الوصولية . أما المفهوم الدلالي المعروف فهو يعني الفعل الخارق الذي يفوق القدرة البشرية وهو مفهوم ميتافزيقي خرافي أسطوري . ولايجني من هذه الألقاب الماكرة ، والمضللة ، والأحكام القيمية المطلقة التي لاتحدها النسبية الواقعية سوى الفقر والعوز والحاجة الدائمة الملحة والموت المعجل لأن أجرة العامل .

٢ ـ نحن نؤكد على طول المقال .

الموظف زهيدة ويعوض عنها بالخطاب الوهمي المؤدلج ، والروح المجرد ، المثال ، والرحمة والجنة ، والسعادة المرجأة كتعويض عن المادي والمحسوس والسعادة المرجوة الواقعية والضرورية وما الفتات المتذرر سوى البديل الحتمي لهذه الترقية السيزيفية الملهوفة واللاهثة من أجل لاشيء والمحترقة شوقا الى العدم لاحتراق الأجور بنار الأسعار واحتراق المأجور :

« اني أشتغل ياربي . .

النار ترعى روحة من جذورها حتى هامتها المحلقة في الأحلام . وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة ، كموجة من نور باهر ، فاحتوا ها بقلبة وشد عليها بجنون ، كان دائما يحلم ويرغب ويريد ولكنه في هذه المرة اشتعل ، وعلى ضوء النار المقدسة لمح معنى الحياة » (ص : ١) . ان السارد يجعل من بيومي ـ Bio O Vie من بيومي ولكن = Maisأو أو Moitie O mi وهكذا يغدو اسم بيومي من حيث التحليل التجنيسي التصحيفي « حياة ، ولكن . . »

أو « نصف حياة » أو « حياة ناقصة » ـ الفراشة التي احترقت لما حاولت المستحيل وهو اقتباس من الشمعة نارها . إنه يحكم عليه بأنه محلق في الأحلام أي رومانسي طوباوي وأنه منبهر بمحرق سحر الايدولوجيا المحرقة بعدما حلت فيه فحل فيها . إنه الحلول الايدولوجي . وقد شبه السارد هذا السحر وهذه الفتنة بالنار المقدسة . وبيومي المنبهر بالنور يقدس النار كالبدائي والمؤدلج ولكن نورها أعشاه فأرداه أعمى لا يدرك النار البروميثية التي تحمل معنى الحياة الحقيقية وإدراكه خاطىء لأنه يرى معنى الحياة في الموت . والانبهار والتقديس يستلزمان التضحية الشيء الذي أفضى به ، في مسيرته الطموحة إلى المجد الزائف ، إلى التفتير ، والادخار ، والحرمان القاتل ، والبخل المتشدد خوفا مما قد تسفر عنه الأيام المؤدلجة المضطربة ـ وهي دائما تسفر عن شيء غير متوقع ـ وهي التي تغرس الأوهام ، وتزرع الاستيهامات فتنمو ، وتنضج ، وتثمر ، فتحصد ، وتستحوذ على الانتاج كله فتجمع الشخصية المؤدلجة ، كلاقطة ، الهشيم لأن الايدولوجيا المؤسطرة أسطرت الذات فأسقطت الذات نفسها على الأسطورة فأعدمت الحاضر والواقع . ولن تزول الأسطرة إلا بزوال الايدولوجيا المؤسطرة .

يقول السارد عن عثمان بيومي وعن سيرته الذاتية الدالة على الوضعية الاقتصادية الخاصة والعامة في الزمن المؤدلج .

لن تفهم أي سيرة إلا اذا ربطناها بالظروف الاقتصادية لأن السيرة داخل العمل الأدبي ومن ثم ربط هذه البنية السيرية الدالة بالبنية الاقتصادية العامة للمجتمع الذي يعيش فيه ـ :

« إنه ينفق القرش بغير ضرورة ملحة . وفتح حسابا في دفتر توفير البريد مع أول مرتب قبضه . ولذلك لم يخطر له على بال أن يغير مسكنه أو حارته أو طعامه . وهو يؤمن أن الادخار وسيلة هامة من وسائل جهاده الطويل وشعيرة من شعائر دينه ، وأمان ضد الخوف في عالم مخيف » (ص : ٢٩) .

إن النص يوضح أن الشخصية تخضع لايدولوجيا التوفير كإضافة أخرى على إيدولوجيا تفتيت العمل والأجرة ، ومضاعفة الحرمان ، وعدم الاستقرار النفسي والتردد ، والحيرة ، والانتقاء المستمر ، والاختيار الدائم ، والعجز عن الانفاق والثبات في مكان واحد كماء المستنقع ، والتمسك والاقتناع بطعام واحد كالبهيمة إلى حد لا يغني الغذاء عن الدواء والدواء عن الغذاء لعدم القدرة في اقتنائهما معا . والخطاب المؤدلج يصدح / ينعق بالتوفير بنسبة الربح الغامضة والمغرية والضئيلة لتضخيم الرأسمال .

هناك ثلاثة دلائل على مخالفة السارد للشخصية المؤدلجة :

١ ـ أن طبيعة الحكاية هنا مزدوجة . إن المرء عندما يحكى بضمير الغائب عن شخص آخر أو شخصية تخييلية ، ويعرض وجهات نظره ، وسلوكاته ، وأفعاله ، فإنه يقوم بفعل الحكي كي يستخلص القارىء نقيضها . والرواية بضمير ال « هو » الدالة على الشخصية تتضمن في ذات الوقت ضمير « أنا » السارد ، وضمير « أنت » القارىء ، وكأن الراوي يقول للقارىء دون أن يصرح بذلك : « إني لست مع وجهات نظره وسلوكاته وأعماله ، وإني لأخالفه في كل ذلك فما رأيك أنت ؟ » .

٢ ـ سمة الاسناد ، والايعاز ، والاضافة ، والنسبة بضمير الغائب لتبرئة ساحة أنا السارد وأنت القارىء .

تقييم السارد للعالم بنعته بصفة « مخيف » انطلاقا من معيار الخوف والاطمئنان ، وهي صفة تحتمل ضمن ما تحتمل من دلالات حافة دلالتين تحددان رؤيتين الى العالم ؛

أ ـ رؤية الشخصية الحرفية القاموسية الضيقة لوعيها الزائف المؤدلج والسلفي : « العزاء الباقي هو العمل ، والثقافة ، والادخار ، وكلما ضاق بتقشفه قال لنفسه : ـ هكذا عاش الخلفاء الراشدون » (ص : ٧٢) .

ب ـ رؤية السارد الواسعة لوعيه المحتمل بحيث أن ما يخيفه هو عالم الايدولوجيا المفرقة والمشتتة للناس و بحيث يغدو المخيف هو غياب التضامن التاريخي .

إن بيومي يحرم نفسه بل هو مدفوع الى الحرمان لتأدلجه ، من كل متعة ، ولذة ، وجمال في الأشياء ، والأجسام ، والأجساد ، والأصوات ، والروائح ، والأطياب ، والأطعمة والألحان ، والمشاهد الخلابة ، والأسفار ، والرحلات ، والاكتشافات ، والاختراعات ، والمناظر الجذابة والمتغيرة حسب الفصول ، والأزمنة والأقطار ، ومن دفء الشمس وبرد الشتاء وبرودة المياه وثلجها صيفا ، وأنواع الشراب في ألحان وغير ألحان إلى أن ماتت حواسه فأضحى جثة لا يغنيها في شيء ما تبقى لديها من حركة وعي مؤدلج زائف .

إن الايدولوجيا السائدة حرباء معكوسة . إنها تلون بلونها كل ما تمر به من ثقافات كالتاريخ ، والحضارة ، والأخلاق ، والعلوم بشتى أصنافها ، والفلسفة ، والأدب . إن هذه الثقافات المؤسساتية تتأدلج الى حد يتعذر التعرف عليها كما يتعذر التعرف على الحرباء في الأشياء . لا يدركها من ثم عدا من خبرها ، وخبر حربائتيها المقلوبة . فالتاريخ مثلا يتشكل بتشكلها ، وتنصهر الأخلاق في بوتقتها إلى حد أنها تجعل الوظيفة فوق كل المهن الأخرى كالتجارة ، والصناعة ، والسياسة ، والجندية ، والبحرية . . . ، وتضرب هالة من التقديس حولها فتبعدها من الأرض في علّيائها بعد أن موقعتها في السماء بحيث يستحيل الآن عليها معرفتها ولجهلها مزجتها بالاله فلا يكاد المرء يميز أحدهما عن الآخر إلا إذا قيض لها كاتب ساخر يضحك ويضحك من المقدسات بعد إنزالها من سماء الوهم إلى أرض الحقيقة والواقع . يقول سارد « حضرة المحترم » : « الوظيفة في تاريخ مصر مؤسسة مقدسة كالمعبد » (ص : ١١٣) . وهكذا يعدم التاريخ الحقيقي ، تاريخ الشعوب ، والحضارة التي شيدوها ، شنقا أو إغتيالا

إن الايدولوجيا السيدة تستمد قوتها ونورها المضلل ، وبريقها الخادع من العمل المستمر الذي لا ينقطع ولا يتوقف والذي يجهل الراحة ،ولا يفكر فيها ، كما لايقارن زمنها بزمن العمل الذي يندى فيه جسده عرقا ، ويرهق فيه ذهنه تفكيرا ، ولا يدر هذا العمل على العامل / الموظف سوى النتف ، ولا « يرد عليه » أصحاب وسائل الانتاج المنتجين للخطاب المؤدلج « رزقه » .

الراحة حق من حقوق كل أنسان .

لن يناظل المؤدلج عن شيء أعمته الايدولوجيا التعيتمية عن رؤيته . فقوتها مستعارة من قوته ، ونورها مقتبس من نوره فأصبحت قوته من « قوتها » ونوره من « نورها » . و لأجل هذا ولتنوير الظلامية الكامن في نورها الخادع يدعو السارد القارىء لدراسة الموظف / العامل دراسة اقتصاد - اجتماع - نفسية كي يتعرف هذا الاخير على واقعة وليغيره ويعمل على تغييره ، وتغيير وضعية العمال التي ستغير وضعيته . لا يزال الموظف لغزا محيرا ، ومستعصيا على الدراسة التي تقتضي تضافر الجهود لينفرد كل دارس بزاوية وحسب اختصاصه . « وحضرة المحترم » تدرس وفق اختصاصها الابداعي الروائي وعي الموظف نفسه وهو بنية فوقية صغيرة شكلتها الايدولوجيا السيدة البنية الفوقية الكبيرة التي تشكلها معا البنية التحتية المختارة .

لايمكن للبنية الفوقية المؤدلجة أن تنتقد ذاتها إلا إذا وعت ذاتها ووعت الايديولوجيا السيدة والبنية التحتية المتوخاة في كل أبعادها ، وقارنتها بالبنيات التحتية المناقضة لها .

لا نريد هنا إعادة القول في العلاقة الجدلية بين المادة والفكر .

لن يغير الفكر الواقع إلا إذا كان واعيا به ، وبالفكر الناتج عن الواقع أي ان يعى الفكر ذاته وأن يعى فى ذات الوقت الواقع الذى أنتجه الذأن يعي في ذات الوقت الواقع الذي أنتجه .

يقول السارد بأسلوب المحكي الذاتي المجلوب في خطاب تتعانق فيه الايدولوجيا الحرة والايديولوجيا السيدة : « وقال لنفسه إن الموظف مضمون غامض لم يفهم على وجهه الصحيح بعد . والموظف المصري أقدم موظف في تاريخ الحضارة . إن يكن المثل الأعلى في البلدان الأخرى محاربا أو سياسيا أو تاجرا أو رجل صناعة أو بحارا فهو في مصر الموظف . وإن أول تعاليم أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا أب موظف متقاعد الى ابن موظف ناشىء . وفرعون نفسه لم يكن إلا موظفا معينا من قبل الآلهة في السماء ليحكم الوادي من خلال طقوس دينية وتعاليم إدارية ومالية وتنظيمية ، ووادينا وادي فلاحين طيبين يحنون الهامات نحو أرض طيبة ولكن رؤوسهم ترتفع لدى انتظامها في سلك الوظائف ، حينذاك يتطلعون إلى فوق إلى سلم الدرجات المتصاعد حتى أعتاب الآلهة في السماء . الوظيفة خدمة للناس وحق للكفاءة وواجب للضمير الحى وكبرياء للذات البشرية وعبادة لله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء .... » (ص ١١٣)

إذا كانت الشخصية والفلاحون يقدسون الوظيفة إلى حد عبادة الموظفين « الكبار » ، فإن السارد يجل الفلاحين ويمجد الأرض ويعظمها ويكن لها كل تقدير . ولكل من السارد والشخصية أحكامه التقييمية . فالسارد يحكم على الفلاحين والارض بالصفة التي يحددها النعت التخصيصي الذى يفضل قيمة من بين القيم الأخرى : **الطيبين - الطيبة** . أما الشخصية فهي تحكم على الوظيفة بالأحكام التقويمية الأخلاقية ، والتقنية ، والمعرفية ، والنفسية ، والعقائدية : **خدمة للناس - حق للكفاءة - واجب للضمير الحي - كبرياء للذات البشرية - عبادة الله** - وفق معايير الخدمة وعدمها ، للناس أو للحيوان والاشياء ، الحق او غيره ، الكفاءة أو العجز ، الواجب أو غيره ، الضمير وعدم الضمير ، الحي أو الميت ، الكبرياء أو الدناءة ، العبادة أو الكفر ، الله أو الشيطان . ويبدو أيضا أثر - الأيديولوجيا في تاريخ الموظف الذي يحكم عليه حكما قيميا وفق معيار الجدة والقدم ، والواقع والمثال ، وجود التعاليم وانعدامها ، أخلاقية وغير أخلاقية ، والتعيين أو الانتظار ، الالهي أو الشيطاني ، الالهي أو الانساني ، الطقوس أو غيابها الدينية أو غير الدينية ، إدارية أو لا

إدارية ، مالية أو غير مالية ، منظمة أو فوضوية : أقدم موظف في تاريخ الحضارة - المثل الأعلى - التعاليم الأخلاقية الاولى وصايا موظف - فرعون موظف - معين من قبل الآلهة - طقوس دينية - تعاليم إدارية مالية - تنظيمية . وأن الفلاحين / الموظفين يتطلعون إلى فوق مما يدل على أن هناك (تحت) و (فوق) بل توجد كل الثنائيات التي ينبغي تدمير قلاعها وحصونها . والسارد يدعو الى أن تقام البحوث حول الموظف لمعرفة واقع الوظيفة ، ولادراك أنها مقدسة دون سائر الوظائف ، وأنها تتبع النظام الوراثي منذ الفراعنة . ولو استحضرنا علائق الغياب في ذاكرتنا عن فرعون ، وعن تجبره ، وطغيانه وتألهه ، واستبداده الذي سكت عنه الخطاب المؤدلج واكتفى بالاشارة الى نظمه كالنظام الاقتصادي المتدهور الذي يتخذ الدين والأخلاق ايديولوجيا سائدة للاستغلال ، لاكتملت لدينا دلالات علائق الحضور في الجملة الخاصة بفرعون ، ولأدركنا أن التاريخ يعيد نفسه بصورة أبشع . وتتمظهر إيدولوجيا السارد المستقلة في الحذف ، والبياض الذي تركه مفضلا الصمت والسكوت . يتجلى الحذف في قوله : « إن أول تعاليم أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا » حيث حذف « لنا » بين حفظها والتاريخ لأنه يرغب في أن تحفظ لنا . ويتجلى صمته وسكوته عما يشبه هذا القول : « كما يحدث في مصر الآن» الذي كان بإمكانه أن يأتي بعد الجملة التي تحدثت عن فرعون في حذف هذا القول . وبقي الصمت مستمرا إلى أن جاء يوسف القعيد فمزق الكمامة ليجهر في حرية واستقلال بهذا القول عنوانا لرائعته « يحدث في مصر الآن » . أما السارد « حضرة المحترم » فهو يقفز على الثغرة التي أحدثها في المقطع السردي إلى وصف الفلاحين الذين ينحنون لتمتطي الحكومة ظهورهم ، ويركعون لها لتأليههم إياها بدل الانحناء إجلالا وإكبارا للأرض الجديرة به .

إن الارض إلهة كل الآلهة تحت الشمس .

ما أحوج الوظيفة إلى عبادة الأرض وتقديسها !

والفلاحون في استيهاماتهم المقدسة (بالكسر) للوظيفة ولتأدلجهم يتوقون إلى المستحيل ، والأسطوري في يثوبيا تنسيهم الممكن / الأرض / الواقع / الانسان / الجميع ، وتشخص أبصارهم إلى « المناصب العليا » كما تشخص إلى اله الخلود . لو كانوا غير مؤدلجين لعلموا أن أصحاب « المناصب العليا » أقزام لا حول ولا قوة لهم إلا قوة الفلاحين ، والعمال ، والموظفين ، والحرفيين ، والصناع ، والعاملين - باختصار - كل عمل باليد والفكر ، وقوة الأرض ، وثروتها هو الذي يحدد المناصب ، ورواتبها ، ولزهدوا في هذه المناصب ، ولسخروا من الموظفين « الكبار » الذين يعيشون عالة على الفلاحين وغيرهم .

إن قوة الشعب هي قوة الحكومة .

إنها حكومة لم تع ذاتها .

إن الشعب هو الدولة في الحقيقة والواقع .

إذا بخلت الأرض فلتقم على المنصب والوظيفة والمآتم .

إذا انتزعت الأرض عنوة أو مراوغة عن طريق الضرائب ، والغلاء ، والزيادة في الأسعار وفي ساعات العمل ، فالنضال حتمى لاسترجاعها فورا .

إن الصعود في ذلك المقطع السردي مجازي يعني صعود الأرواح / النفوس إلى السماء قبل أوانها وقبل موت الجسد حسب ثنائية الروح والجسد . وهو أمر مستحيل إذا تحطمت هذه الثنائية ، إنه صعود مبكر وغير طبيعي ناتج عما عاناه صاحبه من عذاب ولرارة وشقاء الجري وراء السراب . إنه بلغة مجازية موت مستعجل رغم حركة الأجساد بغية تحقيق الآمال الخادعة ، والأماني الضائعة . ووجهة نظر الشخصية المؤدلجة (المؤدلجة خبر لوجهة النظر) تنم عن رؤيتها الاحادية

إلى الوظيفة . إنها تعتبر العمل منفصلا عن الراحة بكل ما تحمل كلمة « راحة » من شحنات دلالية ، وتعد الراحة منفصلة عن العمل مما يجعل الرؤية موسومة بالثنائية حتى . تتجلى هذه الثنائية في ورقة العمل التي اتخذتها الشخصية دستورا وشعارا لها ومشروعا لسلوكها المستقبلي . إنه نص يطفح بالعلائق الاستبدالية اللغوية الدالة على البراكسيت إذ يسود فيها جذر العمل وغياب الراحة . لا وجود ولو لاشارة بسيطة إلى الراحة ، والتسلية ، والعبث الجاد أو الجد العابث ، والاقبال على الحياة والحب . إنه نص تنبثق منه العقلانية المعايشة لتعبيره ، والكاشفة عن حضورها المكثف والمستقر في وعي الشخصية كما تنبجس منه البراجماتية والايدولوجيا القاتلة والبخيلة التي لا « نفع » فيها ولا « منفعة » ترجى منها لأنها تشغل الفرد الذي يفني عمره في دراسة لنيل شهادة التخرج إلى الشارع أو القبر قسرا لا اختيارا تمليه التضحية والتموقف من أجل الجميع أو في سبيل الانسان :

١ ـ القيام بالواجب بدقة .

٢ ـ دراسة اللائحة المالية التي يشار اليها وكأنها كتاب مقدس .

٣ ـ الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم .

٤ ـ دراسة خاصة للغتين الانجليزية والفرنسية بالاضافة الى العربية .

٥ ـ التزود بالثقافة العامة وبخاصة الثقافة المفيدة للموظف .

٦ ـ الاعلان بكل وسيلة مهذبة عن تديني وخلقي واجتهادي فني عملي .

٧ ـ العمل على كسب ثقة الرؤساء ومحبتهم .

٨ ـ الاستفادة من الفرص المفيدة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة أدبية تقدم لذي شأن ، صداقة مفيدة زواجاً موفقاً من شأنه تمهيد الطريق للتقدم » (ص ١٥) .

يعبر هذا النص عن أن « حضرة المحترم » تقدم بنية ملتحمة ، فعلى مستوى الحكاية ، فان سلوكه الشخصية يخضع بحرفية بلهاء للخطاب الايديولوجي الرسمي الذي جاء في صيغة الاشارة التي سبق ذكرها . فهي تسير وفقه في تفكيرها ، وتصورها ، ومعرفتها ، ورؤيتها للتاريخ ، والاقتصاد ، والدولة ، والدين ، والعمل / الوظيفة . . . وعلى مستوى المحكي ، فهذا الشعار في العمل والحياة » وكما يتجلى ذلك من بنوده الثمانية التي تطابق عدد الدرجات الثماني المسطرة في الاشارة المؤدلجة والباعثة على التأدلج ، تفريع عن الاشارة المؤدلجة منسجم معها كباقي التفريعات التي ستليها في شكل مقاطع سردية ، وحوارات ، ومحكيات وأوصاف ، ووجهات نظر السارد والشخصيات التي يوزعها نجيب أيضاً بتقنية هندسية معمارية ورياضية وفق عدد ٨ : فالشخصيات / النساء ثمان :

١ ـ أم حسني .

٢ ـ سيدة .

٣ ـ قدرية .

٤ ـ ست سنية .

٥ ـ أصيلة الناظرة .

٦ ـ أنسية رمضان .

٧ ـ إحسان إبراهيم .

٨ ـ راضية عبد الخالق ، والشخصيات / الرجال كذلك ثمان :

١ ـ سعفان بسيوني .

٢ ـ حمزة السويفي .

٣ ـ بهجت نور .

٤ ـ حسين جميل .

٥ ـ إسماعيل فائقة .

٦ ـ عبد الله وجدي .

٧ ـ مهندس .

٨ ـ طبيب .

وسيلتقي عثمان بيومي ، ويتحاور ، ويدلي بوجهات نظره وفق وجهات نظر هذه الشخصيات بالتبادل لتداخل الشخصيات / النساء بالشخصيات الرجال بناء عليها تتغير فصول الرواية .

إن التأدلج معايش لهذه الورقة ونستشف ذلك من العقلانية الأخلاقية التي تقسر الفرد على تقديم الواجب وتوبخه على إهماله فغدا ذلك معياراً يقوم من خلاله : **القيام بالواجب** ، ومن خلال معيار معرفة أو جهل التقنية : **بدقة** ، ومعيار الأمانة والخيانة : **بأمانة** ، ومقياس التقديس والتدنيس : **تقديس الوثيقة المالية** ، وقاعدة الوقاحة والليونة ، **وسيلة مهذبة** ، وقانون الأخلاقيات : **تديني ـ خلقي ـ الكرامة** ، والمعرفة حسب قاعدة العلمي والأدبي : **مساعدة أدبية** ، وضابط النجاح والفشل : **زواج موفق** ، وسنة التقدم والتخلف : **طريق التقدم** ، ومحك الثقة وعدم الثقة : **ثقة** ، والحب والكراهية : **محبتهم** .

أما قاعدة العمل فهي التي تهيمن على المشروع .

إن إحدى مقولات سارتر هي أن الانسان مشروع . ولكنه يمكن أن يكون مشروعاً لمشروع لم يختره بكامل الحرية والوعي . وسيمارس حريته ووعيه عندما سينظر في مشروعه نظرة نافذة تجعله يميز بين مشروعه كانسان حر ومشروع غيره الذي يستعبده .

وبيومي ليس بمشروعه كانسان مستقل بل هو مشروع غيره . إنه مستعبد من طرف المشروع الأيديولوجي المسيطر الذي يخضع الناس للعمل فقط : **ورقة عمل ـ القيام ب ـ دراسة (ثلاث مرات) ـ التزود ـ يعملون من منازلهم ـ اجتهادي في عملي ـ العمل على ـ مساعدة ـ تقدم . . .**

ومعيار الربح والخسارة : **الحصول ـ المفيدة ـ كسب ـ الاستفادة ـ الفرص المفيدة ـ صداقة مفيدة** ، والطابو TABOU الخاضع لمعيار المعرفة السفلية والعليا : **الشهادة العليا** . والغاية منها هي الترقية . والظل الذي ينوب عن الترقية وفتات الترقية هي الشهادة التي يفوق مجهودها مقابلها الذري ، إلى حد الزهد في الجانب الأساسي وهو الحياة والانسياق وراء التفكير في الذات الفردية المؤدلجة وطموحاتها الزائفة ما دامت بعيدة عن قضايا الناس جميعاً :

« ـ هل ما زال ينقصك تعليم ؟

ـ الشهادة العليا .

ـ لماذا ؟

ـ مساعدة لابأس بها للترقي » (ص : ١٨ ـ ١٩) .

ويختزل معنى حياة الشخصية في الوظيفة ، في العمل « المقدس » . فالعمل في نظرها كوني ، إنه يعني الإله ، والحكومة وذاتها الواحدة والوحيدة المجسدة لروح الإله .

إن الأيديولوجية الرسمية هي التي تتحدث عبر ذات الشخصية سواء بصيغة المناجاة أو بصيغة المحكي الذاتي المجلوب والتلقائي ، أو في حوارها مع باقي الشخصيات وعرض وجهات نظرها . إن الشخصية مبشرة بها وتستند ، دون وعي منها ، إليها في كل اتصال تقيمه مع غيرها . وهي نموذج للمؤدلجين الذين يتم التواصل بينهم لتوحدهم ووحدتهم واتحادهم اللاواعي تحت ظل وحدة الخطاب المؤدلج (بالفتح وبالكسر) بنفاذه إلى ذهنياتهم كما فرق بينهم لدعوته الرومانسية والفردانية والمثالية فأمسوا ذواتاً متشظية كل واحدة تسير في طريقها الخاص كالكواكب المتباعدة محاولة تأكيد الذات التي ألغتها الأيديولوجيا الرسمية بتأكيد ذاتها هي . وكل تأكيد للذات ما هو إلا تقليد جديد لذاتها في صورة تقليد للفرد / الإله كما حدث ذلك لجوليان

سوريل في رواية استندال « الأحمر والأسود » : « قال إن حياة الانسان الحقيقية هي حياته الخاصة ، التي ينبض بها قلبه في كل لحظة ، التي تستأديه الجهود والاخلاص والابداع . إنها مقدسة ودينية ، بها تتحقق ذاته في خدمة الجهاز المقدس المسمى بالحكومة أو الدولة . بها يتحقق جلال الانسان على الأرض فتتحقق به كلمة الله العليا » (ص ٢٢) . وهذا مقطع سردي مؤدلج يذعن لمعيار الحياة والموت ، الحياة الخاصة أو العامة ، الخفقان أو الهمود ، الجهد أو الخمول ، الاخلاص أو الغش ، الابتكار أو التقليد ، التقديس أو التدنيس ، التدين أو الكفر ، تحقق الذات الجماعية أو الفردية ، الجهاز المقدس أو المدنس ، الدولة أو الشعب ، جلال أو انحطاط ، الكلمة العليا أو الدنيا .

وتأكيدا لذات الفردية في الفكر المثالي والوعي الرومانسي المؤدلج يفضي بصاحبه الى جهل العلائق البنيوية الاجتماعية التي تحقق تأكيد الذات تأكيداً اجتماعياً وإنسانياً ، ويؤدي به الى الكدح كالعبد في الاقطاعية والرأسمالية رغم الاختلاف الجذري الموجود بينه وبين العبد الذي كان جسده يلهب بالسياط ، ويكره على العمل ، ويجبر على إنجازه مهما كانت قساوته ، والآلام التي يسببها له ، فينفذه مرغماً . أما المؤدلج فانه ينفذه « إختيارياً » أي يرغمه الخطاب المؤدلج الذي استقر في ذهنه فغدا سجين هذا الخطاب ، وأسير نسقه والنسق الذي صدر منه الخطاب . إنه يشقى دون ضرب أو جلد وإنما برضى تام بوضعه المزري وهو لا يدرك مصدر الشقاء ، والتعب ، والحرمان ، والقلق الوجودي الذي يستشعره بين الفينة والفينة . به يفكر ، وبه يشعر ، وحسب قوانينه يسير في عزلته أو مع الآخرين . إنه لا يرى سوى العمل الشاق الذي لا ولن يستريح ما دام يعمل حتى في أماكن الراحة .

قال بعض الفلاسفة إننا لا نرى الأشياء إلا حسب تجاربنا . وهذا يعني أن العين زجاجة حسية وحاسة عضوية تربطنا بالعالم الخارجي . وإذا كانت التجارب هي التي تشكل بنيتنا الذهنية ، فهذا يعني أننا لا ندرك الأشياء كما هي ، وإنما نخلع عليها من تجاربنا ، من ذهننا ، من ذواتنا . إذن فالذهن هو الذي يرى الأشياء من خلال التجارب التي انطبعت على صفحته . والنسيان الذي يصاحب جدلياً عملية التذكر والتفكير هو الذي ينتخب مرجعاً أو موضوعا من بين المراجع أو الموضوعات ليفكر بها . وإذا كان الخطاب الأيديولوجي السائد هو الذي يشكل بنيتنا الذهنية في جميع مراحل حياتنا التي لا تتجاوز ربع أو نصف قرن ، فاننا لن نتعامل مع العالم الخارجي إلا عبر هذه الذهنية ، وعن طريقها التي تقلب عملية الادراك . كان الخطاب المؤدلج ينفذ الى الذهن في السنين الأولى ، سنين التعلم التقليدي والمؤسساتي ، عبر زجاجة العين فشكل إطاراً « ثقافياً » وتراكماً « معرفياً » فأصبح الذهن في مرحلة « النضج » يرسل الخطاب المؤدلج على العالم الخارجي كما ترسل الكاميرا الأشعة التي تتحول الى صور على الشاشة ، من خلال زجاجة العين ولكن الصور تعود اليك عبر العين فيعيدها الى العالم مؤدلجة وعبر عضو التعبير أيضاً / اللسان في شكل خطاب شفوي أو كتابي مؤدلج يتولد عن الخطاب الأول حاملاً سماته كالوليد الذي يحمل سمات الأب أو الأم أو هما معاً .

تتجلى سمات هذا الخطاب في خطاب بيومي الذي يعرض السارد وجهة نظره : « إنه يحتقر المواعظ التي تحث على الكسل ويعدها تجديفاً بذي الجلال » (ص ٣٧) فليس بيومي هو الذي يحتقر المواعظ التي تحث على الكسل / الراحة وإنما الأيديولوجيا السائدة التي شوهت الخطاب العقائدي عندما أذابته فيها ووجهته في اتجاهها . إننا لنصادفهما معاً في كل مقطع سردي يصدر

عن بيومي المؤدلج وإن اختلفت الصيغ مما يمنح الخطاب الروائي تماسكه واتساقه . و (ذي الجلال) كناية تشير إلى الإله الذي يتجسد في الفرد / الإله . ويخبرنا الراوي عن بيومي بصيغة المحكي الذاتي المجلوب المؤدلج الذي يطغى في « حضرة المحترم » على المحكي الذاتي التلقائي المؤدلج : « قال لنفسه إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصير » (ص ٢٧) . طبعاً فوجهة النظر هذه تنسجم مع الخطاب المؤدلج بل هي تفريع آخر له وهي لا ترغب سوى في العمل المستمر الذي يشبه اللاعمل / البطالة لأن راحته لن تتحقق لا على المدى البعيد ولا على المدى القريب فتبقى الراحة هي اليوتوبيا والأسطورة المعاصرة التي تحتاج الى الطريق الذي يقسم وفق معيار ايديولوجي والذي يستند إلى قاعدة الطول والقصر ، والذي لا نهاية له لأنه ينسب إلى الارادة الالهية ، ولأنه يناسب حلم الدولة التي ترغب في أن تطول مدة حكمها ، وتستمر وراثة الحكم إلى ما لا نهاية بابعاد الفكر والتفكير الذي سيتساءل : من يحكم ؟ في الماورائيات والأساطير ، وهكذا تقسو الشخصية المؤدلجة على نفسها لأنها مغتربة عن ذاتها ، ومكونات وعيها ، وحاجاتها ، ولا تدرك العامل الاقتصادي المحدد للخطاب المؤدلج والكامن وراء قلقها ، وحيرتها . إنها تعمل / تموت في حين يحيا منتجو الخطاب المؤدلج لتبرير كسلهم ، وعدم إنتاجهم ، وراحتهم ، وترفهم ، ولذة عيشهم ، وفراغهم ، ومتعتهم ، وإقبالهم على الحياة اعتماداً على قوته المتجسدة في قوة عمله وقوة إنتاجه : « وتقدم في كل شيء ولكن عذابه لم يخف ، ورسخت قدمه في عمله حتى شهد له سعفان بسيوني ـ رغم إخفاقه معه ـ بالمواظبة والكفاءة والاستقامة وكان يقول عنه :

ـ انه أول الحاضرين وآخر الذاهبين وفي أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة . وهو يؤدي عمله . ويؤدي عن المتأخرين أعمالهم . فالكلام عن نجدته لا يقل عن الكلام عن قدرته » (ص ٣٧) . وهنا يشير السارد وفق أحكام قيمية تعتمد معايير القدرة والعجز ، والمعرفة والجهل ، والتقنية والتلفيقية ، وقواعد السلوك الأخلاقية كالتقدم والتأخر ، والرسوخ والتذبذب ، والمواظبة والتقاعس ، والكفاءة والعجز ، والحضور والغياب ، والعمل والراحة ، والاستقامة والشغب ، والانجاز والاهمال ، العبادة وتركها : **وتقدم في كل شيء ـ ورسخت قدمه في عمله ـ الكفاءة ـ الاستقامة ـ أول الحاضرين آخر الذاهبين ـ في أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة ـ يؤدي عمله ـ يؤدي عن المتأخرين أعمالهم ـ نجدته ـ قدرته .**

ويدمج في تصوره العمل بالعبادة كالأدلوجة (عبد الله العروي) ، ولو لم يترك له فرصة للعبادة الحق ، بل لا داعي لها إذا كان العمل عبادة حسب الدلالة المعايشة لهذا القول : « ـ لا يخلو عمل الانسان من عبادة » (ص ٣٨) .

وعثمان بيومي لا يعد ولو موظفاً بل يعد خادماً للرؤساء بل عبداً لهم . والطرق المؤدية إلى المناصب « العليا » تتفتت حسب معايير الطول والقصر ، والأهمية والتفاهة ، والشرف والدناءة ، والفائدة والخسارة ، والتقدير والتحقير ، والخدمة والتمرد ، والاذعان والتموقف . والسارد يرفض هذه المعايير وهذا الخنوع المفرط الذي يسلب الشخصية كينونتها . ويشير خطاب بيومي الى ذلك .

لكل كلمة نقيض حتى كلمة نقيض ذاتها .

اختر كلمتك ولا تدع الكلمة تخترك أو تختار من خلالك .

يحكي السارد عن بيومي قائلاً : « إنه يتمنى لو يكلف كل يوم بعمل كهذا ، إن عمله في الادارة ـ على ضخامته وتقدير الجميع له ـ لن يكفي وحده ، فلا أقل من تقديم

الخدمات للرؤساء ، وإشعارهم بأهميته وفوائده الشريفة ، ولعل ذلك يقلل من جزعه لقلة ما ناله بالقياس الى ما يطمح اليه . ولكنه عزاء يتزود به في طريقة الطويل » (ص ٥٩) ـ لن نتحدث من الآن فصاعدا عن التفريعات لأن كل خطاب هو تفريع لخطاب سابق حتى نهاية الرواية ـ لا تقف وجهة نظر بيومي عند هذا الحد ، بل تتعداه الى مستوى اعتبار العمل مرادفاً للبطولة . ما البطولة ؟ .

إنها معيار تتجلى فيه التراتبية بين البطل واللا بطل في عصر الأيديولوجيا اللا بطلة . إن البطولة التي يقيمها بقيمة تعود إلى معيار الحق والباطل ، هي التسابق ، والتنافس ، والتناحر على المناصب العمل كي لا تقف عجلة الألة المنتجة واليد التي تسيرها ، ووسائل الانتاج المنتجة بشكل من الأشكال عن العمل بالاضراب عنه والذي يأتي كاجابة منطقية عن السؤال :

لمن نعمل ؟

والذي يؤدي الى توقف الانتاج ، والمفضي الى انهيار هرم الربح ، وتقلص القيض ، وانحطاط الجاه ، وإضعاف القوة ، وإزالة السلطة ، وأنسنة الآلهة ، وإطفاء الاستنارة ، ويبتديء تفكير الطبقة العاملة في الحركة في اتجاه الوعي الممكن ، وانتاج خطاب أيديولجي بطل معايش للواقع المعيشي . إن الأيديولوجيا اللا بطلة تدفع بالفرد المؤدلج إلى الزهد في الحياة ، والنظر اليها من خلال الموت العاجل الذي لا يعيه ، ومن خلال الوعود بأن التعويض سيكون في العالم الآخر . والحصيلة هي الخيال الملهي عن المادي والواقعي الذي يحتاجه الفرد في هذا العالم .

حتى وعود العالم الآخر في الحقيقة والواقع هي وعود من أجل هذا العالم هناك علاقة جدلية بين العالمين . يكفي استبدال الإله بالجميع لأنه يحث في « خطابه » على الاهتمام بالجميع .

وخير تعريف صادق يحدد هوية مثل هذه الشخصية المؤدلجة هو ما قالته عن نفسها كاذبة :

ـ إن الأيديولوجيا السائدة لا تكون صادقة إلا حينما تكشف عن كذبها الذي تعتبره صادقاً ـ

« ما أنا إلا ثور معصوب العينين يدور في ساقية . . » (ص ٣١ ـ ٣٢) .

« ـ لا خير في هذه هي الحقيقة . . » (ص ١٠٠) .

« ـ لا يغرك منظري فمرضي ليس في القلب أو الصدر ولكنه يعوق تماماً عن الزواج » (ص ١٠٥) .

وداعية الأيديولوجيا السيدة هذا يرفض الى حد الحنق واليأس ، بناء على قاعدة الإيمان والكفر الحقيقيين أو الزائفين ، الراحة حتى حينما يحيق به المرض أو يشرف على الهلاك كما يتضح ذلك من حواره مع الطبيب البطل الذي يتحدث نيابة عن السارد البطل معارضاً آراء بيومي المؤدلجة :

« ـ ما دام الأمر كذلك فاعلم أن المسألة ليست لعباً . إنها بلغة الطب لا خطر منها ، ولكن عدم الانصياع لكلامي يخلق منها شيئاً آخر ، **يلزمك راحة تامة ، شهر على الأقل .**

هتف :

ـ شهر !

ـ وأن تلتزم بدقة **بالدواء والغذاء الموصوف ، لا** مناقشة في ذلك البتة ، وسوف أزورك غدا . .

وجمع أدواته في حقيبته الصغيرة ومضى وهو يقول :

ـ احفظ كلامي عن ظهر قلب . .

وغادر الرجل الحجرة وهو يتبعه نظرة مغيظة يائسة » (ص ١٤٩) (. . .)

« ولكن الطبيب قال له :

ـ ما يهمني هو صحتك لا وظيفتك !

(. . .)

ـ المؤمن الحقيقي لا يسعد بالصحة وحدها . .

ـ لم أسمع بذلك من قبل . . » (ص ١٥٧) .

إن الأيديولوجيا السائدة ضد العلم الذي يدرس الظاهرة وما يحقق استمرارها ويصارع ما يسعى في انهيارها ، وهي تنظر الى الظاهرة من زاوية عقائدية غير علمية . أما أيديولوجيا السارد المستقلة فهي تقرن العمل بالراحة ولو الراحة التي تواكب الزمن الموضوعي ، والزمن الكوني ، والطبيعي ، وأن يقترن بالراتب الموفر والمحقق لراحة العمل ، وراحة الجسد ، وراحة حاجيات المرض ومقتضياته ، وراحة حاجيات العافية ، كما تريد من العمل أن يتوقف ، على الأقل ، وكمرحلة أولى ، حسب توقف النهار والليل ، والبرودة والحرارة تبعاً لظروف المناخ التي تسمح بالعمل إن وجد . تعبر هذه الأيديولوجيا المستقلة عن نفسها من خلال وجهة نظر السارد : « إن النظام الفلكي لا يطبق على البشر وبخاصة الموظفين منهم » (ص ١٠) .

وبيومي لا يتناقض مع ذاته عبر طول الرواية . فطموحه كما حددته له الأيديولوجية السائدة لا يتغير وإن تغير التعبير عنه ولا يتغير الطريق الذي رسمته له . فهو يصر على المضي فيه : « وظل على ايمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ، بالحياة الشاقة المقدسة ، بالجهاد والعذاب ، بالأمل البعيد المتعالي . وقال إن العجز أحياناً عن بلوغه لا يزعزع الثقة به ، ولا المرض ولا الموت نفسه ، ما دام الاصرار على المضي نحوه هو المسؤول عن وجود النبل والمعنى في الحياة » (ص ١٥٨) . ويعكس هذا الخطاب المعايير الأخلاقية المنحدرة عن تأدلج بيومي المثالي الذي يجهل في طموحاته الفردية طبيعة الجسد وواقعيته في حاجياته عبر مراحل العمر : **إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ـ الحياة الشاقة المقدسة ـ الجهاد والعذاب ـ الأمل البعيد المتعالي ـ العجز (. . .) لا يزعزع الثقة به ـ ولا المرض ـ ولا الموت نفسه ـ الاصرار على المضي نحوه ـ وجود النبل والمعنى في الحياة .**

وما فعلته الأيديولوجيا السائدة في حربائيتها المقلوبة بالتاريخ تفعله بالأدب . إنها تجرده من وظيفته المعرفية ، والتعبيرية ، والتحريرية ، والفلسفية ، والعلمية ، والاجتماعية ، والانسانية ، ومن مخالفته لها واختلافه عنها ، ومفارقته ، ومناقضته لها وافتراقه عنها . فالـ « كاتب » في ظل الأيديولوجيا المسيطرة من المكتبة ، من المنشئين ، ووسيلة من وسائل إنتاجها دون أن يعي ذلك أو يشعر به ، ويصبح نتاجاً في علائق الانتاج ، ويضحي ما كتبه أداة لترويج خطابها ، وسلعة كاسدة في سوقها الذي يحاول احتضان باقي الفنون غير المؤدلجة . ويعرض الراوي هنا مستوى الشخصية المعرفي ، وقدرتها الجمالية في الكتابة والتي يبين التأدلج رؤ يتها على هيكل الماضوية ، والسلفية : « واهتم بالشعر خاصة ، وحفظ الكثير ، بل حاول نظمه ولكنه فشل . قال إن الشعر كان وما يزال خير وسيلة للتقرب من الكبراء ، والتألق في الحفلات الرسمية ، إنه لخسران فادح أن يفشل في نظمه ، ولكنه على أي حال خير طريق لاتقان النثر ، والخطابة لا تقل عن الشعر في النجاح المنشود ، والأسلوب الجزل مطلوب ، قلبه يحدثه بذلك ، واللغات الأجنبية مثله وأكثر . جميع تلك المعارف مفيدة ، ولها وقتها الذي ترتفع فيه قيمتها في بورصة المضاربات الديوانية» فلبس بالتعليمات المالية وحدها يحيا الموظف » (ص ٢٣) . إن « معرفة » بيومي لا تنحصر في الشعر فحسب كمعرفة ذاكرية كالراوية الذي يرافق الشاعر ، يحفظ عنه ما يقوله ويردده أو كالنظام الذي ينعدم عنده حس الابداع ، والقدرة في الابتكار ، والخلق الشعري لغياب العواطف ، والاحساسات ، والانفعال النفسي المرهف الذي يحرك خوالج النفس

لأتصال الشاعر بالعالم وتناقضاته ، وإمساكه بقضايا الناس ، ويستند ذلك عند بيومي الى معايير المعرفة والجهل ، والاهتمام والاهمال ، والحفظ وعدم الحفظ ، والقلة والكثرة ، والشعر والنظم ، والنجاح والفشل : **أهتم بالشعر - حفظ منه الكثير - حاول نظمه ولكنه فشل -** ، ورؤيته الى الشعر رؤية تقليدية تخدم الأيديولوجيا السائدة تأسيساً على معايير الوسيلة أو عدم الوسيلة ، التقرب أو الابتعاد ، الكبراء أو الصغراء ، التألق أو عدم التألق ، الاحتفال أو عدمه ، الرسمي أو العادي : **إن الشعر كان وما يزال وسيلة للتقرب من الكبراء - التألق في الحفلات الرسمية** ، بل تمتد حتى الى النثر . وهو يستفيد من الشعر ليبرع في النثر / الخطابة . ومعرفته التقنية في الكتابة / الانشاء معرفة تتأسس على معايير محافظة كالمتانة والليونة كما يتضح ذلك من المصطلح النقدي التقليدي : **الأسلوب الجزل** ، ومعيار معرفة اللغة العربية والأجنبية ، والنفعية والوصولية : **إن الشعر كان وما يزال خير وسيلة للتقرب من الكبراء - جميع وتلك المعارف مفيدة - ترتفع قيمتها في بورصة المضاربات الديوانية** . إن عثمان بيومي امتداد للشاعر القديم البوق ، والداعية والمبشر ، والمقلد ، والوصولي الذي فقد شخصيته ، وسلبت منه كينونته وذابت في كينونة الممدوح ، ولم يبق منه سوى المظهر . ذهب الانسان وبقي اللا إنسان الذي يتحرك كالآلة التي تخضع للتوجيه المسافي . إن الركام المعرفي الماضوي لدى الشخصية المؤدلجة ينبع من / يصب كله في الأيديولوجيا المتحكمة في النفسيات ، فشلت الفكر كما تشل العنكبوت كل حشرة تدخل في مجال نسيجها ، فتبتلعها . إنها تؤجل بهذا الصنيع الوعي الممكن / الحياة ، وتستعجل الوعي المستحيل / الموت .

والأدب في مفهوم السارد في التراكم المعرفي الواسع فن كجميع الفنون ويحتضن عدة أجناس أدبية ، وهو إنساني ، ولا ينفصل في مضمونه عن الحياة ، والحرية المسؤولة . وهو كلام مقدس كالانسان وهو الصق به ، بل هو الذي يميزه عن سائر الكائنات . فهو منه وإليه . لا يرمي به عند قدم أي صنم أو إله .

لا تفضيل بين الأجناس الأدبية .

كلها تتيح للانسان فرصة التعبير الحر عن قضاياه ، وحرية إبداع أشكال جديدة .

يتناول السارد عمل بيومي ، ومعرفته وتقنيته الشكلية ، وركامه المعرفي الضيق . وينظر بيومي إلى كل ذلك نظرته إلى الأشياء المطلوبة وفق قواعد نفعية في غياب المنفعة التي يشير اليها مجال الحجرة الضيق كمجاز عن ضيق الشخصية النفسي والمعيشي والحياتي : « كان يعمل بجنون في الوزارة ، ويتبحر في المعرفة في حجرته الصغيرة » (ص ٤٦) . إنه موظف محروم من الفضاء الكافي سواء في الوزارة أو في منزله حيث يسبقه العمل إليه ويسخر منه : « ولذلك راح يترجم للصحف والمجلات ليزيد من دخله وليزيدبالتالي من مدخراته . ونجح في ذلك نجاحاً لا بأس به » (ص ٤٧) ، وعمل الترجمة يخضع لمعيار بيومي في الزيادة والنقصان ، والانفاق والادخار ، والنجاح والفشل والذي يقوم بالجيد أو باللابأس به ، وتعدد أو قلة القدرات وفق معيار الاستطاعة والعجز .

« أهنئك على نجاحك الذي يقطع بتعدد قدراتك » (ص ٥٠) لا تطابق بين المجهود المبذول والمقابل المادي المخذول . إن الايديولوجيا المتحكمة هي العزاء الخيالي الذي يتمظهر في اللغة . لا يستهلك بيومي كتعويض عن القدرة الجمالية والأدبية الشكلية سوى الخطاب المؤدلج منذ بداية حياته الى نهايتها ، ذلك الخطاب الذي يتغير أسلوبه ولغته وفق النظام المنسقي الدال على أحكام القيمة المؤدلجة (بالفتح والكسر) التالية :

١ ـ أبدى اعجابه : أبدى سعادة المدير اعجابه بأسلوبك في الترجمة (ص ٥٨) .

٢ ـ ممتاز : « دعيت لالقاء محاضرة في جمعية الموظفين ، وقد سجلت نقاطها ، فما رأيك في أن تكتبها بأسلوبك الممتاز ؟ » (ص ٥٨ ـ ٥٩) .

٣ ـ جيد : « أسلوبك جيد » (ص ٦٤) .

٤ ـ مما تغبط عليه « أما أسلوبك فمما تغبط عليه » (ص ٦٦) .

٥ ـ فذ حقا « يهمني أن تراجع الأسلوب : أسلوبك فذ حقا . . (ص ٨١) .

٦ ـ مجرد ابتسامة يحظى بها : « وحطي ـ عند كل لقاء ـ بابتسامة لا يحظى بها المقربون » (ص ٨١) .

ولاغترار بيومي بالابتسامة كحظوة ، فإنه سيرضخ خانعا ، ذليلا ، قانعا ، مقموعا ، لاستغلال أكثر بشاعة وأكثر تأدلجا وأدلجة .

أ ـ سيعمل على مراجعة أسلوب لا مضمون أو محتوى كتاب ضخم سيستغرق فيه مدة شهر كامل .

ب ـ سيعزز بل سيعمل على تجذير الايديولوجيا السائدة من وجهة نظر تاريخية ماضوية :

« هذه أصول ترجمة كتاب عن الخديوي اسماعيل ، ترجمتها في نصف عام ! نظر عثمان الى الأوراق باهتمام فقال صاحب السعادة :

يهمني أن تراجع الأسلوب ، أسلوبك فذ حقا .

تلقى التكليف بسعادة شاملة . وأكب على العمل بهمة وقوة وعناية فائقة ، وفي شهر واحد أعاده الى صاحب السعادة في صورة بيانية كاملة ، بذلك قدم الخدمة التي تلهف طويلا على تقديمها ، وأصبح رصيده عند صاحب السعادة دائنا (ص ٨١) . وهكذا يغترب عنه عمله الذي قرره في ورقة عمل مشروع حياته المؤدلج ، بعد أن مارسه وأنجزه ، واغترب هو أيضا عن عمله فضاعت مجهوداته كلها هباء . وما حدث له في المراجعة يحدث له في إعداد مشروع الميزانية : « أما هو فكرس كل قواه لاعداد المشروع حتى يبرز للوجود كاملا بلا هفوة واحدة . وتجلت مقدرته في توزيع العمل وتنظيمه ، ومتابعة المعلومات المطلوبة من ادارة الوزارة على حين تعهد هو بالموازنة الختامية وتحرير البيان . . وأعد للمشروع مقدمة مثالية حازت اعجاب المدير بصفة خاصة فتربع على قمة النصر المبين » (ص ٨٠) . إن هذا المقطع السردي يعرض قدرة بيومي التقنية الادارية ، والتنظيمية ، والمعرفية ، والبيانية ، والكتابية ، في إصدار الفتاوي ، وتفوقه ، وانتصاره لتجربته ، وخبرته المشفوعة بالعلم والمعرفة في الشؤون الادارية الحكومية وفق معايير النظام والفوضى ، والدقة والملاحظة العابرة ، والكمال والنقص ، والخطأ والصواب ، والعلم والجهل ، والمثالية الواقعية ، والاعجاب والنفور ، والقمة والحضيض ، والانتصار والانهزام ، والخفاء والتجلي ـ ومع ذلك يحيق به القلق الذي ينخر ما تبقى من قواه لأن الترقية بطيئة تعاكسها سرعة الموت التي يحمل جسده المنهوك بذرتها القاتلة أكثر من أجساد غير المؤدلجين . لاعتبار بيومي وكأنه لا وجود له . إنه مشيأ . قوة عمله هي التي تحظى بالاعتبار . يشيأ ثم يهمل كشيء لا نفع فيه في مكان غير لائق به : « كل هذا يحدث وهو ما زال في الدرجة الثالثة ، مع عمره المتقدم ، أهذا جزاء الجهد الخارق والتفاني الجليل ؟ ألم يعلموا بأنه انسان تلخص في خبرة مؤيدة بالعلم والعمل ؟ وأن مذكراته الرسمية وبياناته الخاصة بالميزانية وفتاواه الرائدة في الادارة والمخازن والمشتريات لو جمعت في كتاب لكانت دائرة معارف في الشؤون الحكومية ؟ خبرة نيرة منزوية في وظيفة وكيل ثان للادارة كأنها مصباح كهربائي قوة خمسمائة شمعة ثبتت في جدار مرحاض زاوية بقرية (ص ١١٣) . والأحكام التقويمية هنا تستند الى قاعدة الخارق والمألوف ، والتافه

والجليل ، والعلم والجهل ، والعمل والبطالة أو الكسل ، والعادي والرسمي ، والعامة والخاصة ، والريادة والتقليد ، والنير والمظلم كما يبدو ذلك من الصفات التي حشرها السارد في هذا المقطع .

ان الصورة الأدبية أكثر الأشكال الأدبية أدبية وتعبيرا عن أيديولوجيا السارد المستقلة .

والصورة الأدبية في هذا المقطع السردي تجسم ، في تعددية وغنى وثراء دلالاتها الحافة التي نحاول مقاربة بعضها ، ما يلي :

١ - التناقضات التي تسم مجتمع الايديولوجيا السائدة .

٢ - الضوء الذي يمكن أن ينير ساحة فسيحة الأرجاء يوضع في مكان قد تنيره شمعة واحدة ، هذا على مستوى المشبه به . أما على مستوى المشبه :

٣ - أن منتجي الايديولوجيا السائدة يستفيدون في صمت من معرفة غيرهم استفادة ناقصة لأن الطاقة المستفاد منها ليست في محلها المناسب لها كي تكون الاستفادة أكثر .

٤ - لا أحد يتلقى مكافأة مادية تناسب مجهوده .

٥ - الضياع مصير كل مؤدلج .

وسئل بيومي يوما فأجاب مجليا معرفته وتخومها الدالة على معرفة تختص بسير الشخصيات الجاهزة في فردانيتها التي تنسجم مع فردانيته ، وباللغات كلغات الهدف منها هو الترجمة .

« ماذا تقرأ ؟

- **الأدب ، سير العظماء ، الانجليزية والفرنسية .**

- هل لك قدرة على الترجمة ؟

- **إني أمضي أوقات فراغي في مطالعة القواميس .**

(ص ٤٥) .

حتى الفلسفة تلونها الايديولوجيا الحربائية المعكوسة بلونها فتشجع فكرا وتهمل آخر ، وتعتني بفلسفة وتهمل أخرى مسخرة في ذلك كل قواها المادية والبشرية حتى ولو كان هذا الفكر خاصا بمفكر واحد ، وهذه الفلسفة خاصة بفيلسوف واحد . حتى الكتب السماوية تلحقها انتقائيتها . إنها تشوه في تقلبها الفلسفة النتشوية التي تمجد القوى الحقيقية لا القوى الضعيفة المستفيدة من القوى الحقيقية كي تجعل من ضعفها قوة ، وتستبدل عجزها إرادة وقوة موحدة ، ومتكتلة ، ومتضافرة ، ومتراصة ، وجماعية ، ونضالية . إن نيتشه لا يعتبر قوة ةلفرد قوة بل ضعفا الى أن تنضم وتتضامن مع قوى الجماعة . يقول السارد عن فردانية بيومي حامل لواء الايديولوجيا السيدة « انه يؤمن بأن الله خلق الانسان للقوة والمجد . الحياة قوة ، المحافظة عليها قوة ، الاستمرار فيها قوة ، فردوس الله لا يبلغ الا بالقوة والنضال » . (ص ٦٥ - ٦٦) . ان بيومي المؤدلج يؤمن إيمانا مزدوجا .

أ - ايمانا غيبيا .

ب - ايمانا أسطوريا .

فالايمان الاسطوري يتجلى في طموحه الى القوة والمجد الزائفين لأنهما فرديان ومستحيلان نظرا لهذه الفردية . فبيومي ليس في يده شيء كي يحافظ عليه سوى الخطاب الايديولوجي الذي ينظر الى الحياة والمجد ، والمحافظة والاستمرار من معيار القوة والضعف ، والايمان والكفر ، والفردوس والجحيم ، والنضال والانخذال الفردي أو الجماعي .

والايمان الغيبي ينسب الى الله الخلق من أجل القوة والمجد . وما الحياة سوى جسر الى الفردوس . وهذه وجهة نظر مؤدلجة أيضا ما دامت تدافع عما تدافع عنه الايديولوجيا السيدة من غيبيات وأساطير ، وما تشجعه من ذاتية وأنانية في الفرد المؤدلج الذي تغدو القوة في

واقع الأمر في تصوره أمرا سهلا مع أنه ضعيف في وحدته وعـزلتـه ، وتفـرده ، وأنـه يخضـع لقـوة الخـطاب الايديولـوجي المهيمن وسلطته . ان بيـومي تيولـوجي يمجد العالم الآخر . انه العالم الدائم في نظره . وأن هذا العالم خلق من أجل ذاك . أما في فلسفة نيتشه الجدلي فالعالم الآخر خلق من أجل هذا العالم . لا بديل لهذه الحياة . فإن كانت هنا حيـاة كانت هنـاك حياة . وإن وجد هنا جحيم وجد هناك جحيم .

الموت من أجل هذه الحياة حياة في هذه وفي تلك .

تتحقق الحياة بارادة القوة الجماعية .

ان الضعيف المنـدمـج في قـوة الجمـاعـة قـوي . والضعيف في عزلته مهما طلب القوة ضعيفا .

ان القوي اذا تخلت عنه الجماعة ضعيف .

حول ضعفك الى قوة تتحول القوى الى ضعف . في الجماعة يتحول ضعفك الى قوة .

ان السارد يدرك ، كميشال فوكـو ، خطورة سلطة الخطاب الايديـولوجي العقـلاني على حـرية الانسـان الشعورية الطبيعية ، والبيولوجية والسلوك الناتج عنها . إنها تجعل شخصيته معقدة ، ومضطربة ، وضعيفة الى حـد التفسخ والاستـلاب والـلاانسـانيـة . انها تخسـر انسانيتها الطبيعية واللاواعية والواقعية ، وتتعقد نفسيته وتنشـرخ ، وتتمزق ، وتفقـد التـوازن والانسجـام . وتجـردهـا هــذه السلطة القمعيـة من بعــد الحيـاة في تعدديتها ، وعذوبتها ، وجنونها ، وشغبها . وأي حياة يحياها السائر في ظلامية التأدلج ؟ هـل يجديـه البكاء والحسرة ؟ يرحب السارد أيضا ، من زاوية فوكـوية ، بالجنون كمرادف للحياة بكل ملذاتها دون أن تتجـاوز ملذات الآخر . فالجنون هو الذي يهب الحياة غرابتها وحقيقتها ، وجوهرها ، وجمالها ، التي يعجز العقل - في غياب اللاعقل - عن تحقيقها . والجنون هو الذي يدمر صروح ، الأحاديات والثنائيات وقلاعها .

الجنون هو الحرمان من الجنون .

يدل على ذلـك المأسـاة التي تستشعرهـا الشخصية الاشكـالية والتي تنبثق من التسـاؤلات التي جاءت في صيغة محكي ذاتي تطرح قضية تحديـدها بمصـطلحات نقدية أكثر دقة . إذا اعتمدنا الجهاز المفاهيمي لدوريت كـون قلنا انها صيغـة محكي ذاتي مجلوب لأن النـاقـدة حددت تمظهرها في صيغة « قال لنفسه » أو ما في معناها ولم تول الاهتمام هنا الا الى الشخصية التي ينقل عنها السارد خطابها الى القارىء . إنها قدمت الشخصية عن السارد دون أن تغفله . إنها تجاوزت البنيـوية الجنينيـة برصد علاقة السـارد بالشخصيـة ورصد مـواقفهما ولم تقتصر مثلها عـلى علائق الشخصيـات وحدهـا . وقد سجلت أيضا التنافر والتناغم بين السارد والشخصية .

وفي المقطع السردي الذي سنسوقه فلن تخدعنـا صيغة « قال لنفسه » التي يعرف بها المحكي الـذاتي المجلوب لأن السـارد لا يجلب عن الشخصيـة خـطابهـا بقـــدر ما يسوق خطابه الذي يعبر عن وجهة نظره هـو . إنها صيغة المحكي الذاتي المتنافر أو المونولوج التلقائي للسارد في مقابل المونولوج التلقائي للشخصية ، وهـو الذي لم تطلق عليه دوريت هذا المصطلح . « وقال لنفسه إنـه لا نجاة له الا بالجنون . الجنون وحده هو الذي يتسع للايمان والكفر ، للمجد والخزي ، للحب والخداع ، للصدق والكذب ، أما العقل فكيف يتحمل هذه الحياة الغريبة ؟ كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة رأسه في الوحل ؟ (ص ١٥٦) . وهـذا الجنـون ، في نسفه للثنائيات ، يشكل مع العقل وحـدة والعقلانيـة المؤدلجة أو الايديولوجيا المعقلنة هي التي تراه بلا عقل في جنونها اللاعقـلاني مع أنـه جنون عقـلاني . وكهيجلي متأخر ، يعتبر بيومي الوظيفة أساسا ودعامة في تشييـد صـرح الـدولـة المقـدس وهي لا تتميـز عن الآلـة ، والعمل ، والحياة ، والموت في تصوره المؤدلج : « ان

الدولة هي معبد الله . وبقدر اجتهادنا فيها تتقرر مكانتنا في الـدنيا والآخـرة » (ص ١٦٩) . إنّها الدولـة التي تجسد الفكرة المطلقة الله الموجود ـ في نظره ـ في السماء اللامرئية . إنها الفكرة المجردة من التناقض ، إنها تامة وكـاملة ولا تنتظر النقيض . إنها نهايـة الجدلية ونهاية الحياة . إنها الموت ما دامت الدولة تمثل روح الله عـلى الأرض ولا يمثلها الشعب المناضل .

ومن منظور لوكاشي ـ هيجلي أيضا فإن بعض أفراد الشعب هم الذين يجسدون روح الله وليست الدولة . فلنقرأ بإمعان دقيق وتأمل عميق هذا الحوار الذي يمكن اعتباره بنية دالة لأنه يعبر عن الصراع النموذجي الذي تـدور رحاه بـين أيديـولوجيتـين يمكن اعتبار الأولى ، حسب المنهج الجدلي ، أطروحة والثانية نقيضها القريب جدا والمرحلي لأن الثانية تبدو كامتداد للاولى ويشكلان معـا التركيب الـذي ينتـظر أو يسعى الى التحـول الى النقيض الجديد . فاعتبار الدولة من روح الله لا يختلف اختلافا جذريا عن اعتبار بعض أفراد الشعب من روح الله . والنقيض الجديد هو أن يكون عدد أفراد الشعب الذين يشخصون « روح الله » كبيرا وفي مستوى تحقيق التغيير والتحويل وتدمير ثنائية الروح والجسد المثالية . ان الاختـلاف اللوكاشي الهيجـلي اختلاف ضـروري ومـرحلي ولـو أن الهيجلية قـائمـة في كـلا الاعتبـارين ويدعمان معا الايديولوجيا المثالية السائدة . انهما يعيدان خطابها السلطوي المؤسـطر في رومانسيـة حالمـة تقلب الحقائق الى أن يقيض لها ماركس فيقيمها على حقيقتها فيتحول ، نتيجة لـذلك ، منـظور لوكـاش الى منظور لـوكـاشي ـ مـاركسي كنقيض جـذري للهيجليـة والهيجليين .

« الوظيفة حجر في بناء الدولة ، والدولة نفحة من روح الله مجسدة على الارض !

ورمقته بدهشة فأدرك أنها لا تدري مدى إيمانه ولا مضمونه .

قـالت : إنه لمعنى جـديـد بـالقيـاس الي ، ولكنني سـمعـت كثيـرا أن روح الـشـعـب مـن روح الله » (ص ١٤٧) .

والمـوقف اللوكاشي ـ المـاركسي هو مـوقف السارد الذي يؤمن ايمانـا راسخا في أن وعي الشعب الممكن والواقعي بظروفه المادية والفكريـة الواقعيـة هو الـذي سيقـوده ، من منـظور مـادي جـدلي ، الى تغييـرهـا بالتموقف منها .

الشخصية في علائقها بالشخصيات ـ الرجال :

ان السياسة لا تعد هما من هموم بيومي المؤدلج . انه لا يعتبرها علما بل لغوا وسفسطة وأوهاما ضائعة . إنه يتصور نفسه محايدا . والتأدلج أساس هذا التصور .

إن الحياد مظهر والانتماء كينونة .

إن الأدلجة تعتيم للوعي وتحجير للفكر .

إن التأدلج قد قولب بيومي . إن فكره فكر جليدي ، لاهوتي ، مثالي ، غير مادي وغير جدلي . في حديثه عن السياسيين يعيد الخطاب المؤدلج . لا رأي للشخصية المؤدلجة . فوجهة نظرها في مجال السياسة هي وجهة نظر ذلك الخطاب انـه تصور الخـطاب للسياسيـين وتصور بيـومي فرع من تصـور الخطاب . والسـارد في سـرده للخطاب المؤدلج المتفـرع عن الايديـولوجيـا السائـدة يتماهى تماهيا متناغما بالشخصيـة أو يتنافـر واياهـا كما يتضح ذلك من صيغ الخطاب الثلاث الآتية :

١ ـ بضمير الغائب .
٢ ـ بالمونولوج التلقائي .
٣ ـ بالمحكي الذاتي المجلوب .

وهي صيغ متباينة تجعل تماهي السارد بالشخصية في مستويين مختلفين :

أ ـ في الحكي بضمير الغائب وبالمونولوج الداخلي المجلوب يتم التناغم بين الشخصية والسارد .

ب ـ في الحكي بالمونولوج التلقائي الذي يتميز بالتساؤلات تستقل الشخصية بحديثها دون تدخل السارد رغم عدم وضع كلامها بين مزدوجتين . إنه الأسلوب الحر المباشر : « وفي أوقات الفراغ قربه اليه ، وأفضى اليه بخواطره حتى السياسة صارحة فيها برأيه وأهوائه . ولشدة حماس الرجل جفل عثمان من الأعراض عن اهتمامه أو معالنته بحياده البارد ازاءها (...) عجيب استغراق الرجل في هذه الشؤون ، وأعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها . ماذا يشدهم اليها ؟ أليست لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها ؟ ولكن قال لنفسه بازدراء غير قليل إنهم أناس لا يعرفون لأنفسهم هدفا محددا ، وايمانهم الديني ايمان سطحي ، ولم يفكروا بما فيه الكفاية في معنى الحياة ، ولا فيما خلقهم الله من أجله . وهكذا تتبدد أفكارهم وأعمارهم في لهو وسفسطة ، وتهدر قواهم الحقيقية بلا عمل ، تستغفلهم الأوهام ، ويمضي الزمان وهم لا يعملون » (ص ٢٥) . إذا كانت الشخصية المؤدلجة ذات الموقف الجليدي تعيد ببغاوية ساخرة الخطاب المؤدلج الساخر من السياسة والسياسيين تأسيسا على معايير الكفر والايمان ، والمعرفة والجهل ، والعمق والسطح في الايمان ، والتفكير وعدم التفكير ، والجد والعبث ، والقول والسفسطة ، والعمل والكسل ، والحقيقة والوهم ، فإن السارد ، على النقيض من ذلك ، يتموقف هادما أحكام القيمة ، وكل ثنائية . فما الحزب ، والاضراب ، والتموقف من الاحداث والايديولوجيا السائدة سوى مفاهيم وعي ممكن وواقعي .

الرواية فعل .

الرواية تموقف .

وفعله هذا في أنسنة الايديولوجيا السيدة فعل من يأخذ بلورة فيتتبع جميع تألقاتها اللانهائية فيسجل منها ما يراه كافيا لتوضيحها وإلقاء الاضواء على حقيقتها . انه يتتبع الشخصية الايديولوجيا السائدة في جميع مراحل حياتها الواقعية أو التي توهم بالواقع . « قال لنفسه ان الجنون منتشر أكثر مما تصور . الاهتمامات السياسية تثيره وتدهشه ، وهو يصر على عدم الاكتراث بها ، ويؤمن بأن للانسان طريقا واحدة ، وأن عليه أن يشقها وحيدا ومصمما بلا أحزاب ولا مظاهرات ، وأن الانسان الوحيد هو الخليق بالشعور بربه ، وبما يتطلبه في هذه الحياة ، وأن مجده يتحقق في تخبطه الواعي بين الخير والشر ، ومقاومته الموت حتى اللحظة الاخيرة . » (ص ٤٩) . إن بيومي يتهم ، في تأدلجه ، ذوي العقول المستقلة والأوعاء الحرة بالجنون كما اتهم بذلك الجماعات المشاغبة التي تخرج عن المعايير ، وتخرق الضوابط ، وتزيغ عن المقاييس وتنسف الثنائيات كلها . إن هذه الاحادية والثنائية في الرؤية الى العالم والذات في فردانية مؤدلجة هي التي اختزلت ركامه المعرفي وحصرته في نطاقها وفي دائرة الأنا فانطوت الذات على نفسها المؤدلجة . وهذه وجهة نظر السارد في الشخصية : « أجل انه منغمس دواما في الداخل ، في أفكار محدودة وخيالات تنفثها الغرائز ، في الله ومجده الدنيوي المقدس وصراع الخير والشر والفساد ، عدا ذلك فهو لا يرى من الدنيا شيئا » (ص ١٤٦) وتتمظهر ايديولوجيا السارد المستقلة نسبيا في أحكامه التقويمية على الشخصية . وترتكز هذه الأحكام على معايير الانغماس والانبثاق ، والداخل والخارج ، والأفكار المحدودة والتي لا تخوم لها ، والخيالات الغريزية والمجردة التأملية ، في الله والشيطان ، والمجد والخزي ، الدنيوي والأخروي ، والمقدس والمدنس ، والخير والشر في صراعهما وتصالحهما ، والفساد والصلاح ، والرؤية والعمى .

يمسك نجيب محفوظ في « حضرة المحترم » على واقع الوظيفة العمل في ظل الايديولوجيا القائمة ، وعلى واقع الفئة الاجتماعية المالكة لوسائل الإنتاج والمنتجة للخطاب الايديولوجي القائم . والفئة المستغلة (بالفتح) تعتقد أنها منعزلة لا تؤثر ولا تتأثر .

كل وجود مؤثر ومتأثر بوجود وعدم .

كل محايد يميني مؤدلج .

لا وجود للاستقلال .

العزلة ، التفرد ، الحياد ، أوهام .

ان الفرد يمسه النظام الاقتصادي المتوخي كما تمسه الايديولوجيا المبررة لهذا النظام أو ذاك ولو كان في مغارة أو تحت مياه البحر .

ان الهروب من السياسة سياسة .

اذا لم تكن سياسة مضادة فلقد كانت وما تزال سياسة قائمة .

إن السياسة ايديولوجيا والايديولوجيا سياسة .

« عرف الثورات ، ولكنه لم يعشها ولم يستجب لها . وقد رأى وسمع ولكنه انعزل وتعجب . لم يحظ بعاطفة عامة واحدة تشده الى الميدان (. . .) واليوم يعرف لنفسه هدفا دنيويا والهيا في آن واحد لا علاقة له في تصوره بالأحداث العجيبة التي تجري باسم السياسة » (ص ٢١ ـ ٢٢) . هذه وجهة نظر السارد في بيومي الواهم والذي « يعرف » بل يجهل أن غايته لها علاقة بالسياسة والايديولوجيا السائدة هي التي جعلته ينظر اليها من خلالها . وايديولوجيا السارد المستقلة والمختفية وراء هي المشاركة في النضال ، والوعي بالانتماء ، واختياره ، دون أن يفرض عليه ، بحرية ، والتموقف من الأحداث لانسانيته التي تهمها حقوق الجميع وحريته في ممارسة امكانياته ، ويذوب الانا في النحن . والنحن ليس المالك لوسائل الانتاج والمشتت للنحن العريض الذي نقصده الى أنوات متفرقة كأنا بيومي المنعزل في فردانيته التي تقتات من ذاته كقدرية : « الاعتماد على النفس خير من مهاجمة الجميع . الله يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد ، وشق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع » (ص ٧٨) . تتردد في هذا الخطاب المؤدلج الأقوال المبتذلة السائرة cliche,s : **الاعتماد على النفس ـ شق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع** ـ ووجهة نظر بيومي هذه تطفح بالثنائية بين الفرد والمجتمع واللاهوتية ، والفردانية : الله **يأمرنا كأفراد ويحاسبنا كأفراد** الشيء الذي يبعده مسافات ومسافات عن وجهة نظر السارد الجدلية . الشخصية تقول « نعم » للأيديولوجيا السائدة والسارد يقول لها « لا » . ومفهوم السياسة عند الشخصية المؤدلجة هو ما يحقق رغبتها الفردية العاجلة ، الجزئية ، والآنية ، والاصلاحية السطحية التي تشمل كل الميادين . وبيومي يريد أن يدرك بلا سياسة ما يدركه غيره لها كالمناصب العليا : « حفلة الاذاعة الأخيرة ، الأسعار ، صراع الأجيال (. . .) وما يدري الا وهم يتكلمون في السياسة ! صكت أذنيه مرة أخرى الصراعات المضطرمة برموزها الرنانة : الحرية .. الديمقراطية .. الشعب .. الجماهير الكادحة .. المذاهب الثورية .. التنبؤات الراسخة عن ثورات الغد ..

وقال لنفسه ان الفرد ينوء بآماله أفلا يكفيه ذلك ؟ ! ولكنهم يؤمنون بأن آمال الفرد رهن بأحلامهم الثورية ! حسن .. أي ثورة تضمن له الشفاء وانجاب الذرية وتحقيق كلمة الله في الدولة المقدسة ؟ ! » (ص ١٥٤) .

أيمكن لسياسة مؤدلجة أن تبحث عن سياسة ؟

ان بيومي يحكم على الصراعات السياسية وفقا لمعيار الاضطرام والخمود ، والرنة والهمس . ان الخطاب المؤدلج يشوه في حربائيته المقلوبة كل خطاب . انه

يستخدم أيضا لغة الخطاب الايديولوجي النقيض الصادر عن الأحزاب السياسية والمعارضة ليعبر بسهولة الى أذهان المثقفين ليتأدلجوا وليقبلوا ، وليتحملوا ثلاث كوارث دفعة واحدة فوق كارثة التأدلج : الزيادة في الاسعار ، الزيادة في ساعات العمل ، تجميد الأجور . انه يراهن عليهم لا على المؤدلجين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة والذين ، اعتمادا عليهم ، لا تستجيب الدولة لمطالب النقابات المعارضة . ويبدو أيضا تأدلج بيومي من تقييمه للصراعات السياسية تبعا لمعايير الأهمية والتفاهة ، والسعادة والشقاء ، والانسان والحيوان ، والأمل واليأس ، والحقيقة والحلم ، والقوة والضعف ، والجهل والمعرفة ، والوحدة والاختلاط . . **« قطيع تافه في مراعي التعاسة يعلقون الأمل على الاحلام لضعف نفوسهم وجهلهم بأن الوحدة عبادة . »** (ص ١٥٤) .

أنانية ! ما الأنانية ؟

كثيرا ما تمر بنا هذه البديهية ومع ذلك لا ندرك دلالاتها الحافة مثل الوحشية ، وارادة القوة الفردية ، والتسابق ، والتنافس ، والاجرام ، وارادة القتل نية أو فعلا .

النية تساوي الفعل . وحكم النية هو حكم الفعل . اذا نويت القتل فقد قتلت .

تعبر نية القتل عن ذاتها في الرواية في شكل مناجاة تلقائية بين النفس وذاتها لتأدلجها ، ولا يطلع عليها سوى السارد بحكم « الرؤية مع » التي تخول له التساوي ، والتطابق ، والتناغم مع الشخصية فضلا على تجربته الواسعة التي تسهل عليه التخيل ، والتصور ، والنفاذ الى نفسية الشخصية والتسلل الى وعيها لاستجلاء خفاياه . إن بيومي لأدلجته يتمنى - كي يحقق مطامحه المستحيلة - الموت لأخيه الموظف ليحل محله ، وكي يعتلي كرسيه لمصلحة شخصية تافهة هي الترقية أو خيالية « المدير العام » وهو منصب سياسي أو مسيس : « لم تكن لديه نية لزيارته ، ولا هو جاء لتوديعه بدافع حقيقي من عواطفه ولكن خوفا من أن يتهم بالجحود ، ولذلك كربه ضميره وورعه الديني . ومضى في طريقه لا يرى شيئا . ورغما عنه تركز تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد أيام . » (ص ٦٢) . ان هذا الوصف الدقيق لنفسية بيومي واحساساته وشعوره . وآماله ، ونواياه ، وسلوكه يكشف هواجس بيومي المؤدلجة والمؤسسة على معايير أخلاقية ، وسلوكية ، وعقلانية ، وذاتية فلمسها من خلال اللغة الموظفة في المقطع السردي ، نية وعدم نية الزيارة ، دافع حقيقي أو زائف ، والعاطفة والعقل ، الخوف أو الشجاعة ، الجحود أو الاعتراف حضور أو غياب الضمير والورع الديني .

ما الضمير ؟

بلغة يونج هو الأنا الجمعي . بلغتنا هو **الأنا المؤدلج** الذي يمارس الرقابة الشديدة على اللاوعي ، وهذه البنية النفسية والذهنية التي يظهرها هذا السلوك حددتها الايديولوجيا السائدة والوضعية الاقتصادية كما حددت رغبته الملطخة بالدم : **« ورغما عنه تركز تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد أيام »** . إذا كان بيومي يلهث وراء الدرجات فإن الغلاء يسبقه درجات . إذا كان يتمنى التقاعد والاحالة على المعاش لسعفان الذي يدل لقبه « بنسيوني » **Pensionne** على ذلك ، فإنه يتمنى لحمزة الذي ينبغي أن يتبعه كما يدل على ذلك لقبه « السويفي » **Suivie** أو **Suivant** من فعل **suivre**، الموت . والسارد يلمح بدل أن يصرح وتلك إحدى وظائف الأدب الكبرى : « أما في الوزارة فقد دار الحديث طويلا حول المريض ومرضه ، قيل إن ضغط الدم نذير خطير ولا علاج ، وقيل إنه ربما اضطر حمزة بك إلى التقاعد أو التنحي على الأقل عن مهامه

الرئيسية . سمع تلك الاقوال باهتمام فخفق قلبه بسرور خفي تلقاه بسخط وقلق كالعادة ، ولكنه هيج أحلامه ومطامحه » (ص ٦٩ ـ ٧٠) . وبعد فترة أصبح حمزة السويفي معافى ولكن عاودته أزمة ضغط دم جديدة فعادت الوساوس ذاتها لتنهش كالجوارح كبد عثمان بيومي فتمنى للمدير أكثر مما تمناه للوكيل الأول : « وتؤكد لديه أن الوكيل والمدير أصغر منه سنا ، وأن الدرجات لن تخلو إلا بمعجزة مجهولة أو بوفاة عاجلة ، أو بحادث يقع في الطريق » (ص : ١١٠) . ويأمل أن يصاب عبدالله وجدي بمرض الموت : « وجعل يقول لنفسه : عبدالله وجدي في حكم الشباب حقا ولكن عصر المعجزات قد عاد » .

ولكنه في الحقيقة لم يعتمد على المعجزة وحدها ! كان يرمق بدانة عبدالله وجدي باهتمام ويتابع ما يقال عن نهمه في الطعام والشراب بارتياح خفي ، ويردد فيما بينه وبين نفسه :

ـ ما أكثر الأمراض التي يتعرض لها أمثاله ! (ص : ١٢٩) .

ثم يقتل نية موظفا مثله وهو حمزة السويفي : « وهو يحفظ عن ظهر قلب أن للادارة وكيلين ولكن الوثبة لن تأتي إلا عن طريق حمزة السويفي ، بأن يرقى أو يحال على المعاش أو . . . يموت !! » (ص/ ٦٥) . والعبارة التي أكدناها « ثلاث نقط استثنافية » تومىء الى أخلاقيات بيومي و « يموت » دالة على طموحه الانساني المجرم .

بطل أو لا بطل ؟

إن البطل في الرواية ليس دائما هو الشخصية الرئيسية ، فالبطل في بعض الروايات شخصية ثانوية كرواية « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ . والبطولة درجات ، وأشكال تتغير بتغير الظروف والمواقف كمظاهر وتبقى البطولة هي هي وككينونة . في الوقت الذي يجعل فيه السارد بيومي في ظرف حرج كي يختار ، ويتخذ موقفا بطوليا ، ويتزوج ، ويحقق نصف حياته أو بعضا منها ، يحدث اللامتوقع إذ يفقد ، لتأدلجه ، الارادة ، والحزم ، والاقدام ، واتخاذ القرار ، والشجاعة ، فيضمحل الفعل البطولي ، ويتلاشى موضوع الرغبة ، وتكبت الرغبة . لو اعتمدنا منهج جريماس البنيوي الوظيفي العاملي لتبين لنا أن في « حضرة المحترم » ذاتا تحل الايديولوجيا السائدة فيها فتلعب دور المعاكس داخل الذات التي تغدو مزدوجة ، ويصبح الموضوع هو الجنس/ الزواج/ حب/ علاقة/ امرأة ، وهذا الموضوع ثنائي أيضا لانه يلعب دور الموضوع والمساعد في نفس الأن . أو تغدو الايديولوجيا السائدة هي الذات والموضوع في نفس الوقت ، ذاتا ترغب في ذاتها . وهنا ينعدم بيومي . في عجز بيو ـ مي يستحوذ على موضوع الرغبة بطل يغيب عنا أن نعتبره في عداد الأبطال أو أن نعترف له بالبطولة . هذا هو ما وقع فعلا لبيومي المؤدلج مع الجيل الجديد غير المؤدلج نسبيا مادام يحقق رغبته ، وإرادته بشجاعة متحديا الظروف ، ومرهصا بإيديولوجيا حرة جادة ، جاءه يوما حسين أفندي جميل وقد علم بعلاقته بأنسية رمضان :

« ـ الحق أنه لولاك لتقدمت لخطبتها .

(. . . . . . .)

ـ أنت شاب سيء الظن ، ماذا شاهدت ؟ ماذا شاهدت يامسكين ؟ ولكن هكذا هم المحبون ، طالما عاملتها كابنة من صلبي ، علاقة هي البراءة نفسها ، كم أخشى أن تكون قد أسأت إلى سمعتها بلسانك وأنت لا تدري ولا تقصد ! فقال الشاب ببراءة وحزن جليل :

ـ إني أعرف متى وكيف أكتم أحزاني وأحافظ على سمعة من أحبهم ! فقال وهو يتنهد :

أحسنت . . أحسنت . .

ثم موجة من الأسى تجتاحه :
سلكت سلوكا خليقا بالرجال . .
من شدة رد الفعل ، والشعور غير المتوقع بالنجاة اضطربت معدته فغزاه إحساس بالغثيان ، قال :
مثلك يستحق أن يسعد بمن يحب » . (ص : ١٠٣) .

ويبدو التأدلج في اللغة الأخلاقية : **أسأت الى سمعتها** ، أو في التمييز بين المرأة والرجل : **سلكت سلوكا خليقا بالرجال** . فشخصية حسين جميل غير مزدوجة ولا معاكس يعترض سبيله . لا يعتبر بيومي معاكسا مادامت رغبته في التخلص من الفتاة .

التراتبية :

تعني التراتبية أن الموظفين/ العمال ، وأرباب الوظائف والمعامل وأن العمل مفتت ويستتبع تفتيت العمال ، الموظفين وغيرهم الى مستويات ، ودرجات ، وسلالم ، ومراتب ، ومناصب ، ومكاتب ، وكراسي ، وألقاب تحدد لكل فرد مستواه في عمله/ وظيفته أو مهنته أو حرفته لخلق التنافس والتناحر لجلب اليد العاملة وإغرائها . وهذا التقسيم التراتبي تواكبه اللغة المؤدلجة التي ترتكز على الثنائيات . وتخضع التصنيفية للتراتبية في جميع مرافق الحياة . فمنذ عنوان « حضرة المحترم » ندرك أن اللقب الذي يحمله عنوان الرواية دال على أن الناس مصنفون وفق تراتبية إلى محترمين وغير محترمين حسب معيار « كبار » و « صغار » : « ما عجب اقتتال رجال الدولة الكبار واتباعهم » (ص : ٢١) وتشير هذه العبارة الى غياب النساء في الدولة . إنها دولة رجال لا دولة نساء ورجال . وتتجلى التراتبية أيضا في أن هناك رؤساء وأتباعا ولا سيما في اللغة/ الألقاب ، والشهادات ، والمستويات المعرفية التي يمكن أن تزول بزوال الدولة : « كان سعفان بسيوني رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسمي بإعجاب وحذر . أعجب بجلده وحسن تصرفه وخلقه ، ولم يرتح من بادىء الأمر إلى البكالوريا التي تميز بها وحده في المحفوظات ، ولا إلى طموحه إلى المزيد من التعلم الذي سيرفعه درجات جديدة من الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة « الابتدائية » (ص : ٢٥) . إن اللغة هنا تعبير عن طقوس أخلاقية يتغير فيها الخطاب حسب تغير المتحاورين الذين يخضعون لمعايير تعود إلى الرئيس والمرؤوس ، والنشاط والخمول ، والرسمي والمؤقت ، والاعجاب ، والانكار ، والاستقرار والحذر ، والصبر والتمرد ، والحسن والقبح من التصرف والخلق ، والبكالوريا والابتدائية ، والتساوي والتميز ، والمزيد والاكتفاء بالتعلم ، والارتفاع والانخفاض ، والدرجات القديمة أو الجديدة ، واليتم والاسرة .

وهذه رسالة إبلاغية أو طلب يبعث إلى من « **فوق** » بيومي حسب تراتبية السلم الاداري المجسد لتقسيم العمل/ الاقتصاد/ الأجرة وينم عن قواعد إدارية صارمة مؤدلجة (بالكسر) تتحكم في رقاب الناس ، وتفرض عليهم الاذعان لها صاغرين على مستوى الكتابة : « حضرة صاحب السعادة المدير العام . أتشرف بإبلاغ سعادتكم (. . . . .) مستلهما الهمة من عبقرية سعادتكم ، في ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه (. . . . .)

وتفضلوا ياصاحب السعادة بقبول فائق الاحترام

عثمان بيومي

« **كاتب الوارد بالمحفوظات** » (ص : ٤١)

وبيومي كما يدل عليه لقبه الاداري المؤدلج كاتب الوارد في المحفوظات » يخضع لمعايير الاحترام الأخلاقية كما تبدو في لغة الرسالة المؤدلجة : **حضرة - صاحب السعادة - المدير العام - أتشرف - « كم » - عبقرية ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه - « واو الجماعة » - فائق الاحترام** . وتصدر عن معايير الحضرة

والغيبة ، وأصحاب السعادة أو الشقاء ، المدير العام والخاص ، حصول الشرف وعدم حصوله ، كم وكم ، العبقرية والبلادة ، الظل والنور ، السيد والعبد ، الملك والفقير ، التعظيم والتحقير الحفظ والضياع ، دوام الملك أو انقضائه ، ضمير الفرد أو الجماعة ، الاحترام ، والاحتقار ، الفائق أو السافل ، يقول السارد في خطاب آخر يؤكد التراتبية : « وسيدور خطابه الموجه إلى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوقه على الملأ ، فهو يعرض أولا على رئيسه المباشر سعفان بسيوني ليوقع عليه بالعرض على صاحب العزة مدير الادارة حمزة السويفي (. . . . .) وبعد ذلك يعرض على حمزة السويفي ليوقع بعرضه على حضرة صاحب السعادة المدير العام (. . . . .) ثم يوقع عليه بالتحويل إلى المستخدمين لاجراء اللازم (ص : ٤١ ، ٤٢) إذا كانت الابتدائية تقابل البكالوريا ، فإن البكالوريا تقابل أيضا التجارة المتوسطة ـ جميعهم من حملة البكالوريا !

فأجاب حمزة السويفي :

ـ بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة .

ـ العالم يتقدم ، كل شيء يتغير . ها هي البكالوريا تحل محل الابتدائية . (ص : ٦) .

حتى الاطفال يصنفون حسب تراتبية تتناول قدراتهم العقلية التي لم يختاروها وإنما صنفوا وفقها كما صنفت المدارس :

« ـ الولد ذكي وربما رأيته يوما من رجال الحكومة .

ـ عليك بمدارس الأوقاف فربما قبل بالمجان » (ص : ١٣) .

والأمهات المؤدلجات يقبلن هذا التصنيف وينسبنه للاله ويغدو طموحهن مرتبا :

« وضاعفت الأم من نشاطها مؤملة أن يجعل الله من ابنها كبيرا من الأكابر . أليس الله بقادر على كل شيء ؟! » (ص : ١٤) .

والمجتمع المؤدلج مقسم وفق التراتبية الى ذي شأن ومنحط الشأن : « مساعدة أدبية تقدم لذي شأن » (ص : ١٥) ، إنه مجتمع يميز بين التلميذ والموظف بالشارب :

« ـ تلميذ ؟! . . ولماذا تربي شاربك ؟

ـ موظف وتلميذ في مدرسة ليلية » (ص : ٣٩) .

ويتموضع بيومي بين الاغنياء والفقراء ، بين الممتازين والمنحطين ، بين الكبار والصغار ، بين الأحزاب الموالية والمعارضة ، بين الجاد والهازل ، بين المتمتع والقواد ، بين الدولة والشعب ، بين السعادة والتعاسة ، بين السماء والأرض ، بين المسلح والأعزل ، بين المترقب والغافل ، بين الحكمة والجهل ، بين الراغب والزاهد في الشيء ، بين العامل والخامل ، بين المؤمن والملحد ، بين السقوط والارتفاع ، بين الأسرة الكبيرة والصغيرة ، بين المساندة والمعاكسة ، بين قوة والضعف الحزبي :

« إنه لا يملك سحر المال ، ولا يتمتع بامتيازات الأسرة الكبيرة ، ولا قوة حزبية تسنده . وليس من الذين يرتضون أن يلعبوا دور البهلوان أو العبد ، أو القواد ، إنه واحد من أبناء الشعب التعيس الذي عليه أن يتزود بكل سلاح ، ويتحين كل فرصة ، ويتوكل على الله ، ويستلهم حكمته الأبدية التي قضت على الانسان بالسقوط في الأرض ليرتفع بعرقه ودمه مرة أخرى الى السماء » . (ص : ٤٢) ، بين الذين يعتمدون على أنفسهم وبين أصحاب الوساطات « لأهل الوساطات » (ص : ٤٣) . وهذه تراتبية الحكومة والسياسة التي تمر منها الميزانية كعمل خطير في مقابل عمل تافه : « والميزانية عمل خطير يتصل بالمدير العام ووكيل الوزارة ، ومجلس الوزراء والبرلمان والصحافة » ،

(ص : ٤٣) . وإذا أراد بيومي تغيير الوظيفة فإنه يخضع لمعاييرها التقنية بين الوظيفة ذات المرتب الثابت والراتب المتحرك ، والاطار العام والخاص : « ولكنها وظيفة ذات مرتب ثابت وسوف تخرج بها من الكادر العام فهل فكرت في ذلك ؟ » (ص : ٥٠) . وتقسيم الراتب تابع لتقسيم العمل وقد يشغل الفرد عدة وظائف براتب واحد وذلك لاستغلال الطاقات والحد من التوظيف . وتخضع الترقية لتقسيم الزمن : « **تقررت ترقيتك إلى الدرجة السادسة بمرتب قدره خمسة وعشرون جنيها** . ورغم تضحيته بعشرة جنيهات إلا أنه **فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سنوات وسنوات** ، فضلا عن **الأهمية** التي اختص بها بعمله المزدوج » (ص : ٥١) . والأمل ينقسم إلى منشود وغير مرغوب فيه ، والأول والأخير والناس الى عاديين وأفذاذ ، والمجد واللامجد ، العظيم والمتبذل : « هي أملهم المنشود والأخير وبخاصة الافذاذ منهم الذين يعدون أنفسهم لذلك المجد العظيم » (ص : ٥٢) . إن التراتبية تشمل حتى الوكلاء والمديرين : « في طريقه يوجد وكيل **إدارة ثالثة ووكيل إدارة آخر ثانية ومدير إدارة أولى** » (ص : ٨٢) . وينظر اليهم بيومي بنظرة مؤدلجة ومن منظور ينطلق من معيار الصداقة والعداوة ، والطهر والدنس ، والليونة والقساوة : « جميعهم أصدقاء - أعداء لما تقتضي به إرادة الحياة الظاهرة القاسية » (ص : ٨٢) ، والمحسوبية مبنية على تراتبية أخرى ترجع إلى قاعدة الانتماء إلى الاسرة وعدم الانتماء ، والقرابة والغرابة : « إنه كما تعلم من أقرباء الوكيل » (ص : ١١٠) ، « - لا . . لا ، إنه قريب الوزير ! » (ص : ١١٦) . وتحدد التراتبية سلوك بيومي إزاء الأخرين : « وجلس في الادارة كوكيل ثان ولكنه شعر باستعلاء على من حوله ، وبأنه أهل للثقة الأولى ، وبأنه الحجة في الادارة واللوائح والميزانية فضلا عن دراسة القانون والاقتصاد وثقافته العامة وتفوقه الراسخ في اللغات » (ص : ١١٠) . إنه ينظر إليهم من زاوية الثقة وعدمها ، الأولى والأخيرة ، والحجة وعدمها ، معرفة أو جهل القانون والاقتصاد ، والثقافة العامة والخاصة ، والتفوق (أو عدمه) الراسخ أو المتذبذب في اللغات . إن التراتبية كمعيار لا ، تراعي الشهادة والكفاءة فحسب للوصول إلى الوظيفة الحساسة بل أيضا المكانة الاجتماعية حسب الايديولوجيا الاخلاقية : « - لا تراعى الشهادة والكفاءة وحدها عن الاختيار لها ولكن يضاف إليها المكانة الاجتماعية » (ص : ١٦٨) .

هذا أو أكثر هو ما يحدث في مجتمع مؤدلج حيث تسود المحسوبية والوصولية والميز بين الناس الذين يتفقون في المساهمة في الاقتصاد بالعمل ، ويتساوون في الحاجيات ، ويختلفون في الحقوق والواجبات ، كما يشيع فيه وجود أحزاب مؤدلجة استغلالية : « - أعرف ما يقال ، ولا أنكره ، الوساطة . . القرابة . . الحزبية كل أولئك وما هو أشنع ، ولكن الكفاءة قيمة لا يمكن تجاهلها كذلك ، حتى أصحاب المراكز من غير ذوي الكفاءة يجدون أنفسهم في حاجة إلى من يغطي عجزهم من الاكفاء الحقيقيين » (ص : ١٣٦) . وترقى بيومي ، وهو في فراش الموت ، إلى مدير عام ، حلمه المقدس حيث يتجسد روح الله - في نظره - تبعا للرؤية المثالية المؤدلجة الخاضعة للتراتبية السائدة والمفرقة الناس إلى بشر وغير بشر إلى حد أنه تخيل أنه في نفس مرتبة الفرد/ الاله وأنه يمارس السلطة . إنه يتقمص الشخصية الأخرى . إنه حرباء . إنه مظهر كينونة . إنه طيف وجود بل عدم وجود . يعد نفسه من أصحاب القوة ، وأصحاب السعادة الفائزين ، مالكي الحجرة الزرقاء/ السماء/ الاله/ المثل العليا ، وبيده الحل والعقد ، وأنه من « أولي الأمر » ، وأنه نبي في مقابل البشر العاديين الذين لا يملكون حجرة في لون التراب ،

والمنفذين للأوامر ، المطيعين الأشقياء ، والضعفاء ، الفاشلين ، الملتصقين بالارض وفق التراتبية والميز والتفرقة بين الناس : « تذوق في هدوء نجاحه . إنه صاحب السعادة ، مالك الحجرة الزرقاء ، مرجع الفتاوي والأوامر الادارية ، ملهم التوجيهات الرشيدة للادارة الحكيمة وقضاء مصالح العباد ، وعبد من عباد الله القادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (. . . . .) وقال لنفسه :

ـ ستتم نعمتك علي يا ربي يوم تمكنني من القيام بممارسة السلطان وإعلاء شأنك في الأرض » ! (ص : ١٥٧) . لقد توحد بيومي بالاله ، والسلطان ، والنبي والملك ، وأولي الأمر . لم يفارقه تأدلجه . إذا كان منذ بداية الرواية يسعى إلى القوة والحكم ، والسلطة تقليدا للاله/ الفرد فإنه الان هو الاله الفرد أو الفرد/ الاله . ولن نعيد الحديث عن قدراته وإمكاناته المعرفية والتقنية . ماذا صنعت به الايديولوجيا السائدة ؟ متنبيا أو نبيا ؟

بيومي وعلاقاته بالشخصيات/ النساء :

إن الانسان امرأة أو رجلا يصنف ترتبيا بالدرجات ، والاقسام ، والألقاب ، والسلالم ، والمؤهلات :

« ـ أهلا بك من أي قسم ؟

ـ المستخدمين .

ـ عظيم ، وما مؤهلاتك ؟

ـ ليسانس آداب قسم التاريخ » (ص : ١٣٤) .

وبيومي يميز هو ذاته بين حارة وحارة : وحي وحي ، وأسرة وأخرى من زاوية الفقر والغنى ، بين العامة والأعيان ، بين كبار الموظفين وصغارهم بين أصحاب السلطة ومن لا سلطة لهم :

« ـ ابعدي فكرك عن حارتنا ، عن حينا كله .

(. . . . .)

ـ أريد عروسا من أسرة كريمة .

(. . . . .)

ـ عندك المعلم حسونة صاحب المطحن البلدي .

فقاطعها بنفاذ صبر :

ـ لا تفكري في حينا ، عليك بالاسر الكريمة . .

تقصد . . . ؟

ـ الأعيان . كبار الموظفين . . أصحاب السلطة » (ص : ٦٧ ـ ٦٨) .

إن بيومي يبحث عن المرأة/ الشيء لا المرأة الانسان ، المرأة « المناسبة » تحت معيار المناسب وغير المناسب . والسارد يصدر عن أيديولوجيا رافضة للايديولوجيا البراجماتية . والدليل على ذلك وضعه كلمة ـ مناسبة ـ بين مزدوجتين دلالة على رفضه الطبقية والميز والتفرقة والتصنيفية وفق تراتبية مصطنعة ، وتشييء المرأة/ الانسان ذلك أن « تفكير » بيومي يخضع لمعيار الصعود والنزول ، من الطبقة القديمة الى الطبقة الجديدة ، والثبات والتحول ، والتخلف والتقدم ، والوضاعة والشرف ، والفشل والنجاح : « وثمة خيبة أخرى عاناها في تردده على بيت المدير ، فقد حلم بأن يجد هناك عروسا « مناسبة » ومن يعلم ؟ وحلم أيضا بأن خدماته قد تشفع له عند حمزة بك السويفي فيغضي عن وضاعة أصله ، ويقبله في طبقة جديدة تمهد السبيل الى التقدم » (ص : ٥٣) .

إن اللابطولة وليدة التأدلج وتبدو في هروب بيومي من السياسة هروبا رومانسيا ويعتبرها ثرثرة في حين تعتبرها بطلة شابة ذات إيديولوجيا نقيض حياة :

ـ « لا تحدثيني عن الصراعات السياسية . .

ـ ولكنها الحياة الحقيقية .

ـ ما هي إلا صخب زائف .

ـ الدنيا من حولنا . . .

فقاطعها بنفاذ صبر :

الدنيا الحقيقية في أعماق القلب » (ص : ١٤٧) .
وذات يوم استضاف سعفان بسيوني وقدم له ابنته بطريقة غير مباشرة وهو سلوك جعل الصراحة منعدمة لغلبة الايديولوجيا الأخلاقية على العلاقات الاجتماعية . وعندما شرع السارد في وصف الفتاة وبيومي والأب من زاوية « الرؤية مع » تجلت الايديولوجيا المفرقة بين الناس والاجناس في أحكام القيمة التي ينعت بها الناس بعضهم بعضا . إن المؤدلج ينظر إلى المرأة من معيار الصورة والشكل ، ومعيار الجمال والقبح كما تفعل به المرأة المؤدلجة ، وكما يفعل الانسان بأخيه . يقول الراوي : « وظهر في مدخل الشرفة شبح . فتاة تحمل صينية تفوح منها رائحة الشاي المنعنع . انعكس الضوء القابع وراءها ، وجه مستدير ، لونه قمحي ، وثمة ملاحة ملحوظة مغلقة بغموض وأشواق يساوره قلق . وهو يميل قليلا ليتناول قدح الشاي رأى عن قرب ساعدها السوية البضة وكأنها هي التي تفث رائحة النعناع . وقفت دقيقة أو أقل ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتسامة كادت تفلت منها حياء وارتباكا . وساد صمت كأنه الشعور بالاثم ، وتشبع الجو بروح المؤامرة ، وتضاعف قلقه . قال سعفان : ابنتي . .

هز رأسه إعرابا عن الاحترام :

ـ حصلت على الابتدائية قبل أن تنقطع عن المدرسة .

ـ واصل هز رأسه في تقدير وأعجاب ، ترامت إليهما أصوات الجوقة وهي تغني التوشيح . ومضى سعفان قائلا :

ـ البيت هو المدرسة الحقيقية للبنت . .

ولكنه تذكر جهاد أمه الكادح في حياتها المريرة » (ص : ٢٨) .

فالأوصاف النابعة من معيار الجمال والقبح ، وأشكالها ، وألوانها ، وأذواقها ، وأصواتها ، وموادها تبرز في هذه اللغة : **انعكس الضوء الصاعد من الفرح على وجهها فوضحت بعض معالمه ـ وجه مستدير ـ لونه قمحي ـ ملاحة ملحوظة مغلقة بغموض وأشواق ـ ساعدها السوية البضة ـ كأنها هي التي تنفث رائحة النعناع** ـ وتعاني المرأة من هذه الأحكام التقويمية أكثر من الرجل الشيء الذي يدفعها الى اقتنائها ضروب التجميل . ومصير تلك المرأة هو البيت/ الظلام الحسي والمعنوي انطلاقا من معايير أخلاقية بالية في المجتمع الأبوي المؤدلج القامع والكابت الذي يشيء المرأة ويسلعها فتتصنم في الزمان والمكان ، وتحنط ، وتحرم حتى من الحركة والابتسامة التي تحتضر على شفتي بنت سعفان ، وهي أدنى حركة تولد مع الانسان ، وتتاح للرجل دون المرأة كالنظر كما يبدو ذلك في هذه الوحدة السردية : **وقفت دقيقة ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتسامة كادت تفلت منها حياء وارتباكا** ـ ثم قول الراوي : وساد صمت كأنه الشعور بالاثم ـ قال « كأن » هذه لا وظيفة لها هنا لانه فعلا يوجد الشعور بالاثم الذي يحسه كل رجل دين مؤدلج في كل العصور . وهنا في المقطع السردي فالشخصيات المؤدلجة كبيومي ، وسعفان بسيوني والبنت ، هي التي أحست بالاثم حينما خرقت المعايير الاخلاقية ، والمواضعات الاجتماعية انصياعا للطبيعة البشرية ، تعاودهم العقلانية ويستبد بهم الشعور بالذنب ، والحسرة ، والندم على « ما اجترحوه » . ان عثمان بيومي كان ينظر ويعيد النظر إلى الفتاة فندم على ما ظفر منه . إنها جريمة جحيمية . وسعفان الذي يسعفه ويساعده في الزواج لم يطرح هذه القضية على بيومي قبل استضافته ، ولم يصارحه برغبته في تزويجه فتاته . ولكن معيار الكرامة والدناءة الأخلاقي الذي يميز بين الفاضل والقواد (القواد في مجتمع بيومي المؤدلج مدان كالعاهرة لجهل أو تجاهل ظروفها

الاقتصادية والاجتماعية والنفسية) ألجمه عن ذلك « حفاظا على سمعته » ولكن الفتاة في حاجة إلى عريس ففضل « أن يعرض سلعته » في تكتم وصمت ربما كان لها تأثير ما على الزبون في سوق الكساد : البيت هو المدرسة ، فأحس أنه تآمر على بيومي فاعتراه الشعور بالذنب .

يشيء بيومي سيدة : « انها الجوهرة الوحيدة في حياتي » (ص : ٣٧) ، وتشيئه هي أيضا . ما كان ينبغي لها أن تتنازل عن حبها لها وتهجره لمجرد إدراكها رغبته عن الزواج رغبة في « الهدف السامي » يقص عنها الراوي قائلا : « ولكنها لاتاتي ولن تاتي . قطعته ولعلها نسيته . وإذا خطر ببا لها لعنته بما يستحق . ويوما مر تحت نافذتها في العصاري فخيل إليه أن رأسها لاح لحظة وراء القلة المعرضة للهواء لتتبرد ، ولكنها لم تكن هناك أو لعلها تراجعت باشمئزاز وعجلة (. . .) وصادفها صباح الجمعة في الخيمة بصحبة أمها . تلاقت عينا هما لحظة ثم حولتهما عنه في غير مبالاة . لم تلتفك وراءها . تجلى له معنى من معاني الموت إ (ص: ٣١) . هذا السلوك الصادر عن سيدة يدل على أنما أرادت أن تمتلكه كشيء . ولشعورها با لضعف وأرادة القوة رغبت في أن يكون عثمان / الرجل / القوة / السلطة / المال بجانبها و عثمان في إرادة القوة الفردية يهرب أيضا من الضعف / المرأة / الفقر رغبة في صاحب السعادة / مدير عام / قوة / سلطة / مال / اله . كانت سيدة لاتعده من الرجال ولا تعد نفسها من النساء انطلاقا من معيار الزواج التي يكون بها الرجل رجلا والمرإة إمرأة ، والطلاق أو عدم الزواج الذي يقلب كل شيء الى ضده . ولكن ماذا قدمت له سيدة من مساعدة ؟ هل جعلته يعي وضعه ؟ إنما لاتستطيع ذلك مادامت مؤدلجة مثله . والا يديولوجياالسيدة تكرس هذه الثنائيات . أيدل اسم « سيدة » على شيء من ذلك ؟ فكل منها يشكل مرآة تنعكسا عليها صورة الآخر . ومن معيار الممنوع والمباح ، والجمال والقبح ، والصغر والكبر في السن يحكم على المرأة : « ووثقت الايام علاقته بفتاة تماثله في السن تسمى نفسها قدرية ، جذبته بسمرة غامقة ـ مثل سيدة ـ ولكنها أعمق في زنجيتها وبدانتها ولم تكن مغرقة في البدانة » (ص : ٣٨) وقدرية هي قدر بيومي الذي يؤمن با لقدر : « سمع الهمهمة مرة أخرى ، و سمع صوت القدر » (ص ٦) . ولكن لماذا ينظر الى لون الانسان . أهو الميز العنصري ؟ إنه يقوم قدرية اعتمادا على معايير عقلانية . إن أفكاره المؤدلجة تقف حاجزا بينه وبين إدراك أن كليهما في حاجة الى الأخر أو يدركه ولكنها تصده بصورة أو باخرى عن ممارسة حاجته الطبيعية : « قال لنفسه أنها مجنونة بلا شك ، ولذلك فهي بغي . ولكنها كانت الترفيه الوحيد في حياته الشاقة ، ووهبته عزاء لا بأس به (ص : ٤٨) . وتستند عقلانيته الى معايير العقل والجنون ، والزوج والبغي ، والعذاب والترفيه ، والقلق والعزاء ، ـ **أنها مجنونة ـ فهي بغي ـ كانت الترفيه الوحيد ـ وهبته عزاء لاباس به** ـ وبما أن الجنس محرم كباقي الحقوق فإن بيومي يزور قدرية ليلا خشية الرقباء ولا رقباء أحيانا سوى الا يديولوجيا الاخلاقية : **ذو دين وخلق ـ المحافظة على السمعة الطيبة** وهي في صيغة القول السائر cliche ¾ولكن قدرية من هذه النا حية بطلة . أنها لاتخشى أي شيء . أنها غير مؤدلجة نسبيا لعدم نفاذ الخطاب المؤدلج الى فكرها . أنها تجسد الطبيعة في بدائيتها ونقائها . أنها تعيش من جسدها ، وتحقق الاشباع الجنسي للآخرين ولنفسها مع من تحب . تلك مهنتها التي تستحق الاكبار في عالم المصادفة . ولاجل ذلك فهي ثائرة بشكل عفوي على المعايير الاخلاقية في عالم لا أخلاقي في الحقيقة والواقع . إنه عالم منحط ومتدهور في الكينونة والجوهر . وعثمان بيومي الذي

يغلب عنده زمن العمل على زمن الراحة عاجز عن ممارسة الجنس/ الزواج أضف الى ذلك أجرته الضئيلة والتي لا تسمح بالانفاق على قدرية راحته الوحيدة في أقصر أوقاتها ولذلك يؤجل رغبته/ راحته/ حياته/ متعته الى آخر الشهر ، ويكبت نفسه كما يبدو ذلك في تعبير السارد الذي يصيبه أحيانا رذاذ الايديولوجيا السيدة فيسكت عن ذكر الجنس ويكني عنه بكلمات أخرى فيواريه . قدرية لا تعد الجنس جريمة ، ولكن السارد يسيطر على هذه الشخصية فلا يدعها تعبر بحرية وجنون عن الجنس كي تكسر قيود التأدلج الأخلاقي ، وكي تكتمل صورتها وتبلغ حدا من الانسجام بين أفعالها وأقوالها التي أوجزها السارد بصرامة منطقة وعقلانيته المفرطة ، إنها شخصية قد اطفأ الراوي وهجها فجرد النص الروائي من متعته ، ولذته وإقناعة . لا يكفي ما ذكره عن تمردها ، وثورتها ، وماضيها النضالي : لقد شاركت في مظاهرة وطنية ضد الانجليز . إنها جديرة بعناية السارد وتستحق التكريم منه قبل المجتمع . إذا لم ينصفها المجتمع فالسارد أحق بـإنصافها . ينبغي أن تأخذ بطولتها كل أبعادها النفسية . إنها قمينة بأن تجري عليها الدولة راتبا شهريا وأن يضرب لها تمثال في شارع كبير . إنها غير مسئولة عن جهلها وتمسكها ببعض الخرافات .

يتهم بالجنون ، والسحر ، والشغب ، كل بطل استشعر عن وعي أو لا وعي ضرورة ممارسة حريته ، ويلقب بالشيطان .

لنقرأ هذا الحوار الدال الذي يمتزج بالمونولوج الداخلي التلقائي .

ألا تحب أن نمضي صباح الجمعة معا في نزهة ؟

فدهش وقال :

ـ إني أجيئك كاللص متخفيا في الظلام . .

ـ مم تخاف ؟

ماذا تقول ؟ إنما لاتفهم شيئا . وقال معتذرا :

ـ لايجوز أن يراني أحد . .

ـ هل ترتكب جريمة ؟

ـ الناس .

ـ أنت الثور الذي يحمل الارض على قرنه . .

إنه ذو دين وخلق وسمعة طيبة يجب المحافظة عليها .

وقالت له بإغراء :

ـ ممكن أن تحتكرني ليلة كاملة ، يمكن الاتفاق على ذلك . .

فساءلها بحذر :

ـ والثمن ؟

ـ خمسون قرشا . .

وفكر باهتمام . سيهبه ذلك راحة حقيقية ولكن الثمن فادح . إنه في حاجة الى الراحة . قال :

ـ فكرة طيبة ولتكن مرة في الشهر . . .

ـ هل تكتفي بمرة واحدة في الشهر . . .

ـ ربما أجيء غيرها ولكن بالطريقة العادية . .

(. . .) وهي تعيش بلا حب ولا مجد ، وكأنها تؤاخي الشيطان في غضبها . وكم غاظه أن تعترف له مرة بأنها اشتركت في مظاهرة فحتف محتمدا . .

ـ مظاهرة ؟

ـ مالك ! نعم مظاهرة . . حتى هذا الدرب أحب الوطن يوما . .

قال إن الجنون منتشر أكثر مما تصوّر (ص ٤٨ ـ ٤٩)

إنه يحكم على قدرية من معيار الفهم وعدم الفهم . وتحكم عليه بمعيار الانسان والثور . إنها تعرض ذاتها للاحتكار (مصطلح اقتصادي رأسمالي ليبيرا لي تجاري) كسلعة لها ثمن : خمسون قرشا . لن يشبع رغبته الجنسية سوى مرة في الشهر نظرا لارتفاع السعر . ويقيمها وفق معا يير الحب والكرا هية : والمجد والخزي ، والله والشيطان ، المقاومة والاستسلام ،

والعقل والجنون ، حتى الزواج ينظر اليه بيومي من أخلاقية : الزواج نصف الدين ويفاضل بينهُ وبين المنشود ، أو من منظار الاقوال السائرة : إنجاب الذرية . إن الرؤية الى العالم ميتفزيقية .

إنه يشيىء المرأة ويتخذ سلما يرقى به الى ما يصبو اليه من منظار يرا جماتي نفعي طوباوي : « ومتى يكمل نصف دينه ؟ قبل بلوغ الامل أم بعده ؟ يجب أن يكون أسرة وينجب ذرية وإلا حقت عليه اللعنة . فأما العروس التي ترفع الى العلا الذي يحظى بالعروس الباهر » ص : ٥٣) . لن تحظى المرأة بالعلا بالقدر العلا بها . وليس بيومي هو الذي سيحظى بالعروس أو تحظى هي به . وهكذا يعدم بيومي حظين في سبيل المستحيل الذي لا وجود له سوى في الخطاب الايديولوجي السراب .

مفهوم المرأة عند المؤدلج أنها وسيلة إلى غاية .

« ولكن اي فائدة كان يرجوها من الزواج من كريمته ؟ لاشيء إلا الذرية والمتاعب والفقر ، ولا حب أيضا »)ص : ٥٣) . المرأة ليست إنسانا في نظره بل « سقالة » للصعود : « ولكن الناظرة زوجة صالحة ربما على حين يريد » « مصعدا » « فما العمل ؟ »)ص ٧٥ :) . وشيأ كذلك السكرتيرة واعتبرها شيئا يقيه من النار التي تلفحه ألسنتها كل يوم منذ أن اشتعل :

« ـ لعنة الله على اختيار مدير المستخدمين الموفق . وقال لنفسه أيضا : ـ إني في حاجة الى مظلة في هذا الجحيم » (ص ١٣٤ / ١٣٥) .

إن وضع بيومي وضع مأساوي إشكالي : فهو يترجح بين الاشباع الجنسي والمجد الزائف المستحيل التحقق في عالم منهار . فا لايديولوجيا السائدة تكبت وتعد ولا تفي . فالحس الجسدي مبتور لانه يعمل وحده دون إحساس إنساني . فلقد مات في قدرية بسبب الواقع المأزوم ومات في بيومي تحت تأثير التإدلج الاخلاقي :

« قدرية تلعب دورا ملطفا في حياته المتوترة ولكنها لا تهيء رحمة أو حنانا أو مودة إنسانية ، فضلا عن مضا عفتها مشاعر الاثم . »)ص ٧٢) . إن بيومي إيديولوجيا تسير على قدمين . لقد أعمته عن إدراك ماتعرفه أنسية كمشروع بطلة ثالثة من حيوية ، واختزال الطريق بلوغ الغاية من أقصر الطرق مكسرة أغلال التأدلج أو بعضها . إنها شابة تستجيب لنداء الجسد والقلب الصارخ . إن أنسية تحب التجديد وكأنها من بيئة متقدمة مخالفة لبيئته المحافظة : « لم يعرف ذلك التقليد . ولم تعرفه حارته العتيدة . ها هي أنسية تبشر بتقاليد جديدة ، وجديدة أيضا مناورتها الظاهرة في التوادد وقدرتها البارعة في فتح أبواب الرحمة » (ص : ٨٦) . فالسارد يحكم على الحارة والتقاليد من معيار التجديد والتقليد وقد حدث في أسلوبه ما يسمى بالتناقض الظاهر L'oximoron لقوله : المناورة الظاهرة المحطمة للثنائية . ويحكم على قدرتها بالبراعة في فتح أبواب الرحمة وهي استعارة جاءت في صيغة عنوان لشيء لم يكتب بعد . ولغته الوصفية تنم عن إيديولوجيته المستقلة التي تحكم وفق معيار الوعي وعدم الوعي ، والرضى والنفور ، والتشجيع والتثبيط في قوله : « وقد ضغط على يدها فتلقت ذلك بابتسامة واعية راضية ومشجعة أيضا (. . .) وسارت الى جانبه تسيل عيناها بنظرة حالمة وظافرة ، مرفوعة الرأس مسددة النهدين ، يوحي منظرها بأنها مندفعة في مجرى من المطالب لاأفق له ، وأنها تلتهم في نفسها أجمل أسرار الحياة » (ص : ٨٧ ـ ٨٨) . الاوصاف التي توحي بالبطولة هي : نظرة حالمة ظافرة ـ مرفوعة الرأس ـ مسددة النهدين ـ مندفعة في مجرى من المطالب لا أفق له ـ تلتهم في نفسها أجمل أسرار الحياة .

إن البطولة هي الاقبال على الحياة :

هذه هي إيديولوجيا السارد الحياتية والواقعية والتي يؤكدها بقوله الذي ينفي كل وهم أو تهويم ميتا فزيقي : « على فرض أنها ستقلب حياته رأسا على عقب وستقيم له في محراب الحياة قبلة جديدة أليست هي أقدر على إسعاده من النجم القطبي ؟؟ » (ص ٩١) . والمرأة جديرة بأن تحدث تغييرا في حياة بيومي إذا وعت معنى الحياة التي تتنافى والحلم الطوباوي وبأن تحول اتجاهه من المستحيل الى الممكن با ستعدادها الذي استعار له السارد هذه الصورة » سرعان ما غنت مفاتن جسدها لحنها الجهنمي على أوتار فستانها المنقوش بالورد » (ص : ٩١) . إنها تستطيع إذا كانت مزودة بفلسفة الحياة أن تحول نظرته من العقل الى القلب العاقل ، من الموت الى الحياة ، من الوهم الى الحقيقة التجريبية ، من العدمية الى الوجودية . لكن بيومي المؤدلج ، هروبي ، ينكمش ، وبنطوي في شرنقة التأدلج ، وتقلصت نتيجة لذلك كل خلاياه كالحلزون الذي مسته الحرارة . لا يقصد سوى الا ماكن الخالية ، والبعيدة ، المهجورة والمظلمة والدافئة كالرحم : وذلك عندما يصغى كشاعر رومانسي الى همس القلب ، النادرة هينماته وخفقات الحياة فيه لحضور العقلا نية المؤدلجة المستمر الى حد تنغيص المتعة ، واللذة على بيومي وحرمانه من نصف وجوده الذي امتصه العدم ، ومن معرفة أشياء وأشياء ، ومن اكتساب تجارب وتجارب ، وخوض مغامرات ومغامرات : « ولم تكن له خبرة بأماكن اللقاءات السعيدة فاقترحت هي حديقة الا زبكية ولكنه اعترض قائلا إنها مكان مكشوف تحدق به الاعين من جميع الجهات . أما حديقة الحيوان فهي بعيدة بما فيه الكفاية ، مهجورة خارج العمران ، ممتنعة عن الرقابة ، يخوض التزام إليها حقولا وخلاء (. . .) لم تكن لديه فكرة عن أصول اللقاء ، ما يقال ومالايقال ، ما يفعل وما لايفعل »)ص ٨٧ ـ ٨٨) .

إننا لا نحمل الايديولوجيا السائدة معنا فحسب ، بل هي تنتابنا ، وتعترينا ، وتغلفنا ، وتغمرنا ، وتفكر فينا من خلالنا ، وعبرها ننظر الى المحيط والعالم ، إنها تحاصرنا ، وتسبقنا الى الأماكن التي نهرب اليها ، وتلج أخفى الملاجىء المظلمة وأشدها حلكة . إنها تنغص علينا وجودنا وحريتنا ، وراحتنا ، وتكبت رغباتنا ، ومتعتنا ، ولذاتنا الطبيعية الانسانية في الوقت الذي يتصل فيه احساس الرغبة العاطفية باحساس ما قبل الرغبة الجسدية . إنها رابعة اثنين اذ هما في الغار اذا اعتبرنا ايديولوجيا الطرف الثاني ثالثة ، إن الموانع الزجرية والنواهي (من النهي الحجى = العقل) الاخلاقية تعاودنا عبر الذاكرة التي تصعد اليها من الأنا المؤدلج فيشرع في التأنيب . وهكذا تكبت الذات المؤدلجة ذاتها وتمارس الرقابة على نفسها وهي في عزلة وتندم .

ما الندم ؟

إنه الشعور الذي يحصل للفرد المؤدلج بعد لحظة التحرر من الأنا المؤدلج لحظة تحقيق رغبة ما حتى الحضور الى موعد ، في غياب الانا المؤدلج لحظة ما قبل الشروع في الاشباع الجنسي أو أثناءه ، أو بعده حيث يفنى الانا المؤدلج في غيبوبة اللذة المشروعة والتي يعدها هو اثما ، أو ذنبا ، أو سيئة ، أو موبقة ، أو جريمة ، أو خطأ .

يقول الانا المؤدلج من خلال بيومي الذي يمحقه الشعور بالندم : ٢« سارا صامتين ولكن ثمة إحساس غير مريح ناوشه ، بأن اللقاء حدث شاذ وخطأ ، بأنه ما كان ينبغي أن يستسلم » ص ٨٨) .

ويجعل بيومي من المرأة مجرد فرج . ولتأدلجها ترفض لا لأنه شيأها وصيرها كالمطاط فحسب ، بل لأنها تستند الى معايير أخلاقية تصنيفية لا تقبل المرأة سوى بكر أو متزوجة .

« يلزمنا مكان آمن نلتقي فيه .
هتفت .
ـ عثمان أفندي .
فقال بدون مبالاة :

ـ سيكون مأوى رحيما لاثنين في حاجة الى الحب والمعاشرة .

ـ اما أن تذهب أو أذهب أنا » (ص ٩٣) .

والناظرة ، تحت وطأة معيار الزواج والطلاق ترغب في الزواج . وهذا دليل على وجود تراتبيه في العلاقات الاجتماعية أوجدتها الايديولوجيا الأخلاقية المهيمنة ، والتي يتولد عنها صنيع الناس فيصنفون تبعا لذلك المرأة التي تشير اليها هذه الكلمات : متزوجة ـ طالق ـ عاهرة ـ بكر ـ عانس ـ ثيب . . الخ في مجتمع مؤدلج ينهي رغبة المرأة بنهاية زواجها بالطلاق فتجرد من إنسانيتها ، وكينونتها رغم براءتها براءة الطالق ، والمطلق (بالكسر والفتح) ، والشاذ ، والخنثى ، إن الناظرة مؤدلجة أيضا . « والدعارة » مآلها الأخير .

إن الجنس كالخبز والماء والهواء والطعام ، والجسد الذي يتناوله الخبز والماء والهواء ، والطعام في أشكالها المتعددة لا بد أن يفرزه وكل هروب من الجنس اهتمام متزايد به . إن الجنس جدير بالتنظيمات التي تلحق بالألبسة والأطعمة والأعمال المختلفة .

ان لقاء بيومي بالناظرة مستحيل الا عن طريق « الزنا ؟ » والكلمة أخلاقية دالة على التحريم . انها في وضع مأساوي : الزواج ممنوع لأنانية بيومي المؤدلجة و « الزنا » محرم . إن بيومي حرباء لا تستقر على لون ولا حال لخوفه من ضياع حلمه الطوباوي غير المؤسس . انه يحكم على الناظرة بنفس الأحكام القيمية الأخلاقية والجمالية التي تحكم عليه بها أصيلة : « فترت رغبته في المرأة لشدة اندفاعها الارعن وجودها بنفسها بلا تحفظ إنها لا بأس بها لو تحل محل قدرية ولكنه رأى فيها نارا تقترب مصفرة تود أن تلتهمه هو وآماله المقدسة الموصولة بسر حكمة الله العظيم (. . .) وما دامت الزوجة المجهولة التي سعى اليها طويلا لم تقبله فلا يصح أن ينهزم ويستسلم لتسول الأرامل ، والعوانس » (ص ٩٧) . تتمظهر الايديولوجيا في الالتجاء الى معايير أخلاقية كالاندفاع والاحجام ، الأرعن أو المهذب ، والجود أو البخل بالنفس ، بجرأة أو تحفظ ، والجميل أو اللابأس به ، والنار أو الماء ، الانهزام أو الانتصار ، التمرد أو الاستسلام ، الزواج أو الترمل ، وأصيلة لتأدلجها تهرب أيضا من الرقيب الموضوعي ، وتنسى أنها تهرب من الرقيب الذاتي : « صح عزمي على المجيء ، وقلت لنفسي إذا لمحتني عين قصدت شقة أم حسني كأني جئت أصلا لزيارتها » . (ص ٩٧) . كلا الجنسين يبحث عن الظلمة . لا رغبة تشبع . كل جسد معلول . الوطن مستشفى كبير لا دواء فيه . كل نفس فيه ضائقة الداء / الموت . المرأة في مجتمع التأدلج الظلامي هي المرأة الممنوعة والمتمنعة حسب الكلام السائر cliche « كل ممنوع مرغوب » . ولكن أصيلة حجازي الناظرة استسلمت بدافع مركب : رغبة جنسية طبيعية وارادة الزواج فتقع في « المحذور » كما توقعنا ذلك : « وتبادلا نظرة طويلة تبدت تحت سياها الغامض امرأة عارية من أثر الكبرياء ، محض عاشقة مهدرة الدفاع (. . .)

أفاق تماما من الدهشة ، صدت نفسه عن أي موضوع وتركزت في الرغبة المتجسدة في صورة امرأة مستسلمة » (ص ٩٧ ـ ٩٨) . الا أن سارد « حضرة المحترم » يشبه سارد « مدام بوفاري » ، اذ تصيبه أحيانا شرارات الايديولوجيا الرسمية فيلتزم الصمت الى حد

أن كتب جيرار جنيت مقالا بعنوان : سكوتات فلوبير[٣] يتجلى صمت سارد نجيب كصمت سارد فلوبير في الثغرة التي أحدثها في سرده ، أو في الحذف الذي قام بـه في كتابته ، أو في الغياب الذي يستشعره القارىء من خلال حضور سردي يشكل مظهرا لتلك الكينونة الغائبة . فحضور قول يخفي في ثناياه أو يشير بين مقاطعه الى غياب يحدث ثقبا في وحداته . الى اللامعبر عنه ، الى المسكوت عنه ، واللايمثل ، واللامعقول وهو وصف الفعل الجنسي بكل حرية وصراحة وواقعية طبيعية وعادية .

الا أن سارد « حضرة المحترم » سكت خانعا للتأدلج الذي أصابته شظاياه الشيء الذي أفضى به الى ممارسة الرقابة ، كبيومي ، على نفسه هو أيضا حتى في مجال التعبير الروائي . أيعود ذلك الى كثرة مصاحبة بيومي أم هي رواسب من الماضي تستمر في الحاضر ؟ بهذا الفعل جرد النص الأدبي من أدبيته ولذته ، ومما كان بامكانه أن يعد عنصرا من العناصر المكونة لمتعته فراح يتحدث انطلاقا مما بعد الفعل الجنسي ، من لحظة الوعي ليبعدنا عن المعجزة الحقيقية في حياة الانسان ، وليتصدى لتناول مأساة بيومي والناظرة عندما يعاودهما العقل المثقل والمكبل بسلاسل الايديولوجيا وأغلالها الغالبة الى حد انهيار الحياة ليسود العدم . وانه ليغدو ما كان « جنة » « جحيما » بالندم الى مستوى يتصور فيه بيومي أنه من « أصحاب السعير » إذ يعيده تأدلجه الى خياله المؤدلج عندما يستيقظ فيه أناه المؤدلج ، الى خيال يفلسف الرغبة والنفور من الجنس بلعبة الحياة ، والموت ، والعبث ، والرضى ، ورفض المأساة في سبيل المجهول الذي يتمرد على المعلوم والمعيش . يقول السارد في صمت : « وأعلن لحن من الالحان اللانهائية للطبيعة عن تغريده المتجسد بنشاط موفور وفرحة كالمعجزة . وسرعان ما خفت تغريده حتى العدم متراجعا الى نوم أبدي ، مخلفا وراءه صمتا مريبا وراحة فاترة مشبعة بالأسى (. . .) رقد على جنبه فوق الفراش على حين انحطت قوة الكنبة معرضة قميصها وحبات العرق فوق الجبين وعلى العنق لضوء المصباح العاري . نظر الى لا شيء لا ينشد شيئا كأنما قد أدى المطلوب منه في الحياة الدنيا . وحانت التفاتة إليها فأنكرها كلية ، كأنها شيء غريب يخرج من باطن الليل ، غير الكائن السحري الذي جره الى السعير ، شيء أخرس بلا تاريخ ولا مستقبل له . وقال لنفسه إن لعبة الرغبة والنفور ما هي الا تمرين على الموت ، والبعث ، وادراك مسبق لقبول المأساة بعظمة تناسب المجهول فيما يبدي من لمحات خاطفة عن ذاته اللانهائية ، ودرجة المدير العام آية أخرى ولكنها تتجلى للارادة الشامخة لا للاستسلام العذب ! وحمدا لله فقد تحصن بالبرود العاقل والقاتل أيضا . وها هي المرأة ترغب بلا شك في العودة الى موضوعها الهام ولكن من خلال تردد وخجل . تتمنى لو يبدأ هو . ولما يئست نظرت اليه بابتهال وأسى وغمغمت :

ـ نعم ؟

عجب لغرابة صوتها وتطفله على وحدته المقدسة . ووجد نحوها نفورا ثابتا يوشك أن يصير كراهية . إنها تريد أن تهدم البناء الذي يشيده حجرا على حجر (ص ٩٨ ـ ٩٩) . لقد غدت أصيلة في عين بيومي المؤدلج شيئا أدى دوره فطرح بإهمال ولا مبالاة . ومع تحليق خياله من المحسوس الى المجرد فقد تحولت الى جنية ، بعد أن كانت ملاكا ، أو شيطانا ومخلوقة غريبة « الوعيه » أو لعودة درجة المدير العام الى خياله

٣ ـ انظر جيرار جنيت « صور X » ط ه سوى/ بوان . باريز 423 a 1966

الذاكري . والطموح يحدد الارادة تحت تأثير معايير الشموخ والاسفاف ، والاستسلام أو التمرد ، العذب أو المر ، تشييد أو تحطيم البناء الذي شيده التأدلج في فكره المتحجر المحلق في سماء الوهم بعيدا عن أرض الحقيقة والواقع .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي صمت فيها السارد في هذا العمل الروائي . فلقد سكت في استرجاعه لذكريات بيومي وسيدة التي لا تختلف في تأدلجها عن أصيلة التي يدل اسمها على ذلك والذي يحمل معنى الاصالة . وأسلوب السرد في « حضرة المحترم » يذكر بأسلوب السرد في مدام بوفاري الزاخر بالحذف والتزام الصمت في لحظات الحديث عن الجنس ، وضحك . لثم شعرها . لم يجرؤ على تجاوز ذلك . ذكرته رائحة شعرها بملاعب الطفولة والصبا ، وبكلمة أصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان لعبة العريس والعروس لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف (ص ١٩) . فالحذف هنا مزدوج .

١ - بعد عبارة « لم يجرؤ على تجاوز ذلك » إذ سكت السارد عما يلي تجاوز ذلك وهو الى ماذا ؟ فإنه ترك لنا فرصة تصوره . ولكن فرصة التصور تبقى حتى ولو أخبرنا بذلك . واللغة قاصرة فكيف نزيد من قصورها بالصمت .

٢ - كنى عن الجنس بعبارة أخرى عن صمته وأراد أن يملأ الثغرة ولكنه زاد في حفرها بهذه العبارة التي تحول القارىء من موضوع الى موضوع لا علاقة له بالأول « لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف » والصحف المؤدلجة لأ هم لها سوى التقاط الأخبار التافهة ، ونشر ما تسميه « فضيحة » وهو حاجة انسانية طبيعية تنتهي عندما تبتدىء حاجة الآخر . وهذا يجعل الانسان يحجم عن الاقدام على الجنس ، أو أن يوجد بجانب امرأة . إن صحفا من هذا النوع تلتزم الصمت عن فضائح الاختلاس والتبذير ، والاستغلال البشع : « الطريق شاق ومرير رغم ما يتمتع به من حسن السمعة فكيف إذا دهمته فضيحة مما ترحب الصحف بالحديث عنها ؟ » (ص ١٠٠) .

ووجهة نظر بيومي المؤدلجة ترد اقتحام المرأة الشجاعة للمحرمات ، والكلام عن الجنس أو الرغبة فيه دون رقابة أو سلطة عقائدية أو عقلانية أو أخلاقية ، الى غريزة المرأة التي تدرك بها المجهول الذي لا يستطيع الرجل ادراكه . ليست غريزة المرأة هي التي تدرك المجهول ، وإنما هو عدم نفاذ الخطاب المؤدلج الى ذهنها ويعبر عنه المؤدلجون بقولهم « المرأة ناقصة عقلا ودينا » . إنها المرأة التي تجهل الخطاب « الثقافي » المؤدلج فبقيت أرض فكرها خصبة لخطاب مضاد ، كما بقيت طبيعتها نقية تعمل عندها ملكة القلب والعقل الذي ينبغي تثقيفه حتى يعملا معا . وهذا ما انتزع من بيومي هذا التعليق المؤدلج غير العلمي : « قال لنفسه إن للمرأة غريزة تغنيها عن العقل في معرفة شؤونها الصميمية ، وأنه لو كان للانسان عموما غريزة مثلها لمعرفة المجهول لما ظل مجهولا حتى الآن » . (ص ١٠٤) . وغريزة المرأة لا تختلف في شيء عن غريزة الرجل . ويتميز عنها بيومي بتأدلجه فقط .

تنكر الايديولوجيا السائدة كل علم فتروج الكلام الميتافيزيقي والاسطوري عبر وكلائها ووسائل الاعلام البصرية والسمعية ، والشائعات ، والدعايات ، والقيل والقال .

« ألم يبلغك ما يقال عن الغاء البغاء !

- وعدونا بعمل لمن تريد عملا ، أي عمل ؟ عليهم لعنات الدنيا والآخرة ، هل أصلحوا كل شيء فلم يبق الا نحن ؟

ـ لعله كلام ، ما أكثر الكلام في هذا البلد !

(. . .)

ـ ستنتشر الدعارة في كل مكان . .

ـ والأمراض كذلك .

ـ وآلاف البنات سيتعرضن للفساد . .

ـ ماذا تقول لمن لا عمل لهم ؟ (ص ١٢٠ - ١٢١) .

في هذا الحوار تمتزج الأيديولوجيا الشائعة والأيديولوجيا المستقلة الى حد ما ولا سيما في لغة قدرية . وينتج عن هذا التصديق للشائعات فتستبد لحظة الجنون ببيومي فيتزوج قدرية التي تشيئه بسبب الوضع المادي : « وقال لنفسه لعلها تعده الطرف الرابح في الصفقة بسبب الخمسمائة جنيه ! » (ص ١٢٣) . ولكن عودة العقلانية تخنق الجنونية : « وجرت المراسيم وهو يتابعها بذهول . ما هذا الذي جرى ؟ واجتاحه شعور ممزق بالقلق بلغ حد الرعب فتمنى لو يقع حادث من عالم الغيب فيبدد سحابات الكابوس الذي يعاني منه ، ثم لما أدلى باسمه وعمله وقع ذلك من المرأة والقوادين موقع الذهول . إنهم سيتهمونه بالجنون كما يتهمه الآخرون . ولعله من الانصاف أن يعترف ـ بدءاً من الآن . أنه مجنون » (ص ١٢٣) . التأدلج يقلب الحقائق فما هو عقل يسميه جنوناً وما هو جنون يسميه عقلاً . ثم يحشد بيومي في كلامه سيلاً من الأحكام التقويمية وفق المعيار الأخلاقي والجمالي : « كهلة نصف سوداء في ضخامة بقرة مكتنزة تحمل فوق كاهلها نصف قرن من الابتذال والفحش » . (ص ١٢٣) . وتتمظهر الأدلجة في القول المبتذل « ست البيت » ، « الوسط الراقي » ، « وثبة خيالية » وتتجلى إيديولوجيا السارد المستقلة في وضع كلمة الراقي بين مزدوجتين ليقول : إنه لا يزال متخلفاً : « ها هي لا تألو جهداً في لعب دور ست البيت في الوسط الجديد » الراقي » الذي يعد الانتقال اليه من « الدرب » وثبة خيالية . » (ص ١٢٤) وتستند التراتبية الى المعيار الذي يفرق بين الدرب والوسط الجديد . وفي حواره مع قدرية يبدو صراع الأيديولوجيات الفوضوية والسائدة :

« ـ بل إني آمل أن تصومي وتصلي فنحن في حاجة الى رضى الله عنا .

ـ إني مؤمنة بالله وأعلم أنه غفور رحيم . .

ـ إنك سيدة محترمة ، والسيدة المحترمة لا تسكر كل ليلة !

ـ إذن كيف تسكر السيدة المحترمة ؟

ـ يجب ألا تسكر على الاطلاق . . (ص ١٣١) .

إن السارد في عرضه لعلاقة بيومي بقدرية يسخر من « السياسيين » الذين يهتمون بظواهر الأمور ومظاهرها ويطبقون عليها مصطلحات اجتماعية دون ، التعمق في معرفة الواقع وأولياته ، وتفاعل البنيات التقليدية بالحديثة سواء على مستوى البنيات الفوقية أو التحتية : « وتذكر الآراء التي يعلل بها الزملاء ـ المولعون بالسياسة والأفكار ـ هذه الظاهرة[٤] وأمثالها من خلال حملاتهم على المجتمع والطبقات » (ص ١٣١) . تنتج البدانة عن عدم بذل أي مجهود عضلي وعدم ممارسة قدرية الشغل أو الرياضة بعد العمل في مجتمع بطالي شل نصفه ومات وأخذ الموت يتسرب الى النصف الآخر .

إن طموح بيومي يحدد سلوكه حتى قبل أن يحققه . وهو في القرب من الطموح يمارس التسلط ولو في درجة دنيا . فنظرته الى الناس تومىء الى ما يسمها من ميز وتفرقة ، وتصنيفية ، وملكية ، وأنانية موصومة بالاحتقار ، والاستغلال ، والتشيىء الشيء الذي يكشف للقارىء حقيقة الخضوع البرجوازي . إن البرجوازية تعبث كطفل كبير يعوض عن حرمانه الطويل

٤ ـ ظاهرة بدانة قدرية .

المكبوت ، في علم النفس الفرويدي البنيوي فالولد أبو الرجل وهي مقولة مشهورة تشخص النظام الأبوي لكن فرويد نظر في النتائج وأغفل الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي كانت الهم الأساسي في منهج ماركس في علم الاجتماع البنيوي الذي مارسه في نقده لعلائق الانتاج . أما نيتشه فهو قد أدرك بفلسفته العميقة أن الانحلال إذا بلغ أوجه فينبغي للأيديولوجيا المستقلة أن تستغله لأنه معطى يمكن الاعتماد عليه من أجل تحول قريب . : « وبمرور الأيام ازداد تعلقه بها وبخاصة عندما علم بأنها يتيمة وتعيش مع عمة عانس » (ص ١٣٥) . إنها ممارسة لا تعتبر الآخر إلا كسرير ومن هنا يعبر الاستبداد عن نفسه من خلال هذا السلوك المتفجر أنانية وتسلطاً . إن بيومي ينسى سنه الذي لا يتلاءم وسن الفتاة ولا مع الوظيفة أمل عمره . إنه لا يعي ذاته وقدرته الجسدية . يتخيل إليه أنه شاب ما يزال ويحاول تقليد الشباب وينكر شيخوخته التي تفرض وجودها عليه وتتطلب منه أن يحيطها بالعناية التي تستحقها ، ولكن عودة المكبوت تبرز من خلال سلوكه العابث المتأخر زمنياً . والفتاة كذلك ـ تحت دافع الحاجة ـ لم تول أي اهتمام لشبابها ، وحيويته الأنثوية التي لا تنسجم وبرودة جسم بيومي فنسيت نفسها ونسيت بيومي العجوز فيتبادلان التشييء ، ونتيجة لتنافس النساء على الرجال / المال تقول العجوز : « ـ طلق امرأتك أولاً » (ص ١٤١) . ولقد مسرح نجيب محفوظ في روايته هذه أعجوبة الأيديولوجيا السائدة بتجسيدها في شخص بيومي الذي قال لراضية (سماها نجيب بهذا الاسم دلالة على رضاها وقبولها لبيومي العجوز) مردداً القول السائر والذي يستحيل على من كان في سن بيومي تحقيقه :

« ـ معك يا حبيبتي سأبدأ حياة جديدة بكل معنى الكلمة .

وقبلها ثم استطرد :

ـ سيكون لنا بنين وبنات » (ص ١٤٣) .

والانسانية والعقلانية في نظر المرأة المؤدلجة الطموح طموحاً زائفاً وسيلتان الى غاية : الزواج والمال وما فيهما من استقرار طفيلي ، وأمان من عواصف الأيديولوجيا الحربائية المقلوبة : « ـ إنك تبدو لي « إنساناً » و « عاقلاً » لأول مرة » (ص ١٤١) . والسارد يضع الكلمتين اللتين جاءتا في كلام العجوز بين مزدوجتين للدلالة على أنه ليس كذلك أو لتأكيد كذب العجوز . وقدريه على النقيض منه إنسانة . فهي تقول له : « لك العذر ، أنا فاهمة كل شيء ، إنك تريد ولداً ، ولك الحق وربنا يحقق رغبتك .

ـ أنت طيبة وإنسانة يا قدرية . » (ص ١٥١) قد تكون كذلك أو يقول لها ذلك ليؤدلجها .

وإذا كان بيومي يخضع للرأي العام في الانجاب ، فالولد مشيا قبل أن يولد ما دام لم يفكر فيه وفي مستقبله ولا سيما إذا كان مشرفاً على الهلاك فالمرأة هنا جسر للعبور الى الولد : « ـ في لحظة يأس رميت بالدرجة وراء ظهري وتركز أملي في حلم واحد هو الانجاب » (ص ١٥٢) . وهو حلم فات أوانه ، وهو في ثنائيته يعبث بالنساء كما يعبث الطفل بالدمى : « ـ إذا تهيأ لي يوماً أن أنجب فلن أتأخر حتى يتحقق للعبة وجهها الأبيض والأسود (ص ١٥٥) . واليتيمة والعانس العجوز تؤسسان رغبتها على عبادة صنم المال : « ـ أنت الجانية على نفسك ، طالما قلت لك ذلك . .

ـ ما الفائدة ؟

ـ ها هي عقبى الطمع وسوء التصرف !

ـ اصرخي حتى يسمع ! » (ص ١٥٤) .

الشخصية وعلاقتها بالممثلين/ الأشياء :

يعبر البؤس والتراتبية بالكلمات / الأشياء عن

الفروق الطبقية وفق الدرجات في الوظيفة حيث يتميز قضاء عن قضاء ، ومكتب عن مكتب ، ومنصب عن منصب ، وراتب عن راتب تبعاً لتذرر العمل ، وعن نوعية الاقتصاد الذي تسير عليه البلاد والذي يحدد وضعية الموظف ، وبالملابس / الاشارات الى الحالة المادية والاجتماعية والنفسية .

« ـ مكتبك تفحص الكرسي بعناية فان أحقر مسمار قد يهتك بدلة جديدة . . فقال عثمان :

ـ بدلتي قديمة جداً والحمد لله » (ص ٩ ـ ١١) .

إن هذا المكتب يختلف عن مكتب المدير العام المتميز والذي هو امتداد لشخص المدير العام الاله المتسلط ، المتجبر بحيث ينحني له كل من مثل بين يديه . وهو الأقوى ككل الآلهة عبر العصور بالمال الذي يتجلى في الأشياء المحيطة به دون سائر الموظفين . لماذا يمتزج هذا الانسان بالإله في تصور بيومي إلى حد تحطيم الثنائية بين المدير العام والإله ؟ إن بيومي ينظر الى منتج الأيديولوجيا السائدة من خلالها . إنه يؤلهه فتأله ، إنه يشبه رأس المال الذي ألهته شخصيات جيرمنال لزولا .

إن نجيب محفوظ يؤنس الأيديولوجيا السائدة بالشخصية المؤدلجة التي ذابت في أختها صاحبة رأس المال وقد تأله كأن عبارتي نجيب « الاله القابع وراء » ، و « آمن بأنها تلتهم القادمين وتذيبهم » الدالتين على الأيديولوجيا التحريرية ترجمة لعبارات زولا :

"Le puits **avalait** des hommes (٥)
par bouchees"

"La cage avait reparu (..) pour **engloutir** une autre charge d'hommes (..)

Le puits en **devera** de la sorte d'une **gueule** plus ou moins **gloutonne** (..) toujours 2 ffame, de boyaux geants capables de **digerer** un peuple" (٦)

"Jl songeait violemment (..) a **ce dieu repuet accroupi**
auquel dix mille affames don- (٧)
naient leur chair sans le sonnaitre."

"Car les riches avaient pris la (٨)
place de **Dieu**"

لا تنتج الأيديولوجيا السائدة إلا ذاتها .

إن المدير العام هو المنصب الذي بشرت به إشارة الخطاب المؤدلج الذي ترسب في وعي بيومي ولا وعيه . إنه الاله مالك السلطة والقوة والنبي الذي يوحى اليه كما يظهر ذلك من خلال الفضاء : « انفتح الباب فتراءت الحجرة مترامية لا نهائية . تراءت دنيا من المعاني والمثيرات لامكانا محدوداً منطوياً في شتى التفاصيل ، آمن بأنها تلتهم القادمين وتذيبهم . لذلك اشتعل وجدانه وعرق في انبهار سحري . فقد أولا تركيزه . نسي ما تاقت النفس لرؤيته ، الأرض والجدران والسقف . حتى الاله القابع وراء المكتب الفخم ، وتلقى صدمة كهربائية موحية خلاقة غرست في صميم قلبه حباً جنونياً ببهجة الحياة في ذروتها المتسلطة عند ذاك دعاه نداء القوة للسجود، وحرضه على الفداء، ولكنه سلك مع الآخرين سلوك التقوى والابتهال والطاعة والأمان . كالوليد عليه أن يذرف الدمع الغزير قبل أن يملي إرادته . وتلبية لاغراء لا يقاوم خطف نظرة من الاله القابع وراء المكتب ثم خفض البصر متحلياً بكل ما يملك من

---

٥ ـ اميل زولا « جيرمنال » ط ٥ كتاب الجيب ، 1976 ص 29

٦ ـ نفس المرجع : ص 29 — 30

٧ ـ نفس المرجع : ص 72

٨ ـ نفس المرجع : ص 37

خشـوع » (ص ٥) . ثم يقول السـارد عن الحجـرة ذاتهـا : « وتفحص الحجرة بعنـايـة بـطولهـا الـطويـل وعرضها العريض ، سقفها الأبيض الأملس ، ونجفتها الكـرستال ، وجـدرانها المورقـة ، مـدفـأتهـا المـوشـاة بالقرميد ، بساطها الأزرق الذي لم يتخيل إمكان وجود بساط في طوله وعرضـه ، وطاولـة الاجتماعـات ذات الغـطاء الأخضر ، والمكتب المتصـدر بأرجله الغليـظة الملتوية وسطحه البلوري ، وتحفه الفضية من ورقـات ومحابر وأقلام وساعة وسومـان ونافضـة وعلبة خشبيـة للسجائر من خان الخليلي » (ص ٦٣ ـ ٦٤) .

وحارة الحسيني التقليدية ، والمحافظة ، والثابتة على القيم البالية والمثـالية امتـداد لشخصية بيـومي . فهي تنحني كما ينحني هو . وهنا لا نملك سوى أن نكرر ما يسبقنـا اليه نجيب من أحكـام نقـديـة حـول عـلاقـة الشخصيـة بالفضـاء الذي يستخـدم كنوع من المجـ للاشارة الى الشخصية المؤدلجة والى السارد غير المؤدلج من خلال النعوت التي يطلقها على الحارة : « من نافذته الصغيرة يرى وطنه ـ حارة الحسيني ـ كأنها امتداد لروحه وجسـده ، حارة طـويلة ذات منحنى حاد ، مشهـورة بموقف الكارو ومسقى للحمير . (. . .) ومن خواصها الحميمة أنها لا تعرف الهمس أو النجـوى ، أصواتهـا مرتفعة جداً ، متوتـرة بين الحكمـة والبدائيـة » (ص ١٢) . وحكم السارد عليها هو حكم إيديولوجيا مندور المستقلة على الشعر القديم الذي يخلو من الهمس الذي يشكل الميزة الأساسية للشعر المهجري . ويشير اللفظ / المنزل أيضاً الى وضعية بيومي الاقتصادية الى التـراتبية والتفـاوت الطبقي في السكن : « في مسكنـه ـ حجرة وحيدة ومرافق ـ يرى نفسه ، يتجسد له معنى حياته » (م ١٢) .

وعنـدمـا يتحـول الاقتصـاد من المستعمـر الى الاقتطاعيين أو بورجوازي هذا الوطن ، تتغير الأشياء بتغير الملاك . وإذا عرف النظام الاقتصـادي الثبات ، فباقي التغيرات قشور ، وأعراض لا تمس الجوهر لعدم شمـوليتهـا وتـوقف عنـد من انتقلت اليهم وسـائـل الانتاج ، والذين يقومون بتغييرات لصالحهم ويفرضها تضخيم رأس المال واستثماره ، وتبذيره ، فيقع التهجير الاغـرائي أو التعسفي فينتقـل « الضعفـاء » الـذين يعجزون عن بناء مساكن لأنهم متروكون للمصادفة ، فتنكرهم الأرض التي ناضلوا من أجلها حسب تعبيرات السارد النوستلجية والموضوعية ويهيمن ظلام الثنائيات ويعم : « ضاعت تماماً عواطفه الطفولة البريئة وخيالاتها الجامحة ، طمرت تحت طبقات كثيفة من التراب ، مثل حارة الحسيني ، التي تغير جلدها ، ربوع كثيرة تهدمت وقامت مكانها عمائر صغيـرة ، وشيدت زاويـة مكان موقف الحمير ، وكثيـرون من أهل الحي هـاجروا الى لذبح ، كل شيء يتغير ، النور والمياه دخلت البيوت ، والراديو يصخب ليـل نهار ، والملاءة اللف تتـوارى ، حتى الخـير والشر يتجـددان ويتنوعـان » (ص ١١٢ ـ ١١٣) .

وبيومي المؤدلج لا يطالع من الكتب سوى ما يتصل بالوظيفة وما يساعده على الترقية . إن حضور أنواع من الكتب وغياب أنواع أخرى لدليل على التأدلج المسيطر ، كل ما يتوفر عليه هو كتب القانون وسير العظماء ـ إرادة العظمة ونموذجها المدير العام ـ ، وقواميس الانجليزية والفـرنسية قصـد الترجمـة ، وكتب الأدب القـديمـة . وتغيب عنـده الكتب العلميـة والأدبيـة الحـديثـة والفنية . . . : « ها هي كتب القـانون تصـطف تحت الفراش وفوق منصة النافذة » (ص ٢٣) .

حتى في بيت قدرية فالأشياء / الكلمات دالة عـلى التراتبية ، وعلى المستوى الاجتماعي والتاريخي الهـابط حيث يـرقص البؤس رقصة المـوت الساخـر من حياة كهذه : « وذكرته حجرتها بحجرته ولكنها أكثر بدائيـة

بأرضها العارية فراشها المرتفع والمرآة وكرسي وحيد يستعمل للجلوس وكمشجب ، وطشت وإبريق . لذلك لم يكن يستطيع خلع بدلته في ليالي الشتاء (. . .) ورغم تدينه العميق علمته الشراب ، القدر القليل الضروري . وكان قدح نبيذ « السلسلة » الجهنمي ـ بنصف قرش ـ يكفي لطمس عقله وبعث الجنون في دمه » (ص ٣١ ـ ٣٩) .

إن الخمرة بالنسبة الى المؤدلجين الذين يعتقدون أنفسهم عقلاء والآخرين مجرد مجانين ، هي الوسيلة الوحيدة التي تتيح لهم خرق المواضعات والضوابط الاجتماعية ، والخروج عن المقاييس السائدة والقاتلة . إنها تتسلل الى قاعة الذهن والعقل المستبد لتطرده منها بحيلتها الحوارية والتنويمية كي تستريح النفس من بطشه المؤدلج وتأدلجه المتسلط ، فتحقق الذات متعتها ، وتمارس جنونها الضروري . فاذا خرجت وقل تأثيرها ، عاد العقل بعقلانيته الضاغطة والاضطهادية بأساطيرها ، ومعاييرها ، وقوانينها يختفي الجنون ، ويختبيء ، ويقع وينبطح وكأن كتلة من الرصاص ثقيلة قد وضعت على مادته اللينة فشلته عن الحركة وعن حرية الابداع في القول والفعل وفي ضروب الجنون . ما أقصر عمر لحظة اللذة ! نتعجب ولا ندرك أن التأدلج هو السبب .

إن بيت قدرية لم ولن تصل اليه الكهرباء ، والماء . . . كالمستفيدين من الاستقلال : « تربعت قدرية فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسي الخيزران ، وأضاء الحجرة شمعة واحدة » (ص ٣٩) .

وبيومي بعدما أدرك أن الجوهر قد ضاع : شبابه ، رجولته ، وخاض الشيب في شعره ، والعجز في جسده ، فهو يريد أن يسترجع أيام زمان ولكن الزمن خطي وذو اتجاه واحد ، فأخذ يعني بالشكل والمظهر بعد أن ضاعت الكينونة في سبيل كينونة أخرى ، والعناية بالمظهر لا تسترد الكينونة الضائعة ، لقد شيئا نفسه هذه المرة .

الكينونة هي جدلية الرغبة والنقص في الانسان .

لم يرضخ بيومي لتأدلجه لسنة الطبيعة التي تساعد العلوم على اكتشاف قوانينها للتحكم فيها وإعطائها حريتها ، ومعرفتها ، ومعرفة حاجياتها ، والطرق المؤدية الى المحافظة عليها ، وتحقيق رغبتها .

إن الجسد جزء من الطبيعة وهو وحده الكائن الواقعي كجزء منها .

إن الشاب يمارس طقوس الرجال والشيوخ أحياناً في فجر عمره وضحاه . والشيخ في خريف عمره يمارس طقوس الشباب .

إن المؤدلج يستهلك ما لم ينتجه وطنه وإنما ما يستورده ممن استعمره أمس واليوم كي يتحول الاستعمار الى استعمار اقتصادي وهو أخطر من كل استعمار « لأول مرة يخطر في ملابس أنيقة . بدلة رمادية من الصوف الانجليزي ، وحذاء انجليزي كذلك ، أما القميص ورباط الرقبة فمن مختارات راضية نفسها ، ولأول مرة يتعطر بالروائح الزكية ، ويحلق ذقنه كل يوم . ولولا الحياء لأقدم على صبغ شعره ، ولأول مرة يستعمل الفيتامينات ويعنى بصحته ونظافته أكثر من أي وقت مضى . » (ص ١٤٢) . إنه يتجاهل وقع الزمن المؤدلج وأخاديده التي سطرها على جسده كفعل المحراث أو الماء الغزير بالأرض فتحول قبل الأوان وجعل منه جسداً محبطاً ، محطماً ، منهاراً وساقطاً ويشرف على النهاية لأن الأيديولوجيا الخداعة ألهته عنه بعدما شغلته بالأرواح والقوى والأمجاد الزائفة والبطولات الكاذبة . فحضور الزمن يتكرر في المقطع السردي بصيغة « لأول مرة » ثلاث مرات في وحدة

سردية صغيرة ثم يؤكد في نهايتها هذا الحضور الذي يشير الى غياب : « أكثر من أي وقت مضى » .

إن المظهر الواقعي والجدلي هو مظهر كينونة ذاتها لا مظهر كينونة أخرى مخالفة في الزمان والمكان .

النقد والايديولوجيا :

إن تقنية الروائي أو بنية خطابه الروائي تعبر عن فلسفة السارد ورؤيته للعالم . فالبنية السردية تعبير عن فلسفته . وهذه الفلسفة مجموعة من الأفكار والآراء ووجهات النظر المعايشة للشكل ومكوناته . فهي منبثقة منه ومن وضعه على الورقة . وبما أن الأيديولوجيا هي دراسة الأفكار ، والآراء ، ووجهات النظر ، فان للفلسفة علاقة بالأيديولوجيا . وهذه العلاقة هي من المتانة بمكان كالعلاقة الموجودة بين الشكل والمضمون التي تدل على العلاقة الموجودة بين اللغة والأفكار ، وبين البنية والفلسفة ، والتعبير والأيديولوجيا . إن الحديث عن الشكل وبنياته هو حديث عن الأيديولوجيا ، واستجلاء تألقات الأيديولوجيا وظلالها في الخطاب الروائي هو أبرز للبنية السردية .

إن النقد في عملية تفكيكه للعناصر المكونة للشكل ، هو في ذات الوقت استجلاء لفلسفة أو أيديولوجيا العمل الروائي . لقد وقفنا على الايديولوجيا وتمظهراتها في الخطاب الروائي كممارسة نقدية تبرز هذه التمظهرات عبر لغة الخطاب قصد استكمال التصور عن مفهوم الايديولوجيا وعلاقتها بالنص الروائي . وهذه الممارسة تتوخى المنهج البنيوي الجنيني الذي يتصل مباشرة بالمضمون ، ويرصد ، بعيدا عن التنظيرات التي قيل فيها الكثير وسودت صفحات الكتب والمجلات حول مفهوم الايديولوجيا ، تجلياتها في البنيات التعبيرية الدلالية للعمل الروائي . فإذا كانت الايديولوجيا تعني فيما تعنيه أفكار وآراء ووجهات نظر الانسان في محيط اقتصادي ، وثقافي معين ، فإننا عرضنا ، ممارسة ، أفكار ، وآراء ، ووجهات نظر الشخصية ، وأفكار ، وآراء ، ووجهات نظر السارد كما سردنا مدى انفصال واتصال ايديولوجيتها . وهذا المنهج يعد أكثر تطورا من المنهج البنيوي الجنيني الانتقائي الذي عرفته الممارسات النقدية عندنا في النقد العربي وذلك إما لغموض البنيات الدالة ، أو لتعددها ، أو لاتساع وتشعب علائق الشخصيات فيما بينها وعلائقها مع الممثلين/ الاشياء في العمل الروائي .

إن عرض وجهات نظر نقدية جمالية بنيوية أو فكرية للعمل الروائي هو نقد إيديولوجي يتخذ السارد كشخصية وعلاقته بباقي الشخصيات ويرصد تقنيته وبنية عمله الروائي لابراز إيديولوجية الروائي وتأدلجه . وهذا النقد نقد ايديولوجي مستقل أو أكثر استقلالا من ايديولوجيا الروائي . وانه لينتظر نقدا ايديولوجيا آخر أكثر استقلالا وهكذا دواليك الى ما لا نهاية لطبيعة الأفكار الجدلية .

بنية رواية « حضرة المحترم »

من المصطلحات النقدية المضللة ما كانت تعرف به الرواية وتصنف كجنس أدبي يتميز عن باقي الأجناس الروائية التاريخية ، والتعليمية ، والنفسية ، والسيرذاتية مما أطلقه النقاد في العصر الحديث كـ « رواية الشخصية » و « رواية الحدث » ، ولم نكن وقتها ندرك لها تخوما لان جهلنا لمظاهر ، وخصائص ، ومميزات ، ومكونات الشخصية الروائية التي تستلزم معرفة واسعة بالانسان في طبيعته وحاجياته ، وسلوكاته الثابتة والمتحولة التي تساعدنا العلوم الاخرى على معرفتها ، يجعلنا نزيد العمل الروائي ، في نقدنا له ، غموضا وإبهاما ، كيف كنا نفهم الشخصية الروائية ؟ كنا

نفهمها على أنها الصورة للشخص كما هو في الحياة أو دون ذلك ، وكنا ، علاوة على ذلك ، لا نفرق بين الشخصية في علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم التاريخ ، وبين الشخصية كمكون بين مكونات الخطاب الروائي . إن الشخصية هي التي تحدد للعمل الأدبي جنسه . وبناء على هذه الرؤية النقدية ، يمكن أن نطلق على رواية « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ مصطلحا أكثر دقة يحدد جنسها الأدبي وهو مصطلح « السيرة الذاتية للشخصية المؤدلجة » .

في هذا الجنس الأدبي يوظف الكاتب التقنية الكلاسيكية في الابداع الروائي الذي كان معروفا عند المبدعين الغربيين الكلاسيكيين كسيرفاتيز ، وبلزاك ، وفلوبير . . . وتتمظهر هذه التقنية في التجليات التالية التي تحدد بنية السيرة الذاتية للشخصية المؤدلجة .

١ ـ الرواية بضمير الغائب التي تتيح « الرؤية مع »

٢ ـ تأثر الكاتب بالنظرية الداروينية والتاريخية التطورية التي تتجلى في تعاقبيه الأحداث وتسلسها وفق سيرورة الزمن الخطية حفاظا على التحامية البنية الروائية وتماسك أجزائها وعناصرها في وحدة تربط حلقات سردها ارتباطا منطقيا صارما . ولقد تناول فيها شخصية وتتبعها في نموها الزمني كما عرض مراحل حياتها جميعها منذ دخولها الى الوظيفة وهي مرحلة الشباب ، مع فلاش ـ باك يتيم يذكرنا بمرحلة الطفولة وهي يوم دخولها الى المدرسة الابتدائية ، ثم مرحلة الرجولة التي قضاها في الوظيفة ، ثم مرحلة الشيخوخة ، ثم الموت . والشخصية تخضع في حياتها العملية لتنفيذ القرار الايديولوجي إلى درجات الترقية الانحدارية وتبعا لذلك فإن البنية الروائية تخضع للتطور والتدرج وفق نظرية/ إيديولوجيا « النشوء والارتقاء » الداروينية . ورغم أن هدف نجيب هو رصد سقوط الشخصية وانهيارها ، وموتها ، فإن البنية الروائية بقيت خاضعة للمنهج الدارويني في صعود الشخصية في درجات الترقية . ورغما من أن الانحدار والسقوط هو غاية نجيب فهو لم

يكن انحدارا قاسيا وأكثر مأساوية وتأثيرا لانه يشبه الانحدار الطبيعي الذي يذعن له حتى الشخصية غير المؤدلجة والشخصية الثرية . وفضلا عن ذلك فمنهج داروين منهج طبيعي يتتبع في داروين مراحل تطور الكائنات في نشوئها ، ونموها ، وتطورها ، وانقراضها ، وأن الطبيعة كقوة لها قوانينها التي تتجلى في الانتخاب كي يبقى العنصر الافضل ، والاجمل والاصلح والاقوى . أيلتقي نيتشه بداروين في إرادة القوة ؟

صحيح أن الكاتب ، تحت هاجس الواقعية ، أراد أن يقدم الشخصية العامل/ الموظف المؤدلج كما هو في الواقع رازحا تحت صخرة الترقية الخاضعة للدرجات الانحدارية ٨ . . ٧ . . ٦ . . ٥ . . ٤ . . ٣ . . ٢ . . ١ . . ٠ ودرجة المدير العام التي هي ٠ أي صفر أو لا شيء إذ تبدو إيديولوجيا السارد المستقلة في اعتبار درجة المدير العام صفرا أو لا شيء، وحتى لو قدمت بشكل تصاعدي ٠ . . ١ . . ٢ . . ٣ . . ٤ . . ٥ . . ٦ . . ٧ . . ٨ فإن ذلك لن يغير من الصيرورة الزمنية شيئا .

٣ ـ عدم تأثر الرواية عندنا بالملحمة بقدر تأثرها بالتراجيديا اليونانية التي خضعت للتنظير الارسطي الذي كان لكتابه « فن الشعر » ولا يزال تأثير وأي تأثير في المبدعين والنقاد الى اليوم . والمأساة اليونانية ترتبط بالانسان ، وتصوره وهو يعمل ، وعبر جميع مراحل حياته . إنها تخضع بدورها لتطور الشخصيات وتنامي الاحداث (الكل ، هو ماله بداية ووسط ونهاية) أو (انقلاب السعادة الى شقاء أو الشقاء الى سعادة حسب

مجمـوعـة من الاحـداث المتسلسلة وفـق الممكن/ المحتمل)[٩].

٤ ـ العقلانية الصارمة التي مارست عليه منطقها فاختار ثماني درجات وثمانية بنود في ورقة عمل الشخصية ، وثماني شخصيات/ النساء وثماني شخصيات/ الرجال بحيث يمكن أن نستنتج المعادلة التي وضعها نجيب لبناء روايته .

المعادلة التي بنيت عليها الرواية :

المدير العام = ٠

حلم بيومي = المدير العام = ٠

بيومي = ٠

علاقاته بالنساء والرجال والدرجات الذين هم وسيلة لبلوغ منصب المدير العام وتحقيق الحلم : بما أن عدد النساء هو ثمانية وعدد الرجال هو ثمانية وعدد الدرجات هو ثمانية فإن المعادلة الروائية هي :

١ ـ ٨ × ٠ = ٠

٢ ـ ٨ × ٠ = ٠

٣ ـ ٨ × ٠ = ٠

وإذا إختزلنا ذلك كله تصبح المعادلة هي :

(٨ × ٣) × ٠ = ٠

٥ ـ عدم ممارسته الجنون في الرواية . لو أراد أن يفعل لبدأ مثلا بسقوط الشخصية ثم يطلعنا بالتبادل عن الاسباب التي دفعتها الى الموت والتي ستبقى هي هي رغم اختلاف التقنية التي ستقدم الرواية في شكل أكثر إثارة وتأثيرا ومتعة وإقناعا . وستتكسر إذاك خطية الزمن ورتابته للقبض على إنتباه القارىء بشكل أكثر فنية ، فحتى حضور أو غياب الشخصيات ثم حضورها يخضع للسببية وخيطها التعاقبي الواضح .

يتمسك الكاتب في رسم الشخصيات الى معيار تراتبي يقسم الشخصيات الى رئيسية وثانوية ويجعل الشخصية/ الرجل دائمة الحضور دون الشخصية/ المرأة وكان ينبغي الاهتمام بجميع الشخصيات وأن تظهر بالتساوي مع الشخصية الرجل على مسرح التمثيل الروائي . فحضور شخصية باستمرار وغياب أخرى باستمرار يضعف الصراع والتموقف من الأحداث . ويسود في الرواية الوعي ويغيب فيه اللاوعي بالمفهوم الفرويدي . فغياب أحلام النوم ، والاقتصار على أحلام اليقظة يضعف مأساوية جميع الشخصيات ، فهيمنة الأنا المؤدلج لن يبرز بشكل جلي إلا إذا برز ضده ونقيضه وهو اللاوعي أو الأنا اللامؤدلج في الأحلام النومية . لقد اكتفى الكاتب برصد الأفكار العقلية التي تنسجم مع الخيال المؤدلج الذاكري ، ورصد العقلانية وأغفل الجنون . إن بيومي يبدو كشخصية سوية مع أن جدى أن يبدو كمجنون يمارس الجنون في أوجه في عامله مع الشخصيات الأخرى وأن يحقق في الحلم النومي مالم يحققه في اليقظة أو ما يكبته طول النهار . كما أنه ينبغي أن يبدو كشخصية منهارة الاعصاب ، مضطربة ، كثيرة الاحلام ، قليلة النوم ، ومتعددة الكوابيس . وينبغي لهذا الجنون أن ينعكس في البنية الروائية ، في شكلها التعبيري كتقنية مجنونة تترجح بين الجنون والعقلانية وانسجاما مع الشخصية المكبوتة والتي تقمع ذاتها لتأدلجها ، ومع وجهات نظرها ، وأحلامها في النوم واليقظة ، وهواجسها ، وكوابيسها الى أن تتداخل الازمنة والامكنة والشخصيات ، وتتداخل البنيات السردية الواعية واللاوعية بلغة تسجل زلات اللسان ، والأخطاء في الآراء وفي التعابير ، والتقليد والتجديد ، والعقل والذاكرة ، والعقل والقلب ،

٩ ـ أرسطو « فن الشعر » ترجمة روزلين ديبوي ـ روك وجان لالو . ط : سوى باريز 1980 ص 09 — 71

والوعي والخيال ، والتصور واللاوعي ، والتـذبذب ، والتردد ، والاقبال والاحجام ، وتتداخل الشخصيات بالأشياء ، والشعـر بالنـثر ، فتتعدد الصيـغ ، وتتنوع الأسـاليب وتكـثر الأصـوات في الـذات وفي العـالم الخـارجي ، وفي النص الـروائي . لا ينبغي للكـاتب المجنون/ العاقل أن يؤجل المأساة كما يؤجل الموت . ينبغي أن تشرف الشخصية في كل مرة عـلى الهلاك ، والقلق ، والحيـرة ، والحزن المتـداخل مـع النجـاة ، والفـرح ، والاستقـرار المؤقت ، والسـرور القصيـر الأمد . فالخطاب الذي يسقط الشجـرة لا ينتظر حتى تهب الرياح كي تسقطها . إنه يضربها بفأسه كل مـرة ضربة تدع فيها جرحا عميقا لا يلتئم ثم يوالي الضربات حتى تسقط . من خلال الشجرة الساقطة يمكن أن ندرك نوع الضربات والاداة التي تمت بها وإذا أردنا التفاصيل سألنا الخطاب .

٦ ـ ما قام به السارد من حـذف وصمت ، والتزام السكوت استجابة لهاجس العقلانية ولا سيما في مجال الحديث عن الجنس كممارسة جنونية .

٧ ـ غيـاب الحـديث عن الأطعمـة سـوى بعض الاشارات النادرة .

٨ ـ استبـداد السارد بـالكلمة دون الشخصيـات . قليلة هي الوحدات السردية التي نجد فيها المونولـوج التلقائي بل تكاد تكون نادرة أو منعدمة بخلاف المقاطع السردية التي يغلب فيها صيغ المحكي الذاتي المجلوب والمتنافر ويندر المتناغم .

***

المراجــع :

(١) نجيب محفوظ ، حضرة المحترم ، ص : دار العلم بيروت 1977 .

(٢) Philippe Hamon 'texte et ideologic' P.U.F Paris 1984.

(٣) Philippe Hamon 'Ponr statut semiologiqueu du
Philippe Hamon personnage in ''Poetiqne du recit''
Phillpe Hamon R. Barthes, W. Kayser, W.C. Booth,
Philippe Hamon Ph. Hamon. Seuil/points, Paris 1977.

(٤) Philippe Hamon ''le personnel du romqn'' Droz. Geneve. 1983.

(٥) Henri Mitterand ''le discours du romqn'' P.U.F. Paris 1980.

(٦) Mikhail Bakhtine ''Le Marxisme et la Philosophe du Langange'' ed. de Minuit. Paris. 1977.

(٧) Gerard Genette ''Figure s I'' ed. Seul/points. Paris. 1977

(٨) Jean Decottignies ''Lecriture de la Fiction, situation ideologique du roma'' P.U.F. Paris. 1979.

(٩) Aristote ''La Poetiqne'' Texte, traduction, notes par Roselyne Du pont-Roc et Jeqn Lallot. Seuil. Paris. 1980.

(١٠) E. Zola ''Germinal'' Livre de Poche.



بداية الكتابة العربية

محمود حلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

شكل رقم ١ : بسملة بالخط الكوفي
الفاطمي كتبها أحمد يوسف

بداية الكتابة العربية

حروف الكتابة العبية تبلغ ثمانية وعشرين حرفا ، ذهب بها المنهج العربي التقليدي أنها إنما جاءت بهـذا القدر لتكون مثل « منازل القمـر » المقسمة إلى ثمـانية وعشرين قسما « ولما كانت منازل القمر يظهر منها فوق الأرض أربع عشرة منـزلة ويغيب تحت الأرض أربـع عشرة ، كانت هذه الحروف ما يظر منها مع لام التعريف أربعة عشر بعـدد المنازل الـظاهرة وهي الألف والبـاء والحـاء المهملة والخاء المعجمـة والعين المهملة والغـين المعجمـة والفاء والقـاف والكاف والـلام والميم والهـاء والواو والباء المثناه تحت ، وما يدغم أربعة عشر حرفـا أيضا بعدد المنازل الغائبة ، وهي التاء المثنـاه من فوق والثـاء المثلثة والـدال المهملة والذال المعجمـة والـطاء المهملة والظاء المعجمة والنون . » (١) وهذه المنازل القمرية قد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة « يس الآية ٣٩ » .

« والقمـر قـدرنـاه منـازل حتى عـاد كـالعـرجـون القديم » .

وارتبـاط الحروف الأبجـدية العـربية بمنـازل القمر المتباينة له جذور ضاربة في تاريخ الشرق الاعتقادى منذ فجر الحضارات ، فعبادة القمر وكان يطلق عليه « الاله سين » « وسين هذا هو سيد الشهر ينـظم أيام الشهـر والسنة » (٢) وكانت عبادة القمر قائمة في كل مكان نجدها عند السومريين وهم جنس غير عربي عاشوا في منطقة الرافدين الجنوبية منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد

(١) أبو العباس القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الأنشاء . الجزء الثالث ص ١٦ ـ ١٧ . الطبعة المصورة بالقاهرة ١٩٦٣ .
(٢) سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور / السيد يعقوب بكر ص ٢٥٥ القاهرة بدون تاريخ .

وكانت ذات العبادة قائمة عند « الأكاديين » AKKADIANS (٢٧٠٠ ق . م) وهم السلالات العربية التي سكنت المنطقة . وكانت مدينة « أور » أحد مراكز عبادة القمر وكذلك المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية حيث يوجد حتى الآن أطلال معبد في مدينة « الحريضة » بحضرموت — CHATTAM OTITAI ، وكذلك كانت أرض « سيناء » تعرف باسم « أرض القمر » . ويعد إله القمر من أقدم الآلهة ويعتبر أبا للالهين الشمس وكوكب الزهرة . » (٣)

وإذا كانت هناك أسماء مختلفة قد أطلقت على « الجنس العربي » على مدى من التاريخ البعيد السابق فهم وأينما كانت مواطنهم في أرض « الهلال الخصيب » قد احتفظوا في كل مكان حلوا به بلغتهم التي خرجوا بها من موطنهم الأصلي بيد أن هؤلاء الذين بقوا في هذا الموطن ولم يبرحوه في أي هجرة من الهجرات السابقة قد تميزوا بأنهم حافظوا على لسانهم العربي ولغتهم الأم وقد ساعدهم على ذلك طبيعة البيئة الصحراوية المغلقة المنعزلة القاصرة على سكانها وحدهم ومثل هذه الطبيعة الصحراوية دائما ما تشكل المحافظة المطلقة على الجنس والعادات والمعتقدات وبنيتها المنطوقة .

وحين جرت اللغة العربية سلسة وطيعة على لسان سكان شبه الجزيرة العربية ، ظهرت ملكات فطرية كفيض متدفق أراد الله تعالى له أن يكون شيئا مختلفا غير هذا الذي نجده في الفرع « الارامي » أو « النبطي » أو حتى في الشكل الذي نلقاه في ما سموه « العربية البائدة » التي نجدها في النقوش « الصفوية » أو « الثمودية » و « اللحيانية » أو حتى في هذا الفرع المتأخر من اللغة « الأرامية المسيحية » (السريانية) ذات الكتابة « السطرنجيلية » وذلك لأن رسم الحروف الأبجدية العربية كان له تشكيله الطبيعي الذي له دوافعه في الوسائل والغايات التي لا علاقة تربطه بالخط « المسماري السومري » أو « المصري الهيروغليفي » أو « الأكادي المسماري » أو « الفينيقي » وكذلك لم يكن للحروف العربية الأولى أدنى علاقة تربطها بهذه الصورة التي نجدها في الخط « المسند الجنوبي » الذي ذهب فيه رأي ابن « خلدون » في قوله : « وكان الخط بالغا مبالغه من الأحكام والأتقان والجودة في دوله التتابعة لما بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة المنذر أنسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التتابعة لقصور ما بين الدولتين » (٤)

ولم يكن رأي « ابن خلدون » هو وحده الذي ذهب بأصول الكتابة العربية إلى الخط المسند فقد ذهب معه الكثير مثل « الفيروز ابادى » صاحب « القاموس المحيط » الذي قال عن هذا الخط ، لقد سمى العرب خطها بالجزم لأنه جزم واقتطع من المسند الحميرى ، وهذا ما ذهب إليه أيضا الألوسي في بلوغ الأرب ، في قوله وسمى خط العرب بالجزم لأن الخط الكوفي كان أولا يسمى الجزم قبل وجود الكوفي لأنه جزم أي اقتطع وولد من المسند الحميرى ومرامر هو الذي اقتطعه » (٥)

وإذا كانت مثل هذه الأراء القديمة لا تجد لها من يعارضها في الماضي فهي في وقتنا الحاضر قد تغيرت بسبب المكتشفات الأثرية الحديثة التي لاحقتها دراسات موضوعية أثرت المادة العلمية باضافات وحقائق جديدة سعى بها أصحابها من العلماء أن يلزموا مادة « النقوش العربية » ARABIC INSCRIPTIONS، وأصول الكتابة العربية وجذورها وتعاقبها في الزمان والمكان مسارا منهجيا مرتبطا بالموضوعية الأثرية والتاريخية حتى ذهب الرأي العلمي ليقول : « إن الخط العربي لم يقتطع من المسند الحميرى كما تقول هذه

---

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٧٦ كتاب الشعب بدون تاريخ .

(٥) الدكتور / خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره قبل الاسلام ـ مجلة كلية الأداب المجلد الثالث الجزء الأول ص ٣ القاهرة مايو ١٩٢٥ .

الرواية ، وليس هناك أي علاقة بينها سوى أنها قد اشتقا من أصل عربي واحد كما يظهر في مقارنة الحروف العربية القديمة التي تدل على أنها تختلف عن بعضها اختلافا شديدا . إذن فهذه النظرية خاطئة ، ولعل هذا الخطأ نشأ عن أن العرب في عصر التدوين كان تعرف عن طريق الروايات المتواترة أن اليمن فرضت خطها المسند على بعض الأمم العربية الشمالية فاشتقت منه قلما تكتب به ، والمقصود بذلك اللحيانيون والثموديون والصفويون لأنهم اقتطعوا خطين من المسند الحميرى فظنت العرب أن المقصود بهذه الروايات هو خطها الذي تكتب به وذلك لأنها كانت تجهل هذه الخطوط السابقة كما أنها كانت لا تعرف علم البحث عن النقوش . » (٦)

وقلم « المسند » هو ذلك القلم الذي عرفه ابن خلدون باسم المسند الحميرى وهو ذلك الخط الجنوبي « الذي عرف عند المستشرقين باسم القلم « الحميرى » و « المسند » عند الاسلاميين من كلمة (مسند) ومعناها الكتابة في اللهجات العربية الجنوبية ، وهي أدق معنى من مصطلح المستشرقين فإن « حمير » قوم متأخرون بالنسبة إلى المعينيين « والسبئيين » و « الحضرميين » و « القتبانيين » وقد عرفوا قبل الميلاد فيما بعد ، ولا يجوز إلحاق المتقدم بالمتأخر ، والصحيح هو العكس ولصعوبة إثبات أول من استعمل هذا القلم من عرب الجنوب لننسبه إليه ، لذلك أفضل تسمية الأسلاميين على تسمية المستشرقين » (٧) وذلك عند قول الدكتور « جواد على » .

ولسنا هنا في موضع مقارنة بين الخط المسند ككتابة جنوبية موطنها ربوع اليمن وبين الخطوط الشمالية « آرامية » كانت أو نبطية » ولكننا نجد في أنفسنا أنه من الضرورة أن نضع في تصورنا أنه إذا كان هناك موضوع خلاف قائم بشأن رسم الحروف وشكلها بين الخط العربي الشمالي والخط العربي الجنوبي فالأمر ليس كذلك ، من الناحية اللفظية والحركة المنطوقة التي يمكن أن نقول عنها أنها كانت متماثلة تماما مثل الأصول العرقية ، ومهما كان من أمر فهؤلاء الذين كتبوا بالخط المسند كانوا على وجه التأكيد أحد الفروع الرئيسية المنتمية إلى « العرب العاربة » وأن أنسابهم كما تحدثت عنها الرواية العربية كما يقول المؤرخ « المسعودى » أنها : « متصلة بإسماعيل بن إبراهيم الخليل كما يحكى هشام بن الكلبي » (٨) وأن لغتهم التي كانوا يتحدثون بها كانت هي اللغة العربية التي يتحدث بها أهل الشمال الذين كانت مكانتهم الحضارية بحكم موقعهم الجغرافي تفوق المكانة الجنوبية رغم كل المكتشفات الأثرية التي ظهرت في الجنوب ، وذلك لأن الشمال بسلالته العربية كان له تاريخ حضاري مميز وضارب في أعماق الزمان والمكان وفي بعض رأي العلماء أنه كان يرجع إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، ويؤكد ذلك ويثبت أثريا ، « أنه قد عثر على نقش مكتوب بالخط المسماري خاص بالملك « نرام سين » NARAM — SIN يذكر أرض ارام وكانت تقع في الجنوب من الرافدين . (٩) « نرام سين » هو أحد ملوك الدولة الأكادية التي كان شعبها ممن خرج من الجزيرة العربية .

عربي : ا د ر ح ى م ع ف ص س
عربي جاهلي :
حميرى :

شكل رقم ٢ : حروف مختلفة من الابجدية الجاهلية والحميرية (المسند) وما يقابلها من الحروف العربية .

(٦) المصدر السابق : ص ٣ - ٤ .

(٧) الدكتور / جواد علي العرب قبل الاسلام (الثقافة الأسلامية والحياة المعاصرة) جمع وتقديم / محمد خلف الله ص ٣١٤ القاهرة ١٣٣٤هـ - ١٩٥٥ .

(٨) أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزء الثاني ص ٧٠ القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ .

(٩) سبتينو موسكاتي : نفس المصدر ص ١٧٦ .

والشعب « الأكادى » هو من هذه السلالة التي يحتم علينا أن نطلق عليه « الجنس العربي » الذي خرج من الجزيرة العربية وانتقل إلى أرض « الرافدين عندما حل بالأرض العربية تغيير جيولوجي شامل أحال الأرض الخضراء إلى صحراء قاحلة وفي هذه الأرض الجديدة ويجانب النهر الكبير استقر هذا الشعب العربي الذي أخذ بزمام أموره زعيم قوى هو الملك « سرجون الأول » SARGON (٢٣٠٠ ق . م) وأسس الدولة « الأكادية مستعيرا مقوماتها السياسية بما كان لدى الشعب « السومرى » (٢٥٠٠ ـ ٢٣٠٠ ق . م) الذي لا نعرف له جذورا عرقية ، والذي سكن هذه المنطقة قبل أن يحل بها الأكاديون . وإذا كان هذا الملك الأكادى قد أخذ بأسباب الحياة التي وجدها مزدهرة آنذاك في أرض الرافدين ، فهو لم يغير من لغته القومية الذي خرج بها من موطنه الأصلى ، فقد أبقى عليها لأنها كانت لديه حقيقة قومية له ولشعبه ، ولكن ضرورة الحياة حتمت عليه وعلى قومه أن يكتبوا لغتهم العربية بالحروف « المسمارية » CUNEIFOR, SCRIPT التي كانت مستعملة في الكتابة « السومرية » التي كانت تكتب على الرقم « الفخارية والتي ظلت مستعملة كصحائف مميزة للتدوين حتى إبان عصرى الدولة « الأشورية » (١٠١٥ ـ ٥٠٠ ق . م) والدولة البابلية (١٠٠٣ ـ ٣٠٠ ق . م) بل وكتب بها أيضا شعوب ساحل البحر الأبيض حيث استعملتها مملكة أبله EBLA (٢٤٠٠ ـ ٢١٥٠ ق . م) وكذلك مملكة « أجاريت » UGARIT (١٥٥٠ ـ ١٢٠٠ ق . م) وكل هؤلاء ينتمى أصلهم إلى العرق العربي .

واذا كانت الدولة البابلية قد استعملت الحروف المسمارية لتكتب بها لغتها العربية فقد كان ذلك منها اتباعا أخذته عن السابقين لها رغم ما كان هناك من فروق في الخاصية اللغوية التي تفصل بين قواعد اللغة السومرية وقواعد اللغة « البابلية العربية » وهذا ما دلل عليه عالم اللغات القديمة « وليم رايت » W . WRIGHT في كتابه « محاضرات في قواعد المقارنة للغة السامية » قال فيه : ان هناك فوارق رئيسية بين اللغة السومرية واللغة البابلية هى الآتية :

١ ـ اللغة السومرية تعتمد على التركيب المزجي في تكوين ألفاظها على حين أن اللغة البابلية تعتمد على تغيير جميع الكلمات وتصريفها في تغيير معانى ألفاظها .

٢ ـ جذر أو مادة الفعل السومرى غير قابل للتغيير أما جذور الفعل البابلي فإنه يتغير بتغيير الحركات .

٣ ـ ليس في السومرية صيغ للتعبير عن المذكر والمؤنث بخلاف البابلية ففيها صيغ للتذكير والتأنيث .

٤ ـ حروف الجر تأتي بعد الاسم المجرور في السومرية على حين أنها تأتي قبل الأسم المجرور في البابلية .

٥ ـ إذا كان المفعول ضميرا أدمجته السومرية في ثنايا الفعل ، أما البابلية فانها تلحقه بالفعل في آخره .

وتتفق البابلية في جميع هذه الاعتبارات مع اللغات السامية ولا سيما العربية . أما السومرية فليس من المحقق بعد معرفة الأسرة اللغوية التي تنتمي إليها . ولعلها شوائب لغوية من العصور التي قبل التاريخ » (١٠)

ويساند هذا الرأي ويعززه ، « ما ذهبت إليه طائفة من العلماء المحدثين على رأسهم العلامة « أولزهاوزن » OLSHAUSEN إلى أن اللغة العربية هي أقرب اللغات إلى السامية الأولى » (١١) وكان الأحرى بهذا العلامة إذا أراد أن يكون منصفا مع مادته العلمية أن يقول أن اللغة العربية المحدثة هي أقرب ما تكون إلى اللغة العربية الأم وإذا كانت هناك آراء متباينة ازدحم بها حقل أصول اللغة العربية ومكان الموطن الأول للشعب الذي يتكلم بها .

(١٠) ج . أ . دريفر : حل رموز الكتابة السومرية والبابلية والعلمية والكلدانية : مجلة الأدب والفن الجزء الأول ص٧٤ السنة الثالثة لندن ١٩٤٥ .
والمرجع : وليم ريت :
W. Wright: Lectures on the comparative grammer of the semitic languages

(١١) الدكتور إعلى عبد الواحد وافي : فقه اللغة الطبعة الأولى ص ١٥ القاهرة ١٩٤٥ .

وهناك العديد من الدراسات الموضوعية التي أكدت علميا وأثريا أن الوجود العربي كان قائما في منطقة الرافدين قبل قيام الدولة الأكادية العربية (٢٣٠٠ ق . م) أي أن وجود العرب في هذه المنطقة الخصبة كان قائما ابان هيمنة الدولة السومرية (٢٨٠٠ ق . م) التي لا نعرف شيئا عن شعبها ولا عن موطنهم الأصلي الذي جاءوا منه ، ولا عن تاريخ دخولهم أرض الرافدين وقد تناول العديد من العلماء في أوربا هذه الدولة بالبحث والاستقصاء الشامل في دراسات معاصرة ألقت الضوء على هذه الحقبة التاريخية . كما تناولها علماؤ نا في العراق في دراسات علمية وتاريخية وأثرية ، ومن ذلك هذا البحث القيم الذي كتبه الأستاذ « عبدالكريم عبدالله » ومهد له بقوله : « ما تزال في الهيكل الحضاري العام لبلاد الرافدين نقاط غامضة إلى جانب معلومات وحقائق أخرى مشتتة تحتاج إلى الجمع والتثبيت خاصة بعد كشف التنقيبات الأثرية والدراسات اللغوية الحديثة لجوانب من ذلك الغموض وبقاء تلك المعلومات خارجة عن محور التاريخ الحضاري العام لبلاد وادى الرافدين في الكتب التي تؤلف أو تبحث في ذلك التاريخ . ولعل في تلك الجوانب التي ما يزال الغموض يحيط بها هو الوجود السامي « العربي » في العراق قبل قيام الدولة الأكادية التي غالبا ما يعدها المؤرخون ممثله لأول هجرة سامية (عربية) في العراق » (١٢)

وبعد ما أتى الأستاذ عبدالكريم عبدالله بالعديد من آراء العلماء مثل « ف . كريستيان » و « جوردن تشيلد » و « أنطون موركات » و « موسكاتي » و « ساجى » و « كرامر » وغيرهم ممن تناولوا هذه الحقبة من تاريخ الشرق القديم ، قال : « نضيف إلى ما تقدم من الاحتمالات والشواهد الجغرافية واللغوية والإدارية التي تعكس ملامح الوجود السامي (العربي) في العراق قبل قيام الدولة الأكادية مع ملاحظة أخرى قد تكون مهمة بالنسبة لحضارة عصر فجر السلالات ومن ثم فإنها ربما تبين أثر الساميين « العرب » في جوانب الحضارة السومرية وتأثير فكرهم الديني في الفكر الديني السومرى . » (١٣)

وحتى إذا جاء الى آخر البحث استخلص فيما استخلص نتائج ذات أهمية بالغة ذهب فيها قوله : استنادا إلى كل ما تقدم يمكننا القول بأن الساميين العرب قد وجدوا في وادى الرافدين منذ أزمنة قديمة جدا تسبق العصور التاريخية وأنهم قد تركزوا في المناطق الشمالية لبلاد سومر منذ بدايات عصر فجر السلالات ، لذلك فإن ظهور الأكاديين في بلاد الرافدين لا يمثل أول هجرة من الجزيرة العربية أو بلاد الشام إلى العراق كما أنهم لا يمثلون ـ كما يرى البعض ـ فتحا أجنبيا بقدر ما كان تحركا شعبيا اتجه من جزء من موطنه نحو آخر تمثلت فيه وفرة الماء وخصوبة الأرض وهي في الوقت نفسه كانت حركة لاحقة لأخرى سبقتها في الاستقرار بفترة لا يمكن تحديدها بالضبط . » (١٤)

وإذا كان علينا ان نضيف شيئا موضوعيا إلى هذه الحقائق الأثرية واللغوية المتعلقة بالوجود العربي في منطقة الرافدين قبل قيام الدولة الأكادية فهناك واقع آخر على جانب كبير من الأهمية الحضارية ، ظهر واضحا في ذلك التباين الذي يفصل ما بين بنية الفن السومرى وبنية الفن الأكادى وهذا ما يمكن التأكد منه والتعرف عليه بوضوح حين نلقى نظرة فاحصة على القطع الأثرية المختلفة الشكل والخامة التي بقيت من التراث الفني لكل من الدولة السومرية والدولة الأكادية . والتي نجدها في متحف بغداد ، ومتحف اللوفر والمتحف البريطاني بلندن . إن هذه القطع الأثرية سوف تعطينا الدليل الموضوعي على أن الفن الأكادى لم يتأثر بالفن السومرى السابق له رغم ما كان بينهم من صلات تاريخية ومكانية . ومن ثمة فسوف يمكننا أن نقول أنه مما لا سبيل الشك فيه أن المدرسة السومرية الفنية كانت من خلال خصائصها متباعدة كل البعد ومنفصلة كل الانفصال

---

(١٢)عبد الكريم عبد الله : ملامح الوجود السامي في جنوب العراق قبل تأسيس الدولة الأكادية : مجلة سومر ص ٥٩ ـ ٦٠ الجزء الأول المجلد الثلاثون بغداد ١٩٧٤ .

(١٣) المصدر السابق ص ٧٥ .

(١٤) المصدر ص السابق ص٧٦ .

عن المدرسة الفنية الأكادية ، لا في الأساليب التشكيلية والطابع التعبيري وحده بل وفي طبيعة كل منهما التي تأتت من أن جذورهما الفنية مختلفة المصادر .

ومهما كان من أمر ومهما تعددت الآراء واختلفت فيما بينها أو تقاربت ، : « فمن المسلم به الآن لدى معظم المحدثين من علماء الاستشراق أن اللغة العربية قد احتفظت بكثير من الأصول السامية القديمة في مفرداتها وقواعدها وأنه ما تكاد تعدلها في ذلك أي لغة (سامية أخرى) ويرجع السبب في هذا إلى نشأتها في أقدم مواطن (الساميين) وبقائها في منطقة مستقلة منعزلة . فقلت بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى ولم تذلل لها سبل كثيرة للبعد عن أصلها القديم(١٥) وكان لابد أن يأتي ذلك الحين الذى احتضرت فيه الكتابة المسمارية ، وأن تأخذ شعوب الشرق العربي بالحروف « الآرامية العربية » التي من المحتمل أنها قد انبثقت من حروف أبجدية سابقة كانت موجودة من قبل وقائمة عند بطون عربية لم يكشف عنها بعد حتى الآن أو ربما تكون هذه الأبجدية من إبداع (العرب الآراميون أنفسهم) وبلغت ذروتها حين أفسح التاريخ لها مكاناً مرموقاً بين أقرانهم منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد وإذا كان بعض العلماء قد أبانوا عن أصول الحلقة المفقودة للحروف الأبجدية العربية القديمة وعينوا مكاناً وزماناً معيناً وشعباً بذاته هو صاحب هذه الحروف فقد ذهب البعض الآخر من العلماء وأتى رأيهم على نحو مختلف . وبين رأي هؤلاء وأولئك ظل الأمر مجهولاً لتبقى جذور الأبجدية « العربية الآرامية غير معروفة وسيبقى الأمر هكذا حتى يتاح للحقيقة اكتشافات جديدة ومن هنا لا يسعنا إلا أن ننتظر وقد أخذتنا السخرية من نظرية هؤلاء الذين دفعتهم عصبيتهم الضيقة ممن ألقوا القول جزافاً وتشدقوا بأن الحلقة المفقودة إنما هي أبجديتهم » التي سموها أبجدية جبيل وصدقوا ما زعموه لأنفسهم وما دفعه اليهم بعض علماء فرنسا حين قالوا لهم أن أبجديتهم هذه هي أقدم أبجدية ظهرت على وجه الأرض التي تقع بين النيل والفرات وهكذا تطاولت أحلام الصغار على حقائق التاريخ وأصبح مركب النقص الماروني شيئاً ملموساً(١٦) .

والشعب الآرامي يرجع بأصوله الى العرق العربي وأنه خرج من موطنه الأصلي من شبه الجزيرة العربية ليظهر في التخوم القريبة من أرض الفرات ، وهو ذلك الشعب الذي عرف عنه أنه كان يحسن ممارسة التجارة ونقلها عبر المسالك والدروب الصحراوية ، وقد أتاح لهم هذا الانتقال من مكان إلى مكان حاملين تجارتهم وحاملين أبجديتهم ، ليفرضوا هذه الأبجدية على الأمبراطورية الفارسية منذ سنة (٦١٢ ق.م) . لقد أخذت الدولة الفارسية الكيانية ACHAEME-NIDS بهذه الأبجدية لملاءمتها في تصريف الشئون التجارية وجعلوها بجانب الكتابة المسمارية التي كانت هي الأخرى معارة لهم . وما برحت هذه الكتابة الآرامية حتى تمكنت من أن تكون هي وحدها لغة (الهلال الخصيب) كله وحلت أيضاً محل اللغة العبرية في فلسطين . . . وأصبحت لغة التجار الآراميين بعد مضي عدة قرون على اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح ويهود عصره في فلسطين(١٧) بل وقضت اللغة الآرامية على اللغة الفينيقية في القرن الأول قبل الميلاد بل ووقفت صامدة أمام أبجدية الأغريق وأبجدية الرومان

---

(١٥) الدكتور / علي عبد الواحد وافي : المصدر السابق ص١٦ .

(١٦) حاشية :

اذا أردت أن تقف على مصدر هذا السخف فهناك كتاب الأب اميل اده اللي سماه جبيل مهد الأبجدية ـ بيروت ١٩٧٣ .

(١٧) جيمس هنري برستد : انتصار الحضارة ـ تاريخ الشرق القديم ـ ترجمة الدكتور / أحمد فكري ص ٢٠٧ القاهرة ١٩٦٩ .

رغم أن كلاهما كان يفرض على الأرض وجوده الاستيطاني .

لقد ظهر العرب الآراميون في التاريخ القديم منذ ذلك الحين الذي كان فيه الشرق مسرحاً لتقلبات تاريخية جسيمة . كان موطنهم هذه الأرض كلها المترامية العريضة التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية يحدها من الشرق أرض الرافدين ومن الغرب التخوم السورية ، ومن الشمال الأناضول وكانت في وضعها الجغرافي في هذا المعبر الوحيد لكل غاز خارج من الغرب قاصداً الشرق وكل فاتح خارج من الشرق قاصداً الغرب وبسبب ذلك نزلت بهم كوارث متلاحقة سببت لهم فى كثير من الأحيان فقدان حريتهم السياسية ولكن رغم ذلك كله ورغم العتاولة الذين كانوا يعيشون من حولهم فقد بقي وجودهم قائماً في الزمان والمكان وذلك بسبب أنهم كانوا أصحاب لغة ذات أبجدية سهلة الكتابة وبهذه الأبجدية المبتكرة مضى « العرب الآراميون يفرضون أنفسهم على الفاتحين الذين احتاجوا اليهم لكي يكتبوا لهم شئون تجارتهم » والآراميون يكونون لغوياً وحضارياً الفرع الشرقي من اللغات السامية الشمالية أي الكتلة الواقعة غربي العراق ، فبينما الكنعانيون والفينيقيون يسيطرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط بموانئه كان الآراميون الى الخلف في سهول سوريا وبوادي الشام يسيطرون على نوع آخر من الموانيء هي محطات القوافل الواقعة على خطوط التجارة البرية القديمة وأن أحد عواصمهم الكبرى وهي مدينة حران كان معنى أسمها الطرق[18] .

وما أن جاءت نهاية القرن السابع قبل الميلاد حتى اصبحت الحروف العربية الآرامية حروف لغة عالمية تكتب بها المراسلات الدولية لعالم « الهلال الخصيب » ، وقد عثر على كتابات عربية آرامية مكتوبة على ورق البردى في أماكن متفرقة ومن ذلك ما كشف في سقارة عن رسالة باللغة الآرامية من أحد ملوك فينيقيا ووجدت نقوش آرامية قديمة في واحة تيماء شمال الحجاز ولما قضى قورش على بابل سنة (٣٩ ق.م) كانت اللغة الآرامية هي اللغة الرسمية لجميع ولايات (أسترابيات) الأمبراطورية الفارسية التي بلغت شرقاً إلى نهر الأندوس وغرباً إلى نهر النيل . وفي مصر تراسل الموظفون الفرس والمصريون بالآرامية وهي لغة أجنبية لكلا الطرفين ، ومما يدل على دولية اللغة العثور على بردى أرامي في جزيرة الفنتين بأسوان ، وعثر في بابل على ألواح للمحاسبة كتبت بالآرامية وفي آسيا الصغرى عثر على كتابات آرامية من العهد الفارسي[19] .

وإن دل ذلك على شيء فهو يدل على أن اللغة العربية الآرامية قد أصبح لها مميزاتها بين لغات العالم القديم . وذلك بسبب أبجديتها التي كانت من السهولة والوضوح بمكان جعل كل لغات الشرق تنقل عنها حروفها لتستعملها في الشئون التجارية وذلك لأن « اللغة الآرامية وهي اللغة التي كان يتكلم بها التجار الآراميون الذين كانوا يملأون الأسواق البابلية ، قد أصبحت في ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمداد على أوراق البردى إذ كانت الرقم الفخارية في طريقها إلى الزوال شيئاً فشيئاً[20] .

وموضع الثقل في الأبجدية العربية الآرامية أنها كانت الأبجدية الأم لكثير من الأبجديات التي ظهرت في الشرق فاليهود استبدلوا حروفهم الفنيقية فيما بين القرنين

(١٨) الدكتور / حسن ظاظا : الساميون ولغتهم ص ١٠٢ الأسكندرية ١٩٧١ .

(١٩) الدكتور / عبد الحميد زايد : نظرات عابرة في العلاقات بين لغات الشرق القديم (٢) مجلة عالم الفكر المجلد الثاني العدد الرابع ص ١٧٦ الكويت ١٩٧٢ .

(٢٠) جيمس هنري برستد : نفس المصدر ص ٢٦٦ .

السادس والرابع قبل الميلاد بحروف آرامية والخط العبراني المسمى بالخط المربع مشتق من الخط الآرامي واتخذ العرب الشماليون الحروف الآرامية وأخذ الأرمن والفرس والهنود خطوطهم من أصول آرامية(٢١) .

وجاء ذلك الحين الذي تحول فيه التاريخ عن أن يأخذ بالكتابة « العربية الآرامية » وذلك لأن كتابة أخرى هي العربية النبطية قد ظهرت على مسرح التاريخ العربي بحروفها المختلفة ، أشتقها « الأنباط » من أبجدية أولاد عمومتهم « الآراميون » وكتبوها على نحو جديد إذ جعلوا حروفها متصلة ، ولا شك أن اتصال بعض الحروف النبطية ببعضها قد جعل لها ميزة موضوعية ولغوية جاءت خطوة الى الارتقاء ، افتقرت اليها الكتابة الآرامية السابقة ، بل أي كتابة أخرى معاصرة أو سابقة لها ، بيد أنه رغم ما حققته المكتشفات الأثرية من جلاء رؤية تاريخية ، « فلا يعرف العلماء شيئاً عن تاريخ النبط قبل العصر الهليني (٣ ق.م) ويقول المستشرق الانجليزي (ج.أ. كوك) G.A.COOKE في كتابه « النقوش السامية الشمالية » أنه من المحتمل أن كلمة « الأنباط NA-BA-T-AI التي كانت تطلق على قبائل عربية كما جاء منقوشا على الحجر الأسطواني لآشوربانيبال The RASSAN CYLINDER OF ASSUR-BANIPAL تعني الشعب النبطي وفي العصر الهليني نرى النبط لأول مرة على مسرح التاريخ في عهد أنتيجونس ANTI-GONUS في سنة (٣١٢ ق . م) حيث يروي ديدور الصقلي في أخباره أنه أرسل حملتين لتأديب النبطيين كما يحدثنا أيضاً عن مقاومة جيش نبطي مؤلف من عشرة آلاف رجل لجيوش أنيجونوس (٢٢) .

لقد كان لهؤلاء الأنباط مملكة قائمة على أرض الشرق العربي منذ عصر الدولة الأشورية « (١٠٠٠ ـ ٦٠٠ ق.م) » وقد بلغت ذروة ازدهارها في الفترة السابقة لاحتلال الرومان سوريا عام (٦٥ ق.م)(٢٣) .

وكانت هذه الدولة تربط بين العالم الحضاري المحيط بها وتنقل له تجارته وتقوم بحماية طرق قوافله الحيوية ومن هنا كانت الكتابة من الأمور الملحة لوجودهم . في البداية أخذوا الحروف العربية الآرامية ليكتبوا بها وظلوا يستعملونها إلى حين حتى اتخذوا لأنفسهم أبجدية خاصة بهم عثر على نماذج منها في (العلا) بالحجاز وفي بترا PETRA وفي أرض بصرى بالشام وفي واحة تيماء والحجر ويرجع تاريخ أقدم نقش نبطي لعام (٣٣ ق.م) وأحدثها لعام (١٠٦ ميلادية) نقشت برسم نبطي متصل الحروف (٢٤) كما يوجد لدينا من النقوش النبطية المتصلة الحروف ذلك النقش الذي يعرف بأسم

شكل رقم ٣ : حروف آرامية عن : زيدان

(٢١) الدكتور / نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم رقم ٣ (سورية) ص ٤٨٠ الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٦ . (٢٢) الدكتور / خليل يحيى نامي : نفس المصدر ص ١٠ ـ ١١ .

المصدر المذكور :

G.A. Cooke: A text-book of north semitic inscriptions, Oxford, 1903.

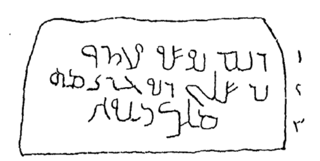
(٢٣) سبتينو موسكاتي نفس المصدر ص ٢٠٢ .

(٢٤) الدكتور / عبد الحميد زايد نفس المصدر ص ٨٥ .

صاحبه « فهروبن سلي » عثر عليه في « أم الجمال » وأرخه « أنوليتمان » ترجيحا بعام (٢٧٠ ميلادية) .

ولا شك أن اتصال بعض الحروف النبطية بعضها مع البعض في هذا النقش قد جعل لهذا الأثر ميزة موضوعية ولغوية ، وخطوة الى الارتقاء افتقرت اليها الكتابة « الآرامية » السابقة بل وأي كتابة أخرى عثر عليها حتى ذلك التاريخ .

إن كل ما نقب عنه العلماء ورجال الآثار وكل ما عثر عليه من نقوش « نبطية » أخذ سبيله الى دراسات متباينة وأبحاث مختلفة أثرت المادة العلمية والتاريخية ، قام بها علماء من مختلف الجنسيات مثل « الكونت دي فوجي DE VOGUE » و « ديسو » R. DUSSAUD و « وادنجتون » WADDINGTONE و « فيتزشتين » WIETZSTEIN و « مورتز » MORITZ و « ليتمان » LITTMANN الذي



شكل رقم ٤ . نقش فهر وبنةسلي عثر عليه في أم الجمال

عن : المنجد

النص العربي النبطي	النص العربي
١ ـ دنه نفشو فهرو	هذا قبر فهر
٢ ـ بن سلي ، ربو حد يمت	ابن سلي مربي حذيقة
٣ ـ ملك تنوخ	ملك تنوخ[٢٥]

شكل رقم ٥ : مفردات من حروف نقش فهرو ابن سلي بالعربي والمقابل النبطي

(٢٥) حاشية :

أصدر قسم الآثار والمتاحف بكلية الاداب جامعة الملك سعود دراسته مختصرة عن هذه المواقع الأثرية في كتاب صدر حديثا باسم مواقع أثرية وصور من حضارة العرب (١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤)

نشر دراسة عن مكتشفاته في مجموعة المكتشفات النبطية CORPUS, NABATAEAN INSCRIPTIONS ومنهم أيضاً « جون بوركارت » J. BURCKHARDT و « جورج مارش » G. MARSH و « موسكاتي » S. MOSCATI وغيرهم . فالحقل قد اتسع بالعديد من الدارسين الذين دفعوا بالدراسات المنهاجية قدماً وأشتهروا بأبحاثهم ومكتشفاتهم . ولا شك أن هذه المادة سوف تثرى بالكثير في الوقت الحاضر حين تنتهي بعثة كلية الآداب « جامعة الملك سعود » من أعمال التنقيب لمنطقة « العلا » و « الحجر » (مدائن صالح)[٢٦] .

وكان من الطبيعي أن يتحول « العرب الأنباط » عن الكتابة بالحروف « العربية الآرامية » ويأخذوا أنفسهم بصورة أخرى من الحروف جاءت في أول أمرها متواضعة الأداء ولكنها ما برحت حتى استقام شكلها وقد عثر العلماء على العديد من هذه الكتابات « مكتوبة على ألواح حجرية أو منقوشة على صخور الجبال وقد قسمها العلماء قسمين ، الأول : كتابات مكتوبة بخط متقن ومنقوشة بدقة على الألواح الحجرية أو الصخور ، وأكثرها وجد في مدائن صالح (الحجر) والباقي في سلع وفي بلاد حوران كما أنها في الغالب أنها من القبريات ، يكتب فيها اسم صاحب القبر واسم مشيده وأسماء من يدفنون فيه وفي بعض الأحيان يذكر فيها تاريخ النقش بحسب التاريخ النبطي . والقسم الثاني : كتابات وجدت مكتوبة بخط قبيح وأشبه بالخربشة من الكتابة ويطلق عليها الباحثون اسم الكتابات المخربشة وقد وجدت في أودية طور سيناء وحوران وهي في الغالب كتابات قصيرة جداً كتبت للتذكار أو لتقريب قرابين للآلهة النبطية[٢٧] .

ويمكننا أن نطلق على المرحلة الأولى من الكتابات العربية النبطية « الكتابة العربية الجاهلية » التي ما برحت حتى أن استقامت حروفها وأصبحت أكثر تقدماً وأضبط شكلاً وأدق تعبيراً في نقل حركات الأصوات ، ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة المتطورة « الصورة العربية الجاهلية الثانية » وأحسن نماذجها نجده في « نقش النمارة » المؤرخ سنة (٣٢٨م) . ومن ثمة ظهرت نماذج أخرى تميزت بأن حروفها العربية جاءت أكثر وضوحاً وهذا ما نجده في « نقش زبد » (٥١٢م) وفي « نقش حران » (٥٣٦م) .

ويعد نقش النمارة أهم المكتشفات الأثرية في تاريخ الخط العربي وذلك لأنه يمثل الحلقة التي بين الكتابة "نبطية العربية » وبين الكتابة « العربية النبطية » أو نى آخر الكتابة العربية في صورتها الأولى ونقش النمارة شاهد قبر حجري عثر عليه في بادية الشام وهو من خمسة سطور محفورة على حجر من البازلت على قبر الملك أمريء القيس بن عمرو المتوفى سنة ٢٢٣ بتاريخ مدينة بصرى الموافق ٧ ديسمبر سنة ٣٢٨ ميلادية ، وأبعاد هذا الحجر هي ١,٧٣ متراً في الطول ٠,٤٥ متراً في العرض و ٠,٠٤٠ متراً في السمك ويوجد الآن في متحف اللوفر بباريس[٢٨] وقد عثر عليه الأستاذ « رينة ديسو » R. DUSSAUD، وقام بمساعدة « كلير مون جايو » CLERMONT GANNEAU بدراسته ونشر الأبحاث المتعلقة به وكان رأيه فيه أنه « نص عربي مكتوب بحروف نبطية »[٢٩] .

---

(٢٦) الدكتور/ خليل يحيى نامي نفس المصدر ص ١٥ رقم

(٢٧) الدكتور حسن ظاظا / نفس المصدر ص ١٦٥ .(٢٨) رينيه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ص ٣٣ بدون تاريخ .

(٢٨) رينيه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام الكتاب طبع عام ١٩٥٩ بلجنة التأليف والترجمة والنشر ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ص ٣٣ بدون تاريخ .

(٢٩) الدكتور / على عبد الواحد وافي : نفس المصدر ص ١٠٤ .

شكل رقم ٥ . نقش النمارة على قبر أمرىء القيس (٣٢٨ م)

عن : المنجد

وقد قرأ الدكتور « شوقي ضيف » هذا النص على النحو الآتي : ـ

١ ـ تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج .

٢ ـ وملك الأسدين ونزو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجا .

٣ ـ يزجى في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

٤ ـ الشعوب ووكلهم فرسوا لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ ـ عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم بايكسول بالسعد ذوولده .

وهناك قراءات متباينة « لنقش النمارة تفاوت بعضها عن بعض واختلفت بعض الكلمات من ترجمة إلى أخرى على سبيل المثال نأخذ السطر الأول وترجمته عند بعض الأساتذة المحققين لنتبين مدى التقارب والاختلاف الذي بينهم .

النص : « تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج » .

ترجمها الدكتور / علي عبد الواحد وافي : ـ

« هذا قبر (نفس) أي قبر في العربية البائدة أمرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي (ذو بمعنى الذي في لهجتهم) حاز (أسر بمعنى أو أستولى ولبس التاج[٣٠] .

ونقل الدكتور علي عبد الواحد وافي «هذا السطر كالآتي : ـ

« هذا قبر امرىء القيس ابن عمرو ملك العرب كلها الذي تتوج بالتاج[٣١] .

وترجم الدكتور / عبد الحميد الدواخلي هذا السطر عن « ديسوا » كالآتي : ـ

« هذا قبر أمرىء القيس بن عمرو ملك جميع العرب الذي كلل بالتاج »[٣٢] .

أما الدكتور « شوقي ضيف فقد نقل لنا هذا السطر على هذا النحو : ـ

---

(٣٠) الدكتور / خليل يحيى نامي نفس المصدر ٧١

حاشية :

كتب سيادته النص الأصلي بالحروف العبرية بدلا من الحروف العربية ؟؟

(٣١) ريثيه ديسو : نفس المصدر ص٣٣ .

حاشية :

كتب سيادته النص الأصلي بالحروف العبرية بدلا من الحروف العربية ؟؟

(٣٢) الدكتور : شوقي ضيف : العصر الجاهلي الطبعة الثانية ص ٣٥ - ٣٦ القاهرة ١٩٦٥ .

« هذا نفس (قبر) امريء القيس عمرو ملك العرب كلها الذي عقد التاج »[٣٣] .

أما الدكتور « حسن ظاظا فقد نقله على هذا النحو : ـ

« هذا جثمان امريء القيس بن عمرو ملك العرب جميعاً الذي عقد التاج »[٣٤] .

وجاء هذا السطر عند الدكتور / عبد الحميد زايد هكذا : ـ

« هذا قبر امريء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج »[٣٥] .

وأدق ترجمة لنقش النمارة إنما نجدها عند الدكتور / حسن ظاظا وكذلك عند الدكتور / شوقي ضيف فاذا كنا قد نقلنا بالتفصيل تصور كل منهما ، فذلك لأن تناولهما لهذا النقش كان موضوعياً وشاملاً لأصول اللغة العربية مما أعطى لهذا الأثر الحضاري ما يستحقه من القيمة التاريخية واللغوية والعلمية .

تناول الدكتور / شوقي ضيف هذا الأثر العربي بقوله : « إذا أردنا أن نكتبه ونقربه الى لغتنا اليوم كتبناه على هذا النحو : ـ

١ ـ هذا نفس (قبر) امريء القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذي عقد التاج .

٢ ـ وملك قبيلتي أسد ونزارا وملوكهم وشتت مذ حجا بالقوة وجاء .

٣ ـ باندفاع (بانتصار) في مشارف نجران مدينة شمر . وملك معدا وولى بنيه .

٤ ـ الشعوب ووكله الفرس والروم ، ولم يبلغ ملك مبلغه .

٥ ـ في القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٦ من كسلول ، ليسعد الذي ولده .

ويلاحظ أن الكاتب بدأه في السطر الأول بكلمة تي الأشارية التي للمؤنث وأنها داخلة على نفس ولعلها هنا بمعنى جسد ، وقد استخدم ذو بمعنى الذي ، وهي لغة معروفة بين القبائل مثل طيء ، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصيب وعقد ، وهو من معانيها في المعاجم العربية ، وقد حذف الألف من كلمة التاج ولم يكونوا يثبتونها حينئذ وليس في هذا السطر كلمة غريبة سوى بر التي استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهي آرامية ، ونراه في السطر الثاني يضيف واوا الى نزرو ومذحجوا وفقاً لكتابة النبط التي تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدى فلعلها عكديا ، حذف منها الألف ، وفي المعاجم العكد : القوة . ويريد بالأسدين قبيلتين أسد ونراه في السطر الثالث يستخدم كلمة يزجى من فعل زجا بمعنى دفع أي بالدفع ، ومعنى حبج في المعاجم أشرف وكأنها استعملت في النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ، وشمر من الملوك الحميريين . واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب وفي السطر الرابع ووكلهم بإضافة نون التأكيد إلى الفعل بعد الضمير . ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم وفي السطر الخامس بالسعد ذو ولده أي ليسعد الذي ولده » .

ويمضي الدكتور شوقي ضيف مستطرداً ـ وواضح أن النص يمثل دوراً من أدوار اللغة العربية الذي نزل بها القرآن الكريم فكلماته جميعاً عربية ما عدا بر الآرامية وقد استخدمت فيه آل أداة للتعريف »[٣٦] .

(٣٣) الدكتور / حسن ظاظا : نفس المصدر ص ١١٦ .
(٣٤) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ١١٤ .
(٣٥) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ٣٥ ـ ٣٦ .
(٣٦) الدكتور / حسن ظاظا : نفس المصدر ص ١١٦ / ١٧٣ .

أما تناول الدكتور حسن ظاظا لنقش النمارة فقد جاء مختلفاً نصاً وتحليلاً ذهب قوله فيه « وترجمته لغة مفهومة تكون على النحو الآتي :

هذا جثمان امرىء القيس بن عمرو ملك العرب جميعاً الذي عقد التاج .

وملك قبيلتي الأسد ونزارا ، وملكهم وصد (بني) محج ؟ حتى اليوم وجاء ,

٣ ـ بنجاح الى حصار نجران عاصمة شمر ، وملك (قبيلة) معد ، وقسم على أبنائه .

٤ ـ الشعوب ، وجعلها فرسانا للروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ ـ حتى اليوم . مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ (من شهر) كسلول السعادة لأولاده .

ومضى يفسر هذا النص ويعلق عليه بقوله :

١ ـ برعمرو :

نلاحظ الصيغة الآرامية النبطية بر بدلا من ابن .

ملك العرب كله :

بدلا من كلها أو كلهم ، مما يدعو الى التساؤل هل نسي الكاتب الميم ، أم هل نطق هذه اللفظة كلها بدون حاجة الى أن تكون الألف مكتوبة لأنها حرف مد ؟

ذو أسر التاج :

ذو معناها الذي ، وهي لغة طائية ويمنية شائعة ، كقوله :

فـاذا المـاء مـاء أبي وجـدي
وبئـري ذو حـفـرت وذو طـويـت

٢ ـ الأسدين :

هما قبيلتان كل منها اسمها أسد ولعل إحداهما هي أسد بن ربيعة بن نزار ، والثانية أسد بن شريك وهم بطن من الأزد . وقد قدر بعض المستشرقين أنه يمكن أن تقرأ هنا الأسدين على افتراض أن أحد اليائين ناقصة .

وهرب محجو عكدي :

المفهوم من هرب أنه صد بالهجوم وفرق الجمع ، ومحج مشكلة ، يقول ديسو أن المفهوم أنها قبيلة فإذا كان هذا الملك قد هزمها وشتتها فليس عجيبا أن يبدو اسمها غريبا علينا بما أنها قد اندثرت . ومع ذلك رأى بعض الباحثين أن الكلمة هي (محاج) وأنها وردت في بعض أسماء المواضع في شبه جزيرة العرب ، ذكر ابن هشام في السيرة النبوية موضعا قريبا من مكة اسمه مدلجة محاج ، ويبدو أن المدلجة كانت موضعا فيه بئر يستقي منها الناس وحوض تشرب منه الدواب ، فهذا معناه في لغة العرب ، وهي في هذا الموضع منسوبة الى محاج وقد ورد ذكره مع خلافات ضئيلة أحيانا في كتاب المسالك والممالك لابن خرد اذبة ، وفي معجم البلدان لياقوت الحموي وفي اللسان لابن منظور أما (عكدي) فقد اختلفوا في تفسيرها ، فخرجها بعضهم على أنها من كلمتين من اللغة النبطية « عد . كدي » الأولى بمعنى حتى . والثانية بمعنى ذاك الوقت . وهو تخريج معقول مقبول ، خرجها آخرون على أنها من العكدة وهي القوة فيكون المعنى أنه شتت هذه القبيلة قوة منه وهو كذلك مقبول لا سيما أن أصله عربي ، وأنه يستقيم أيضا مع السطر الخامس . وهناك من رأى أن تصحح القراءة من « عكدي » إلى « عكري » بالراء . من العكر بالعربية وهو الأصل والجذر ، فيكون المعنى أنه شتتهم أصلا أو كما تقول في التعبير المحدث « بصورة جذرية » والواقع أن الذين صححوا ليسوا في حاجة الى تصحيح ففي اللغة العربية عكد الشيء وسطه ، وعكده اللسان أصله وكذلك عكدة القلب .

٣ ـ يزجي :

الباء حرف جر ، في اللغة العربية الزجاء في الأمر تيسيره واستقامته وسهولته وربما كانت القراءة الصحيحة هنا بزجاء أي بسهولة وتوفيق ، أو بنجاح كما قلنا .

حبج :

تقول العرب حبجه بالعصا وحبجه وهبجه أي ضربه ، وحبج نجران أي ضرب نجران ، وان كان أحد من فسروا هذا النقش قال أنه مثل مادة حبق وحبك ، بمعنى أحاط بالشيء وضيق عليه ويضاف الى ذلك أن القراءة نفسها في هذا الموضع فيها صعوبة وقد قرأ بعضهم بدل حبج نجران حرب نجران .

وملك معدو وبين بنيه :

واضح أنه سيطر على قبائل معد ، وأنه وزع السلطان على الشعوب أي القبائل بين بنيه والواقع ان الكتابة هنا مستغلقة أيضا ، وقد قرأها المستشرق افلماني « ليدز بارسكي » وملك معدو وبنان ابنية الشعوب وهو يفترض أن امرأ القيس له ابن يسمى بمعد ، والثاني بنان وأنه ملكهما على الشعوب أما الفرنسي « رينيه ديسو » فإنه جنح في النهاية الى أن يقرأ « وملك معدو » أي صار ملكا على معد .

ونزل بنيه الشعوب :

بتشديد الزاي ، أي أنه أقرهم وأنزلهم في الشعوب التي أخضعها ، وجعلهم نوابا عنه هناك فيكون قد قرأ (ونزل) بدلا من (وبين) في القراءة الشائعة .

٤ ـ ووكلهن :

الضمير المؤنث الجمع في هذا الفعل يعين أن عائده هو كلمة الشعوب . وكل الذين قرأوا هذا النقش جعلوا هذا الفعل مبنيا للمعلوم ، مما أوجد صعوبات في شرح مضمونه ، وانطباق هذا المضمون على الصيغة اللفظية ولذلك تحيروا في الكلمتين التاليتين « [فرسو لروم] فظن بعضهم أنهما تدلان على الفرس والروم ، وهذا خطأ من الناحية التاريخية ، إذ نعرف أن الفرس والروم كانا في حروب دائمة ، ولم يحدث أن اشتركا معا في مستعمرة من المستعمرات . ورينيه ديسو يقرأ الكلمة [فارس] ويرد على هذه القراءة أن السياق محتاج الى الجمع حتى يلتئم مع ألفاظ مثل [بنيه] و [الشعوب] و [ووكلهن] ثم أنه في اعتبار هذا المستشرق تكون الواو في [فارسو] من تلك الزيادات النبطية في الأسماء ، ويرد على ذلك أن هذه الواو تأتي في أسماء الأعلام فقط كما رأيناها في (عمرو) و (نزارو) و (محجو) و (معدو) ، وقد استبعدنا أن تكون فارسو علما على الفرس . ويبدو لنا أن الحل هو قراءة الفعل (وُكلهن) إما تخفيف الكاف ، واما بتشديدها والبناء للمجهول مع اعتبار فارس جمعا للمذكر السالم توهم الكاتب وهو نبطي أنه مضاف لكلمة الروم والتي بعده فحذف منه النون وفي هذه الحالة تكون الواو في ووكلهن للحال ، ويكون المعنى أن هذا الملك وضع أبناءه أمراء على قبائل العرب وكان قد وكل بهذه القبائل حكام عسكريون من الروم ، فهو يفخر بالوصول بهذه القبائل العربية الى نوع من الاستقلال الذاتي عندما كف عن حكمها (فارسو الروم) تاركين مكانهم لأبناء هذا الملك ونظن أنه بهذا المفهوم نزيد الفكرة وضوحا في قوله (فلم يبلغ ملك مبلغه) .

٥ ـ بالسعد ذو ولده :

واضح أن الكلمة الأولى تقرأ (بالسعد) والعبارة فيها كلام كثير ، أقربه أن يكون دعاء بأنه بسعد الذين أنجبهم هذا الملك بالمجد الذي بناه لهم أو أن يكون دعاء تحول الى صيغة هتاف لمن ولد هذا الملك وكأنما قيل ما أسعد الذي ولد هذا الملك العظيم . والذين قالوا بذلك قربوه من العبارة الفصحى عندما يقال (يا سعد من ولده) وزعم بعض الشراح أن كلمة (سعد) هنا اسم علم لصنم معروف في الجاهلية ، وأن الياء معه للجر ومن هؤلاء هاليفي ، وبايز ، ويعترض ديسو على ذلك بوجود أداة التعريف مع الرسم ، وهو اعتراض يسهل التجاوز عنه ويكون المعنى أنه قد أنجبه أبوه بعناية هذا الاله ولكن صياغة الجملة لا تستقيم تماما مع الذوق

العربي على هذا التأويـل ، ثم اننا لا نعـرف عن الاله سعد أنه كان معبودا « في هذه المنطقة » .

وهذا النقش أقدم وثيقة مكتوبة بالعربية وصلت الينا وهو يؤكد أن اللغة العربية كانت هي هي ، منذ ما قبل الجاهلية المعروفة في تاريخ الأدب العربي وهي متأخرة في الزمن بنحو قرنين من الزمان على الأقل بالنسبة له[٣٧] .

وهذا الاسهاب مني في نقل معظم ما كتبه الـدكتور حسن ظاظا حول كشف النمارة إنما اقتضاه خشيتي أن يكون اختصاري لسياقه الموضوعي ولتحليله المسهب ، قد يخل بالرؤ يا الشاملة التي أراد أن ينقلها لنا والتي قصد منها أن يفسر كل كلمة من كلمات هذا النقش ليبلور كل ما يتعلق به من أبعاد موضوعية وتاريخية ولغوية . وإذا كان هناك موضع خلاف بين كـل من الدكتـور شوقي ضيف والدكتور حسن ظاظا حـول كلمات هـذا الأثر فهذا الخلاف ومهما كانت أبعاده قد أفاد المادة العلميـة وذلك لأن البنية اللغوية والتاريخية التي تضمنتـه تتسع لتعطي الباحث الحق في أن يختار محور الزاوية اللغـوية التي يريد أن ينطلق منها ليوفي معنى كل كلمة من كلمات هذا الأثر . ومن هنا إذا كانت هناك بعض من وجهات نـظر مختلفـة حـول معـاني بعض الكلمـات فمن حق الباحث أن يأخذ نفسه بوجهة نـظره في التفسير الـذي يعتقد أنه الأرجح . كما أن له الحق كل الحق أيضا أن يختار القاعدة التي يريد أن ينطلق منها . ومهما كان من أمر في وجهات النظر المختلفة والتباين الموضـوعي بين الأساتذة فقد كان له أكبر الفائدة (على نقش النمارة) وهو ذلك الأثر الذي تناوله العديد من العلماء الأجانب الذين عارضوا رأي ديسو مكتشف الأثر . كما أن هناك العديد من علمائنا تناولوه بالبحث والتفسير نذكر منهم الدكتور عبدالحميد زيدان الذي شرحه وذهب في بعض جمله أنها عربية ذات ألفاظ فصيحة وأنها « أقدم ما وصل الينا مدونا من أساليب عربية ، وقد دفعت هذه الجمل العـربيـة المستشـرق الألمـاني أنـوليتمـان » E. LITTMANN إلى أن يقرر أنه نقش عـربي كتب بالخط النبطي ويضم ألفاظا أرامية[٣٨] .

كـما أن هناك دراسـة أخـرى لنقش النمـارة كتبهـا الـدكتور خليـل يحيى نامي جـاء في عبـارات مختصـرة لا تتـوازن مع مـالهذا الأثـر من أهمية لغـوية وتـاريخية وحضارية . فعلى الرغم من كل العناصر التي تميز هذا الأثر وأنه قد احتوى على حوالي خمسين كلمة عربية تزيد أو تقل كتبت فوق حجر البازلت فقـد أجملها الـدكتور خليل يحيى نامي في سطور معدودات تناول فيها المتن وسجله بالخط العبري وهو خط لا صلة تربـطه بالأثـر العربي وبصاحبه العربي وهو امرىء «القيس بن عمرو» وهو حين فعل ذلك لم يفصح لنا عن الأسباب التي دعته بأن ينقله هكذا . وبعد ذلك ترجم لنا هذه السطور العبرية الى العربية ثم استخلص من هذا المتن العبري ما جعله يقول أنه وجد « في هذا النقش كلمات عربية كثيرة مثل جاء ، هرب ووكـل الشعوب كـما وجد أيضـا تراكيب عربية فصيحة مثل « فلم يبلغ ملك مبلغه وأداة التعريف « ال » في كلمـة العرب والأسـدين والشعوب ثم ختم كلامه بهذه العبارة الغـامضة وهـذا يدل عـلى أن غلبة النفوذ العربي كما يدل على انتشار الكتابة النبـطية بـين العرب وملوكهم[٣٩] .

واذا كـان « نقش النمارة يمثـل مرحلة تـاريخيـة من الكتابة العربية الأثرية (٣٢٨ م) فالنقوش التي جاءت بعد ذلك حتى وان كانت غير متوازنة في الأداء التطبيقي

(٣٧) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ٢١٦ .

(٣٨) الدكتور / يحيي خليل نامي : نفس المصدر ص ١٧ .

(٣٩) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ٢١٤ .

فحروفها العربية متطورة الصورة ولدينا من هذه الكتابة « نقش » « زبد » الذي « كشفه الأثري » زاخو SACHAU سنة ١٨٧٩ ، « وزبد » اسم خربة تقع شرقي حلب والنقش مؤرخ سنة (٥١٢ م) وهو أقدم وثيقة عربية تحمل خطا عربيا والى جانبها خط سرياني وآخر إغريقي وقد كتب على واجهة كنيسة مارسركيس[٤٠] .

وقد اختلف المستشرقون في قراءة هذا النقش ونشره كل منهم تفسيرا يخالف تفسير الآخر ولكن أهم القراءات هي قراءة « م . ليتسبرسكي » M. LIDZBARSKI وهي :

١ ـ (ب) الاله شرحوبر . . مع قيمو . . بر مر القيس .

٢ ـ وشرحوبر سعدو وسترو (سر) يحو .

وهناك قراءتان للأستاذ « أنوليتمان » :

الأولى :

١ ـ (ينصر) الاله شرحو برامت منعووطي برمر القيس .

٢ ـ وشرحوبر سعد وستر وشريحو .

والثانية :

١ ـ (بنصر) الاله سرحو برامت برامت منغو وهنىء برمر القيس .

٢ ـ وسرحوبر سعد وتوسترو وسر[٤١] .

ونأتي الى نموذج آخر له أهميته في تطور الحروف العربية المبكرة نجده على نقش ، وجد منقوشا على حجر فوق باب كنيسة بحران اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز وهو مكتوب بالعربية واليونانية ، مؤرخ في سنة ٤٦٣ (التاريخ البصري) أي في سنة ٥٦٨ م . أي قبل التاريخ الهجري بحوالي ٤٥ سنة وقد وفق « ليتمان » الى قراءته قراءة صحيحة كاملة بعد أن عجز المستشرقون عن ذلك أكثر من نصف قرن[٤٢] .

شكل رقم ٦ : نقش زبد سنة ٥١٢ م

عن : نامي

شكل رقم ٧ : نقش حران سنة ٥٦٨ م

عن : نامي

(٤٠) الدكتور خليل نامي : نفس المصدر ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٤١) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٤٢) المصدر السابق ص ٩١ .

ومحتوى النقش هو :

١ ـ أنا شرحبل بن ظلمو بنيت ذا المرطول

٢ ـ سنت ٤٦٣ بعد مفسد .

٣ ـ خيبر .

٤ ـ بعم .

ويقرأ أيضا :

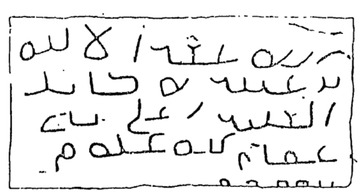
١ ـ أنا شرحبل بن ظالم بنيت هذه الكنيسة .

٢ ـ سنت ٤٦٣ بعد مفسد (انهيار)

٣ ـ خيبر .

٤ ـ بعام (٤٣) .

وهناك نقش آخر لـه من الأهمية التـاريخية والأثـرية ما يجعل منه الحلقة الأخيرة من الكتابة العربية الجاهلية الثانية نشره أيضا « ليتمان » نقش على قبر « ابن عبيدة » وحروفه مربوطة بعضها مع البعض وهذا يعني أن الكتابة قد استقرت على أن تكون مرتبطة الحروف أنظر (شكل رقم ٨) . ولكن متى ظهر هذا التجديد عـلى الكتابـة العربية ، هذا ما ليس لنا به علم وبذلك يكـون نقش حران (٥٦٨ م) هو أقدم أثر مؤرخ لدينا فيه الحروف العربية متصلة بعضها مع البعض .



شكل رقم (٨) : كتابة عربية متصلة الحروف عثر عليها في أم الجمال الثانية .

عن : المنجـد

١ ـ الله غفر لاليه .

٢ ـ ابن عبيد كاتب .

٣ ـ العبيد أعلى بنى .

٤ ـ عمري كتبه عنه م .

شكل رقم (٩) : مفردات حروف نقش ابن عبيده

(٤٣) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٣ .

وإذا كانت هذه النماذج الأثرية من الكتابات العربية قد عثر عليها في مناطق معينة دون غيرها من الأماكن التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية ، فهذا قد يسر لنا أن نعرف عن يقين الموطن الأصلي للحروف العربية ومسالكها حين انتقلت من مكان الى آخر وما أخذته من أسماء وما تشكلت عليه من صور مختلفة . واذا كان أغلب النماذج من النقوش العربية قد عثر عليها في هذه المنطقة الشمالية من الشرق العربي فهذا يعني أن هذه المادة الحضارية انما هي نبت هذه المنطقة المتوسطة ، وليس من مكان غيرها ظهرت فيه ، وهذه حقيقة مطلقة علينا أن نأخذ بها ولا نختلف فيها . وحين تكشف نقوش أثرية جديدة موثوقة بصحتها التاريخية والعلمية . فهذا سوف يثري هذه الحقيقة ويثبتها علميا وأثريا .

ان المكتشفات الأثرية التي نقب عنها علماء الآثار على مدى قرن ونصف من الزمان الحاضر قد زودتنا بدراسات متعددة المناحي العلمية ، كما أعطتنا فيها أعطتنا الدليل على أن ليس هناك ثمة علاقة بين الحروف العربية الشمالية وبين الحروف « الثمودية » و « اللحيانية » و « الصفوية » وذلك لأن الشعب الثمودي يرجع تاريخه الى ما قبل الميلاد بعدة قرون وكانت منازلهم « بالحجر » (مدائن صالح) أما « اللحيانيون » الذين كانوا يقطنون أرض العلا فتاريخهم يرجع الى القرن الأول قبل الميلاد « وقد تلاشوا في قبيلة « هذيل » وعدهم « الهمذاني » من بقايا جرهم[٤٤] أما الصفويون فهم من سكان « الحرة » ، وكلمة الصفويين لا تعني شعبا معينا أو قبيلة معينة انما هو اصطلاح حديث للدلالة على أن تلك الكتابات التي عثر عليها في تلك الجهات[٤٥] ورغم تباعد شكل الحروف العربية عندهم ، فهم عرب لهم خصائص لغوية قريبة من الخصائص العربية التي نزل بها القرآن الكريم وان اختلفت عنها في أداة التعريف وفي بعض الصفات اللغوية[٤٦] .

ويذكر لنا الدكتور « جواد علي » « لقد بان لنا من دراسة جميع النصوص الجاهلية التي عثر عليها في الجزيرة العربية حتى الآن أنها من حيث استعمال أداة التعريف لا تخرج من حدود مجموعات ثلاث : مجموعة تستعمل (ال) أداة للتعريف ومجموعة تستعمل (الهاء) أداة للتعريف ومجموعة تستعمل (النون) ، أما مجموعة (ال) فتشمل النصوص النبطية وبضعة نصوص كتبت بلهجة عربية قريبة من عربية القرآن الكريم ، وهي النص المعروف عند المستشرقين باسم نص « النمارة » ويرجع تاريخه الى سنة ٣٢٨ م الشكل رقم (٥) ويليه نص « زبد » ويعود تاريخه الى سنة ٥١٢ م (الشكل رقم ٦) ونص حران ويرجع الى سنة ٥٦٨ م (شكل رقم ٩) وكتابة أم الجمال الثانية (شكل رقم ١٠) وتشمل هذه المجموعة أيضا عربية القرآن الكريم واللهجات القريبة أو المتفرعة منها المذكورة في كتب اللغة .

أما مجموعة حروف النون « فتشمل اللهجات المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمية والحميرية ، وهي على اختلافها المذكور تتفق كلها في استعمال هذه الحروف أداة للتعريف . وأما مجموعة حرف (الهاء) فتشمل الصفوية والثمودية) . وهذا التقسيم هو على ما أظن أجمع وأدق في الزمن الحاضر من تقسيم المستشرقين ويمكن أن يكون أساسا الى دراسات أوسع قد تؤدي بنا الى تقسيم جديد للهجات العرب قبل الاسلام ، على أن نوجه العناية في الوقت نفسه الى البحث في كتابات

(٤٤) نفس المصدر ص ٣٣ .
(٤٥) نفس المصدر ص ٣٧ .
(٤٦) الدكتور / جواد علي · نفس المصدر ٣١٦ .

		سبئي	لحياني	ثمودي	صفوي
ا	א				
ب	ב				
ج	ג				
د	ד				
ذ	ד̄				
ه	ה				
و	ו				
ز	ז				
ح	ח				
خ	ח̄				
ط	ט				
ظ	ט̄				
ي	י				
ك	כ				
ل	ל				
م	מ				
ن	נ				
س	ס				
ع	ע				
غ	ע̄				
ف	פ				
ص	צ				
ض	צ̄				
ق	ק				
ر	ר				
ش	ש				
ت	ת				
ث	ת̄				

شكل رقم (١٠) : حروف بالخط الصفوي ـ والثمودي ـ واللحياني

والسبئي ـ واليهودي ـ والعربي

عن : زايد

جديدة تكون سندا لهذه الدراسات وللتوصل الى أقدم لهجة عربية تفرعت منها هذه اللهجات أو ما يسمى بـ PROTO ARABISCH أو UR ARABISCH عند المستشرقين أو اللهجات القديمة التي تفرعت منها سائر اللهجات[٤٧] وهذه العربية الأولية أو العربية الأكادية (راجع رأي وليم ريت في هذا البحث ص ٥ - ٦) أو العربية التي نقلها العرب من شبه الجزيرة العربية ابان هجرتهم الأولى الى أرض الرافدين .

ومن هنا يمكننا أن نقول أنه مهما كان رسم حروف النقوش الأثرية ، ومهما كان هناك خلاف في رسمها فهي إنما تطرح صورة عربية أخذت لها سمات مختلفة حسب أسماء من كتبوا بها ، وليس هناك من لم يؤكد أن أصحاب هذه الحروف المختلفة الأشكال والأسماء لا ينتمون الى جنس واحد وهو الجنس العربي الذي أخذ له أسماء متعددة ، وكان آخرها اسم « الأنباط » الذي ظل بعض العرب يحملون هذا الاسم حتى بعد قيام دولة الاسلام ، وعن ذلك حدثنا « أبو القاسم محمود الزمخشري » المتوفي سنة (٥٣٨ هـ - ١١٤٣ م) فقال : « قال خالد بن الوليد لعبدالمسيح بن بقله « أعرب أنتم أم نبط » فقال : « عرب استنبطنا ونبط استعربنا » ، ومنه قول أبي العلاء المعري :

ابن امرىء القيس والعذارى
أو مال من تحته الغبيط .
استنبط العرب في المرامي
بعدك واستعرب النبط .[٤٧]

ومن ذلك أيضا يأتي رأي « الجاحظ » وقد تعرف على الفروق التي تفصل بين العربي والنبطي والعربي الذي يتكلم لسان قريش قال : « ومهما كان من أمر فالنبطي القح يجعل الزاي سينا فإذا أراد أن يقول زورق قال : سورق ويجعل العين همزة فإذا أراد أن يقول مشمعل قال « مشمئل »[٤٨]

وهذه الأمثلة تدل على أن الصورة النبطية قائمة حتى بعد أن جاء الاسلام ، نجدها في الكتابة العربية كما نجدها على لسان المجتمعات العربية وإذا كان بعض هذه المجتمعات قد تقوقعت داخل عصبيتها القبلية ، فهناك العديد الآخر من هذه القبائل قد اعتدل لسانه واستقام نطقه وعلى رأس هذه القبائل العربية تأتي « قريش » التي تميزت بدقة ألفاظها وحسن عبارتها واستواء كلامها ، وأن اللغة العربية كانت لديهم من الابتكارات الفنية ، ومن هنا وضعوا المعنى المثالي في الكلمة المنطوقة وربطوها في أفواههم بحركات محكمة الاعراب وهو ذلك الشيء الذي كان لديهم وليس عند أحد غيرهم سليقة فطرية منطقية .

وهذه اللغة المنطوقة التي وصل بها القرآن الكريم إلى هذا المستوى الرفيع من البيان والأحكام وعلى هذه القاعدة اللغوية من المستحيل لها أن يأتي مصدرها من هذا التصور الذي طرحه علينا بعض المؤرخين العرب ، مثل ما خرج علينا به أبو الحسن البلاذري المتوفي سنة (٢٧٩هـ - ٨٩٢م) حين تكلم عن الخط فقال : « حدثني عباس بن هشام بن محمد السائب الكلبي عن أبيه عن جده وعن الشرقي القطامي ، قال : اجتمع ثلاثة من طيء ببقه وهم مرامر بن مره وأسلم بن سدره ، وعامر بن جدره فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار ، وكان بشر بن عبدالملك أخو أكيدر بن عبدالملك بن عبدالجن الكندي ، ثم السكوني صاحب

---

(٤٧) الزمخشري : أساس البلاغة ص ٩٢٩ طبعة الشعب .
(٤٨) الجاحظ البيان والتبيين تحقيق السندوبي الجزء الأول ص ٦٦ القاهرة ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦

دومة الجندل يأتي الحيرة فيقيم بها الحين ، وكان نصرانيا فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ، ثم أراهما الخط فكتبا . ثم إن بشرا وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمى الثقفي فتعلم الخط منهم ، وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مضر ، فتعلم الخط منه عمر بن زرارة بن عدس فسمي عمر الكاتب ثم أتى بشر الشام فتعلم الخط منه ناس هناك وتعلم الخط الثلاثة الطائيين أيضا رجل من طابخة كلب فعلمه رجلا من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فلقم بها وعلم الخط قوما من أهلها »(٤٩).

وإذا كان هذا هو تصور البلاذري في أصل الخط ، فأصل اللغة كان له عند المؤرخ العربي شأن آخر ، مثال ذلك ما نجده عند ابن النديم الذي يعيد رواية « عباس بن هشام » ثم يضيف عليها ما ظنه صوابا فقال : « فأما الذي يقارب الحق وتكاد النفس تقبله ، فذكر الثقة ان الكلام العربي بلغة حمير وطسم وجديس وارم وحويل ، وهؤلاء هم العرب العاربة ، وأن اسماعيل لما حصل في الجرم ونشأ وكبر وتزوج في جرهم ال معاوية بن مضاض الجرهمي فهم أخوال ولده فتعلم كلامهم ولم يزل ولد اسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ويصنعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها »(٥٠).

ويضيف « أبو عمر الداني » المتوفى سنة (٤٤٠هـ - ١٠٥٢م) على ذات الصورة رواية أخرى نقلها عن « زياد بن أنعم » قال : قلت لعبدالله بن العباس ، معاشر قريش هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي تجمعون فيه ما اجتمع وتفرقون فيه ما افترق هجا بالألف واللام والميم والشكل والقطع وما يكتب به اليوم قبل أن يبعث الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : نعم ، قلت من علمكم الكتاب ؟ قال : حرب بن أمية ، قلت فمن علم حرب بن أمية ؟ ، قال : عبدالله بن جدعان ، قلت : فمن علم عبدالله بن جدعان ؟ قال : أهل الأنبار ، قلت : فمن علم أهل الأنبار ؟ ، قال : طارىء طرأ عليهم من أرض اليمن من كنده ، قال : فمن علم الطارىء ؟ قال : الجلجان بن الموهم ، كاتب هود نبي الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل »(٥١).

وقد نقل هذه الرواية أكثر من مؤرخ نجدها عند البلاذري في كتابه « فتوح البلدان » ، « وعند أبو داود السجستان » في كتابه « المصاحف » ، وعند « ابن قتيبة » في كتابه « المعارف » وعند « ابن دريد » في كتابه « الأتقان » وعند « ابن فارس » في كتابه « الصحابي » ، وعند « الجهشياري » في كتابه « الوزراء والكتاب » كما هي أيضا عند غيرهم .

وحين تأتي الرواية العربية على هذا النحو الذي يرويه هؤلاء الكتاب فليس لنا الا أن نأخذ أنفسنا بأن هؤلاء الذين ذكرهم « الداني » قد تعلموا الكتابة بعضهم عن

---

(٤٩) البلاذري : نفس المصدر ص ٤٥١ - ٤٥٧

حاشية :

يتداعى هذا الرأي الى ماذكره الدكتور / ابراهيم أنيس في كتابة دلالة الالفاظ ص ١٤ القاهرة ١٩٥٦ : أنه حتى وقت قريب كان بعض الباحثين يذهبون في نشأة اللغة مذاهب تدعو الى السخرية والعجب ، ومن ذلك أن عالما سويديا في القرن السابع عشر كان يؤكد لمستمعيه في صورة جدية أن الرب في جنة عدن كان يتكلم اللغة السويدية وأن أدم كان يتكلم اللغة الدنماركية ، وأن الحية تتكلم اللغة الفرنسية !! وفي العصر الحديث وقف عالم تركي في مؤتمر لغوي سنة ١٩٣٤ يؤكد للمستمعين أن اللغة التركية هي الأساس الذي أشتقت منه كل اللغات مستندا على هذا بكلمة تركية معناها الشمس هي جنوش ، لأن الشمس أول ما استرعى نظر الانسان الأول من بين المخلوقات .

(٥٠) ابن النديم : نفس المصدر ص ٥ .

(٥١) أبو عمرو بن سعيد الداني : المحكم في نقاط المصحف تحقيق الدكتور / عزت حسن ص ٣٦ دمشق ١٣٧٦ هـ - ١٩٧٠ .

بعض يقرأون العربية ويكتبونها ومثلهم في ذلك مثل غيرهم ممن كتبوا النقوش الاثرية ، وكذلك كتبة « الخربشة » GRAFFITI التي وجدت في أنحاء متفرقة من هذه المنطقة العربية المتوسطة وأن هذه الكتابة ومهما كان شكلها فهي وحدها النقوش الأثرية التي لها أهميتها التاريخية ، كما أنها هي وحدها التي أثبتت فيما أثبتت أن الحروف العربية ، كان لها مسالكها الطبيعية ، وأنها كانت في مراحلها الجاهلية على هذا الشكل الذي نراه مسجلا على النقوش الأثرية مستقيمة الحروف منطوقة الصورة متيسرة الكتابة ، زاد عدد من يقرؤها ويكتبها ، وبعض من هؤلاء يذكرهم البلاذري في قوله : « أنهم كانوا حين دخل الاسلام سبعة عشر رجلا كلهم يكتب منهم عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة ويزيد بن أبي سفيان ، والعامري ، وأبو سلمى بن عبدالأسد وأخوه ، وعبدالله بن سعد بن أبي السرح العامري ، وحويط بن عبدالعزي العامري وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهم بن الصلت بن مخزبة بن المطلب بن عبدمناف ومن خلفاء قريش العلا بن الحضرمي . . ومن النساء حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم كلثوم بنت عقبة والشفاء بنت عبدالله العدوي ، وعائشة بنت سعيد بن عبادة ، وكريمة بنت المقداد ، أما عائشة فكانت تقرأ ولا تكتب وكذلك أم سلمى »(٥٢).

وفي المدينة « كانت الكتابة العربية قليلا في الأوس والخزرج ، فقد جاء الاسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعيد بن زرارة ، والمنذر بن عمر ، وأبي ابن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن مالك ، وأسد بن خضير ، ومعن بن عدي ، وأبو عبس بن كثير ، والأوس بن خولي ، وبشير بن سعد »(٥٣).

ومن الطبيعي أن يكون هناك العديد من غير هؤلاء كان لهم معرفة بالقراءة والكتابة مثل هؤلاء الذين كتبوا المعلقات والمذهبات ، التي كانت ترفع على أستار الكعبة مكتوبة على القباطي ، كما كان هناك أيضا هذا النفر من الكتبة الذين كانوا يعملون في القوافل التجارية لرحلة الشتاء التي كانت تذهب إلى اليمن ورحلة الصيف التي كانت تذهب إلى الشام ، وإبان الاسلام كان هناك أسرى موقعة « بدر » الذين فدوا أنفسهم بما فرض عليهم من أن يعلموا كل واحدا منهم عشرة صبيان من صبية المسلمين الكتابة والقراءة .

وكان من بين العرب آنذاك من يحسن بجانب كتابة العربية لغات أخرى غيرها كالسريانية والعبرية ومن هؤلاء كان « ورقة بن نوفل » ، « وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلم كتاب اليهود من السريانية والعبرانية فتعلمها وكان يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم كتبهم ويجيبهم عنه](٥٤). وكان هناك أيضا كتاب الوحي ومن بينهم ، « الخلفاء الأربعة ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وخالد بن الوليد وثابت بن قيس »(٥٥). ويمكننا أن نضيف على هؤلاء « عبدالله بن مسعود وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث ، وأبو خزيمة الأنصاري » وينقل لنا الدكتور/ صبحي الصالح « إن « المستشرق بلاشير » BLACHERE استطاع أن

(٥٢) البلاذري : نفس المصدر ص٤٥٧ ـ ٤٥٨ .

(٥٣) القلقشندي : نفس المصدر ١١٢٣

(٥٤) نفس المصدر ٣/ ٤ .

(٥٥) الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ص ٦٩ بيروت ١٧٣ .
انظر أيضا تاريخ العبري ٣/ ١٣٣ .

يبلغ بكتبة الوحي أربعين رجلا »[٥٦] دون أن يعين المراجع التي استند عليها في تحديد هذا الرقم .

لقد عثر علماء الآثار على العديد من الكتابات الأثرية في أنحاء متفرقة إلا في مدينة « مكة » التي لم يعثر بها حتى الآن على أي شيء رغم أن هذه المدينة قد تميزت بأنها البلد الذي فيه البيت العتيق مركز الثقل لكافة القبائل العربية وموطن قبيلة « قريش » الذين تعالوا على غيرهم بلغتهم العربية المثالية التي جاء القرآن الكريم ليكون على هذه اللغة وعلى أصحابها معجزة دين ومعجزة لغة ومعجزة بلاغة رغم أن الكلمة كانت لديهم صورة طبيعية لحروف ينطقونها بفطرة سليمة لا نجد لها نظيرا ولا مقابل عند أي قبيلة عربية أخرى وينقل لنا الاستاذ/ فيشر A.FISHER رأى « أبو النصر الفارابي » (٢٥٩ - ٣٣٩هـ - ٨٧٠ - ٩٥٠م) في مقدمة كتابه « الألفاظ والحروف » عن ثقل الحاسة اللغوية عند قريش فقال : « لقد كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها ابانة عما في النفس ، وعنهم نقلت العربية ، وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربي بين القبائل ، وفي رأي الفارابي بأن اللسان الكامل - لم يأخذ لا من لخم ولا من خزام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالسريانية » ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورتهم القبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمجاورتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ، وطبيعي أن الفارابي كان يرمي الى أن فطاحل العلماء لعهد ازدهار دراسات اللغة العربية رفضوا الأخذ بلهجات تغلب وبكر وإياد وثقيف وغيرهما ، كما كانت عليه لزمانهم ولم يرفضوا الأخذ عن شعرائهم الأولين فان طرفة والأخطل وعمرو بن كلثوم مثلا كانوا تغلبيين ، والحارث بن حلزه كان بكريا ، ولقيط بن معمر كان إياديا ، وأبو محجن كان ثقفيا ، والأعشى الكبير كان يمانيا ، وهلم جرا ، وكان شعرهم في نظر اللغويين معدودا من الفصيح ، إذ كانت لغة الشعر القديم في الغالب LINGUA FRANCA POETICA واحدة متداولة خاصة بالشعر[٥٧] وبمعنى آخر كما يقول الدكتور/ شوقي ضيف كان الشاعر ، « حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى اللهجة الأدبية العامة »[٥٨] .

وهذا الفيض من الشعر الجاهلي الذي تميز به الشعراء العرب وأنشدوه في أسواق الشعر المتعددة « عكاظ » وكذلك « المجنة » و« المجاز » وكان لديهم ولدى من جاء من بعدهم ، سليقة طبيعية تحدث عنها ابن رشيق القيرواني فقال : « ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر ما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة »[٥٩] .

ولم يكن هناك من أحد غير قريش من بين كل العرب في استواء ألسنتهم ومنهم أخذت العربية التي نجد فيها أن الدلالات اللغوية والادراك العقلي هما القاعدة التي تناولها عنهم علم اللغة لتحديد القيم السوية في النطق

(٥٦) نفس المصدر ص ٦٩ .
(٥٧) أ . فيشر : المعجم اللغوي التاريخي القسم الأول ص ١٢ - ١٣ القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م .
(٥٨) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٣ .
(٥٩) ابن رشيق القيرواني : العمدة الجزء الثاني الطبعة الثانية ص ٢٠ القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

المثالي ، وذلك لأن الحروف كانت لديهم رمزا للفظ واللفظ رمزا للفكر وتغيير حركة الحرف يشكل تغييرا في المعنى ، الأمر الذي يؤدي إلى خروج الرمز من التجريد إلى التشكيل وبذلك تكونت البنية الموسيقية لحركة حروف اللغة العربية وأصبح أصحاب هذه اللغة يملكون الكلمة ، « وهؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم ويفخرون بجنسهم بين سائر الأجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل البذخ والحضارة وكل العلم والصناعة حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التي يتميزون بها في عرف علماء الأجناس البشرية فإذا وجد الفخر باللغة فتلك علامة العربي بين العناصر العامة من أقاربه الساميين ، إلى الغرباء عنهم من الآرين والطورانيين والحاميين ثم يتجلى فيهم دون سائر الأمم تلك الظاهرة الفريدة في تاريخ الأجيال والثقافات وهي العلو في البلاغة حتى تكون البلاغة في قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديا دنيويا وتحديا ربانيا من معجزات الاله التي يتسامى قدرة البلغاء في أمة اللسان والبيان »[٦٠].

وهذه اللغة العربية التي تكلمت بها هذه الأمة أراد الله تعالى لها أن تكون فريدة في نطقها وشاملة في تراكيبها ، جامعة الأصول محكمة البنية لا تملكها العقول إلا بالقدر التي تسفر فيه عن نفسها وتفصح عن أسرارها ، وفي ذات الوقت تملك هي كل العقول المستنيرة على نحو مطلق ارتبط بها المسلم الرشيد حتى أصبحت بجانب عقيدته جزءا من وجوده الحضاري ، يسعى اليها ليدرك مضمونها ويتذوق إيقاع سحرها الظاهري ويتعرف على حقيقتها التي ظلت متدفقة العطاء منذ خمسة عشر قرنا هجريا ، وستبقى هكذا إلى ما شاء الله تعالى . وصفها أحد عشاق التراث الاسلامي فقال عنها أنها هي هذه اللغة المعجزة الفريدة التي « أنضجها الزمان المتطاول في البقاع الشاسعة من الجزيرة ، وأخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ ، لغة كاملة معجبة عجيبة ، تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة ، وتمثل كلماتها خطرات النفوس ، تكاد متجلى معانيها في أجراس الألفاظ ، وتتمثل في نبرات الحروف ، كأنما كلماتها خطرات الضمير ونبضات القلوب ونبرات الحياة فالمعاني المحسة والمعقولة مبنية في ألفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء المتشابهة فتصنع للشبيه لفظا خير ما وضعته بشبيهه ، إدراكا للفرق الدقيق بينهما . فإذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه في الجسم . واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة بكل صفة ، دلت العربية على كل حلية في الانسان وكل صفة في عينيه وحاجبه وأنفه وفمه وأسنانه وغيرها بأسماء خاصة . وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل في المفردات يتجلى في التركيب مدهشا . فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم أو تحس بها الكلمة نفسها فتعطي أو تأخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة فالكلمة الاصيلة لها أقوى الاصوات وهو الضم ، والأخريات لها الفتح والجر ، وما أرى هذا إلا ضربا من الحياة في الألفاظ والتركيب يبين عن أدق الاحساس وألطفه .

واذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ، ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة فيها مادة ووزن . فخذ المادة أو أخلقها أو استعرها من لغة أخرى ثم صبها في قالب من قوالب الأسماء والأفعال ، وصورها بالقوالب أو الأوزان ما تشاء فلغتنا تدل بالمادة والوزن وبالصيغة والهيئة . فمن سمع

(٦٠) عباس محمود العقاد : مطلع النور وطوالع البعثة النبوية ص ٩١ القاهرة بدون تاريخ

فاعلا أو مفعولا أدرك أن هذا الوزن في حركاته وسكناته له معنى يلازمه في المواد كلها وبهذا امتازت اللغة واستبانت خصائصها حتى نفت عن نفسها كل كلمة أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانينها . للأسماء أوزان وللأفعال أوزان ، فما لا تزنه هذه الأوزان فهو أجنبي وبهذا بقيت على الدهر المتطاول خالصة نقية صحيحة قوية »[٦١] .

وبجانب كل ما يوجد على مائدة البحث من الأدلة التاريخية والأثرية واللغوية على أن الكتابة العربية كانت قائمة عند العرب في قديم الزمان ، نجد فيما نجد من تراث الشعر العربي الذي كان يعرف في العربية الأكادية باسم « شبرو » ما يضيف لنا أدلة أخرى تثبت أن الكتابة العربية كانت قائمة على صورة مختلفة قبل أن ينشد الشعر الجاهلي الذي عرفناه يلقى على الناس في أسواق الشعر الموسمية وأن أوابده كانت تختار لتكتب وتعلق على أستار البيت العتيق . وفي هذا التراث الشعري نجد العديد من الأبيات التي تتضمن كلمات مثل « الرق » و « الأدووم » و « العسب » وغير ذلك من الخامات التي استعملها الكاتب العربي ليكتب عليها وذكرها الشعراء . وعلى سبيل المثال نجد قول أمرىء القيس الذي يقول فيه :

لمن طلل أبصرته فشجاني
كخط الزابور في العسيب اليماني

و « العسيب » هو جريد النخل .

وقول النابغة الذبياني :

كأن مجر الرامسات ذيولها
عليه حصير نمقته الصوانع

و « القضيم » هو الجلد الأبيض .

وقول المركش الأكبر عوف بن سعد :

الدار قفر والرسوم كما
ركش في ظهر الأديم قلم

و « الأديم » هو الجلد .

وقوله أيضا :

لم طلل مثل الكتاب المنمق
كلا عهده الصليب ممطرن

وقول لبيد :

وحلا السيول عن الطلول
كأنها زبر نجد متونها أقلامها

والزبر « هو الكتب »

وقول الأحنس بن شهاب الثعلبي :

لابنة طحان بن عوف منازل
كما رقش العنوان على الرق كاتب

والرق هو « الجلد الرقيق » .

وقول الحارث بن حلزة اليشكري البكري :

لمن الديار عقون بالحس
آياتها المهاريف العرس

والمهاريف هي : الصحف .

وكان لابد لأصحاب هذه النقوش الأثرية أن يكونوا هم أصحاب هذه الأصالة الشعرية ، وأن تمتد بهم الواعية اللغوية والحس العلمي ليسير بهم التاريخ إلى ذلك الحقل الذي تناوله أستاذ اللغة العربية « الخليل بن أحمد الفراهيدي » المتوفى سنة (١٧٥هـ - ٧٩١م) ليكتب كتاب « العين » الذي أصبحت مادته العلمية فيما بعد قاعدة منهجية للمعجمات الضخمة والقواميس الموسوعية التي لا نجد لها نظيرا أو مقابل عند أي أمة من الأمم الأخرى قديما أو حديثا ، ويعد الخليل بن أحمد « تناول نفس المادة تلميذه « سيبويه » المتوفي سنة (١٨٠هـ - ٧٩٦م) ومن بعده أصبحت المعاجم أساسا للفكر اللغوي الاسلامي حيث تدفق السيل وانصهرت السبيكة النفيسة في « الجمهرة » لابن دريد ، و « التهذيب » للأزهري المتوفى سنة (٣٧٠هـ -

---

(٦١) الدكتور / عبد الواحد عبد الوهاب عزام : مهد العرب ص ١٧ ، ١٨ سلسلة اقرأ القاهرة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦ .

٩٨٠م) و« المحيط » للصاحب بن عباد المتوفى سنة (٣٨٥هـ ـ ٩٩٥م) و« المجمل » لابن فارس المتوفى سنة (٣٩٥هـ ـ ١٠٠٤م) و« الصحاح » للجوهري المتوفى سنة (٣٩٧هـ ـ ١٠٠٦م) و« أساس البلاغة » « الزمخشري » المتوفى سنة (٥٣٨هـ ـ ١١٤٣م) و« لسان العرب » لابن المنظور المتوفى سنة (٨١٦هـ ـ ٤١٣م) و« تاج العروس في جواهر القاموس » للزبيدي المتوفى سنة (١٢٠٥هـ ـ ١٧٩٠م) ، وما برح الأمر والمعاجم تظهر على هذا النحو عند غير هؤلاء ممن لم أذكر لأن البحر كان محيطا .

كان من طبيعة هذا البحر المحيط أن يفيض على هؤلاء العلماء بهذه المعاجم الموسوعية لأنهم ارتبطوا بالكلمة العربية وسبروا أغوارها كما ارتبطت الكلمة بهم ، وجاء ذلك طبيعيا إذ أننا عرفنا اللغة العربية أول ما عرفناها في القرن الخامس الميلادي تامة في ألفاظها وصياغتها وحروفها ونحوها وصرفها وأوزانها وفي قوة التعبير بها ، وتلك اللغة لم تزل بخصائصها الجاهلية من كلمات وأحكام وصرف ونحو وتركيب لغة الكتابة في كل صقع نزله العرب فكانوا فيه قطانا أو مهاجرين إلى حين . وعلى الرغم من أن لكل صقع عربي لهجة يتكلمها أهله ، فإن أهالي الأصقاع المختلفة يتفاهمون بلغة الكتابة إذا تحدثوا ويفهمونها إذا قرئت عليهم ولو كانوا أميين »[٦٢] وهكذا اتسعت اللغة العربية في واعية أصحاب المعاجم وكذلك في واعية كل من يتكلم بها .

وكان لابد أن يظهر في الفكر الاسلامي نظريات تعالج بنية اللغة العربية وأن يدور حوار بين العلماء عما إذا كانت اللغة « توقيفية » أم هي « اصطلاحية » وكان من بين هؤلاء « ابن فارس الرازى القرويني » الذي توفي سنة (٣٩١هـ ـ ١٠٠٠م) وكان في طليعة المفكرين من اللغويين العرب الذين ظهروا على المسرح في هذا الميدان ، فقد سجل نظريته في أصل اللغة ونشأتها بكتابه « الصاحبي » وبرهن على أن اللغة توقيف اصطلاح بأدلة كانت موضع التأييد حينا والمعارضة حينا آخر »[٦٣] ولم يكن هذا الرأي في مجمله هو رأي « ابن فارس » إنما كان رأي بعض العلماء سبقوه إليه ، وما كان مثل هذا الرأي أن يقبل هكذا دون أن يعارضه بعض علماء اللغة ، فاختلفت الآراء متباينة المناحي ، وكان ضمن ما هناك رأي « أبو الحسن الأشعري » المتوفى سنة (٣٢٤هـ ـ ٩٣٦م) و« أبو هاشم » المعتزلي (٣٢١هـ ـ ٩٣٣م) و« ابن الحسن بن فورك الأنصاري » (٤٠٦هـ ـ ١٠١٥م) و« أبو إسحاق ابراهيم الاسفراييني » (٤١٨هـ ـ ١٠٢٧م) وغيرهم ومجمل الآراء عند هؤلاء تشعبت إلى مذاهب مختلفة :

الأول : أن اللغة توقيف من الله تعالى .

الثاني : أنها مواضعة واصطلاح بين البشر .

الثالث : ان ابتداء اللغة وقع بالتعليم من الله تعالى والباقي بالاصطلاح .

الرابع : أن ابتداء اللغة وقع بالاصطلاح والباقي توقيف .

الخامس : أن نفس الألفاظ دلت على معانيها بذاتها .

السادس : أنه يجوز كل واحد من هذه الأحوال من غير جزم بأحدهما .

واحتج القائلون بالتوقيف ، بالنقل والعقل .

الأول : قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » (البقرة آية ٣١) .

فإن هذه الآية تدل على أن الأسماء توقيفية معلمة من عند الله ، وأن الأفعال والحروف كذلك إذ لا قائل بالفرق . والاسم انما سمي اسما لأنه علامة على

---

(٦٢) الدكتور: عمر فروخ : الثقافة العربية مصادرها وأطوارها وخصائصها العامة مجلة الأدب والفن الجزء الرابع ص ٢٠ ، ٢١ السنة الأولى لندن ١٩٤٤ .

(٦٣) الدكتور / محمد مصطفى رضوان : العلامة اللغوي بن فارس الرازي ص ٢٠٨ القاهرة ١٩٧٦

مسمـاه ، ومثله الأفعـال والحـروف وتخصيص الاسم ببعض أنواع الكلام اصطلاحي للنحاة .

الثاني : أن الله تعالى ذم قوما على تسميتهم بعض الأشياء من دون توقيف بقوله : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان [(النجم الآية ٣٣) فلو لم تكن اللغة توقيفية لما صح هذا الذم .

الثـالث : قولـه تعـالى : «ومن آياته خلق السمـوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » (الـروم الآية ٢٢) . والمـراد اختلاف اللغـات لا اختلاف الألسنـة اللحمانية .

وأما العقل فمن وجهين :

الأول : أن الاصطلاح إنما يكون بأن يعرف كل واحد من الخلق صاحبه مـافي ضميره ، وذلـك لا يعرف إلا بطريق الألفاظ والكتابة . وكيفما كان ، فإن هذا الطريق إن كان اصطلاحيا لزم عنه الدور أو التسلسـل ، وإذ فلابد من التوقيف ، وهو المطلوب .

الثـاني : أن اللغة لـو كانت بـالمواضعـة لجـوز العقـل اختلافها وأنها على غير ما كانت عليه ، لأن اللغات قد تبدلت وحينئذ لا يوثق بها »[٦٤] .

وجاء بعد « ابن فارس الرازي » تلميذه « أبو الفتح عثمـان بن جني » المتـوفى سنـة (٣٩٢هـ ـ ١٠٠١م) « فمهد للمذهب التوفيقي بحديث عن مذهب المواضعة والاصطلاح حيث قال : « إن أكثر أهل النظر على أن أصـل اللغـة تـواضـع واصــطلاح لا وحي وتـوقيف « وأصحاب هذا الرأي لا ينسبون إلى الله تعالى المواضعة على اللغة لأنها تحتاج الى إيماء وإشارة وهو عز وجل ليس له جارحة تومىء وتشير لكنهم جوزوا أن ينقل الله تعالى اللغة الى واقع التواضع عليها بين عباده »[٦٥] ومن هنا فقد كان ابن جني يرى « مذهبا معقولا ما ذهب إليهم بعضهم في أصـل اللغات كلهـا إنما هـو في الأصوات المسموعة كدوي الريح وطنين الرعد وخرير الماء وصهيل الفـرس ونحـوهـا ثم ولـدت اللغـات عن ذلـك فيـما بعد »[٦٦] .

ولم يكن هذا الرأي هو وحده الذي التزم به ابن جني فيظهر أنه كان حائرا مترددا لا يكاد يستمر على أمر وهو يشير إلى الرأي القائل بأن اللغة اصـطلاحية ويستـدل عليه فيقول ما نصه « أنني اذا تأملت حال هـذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيهـا الحكمة والـدقة والارهاف والرقة ما يملك علي جانب الفكر ، فقوي في نفسه اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه وأنها وحي ، ثم يقول وهكذا لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا وأن بعد مداه عنا ، من كان ألطف منا أذهـانا وأروع خواطر وأجرأ جنانا ، فأوقف بين تين الخلتين حسيرا ، وأكثرها فانكفى مكثورا وكأنه بذلك قد أخذ بالرأيـين معا ، رأي التوقيف ورأي الاصطلاح »[٦٧] .

ومهما كان من أمر فالآراء حول حقيقة اللغة هل هي توقيفية أو هي اصطلاحية لابـد أن تطرح عـلى مائـدة البحث من خلال البعد الاسلامي الذي يقوم جوهـره على أن الله قد أنعم على الانسان بانسانيتـه وجعله في أحسن تقويم ، ومن هنا كان عليه أن يسلم تسليما مطلقا بمبـدع كل الأشيـاء التي نراهـا والتي لا نراهـا وكانت اللغات أفضل ما وهبه الله للانسان وجعلها له وحـده ليميزه بها دون غيره ، وجعله الناطق الكاتب الوحيـد على هذه الأرض كما وضع فيـه العقل المـدبر ليكشف

---

(٦٤) نفس المصدر ص٢٠٨ .

(٦٥) نفس المصدر ص ٢٣٠ .
المصدر المذكور بن جني الخصائص ١/ ٤٣ .

(٦٦) نفس المصدر ص ٢٣١ .
المصدر المذكور الخصائص ١/ ٤٤ .

(٦٧) نفس المصدر ص ٢٣٣ .

بنفسه الحروف ليجعل منها إشارات لتنقل أفكاره إلى غيره من الناس ويلتقي بها أفكار غيره ، وليسجل بها عقائده وتاريخه وإبداعيته الذهنية والأدبية .

وإذا كانت الكتابة العربية وأشكال حروفها عند بدايتها كان لها شأن متواضع لا يستوي إلى ما كانت عليه الكلمة المنطوقة التي تميزت بالأصالة اللغوية والصورة البلاغية والنبضات الشعرية . فأقدم ما لدينا في هذه الكتابة في غير النقوش الأثرية إنما يأتينا من قصة هذه الصحيفة التي كتبها « منصور بن عكرمة بن عامر » للمشركين من قريش الذين تعاهدوا فيها على مقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم وعشيرته وأصحابه وكل من اتبع هديه . وعلقت على أستار الكعبة وإذا رجعنا إلى كل الروايات التي ذكرت أنباء هذه الصحيفة فهي في مجملها لا تبلور لنا رواية حقيقية عن شكل الحروف العربية التي كتبت بها إلا إذا تداعى رسم حروف « نقش أم الجمال الثانية » (انظر الشكل رقم ٨) في نفوسنا . وكتابة صحيفة المقاطعة هذه تنسحب أيضا على رواية ثانية عن صحيفة أخرى لا نعرف لها تاريخا كتبت قبيل الاسلام ذكرها ابن النديم قال : « كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبدالمطيف بن هاشم في جلد أدووم فيه ذكر حق عند عبدالمطلب بن هاشم على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعاء »[٦٨] .

من هذا المجمل المقتضب يمكننا أن نقول أن فضل العرب على الكتابة في العصور القديمة لأمر واقع لا يرفضه إلا كل مكابر . وأن هذه الكتابة كان لها أثرها على أبجديات الأمم الأخرى ومثال ذلك الأبجدية اليونانية ، « التي تسمى لديهم بآل « الفابيتا » ونبدأ بالألف والباء ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب . وليس لأسماء الحروف معاني مفهومة في اللغة اليونانية ، ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى في لغتنا العصرية فضلا عن اللهجات العربية الغابرة »[٦٩]

ولكن رغم ذلك الفضل الذي كان يجب أن يذكر بكل احترام فقد أنكرت أوربا ما قام به العرب والمسلمون من فضل على التراث الانساني ومرجع ذلك الانكار هو الجحود . وكنا على أمل أن يرجع الأوربي المعاصر عن هذا الموقف العدائي ولكننا نراه الآن وقد اندفع سادرا في هذا الخطأ وأخذ نفسه بأحقاد أسلافه وأبقى في ذاته طوية أجداده فهو لا يريد أن يغير موقفه منا لأنه جبل بفطرته على ألا يرجع إلى الحق لأن الرجوع إلى الحق من شيم النفوس المستقيمة وأنى له أن يكون كذلك .

هذه ملامح عابرة عن قصة الكتابة العربية من بدايتها حتى أخذت الحروف الخاصة بها التي عرفت أول ما عرفت باسم الحروف الآرامية ثم باسم النبطية حتى أن صارت متطورة لتعرف باسم الحروف العربية النبطية التي تحولت إلى ما يمكن أن نطلق عليه الحروف العربية الجاهلية ، لتنتهي إلى هذا الشكل المتميز الذي عرف باسم الحروف العربية التي استعملها المسلمون في كتابة رسائل الدعوة التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والرؤساء سنة ستة من الهجرة (٦٢٧م) ليدعوهم فيها إلى هدي الله .

***

(٦٨) ابن النديم : نفس المصدر ص ٥ .

(٦٩) عباس محمد العقاد : الثقافة العربية ، اسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٢٩ المكتبة الثقافية (١)

مصر والولادة الثانية
الرحلة في كتابات ميشال بوتور

مصباح أحمد الصمد

تتولد أغلب أعمال ميشال بوتور الغنية والشديدة التنوع من الرحلات أو خلالها أو من الرغبة في القيام بها . ويعرفنا هذا الأديب المعاصر بمناطق جغرافية ، تاريخية ، أسطورية ، فنية أو أدبية ، حقيقة أو خيالية ، ثم يدعونا لأختيار طريقنا فيها أو في « أطراف هذا العالم الذي لا طرف له »[١] ، العالم الذي نعيش فيه ، متمنياً لنا ـ ومقترحاً علينا ـ رحلة سعيدة .

لنتنزه أولاً بين عناوين كتب بوتور منطلقين من العدد ٣٩ لمجلة « القوس » L'ARC. No. 39 المخصص لهذا الكاتب والذي صممه بنفسه من خمسة أقسام يشكل كل منها قارة يغمرها محيط المجلة ، ومتذكرين مشروعه في إيصال كل من سلاسل كتبه إلى خمسة أجزاء . وهكذا نجد أنفسنا على الفور في عوالم مختلفة ولكن متكاملة يستكشف كل منها ميداناً من ميادين الواقع وينتظر بدوره أن نستكشفه ، نحن القراء ، الرحالة الذين علينا تعلم الغوص في مضائق ومسالك البحار كي نستطيع الوصول إلى الأراضي البعيدة .

من قصصه الأربع إلى « مواد الأحلام Matieres de reves من مصنفاته Repertoires إلى زخرفاته Illus-trations علينا أن نكون حساسين « لعبقرية المكان » Le Genie du Lieu لكي نستطيع الارتواء من هذه الينابيع الغزيرة . ولكي ننتقل من منطقة لأخرى أو من عالم لآخر علينا إجتياز طرق معالمها « محاورات » Dia-logues وإهداءات[٢] Envois تسهل « الاستكشاف » Explorations إنما علينا أن نكون حذرين ، فالمسيرة يجب أن تتم على « مراحل » Intervalle ومن خلال التجارب Essais والأحلام Reves لكي نستطيع التنقل بسهولة بين « الشبكات » Reseaux وهذا الامتياز

(١) السهم المرتد 185 Boomerang

(٢) نشير هنا الى تعددية المعاني التي يتعمدها الكاتب في عناوين كتبه حيث ان كل عنوان يحتمل معان متعددة بشكل يجعل القارىء يتردد كثيرا قبل ان يعتمد أحدها .

مخصص فقط لمن يتقن اجتياز « المتحرك » Mobile ولمن يستطيع أن يقدم عنه تصورات Representation وأن يلتقط اللمحات واللحظات التي تعبر عن الهجرات البشرية ، عن الانتجاع الحيواني ، عن تنقلات الأشياء ، عن التبادل الثقافي وعن الحركة الدائمة للكرة الأرضية .

بعد اجتيازنا العناوين ، نصل إلى الإهداء .

للوهلة الأولى ، نجد إهداءين فقط مرتبطين بالرحلة ، أو بصورة أوضح بنموذجين مختلفين من الرحالة : « إلى الرحالة في الغرب » (٦٨١٠٠٠٠ ليتر ماء في الثانية » و « إلى من يقرءون في المترو » (إهداءات) بينما يحيي اثنان آخران « كل هنود المكسيك الجديدة » (في كل مكان : Ou) و « بدائيي أستراليا خلال انتقالهم » (السهم المرتد Boomerang) تحية يوجهها لهذين الشعبين اللذين يعيش من قبض منهم في حالة من البداوة والهجرة الجماعية .

ولكن إذا تفحصنا بعناية إهداءات كتبه ومقالاته نجدها جميعاً موجهة إلى نماذج مختلفة للرحالة . فكل هؤلاء الكتاب والنقاد والرسامين والموسيقيين الذين تتصدر أسماؤهم كتب بوتور أليسوا « جسورا » تنقلنا إلى ميادين جديدة من الإبداع الأدبي والفني ؟ أليسوا هم من يفتحون لنا أبواب عدد لا يحصى من « العوالم الأخرى » الجغرافية والفكرية ؟

إن أسماء (La Rose des vents) جان رودو (Essais sur Les Essais) ايفور سترافنسكي ، بوفون (Quadruple fond) ، جان بيار ريشار (Repertiore IV) وكثيرين آخرين ، هي أمثلة عن « ساكني الحدود » (Illustrations III) الذين يعيشون على التخوم ويستطيعون بالتالي مساعدتنا على اجتياز عوائق الحاضر ونقلنا نحو « الغد » (Illustrations IV) أو نحو « وطن الأبناء » .

بوصولنا إلى داخل أعمال بوتور نجد أنفسنا مسافرين في ألف رحلة ورحلة ، فنرافق أشخاصاً وهميين أو حقيقيين يهيئون أو يبدأون أو ينهون تجوالاً أو رحلة بحرية أو استكشافاً أو حجاً أو حتى مجرد سياحة ، أو نعيش معهم حالة من الهجرة أو النفي أو الحنين أو الهرب أو التشرد .

كل ما في هذه الكتب يتحرك أو يتنقل ، حتى المظاهر أو العناصر الأكثر سكونية[٣] في العالم ، لدرجة أن « البحار تبدأ بالانتقال »[٤] ، وأن « الجبل يضم مخالبه وينطلق طائراً فوق الطرقات المتصدعة »[٥] في خضم هذا (المتحرك) الهائل ، يدعو الكاتب قارئه لاختيار طريقة وللتمسك جيداً وللبقاء يقظاً كي يستطيع الوصول إلى غاية الرحلة ، إذ أن مناجم الذهب محاطة بالرمال المتحركة ، ووحده من لا يسقط يستطيع الوصول إلى « قدس الأقداس » ، إلى « الدرة الثمينة » ، أي إلى الكلمة ، إلى اللغة ، لأن غاية كل رحلة يجب أن تكون إيجاد وسيلة جديدة للتخاطب .

لنسافر إذن في أعمال ميشار بوتور مفتشين عن هذه اللغة الجديدة .

●●●

---

(٣) وجدنا من الملائم استعمال هذا التعبير المراد به « حالة ما يبدو ساكنا » وذلك لتمييزه عن السكون أي ماهو ساكن بالفعل ، وقريب من هذا الاشتقاق ما أصبح مألوفا في التمييز بين « الحركة » و « الحركية » .

(٤) Matiere de reves, p. 97

(٥) Quadrupie fond, p. 24

الشبكات اللغوية لكلمة « رحلة عند بوتور »

إذا القينا نظرة على المعنى الذي تعطيه القواميس والمعاجم اللغوية لكلمة « رحلة » نجده شديد الحصر وغير كاف . لأن كل القواميس تشير الى أن هذه الكلمة تشير إلى « انتقال إنسان إلى مكان بعيد »(٦) إلى « عملية اجتياز طريق طويل ، غالباً في مركبة ، للذهاب إلى مدينة أخرى أو بلد آخر ، وهي غالباً ما تتطلب استعدادات وتجهيزات مسبقة ، وتفرض غياباً لمدة معينة عن مسكن معهود »(٧) .

بعض القواميس الأخرى توسع قليلاً معنى هذه الكلمة ولكن مع بعض التحفظات « إذا سمينا رحلات كل التنقلات المعللة عند عائلات وقبائل بضرورة التفتيش عن الغذاء في بلد أغزر موارد من البلد الذي تقيم فيه ، لارتبطت الرحلة بالعصور الأولى للبشرية »(٨) .

تقليدياً ، يفترض معنى « الرحلة » إذن وجود مسكن ثابت يتغيب عنه المسافر ردحاً من الزمن بهدف الذهاب إلى مكان بعيد . وذلك ما يستتبع بالتالي نية وضرورة العودة إلى المنزل بعد القيام بمسيرة مستقيمة يكون فيها الإياب عكس الذهاب تماماً ، أو متعرجة إذا اختار المسافر طريقاً مختلفة للعودة(٩) .

أما ميشال بوتور ، فانه يعتبر من الضروري تجاوز هذا « التناقض بين المكان الذي نحن فيه ، الذي نسكنه ، والرحلات التي نقوم بها من مكان لآخر ، سواء للتفتيش عن أرض موعودة أو للقيام بجولات مع ما يستوجبه ذلك من بحث عن معلومات ولوازم وسلع ومعادن ، الخ . . لحملها إلى المكان الذي انطلقنا منه . ذلك ما يجعلنا نتصور فترة يكون فيها من الصعب جداً التمييز بين كلمتي « رحلة » و « إقامة » ، ويكون مجرد وجودنا في مكان ما رحلة بحد ذاتها »(١٠) .

من جهة أخرى فإن مفهوم الذهاب والإياب التقليدي لا ينطبق إلا على شكل واحد في أشكال الرحلات ، وعملية تنبيه كنموذج وحيد للرحلة يضيق ويبتر تعددية معاني هذه الكلمة :

« إذا أدركنا الارتباط المجازي الأساسي للرحلة بكل ما هو قراءة وكل ما هو بالتالي كتابة ، رأينا من المؤكد أن هذه العلاقة تلعب دوراً كبيراً في إدراكنا للواقع وتأثيرنا فيه ، خاصة وأن كثيراً من التنقلات البشرية هي ذهاب دون عودة »(١١) .

وانطلاقاً من هذه البديهية الأخيرة نجد بوتور يوسع ويشعب معاني كلمة « رحلة » لدرجة أنه يجعلها تشمل أغلب ميادين الحركة والانتقال والتحول والإبداع والاستكشاف ، وأنها تظهر بدورها بصور مختلفة تراوح بين الذهاب والإياب من جهة والتشرد والبداوة من جهة أخرى . ذلك ما يدفعنا لدراسة الشبكات اللغوية لكلمة رحلة في أدب ميشال بوتور وما يجعلنا نشعبها إلى فرعين ندرس في أولها الشبكات المجازية وفي ثانيها الشبكات الارتحالية .

●●●

(٦) Le Robert, Dictionnaire alphabetiaue de la langue francaise volume VI, Paris, 1970

(٧) Le Grand Larousse de la langue francaise, vol. VII, Paris 1978

(٨) Larousse du XXe siecle. volume VI, Paris, 1945

(٩) تعطي قواميس اللغة العربية معنى أشمل من ذلك إذ يرتبط لسان العرب مثلا الارتحال بالانتقال والرحلة بالمسير (المجلد الثاني . ص ١٦١٠ - ١٦١١) ولكن كل ذلك يبقى غير كاف كما ستبين في الصفحات التالية .

(١٠) هذا ما صرح لنا با لكاتب في المقابلة التي أجريناها معه في منزله في مدينة نيس في ٢٣ يوليو آب ١٩٨٣ .

(١١) Repertoire IV, p. 13

أولاً ـ الشبكات المجازية :

إن عملية ارتحال المعنى التي تنطوي عليها كلمة « استعارة » تشكل بالنسبة لبوتور منطلقاً لسلسة من « التنقلات » . وكما يؤكد ميشال لوني فإن « الاستعارة هي أولاً انتقال ، ارتحال ، حركة »(١٢) ، وهي « سلسلة من الانقلابات في داخل اللغة ، من تفجر نزوات لغوية يكشف فيها الانتقال الداخلي أو الخارجي مناطق جديدة من المفردات . هي عملية إيجاد معان جديدة »(١٣) حسب قول بوتور .

اعتماداً على هذه النظرة الأخيرة ، نتوصل لاعتبار أكثر النشاطات الفنية والكتابية وكثير من التحولات اللغوية والتغيرات البيولوجية والعوامل الطبيعية مظاهر لرحلات متنوعة . فمن مجرد قراءة صفحة في كتاب إلى حركة الأرض الدائمة حول الشمس ، مروراً بالكتابة والفنون التشكيلية والأحلام والانفعالات والدورة الدموية ، الخ . . كل ذلك يصبح رحلات في أدب مرتحل يخطه كاتب رحالة .

آ ـ رحلة القراءة :

وعند مطالعتنا لصفحة ما نجد أنفسنا منطلقين في أربع رحلات متواكبة :

أ ـ رحلة عموديه على الصفحة ، ونعني بها انجذاب عين القاريء الذي ما إن يفتح الكتاب حتى يجد نفسه متهيئاً لتتبع ما يراه ومستعداً لمرافقة الكاتب في قصته أو براهينه أو خياله .

ب ـ رحلة اجتياز الصفحة ، وهي تنقل النظر بين الأسطر والصفحات حيث تمر العين من علامة إلى أخرى حسب مسارات متعددة تختارها .

ج ـ انتقال فكري « من خلال هذه الكوة التي تشكلها الصفحة » إلى أماكن مختلفة البعد قد لا تكون أحياناً سوى منزل الكاتب أو غرفته .

د ـ وأخيراً المسيرة الفكرية التي ينتقل فيها القاريء « من النقطة التي كان فيها عند بدئه بالقراءة إلى تلك التي يبلغها بعد انتهائه »(١٤) .

ولكن واجب الكاتب الا يكتفي بنقل القاريء إلى غرفته ، بل على العكس ، أن يحمله بعيداً ليضعه بين أمواج محيطات كتابته تاركاً له بعض المضائق والممرات التي يجب عليه اكتشافها للوصول إلى بحار أخرى .

ما إن نفتح كتاباً ونبدأ قراءته ، حتى نغادر المكان الذي نحن فيه ونبدأ بزيارة عالم الكاتب . وحتى لو لم يكن هذا العالم سوى قاموس أو دليل هاتف ، فذلك لا يمنع من كونه « مكاناً » مختلفاً ، أو هو يشكل على الأقل « مطاراً ، مدرجاً للطيران أو منطلقاً » يسمح لنا بالانطلاق في بعثات جديدة نحو مطالعات مجهولة »(١٥) .

وكل قراءة تشكل منفذاً يلغي شيئاً فشيئاً كل ما يحيط بنا من أثاث وأشخاص وضجيج ووسائل نقل ليوصلنا بعيداً إلى المدينة التي تدور فيها أحداث قصة نقرؤ ها إلى منعطفات حجج وبراهين فيلسوف ما ، إلى عالم سحري يبتدعه خيال شاعر ، إلى ماضي بلد ما يرويه أو يحلله

(١٢) Le C.R.E.U. Cannes, no. 8, trimestre 1978

(١٣) نفس المصدر .

(١٤) Michel Butor, "Je suis moi-meme plusieurs voyageurs." Le Matin, 17 avril 1979

(١٥) Repertoire III, p. 219

مؤرخ أو حتى إلى عصور مستقبلية ننتقل إليها في مركبات عجيبة يصممها الخيال العلمي .

ولكونه مؤمناً بقدرة النص المقروء على إبراز وتصوير مناطق ومدن ومناظر وشعوب لقارىء مهمته فك رموزها وتمثل عبقريتها ، فان ميشال بوتور يبني أعماله الأدبية على شكل أرخبيل يشمل نصوصاً « جامدة وسائلة وغازية » بطريقة تسمح لكل قارىء أن يبلغ بوسائله الخاصة النص الذي ينشده وأن يتنزه فيه على هواه »[١٦] .

نشير هنا إلى أن القراءة لا تكفي بما هو موجود في الكتب أو النشرات ، بل إنها تتجاوز النص المكتوب . فتأمل لوحة أو استطلاع نقوش على جدار أثري أو تتبع خطوط تمثال أو عمل فني آخر ، أو تبيّن طريق نسلكه على خارطة بلد أو مدينة هي بدورها رحلات تصاحبها حركة الرأس أو تنقل النظر في عملية تتبع وتعميق الاستكشاف .

ب ـ رحلة الكتابة :

« إذا كانت القراءة عملية عبور ، حتى ولو لم تكن أحياناً سوى عبور خاطف في غيوم بيضاء ، فالكتابة ، التي هي قراءة دائمة التحول ، تمثل بالضرورة رحلة أوضح وأبعد »[١٧] .

الكتابة هي أولاً حركة على صفحة . حركة يد وحركة عين شبيهة بتلك التي تصاحب القراءة . هي إذن تحرك جسدي .

وهي تمنح الكاتب انتقالاً آخر ، فكرياً ، يبتعد خلاله بالتدريج عن المكان الموجود فيه لكي يعيش في فترة الكتابة في مكان آخر ، مكان وهمي ، أدبي ، فني ، تاريخي ، نفساني ، الخ . .

والمكان الذي نكتب فيه يتغير بين فترة وأخرى ، وهو ليس بالمكان المقفل ، فليس بالضرورة أن يكتب المؤلف في نفس المكان دائماً . وبوتور يحاول دائماً أن يزيد من تعددية مكان الكتابة ، إذ أنه من النادر جداً أن يكتب عن بلد أو موقع ما وهو فيه . وبهذا الصدد يقول : « إنني في حاجة دائمة لأن أجعل رحلاتي ترتحل »[١٨] . إنه في حاجة لأن ينقل مكان الرحلة الجسدية إلى مكان الرحلة الكتابية كي يعيش الرحلة مرة أخرى وهو يكتب عنها .

الكتابة هي رحلة . ولكن الطريق البسيط ، الذهاب والإياب ، لا يكفي بوتور كما أشرنا ، لأن ما يفتش عنه هي الشبكات والمتحركات ، ولنقل الشبكات المتحركة . لذلك يلجأ دائماً لنقل كثير من نصوصه من كتاب لآخر ، وغالباً ما ينتقل النص بعد أن تدخل عليه تعديلات عديدة ، كما أنه يدخل في كتاباته كثيراً من نصوص كتاب آخرين . وهكذا يصبح كل من نصوصه ملتقى لأصوات متباينة وأمكنة مختلفة تتجاوز فيها وتتلاقى مناطق متباعدة ، جغرافياً ، زمنياً وأدبياً . وفي خضم ذلك كله يجد القارىء نفسه متنقلاً ليس فقط بين نصوص بوتور بل وأيضاً بين كتابات رابليه وشاتوبريان وجول فيرن وبوغانفيل وأوديبون وبوفون ولافونتين وألف ليلة وليلة وكثير غيرهم .

في عالم كتابات بوتور « يفتح الاستشهاد أبواب عالم آخر ويمهره بالواقع »[١٩] ، كما يقول جان رودو . ونزيد

(١٦) Poesie d'ici, no. 5, 1980

(١٧) Repertoire IV. p. 28

(١٨) نفس المصدر ، ص ٢٩

(١٩) Jeqn Roudaut, Michel Butor ou le livre futur, p. 135

على ذلك : ليس الاستشهاد فقط بل الاستشهاد الذاتي . أما العالم الآخر « الذي يتكلم عنه رودو فهو قريب جداً بعض الأحيان ، على بعد صفحات قليلة من نفس الكتاب أو في كتاب آخر ليس بعيداً ، وهو أحياناً بعيد جداً ، في أعمال كاتب قديم أو في نص بلغة نجهلها . وفي مطلق الأحوال ، فان الاستشهاد دعوة موجهة للقاريء ليعمق استطلاعه لمناطق أخرى .

وبالإضافة إلى رحلة النص ، هناك رحلة الكلمة ، فهي تنتقل من مكان لآخر في الصفحة الواحدة أو في النص الواحد أو الكتاب أو مجمل الأعمال . كلمات كثيرة نراها تتكرر أو تتشعب راسمة طرقاً وشبكات وكأنها فراشة تتطاير وتدعونا لتتبعها . « إنني أجبر القاريء على التنقل حول كلمة واحدة »(٢٠) ذلك ما يقوله بوتور لجورج شاربونييه . نذكر هنا واحداً من مئات الأمثلة لنبين إحدى الدعوات التي توجهها الكلمة للقاريء كي يتبعها :

« ثلج + ثلج
ثلج ثلج ثلج
ثلج + ثلج
عتبة فضة النار أعياد
ثلج + ثلج
ثلج ثلج ثلج
ثلج + ثلج
القناع يدق ، البيت يدق ، العالم يدق »(٢١) .

هكذا نرى ثلج الكلمة يهطل على بياض الصفحة بطريقة تجعل هطول الثلج النازل من سماء الصفحة إلى أرضها ينقل معه نظر القاريء وخياله ويجعله يتشبع بالمنظر والإيقاع ويسرح في بياض يغطي الكون بأسره ما عدا عتبة منزل وناراً تقام حولها الأعياد ، في هذا الجو الرائع يبتعد القاريء عن مكان إقامته ويستطيع المشاركة في احتفال الهنود الحمر ، لابساً قناعهم ومشاركاً في رقصهم .

إن كل نص من نصوص بوتور ، بل كل كلمة ، تبدو كصرح أو كموقع أثري علينا تتبع ممراته ودهاليزه ورموزه وخباياه لكي نتوصل إلى متعة اكتشاف الكلمة ـ الصرح والنص ـ الموقع وإلى مرافقة هجرة الكلمات والنصوص ومواكبة تداخلها وتناغمها في عالم أعماله الأدبية .

حـ ـ رحلة الفن :

الرحلة ، كباقي الحاجات الأساسية للجسم ، هي حسب قول بوتور : « أساس كل الفنون » ، ولكن هذه الأخيرة تبدو من جهتها كنايات للرحلة وذلك لأنها تحملنا على تغيير مكاننا ، فكرياً على الأقل ، ألسنا نقوم بما يشبه البعثة أو الاستكشاف عندما نحاول فهم لوحة أو وشي أو زخرفة أو نقش أو قطعة موسيقية ؟ ويتعدى الأمر ذلك بالطبع بالنسبة للفنان ذاته ، فنرى مثلاً في قصة « استعمال الوقت » أحد أبطالها « يمسك الهارمونيكا ويبدأ بعزف إبحار بعيد على امتداد شواطيء منبسطة مزروعة بأعشاب عالية تتمايل عند مروره »(٢٢) .

« تجوال وحج وسياحة » مماثلة يقوم بها ليون دلمون بطل قصة التعديل » من خلال أعمال فرانشيسكو بوروميني Borromini وجوان لونزوبرنيني Bernini الفنية في روما أو من خلال جدرانيات العصور الوسطى وفسيفساء العصور المسيحية الأولى(٢٣) . أما بوتور نفسه

(٢٠) George Charbonnier, Eutretiens avec Michel Butor, p. 24
(٢١) Ou. p. 388
(٢٢) L'Emploi du temps, p. 99
(٢٣) La modification, p. 215

فكم من رحلة قام بها وهو يحلل ويفك رموز لوحات كلود مونيه Cloude Monet وجاك هيرولد Jacques Herold وبيكاسو وفييراد اسيلفا Vieira da Silvaأو موسيقى هنري بوسور Henri Pousseur وبيتهوفن وكثيرين غيرهم .

والرقص أيضاً يستطيع أن ينقلنا إلى أماكن بعيدة وبلاد عربية ، فنرى الراقصين في قصة « ممر الخطاف » Passage de Milan ينطلقون في شرايين بلاد ما وراء البحار حيث يتنقلون بين غابات وطيور تشغلهم لدرجة أن الأشياء والأشخاص المحيطين بهم يبتعدون في مدى غامض لا يقاس »[٢٤] .

●●●

- تنقلات واكتشافات :

ما نود تبيانه هنا هو الرحلة - الذريعة ، أي الغوص داخل كلمة ما أو الالتفاف حولها لإظهار معانيها المختلفة . فكلمة « رحلة » مثلاً بما تتضمنه من عملية انتقال توجد إمكانيات لا تحصى لإدخال كثير من الظواهر والعوامل والانفعالات ضمن ميدانها . وهكذا يبدو كل انفعال - بما يمثله من تحرك شيء ما داخل جسم الإنسان ومن نقل للشخص المنفعل من حالة إلى أخرى - رحلة قائمة بذاتها . انطلاقاً من هذا المفهوم نرى الرحلة - كحركة وتغير وانتقال - تصاحب الإنسان منذ تكوينه كجنين حتى ولادته وبلوغه وانفصال بويضته منه تتشعب منها رحلته الأرضية في أولاده وأحفاده ، قبل أن يموت ، مبتدئاً رحلته الأبدية ، ثم يتوسع ميدان هذه الكلمة لكي يصل إلى حركة الأرض الدائمة ودورانها المستمر حول نفسها وحول الشمس .

نعود قليلاً إلى انتقال الجسد وما بداخله لنسمع الحوار التالي :

« ميشال بوتور : إن انتقال الجسد من مكان لآخر يقابله انتقال شيء ما داخل الجسد ، تحرك قد يكون مميتاً أو منقذاً . . .

ميشال لوني : . . . لا يتعلق الأمر فقط بما نسميه عادة بالجسد ، فهناك مثلاً تقلبات المزاج بالمعنى الأخلاقي وثورة النزوات من وجهة نظر التحليل النفسي »[٢٥] .

إذا توسعنا قليلاً بهذا المفهوم نتوصل لاعتبار الجسم كعالم صغير ونجد الذراعين والبطن والأحشاء والبطين والأذين وحدقة العين تصبح جميعها محطات تصل بينها دروب ومسالك ونرى بوتور « يسبح ويطير وينام فيها »[٢٦] .

ونتساءل هنا : أليست المدن والبلدان والعالم بأجمعه سوى جسد هائل يتحرك وينتقل فيه البشر الذين هم « نقط دم يضخها دون توقف قلب المدينة »[٢٧] أو قلب الكون ؟

أ - هذا الجسد المحتوي والمحتوى في آن معا والذي يتنقل حاملا ما يتحرك بداخله ، ليس إلا محطة في رحلة طويلة ، رحلة البشرية التي يدعو الكاتب كلا منا لأن يحياها في الاتجاهين متأملا على التوالي بطن رجل وامرأة ومركزا على ذلك حتى « يستطيع أن يأخذ الحجم المناسب ، ثم يدخل في رحم هذه المرأة ، يعيش رعشة أصلها، يجتاز مراحل طفولتها وولادتها . . وهكذا . .

(٢٤) Passage de Milan, p. 108 et 218
(٢٥) Michel Butor et Michel Launay, Resistances, p. 110
(٢٦) Elseneur, p. 24
(٢٧) Ou, p. 103

حتى بداية الكون البعيدة (٢٨) . بعد ذلك يأخذ الاتجاه الآخر للرحلة داخلا هذه المرة في إحدى بويضات الرجل ومتنقلا من جيل إلى جيل « حتى نهاية الزمان اللامحدودة » . (١)

هذه الرحلة اللامتناهية تتواصل من خلال حياة كل إنسان وهي تبدأ حتى قبل الولادة ، في حركة الجنين داخل بطن أمه .

ان استعمال كلمة « رحلة » للدلالة مجازا على حياة الإنسان أو على الموت قديمة جدا ، ولكن بوتور يجددها ويعمقها بإعطائها أبعادا أخرى .

ب ـ « إذا توسعنا قليلا بنظرتنا هذه نجد أن انعدام الحركة ليس إلا نسبيا على الأرض وبأن الأرض في تنقل دائم بالنسبة إلى الكواكب الأخرى » (٢٩)

حتى الأمكنة الأكثر صلابة والأكثر رسوخا تتحرك بشكل أو بآخر . وجبل فوجي في اليابان « يرتحل نوعا ما على امتداد الأيام والسنين ، ففي لحظة ما هو أجمل ما يكون إذا شوهد من منطقة ما » (٣٠) .

واذا كانت هذه الرحلة تتم « نوعا ما » تحت نظر الزائر أو بسحر ريشة الرسام الياباني هوكوساي Hokusai، فهناك رحلات أخرى كثيرة يتم فيها الانتقال بطريقة أوضح وأكثر طبيعية كما رأينا سابقا بالنسبة للجبل الطائر أو للبحار المتنقلة .

في هذا العالم المتحرك يتلقى مفهوم الرحلة تعديلا أساسيا ، فلا تعود عبارة عن « أماكن ثابتة تصل فيما بينها تنقلات قليلة الأهمية » (٣١) ، بل تصبح بالأحرى « أمكنة متحركة » . لتوضيح ذلك نقول بأن مشاهدتنا لبلد ما تختلف كثيرا بين زيارتنا له بالطائرة أو القطار أو السيارة ، وتختلف كثيرا بالتالي إذا زرناه سيرا على الأقدام . إن مجموعة هذه المشاهدات تعطي صورة متحركة هي الأخرى لأنها تنتج عن تطبيق رؤية شخصية على أماكن متحركة .

جـ ـ إن الأشياء والأدوات التي نستعملها « والتي لا نرى منها عادة سوى وجه واحد هو الاستعمال الثابت » (٣٢) لها بداية ونهاية تقوم بينهما برحلة مزدوجة : نقلها من مكان لآخر ونقل الأجزاء التي تتشكل منها . فكل أداة منزلية ، كانت خزانة أو مقعدا أو آلة موسيقية لها تاريخ طويل : « لقد صنعت وبيعت ووزعت ونقلت قبل أن تصل منزلنا . » (٣٣) كل هذه الأشياء هي بالنسبة لبوتور « أشياء بدوية لحسن الحظ في مجتمع يحلم ببداوة جديدة . » (٣٤) أما حياتها فهي مرتبطة بحياتنا وظروفنا : تأثيث ، زواج ، احتفال ، تجديد ، انتقال أو ذكرى .

حياة الأشياء وانتقالها ترتبط أيضا بتوضيبها وتغليفها وقيمة كل ذلك في حياتنا الاجتماعية والعاطفية .

كم من بلاد وممالك تتراءى لأعيننا عندما نتابع « انتقال المعاني » الذي يجعل من الجسد « باخرة نباتية » ، من القصة « جسدا » ومن أحداثها « خلايا » وتجعل القارىء « يسبح في أقطار الشعر الفسيحة » .

---

(٢٨) Michel Butor, Le Miroir ventral. Les Cahiers du chemin, uo. 15, avril 1972
(٢٩) Repertoire IV, p. 12
(٣٠) Repertoire III, p. 164
(٣١) L'Arc, no. 39, p. 22.
(٣٢) Resistances, p. 116
(٣٣) نفس المصدر ، ص١١٦
(٣٤) نفس المصدر ، ص١١٧

ولكن هل يعني كل ذلك بأن معنى كلمة « رحلة » قد تبدل ؟ أو أنها تنكرت لمعناها التقليدي ؟ على هذين السؤالين يجيب بوتور قائلا :

« إن معنى هذه قد توسع كثيرا عندى . لقد انطلقت من معنى ضيق أو محدد ولكنه مهم جدا لأننا يجب أن ننطلق منه كي نفهم ما تشعب عنه ، وبعد ذلك ، اعتمادا على هذه التجربة الأساسية وهذا المدلول الأساسي ، نستطيع أن نزيد أشياء عديدة في ميادين دائمة التنوع لكي نلقي عليها أضواء جديدة . ولكن يجب أن نفهم جيدا بأنه معنى تتشعب منه مدلولات أخرى [٣٥] .

●●●

ثانيا ـ الشبكات الارتحالية

لنناقش مع بوتور هذا المفهوم الأساسي للرحلة كعملية ذهاب وإياب ونحن نلقي نظرة عابرة على مظاهرها المختلفة .

نجد على الفور بأن « تنقلات بشرية عديدة هي ذهاب دون عودة » [٣٦] فيتبادر لنا بالتالي أنه علينا القيام بدراسة أعمق . وذلك ما يدعو الكاتب لاقتراح علم جديد يضاف إلى سائر العلوم : « الارتحالية أو علم تنقلات البشر » [٣٧]

ولكن قبل أن ننطلق في مختلف الدروس المتفرعة عن المعنى الأساسي للكلمة ، لنعد قليلا إلى العلاقة الوثيقة التي تربط ما بين الرحلة من جهة والقراءة والكتابة من جهة أخرى . أو كما يعرف بوتور هاتين الأخيرتين : « معرفتنا بالواقع وتأثيرنا فيه » .

أ ـ الرحلة كقراءة « ان رواية الرحلة تحقق وتظهر الرحلة المزدوجة التي تنطوى عليها كل قراءة ، فهي تحمل معها مسيرة عمودية تنتهي بانتقال القارىء ، بجعله يغير مكانه الفكري ويغير في النهاية مكانه » . [٣٨]

هذه الرحلة المزدوجة ، أو بالأحرى الرباعية كما يتبين من قراءة معمقة لقول ميشال بوتور يمكن أن يضاف اليها تنقلان جسديان : انتقال القارىء عندما يطالع في حافلة أو قطار أو طائرة ، أي في مكان متحرك ، وانتقاله داخل وسيلة النقل عندما يغير مقعده أو ينتقل من مقصورة إلى أخرى . يظهر من ذلك أن مكان القراءة مرتبط بقوة بما يحتويه وما يمثله الكتاب . وهذا المكان قد يصبح منطلقا لأمكنة متعددة ، فعند تنقلنا مثلا بين مقصورات قطار يسير ، ندخل من خلال صفحات كتاب أو مجلة أو دليل سياحي عددا آخر من المدن والمواقع ونجعلها تتفاعل مع ما نرى داخل القطار وما نشاهده من نوافذه .

والكتب تلعب دورا أساسيا في تعريفنا بالعالم أو تعريفه بنا . « فقراءة كتاب عن اليابان مثلا تحفزني على زيارتها ، ولكن مطالعة كتاب عن اليابان عندما أكون فيها تجعلني أحدد موقعي وتكشف لي أماكن لم أزرها ، بينما القراءة عنها بعد العودة تسمح بتصورها من جديد . . . إن الكتاب وسيلة للتغلب على الوقت ، وعلى المسافة أيضا » . [٣٩]

وكما تقرأ الكتب والنقوش واللوحات فإن المدن والمناظر والمواقع الأثرية تقرأ أيضا ، وميشال بوتور يحب أن « يقرأ ويتذوق » كل مدينة يزورها حتى ولو بدت له

---

(٣٥) هذا ما صرح به الكاتب في مقابلة أجريناها معه في منزله في مدينة نيس ١٣ آب/ اغسطس ١٩٨٣ .

(٣٦) Repertoire IV, p. 13

(٣٧) نفس المصدر ، ص ١٢

(٣٨) نفس المصدر والصفحة

(٣٩) Repertoire III, p. 403

أحيانا « كنص غريب » يجد صعوبة في التعامل والتآلف معه . وبالنسبة له فإن الرحلة هي قراءة وتعلم واكتساب أشياء جديدة ينقلها لقرائه ، يعلمها لهم بوساطة الكتابة .

ب - السريرة المجنحة القراءة هي إحدى وسائل معرفة الواقع . ولكن هذا الواقع لا يشمل فقط كائنات وأشياء موجودة أو معروفة في الحاضر أو الماضي ، بل أيضا ما هو فينا ، في داخل كل منا : مشاعر وأحاسيس ونزوات وانفعالات . . . وخيال وأحلام .

وفي أكثر من مكان نرى بوتور يشدد على أنه « لا يمكن وجود واقعية حقيقية إذا لم نعتبر أن الخيال جزء من الواقع وأننا نرى حيزا كبيرا من الواقع من خلاله » . [٤٠] وهو يؤكد من جهة أخرى بأن « الحلم هو عنصر أساسي من الواقع الشمولي ، من العالم في إطاره الكامل الذي لا تشكل المشاهد التي تراها أعيننا سوى جزء ، سوى برعم منه . » [٤١]

هكذا نرى الكاتب ينقب في سلسلة « مادة الأحلام » وبوساطة تعاقب - أو تشابك - من قراءات استكشافية ومن أحلام متنقلة ، عن مظاهر وعناصر وأماكن تتراوح ما بين نقطة دم بشرية وبين « كوينسي أي مدينة السماء . »

إن الحلم يشكل جزءا لا يتجزأ من وجودنا ، من معرفتنا للواقع وتأثيرنا فيه ، وهو يتيح لنا زيارة بقاع قريبة أو بعيدة ، ويهيء مع الخيال « رحلة في متناول الجميع : الرحلة الساكنة » [٤٢]

والسريرة المجنحة لا تقتصر فقط على « مواد الأحلام » ، بل تنطلق طائرة في أغلب كتب بوتور ، فنرى بطل « التعديل » يقوم « بصيد روحي » ونجد أحمد في « مرور الخطاف » « يضع يديه السمراوين على الطاولة ويتوه في بحيرات وصحارى وتضاريس رسمها البخار في سقف غرفته » . [٤٢]

ج - الرحلة ككتابة : إذا كان « النص الضخم والغريب » الذي تشكله مدينة أو موقع أثري يتطلب من الرحالة نفاذ بصيرة وموهبة في الفهم والتآلف معه ، فهو ينتظر بالأحرى أن « يترجم » إلى لغة أخرى ، لغة الكاتب ، وأن تعاد صياغته بلغة الأدب .

هذه الترجمة للمدن - النصوص يقوم بها بوتور وأبطاله بوسائل متنوعة فهو يكتب عن مكان « في مكان آخر ولأجل أماكن أخرى » .

والكتابة عنده تنطلق من الملموس والمعاش والمقروء لكي تؤدي مهمة التأثير على العالم واللغة والانسان .

« لقد أيقنت ، نعم ، لقد أيقنت بأن مصير العالم يرتبط ، بنسبة زهيدة طبعا ، ولكنه يرتبط بما أكتب ، وعندما أكون في أعماق منفى كتابتي ، فإنني ، أعترف بذلك ، ما زلت أوقن بهذا الارتباط » . [٤٤]

إن الكاتب يحكم على نفسه بالنفي ويهاجر في أقطار كتابته المجهولة لكي يسهم في تحسين مستقبل العالم ، ولكن الكتابة تبدو أحيانا أخرى وكأنها الوسيلة الوحيدة للهروب من وضع مكبل أو من مكان خانق ، وهي

(٤٠) **Repertoire II, p. 299**

(٤١) **Troisieme dessous, p. 247**

(٤٢) **Raymond Christinger. Le Voyage dans l'imaginaire, p. 276**

(٤٣) **Passage de Milan, p. 70**

(٤٤) **Intervalle, p. 157.**

تشكل في أحيان كثيرة طريق الخلاص التي تنقذ الكاتب ـ الرحالة من متاهات عديدة .

وامتلاك لغة خاصة للتخاطب هو الوسيلة الضرورية للاستكشاف وللبدء بإعادة تنظيم الواقع . وهذا العمود الفقري ينمو ويصلب خلال عملية الاستكشاف التي تتعمق بدورها كلما اغتنت اللغة وتطورت .

كم من سعادة ومعرفة نبلغها إذا ما توصلنا ذات يوم لامتلاك « كامل امبراطورية اللغة » ، للعودة بالأحرى إلى تلك الجنة المفقودة ، إلى بابل حيث كل الناس يتفاهمون بيسر وسهولة ، عندها « يستطيع كل منا أن يتنزه داخل هذه الامبراطورية المضيئة ، وعندما تصير إمبراطورية الكلمات مضيئة فإن الحقيقة كلها تصبح مضيئة ، والتاريخ كله يصبح مضيئا ، وعندها فقط نعرف ماذا نريد » . (٤٥)

يجب أن يتولد عن كل كتابة تكشف وجها أو مظهرا للواقع دون أن تنسخ هذا الواقع . والكتابة ، بما هي من فعل واستكشاف ، عليها أن تهتم ليس فقط بالواقع بل بما ينقصه ، بما يرغب به . والفعل هنا هو إعطاء رؤية أو أكثر لعالم شاسع ومتحرك ، لا حدود للبحث والتنقيب فيه ، يأتي خلاله كل رحالة ، كل كاتب ، بعناصر جديدة يجمعها من مشاعره وآرائه وثقافته وتنقلاته ويعرضها في لغة هي في نفس الوقت خاصة وعامة ، مفردة وجماعية .

د ـ مروّج الثقافات الرحلة هي قراءة وكتابة ، ولكنها بالاضافة إلى ذلك استكشاف للوضع والمشاغل والقضايا المعاصرة من جهة ، وللكنوز الثقافية والتاريخية التي « ينبشها معول الباحثين » الذين يأتي بوتور في طليعتهم .

هذا الكاتب يقدم نفسه أكثر من مرة على أنه « مسوّق للثقافة الفرنسية » (٤٦) ولكن أعماله تظهر لنا بوضوح أنه يتجول بين ثقافات أخرى ، عديدة ومتنوعة ، وبأنه ينشد الاطلاع عليها جميعا وقراءة كل منها داخل ، ومع ، ولأجل الأخريات ، ثم التوصل لدمجها جميعا في ثقافة شاملة يستطيع كل الناس قراءتها والتفاعل معها . و « تقديمها بعد ذلك لكل الاخوة السارقين » (٤٧) سارقي المعرفة ومروّجي هذه الطريقة الجديدة في القراءة والكتابة ، ولكنه لا ينسى أن يذكر هؤلاء بأن « التعديل الذي يحصل في قراءة نص هو تنقل داخل العالم وتفاعل لأجزاء العالم فيما بينها ، وذلك ما يعطي رؤية جديدة عنه ورؤية جديدة عن الكاتب والقارىء ويهيء بالتالي لفعل جديد . هذا الفعل قد يكون ضعيفا جدا في البداية ، وكثيرون يودون رؤية النتيجة المباشرة لما يقومون به . إنما ليس ذلك بالأمر الأساسي » . (٤٨)

هـ ـ الرحلة ومفهوم الذهاب والاياب : حركة توجهها صفحات كتاب أو ألوان لوحة أو نقوش جدار ، انطلاق في متاهات حلم أو شروع في كتابة نص ، تبقى الرحلة قبل ذلك كله انتقالا جسديا من مكان لآخر ، ولكنه انتقال محدد تقليديا كما سبق وذكرنا بعملية ذهاب وإياب . وهنا يرى بوتور بأن هذا المفهوم قاصر عن تعريف الرحلة ويقترح إيجاد علم جديد ـ علم الرحلات Iterolgie يقوم بدراسة هذا المجال بطريقة أكثر منهجية . وهو يضع في مقاله « الرحلة والكتابة » الأسس المبدئية لهذا العلم .

---

(٤٥) Georges Charbonnier, Entretiens, p. 27

(٤٦) Jean-Marie le Sidaner, Michel Bntor, voyageur a la roue, p. 59

(٤٧) نفس المصدر ، ص ٦١

(٤٨) Le Matin. op. cit.

انطلاقا من هذا المقال (٤٩) ، سنحاول أن نعرض المظاهر المتنوعة للرحلة كانتقال جسدي في مسافة ما ، وأن نتوسع فيها ونزيد عليها بعض الاقتراحات .

نستطيع تمييز أربعة أنواع من الرحلات :

١ - تنقلات غير محددة الانطلاق والوصول : التشرد والبداوة .

« لا يأتون من مكان محدد ، ولا يقصدون مكانا محددا » (٥٠) تلك هي حال الشعوب الدائمة الارتحال بحثا عن حيوانات تصطادها أو عن مراع لماشيتها . من الصحيح أن بعض الأمكنة التي تمر بها هذه الشعوب تأخذ نوعا من الألفة أو حتى من القدسية ، ولكن ذلك لا يغير من وضعها العام . وقد يضع الموت حدا لمسيرة بعض الأشخاص الذين يدفنون في المكان الذي قضوا فيه ، دون أن يوقف لك بداوة القبيلة .

والبداوة مرحلة بها كل الحضارات وكل الشعوب ، وما زالت تشكل إحدى الأساطير التي نحتفظ بها في تفكيرنا ونحاول إحياءها في كثير من تصرفاتنا ، « هذا ما يجعل كلا منا يشعر في قرارة نفسه بحنين إلى التشرد » (٥١) وما يجعل « مجتمعاتنا تحلم ببداوة جديدة » وأغلب أفرادها يحلمون بحالة عبور متواصلة .

هذا الحنين للتشرد ، هذه الرغبة في الذهاب إلى مكان غير محدد يظهران كما قلنا من خلال بعض تصرفاتنا وخاصة في أوقات القلق والارهاق . يمثل هذه الحالة بطل قصة « استعمال الوقت » L'Emploidu temps الذي « تاه محروما حتى من صحبة صديقة لوسيان ، تاه بين بساتين الشمال حيث كان الأغنياء يتسلون بتقليم شجيراتهم ، تاه في حدائق المدينة المزدحمة بجمهور صاخب ، ووصل تائها إلى حديقتي الشمال المليئتين بالنيام » . (٥٢)

البعض يحن الى التشرد ، ولكن الآخر يعيشه قسرا ، تلك حال شعوب عديدة تتنقل مطاردة أو مفتشة عن الماء والكلأ والطرائد ، وتلك مثلا حال بدائيي أوستراليا في « السهم المرتد » Boomerang والهنود الحمر في « أي مكان » و « المتحرك » Mobile . . . وتلك إلى حد ما حال ميشال بوتور ذاته ، الدائم التشرد ، أو كما يعرّف نفسه « اللايهودي التائه » ، أي العابر دائما دون التفتيش عن أرض موعودة ، العابر مفتشا عن عالم أفضل .

●●●

- تنقلات ذات حد معين واحد

قد يتوقف البدو بسبب عائق طبيعي أو سياسي ، أو « قد يغدو نسيجهم الثقافي متينا وقويا لدرجة تجعل من الضروري الحفاظ على بعض المعالم وصيانة القبور بشكل أفضل . عندها يحصل الاستقرار : بعد التشرد الطويل تتوقف المسيرة في مكان ما » (٥٣) .

هذا المجتمع المستقر والمتمدن يوقف بداوته جغرافيا ويشيد البيوت والأسوار ويرسم حدودا لمنطقته ، ولكن الكثيرين من أفراده يتمنون ويحاولون أن يعبروا الحدود . ومع علمنا بان الابتعاد عن الأسوار أو تجاوز الحدود كان خلال أزمان طويلة مغامرة ومخاطرة كبرى ، فذلك لا ينفي أن أوليس واينياس والسندباد كانوا وما يزالون نماذج نحبها ونحلم بتقليدها .

(٤٩) Repertoire IV, p.p. 9-33
(٥٠) نفس المصدر ، ص ١٤
(٥١) Resistances, p. 117
(٥٢) L'Emplol dn temps, p. 128
(٥٣) Repertoire IV, p. 15

وهي عكس الاستقرار تماما : « فقد يحصل أن يطرد شعب مستقر من أرضه على أثر غزو أو كارثة طبيعية . يحمل أفراد هذا الشعب معهم ما يستطيعون من ممتلكاتهم ويرحلون مع بقية أمل بالعودة الى ديارهم هنا يبدأ حنين قوى بالنمو . ولكنهم يفتشون عن استقرار آخر » (٥٤)

نجد مثالا على ذلك في كتب بوتور بعض قبائل الهنود الحمر التي كانت قد وصلت إلى مرحلة التمدين والتي اقتلعها المهاجرون الأوروبيون من أماكنها وأجبروها على الارتداد غربا . بعد ذلك تجد خروج هذه القبائل ولكن من بقي منها مازال يحتفظ حتى اليوم بنحاسه وبأعياده القديمة .

« طالما إن امكانية العودة لم تنعدم ، وطالما أن اللغة المفقودة مازال تعول في مكان ما ، فذلك هو النفي . وهو ، مع كل عذابة وآلامه ، أحد الظروف المثلى للابداع الشعري : صيانة تلك اللغة وتجديدها وترطيبها » (٥٥) .

النفي الذي يمكن أن يعيشه شعب أو مجموعة أو فرد ، يهيء إذن ، بالرغم من كل الحنين الذي يولده في النفس ـ وقد يكون بسبب هذا الحنين الذي يعذب المنفي ـ وضعا نكون فيه في مكانين معا وفي زمنين أيضا ، ويجعلنا « ننتقل من عمق تاريخي إلى عمق آخر » (٥٦) مولدا بالتالي لغة جديدة وإنسانا جديدا .

« إن فكرة المنفي الذي يفتش عن الهته الخاصة ترتسم بوضوح من أول قصة كتبها ميشال بوتور » (٥٧) .

يسترد الوطن السليب ويعود المخرج أو المنفي إلى بيته بعد غياب قسرى عاش خلاله غربة وحنينا . وهذه العودة قد لا تتيسر إلا للأولاد أو الأحفاد ، « للجيل الثالث الذي يعيد برجوعه الى وطنه الأصلي وصل تلك الروابط التي قطعت أو وهنت . عندها يرتحل في تاريخ أجداده » (٥٨)

●●●

تنقلات ذات حدين معينين

هنا تكون نقطتا الانطلاق والوصول محددتين « نترك مكانا محددا قاصدين مكانا هو الآخر محدد » (٥٩) . ونقطة الوصول هذه لها في الغالب جاذبية معينة ، فهي مرغوبة ومختارة بناء لخصائص تمتاز بها .

أ ـ تغيير السكن الشخص الذي ينتقل من منزل لآخر يكون قد زار المنزل الجديد وتعرف إليه وتفحصه « لقد اختاره وقرر أن ينقل إليه كل أثاثه ، متخليا بإرادته عن منزله القديم » (٦٠) وهذا الانتقال يتم في الغالب داخل مدينة واحدة أو بلد واحد .

وتغيير المسكن هو انتقال ذو فترة قصيرة . إنما خلال هذه الفترة « مظاهر عديدة للأشياء نائمة ومنسية منذ زمن طويل تستيقظ فجأة : وزنها ، حجمها ، قابليتها للكسر ، تنظيمها الداخلي ، طريقة نقلها » . والمظهر الأكثر إثارة للدهشة في هذه الأشياء هو بداوتها التي تخفيها وجهة الاستعمال الوحيدة التي اعتدنا عليها ، الاستعمال الثابت .

---

(٥٤) نفس المصدر ، ص ١٦
(٥٥) نفس المصدر ، ص ١٧
(٥٦) Repertoire III, p. 64
(٥٧) Jennifer Waltei-Walters, Colloque de Cerisy: Butor, p. 59
(٥٨) Repretoire IV. p. 19
(٥٩) نفس المصدر ، ص ١٦
(٦٠) Resistances. p. 116

ب ـ الهجرة : مكان المغادرة محدد ونعرف تماما إلى أين نـذهب ، ولكننـا لا نعلم بعـد أين سنسكـن بالتحديد . « لقد تـلألأ أفق بعيد أمـام عيني المهاجـر ببريق الدورادو » (٦١) فحزم أمتعته وسلك طريقه .

« ومعنى أن يهـاجر الانسـان أنه طـرد ، بقسـوة أو بلطف ، أي أن البلد الذي افترضه وطنه قد تخلى عنه إلى حد ما ، ومهما بلغ الحنين إليه ، فلن يستطيع المهاجر ايجاده كاملا . إنه يرغب باكتشاف وطن آخر ، يرغب أن يكون وطنه الأصلي هذا الوطن الآخر » (٦٢)

وطن لا يسترد كلية ، ولا يفقد تماما ، والمنزل القديم يسكن الفكر والقلب ، يشحذ الشعور بالنفي ويغذي الحنين .

●●●

تنقلات ذات حد مزدوج

نسافر ونكون قد قررنا مسبقا العودة إلى الديار بعد مسيرة محددة تقريبا . « نقطة الوصول تتطابق هنـا مع نقطة الانطلاق . » (٦٣)

أ ـ رحلة العمـل وهي النمـوذج التـام للرحـلة المستقيمـة ، أي « تلك التي يتطابق فيهـا الاياب مـع الذهاب » خلال هذه الرحلة لا يهتم المسافر بالـطريق الذي يسلكه وبما يقع على جانبيه ، لأن المهم هو العمل الذي يسافر من أجله والقضايـا التي يبغي إنجازهـا . تلك مثلا كانت حال ليون دلمون ، بطل قصة التعديل ، قبل لقائه مع سيسيل التي أعطت لطريقه معنى وجعلته يربط بين حبه لها ، بين صورتها وذكرياتها ، وبين كثير من المنـاظر والمعـالم . قبل ذلـك كان يمضي سـاعـات رحلاته الدائمة بـين باريس وروما متصفحا كتـابا أو مخططا لما يجب أن يقوم به من عمل أو نائما ، دون أن يعير أدنى اهتمام للمناطق أو المناظر التي يجتازها القـطار . وحتى وجوده في روما كان مقتصرا على تنقلات رتيبة بين محـطة القطار والفنـدق والشـركـة التي هـو وكيلهـا في باريس . (٦٤)

ب ـ السياحة من الممكن أحيـانا أن تتحـول رحلة العمل إلى نوع من العطلة فقد يستغل المسافر المناسبة لكي « يهرب » من عمله الأصلي ويعيش لحظات هجرة أو تشرد أو قراءة للطبيعة والآثار .

ولكننـا كثيرا مـا نتـرك دارنـا بهـدف محـدد ، هـو السياحة ، نكثر من المحطات في طريقنا لكي نستمتع بسحر أكثر من منطقة . وقد نغير الطريق خلال العودة ليتسنى لنا رؤ ية عدد أكبر من الأمـاكن . خلال رحلة كهذه الأخيرة ـ التي نستطيع تسميتها « دائرية » ـ « نزيد عـدد نقاط الانـطلاق ونقاط الـوصول ونتجـول بينهـا مستعينين ببعض المعالم » . (٦٥)

بعد العودة من سياحة ما ، يبدأ كل مكان قام السائح بزيارتـه يشغل مكـان معين من قلبـه ، ويبدأ السـائح بالتعلق بكثير من الأماكن لدرجة أن يتولد لديـه حنين متعدد لمناطق أقام فيها ولو لمدة قصيرة .

إنمـا ليس كل مكـان قادرا عـلى إعـطاء المعلومـات وتقديم الغذاء النفسي اللذين يحلم بهما السائح . عندها تجد نفسك في غربة مـزعجة لا تجني منهـا سوى بعض المشاهدات والمعلومات عن عادات وتقاليد مختلفة عما في بلدك .

---

(٦١) نفس المصدر ، ص ١١٤
(٦٢) Repertoire IV p. 17
(٦٣) Resistances. p. 123-14
(٦٤) Repertoire IV, p. 17
(٦٥) نفس المصدر ، ص ١٨

جـ ـ **الفسحة** : تغادر منزلك دون أن تنوي الابتعاد عنه كثيرا . ما تنشده هـو التنزه أو التجـوال ، أي أن تروح عن نفسك في محيط منزلك أو في شوارع مدينتك . ولكن هذا التطواف قد يتحول أحيانا الى نوع من التشرد أو الضيـاع ، كـما حصـل لجـاك ريفـل ـ بـطل قصـة « استعمال الوقت » ـ عندما وجد نفسه تائها في شوارع مدينته التي تحولت الى متاهة لم يستطع ايجاد وجهته فيها ثم التخلص منها الا بعد جهود مضنية .

د ـ **الحج** : « المعنى الأساسي لهذه الكلمة هو الرحلة الى مكان مقدس أو زيارة قبر مقـدس أو مكان ظهـور عجائبي . يجلب الحاج معـه تساؤلا ويـأمل بجـواب عليه ، بشفاء للروح وللجسد . . . ثم أصبحت تعني زيارة الأماكن التي تتكلم ، التي تحدثنا عن تاريخنا وعن أنفسنا »(٦٦) .

الحج يقتضي اذن ذهابا وعودة . وسواء زرنا « وصلة بـين السـماء والأرض كـما هي حـال مكـة والقـدس وروما »(٦٧) أو بين ماضينا وحاضرنا أو بين حضارات مختلفة ، فإننا ننوي منذ الانطلاق العودة بعد أن نكون قد تشبعنا بتأثير المكان المنشود .

ان المعنى الشـائع لهـذه الكلمة « رحلة افـرادية أو جمـاعيـة الى مكـان مقـدس لأسبـاب دينيـة وبنيـة التقـوى »(٦٨) ـ توسـع كثيرا عنـد بوتـور كما رأينـا ، وأصبحت تشمل زيارة كل مكان يتكلم ، « كل مكان يأتينا بأقوال لحظة تاريخية أساسية تتميز من بين عصور أكثر غموضا وأشد ظلاما » .(٦٩)

و « كـلام اللحظة التـاريخية » يقـودنا الى مـا يمكن تسميته باللحظة المكانية ونعني بها التقلبات أو التموجات التي نلاحظها في منظر ما خلال مشاهدة واحدة . وهذه اللحظة المكانية « ليست غائبة عن أعمال بوتور الـذي يرى في لوحات هوكوساي لجبل فوجي « دعوة لرحلة يعرض الجبل المقدس في كل محـطة منها شيئـا جديـدا ومختلفا »(٧٠)

أما الأماكن التي تتكلم ، فقد تكون مدنا أو مواقع أثرية ولكنها قد تكون أيضا مناطق موسيقيـة أو فنية أو أدبية . ومن هذا المفهوم الأخير أطلق بوتور على نفسه اسم « الحاج الأدبي المشغوف » Lepelerin littleraire passionne وبنظر الحاج فإن المكان الذي يزوره يخبره عن تاريخه وعن العلاقات التي يقيمها مع بـاقي العالم ويجعله يعيش حالة من التواصل التاريخي والجغرافي .

« عندما أقول عن منظر بأنه شاعري ، فذلك يعني أنني أجد نفسي محمولا به ، وهذه البيوت التي أراها ، أو هذه الأمواج التي أتجاوزها ، تجبرني هي على تركها ، تعرض أمامي كل أنواع الشواطىء الأخرى . يحتـوي هذا المكان على عدد لا يحصى من الأماكن الأخرى ، ولا يبقى كما هو ، لا يقفل على ذاته ، بل يصبح مركز انـطلاق في رحلة . كما أن وصفـه يضحي هو الآخـر أساسا لرحلة طويلة في التاريخ والفكر » .(٧١)

هـ ـ **الاستكشاف** : نمضي لاكتشاف مكان مجهول أو غير معروف جيدا ، متعرضين لمجازفات ومخاطر نذهب الى الجهـة الأخرى من الأفق ، الـطبيعي أو العقلي ، نوسعه »(٧٢) .

---

(٦٦) نفس المصدر ، ص ١٩

(٦٧) Repertoire III, p. 29

(٦٨) Selon le Robert, dictionnaire de la langue francaise, volume V

(٦٩) Repertoire IV, p. 19

(٧٠) Repertoire III, p. 164

(٧١) Repretoire II, p. 9

(٧٢) Repertoire IV, p. 20

وسواء كانت تهدف لاكتشاف مناطق مجهولة من عالمنا أو تاريخنا أو جسدنا أو بعض كواكب الكون الأخرى ، فان كل أشكال الاستكشاف تسحر بوتور الذي لا يكف عن الكلام عنها في مجمل أعماله آملا أن تتوصل مدن أخرى مثل روما لاكتشاف بلاد جديدة مثل أميركا وأن يكون هو أحد رواد العصور القادمة .

فالرواد ليسوا بالضرورة من يسعون لاكتشاف مناطق طبيعية فقط ، بل هناك من ينقب في مجالات قريبة ، « من يرى بلدانا مجهولة تظهر من بين غبار العصور الغابرة »(٧٣) ومن يقوم « ببعثات نحو مطالعات لم تعرف بعد(٧٤) و « من يمخرون محيطات الأعمار »(٧٥) ومن يبتدعون « نيلا من ألحان لا تنضب »(٧٦) .

ولكن هذه الجولات والبعثات التي تتكلم أحيانا عن جيمس كوك أو عن كريستوفر كولومبوس وماجلان وروادٍ آخرين في مناطق جغرافية أو فكرية ، تصبح أحيانا متواضعة لدرجة أنها لا تهدف الا التفتيش عن غرفة للسكن (استعمال الوقت) ، زيارة حي من مدينة معروفة (التعديل) ، الغوص في عيني حبيب (وصف الفنان كقرد فتي : l'artiste en jeune singe portrait de أو تأمل ملامح وجه لاستطلاع تعابيره (استعمال الوقت) .

في كل مكان وداخل كل انسان هناك مناطق مجهولة لا تحصى . والاستكشاف لا ينتهي .

●●●

الرحلات العمودية : الانتقال في المكان ملازم دائما لانتقال في الزمان ، وكل زيارة لمكان ما تصب في تعرف على ماضيه وتفهم لحاضره واستشفاف لمستقبله . يضاف الى هذه الأبعاد الثلاثة نسج شبكات عديدة من الاتصال بين هذا المكان وأماكن أخرى قريبة أو بعيدة من الناحيتين ، الجغرافية والتاريخية .

وعملية استكشاف مكان ما تضيف بعدا آخر هو « بعد العمق » ، اذ أن الرحالة يسعى للتنقيب عن أكبر عدد من طبقات هذا المكان ، فيهبط فيه أو يصعد راسما أو متابعا طرقا مروحية أو سلمية أو لولبية .

أ ـ الرحلات الارتقائية : « يتميز هذا النمط بتوسع تدريجي للأفق أو لأسلوب البحث . من نقطة الوصول نعيد تحديد نقطة الانطلاق » .(٧٧)

وتوسيع الأفق يتأتى عن دراسة كل مكونات المكان المقصود ، أو حسب قول بوتور عن « استنطاق هذه الهضاب المختلفة والمسكونة ، استنطاق التضاريس والحيوانات والطيور ، تفصيل المكان ومحيطه » ،(٧٨) ثم اعطاء عدة « نظرات » عنه والتوصل أخيرا « لتفتيحه ثقافيا على كل ما هو غريب عنه ، خارجه أو حتى داخل حدوده » .(٧٩)

ولكن هذا الاتجاه الارتقائي يجب أن يرافق باتجاه معاكس : الغوص الى الأسفل .

ب ـ الرحلات الهبوطية : وفيها يضيق الأفق تدريجيا وبصورة مؤقتة لكون الرحالة يمر في مهاو وكهوف قبل أن

---

(٧٣) Repretoire III, p. 22
(٧٤) Ibidem, p. 219
(٧٥) Matiere de reves, p. 131
(٧٦) Second sous-sol, p. 25
(٧٧) Repertoire IV, p. 24
(٧٨) Ou, p. 30
(٧٩) Andre Helbo, Michel Butor, vers une litteratnre du signe, p. 14

يصعد مرة أخرى ويبلغ الجهة المقابلة من الأفق . « هي اذن عملية ارتقاء معكوسة وعاكسة تحدد فيها نقطة الوصول نقطة الانطلاق بعد أن تحدث فيها انقلابا ، بعد أن تجبرها على الاعتراف » .(٨٠)

أما المهاوي والكهوف فهي الشقوق والسراديب التي تفتح أمام أبطال « استعمال الوقت » و « التعديل » و « وصف الفنان كقرد شاب » ، وهي عمليات البحث والتنقيب و « الصيد الروحي » التي يقومون بها ، وهي النباتات والحيوانات والمعادن التي نجدها بكثرة وتنوع في أغلب كتب بوتور .

●●●

تعددية المكان : يعبر ميشال بوتور في احدى مقابلاته عن رغبته الشديدة في « تكاثر المكان ، في تخليص المكان من نواقصه » . ثم يضيف : « لقد تمنيت دائما أن أكون في مكان آخر ، في مكانين في آن واحد ، أتمنى أن أكون في كل الأماكن في نفس الوقت » .(٨١)

هذه الرغبة التي تبدو طوباوية للوهلة الأولى تحققت الى حد ما . فالتقدم العلمي والتقني ووسائل الاعلام والاتصال فتحت نوعا ما المسافة التي نعيش فيها وأدخلت اليها عددا كبيرا من أماكن أخرى بعيدة وقريبة . فلقد غدا اليوم كل مكان مركزا لأماكن عديدة ونقطة تقاطع لكثير من الدروب التي تمر في مناطق أخرى .

« يوجد في مدينتي كثير من المدن الأخرى تدخلها بوسائل متنوعة : لوحات الاعلانات ، كتب الجغرافيا ، الأشياء التي تستورد منها ، الجرائد التي تتكلم عنها ، الافلام التي تعرضها ، الذكريات التي أحتفظ بها ، والقصص التي تجعلني أتعرف عليها » .(٨٢)

نعيش اذن في مدننا نوعا من تعددية المكان ، ولكن ذلك ما يحدث أيضا ، ولو على نطاق أضيق ، في منازلنا وفي غرفتنا الخاصة من خلال التلفزيون والمذياع والمطالعات .

ولكن هذه التعددية ما زالت جزئية وغير كافية . ويبقى علينا اجتياز مسافة طويلة للوصول الى تلاق أعمق وأشمل . وما نشاهده أمامنا عن الغير يحفزنا على الانطلاق والتعرف عن قرب . ما نراه هو أصوات تنادينا وتدعونا الى الزيارة والاكتشاف والتلاقي .

●●●

لقد حاول بوتور ، كما رأينا ، أن يبين « كثرة مظاهر هذه الحركة الأساسية للجنس البشري ، التي يقع بداخلها الاستقرار الذي نعرفه »(٨٣) حاول ولم يزل لكونه مقتنعا بأن الحركة معادلة للفعل ، للتطور ، للحياة ، فالتوقف عنها يعني الموت ، و « الانسان رحالة بجوهره ، بطبعه . وقبوله بالرحلة هو قبول لقدره . . أما امتناعه عن سلوك الطريق فانه يعني الاستسلام لأن الجمود لا يحمل أي مظهر إيجابي » .(٨٤)

ولقد وضع هذا الكاتب أسسا « للرحلاتية » كعلم جديد دون أن يخفي رغبته في رؤية كثيرين غيره يمتنون هذه الأسس ويرفعون فوقها البناء .

إنها بذور تنتظر جهد العاملين ومعاول المنقبين وبعثات المستكشفين .

●●●

(٨٠) Repertoire IV, p. 24
(٨١) J.M. Le Sidaner. op. cit. p. 68
(٨٢) Repertoire II, p. 49
(٨٣) Le Matin, 17 avril 1979
(٨٤) Raymond Christinger, op. cit. p. 93

من ملتقى الحضارات الى الولادة الثانية

« لقد هربت .
كان عليّ أن أهرب .
في كل لحظة أمضيها هنا .
يقول لي المنظر : كان عليك أن تهرب »
« في أي مكان » ص ٣٨٥ .

١ ـ الهروب : تعرفنا كتب ميشال بوتور على مناطق جغرافية متباعدة ومتنوعة . وبين هذه المناطق الطبيعية يتحرك الكاتب أو أبطاله مدفوعين بعوامل عديدة وآملين الوصول إلى أهداف مختلفة ، ولكنهم . في كل رحلة يقومون بها ، يخضعون المكان الذي يزورونه لسلسلة من الأبحاث والدراسات تنتهي بكشف كثير من خواصه ومن علاقاته بالأماكن الأخرى .

هذه الرحلة المتواصلة التي شكلت باريس نقطة انطلاقتها الأولى وما زالت تشكل محطتها الأساسية ، تعاظمت وتشعبت لكي تبلغ كولومبيا البريطانية والبرازيل واليابان وسنغافورة والبيرو واستراليا ، وما فتئت تتوسع واعدة ببلدان ومناطق جديدة .

وإذا ما تتبعنا هذه الرحلة من بدايتها نجد بأن أبطال بوتورهم الذين بدأوها ، بمعنى أن القصص الثلاث الأولى[٨٥] تعرض شخصيات مختلفة أدركت أنها تعيش في محيط خانق فانطلقت تدرس محيطها وتحاول تبين مشاكله وخلفياته ومعرفة القوانين التي تتحكم بحياتها ، ثم تخرج من هذا الاطار الضيق لكي تتابع البحث في البلدان القريبة منها جغرافيا وتاريخيا وثقافيا .

بدأ بوتور كتابة قصته الأولى في مصر حيث كان يدرس اللغة الفرنسية في مدرسة المنيا خلال العام الدراسي ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ . ولقد تحدث عن ذلك أكثر من مرة فيما بعد فقال :

« عشت بعيدا عن باريس للمرة الأولى في حياتي ، وهناك شعرت بضرورة تشكيل نوع من نموذج مصغر لباريس . كنت بحاجة لاعادة تشكيل ما كانت عليه حياتي في باريس » .[٨٦]

واعادة التشكيل هذه تتم من خلال بناية سكنية تؤخذ « كعينة عن مجمل المدينة » هذه العينة تبدو كمجموعة طبقات يعيش ساكنوها دونما اتصال فيما بينهم ودون أن يعرف بعضهم البعض الآخر الا لماما ، لدرجة أنه عندما يتكلم أفراد عائلة ما عن باقي الجيران يشيرون اليهم برقم الطبقة فيقولون مثلا « سكان التالث » أو الخامس ، الخ . وحتى أفراد العائلة الواحدة يعيشون متباعدين يغرق كل منهم في عالمه الخاص ، فسكان الطبقة الأولى « الهادئون والبسطاء ، كما يبدو ، والذين يعيشون في تفاهم تام ، كما يبدو ، ليسوا في الحقيقة سوى أربعة مستوحدين يزورون بعضهم أحيانا ويلتقون حول مائدة الطعام فقط »[٨٧]

في هذا المحيط الراكد يفقد التخاطب دوره ومضمونه ويصبح الحوار الذي يدور من حين لآخر عبارة عن كلمات جوفاء لا تواصل بينها ولا قيمة لها ، مما يجعل سكان هذا المكان الضيق « يتلاقون ، يتبادلون التحية ، يتجنب بعضهم البعض الآخر ، لا يدرون ماذا يقولون ، يدخل كل منهم منزله ، يتناول طعامه وينام بينما كل شيء يتحرك من حوله » .[٨٨]

هذه العزلة والانطوائية تجعل الحياة رتيبة ومملة ، لا بل انها تحول كل غرفة الى « جحر » وتحيل أغلب

---

(٨٥) Passage de Milan (1954), L'Emplol du temps (1956), La Modification (1957)
(٨٦) Magazine litter aire, no. 110, mars 1976 (consacre a Butor)
(٨٧) Georges Charbonnler. Entretlens. p. 50
(٨٨) Passage de Milan, p. 44

السكـان الى « حشرات تتملمـل » ، ويطال تـأثيرهـا السيء الاشياء أيضا .

« هذا الازيز الخفيف والذي يشبه صوت الخفافيش هو صوت سيارة كسولة تمر . . أيهـا القديسـون ، أيها الملائكة ، من منكم قريب مني ليضع يده على أجفاني ، ليهدىء هجوم النظرات التي يعود طنينها ليحوم فـوق جراحي . . اسهروا علينا أنتم يا من تعيشون في النور ، أنتم يا من تسافرون »(٨٩)

هنا تنطلق الكلمة السحرية من قلب الضياع ، ان ما ينقذ من العزلة والملل والرتابة والعذاب ، ان ما يحمل النور المخلص ويفتح الطريق أمام هؤلاء السجنـاء ، ما هو سوى الرحلة ، السفر بعيدا .

ولكن من الطبيعي ألا تبدأ الرحلة على الفور ، فما زال الوقت مبكراً .

« في هـذه القصة ، يقـول بوتـور ، ادانة لأسلوب الحيـاة في مبنى باريسي في الخمسينـات ينبغي أولا أن نشخص المرض . . ينبغي أن ندرس هذا المحيط قبل أن ننطلق للقيام بأعمال أخرى . »(٩٠)

إذا كـان معـظم الأشخـاص والأشيـاء يتحـركـون متثاقلين في هذا المبنى ، فذلك لا يعني أبـدا أنه ثـابت ومتماسك ، اذ أن مرور المترو من آن لآخر يجعل كل مافيه يهـتز : المصابيـح والصور المعلقـة على الجـدران والطاولات والثريـات والمصعد . وكـأن الكاتب يـريد بـذلك أن يقـول : انهضـوا يـا سكـان هـذا المبنى من سباتكم . غادروه لتطلعوا على غيره والا فـانه سينهـار عليكم .

عندها نسمع في القصة صوت قطار يمر وكأنه يعلن من جهته بأنه البديل للمترو . على السكان الخروج من تحت الأرض ، عليهم التعرف على العالم .

ونسجل في نفس الوقت مرور طائر الخطاف من فوق المبنى ليعـطي الوجـه الآخر لـلانذار : من لا يستجب للنداء مصيره الشلل والموت .(٩١)

لقـد سبق لبعض السكان أن غـادروا المبنى وزاروا بلادا بعيدة حملوا منهـا لدى عـودتهم بعض التحف أو الأشياء التي تجعلهم مختلفين عن جيرانهم ، فعند ساكن الـطبقة الـوسطى « غـرفة واسعـة فيهـا خـزائن كتب وخزانتان أخريان مليئتان بأقمشة قبطية وبورق البردي ، وفوقهما لوحتان لرسام من القـرن السابـع عشر تـظهر إحداهما قطاعة رائعـة من الصوان تبـين كيف استطاع فلاح الأقصر رغم تقنيتـه البدائيـة أن ينقش التماثيـل الملكيـة في عهد السـلالة الثـامنة عشـرة »(٩٢) هكـذا استطاع أحد السكان أن يفتح في منزله نوافذ على العالم من خلال الكتب واللوحات والمصنوعات المحلية لما وراء حدود المبنى . بينما نجد شخصيات أخرى تعيش حالة اغترابية داخل هذا البناء ، يشدهم حنين قوي إلى وطن يحلمون بالعودة اليه ، وطن جميل ، مشمس ودافىء .

أهم هذه الشخصيات أحمد ، المصري الذي يعمل خـادما في أحـد المنازل والـذي يسميه بعض السكـان « علاء الدين » . انه اذن من يحمل الفانوس السحري الذي يفتح أبواب الشرق السـاحر أمـام سجناء المبنى الباريسي . ولكنه يعيش في عزلة خانقة واغترابا اليـما تزيد من حـدتهما المقـارنة المـاثلة دائما أمـام عينيه بـين عالمين : عالم ضيق ، ممطر ، عاصف ورطب وعالم كان

---

(٨٩) نفس المصدر ، ص ١٢

(٩٠) Georges Chabonnier. Entretiens. p. 80 et 81

(٩١) طائر الخطاف هو نذير شؤوم ورمز للموت عند المصريين القدماء وعند عدد من الشعوب الأخرى

(٩٢) Passage de Milan, p. 67

وطنه وما زال يسكن قلبه ، عالم الدفء والنور والشمس والقمر والنجوم .

ولكن قصة « ممر الخطاف » تنتهي بسفر مزدوج ، أو بالأحرى بهروب شابين من سكان المبنى ، هروب يجدان نفسيهما مرغمين عليه بعد أن يشتبه بقية السكان بأن أحدهما ارتكب جريمة قتل انجيل ، أجمل فتيات هذه البناية ، وهذه الفتاة كانت تتميز بجمال خاص ، مختلف ، فهي « الوحيدة الحقيقية بين تلك الهياكل العظمية المتشحة باصفرار حي مرعب »[٩٣] ، و « من المؤكد بأن هذه العذراء لها مظهر طائر عظيم يستطيع الانطلاق كالسيل عندما يريد . كما نشعر بأن جسدا آخر يختبىء خلف بياضها ، جسدا داكنا ، مندفعا يهوي الرقص البدائي » .[٩٤]

جمال غريب كهذا لا يمكنه العيش في المبنى الباريسي لأنه يجسد الشباب والاشعاع والحيوية والمرح في عالم لا يملك الا مكانيات ولا الحق للاستمتاع بهذه الصفات . وهذا العالم المحشو بالبياض يحتاج لكثير من الأبحاث والاكتشافات قبل أن يصبح جسدا حقيقيا ، جسدا أسمر ، خلاسيا ، تنصهر فيه حضارات وشعوب مختلفة . أما « البلد الابيض » فهو حسب قول ميشال بوتور « كل بلد يرفض تعايش الحضارات والشعوب » .[٩٥]

هنا يظهر الهدف الأساسي للرحلة في أعمال ميشال بوتور : التفتيش عن هوية حضارية منفتحة تتيح لحاملها أن يتعرف أكثر على تاريخه من خلال أضواء جديدة تكشف نقاط ووسائل التلاقي بين الشعوب ، وأن يساهم ببناء مستقبل تزول فيه حدود التفرقة ويكون صورة لبابل ما بعد الطوفان حيث الكل يتعاونون ويتفاهمون .

في قصته الثانية « استعمال الوقت » يصور الكاتب شابا فرنسيا يمضي دورة تدريبية في مدينة بلستون الانكليزية ، التي هي في الواقع مدينة مانشستر . وسرعان ما نكتشف بأن هذه السنة تصبح فترة نفي وضياع وحنين ، والأهم من ذلك كله ، فترة استكشاف للمدينة وللذات في نفس الوقت .

خلال اقامته في هذه المدينة يكتشف جاك ريفل Jacques Revel أنه يتحرك عشوائيا داخل متاهة ثلاثية : متاهة في المكان والزمان والذاكرة . فهي متاهة مكانية من حيث تشابه شوارعها وساحاتها وحدائقها يشعر فيها وكأنه « سحيق في فخ أقفلت فتحته ، بين أنياب المنازل التي يرى صريرها ويسمع »[٩٦] وهي متاهة زمانية لا يميز فيها ساعة من ساعة ولا لحظة من أخرى :

« أحسست وكأني ثابت في مكاني . وكأني لم أصل إلى هذه الساحة ، كأني لم أقطع مسافة طويلة ، كأني اجد نفسي ليس فقط في نفس المكان ، بل وفي نفس اللحظة التي تدوم للأبد والتي لم يكن أي شيء يعلن نهايتها »[٩٧] .

كل ذلك يجعل الزائر المقيم يضيع في متاهة ذاكرته ، فعندما يحاول أن يستعيد فترة إقامته في هذه المدينة ، يقاسي الأمرين قبل التوصل إلى تبين بعض منها :

« من الصعب جدا على أن أحدد في أية لحظة حصلت

---

(٩٣) نفس المصدر ، ص١٩٣
(٩٤) نفس المصدر ، ص١٧٠
(٩٥) J. M. Le Sidaner. op. cit. p. 57
(٩٦) L'Emploi du temps, p. 23
(٩٧) نفس المصدر ، ص٣٥

تلك الحادثة الصغيرة التي كانت مدار أحاديث عديدة بيننا . . . لدرجة أنه ، في ذاكرتي ، كل تلك الأسابيع التي يـرعبني عـددهـا . . . تنـدغم في واحــد فقط ، طويل ، سميك ، كثيف وغامض »[٩٨].

تلك المتاهة المثلثة لم تكن وليدة جهل الزائر للمدينة ، بل هي موجودة في تكوينها وفي جوهرها . فهي « مدينة الـدخان والضبـاب والملل ، مدينـة المـطر والـوحـول والرتابة ، مدينة الصدأ واللعنة »[٩٩] وهي بذلك صورة عن مدن شمال أوروبا التي يفترض الكاتب بأن معرفتها ودراستها بتعمق شرطان أساسيان قبل انطلاقه إلى بلاد أخرى تكون نقيضا لهذا المحيط الخانق .

أما الوسيلة التي يستعملها بطل القصـة لقهر هـذه المدينة ، قهرها بـالمعرفـة والاستطلاع فهي الكتـابة ، وسيلة الانقاذ ورحلة الفهم والفعل . وهكذا نراه يمضي النصف الثـاني من سنته التـدريبية في استعـادة ورواية حياته هناك . بهذه الطريقة يجد نفسه يغوص في أعماق المـدينة الغـامضة ، يكشف أسرارها ويتبـين طـريقـة للخلاص والاتجاه التالي الذي عليه أن يسلكه لمتابعة البحث وتعميق الاستكشاف . هذا الاتجـاه تشير إليـه بعض الأفلام الوثائقية التي كان يداوم على مشاهدتها في إحدى دور السينما والتي كانت تعرض مدنا ومواقع أثرية في بقاع مختلفة من العالم . المحطة التالية يجب أن تكون روما .

مدينة روما هي البطل الأساسي للقصة الثالثة ـ وهي القصة الأكثر شهرة في أعمال ميشال بوتور ـ « التعديل La Modification » .

إذا نظرنا ببساطة إلى هذه القصة تقول : إنها رحلة في القطار بين باريس وروما يقـوم بها رجـل في الخامسـة والأربعين قرر أن يهجر زوجته وأولاده الثلاثة وأن يحضر عشيقته الايطالية لتعيش معه في باريس كما اتفقـا على ذلك مسبقا .

ولكن دراسة متفحصة للقصة تبين بأنها أشد تعقيدا وأكثر عمقا ، فهي ليست رحلة بين امرأتين أو محاولة لاستعادة الشباب بقدر ما هي رحلة بين مدينتين وتنقلا بين عهود وحضارات عديدة .

في المسافة بين باريس وروما يكتشف ليون دلـون ـ بطل القصة ـ شيئا فشيئا بأن تعلقه بعشيقته لم يكن إلا مظهرا من مظاهر شغفه بمدينة روما . وهذا الاكتشاف يتم بعد عملية « صيد فكري » تقوم بها « آلته العقلية » من خلال رفاق الطريق والأشياء الموجودة في المقصورة والمناظر التي يشاهدها من النوافذ . هذه العملية تتعمق فتجعله يتذكر أو يتخيـل أو يحلم ، في اللحظات التي يغلبه فيها النوم ، برحلات أخرى تتشـابك وتتـداخل لتـوصله في النهايـة إلى اكتشاف خبـايا نفسـه ودوافعه الحقيقية .

لقد كان منذ شبابه مشغوفا بروما ، « هذه المدينة التي كنت[١٠٠] تحلم بها منذ سنّي دراستك الثانوية ومن اولى زياراتك للمتاحف »[١٠١] وبعد تلك الفترة ازداد تعلقه بهـذه المدينـة وأصبح يحيـطها بهـالة من القـدسية حتى أضحت « المدينة الأزلية » و« مركـز الأصالـة والجمال والحب » و« مدينة الاشعاع والشباب » .

---

(٩٨) نفس المصدر ، ص ٣٧ ـ ٣٨

(٩٩) نفس المصدر ، ص ١١٣

(١٠٠) نسجل هنا بان أحد مظاهر التجديد في هذه القصة ـ التي تنتمي هي وقصص بوتور الأخرى إلى تيار « القصة الحديثة » "Le Nouveau roman" هو استعمال الراوية فيها لضمير المخاطب للتكلم عن نفسه وكأنه بذلك يقوم بمحاكمة ذاتية يبغي ان يتوصل من خلالها إلى الإحاطة بحقيقة مشاعره وأفكاره وتصرفاته .

(١٠١) La Modification, p. 228

كل هذه الصفات التي ألصقها بها ، جعلت من روما نوعا من الأسطورة التي سيطرت على تفكيره وتحكمت بمشاعره وتصرفاته وعلاقاته لدرجة أنه ، بوعي أو دون وعي ، أخذ يعتبرها تلك الجنة المفقودة التي لا تتحقق السعادة إلا بالعودة إليها .

بعد تفكير وتركيز طويلين تقوده « آلـة التفكير » إلى الخلفيـة الأساسيـة لتعلقه هـذا . إنها رغبـة مكبـوتـة « بالعودة إلى الشـرعة الـرومانيـة القديمـة ، إلى تنظيم إمبراطوري للعالم حول مدينة مركزية واحدة »(١٠٢) .

عند اكتشافه لهذه الخلفية التسلطية ، يدهش ليون دلمون إذ يجد أن مشروعين كأنا قائمين في رأسه قد سقطا معا . فعشيقته فقدت جاذبيتها وروما القـديمة فقـدت بريقها لأنه لم يعد ممكنا لمدينة أن تتحكم بمصير « العالم الذي أصبح أوسـع من ذلك بكثـير بالنسبـة لكل منـا والذي اختلف توزيعه عن الماضي »(١٠٣) .

أهمية روما ليست إذن في انغلاقها بل في انفتاحها ، وليست في تعصبها بل في تلاقيها وتفاعلها مع بقية المدن والحضارات . وهذا ما تبينه آثارها ومعـالمها التـاريخية حيث يدل كثير منها على الحضارة اليونانية أو المصرية أو الأسيوية . فهي ليست إذن « رومانية » صـرفة لَيست بالتالي المدينة الوحيدة التي تتلاقى فيها عهدٌ وثقافـات مختلفة ، فباريس ، على سبيل المثال ، واحدة من تلك المدن الأخرى التي يظهر فيها هذا التلاقي .

هكـذا تأخـذ مدينـة باريس مكـانا مشـابها لـرومـا التعددية ، وتبدأ معالمها بالظهور تباعا من متحف اللوفر إلى المسلة المصرية إلى قوسي النصر الروماني والبونابرتي وكثير غيرها . وهكذا استطاع بوتور الرحالة أن يعود إلى مسقط رأسه بعد دورة مر خلالها في انكلترا وايطاليا . وهو يتكلم عن هذه العملية فيقول :

في قصـة التعديـل مـدينتـان ، ولكن المـرور في بلستون هو الذي أتاح لي أن أتكلم عن باريس مجددا ، يضاف إلى ذلك المرور في هذه المدينة الأخرى ـ روما ـ الذي سمح لي ، بعملية معقدة جدا ، أن أضع باريس في جيبي ، وهكذا استطعت تجاوز التناقض بين أن أكون في مكان أو أن لا أكون فيه »(١٠٤) .

إذا كانت القصتان الأوليان قد شددتا عـلى ضرورة السفر بعيدا ، فإن قصة التعديل تحدد الطريقة الواجب اعتمادُها في المكان المقصود .

هـذه الـطريقـة تقضي بـدراسـة المكـان جيـدا ، باستكشافه أفقيا وعموديا ، بإظهار خواصه وخلفياته من خـلال كل شـارع وأثر ومـوقع ، وبـإيجـاد « الممـرات الفورية » التي توصل إلى أماكن أخرى ، ثم كتابة كل ذلك ، إدخاله في كتب تجمع حضارات وثقافات مختلفة وتساهم في الحد من تناقضاتنـا وبتسهيل التقـارب بين الشعوب .

٢ ـ نقاط الالتقاء ، اللامراكز بعد دراسته للحجم الذي تمثله أسطورة رومـا في خلفيات تفكيـره ، وبعد دراسته لجغرافيـة هذه المـدينة وتـاريخها وارتبـاطها بمـا حولها ، يتوصل مسافر ميشال بوتور(١٠٥) إلى اكتشاف مذهل حيث يقول :

« وهكذا لتنزع من وجدانكم إحدى أكبر موجـات التاريخ ، تلك التي كان للعالم فيها مركز ، ولم يكن ذلك

(١٠٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٧
(١٠٣) نفس المصدر ، ص ٢٧٨
(١٠٤) Magazine litteraire no. 110, p. 17
(١٠٥) نعني بكلمة « مسافر » هنا كل من يقوم برحلة في أعمال بوتور سواء كان ذلك الشخص الكاتب ذاته أو أية شخصية في كتبه ، إذ أننا نلاحظ استمرارية الرحلة من خلال شخصيات متعددة ومتنوعة .

المركز الأرض في وسط دوائر بطليموس فقط ، بل روما في وسط العالم . فأنتم تلاحظون بأن هذا المركز انتقل بعد انهيار روما إلى القسطنطينية ثم إلى أماكن أخرى . . . » .

ومع كل التأثير الذي مارسته على كل الأحلام الأوروبية ، فإن ذكرى الامبراطورية لكل منا أوسع بكثير وموزعا بشكل مختلف عما عهدناه »(١٠٦).

انطلاقا من هذه اليقظة الفكرية يحزم المسافر حقائبه ويسيرا موءودا بعقلية منفتحة تخلصت إلى حد كبير من وهم الامبراطورية الرومانية المقدسة . ينطلق إلى الجوار الجغرافي والثقافي ليتفحص مناطق تقع في حوض البحر المتوسط ، ويكتب نتاج استكشافاته في الجزء الأول من « عبقرية المكان » :

لقد أيقن خلال رحلته إلى روما أن هذه المدينة المتعددة الوجوه وثيقة الصلة بحضارات مجاورة عليه دراسة آثارها وأطلالها علّه يجلب منها بعض الأضواء التي تحدد ملامح شخصيته الحقيقية والتي تمكنه من الاجابة على أسئلة تلح على تفكيره : « من أنت ؟ أين أنت ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ عم تبحث ؟ » .

يسافر الكاتب بنفسه في هذا الكتاب محاولا إيجاد بعض الأجوبة . يسافر وهو موقن بأن « المجتمعات لا تبقى معزولة عن بعضها البعض ، فهي تلتقي ، تتحارب أو تتاجر . وليست عناصرها « الواقعية » فقط هي التي تتجابه ، أسلحة أو منتجات ، جنودا أو بضائع ، بل الخيالية منها أيضا ، آلهتها »(١٠٧).

يزور في البداية سلسلة من المدن كانت تشكل ذات يوم جزءا من الامبراطورية الرومانية القديمة . فلكونه تجاوز مفهوم المركز ، نجده يتوجه إلى « لا مراكز » ، أي إلى أماكن كانت تدور في فلك معين ولكنها استطاعت أن تحتفظ باستقلالية معينة وان تشكل نقاط إشعاع فكري وحضاري :

« مانطوفا Mantova هي إحدى الأماكن ، خارج روما ، حيث يظهر بكل وضوح مدى الهاجس الروماني ، أي هذا النوع من اليأس الذي تملك أوروبا في لحظة بدأت تشعر بسبب سقوط القسطنطينية واكتشاف اميركا ، بأن صورة الامبراطورية كوحدة للعالم أخذت تهتز نهائيا »(١٠٨).

عناصر جديدة ، فرضت نفسها إذن ، ومنذ مدة طويلة ، على الفكر الأوروبي ، فتركت تأثيرها عليه وشققته قبل أن توقظه من سبات طويل كانت تهدهده فيه أحلام الوحدة واللحمة . وهذه العناصر تدعوه للتفتيش عن غيرها بين أطلال هذه اللامراكز :

يوجد في حضارة وفكر فيراري Ferrare شيء ما لم يكتشف بعد واتجاه مختلف ذو تناغم تام مع بعض حاجاتنا ، كما لو أن هذا النور الساطع الذي خفت مدة طويلة قبل أن يظهر لنا من جديد ، يدعونا للاستعانة به كي نتقدم »(١٠٩).

هذا النور الكامن في آثار فيراري كما في مدن أخرى كثيرة ، يمثل القوة الدافعة والمشجعة للمسافر كي يتقدم بخطى ثابتة ليس فقط نحو اكتشاف خبايا الماضي ، بل نحو المستقبل أيضا ، إذن أن معرفة الماضي لا معنى لها إذا لم يكن مصبها في بناء مستقبلي أفضل .

هذه النار التي ينشدها المسافر دفئا وصحة ومعرفة إذ يقول : « كنت بحاجة لتغيير الهواء وللاستمتاع

(١٠٦) La Modification, p. 277

(١٠٧) Repertoire II, p. 17

(١٠٨) Le Genie du lien, p. 97

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ١٠٤

بالشمس » ، يجدها أحيانا بمزج للعناصر في شراب حقيقي أو خيالي . فصورة بابل التي يتأملها في مدينة سالونيك تشكل « ينبوعا أو على الأقل منبثقا يتفجر منه جزئيا بعد ترسب وتقطير ، هذا السائل الذي يروي الظمآن »(١١٠) ظمأ للاكتشاف والمعرفة ، للاطلاع على مكونات نقاط العبور أو الالتقاء وأماكن تعايش الثقافات المختلفة .

في قرطبة يلاحظ المسافر أن « كل شيء يعيدنا إلى الخلافة ، إلى تلك الفترة التي كانت فيها المدينة بيزنطية الغرب »(١١١)، وهكذا فإن زيارة الغربي إلى هذه المدينة تجعله « على اتصال مع كل ما تقدمه افريقيا المتوسطة والاسلام من غنى حضاري »(١١٢).

أما في اسطنبول ، فإنه يتبين وجود مدن ثلاث ذات مبان مختلفة تعود كل منها إلى عصر معين . وأقبح هذه المدن هي « ليفربول الشرق » أي المدينة الصناعية والمصرفية ، المدينة السوداء التي نمت على الضفة اليسرى للقرن الذهبي ثم « تمددت في الجهة المقابلة في اسطنبول القديمة ، في المدينة العثمانية الكبرى التي نخرها السوس منذ قرون ، ممددة جذورها إلى جوفها ، مدخلة ممصاتها في أحشاء نسيجها المهترىء والتالف ، سالبة قوتها »(١١٣).

والمدينة الثالثة التي وجدت قبل الاثنتين معا ، هي القسطنطينية « التي لم تولد من توسع بيزنطة ، بل من الانتقال الاداري إلى هذا المكان لعاصمة الامبراطورية الرومانية المستشرقة »(١١٤). ولكن بالرغم من التنافر الظاهري بين أجزاء المدينة ، فإن هناك « ممرات فورية » تجعل المسافر يشعر وكأنه موجود في أكثر من زمان ومكان . فجسرها أو نفقها ليسا فقط وسيلة اتصال بين آسيا وأوروبا ، بين العصر العثماني والبيزنطي ، بين الاسلام والمسيحية وبين الحاضر والماضي .

وسالونيك أيضا هي نقطة التقاء بين الشرق والغرب ، فمنذ تأسيسها « لم تتوقف عن كونها مدينة حدودية » ومحطة عبور تتجاوز فيها آثار بيزنطية وروما وأثينا ، بالاضافة إلى « شواهد عديدة على يونان منقولة من انكلترا أو فرنسا أو المانيا »(١١٥). ثم إن لها علاقات وثيقة مع الاسكندرية المعاصرة أو التي لمح فيها البطالسة ، كما أنها « تشبه كثيرا مدينة ماري التركمانية » كل ذلك يدفع المسافر لأن يعتبرها « نقطة انطلاق أو ميناء ربط » .

ما نلاحظه إذن أن مدن مانتوفا وفيراري ودلف واسطنبول وقرطبة وسالونيك وبالرمو (التي يفرد لها الكاتب مقالا منفصلا)(١١٦) كونت بشكل أو بآخر أجزاء من الامبراطورية الرومانية أو البيزنطية . ولكن زيارتها تظهر بأنها محطات على طريق تقود بالضرورة إلى مصر ، طريق متعرجة تصل الغرب بالشرق تجعل المسافر الأوروبي يتخلص شيئا فشيئا من أساطيره القديمة حول مركزية روما أو غيرها ، ويتزود تدريجيا بما يقيه « هذه الهالة من الأوهام التي تحيط بكلمة الشرق »(١١٧).

---

(١١٠) نفس المصدر ، ص٥٧
(١١١) نفس المصدر ، ص١٩
(١١٢) نفس المصدر ، ص١٦
(١١٣) نفس المصدر ، ص٣٤
(١١٤) نفس المصدر ، ص٣٧
(١١٥) نفس المصدر ، ص٤٩
(١١٦) M. Butor, "palerme" in L'Arc, no. 6, printemps 1959
(١١٧) Le Genie du lieu, p. 114

وإذا ما قارنا بين التسلسل الزمني لزيارات بوتور لهذه المدن (المنيا ـ مصر : ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ ، سالونيك وقرطبة : ١٩٥٤ ، بالرمو ودلف واسطنبول : ١٩٥٥ ، مانتوفا وفيراري ١٩٥٧) وبين تدرجها في الكتاب (قرطبة ، اسطنبول ، ماليا ، سالونيك ، مانتوفا ، فيراري ، مصر) فإننا نجد اختلالا كبيرا ولكنه معبر . فالباب الذي نلج منه إلى هذا الكتاب هو قرطبة والذي نخرج منه مصر ، وكل باب هو كما تقول إحدى الناقدات[١١٨] « عائق وممر ، إغلاق وفتح » ، وهو يختار عن قصد لكي « يؤمن عبورا إلى مستوى آخر » ، إلى حالة فكرية أخرى . وبناء على ذلك فإن الوصول إلى مصر ، أو التوصل لفهم أسطنبول مثلا ، يفترض المرور بمدينة خلاسية تقوم بينها وبين هذين المكانين علاقة قرابة ، والقرابة هنا هي الحضارة الاسلامية التي أثرت وما تزال في هذا البقاع .

بعد اجتياز « البيزنطيين » ، الغربية والشرقية ـ قرطبة واسطنبول ـ نصل الى سالونيك ، هذه المدينة المحتفظة بآثار بيزنطة الشرق والتي تكمن أهميتها الأخرى في موقعها كنقطة عبور بين عدة عصور وبلاد .

« مع كونها لا تمثل جزءا من اليونان بكل معنى الكلمة ، فإن سالونيك ، الواقعة في منتصف الطريق بين أثينا والقسطنطينية ، هي المكان المثالي للشعور بهذه البديهية المجهولة تماما ، إنه بين الحضارة الهلينية وعصرنا الحاضر لا يوجد فقط هذا الطريق الذي يمر بروما وبعصر النهضة الروماني ، بل أيضا ، وبشكل أكثر وضوحا ، طريق آخر يمر عبر الامبراطورية الشرقية والكنيسة الشرقية وحضارات الشرق »[١١٩] .

وهكذا تدخل تفرعات أفقية وعمودية ، جغرافية وتاريخية لكي يستطيع المسافر الاستمرار في سفره الاستكشافي نحو مصر . هذه التفرعات تمر في مدن تمت إلى حضارات ثلاث : الرومانية واليونانية والشرقية : من هنا تتوضح المحطات التالية : دلف عاليا ، مانتوفا ، فيراري ، بتعمقه في دراسة الحضارات القديمة يتخلص من كثير من أوهامه ويصل إلى مصر بعقلية منفتحة تجعلك يراها على حقيقتها بعيدا عن تأثير أفكاره المسبقة .

٣ ـ الولادة الثانية قبل أن نتكلم عن وصوله إلى مصر ، نجد من الضروري زيادة محطتين على جولة ميشال بوتور في نقاط الاتصال : الأولى في بالرمو والثانية في المانيا .

في معرض حديثه عن بالرمو ، لا يكف عن إظهار إعجابه بموقع جزيرة صقلية :

« لقد شكلت هذه الجزيرة على امتداد الأزمنة القريبة مكانا للالتقاء وليس للعبور ، فاليوناني القديم والبيزنطي والعربي والنورماندي والقوطي يتلاقون فيها ويتفاعلون في لطف مناخها »[١٢٠] .

ومع كل ذلك ، يشكو الكاتب ـ الرحالة في نفس المقال من ضيق المجال الذي يتحرك فيه :

« لم أستطع بعد تجاوز حدود الامبراطورية الرومانية القديمة ، كم أتمنى الافلات من أسر هذا النطاق »[١٢١]

تشكل رحلته إلى مصر العبور الأول خارج الحدود . ولكن التحضير لها يتم من خلال رحلة « وصف الفنان كقرد فتي : Portrait de l'artiste en jeune singe

(١١٨) Francoise Van Rossum — Guyon, Critique du roman, p. 269
(١١٩) Le Genic du lieu, p. 51-52
(١٢٠) L'Arc, no. 6, 1959
(١٢١) نفس المصدر .

التي يزور فيها المانيا والتي لا تنشر إلا بعد تسع سنوات (في ١٩٦٧) من « عبقرية المكان » (١٩٥٨) .

الرحلة إلى المانيا ، بلاد « الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة » كانت بمثابة « تمهيد » - حسب تعبير الكاتب - للانطلاق نحو مصر . فلقد أعطته ، عدا « تعلم قليل من الالمانية والاطلاع على قسم من المانيا » ، فرصة للقراءة والاطلاع والتعمق في النحت والموسيقى والرسم والفلسفة وعلم المعادن والكيمياء ، بالاضافة إلى طريقة جديدة في البحث والدراسة .

كانت مهمته في ألمانيا أن يساعد أحد الأثرياء على تذكر ما تعلمه سابقا من اللغة الفرنسية وأن يوسع دائرة إلمامه بها . وهكذا أقام في قصر البارون الواقع في مقاطعة بافريا « على طريق سياحي شهير جدا ، الطريق الرومانطيقي » ، أي الذي سلكه أغلب الرومانطيقيين الألمان ، من أمثال ويلهالم هاينس وكارل فيليب موريتز وهوغر فون هوفمانشتال ، في مسيرتهم نحو جنوب أوروبا ، وبصورة خاصة إيطاليا ، والذي يوصل في النهاية إلى الشرق مع هرمان هسه Hermann Hesse وكثير غيره[١٢٢] .

ولكن الشرق كان موجودا في القصر من خلال بذور يجب حفظها والعناية بها لكي تنمو فيها بعد في موطنها الأصلي الذي ينبغي الوصول إليه من طريق يختلف عن الاتجاه الرومانطيقي لئلا يبلغ المسافر الشرق الذي تتخيله أوهام الرومانطيقيين « وطنا وشبابا للروح » كما سماه هوفمنشتال[١٢٣] . الطريق الجديد يجب أن يوصله إلى الشرق الحقيقي الذي يعلم ويخبر عن ماضيه وماضي أوروبا ، والذي تتلاقى فيه حضارات شتى : من الفرعونية إلى الهيلينية والرومانية والمسيحية فالاسلامية ، الشرق الذي مازالت كثير من هيروغليفيات تنتظر من يكتشفها ويفك رموزها . وهذا ما يجعل الكاتب يحلم بالقدوم وكأنه شامبليون آخر ، مهمته ليس فقط أن يفتح أبوابا على مستقبل مصر أو أوروبا ، بل على مستقبل أفضل للعالم بأسره .

هذا الحلم الطموح يحفزه على التفتيش عن أشياء تمهد لرحلته القادمة . ويبدأ البحث في مكتبة القصر الغنية حيث يجد الترجمة الفرنسية لكتاب توماس مان « يوسف في مصر »[١٢٤] ، وترجمة « ألف ليلة وليلة » التي قام بها إلى الفرنسية انطوان غالان[١٢٥] . تسيطر قصص الكتاب العربي على تفكير الشاب الفرنسي المقيم في ألمانيا لدرجة أنه يتخيل نفسه مكان الصعلوك الثاني الذي يحوله أحد السحرة إلى قرد يستعيد فيها بعد هيئته البشرية بفضل معرفته بالكتابة التي يفهم بها وضعه للآخرين[١٢٦] . وتلقي هذه القصة الضوء على عنوان الكتاب : « وصف الفنان كفرد فتي » ، أي كانسان ينشد الخلاص والتغيير من خلال عملية الكتابة ، مشيرين هنا الى أن الاله الفرعوني « توت » كان كثيرا ما يرمز إليه بشكل قرد .

أما الطريق المختلف الذي سلكه ، فيمر في المجر ، « هذه البقعة الاسيوية الباقية بعد أمواج الغزو وراء حاجز جبال الكوبات المليئة بالنسبة لي ، بين غاباتها

---

(١٢٢) **Portrait de l'artiste en jeune singe. p. 95**

(١٢٣) للمزيد من المعلومات عن نظرة الرومانطيقيين الألمان إلى الشرق ، انظر الجزء الأول والثاني من :

Marcel Brion: L'Allemagne romantique, tomes I et II, Albin, Michel, Paris, 1976 et 1978

(١٢٤) **Thomas Mann, Joseph En Egypte**

(١٢٥) **Antoine Galland. Les Mille et une nuits.**

(١٢٦) ألف ليلة وليلة . الجزء الأول . وقصة الصعلوك الثاني تروي بين الليلتين ١٣ و ١٥

وشعابها ، بقصور مسكونة بالأشباح والسحرة ، كالذي تحكي عنه قصة جول فيرن ، مع أساطير مصاصي الدماء »[١٢٧]، طريق مدينة بودابست المزدوجة ، وطريق أحد فلاسفتها ، « الدكتور هـ . » الذي رتب في البداية رحلة الفرنسي الشاب إلى ألمانيا ، وشخصية « الدكتور هـ . » مزدوجة من جميع الوجوه ، فهو غربي وشرقي ، طبيب وكيميائي ، واقعي وخيالي في آن واحد ، وهو بذلك يذكرنا بشخصية « جانوس » الاله الروماني ذي الوجهين الواقف على مدخل روما في أحد كوابيس قصة « التعديل » ولكنه هنا جانوس مختلف ، بشري ، واقعي ، يمنح المسافر الفرصة لزيارة المانيا ، « أرض الفلاسفة » ، ويعطيه في الوقت ذاته « كلمة السر » ويدله على « الباب الخفي » الذي يدخل منه إلى « كهف الكنوز الفكرية » . . . إلى مصر .

يشرح جورج غودان ، أحد الذين كتبوا عن ميشال بوتور ، هروبه إلى مصر بالعبارات التالية :

« بما أن كل كتاب يمكن أن يصبح إنجيلا ، فإن كل دليل تتملكه الرغبة أن يصبح مع الوقت سيدا . وكل ثقافة تحمل في داخلها بذرة استبداد يجب إتلافها بالانفتاح على ثقافات أخرى . ولذلك كان على بوتور أن يهرب ، أن يبتعد ليس فقط عن القصر وعن المانيا ، بل عن كل تلك الثقافة ليجد أخرى ، ثقافة مصر ، وكثير غيرها فيما بعد »[١٢٨].

أما بوتور فإنه يعيد رغبته في الذهاب إلى مصر إلى أقدم من رحلته آلى ألمانيا :

« راغبا آنذاك ببعض البعد والعزلة وبقليل من المغامرة ، متحمسا بمصر من سبيل ماء مقابل منزلي في شارع سافر ، تسمى سبيل الفلاح ، ذلك ما جعلني البي الدعوة بسعادة »[١٢٩].

وبالرغم من شعوره بالغربة في السنة الدراسية التي أمضاها في ألمنيا ، فإن إقامته هناك كانت ذات فائدة ودروس عظيمة .

لقد وجد في البداية صعوبة كبيرة بالتلاؤم مع هذا المحيط السديمي والصحراوي . ولذلك كان ينتظر نهاية الأسبوع بفارغ الصبر كي يستقل القطار إلى القاهرة حيث يمضي بعد ظهر الخميس والجمعة بكامله « محاولا تنشق قليل من هواء الغرب » .

ولم يطل به الأمر على اعتياد الحياة هناك ، فأخذ يجد لذة كبرى في التعرف على عادات وتقاليد بيئته الجديدة « في المنيا ، هذه المدينة الصغيرة ذات الثمانين الف نسمة يومها ، الواقعة في وسط مصر ، على بعد مائتين وخمسين كيلو مترا جنوبي القاهرة ، على ضفة النيل الغربية ، وأحد أكبر أسواق القطن ، التي لا تحتوي على أي أثر مهم وعلى أي بناء لأكثر من قرن مع أنها تعود لأكثر من خمسة آلاف عام »[١٣٠].

أخذ يتأمل المدينة والجوار بسعادة وواقعية ويصف موقعها ومنازلها ذات الأثاث البسيط والمتواضع ، باستثناء بيوت بعض الأغنياء الذين كانوا يأتون بأثاثهم الفخم والثمين من القاهرة أو مباشرة من بعض محلات لندن وباريس « لأنه لم يكن في المدينة في ذلك الوقت طاولة واحدة للبيع »[١٣١].

وقصة الطاولة هذه التي كلفه الحصول عليها جهدا ووقتا كبيرين في بداية العام الدراسي ، طرحت لديه

(١٢٧) Portrait de l'artiste en jeune singe, p. 21

(١٢٨) Georges Godin. "Portraite de Butor en Jeune etudiant" Metaphores, no. 1. Nice, avril 1980. p. 83-84

(١٢٩) Le Genie du lieu, p. 114

(١٣٠) نفس المصدر ، ص ١١٣

(١٣١) نفس المصدر ، ص ١٣٨

مقارنة بين طريقتين مختلفتين في الحياة : الأوروبية والمصرية الريفية . فبينما يعتاد الأوروبي على سلوك وتصرفات ترتبط بمقاعد وكراسي وطاولات وما الى ذلك ، تتمحور طريقة الريفي في مصر من جلوس ووقوف واستلقاء حول البساط او الوسائد المفروشة على الأرض ، ذلك ما يجعله يقول :

« ألا ترى معي بأن الحديث عن شيء بسيط جدا كالطاولة يطرح على الفور قضية حضارة كاملة ذات أسلوب آخر ويطرح فترة تاريخية بأكملها ؟ إن إدخال أدوات كهذه في محيط غريب عنها ، أو بالأحرى تبني نمط أوروبي في الحياة ، أي ضمن تربية تقتضي بين أشياء أخرى وجود مثل هذه الأدوات ، ينتج اختلالا واضطرابا عميقين حتى في التصرفات العادية »(١٣٢)

ولكن ما يبغيه بوتور من إقامته في مصر ليس إيجاد الاختلال ، بل على العكس التركيز على التلاقي وإظهار ما لمصر من أثر في صهر الحضارات ومن تأثير حتى على العقلية الغربية . ذلك ما يفسر اهتمامه الشديد بالقاهرة وما تمثله ، وما يبين الهدف من زياراته المتكررة لها وتمضيته كل أيام العطل المدرسية فيها .

كان يبحث بين آثار مصر عن معلومات عن « أصله وأصل الديانة التي نشأ عليها » ، عن تجديد أو تحسين لطرح المشاكل التي شغلته خلال مدة طويلة ، عن شعاع يضيء بعض خفايا أوروبا ، « بنت الامبراطورية الرومانية » ، عن طريقة جديدة لقراءة وتحليل التاريخ ، تاريخ الشرق وأوروبا معا ، وعن كل ما من شأنه « الدعوة لتوسيع وتحديث المعارف التي ورثها من طفولته » . الهدف من كل ذلك إعادة تكوين ثقافية وحضارية تجعله يتخلص من عقد وأساطير تربيته الأوروبية .

« لقد كانت مصر وطنا ثانيا لي ، وحدث لي ما يشبه الولادة الثانية في هذا البطن الممدود الذي يمتص بفمه دلتا البحر المتوسط ومعابر حضاراته ، مختزنا هذه الاخيرة ومازجا لها في عملية تخمير بطيئة » .(١٣٣)

هذا المولود الخلاسي ، الأوروبي ـ المصري ، يصبح قادرا بحكم هويته الجديدة وانتمائه المزدوج على أن يرى الأمور بشكل يختلف عن بقية الأوروبيين . وأن ينظر إلى العالم بطريقة أكثر موضوعية وتجرد . وللدلالة على هذا التطور في شخصيته نورد نصا مطولا بعض الشيء ولكنه ضروري ومعبر :

« إن كل فرنسي جاوز مرحلة دراسته الثانوية قادر على تقديم ملخص غير دقيق لتاريخ البشرية يظهر فيه اليونانيون والرومان (والعبريون الذين تنسب لهم التوراة والمذهب الكاثوليكي الى حد ما ، مع أن هذا الميدان كثيرا ما لا تبدو رغبة لذكره) ثم العصر الوسيط المسيحي ، فعصر النهضة ، وأخيرا اوروبا المعاصرة مع علومها التي تكتسح باقي العالم .

« صورة تدعي أنها كافية وأنها تنطوي على كل التفسيرات دونما حاجة لإدخال هذه الشعوب الأخرى وتلك الحضارات الأخرى الغريبة الأطوار والتافهة والمضحكة ، التي لا تستحق أي اهتمام » .

« لدرجة أن حضارات عظيمة ومجيدة كالفرعونية والإسلام لا تظهر إلا بشكل ملحقات بشكل حواشي في أسفل الصفحات أو بشكل رسوم هزلية . .

(١٣٢) نفس المصدر ، ص١٤٢
(١٣٣) نفس المصدر ، ص١١٠

« من الطبيعي أن هذه الصورة قاصرة عن اقناع أبسط فلاح مصري لأن أول ما يتبادر إليه هو عصر الفراعنة كلغز ، وأول ما يهمه هو الإسلام كماض وحاضر وتقاليد لدرجة أنه يجد نفسه مضطرا لوضع التاريخ الأوروبي ضمن إطار أوسع منه بكثير » .[١٣٤]

هكذا نرى هذا الأوروبي ، ابن المطر والضباب والدخان ، ابن الامبراطورية الرومانية الهرمة ، ينطلق ليفتش عن أجداده في زواياها وأقطارها ، فيجد أول هؤلاء الأجداد في مصر ولكنه جد خلاسي وليس أبيض ، لذلك يستطيع أن يطلعه على بعض أسرار الرمال والصحراء ، أن يدفيء جسده وروحه[١٣٥] ، ان يقدم له المعدات اللازمة للحفر والتنقيب في العالم وتاريخه ، بعد أن برهن له بأن العالم لا يبنى على مركز واحد وأعلمه بأن عليه ، كي يفهمه جيدا ، أن ينظر إليه من زوايا مختلفة ، وأن يبحث بدل المراكز عن شرايين وأوردة تستقبل وتضخ دم ثقافات وحضارات متنوعة ليصب في قلب بابل جديدة .

●●●

قصة « درجات » أو تجديد[١٣٦] وسائل الاستكشاف :
يصل مستكشف منطقة جغرافية أو أدبية إلى نقطة يجد فيها أن المعدات التي يحملها لم تعد كافية ويدرك بأن التقدم ومواصلة البحث أصبحا مستحيلين ، « عندها يبدو من الضروري العودة إلى نقطة الانطلاق للإتيان بمعدات أحدث وأكثر ملاءمة لهذه المنطقة التي أصبح الآن يعرفها بشكل أفضل »[١٣٧]

ولكن المنطقة التي يحاول بوتور اكتشافها ليست فقط الإمبراطورية الرومانية أو مصر او الشرق أو أية منطقة أخرى في العالم ، فطموحه أوسع من ذلك بكثير :

« إن الأرض بكاملها هي التي أحاول أن أتمثلها ، أحاول أن أراها »[١٣٨] . وبناء على ذلك يكون اكتشافه لأحد أجداده في مصر خطوة على طريق طويل سيحاول خلاله اكتشاف أجداد آخرين في بقاع مجهولة . ولكن اكتشاف الماضي ليس هدفا بحد ذاته ، بل هو ، على العكس ، طريق يوصل للمستقبل ، « لوطن الأبناء » . اكتشاف مزدوج إذن ، وهدف عظيم لا يمكن تحقيقه الا بالانطلاق من أرض صلبة وبتحديد نقطة الانطلاق ونقطة الوصول وهذا ما يجعل من الطبيعي جدا العودة إلى باريس ، إلى المدينة الأم التي غادرها المسافر وكل شيء فيها يهتز ، ويجعل من الضروري تقوية أساساتها بما حمل عقله ويداه من دورته حول المتوسط .

تتم العودة إلى باريس هذه المرة من خلال قصة « درجات » Degues حيث يحاول المسافر تعميق معرفته بمسقط رأسه ، ومن خلال مناهج التعليم الثانوي ، بالأحداث والتواريخ التي تؤثر على عقلية سكانه .

بعد أن غادر المدينة كتلميذ ، « كفرد فتي » ، يعود اليها أستاذا غني التجربة ، قادرا على إدخال « بصيص من نور في قلب هذا الظلام الدامس الذي نتخبط فيه »[١٣٩] .

الجديد في هذه القصة من ناحية الشكل ـ وكل قصة لميشال بوتور تحمل تجديدا شكليا ـ هو التناوب في كتابتها

---

(١٣٤) المصدر السابق ، ص ١٩١ ـ ١٩٢

(١٣٥) يصرح بوتور في احدى مقالاته : « عندما ذهبت الى مصر للمرة الأولى ، كان اهم اكتشافاتي (بين اخرى كثيرة) انه من الممكن الا نشعر بالبرد ، اننا لسنا مجبرين على ذلك ، وان ذلك لا يشكل جزءا من العقاب الالهي بطردنا من الجنة ، إنه توجد أماكن على الارض لا نشعر فيها بالبرد أبدا ، حتى ولو كنا عراة .

(١٣٦) J.M. Le Sidaner. op. cit. p. 53

(١٣٧) m. Butor. Degres Ed. Gallimard, Paris, 1960

(١٣٨) كما صرح لنا في المقابلة المذكورة آنفا .

(١٣٩) Degres, p. 117

من شخصيات ثلاثة يستعمل أولهم ضمير المتكلم « أنا وثانيهم ضمير المخاطب المفرد وثالثهم ضمير الغائب « هو » .

يبدأ الراوية الأول ، وهو أستاذ في إحدى مدارس باريس الثانوية ، كتابة القصة بهدف « تبيان روابط القربى » داخل أحد الصفوف ، ولكنه لا يتأخر في اكتشاف أن هذه الروابط لكونها تتعلق بخارج المدرسة ، تسمح لنا بتجاوز حدود مدرسة أو مدينة وبالتوصل إلى « فهم تاريخ وواقع البشر لأن علاقات القربى ليست فقط وسيلة لتعريفنا بأشخاص منسيين ، بل هي تتيح لنا أيضا أن نعود للوراء فنبعث الجدود ونعيد تأليف التاريخ » .[١٤٠]

أما لائحة الدروس التي تعطي في مختلف الصفوف الثانوية فتشمل تواريخ وعصورا وأحداثا ومناطق يركز عليها منهاج المرحلة الدراسية وتشكل بالتالي حيزا مهما من تفكير الطلاب والأساتذة .

تبدأ اللائحة بكروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس ، ثم تذكر « الاكتشافات الجغرافية العظيمة في عصر النهضة ، من رحلة فاسكودي غاما الى كوزكود ، الى اكتشاف كريستوفر كولومبس لجزر الهند الغربية ودوران ماجلان مع طاقمه حول العالم ووصول ماركو بولو الى الصين »[١٤١] بعد ذلك يعيدنا التاريخ إلى بلاد اليونان القديمة وأساطيرها ، وإلى مصر الفرعونية وسلالات ملوكها ، مرورا « بعصر بيزنطة الذهبي » ، « بالفتح العربي » . بالإمبراطوريتين الرومانية والإسبانية اللتين تصدعتا الواحدة تلو الأخرى وبالهلال الخصيب و« امبراطوريات آسيا القديمة » ، الخ . . .

بعض دروس الجغرافيا تعرف « بمناطق العالم : الاستوائية والمدارية والمعتدلة والقطبية » أو « بكل المعادن المختبئة في جوف الأرض »، بينما تدعو دروس اللغة الطلاب إلى اكتساب » معرفة تامة بالعالم الآخر الذي هو الانسان وبالقيام برحلات قراءة في أعمال كتاب من بلاد ولغات مختلفة ؛ هوميروس ، رابليه ، مونتاني ، ماركو بولو ، شكسبير ، فولتير وكثيرين غيرهم . هذه الدروس ترسم دروبا لبعثات واستكشافات مستقبلية ، لرحلات جماعية إذن ، لأن قصة « درجات » تلعب دورا لانتقال من المفرد الى الجمع ، الأمر الذي بينت الرحلات السابقة ضرورته وحتميته .

لقد اكتفى المسافر في البداية بـ « أنا » صريحة (استعمال الوقت » ، « وصف الفنان كقرد فتي » ، « عبقرية المكان ») أو مضمرة كما في قصة « التعديل » حيث يتكلم بطل القصة عن نفسه مستعملا ضمير المخاطب « أنت » ، الذي يتحول في النهاية الى « أنتم » . (يظهر جمع المخاطب هذا مرة واحدة حين يقول ليون دلمون : « وهكذا تنزع من ضمائركم إحدى أكبر موجات التاريخ »). وفي الصفحات الأخيرة من « عبقرية المكان » ، حين يتذكر المسافر زيارة قام بها إلى الأقصر مع زملائه الفرنسيين في المنيا ، تظهر « نحن »للمرة الأولى شاملة هذه المرة فلاحا مصريا دعاهم لشرب الشاي في منزله بعد أن تعرف على ميشال بوتور الذي كان قد التقاه على الباخرة بين مرسيليا والإسكندرية .

« كنت أدرك جيدا بأن هذا التفاهم السليم والنقي بيننا برغم بقائه أخرس ، [١٤٢] لكي يستطيع الارتقاء

---

(١٤٠) Jean Roudaut, Michel Butor ou le livre futur, p. 85

(١٤١) Degres, p. 26

(١٤٢) بذل هذا الفلاح المصري جهدا كبيرا كي يفهم بوتور اين حصل لقاؤهما الأول ، واستطاع ان يتوصل لذلك من خلال اسم الباخرة التي اقلتهما الى مصر « اندريه ليبون » .

إلى مستوى الكلام ، لكي ينمو الى حوار حقيقي ، فيجب أولا أن تنشأ هيكلية نستطيع العودة اليها والاعتماد عليها ». [١٤٣]

في نهاية كل قصة أو كتاب نجد إذن ضمير جمع يطفو ليكون لحظة إدراك ومعرفة توصل إليها الرحلة المزدوجة ، الجسدية والفكرية ، لمنفى ، لمهاجر أو لمستكشف .

أما في « درجات » ، فإن هذا الجمع يبدأ بالعمل . فالقصة تبدأ كما ذكرنا ، بـ « أنا » ، تتابع بـ « أنت » ثم تنتقل الى « هو » لكي تنتهي بسؤال : « من يتكلم »

هذا السؤال الذي ينطوي على أجوبة لا حصر لها يفترض إذن وجود حشد كبير من المشاركين في رحلة الكتابة ـ والرحلة الأخرى ـ ويعطي الكلمة لكل من يجد في نفسه الاستعداد للمشاركة .

توصلنا إذن قصة « درجات » الى نوعية من الكلام الذي يشترك فيه أكثر من شخص ، وهذه النوعية الجديدة تجد تكريسها الصارخ والمتنوع في المحطات التالية للرحلة وتبدأ بالظهور من خلال كتاب « المتحرك »[١٤٤] Mobile الذي يحاول إعطاء صورة شاملة عن الولايات المتحدة الأميركية . والرحلة إلى أميركا تظهر هنا منطقية جدا ، لأن الراوية الثالث في « درجات » يتمنى أن تكون هذه القصة « برجا نستطيع أن نطل منه على أميركا » ، بينما نرى أن الدرس الرئيسي الذي يركز عليه الرواة الثلاثة ، مع أنه خارج منهاج الصف الثانوي الأول ، هو « اكتشاف وغزو أميركا » . ولكن كل ما جاء في هذا الكتاب عن العالم الجديد ، من هذا الدرس » الذي كان عليه أن يلعب دور نقطة الانطلاق والارتكاز » (ص١٧٥) الى الدروس الأخرى عن « الأميركيتين المقسمتين الى ثلاث مناطق » (ص ٢١٦) وعن « حضارات ما قبل كريستوفر كولومبس وحالة أميركا عند اكتشافها » (ص ١٧٦) ، و « الخصائص المناطقية للولايات المتحدة (ص ٣٦٧) ، و « الغرب الأوسط والغرب الأقصى الأميركيين » (ص ١٠٩) ، و « تجارة الرقيق من افريقيا الى أميركا » (ص ١١١) الخ . . بالإضافة الى نصوص عديدة أشهرها كلمة مونتاني Montaigne الشهيرة في القرن السادس عشر : « لقد وجد عالمنا أخا جديدا ، ومن يدري إذا كان هذا آخر إخوته » (ص ٣١٩) ، كل ذلك لم ينجح في تشييد برج ترى منه أميركا بشكل جيد .

هل فشلت المحاولة اذن ؟

على العكس تماما ، فلقد حقق المسافر فتحا جديدا أو بالأحرى أوجد منعطفا جديدا . ولقد رأينا بأن هروب بطل « استعمال الوقت » من انكلترة كان بمثابة انتصار على المدينة ، كما أن تعديل مشروع ليون دلمون كان نتيجة غوصه في أعماق أسطورة روما ، بينما كانت إقامة الشاب الفرنسي في المانيا خطوة على طريق مر في المجر وأوصله الى مصر حيث علم بعض الفرنسية لعدد من التلاميذ ولكنه تعلم ما جعل منه انسانا آخر يعود الى وطنه بعقلية منفتحة أدركت أنه ما من حضارة يحق لها الادعاء بمركزيتها أو الاكتفاء بذاتها ، وأن الفهم الحقيقي والتطور الحقيقي هو نتاج تفاعل بين الحضارات والشعوب .

والفشل الظاهري في « درجات » ما هو الا إعلان رفض من طرف الكاتب . للربط التقليدي بين كلمتي « اكتشاف » و « فتح » ، رفض بالتالي للوصول الى

---

(١٤٣) Le Genie du lieu, p. 208-209

(١٤٤) نعتمد هذه الترجمة لعنوان الكتاب المذكور مع الاشارة إلى انها ليست الوحيدة الممكنة ، فكلمة قد تعني أيضا : المتحول والباعث أو الحافز ، كما أنها تلمح إلى شركة موبيل البترولية وتذكر بالأشكال الفنية المتحركة التي اشتهر بها النحات الأميركي كالدر .

أميركا « كمستعمر يجهد للقضاء على معالم البلد الذي يغـزوه »(١٤٥) ورفض لممارسـات أسلافه الأوروبيـين الذين هاجروا الى اميركا حيث طردوا الهنود الحمر من أرضهم الأم واستعبدوا السود الذين كانوا يأتون بهم من أوروبا . أما الوجه الآخر للفشل الظاهري فهو الدلالة على رغبة بالوصول كمكتشف يريد أن يتعلم ويعلم ، كانسان متخلص من كل الأفكار المسبقة ومن كل ثقل ورغب ذكريات « الفاتحين » الأوائل تجار الرقيق ومبيدي القسم الأكبر من السكان الأصليين لقارة أميركا . من هنا تركيزه على شخصيتي كرستوفر كولـومبس وماركـو بولو ، وذلك لكون الأول من فتح طريق الاكتشافات البعيدة والثاني أول أوروبي قدم في كتابه « وصف العالم » وثـائق جغرافيـة وعـرقيـة عن بـلاد وشعـوب الشـرق الأقصى . ونستطيع القول بأن هذا الرحالة يهدف من جهة الى « ردم هذه الهوة الرهيبة بيننا وبين غرائزنا ، بيننا وبين باقي العالم »(١٤٦) والى تخليصنا من مصير الغزاة الذين يقفلون باب الخلاص أمامهم وأمام الاخرين ، ويعمل من جهة أخرى على « انبثاق نور جديد من ينابيع مـازالت مجهولـة ، ينـابيـع تعيـد الشبـاب للحضـارة الأوروبية الهرمة وتتيح لنا إيجاد شباب ما لا نعـرفه في حضارتنا الا هرما » .(١٤٧) يفتش إذن عن طريق مختلف يوصله الى العالم الجديد .

باقترابنا من نهاية هذه المرحلة من رحلة بوتور الطويلة والمستمرة ، نورد مـا ذكره أحـد الرواة الثـلاثة لقصـة « درجـات » عن المضـــارع الـــذي يستعمــله لســرد الأحداث :

« هذا المضارع الوسيط الذي يسبح ويتنقل بين وجود ذلك الماضي الذي يعنيه وهذا الحاضر الذي نوجد فيه ، يتفحصه كل منا ويكتبه اذا كان كاتبا ، ويعيد تشكيله وهو يقرؤه إذا كان قارئا »(١٤٨) .

والقصة التي نتكلم عنها تلعب نفس دور المضـارع المـذكـور : فهي « تسبـح » بـين بلدين : مصــر التي تتحـدث عنها في صفحـاتها الأولى ، وأميـركا الغـائبة الحاضرة ، في الأخيرة ، و « تنتقل » بـين طريقتـين في التعليم : واحدة « تصك المجموعات البشرية كقـطع النقد »(١٤٩) ، وأخرى « تنمي خصائص ومواهب كل فـرد »(١٥٠) تسبـح بـين « عـددين » للرواة : المفــرد والجمـع ، بـين نـوعـين أدبيـين : القصـة والكتــابـة التصويرية ، بين عقليتين : عقلية اعتاد عليها الغرب ، متكبرة ومتسلطة ، وثانية ينادي بها الكاتب ـ الرحالة ، تتفاعل مع شعوب وحضـارات أخرى ، تتعـرف على نتاجهم وتعرف بـأماكنهم الجغـرافية والثقـافية ، وهي تنتقل أخيرا بين أماكن متناثرة في شتى بقاع الأرض وبين صنفين من البشر : راكـد سجين ضمن حـدود ضيقة ومرتحل باحث متطور متجدد .

●●●

رفاق وأدلاء : في كل مراحل هذه الرحلة يرافق المسافر شخصيـات وهمية ، أدبيـة ، تاريخيـة أو اسـطوريـة ، ويستعين بأعمـال أدبية وفنيـة تشكل في مجملهـا شبكة واسعة ومتكاملة من المعالم التي تساهم في تسهيل وأغناء وتعميق الاستكشاف .

---

(١٤٥) J.M. Le Sidaner, op. cit. 57

(١٤٦) Repertoire II, p. 181

(١٤٧) نفس المصدر ، ص ١٨٠

(١٤٨) Degres, p. 253

(١٤٩) Resistances, p. 28

(١٥٠) نفس المصدر والصفحة

وتظهر في القصة الأولى لائحة للمرافقين الرئيسيين الذين يحددون اتجاهات المراحل التالية : تضم اللائحة راهبين شقيقين ويهوديا وشابا مصريا وكاتبا ورساما .

الراهبان اولاهما حسب القصة ابنا اوغسطين ـ وهو اسم ذو دلالة مزدوجة ، اذ انه يذكر اولا بالامبراطور الروماني الشهير اوكتافيوس اغسطس ويذكر ثانيا بالقديس اوريليوس اوغسطينوس احد اشهر دعاة المسيحية في الغرب ـ وهما نموذج لرجل الدين الموجود ايضا في القصتين التاليتين . ففي « استعمال الوقت » يعطي أحد الرهبان معلومات مهمة عن بلستون وكنائسها لجاك ريفل الذي يصرح بدوره : « لقد نشأت على تربية كاثوليكية رومانية ولكنني محوت من نفسي منذ مدة طويلة اغلب مبادىء « التاريخ المقدس » التي غرست في ذهني »[١٥١] أما في « التعديل »، فهناك أيضا راهب بين ركاب الدرجة الثالثة التي يسافر فيها ليون دلمون ، ويلاحظ هذا الأخير ارتباكه وعصبيته فيقول : « من المحتمل أن قرارا ما ينتظره هو الآخر . . ولربما قرر التخلي عن طقوسه وعن ثوبه الكهنوتي »[١٥٢] وفي « عبقرية المكان » نرى مظاهر مختلفة للمسيحية في كل المدن التي يزورها المسافر .

والشخصية الرمزية الثانية التي تمثل اليهودية ، اي العهد القديم ، نجدها ايضا في الكتب الثلاثة المذكورة حيث تظهر باستمرار بعض الأسماء التورانية مثل قابيل وزكريا ويوسف وموسى (عليهم السلام) . وهذه الأسماء وغيرها تلازم تفكير المسافرين لدرجة أن بعض هؤلاء يتخيلون وجودهم أو يرون في أحلامهم أنهم يحاورونهم أو يرافقونهم . كل ذلك يبين التأثير الكبير الذي مارسته اليهودية وما تزال على التفكير الأوروبي .

هذا التيار المزدوج ، اليهودي المسيحي ، يظهر من خلال كتب بوتور على علاقة وثيقة بتيار آخر اقدم منه ، نعني به الأساطير اليونانية الرومانية القديمة المرتبطة بدورها بأساطير مصر القديمة . ولقد رأينا كيف أن مدينة روما تجسد التقاء كل هذه التيارات . أما بالنسبة لرفاق الرحلة ، فمن المهم أن نلاحظ أن ظهور زكريا مصحوبا بعرافة وثنية في حلم ليون دلمون يفتح الطريق امام موكب طويل من البابوات والأباطرة وآلهة الأساطير الذين يلعب ظهورهم دورا اساسا في تعديل خطة ليون دلمون ويجعله يتوقف عن رؤية عشيقته ويقرر العودة الى زوجته وأولاده . أما جاك ريفل بطل « استعمال الوقت » ، فإنه يتأمل طويلا زجاجيات الكاتدرائية القديمة التي تمثل قابيل وبابل وسدوم وعمورة وروما الأباطرة المسيحيين ، ثم يقول : « كأن الرسامين القدماء ارادوا ان يبينوا ، من خلال تصويرهم للقراءة الرسمية للتوراة ، بأنهم يكتشفون فيها شيئا آخر »[١٥٣] . هذا « الشيء الآخر » ليس سوى الانعكاسات الأسطورية والثقافية لحضارات أخرى متفاوتة البعد جغرافيا وتاريخيا والتي تساهم بوسائل مختلفة في تشكيل العقلية الأوروبية » .

« إن المقارنة مع أساطير الآخرين (هؤلاء الآخرون قد لا يكونون سوى أجداد أو إخوة) هي وحدها التي تتيح لنا فهم أساطيرنا والتعايش معها . ذلك ما يجعل جغرافيتنا ترتسم أمامنا بوديانها ومنحدراتها وسدودها . وكلما تعمقنا في معرفتها كلما استطعنا تحسينها » .[١٥٤]

(١٥١) L'Emploi du temps, p. 74
(١٥٢) La Modification, p. 90
(١٥٣) L'Emploi du temps, p. 79
(١٥٤) J. M. Le Sidaner, op. cit. p. 34

الرفيق الثالث للمسافر يتمحور حول شخصية الشاب المصري أحمد ، هذا الشاب الأسمر الذي يظهر في « استعمال الوقت » ، داكنا اكثر ، من خلال ملامح شاب إفريقي يطلع بطل القصة على كثير من أسرار المدينة البريطانية ، ثم يعود للظهور في « وصف الفنان كقرد فتي » من خلال الشاب الفرنسي ذاته هذه المرة ولكن كبطل من أبطال « ألف ليلة وليلة »، هو صورة للغريب ، للمختلف عن الآخرين ، ولكن هذه الشخصية هي الوحيدة التي تتغير كليا وتتطور النظرة إليها تطورا إيجابيا ، فبينما يبدو في القصة الأولى غريب الأطوار وشبه معزول عن الآخرين ، يصبح شيئا فشيئا المعلم والدليل ، فهو في ألمانيا يطلق كلمة السر التي تفتح طريق الشرق ودروبا أخرى ، وهو في مصر يذكر الفرنسي بمسقط رأسه باريس ، « بالشانزليزيه وخاصة ساحة الكونكورد التي تتوسطها مسلة مصرية »،(١٥٥) وهو في باريس من جديد ، يلفت نظر المسافر الى أن عليه زيارة أماكن أخرى والتعلم من شعوب كثيرة مازال يجهلها .

أما الشخصيتان الأخيرتان في لائحة القصة الأولى فهما الكاتب والرسام ، وهما موجودتان بغزارة في جميع كتب بوتور . فالمسافر يستعين بهما دائما في تحضير وبدء الرحلة ، ويصطحبهما خلالها ثم يعود لمناقشتها معهما .

يقوم بوتور ، كما ذكرنا ، برحلات لا حصر لها في أعمال الأدباء والرسامين والنحاتين والموسيقيين ، ولكن هذه الأعمال تلعب من جهة أخرى دورا مزدوجا كأدلاء و « أدوات تفكير » ففي « استعمال الوقت » مثلا نجد قصة بوليسية تروي ضمن القصة الرئيسية ويؤلفها كاتب وهمي يقول عنه جاك ريفل : « لقد كان نصيرا لي ضد المدينة ، كان ساحرا معتادا على المخاطر استطاع أن يزودني بسحر قوي لكي اخرج منتصرا من تلك السنة ، من تلك الإقامة التي لم أكن أدرك قوة سمومها ومكائدها ولم أكن أدرك صعوبة دحرها »(١٥٦) .

أما الانتصار على المدينة ، بمعنى خروج المسافر منها محتفظا بقدرته على التفكير والتحليل ومحددا اتجاهه التالي ، فلم يتحقق إلا بعد دراسة مستفيضة للأعمال الفنية المميزة فيها ، من رسم ونقش وزخرفة وموسيقى ومسرح وحتى بعض الأفلام السينمائية الوثائقية .

واختيار العمل الفني يتم دائما على أساس أن يكون « متعدد التفسيرات ، متحركا ومتموجا »،(١٥٧) وأن يشكل « نقطة تألق » و « مركز توليد لا يكف عن الإشعاع » (١٥٨) في اتجاهات وابعاد متفاوتة يتوجه نحوها المستكشف في المراحل التالية .

في المراحل التالية من الرحلة يبدو المسافرون وكأنهم يتنقلون داخل مكتبة غنية ومتحف شاسع . ففي « التعديل » تشكل « أنيادة » فرجيل و « رسائل الامبراطور يوليانوس المرتد » و « الدليل الأزرق » لمدينة روما وكتاب « تعليم اللغة الإيطالية » و « دليل السكك الحديدية » بين فرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى قصة تشتري من محطة القطار في باريس ، يشكل كل ذلك العدة اللازمة لليون دلمون في محاولته للتعرف على « أساس وحجم أسطورة روما » ، بينما يراه يستنتج من جهة أخرى بأن كثيرا منا يستطيعون بوساطة كتاب « التوصل

(١٥٥) Le Genie du lieu, p. 108
(١٥٦) L'Emploi du temps, p. 57
(١٥٧) Lucien Dallenbach, Le Livre et ses miroirs chez Butor, p. 13
(١٥٨) نفس المصدر ، ص ١٦

الى » السماح لهذه الحرية البعيدة عن متناولنا ، السماح لها ، ولو بمقياس صغير جدا ، أن تتكون وأن تترسخ «(١٥٩) .

ولكن معالم الطريق من الكتاب الدليل الى الكتاب المحرر كانت ، بين عوامل أخرى ، مجموعة أعمال فنية منها ماهو معلق على جدران مقصورة القطار أو في منزل ليون ومنها روائح متحف اللوفر وقوسا النصر في باريس أو اثار روما أو بعض مقطوعات مونتيفردي الموسيقية . كل ذلك ، بالاضافة الى مكتبة قصر البارون و« المتحف الألماني » وكتب وآثار » عبقرية المكان » ، يشكل شبكة متكاملة هدفها التوضيح والتعريف والتوجيه .

إلى جانب الشخصيات الرمزية التي ذكرناها هناك مجموعة كبيرة من رفاق الدرب تساعد بتوجيه وتعميق الاستكشاف . فافريقي « استعمال الوقت »يلعب ـ عدا عما ذكرناه سابقا ـ دور « المرشد الى حقيقة ممنوعة عن المسافر . وسلبيته تصبح مثلا ، فهو لا يعلمنا الحرية فقط ، بل يحذرنا أيضا من كل أشكال العبودية التي قد نمارسها » .(١٦٠) ولكونه يشترك مع الفرنسي في « حقده الأسود » على مدينة بلستون ، يصبح الاثنان معا » منفيين فقدا الا من الجسدي والروحي الذي يؤمنه الاستقرار في الوطن الام » .(١٦١)

والحبيبة أيضا تلعب دور الدليل ، ليس ذلك فقط ، بل إن الحب مرتبط في قصص بوتور بهذا الدور ، فما ان تتوقف عن تزويد المسافر بمعلومات عن المكان الذي يقصده ، وما ان يفك ارتباطها التعريفي بالمكان الذي هي منه ، حتى تفقد جاذبيتها ويخفت بريقها ويموت الحب .

أما العلاقة بين المسافر ورفاق دربه فهي متبادلة في كل القصص باستثناء « التعديل » حيث « يجد نفسه أمام نماذج بشرية متنوعة يعطي لكل منها وهو يفكر أو يحلم أسما وسيرة ، مما يشكل رابطا بينه وبينهم ولكن دون مبادلة »(١٦٢) انما ذلك لايمنع من مساهمة هؤلاء الأشخاص في تعديل مشروع المسافر وانعطاف الطريق التي يسكلها .

« تقول لنفسك : » لو لم يكن هنا كل هؤلاء الناس ، لو لم تكن موجودة هذه الأشياء وهذه الصورة التي تعلقت بها أفكاري مما سبب تكوين نوع من الآلة الفكرية يجعل مراحل وجودي تنساب الواحدة فوق الأخرى خلال هذه الرحلة المختلفة عن الأخريات .

« لو لم توجد هذه المجموعة من الظروف ومن توزيع اللعب ، فمن الممكن أن هذا الشرخ الواسع في شخصيتي لم يكن ليحدث هذه الليلة وان أوهامي كانت ستستمر لبعض الوقت »(١٦٣) .

كما أن كل مكان يملك القدرة على أن يكون ملتقى طرق ، فان كل شخص يشكل « رابطا » بين عدة مجموعات بشرية وعدة تيارات ثقافية تساهم بتكوين عقلية هذه المجموعات .

واذا كان سكان المبنى الباريسي قد فقدوا الاتصال فيما بينهم وغرق كل منهم في عزلة شبه تامة ، فذلك لم يمنع بعضهم على الأقل ان يتوصلوا في نهاية القصة لتطوير طريقة تفكيرهم ولفتح أبواب بنائهم ، في محاولة لجعله متينا ، على الخارج الذي زوده فيما بعد بأساسات

(١٥٩) La Modification, p. 274
(١٦٠) Georges Raillard. L'xemple, postface de l'Emploi du temps, p. 493
(١٦١) نفس المصدر ، ص٤٨٨
(١٦٢) Michel Leiris, Le Realisme mythologique de Michel Butor, postface de La Modification, p. 298
(١٦٣) La Modification, p. 274

أصلب بكثير ، ولم يمنع أيضا ركاب قطار باريس ـ روما ، بالرغم من صمتهم المطبق أغلب الوقت ، أن يكشفوا للمسافر الرئيسي الزوايا المظلمة في شخصيته وذلك بظهورهم الواحد تلو الآخر كانعكاسات أو كاجزاء من هذه الشخصية المتصدعة التي ترى أحلامها ورغباتها وقلقها وهمومها ومشاغلها ومختلف نماذج ثقافتها وعواطفها تتوالى أمامها .

ما من أحد يسافر وحيدا عند بوتور ، حتى ولو بدا كذلك ، فكل من يلتقيه المسافر يقدم ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ايضاحات عن نفسه وعن المسافر والمكان ، وكل رفيق يظهر كموجه أو دليل أو شبيه ، مما يجعل مجتمعا مصغرا يتشكل في الطريق ويتحرك مزودا بمكتبة وبمتحف نحو شعوب أخرى وأماكن أخرى وأزمنة أخرى تحاول رحلات ميشال بوتور أن تجمعها في كتب يكون كل منها مصغرا عن تلاقي الحضارات على طريق مستقبل أفضل .

***

المصادر والمراجع :

١ ـ كتب :

• Butor, Michel:

— Passage de Milan, Editions de Minuit, Paris, 1954.

— L'Emploidu temps, Miuuit, Paris, 1956.

— La Modification, Minuit, Paris, 1957.

— Le Benie du lieu. Editions Bernard Crasset, Paris, 1958.

— Degres. Editions Callimard, Paris, 1960.

— Repertolre II, Minuit, Paris, 1964.

— Portrqit de l'artiste enjeune singe, Callimard, 1967.

— Repertoire III, Minuit, Paris, 1968.

— Ou (Le Genie du lieu 2), Callimard, Paris, 1971.

— Repertoire IV, Minut, Paris, 1974.

— Matiere de reves, Callimard, Paris, 1975.

— Second sous — sol, Callimard, Pqris, 1976.

— Troisieme dessous, Callimard, Paris, 1977.

— Boomerang (Le Ceinie du lieu 3), Callimard, 1978.

— Qaudruple fond. Gallimard, 1981.

• Butor, Michel et Launay, Michel: Resistances. Presses universitaires de France, Paris, 1983.

• Charbonnier, Georges. Entrectiens avec Michel Butor. Gallimard 1967.

• Colloque de Cerisy — la — Salle tenu en ete 1973 sous la direction de George Raillard: "Michel Butor". Union generale d'editeurs. Paris. 1974.

• Dalleubach, Lucien. Le livre et ses miroirs dans l'oeuvre de Michel Butor. Archives des lettres modernes, Paris, 1972.

• Rossum — Guyon, Francoise van, Critiqne du roman. Gallimard, 1970.

• Roudaut, Jean, Michel Butor ou le livre futur, Gallimard, 1964.

• Sidaner, Jeqn — Mqrie le, Michel Butor, voyageur a la roue, Editions Breches, Paris 1979.

٢ ـ مقالات ، دوريات ، مقابلات :

— L'Arc, No. 39, Numero special consacre a Butor. 1969.

— Butor, Michel, "Palerme". L'Arc No. 6. printemps 1959 theme dn voyage. 23 a out 1983.

— Magaziue litteraire, no. 110, mars 1976, consacre a Butor.

— Obliques, no. 4-5 1976, numero special: Michel Butor.

— Romantisme, no. 4, 1972, cons a cre au voyage."

٣ - معاجم :

— La Grande Encyclopedie Larousse. 10 volumes, Paris, 1972.

— Larousse du XX siecle, 6 volumes, Paris, 1964.

— Le Grand Larousse de la langue francaise, 7 volumes, Paris, 1978.

— Le Robert, dictionnalre analogique et alphabetique de la laugue francaise. 6 volumes. Paris, 1970.

***

صدر حديثاً

تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم

تأليف : عبد المنعم السيد عشري
عرض وتحليل كارم السيد غنيم

كتاب (تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم) لمؤلفه الأستاذ عبد المنعم السيد عشري ، ظهرت طبعته الأولى في مصر ، وقامت بنشره الهيئة المصرية العامة للكتاب خلال ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) ، وهو يقع في (٣٢١) صفحة من القطع الكبير ، ويضم مقدمة قصيرة وسبعة فصول (أو مقالات على حد تعبير صاحبها) . ثم صفحة واحدة ذكر فيها سبعة مراجع فقط ، وانتهى الكتاب بفهرست للموضوعات . كذلك فقد احتوى الكتاب على ٣٥ صورة فوتوغرافية وأيضاً ١٢ شكلاً توضيحياً . كان أقصر فصل في الكتاب هو الأول (عن الآيات الكونية في القرآن الكريم) ، بينما نجد أن الفصل السادس (الانسان) هو أطول الفصول وأضخمها . فقد شغل أكثر من ثلث الكتاب كله . أما بقية الفصول فمتقاربة الأحجام . كانت الفصول على التوالي : عن الآيات الكونية في القرآن الكريم ، الأرض ، السحاب والمطر ، النبات ، الحيوان ، الانسان ، ثم السماء . والمؤلف من الذين مارسوا تدريس علم الفيزياء في الكليات والمعاهد العلمية قرابة أربعين عاماً ، وله كتاب صدر قبل الذي نحن بصدده الآن ، هو (الكواكب والنجوم والمجرات) ، قامت بنشره نفس الدار . ثم هو قد تفرغ بعد إحالته على التقاعد لاخراج الكتاب الحالي ، والذي جاء ثمرة لتخصصه العلمي ، وحميته الاسلامية ، فذلك واضح من مقدمة الكتاب .

مقدمة الكتاب لا تتعدى الصفحتين ، بين فيها المؤلف الدوافع التي دفعته الى تأليف هذا الكتاب والهدف الذي ينشده من ورائه . أما الدوافع فايمانية نمت يوماً بعد يوم خلال عمله التخصصي ، وأما هدفه فهو السعي إلى (إظهار أن كل ما في الوجود من أصغره إلى أكبره . . من الالكترون إلى المجرة . . من الفيروس الى الانسان . . كل هذه المخلوقات من أدقها الى أعظمها

دليل على أن خالقها أجل من أن يحيط به وصف الواصفين ، ومعارف العارفين . بهذا يلتقي العلم والقرآن . . .) . ثم أوضح المؤلف خطته المتبعة في تناول مسائل الكتاب ، حيث تعهد بتبسيط المعلومات والمعارف الكونية ، كي يستطيع القاريء استيعابها ، ثم يتبع ذلك بذكر بعض الآيات القرآنية التي تشير الى تلك المسائل ، ويسوق شروح المفسرين لها . الأساس الثالث في هذه الخطة المتبعة هو الالتزام في التفسير العلمي بمنطق الآيات القرآنية ومعانيها والسياق الذي وردت فيه ، وهذا دفعه الى ربط الآيات محل الدراسة بالآيات التي قبلها مباشرة .

كانت المقالة الأولى (أو الفصل الأول) في هذا الكتاب أقل المقالات حجماً ـ كما أشرنا آنفاً ـ فهي لم تتعد عشر ورقات ، وتعد مدخلاً لموضوع الكتاب ، فهي (عن الآيات الكونية في القرآن الكريم) . تضمن العرض عناوين جانبية هي : استخلاف الله الانسان على الأرض ـ الجزاء على قدر العمل ـ دين الفطرة ـ الحقائق الكونية والعلمية في القرآن ـ القرآن ـ منزلة العلم في القرآن الكريم ـ العلم ووسائل تحصيله ـ الانسان مستصلح للدارين . قبل أن أبين عن مضمون هذا الفصل ، أود الاشارة الى أمر أراه من الأهمية بمكان كبير ، ذلك هو اضطراب الفقرات وعدم تسلسلها على النمط المنطقي ، وعليه فانني أرى أنه كان من اللائق إيراد الفقرات في تسلسل هو : القرآن ـ منزلة العلم في القرآن ـ وسائل تحصيله ـ استخلاف الله الانسان على الأرض ـ دين الفطرة ـ الحقائق الكونية والعلمية في القرآن . وكل من « الجزاء على قدر العمل » ، « الانسان مستصلح للدارين » ، لا داعي لوجودهما ، فسياق الكلام في الفقرات المختلفة يدل عليهما . ثم إن كثرة العناوين الجانبية تفتت الكلام وتضيع رونقه ، وتضعف من الترابط الفكري للموضوع ، فالعبرة ليست بكثرة عناوين ، بل بوضوح المحتوى وعدم غموض أسلوبه في الوقت الذي يجب ألا يفتقد الكلام فيه العمق مع الايجاز غير المخل .

في قول الله تعالى « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » (البقرة / ٣٠ ، ٣١) . تكلم المؤلف في شرح هاتين الآيتين مستمداً ذلك من تفاسير مشهورة ، ثم استخلص أن الله تعالى علم آدم الأجناس التي خلقها ، وألهمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها ، ثم عرض مجموعة تلك الأشياء على الملائكة ، فلما عجزوا عن أن ينبئوا بأسمائها أصبحوا في موقف التسليم بأن آدم عليه السلام إنما خلق ليخلف الله في الأرض ، ويكون سبباً في عمارتها . وتدل الآيتان أيضاً على فضل العلم ، إذ لو هناك أفضل منه لأظهر الله فضل آدم به لا بالعلم ، فالعلم هو القوة التي تحقق للانسان الغرض من استخلاف الله له على الأرض ، ولا يخفى على أحد ضرورته في كل مناحي الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وارتقاء وحضارة وغيرها .

وإذا كان الغرض من خلق آدم هو الاستخلاف على الأرض ، فان الابتلاء هو خير وسيلة لأشرف غاية ، فان الانسان لا تكتمل لشخصيته الانسانية ذاتيتها المستقلة الا بقدر ما يتصارع في نفسه من نوازع الخير والشر ، وبقدر ما يعانيه من التجارب والمقاساة ، وما يغالبه من مشاق ومتطلبات الحياة . وجاء الناموس الآلهي ، وهو استخلاف الانسان في الدنيا ، ومعه ناموس إعطاء الجزاء على قدر العمل ، وهو أساساً في الآخرة ، إلا أن الله يظهر أجزاءً منه في الدنيا .

أما كون الدين الاسلامي دين الفطرة ، فالفطرة أولاً

ليست عقلاً صرفاً ولا عاطفة محضاً ، بل هي مزيج منهما ، فلا غلبة لأحد الجانبين على الآخر ، وهنا تكون الفطرة سليمة ، تنشد الله وتعرف سبيلها إليه « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم / ٣٠) .

عن الحقائق الكونية والعلمية في القرآن ، يوضح المؤلف أن القرآن يحفل بالآيات التي تنبه الأذهان إلى ظواهر الكون تدليلاً على بارئه ومصوره ، وإظهاراً لعظمته وقدرته ، وتبياناً لرحمته بخلائقه . . . وحثاً على اكتشاف الأسرار والقوى الكونية وتطبيقها وتسخيرها واستغلال كنوز الكون وثرواته فيما يعود على الانسان بالخير . ومن الآيات القرآنية الزاخرة بهذه المفاهيم أورد المؤلف الآيات : الأنبياء / ٣٠ ـ ٣٣ ، السّجْدة / ٤ ـ ٩ ، القمر / ٤٩ ، الحجر / ١٩ ـ ٢٢ ، فُصِّلت / ٩ ـ ١٢ ، البقرة / ١٦٤ ، الرَّعد / ٢ ـ ٤ ، فاطر / ٢٧ ـ ٢٨ ، يس / ٣٧ ـ ٤٠ ، القصص / ٧٢ ، ٧٣ ، الروم / ١٧ ـ ٢٧ ، الفرقان / ٥٣ ، ٥٤ ، الأنعام / ٩٩ ، يس / ٧٨ ـ ٨٠ ، الواقعة / ٥٨ ـ ٦٠ ، الواقعة / ٦٨ ـ ٧٠ ، الواقعة / ٧١ ـ ٧٤ ، الطارق / ٥ ـ ٨ .

بعد ذلك يعود المؤلف ليتكلم عن القرآن ، تعريفه ومحتواه وعظمته ، وهو الأمر الذي كان يجب عليه إيراده قبل تعرضه للكلام عن الآيات الكونية والعلمية في القرآن . وفي معرض حديثه عن أن القرآن لم يفرط في أمر من الأمور كبيرها وصغيرها إلا أحصاها ، ودلل عليها ونبه الأذهان إليها ، واستدل على ذلك بالآيات : النحل / ٨٩ ، الأنعام / ٣٨ ، الروم / ٥٨ ، ٥٩ ، الأعراف / ٥٢ ، العنكبوت / ٤٩ . بعد ذلك عرج صاحب الكتاب على بيان منزلة العلم في القرآن الكريم ، ثم تعرض لبيان وسائل تحصيله ، وهي المذكورة في الآية القرآنية « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، لعلكم تشكرون » (النحل / ٧٨) . إذاً فالسمع والبصر والعقل هي أجهزة العلم والتعلم وتدبر أمور الدنيا وتكشف خباياها . وهذا المنهج القائم على منطق النظر والاستقراء هو المنهج الصحيح في لغة العلم الحديث . ثم أشار المؤلف إلى أدوات المشاهدة الحسية وما استعانت به من أجهزة علمية حديثة .

الفصل الثاني (أو المقالة الثانية) كان عن الأرض ، واستغرق اثنتين وثلاثين صفحة ، بدأه المؤلف بإعطاء نبذة عن الأرض ، فلما انتهى منها اتجه الى إيراد بعض الآيات القرآنية التي تتعلق بالموضوع ، وساق شيئاً من تفسيرها مقتبساً إياه من بعض كتب التفسير التي ذكرها في نهاية الكتاب . ما أهمية الأرض بالنسبة للانسان ؟ أو بمعنى آخر : ما هي أوجه انتفاع الانسان بالأرض ومكوناتها في حياته الدنيا ؟ كانت الاجابة عن هذا السؤال هي صدر الفصل ، حيث أكد المؤلف ما هو معلوم بالبديهة في أن الأرض مقرّنا الذي نعيش فيه ، والذي ارتبطت به حياتنا . كيف ذلك ؟ لأن من هوائها نتنفس نحن وسائر الأحياء ، ومن مائها الذي يجري في أنهارها وبحيراتها وينابيعها نشرب ونسقي الحيوان والنبات ، ومن زرعها . . . ومن بحارها . . . ومن باطنها . . . وفي دروبها . . . يتجه المؤلف بعد هذه النبذة إلى تفصيل عدد من الأمور هي : شرح ضرورة هواء جو الأرض وبعض العمليات المختلفة التي عمادها غاز الأكسجين . أول هذه العمليات الحيوية التنفس ، ما هو المقصود بالتنفس وما أهميته بالنسبة لأي كائن حي ؟ وكيف يتنفس الحيوان وكيف يتنفس النبات ؟ ؟ ؟ بعد هذه الاجابات انتقل إلى عملية الاحتراق : ما هو المقصود بالاحتراق ؟ ما أهم المواد القابلة للاشتعال على الأرض ؟ ما هي الأركان الثلاثة

التي يجب أن تتوفر لتتم عملية الاحتراق ؟ ما أهم المواد القــابلة لـلاحتــراق وكيف نستخـرجهــا من بــاطن الأرض ؟ . ثاني الأمور الضرورية على سطح الأرض هو الماء : ما أوجه ضرورة الماء ؟ ليس فقط الكائنات الحية بل كذلك للعمليات غير الحيوية المتعددة والتي تتم في كوكبنا الأرضي ؟ . ثالث هذه الأمور هو التربة : ما هو وجه الضرورة في وجود تربة تغطي سطح الأرض ؟ وما أهم مكوناتها ؟ وما دخل ذلك في نمو النباتات ؟ ثم توسع قليلاً في مسألة النبات فشرح أهمية الماء والأملاح والطاقة الشمسية في عملية نمو النباتات ، ثم اتجاه الانسان الى التفكير في استخدام « أسمدة » مختلفة الأنواع لتحسين خواص التربة لتنتج له إنتاجاً زراعياً أكثر وفرة . الأمر أو المسألة الرابعة التي حاول المؤلف عرضها مؤثراً تبسيط الكـلام فيهـا هي : اتخاذ الأرض مصـدراً لبنـاء دور السكنى ، وفي معرض حديثه تناول الاشارة الى الطريقة الجيولوجية لتكوين الأحجار الجيرية المستخدمة في بناء الدور . ثم بين أهمية ملح الطعام للانسان وفي عدد من الصناعات . وبعده قفز الى حديثه عن بعض الفلزات التي يستخـرجها الانســان من الأرض ، وهي هـامـة وضرورية في حياته المعيشية والحضاريـة أيضاً ، ومنهـا الحديد والنحاس والألمونيوم والذهب والفضة . وفاته أن يتكلم عن أهميـة هواء جـو الأرض في نقـل الانســان وخـلافه من الكـائنات الحيـة بين الأمـاكن وبعضها ، (بوساطة الطيران أو ركوب الهواء) ، وكذلـك انتقال المـوجات الصـوتية عبـر هذا الـوسط ، فتدارك الأمـر وأعـطى فكـرة عنـه في نهايـة الجـزء العمـلي من هـذا الفصل .

نأتي الى الآيات القرآنية التي أوردها المؤلف ، وهي التي بين فيها المولى عز وجل الحكمة من خلق الأرض ، ومـا أراده بخلقهـا عـلى الصـورة التي عليهـا من نعم للعباد ، وإظهار قدرته في هذا الخلق . وقبل التقاط نتف من الكلام للتعريف بالموضوع ، لا نجد بُداً من الاشارة إلى أمرين للتعريف فات المؤلف الانتباه إليهما ، والعناية بهما .

الأمر الأول : أنه لم يتناول عرض النصوص القرآنية في هذا الفصل ـ وكذلك الفصل السابق وبقية الفصول اللاحقة ـ مرتبة حسب ورودها في المصحف ، فلا السور متوالية ، ولا الآيات المذكورة من سورة واحدة متتالية ، بل نرى نصاً من سورة تقع بعدها في ترتيب المصحف الشريف ، ونرى أيضاً آية تكلم عنها المؤلف ذات رقم معين ، وانتقل إلى الكلام في نفس الفصل عن آية أسبق منها في الموقع داخل السورة ذاتها ، أي لم تأت الآيات مرتبة حسبما توجد في السورة . وقد يلجأ الكاتب أحياناً الى شيء من هذا الذي أخذته على المؤلف ، ولكن عند الضرورة التي يستدعيها تناول موضوع ما ، وهو ما لا نراه ملحاً في هذا الكتاب الذي نعرض له . ولبيان ذلك نشير الى النصوص القرآنية التي عرضت في هذا الفصل ليتضح ما رأيناه ، وهي : الأعراف / ٥٤ ، فصلت / ٩ ، ١٠ ، الحديد / ٤ ، ٥ ، ٦ ، السجـدة / ٤ ، ٥ ، ٦ ، النمل / ٦١ ، الرعد / ٣ ، الحجر / ١٩ ، ٢٠ ، الزمر / ٥ ، الإسـراء / ١٢ ، فاطـر / ٤١ ، النحل / ١٥ ، النازعات / ٣٠ ـ ٣٣ .

الأمر الثاني : شيوع نقل النصوص التفسيرية من هنا وهناك ، وعرضها دون الاشارة الى مصادرها ، كل في حينه وأيضاً عدم الرجوع الى مصادر تفسيرية معتمـدة ومشهورة خلاف التي ذكرها في نهاية الكتاب ، وهذا أمرٌ خـطير أبان المؤلف في مقـدمة الكتـاب عن عـزمـه في تفاديه ، ولكنه وقع فيه على امتداد الفصول السبعة التي احتواها الكتاب .

كما هو واضـح من إشارتي السـابقة الى النصـوص القرآنية التي وردت في الفصل الحالي ، فهي اثنا عشر نصاً ، بدأه صاحب الكتاب بقول الله عز وجـل : إن

ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (الأعراف / ٥٤) . أوضح المؤلف ـ نقلاً عن بعض المفسرين ـ الحكمة في ذكر « ربكم في صدر الآية ، ثم قال في معنى خلق السموات والأرض في ستة أيام : أي في ستة أطوار مرت على الخليقة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن نقف ـ أي نمسك ـ عن تحديدها ، فانها لم تحدد بأخبار صحيحة ، ولا يعقل أن تكون الأيام الستة في هذه الآية من جنس أيامنا ، فان هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض ، ولا بد أن تكون من أيام الله التي يعلمها هو . فقد أبان الله عن يوم القيامة في الآية (٤) من سورة المعارج بخمسين ألف سنة ، وأبان عنه في الآية (٤٧) من سورة الحج بألف سنة من أيامنا نحن . ثم أبان المؤلف عن الحكمة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وهو القادر على خلقها في لحظة واحدة بالأمر « كُنْ » . بعده فصل معنى الاستواء في قول الله تعالى « ثم استوى على العرش » وإنه عموماً يقصد به استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرهما والتصرف في شئونهما . ثم تكلم في تعاقب الليل والنهار من منطلق القول الآلهي : « يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً » ، وعالج الأمر من الناحية الفلكية . ورجع ليكرر ما ذهب إليه المفسرون الذين نقل عنهم مقصود الاستواء على العرش ، وذلك في ص ٢٩ . النص الثاني . يقول الله فيه : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، وخلال استرساله في شرح هاتين الآيتين يقول : ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك فقال : « [1] وجعل فيها رواسي من فوقها ،[2] وبارك فيها ،[3] وقدر فيها أقواتها » وحاول المؤلف أن يشرح شيئاً عن كل منها .

أما النص الثالث ، فيوضح أن المقصود بقول الله فيه « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » هو « ما يلج في الأرض » من معادن وعناصر وخامات وخلافه وكذلك البذور ، وما يخرج منها »كالزروع وكالمعادن المختلفة وكمختلف المواد الجامدة والسائلة التي يستخرجها الانسان من باطن الأرض ينتفع بها . « وما ينزل من السماء » من مطر ، « وما يعرج فيها » من أبخرة . أما المعية في قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » فالمقصود بها معية القدرة والايجاد والتكوين والتصريف والتدبير . وفي معالجته للجزء من النص الكريم وهو قوله تعالى « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور » يوضح أن المقصود بالايلاج هنا هو جعل قصر الليل في طول النهار وطول الليل في قصر النهار ، وهذا حادث في الفصول المختلفة من الشتاء والصيف ، ويختلف حسب خطوط العرض في الفصل الواحد .

في غضون شرح النص الرابع وهو الآيات الكريمة ٤ ، ٥ ، ٦ من سورة السجدة ، وقع اضطراب في الكلام فورد الجزء « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » ، قبل ورود الآيات الثلاث الأولى من سورة السجدة ، وليس له مكان في سياق الكلام ، وفي السطور السابقة لوقوع هذا الاضطراب مباشرة يقول (. . . إن هذا القرآن الذي أُنزل على محمد لا شك أنه من عند الله ، فما هو بشعر شاعر ولا سجع كاهن **ولا هو مما اختلقه محمد ﷺ . . .**) ، وكلمة (مما اختلقه محمد) هذه توهم بأن محمداً قد اختلق أشياء أخرى ، إلا أن القرآن ليس من بينها ، فكان الأحوط أن يكون

التعبير باستخدام كلمة (ولم يختلقه محمد) أو (ولا اختلقه محمد) . في النص الخامس عدد المؤلف خمسة عشر مظهراً من مظاهر القدرة والحكمة والعظمة في الخلق والتدبير والتصريف في الكون . مسألة بسط الأرض التي وردت في النص السادس (الرعد / ٣) يقول المؤلف فيها : « وهو الذي مد الأرض » أي بسطها ، فهي فيما ترى العين مبسوطة ، ولا شك أن الأرض كرة ، ولكن نظراً لكبرها فان أي جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحاً مبسوطاً . أما إذا التقطت صورة للأرض من موضع على بعد كبير منها ، كمركبة فضاء ، لظهرت أنها كروية . والمقصود من قوله « وهو الذي مد الأرض » أي بسطها ، فهي فيما ترى العين مبسوطة ، ولا شك أن الأرض كرة ، ولكن نظراً لكبرها فان أي جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحاً مبسوطاً . أما إذا التقطت صورة للأرض من موضع على بعد كبير منها ، كمركبة فضاء ، لظهرت أنها كروية . والمقصود من قوله « وهو الذي مد الأرض » أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض لتثبت عليها الأقدام ، وتمهد الطرق ، وتمد عليها خطوط السكك الحديدية ، وتقام المباني وتسير المركبات . . . . وبعده أورد كلاماً مكرراً عن الجبال الرواسي ، وفي نهايته يلخص القول : . . . فالجبال إذاً بروز للقشرة الأرضية ، فكأن الجبال حافظة لما تحتها مانعة له من الاضطراب والزلزال والثوران) . ثم أوضح كيف جعل الله الأنهار في الأرض ، وأشار إشارة لطيفة فقال : « وقد جعلت الآية الأنهار بعد الجبال الرواسي لأنها تنشأ منها ، فالسحاب عند قمم الجبال يبرد وتتجمع القطيرات الرفيعة المكونة له مكونة قطرات كبيرة تنزل مطراً مدراراً كما يحدث في أماكن كثيرة مثل جبال الحبشة التي ينبع عندها النيل الأزرق مكوناً أحد رافدي نهر النيل . وحاول أن يعالج عملية الاخصاب في النبات عند تناوله للجزء من الآية « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » ، ولكنه لم يف بالموضوع . في صدر كلامه عن النص السابع (الحجر / ١٩ ، ٢٠) يقول : سبقت هاتين الآيتين آيتان شرح فيهما المولى عز وجل دلائل سماوية في تقرير التوحيد ، حيث قال : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم » (الحجر / ١٦ ، ١٧) ثم أتبع الدلائل السماوية بدلائل أرضية فقال « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » (الحجر / ١٩ ، ٢٠) . وفي النص العاشر (فاطر / ٤١) يتكلم عن إمساك السموات والأرض في قول الله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ويشرح ناموس الجاذبية وبيان معناها وبعضاً من أطراف المسألة . في النص قبل الأخير (النحل / ١٥) يبين أن النعم المذكورة هنا ، والتي يمتن الله بها على خلقه هي : وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » ، « وأنهاراً » ، « وسبلاً » . أما في النص الأخير (النازعات / ٣٠ ـ ٣٣) فيكرر ما سبق أن أشار اليه في عرض النصوص السابقة .

في نهاية هذا الفصل يجب أن نشير إلى أمور هي : تعدد مواقع التكرار والاعادة في جنبات الفصل ، وكذلك وقوع عدد من الأغلاط المطبعية والأخطاء العلمية ، وهذه وتلك سوف نفصل قولنا فيها آخر هذا التحليل . كما أن من أضرار النقل والاقتباس دون عناية بسياق القول هناك في التفاسير ، تكرر لفظ « وقد سبق » للاشارة الى أمور يظن المؤلف أنه أوردها سابقاً ، ولكن لم يحدث أن أوردها . وكان من الأحرى به أن يحذف هذه الكلمة من موقعها ، ويضع ملخصاً لما تشير اليه (أنظر في هذا الأمر الصفحات ٢٨ ، ٣١ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٤٩) .

وفصلاً كهذا يحتاج الى صور أو أشكال توضح بعض مسائله وتزيد الموضوع بياناً ، فهو زاخر بالجبال ، مليء بالأنهار ، غني بالأزواج ، . . . وهو ما لم نجده ، عدا صورة يتيمة واحدة ، أوضحت أهمية أملاح البوتاسيوم الموجودة في التربة في نمو النبات ، ولو أن موضعها اللائق هناك في الفصل الخاص بالنبات .

ومن الانصاف أن يحمد للمؤلف صنيعه الجليل في الاتيان ـ أحياناً ـ بالآيات السابقة على كل نص من النصوص الاثنى عشر التي حاول معالجتها في الفصل ، وذلك ليربط بينها وبين الآيات محل المعالجة ، وهذا أمر نوه إليه في خطته العلمية لتناول الموضوعات الكونية ، ويأتي أحياناً أخرى بالآيات اللاحقة لآيات النص المراد شرحه ، عساها أن تتم ما يريد أو تجلي الروية شيئاً ما . ومن حسناته أيضاً إكثار الاستشهاد بآيات قرآنية عديدة في شرح النص الواحد . وهذه أمور نبه اليها علماء الدين ومفكريه عند التصدي للحديث عن الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ، أو إن صح تعبيرنا : التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن(*) .

شغل الفصل الثالث : مساحة أقل قليلاً من تلك التي شغلتها المقالة السابقة . وفي فصله هذا يتناول مؤلفنا موضوع (السحاب والمطر) ، مقدماً له ـ كما فعل سابقاً ـ بنبذة علمية ، تتلوها معالجة تسعة من النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع .

بدأ المؤلف فصله بحديث عن بخار الماء في الهواء ، محدداً طبيعته ، حيث أنه يوجد مختلطاً بالهواء بكميات صغيرة أو كبيرة حسب الظروف . هذا البخار شفاف لا يرى . فاذا رأينا ضباباً في صباح يوم رطب ، فهذا الذي نراه ليس ببخار ماء ، ولكنه بخار تكثف إلى قطرات دقيقة من الماء . وعندما يتكثف البخار الى ماء تتكون قطرات الماء حول دقائق صغيرة من الغبار والهباء ، تكون معلقة في الهواء ، وتعتبر هذه الدقائق نويات (أو كنوايات ـ حسب ما ذكره المؤلف) لقطرات الماء . ودقائق الغبار هذه توجد في كل مكان ، فهي توجد فوق البحار النائية ، كما توجد فوق سفوح الجبال العالية . وبعده تحدث عن المصادر الطبيعية لبخار الماء ، وتعرض لأهميته ، ووصل الى طريقة تكون السحاب ، والفرق بينه وبين الضباب ، فالأول في طبقات عالية من الجو ، بينما الأخير يتكون قريباً من سطح الأرض . وفي معرض حديثه عنها أشار الى أنواع السحب وهي : السحب الطبقية ، السحب الركامية ، السحب البيضاء ، والسحب الممطرة ، معطياً فكرة سريعة عن كل نوع . ثم انتقل الى تعريف المطر وأشار بايجاز الى طريقة سقوطه ، وذكر أربعة عوامل تسبب نزوله ، وتكلم في تقدير كميته ، وتوزيع مناطق غزارته وندرته في العالم(**) . وفي نهاية هذا الجزء من الفصل تحدث في فقرتين اثنتين عن الشحن الكهربي للسحاب ودوره في حدوث البرق والرعد . وقد تخللت الفصل صور فوتوغرافية أغلبها غير محدد التفاصيل ، ومنها ما يمكن تسميته « صور تذكارية » وليس « صورا علمية » .

ساق صاحب الكتاب في هذا الفصل نصوصاً قرآنية تتعلق بالسحب والأمطار ، هي على الترتيب : النور / ٤٣ ، الحجر / ٢٢ ، الواقعة / ٦٨ ـ ٧٠ ، البقرة / ١٩ ، ٢٠ ، البقرة / ١٦٤ ، الأعراف / ٥٧ ، الروم / ٤٨ ، الرعد / ١٢ ، ١٣ ، فاطر / ٩ .

في النص الأول « ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار »

(*) انظر على سبيل المثال : غنيم (كارم السيد) : التحقيق العلمي للآيات الكونية في القرآن . المسلم المعاصر (٣٦) ١٩٨٣ ، ص ٢٣ ـ ٦٢

(**) الموضوع مفصل تفصيلاً فلكياً وقرآنياً أكثر وضوحاً في كتب منها : حسب النبي (د/ منصور) : الكون والاعجاز العلمي للقرآن دار الفكر العربي عصر ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ٣٩٧ .

يوضح المؤلف أن المقصود هو سوق السحب برفق الى حيث يريد الله سبحانه ، ثم يؤلف بين قطع السحاب ، حيث تتقارب وتتجاذب نظراً لاختلاف شحناتها الكهربية ، ثم يتراكم فوق بعضه ، وهذه الظروف تؤدي الى حدوث البرق والرعد ونزول المطر . أما عن الجزئية الخاصة بـ« البرد » في الآية ، فقد تكلم فيها عن طريقة تكونه وسقوطه وأنواعه . في النص الثاني : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » . يصدر المؤلف معالجته العلمية بكلام لطيف هو : سبقت هذه. الآية الكريمة آية أخرى يقرر فيها المولى عز وجل أن ما من شيء ينتفع به العباد إلا وعنده خزائنه . فخزائن ملكه مليئة بما يحبه الناس من النفائس والنعم والمخلوقات التي لا حصر لها . وهو لا يحبس ما في خزائنه عن عباده ، ولكنه يعطيهم إياها إذا بحثوا عنها ، وسعوا إلى كسبها من وجوهها بحسب السنن التي وضعها ، والنظم التي قدرها . . . ثم فصل بعض ما في خزائنه من النعم فقال : « وأرسلنا الرياح لواقح . . الآية » . ورد في غضون الشرح أقوال بعض المفسرين في معنى اللواقح ، إلا أنه كرر كلاماً عن أسباب حدوث البرق ، وحاول عقد مقارنة بين التلقيح الكهربي في السحب والتلقيح النباتي . أما الجزئية الخاصة بعدم قدرة الانسان على اختزان هذا الكم الهائل من الأمطار ومياه السحب فلم يوفها المؤلف ما تستحقه من بيان(*) . في النص الثالث يقول ربنا سبحانه : أنه لو شاء لجعل المطر النازل علينا أجاجاً ، ولايضاح ذلك استعاد المؤلف كلاماً عن توزيع الغازات في جو الأرض ليصل الى غاز النيتروجين ، وأنه يمثل أربعة أخماس حجم الهواء ، وأن الأكسجين يمثل خمسه » . ومن خواص هذين الغازين أنهما يتحدان عند حدوث الشرارة الكهربية في مخطوطها ليكونا غازين هما أكسيدان من أكاسيد النيتروجين ، اللذين عند اتحادهما مع الماء يكونان حمضين ، وبذا يفسد طعم الماء . فلو أن التفريغ الكهربي الذي يسبق المطر تكرر في الهواء تكراراً كافياً لنتج عنه اتحاد النيتروجين مع الأكسجين مكونين الأكسيدين سابقي الذكر ، ولذاب الحمضان الناتجان عنهما في ماء السحب وحولاه ماء حمضياً لا يسيغه الناس . وهذا هو موضع المن الذي يمن به الله على الناس من أنه يكيف التفريغ الكهربي الذي يصاحب المطر بالقدر الذي ينزل به المطر ولا يؤج به الماء . في النص الخامس « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس . . . » وعند معالجة الجزئية الخاصة بـ« الفلك » نجده يتوسع شيئاً ليبين عدة وجوه يدل بها جريان الفلك على وجود الصانع الأعلى سبحانه وتعالى وهي : خلق الخامات الأولية ووسائل صناعة السفن ـ خلق ظاهرة الطفو ـ خلق خاصية اطمئنان الانسان لركوب البحر ـ خلق ناموس الحاجة المتبادلة بين أفراد الجنس البشري وبعضهم . ثم اتجه لبيان كيف أن إنبات الزرع بالمطر الهاطل من السماء يعتبر إحياء للأرض . وعند « تصريف الرياح » في نفس الآية ، فقد تعرض لأسباب حركة الرياح في طبقات الجو ، ثم عرج على تسخير السحاب ، وانتهى الى أن هذه الأمور الكونية الثمانية التي تناولتها الآية الكرية لتدل دلالة قاطعة على وجود الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ، وعلى كونه قادراً مريداً واحداً . في النص قبل الأخير « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقال ، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديد

(*) يستطيع القارىء أن يستزيد في هذه المسائل من كتب مثل : الفندي (د/ محمد جمال الدين) : الله والكون . الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر . ط ١ ، ١٩٧٦ ، ص ٤٧٢ .

المحال » ، يبين المؤلف أن الله سبحانه ذكر قبل هاتين الآيتين مباشرة قوله تعالى « واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » ، فلما خوف الله تعالى العباد بانزال ما لا مرد له اتبعه بذكر هاتين الآيتين ، وذكر فيهما أموراً أربعة تعتبر دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته هي : البرق ، السحاب الثقال (وهو ما لم يذكره سابقاً عند تعديد أنواع السحب ! ! أو ربما يقصد به « السحب الممطرة » التي ذكرها هناك) ، الرعد ، والصواعق .

موضوع الفصل الرابع من هذا الكتاب هو « النبات » ، وقد بدأه صاحبه بتفصيل حاجة الانسان ثم الحيوان إلى النبات . وأشار الى دور النبات في دورة النيتروجين ، ووعد بتفصيل هذه المسألة في الفصول اللاحقة ، ثم شرح دور النبات في دورة الكربون في الطبيعة . وبين كيف تتوقف بعض الصناعات على الخامات النباتية . وعند كلامه عن الفحم الحجري وتقطيره نجد صورة لمجموعة من الأشجار ، نفضل إرجاء التعليق عليها الى نهاية هذا التحليل ، هذا مع العلم بأن كلامه عن الفحم (ص ٨٢ ، ٨٣) وأصله وكيفية تكونه لم يأخذ حظه من التوضيح اللازم(*) .

بعد تلك العجالة العلمية (أو « العملية » كما يحلو للمؤلف مراراً أن يسميها) ، اتجه صوب الآيات القرآنية فأورد سبعة عشر نصاً هي : المؤمنون / ١٨ - ٢٠ ، الحج / ٦٣ ، الأنعام / ١٤١ ، يس / ٣٥ - ٣٦ ، الواقعة / ٦٣ - ٦٧ ، ق / ٧ - ١١ ، النحل / ١٠ ، ١١ ، طه / ٥٣ ، ٥٤ ، الرعد / ٤ ، السجدة / ٢٧ ، الشعراء / ٧ - ٩ ، الزمر / ٢١ ، الواقعة / ٧١ - ٧٤ ، يس / ٨٠ ، البقرة / ٦١ ، عبس / ٢٤ -٣٢ . ونرى أنه من الملفت لنظر القاريء في معالجة هذه النصوص معالجة تفسيرية أن المؤلف تعرض للأمور التالية : كيف أن نزول الماء من السماء هو السبب في إنبات النبات ، كيفية تراكب الحب في سنبلة ، الفروق بين الزروع والثمار وحكمة تقديم الأولى على الأخرى ، وكيف تكون الثمار متشابهة وفي الوقت ذاته غير متشابهة ، وهذه كلها أمور وردت في شرح النص الثالث . أما قول الحق تبارك وتعالى « انظروا الى ثمره إذا أثمر وينع » فلم يتعرض له المؤلف بمثل ما تعرض له في كلامه عن النص الرابع ، الا أن النصين من سورة واحدة أحدهما رقم (٩٩) والآخر رقم (١٤١) ، وعند عرض النصين معاً نجد أن الله أمر في الآية الأولى بالنظر في بديع صنع الثمار والاستدلال على وجود الصانع الحكيم ، وفي الآية الأخرى أمر الله تعالى بأكل الثمار « كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » والانتفاع بها . وفي هذا تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم مقدم على الأذن في الانتفاع بها لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية والحاصلة من الانتفاع بها سعادة جسمانية سريعة الانقضاء ، والأول أولى بالتقديم .

عند شرح النص الخامس (يس / ٣٥ ، ٣٦) أوضح المؤلف أن « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » المقصود بها ليأكلوا من ثمر الجنات (الحدائق والبساتين) وما عملته أيديهم مما غرسوا وزرعوا ، أو مما صنعت أيديهم من شراب وسكر ومربى وما اليها . هذا وان كان الكلام هنا لم يف بالتفصيل المناسب لهذه المسألة ، فانك تجد التقصير أكثر عند شرح « الأزواج » ، فلم يذكر عنها إلا أنها الأصناف والأنواع ! ! وفي شرحه للنص الثامن « هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن

(*) انظر في ذلك · إمام (د/ محمد السعيد) : حديث الاسلام من الأشجار . المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بمصر ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ٢٣١ .

كل الثمرات . . » نجد إشارة لطيفة جديرة بالتسجيل هنا ، تلك هي أن الله سبحانه قد بدأ في هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات ، واتبعه بذكر ما يكون غذاء للانسان . وفي آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر مأكول الانسان ، ثم بما يرعاه سائر الحيوانات ، فقال في سورة طه (الآية ٥٤) « كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى » ، والترتيب المذكور في الآية المتقدمة ينبه على مكارم الأخلاق ، وهو أن يكون اهتمام الانسان بما تحت يده من أنعام أكمل من اهتمامه بحال نفسه ، وأما الترتيب المذكور في الآية الأخرى فالمقصود منه ما هو مذكور في قول الرسول ﷺ : إبدأ بنفسك ثم بمن تعول . كذلك فهناك معالجة علمية لموضوع استمداد الانسان الطاقة من الشجر الأخضر ، وهو المنصوص عليه في قول الله « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون » (يس / ٨٠) (النص الخامس عشر في هذا الفصل) ، فتعرض المؤلف لبيان أن الطاقة التي يحصل عليها الانسان من الأشجار هي في الأصل طاقة شمسية ، وأشار إلى الفحم المستخرج من باطن الأرض ، وهو أشجار طمرت ومرت عليها عصور . أما الصورة التي أراد بها المؤلف إيضاح عملية البناء الضوئي في النبات فسوف نرجيء التعليق عليها إلى نهاية التحليل . وفي النص الأخير (البقرة / ٦١) الذي يحكي قصة بني اسرئيل مع سيدنا موسى في التيه ، أعطى المؤلف أفكاراً علمية عن نباتات الثوم والبصل والعدس وفوائدها الطبية ، ثم تعرض لمثل هذا بالنسبة للعنب عند شرحه للنص الأخير في هذا الفصل .

جاء الفصل الخامس عن « الحيوان » ، وشغل مساحة أكبر مما شغله أي من الفصول السابقة . عدَّد المؤلف في قسمه الأول من الفصل فوائد الحيوان : الانتفاع بالماشية (اللحم الأحمر - الألبان - الأسباخ) ، الانتفاع من الأغنام والماعز (اللحوم - الألبان - الصوف - الأشعار - الأنواع المختلفة) ، الانتفاع من الدواجن (اللحم الأبيض - البيض) ، الانتفاع من الأسماك (البروتين - الدهن) ، الانتفاع بالاسفنج ، الانتفاع بالمرجان والشِّعاب المرجانية ، الانتفاع بأصداف الرِّخويات وقواقع البحر - الانتفاع باللآلىء الطبيعية (وطريقة تكوين اللؤلؤة وأهمية اللآلىء وقيمتها) ، انتفاع الانسان من الحشرات خصوصا دودة الحرير ونحل العسل (أسهب المؤلف في شرح فوائد العسل ومنافعه الصحية وفوائده الطبية للانسان ، لكنه أمسك عن شرح طرائق النحل في تعرفها على طريق العودة الى خلاياها ، وهو ما كان من اللائق ايراده أثناء الحديث عن خلايا النحل وجمع العسل من رحيق الأزهار) .

ينتقل بنا المؤلف بعد ذلك الى النصوص القرآنية التي تتعلق بالموضوع فيتناول منها تسعة هي - حسب ورودها في الفصل : النور / ٤٥ ، النحل / ٥ - ٨ ، النحل / ٦٦ ، النحل / ٦٨ ، ٦٩ ، الأنعام ٣٨ ، النحل / ١٤ ، العنكبوت / ٤١ - ٤٤ ، النحل / ٧٩ ، ٨٠ ، الرحمن / ١٩ - ٢٣ .

النص الأول « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، ان الله على كل شيء قدير » يوضح المؤلف أن هذه الآية الكريمة تتعلق بخلق الحيوان ، وهي دليل من الدلائل على الوحدانية ، وقد تقدمها دليلان آخران على وحدانية الله تعالى ، أحدهما في الآية (٤٩) الخاصة بتسبيح المخلوقات وصلاتها ، والآخر في الآية (٤٣) الخاصة بالسحاب والبرد والبرق ، وهما في نفس السورة القرآنية ، وأشير الى أهمية الماء للكائنات الحية ، ثم بينت طرائق مشي الحيوانات ، وشرح المؤلف فيها طريقة الحركة في الزواحف . ولاحظ في هذا النص الكريم

قول الله فيه « يخلق الله ما يشاء » ثم لاحظ قوله تعالى في النص الثاني « ويخلق مالا تعلمون » (النحل ٥ ـ ٨) . وهو النص الذي وضح فيه منافع ضرورية للانسان من الحيوان وأخرى أقل ضرورة . وهنا أشار الى ابتكار وسائل المواصلات الحديثة في قول الله تعالى « ويخلق مالا تعلمون » ، فإنها وردت بعد الخيل والبغال والحمير ، ومن قبلها ذكرت الأنعام من ابل وبقر وغنم ، فهو سبحانه الخالق لخاماتها الأولية من معادن وخلافة ، وهو سبحانه الخالق للعقول المفكرة والمخترعة ، وهو سبحانه الذي شاء بانبلاج هذه الأسرار بعد أن كانت حبيسة الغيب . في النص الثالث شرحت كيفية تكوين اللبن من بين الفرْثِ والدم ، وفي الرابع شرح النظام العام في خلايا النحل وذكرت الأشكال الخَلْقية لأفرادها . ولكن المؤلف غفل عن بيان السبل الذلل !! فلم يوضح فيها شيئا (*) . وانتقل بعده الى شرح كيفية بناء النحل لخليته ، وزود ذلك بصور فوتوغرافية سماها أشكالا ، الا أن هناك فرقا هاما بين ما يسمى « صورة » وما يسمى « شكل » ، وهو ما لم يفطن له المؤلف الجليل أثناء عرضه للصور في الكتاب . ولم ينس المؤلف أن يتكلم عن جمع الرحيق ، وعملية ارتشافه وتحويله الى عسل ، ثم تعرض الى تركيب العسل وهو كلام تكرر من قبل في هذا الفصل .

أما النص السادس : وهو الخاص باللحم الطري ، والحلية المستخرجة من البحار ، فلقد تكلم المؤلف فيه عن المرجان ، وأعاد كلامه عن اللؤلؤ ، حيث أنه تعرض له بالتفصيل في صفحات سابقة من نفس الفصل . كما أنه لم يفصل القول في سورة العنكبوت ، وهو موجود في مراجع متفرقة ، نرى أنه كان يجب عليه الرجوع اليها ، فالتصدي للكتابة في مثل هذه الأمور القرآنية ليس بالأمر السهل ، ولا هو قاصر على عدد محدود من المصادر . في الفقرة الأولى من شرح النص الثامن في صفحة ١٥٣ ، يقول المؤلف : (وقد سبق أن عرفنا أن جسم الطيور مُحَوَّرٌ للطيران) ، وهذا ما لم يرد في الكتاب من قبل ، بل هو قد ذكر اشارة سريعة الى هذه التحورات ، بعد العبارة المذكورة ، بينما نجده يشرح بالتفصيل كيفية طيران الطائر ، ثم يقع فيما وقع فيه مرات كثيرة من تكرار واعادة لبعض المسائل كما حدث في صفحة ١٥٦ عن أصواف وأشعار الأنعام . كما أنه ذكر أحد الآراء في البحرين والبرزخ الواردين في : « مَرجَ البحريْن يلتقيان ، بينهما بـرْزَخ لا يبغيان » في النص الأخير من هذا الفصل ، فأين الآراء الأخرى في هذه المسألة ، والتي أجلاها بعض العلماء المحْدَثين(**) .

نأتي الى أكبر فصول الكتاب حجما ، وهو السادس في الترتيب ، وموضوعه « الانسان » ، واستهله صاحبه بنبذة سريعة عن الانسان ، ثم فصلها حين تكلم عن تطور الجنس البشري ، فتناول الجوانب التالية : تنازع البقاء الحاصل على الارض ، وانقراض الحيوانات التي لم تملك قدرات تكيفية لمواجهة صروف الحياة العسيرة عبر الأزمان ، آدم وحواء : السلالات البشرية المختلفة الأشكال والألوان ، العوامل التي أدت الى وصول الانسان الى المستوى الحاضر ، آدم وحواء خلق خاص من خلق الله ، بيان بعض قدرات ومواهب الانسان ، ما هو العقل ؟ ما هي المدنية ؟ ، هل القوة العاقلة المدركة في الانسان يمكن تحسينها ؟ ، أوجه الشبه بين الانسان والحيوانات المحيطة به ، خصائص الجنس

(*) انظر في بيان ذلك بحثاً قيماً هو : حلمي (د/ محمد عبد الحافظ) : العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم ، مجلة عالم الفكر بالكويت ، ١٢ (٤) ١٩٨٢ ، ص ٩٩٣ .

(**) لإجلاء هذا الأمر انظر كتباً منها . الطوبي (د/ محمد رشاد) : وجعلنا من الماء كل شيء حي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ ، ١٩٨٥ ، ص ١٧٣ خضر (د/ عبد العليم عبد الرحمن) : الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٢٢

البشري (الخصائص البيولوجية والخصائص المدنية) ، تحديد موقع الانسان في عالم الأحياء من حوله وبيان قدراته التكيفية مع ظروف البيئة المتغيرة . جاء خلق الانسان بعد اجراء أحداث وتغيرات جسام في كائنات الطبيعة ، انقرض على اثرها ما انقرض وبقي ما استطاع الحياة ، ثم خلق الله الانسان ، مذهب الانتشار وأصل مدنية العالم ، الكيفية التي بدأ بها الانسان تعلمه . ومن الجوانب أيضا : خصائص الباحثين والمكتشفين ، معيار نجاح الاكتشاف ، علاقة الانسان بالبيئة والمجتمع في صياغه شخصية وتحديد الشكل الحضاري له ، الحجم التعدادي لأصحاب المواهب والعباقرة في أي مجتمع ، موقع اللغة في موكب المدنية والحضارة ، أثر اللغة في المجتمع ، أهمية الكتاب والكلمات في حياة المجتمعات والناس عموما ، الجوانب الروحية في حضارة الانسان ومدنيته ، أنواع الخلق : الخلق الطبيعي ـ الخلق الحيوي ـ خلق النفس البشرية .

يقول المؤلف في صفحة ١٦٠ ـ الفقرة الثانية ، ما نصه : ولا يحسبن أحد أن أول من عمر الارض من البشر هما آدم وحواء،بل عمرها قبلهما بالعديد من السنين نوع من البشر متوحشون يعيشون في كهوف كالحيوانات ، ويتقاتلون مع الحيوانات ، وربما يصرخون كالحيوانات ، وقد انقرض كل هؤلاء ، ومن الانصاف أن نطلق على كل فرد منهم (الانسان البدائي) ، ولعل سائلا يقول : وماذا نطلق على الانسان المعاصر لنا اليوم ، هذا يطلق عليه (الانسان العصري) أو (الانسان الحديث) .

يفهم من كلام المؤلف أنه قد سبق ظهور آدم وحواء على الأرض نوع مختلف من البشر ، وإذا كنا نطلق على البشر لفظ (بني الانسان) ، وهو شائع لدى الناس على اختلاف مشاربهم ، إذا فهناك انسانان ، انسان قبل آدم وحواء ، وانسان ظهر بمهبط هذين الأبوين . فهل هذا كلام يرضاه العقل والدين ، وهل في الاسلام ما يشير الى هذه الفكرة !! ، نعوذ بالله من هذا ، وأدعو للمؤلف بالمغفرة . كما أننا في نفس الصفحة نجد المؤلف ـ وهو ذو الخبرة الطويلة في العلم وصاحب الهمة الدينية كما بان لنا من مقدمة الكتاب ـ لا يتورع عن ايراد قصة خرافية تحكي كيف حصل الفيل على خرطومه ، ولم يضع فيها رأيه الشخصي ، ولم ينفها ، بل أثبتها وكأنه من أنصارها ، وأرى من جانبي أن ذلك الصنيع مناف لأصول الكتابة العلمية ، لا سيما الذي يتعرض منها لمسائل عقيدية . ولا يجب أن يكون مكانه كتاب علمي يتعرض لمسائل قرآنية كالذي بين أيدينا الآن ، بل موضعه هناك في القصص الأساطيري .

عرض المؤلف في هذا الفصل ستة وثلاثين نصا قرآنيا لتتحدث عن أحد عشر جانبا من الجوانب المتفرقة في الانسان ، فكانت النصوص التسعة الأولى متعلقة بخلق الانسان ، والنصوص الثلاثة التي تليها متعلقة بتعليم الانسان وتعلمه ، ثم تحدثت النصوص الثلاثة التالية عن مسؤولية الانسان عن أعماله ومحاسبته عليها ، والنصين السادس عشر والسابع عشر أوضحا أن الانسان خلق ضعيفا ، والنصان التاليان لهما بينا غفلة الانسان عن المنعم سبحانه ، وكذا ظلم الانسان لنفسه . أما النصوص الأربعة (من العشرين الى الثالث والعشرين) فتتعلق بتناسل الانسان ، وبيان أنه سنة لتعمير الكون ، والنصوص الثلاثة التي تليها تحدد علاقة الانسان بوالديه . النصوص من السابع والعشرين حتى الثلاثين تعالج مسألة النفس البشرية . ثم تقررت حقيقة الموت في النصوص القرآنية الثلاثة التالية ، وأتبعها المؤلف بنصين يؤكدان حقيقة البعث ، وانتهت النصوص كلها بنص يعطينا لقطات من أحوال الحياة الآخرة .

فيما يتعلق بخلق الانسان ، فان الله سبحانه قد أبان

عن أمور عديدة في هذا الموضوع ، نجدها في نصوص قرآنية منها ما أورده المؤلف : ص ٧١ ـ ٧٤ ، الحجر ٢٦ ـ ٣١ ، البقرة ٣٠ ـ ٣٤ ، الطارق ٥ ـ ٨ ، الشورى ٤٩ ـ ٥٠ ، الحج ٥ ، المؤمنون ١٢ ـ ١٦ ، الزمر ٦ ، التين ١ ـ ٤ . في معالجة هذه النصوص ، تعرض المؤلف لعديد من الأمور الخطيرة ، وهل أخطر من خلق الانسان ومن قبله خلق السموات والأرضين ؟ ! . بدأ صاحب الكتاب هذه الجزئية من الفصل بشرح (تكوين الانسان) ، فكانت جوانب حديثة كما يلي : المادة الحية الأولية (البروتوبلازم) ، البناء الهستولوجي للجسم الانساني ، الخلية : الوحدة البنائية لجسم الانسان ، الأعمال الفسيولوجية للخلية الحية ، أهمية الغذاء لحياة الخلية ، التركيب الكيميائي لمحتوى الخلية ، عناصر الجسم الأولية ، عناصر تركيب التربة . ومن هنا خلص المؤلف الى النتيجة الأزلية وهي : أن الانسان الأول ـ أي آدم عليه السلام (هناك في الجزء العملي من هذا الفصل وضح في كلامه أن الانسان الأول لم يكن آدم ، بل هو انسان قبل مجيء آدم وحواء الى الكوكب !!) وكذا سائر البشر . مخلوقون مما يتكون منه الطين . اذ أن العناصر التي يتكون منها الانسان هي ذات العناصر التي يتكون منها الطين . ولكن لما كان هناك بَوْن شاسع بين الانسان والطين ، أظهرها أن الطين جماد لا حياة فيه ، أما الانسان الحي فهو كائن له كل مظاهر الحياة . وجب علينا التصديق بحدوث هذا الخلق بالقدرة الالهية دون التفكير في كيفية الخلق ، إذ أنه حدث بطريقة لا نفهمها ، وهي فوق عقولنا ، وهي من الأمور الغيبية التي استأثر بعلمها الله وحده ، حيث يقول عز من قائل : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم . . » . ثم عرض المؤلف لسؤال خطير هو : هل خُلِق الانسان حقا من صلصال أو صلصال كالفخار أو حمأ مسنون أو طين ؟ أم أن هذا الوصف تقريب للذهن وحكاية لما كان متداولا في الفلسفات المختلفة عند قدماء المصريين والبابليين واليونانيين من تصوير للخلق على نسْق ما يفعل الانسان الصانع من مادة سابقة يشكلها ويصوغها في هيئة معينة ؟

في اجابته عن هذا السؤال ، يقول المؤلف في ص ١٨١ : . . . وليس من الواجب ـ بعد ما أوضحناه ـ أن نأخذ بحرفية الآيات ، وأن نفهمها على ظاهرها وأن نتصور أن الله تعالى قد خلق الانسان من طين ، أو حُرق الطين فجلعه صلصالا وشكل منه الانسان ، إنما هذه الآيات تقريب للأذهان ، ومثال لما يفهمه الناس بطريق الحس والخيال . كيف يخول المؤلف لنفسه أن ينتهي الى هذه النتيجة ، وهو الذي أخذ يشرح عناصر الانسان وعناصر التربة بغية الوصول الى أن أصل كليهما واحد ، يعني أن الانسان خلق من طين ؟ ! إن ذلك لبس نبرأ الى الله منه ، ونود لو اطلع عليه صاحبه ليستعيده أو ليحكيه عن غيره من المفكرين ثم يبرأ هو منه أيضا .

تكلم المؤلف في هذه الجزئية ذاتها عن مراحل الخلق « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي » أي أن التسوية أولا ، ثم النفخ في آدم . ثم الأمر بسجود الملائكة ، وهذا السجود ليس عبادة وانما احترام وتوقير . ثم عند تعرضه للآيات ٥ ـ ٨ من سورة الطارق « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر » ، أخذ يوضح المؤلف الصلب والترائب ، ويشرح عملية الاخصاب في الانسان ، ورسمها في شكل ايضاحي ، ثم في النص التالي له ، أخذ يشرح خلق الأجنة ذكورا واناثا . ولم يحذف تكرارات كثيرة وجدناها في صفحات هذه الجزئية التي انتظمت تسعة نصوص قرآنية . وفي النص السابع يشرح كيف أن الرحم في الأنثى قرار مكين ، ثم بعده يبين المقصود بالظلمات الثلاث ، وشرح من أجل ذلك عملية تكوين الأغشية الثلاثة في رحم الأنثى حول

الجنين . أما النص الأخير ، والذي ذكر التين والزيتون وطور سنين . . فإنه شرح خواص هذه النباتات ، على الرغم من أن الموضع هنا ليس موضعها !! .

في الجزئية الخاصة بمسؤولية الانسان أعماله ومجازاته عليها إن خيرا فخير وان شرا فشر ، يتعرض المؤلف لنصوص قرآنية منها « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » ، ويوضح أن حياة الانسان على الأرض لا تحتل الا جزءا يسيرا جدا إذا قيس بعمر الأرض ، وحتى يبين ذلك تكلم في المسائل الجيولوجية عن الكوكب الأرضي . وعندما وصل الى بيان غفلة الانسان عن المُنعم الأعلى ، وأن من صفاته الظلم وأول من يقع عليه الظلم هو نفسه التي بين جنبيه ، يشرح في معنى « وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها » مثالين : المثال الأول : تركيب الانسان نفسه ، فهو مكون من أجهزة ولكل جهاز وظيفته ، ثم المثال الثاني : اللقمة التي يتناولها الانسان في فمه ، منذ الخطوات الأولى لنشأتها على الأرض ثم تناولها ثم هضمها والانتفع بها في جسده .

وفي صفحة ٢٥٢ تحدث عن نوع من أنواع النفس البشرية (النفس المطمئنة ، وصفاتها الأربع ، ثم في الصفحة التي تليها تحدث عن النفس الانسانية كما عرفها علماء النفس . وعند التعرض لمسألة الموت أتى ببعض النصوص القرآنية التي تتحدث عن هذه الحقيقة ، ثم أوضح ان الموت نوعان : الموت المعادي والموت العلمي والحقيقي ، وهو لا يكون بتوقف الأجهزة والأعضاء عن أعمالها فقط ولكن يكون بموتها .

وعموما ، فالفصل تغلب عليه كثرة النقول من كتب التفسير دون وزن الأقوال أو انتخاب أفكار منها ومناقشتها ، وهذا مما يؤخذ على صاحب الكتاب .

اختتم الكتاب بفصل عن « السماء » . وقبل الدخول في الفصول نود الاشارة الى أمرين : أحدهما يعتبر بديهة عامة يستطيع القارىء الواعي أن يصل اليها ، تلك هي موقع الفصل بين دفتي الكتاب ، فإن موضعه الملائم هناك عند الحديث عن السحب والأمطار والظواهر الجوية والنجوم والأرض وما شابه ذلك ، وأن يكون ختام الكتاب هو فصل « الانسان » . **الأمر الثاني** هو أن الفصل الحالي يعد خلاصة لكتاب سابق للمؤلف عنوانه (الكواكب والنجوم والمجرات) ، قامت نفس دار النشر بطبعه سنة ١٩٨٣ ، أي قبل نشر الكتاب الذي يراجع الآن بنحو عامين .

يستهل المؤلف الفصل بنبذة عن السماء فيقول : نفتتح هذه النبذة بالقاء بعض الضوء على جوانب الموضوع بعرض معاني السماء التي جاءتنا في نصوص الكتاب الكريم ، لعل في عرضها ما يزيدنا بصيرة بالقرآن ، ويجيب على ما يتردد في أذهان كثير من الناس : ما هي السماء ؟ . وعند الاجابة على هذا السؤال شرح المؤلف أربعة معان للسماء : ١ ـ جاءت السماء بمعنى ما يعلو الانسان « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها » (البقرة ١٤٤) . وهنا أبان كيفية ضيق الصدر حين الصعود في طبقات الجو . ٢ ـ جاءت بمعنى السحاب « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » (البقرة ٢٢) . وهنا أعطى فكرة عن تكوين السحب والأمطار . ٣ ـ وجاءت بمعنى القبة الزرقاء التي تعلو الأرض وتلامسها عند الأفق . وهنا شرح أن هذه القبة ليست حقيقية ، وبين سبب زرقة السماء ، فقال : والجو هو السبب في زرقة السماء ، فعندما يدخل ضوء الشمس جو الارض تقابله جزئيات الغازات المكونة للجو ، وكذا دقائق الغبار والهباء المنتشرة فيه ، وهذه تحدث « تشتتا » في الضوء لا يكون واحدا للأطوال الموجية المختلفة . فالجزئيات والدقائق تشتت الضوء الأزرق ، (أي الأطوال الموجبة القصيرة) بدرجة أكبر مما تتشتت بها الأضواء الأخرى الأطول

موجية كالأحمر وغيره . وبما أن الضوء الأزرق يشتت بدرجة أكبر فسماؤنا ترى زرقاء ، اذ أن ما يصلنا منها يتكون من هذا الضوء المشتت . ٤ ـ كما أنها جاءت بمعنى السقف المحفوظ والسقف المرفوع « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » (الأنبياء ٣٢) ، « والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع » (الطور ١ ـ ٥ .

بعده أخذ مؤلفنا في تفصيل القول عن الأجرام السماوية ، وقسمها الى ثلاث فئات : الأولى : الكواكب ، الثانية : النجوم ، الثالثة : المجرات . في **الفئة الأولى (الكواكب)** ذكر أن الأقدمين كانوا يسمونها (الطوافات) أو (الجوالات) ، وأن عددها تسعة تدور حول الشمس ، وأسماؤها مرتبة حسب ترتيب بعدها عن الشمس كالآتي : عطارد ـ الزهرة ـ الأرض ـ المريخ ـ المشتري ـ زحل ـ أورانوس ـ نبتون ـ بلوتو . هذه الكواكب السيارة هي أقرب الجيران لنا في هذا الفضاء الكوني . ثم تكلم عن دوران الكواكب السيارة في أفلاك حول الشمس ، وأحجام هذه الكواكب بالمقارنة بأبعادها الشاسعة عن بعضها ، ووحدة قياس المسافات الموجودة بين كواكب المجموعة الشمسية فقط . ثم قسم هذه الكواكب حسب قربها من أمها الشمس الى « كواكب داخلية » و « كواكب خارجية » ، وبين النظام العام لدوران الكواكب حول الشمس . **الفئة الثانية** من الأجرام السماوية هي **(النجوم)** : يعتبر بعد نجم عن الشمس أحد مميزاته الأكثر صعوبة في تعيينها ، ليس هذا فحسب ، ولكنه أيضا من أكثرها أهمية فكل التغيرات التي تتناول النجم أثناء حياته يمكن تغيينها من معرفة كمية ونوع الطاقة التي يشعها ، ولكن كمية الطاقة التي يشعها نجم في الفضاء لا يمكن معرفتها الا اذا عرف بعده . ثم تكلم في الأبعاد الشاسعة بين النجوم وبعضها ، وأن الوحدة لقياسها هي السنة الضوئية ، وأعطى تعريفا لهذه الوحدة وأمثلة لبيانها . وذكر أن « هالي » (والذي يحمل اسمه أحد المذنبات الشهيرة) هو أول من بين في سنة ١٧١٨ م أن النجوم ليست ثابتة في مواضعها ، فقد لاحظ أن (الشعري اليمانية) وبعض نجوم لامعة أخرى قد تحركت بقدر القطر الظاهري للقمر ـ وهو بدر ـ عن المواضع التي عينت لها في كتالوج بطليموس القديم . وترسل المؤلف في شرح الحركات ، ثم انتقل الى تقدير أقطار النجوم لتحديد أحجامها ، وساق أرقاما يترنح الانسان عند رؤيتها وتصورها . وذكر خاصتين هامتين أخريين هي الحرارة والاضاءة فقال : درجة حرارة النجم تعين كمية الطاقة المنبعثة من وحدة المساحات من سطح النجم ، فإذا وجد نجمان متساويا الحجم فأكثرها سخونة يشع كمية طاقة أكثر ، وإذا وجد نجمان متساويان في درجة الحرارة فأكبرهما يشع طاقة أكثر . ولذا « فاضاءة » النجم (سطوعه الذاتي) تتوقف على عاملين : درجة حرارته وحجمه . وفي تفصيل الجزئية تعرض المؤلف لمقاييس الاضاءة ، ومنحنى H — R . يعادله بالعربية منحنى الحرارة ـ الاضاءة لبيان الارتباط بين درجة الحرارة النجم وإضاءته .

الفئة الثالثة من الأجرام السماوية **(المجرات)** ، وهي تظهر في كل جزء من السماء فيما عدا امتداد (الطريق اللبني) ، حيث يخفى الغبار والغاز في مجرتنا المجرات الأخرى خلفه . وترى في الكون مئات الملايين من المجرات ومنها ما نستطيع رؤيته بأضخم تلسكوباتنا ، ومنها مالا تجدي التلسكوبات الضخمة في الكشف عنه . . . وقد قام ايدوين هويل من مرصد جبل ويلسون بدراسات مستفيضة للمجرات ، وتعرف على ثلاثة تراكيب أساسية للمجرات القريبة هي : البيضاوية والحلزونية وغير المنتظمة . وبعد أن جال وصال في هذا الميدان انتهى الى مما قد تقدم نستطيع أن .

نقسم المادة في الفضاء النجـومي الى ثلاث مجمـوعات رئيسية : السدائم المضيئة ، السدائم المظلمة ، الغـاز والغبـار في الفضـاء النجـومي (وهـو المـوجـود بـين السـدائم) . وكانت آخـر جزئيـة في هـذا القسم من الفصل هي شرح فكرة أكدهـا اينشتين بـأن « الفضاء محـدود ولكن لا حدود لـه » (المجموعـة المحليـة هي مجموعة من حوالي سبع عشـرة مجرة ، مجـرتنا إحـداها وتكون المجموعة جمعا صغيرا نسبيا) .

انتقل المؤلف الى الآيات القرآنية عن السـماء والتي تبين بديع صنع الله سبحانه في خلقهـا وعظيم قـدرته وأحكامه في تدبير أمرها ، وأورد ثلاثة عشر نصا هي على التوالي : فصلت ١١ ـ ١٢ ، النازعات ٢٧ ـ ٣٤ ، ق ٦ ـ ١١ ، الرعد ٣ ، الواقعة ٧٥ ـ ٧٦ ، نوح ١٣ ـ ١٦ ، الذاريات ٤٧ ، يس ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ، الفرقان ٦١ ـ ٦٢ ، الجن ٨ ، الأنبياء ٣٠ ، الملك ٣ ـ ٥ . في شرح قول الله تعالى في الآيتين ١١ ـ ١٢ من سورة الـدخان « ثم استوى الى السماء وهي دخان » ، يوضح المؤلف السدائم المضيئة والأخرى المظلمـة ، وهو مـا سبق أن أوضحه في القسم الأول من هذا الفصل ، الا أنه عند تصويره لميلاد نجم من النجوم كان رائعا ، فلنلتقط منه لقطات : الغاز والغبار في الفضاء النجـومي هو المـادة الأولية التي تتكون منها النجوم ، وهو الذي سماه المولى عز وجل « دخان » ، ومما لا شك فيه أن درجة حرارة الدخان وقت أن تكونت منه النجوم كانت أعلى بكثير من درجة حرارته الآن . . ولكن المولى ـ جل شأنه ـ وضـع من السنن الكـونيـة مـا يتم معهـا تخليق النجـوم من الدخان ، كأن تَنْزِع كتلة من الغاز نفسها من سائر الغاز الذي يكون السديم ـ مثلا بأن تقوم بحركة دوّامية ـ ثم تبدأ في عملية تقلّص ، ومثل هذه الكتلة المتقلصة من الغاز يطلق عليها نجما بدءا ، لأنه ليس ساخنا بدرجة كافية حتى يشع ضوءا مرئيا ، ولكن بـاستمرار تقلص الغاز تتحول طاقة الوضع الناشئة عن التجاذب الى طاقة حرارية وترتفع درجة الحرارة ، وعندما تبلغ هذه الدرجة في مـركز النجم خمسمئـة ألف درجة مـطلقـة يتحـول (النجم البدء) الى (نجم يافع) ، يمكن تعيين موضعه عـلى المنحنى H — R (الحـرارة ـ الاضــاءة) وفق اضاءته ودرجة حرارته .

وفي قول الله تعالى « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعـد ذلك دحـاهـا . . » (النـازعـات ٢٧ ـ ٣٤) ، يوضح المؤلف أن الله سبحانه بعد أن قرر أنه بنى السـماء ، شـرح لنـا كيفيـة البنـاء فقـال (رفـع سمكها) ، وفي شرح ذلك كرر المؤلف أقوالا وتفصيلا أورده في الصفحات السابقة عن القبة الزرقاء حولنا ، وسماء الكواكب ، ثم سماء النجوم ثم سماء المجرات . إذا كانت الصفة الأولى رفع السماء ، فإن الصفة الثانية هي « فسواها » أي جعلها خاليـة العيوب ، والصفـة الثالثة هي « وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » . . وإنما أضاف الليل والنهار الى السماء لأنهما إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، ثم غروبها وطلوعها ، إنما يحصلان نتيجة لدوران الأرض حول محورها . وأخـذ المؤلف بعد ذلك يشرح صفات وكيفية خلق الأرض في الآيات الكريمة ، وهذا ليس محله المناسب وإنما موقعه هناك في الفصل الخاص بـ (الأرض) .

في سورة ق (الآيات ٦ ـ ١١) يقـول الحق تبارك وتعالى « أفلم ينظروا الى السماء كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيهـا رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . . » ، ومن روائع ما جاء به المؤلف قوله : ومن الملاحظ أن الله تبارك وتعالى ذكر في الأرض ثلاثة أمور كما ذكر في السماء ثلاثـة أمور في الأرض : المـد والقاء الرواسي والانبات فيها . وفي السماء : البناء والتزيين

وسد الفروج . وكل واحد في مقابلة واحد ، فالمد في مقابلة البناء ، لأن المد وضع والبناء رفع ، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة في أفلاكها ومزينة للسماء ، والانبات في الأرض شقّها وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها .

أما في (العَمَد) التي تحفظ السماء كما هي في مواقعها وبنائها ، وذلك حسبما يقول الله تعالى في سورة الرعد « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » ، في ذلك يوضح المؤلف أن المقصود بهذه العمد هو قوى الجاذبية التي تتجاذب بها النجوم والكواكب ، وهناك قوة مضادة ناشئة من سرعة الدوران هي قوة الطرد المركزية ، وبتعادل هاتين القوتين يستطيع كل جرم سماوي الاحتفاظ بموقعه وعدم الانفلات في الفضاء الكوني اللانهائي . وعند وصوله الى النص السابع في هذا الفصل ، نجده يوضح كيف أن الله سبحانه بنى السماء « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » ، فلقد دلت البحوث الفلكية على أن المجرات تتهادى معا في جموع ، كل منها يطلق عليه « جمع مجرى » . وكل جمع من المجرات هو مجموعة مقيدة داخل نفسها ومتماسكة بتأثير قوى الجذب المتبادلة بين جميع أفرادها . . وقد اقترح أحد الفلكيين أنه بسبب المسافات الكبيرة التي تفصل بين جموع المجرات يتوقف التجاذب ، ويحل بدلا منه تنافر ، اذ أن جموع المجرات يبدو أن كلا منها يتجنب الآخر . وقد دلت التجربة على أن الجموع المجربة تبتعد عنا ، وأن سرعة ابتعاد كل جمع تزداد كلما ازداد بعده عنا . والنتيجة الطبيعية لتفسير هذه الحقيقة أن الكون آخذ في الاتساع . وعلى هذا النحو أخذ المؤلف يشرح : « والشمس تجري لمستقر لها » ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار » ، « تبارك الذي جعل في السماء بروجا » ما هي البروج ؟ وما أحوالها ؟ وما أنواعها ؟ وما أسماؤها ؟ وما علاقتها بالشمس وحركاتها ؟ ثم كان اجلاؤه لمعنى قول الله عن الجن « وأنَّا لَمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا » ، فأخذ يشرح الشهب والنيازك ، ويعطي أمثلة على ما ذهب اليه . أما بيانه المقتضب في معنى قول الله : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، جاء خلاصته ما أوضحه في أول الكتاب ، وهو ما فصله علماء الفسيولوجي في الكائنات الحية .

في نهاية هذا التحليل لهذا الكتاب الجليل يجب علينا أن نبين أمورا هامة هي :

١ ـ الكتاب تنقصه خاتمة .

٢ ـ نسيان شرح اشارات مذكورة في بعض الصفحات ، فمثلا في صفحة ٢٩٣ عند الكلام عن النجوم العمالقة الزرقاء والنجوم العمالقة الحمراء ، وضع المؤلف إشارات رقمية ، ومن المفهوم أنها سوف تشرح ، أو يعطى لها معنى في ذيل الصفحة ، وهذا ما لم يحدث !! ونجد أيضا في صفحة ٣١٢ « شكل » ، فلا رقم الشكل ذكر ، ولا الشكل نفسه عرض في الصفحة نفسها أو حتى ما حولها .

٣ ـ نظرا لعدم مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة وكذلك نظرا لكثرة النقول من كتب التفسير ، فانني أجد تكرارات كثيرة جدا في غير أهمية ، فبينما أجد كلاما في موضع أجده في موفع آخر ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : ص ١٦ ، ص ٣٥ ، الفقرة الثانية ، ص ٣٨ ـ الفقرة الأخيرة ، ص ٣٩ ـ الفقرة الثانية ، ص ٤٠ ـ الفقرة الأولى ، ص ٤١ ـ الفقرة الأولى ، ص ٤٤ ـ الفقرة الرابعة ، ص ٧٠ ـ الفقرة الثانية ، ص ٧٤ ـ الفقرة الأولى ، ص ٧٦ ، ص ١٤٥ ـ الفقرة الأولى ، ص ١٤٩ ـ الفقرة الثانية ، ص ١٥٦ ـ الفقرة الأولى ، ص ١٨٧ الفقرة الثالثة ، ص ١٩٠ ـ الفقرة الثالثة ، ص ١٩٨ ـ الفقرة الثانية ، ص ٢١٠ الفقرة الثانية ، ص ٢٧١ الفقرة الثالثة ، ص ٢٩٢ ـ الفقرة

الأولى ، ص ٢٩٣ ـ الفقرة الثانية ، ص ٢٩٥ ـ الفقرة الثانية ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ص ٣١٤ ـ الفقرة الرابعة ، ص ٣١٥ . ففي هذه المواضع يقول المؤلف كلاما في مكان تجده قد قاله في مكان آخر وهكذا . .

٤ ـ مراجع الكتاب : ذكر المؤلف سبعة مراجع في نهاية الكتاب (ص ٣١٩) ، بطريقة بدائية لا تتناسب وجلال ثقافته وطول خبرته ، ولنضرب على ذلك مثالاً بذكر مرجع منها : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، تأليف الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري ، وفي مرجع آخر يذكر : المصحف المفسر تأليف محمد فريد وجدي . فالأول أستاذ وحكيم وشيخ ، والآخر لم يجد له لقبا يضفيه عليه !! . كذلك فالطريقة العلمية لذكر المراجع لم تتوفر ، وقد اتفق أهل العلم والثقافة على نظم في ذكر المراجع أشهرها : اسم المؤلف مبدوءا باسم عائلته ، ثم بقية الاسم بين حاصرتين : عنوان الكتاب أو البحث أو المقال . دار النشر ، رقم الطبعة ، السنة ، الصفحات إجمالا إذا كان كتابا ، ورقم الصفحة المقصودة إذا كانت مجلة (دورية أو غير دورية) . وذلك على غرار ما ذكرناه في ذيول بعض صفحات هذا التحليل . .

٥ ـ لما كان المؤلف قد عزف عن الرجوع الى المراجع والمصادر العلمية الضرورية فلم يفتش فيها عند التعرض لمثل المسائل التي تعرض لها في هذا الكتاب ، لكنه اكتفى بالنقل من قلة من كتب التفسير ، فانني لم أجد بدا من الاشارة الى مراجع يستطيع القارىء أن يرجع اليها عند طلب الزيادة أو التحقق العلمي أو الوقوف على أمور معينة . سواء ذلك في المجالات الفلكية أو البيولوجية أو الجغرافية أو غيرها .

٦ ـ الصور والأشكال : هناك فرق بين « الصورة » وبين « الشكل » ، فالأولى تكون مأخوذة بآلة تصوير (كاميرا) أي أنها فوتوغرافية ، ثم الوسيلة الثانية من وسائل الايضاح هي « الأشكال » ، أي تخطيط لجسم أو عملية ما ، والمثقف العادي ـ ناهيك عن أصحاب التخصصات العلمية المختلفة ـ يعلم ذلك ، فلا نطلق على صورة فوتوغرافية لفظ (شكل) ، كما لا نطلق على شكل تخطيطي لفظ (صورة) ، فالدقة في التعبير إحدى عناصر الكتابة الجيدة ، سواء كان القالب الذي يحتويها مقالا أو كتابا . نقطة أخرى ، لكنها خطيرة بشأن الصور ، يجب التنبيه اليها ، تلك هي عدم جدية الصور ، فتجد مثلا في فصل (الحيوان) عند الحديث عن الدواجن وصناعات الدواجن صورا للمؤلف ، وهو يزور بعض المذابح الآلية أو مصانع الدواجن (أنظر صفحات ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١) . فهذه صور « ألبوم » ذكريات وليس محلها كتاب علمي ـ وان كان موجها للمثقفين لا المتخصصين ـ لا سيما وهو يتعرض لمسائل في غاية الأهمية ، فليس بعد القرآن الكريم أهمية تعدله .

ولما كان الكتاب اسلاميا فلا داعي إذا لظهور نساء غير محتشمات على صفحاته (أنظر صفحة ٥٢) ، فلا الصورة تعطينا تفصيلا فلكيا ، ولا هي تجنبت ظهور امرأة ترتدي سروالا قصيرا (شورتا) . وعدم وضوح تفصيلات الصور أمر شائع في كفة ماجاء منها ، أنظر على سبيل المثال : صفحات ٥٥ ، ٨٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، وغيرها . في صفحة ٨٣ صورة لبعض الأشجار كتب تحتها (الغابات التي طمرت وكونت الفحم) ، فكيف أنها طمرت ونحن نراها عيانا على صفحات هذا الكتاب ؟ ! في صفحة ١٠٥ صورة ملتقطة من كتاب أجنبي عن التركيب النسيجي لورقة نبات (قطاع طولي منها ـ لم يذكر المؤلف ذلك) ، وحولها كلام باللغة الانجليزية ، فلم يترجم المؤلف هذا الكلام ، ولم يعطنا فكرة في تعليق قصير أسفل الصورة . في صفحة ١٢٤

صورة لرجل زنجي ينفخ في قوقعة أظنه ينادي بذلك على أناس آخرين ، أو ربما يستنفر بعض الحيوانات . في صفحتي ١٤٠ ، ١٤١ صور لأقراص الشمع في خلايا النحل ، وكلها متقاربة ، ولا تعليق مفصل يصاحب كل صورة من الصور الأربعة ولاحقتها في الصفحة التالية وكان يكفي صورة واحدة من هذه الخمسة ، مذيلة بتعليق مركزف ومعمق . في صفحات ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ يأتينا المؤلف بصور لحيوانات عملاقة يقول أنها من العصور البائدة ، فمن أين أتى بها ؟ في صفحة ١٩٣ شكلا تخطيطيا لخطوات الاخصاب في أنثى الانسان ، ونسي المؤلف أن يكتب تعليقا على الجزئين السفليين من الشكل ، كما فعل مع الأجزاء الأربعة العلوية في نفس الشكل !!

معنى هذا أن صفحات عديدة قد أهدرت في صور لا أهمية لها ولا طائل من ورائها ، وإذا كانت المجلات والمطابع تعطي أهمية قصوى لكل مساحة ورقية ، فالورق باهظ الأسعار ، والطباعة مرتفعة التكاليف ، فكيف بهذه الدار وهي كبرى دور النشر في مصر ـ تسمح بنشر مثل هذه الصور ، مع علمنا بأن القليل منها يجدي .

٧ ـ منهج التوفيق العلمي : كونك تنقل فقرات من كتب علمية وتنسقها في نسق منتظم ، فهذا ليس بتأليف ولا ابداع ، وكونك تقتبس أو تقتطف سطورا طوالا من كتب التفسير ، فهذا أيضا ليس بتأليف ولا ابداع ، وإنما التأليف والابداع هو التغلغل في أعماق المسائل التي تتعرض لها ، موضحا رأيك فيها ، أو آراء المتخصصين على أعلى مستوياتهم ، وهذا يستدعي الرجوع مراجع حديثة متعددة ، واذا كان لمعالجة المسائل الكونية في القرآن مناهج أو برامج محددة القسمات فقد فصلناها في بحث سابق(*) ، هذا مع اقتناعنا بأن يكون المنهج كما يلي :

أ ـ عرض مفاهيم من القرآن تشير الى الظاهرة الكونية أو البيولوجية .

ب ـ تتبع آراء المفسرين مع وضوح مواضع الاقتباس .

جـ ـ صياغة المفاهيم القرآنية المفسرة في شكل قواعد وقوانين جزئية .

د ـ التطبيق العلمي (أو العملي) لما ورد في القوانين المصاغة من المفاهيم القرآنية المفسرة .

هـ ـ استنباط التوافقية بين المنهج العلمي الحديث ، ومنهج القرآن وأسلوبه في معالجة الظواهر الكونية ، مع إيضاح سبق القرآن وشمولية اشارته وصدقها المطلق ، وصلاحية الانتفاع بها للانسان البدائي ولانسان عصر الفضاء ومن بعده على السواء .

فهل سلك المؤلف في معالجة الظواهر الكونية ـ التي ساقها من القرآن في هذا الكتاب ـ هذا المنهج ؟ ! الاجابة بالنفي طبعا .

٨ ـ شيوع كثير من الأخطاء المطبعية والأغلاط العلمية ، وها هي بعض هذه وتلك :

٩ ـ بناء على ما تقدم ، فإننا نوصي في نهاية هذا التحليل أن يراجع الكتاب مراجعة علمية وطباعية دقيقة من المؤلف ذاته ، أو من غيره من المختصين ذوي الكفايات العلمية الرفيعة ، ولا نظن أن دار النشر المسؤولة عن الكتاب تفتقد هؤلاء ، فهي كبرى الدور في مصر ، حتى يكون الكتاب على المستوى اللائق بجلال موضوعه ، وذلك عند اعادة طباعته .

ولا يفوتنا أن نذكر للمؤلف مجهوده المشكور الذي بذله في مجال الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ، وندعو الله له بالجزاء الحسن ، وأنْ يغفر له ما لم يتنبه اليه . وعلى الله قصد السبيل .

(*) غنيم (كارم السيد) : التحقيق العلمي للآيات الكونية في القرآن ، المسلم المعاصر (٣٦) ١٩٨٣ ، ص ٢٣ ـ ٦٢ .

الكلمة	موقعها	التصحيح المقترح
فطرت	الآية ٣٠ من سورة الروم ، ص ٩	فطرة
مؤكسد	السطر الرابع من الفقرة الرابعة ، ص ١٨	مؤكسج ، أي أنه سيرتبط ارتباطا مؤقتا بالأكسجين وليس متفاعل تفاعلا يؤدي الى تغييره
يتأكسد	السطر ١٢ من الفقرة الرابعة ، ص ١٨	يتأكسج
السدات	السطر الثالث من الفقرة الثالثة ، ص ٣٩	أسدية جمع سداة
ثلاث أنواع	السطر الثاني من الفقرة الثالثة ، ص ٣١	ثلاثة أنواع
الفصائل	السطر الأخير من الفقرة الأولى ، ص ٤٩	الشعب
العائلات	السطر الأخير من الفقرة الأولى ص ٤٩	الفصائل
المتشععة	السطر الأخير ، ص ٥٤	المشعّة
خليتيه	السطر ١٤ من الفقرة الثانية ، ص ١٥٢	كليتيه
مجموعات من العدد تسمى الحويصلات	السطر ١١ ، ص ١٣٧	مجموعات من العدد تحتوي على حويصلات
يمضي	الآية ٤٥ من سورة النور ، ص ١٣٢	يمشي
الطوائف	السطر السادس ، ص ١٤٣	الأعداد . لأن الطوائف هي الترجمة الصحيحة لكلمة Classes
ترتشق	في عنوان الصورة الواقعة في ص ١٢٨	ترشف أو ترتشف
لينحمص	السطر الخامس من الفقرة الثانية ، ص ١٤٦	ليتمحض او ليتمخض
جماعات - جماعة	السطر ١٩ من الفقرة الثانية ، ص ١٤٦	مراتب ، مرتبة
الالكتروبيات	السطر ١٠ من الفقرة الأولى ، ص ١٥٩	الالكترونات
ولكن الانسان العصري هو سلفها	السطر الثاني ، ص ١٦٣	ولكن الانسان العصري هو خلفها
وشاهد القدرة	السطر السادس من الفقرة الأولى ، ص ٢٧٣	وشاءت القدرة
قانون التربة العكسي	السطر الخامس من الفقرة الثالثة ، ص ٢٧٨	قانون التربيع العكسي
حين	السطر الثاني من الفقرة الأولى ، ص ٢٧٩	في حين
وما لها من فروج	السطر قبل الأخير في سورة ق ، ص ٢٩٧	وما لها من فروج

« لقد حصلت القطيعة يوم أظهر لنا ليفى شتراوس ، بالنسبة للمجتمعات ، ولاكان بالنسبة للاوعى ، أن « المعنى » لم يكن ، على وجه الاحتمال ، سوى نتيجة سطحية أو لمعان ، أو زبد ، وأن ما يخترقنا في العمق ، ما يوحد قبلنا ، و ما يسنحنا في الزمان والمكان ، كان هو النسق .

ان الطريقة التي يفكر بها الناس ويكتبون ويحكمون ويتكلمون (وحتى النقاشات في الشارع والكتابات اليومية) بل وحتى الطريقة التي يستشعر بها الناس الأشياء والكيفية التي تثاربها حساسيتهم ، وكل سلوكهم ، تحكمها - في جميع العصور بنية نظرية ، نسق ، يتغير مع العصور والمجتمعات ، إلا أنه يظل حاضرا في كل العصور وكل المجتمعات » (١) .

ميشيل فوكو

نظام الخطاب وارادة المعرفة ميشيل فوكو

ترجمة : أحمد السطاتي وعبدالسلام بنعبد العالي

عرض وتحليل : علوط محمد

الكتاب الذي نحن بصدده يتضمن نصين للفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو . الأول تحت عنوان (نظام الخطاب) قام بترجمته احمد السطاتي ، والثاني تحت عنوان (ارادة المعرفة) ترجمة عبدالسلام بنعبد العالي ، بالاضافة الى عرض ثالث حول (نيتشة ، فرويد ، ماركس) مذيل بنقاش ساهمت فيه نخبة من المفكرين .

في النص الأول ينطلق فوكو من تصور معين : البحث عن علاقة الخطاب بالسلطة ، انه يشعر بمدى خطورة الخطاب ، لذلك يرغب (وهي رغبة جماعية) في أن يكون « في الخطاب كفجوة رهيبة أو كمجرى عرضى ، لا أن يكون ذلك الذي يصدر عنه الخطاب »

ان هذا الاحتراس مرتبط بالرغبة ، رغبة أن لا توجد بداية ، لكنه ايضا نذير خوف وتوجس يصدر عن تفرد قد يحصل في الخطاب . . لكن السلطة ترد على هذه الرغبة - الاحتراس ، اذ تعمل على سن مجموعة من

القوانين ، تجرد الخطاب من سلاحه ، وقد تسمح لـه بنـوع من الحريـة ، ولكنها تـظل تستمد أصـولها من السلطة . يطرح فوكو هذا الرد بتهكم ، وهو نوع من التهكم التصعيدي ، ليكشف لنا أن تعـارض الرغبـة والسلطة مؤشر على قلق واحد ، يتمحور حول ماهية الخـطاب في بعـده المـادي والـوجـودي ، هـذا القلق المحفـوف بمجموعـة من المعـارك والانتصـارات . الاستيهامية التي قلم الاستعمال الطويل أظافرها . تبقى الاشارة الى أن هذا الطرح الاستهلالي لا ينفذ بعيدا عن مجال السلطة وعلاقتها بالخطاب ، خاصة إذا توقعنا عند النبرة الملحمية التي تطبع هذا الاستهلال ، وفي مناطق أخرى من النص بكامله لصالح سلطته الذاتية .

يضعنا فوكو بعد هـذا ، أمام مجموعة من الـطرق الاجرائية التي بوساطتها السيطرة على الكلام ، مراقبته وانتقاءه ، تنظيمه وإعادة توزيعه ، واسقاط ما فيه من رعب وخوف بأن كل مجتمع له طرقه الخاصة (النموذج الذي يتناوله فوكو هو المجتمع الغربي) ، وذلك حين يوزع مجموع هذه الطرق إلى ثلاث مجموعات : المجموعة الاولى تمارس اجراءاتها من خارج الخـطاب ، في حين تمـارس المجمـوعتـين الأخـرتـين سلطتهـا من داخــل الخطاب . كل مجموعة تتوزع عبر مبادىء فصلها فوكو بتأن عبر هذا النص .

في المجموعة الأولى ، هناك ثلاثـة مبادىء للحـظر وممارسة الرقابة : منطقتان يحظر فيهـا الكلام (الحيـاة الجنسية والحياة السياسية) في هذا المجال تظهر آصـرة الخطاب بالرغبة والسلطة . ذلـك أن التحليل النفسي يبين لنا أن الخطاب هو موضوع الرغبة ، كما يبين لنـا التـاريخ أن الخـطاب هو السلطة ذاتهـا « ان الخـطاب موضوع الرغبة ومكان السلطة ، وليس الشكل الـذي يعلن أو يشير اليها » .

المبدأ الثاني في الحظر هو ثنائية العقـل / الجنون : فالمجنون لا يعتد بخطابه ، لأن خطاب العقل لا يوليه العنـاية والاصغـاء ، انـه نـوع من الصخب ، أعـزل ومسالم ، حتى ولو كـان يمثل دور الحقيقـة ذات القناع لخطاب العقل . فعلاقة الـطبيب بالمريض / المجنون تكشف عن هـذا البعد ، فـدور الـطبيب ليس سـوى ارهاف السمع للكلام الحر ، فكيف يكون هذا الاصغاء قبولا بخطاب المجنون ، مع علمنا أن الصمت لا يتأتى الا مع التوقف الصامت العارض بين أجزاء الكلام ، لا سيما اذا كان الاصغاء يتعلق بخطاب يقع تحت استغلال الرغبة .

المبدأ الثالث هو منظومة الصدق والكذب ، انه ايضا طريقة خارجية لممارسة الرقابة . ان مجال تشكيل ارادة الحقيقة (الكيفية التي نـوظفها للبحث عن الحقيقـة ، ومجموع النوايا التي تهدف منظومة معرفية) ينـظر إليها فوكو على أساس أنها منظومة من النبذ ، منظومة تاريخية قابلة للتعديل ، وذات طابع اكراهي قانوني ، خطاب الصدق هو الخطاب الذي نجله ونهابه . الخطاب الذي يجب أن ننصاع له بـاعتباره يمتلك السيـادة . ان طرد السفسطائيين من طـرف افـلاطـون تـأسيس لمنظومـة الصدق ، حيث انتقلت الحقيقة من طور فعل خاضع ، فِعْلٍ فعَّال وصائب ، انتقلت من طور التعبير الى طور العبارة ، والعبارة بالذات . اتجهت الحقيقة صوب معنى العبارة وصورتها وموضوعها وعلاقتها بمصادرها .

يحدد فوكو في اطار هذه المبادىء الثـلاثة (الكلمـة المحظورة ، تركة الجنون ، ارادة الحقيقة) مايلي : ان المنظومة الثالثة أعم وأشمل ، اذ تستميل اليها المنظومتين الأولى والثانية لتصبا فيها . خطاب الصدق تنصل من الرغبة والسلطة ، أصبح حديثـه عن الحقيقة مقنعـا ، لايعترف بها . لم يعد خطاب الصدق عند قدماء اليونان ذلك الخطاب الذي يستجيب لرغبة ويمارس سلطة على ارادة الحقيقة ذاتها . هكذا ظلت الحقيقة أمامنا خادعة ،

والذين حاولوا مواجهة ارادة الحقيقة هذه بالحقيقة قلة يجب النظر اليهم باعتبار (نيتشه ، آرتو ، باتاي . . مثلا) .

كما يلاحظ فوكو أيضا أن ثمة اجراءات أخرى تتمثل في سعى ارادة الحقيقة لكي تفرض على الذات العارفة (قبل إجراء أية تجربة) وضعا معينا ، ونظرة معينة ، ووظيفة معينة ، إنه الاستعمال التقني الذي يجعل لانتشار المعرفة هدفا نفعيا حقيقيا (لنتذكر المبدأ اليوناني القديم : ليكن الحساب قضية تخص المدن الديمقراطية ، حيث نتعلم منه علائق المساواة . . .)

اننا هنا بصدد سلطة اكراه ترمي الى ممارسة نوع من الضغط على باقي الخطابات (يطبق فوكو هذا الأمر على مجموعة من الممارسات الاقتصادية والسياسية ليظهر كيف تتحول الى قواعد وقوانين تعليمية في خطاب محدد) ثم يسعى بعد ذلك الى تبيان اجراءات المجموعة الثانية .

في هذه المجموعة هناك أولا مبدأ التعليقات والشروح : في هذا الصدد يقارن فوكو بين مجموعتين من أنواع الخطاب . هناك الخطابات التي تقال يوميا وتتداول وينتهي أمرها بانتهاء الفعل ذاته الذي نطق بها . وهناك الخطابات التي هي أصل لعدد من ضروب الفعل الجديدة للكلام ، حيث يعاد تناولها وتحويلها والحديث عنها . هناك أيضا خطابات قيلت ، وأخرى تقال ، وستظل جاهزة للقول أبدا بقطع النظر عن صياغتها (النصوص الدينية أو القانونية أو الأدبية والعلمية . . .) النصوص الثانية على العكس من الأولى نصوص أمهات ، تأتي لتسجل السواد على البياض ، ولتلحق بعد ذلك بالتعاليق والشروح التي قد تحتل مكان الصدارة (مثلا بورخيس : يعتبره فوكو يلعب في اطار محاولة المحو الجذري لهذا التفاوت بين الأصل والتعليق ، لكنه يسقط في الحرفية والتكرار لما وقع عليه التعليق) . يقول فوكو في هذه النقطة بأسلوب شيق « ضرب من لعب النقد الذي يحدث اللانهاية عن آثار ليس لها أي حظ من الوجود ، وحلم غنائي لخطاب يولد مرة بعد أخرى في كل نقطة من نقاطه جديدا بريئا ، ليعاود الظهور ، مرارا وتكرارا ، بكل نضارة ، انطلاقا من أشياء وعواطف وأفكار » ، مثال ذلك الأوديسية التي تتكرر في ترجمة Berand ، ونصوص متعددة ، وفي رواية أو ليس . باختصار . ان وظيفة التعليق هي أن يقول في النهاية ما كان قد قيل هناك بصمت . . وأن يقول للمرة الأولى ما سبق أن قيل (في هذه النقطة بالذات يلاحظ التدفق اللغوي والمجازي في كتابة فوكو حين يسعى إلى تأكيد هذه العودة والتكرار . راجع ص ١٧ ، ١٨) .

ثانيا هناك مبدأ آخر لتطفيف الخطاب : (مصطلح يوظفه فوكو قصد الحديث عن طبيعة الخطاب المراقب ، بعد أن تم اخضاعه للمراقبة والحظر = ممارسة السلطة على الخطاب) . هذا المبدأ هو مفهوم المؤلف . ان المؤلف ليس ذلك الذي ينطق أو يكتب نصا . بل هو مبدأ لتجميع الخطابات وتأصيل ووحدة لدلالاتها وبؤرة تماسكها . كان ضروريا أن تستند الخطابات لمؤلف بالنسبة لعصور معينة ، خاصة الخطاب العلمي (اسم المؤلف مقابل نظرية ما) لكن الأمر اختفى منذ القرن السابع عشر . لكن بالنسبة لخطابات أخرى تعزز موقف المؤلف ، وأصبح البحث عنه ضروريا (الخطاب الأدبي مثلا . .) يفرق فوكو بين مفهوم المؤلف كما أنتجه النقد ، وبين المؤلف الحقيقي الذي يقطن في الخطاب كضمير مهمته أن يكون شاهدا وحجة على الحقيقة (نموذج الخطاب العلمي) ، وبالمقابل فان هناك نصوصا تروج بحاجة الى مؤلف (الحديث اليومي) ، لكنها ليست خطيرة ، لأنها معرضة للنسيان .

ان المؤلف يقوم بوظيفة معينة يحددها له عصره ، قد

يتعدد هذا المؤلف ، لصالح ظهور مؤلف مغاير ، لكن الوظيفة لا تتغير ، والتي هي حصر مباغتة الخطاب (هذا المصطلح ينسجه فوكو في صياغة تلحم بين مبدأ التعليق ولعبة الهوية التي تتلبس التكرار وصورة الذات ، مثلما أن لعبة الهوية تتلبس صورة الفردية ، وصورة الأنا ص ٢٠) . المبدأ الثالث : يتضح في مجال الفنون (Discipeines) هذا المبدأ يتعارض مع مبدأ التعليق ومبدأ المؤلف . كل فن يشكل منظومة خاضعة لمجموعة من القواعد والتعريفات والتقنيات (يستشهد فوكو في هذا المجال بعلم النبات وعلم الطب) . يستعين المؤلف في هذا الصدد بمفهوم النمط ، اذ يجب على أية قضية لكي تنتمي إلى فن من الفنون أن تنخرط في نمط أفق نظري معين . يقول فوكو : « ان علم النبات والطب وعلى غرار سائر الفنون كلاهما صنيعة أخطاء ، وصنيعة حقائق ، وليست الأخطاء رواسب أو اجساما غريبة . بل هي وظائف ايجابية وفعالية تاريخية » ، وهكذا يعود ليربط بذكاء مبدأ الحصر هذا في مجال الفن بمنظومة الصدق . فلكي تكون القضية تنتمي الى جملة من الفنون ، عليها اضافة الى ما ذكر ، أن يقال عنها انها صادقة . . أي أن تكون في دائرة الصدق (نموذج مانديل ، وهو عالم بيولوجي : لقد كان يقول الصدق ، لكنه لم يكن في (دائرة الصدق) . وهكذا يخلص الى ان الفن مبدأ لمراقبة الخطاب ولانتاجه . . انه صورة لترهين جديد مستمر للقواعد عن طريق لعبة الهوية .

في المجموعة الثالثة التي تسمح بمراقبة الخطاب نلاحظ أن عملية المراقبة لا تتعلق بحصر مباغتة الخطاب ، أو السيطرة على ما في حوزته من سلطة ، ولكن بتحديد شروط استعماله :

أولا : مبدأ انتقاء المتكلمين / الطقوس . هذا المبدأ يقوم بتحديد شروط استعمال الخطاب ، وفرض جملة من القوانين على الذين يتناولونه . الهدف بالطبع هو تخصيص الخطاب بفئة معينة ، واقصاء فئات أخرى . تقليص عدد الذوات المتكلمة (مما يسمح بالقول بوجود خطابات مباحة للجميع لا تفرض فيها هذه السلطة) . اذا كان فوكو يطرح نموذجا لهذا الاحتكار بـ (شوكون) امبراطور اليابان وامتلاكه للرياضيات ، والملاح الانجليزي (ويليام آدمز) فالأمثلة لا تنقص في مختلف المجتمعات ان عملية انتقاء المتكلمين تفرض نوعا من الطقوس المصاحبة للخطاب لتحديد مفعوله في المتلقى وإعطاء القيمة الإكراهية للخطاب .

يستشهد فوكو في هذا الصدد (جماعات الخطاب) التي كانت تشكل نوعا من مصادرة الخطاب عن المتلقى (وهو أمر يتعلق بصيغة وتقنية إنتاج الخطاب) . إذ لم تعد لدينا مثل هذه الجماعات ، فان لدينا ما يؤكد خطورها بشكل آخر ، ويصوغها انطلاقا من مفهوم التملك للخطاب عن طريق سبع قواعد معينة (نظام النشر ، شخصية الكاتب ، الصبغة الرسمية للكتابة . . .) وهكذا نكون بصدد جماعة خطاب مكشوفة ، ثم يستدل بتلك المفارقة اللا تماثلية بين ما نطلق عليه عملية (الخلق) ، واستعمال نظام السنى وصولا الى صيغة معينة . وحتى في الخطابات الحرة غير الخاضعة للطقوس ، فانه لا يمكن استبعاد هذا الاقصاء . أبرز مثال يقدمه فوكو في هذه النقطة ـ حسب رأيي ـ هو صور بث الخطاب الطبي بين الطبيب ومريضه .

ثانيا : مبدأ انتقاء المتكلمين / المذهب : فخطاب العقيدة والدين والفلسفة مثلا يؤكد على طريقة النبذ والبث السالفة الذكر ، ذلك أنه يكفي الالتجاء الى استعمال مشترك لمجمل الخطاب الواحد ، وبفضل هذا الاستعمال تتحدد الانتماءات (حتى ولو كان المنتمون كثرة : ذلك أن خطاب العقيدة والمذهب يسعى الى الذيوع والانتشار) بفضل توفر الشرط الوحيد ، وهو

الاعتراف بنفس الحقائق ، وتوافق خطاباتهم مع الخطابات الثابتة الصلاحية . ستكون المراقبة هذا على مضمون العبارة وشكلها وليس على الذات التي تتحدث ، البدعة أو السنة نوع من الخروج عن الخطاب سواء بالمبالغة المفرطة والتعصب أو بالخروج التام ، ذلك أن الانتماءات تتراوح داخل مساحة الخطاب والحدود المسموح بها للذوات المتحدثة . هكذا يربط المذهب الأفراد بأنماط من التعبير في حين يمنعها عن غيرهم ، ويحدد الخطاب أنواع الارتباطات بين الأفراد . وبهذا تكون مهمة المذهب مزدوجة : إخضاع الذوات المتحدثة الى خطابات واخضاع الخطابات الى جماعات .

ثالثا : التملك الاجتماعي للخطاب : يرى فوكو أن كلا من التربية والفلسفة تعملان على الحفاظ على تملك الخطاب ، يقول عن التربية : « ان كل نظام تربوي ما هو الا وسيلة للحفاظ على تملك الخطاب ، أو احداث تغيير يضمن ملاءمته مع ضروب المعرفة والسلطة التي تفوز جميعها بكل خطاب » ، وهكذا يكون نظام التعليم أيضا نوعا من اضفاء صبغة الطقوس على الكلام ، وتكون الكتابة في نهاية المطاف نظاما وإخضاعاً مضارعاً لما يسبق . ورغم أن فوكو يبدو تجريديا في هذا التوزيع ، فانه لا تفوته الملاحظة الى ان أنواع المراقبة المذكورة لاتعمل منفصلة ، بل تعمل بشكل كلي . الفلسفة بدورها (وهذا ينحو كلام فوكو نحو التعقيد قليلا . .) تقيم نوعا من التواطؤ مع العالم . تؤسس به امكانية الحديث عنه ، وامكانية الحديث فيه . ينتقد فوكو الفلسفة في هذا المجال انطلاقا من مفهوم اللوغوس الذي ينهض عليه الفكر الغربي ، ليصل الى أحكام تستند الى التحاليل اللسانية في خلفيتها الابتسمولوجية ، وليقرر أن الخطاب ، سواء تعلق بمجال فلسفة الذات ، أو فلسفة التجربة الأصلية . أو فلسفة الوساطة الشمولية ، ليس سوى لعبة : لعبة كتابة في مرحلة أولى ، ولعبة قراءة في مرحلة ثانية ، ولعبة تبادل في مرحلة ثالثة ، وهذا التبادل ، وهذه القراءة لا تعتمد سوى الرموز ، وهكذا يلغي الخطاب ذاته حالما يضع نفسه ضمن نظام الدال .

ضمن هذا التصور العام الذي طرحه فوكو لحد الآن ، يقرر على أن كل حضارة تقف من الخطاب موقفين : موقف التقديس الظاهر ، الذي يخفي موقفا تاليا وهو الخوف من هذا الخطاب ذاته ، وكنتيجة ، فانها تعمل على ممارسة الحظر والرقابة عليه قصد السيطرة عليه .

وصولا الى هذه النقطة يضعنا المؤلف امام مشروعه الذي يطرح في هذا العرض والذي قرر الاشتغال به :

١ ـ اعادة النظر في ارادة الحقيقة

٢ ـ إرجاع صيغة الحادث للخطاب .

٣ ـ تجريد الدال من كل سيادة .

هذا الطرح يقتضي مجموعة من الالزامات :

١ ـ مبدأ القلب : ويفسره بالبحث عن الدور السلبي لتطفيف الخطاب وتقطيعه للوصول الى مبادىء التطفيف التي تحدد مصدر الخطابات ومبدأ وفرتها أو استمرارها ، وعند الوصول الى هذه النقطة يستلزم البحث عن مبادىء منهجية أخرى .

٢ ـ مبدأ الانفصال : الخطاب يتضمن منظومات من التطفيف تشكل سيادة . هذه المنظومات ذات طبيعة قمعية . لذلك يجب أن نرفع من شأن الخطاب ، بأن ن د إليه الكلمة والاعتبار . اذ يجب التعامل مع الخطابات باعتبارها ممارسات قائمة على الانفصال .

٣ ـ مبدأ النوعية : لكي يتحقق هذا المبدأ يستلزم ادراك أن الخطاب عنف نُوقِعُهُ بالأشياء ، وممارسة نفرضها على الأشياء ، إذ ليسَ العالم في حال تواطؤ مع معرفتنا ، وليس وجها مقروءا علينا الا أن نطالع ونفك رموزه ، هذا التصور الجديد يحقق الاضطراد لحوادث الخطاب .

٤ ـ قاعدة المحيط البراني : وذلك بأن تكون مسيرتنا في

الخطاب تنطلق من الخطاب ذاته نحو الشروط الخارجية للامكان ، لا أن ترتد الى الخطاب بحثا عن نواة أو صلب مخبوء .

هذه المفاهيم السابقة تحدد بمبدأ ضابط لها تؤطره مفاهيم أربعة أخرى :

مفهوم الحادث ـ مفهوم السلسلة ـ مفهوم الاطراد ـ مفهوم شرط الامكان . ويلاحظ ان هذه المفاهيم تتعارض في حدودها (الحادث / الخلق والابداع) و (السلسلة / الوحدة) و (الاطراد / الطرافة) و (شرط الامكان / الدلالة) . لقد ظلت هذه المفاهيم (الدلالة ، الطرافة ، الوحدة ، الابداع) تهيمن على تاريخ الفكر التقليدي لمدة طويلة .

يضيف فوكو في النهاية ملاحظتين :

١ ـ الأولى تتعلق بالتاريخ : ذلك أن مهمة المؤرخين التقليديين كانت تسعى إلى بناء وحدة من خلال فحص لمختلف العناصر والظواهر ، لكن الدراسات المعاصرة اليوم أصبحت تروم الى تأسيس وحدات نوعية تشكل سلاسل منعزلة ومنفصلة تتمتع باستقلال ذاتي .

٢ ـ المشاكل النظرية والابستمولوجية التي تنتج عن مفهومي السلسلة والحادث ، حيث الحادث ينشأ في أحضان التشتت المادي مفعولا له ، ومفعولا فيه ، وذلك حين ينحو باتجاه نزعة مادية للاجسمي . ثم مشكل التصور الذي يرى أن العلائق التي تقوم بين السلاسل منفصلة ، بحيث ينبغي اعداد نظرية في المنظومات القائمة على الانفصال خارج فلسفات الذات والزمن .

ان التنظير الذي يقدمه فوكو لا يخلو من شوائك تتمثل في الثالوث (الصدفة ، الانفصال ، الواقعة المادية) بحيث أن كل نظرية تسعى لاقامة زحزحة في الفكر يجب أن تحترس من مغبة السقوط في آلية هذه المفاهيم .

يظل سعى فوكو دؤوبا من أجل اقامة نظرية معرفية منبنية على التصورات السابقة . وهذا بالطبع ماطبقه على تركة الجنون والجنس والمراقبة والعقاب . في هذه المحاضرة نجد صدى لكتبه التي سبقت والتي ستأتي فيما بعد . لقد أكد فوكو أنه لا يقول فقط . . بل يمارس القول من خلال اعماله المتنوعة التي تناولت دراسة وظائف النبذوالحظر ومنظوميتها . مفسرا كيف تحدث ، وكيف يتم الحفاظ عليها ، وكيف تختار الحقيقة ، ثم كيف تأسس خطاب الصدق والكذب ، والاشتغال على قياس مفعول الخطابات في مجال الممارسة (مثلا دور الخطاب الطبي والنفسي في مجال ممارسة العقوبة . .) .

أيضا يرتكز هذا المشروع على دراسة اجراءات الحصر (مبدأ المؤلف ، والتعليق والفن) وهو ما قام به في تاريخ الجنون والطب العقلي في القرن السادس عشر والتاسع عشر وأيضا في مجال النقد الأدبي ، والتاريخ الأدبي ، كل هذا سعيا وراء الكشف عن عملية تطفيف الخطابات ، لكن هذا العمل لا يكتمل الا بتظافر كل من الوصف العينيالوجي ، والوصف النقدي . فوكو في نهاية المطاف ، يقدم اعترافا بالامتنان والفضل لمن استفاد منهم ، من أساتذته (ديموزيل ، كانكلسهم ، جان هيبوليت) . هذا الأخير الذي ينظر اليه على أنه هجيلي ، محاولا أن يثبت كيف تمت هذه الاستفادة في الوقت المعاصر الذي تسعى فيه الفلسفة الى انفلات من كل ما هو هيجيلي .

●●●

في النص الثاني المعنون (حفريات المعرفة) يقدم لنا فوكو تصورا غير معتاد لمجهود علماء التاريخ (المؤرخون = استعمال مطلق) ، مؤكدا على نوعية الأدوات المستعملة للبحث في تاريخ المعرفة ، وموضحا مراتب ومستويات التحليل المختلفة .

انطلاقا من الدراسة التي تستند الى حركة التراكم

والاشباع والكم ، أسس علماء التاريخ تحليلا منتظما ومتواصلا ، يقوم على التعاقب الخطى ، وسبر الأغوار ، مما دفع الى نشوء مستويات أخرى من التحليل . هذه المستويات أصبحت تشكل مراتب تصاغ في شكل (سلاسل = ص ٥٠) وظواهر تنحو نحو الانفصال (ص ٥٠) . ونلاحظ هنا انها نفس المفاهيم التي تمت الاشارة اليها سابقا فيما يتعلق بنظام الخطاب .

حول مفهوم السلسلة يوضح فوكو أن الاسئلة التقليدية للتاريخ ، تقوم على الوصل بين الأشياء واقامة علاقات تربط بين الوقائع غير المنتظمة ، وفرض تعاقب ضروري عليها . في حين أننا نجد أن الاسئلة المعاصرة تدعو الى الفصل بين الأجزاء واقامة مراتب للتحليل منعزلة .

وحول مفهوم الانفصال . انتقل البحث من رصد الوحدات المنسقة التي كانت تنتظم عبر عصور وحقب الى دراسة تقوم على تبين عواقب الانفصالات داخل هذه الوحدات ويعطى فوكو أمثلة لأنواع من هذه الانفصالات .

١ ـ الأفعال والعتبات الابستمولوجية التي وصفها باشلار (البحث في تشكيل المعرفة ونموها)

٢ ـ تحول المفهومات وانتقالها من ميدان الى آخر (مع تطبيق حول المصطلح)

٣ ـ المستوى الصغير والمستوى الكبير .

٤ ـ اعادة التوزيع التراجعي للوقائع

٥ ـ وحدات الصرح البنيوي للأنساق الفلسفي

الهدف بالطبع من هذا العمل هو الوصف التاريخي لتبين الوقائع قصد بناء تحليل ينطلق من الاتصال الى تأسيس انفصال في رؤيتنا للمعرفة (يستلم فوكو في هذا الصدد مجموعة مفاهيم مساعدة : العتبة ، الفصل ، القطيعة ، التحول) .

ان التحليل في شكله القديم كان يسعى الى اقامة (ذاكرة) تقوم على أثريات الماضي محولا اياها الى وثائق . أما اليوم فان التاريخ هو ما يحول الوثائق الى أثريات . أن تصوروا على هذا المستوى يترتب عنه نتائج أربعة :

١ ـ المفعول السطحي الناتج عن ابراز تعدد المستويات الانفصالية ، دون وعي يخلق تاريخ وزمن خاصين بهما .

٢ ـ المكانة العظمى التي أصبح مفهوم الانفصال يحتلها في الدراسات التاريخية ، حيث انتقل من كونه حاجزا في الدراسة الى مفهوم اجرائي .

٣ ـ الغاء فكرة التاريخ الشامل ، وبداية تكون التاريخ العام ، ذلك أن الأول يضم جميع الظواهر حول مركز واحد ، بينما الثاني يرسم فضاء تشتت وتبعثر .

٤ ـ مجموعة المسائل المنهجية التي أخذت تطرح في اطار التاريخ الجديد (تكون الوثائق المنسقة والمنسجمة ، وضع مبدأ الاختيار بينها ، تحديد مستوى التحليل والعناصر الهامة فيه ، تعيين منهج التحليل . .) .

ان قراءة لهذه المستويات في التحليل الذي يطرحه فوكو تتطلب رؤية يتداخل فيها مجموع من العلوم (المناهج ، التاريخ) ، الانثربولوجيا ، البنيوية . .) وان بلورة لمثل هذا التوجه تستدعي ليس عملا فرديا ، بقدر ما تستدعي عملا تاريخيا جماعيا . ذلك أننا بصدد تأسيس تحول ابستمولوجي لازال لم يكتمل بعد .

ان فوكو من خلال هذه المحاضرة يقدم عرضا مكثفا لمجموع هذه التصورات مليء بالاحالات الى مجموعة من الحقول المعرفية ، ويعمد الى التنظير والملاحظة والتقصي ودراسة الوثائق وأرشيف الماضي . . ان عملا مثل هذا لا يمكن أن نتقدم بالحكم عليه الا بعد « قراءات » بالغة الوعي والدقة والتصور .

●●●

في العرض الثالث (نيتشه ، فرويد ، ماركس) ، والذي هو عبارة عن مائدة مستديرة موضوعها : تقنية التأويل عند ماركس ونيتشه وفرويد يقدم لنا فوكو تطورا للتأويل على هذا الشكل :

لدراسة تقنية التأويل ينبغي إقامة نوع من الموسوعات التي تضم تاريخا لتقنيات التأويل منذ الاغريق الى الآن . ان صبيعة اللغة تستدعي التأويل ، لا يمكن أن نطمئن الى المعنى المقول . كما لا يمكننا أن نتوقف عند الصياغة اللفظية للكلام . اذ أن ثمة خطابات أخرى ذات طبيعة لا لغوية .

ان كل حضارة ، وكل نمط ثقافي له تقنية خاصة في التأويل ، لهذا نقف على منظومات متعددة للتأويل . في القرن السادس عشر كانت تقنية التأويل تقوم على مبدأ التشابه الذي شكل منظومة مضبوطة تتحكم فيها خمسة مفاهيم : (التلاؤم Conveneníia ، التعاطف Sympatheia التوازي Emulatio ، الأثر Signature ، والتجانس)

منطق التشابه يقتضي داخل نظرية الدليل (Signe) الالتجاء الى إجراءين : هناك الانتقال الجانبي من تشابه الى آخر (Cognitio) ، والمعرفة المعمقة التي تنتقل من تشابه سطحي الى تشابه أكثر عمقا (Divinatio) .

تغيرت تقنيات التأويل في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر انطلاقا من النقد الذي وجهه بيكون وديكارت لمبدأ التشابه ، لكن في القرن التاسع عشر نجد ماركس ونيتشه وفرويد امكانية قيام تأويل جديد ، يمكن رصده في كتب هؤلاء المفكرين وما أحدثته في الفكر الغربي من صدمات . لقد كشف فرويد على ثلاثة جروح نرجسية في الثقافة الغربية (كوبرنيك ، داروين ، فرويد ذاته) نيتشه أقام جدلا طويلا ينتقد عبره الاعماق الفكرية ، وأغوار اللاشعورية لكشف الخنوع والنفاق ولباس الأقنعة ، ثم أخيرا تعدية ماركس للسطح كشفا عن الحقائق التاريخية المستمرة .

لقد طرح التأويل مع هؤلاء مبدأ التشابه ، وأصبح تأويلا لا نهائيا على عكس القرن السادس عشر على أن كل تأويل سابق أو لاحق يظل محلقا ، قابلا للفحص ، مما ينتج عنه (وهذا ما يرغب فوكو في الوصول اليه) تشكيل وظهور انفصال في المعرفة .

إن التفكير حول الموضوع الذي ينصب عليه التأويل ، يقودنا الى الحديث عن العلامة . . اذا حدث أن توقف التأويل ، فلأنه لم يبق هناك ما يؤول من جهة ، ذلك أن عناصر الحقيقة في التأويل هي بدورها تأويلا . وهكذا فان التأويل لاي هؤلاء ينصب على تأويل سابق ، وهنا يجد التأويل ذاته مرغما على أن يؤول ذاته الى مالا نهاية .

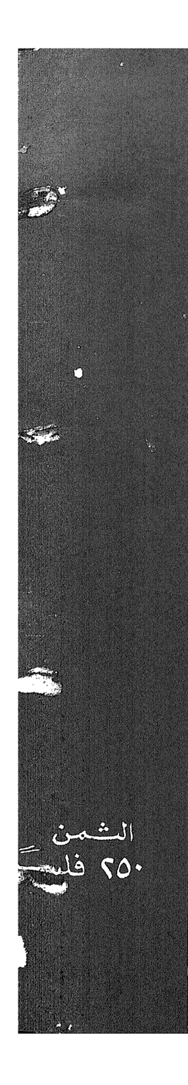
لقد سعينا هنا الى توضيح مجموعة من التصورات التي يقدمها فوكو في هذا الكتاب - رغم الكثافة المعرفية العميقة لهذا المؤلف - ونحن نأمل أن يكون هذا العرض معرض استفادة . . ذلك أن المؤلف في هذا الكتاب يضع الخطوط العريضة للمشروع المعرفي الذي ظل يشتغل عليه طوال حياته ، والذي سيفصح عن نفسه في كتاباته ومصنفاته التي خلفها بعد رحيله . ونذكر أن للنص الأول من الكتاب ترجمتان لكل من صالح هاشم في مجلة الكرمل عدد ١٠ ، ومحمد بسيلا من المغرب في كتاب مستقل بالاضافة الى الترجمة التي نحن بصددها مما يبين أهمية هذا النص وقيمته في الحقل المعرفي الفلسفي والعلمي المعاصر .

***

العَدَد التَالي مِن المجَلة
العَـدَد الثالِث - المجَلّد السّابع عشر
أكتوبر - نوفـمبر - ديسمبر
قسم خاص عن
«عُلوم الصّحَاري»

ترحب المجلة باسهام المتخصصين فى الموضوعات التالية :

(أ) علوم الصحارى
(ب) الهجرة والهجرة المعاكسة
(جـ) الدراسات المستقبلية
(د) المسرح
(هـ) الحاسب الآلى
(و) الأمن الغذائى
(ز) الثقافات فى العالم الثالث
(حـ) الجنون فى الادب
(ط) التجديد فى الشعر



البلد	الثمن	العملة
الخليج العربي	٥	ريالات
السعودية	٥	ريالات
البحرين	٤٠٠	فلس
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
العراق	٣٠٠	فلس
لبنان	٢,٥	ليرة
الأردن	٢٥٠	فلسا
سوريا	٣	ليرات
القاهرة	٢٥٠	مليما
السودان	٢٥٠	مليما
ليبيا	٣٥	قرشا
مسقط	٤٠٠	بايه
الجزائر	٥	دنانير
تونس	٥٠٠	مليم
المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

البلاد العربية ٢,٥٠٠ دينار
البلاد الاجنبية ٣,٠٠٠ "

تحول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - المكتب الفنى - ص.ب ١٩٣ الكويت

مطبعة حكومة الكويت

